بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، وَلَا عُدوانَ إلا علَىٰ الظالمينَ، وَصلىٰ اللهُ وسلمَ وباركَ وأنعمَ علىٰ عبدهِ ورسولِهِ محمدٍ، وَعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فهذِهِ مجموعةٌ منَ الخُطبِ المختارةِ، كنتُ قد ألقيتُهَا مِن فوقِ المنبرِ علىٰ فتراتٍ متفاوتةٍ، وقد رأيتُ منَ المناسبِ نشرهَا؛ التِمَاسًا للأجرِ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ورجاءَ أن ينفعَ اللهُ تعالَىٰ بهَا مَن يقرؤهَا، كَمَا أرجُو أَن يَكونَ قدِ انتفعَ بهَا مَن حضرَهَا أَوِ استمعَ إليهَا عبرَ الوسائلِ الصوتيَّةِ والمرئيَّةِ.

هذَا وإنَّني فِي هذهِ المناسبَةِ، أدعُو إخوانِي أصحابَ الفضيلةِ خُطباءَ المساجِدِ أن يحمدُوا اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَن وفَّقهُم لتبوُّءِ هذَا المكانِ العظيمِ، وَأن يَقْدُروا لِهذهِ النِّعمةِ قَدرهَا، وَأن يَعلَمُوا أنَّها مِنَ الخيرِ الَّذي ساقَهُ اللهُ تَعالَىٰ إليهِم، فيشكرُوا لهُ فضلَهُ بِالثناءِ علَيهِ بمَا يستحِقُّهُ مِنَ الحمدِ والشكرِ أَن خصَّهُم بهِذِهِ المَزِيَّةِ مِن غيرِ استحقاقٍ لهُم علَيهِ، وَإنَّمَا هُوَ مَحضُ تَفضُّلٍ منهُ سبحانَهُ.

هَذَا وَإِنَّ مِن تَمامِ شُكرِ هذِهِ النِّعمةِ الجَزيلةِ، القيامَ بهذَا المنبرِ حقَّ القيامِ؛ لِأنَّ خُطبةَ الجمعةِ مِن أعظمِ الوسائِلِ الدَّعويةِ فِي إصلاحِ المجتمعاتِ وَمَا تُعانيهِ مِنَ الخَلَلِ، وَلَا أظنُّهُ خافيًا عَلَىٰ إخوانِي الفُضلاءِ أنَّ أعظمَ مَا يميزُ خطبةَ الجمعةِ -حَتَّىٰ تكونَ مؤثرةً فِي المجتمعِ- بذلُ الجهدِ الكبيرِ فِي إعدادِهَا، وأنَّهُ بقدرِ مَا يجتهدُ الخطيبُ فِي إعدادِ خطبتِهِ -بجمعِ مادتهَا مِن بطونِ الكتبِ، وَقراءتِهَا بنَفَسِ الخطيبِ ونفسيَّتِهِ وشعورِهِ، وبقدرِ إخلاصِهِ فيهَا- بقدرِ مَا يكونُ لهَا صدًىٰ أوسعُ، وتأثيرٌ أكبرُ.

وَهذَا إنَّما هُوَ مِن بابِ بذلِ الوسائِلِ والأسبابِ، ويبقَىٰ أمرُ الهدايةِ موكُولًا إِلَىٰ اللهِ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ.

أسأَلُ اللهَ تعالَىٰ أن يُباركَ فِي هذا المَجمُوعِ، وَأن يكتبَ لَهُ القبولَ، وَأَن يهدِي بِهِ مَن قرأَهُ ووقفَ عليهِ، وَأن يجعلهُ حجةً لِي لَا حجةً عليَّ، وَألَّا يحرمنِي أجرَهُ، وَأَن يجعلَهُ منَ العملِ الَّذي أدَّخرُ أجرَهُ بينَ يدَي اللهِ تعالَىٰ.

وصلَّىٰ اللهُ وسلمَ وباركَ وأنعمَ عَلَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

كتبه

الدُّكتُورسَالِمالعَجمِيّ

عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة

جامعة الكويت

(١) الوفاءُ

الحمدُ للهِ المَعبودِ فِي أرضِهِ وسمائِهِ، المجيبِ دعاءَ مَن يدعُوهُ بأسمائِهِ، المنفردِ بالقدرةِ القاهرةِ، المتوحِّدِ بالقوَّةِ الظاهرةِ، وَهُوَ اللهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ لهُ الحمدُ فِي الأولَىٰ والآخِرةِ.

هَدىٰ العبادَ بالإيمانِ إِلَىٰ سبيلِ الرَّشادِ، ووفَّقهُم فِي الطاعاتِ لِمَا هوَ أنفعُ زادٍ فِي المَعادِ، وتفرَّدَ بعلمِ الغيوبِ، فعَلِمَ مِن كلِّ عبدٍ إضمارَهُ وتصريحَهُ، يسبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمواتِ والأرضِ، والطيرُ صافَّاتٍ كلٌّ قَد عَلِمَ صلاتَهُ وتسبيحَهُ.

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ علَىٰ الَّذِي رفعَهُ باصطفائِهِ إِلَىٰ مَحَلِّهِ المُنيفِ، وَبعثَهُ إِلَىٰ الناسِ كافَّةً بالدِّينِ القيِّمِ الحَنيفِ، وجعلَهُ أفضلَ مَن كانَ وأفضلَ مَن يكونُ، وَأرسلَهُ بالهُدَىٰ ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ علَىٰ الدِّينِ كلِّهِ وَلَو كرهَ المشركونَ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المُسلمونَ:

فإنَّ الحديثَ عَنِ الوفاءِ حديثٌ شيِّقٌ وجميلٌ، يتَّصفُ بعذوبةِ معانِيهِ، وجميلِ مَبانِيهِ، لِمَا يتَّصلُ بِهِ مِن محاسِنِ الآدابِ الَّتِي تَنُمُّ عَن رقَّةِ قلوبِ مَنِ اتَّصفُوا بِهِ.

وَمَا أحوجَنَا أَن نتَّصفَ بِهِ فِي هذِهِ الأزمانِ الَّتِي افتقدَت رونقَهَا الصَّافِي، وغَشَّاهَا القترُ الَّذِي أخفَىٰ جميلَ معالِمِهَا ولطيفَ محاسنِهَا.

وَكَم هِيَ تلكَ المآثرُ الَّتِي تُبيِّنُ شرفَ هذَا الأدبِ الرَّفيعِ، حتَّىٰ ضُربَت بأصحابِهِ الأمثالُ، وسارَ بذكرِهِم الركبانُ، عبرَ الليالِي والأزمانِ.

وَكَم أعلَىٰ الوفاءُ رُتبةَ مَنِ اعتقلَهُ بيدَيهِ، وأغلَىٰ قيمةَ مَن جعلَهُ نُصبَ عينَيهِ، واستنطَقَ الأفواهَ لفاعلِهِ بالثناءِ علَيهِ، واستنطَقَ الأيدِي المقبوضةَ عنهُ بالإحسانِ إليهِ.

وَكَفَىٰ بالوفاءِ فضلًا وَشرفًا أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد أمرَ بهِ فِي مُحكمِ التَّنزيلِ فقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[1]، وَقَالَ تَعالَىٰ مادحًا أهلَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾[2]، فَمَا بالكَ بخُلُقٍ أَمَرَ اللهُ بهِ ومدَحَ مَنِ اتَّصفَ بهِ.

إنَّ الوفاءَ مِن أشرفِ السَّجايَا وأجملِ الخِصالِ، وَمِن أَجْلِ ذلكَ فقَد تنافسَ إِلَىٰ بلوغِهِ والاتِّصافِ بهِ شُرفاءُ العربِ حتَّىٰ خُلِّدَت أسماؤُهُم وصارَت قرينةً لاسمِهِ حيثُمَا ذُكِرَ، وَلِذَا فقَد كانَتِ العربُ إِذَا مدحَت رجلًا لوفائِهِ قالَت: أَوفَىٰ مِنَ السَّموأَلِ، لِمَا اتَّصفَ بِهِ ذلكَ الرَّجل مِن عظيمِ وفائِهِ ورعايتِهِ لعهدِهِ حتَّىٰ ضُرِبَ بِهِ المثلُ.

فَمِمَّا ذكَرَتهُ قصصُ التاريخِ أنَّ امرأَ القيسِ لَمَّا أرادَ المضيَّ إِلَىٰ قيصَرَ مَلِكِ الرومِ أودعَ عندَ السَّمَوأَلِ دروعًا وسلاحًا وأمتعةً تساوِي مبلغًا عظيمًا منَ المالِ، فلمَّا ماتَ امرؤُ القيسِ أرسلَ مَلِكُ كندةَ يطلبُ الدروعَ والأسلحةَ المودعةَ عندَ السموأَلِ، فقالَ السموأَلُ: لَا أدفعُهَا إِلَّا لمَن لَهُ الحقُّ بِهَا، وَأَبَىٰ أَن يدفعَ إِلَيهِ منهَا شيئًا، فعاوَدَهُ، فأَبَىٰ وقالَ: لَا أغدرُ بذمَّتِي، وَلَا أخونُ أمانَتِي، وَلَا أتركُ الوفاءَ الواجبَ عليَّ.

فقصَدَهُ لذلِكَ ملكُ كِندةَ بعسكَرِهِ، فدخَلَ السموأَلُ فِي حصنِهِ وامتنَعَ بِهِ، فحاصرَهُ ذلكَ المَلِكُ، والمصيبةُ أنَّ ولدًا للسموأَلِ كانَ خارجَ الحصنِ، فقبضَ علَيهِ الملكُ وأخذَهُ أسيرًا ثمَّ طافَ حولَ الحِصنِ وصاحَ بالسموأَلِ، فنظرَ إِلَيهِ السموأَلُ مِن أعلَىٰ الحصنِ، فلمَّا رآهُ قالَ لهُ: إنَّنِي قَد أسرتُ ولدَكَ، وَهَاهُوَ معِي، فإِن سلَّمتَ إليَّ مالَ امرئِ القيسِ الَّذي عندَكَ رحلتُ عنكَ وسلَّمْتُ إليكَ ولدَكَ، وَإِنِ امتنعتَ مِن ذلكَ ذبحتُ ولدَكَ وأنتَ تنظرُ، فاخترَ أَيَّهُمَا شِئتَ.

---

(١) سورة الإسراء: ٣٤.

(٢) سورة الرعد: ٢٠.

فقالَ لَهُ السموأَلُ: واللهِ مَا كنتُ لِأخفرَ ذِمامِي وأبطلُ وفائِي، فاصنَع مَا شئتَ، فذبحَ ولدَهُ وهُوَ ينظرُ، ثمَّ لمَّا عجزَ الملكُ عنِ الحصنِ رَجَعَ خائبًا، واحتسبَ السموأَلُ ذبحَ ولدِهِ، وصبَرَ محافظةً علَىٰ وفائِهِ، فلمَّا جاءَ الموسمُ وحضرَ ورثةُ امرئِ القيسِ سَلَّمَ إليهِم الدروعَ والسلاحَ، ورَأَىٰ أنَّ حفظَ ذمامِهِ ورعايةَ وفائِهِ أحبُّ إلَيهِ مِن حياةِ ولدِهِ وبقائِهِ، فسارَتِ الأمثالُ تُضربُ بوفاءِ السموأَلِ، وَفِي ذلكَ يقولُ السموأَلُ:

إِذَا المرءُ لَم يَدْنَس مِنَ اللؤمِ عِرضُه ... فكُلُّ رداءٍ يَرتدِيهِ جَميلُ
وَإِن أنتَ لم تَحمِل عَلَىٰ النَّفسِ ضَيمَها ... فليسَ إِلَىٰ حُسنِ الثَّناءِ سَبيلُ
تُعيِّرُنَا أنَّا قَليلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لهَا: إنَّ الكِرامَ قليلُ
وَمَا ضَرَّنَا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

وَمِن مآثرِ العربِ فِي الوفاءِ مَا جاءَ فِي قصَّةِ النُّعمانِ بنِ المنذرِ، حيثُ كانَ قَد جَعَلَ لَهُ يومينِ، يومَ بؤسٍ مَن صادَفَهُ فِيهِ قتلَهُ وأرداهُ، ويومَ نعيمٍ مَن لَقِيهُ فيهِ أحسنَ إليهِ وأغناهُ.

وذاتَ يومٍ خرجَ النعمانُ للصيدِ علَىٰ فرسِهِ، وَقَدِ انفردَ عَن أصحابِهِ فأمطرَت علَيهِ السَّماءُ، وَحالَ ذلكَ بينَهُ وبينَ العودةِ إِلَىٰ رفاقِهِ، فطلَبَ ملجأً يلجأُ إِلَيهِ، فوجدَ بناءً فإذَا فيهِ رجلٌ مِن طيٍّ ومعَهُ امرأةٌ لَهُ، فقالَ لهمَا: هَل مِن مأوَىٰ؟ فقالَ الرجلُ: نَعَم، فخرجَ إليهِ فأنزلَهُ وَلَم يكُن للطَّائي غيرُ شاةٍ، وهوَ لَا يعرفُ النُّعمانَ، فقالَ لامرأتِهِ: أرَىٰ رجلًا ذَا هيئةٍ، وَمَا أحرَاهُ أَن يكونَ سيِّدًا شريفًا، فَمَا الحيلةُ؟

قالَت: عندِي شيءٌ مِن طحينٍ كنتُ ادَّخرتُهُ، فاذبحِ الشاةَ لأتَّخذَ مِنَ الطحينِ مَلَّةً، فأخرجَتِ المرأةُ الدقيقَ فخبزَت منهُ مَلَّةً، وقامَ الطَّائِي إِلَىٰ شاتِهِ فاحتلبهَا ثمَّ ذبحَهَا، وأطعمَهُ مِن لَحمِهَا، وسقاهُ مِن لبنهَا، وجعلَ يحدِّثُهُ بقيةَ ليلتِهِ، فلمَّا أصبحَ النُّعمانُ

لبسَ ثيابَهُ وركبَ فرسَهُ ثمَّ قالَ: يَا أَخا طيٍّ، اطلبُ ثوابَكَ، أَنَا الملكُ النعمانُ، قالَ: أفعلُ -إِن شاءَ اللهُ-.

ثمَّ لحقَ الخيلَ فمضَىٰ نحوَ الحيرةَ، ومكثَ الطَّائي بعدَ ذلكَ زمانًا حتَّىٰ أصابَتهُ نكبةٌ وجَهْدٌ وساءَت حالُهُ، فقالَت لَهُ امرأَتُهُ: لَو أتيتَ المَلكَ لَأحسنَ إليكَ.

فأقبلَ حتَّىٰ انتهَىٰ إِلَىٰ الحيرةِ فوافَقَ يومَ بؤسِ النعمانِ، فإِذَا هوَ واقفٌ فِي خيلِهِ فِي السلاحِ، فلمَّا نظرَ إليهِ النُّعمانُ عرفَهُ وساءَهُ مكانُهُ، فقالَ لَهُ: أَفلَا جئتَ فِي غيرِ هَذَا اليومِ؟ قالَ: أَبَيْتَ اللَّعنَ، وَمَا كانَ علمِي بهذَا اليومِ؟

قالَ: واللهِ لَو خرجَ ابنِي فِي هذَا اليومِ لَم أجِد بُدًّا مِن قتلِهِ، فاطلُب حاجتَكَ مِنَ الدُّنيَا، وَسَل مَا بدَا لكَ فإنَّكَ مقتولٌ، قالَ: أَبيتَ اللَّعنَ، وَمَا أصنعُ بالدُّنيا بعدَ نفسِي؟!

فقالَ النعمانُ: إنَّهُ لَا سبيلَ إليهَا، قالَ: فإِن كانَ لا بُدَّ فأمهِلنِي حتَّىٰ أَلمَّ بأهلِي فأوصِي إليهِم وأهيئُ حالَهُم، ثمَّ أنصرفُ إليكَ.

قالَ النعمانُ: فأقِم لِي كفيلًا إِلَىٰ حينِ رجوعِكَ، فالتفتَ الطَّائي إِلَىٰ شَريكِ بنِ عمرٍو مِن بنِي شيبانَ، وهوَ واقفٌ بجَنبِ النُّعمانِ فقالَ لهُ:

يَا شَرِيكَ بنَ عَدِيٍّ ... مَا مِنَ المَوتِ انهِزَامْ
مَن لِأَطفَالٍ ضِعَافٍ ... عُدِمُوا طَعمَ الطَّعَامْ
يَا أَخَا كُلِّ كَرِيمٍ ... أَنتَ مِن قَومٍ كِرَامْ
يَا أَخَا النُّعمَانِ جُدْ لِي ... بِضَمَانٍ وَالتِزَامْ
وَلَكَ اللَّهُ بِأَنِّي ... رَاجِعٌ قَبلَ الظَّلَامْ

فقالَ شريكُ بنُ عديٍّ: أصلحَ اللهُ المَلِكَ، عَلَيَّ ضمانُهُ، فأمرَ النُّعمانُ للطَّائي بخمسمائةِ ناقةٍ، فَمَضَىٰ الطَّائِي إِلَىٰ أهلِهِ، وجعلَ الأجلَ حولًا، مِن يومِهِ ذلكَ إِلَىٰ مثلِهِ

منَ العامِ المُقبِلِ.

فلمَّا حالَ الحولُ، أصبحَ النُّعمانُ، وركبَ فِي خيلِهِ ورَجِلِهِ متسلِّحًا كمَا كانَ يفعلُ، وأخرجَ معهُ شَريكًا وأمرَ بقتلِهِ، فقالَ لَهُ وزراؤُهُ: ليسَ لكَ أَن تقتلَهُ حتَّىٰ يستوفِي يومَهُ، فتركَهُ، وكانَ النُّعمانُ يشتهِي أَن يقتلَ شَريكًا لِيُفْلتَ الطَّائي مِنَ القتلِ.

فلمَّا كادَتِ الشَّمسُ أَن تغربَ وقَرُبَ المساءُ، قالَ النُّعمانُ لِشَريكٍ: قَد جَاءَ وقتُكَ فقُم تأهَّب للقتلِ، فقالَ شريكٌ: هذَا شخصٌ قَد لَاحَ مُقبلًا وأرجُو أَن يكونَ الطَّائي، فإِن لَم يكُن فَأَمْرُ الملكِ مُمتَثَلُ، فبينمَا هُم كذلكَ وَإِذ بالطَّائي قَدِ اشتدَّ عَدْوُه فِي سيرِهِ مسرعًا حتَّىٰ وصلَ، فقالَ: خشيتُ أَن ينقضيَ النَّهارُ قبلَ وصولِي، ثمَّ وقفَ قائمًا وقالَ: أيُّها الملكُ، مُرْ بأمرِكَ.

فقالَ لَهُ النُّعمانُ: مَا حملَكَ عَلَىٰ الرجوعِ بعدَ إفلاتِكَ مِنَ القتلِ؟ قالَ: الوفاءُ.

فَأطرقَ النُّعمانُ ثمَّ رفعَ رأسَهُ وقالَ: واللهِ مَا رأيتُ أعجبَ منكُمَا، أمَّا أنتَ يَا طائِيُّ فَمَا تَركْتَ لِأحدٍ فِي الوفاءِ مقامًا يقومُ فِيهِ، وَلَا ذِكرًا يفتخرُ بِهِ، وأمَّا أنتَ يا شريكُ فَمَا تركتَ لِكريمٍ سماحةٍ يُذكرُ بهَا فِي الكُرماءِ، وَواللهِ مَا أدرِي أيُّهمَا أَوفَىٰ وَأكرمُ أَهذَا الَّذي نَجا مِنَ القتلِ فعادَ أَم هذَا الَّذي ضمِنَهُ؟ وَاللهِ لَا أكونُ أَلْأَمَ الثَّلاثةِ، أَلَا وَإِنِّي قَد رفعْتُ يَومَ بُؤسِي عَنِ النَّاسِ، وَنقضْتُ عادَتِي كرامةً لوفاءِ الطَّائي وَكرمِ شريكٍ، فقالَ الطَّائي:

مَا كُنتُ أُخلِفُ ظَنَّهُ بَعدَ الَّذِي	**أَسدَىٰ إِلَيَّ مِنَ الفِعَالِ الخَالِي**
وَلَقَد دَعَتنِي لِلخِلَافِ عَشِيرَتِي	**فَعَدَدتُ قَولَهُمُ مِنَ الإِضلَالِ**
إِنِّي امرُؤٌ مِنِّي الوَفَاءُ سَجِيَّةٌ	**وَفِعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفضَالِ**

فَأحسنَ إِليهِ النُّعمانُ ووصلَهُ بمَا أغناهُ، وأعادَهُ مكرمًا إِلَىٰ أهلِهِ.

عبادَ اللهِ:

ولأنَّ الإسلامَ يجمعُ مَحاسنَ الأخلاقِ ويدلُّ عَلَىٰ أعظمِهَا؛ فقَد ضربَ النَّبيُّ ﷺ أروعَ الأمثلةِ فِي الوفاءِ ممَّا تَسْتَأْنِسُ بذكرِهِ القلوبُ، وتستلذُّ بإيرادِهِ الأسماعُ، ومِن ذلكَ عظيمُ وفائِهِ ﷺ لزوجتِهِ خديجةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، حيثُ كانَ وفيًّا لهَا فِي حياتِهَا وبعدَ موتِهَا؛ تقديرًا لموقفِهَا العظيمِ فِي نصرةِ الإسلامِ فِي أوَّلِ أمرِهِ وحالِ ضعفِهِ، ومِن وفائِهِ لهَا أنَّهُ لَم يتزوَّج عليهَا حالَ حياتِهَا حتَّىٰ لَا يحزنَهَا، ولمَّا ماتَت فقَد تجسَّدَ الوفاءُ كلُّهُ منهُ ﷺ نحوَهَا، فَقَد كانَ يذبحُ الشاةَ ويَقسِمُهَا فِي صاحباتِ خديجةَ، قالَت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: **«مَا غِرْتُ عَلَىٰ أحدٍ مِن نساءِ النَّبيِّ ﷺ مَا غرْتُ عَلَىٰ خديجةَ -وَمَا رأيتُها- ولكِن كانَ يُكثِرُ ذكرَهَا، وربَّمَا ذبحَ الشاةَ ثمَّ يقطعُهَا أعضاءً ثمَّ يبعثُهَا فِي صدائِقِ خديجةَ، فيقولُ: إنَّهَا كانَت وكانَت، وكانَ لِي منهَا ولدٌ، فأغضبتُهُ يومًا فقلتُ: خديجةَ؟ فقالَ: إنِّي رُزِقتُ حبَّهَا»**(١).

وكانَ إذَا أُتيَ بالشيءِ يقولُ: **«اذهبُوا بِهِ إِلَىٰ فلانةٍ فإنَّهَا كانَت صديقةَ خديجةَ، اذهَبُوا إلَىٰ بيتِ فلانةٍ فإنَّهَا كانَت تحبُّ خديجةَ»**(٢).

وقالَت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: **«جاءَت عجوزٌ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ عندِي فقالَ لَهَا رسولُ اللهِ ﷺ: مَن أنتِ؟ قالَت: أَنَا جثَامَةُ المزنيَّةُ، فقالَ: بَل أَنتِ حَسَّانَةُ المزنيَّةُ، كيفَ أنتُم؟ كيفَ حالُكُم؟ كيفَ كنتُم بعدَنَا؟ قالَت: بخيرٍ بأبِي أنتَ وأمِّي يَا رسولَ اللهِ. فلمَّا خرجَت، قلتُ: يَا رسولَ اللهِ! تُقبِل عَلَىٰ هذِهِ العجوزِ هَذَا الإقبالَ؟ فقالَ: إنَّهَا كانَت تأتِينَا زمنَ خديجةَ وإنَّ حسنَ العهدِ منَ الإيمانِ»**(٣).

(١) رواه مسلم (٢٤٣٥).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٨).

(٣) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٦).

وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرتاحُ لاستئذانِ هالةَ بنتِ خويلدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عليهِ، لِمَا يُذكِّرُهُ ذلكَ باستئذانِ خديجةَ، قالَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**استأذَنت هالةُ بنتُ خويلدٍ أختُ خديجةَ علىٰ رَسولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فعرفَ استئذانَ خديجةَ فارتاحَ لذلكَ، فقالَ: اللَّهمَّ هالةَ، فَغِرتُ؛ فقلتُ: وَمَا تذكرُ مِن عجوزٍ مِن عجائزِ قريشٍ**»[(١)].

وَمِن وفائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قالَهُ فِي أسرَىٰ بدرٍ: «**لَو كانَ المطعمُ بنُ عديٍّ حيًّا ثمَّ كلَّمنِي فِي هؤلاءِ النَّتنَىٰ لَتركتُهُم لَهُ**»[(٢)]، وذلكَ وفاءً لصنيعِ المطعمِ بنِ عديٍّ حيثُ إنَّه أجارَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا أرادَ أَن يدخلَ مكةَ بعدَ رجوعِهِ منَ الطَّائفِ، وكانَ ممَّن نقضَ الحصارَ الَّذي ضربَتهُ قريشٌ عَلَىٰ بنِي هاشمٍ لإرغامِهِم علَىٰ تسليمِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهُم، فأخبرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه لَو كانَ المطعمُ بنُ عديٍّ حيًّا وسألَهُ هؤلاءِ الأسرَىٰ لَمَنَّ عليهِم بالعتقِ مُجَازاةً لَهُ بحُسنِ صنيعِهِ.

فَمَا أجملَ الوفاءُ!

فَإنَّهُ يُرقِّقُ القلوبَ ويهذِّبُهَا، ويدفعُهَا للرقيِّ فِي طلبِ المعالِي، ويتميزُ صاحبُهُ عَن أقرانِهِ، ولذلكَ فقَد قيلَ: إذَا أردتَ أَن تعرفَ وفاءَ الرَّجلِ، فَانظُر كَيفَ تحنُّنه إلَىٰ أوطانِهِ، وتشوُّقِهِ إلَىٰ إخوانِهِ، وبكاؤُهُ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِن زمانِهِ.

بَاركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العَظيمِ، ونفعَنِي وإيَّاكم بِمَا فِيهِ مِنَ الآياتِ والذِّكرِ الحكيمِ، أقولُ مَا سمعتُم وأستغفرُ اللهَ لِي ولَكُم إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرحيمُ...

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٤٤٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣١٣٩).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقينَ، وَلَا عدوانَ إِلَّا عَلَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ عَلَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فَمَا أحوجَ النَّاسِ إِلَىٰ أَن يسودَ بينَهُمُ الوفاءُ، فإِنَّهُ طريقٌ إِلَىٰ البرِّ وَسبيلٌ إِلَىٰ كلِّ خيرٍ.

وَإِنَّ مِن أعظمِ الدَّلائلِ عَلَىٰ كبيرِ قدرِهِ أنَّه صارَ عزيزًا بينَ النَّاسِ، حتَّىٰ قيلَ:

اشـدُد يَـدَيكَ بِمَـن بَلَـوتَ وَفَـاءَهُ ... إِنَّ الـوَفَاءَ مِـنَ الـرِّجَالِ عَزِيـزُ

فَكُن وفيًّا مَا استطعتَ إِلَىٰ ذلكَ سَبيلًا.

وَمِن أعظمِ سِماتِ الوفاءِ: معاملةُ الوالدَينِ بالبرِّ، والزوجةِ بالرحمةِ، والزوجِ بالطاعةِ، والأولادِ بالتودُّدِ والرأفةِ، والأقاربِ بالصِّلةِ، والصديقِ بالمروءةِ.

وعليكَ ببذلِ مشاعرِكَ لتحقيقِ ذلكَ الهدفِ وبلوغِ تلكَ المنزلةِ، واعلمُوا أَنَّهُ لَن يكونَ المرءُ وَفيًّا حتَّىٰ يكونَ ببذلِ مشاعرِهِ سخيًّا.

الوفاءُ مِن صفاتِ العُظماءِ، مَمدُوحٌ صاحبَهُ مِنَ القريبِ والبعيدِ، والعدوِّ والصديقِ، وكَفَىٰ بِهِ فضلًا أَن يُمدحَ صاحبُهُ وَإِن خالفَ فعلُهُ أهواءَ الرجالِ ومُيولَ الأنفسِ نَحوَ مَا تريدُ.

سأَلَ الخليفةُ العباسيُّ المنصورُ بعضَ بطانةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ عَن تدبيرِهِ فِي الحروبِ، فقالَ: كانَ -رحمَهُ اللهُ تعالَىٰ- يفعلُ كذَا وكذَا، فقالَ المنصورُ: قاتلَكَ اللهُ،

تطأُ بساطِي وتترحَّمُ عَلَىٰ عدوِّي.

فقالَ: إنَّ نعمةَ عدوِّك لَقِلادةٌ فِي عنقِي لَا ينزعُهَا عنِّي إِلَّا غاسِلِي، فقالَ لَهُ المنصورُ: ارجِع يَا شيخ، فإنِّي أَشهدُ إنَّكَ لوفيٌّ حافظٌ للخيرِ، ثمَّ أمرَ لهُ بمالٍ، فأخذَهُ وقالَ: واللهِ لولَا جلالةُ أميرِ المؤمنينَ وإمضاءُ طاعتِهِ مَا لبسْتُ لأحدٍ بعدَ هشامٍ نِعمَةً.

فقالَ لَهُ المنصورُ: للهِ درُّكَ! فلَو لَم يكُن فِي قومِك غيرُك لكنْتَ قَد أبقيْتَ لَهُم مجدًا مخلدًا.

وَفِي زمانٍ قلَّ فيهِ الوفاءُ، وتغيَّرَت معادِنُ الرِّجالِ.

وَقَد صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقَلَّهُم ... ذِئَابًا عَلَىٰ أَجسَادِهِنَّ ثِيَابُ

فَإِنَّهُ حَريٌّ بِالمرءِ إِذَا رُزِقَ بشخصٍ وفيٍّ أَن يتمسَّكَ بِهِ، فإِنَّهُ عملةٌ نادرةٌ فِي غيرِ زمانِهَا، وثمرةٌ يانعةٌ فِي غيرِ أوانِهَا، ونعمةٌ تستحقُّ أَن يُنافَسَ مِن أجلِ بقائِهَا.

نسألُ اللهَ أَن يرزقَنَا الوفاءَ بالعهودِ، وأَن يصلحَ قلوبَنَا، ويسدِّد أعمالَنَا.

❊❊❊

(٢) العتابُ

الحمدُ للهِ الوليِّ فَلَا وليَّ مِن دونِهِ وَلَا واق، الغنيُّ فَلَا تنفَدُ خزائنُهُ عَلَىٰ كثرةِ الإنفاق، يحلُمُ عَلَىٰ مَن عَصَىٰ، وينتقمُ بِمَا لَا يُحصَىٰ، وَلَا يُكلِّفُ مَا لَا يُطَاق، أَحمدَهُ وَلَهُ الحمدُ وحدَهُ عَلَىٰ الاستِحقَاق، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهَ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، شهادةَ مَن ذاقَ طعمَ الإيمانِ فوجدَهُ حُلوَ المَذَاق.

وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ أرسلَهُ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ، ففتحَ بِهِ قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، ليسَ للحقِّ إليهَا استطراق.

اللهمَّ صلِّ عَلَىٰ محمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً دائمةً بالعشيِّ والإشراق، وسلِّم تسليمًا.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمونَ:

فإنَّ ممَّا يقرِّبُ بينَ القلوبِ ويُذهبُ الأحقادَ والضغائنَ: العتابَ بينَ الأحبَّةِ بالحسنَىٰ وَباللفظِ اللطيفِ، ولذلكَ فقَد مدحَ قومٌ العتابَ فقالُوا: العتابُ حدائقُ المتحابينَ، ودليلٌ عَلَىٰ بقاءِ المودةِ، وقالَ بعضُ الحكماءِ: العتابُ خيرٌ مِنَ الحقدِ، وَلَا يكونُ العتابُ إِلَّا عَلَىٰ زَلَّةٍ، قالَ أَبُو الدرداءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مُعَاتبةُ الصديقِ أهونُ مِن فقدِهِ.

فالَّذي يحملُ فِي قلبِهِ عَلَىٰ عشرائِهِ إِنَّمَا يجمعُ الأحقادَ ويكثرهَا، فإذَا عاتبَ صاحبَهُ تبيَّنَ لهُ مَا كانَ ملتبِسًا بشُبهةٍ، واتَّضحَ لَهُ مَا كانَ يحتمِلُ أكثرَ مِن معنىٰ، ومِن أجلِ ذلكَ قالَ القائلُ:

وَفِـي العِـتَابِ حَـيَاةٌ بَـينَ أَقْـوَامِ ... وَهُـوَ المَحَـكُّ لِـذِي لـبسٍ وَإِيهَـامِ

وَيَحسُنُ بالمَرءِ إِذَا أرادَ أن يعاتبَ صاحبَهُ، أَن يجعلَ لَهُ طريقًا إِلَىٰ الرجُوعِ والمعاودةِ، وذلكَ عَن طريقِ التماسِ العذرِ، فَلَا يغلقُ عليهِ الأبوابَ بعتابٍ غليظٍ جافٍ، ثمَّ يريدُهُ أن يعتذرَ منهُ، أَلَم تَرَ إِلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينَ جاءَهُ المتخلفونَ عَن غزوةِ تبوكٍ يعتذرونَ عَن تخلُّفِهِم أخذَ بظواهرِهِم وقَبِلَ اعتذارَهُم ووكَلَ سريرتَهُم إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ.

ولمَّا جاءَ الرجلُ وأقرَّ عندَهُ بالزِّنا قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لعلَّكَ غمزتَ، لعلَّكَ قبَّلتَ»**[1].

قالَ أهلُ العلمِ: يُؤخذُ منهُ تنبيهُ الحاكمِ الجَانِي إِلَىٰ العُذرِ، وهذَا إِن لَم يتعلَّق بجرمِهِ حَقٌّ للآخرينَ.

فإذَا كانَ ذلكَ فِي حكمٍ شرعيٍّ وكبيرةٍ مِنَ الكبائرِ، فكيفَ بالأمورِ المستحبةِ أو المباحاتِ؟

وذُكِرَ عنِ ابنِ عَرادَةَ السَّعديِّ أَنَّهُ كانَ معَ سلم بنِ زيادٍ بخراسانٍ، وكانَ لهُ مكرمًا وابنُ عرَادةَ يتَجَنَّىٰ عليهِ، ففارقَهُ وصاحَبَ غيرَهُ، ثمَّ ندِمَ ورجعَ إليهِ وقالَ:

عَتَبْتُ عَلَىٰ سلمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ ... وَصَاحَبْتُ أَقوَامًا بَكَيتُ عَلَىٰ سَلْمِ

رَجَعْتُ إِلَيهِ بَعدَ تَجرِيبِ غَيرِه ... فَكَانَ كَبُرْءٍ بَعدَ طُولٍ مِنَ السُّقْمِ

وَكتبَ رجلٌ إِلَىٰ صديقِهِ كتابًا أرسلَهُ إِليهِ وفيهِ حطٌّ عليهِ، فردَّ عليهِ الصديقُ ينبهُهُ إِلَىٰ تأمُّلِ مَا كتبَهُ مِن عتابٍ غليظٍ بعدَ هدوءِ النَّفسِ، حتَّىٰ يرَىٰ قوةَ عباراتِهِ فقالَ:

اقْرَأْ كِتَابَكَ وَاعتَبِرهُ قَرِيبَا ... فَكَفَىٰ بِنَفسِكَ لِي عَلَيكَ حَسِيبَا

أَكَذَا يَكُونُ خِطَابُ إِخوَانِ الصَّفَا ... إِن أَرسَلُوا جَعَلُوا الخِطَابَ خطُوبَا؟

---

(١) رواه البخاري (٦٨٢٤).

مَـا كَـانَ عُـذرِي إِن أَجَـبْتُ بِمِـثلِهِ أَو كُـنتُ بِالعَـتبِ العَنِـيفِ مُجِيـبَا
لَكِنَّنِـي خِفـتُ انـتِقَاصَ مَودَّتِـي فَـيُعَدُّ إِحسَانِي إِلَـيكَ ذُنُـوبَا

كَمَا أنَّ منَ الواجبِ عَلَىٰ المرءِ ألَّا يُعَاتبَ فِي كلِّ شيءٍ، حتَّىٰ يكونَ العتابُ لَهُ سمةً وعلامةً يُعرَفُ بِهَا، فيحطُّ قدرَهُ عندَ إخوانِهِ، ويعرفُ أنَّهُ يعاتبُ عَلَىٰ كلِّ شيءٍ، ويغضبُ لأيِّ شيءٍ، فالمرءُ كلَّمَا استطاعَ أَن يجعلَ عتابَهُ عزيزًا فليفعَل، حتَّىٰ إذَا عاتَبَ عُرِفَ أنَّهُ لَا يعاتِبُ إلَّا عَلَىٰ مَا يُستَحقُّ أَن يُعاتَبَ عليهِ، كَمَا أنَّ كثرةَ العتابِ توجبُ البغضاءُ، وقد قِيلَ:

فَـدَعْ ذِكْـرَ العِـتَابِ فَـرُبَّ شَـرٍّ طَـوِيلٍ هَـاجَ أَوَّلَـهُ العِـتَابُ

وَينبغِي للعاقلِ إِن عاتبَ أخاهُ أَو صاحِبَهُ أَو عشيرَهُ أَن يتلطَّف مَعَهُ، وَلَا يسبَّهُ فيمَا عرفَهُ عنهُ، فَإِنَّ مِن أخلاقِ اللؤمِ عندَ بعضِ النَّاسِ إِن غضبَ عَلَىٰ صاحبِهِ بشيءٍ، أظهرَ كلَّ مَا يعرفُهُ عنهُ، فقطعَ وصلَهُ، وأثارَ ضغينتَهُ، وَلَم يُبْقِ للصُّلحِ مَوضعًا وسبيلًا، وَقَد أحسنَ مَن قالَ:

وَأُعـرِضُ عَـن أَشـيَاءَ لَـو شِـئتُ قُلـتُهَا وَلَـو قُلـتُهَا لَـم أُبْـقِ لِلـصُّلحِ مَوضِـعَا

فكلٌّ منَّا يرَىٰ فِي الناسِ مَا لَا يرَىٰ فِي نفسهِ، فَلَو كانَ فِي حالِ عتابِهِ ومخاصمتِهِ لصديقِهِ أظهرَ كلَّ مَا فِي مكنونِهِ، هَل يأملُ أَن ترجعَ الصُّحبةُ إِلَىٰ موضعهَا فِي يومٍ منَ الأيامِ؟!

فإِنَّ هَذا الخلقَ يعملُ بِهِ مَن أرادَ قطعَ صلتِهِ بصاحبِهِ، وليسَ مَن أرادَ تقريبَهَا بعدَ انفلاتِهَا.

وَليحذرِ العاقلُ مِنَ العتابِ المفضِي إِلَىٰ القطيعةِ، فالعاقلُ يُميِّزُ، فإِن رَأَىٰ أَنَّ هَذا الشخصَ ممَّا يُجدِي معهُ العتابُ عاتبَهُ، وَإِن رأَىٰ أنَّ هذَا ممَّا يُفسِدُ عليهِ صحبتَهُ أحجَمَ عنهُ.

قالَ إياسُ بنُ معاويةَ: خرجتُ فِي سفرٍ ومعِي رجلٌ مِنَ الأعرابِ، فلمَّا كانَ فِي بعضِ المَنَاهلِ، لَقِيَهُ ابنُ عمٍّ لَهُ، فتعانَقَا وتعاتَبَا، وَإِلَىٰ جانبِهِمَا شيخٌ مِنَ الحيِّ فقالَ لهُمَا: أنعِمَا عيشًا، إنَّ المعاتبةَ تبعثُ التجنِّي، والتجنِّي يبعثُ المخاصمةَ، والمخاصمةُ تبعثُ العداوةَ، وَلَا خيرَ فِي شيءٍ ثمرتُهُ العداوةُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الملكِ القهارِ، العزيزِ الجبَّارِ، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ الرحيمُ الغفَّارُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ إمامُ المتَّقينَ الأبْرَارِ، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم علَىٰ محمدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ البررَةِ الأطهارِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِنَ الخيرِ للصديقِ إن رأَىٰ مِن صاحبِهِ شيئًا وَهُوَ صديقٌ لَهُ ويحبُّهُ، أَن يذهبَ إليهِ مباشرةً ويسألَهُ عمَّا فِي نفسِهِ، وَلَا يجعلْ بينهُمَا وسيطًا فيظلُّ يكلِّمُ النَّاسَ -وَإِن كانُوا أصدقاءَ- وصاحبُهُ أمامَهُ فَلَا يسألُهُ حتَّىٰ يبيِّنَ لَهُ وجهةَ نظرِهِ، لَا سيَّمَا فِي هذَا الوقتِ الَّذِي كثُرَ فيهِ مستشارُو السُّوءِ، وَناقصُو المروءَةِ، فلعلَّهم يوقعونَ بينَهُ وبينَ صديقٍ يحبُّهُ ويألفُهُ، وَقَد قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذَا رزقَكَ اللهُ مودةَ امرئٍ فتشبَّث بِهِ».

هَذَا وإنَّ تَرْكَ مصارحةَ الصاحِبِ لصاحبِهِ فِيمَا يعاتبُهُ بِهِ، ممَّا يزيدُ التفرُّقَ والشتاتَ، ويُذهِبُ الأُلفةَ، كَمَا أَنَّهُ مِن كَتْمِ النصيحةِ، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: **«الدِّينُ النَّصيحةُ»**[(١)].

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

وَمَن رُزِقَ بإخوانٍ فَليكُن اتِّسَاعُ صدرِهِ لَهُم طبيعتَهُ وسجيَّتَهُ، وليعلَم أنَّ مَن طَلَبَ صديقًا لا يَزِلُّ، فَقَد طَلَب المُحَالَ، وَرَامَ الوصولَ إِلَىٰ مُرتقَىٰ بَعيدِ المنالِ، وَقَد قيلَ: مَن لَا يؤاخِي إِلَّا مَن لَا عيبَ فِيهِ مَلَّ صديقَهُ، وَمَن لَم يَرضَ مِن صَدِيقِهِ إِلَّا بإيثارِهِ عَلَىٰ نفسِهِ دامَ سخطُهُ، وَمَن عاتبَ عَلَىٰ كُلِّ ذنبٍ ضاعَ عتبُهُ وَكَثُرَ تعبُهُ، وَلِذَا قِيلَ:

إِذَا كُنتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَم تَلقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

إِذَا أَنتَ لَم تَشرَب مِرَارًا عَلَىٰ القَذَىٰ ظَمِئتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصفُو مَشَارِبُهْ؟

وَقَد قَالَ بَعضُ أَهلِ العِلمِ: إِذَا رأيتَ مِن أخيكَ أمرًا تكرهُهُ، أَو خلَّةً لَا تحبُّها، فَلَا تقطعْ حبلَهُ، وَلَا تصرم ودَّهُ، وَلَكِن دَاوِ جُرحَهُ، واستُر عورتَهُ، وأَبقِهِ وابرَأ مِن عملِهِ، وَقَد قالَ تعالَىٰ لنبيِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾(١)، فَلم يَأمرهُ بقطعِهِم، وإنَّمَا بالبراءةِ مِن عملِهِمُ السيِّئِ.

❊❊❊

(١) سورة الشعراء: ٢١٥-٢١٦.

(٣) آدابُ المجالسةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي يعلمُ سرَّ كلِّ نَفسٍ ونجواهَا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ بأكملِ الشرائعِ وأسناهَا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الَّذينَ عضُّوا علَىٰ سُنَّتِهِ بالنواجذِ وتمسَّكُوا بعُراهَا، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ المرءَ لا بدَّ لَهُ مِن مُخَالطةِ النَّاسِ فِي مجتمعاتِهِم ومجالسِهِم، وَلِذَا فالواجبُ عَلَىٰ العاقِلِ أَن يكتسبَ مِنَ الجلساءِ مَن تميَّزَ بالفضلِ، واتَّصفَ بِمكارِمِ الأخلاقِ، فإنَّ ذَا الشَّرفِ لَا يصاحِبُ إلَّا مَن كانَ مثلَهُ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، فمَا تعارفَ منهَا ائتلفَ، ومَا تناكرَ منهَا اختلفَ**»(١).

وَإِذَا كانَ مصاحِبًا فليُصَاحِب مَن يزينُهُ وَلا يشينُهُ، فإنَّ الصاحبَ للصَّاحبِ كالرقعةِ فِي الثوبِ إن لَم تكُن مِثلَهُ شانَتهُ، وَلِذا فليسَ العجبُ مِن جاهلٍ يصحبُ جاهلًا، ولكنَّ العجبَ مِن عاقلٍ يصحبُهُ، لِأَنَّ كلَّ شيءٍ ينفرُ مِن ضدِّهِ، ويميلُ إِلَىٰ جنسِهِ، وقَد قيلَ:

وَمَا بَقِيَت مِنَ اللَّذَّاتِ إِلَّا ... مُحَادَثَةَ الرِّجَالِ ذَوِي العُقُولِ
وَقَد كُنَّا نَعُدُّهُمُ قَلِيلًا ... فَقَد صَارُوا أَقَلَّ مِنَ القَلِيلِ

وَليكُن المَرءُ مُتحرِّيًا مِنَ الجلساءِ مَن يكونُ لَهُ عونًا عَلَىٰ طاعَةِ اللهِ، وَعلَىٰ استقامةِ

(١) رواه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).

حالِهِ فِي أمورِ دينِهِ ودنياهُ، فَقَد قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا تُصَاحِب إِلَّا مؤمنًا، وَلَا يأكُل طعامَكَ إِلَّا تقيٌّ**»(١)، وَقيلَ لِخالِدَ بنِ صفوانٍ: أَيُّ إخوانِكَ أحبُّ إِلَيكَ؟

قالَ: الَّذِي يسُدُّ خُلَّتِي، وَيغفِرُ زَلَّتِي، وَيقيلُ عثرتِي.

إِنَّ أَخَا الهَيجَاءِ مَن يَسعَىٰ مَعَكْ ... وَمَن يَضرُّ نَفسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَن إِذَا رَيبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ ... شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

كَمَا ينبغِي للمرءِ أَن يتأدَّبَ بآدابِ المجالسةِ، حتَّىٰ يتميَّزَ بجميلِ مَجلسِهِ بينَ الأقرانِ، فيرغبُ النَّاسُ فِي مُجَالستِهِ، وَيأنسُوا بمُلاقاتِهِ.

فَمِن ذلكَ أَن يعتادَ المرءُ حُسنَ المعاشرةِ لجلسائِهِ، بِأَن يتعاملَ معَهُم بِالبشاشةِ والبِشْرِ وحُسنِ الخُلُقِ والأدبِ، كَانَ القعقاعُ الهذليُّ إِذَا جالسَهُ رجلٌ يجعلُ لَهُ نصيبًا مِن مالِهِ ويعينُهُ عَلَىٰ حوائجِهِ، وَدخلَ يومًا علَىٰ معاويةَ، فأمرَ لَهُ بألفِ دينارٍ، وكانَ هناكَ رجلٌ قد فسحَ لَهُ فِي المجلسِ، فدفعَهَا لِلَّذِي فسحَ لَهُ، فقالَ الرجلُ:

وَكُنتُ جَلِيسَ قَعقَاعِ بنِ ثَورٍ ... وَمَا يَشقَىٰ بِقَعقَاعٍ جَلِيسُ
ضَحُوكُ السِّنِّ إِن نَطَقُوا بِخَيرٍ ... وَعِندَ الشَّرِّ مِطرَاقٌ عَبُوسُ

وَعَلَيهِ أن يَكونَ موقِّرًا للكبيرِ، فلَا يحسنُ بِهِ أن يدخلَ رجلٌ أكبرُ منهُ سِنًّا، أَو موقَّرًا فِي قومِهِ فَلَا يوسعُ لَهُ فِي المجلسِ، فإِنَّ فِعلَ ذلكَ مخالفٌ للأدبِ، وَلِذَا مِنَ الخطأِ أَن يُغرسَ فِي نفوسِ الصِّغارِ مثلَ هذهِ الأخلاقِ، فإِنَّهَا تُنَشِّئُهُم عَلَىٰ الكِبْرِ والأنانيةِ واحتقارِ النَّاسِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لِجَليسِي عليَّ ثلاثٌ: أَن أَرمقَهُ بطَرفِي إِذا أقبلَ، وأوسعَ لَهُ إِذَا جلسَ، وأُصغي لَهُ إِذَا حدَّثَ».

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٠١٨).

وَمِن آدابِ المُجَالسةِ: أَنَّ المرءَ إِذَا صاحبَ مَن هُوَ أكبرُ منهُ -خصوصًا إِذَا كانَ أَبًا أَو أَخًا أَكبَرَ- إِلَىٰ مجلسٍ مَا، فَلَا يدخُلُ قبلَهُ وَلَا يتحدَّثُ قبلَهُ، فإِنَّ هذَا خلافُ الأدبِ، ودَاعٍ إِلَىٰ احتقارِ النَّاسِ للكبيرِ، وتهكُّمِهِم بالصغيرِ، فَعَن رافعِ بنِ خديجٍ قالَ: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ سهلٍ ومحيصةَ بنَ مسعودٍ أتَيَا خيبرَ فتفرقَّا فِي النَّخلِ، فقُتِلَ عبدُ اللهِ بنُ سهلٍ، فجاءَ عبدُ الرحمنِ بنُ سهلٍ وحويصةُ ومحيصةُ ابنَا مسعودٍ إِلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتكلَّمُوا فِي أمرِ صاحبِهِم، فبدأَ عبدُ الرَّحمنِ -وكانَ أصغرَ القومِ- فقالَ لَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كبِّرِ الكُبْرَ**»(١).

قالَ الرَّاوِي: يَعنِي: لِيَلِي الكلامَ الأكبرُ، فتكلَّمُوا فِي أمرِ صاحبِهِم.

عبادَ اللهِ:

وممَّا ينبغِي للعاقلِ أَن يتَّصفَ بِهِ مِن آدابِ المجلسِ: أَلَّا يُقبِلَ بحديثِهِ عَلَىٰ مَنْ لا يُقبِل علَيهِ، فإِنَّ نشاطَ المتكلِّمِ بقدرِ إقبالِ السَّامعِ.

كمَا يتعيَّنُ علَيهِ أَن يحدِّثَ المستمِعَ عَلَىٰ قدرِ عقلِهِ، وَلَا يبتدِعَ كلامًا لَا يليقُ بالمجلسِ، فإِنَّ لكلِّ مقامٍ مقالًا، وَخيرُ القولِ مَا وافقَ الحالَ، وَقد قيلَ: ثمانيةٌ إِن أُهينُوا فَلَا يلومُوا إِلَّا أنفسَهُم: الجالسُ فِي مجلسٍ ليسَ لَهُ بأهلٍ، والمقبلُ بحديثِهِ عَلَىٰ مَن لَا يسمعُهُ، وَالدَّاخلُ بينَ اثنينِ فِي حديثِهِمَا وَلَم يُدخلَاهُ فيهِ، وَالمتعرِّضُ لِمَا لا يَعنيهِ، والمتآمِرُ عَلَىٰ ربِّ البيتِ فِي بيتِهِ، وَالآتِي إِلَىٰ مائدةٍ بِلَا دعوةٍ، وَطالبُ الخيرِ مِن أعدائِهِ، وَالمستخفُّ بقدرِ السلطانِ.

وَمِن أدبِ الاستماعِ: أَنَّهُ إِذَا وردَ عليهِ مِنَ المتكلِّمِ مَا كانَ قَد مرَّ بسمعِهِ أَلَّا يقطعَ عليهِ مَا يقولهُ، بَل يسكُت إِلَىٰ أَن يستوعبَ منهُ القولَ، وهذَا مِن أعظمِ الأدبِ، ولعلَّهُ

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (١٦٦٩).

إِذَا صبرَ وسكتَ استفادَ مِن ذلكَ زيادةَ فائدةٍ لَم تَكُن فِي حفظِهِ.

قَالَ عطاءُ بنُ أَبِي رباحٍ: إِنَّ الرَّجلَ لَيحدِّثنِي بالحديثِ فأُنصتُ لَهُ كأَنِّي لَم أسمعهُ قَط، وقَد سمعتُ بِهِ مِن قبلِ أَن يولَدَ.

وَكانَ ابنُ خارجةَ يقولُ: مَا غلبَنِي أحدٌ قطُّ غلبةَ رجلٍ يُصغِي إِلَىٰ حديثِي.

قالَ أَبُو العبَّاسِ السَّفَّاحُ: مَا رأيتُ أغزرَ مِن فكرِ أَبِي بكرٍ الهذليِّ، لَم يُعِد عليَّ حديثًا قَطُّ، وذُكر أَنَّ أَبَا العبَّاسِ كَانَ يحدِّثهُ يومًا إِذ عصفَتِ الرِّيحُ فأَرْمَت طَستًا من سطحٍ إِلىٰ المجلِسِ، فَارتاعَ مَن حَضرَ وَلَم يتحرَّكِ الهذليُّ وَلَم تزَل عينُهُ مطابقةً لعينِ السَّفاحِ، فقالَ: مَا أعجبَ شأنكَ يَا هُذليُّ، فقالَ: إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾(١)، وإِنَّمَا لِي قلبٌ واحدٌ، فلمَّا غمرَهُ النُّورُ بِمُحَادثةِ أميرِ المؤمنينَ لَم يكُن فيهِ لحادثٍ مجالٌ، فلَو انقلبَتِ الخضراءُ علَىٰ الغبراءِ مَا أَحسَسْتُ بهَا وَلَا وَجَمْتُ لَهَا، فقالَ السفاحُ: لَئِن بقيتُ لَأَرفعنَّ مكانَكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بمالٍ جزيلٍ وصِلةٍ كبيرةٍ.

وَيتعينُ علَىٰ الجَليسِ أَن يُراعِي ألفاظَهُ وَيكونَ عَلَىٰ حذرٍ أَن يعثرَ لسانُهُ، خصوصًا إِذَا كانَ جليسُهُ ذَا هيبةٍ، فَقَد قيلَ: رُبَّ كلمةٍ سَلَبَت نعمةً.

كَمَا ينبغِي لِمَن جالَسَ النَّاسَ أَن يتجنَّبَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُنَفِّرهُم مِنهُ، فَقَد قالَتِ الحُكمَاءُ: إِذَا أردتَ حُسنَ المعاشرةِ فالْقَ عدوَّكَ وصديقَكَ بالطَّلاقةِ ووجهِ الرِّضَا وَالبشاشةِ، وَلَا تنظُر فِي عِطفَيكَ، وَلَا تُكثِرِ الالتفاتَ، وَلَا تقف عَلَىٰ الجماعاتِ، وَإِذَا جلَسْتَ فَلَا تتكبَّر عَلَىٰ أحدٍ، وتحفَّظ مِن تشبيكِ أصابعِكَ، وَالتَّثاؤبِ فِي وجوهِ النَّاسِ، وَليكُن مجلسُكَ هادئًا، وَحديثُكَ منظومًا مرتَّبًا، وَلَا تُلحَّ فِي الحاجاتِ، وَلَا تشجِّع

(١) سورة الأحزاب: ٤.

أحدًا عَلَىٰ الظُّلمِ، وَلَا تُهازِل خادمَكَ فيسقُطُ وَقَارُكَ عندَهُ، وَإِذَا خاصَمْتَ فأنصِف، وتحفَّظْ مِن جهلِكَ، وَتجنَّبْ عجلَتَكَ، وَتفكَّرْ فِي حجَّتِكَ، وَلَا تُكثِرِ الإشارةَ بيدِكَ، وَلَا الالتفاتَ إِلَىٰ مَن وراءَكَ، وهدِّئ غضبَكَ وتكلَّم، وَإِذَا قرَّبكَ سلطانٌ فكُن مِنهُ عَلَىٰ حذرٍ، وَاحذَر انقِلابَهُ عليكَ، وَلَا يحملنَّكَ لطفُهُ بكَ عَلَىٰ أَن تدخُلَ بينَهُ وبينَ أهلِهِ وحشمِهِ، وَإِيَّاكَ وصديقَ العَافيةِ فإنَّهُ أعدَىٰ الأعداءِ، وَلَا تجعَل مالَكَ أكرَم مِن عرضِكَ، وَلَا تُجالِس الملوكَ، فَإِن فعلتَ فالتزِم تركَ الغيبةِ ومُجَانبةَ الكذبِ وصيانةَ السرِّ وقلَّةَ الحوائجِ وتهذيبَ الألفاظِ والمذاكرةَ بأخلاقِ الملوكِ، معَ الحذرِ منهُم وَإِن ظهرَتِ المودَّةُ، وَلَا تتجشَّأ بحضرتِهِم، وَلَا تُخَلِّل أسنانَكَ بعدَ الأكلِ عندَهُم، وَلَا تجالِسِ العامَّةَ فَإِن فعلتَ فآدابُ ذلكَ تركُ الخوضِ فِي حديثِهِم، وَقلَّةُ الإصغاءِ إِلَىٰ أراجيفِهِم، وَالتغافلُ عمَّا يجرِي من سوءِ ألفاظِهِم، وإيَّاكَ أن تمازِحَ لبيبًا أو سفيهًا، فَإِنَّ اللبيبَ يحقِدُ عليكَ، وَالسَّفيهَ يتجرَّأُ عليكَ، كَمَا أَنَّ المزاحَ يخرقُ الهيبةَ، ويَذْهبُ بماءِ الوجهِ، ويُعقِبُ الحقدَ، ويذهَبُ بحلاوةِ الإيمانِ والودِّ، وَيشينُ فقهَ الفقيهِ، وَيجرئُ السفيهَ، ويميتُ القلبَ، ويباعدُ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، ويكسبُ الغفلةَ والذِّلَّةَ.

وَمَن بُلِيَ فِي مجلسٍ بمزاحٍ أو لغطٍ، فليَذكُرِ اللهَ عندَ قيامِهِ، فَقَد جاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَن جلسَ فِي مجلسٍ فكَثُرَ فِيهِ لغَطُهُ، فقالَ قبلَ أَن يقومَ مِن مجلسِهِ ذلكَ: سبحانَكَ اللَّهمَّ وبِحَمدِكَ، أشهدُ أنْ لَا إلهَ إِلَّا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، غُفِرَ لَهُ مَا كانَ فِي مجلسِهِ ذلكَ**»[1].

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥١٦).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ عَلَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنا محمَّدٍ وَعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ عَلَىٰ العاقلِ أَن يجتنبَ مؤاخاةَ قليلِ الوفاءِ عديمَ المكافأةِ، الَّذِي ليسَ لَهُ صديقٌ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا نفسَهُ، وَلَا ينظُرُ إِلَّا إِلَىٰ مصلحتِهِ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يعظمُ بِهِ البلاءُ ويزدادُ، وَمَا أكثرَ مَن هَذا وصفُهُ، قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ: صحبْتُ النَّاسَ خمسينَ سنةً، فَمَا وجدْتُ رجلًا غفرَ لِي زلةً، وَلَا أقالَنِي عثرةً، وَلَا سترَ لِي عورةً.

وقَالَ عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يكونُ الصَّديقُ صديقًا حتَّىٰ يحفظَ أخاهُ فِي ثلاثٍ: فِي نكبتِهِ وغيبتِهِ ووفاتِهِ، وَإِذَا كانَ الغدرُ طبعًا، فالثِّقةُ بكلِّ أحدٍ عجزٌ».

وَقِيلَ لبعضِهِم: مَا الصَّديقُ؟ قَالَ: اسمٌ وُضِعَ عَلَىٰ غيرِ مسمًّىٰ.

وَقَد قِيلَ:

سَمِعنَا بِالصَّدِيقِ وَلَا نَرَاهُ ... عَلَىٰ التَّحقِيقِ يُوجَدُ فِي الأَنَامِ

وَمنَ رأَىٰ تغيُّرَ أحوالِ النَّاسِ، عَلِمَ أَنَّ منتهَىٰ عقلِ المرءِ تقليلُهُ مِنَ المعارفِ، فقَد كانَ الناسُ ورقًا لَا شوكَ فيهِ، فصارُوا شوكًا لَا ورقَ فيهِ، قالَ جعفرُ الصَّادقُ: إنْ كانَ لكَ مائةُ صديقٍ فاطرح تسعةً وتسعينَ وكُن مِنَ الواحدِ عَلَىٰ حَذَرٍ.

وَمِمَّا يجبُ أَن يعرفَهُ العاقلُ: أَنَّ مَن يخالطُهم المرءُ عَلَىٰ طبقتَينِ، فلا بدَّ أَن يلبسَ لَهُم لباسَينِ ليسَ لَهُ بدٌّ منهُمَا، وَلَا عيشَ وَلَا مروءةَ إِلَّا بِهِمَا: فطبقةٌ مِنَ العامَّةِ يلبسُ لَهُم لباسَ انقباضٍ وتحفُّظٍ فِي كلِّ كلمةٍ وخطوةٍ، وَلَا يعنِي ذلكَ أَن يتكبَّرَ

عليهِم ولكِن يعاملُهُم بشيءٍ منَ الحذرِ.

وَطبقةُ الخاصَّةِ مِن أصدقائِهِ، يخلعُ عندَهُم لباسَ الانقباضِ والتحفُّظِ، ويلبسُ لَهُم لباسَ انبساطٍ واستئناسٍ، فيلقاهُم بذاتِ صدرِهِ، ويفضِي إليهِم بمصونِ حديثِهِ، ويضعُ عنهُ مُؤنةَ الحذرِ والتحفُّظِ فيمَا بينَهُ وبينَهُم.

وَلَا يدخلُ فِي هذِهِ الطَّبَقةِ إلَّا واحدٌ مِنَ الألفِ، وكلُّهم ذُو فَضلٍ فِي الرَّأيِ، وثقةٍ فِي المودَّةِ، وأمانةٍ فِي السرِّ، ووفاءٍ بالإخاءِ.

❊❊❊

(٤) حسنُ الجوارِ

الحمدُ للهِ الَّذي أصلحَ بلُطفِهِ الصَّالحينَ، وَحَفِظَهُم بعنايَتِهِ ممَّا يَقبحُ ويشينُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، مالكُ يومِ الدِّينِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ النَّبيُّ الأمينُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ والتَّابعينَ لَهُم إِلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن محاسِنِ الإسلامِ العظيمةِ وصيَّتَهُ بالجارِ، والحَثَّ عَلَىٰ أداءِ حقوقِهِ والإحسانِ إليهِ، وَقَد تضافرَتِ الأدلَّةُ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ مُبيِّنةً هذَا الأمرَ أتمَّ بيانٍ وأوضحَهُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾(١)، الجارُ ذُو القُربَىٰ: أَي ذُو القَرابَةِ، والجارُ الجنبُ: أَي الجارُ الأجنبيُّ منكَ.

وَاقترانُ الوصيَّةِ بِالجارِ بأعظمِ المأموراتِ -وَهوَ التَّوحيدُ ونبذُ الشِّركَ-، لَأكبرُ دليلٍ عَلَىٰ عظيمِ منزلةِ الجارِ وَكبيرِ حقِّهِ.

وَقد عظُمَت الوصيَّةُ بالجارِ حتَّىٰ قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَا زالَ جبريلُ يوصيني بالجَارِ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ سيورِّثُهُ**»(٢)، أَي: حتَّىٰ ظننتُ أنَّ الوحيَ سينزلُ بتوريثِهِ.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥).

وَمَا كانَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليظنَّ هَذَا الظنَّ إلَّا لكثرةِ مَا كانَ يُؤمَرُ بِهِ منَ الوصيَّةِ بالجارِ، فتأمَّلُوا هذَا -رحمكُمُ اللهُ-.

ويحصلُ امتثالُ الوصيَّةِ بحسنِ الجوارِ بإيصالِ أصنافِ الإحسانِ للجارِ حَسَب الوسعِ والطاقَةِ، مِن بذلِ السَّلامِ لَهُ، وطلاقةِ الوجهِ والبِشْرِ عندَ لقائِهِ، وتفقُّدِ أحوالِهِ والسؤالِ عنهُ، وتقديمِ الهديَّةِ لَهُ، ومُعَاوَنتِهِ فيمَا يحتاجُ إلَيهِ، والنُّصحِ لَهُ، وتعليمِهِ مَا يجهلُهُ.

وَمَا جاءَتِ الشَّريعةُ بالأمرِ بالإحسانِ إلَىٰ الجارِ إلَّا لِمَا يكونُ بينَ الجيرانِ مِنَ الملاصقةِ الطويلةِ، والاتِّصالِ الدائمِ، وبطبيعةِ الحالِ لَن يستقرَّ الإنسانُ وَلَن يهنأَ لَهُ بالٌ إلَّا بتلقِّيهِ الإحسانَ مِن غيرِهِ وبذلِهِ للغيرِ.

وَقَد جاءَتِ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ بِمَا يُرَقِّقُ القلوبَ وينشرُ السعادةَ بينَ الجيرانِ، ويفتحُ لَهُم أبوابَ الإحسانِ؛ حتَّىٰ يكونُوا كالأُسْرةِ فِي البيتِ الواحدِ، وَمِن ذلِكَ قولُ النَّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِأبي ذرٍّ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «**إذَا طبختَ مرقةً فأكثِر ماءَهَا وتعاهَد جيرانَكَ**»[1].

فهذَا مِن أعظمِ الإحسانِ، حيثُ إنَّهُ يدلُّ عَلَىٰ تحسُّسِ المرءِ لِأحوالِ جيرانِهِ ومحبَّةِ إشراكِه لَهُم فِي طعامِهِ، وَهَذا فيهِ مَا فيهِ مِن ردَّةِ الفعلِ النفسيةِ الجميلةِ مِنَ الجارِ تجاهَ جيرانِهِ حينَ تذكَّرُوهُ فِي طعامِهِم وأشركُوهُ معَهُم، وليسَ بالضرورةِ أَن يكونَ الجارُ مُحتاجًا لِمَا يُرسِلُونَهُ لَهُ مِنَ الطعامِ، ولكنَّهُ يَنظُر لَهَا مِن جانبٍ آخرَ وهُوَ أَنَّ جارَهُ لَم ينسَهُ فِي هذَا المقامِ، فيؤنسُهُ ذلكَ ويُسَرُّ بِهِ، فهَل فكَّرنَا فِي أنْ نرسلَ مِن طعامِنَا لجيرانِنَا، حتَّىٰ تَدُومَ الألفةُ والمُحبَّةُ بينَنَا؟

كَمَا أنَّ إكرامَ الجارِ مِن علاماتِ الإيمانِ، قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن كانَ يؤمنُ باللهِ**

(١) رواه مسلم (٢٦٢٥).

واليومِ الآخرِ فليكرِم جارَهُ»(١)، وكانَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إذَا ذبحَ الشاةَ أرسلَ لجارٍ لَهُ يهودِيٍّ.

وَإكرامُ الجارِ ليسَ لَهُ حدٌّ مَحدُودٌ، فليجتهِدِ المسلمُ بتحقيقِ ذلكَ عَلَىٰ حسَبِ مَا تيسَّرَ لَهُ، وليعلَم أنَّهُ بفعلِهِ ذلكَ قَد تقرَّبَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بعملٍ يحبُّهُ سبحانَهُ ويرضَاهُ، وليَعلَم أنَّ المَرءَ لَا زالَ بخيرٍ مَا دامَ محبوبًا إِلَىٰ جيرانِهِ محسنًا إليهِم، فالجارُ أعظمُ شاهدٍ عَلَىٰ سلوكِ جارِهِ وأخلاقِهِ، جاءَ رجلٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالَ: «**يَا رسولَ اللهِ، كيفَ لِي أَن أعلمَ إِذَا أحسنتُ أنِّي قَد أحسنتُ، وَإِذَا أسأتُ أنِّي قَد أسأتُ، فقالَ رسولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **إِذَا قالَ جيرانُكَ قَد أحسَنتَ فقَد أحسَنتَ، وَإِذَا قالُوا إنَّكَ قَد أسَأتَ فقَد أسَأتَ**»(٢).

قالَ أبُو قلابةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: «خيرُ النَّاسِ خيرُهُم فِي أهلِهِ، وخيرُهُم فِي جيرانِهِ، فهُم أعلَمُ بِهِ»، وسئلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ عَن رجلٍ، فقالَ: هَذَا يُسأَلُ عنهُ جيرانُهُ، فإذَا أثنَوا عليهِ قُبِلَ منهُم.

وَقَد ضَربَ السَّلفُ أروعَ الأمثلةِ بحسنِ الجوارِ، حتَّىٰ أصبحَ هَذَا الوصفُ قرينًا لِأسمائِهِم، وضُربَ بِهِمُ المثلُ فِي ذلكَ.

باعَ أبُو جهمٍ العَدويُّ دارَهُ بمائةِ ألفِ درهمٍ، ثمَّ قالَ: فَبِكَم تشترونَ جوارَ سعيدِ ابنِ العاصِ؟ قالُوا: وَهَل يُشترىٰ جوارٌ قطُّ؟ قالَ: رُدُّوا عليَّ دارِي ثمَّ خذُوا مالَكُم، لَا أدعُ جِوارَ رجُلٍ إنْ قعَدتُ سألَ عنِّي، وَإِن رآنِي رحَّبَ بِي، وَإِن غبتُ حفظَنِي، وَإنْ شهدْتُ قرَّبنِي، وَإن سألتُه قضَىٰ حاجَتِي، وَإنْ لَم أسألْهُ بدَأنِي، وَإِن نابتنِي جائحةٌ فرَّجَ عنِّي، فبلغَ ذلكَ سعيدًا فبعثَ إليهِ بمائةِ ألفِ درهمٍ.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٧).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٢٧).

وكانَ للإمامِ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ جارٌ يهوديٌّ، فأرادَ أَن يبيعَ دارَهُ، فقيلَ لَهُ: بِكَم تبيعُ؟ قالَ: بألفينِ، فقيلَ لَهُ: إنَّها لَا تساوِي إلَّا ألفًا، قالَ: صدقتُم، ولكنْ ألفٌ للدارِ، وألفٌ لجوارِ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ، فأُخبرَ ابنُ المباركِ بذلكَ، فدعاهُ فأعطاهُ ثمنَ دارِهِ وقالَ: لا تبعهَا.

وكانَ كعبُ بنُ أمامةَ يُضربُ بِهِ المثلُ فِي حسنِ جوارِهِ، فيقالُ: جارٌ كجارِ أَبِي دؤادٍ، وكانَ أَبُو دؤادٍ -يعنِي كعبًا- إِن ماتَ لجارِهِ بعيرٌ أَو شاةٌ أخلفَهَا عليهِ، وَإِذَا ماتَ الجارُ أعطَىٰ أهلَهُ مقدارَ دِيتِهِ مِن مالِهِ.

وَمِن ظريفِ مَا يُذكرُ، أَنَّ الإمامَ أَبَا حنيفةَ كانَ لَهُ جارٌ بالكوفةِ إسكافٌ، يعملُ نهارَهُ أجمع، حتَّىٰ إِذَا جنَّهُ الليلُ رجعَ إِلَىٰ منزلِهِ وَقَد حملَ لحمًا فطبخَهُ أَو سمكةً فيشويهَا، ثمَّ لَا يزالُ يشربُ، حتَّىٰ إِذَا دبَّ الشرابُ فيِهِ وسكرَ غنَّىٰ بصوتٍ عالٍ:

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فَتًىٰ أَضَاعُوا ... لِيَومِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغرِ

فَلَا يزالُ يشربُ ويرددُ هذَا البيتَ حتَّىٰ يأخذَهُ النومُ، وكانَ أَبُو حنيفةَ يسمعُ صوتَهُ كلَّ ليلةٍ وهُوَ قائمٌ يصلِّي الليلَ، فَفَقَدَ أَبُو حنيفةَ صوتَهُ، فسأَلَ عنهُ، فقيلَ لَهُ: أخذَهُ العسسُ منذُ ليالٍ فحبسُوهُ.

فصلَّىٰ أَبُو حنيفةَ صلاةَ الفجرِ مِن غدٍ، وركبَ بغلتَهُ، واستأذنَ عَلَىٰ الأميرِ، فقالَ الأميرُ: ائذنُوا لَهُ، وَأَقْبِلُوا بِهِ راكبًا، لَا تَدَعُوهُ ينزلُ عَن بغلتِهِ، فلمَّا دخلَ عَلَىٰ الأميرِ وسَّعَ لَهُ فِي محلِّهِ، وقالَ: مَا حاجتُكَ؟ فقالَ: لِي جارٌ إسكافٌ أخذَهُ العسسُ منذُ ليالٍ، يأمرُ الأميرُ بالإفراجِ عنهُ. قالَ: نعَم. فأمرَ بتخليتِهِ، فركبَ أَبُو حنيفةَ، والإسكافُ يمشِي وراءَهُ، فلمَّا نزلَ أَبُو حنيفةَ مضَىٰ إِلَيهِ، وقالَ: يَا فتَىٰ أضعناكَ؟ فقالَ: لَا. بَل حفظتَ ورعيتَ، جزاكَ اللهُ عَن حرمةِ الجوارِ ورعايةِ الحقِّ، وتابَ الرجلُ وَلَم يعُد إِلَىٰ مَا كانَ عليهِ.

أيُّها المسلمونَ:

إنَّ الديارَ لَا تُقَاسُ عَلَىٰ الحقيقةِ بجميلِ بنيانِهَا، وإنَّما تغلُو وترخصُ بجيرانِهَا، فعَلَىٰ المسلمِ إِن أرادَ أَن يسكُنَ بيتًا أنْ يجتهدَ وسعَهُ فِي اختيارِ جيرانِهِ، فإنَّ بِهِم صلاحَ السُّكنَىٰ وفسادَهَا.

وَقَد قيلَ:

اطلُـبْ لِنَفْسِكَ جِيـرَانًا تُجَـاوِرُهُم   لَا تَـصلُحُ الـدَّارُ حَتَّـىٰ يَـصلُحَ الجَـارُ

وَإِذَا ابتُليتَ بجارٍ مؤذٍ، فاصبر عَلَىٰ مَا بُليتَ بِهِ حتَّىٰ يقضِي اللهُ أمرًا كانَ مفعولًا، فإنَّ مِن حسنِ الجوارِ الصبرَ عَلَىٰ أذَىٰ الجارِ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليسَ حسنُ الجوارِ كَفَّ الأذَىٰ، حسنُ الجوارِ الصَّبرُ عَلَىٰ الأذَىٰ».

وقالَ: «إِلَىٰ جنْبِ كلِّ مؤمنٍ منافقٌ يؤذِيهِ».

فَلَا تقابِلِ الإساءةَ بالإساءةِ، بَلِ اصبِر عَلَىٰ ذلكَ، فإنَّ اللهَ ناصرُكَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلَم أنَّ النَّصرَ معَ الصبرِ**»[1].

إنَّ مِن أعظمِ التوفيقِ وأسبابِ السعادةِ أَن يُحسِنَ المرءُ إِلَىٰ جيرانِهِ ويُحسنُوا إليهِ، وَأَن يبذلَ جهدَهُ فِي ذلكَ، وَأَن يبسطَ إِلَيهِم معروفَهُ ويحفظَ جوارَهُم غايةَ الحفظِ، وَبِمَا استطاعَ إِلَىٰ ذلكَ سبيلًا، فإنَّ حفْظَ الجوارِ مِن كمالِ الإيمانِ، والموفَّقُ مَن وفَّقهُ اللهُ تعالَىٰ.

وَمِن أعظَمِ حقوقِ الجارِ كفُّ الأذَىٰ عنهُ، سواءٌ كانَ بالقولِ أَو الفعلِ، وَقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ذلكَ أشدَّ التَّحذيرِ، فقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ لَا يؤمنُ، واللهِ لَا يؤمنُ، واللهِ لَا يؤمنُ. قيلَ: مَن يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الَّذي لَا يأمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ**»[2]؛ أَي:

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦).

الَّذي لَا يأمنُ جارُهُ ظُلمَهُ وغدرَهُ وخيانتَهُ وعُدوانَهُ، وَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ تحريمِ العدوانِ عَلَىٰ الجارِ بأيِّ صورةٍ كانَت، وأنَّ ذلكَ مِن كبائرِ الذنوبِ، فليحذَر المسلمُ أشدَّ الحذرِ أَن يكونَ متصفًا بشيءٍ مِن هذِهِ الأوصافِ.

وَقَدِ استعاذَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن جارِ السُّوءِ فقالَ: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن جارِ السوءِ فِي دارِ المُقامةِ، فإنَّ جارَ الباديةِ يتحولُ**»(١)، وَمَا استعاذَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن جارِ السُّوءِ إلَّا لعظمِ ضرَرِهِ، حيثُ إنَّه مطلعٌ عَلَىٰ أسرارِ جارِهِ، قريبٌ مِن الأحداثِ الَّتِي تمرُّ بِهِ، ولذلكَ فإنَّهُ يبلغُ فِي أذاهُ مَا لَم يبلُغهُ غيرُهُ.

فالواجبُ عَلَىٰ المسلمِ كفُّ أذاهُ عَن جارِهِ فَلَا يؤذيهِ بقولِهِ أَو فعلِهِ، كاطِّلاعِهِ عَلَىٰ محارمِهِ، أَو إفشاءِ أسرارِهِ، أَو تتبُّعِ عوراتِهِ، أَو أنَّهُ لَا يكفُّ أبناءهُ عَن أذيَّةِ جارِهِ، كمَن يرَىٰ تعدِّي أولادِهِ عَلَىٰ بيتِ جارِهِ بالأذَىٰ وَلَا يأخذُ بأيديهِم، فإنَّ هَذَا مِن سوءِ الجوارِ المُخَالفِ للآدابِ الإسلاميةِ والأخلاقِ المَمدُوحةِ.

قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِن حقِّ الجارِ أَن تبسطَ إليهِ معروفَكَ، وتكفَّ عنهُ أذاكَ».

وكانَ لأبِي الأسودِ الدؤلِي بالبصرةِ دارٌ، وَلَهُ جارٌ يتأذَّىٰ منهُ فِي كلِّ وقتٍ، فباعَ دارَهُ، فقيلَ لهُ: بعتَ دارَكَ؟ قالَ: بَل بعتُ جارِي، فأرسلهَا مثلًا.

وباعَ رجلٌ منزلَهُ بثمنٍ رخيصٍ فعوتبَ علَىٰ ذلكَ فقالَ:

يَلُومُونَنِي إِذ بِعتُ بِالرُّخصِ مَنزِلِي ... وَمَا عَلِمُوا جَارًا هُنَاكَ يُنَغِّصُ
فَقُلتُ لَهُم كُفُّوا المَلَامَ فَإِنَّهَا ... بِجِيرَانِهَا تَغلُو الدِّيَارُ وَتَرخُصُ

وَقَد كانَ أهلُ الجَاهليَّةِ يفتخرونَ بإحسانِهِم إِلَىٰ الجارِ وكفِّ الأذَىٰ عنهُ، قالَ عنترُ ابنُ شدَّادٍ:

---

(١) رواه ابن حبان، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٦).

وَأَغُـضُّ طَرفِـي إِن بَـدَت لِـي جَارَتِـي حَتَّـــىٰ يُـــوَارِي جَارَتِـــي مَأوَاهَـــا

وَقَالَ غيرهُ:

وَإِن جَارَتِـــي أَلْـــوَت رِيَـــاحٌ بِبَيـــتِهَا تَغَافَلـــتُ حَتَّـــىٰ يَـــستُرَ البَـــيتَ جَانِـــبُهُ

فَإِذا كانَت هذِهِ أخلاقَ أهلِ الجاهليةِ، أَفَلا يحسُنُ بالمسلمِ الَّذي كرَّمهُ اللهُ بالإسلامِ أَن يكونَ متَّصفًا بهَا مِن بابِ أولَىٰ؟

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ للهِ عَلَىٰ توفيقهِ العامِّ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وحدهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصابيحِ الظلامِ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّ إلحاقَ الأذَىٰ بالجَارِ بأيِّ نوعٍ منَ الأنواعِ خُلقٌ دنيءٌ لَا يليقُ بمسلمٍ يتخلَّقُ بأخلاقِ الإسلامِ أَن يتَّصفَ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ بابٌ مِن أبوابِ الإثمِ، وسبيلٌ إِلَىٰ دعاءِ النَّاسِ عَلَىٰ هذَا المُؤذِي، وليسَ بخيرٍ مَن دعَا علَيهِ النَّاسُ.

جاءَ رجلٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشكُو جارَهُ، فقالَ: «**اذهَب فاصبِر، فأتاهُ مرَّتينِ أَو ثلاثًا، فقالَ: اذهَب فاطرَح متاعَكَ فِي الطَّريقِ، فطرحَ متاعَهُ فِي الطريقِ، فجعلَ النَّاسُ يسألونَهُ فيخبرهُم خَبرَهُ، فجعلَ النَّاسُ يلعنونَهُ: فعلَ اللهُ بِهِ وفعلَ وفعلَ، فجاءَ إِلَيهِ جارُهُ فقالَ لَهُ: ارجِع لَا ترَىٰ منِّي شيئًا تكرهُهُ**»[1].

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٩).

فهَل يريدُ ذلكَ المؤذِي أَن يدعُو عليهِ جارُهُ حينَ يرَىٰ تفاقُمَ ظلمِهِ وعدوانِهِ؟

وَكَمَا أنَّ حفظَ الجوارِ مِن علاماتِ كمالِ الإيمانِ، فإنَّ أذيَّةَ الجارِ مِن منقصاتِ الإيمانِ، فالواجبُ عَلَىٰ العاقلِ الحذرُ منهَا، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلَا يؤذِ جارَهُ**»، فقَد جعلَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كفَّ الأذَىٰ عَنِ الجارِ دليلًا عَلَىٰ كمالِ الإيمانِ.

ويعظمُ المصابُ إذَا وقعَ الأذَىٰ عَلَىٰ الجارِ فِي دارِ إقامتِهِ فِي مثلِ هذهِ البيوتِ المتلاصقةِ الَّتِي لَا سبيلَ للانتقالِ عنهَا، فإذَا كانَ هوَ فِي بيتِ إقامتِهِ وجارُهُ لَا يكفُّ عنهُ أذاهُ وأذَىٰ أبنائِهِ فكيفَ السبيلُ إِلَىٰ الخلاصِ؟

وَمِن أجلِ ذلكَ فقَد قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تعوَّذُوا باللهِ مِن جارِ السُّوءِ فِي دارِ المقامِ؛ فإنَّ جارَ الباديةِ يتحوَّلُ عنكَ**»، فليتقِ اللهَ المسلمُ بكفِّ أذاهُ عَن جيرانِهِ، وليأخُذ عَلَىٰ يدِ زوجتِهِ وأبنائِهِ، وليكُن كفُّ الأذَىٰ قولًا وفعلًا، وَلَا يستغلُّ حياءَ بعضِ جيرانِهِ أَو ضعفِهِم، وَليحذَر أنْ يسلِّطَ اللهُ عليهِ مَن لَا يرحمُهُ، جزاءً وفاقًا بعملِهِ السيِّئ.

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[١].

✻✻✻

(١) سورة الأحزاب:٥٨.

(٥) حسنُ الظنِّ

الحمدُ للهِ الَّذِي مِن حكمتِهِ أَن جعلَ الجزاءَ مِن جنسِ الأعمال، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهَ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ ذُو الكرمِ والجلال، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الَّذِي فاقَ الخلقَ فِي كلِّ كمال، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ خيرِ صحبٍ وأشرفِ آل.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فإِنَّ الواجبَ عَلَىٰ المسلمِ أَن يُحسنَ الظنَّ بإخوانِهِ مَا استطاعَ إِلَىٰ ذلكَ سبيلًا، وَأَن يجعلَ حسنَ الظنِّ بالآخرينَ بوَّابةً يلجُ مِن خلالِهَا إِلَىٰ التعاملِ معَهُم، وعنوانًا لَهُ فِي معايشتِهِ مَعَ المجتمعِ؛ لأنَّ ذلكَ يؤدِّي بِهِ بالتالِي إِلَىٰ الراحةِ النفسيَّةِ والهدوءِ والسَّكينةِ القلبيةِ حينَ يُفرِّغُ قلبَهُ مِنَ التشويشِ الَّذِي يدفعُهُ إليهِ مراقبةُ الناسِ، والتعاملُ معَهُم بالظنونِ الكاذبةِ.

إنَّ حسنَ الظنِّ بالآخرينَ نعمةٌ عظيمةٌ يُنعِمُ اللهُ بهَا علَىٰ مَن شَاءَ مِن عبادِهِ، وهِيَ مِنَ الخصالِ الجميلةِ الَّتِي يَنعَمُ بهَا السعداءُ؛ لأنَّهَا تنأَىٰ بِهِم عَنِ المنغِّصاتِ، وَمَا ذاكَ إِلَّا لأنَّ الَّذِي يعاملُ الناسَ بسوءِ الظنِّ تجتمعُ إليهِ الأحقادُ والضغائنُ الَّتِي تَذْهَبُ برونقِ حياتِهِ، فتشَوَّشُ قلبَهُ وتنغِّصُ سعادتَهُ؛ لِذَا قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكم والظنَّ فإِنَّ الظنَّ أكذبُ الحَديثِ، وَلَا تحسَّسُوا وَلَا تَجسَّسُوا، وَلَا تنافَسُوا وَلَا تحاسَدُوا وَلَا تباغَضُوا وَلَا تدَابرُوا، وَكونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا**»(١).

(١) رواه البخاري (٦٠٤٦)، ومسلم (٢٥٥٨).

فمَن تأمَّلَ هذَا الحديثَ العظيمَ اتَّضحَ لهُ جليًّا أنَّ سوءَ الظنِّ والتجسسَ والتحاسدَ ونحوَ ذلكَ، مِن مُنَغِّصاتِ الأخوةِ، ومِن القوادحِ العظيمةِ فِي روابطِهَا، ولذلكَ ختمَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِهِ: «**وكونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا**».

وقَد حذَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِن سوءِ الظَّنِّ؛ لأنَّهُ مِنَ المُهلِكاتِ المُردِياتِ وَمِنَ القوادحِ فِي الدِّينِ فقالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١)، فسوءُ الظنِّ يقودُ إِلَىٰ الإثمِ؛ لِمَا يترتبُ عليهِ مِنَ النتائجِ الفَادِحةِ الَّتِي تنقلُ المرءَ مِن حيِّزِ الظنِّ والوهمِ النظريِّ إِلَىٰ التطبيقِ العمليِّ، فيجعلُ ظنَّهُ الكاذبَ بمنزلةِ الحقيقةِ، فيتعاملُ مَعَ الناسِ عَلَىٰ وفقَ مَا ظَنَّه بِهِم وَإِن كانُوا براَءَ ممَّا تصورَهُ وظنَّهُ بِهِم.

فكَم هُوَ جميلٌ أَن نجعلَ حُسنَ الظنِّ أساسَ التَّعاملِ معَ الآخرينَ، وَلِذَا فقَد كانَ السَّلفُ أحرصَ الناسِ عَلَىٰ هذَا الفهمِ، نظرًا لِمَا تمتَّعُوا بِهِ مِن حسنِ الديانةِ، وَمَا تميَّزُوا بِهِ مِنَ البصيرةِ الثاقبةِ الَّتِي جلَّت لَهُمُ الحَقائقَ وأبعدَت عنهُم كُلَّ وهمٍ، قالَ عبدُ الوهابِ بنُ الوردِ: «إنِ استطعتَ ألَّا يدخلَ أحدٌ مِن هذَا البابِ إلَّا أحسنتَ الظنَّ بِهِ فافعَل»، وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: «قالَ أبِي: يَا بنيَّ، إذَا سمعتَ كلمةً مِن امرئٍ مسلمٍ فَلَا تحملهَا علَىٰ شيءٍ مِنَ الشرِّ مَا وجدتَ لَهَا محمَلًا مِن الخيرِ، وَلِذَا فقَد كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقولُ: أحسِن بصاحبِكَ الظنَّ مَا لَم يغلبكَ».

فالمسلمُ يُحسنُ الظنَّ مَا وجدَ إِلَىٰ ذلكَ سبيلًا، ويتلمَّسُ الأعذارَ لإخوانِهِ تصديقًا لِمَا أبدَوا مِن ظاهرِ أحوالِهِم، وإراحةً لنفسِهِ مِن حملِ الهَمِّ والضَّغائنِ الَّتِي تُذهِبُ أنسَهُ وسَعَادتَهُ.

فالمَرءُ خلالَ فتراتِ حياتِهِ لا بُدَّ وأَن يتعرَّضَ لمواقفَ مختلفةٍ مِنَ الشدَّةِ والرخاءِ،

---

(١) سورة الحجرات:١٢.

والسرَّاءِ والضراءِ، فلا بدَّ أَن يأخذَ لكلِّ جزءٍ منهَا بنصيبٍ أوفرَ مِن حُسنِ التعاملِ، وأَن يَغُضَّ طرفَهُ عَن كثيرٍ مِنَ الأخطاءِ الَّتِي تحصلُ فِي حقِّهِ؛ لأنَّ الَّذِي يريدُ أَن يَستقصِيَ حقَّهُ كَامِلًا فِي كلِّ شيءٍ لَن تستقيمَ لَهُ حالٌ، وَلَن يحصلَ عَلَىٰ كلِّ مَا أرادَ، فلا بدَّ أَن يجعلَ قلبَهُ مُرتاحًا مِنَ الظنونِ الَّتِي تَقُودُهُ إِلَىٰ الهمِّ، فقَد يخطئُ أحدُ الناسِ فِي حَقِّكَ فَلَا تحمِل مَا فعلَهُ عَلَىٰ أسوأِ المَحَامِلِ؛ لأنَّ هَذَا لَن يضرَّهُ بقدرِ مَا يضرُّكَ ممَّا يحصلُ لكَ مِن تشويشِ عقلِكَ وتفرقِ همِّكَ.

وَإِن أخطأَ أحدٌ فِي حقِّكَ وجاءَ يعتذرُ فاقبَل منهُ حرصًا منكَ عَلَىٰ راحةِ قلبِكَ، وَأن تجعلَ لصاحبِكَ بابًا إِلَىٰ الرجوعِ إِلَىٰ جادةِ الحقِّ.

فلماذَا تجدُ بعضَنَا إِن أخطأَ أحدٌ فِي حقِّهِ حملَهُ عَلَىٰ أسوإِ المحاملِ وظنَّ بِهِ أسوأَ الظنِّ، وَفِي كثيرٍ مِنَ الأحيانِ يكونُ الخطأُ صغيرًا تافهًا لَا يستحقُّ كلَّ هَذَا العنتِ والعناءِ، بَل وَفِي أحيانٍ أخرَىٰ قَد يقعُ منَّا فِي حقِّ الآخرينَ أعظمُ مِن هَذَا الخطإِ وأشدُّ مِن هذَا التقصيرِ.

أليسَ لَو حصلَ منَّا ذلكَ لتمنَّىٰ أحدُنَا أَن يجدَ لَهُ أخوهُ عذرًا فيمَا أخطأَ بِهِ، فكذلكَ ينبغِي للمسلمِ أَن يجعلَ إخوانَهُ فِي مثلِ مكانِهِ فيعاملُهُم عَلَىٰ نحوِ ذلكَ، قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَلُم أخاكَ عَلَىٰ مَا وَدِدتَ أَن يكونَ لكَ العذرُ فِي مثلِهِ».

وقيلَ للإمامِ أحمدَ: «إنَّ هارونَ بنَ عبدِ اللهِ ذهبَ إِلَىٰ رجلٍ شتمَهُ ليعتذرَ إليهِ، فلَم يخرُج إليهِ وأغلقَ البابَ فِي وجهِهِ، فقالَ: سبحانَ اللهِ، أمَا إِنَّهُ قَد بُغِيَ عليهِ، وسيُنصرُ عليهِ، رجلٌ نقلَ قدمَهُ وجاءَ يعتذرُ وَلَا يخرجُ إليهِ؟!».

عبادَ اللهِ:

هَذَا وإنَّ مِن أعظمِ سُوءِ الظنِّ السعيَ إِلَىٰ تخوينِ الآخرينَ وتتبعِ عوراتِهِم، فإنَّ هَذَا مِن

أعظمِ أخلاقِ السوءِ وسبيلٍ إِلَىٰ فتحِ بابِ الرَّذائلِ وتفككِ المجتمعاتِ، وَقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ إِن تتبعتَ عوراتِ الناسِ أفسدتَهُم أَو كِدتَ تفسِدُهُم»(١).

مثالُ ذلكَ: مَا يفعلُهُ بعضُ الناسِ مِن أَنَّهُ يسألُ ابنَهُ عَن ذهابِهِ ورجوعِهِ، فإِذَا قالَ لَهُ شيئًا كذَّبَهُ رغمَ أَنَّهُ كانَ صادقًا فيمَا قالَ، وهذَا مِن أعظمِ الأخطاءِ وسيقودُ ذلكَ الابنَ بالتالِي إِلَىٰ استمراءِ الكذبِ وأَلَّا يَصْدُقَ فِي شَيءٍ مَعَ والدِهِ، فإِذَا كانَ الوالدُ لَا يصدِّقُهُ عَلَىٰ أيةِ حالٍ فكيفَ يَصْدُقُ بعدَ ذلكَ؟!

وهذَا هوَ المقصودُ بقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفسدتَهُم أَو كدتَ تفسدُهُم**».

وَمِن ذلكَ أَن يتخوَّنَ الرجلُ امرأتَهُ ويتتبعَ عوراتِهَا، فيُدِيمُ السؤالَ: أينَ ذهبتِ؟ إِلَىٰ أينَ تذهبينَ ببناتِي؟ مَعَ مَن تتحدثينَ فِي الهاتفِ؟... وهكذَا.

أَو أَنَّهُ يتلمَّسُ عَورةَ زوجتِهِ بأَن يأتِي البيتَ فجأةً، أَو أَن يدخلَ عليهِم قادمًا مِن سفرٍ دونَ أَن يخبرهَا بقدومِهِ، وَهَذَا كلُّهُ مِن تلمُّسِ العثراتِ، ويُخافُ عَلَىٰ صاحبِهِ أَن تقعَ عينُهُ عَلَىٰ شيءٍ مِنَ السوءِ.

وهناكَ فرقٌ شديدٌ بينَ حسنِ التربيةِ والخوفِ علَىٰ الزوجةِ والأبناءِ، ومسألةِ تخوينِ الأسرةِ، حتَّىٰ يقودَهُم إِلَىٰ الانحرافِ ويُنبهَهُم إِلَىٰ مساوئِ الأخلاقِ، فإِنَّ بعضَ الناسِ إِن رأَىٰ فِي نفسِهِ أَنَّهُ لَا يُوثَق بِهِ، وأَنَّهُ مطعونٌ فِي صدقِهِ وسلامتِهِ قادَهُ ذلكَ إِلَىٰ العنادِ.

هَذَا وَإِنَّ زيادةَ الحرصِ -إِذَا كانَت عَلَىٰ غيرِ الهديِ الربانيِّ- قَد تُنبِّهُ المرأةَ والأبناءَ إِلَىٰ الخيانةِ، فعلَىٰ المرءِ فِي مثلِ هذهِ الأحوالِ أَن يُحسِنَ الظنَّ بأهلِ بيتِهِ، وَأَن يعاملَهُم بسلامةِ الصدرِ نحوَهُم، مَعَ التوجيهِ والمراقبةِ والتحذيرِ ممَّا يكونُ فِي المجتمعاتِ

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٢).

مِنَ الأخلاقِ المنحرفةِ، مَعَ اليقينِ التامِّ أَنَّ عملَ المرءِ إِنَّمَا هوَ مِن بابِ بذلِ الأسبابِ وأنَّ مَرَدَّ الأمرِ بعدَ ذلكَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كمَن يبذرُ بذرًا فِي أرضٍ، فإن شاءَ اللهُ تعالَىٰ أَن تُنْبِتَ أنبتَت، وَإِن شاءَ لَم تُنبِت، فالمرءُ يعملُ بالأسبابِ وَمَرَدُّ الأمورِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وليعلَم المسلمُ أنَّ سوءَ الظنِّ الذِي ينتجُ عنهُ مثلُ هذهِ الأعمالِ الدنيئةِ، ممَّا يُلحقُ الأذَىٰ بالمسلمينَ، وهذَا مِن أعظمِ الإثمِ والبهتانِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1].

والمسلمُ الحقُّ لَا يرضَىٰ أَن يؤذِيَ إخوانَهُ بسُوءِ الظنِّ بِهِم، فكَيفَ بِمَن كانُوا تحتَ رعايتِهِ ويدِهِ، فهذَا مِن بابِ أولَىٰ وأحرَىٰ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الربِّ العظيم، الواسعِ الحَلِيم، الرءوفِ الرَّحيم، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلا اللهُ الجَوَادُ الكَرِيم، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وَعَلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَن تبعَهُم فِي الصراطِ المُستَقيم.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ الواجبَ عَلَىٰ المسلمِ أَن يظنَّ بإخوانِهِ المسلمينَ خيرًا مَا استطاعَ إِلَىٰ ذلكَ سبيلًا، فإنَّ هَذَا مِن حقِّ المسلمِ عَلَىٰ أخيهِ، كَمَا أنَّ فيهِ السعادةَ البالغةَ، وإراحةَ الذهنِ

(١) سورة الأحزاب:٥٨.

مِنَ الكدِّ والتفكيرِ.

لمَّا خاضَ الناسُ فِي حادثةِ الإفكِ واتهمُوا أمَّنَا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفاحشةِ، وَقَد تولَّىٰ كِبْرَ ذلكَ رأسُ المنافقينَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنِ سَلُولَ، جاءَت أمُّ أيوبَ لأبِي أيوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَت: يَا أَبَا أيوبَ، أَمَا تسمعُ مَا يقولُ الناسُ فِي عائشةَ؟ قالَ: نعَم، وذلكَ الكذِب، أكنتِ فاعلةً ذلكَ يَا أمَّ أيُّوب؟

قالَت: لَا واللهِ مَا كنتُ لأفعلَهُ. قالَ: فعائشَةُ واللهِ خيرٌ مِنكِ.

فأنزلَ اللهُ فِي أَبِي أيوبَ وصاحبتِهِ مادحًا لهُمَا: ﴿**لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾[1].

وتأمَّل قولَهُ تعالَىٰ: ﴿**بِأَنفُسِهِمْ**﴾، فإنَّهُ أنزلَ المسلمَ منزلةَ النَّفسِ فلَم يقُل: (بإخوانِهم)، بَل قالَ: ﴿**بِأَنفُسِهِمْ**﴾؛ أَي: كَما أَنَّكَ ترَىٰ أنَّ هذَا الفِعلَ والظنَّ لَا يليقُ بكَ، فالواجبُ عليكَ أَن تقيمَ إخوانَكَ مقامَ نفسِكَ فَلَا تظنَّ بهِم إلَّا خيرًا.

كَمَا أنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ أَن يجتنبَ الحكمَ علَىٰ قلوبِ الناسِ، بأنَّهُم مَا فعلُوا كذَا وكذَا إلَّا مِن أجلِ كذَا وكذَا، كَمَن يتَّهِم غيرَهُ أنَّهُ مَا تصدَّقَ إلَّا رياءً، أَو أنَّهُ مَا أصلحَ بينَ الناسِ إلَّا لأنَّهُ يريدُ العلوَّ فِي الأرضِ، وَمَا أكرَمَ إلَّا ليُمدَحَ، وهكذَا، فإنَّ هذَا مِن سُوءِ الطِّباعِ، وسيئِ الأخلاقِ، وضعفِ الدينِ؛ لأنَّ مردَّ النياتِ إلَىٰ عالِمِهَا سبحانَهُ، ولَا يجوزُ الحكمُ عَلَىٰ قلوبِ الناسِ بإبطالِ أعمالِهِم أَو اتهامِهِم بسوءٍ عملًا بالظنِّ الكَاذبِ دونَ بينةٍ وَلَا بُرهانٍ، والعاقلُ مَن اشتغلَ بعيوبِ نفسِهِ عَن تلمُّسِ عوراتِ الناسِ وتتبُّعِ عثراتِهِم، واجتهدَ بإصلاحِ حالِهِ.

عَلَىٰ أنَّهُ لَرُبَّمَا يؤخَذُ بالظنِّ فِي بعضِ الأحوالِ إِن دلَّت القرائنُ عَلَىٰ سوءِ عملِ

---

(١) سورة النور:١٢.

صاحبِهِ، ولذلكَ قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١)، وهذَا يعنِي أنَّ بعضَ الظنِّ ليسَ إثمًا، وهوَ مَا دلَّت عليهِ قَرائنُ الأحوالِ، كأَن تعرفَ أنَّ هذَا المرءَ كذابٌ، أَو أنَّهُ يريدُ الإيقاعَ بينَ المسلمينَ وظهرَ لكَ جليًّا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حالِهِ، فالواجبُ أَن تحذَرَ منهُ، وتخافَهُ عَلَىٰ إخوانِكَ، مثالُ ذلكَ: لَو أَنَّ رجلًا عُرِفَ عنهُ أنَّهُ يستَدِينُ وَلَا يوفِّي مَا عليهِ لغرمائِهِ، فلَو ظننتَ بِهِ ظنَّ السوءِ فهذَا قَد قادَكَ إليهِ قرينةُ حالِهِ فَلَا إثمَ عليكَ، وهكذَا كلُّ مَن عُلِمَ مِن حالِهِ الشرُّ، قالَ سفيانُ الثوريُّ: «مِنَ العجبِ أَن يُظنَّ بأهلِ الشرِّ الخيرُ».

وَعَلىٰ أنَّ المسلمَ مُطالَبٌ بإحسانِ الظنِّ فَلَا يعنِي ذلكَ أَن يكونَ غافلًا حتَّىٰ يتلاعبَ بِهِ اللئامُ، قالَ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لستُ بخبٍّ وَلَا الخبُّ يخدعُنِي»، أَي: لستُ بالمخادعِ المفسدِ، وَلَا يخدعُنِي مَن كانَ هَذَا وصفُهُ.

نسأَلُ اللهُ أَن يرزقَنَا سلامةَ الصدورِ، وأَن يعيذَنَا مِن المهالكِ والشرورِ، وأَن يهدينَا لصالحِ الأعمالِ والأخلاقِ.

❊❊❊

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٦) الاختلاط

الحمدُ للهِ معزِّ مَن أطاعَهُ واتَّقاهُ، ومُذِلِّ مَن أضاعَ أمرَهُ وعصاهُ، وفَّقَ أهلَ طاعتِهِ للعملِ بمَا يرضاهُ، وحقَّقَ عَلَىٰ أهلِ معصيتِهِ مَا قدَّره عليهِم وقضاهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَا نعبدُ إلَّا إيَّاهُ، وَلَا ربَّ لَنَا سواهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الَّذِينَ جاهدُوا فِي اللهِ حقَّ جهادِهِ وَكانَ هواهُم تبعًا لِهُدَاهُ.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمونَ:

فإنَّ الحديثَ عَن بعضِ الظواهرِ السلبيةِ المُتفشيةِ فِي مجتمعاتِنَا، لهُوَ نوعٌ مِنَ السباحةِ ضدَّ التيارِ، وَمَا ذلكَ إلَّا لبروزِ تلكَ الآفاتِ بينَ صفوفِنَا حتَّىٰ أصبحَت واقعًا مقررًا، جعلَ الفارقَ كبيرًا بينَ مَا نحنُ فيهِ، والواقعِ الَّذي نأملُ أَن نكونَ متصفينَ بهِ.

ويعظمُ المصابُ ويتفاقمُ حينَ تحاولُ أَن تعالجَ الأخطاءَ فِي وقتٍ عظُمَت فيهِ الشبهاتُ، وتتابعَ الناسُ فِي الشهواتِ، حتَّىٰ وقعُوا بهَا مِن حيثُ لَا يشعرونَ.

ولكِن حسبُكَ أَن تأمُرَ بمعروفٍ وتنهَىٰ عَن منكرٍ، ولابدَّ مِن محاربةِ تلكَ الأخطارِ الَّتِي تهددُ المجتمعاتِ الإسلاميةِ، وإنَّما الأجرُ علَىٰ قدرِ المشقةِ، لَا سيمَا فِي زمَنٍ اشتدَّتْ فيهِ غربةُ الإسلامِ، وانفلَتَ كثيرٌ مِنَ الناسِ مِن تعاليمِ دينِهِم، فباتُوا يتخبَّطونَ علَىٰ غيرِ هُدًىٰ، ويمشونَ علَىٰ غيرِ بصيرةٍ.

وَلَا يتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّىٰ يُصِيبَهُم ... وَلَا يعرِفُونَ الأَمرَ إلَّا تَدَبُّرَا

إنَّ الحَديثَ عنِ اختلاطِ النساءِ بالرجالِ فِي مواقعِ الدراسةِ والعَملِ وأماكنِ اللهوِ، حديثٌ مُؤلمٌ وحزينٌ، يبعثُ فِي النفسِ الأسَىٰ، ويُجَددُ الأشجانَ فِي القلوبِ.

فهوَ واقعٌ مريرٌ يصعبُ وصفُهُ، وشرٌّ مستطيرٌ يعسرُ علاجُ مَن وقعَ فيهِ، فماذَا نقولُ عنهُ وماذَا نذرُ؟!

لَقد صَوَّرَ أعداءُ الإسلامِ لأهلِ الإسلامِ أنَّ خروجَ المرأةِ للتعليمِ المختلَطِ والعملِ أيًّا كانَ نوعُهُ أنَّ ذلكَ واجبٌ مِن الواجباتِ، وأنَّ خروجَهنَّ للمَحَافِلِ والمجتمعاتِ المختلطةِ ضرورةٌ منَ الضروريَّاتِ الَّتِي لَا ينبغِي أَن يفرَّطَ فيهَا.

وصَوَّرُوا للمرأةِ أَنَّ جلوسَهَا فِي البيتِ سِجْنٌ لَهَا، وشللٌ لطاقَتِهَا، وكأنَّ وظيفتَها فِي هذَا الوقتِ صارَت خارجَ البيتِ لَا داخِلَهُ، وَلَا زالُوا يبثونَ سمومَهُم حتَّىٰ أصبحَ ذلكَ واقعًا مسلَّمًا.

وَإِن كانَ ذلكَ ممَّا يصدقُهُ النساءُ لِضَعْفِ عقولِهِنَّ، فاعجَبْ مِن رجالٍ دهمتهُمُ الغفلةُ، وشاركُوا فِي فصولِ هذهِ القصةِ المحزنةِ، فاستسلمُوا لهذهِ الجريمةِ النكراءِ، ولَم يستفيدُوا مِن عِبَرِ الزمانِ وعظاتِهِ.

إنَّ اختلاطَ النساءِ بالرجالِ فِي الدراسةِ أَوِ العملِ، جريمةٌ عظيمةٌ فِي حقِّ المجتمعِ عمومًا، وَفِي حقِّ الأُسْرةِ خصوصًا؛ لِمَا ينتجُ عَن ذلكَ منَ الإهمالِ وضياعِ البيوتِ، وتشتتِ الشملِ وتخلخلِ البناءِ حتَّىٰ يتهاوَىٰ.

إنَّ مِنَ الحَسرةِ والغبنِ: أَن يزجَّ المرءُ بزوجتِهِ أَو محارِمهِ إِلَىٰ هذهِ الأماكنِ المختَلَطةِ الَّتِي تجنِي بعدَهَا المرأةُ كلَّ همٍّ وكمَدٍ، فتبدأُ تُحِسُّ بتغيُّرِ شخصِهَا الَّذِي كانَت تعهَدُهُ، ولكن لَا سبيلَ إِلَىٰ عودتِهِ كمَا كانَ وهيَ لَا تزالُ تعيشُ فِي هذهِ الأمكنةِ المليئةِ بالفوضَىٰ.

وإنَّ مِن أعظَمِ مَا دعَا الناسَ إِلَىٰ هذَا الإسفافِ والتهاونِ: تساهُلَ الكثيرِ بأمرِ الفضيلَةِ، وذهابَ الغَيْرةِ والحياءِ مِنَ القلوبِ، والنظرَ إِلَىٰ المجتمعِ أَنَّهُ فَعَلَ ذلكَ فنفعلُ نحوَ فعلِهِ.

تقليدٌ حتَّىٰ فِي الأخطَاءِ!

كمَا أنَّهُ قادَ بعضَ الناسِ إِلَىٰ ذلكَ الفعلِ المشينِ ضعفُ الثقةِ باللهِ، وكأنَّ الأرزاقَ بيدِ البشرِ، وأنَّ الوظائفَ هِيَ الَّتِي تؤمِّنُ الرزقَ، ونَسُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾(١).

والأدهَىٰ مِن ذلكَ: أَن يكونَ القائدُ إِلَىٰ زجِّ النساءِ فِي الأعمالِ المختلطةِ الجشَعَ واستثمارَ راتِبِ المرأةِ، وَلَو كانَ علَىٰ حسابِ الرجُولةِ والكَرامةِ.

فيبدأُ يرَىٰ تغيُّرَ أحوالِ زوجتهِ ونسائهِ، وَلَا يتكلمُ لأنهُ حريصٌ عَلَىٰ المالِ.

بَل والأدهَىٰ أنَّهُ لَو أرادَ أَن يُجلسَهَا فِي البيتِ بعدَ عملِهَا فبُعدًا لَهُ حينذاكَ، فليسَ الأمرُ كَمَا لَو لَم تختلطِ المرأةُ وتكسِرُ قيودَ الجرأةِ.

فَيَا أسفَا مِن واقعٍ مُخزٍ لَا ندرِي كيفَ نعالجهُ، إِذَا لَم يكُن ثمَّ رجالٌ يشعرُونَ بالمسئوليةِ؟!

إِنَّ الاختلاطَ يولِّدُ أخلاقَ السوءِ، ويجعلُ المرأةَ مسترجلةً جريئةً، مهمَا كانَ عندَهَا منَ الحياءِ، لأنَّ انعكاسَ الطبعِ فِي عملِهَا سيكونُ أثرُهُ فِي المنزلِ.

تدخلُ المرأةُ إِلَىٰ مكانِهَا المختلطِ أوَّلَ مرةٍ هادئةً ساكنةً ثمَّ بعدَ أَن تخالطَ الرجالَ فإِذَا بكَ وقَد رأيتَ امرأةً ترفعُ صوتَهَا كمَا يفعلُ الرجالُ، ثمَّ يأتِي الزوجُ يشتكِي ذلكَ وأنَّهُ يعانِي مِن عدمِ الاحترَامِ، ونسيَ أنَّهُ هوَ الَّذِي فتَحَ البابَ عَلَىٰ نفسِهِ.

وأخرَىٰ تترفعُ علَىٰ زوجِهَا، وثالثةٌ تتعامَلُ مَعَ زوجِهَا بالألفاظِ البذيئَةِ.

وفِي مكانٍ يتجملُ فيهِ الشبابُ تجملَ النساءِ، لكَ أَن تتصورَ مَا يحدثُ مِنَ الهَرجِ والمَرجِ وانفلاتِ الأخلاقِ مِن قبلِ النساءِ سواءً كانَ ذلكَ بالضحكاتِ العاليةِ أَو العطورِ

---

(١) سورة الذاريات:٥٨.

النَّفَّاذةِ أَو الملابسِ الوقحةِ، أَو أعظمَ مِن ذلكَ وأبعدَ، فيَا لمَوتِ الفضيلةِ!

لَا نقولُ مقولَةَ السفهاءِ: أَنَا ابنتِي ثقةٌ، أنَا زوجتِي ثقةٌ، فكلُّ الناسِ يقولونَ ذلكَ حتَّىٰ الفَجَرة.

وَمَا انتشارُ الفاحشةِ والفسَادِ إلَّا بسببِ هذَا التساهلِ المشِينِ.

كيفَ يسمحُ رجلٌ لمحارمهِ أَن تدرسَ أَو تعملَ معَ رجالٍ ذكورٍ يتفننونَ فِي طُرقِ الاصطيادِ؟!

وَأَكثَرُ مَا يكُونُ الشَّوقُ يَومًا إِذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

قيلَ لامرأةٍ مِن أشرافِ العربِ: مَا حملَكَ عَلَىٰ الزِّنَا؟ قالَت: قربُ الوِسادِ وطولُ السوادِ، أَي: قربُ وسادةِ الرجلِ مِن وِسادَتِي، وطولُ السَّوادِ بيْنَنَا.

فالمرأةُ يجبُ أَن تكونَ بعيدةً عَنِ الرجالِ حتَّىٰ تبقَىٰ مصونةً، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[1].

أَلَا يظنُّ مَن زجَّ بنسائِهِ فِي هذهِ الأماكنِ أَنَّهُ يعرضهُنَّ للفتنِ؟!

فترَىٰ أصنافًا مِنَ الرجالِ، وأشكالًا مِنَ الفتنِ، جمالُ خلقةٍ.. حلاوةُ أسلوبٍ.. تفنُّنٌ فِي اللباسِ!

ثمَّ أَلا يظنُّ أَنَّهُ حينَ يرسلهَا إِلَىٰ هذهِ الأماكنِ أَنَّهَا ستكتشفُ نَقصَهُ مِن خلالِ رؤيةِ غيرِهِ.

عبادَ اللهِ:

لقَد اعتنَىٰ الإسلامُ بالوقايةِ مِن أسبابِ الاختلاطِ وتعَاطِيهِ لمَا ينتجُ عَن ذلكَ مِنَ الخَلَلِ وانهيارِ الأخلاقِ، بَل إِنَّهُ منعَ منهُ حتَّىٰ فِي الشعائرِ العظيمةِ فكيفَ بالكمالياتِ،

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٣.

فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصلاةِ: «**خيرُ صفوفِ الرجَالِ أوَّلُهَا وشرُّهَا آخرُهَا، وخيرُ صفوفِ النسَاءِ آخرُهَا وشرُّهَا أوَّلُهَا**»[(١)]، وقالَ: «**خيرُ مساجدِ النساءِ قعرُ بيوتِهِنَّ**»[(٢)]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٣)].

ونهَىٰ الإسلامُ عَن الخلوةِ بالمرأةِ الأجنبيةِ عَلَىٰ الإطلاقِ إلَّا مَعَ ذِي محرمٍ، وعَن السفرِ إلَّا معَ ذِي محرمٍ، سدًّا لذريعةِ الفسادِ وإغلاقًا لبابِ الإثمِ وحسمًا لأسبابِ الشرِّ.

كمَا حرَّمَ الوسائلَ الموصلةَ إِلَىٰ الوقوعِ فيمَا حرَّمَ اللهُ، والتِي يقودُ إليهَا هذَا الاختلاطَ، حمايةً للنساءِ والرجالِ مِن مكائدِ الشيطانِ؛ ولِذَا فقَد صحَّ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**مَا تركتُ بعدِي فتنةً هيَ أضرُّ عَلَىٰ الرجالِ مِن النساءِ**»[(٤)]، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا الدنيَا واتَّقوا النساءَ؛ فإنَّ أولَ فتنةِ بنِي إسرَائيلَ كانَت فِي النساءِ**»[(٥)].

وَمِن المعلومِ أنَّ المرأةَ إذَا نَزَلَت إِلَىٰ ميدانِ الرجالِ فلا بدَّ أَن تكلمَهُم ويكلمُوهَا، ولا بدَّ أَن تُرقِقَ لهُم الكلامَ وأَن يرققُوا لهَا الكلامَ، والشيطانُ مِن وراءِ ذلكَ يُزَيِّنُ ويُحَسِّنُ، ويدعُو إِلَىٰ الفاحشةِ، حتَّىٰ يقعُوا فريسةً لَهُ، واللهُ حكيمٌ عليمٌ حيثُ أمرَ المرأةَ بالحجابِ، وَمَا ذاكَ إلَّا لأنَّ الناسَ فيهِم البرُّ والفاجرُ، والطاهرُ والعاهرُ، فالحجَابُ يمنعُ بإذنِ اللهِ مِن الفتنةِ، ويحجِزُ دواعيهَا، وتحصلُ بِهِ طهارةُ قلوبِ الرجالِ والنساءِ، والبعدُ عَن مظانِّ التهمةِ.

---

(١) رواه مسلم (٤٤٠).
(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩٦).
(٣) سورة الأحزاب:٣٣.
(٤) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).
(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾(١)، وخيرُ حجابٍ للمرأةِ بعدَ حجابِ وجهِهَا وجسمِهَا باللباسِ هوَ بيتُهَا.

ثُمَّ هَل نستطيعُ أَن نتصورَ لحظةً أَنَّ مَن اختلطَت نساؤُهُ لَا يرَىٰ مواقعَ الخللِ؟!

أَلَمْ يكُن قَد ابتليَ بزيارةِ أماكنِ الاختلاطِ لإنهاءِ عملٍ؟

أَو كانَ هوَ يعملُ فِي عملٍ مُختَلطٍ؟

أَلَا يرَىٰ مَا فِي هذهِ الأماكنَ -مهمَا تحفَّظَ أصحابُهَا- مِن الإسفافِ وسقوطِ الحياءِ والهيبةِ؟

فكيفَ يزجُّ بأهلهِ فِي أماكنَ مَا سُنَّتْ قوانينُ الاختلاطِ فيهَا، إلَّا مِن أجلِ إشاعةِ الفاحشةِ والرذائلِ؟!

عجبًا لِمَن يرَىٰ العِبرَ فيزجُّ بنسائهِ إِلَىٰ هذهِ الأماكنِ المُظلمةِ المنتنةِ، وَيدفَعُهُنَّ نحوَ الفتنةِ بشدَّةٍ!

الغيرةَ الغيرةَ أيُّهَا العقلاءُ!

قالَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أتعجَبُونَ مِن غيرةِ سعدٍ؟ لَأنَا أغيرُ مِن سعدٍ، واللهُ أغيرُ منِّي**»(٢)، وقالَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لَا خيرَ فيمَن لَا يغارُ».

أخبرونِي: كيفَ يرضَىٰ رجلٌ أَن يكونَ هاتفُ زوجتهِ النَّقَّالُ مليئًا بأرقامِ زُملاءِ العملِ؟

هَل وصلنَا إِلَىٰ هذهِ الحالةِ مِن الضياعِ؟!

هَل تستغرِب مثلَ هَذَا؟! هُوَ الَّذِي أوصلهَا إِلَىٰ هذهِ الحالِ.

---

(١) سورة الأحزاب:٥٣.

(٢) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

الاختلاطُ أَبُو الرذيلةِ وحاميهَا، وَفِي هذهِ الأماكنِ يختلِسُ الفجرةُ مَا شاءُوا دونَ رقيبٍ.

ولنكُن واقعيِّينَ، المرأةُ حينَ تجلِسُ معَ زميلِ العملِ ساعاتٍ طوالٍ، ألَا يجعلُ ذلكَ نوعًا مِن الألفةِ؟!

هَل يقولونَ هُوَ مثلُ أخيهَا؟!

تبًّا لَهُم ناقصُو الرجولةِ!

وَإِذَا كانَ كذلكَ، فلنسأَل سؤالًا صريحًا:

لماذَا إِذَا جلسَ الرجلُ فِي مجلسِهِ أغلقَ الأبوابَ عَلَىٰ أهلِ بيتِهِ، ولَو قالَ لَهُ أصحابُهُ: نادِ زوجَتَكَ لتجلسَ معنَا غضبَ وربمَا قتَلَ وظهرَت الرجولةُ الدفينةُ، رغمَ أنَّ هؤلاءِ أصحابُهُ وربمَا أقاربُهُ، فلماذَا لَم يمنَعهُ هذَا الحياءُ المزيفُ مِن إرسالِ زوجتِهِ إِلَىٰ الأعمالِ المختلطةِ الَّتِي تَرَىٰ فيهَا أفواجًا مِن الشبابِ المتزيِّنِ المتأنِّقِ؟!

أليسَ لسانُ حالِ هذَا البائسِ كأَنَّهُ يقولُ: ما دامَ أنَّ الخفةَ والطيشَ والضحكاتِ العاليةِ والتحرشَ البهيمِي ليسَ أمامِي فلَا أغارُ؟!

أليسَت هذهِ هِيَ النتيجةَ؟! إنَّنا فِي زمنِ المتناقضاتِ!

استمعُوا شكايةَ الرجالِ مِن نسائِهِم، وانصرافَ قلوبهِنَّ عنهُم، وتأملُّوا الجرأةَ والبذاءةَ والشتائمَ والصراخَ من قِبَلِ نساءٍ لرجالِهِنَّ.

كلُّ هَذَا وليدُ الاختلاطِ!

ولربمَا تعلَّقَ القلبُ بمَا يعرِضُ لَهُ مِنَ الأهواءِ فكيفَ يعالجُ حِينئذٍ؟!

فمَن أرادَ صلاحَ نسائِهِ فليلزمهنَّ بالجلوسِ فِي البيتِ.

اتقِ اللهَ يَا وليَّ الأمرِ!

لَا تفتَح عَلَىٰ ابنتِكَ بابَ الاختلاطِ فتخسرَهَا وهيَ عندكَ، ثمَّ بعدَ ذلكَ تتزوجُ وَلَا يستطيعُ الرجلُ أَن يحكمَ أمرَهَا، وَلَو حاولَ لفشلَ، ولربمَا طلَّقَ وضاعَت وأبناءَهَا.

اتَّقِ اللهَ يَا أَيُّها الوالدُ: قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(١).

وَلَا تتبعِ العاطفةَ أَو رأيَ الأمِّ ضعيفةِ العقلِ، وأنتَ قَد رأيتَ مَا يهولُكَ مِن أمورِ الاختلاطِ، بَل وربمَا تتَندرُ فِي روايتِهَا فِي المَجَالسِ.

لَا تتَّبعُوا رأيَ النساءِ الضعيفاتِ، قالَ ﷺ: «**مَا رأيتُ مِن ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهبَ للبِّ الرجلِ الحَازمِ مِن إحداكُنَّ**»(٢)، واستفيدُوا مِن عِبَرِ الزمانِ وتجاربِ الحياةِ.

وأنتَ أيُّها الزوجُ:

لَا تسمَح لِمَن ارتبطْتَ بِهَا أَن تلجَ هذِهِ الأبوابَ المظلمةَ فتأتيكَ بوجهٍ غيرِ مَا كنتَ تطمعُ بِهِ.

مَا هيَ الغنيمةُ حينَ تعملُ الزوجةُ براتبٍ مَا -لتساعدَكَ علَىٰ تكاليفِ الحياةِ كَمَا تزعمُ- وأنتَ تعيشُ مَعَ رجلٍ وليسَ أنثَىٰ.. جريئةً.. سَليطةً.. مُتَبرِّجةً.. تناقشُ كالرجالِ- طويلةُ اللسانِ، أَو ممَّن امتلأَ هاتفُهَا بأرقامِ الزملاءِ لريبةٍ أَو لغيرِ ريبَةٍ!

فَإِن لَم يكُن دينٌ يمنعُ، أَلَم يبقَ أثرٌ مِن رجُولةٍ يَردَعُ؟!

إِذَا المَـرءُ لَم يَدنَسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرضُهُ	**فَكُـلُّ رِداءٍ يَـرتَدِيـهِ جَمِـيـلُ**
وَإِن أَنتَ لَم تَحمِلْ عَلَىٰ النَّفسِ ضَيمَهَا	**فَلَيسَ إِلَىٰ حُسنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ**

---

(١) سورة التحريم: ٦.

(٢) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

احرصُوا عَلَىٰ نسَائِكُم مِن هذَا الدَّاءِ المُتفَشِّي فِي المجتمعاتِ حتَّىٰ أذهبَ رونقَ الحياةِ المتمثلِ برجُلٍ غيورٍ وامرأةٍ مُحتَشمَةٍ.

لَا تزُجُّوا بنسائِكُم نحوَ هذَا الانفلاتِ الأخلاقيِّ، واعلمُوا أنَّ الترفَ لَا يَدُومُ، وعدمَ شُكرِ النعمةِ مزيلٌ للنعمِ جالبٌ للنقمِ.

كيفَ يسمحُ المُسلمُ لنفسِهِ أَن يزجَّ بابنتهِ إِلَىٰ العملِ ممرضةً يتعرضُ لَهَا الرجالُ، ويدعوهُم لباسُهَا الأبيضُ الفاتنُ إِلَىٰ التحرشِ بهَا، بَل وتبيتُ خارجَ المنزلِ؟

أَو أَن تعملَ سكرتيرةً فِي مَدَارسِ البنين المتوسطِ والثانويِّ يتحرشُ بهَا الطلابُ، وضعافُ النفوسِ مِنَ المدرسينَ؟ أَو مدرِّسةً فِي مدارسِ الأولادِ الَّذينَ يُعدُّ بعضهُم مِن الرجالِ؟ أَو أَن تذهبَ إِلَىٰ الأسواقِ لحاجةٍ ودونَ حاجةٍ؟

وَالأدهَىٰ أَن تعملَ فِي صفوفِ الجنديَّةِ، أَو أَن تغشَىٰ المَقَاهِي الَّتِي يتعالَىٰ بهَا نغمُ الضحكاتِ الفاجرةِ معَ أصعِدَةِ الدخانِ، عَلَىٰ مسمعٍ مِن رجالٍ ينتظرونَ الإشارةَ المنكرةَ لينقضُّوا انقضاضَ الذئبِ عَلَىٰ فريستِهِ.

أَو غيرُ ذلكَ مِن أماكنِ الاختلاطِ الَّتِي لَا يملكُ المُسلمُ الغيورُ إِلَّا أَن يجأرَ إِلَىٰ اللهِ أَن يُعَافيهِ مِن حالِ أصحابِهَا، وَأَلَّا يؤاخذَنَا بمَا فعلَ السفهاءُ منَّا، وأَن يرحمَ هذِهِ الأمةَ المسكينةَ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي بنعمتهِ اهتدَىٰ المهتدونَ، وبعدلِهِ ضلَّ الضالونَ، لَا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُم يُسأَلونَ، أحمدُهُ تعالَىٰ وأشكرُهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فاحفظُوا الأمانةَ أيُّهَا الناسُ، احفظُوا الأمانةَ الَّتِي استرعيتُم عليهَا.

اجلسُوا معَ أنفُسكُم جلسةَ مصارحةٍ ومحاسبةٍ وتعقُّلٍ، وفكرُوا وتساءلُوا:

هَل الذينَ شرَّعُوا الاختلاطَ لهُم هدفٌ سوَىٰ نشرِ الرَّذيلةِ فِي المجتمعِ المسلمِ؟

هَل الحياةُ لَا تقومُ إلَّا باختلاطِ الجنسينِ؟

وإذَا أجابَتكَ نفسُكَ بالإجابةِ التِي تصرخُ داخلَكَ، مِن أنَّ المقصودَ بالاختلاطِ قتلُ الفضيلةِ، فقُم قومةَ الرجلِ الأبيِّ الذِي لَا يذعنُ لهذَا الإسفافِ، وَلَا يعرِّضُ أهلَهُ لمواقفَ التلفِ.

غارُوا علَىٰ محارمِكُم!

لَقَد ركَّبَ اللهُ الغَيْرةَ فِي قلوبِ الرجالِ؛ لأنَّهَا قوةٌ تحمِي المَحَارمَ والشرفَ والعفافَ مِن كلِّ مجرمٍ وغادرٍ، وَمَدَحَ الإسلامُ هَذَا الخلقَ العالِي، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يغارُ، وإنَّ المؤمنَ يغارُ، وإنَّ غَيْرَةَ اللهِ أَن يأتيَ المؤمنُ مَا حرَّمَ اللهُ عليهِ**»(١).

كمَا جعلَ ذلكَ منَ الجهادِ المشروعِ فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قُتِلَ دونَ أهلهِ فهوَ شهيدٌ**»(٢)، وقَد توارثَ أهلُ الإسلامِ تنميةَ الغَيْرةِ عَلَىٰ المَحَارمِ أَن تنتهكَ أَو ينالَ منهَا بصورٍ يمثلُهَا غيرةُ النساءِ عَلَىٰ أعراضِهِنَّ وشرفهِنَّ، وغيرةُ أوليائهِنَّ عليهِنَّ، وغيرةُ المؤمنينَ عَلَىٰ مَحَارمِ المُؤمنينَ مِن أَن تُنالَ الحرماتُ، أَو تجرحَ عفَّتُهَا وطهارتُهَا وَلَو بنظرةِ أجنبيٍّ لهَا.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤١١).

إِنَّ ابتعادَ المرأةِ عَن الرجالِ وتجنبَ مخالطتِهِم ومزاحمتِهِم، لَيُقَوِّي فِي قلوبهِنَّ الحياءَ والتصوُّنَ عَن الوقوعِ فِي الرَّذَائل، أَو أَن تمتدَّ إليهنَّ نظراتُ فاجرٍ، ويبعثُ فِي قلوبِ أوليائِهِنَّ مِن شَرفِ النفسِ مَا يغبطُهُ عليهِ مَن أُفلِتَ زمامُ الأمرِ مِن يدِهِ.

وَقِس فِي هذَا الوَاقعِ الَّذِي نعيشُهُ، أخلاقَ مَن اعتادَ عَلَىٰ سترِ والدتِهِ وأخواتِهِ، ومقدارُ تمسُّكهِ بِالأنَفةِ والإباءِ والغَيرةِ -حتَّىٰ لَو كانَ مُقصِّرًا فِي بعضِ الجَوانبِ- وحالَ مَن اعتادَ عَلَىٰ تكشُّفِ أخواتِهِ وأهلِ بيتِهِ وَمَا يُعَانيهِ مِن الانهيارِ الذاتيِّ والانهزامِ النفسيِّ.

فحالُ هذَا الغيورِ حالُ ذلكَ الأعرابيِّ الذِي رأَىٰ مَن ينظُرُ إِلَىٰ زوجتهِ ويستديمُ النظرَ إليهَا، وهِي تنظرُ إليهِ كذلِكَ، فطلقَهَا غيرةً علَىٰ محارمِهِ، فلمَّا عوتِبَ فِي ذلكَ قالَ:

وَأَترُكُ حُبَّهَا مِن غَيرِ بُغضٍ ... وَذَاكَ لِكَثرَةِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَىٰ طَعَامٍ ... رَفَعتُ يَدِي وَنَفسِي تَشتَهِيهِ
وَتَجتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ مَاءٍ ... إِذَا رَأَتِ الكِلَابَ وَلَغْنَ فِيهِ

فتمسكُوا بالفضيلةِ فِي زمنِ غُربةِ الإسلامِ، وضعفِه فِي قلوبِ كثيرٍ مِن أبنائِهِ، وَلَا تغرنكُم نداءاتُ أهلِ الباطلِ الصادِّينَ عَن الهُدَىٰ، فإنَّهُم قومٌ أفلسُوا مِنَ الفضيلةِ فأرادُوا أَن تكونُوا أمثالَهُم ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾[1].

وليَتَّقِ اللهَ مَن ولَّاهُ اللهُ أمرَ أمَّةٍ مِن المسلمينَ سواءً كانَ حاكمًا أَو محكومًا أَن يقودَهُم إِلَىٰ هذَا الاختلاطِ الفاحشِ قَسْرًا، فيبوءُ بآثامِهِم فيكونُ حقيقًا بقولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ

---

(١) سورة النساء:٢٧.

أَلَاسَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾(١).

وليتقِ اللهَ أناسٌ تَسنَّمُوا ألوِيَةَ الفتوَىٰ، فيفتونَ المسلمينَ عَلَىٰ وَفْقِ مَا يطلبُهُ المشاهدونَ والمجتمعُ، فيفتحُ عَلَىٰ الأمةِ بابَ الشرِّ، ويكونُ حقيقًا بقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخوفُ مَا أخافُ عَلَىٰ أمتِي الأئمةُ المُضِلُّونَ**»(٢)، وقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سنَّ فِي الإسلامِ سُنةً سيئةً كانَ عليهِ وِزرهَا ووزرَ مَن عملَ بهَا مِن بعدِهِ لَا ينقصُ ذلكَ مِن أوزارِهِم شيئًا**»(٣).

وَلتحذرِ المَرأةُ المقتدَىٰ بهَا -المُسمَّاةُ ملتَزِمَة- دخولَ مضمارِ الاختلاطِ، فتفتحُ البابَ لغيرِهَا ممَّن يقتدِي بهَا، وتحاولُ أَن تلوِي النصوصَ لتؤيِّدَ مَا ارتكبَتهُ مِن الخطأ، فإِنَّ هذَا مِن التحايلِ عَلَىٰ الشَّرعِ.

ولتعلَم تلكَ المرأةُ أنَّ ذلكَ عندَ اللهِ عظيمٌ، وخطرٌ أَن يمكرَ اللهُ بهَا فيسلبَهَا دينَهَا مِن حيثُ لَا تشعُرُ.

فالزمِي مكانَكِ أيَّتهَا المسلمةُ تسعدِي، حتَّىٰ لَا تُبتَلي برجلٍ لَا يغارُ يوردُكِ مواردَ الهلكةِ فِي سبيلِ استثمارِ مالِكِ، وَإِن كانَ المُقَابلُ ضياعَ دينِكِ وحيائِكِ.

هذَا وليتقِ اللهَ قومٌ زجُّوا بنسائِهِم فِي بَرَاثِنِ الاختلاطِ المتخَلعِ مِن أجلِ الحصولِ عَلَىٰ المالِ، فلَم يجمعُوا المالَ لذهابِ بَرَكتِهِ -لأَنَّهُم نالوهُ بحَرامٍ- ولَم تَسلمْ لَهُم نساؤهُم، فخسِرُوا رأسَ المالِ وقَد كانُوا يتلمسونَ الربحَ.

وَالأدهَىٰ أَن يزجُّوا بنسائِهِم المتديناتِ الحيياتِ اللاتِي يرفضنَ ذلكَ الواقعَ البئيسَ، فلَا يزالونَ بهِنَّ حتَّىٰ يضطروهُنَّ إِلَىٰ أماكنِ موتِ الفضيلةِ.

(١) سورة النحل: ٢٥.

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٤٣١).

(٣) رواه مسلم (١٠١٧).

ولتزدَد عجبًا وكمدًا مِن رجلٍ حافَظَ عَلَىٰ بناتِهِ طوالَ سنينَ الدراسةِ مِن الاختلاطِ، ثُمَّ بعدَ ذلكَ يبحثُ عَن الشفاعاتِ ليزجَّ بهَا فِي جامعةٍ مختلطةٍ أَو عملٍ مختلطٍ، وأينَ ذهبَ حرصُ السنينِ، وتحَملُ شَقاءِ التربيةِ؟!

أهكذَا تكونُ النتيجةُ؟!

واسمعُوا شهادةَ عقلاءِ الكفارِ بعدَ أَن عَلَّمتهُم التجاربُ، وأخذُوا العظاتِ، فنطقُوا بالحقِّ واعترفُوا بمَا يوافقُ الفطرةَ.

قالَت الكاتبةُ الإنجليزيةُ اللادي كُوك: «إِنَّ الاختلاطَ يألفُهُ الرجالُ، ولهذَا طمعَت المرأةُ بمَا يخالفُ فطرتَهَا، وَعَلَىٰ قدرِ كثرةِ الاختلاطِ تكونُ كثرةُ أولادِ الزنَا، وَهَاهنَا البلاءُ العظيمُ عَلَىٰ المرأةِ، علموهنَّ الابتعادَ عَن الرجالِ، أخبروهنَّ بعاقبةِ الكيدِ الكامنِ لهنَّ بالمِرصَادِ».

وقالَت الدكتورةُ ايدايلين: «إِنَّ سببَ الأزَمَاتِ العائليةِ فِي أمريكَا، وسرَّ كثرةِ الجرائمِ فِي المجتمعِ أَنَّ الزوجةَ تركَت بيتَهَا لتضاعفَ دخلَ الأسرةِ، فزادَ الدخلُ، وانخفضَ مستوَىٰ الأخلاقِ».

وَقالَ شوبنهور الألمانيُّ: «اتركُوا للمرأةِ حريتَهَا المطلقةَ كاملةً بدونِ رقيبٍ، ثمَّ قابلونِي بعدَ عامٍ لتَرَوا النتيجةَ، وَلَا تنسَوا أنَّكم سَترثونَ معِي الفضيلةَ والعفةَ والأدبَ، وَإِذَا متُّ فقولُوا: أخطأَ أَو أصابَ كبدَ الحقيقةِ».

فَمَا أفسدَ الأخلاقَ مثلُ الاختلاطِ، فهوَ مِن أكبرِ الوسَائلِ التِي توصلُ إِلَىٰ الانحرافِ الأخلاقيِّ عندَ مَن يُريدُهُ، وبأيسرِ سبيلٍ.

وَمَا أدَّىٰ إِلَىٰ سُوءِ الظنِّ وتَفَشِّيهِ بينَ الأفرادِ والمجتمعاتِ مثلُ هذَا الاختلاطِ المُشينِ.

فاتخذُوا الموقفَ الشجاعَ بمقاطعةِ الأماكنِ المختلطةِ، وَلَا تجبنُوا مِن الأخذِ عَلَىٰ أيدِي نسائِكُم وأبنائِكُم، وثقُوا أتمَّ الثقةِ أَنَّكُم إِن تركتموهُم يخوضونَ فِي لُجَجِ هذهِ البحارِ المتلاطمةِ فإِنَّكُم لَن تفلحُوا أبدًا فِي الظفرِ بِهِم..

أَصُـونُ عِرضِـي بِمَالِـي لَا أُدَنِّـسُـهُ ... لَا بَـارَكَ اللَّـهُ بَعْـدَ العَـرضِ بِالمَـالِ

أَحـتَالُ لِلمَـالِ إِن أودىٰ فَأَكـسِبُـهُ ... وَلَـستُ لِلعِـرضِ إِن أودىٰ بِمُحـتَالِ

(٧) أنقذُوا بناتكم

الحمدُ للهِ الوليِّ فَلَا وليَّ مِن دونهِ وَلَا واق، الغنيِّ فَلَا تنفدُ خزائنُهُ عَلَىٰ كثرةِ الإنفاقِ، يحلُمُ علَىٰ مَن عصَىٰ، وَلَا يكلفُ مَا لَا يطاقُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ، ففتحَ بِهِ قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً دائمةً بالعشيِّ والإشراقِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعجبِ العجائبِ أَنْ ترَىٰ أُناسًا قَد رفعهُم اللهُ بالإسلامِ فيأبونَ إلَّا الذلَّةَ فِي التنكُّبِ عَن الصراطِ، وَإِنَّ أناسًا أُضيءَ لهُم الطريقُ فيأبونَ إلَّا العيشَ فِي الظلمةِ..

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالعَجَائِبُ جَمَّةٌ ... قُرْبُ الشِّفَاءِ وَمَا إِلَيهِ وُصُولُ

كَالعِيس فِي البَيدَاءِ يَقتُلُهَا الظَّمَا ... وَالمَاءُ فَوقَ ظُهُورِهَا مَحمُولُ

إنَّ مَا نعيشهُ مِن هذَا الواقعِ المأساويِّ البئيسِ يدعُو للخوفِ مِن المستقبلِ.

يجبُ أَن نعترفَ أنَّنا انجرفنَا فِي تياراتٍ متلاحقةٍ، كلُّ واحدٍ أقوَىٰ مِنَ الآخرِ، وَلَا يزالُ أعداءُ العقيدةِ يجتهدونَ فِي الحيلِ والمكائدِ لإخراجِ كثيرٍ مِن نساءِ أهلِ الإسلامِ مِن سياجِ العفةِ والشرفِ إِلَىٰ أوحالِ الرذيلةِ والدنسِ.

والداهيةُ الدهياءُ أنَّ حيلَ هؤلاءِ وأباطيلَهُم وخططَهُم الماكرةَ، انطلَت علَىٰ الكثيرِ، فهوَت المبادئُ، وضعفَت الغيرةُ، وممَّا يزيدُ القلبَ غمًّا وحزنًا أنَّ بعضَ الناسِ ينجرفُ نحوَ هذهِ التياراتِ المنحرفةِ مختارًا، عالمًا بالهلكةِ، وبعضُهُم قَد غشيتهُ الغفلةُ فَلَا إدراكَ وَلَا تفكيرَ.

وَإِن كُنتَ لَا تَدرِي فَتِلكَ مُصِيبَةٌ ... وَإِن كُنتَ تَدرِي فَالمُصِيبَةُ أَعظَمُ

وَلَا شكَّ وَلَا ريبَ أنَّ الضررَ الذِي أصبحنَا فيهِ، مَا هوَ إلَّا مقدمةُ أضرارٍ أخرَىٰ - هيَ أشدُّ وأنكَىٰ - مَا دُمنَا علَىٰ غفلتِنَا هذهِ مسترسلينَ.

لقَد حَصَلَ الآنَ مِن النساءِ تساهلٌ كبيرٌ فِي أمرِ الحجابِ، ولَم يحصُل لنَا مِن وراءِ ذلكَ إلَّا كثرةُ الفجورِ منهنَّ، وانتهاكهُنَّ حرمةَ الآدابِ، وكثرةُ الفسوقِ والفسادِ، وهذَا أمرٌ لَا يخفَىٰ علَىٰ أحدٍ.

فعَن ماذَا نتكلمُ؟ وبأَيِّهِ نبدأُ؟

فَلَو كَانَ سَهمًا وَاحِدًا لَاتَّقَيتُهُ ... وَلَكِنَّهُ سَهمٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

وَمَا كانَ الأمرُ يصلُ بالنساءِ إِلَىٰ مَا نرَىٰ، لَو لَم يكُن خلفَ ذلكَ رجالٌ مُتسَاهلونَ، ضعفَت هِمَمُهُم، وملُّوا المسئوليةَ، وبدءُوا يطأطئونَ الرءوسَ عمَّا يعلمونَ أنَّهُ عيبٌ وخزيٌ وعارٌ!

فبالأمسِ القريبِ، كانُوا رجالًا فِي الوغَىٰ، وفُرسانًا فِي الميدانِ، فلمَّا انبلجَ صباحُ هذَا الواقعِ الأليمِ، فإذَا بِهِم يُلقونَ سيوفَ الإباءِ، ويُنكِّسونَ راياتِ الكرامةِ ويَرضَونَ بالدُّونِ، ويعلنونَ الهزيمةَ علَىٰ استحياءٍ.

فيَا حسرتاهُ عَلَىٰ أمةٍ فقدَت رجالَهَا وهيَ فِي أمسِّ الحاجةِ لَهُم!

لَقَد جعلَتْ بعضُ النساءِ متفسحَهَا الأسواقَ، فتخرجُ مِن سوقٍ لتدخلَ فِي آخرٍ، ضَحِكٌ معَ الباعةِ، وسُفورٌ فِي الملبسِ، وتزيينٌ للوجهِ والبشرةِ!

أَمَا سأَلَ نفسهُ ذلكَ الرجلُ لِمَن تتبرجُ نساؤُهُ، وَلِمَن يتزيَّنُ؟!

أَمَا تحرَّكَ قلبُهُ غيرةً عَلَىٰ نسائِهِ؟!

وَالأدهَىٰ أنهَا تذهبُ وحيدةً فِي هذَا الوقتِ الذِي كَثُرَت مصائبُهُ وعمَّت دواهِيه!

اسأَل نفسَكَ: لِمَن تتزينُ؟ وَلِمَن تتبرجُ؟ مَاذَا تريدُ؟!

إِن كَان كلٌّ منَّا يدَّعِي الثقةَ فِي أهلِهِ، فبناتُ مَن هؤلاءِ النسوةِ اللاتِي امتلأَت بهنَّ الأسواقُ، وضجَّت بهنَّ الشوارعُ؟!

وقَد بدأَ التفنُّنُ باللباسِ علَىٰ أيدِي أعداءِ الفضيلةِ، فكلُّ يومٍ ينقصُ اللباسُ وتتقلَّصُ معَهُ العفةُ، ووجدُوا -وَمَعَ الأسفِ الشديدِ- مَن يتابعُهُم عَلَىٰ ذلكَ، فظهرَت الملابسُ القصيرةُ، والبنطلونُ المقززُ، والملابسُ التِي تشوهُ العفةَ.

ولمَّا عجزُوا عَن بعضِ أهلِ الخيرِ، دخلُوا عليهِم بملابسِ التبرجِ تُسمَّىٰ بغيرِ اسمِهَا، فظهرَت عباءةُ الكَتِفِ، والعباءةُ الإسلاميةُ، والنقابُ، وَمَا هِيَ فِي الحقيقةِ إلَّا مِن بابِ التبرجِ المعلبِ، الذِي سُمِّيَ سترًا وليسَ بسترٍ.

فهَل عباءةُ الكتفِ تسترُ؟ هَل العباءةُ الإسلاميةُ -كَمَا يزعمونَ- تمنعُ الفتنةَ؟!

والمصيبةُ أنَّ بعضَ النساءِ اتخذتهَا سبيلًا للفتنةِ، فَبدأَت تتفنَّنُ فِي تطريزِهَا ولمعانِهَا، وتلبسُ معهَا تلكَ الطرحةِ اللامعةِ التِي يكتبُ عليهَا الاسمُ!

يَا للحسرةَ! أينَ الغيورونَ؟!

وَإِذَا أُصِيبَ القَومُ فِي أَخلَاقِهِم ... فَأَقِم عَلَيهِم مَأتَمًا وَعَوِيلَا

وَبعضهُم يتساهَلُ فِي ركوبِ المرأةِ وحدهَا معَ السائقِ، يمرحُ بهَا يمينًا وشمالًا.

إِلَىٰ أينَ تذهبُ؟!

وَمِن عظمِ الرزيَّةِ مَا نراهُ بدأَ يغزُو الشوارعَ، مِن ركوبِ المرأةِ بجانبِ السائقِ جنبًا إِلَىٰ جنبٍ، أليسَ هُوَ رجلًا؟! مَا لَكُم؟!

خرجَ رجلٌ مِنَ الأعرابِ فِي سفرٍ، فلمَّا وردَ نهرًا فإِذَا بامرأةٍ عليهِ ناشرةً شعرهَا، فتعرَّضَت لهُ وقالَت: هلمَّ إليَّ، فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ، فلبسَت جلبابهَا

وانصرفَت خائفةً وجِلةً، فتبعهَا حتَّىٰ عرفَ خيامَ أهلِها، فسألَ عنهَا فَذُكِر لَهُ والدُهَا، فخطبهَا وعقدَ عليهَا، ثمَّ قالَ: جهزوهَا لِي حتَّىٰ رجوعِي مِن سفرِي، فلمَّا دخلَ عليهَا سألَهَا بعدَ مدةٍ، قالَ: يَا هذهِ، مَا تعرضُكِ لِي يومئذٍ؟ قالَت: يَا هذَا، لَا تعجبنَّ مِن امرأةٍ أَن تقولَ: هَوِيتُ! فواللهِ لَو كانَت حاجتُهَا عندَ أحدِ السودانِ لكانَ هُوَ هواهَا.

فَلَا تقولُوا مقولةَ السفهاءِ: إنَّ السائقَ ليسَ برجُلٍ، فكَم مِن امرأةٍ عاليةِ المنزلةِ، سقطَت فِي أوحالِ رجالٍ دونٍ سفلةٍ.

وبعضُ النساءِ تخرجُ سافرةً دونَ رباطٍ وَلَا زمامٍ، تخرجُ فِي أيِّ وقتٍ، وتدخلُ فِي أيِّ وقتٍ، أمَا سألَ نفسَهُ ذلكَ الرجلُ إِلَىٰ أينَ تذهبُ؟

هَل يُتَصوَّرُ أَنَّهُ لَا يدرِي، أَم أنَّهُ يدرِي ولكنَّهَا الانهزاميةُ؟!

كَمَا أَنَّ بعضَ الناسِ لَا يطيبُ لَهُ الخروجُ مَعَ زوجتهِ، إلَّا وهيَ سافرةٌ متبرجةٌ، وقَد كشفَت الوجهَ والمَحَاسنَ، أليسَ حالُهُ كأَنَّهُ يقولُ للناسِ جميعًا: تعَالَوا وانظرُوا إلَىٰ زوجتِي وعفتِي، ومستودعِ شرفِي ورجولتِي!

يَا للعجبَ! أيجعلُ الرجلُ شرفَهُ وعِرضَهُ سلعةً للنظرِ بأرخصِ الأثمانِ، بَل وَبِلَا ثمنٍ؟!

تَعـدُو الـذِّئَابُ عَلَىٰ مَن لَا كِلَابَ لَـهُ   وَتَتَّقِـي مِـربَضَ المُـستَنفِرِ الحَـامِـي

عبادَ اللهِ:

ومنَ المصَائبِ المُفجعةِ والمهالكِ المرديةِ، ممَّا يجعلُ القلبَ يذوبُ كمدًا وألمًا، إحضارُ بعضِهِم لجهازِ «الستلايت» فِي بيتهِ، يدعُو فيهِ أهلَ بيتِهِ -شعرَ أَم لَم يشعُر- للرذيلةِ والانحرافِ، وتعلُّمِ أسبابِ الريبِ، وإحياءِ الرذائلِ، وقتلِ الفضائلِ.

فتجدُ فِي البيتِ فتاةً عزباءَ، ربمَا قَد تأخرَ زواجُهَا، أَو فتاةً صغيرةً لَم تعرف مِن

أمورِ الدنيَا شيئًا، فيزرعُ لهَا هذَا الجهازَ فِي بيتِهَا فيؤججُ الغريزةَ، ويلهبُ المشاعرَ، ويسهِّلُ الوقوعَ فِي الخطأِ، بسببِ تلكَ اللقطاتِ المهيجةِ، والأفلامِ المؤثرةِ التِي تحركُ الجمادَ، فإِن لَم تجِد مَا تفرغُ فيهِ غريزتَهَا فِي الحلالِ، سعَت إِلَىٰ الحرامِ، الذِي درَّسهَا هذَا الستلايتُ كيفيةَ الوقوعِ فيهِ وبسهولةٍ.

وَقَد تكونُ هذهِ المرأةُ محرومةً عندَ زوجٍ لَهَا عنهَا فِي المخيماتِ أَو الديوانياتِ، أَو ربمَا بمعاشرةِ البغايَا والساقطاتِ، فتجلسُ تصارعُ الأمَرَّيْنَ، بينَ ستلايت يؤججُ المشاعرَ وتُعرضُ فيهِ أحلَىٰ صورِ الرجالِ، وبينَ زوجٍ عابثٍ لاهٍ انشغلَ فِي ملذاتِهِ، فَلَا تجدُ سبيلًا إِلَّا الوقوعَ فِي الخطأِ.

فماذَا يرتجَىٰ مِن امرأةٍ تسمعُ الكلامَ الفاحشَ، والأغانِي الماجنةَ، والأشعارَ المهيجةَ، وكلماتِ الحبِّ والهيامِ، وترَىٰ الصورَ العاريةَ، هَل ستبقَىٰ بعدَ ذلكَ متماسكةً؟! كلَّا واللهِ، بَل لَو كانَت جبلًا لاندكَّ.

ونحنُ هنَا لَا نسهِّلُ للمرأةِ الانحرافَ وَلَا نؤيدهَا عليهِ، ولكنَّنَا نحكِي واقعَ الحالِ علَّهُ يتنبَّهُ لَهُ رجالٌ يخافونَ عَلَىٰ أعراضِهِم أَن تُدنَّسَ.

فكَم مِن شخصٍ أحضرَ الستلايت إِلَىٰ منزلِهِ فغيَّرَ عليهِ أخلاقَ أبنائِهِ وبناتِهِ، فبدأْنَ يُمْسِكنَ الهاتفَ بكثرةٍ، ويعصينَ الوالدينِ، ويسترجِلنَ عَلَىٰ إخوانهِنَّ وأزواجهِنَّ، أَلَا يرَىٰ مَن أحضرَ الستلايت ذلكَ التغيرَ؟!

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

لَقَد أحضرَهُ أناسٌ عَلَىٰ غفلةٍ بِصَنيعهِ فجَنَوا الخزيَ والعارَ، والويلَ والدمارَ،

---

(١) سورة الفرقان:٤٤.

فأَجَّجُوا غرائزَ بناتِهِم، وألهبُوا قلوبَهُنَّ، حتَّىٰ وَقَعنَ فِي الخطيئةِ، فاسودَّت وجوهٌ بيضاءُ، وذلَّت رءوسٌ شامخةٌ، وقامُوا ليندبُوا حظَّهُمُ العاثرَ، فخرجَت تلكَ الصرخاتُ المحزنةُ تجيبُهُم.

كَفَىٰ لَومًا أَبِي أَنتَ المُلَامُ ... كَفَاكَ فَلَم يَعُد يُجدِي المَلَامُ
عَفَافِي يَشتَكِي وَيَنُوحُ طُهرِي ... وَيُغضِي الطَّرفَ بِالأَلَمِ احتِشَامُ
أَبِي كَانَت عُيُونُ الطُّهرِ كُحلَي ... فَسَالَ بِكُحلِهَا الدَّمعُ السِّجَامُ
أَنَا العَذرَاءُ يَا أَبَتَاهُ أَمسَت ... عَلَىٰ الأَرجَاسِ يُبصِرُهَا الكِرَامُ
سِهَامُ العَارِ تَغرِسُ فِي عَفَافِي ... وَمَا أَدرَاكَ مَا تِلكَ السِّهَامُ
أَبِي مَن ذَا سَيُغضِي الطَّرفَ عَنِّي ... وَفِي الأَحشَاءِ يَختَلِجُ الحَرَامُ
أَبِي مَن ذَا سَيَقبَلُنِي فَتَاةً ... لَهَا فِي أَعيُنِ النَّاسِ اتِّهَامُ
جِرَاحُ الجِسمِ تَلتَئِمُ اصطِبَارًا ... وَمَا لِلعِرضِ إِن جُرِحَ التِئَامُ
أَبِي هَذَا عَفَافِي لَا تَلُمنِي ... فَمِن كَفَّيكَ دَنَّسَهُ الحَرَامُ
زَرَعتَ بِدَارِنَا أَطبَاقَ فِسقٍ ... جَنَاهَا يَا أَبِي سُمٌّ وَسَامُ
تَشُبُّ الكُفرَ وَالإِلحَادَ نَارًا ... لَهَا بِعُيُونِ فِطرَتِنَا اضطِرَامُ
نَرَىٰ قَصَصَ الغَرَامِ فَيَحتَوِينَا ... مَثَارُ النَّفسِ مَا هَذَا الغَرَامُ؟
فُنُونُ إِثَارَةٍ قَد أَتقَنُوهَا ... بِهَا قَلبُ المُشَاهِدِ مُستَهَامُ
كَأَنَّكَ قَد جَلَبتَ لَنَا بَغِيًّا ... تُرَاوِدُنَا إِذَا هَجَعَ النِّيَامُ
فَلَو لِلصَّخرِ يَا أَبَتَاهُ قَلبٌ ... لَثَارَ.. فَكَيفَ يَا أَبَتِ الأَنَامُ؟
تُخَاصِمُنِي عَلَىٰ أَنقَاضِ طُهرِي ... وَفِيكَ اليَومَ لَو تَدرِي الخِصَامُ

أَبِـــي حَطَّمتَنِـــي وَأَتَـــيتَ تَبكِـــي عَلَــىٰ الأَنقَــاضِ مَــا هَــذَا الحُطَــامُ
أَبِـــي هَــذَا جَــنَاكَ دِمَــاءُ طُهْــرِي فَمَـــن فِيــنَا أَيَــا أَبَــتِ الــمُلَامُ؟

فَهَل مِن مستجيبٍ قبلَ وقوعِ المصيبةِ، وحلولِ النقمةِ؟!

لماذَا لَا نتعظُ بغيرِنَا، أننتظرُ أَن يتعظَ غيرُنَا بنَا؟!

أخرجُوا هذهِ الأطباقَ التِي جلبَت لكُم الغربيَّةَ النتنةَ فاحتضنَتهَا بيوتُكُم.

أتنتظرونَ أَن تخرجَ البنتُ معَ الصديقِ رغمًا عنكُم؟

أتريدونَ أَن تجلبَ صديقهَا إِلَىٰ المنزلِ؟!

هذَا هوَ الذِي يُعلِّمهُ الستلايت، فاستيقظُوا..!

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخُطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لَهُ عَلَىٰ إحسانِهِ العامِّ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمامِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةُ الأنامِ ومصابيحُ الظلامِ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا الناسُ:

فقَد صحَّ مِن حديثِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**تجيءُ فتنةٌ فيرقِّقُ بعضهَا بعضًا**»(١)؛ أَي: كُلَّمَا جاءَت فتنةٌ هوَّنهَا مَا بعدهَا، وجعلهَا تبدُو وكأنهَا صغيرةٌ، وهيَ ليسَت صغيرةٌ ولكنَّ لعظمِ مَا خلفهَا مِن الفتنِ.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

وَعَلَىٰ عظمِ مصيبةِ الستلايت، إلَّا أنهَا بدأَت هينةً أمامَ فتنةِ الإنترنت!

أتعلمونَ مَا الإنترنت؟

هوَ ذلكَ الجهازُ الذِي يربطكَ بالعالمِ، مِن شمالهِ إِلَىٰ جنوبهِ، وَمِن شرقهِ إِلَىٰ غربهِ، فتقرأُ مَا تريدُ، وتدخلُ مِنَ القنواتِ مَا تريدُ، ويظهرُ فيهِ كلُّ منظرٍ وكلُّ كلامٍ بلَا قيودٍ.

وَقَد دمَّرَ هذَا الإنترنت كثيرًا منَ الفتياتِ، فتغيَّرَ سلوكهنَّ، وبدأنَ الصداقاتِ معَ الشبابِ عَن طريقِ الشاتِ -وهوَ المحادثةُ-، وبدأَت العلاقاتُ التِي لَا يُقصَدُ مِن ورائهَا إلَّا الفاحشَةُ وانتهاكُ العِرضِ.

فيَا أيُّهَا الغيورونَ، كيفَ تسمحونَ لبناتكُم الخوضَ فِي بحورِ الإنترنت؟

أينَ حَمِيَّتكُم؟ أينَ غَيرَتكُم؟ أينَ شهامتكُم؟

أمَا يكفِي فسادُ الشوارعِ المحيطةِ حتَّىٰ تجلبَ لهَا فسادَ العالمِ أجمَع؟

والعجبُ ممَّن يسمحُ لنسائِهِ بدخولِ مقاهِي الإنترنت بحجةِ البحوثِ الدراسيةِ.

كيفَ تسمحُ لمحارمكَ بالاختلاطِ بشبابِ المقاهِي، الذينَ لَا يحضرُ أغلبهُم إلَّا مِن أجلِ الفسادِ، والبحثِ فِي قنواتِ الرذيلةِ؟!

وممَّا عمَّ وطمَّ، وحطمَ المبادئَ والقيمَ، والذِي يقفُ عندَهُ كلُّ قولٍ، ويضعفُ أمامَهُ كلُّ تعبيرٍ، السماحُ للفتياتِ بالاختلاطِ فِي الدراسةِ أَو العملِ!

وَهَذا مَا نقولُ عنهُ وَمَا نذرُ؟ وكيفَ نبدأُ وأينَ ننتهِي؟

كلُّ شيءٍ فيهِ محزِنٌ، وكلُّ شيءٍ فيهِ مؤلِمٌ!

لَـيلٌ مِـنَ الغَـمِّ أَم فَجـرٌ مِـنَ الكَمَـدِ وَا ضَـيعَةَ الحَـقِّ فِـيكَ الـيَومَ يَـا بَلَـدِي

أَرثِـي لِقَومِـيَ أَم أُغـضِي عَلَـىٰ أَلَمِـي شَـجًىٰ بِحَلقِـي وَأَجـبَالًا عَلَـىٰ كَـبِدِي

إنَّ الاختلاطَ هوَ سببُ كلِّ رذيلةٍ، وذريعةٌ لسلبِ العرضِ وفقدانِ الشرفِ.

فكَم مِن فتاةٍ دخلَت محتشمةً فتبرجَت، ودخلَت عاقلةً فغشيهَا السفَهُ!

أَمَا سأَلَ وليُّهَا نفسَهُ عَن السببِ؟!

أَم هُوَ يرَىٰ ولكنَّهُ يغمضُ العينَ، لأجلِ أنَّهُ يفكرُ باستثمارِ راتبِهَا، أَو التخلصِ مِن نفقتِهَا، أَو لشيءٍ آخرَ وهُوَ الانهزاميَّةُ!

باللهِ عليكُم كيفَ بامرأةٍ تخالطُ رجلًا غريبًا، هَل يُتصورُ أنهَا لَن تميلَ إليهِ؟!

تجلسُ الفتاةُ معَ شابٍ فِي غرفةٍ واحدةٍ أَو قاعةٍ واحدةٍ، وتريدهَا بعدَ ذلكَ أَن تحافظَ عَلَىٰ عِفَّتهَا؟!

أَلَا تظنُّ أنكَ تطالبهَا بالمستحيلِ؟!

إنَّ الاختلاطَ يُثمِرُ الميلَ، والميلُ يثمرُ العلاقةَ المحرمةَ التِي تجنِي بعدهَا المرأةُ كلَّ خزيٍ وعارٍ.

كيفَ يعدُّ نفسَهُ رجلًا مَن تركَ امرأتَهُ بينَ الشبابِ، يشمونَ رائحتَهَا، ويستلذونَ بكلامِهَا، ويحسبونَ أنفاسَهَا؟!

مالِ بعض الناسِ عَمُوا وصَمُّوا؟ انتبِه أيهَا الغافلُ، ابنتكَ تجلسُ معَ الرجالِ! أتعرفُ ماذَا يعنِي؟!

لَا تطلبُوا المستحيلَ منَ النساءِ الضعيفاتِ، فالمرأةُ تحركهَا العواطفُ، وقَد تجلسُ إِلَىٰ مَن يسلبهَا لُبَّهَا وإِن لَم يكُن يقصدُ ذلكَ، وقَد تكونُ امرأةً محرومةً مِن عطفِ الزوجِ، فتجدُ مَن يتودَّدُ لهَا ويداعبُ عواطفهَا الفارغةَ، فيستدرجهَا نحوَ الرذيلةِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي قُلُوبِ العَذَارَىٰ فَالعَذَارَىٰ قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ

إنَّ الحصَانَ ليصهلُ فتدنُو لَهُ الفرسُ، وإنَّ الفحلَ ليهدرُ فتضبعُ لَهُ الناقةُ، وإنَّ

التيسَ ليصيحُ فتستحرمُ لَهُ العنزُ!

فكيفَ برجلٍ يجلسُ معَ امرأةٍ عامًا كاملًا، فِي مكتبٍ واحدٍ ومجلسٍ واحدٍ؟!

هَل تتصورُ أَنَّهَا لَن تميلَ إليهِ؟

لَا تقولُوا كمَا يقولُ السفهاءُ عديمُو الرجولةِ: إنَّ هذَا سوءُ ظنٍّ، إنمَا هذَا عينُ الواقعِ، فليقُل مَن يقولُ: إنَّا ضعفنَا وانهزمنَا مِن طَرْقِ أهلِ الباطلِ، ولَا يقُل: إنَّ هذَا سوءُ ظنٍّ، فلنعترِفْ بالحقيقةِ.

أيُّها المسلمونَ: حافظُوا علَىٰ بناتكُم، فالفتنُ شديدةٌ، وطرقُ الباطلِ كثيرةٌ، ومَن لَم يتوقَّ الشرَّ فإنَّهُ حريٌّ أَن يقعَ فيهِ.

(٨) حربٌ علَى الفضيلةِ

الحمدُ للهِ معزِّ مَن أطاعَهُ واتَّقاهُ، ومذلِّ مَن أضاعَ أمرَهُ وعصاهُ، وفَّقَ أهلَ طاعتهِ للعملِ بمَا يرضاهُ، وحقَّقَ علَىٰ أهلِ معصيتهِ مَا قدَّرهُ عليهِم وقضاهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، لَا نعبدُ إلَّا إياهُ ولَا ربَّ لَنا سواهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحابهِ الَّذينَ جاهدُوا فِي اللهِ حقَّ جهادهِ وكانَ هواهُم تبعًا لهُداهُ.

أمَّا بعدُ:

أيُّها المسلمونَ:

فإنَّ الغَيْرةَ علَىٰ العِرضِ والشرفِ أغلَىٰ مَا يكونُ، وأنفسُ مَا يُملكُ، وبهِ يتميزُ الشرفاءُ مِن الساقطينَ، والأعزةُ مِنَ الأذلةِ.

فليحذَر العاقلُ أَن يفرطَ فِي غيرتهِ علَىٰ نسائهِ، ويسلِّم زمامَ أمورهِ إلَىٰ دعاةِ الضلالةِ والانحرافِ، فينجرفُوا بهِ نحوَ الهاويةِ.

أَصُونُ عِرضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ ... لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعدَ العِرضِ بِالمَالِ
أَحتَالُ لِلمَالِ إِن أودَىٰ فَأَكسِبُهُ ... وَلَستُ لِلعِرضِ إِن أودَىٰ بِمُحتَالِ

واعلمُوا أنَّ اللهَ يغارُ، وغيرةُ اللهِ أَن يأتيَ المرءُ مَا حرَّمَ اللهُ عليهِ، كمَا صحَّ بذلكَ الحديثُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

فالغيرةُ مِن الصفاتِ المحمودةِ، التِي مَن اتصفَ بهَا علَا شأنُهُ وارتفعَ، ومَن

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

فقدَهَا صارَ مِن سقطِ المتاعِ، قالَ سعدُ بنُ عبادَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَو رأيتُ معَ امرأتِي رجلًا لضربتُهُ بالسيفِ غيرُ مصفحٍ، فبلغَ ذلكَ النبيَّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فقالَ: أتعجبونَ مِن غيرةِ سعدٍ؟ لَأَنَا أغيرُ مِن سعدٍ، واللهُ أغيرُ منِّي**»(١).

وأرسلَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إِلَىٰ إحدَىٰ المدنِ يخاطبُ أهلهَا فكتبَ: «بلغَنِي أنَّ نساءَكُم يزاحمنَ العلوجَ -كفارَ العجمِ- فِي الأسواقِ! ألَا تغارونَ؟! إنَّهُ لَا خيرَ فيمَن لَا يغارُ»، فكيفَ لَو رأَىٰ حالنَا وَمَا وصلنَا إليهِ؟!

واعلمُوا أنَّ ممَّا دأبَ عليهِ المنافقونَ، محاربتَهُم للفضائلِ، وفتحَ بابِ الرذائلِ، وَلَا يزالونَ يتربَّصُونَ بالمؤمنينَ الدوائرَ، بغيةَ أَن يظفرُوا بمطلوبِهِم، وتقرَّ أعينُهُم بتسارعِ الناسِ إِلَىٰ مَا يدعونَ إليهِ مِن الانحرافِ وتخطِّي أسوارَ الفضيلةِ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾(٢).

أيُّها المسلمونَ:

إنَّ المنافقينَ يريدونَ خلعَ السترِ مِن نسائِكُم، وإنَّ العلمانيينَ يعملونَ مِن أجلِ ذلكَ ليلَ نهارٍ، ولذلكَ فقَد فتحُوا علَىٰ المسلمينَ أسبابَ الفسادِ والانحطاطِ، فهَبُّوا إِلَىٰ الدعوةِ إِلَىٰ الاختلاطِ وتآزرُوا مِن أجلِ تحقيقِ هذهِ الغايةِ، لعلمِهِم أنَّهُم سينالونَ مِن خلالهِ ومعَ مرورِ الأيامِ مَا لَا يتصوَّرُهُ عقلٌ.

وقَد حصلَ لَهُم مَا أرادُوا، وحقَّقُوا كثيرًا مِن النتائجِ التِي لَم يكونُوا ليصلُوا إليهَا لولَا هذَا الاختلاطُ الشنيعُ.

وَمِن أبرزِ نتائجِهِ تلكَ المعاكساتُ التِي أصبحَت مِن نوعِ المألوفِ، ولعلَّكَ لَا تجدُ

---

(١) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) سورة النساء:٨٩.

-إِلَّا فِي النادرِ- مَن خَلَا مِن صديقةٍ، فقَد انتشرَت المعاكساتُ بينَ الجنسينِ، وكثرَت الخِيَاناتُ الزوجيةُ، وزادَ السَّفَهُ خصوصًا بينَ أطرافِ المتزوجينَ والمتزوجاتِ علَىٰ وجهِ الخصوصِ.

وانظُر، كَم مِن اللقطاءِ يوجَدُ مرميًّا عندَ أبوابِ المساجدِ، وأرصفةِ الشوارعِ، وعندَ الحاوياتِ، وبعضهُم يوجدُ مقتولًا بغيرِ حقٍّ!

هَل هوَ مِن نتاجِ الحلالِ، أَم العلاقاتِ المحرمةِ؟!

أتدرونَ أَنَّهُ أصبحَ مألوفًا عندَ بعضِ الناسِ أَن يكونَ للرجلِ عشيقةٌ؟!

وهذَا هيِّنٌ بالنسبةِ للمُصيبةِ الكبرَىٰ والتِي ترَىٰ أَنَّ كونَ المرأةِ لهَا صديقٌ، أنَّ هذَا أمرٌ مألوفٌ! واللهُ جعلَ مِن صفاتِ المؤمناتِ أنَّهنَّ ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[1]، أَي: عشَّاقٍ وأصدقاءَ.

وأعظمُ الكمدِ أنْ سلكَ العلمانيونَ الأراذلُ مسلكَ السوءِ، وذلكَ باستفزازِ أهلِ الخيرِ المحافظينَ بعباراتٍ لاذعةٍ شنيعةٍ، فأحدُهُم يكتبُ: «إنَّ هوايتِي معاكسةُ ذواتِ النسبِ»، وآخرُ يقولُ: «عليكُم ببناتِ النسبِ فإنهنَّ لَا يحملنَ الإيدز!».

وأنتُم تعرفونَ ماذَا يعنونَ؟، وماذَا يقصدونَ؟

يريدونكُم أنتُم أَيَّتهَا البَقيةُ الباقيةُ! يريدونَ إذلالَ تلكَ الرءوسِ العاليةِ، وتلكَ الأنوفِ الشاهقةِ، فَيَا لَغباءِ مَن طاوعَهُم فِي ذلكَ!

إخوانَنَا: لنعترِفَ أنَّنَا نعيشُ أزمةً فِي الأخلاقِ إِلَىٰ أبعدِ حدٍّ!

لَا تقولُوا إنِّي أبالغُ.

---

(١) سورة النساء:٢٥.

فهَل ننتظرُ اليومَ الذِي يبحثُ فيهِ الرجلُ عَن زوجةٍ عفيفةٍ فَلَا يجِدُ؟!

إنَّ بعضَ النساءِ فقدنَ الحياءَ بسببِ ضعفهِنَّ وعدمِ الرقيبِ، فبعضُهُنَّ حينَ تصلُ إلَىٰ محَلِّ دراستِهَا المَشبوهِ، تخلَعُ الحجابَ الشرعيَّ الذِي تستَّرَت بهِ، وتتَبرَّجُ تبرجَ الساقطاتِ، فما الذِي يدفعُهَا لذلكَ؟!

ضعفُ التربيةِ، وقلةُ الرقيبِ.

بناتٌ صغيراتٌ فِي المدارسِ يحمِلنَ الهاتفَ الجوالَ! مِن أجلِ ماذَا؟!.. لِمَ؟! أسئلةٌ تحتاجُ إلَىٰ جوابٍ؟!

يجبُ أَن نراجعَ أنفسنَا فِي تربيتِنَا لبناتِنَا، فإنَّ التربيةَ هِيَ اللبنةُ الأولَىٰ للسلوكِ الحسنِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفَىٰ بالمرءِ إثمًا أَن يضيِّعَ مَن يقوتُ**»[1].

وَقد قيلَ:

إذَا مَا الجَرحُ رَمَّ عَلَىٰ فَسَادٍ ... تَبَيَّنَ فِيهِ إهمَالُ الطَّبِيبِ

انتبهُوا لمَا يُرادُ بكُم، لَا تفتنكُم تلكَ الصرخاتِ الفاجرةِ مِن أدعياءِ الغربيةِ مِن العلمانيينَ والمنافقينَ، ممَّن عمَّت بهِم الصحفُ ووسائِلُ التَّواصلِ وضجَّت.

أتدرونَ ماذَا يريدونَ بكُم؟

يريدونَ أَن يسلبوكُم الشرفَ والعفةَ، التِي تنعمونَ بهَا وقَد افتقدوهَا.

ماذَا يعنِي أَن تكتبَ إحدَىٰ الفاجراتِ تنادِي بإقامةِ مراقصَ ديسكُو للشبابِ والفتياتِ للترفيهِ عَن أنفسِهم!

إنَّهُم يحسدونكُم علَىٰ السترِ والحياءِ الذِي افتقدوهُ، فيريدونَ أَن تكونُوا وإيَّاهُم سواءً، قالَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ودَّت الزانيةُ لَو أنَّ النساءَ كلهُنَّ زَوانٍ».

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٨١).

إنهُم يريدونَ تحطيمَكُم بتعليقاتِهِمُ الساخرةِ عَلَىٰ الحجابِ، وعلَىٰ المتمسكينَ بالدينِ بأنهُم رجعيونَ، مِن أجلِ أَن تنهزمُوا أمامَ نداءاتِهِم، فتُسلِّمُوا لهُم زمامَ القيادةِ فينزلُوا بكُم نحوَ الهاويةِ.

إنَّهم يريدونَ سلبَ بناتِكُم والاستمتاعَ بهنَّ، فهُم يحقدونَ علَىٰ محافظَتِكُم وكبريائِكُم.

فالواجبُ علَىٰ كلِّ رجلٍ أَن يتقِي اللهَ، وأَن يغارَ علَىٰ محارمِهِ، واسمَع مَا قالَتهُ إحدَىٰ النساءِ متحسرةً بعدَ فواتِ نصيبِهَا مِن العفةِ والشرفِ، تقولُ: «مَا مِن امرأةٍ تفرِّطُ فِي فضيلتِهَا، إلَّا وهِيَ ذنبُ رجُلٍ قَد أهملَ فِي واجبِهِ».

أيُّها المسلمونَ:

إنَّ المُنَافقينَ والعلمَانيينَ يحقدُونَ علَىٰ شرفكُم، ويتساءلونَ متحَسِّرينَ: لماذَا هُم فقَط؟ أَي محافظينَ!

أَليسَ مِن الغبنِ والقهرِ أَن تنامَ مَن كَانَ أهلُهَا رأسَ الشرفِ، وعنوانَ الشجاعةِ، تنامُ بغيًّا بينَ يدَي هؤلاءِ الكلابِ؟!

احرصُوا علَىٰ أعراضِكُم، لَا تعرِّض نساءَكَ للفتنةِ وتطلُبَ منهنَّ المستحيلَ، لَا تضعهَا بينَ يدَي الرجالِ وتقولَ: امتنعِي.

أرونِي رجلًا واحدًا منكُم يستطيعُ أَن يملكَ هواهُ بينَ يدَي امرأةٍ يهواهَا، فأصدِّقَ أَنَّ هناكَ امرأةً تملكُ هواهَا بينَ يدَي رجلٍ تخالطُهُ وتميلُ إليهِ.

فإِن كنتُم تعجزونَ عَن ذلكَ فاعلمُوا أَنَّ النساءَ أعجزُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي بنعمتِهِ اهتدَىٰ المهتدونَ، وبعَدلِهِ ضلَّ الضالونَ، لَا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ وهُم يُسألونَ، أحمدُهُ تعالَىٰ وأشكرهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ: فيَا أيتهَا الأختُ المحافظةُ:

فِي هذَا الوقتِ الَّذِي تغيَّرَ فيهِ كلُّ شيءٍ، وَلَم يبقَ مِنَ الأخلاقِ فِي كثيرٍ مِن الأماكنِ إلَّا آثارُهَا، وفقدنَا فيهِ كثيرًا مِن الشبابِ الغَيُورِ بسببِ تبلُّدِ أحاسيسِهِم، وفقدنَا كثيرًا مِن الرجالِ بسببِ انعكاسِ مفاهيمِهِم، وَفِي حِين غيابِ الرقيبِ الحريصِ علَىٰ محارمِهِ أَن تنتهكَ، وأسوارِهِ أَن تُتَسلقَ، نتوجهُ إليكِ بهذَا النداءِ، نخاطبُ فيكِ دينَكِ وسترَكِ وحياءَكِ.

أختَاهُ: فِي وقتٍ بدأَ فيهِ أهلُ الشرِّ يتلمَّظونَ تلمظَ الأفاعِي، وحملُوا بينَ جوانحِهِم قلوبَ الذئابِ، ولبسُوا زيَّ الثعالبِ.

فِي هذَا الوقتِ المكتظِّ بالفتنِ والآفاتِ، ومعَ افتقادِ الرجلِ الغيورِ، حافظِي علَىٰ نفسكِ، وتمسكِي بحجابِكِ، فإنَّ حجابكِ هُوَ عفافكِ وكنزكِ الغالِي فلَا تُفرِّطِي فيهِ.

معاولُ الهدمِ كثيرةٌ! تُحَاصِرُكِ مِن كلِّ جانبٍ فانتبهِي وتيقظِي.

احذرِي أَن يقتلنَا دعاةُ الفجورِ مِن خلالكِ، لَا يطعنونَنَا طعنةَ الغدرِ عَن طريقِكِ.

يَا أختنَا.. يَا شرفنَا.. يَا مستودعَ أعراضِنَا: تمسَّكِي بعفافِكِ، وحجابِكِ الشرعيِّ فِي زمنِ الغربةِ.

لَا يُضعِفَنَّكِ كثرةُ مَا ترينَ مِن اللاهثاتِ وراءَ الساقطاتِ، فأنتِ أغلَىٰ وأعلَىٰ، لستِ معقدةً، لستِ متخلفةً، لستِ رخيصةً.

فكَم مِن عفيفٍ يطمعُ بكِ زوجةً، يثِقُ بكِ حينَ خروجِهِ، ويستودعُكِ أغلَىٰ مَا يملكُ، وكَم مِن مستهترٍ لَا ينظرُ إِلَىٰ تلكَ الساقطةِ سوَىٰ أنَّهَا «لعبةٌ إِلَىٰ أجلٍ».

يَا ثروتَنَا الغاليةَ، يَا مستودعَ العفةِ، يَا نادرةً فِي زمنِ الضياعِ، يَا عنوانَ العفافِ: لَا تستوحشِي الغربةَ، فغربتكِ محمودةٌ تزولُ كلَّمَا ازددتِ باللهِ أُنسًا.

لَا تتصورِي تلكَ الساقطةَ سعيدةً! وَمِن أينَ تأتيهَا السعادةُ وهيَ تعرفُ أَنَّ أقصَىٰ طموحِ الرجالِ بهَا أَن تكونَ عشيقةً.

احذرِي مِن داعيَاتِ السوءِ اللاتِي فقدنَ أعزَّ مَا تملكُهُ كلُّ امرأةٍ، فإنهنَّ يردنَ سحبَكِ إِلَىٰ المستنقعِ اللاتِي غرِقنَ فيهِ.

احذرِي دعاةَ الفجورِ ودعاوَاهُم المُضلِّلَةَ بأيِّ اسمٍ كانَت! إِنَّهُم يريدونَ ابتذالَكِ! فهَل تَرضَينَ لنفسكِ بالدنيةِ؟!

انتبهِي أَن تسيرِي فِي ركابِهِم، وتَقعِي فِي مكائدِهِم، انتبهِي يَا مَن رفعَ الوالدُ والولدُ والأخُ بِكِ الرأسَ، لَا تُذِلِّي تلكَ الرءوسِ بأَن تنامِي بينَ أحضانِ ساقطٍ يذلُّ وراءَكِ أسرةَ المجدِ.

انظرِي إليهِ يفتخرُ أنَّهُ تلاعبَ بكِ يَا ابنةَ الشرفِ والعزِّ!

وهوَ مَن هوَ؟! يَا للقهرِ والكمدِ!

أَلَا يحقُّ لنَا أَن نذرفَ الدموعَ علَىٰ العرضِ المذلِّ، والشرفِ المنحدرِ؟!

إِنَّ شريحةً يريدُونَ أَن يتلاعبُوا بكِ، كانُوا لَا يظفرونَ مِن أسلافكِ وَلَا بفكرةٍ، فكيفَ يتلاعبونَ بكِ علَىٰ موائدِ السقُوطِ.

لَا تغترِّي بنداءاتِهِم للتحررِ، وإعطاءِ الحقوقِ للمرأةِ، فإنمَا تبرجكِ يريدونَ، ولكَي تأتِي إليهِم مطاوعةً، ولسانُ حالِكِ يقولُ: «هيتَ لكُم افعلُوا مَا شئتُم دونَ قيودٍ»، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾(١).

لَا يدخلوا عليكِ مدخلَ السُّوءِ، فمكائدهُم كثيرةٌ، وحيلهُم دنيئةٌ وقَد تمرسُّوا الباطلَ حتَّىٰ أتقنُوا فنونَهُ.

إنَّ هؤلاءِ لَو قالُوا لكِ: اخلعِي حجابكِ الشرعيَّ لأبيتِ وصرختِ: حجابِي حجابِي، فدخلُوا عليكِ باستدراجِ الشيطانِ، فهَل تستيقظينَ أختاهُ؟

اعلَمِي أنَّ السترَ زينةُ المرأةِ، فإن اتخذتِ السترَ فاتخذيهِ للهِ؛ لأنَّ هذَا هوَ الباقِي، فربمَا تُبتلينَ برجلٍ حقيرٍ ديوثٍ! فإيَّاكِ أَن تنزعِي رداءَ الحِشمَةِ والأنفةِ مِن أجلِ ديوثٍ ليسَ برجلٍ.

وإذَا اتخذتِ الحجابَ الشرعيَّ والسترَ مِن أجلِ اللهِ، وللحفاظِ علَىٰ نفسِكِ، فالبسيهِ كمَا أرادَهُ اللهُ منكِ، فلا تفتنِني بكشفِ ستركِ فهُوَ رأسُ مالكِ الباقِي.

واعلمِي أنَّكِ حينَ تلبسينَ الحجابَ الشرعيَّ، فإنكِ تلبسينَهُ طاعةً لربكِ، وحريٌّ بكِ -وهذَا حالُكِ- أَن ترفعِي بهِ رأسًا، وتبتهجِي بهِ أنسًا.

أليسَ غريبًا أَن تفخرَ المتبرجةُ بتبرجهَا، وَلَا تفتخرِي أنتِ بحجابكِ؟!

احمدِي اللهَ علَىٰ نعمةِ الحجابِ الشرعيِّ وتمكنكِ مِن لبسهِ، فكَم مِن امرأةٍ تتمنَّىٰ هذهِ النعمةَ ولَم توفَّق إليهَا، أَو أنهَا حُجبَت عنهَا لأسبابٍ فوقَ إرادتهَا.

جمِّلِي باطنَكِ بالتقوَىٰ كمَا جمَّلتِ ظاهركِ بالحجابِ الذِي هوَ علامةُ العفيفاتِ.

---

(١) سورة النساء:٢٧.

واحذرِي أَن تلفكِ الموجةُ كمَا دارَت بغيركِ، فجَعَلَت مشرقَهُ غربًا وشمالَهُ جنوبًا.

احذرِي التبرجَ المعلبَ الذِي لَم يأخُذ مِن السترِ إِلَّا اسمَهُ، ولَم يبقَ معَهُ مِن الحجابِ إِلَّا رسمَهُ.

أختاهُ:

المآسِي كثيرةٌ، والمواجعُ متناهيةُ الأطرافِ، والفتنُ واسعةُ الأرجاءِ، فانتبهِي أَن تضيعِي، فبضياعكِ تضيعُ أمةٌ، فهَل تَعِينَ ذلكَ؟!

❊❊❊

(٩) السجينةُ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ المكلَّفينَ ليعبدوهُ، وأدرَّ عليهِم الأرزاقَ ليشكروهُ، وأوضحَ لهُم الأدلةَ والبراهينَ ليعرفوهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ الذينَ اتبعوهُ.

أمَّا بعدُ:

فإِنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ إِذ أنعمَ اللهُ عليهِ بنعمةِ الذريةِ، أَن يشكرَ للهِ تعالَىٰ نعمتَهُ، ويعلمَ أَنَّ هؤلاءِ الأبناءِ إِنَّمَا هُم أمانةٌ فِي يدهِ، إِنْ أحسنَ إليهِم أُجِرَ وغَنِمَ، وإِن ضَيَّعهُم أثمَ وغرمَ.

وإننَا فِي هذهِ الكلمَاتِ نريدُ أَن نتكلمَ عَن صورةٍ مِن صورِ ضياعِ الأمانةِ، يمثلهَا بعضُ الآباءِ الذينَ دهمتهمُ الغفلةُ، وحَلَّت فِي قلوبهِمُ القسوةُ، وَلَم يزدادُوا معَ مرورِ الأيامِ إِلَّا غيًّا، وَلَم يحصدُوا معَ مضيِّ الأوقاتِ إِلَّا ظلمًا وبغيًا، تمرُّ بهِم العبرُ فَلَا يعتبرونَ، وتطرقُ آذانَهُم المواعِظُ فَلَا يتعظونَ، ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[1].

إِنَّهَا لمصيبةٌ عظمَىٰ، حينَ يتحولُ قلبُ الأبِ العطوفِ إِلَىٰ صخرٍ جلمديٍّ، لَا يفكرُ إِلَّا بجنيِ الأموالِ، أَو مراعاةِ الأعرافِ السائدةِ فِي مجتمعهِ أَو قبيلتهِ، وَلَو كَانَ علَىٰ حسابِ ضياعِ بُنَيَّاتِهِ الضعيفاتِ.

إِنَّنَا نريدُ أَن نتكلمَ عَن قضيةٍ يندَىٰ لهَا الجبينُ، وتتفطرُ لهَا القلوبُ، وتتصدعُ لهولهَا الجبالُ الراسياتُ، حولَ بُنَيَّاتٍ مضَت حياتهُنَّ، وتقدمَ بهنَّ العمرُ، وَلَم يزلنَ بغيرِ

(١) سورة البقرة:١٨.

زواجٍ، فأصبحنَ كالأشجارِ المنحنيةِ التِي هاجمتهَا رياحُ الخريفِ، فتساقطَت أوراقُهَا، ويبسَت أغصانُهَا، وكالأزهارِ الذابلةِ التِي ذهبَ شذَىٰ عطرهَا، وبعضهَا الآخَرُ الذِي شارفَ علَىٰ حافَّاتِ الذبولِ.

فأصبحنَ حبيساتِ البيوتِ، واحتواهنَّ ذلكَ العالمُ الحزينُ، الذِي اكتظَّ بزحامِ الهمومِ، وضاقَ بصيحاتِ الأنينِ.

فقَد كنَّ زينةً للبيوتِ وحصنًا للفضيلةِ، فنُسِينَ فِي زحمةِ الحياةِ، فبقينَ قابعاتٍ فِي البيوتِ، محاصراتٍ بالهمومِ، ينتظرنَ الأملَ الذِي يبددُ ظلامَ الوحدةِ ووحشةَ الحياةِ، فمِن قائلةٍ: «أصبحَت كلمةُ عانسٍ بمثابةِ الخنجرِ الذِي يصيبُ صميمَ فؤادِي...»، وَمِن قائلةٍ: «أتوقُ إِلَىٰ بيتٍ وأسرةٍ مثلَ باقِي البناتِ، أصبحتُ مثلَ الرجالِ فِي تَحَمُّلِ كلِّ شيءٍ، ولكنَّ قلبِي قلبُ طفلٍ، طالمَا بكيتُ بينِي وبينَ نفسِي حتَّىٰ لَا يرانِي أحدٌ...»، وأخرَىٰ يعبرُ عنهَا قولُ القائلِ:

فَعَبَرتُ سُورَ الأَربَعِينَ وَلَم تَزَلْ ... بِي لِلطُّفُولَةِ عَودَةٌ وَصَهِيلُ

لقَد كثُرَتِ الشكوَىٰ مِن كثيرٍ مِن الفتياتِ، اللَّاتِي يحتجْنَ إِلَىٰ الأملِ، كمَا يحتاجُ الضريرُ إِلَىٰ ذُبَالَةِ نورٍ، تشتكِي الواحدةُ منهنَّ والدَهَا الذِي تسببَ فِي جلوسهَا (عانسًا) حبيسةَ الجدرانِ، مِن غيرِ زوجٍ يؤنسُ وحشتهَا، ويعينُها علَىٰ صعوبةِ الحياةِ وقسوتهَا، وطفلٍ تحتَضنُهُ وتلاعبهُ يكونُ سببًا فِي سَعَادتهَا.

إنَّ مِن المسلَّمِ بَدَاهةً، أنَّ الوالدَ لَا يهنأُ لهُ بالٌ حتَّىٰ يرَىٰ أبناءهُ فِي غايةِ السعادةِ، وإنَّ ممَّا يصعبُ تصورهُ أَن يكونَ الوالدُ سببًا فِي شقاءِ أبنائهِ وتعاستهِم، ولكِن هذَا يحدثُ عندمَا يتبخرُ حنانُ الأبوةِ مِن ذلكَ القلبِ، وتحلُّ القسوةُ بدلًا عنهُ، أَو حينَ يفقدُ الإحساسَ ويخيِّمُ الجهلُ علَىٰ حياتهِ، وتضربُ الغشاوةُ علَىٰ عينيهِ فلَا يعودُ يميِّزُ شيئًا، وحينئذٍ فإنَّ كلَّ مَا يحدثُ إنَّما هوَ نتيجةٌ طبيعيةٌ وردةُ فِعلٍ متوقعةٌ، وعلَىٰ

اختلافِ النتائجِ والآثارِ فإنَّ مؤدَّاهَا واحدٌ فِي الأصلِ، وسببهَا يدورُ حولَ شيءٍ واحدٍ هوَ: قسوةُ الآباءِ وبُعدُهُم عَن مراقبةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وخوفِ عقابِهِ.

واستمِع بنفسكَ لِمَا تقولُ صاحبةُ المأساةِ، حتَّىٰ تتصورَ عظمَ المصيبةِ، وإلَىٰ أيِّ مدًىٰ وصلَت.

فتاةٌ تصرخُ: «والدُنَا حكمَ علينَا بالعنوسةِ والتعاسةِ»، وتروِي قصتهَا فتقولُ: «نحنُ أربعُ بناتٍ مستوَىٰ عائلتِنَا متوسطٌ ومستورونَ، ومشكلتُنَا -وَمَعَ الأسفِ الشديدِ- فِي والدِنَا، فهوَ مِنَ النوعِ الذِي يعشقُ المظاهرَ، وحكمُهُ علَىٰ البشرِ يرتكزُ فِي الأساسِ علَىٰ الناحيةِ الماديةِ البحتةِ، فالرجلُ فِي نظرِهِ هُوَ صاحبُ الجيوبِ المليئةِ بالنقودِ، وليسَ مَن يتمتَّعُ بأخلاقٍ كريمةٍ عاليةٍ مِن شرفٍ، وشهامةٍ، وثقافةٍ، ورجولةٍ، وهذهِ هِيَ الطامَّةُ الكبرَىٰ الَّتِي حطَّمَت حياتِي أنَا وأخواتِي.

كنَّا نحنُ البناتُ الأربعُ قمةً فِي الهدوءِ والنظامِ والاجتهادِ فِي المدرسةِ، كانَت أمِّي حريصةً كلَّ الحرصِ علَىٰ معرفةِ صديقاتنَا والتقرُّبِ منهنَّ، خوفًا علينَا وعلَىٰ سلوكيَّاتنَا، وأنهيتُ أنَا وأخواتِي دراستَنَا الجامعيةَ، ووفقنَا اللهُ فِي أَن نتولَّىٰ وظائفَ محترمةً فِي سلكِ التدريسِ، وبدأَت المشاكلُ عندمَا تقدَّمَ لخِطبتِي أخٌ لإحدَىٰ صديقاتِي، وكانَ شابًّا يتمتَّعُ بأخلاقٍ عاليةٍ، وقَد تقدَّمَ لخطبتِي سبعَ مراتٍ، وفِي كلِّ مرةٍ كانَ والدِي يرفضُ زواجِي منهُ لأنَّهُ مِن عائلةٍ عاديةٍ، وَلَا يملكُ أموالًا وشركاتٍ وأملاكًا، وحاولَت والدتِي مساعَدَتِي وإقناعَ والدِي، ولكنَّهَا لَم تفلِح وأصرَّ هُوَ عَلَىٰ رفضِهِ، وذهبَ هذَا الشابُّ وتزوجَ مِن أخرَىٰ.

بعدهَا تقدَّمَ شابٌّ آخرُ يعملُ فِي سلكِ التدريسِ، وَمِن أسرةٍ طيبةٍ وكريمةٍ لكِن ليسَ لَهُ موردٌ ماديٌّ سوَىٰ الراتبِ، وهوَ يملكُ السمعةَ الطيبةَ والأخلاقَ الكريمةَ والسيرةَ الحميدةَ، وأيضًا رفضهُ والدِي لأنَّهُ فقيرٌ، ولَا يملكُ المالَ والجاهَ، وبالأصحِّ لأنَّهُ

ليسَ بصاحبِ مظهرٍ كذابٍ، مدَّعيًا والدِي بأنَّ هذَا الرجلَ لَن يسعدنِي، وليسَ بمقدورهِ ضمانُ حياةٍ عاليةِ المستوَىٰ، وأيضًا ذهبَ هذَا الشابُّ وتزوجَ بأخرَىٰ.

وفِي كلِّ مرةٍ يتقدمُ لخطبتِي شخصٌ يردُّهُ والدِي لأنهُ ليسَ بغنيٍّ ولَا يملكُ الثروةَ والجاهَ، معَ العلمِ أنَّ حالتنَا متوسطةٌ ولسنَا أغنياءَ، وكلُّ شخصٍ يتقدمُ لخطبتِي يحكمُ عليهِ منَ المرَّةِ الأولَىٰ بالفقرِ وأنَّهُ لَن يسعدنِي، وأيضًا قاسَىٰ أخواتِي الثلاثةُ نفسَ المعاناةِ، وشربنَ مِن نفسِ الكأسِ التِي شربتُ منهَا، والحقيقةُ أنَّنَا لَم نستطعِ الوقوفَ والصمودَ أمامَ تحكُّمِ والدنَا، وصرنَا نعانِي مِن الألمِ والحزنِ بعدمَا أصبحنَا عوانسَ نتحسرُ علَىٰ الأزواجِ والأطفالِ والحياةِ الأسريةِ.

فأصبحَ عمرِي تسعةً وثلاثينَ، وأختِي فِي الثامنةِ والثلاثينَ، والتِي تليهَا فِي السادسةِ والثلاثينَ، والصغرَىٰ بلغَت الخامسةَ والثلاثينَ.

نَعَم، أصبحنَا عوانسَ أمامَ الجميعِ، وأمامَ أنفسنَا، فقَد تقدَّمَ بنَا العمرُ، وفاتنَا قطارُ الزواجِ، وجاوزنَا العمرَ المناسبَ للزواجِ، وَهَانَحنُ نعيشُ مَعَ والدنَا وأمامَهُ بكلِّ حزنٍ وألمٍ ولوعةٍ، نعيشُ الحِرمانَ والأسَىٰ، وكلُّ واحدةٍ منَّا تبكِي حظهَا العاثرَ، فكلُّ صديقاتنَا يعشْنَ حياةً زوجيةً فِي ظلِّ أسرةٍ سعيدةٍ وأبناءٍ، وبناتٍ، وزوجٍ، ونحنُ نعيشُ الألمَ والعنوسةَ، والجميعُ يقولُ عنَّا عوانسَ، لَا أزواجَ ولَا أبناءَ، لأنَّ والدنَا حكمَ علينَا هذَا الحكمَ القاسِي، فلَا زواجَ إلَّا مِن رجلٍ غنيٍّ يملكُ فيلَّا وشركاتٍ، وغيرَ ذلكَ.

هَل تصدِّقونَ إذَا قلتُ لكُم إنَّهُ تمرُّ علينَا ليالٍ طويلةٍ، وَأنَا وأخواتِي نتحسرُ علَىٰ أنفسنَا ومشاعرنَا وقلوبنَا، ونتمنَّىٰ أَنَّ أطفالنَا بينَ أيدينَا، نرضعهُم، ونربيهِم، ونحضنهُم بحبنَا وعطفنَا.

مشكلَتُنَا هذهِ جعلتنَا نفتقرُ لعاملِ الاستقرارِ، وأصبحنَا ندللُ علَىٰ أنفسنَا بينَ الخاطباتِ، لعلهنَّ يجدْنَ لنَا مَن تتوفرُ فيهِ الشروطُ الَّتِي يريدهَا والدِي، وأيضًا كلُّ

هذهِ المحاولاتِ باءَت بالفشَلِ، وأصبحَت الحياةُ لَا لذَّةَ لهَا وَلَا قيمةَ، وساعاتُنَا كلُّهَا سوداءُ خاليةٌ مِن البهجةِ والأملِ والفرحِ.

يكفِي أَن أقولُ لكُم أنَّنَا فعلًا محروماتٌ مِن عاطفةِ الأمومةِ، ومحروماتٌ مِن دفءِ كنفِ الأزواجِ، ونهايتنَا ستكونُ التشتتَ والضياعَ، ووالدِي لَا يزالُ مصرًّا عَلَىٰ آرائهِ وأفكارهِ وتحكمهِ، فهوَ لَا يُدركُ نهايتنَا ومصيرنَا فِي المستقبلِ، فأخبرونَا ماذَا نفعلُ باللهِ عليكُم؟».

فهذهِ مأساةٌ واحدةٌ مِن بينِ مئاتِ المآسِي، وتصويرٌ دقيقٌ لمعاناةِ بعضِ الفتياتِ، أرسَىٰ دعائمهَا بعضُ الآباءِ، بَل والمصيبةُ العظمَىٰ أَنَّ بعضَ الآباءِ قَد دفعَ بابنتهِ -مِن حيثُ لَا يشعرُ- نحوَ الخطأِ، بسببِ رفضهِ الدائمِ لتزويجهَا، وتلبيةِ نداءِ الفطرةِ الذِي يتحركُ فِي داخلهَا ويصرخُ فِي أعماقهَا.

قالَت إحدَىٰ الفتياتُ:

«كنَّا مجموعةً مِنَ الفتياتِ عَلَىٰ استقامةٍ وخلقٍ، وبسببِ رفضِ آبائنَا المستمرِّ لمَن يتقدمُ لطلبِ الزواجِ منَّا بحججٍ واهيةٍ، فقَد انحرفَ جميعُ صديقاتِي، وأصبَحنَ مِن أهلِ الهواتفِ والمواعيدِ، لأنَّ آباءَهُنَّ رفضُوا تحصينهنَّ بالزواجِ الشرعيِّ، وكَم مِن واحدةٍ منهنَّ تقولُ لِي ماذَا تنتظرينَ، وتجددُ لِي الدعوةَ بينَ حينٍ وآخرَ، وأنَا لَم أزَل أقاومُ، ويعلمُ اللهُ كَم أعانِي فِي سبيلِ القبضِ علَىٰ دينِي، ولكنِّي أخشَىٰ ألَّا يدومَ هذَا طويلًا، وأنجرفُ كمَا انجرفَ صاحباتِي اللاتِي كلمَا عاتبتُ واحدةً منهنَّ علَىٰ انحرافهَا تقولُ: والدِي هوَ السببُ».

وأخرَىٰ فاتهَا قطارُ الزواجِ، وأصبحَت فِي عدادِ العوانسِ، تقولُ فِي قصتهَا: «إنَّنِي أعانِي أشدَّ المعاناةِ، وأعيشُ أقسَىٰ أيامِ حياتِي، ذبحنِي والدِي بغيرِ سكِّينٍ، ذبحنِي يومَ حرمنِي مِن الأمانِ والاستقرارِ والزواجِ والبيتِ الهادئِ، بسببِ دريهماتٍ يتقاضاهَا

مِن مرتبِي آخرَ الشهرِ، يقتَطِعُهَا مِن جهدِي وتعبِي وكدِّي.

أخذَ الشيطانُ بيدِي إلَىٰ الرذيلةِ وساقنِي إلَىٰ الشرِّ، فأخذْتُ أعاكسُ وأتكلمُ معَ الشبابِ والرجالِ فِي الهاتفِ، حتَّىٰ أصبحَت سمعتِي فِي الحضيضِ، بسببِ رفضِ أبِي لزواجِي».

لَا تستغرِب! فإنَّ مثلَ هذهِ الوَقائعِ كثيرٌ، وهوَ منظرٌ يتكررُ كلَّ يومٍ، ولَا شكَّ أنَّ مِن أعظمِ مَا جرَّ النساءَ إلَىٰ الفواحشِ والزنَا ومنكراتِ الأخلاقِ، هُوَ جلوسهنَّ مِن غيرِ زواجٍ، ولَو تزوجنَ لأحصَنَّ أنفسهُنَّ وأزواجَهُنَّ، واستعفَفْنَ فِي بيوتهِنَّ.

وإنَّ فِي ذلكَ لعبرةً لمَن أرادَ الحفاظَ علَىٰ عرضهِ وصونِ محارمهِ؛ لأنَّ حالةَ الضعفِ طارئةٌ علَىٰ الإنسانِ، ولربمَا فِي حالةِ ضعفٍ يحدثُ مِن هذهِ المرأةِ مَا لَا يُتوقعُ حدوثُهُ، وصدقَ النبيُّ الكريمُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيثُ قالَ: «**إذَا أتاكُم مَن ترضونَ خلقَهُ ودينَهُ فزوجوهُ، إلَّا تفعلُوا تكُن فتنةٌ فِي الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ**»[(١)].

وَلَقَد تنوَّعَت الدوافعُ والأسبابُ لدَىٰ هؤلاءِ الآباءِ فِي تحجيرهِم علَىٰ بناتهِم، وإرغامهنَّ علَىٰ الجلوسِ دونَ زواجٍ، فبعضهُم يدفعهُ لذلكَ الطمعُ براتبِ ابنتهِ الموظفةِ، فلَا يُريدُ أَن يزوجهَا مخافةَ أَن يفلسَ ممَّا تُدِرُّهُ عليهِ مِن مبالغَ طائلةٍ نهايةَ كلِّ شهرٍ، وكأنَّهُ بذلكَ يريدُ أَن يأخذَ أجْرَ أبوتهِ وتربيتهِ لهَا، فيَا للأسفِ! وَيَا لموتِ المروءةِ والشيمِ عندَ بعضِ الناسِ!

فترَىٰ السنينَ تمرُّ بهَا، والأعوامَ تطوَىٰ، وكلمَا تقدَّمَ لهَا رجلٌ، قالَ: إنهَا لَا تريدُ الزواجَ، وراحَ يعللُ بأعذارٍ واهيةٍ، وتلفيقاتٍ كاذبةٍ، حتَّىٰ يصرفَ الخُطَّابَ عنهَا.

أحدهُم لمَّا عوتبَ علَىٰ عدمِ تزويجِ ابنتهِ الموظفةِ، قالَ: أُزوِّجُ فلانةً، تريدونَ أَن

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٨٦٨).

أموتَ مِن الجوعِ؟!

وبعضهُم يُنفِّرُ الخُطَّابَ عنهَا، لأنَّهُ يريدُ أَن يبيعهَا بمبلغٍ خياليٍّ يسميهِ مخادعةً بالمهرِ.

عبادَ اللهِ:

وَمِن الطَّوامِّ العظيمةِ: تمسُّكُ بعضِ الناسِ بالعاداتِ القبليةِ البائدةِ، والأعرافِ الظالمةِ، التِي لَا يقرُّهَا الشرعُ، وَلَا يقبلهَا العقلُ، وذلكَ أَنَّ بعضَ الناسِ لَا يزوجُ ابنتَهُ إلَّا برجلٍ مِن قبيلتهِ، وتعظمُ المصيبةُ إذَا كانَ هذَا الرجلُ مِن رءوسِ القبيلةِ، فإنَّهُ لَا يخرجهَا إلَّا لخواصِّ بنِي عمومتهِ، وإذَا أعرضَ عنهَا أبناءُ العمومةِ، فإنهَا تجلسُ دونَ زواجٍ، ويتعللُ بأنَّ هذَا هوَ قدرهَا.

والمصيبةُ أنَّ بعضَ هؤلاءِ يذهبُ ليتزوجَ مِن جميعِ القبائلِ، والمرأةُ يحرمُ عليهَا أَن تخرجَ، ليسَ للقبائلِ الأخرَىٰ، بَل حتَّىٰ لأبناءِ قبيلتهَا، بَل حتَّىٰ لأبناءِ فَخِذِهَا.

وعلَىٰ هذَا، فتأمَّل بأعينِ الحُزنِ نساءً متْنَ وَلَم يتزوجنَ، وَلَا أبالغُ، فإنَّ هذَا حدثَ، ونساءً تخطينَ الشبابَ إلَىٰ الشيخوخةِ ولَم يتزوجنَ، وَلَا زالَ الوالدُ -صاحبُ الدمِ المقدسِ- علَىٰ طريقتهِ وأعرافهِ وعاداتِ القبيلةِ.

فيَا هذَا: نحنُ نخاطبكَ بالعقلِ، ونقولُ: لَا تزوِّج أبناءَ القبائلِ الأخرَىٰ، لكِن زوِّج أبناءَ قبيلتكَ، أَو زوِّج مَن يدانيكَ فِي المنزلةِ التِي تزعمهَا لنفسكَ، وَإِن كانَ مِن قبيلةٍ أخرَىٰ، واسترُ عورتكَ، فإنَّ المرأةَ عورةٌ، قالَ بعضُ السلفِ: «مَن تزوجَت ابنتهُ، فإنمَا هيَ عورةٌ سُتِرَت، ومؤنةٌ كُفيَت».

وَمِن المُحزنِ أَن تجدَ أحيانًا فِي البيتِ الواحدِ أكثرَ مِن ضحيةٍ عَلَىٰ هذهِ الحالِ، وكلُّ هذَا لَا يهمُّ، المهمُّ أَلَّا يطرأُ عَلَىٰ العائلةِ أيُّ تغييرٍ يقدحُ بالنظامِ الذِي سارَت عليهِ ردحًا مِن الزمانِ، فأينَ الأمانةُ أيُّهَا الآباءُ؟!

استمعُوا إلَىٰ أنينِ الحيارَىٰ، وشكاوَىٰ الأيامَىٰ، وتحسَّسُوهَا بقلوبكُم وعقولكُم، فلربمَا هيَ لَم تُفصِحْ، ولكِن أنتَ ألَا تحسُّ؟!

استمِع إليهَا تخاطبكَ:

أَبِـي كُـنتُ يَـومًا أَعِـيشُ الحَـنَان ... وَأَحمِـلُ حُلمـًـا بِقَلبِـي الـصَّغِيرْ
أَقُـومُ أُنَاجِـي طُـيُورَ الـصَّبَاح ... وَأَغفُـــو طَـوِيلًا بِحُلْـمٍ كَبِيــرْ
كَبُــرتُ وَتَاهَــت بِــيَ الأُمنِـيَاتُ ... وَأَبــصَرتُ عُمــرِي أَمَامِــي يَطِيــرْ
ظَمَـئتُ فَلَـم أَلـقَ غيـرَ الـسَّرَابِ ... وَتُهــتُ وَلَـم أَدرِ أَيــنَ المَـسِيرْ
لَقَـد كُـنتُ أَحلُـمُ مِـثلَ البَـنَات ... بِبَـيتٍ سَـعِيدٍ وَطِفــلٍ صَـغِيرْ
فَأَغمُــرُ طِفلِــي بِفَـيضِ حَنَانِــي ... وَتَــرفُلُ بِنتِــي بِــثَوبٍ حَرِيــرْ
أَبِـي.. قَـد رَكِـبتُ بُحُـورَ الأَمَـانِـي ... فَعُــدتُ بِجُــرحٍ وَقَلــبٍ كَـسِيرْ
سَـجَنتَ فُــؤَادِي بِحِـصنٍ مَنِـيعٍ ... وَقَطَّعــتَ دُونِــي جَمِـيعَ الجُـسُورْ
إِذَا جَــاءَ شَـخصٌ يُـرِيدُ زَوَاجِـي ... تَهِــيجُ جُــنُونًا وَتُــبدِي الــنُّفُورْ
فَهَــذَا كَبِيــرٌ وَذَاكَ صَــغِيرٌ ... وَهَـــذَا طَـــوِيلٌ وَذَاكَ قَـــصِيرْ
فَأَعــرَضَ عَنِّــي الـرِّجَالُ وَصَـارَت ... حَيَاتِــي شَــقَاءً وَسَــاءَ المَـصِيرْ
أَتُــوقُ لِكِلْمَــةِ «مَامَــا» كَمَـا قَـدْ ... تَــشَوَّقَ لِلــضَّوءِ شَــخصٌ ضَـرِيرْ
وَزَوجٍ يُــؤَانِسُ وَحــشَةَ رُوحِــي ... أَلَــستَ تُحِــسُّ بِهَـذَا الـشُّعُورْ؟!
أَبِــي قَــد ذَبُلــتُ وَضَــاعَ شَـبَابِي ... وَلَا زِلــتَ تَلهُـــو بِكُـــلِّ سُــرُورْ
كَأَنَّــكَ مَــا قَــد ظَلَمــتَ فَـتَاةً ... تَــئِنُّ وَتَبكِــي لِــسُوءِ الأُمُــورْ
فَمَــاذَا عَــسَىٰ أَن تَقُــولَ إِذَا مَــا ... بُعِــثتَ إِلَــىٰ اللهِ يَــومَ النُّــشُورْ؟

أئِــنُّ وَأَشــكُو إِلَــىٰ اللَّـــهِ حَالِــي
فَــنِعمَ المُعِـــينُ وَنِعـــمَ النَّــصِيــرْ

الحقيقةُ أنَّ الأمرَ غايةٌ فِي الغرابةِ، فهذَا الرجلُ وأمثالُهُ ألَا يشعرونَ؟!

ألَا يتذكرُ أحدهُم الفراغَ الذِي كانَ يسيطرُ علَىٰ حياتهِ قبلَ زواجهِ، ألَم يكُن محتاجًا للدفءِ العاطفيِّ، والاستقرارِ النفسيِّ؟

ألَم يكُن متشوِّقًا لرؤيةِ أبنائهِ؟

بَل وبصراحةٍ، ألَم يكُن محتاجًا لقضاءِ وطرهِ وإشباعِ غَريزتهِ، فلماذَا لَا يتساءلُ: هَل المرأةُ تختلفُ؟

تأمَّلُوا نداءَ الغريزةِ:

ضربَ عبدُ المَلكِ بنُ مروانَ بعثًا إِلَىٰ اليمنِ فأقامُوا سنينَ، حتَّىٰ إذَا كانَ ذاتَ ليلةٍ خرجَ للعسسِ، فبينَمَا هوَ فِي بعضِ الطرقِ إذ هوَ بصوتِ امرأةٍ قائمةٍ تصلِّي، فتسمَّعَ إليهَا، فلمَّا انصرفَت إِلَىٰ مضجعهَا قالَت: اللهمَّ مُسيِّرَ النُّجبِ، ومنزلَ الكتبِ، ومعطِي الرغبِ، أسألكَ أَن تردَّ لِي غائبِي، فتكشفَ بهِ همِّي، وتُقِرَّ بهِ عينِي، وأسألكَ أَن تحكمَ بينِي وبينَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ الذِي فعلَ بنَا هذَا، ثمَّ أنشأَت تقولُ:

تَطَـاوَلَ هَـذَا اللَّـيلُ فَالعَـينُ تدمَــعُ
وَأَرَّقَنِــي حُـــزنٌ لِقَلبِــيَ مُـوجِــعُ

فَـبِتُّ أُقَاسِـي اللَّـيلَ أَرعَـىٰ نُجُـومَهُ
وَبَــاتَ فُــؤَادِي بِالجـوَىٰ يَــتَقَطَّعُ

إِذَا غَـابَ مِـنهَا كَـوكَبٌ فِـي مَغِيــبِهِ
لَمَحـتُ بِعَينِـي كَوكَـبًا حِـينَ يَطلُـعُ

إِذَا مَــا تَذَكَّــرتُ الَّــذِي كَــانَ بَينَــنَا
وَجَــدتُ فُــؤَادِي حَــسرَةً يَتَــصَدَّعُ

وَكُـــلُّ حَبِــيبٍ ذَاكِـــرٌ لِحَبِيــبِهِ
يُرَجِّــي لِقَـــاهُ كُـــلَّ يَــومٍ وَيَطمَــعُ

فَذَا العَرشِ فَرِّج مَا تَرَىٰ مِن صَبَابَتِي
فَأَنــتَ الَّــذِي يَدعُــو العِـبَادُ فَيَـسمَعُ

دَعَـوتُكَ فِـي السَّرَّاءِ وَالضُّرِّ دَعوَةً ... عَلَىٰ حَاجَةٍ بَينَ الشَّرَاسِيفِ تَلذَعُ

فقالَ عبدُ الملكِ لحاجبِهِ: تعرفُ هذَا المنزلُ؟ قالَ: نعَم، هذَا منزلُ يزيدِ بنِ سنانٍ. قالَ: فمَا المرأةُ منهُ؟ قالَ: زوجتهُ، وكتبَ ألَّا يتأخَّرَ البعثُ أكثرَ مِن ستَّةِ أشهرٍ.

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذَا أمسَىٰ أخذَ دِرَّتهُ ثمَّ طافَ بالمدينةِ، فإذَا رأَىٰ شيئًا ينكرهُ أنكرهُ، فبينمَا هوَ ذاتَ ليلةٍ يعسُّ، إذ مرَّ بامرأةٍ علَىٰ سطحٍ، وهِي تقولُ:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيلُ وَاخضَلَّ جَانِبُه ... وَأَرَّقَنِي أَنْ لَا خَلِيلَ أُلَاعِبُهْ

فَوَاللَّهِ لَولَا اللَّهُ لَا رَبَّ غَيرُه ... لَحَرَّكَ مِن هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

مَخَافَةَ رَبِّي وَالحَيَاءُ يَصُدُّنِي ... وَأُكرِمُ بَعْلِي أَن تُنَالَ مَرَاكِبُهْ

ثمَّ تنفَّسَت الصُّعَدَاءَ، وقالَت: لَهَانَ علَىٰ عمرَ بنِ الخطابِ مَا لقيتُ الليلةَ، فضربَ بابَ الدارِ، فقالَت: مَن هذَا الذِي يأتِي إلَىٰ امرأةٍ مغيبةٍ هذهِ الساعةِ؟

فقالَ: افتحِي، فأبَت، فلمَّا أكثرَ عليهَا، قالَت: أمَا واللهِ لَو علمَ بكَ أميرُ المؤمنينَ لعاقبكَ، قالَ: افتحِي فأنَا أميرُ المؤمنينَ، ورفعَ بهَا صوتَهُ وجهرَ لهَا، فعرفَت أنَّهُ هوَ ففتحَت لهُ، فقالَ: أينَ زوجُكِ؟

قالَت: فِي بعثِ كذَا وكذَا، فبعثَ إلَىٰ عاملِ ذلكَ الجندِ أَنْ سرِّح فلانَ بنَ فلانٍ، فلمَّا قدمَ عليهِ، قالَ: اذهَب إلَىٰ أهلِكَ، ثمَّ أمرَ أَن يكونَ أَجَلُ بعثِ الجيوشِ أربعةَ أشهُرٍ.

ألَا تدرِي أيُّهَا العاقلُ أَنَّ جلوسَ المرأةِ دونَ زواجٍ كالجمرةِ التِي تحتضنهَا، لَا تدرِي فِي أيِّ لحظةٍ ستحرقُ ثيابكَ؟!

وَلَا تقُل: إنَّ النسبَ والحسَبَ يمنعُ، فالفتنةُ إذَا تحرَّكت لَا يوقفهَا شيءٌ، والضعفُ موجودٌ، وَلَا نقولُ ذلكَ تهوينًا للفسادِ، ولكِن لننبهَ إلَىٰ مَا قَد يقعُ.

وَيَا عبدَ اللهِ: احذَر مِن الظلمِ.

فَمَا قولُكَ حينَ تقِفُ بينَ يدَي اللهِ، وَقَد ظلَمْتَ هذهِ المسكينةَ، وأغلَقْتَ دونَهَا الأبوابَ، وكلمَا تقدَّمَ لهَا رجلٌ كفءٌ رفضتهُ، فمَا عذركَ أمامَ اللهِ؟

أَلَا تخشَىٰ أَن تدعُو عليكَ هذهِ المسكينةُ حينَ تَأَجُّجِ مشاعرِهَا، وفورانِ غريزتهَا، وشوقهَا إِلَىٰ طفلٍ تحتضنهُ وتضمهُ إِلَىٰ صدرهَا؟

لَقَد بلغَ ظلمُ بعضِ الآباءِ لبناتِهم إِلَىٰ درجةٍ كبيرةٍ، تحملُ فِي طيَّاتهَا كلَّ معانِي الأسَىٰ والحسرةِ، بعضهُم جهلًا، وبعضهُم غفلةً، وبعضهُم استغلالًا، وبعضهُم ربمَا يكونُ نتيجةَ مرضٍ نفسيٍّ هوَ نفسهُ لَا يعرفُ سببهُ، ولقَد جاءَت السُّنةُ النبويةُ محذرةً مِنَ الظلمِ وعقوبتهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بابانِ معجلانِ عقوبتهُمَا فِي الدنيَا: البَغيُ والعقوقُ**»(١).

كمَا جاءَت مُبيِّنةً فَضلَ تربيةِ البناتِ والصبرِ عليهنَّ، واحتسابِ الأجرِ فِي تربيتهنَّ، ومُوصيةً بإحسانِ الصحبةِ لهنَّ، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن ابتلِيَ مِن هذهِ البناتِ بشيءٍ فأحسَنَ إليهنَّ كنَّ لهُ سترًا مِنَ النارِ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانَ لهُ أختانِ أَو بنتانِ فأحسنَ إليهمَا مَا صحبتاهُ كنتُ أنَا وهوَ فِي الجنةِ كهاتينِ** -وقرنَ بينَ إصبعيهِ-»(٣)، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استَوصُوا بالنسَاءِ خيرًا**»(٤).

ومِن إحسانِ الصحبةِ للبناتِ والاستيصاءِ بهنَّ خيرًا، أَلَّا يقفَ حجرَ عثرةٍ فِي

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٢٠).
(٢) رواه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٢٦).
(٤) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

طريقِ زواجِهَا، الذِي هوَ سبيلُ سعادتهَا وعفتهَا.

إنَّ بعضَ الناسِ -قساة القلوبِ- إذَا ولَّاهُ اللهُ أمرَ بنيَّاتٍ لهُ، استبدَّ برأيهِ، وأظهرَ شجاعتَهُ، وفتلَ عضلاتِهِ أمامَ هذَا الجنسِ الضعيفِ، فقتلَ مشاعرهَا، وكسرَ قلبهَا، لمرضٍ نفسيٍّ يعانِي منهُ، أَو طمعٍ فِي مادةٍ، أَو حقدٍ دفينٍ لَا يعرفُ دوافِعَهُ!

وكلَّمَا تقدمَ أحدٌ لزواجهَا رفضهُ، واضعًا الشروطَ المعجزةَ، متعذرًا بالأعذارِ التِي لَا تغنِي عَن صاحبهَا شيئًا.

الظلمُ مرتعهُ وخيمٌ، وعاقبتهُ سيئةٌ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يجازِي صاحبَهُ فِي الدنيَا قبلَ الآخرةِ، كمَا قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ ليُملِي للظالمِ، حتَّىٰ إذَا أخذهُ لَم يفلِتهُ**»(١).

وَقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن هذَا الفعلِ كثيرًا، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنهُ ليسَ بينهَا وبينَ اللهِ حجابٌ**»(٢).

فكيفَ بذلكَ الظالمِ، إذَا رفعَت تلكَ المظلومةُ يديهَا إِلَىٰ السماءِ تستغيثُ بربهَا، وتستنصرهُ علَىٰ مَن ظلمهَا، وكيفَ بهِ إذَا اشتكَت إِلَىٰ خالقهَا مَا عانَتهُ مِن ظلمِ هذَا المتسلِّطِ، الذِي وقفَ حجرَ عثرةٍ فِي طريقهَا، ألَا يظنُّ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ناصرُهَا؟

بلَىٰ واللهِ، فقَد أقسمَ ربنَا سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ علَىٰ نصرةِ المظلومِ، كمَا جاءَ فِي حديثِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا دعوةَ المظلومِ، فإنهَا تحملُ علَىٰ الغَمَامِ فيقولُ اللهُ: وعزتِي وجلالِي لأنصرنكَ ولَو بعدَ حينٍ**»(٣).

فليحذرِ المسلمُ مِن الظلمِ، وليحذَر مِن دعوةِ مظلومٍ تصعدُ إِلَىٰ السماءِ وهوَ

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩).

(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨١٨).

غافلٌ عنهَا غيرُ منتبهٍ إِلَىٰ أَن تحلَّ عاقبتُهَا بهِ.

لَا تَظلِمَنَّ إِذَا مَا كُنتَ مُقتَدِرًا ... فَالظُّلمُ تَرجِعُ عُقبَاهُ إِلَىٰ النَّدَمِ

تَنَامُ عَينَاكَ وَالمَظلُومُ مُنتَبِهٌ ... يَدعُو عَلَيكَ وَعَينُ اللَّهِ لَم تَنَمِ

وَليتذكَّر وقوفهُ بينَ يدَي اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يومَ القيامةِ، حينَ يبلغُ الخوفُ بالعبادِ منتهاهُ، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[1].

وحينئذٍ يقتصُّ اللهُ سبحانهُ للمظلومِ مِنَ الظالمِ، فويلٌ لِمَن حملُوا أوزارَ الناسِ علَىٰ ظهورهِم، أَلَا ساءَ مَا يزرونَ.

إنَّ العاقلَ فِي هذَا الزمنِ مَن بحثَ لابنتهِ عَن رجلٍ صالحٍ فزوَّجهَا لهُ، فكيفَ بمَن يأتيهِ الصالحُ -دينًا وأخلاقًا ورجولةً- فيرفضهُ؟!

انتبهِ لنفسكَ، واستدرِك مَا فاتكَ، وَلَا تكُن كمَن ظلمَ ابنتهُ طولَ عمرهِ، فلمَّا حضرَهُ الموتُ، قالَ: حللينِي.

وَمَن قالَ إنهَا ستحللك، وهِيَ ترَىٰ نساءً أقلَّ منهَا عقلًا ودينًا وحسبًا وجمالًا وعفةً، قَد تزوجنَ، وهيَ قَد استكملَت جميعَ الصفاتِ التِي يرغبُ بهَا الخُطَّابُ، وقَد حكمْتَ عليهَا بالحبسِ بينَ الجدرانِ المظلمةِ، كالأسيرةِ التِي تنتظرُ بصيصًا مِن نورٍ يكشفُ عنهَا الظلمةَ الحالكةَ التِي خيَّمت علَىٰ عينيهَا طويلًا، فهَل تظنُّ أنَّ هذَا هيِّنٌ؟!

أيُّهَا المستبدُ: إنَّكَ عمَّا قريبٍ ميتٌ، أمَا فكرتَ فِي حالِ هذهِ الضعيفةِ، هَل ستتركهَا تحتَ رحمةِ الإخوانِ المنشغلينَ بأنفسهِم، أَو خادمةً لزوجةِ الابنِ تسومهَا سوءَ العذابِ، أَو تريدُ أَن تدفعهَا نحوَ الخطأِ؟!

---

(١) سورة غافر:١٨-١٩.

مَا لِي أراكَ لَا زلتَ غارِقًا فِي غفلةِ الجهلِ وظلامِ القسوةِ، أينَ عقلكَ؟!

قُم سارِع الخُطَا لتصحيحِ مَا فاتكَ، مَا دامَ فِي العمرِ بقيةٌ، فلعلَّكَ لَا تدركُ الغدَ وأنتَ عازمٌ علَىٰ التوبةِ والإنابةِ وتصحيحِ الخطأِ، فيكونُ ذلكَ شفيعًا لكَ بينَ يدَيِ اللهِ تعالَىٰ.

وأنتِ أيتهَا المرأةُ المجاهدةُ: عليكِ أَن تصبرِي علَىٰ البلاءِ، وتحتسبِي مصيبتَكِ عندَ اللهِ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

فمهمَا طالَ ليلُ البلاءِ فلا بُدَّ أَن ينجلِي، ولا بدَّ لرياحِ الخريفِ أَن ترتحلَ، ولا بدَّ لغيومِ الحزنِ أَن تنقشعَ وتظهرَ شمسُ الأمَلِ.

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَىٰ ... ذَرعًا وَعِندَ اللَّهِ مِنهَا المَخرَجُ

ضَاقَت فَلَمَّا استَحكَمَت حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّهَا لَا تُفرَجُ

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الرءوفِ الرحيمِ، البرِّ الجوادِ الكريمِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ الملكُ العظيم، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الهادِي إِلَىٰ صراطٍ مستقيمٍ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك علَىٰ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وأصحَابهِ ومَن تبعَهُم فِي كلِّ أمرٍ قويمٍ.

أمَّا بعدُ:

فيَا معاشِرَ العقلاءِ: إنَّ الموفَّقَ مَن سَنَّ فِي الإسلامِ سنةً حسنةً، فسارَ الناسُ

---

(١) سورة يوسف: ٩٠.

عليهَا، ففازَ بالأجرِ والمثوبةِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سنَّ فِي الإسلامِ سُنةً حسنةً، كانَ لهُ أجرُهَا وأجرُ مَن عملَ بهَا إلَىٰ يومِ القيامةِ**»(١).

هذَا وإنَّ ممَّا يَسُرُّ كلَّ ذِي لبٍّ، مَا ذهبَ إليهِ بعضُ العقلاءِ مِن رءوسِ القبائلِ والعائلاتِ، مِن تزويجِ بناتهِم مِنَ الأكْفاءِ، ولَو لَم يكونُوا مِن خاصَّتهِم، متخطينَ بذلكَ بعضَ الأعرافِ الظالمةِ المُجحِفةِ، التِي تحكُمُ علَىٰ المرأةِ بالجلوسِ عزباءَ إذَا لَم يتقدَّم لهَا أحدٌ مِن خاصتهَا.

إنَّ هذَا منتهَىٰ العقلِ والحكمةِ، ودليلٌ عَلَىٰ الشفقةِ والرحمةِ، حيثُ يسترُ الرجلُ عورتَهُ بزواجِ ابنتهِ، فيخلصُ مِن إثمهَا، ويتممُ حُسنَ صحبتهَا، ويكونُ لهُ نصيبٌ مِن قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهمَّ مَن وليَ مِن أمرِ هذهِ الأمةِ شيئًا فرفقَ بهِم فارفُق بهِ**»(٢).

فأبشِر بالخيرِ، فواللهِ مَا سمعَ بفعلكَ عاقلٌ إلَّا دعَا لكَ بخيرٍ، رغمَ أنكَ أحسنتَ لنفسكَ، لكِن أبَىٰ اللهُ إلَّا أَن يظهرَ شكرَ صاحبِ الفَضلِ علَىٰ ألسنةِ الناسِ.

وأنتَ يَا مَن لَا زلتَ علَىٰ الخطأِ، بالرغمِ مِن أنكَ تعلمُ أنهُ خطأٌ: لَا يغرنَّكَ قولُ بعضِ الجهلاءِ، ومثلُكَ توزنُ القبائلُ بعَقلهِ، ويصدرُ الناسُ عَن رأيهِ، فواللهِ إنَّ بعضَهُم يزيِّنُ الباطلَ ليُرضِي أهواءَ مَن أمامهُ، وإلَّا فانظُر إليهِ قَد زوَّجَ بناتِهِ وحصَّنهنَّ، ولَا زالَ يلقِي علَىٰ أذنكَ أَنَّ هذهِ أعرافُ مَن سبقكَ.

صدقونِي أنَّ هذَا الجنسَ المنافقَ هُم أساسُ البلوَىٰ ورأسُ البليةِ، ولَا يزالونَ يجاملونكُم فِي ظلمِكُم، وهُم يتكلمونَ بكُم فِي المَجَالسِ بالغيبةِ والنميمةِ والسبِّ والتشنيعِ، بسببِ حبسكُم لبناتِكُم الضعيفاتِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤٨).

(٢) رواه مسلم (٤٦٩٩).

ونحنُ نقولُ: الوسطُ طيبٌ، زوِّج مِن قبيلتكَ، أَو ممَّن يقابلكَ مِنَ القبائلِ الأخرَىٰ، وَلَا تبوء بإثمِ امرأةٍ مسكينةٍ، ربمَا تحاجكَ بينَ يديِ اللهِ يومَ البعثِ والنشورِ.

فبأيِّ ذنبٍ تجلسُ حبيسةَ البيتِ، ألأنَّ أحدًا مِن بنِي عمومتهَا لَم يتقدَّم لهَا؟

وماذَا تفعَل إذَا كانَ بنُو العمومةِ يذهبونَ إِلَىٰ غيرهَا فيتزوجونَ بهَا ويتركونهَا، فهَل ستجلسُ حُزنًا علَىٰ فَقْدِهِم؟!

سنُّوا سنَّةً حسنةً فاسبقُوا إِلَىٰ الفضلِ، وفوزُوا بأجرِ مَن يأتِي بعدكُم، وإيَّاكُم أَن تمضُوا علَىٰ سنةِ مَن كانَ قبلكُم فِي ظلمهِ وبغيهِ فتبوءُوا بالإثمِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سنَّ فِي الإسلامِ سنةً سيئةً كانَ عليهِ وزرهَا ووزرُ مَن عملَ بهَا إِلَىٰ يومِ القيامةِ**»(١).

ويَا أيهَا العقلاءُ: دعُوا الكبرَ، فهوَ الذِي قادَ الناسَ إِلَىٰ مهاوِي الردَىٰ، تقولُ: أنَا ابنُ فلانٍ، فالناسُ كذلكَ يقولونَ. تقولُ: قبيلتِي لهَا شأنٌ، فالناسُ كذلكَ يقولونَ.

والعاقلُ المنصفُ هوَ الذِي يعرفُ قدرَ الناسِ ومَا لهُم مِن الفضلِ، وَلَا يظنُّ أنَّ الفضلَ محتكرٌ علَىٰ قبيلتِهِ.

فالافتخارُ بالقبليةِ والأعرافِ المخالفةِ للشرعِ مذمومٌ علَىٰ كلِّ حالٍ، والسعيدُ مَن نجَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن ذلكَ.

حَصِّنوا بناتِكُم بالزواجِ مِن الأَكْفَاءِ، واحرصُوا عَلَىٰ إبراءِ ذممكُم أمامَ هذهِ الأمانةِ المستودعةِ بينَ أيديكُم.

أليسَ جميلًا أَن ترَىٰ بُنيَّتكَ سعيدةً معَ زوجهَا، ولهَا بيتٌ وبنونٌ؟

علَىٰ أنَّنِي أنبهُ، أنَّهُ كمَا يجبُ علَىٰ المرءِ الحرصُ علَىٰ تزويجِ ابنتهِ، فكذلكَ يجبُ أَن يختارَ لهَا الصالحَ، ولَا يكونُ هدفهُ فقَط أَن يزوجهَا، ولَو كانَ الزوجُ فاسدًا

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤٨).

أَو سكيرًا أَو صاحبَ مخدراتٍ، بحجةِ أَنَّهُ سيعقلُ غدًا، أَو يعتذرُ بقولهِ: إِنَّهُ قريبٌ لِي.

سأَلَ رجلٌ الحسنَ البصريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فقالَ**: «إِنَّ لِي ابنةً فمَن ترَىٰ أزوجهَا؟ قالَ: زوِّجهَا مَن يتقِي اللهَ تعالَىٰ، فإِن أحبهَا أكرمهَا، وإِن أبغضهَا لَم يظلمهَا».

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ: «فلانٌ يخطبُ فلانةً. فقالَ: أموسرٌ مِن عقلٍ ودينٍ؟ قالُوا: نعَم، قالَ: فزوجوهُ إِيَّاهَا».

فاللهَ اللهَ فِي السؤالِ عَن الصلاحِ، فإِنَّ الفاسدَ العابثَ لَا يسترُ المرأةَ، وحريٌّ بهَا إِن تزوجَتْهُ أَن تعودَ إِليكَ كمَا ذهبَت منكَ، أَو أَن تصبرَ علَىٰ مَضَضٍ، فاحرِص علَىٰ الصالحِ طيبِ الأخلاقِ، فإِن حَصَّلتَهُ فعضَّ عليهِ بالنواجذِ.

نسأَلُ اللهَ أَن يصلحَ أحوالنَا، وأَن يوفقنَا لصالحِ القولِ والعملِ، وأَن يجعلنَا هداةً مهتدينَ، غيرَ ضالِّينَ ولَا مُضِلِّينَ.

❊❊❊

(١٠) رسالةٌ إلَى الشرفاءِ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ الخلقَ ليعبدوهُ، وأبانَ آياتهِ ليعرفوهُ، وسهَّلَ لهُم طريقَ الوصولِ إليهِ ليصلوهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ اللهُ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ ليكونَ للعالمينَ نذيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحابهِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الغيرةَ علَىٰ العرضِ والشرفِ، ممَّا تميَّزَ بهِ العربُ حتَّىٰ قبلَ أَن تشرقَ الشمسُ بنورِ الرسالةِ المحمديةِ، فكانَ العربُ يفخرونَ بذلكَ، ويبذلونَ فِي سبيلِ الحفاظِ علَىٰ أعراضهِم الغالِي والنفيسَ، حتَّىٰ قالَ قائلُهُم:

يَهُونُ عَلَينَا أَن تُصَابَ جُسُومُنَا ... وَتَسلَمَ أَعرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ

وَمدحَ رجلٌ مِن أهلِ الجاهليةِ امرأةً فقالَ:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَم تُرِد إِسقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتهُ وَاتَّقَتنَا بِاليَدِ

سقطَ النصيفُ (غطاءَ الوجهِ) مِن غيرِ قصدٍ وَلَا عمدٍ، فغطَّت وجههَا بيدهَا مخافةَ أَن يُرَىٰ.

ويمدحُ رجلٌ آخرُ (مِن أهلِ الجاهليةِ) قبلَ الإسلامِ! يمدحُ امرأتَهُ فيقولُ:

لَقَد أَعجَبَتنِي لَا سَقُوطًا قِنَاعُهَا ... إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَفُّتِ

فإنَّ العربَ كانُوا يتميزونَ بالخلقِ العالِي وهوَ الغيرةُ علَىٰ الشرفِ.

والغيرةُ علَىٰ الشرفِ مِن أعظمِ المنازلِ، وهيَ دليلٌ علَىٰ الفحولةِ والرجولةِ، ومَن أفلتَ زمامَ الأمرِ، عُدَّ مِن سقطِ المتاعِ فلَا قيمةَ لَهُ ولَا قدرَ.

وَمَن تأمَّلَ قصصَ الجاهليةِ رأَىٰ مِن ذلكَ عجبًا!

فممَّا جاءَ مِن قصصِهِم: أَنَّ عقيلَ بنَ علفةِ نزلَ فِي منتجعِ ماءٍ، فسمعَ ابنةً لهُ تضحكُ، وقَد شهقَت فِي آخرِ ضحكتهَا حتَّىٰ سمعَ الرجالُ الصوتَ، فحملَ عليهَا بالسيفِ وهوَ يقولُ:

فَـــرِقْتُ إِنِّـــي رَجُـــلٌ فَـــرُوقُ   لِـــضِحْكَةٍ آخِـــرُهَا شَـــهِيقُ

وجاءَ عَن هندِ بنتِ عتبةَ أنَّهَا قبلَ إسلامهَا كانَت متزوجةً برجلٍ يقالُ لهُ الفاكهُ بنُ المُغيرةِ، والفاكهُ هذَا كانَ لهُ مجلسٌ يغشاهُ الرجالُ فيهِ، كعادةِ الرجالِ فِي كلِّ زمنٍ، وكانَ مجلسهُ مبرزًا عَن منزلِ نسائهِ، وَلَا تأتيهِ النساءُ فِي العادةِ، فزارتهُ ذاتَ مرةٍ هندُ وجلسَت تسمرُ معهُ حتَّىٰ غشيهَا النعاسُ، وغلبَ عينهَا النومُ فنامَت، وذهبَ الفاكهُ زوجهَا ليقضِي حاجةً، فجاءَ رجلٌ عَلَىٰ عادتهِ يزورُ هذَا المجلسَ، فلمَّا أقبلَ وجدَ المرأةَ نائمةً فرجعَ، وصادفَ رجوعهُ أَن رآهُ الفاكهُ وهوَ مقبلٌ مِن مجلسهِ، فجاءَ الفاكهُ إِلَىٰ مجلسهِ وأيقظَ هندًا، وقالَ: مَن هذَا الرجلُ الذِي كانَ عندكِ؟ قالَت: واللهِ مَا علمتُ وَلَا انتبهتُ حتَّىٰ أيقظتَنِي.

قالَ: الحَقِي بأبيكِ.

فلمَّا جاءَت لعتبةَ وأخبرتهُ الخبرَ، قالَ للفاكهِ بنِ المغيرةِ: إِنَّكَ قَدِ اتهمتَ ابنتِي، فإِمَّا أَن تثبتَ وإِمَّا أَن نتحاكمَ لأحدِ كهانِ اليمنِ.

والكاهنُ رجلُ سوءٍ يخبرُ بمَا مضَىٰ، يخاطبُ القرينَ فيخبرهُ أَنَّهُ فلانٌ وأمهُ فلانةٌ، وحدثَ لهُ فِي يومِ كذَا، كذَا وكذَا.

فلمَّا قفلُوا إلَىٰ كاهنِ اليمنِ واقتربُوا مِن منزلِهِ اسوَدَّ وجهُ هندٍ، فقالَ لهَا والدهُا: أَيْ بُنيَّة، أَما كانَ هذَا قبلَ أَن نأتِي للكاهنِ؟!

فقالَت: واللهِ يَا أبتِي مَا ألممَتُ بذنبٍ، ولكنكُم تأتونَ رجلًا يخطئُ ويصيبُ، وخطؤهُ أكثرُ مِن صوابهِ، ولعلَّهُ يصفنِي بصفةٍ لَا تزولُ مدَىٰ الدهرِ.

فلمَّا جاءُوا للكاهنِ جعلوهَا معَ مجموعةٍ مِن النساءِ، وقالُوا لهُ: انظُر فِي شأنِ هؤلاءِ النسوةِ، فجعلَ يمرُّ علَىٰ النساءِ واحدةً واحدةً ويقولُ: قومِي، قومِي، حتَّىٰ إذَا بلغَ هندًا قالَ: قومِي لَا رقحاءَ وَلَا زانيةً.

فلمَّا خرجَت أخذَ الفاكهُ بيدهَا، فنترَت يدهَا مِن يدِهِ، وطلَّقهَا فنكحَت أبَا سفيانَ.

هذَا قبلَ الإسلامِ!

فلمَّا أسلمَت بايعهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَت عادتهُ فِي مبايعةِ النساءِ أَن يبايعهنَّ علَىٰ أَلَّا يُشرِكنَ باللهِ شيئًا ولَا يسرقنَ ولَا يزنينَ ولَا يقتلنَ أولادهنَّ، فلمَّا قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بايعِي علَىٰ أَلَّا تشركِي باللهِ شيئًا وَلَا تسرقِي وَلَا تزنِي**». فلمَّا بلغَ: ولَا تزنِي، وضعَت يدهَا علَىٰ رأسهَا، وصرخَت: يَا رسولَ اللهِ، أَوَتزنِي الحرةَ؟!

هذَا وهيَ حديثةُ عهدٍ بالإسلامِ، ولكنَّهَا علمَت منذُ أيامِ الجاهليةِ أنَّ المرأةَ المصونةَ لَا تزنِي.

فلمَّا جاءَ هذَا الدينُ العظيمُ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّمَا بعثتُ لأتممَ مكارمَ الأخلاقِ**»(١)، يعنِي: أنهُ كانَ لدَىٰ الناسِ أخلاقٌ فِي السابقِ، فجاءَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتممَ هذهِ المحاسنَ، وتلكَ المكارمَ.

ومِن تلكَ المحاسنِ التِي جاءَ بهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الوصيَّةُ بالغَيرةِ علَىٰ المَحَارمِ،

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٤٩).

والتحذيرُ مِن التهاونِ بهَا، فالغَيْرَةُ مِن أخلاقِ الكرامِ، والتساهلُ بهَا دليلٌ علَىٰ ضعفِ الدينِ ونقصِ المروءةِ.

واستمرَّ الحالُ علَىٰ الأخلاقِ الفاضلةِ حتَّىٰ رأينَا فِي هذهِ الأزمنةِ عجبًا -وَقَد رأيتُم-، ولكنَّ المصيبةَ أَنَّ بعضَ الناسِ يرَىٰ البعيدَ عندَ الناسِ، ولَا يرَىٰ القريبَ فِي بيتِهِ، أعمَىٰ، وقَد يكونُ اللهُ سبحانهُ قَد طمسَ علَىٰ بصيرتِهِ فلَا نجاحَ ولَا فلاحَ.

أَرَىٰ كُـلَّ إِنـسَانٍ يَـرَىٰ عَـيبَ غَيـرِهِ ... وَيَعمَـىٰ عَـنِ العَـيبِ الَّـذِي هُـوَ فِـيهِ

وَمَـا خَيـرُ مَـن تَخفَـىٰ عَلَـيهِ عُـيُوبُهُ ... وَيَــبدُو لَــهُ العَــيبُ الَّــذِي لِأَخِــيهِ

أيُّهَا المسلمونَ:

لنتكَلَّمْ بصراحةٍ، انظرُوا إِلَىٰ تلكَ العباءةِ المسماةِ زورًا وبهتانًا (بالعباءةِ الإسلاميةِ)، هذهِ العباءةُ الَّتِي انتشرَت بينَ فتياتٍ كثيراتٍ مِن بناتِ المسلمينَ.

انظُر إليهَا بعينِ المتأمِّلِ، ستوقنُ يقينًا لَا شكَّ فيهِ أَنَّ حقيقةَ مسماهَا: العباءةُ الفاجرةُ، حيثُ تلصقُ علَىٰ الجسمِ، فتفصلُ جسمَ المرأةِ تفصيلًا، حتَّىٰ لَو أنهَا مشَت بثوبٍ مجردٍ، كانَ خيرًا مِن هذهِ العباءةِ.

فهيَ ثوبٌ لاصقٌ لامعٌ، فهَل يرضَىٰ رجلٌ أَن يمشِي معَ أختِهِ أَو ابنتِهِ أَو زوجتِهِ وهيَ تلبسُ تلكَ العباءةِ، تناظرهَا أعينُ الرجالِ وتلفتُ انتباهَهُم، ويتخيلهَا بسببِهَا الشبابُ الذينَ يَمُرونَ فِي الشوارعِ؟!

فراقبُوا هذهِ الملابسَ، لَا يغشاكُم أهلُ الفسادِ بمسمياتٍ فاسدةٍ لَا تغيِّرُ مِن الحقيقةِ شيئًا.

هذهِ العباءةُ عباءةٌ فاجِرةٌ تثيرُ الشبابَ، خصوصًا وأَنَّ بعضَ المفتوناتِ تفصلهَا بطريقةٍ متعمدةٍ لتجسِّمَ تفصيلاتِ جسمهَا لإثارةِ الغرائزِ.

ومَن مشَت معهُ مَن تلبسُ هذهِ العباءَة، خصوصًا إِن أعطاهَا اللهُ حسنَ هيئةٍ فِي جسمهَا، فلْيُوقِنَ أَنَّ كلَّ الشبابِ ينظرونَ إليهَا.

إنَّ مِن شروطِ الحجابِ الشرعيِّ: أَن تلبسَ المرأةُ ثوبًا فضفاضًا، وعباءةً فضفاضةً حتَّىٰ لَا يستبينَ منهَا الجسمُ، فإن كانَت هيَ حقًّا صادقةً فِي أنهَا تريدُ السترَ، فلماذَا لَا تلبسهُ كمَا أرادهُ اللهُ مِن غيرِ زُورٍ وبُهتانٍ؟!

ومِن صورِ التساهُلِ أيضًا: ذلكَ النقابُ السافرُ الذِي تقنعَت بهِ بعضُ الفتياتِ فتنةً وانحرافًا.

نسألُ سؤالًا صريحًا:

ذلكَ الرجلُ الذِي يمشِي معَ أختهِ، زوجتهِ، ابنتهِ، وهيَ لابسةٌ النقابَ الذِي يجملهَا، وليسَت بذاهبةٍ إِلَىٰ حفلةِ عرسٍ، وقَد ذهبَت إِلَىٰ السوقِ فِي هذَا اللبسِ المتبرجِ، ماذَا تريدُ؟!

اسأَل نفسكَ! التِي تلبسُ هذَا اللبسَ وهيَ ذاهبةٌ للسوقِ، ماذَا تريدُ؟!

هيَ تريدُ أَن تلفتَ الأنظارَ! فكيفَ ترضَىٰ؟

والأدهَىٰ منهُ كشفَ الوجهِ معَ تجميلِهِ وزخرفتِهِ، وهذَا لَا يجوزُ باتفاقِ العلماءِ.

تحفُّ الحواجبَ، وتجملُ الوجهَ، ثمَّ تذهبُ لتصطادَ الشبابَ.

وبعضُ الناسِ يلومُ الشبابَ! انظرُوا، هيَ قائدةُ الفتنةِ، وهيَ داعيةُ المصائبِ والرذَائلِ.

وبعضهمُ تبلغُ بِهِ الغفلةُ أَن تخرجَ ابنتُهُ للدراسةِ صباحًا بلباسٍ مشينٍ، وهوَ لَا يدرِي! انظُر إِلَىٰ ملابسهَا، انظُر إِلَىٰ البنطلونِ تحتَ العباءةِ.

اللهَ.. اللهَ فِي العرضِ والشرفِ.

فإِنَّ الذِي لَا يغارُ علَىٰ عرضهِ وشرفهِ لَم يبقَ مِن رجولتهِ شيءٌ.

البواطنُ كلهَا موكولةٌ إلَىٰ اللهِ، وكَم سترَ اللهُ لنَا مِن ذنبٍ وعيبٍ، ونحنُ نتكلمُ علَىٰ الظاهرِ، فالواجبُ علَىٰ المرأةِ أَن تلبسَ مَا يحجبُ الفتنةَ عَن الناسِ، فإذَا كانَ عندَ الرجلِ غيرةٌ، فلَا يَرْضَ أَن تخرجَ نساؤهُ بهذَا اللباسِ الفاجرِ.

أيُّهَا الأفاضلُ:

وَمِن الظَّواهرِ التِي انتشرَت فِي مجتمعاتنَا: تفشِّي الاختلاطِ، حتَّىٰ صارَ الذِي يُنكرهُ وكأنَّهُ جاءَ بفعلٍ مُنكرٍ.

فكيفَ تأخذُ شرفكَ وعرضكَ فتضعَهَا بينَ يدَي الرجالِ، أَو أنكَ تسمحُ لهَا بأَن تدخلَ وظيفةً اختلاطيةً، فتجلسهَا بينَ الرجالِ.

لَا تطلبُوا المستحيلَ مِن النساءِ الضعيفاتِ، وَمَا دامَ أنَّ اللهَ سبحانهُ قَد سلَّمكَ زمامَ الأمرِ فاحفَظ هذهِ الأمانةَ.

كَم مِن فتاةٍ دخلَت العملَ الاختلاطيَّ، وهيَ لابسةٌ اللباسَ الشرعيَّ، ثمَّ بدأَ ينقصُ شيئًا فشيئًا، بدايةً بتركِ العباءةِ الفضفاضةِ إلَىٰ عباءةِ الكتفِ اللاصقةِ، وغطاءِ الوجهِ الساترِ إلَىٰ نقابٍ موسَّعٍ معطَّرٍ مجمَّلٍ، وبدأَ التكسرُ فِي الكلامِ، والتغنجُ والضحكُ والجرأةُ، لِمَ؟! هذَا أثرُ المخالطةِ بالجنسِ الآخرِ.

وقَد أعجبنِي أحدُ الفضلاءِ وهوَ يتحدثُ بقصةٍ جرَت معهُ، فيقولُ: توظَّفَتْ فِي مكانِ عملِي فتاةٌ ذاتُ نسبٍ وشرفٍ، والذِي لفتَ انتباهِي أنهَا فتاةٌ متسترةٌ تسترًا شديدًا، وقَد وُضِعَت فِي القسمِ الذِي أديرهُ، وكانَ كلُّهُ مِن الرجالِ.

وممَّا غاظنِي أنَّهَا كانَت مِن مجتمعٍ محافظٍ، وقَد رأيتُهَا فِي كلِّ يومٍ منكِّسةً رأسهَا، لَا تتحدثُ معَ أحدٍ حتَّىٰ نهايةِ العملِ، ثمَّ تنصرفُ.

فسألتهَا عَن والدِهَا، وعنوانِ منزلهَا، فأخبرتنِي، وقلتُ: أَستغِلُّ الفرصةَ ما دامَ فِي الأمرِ مُهلةٌ، فذهبتُ إلَىٰ والدهَا فِي عصرِ أحدِ الأيامِ، فلمَّا جاءنِي بالقهوةِ وجلسَ

معِي، قلتُ: يَا أبَا فلانٍ، لَو قلتُ لفلانةٍ تجيءُ لتجلسَ معنَا؟!

قالَ: أنتَ مجنونٌ؟! ألَا تستَحِي؟!

قلتُ: لماذَا؟ فهيَ كلَّ يومٍ تجلسُ معنَا منَ الصباحِ وحتَّىٰ الظهرِ، وماذَا فِي ذاكَ؟!

فاستحيَا الوالدُ، وعرفَ خطأَهُ، وانتبهَ لفعلِهِ المُشينِ، وشكرنِي علَىٰ مقصدِي منَ النصيحةِ، ولمَّا جاءَ صباحُ اليومِ التالِي فإذَا هيَ جليسةُ البيتِ، قَد تركَت العملَ.

فليسأَل نفسَهُ مَن تركَ نساءَهُ فِي وظائفِ الاختلاطِ: لماذَا تستحِي أَن تدعوَ ابنتكَ لتجلسَ معَ أصحابكَ إذَا غشُوا منزلكَ، وأكثرُهُم تعرفُهُ وتثقُ بهِ، ولَا يمنعكَ ذلكَ الحياءُ المزيفُ أَن تتركهَا بينَ صفوفِ الشبابِ الذينَ لَا تعرفهُم؟!

عجبًا! إننَا فِي زمنِ المتناقضاتِ.

حُـزنٌ عَمِـيقٌ فَـاضَ بِـي وَشَـجَانِي	وَاسـتَعبَرَت عَينِـي وَشُـلَّ جَنَانِـي
وَعَـذَابُ أَنفَـاسٍ تُـرَدِّدُ رَجعَـهَـا	فَتَـسَابَقَتهَا ثَـورَةُ الغثَـيَانِ
لَـو كَـانَ فِـي صَـدرِي لَهَـا مُتَـنَفَّسٌ	لَكِـنَّهَا تَـشكُو مِـنَ القُـضبَانِ
لَـو كَـانَ لِلأَيَّـامِ صَـوتٌ نَاطِـقٌ	لَـرَثَت وفَـاقَ بَـيَانُهَا تِبيَانِـي
لَـو كَانَـتِ الأَورَاقُ تَحكِـي لَاشتَكَت	قَلَمِـي وَقَالَـت: تَـاهَ فِـيكَ لِـسَانِي
أَوَّاهُ مِـن قَلـبٍ يُكَـبِّلُـهُ الأَسَـىٰ	فَيَهِـيمُ بَـينَ مَـدَارَةِ الأَحـزَانِ
أَبكِـي وَدَمعِـي فِـي خُـدُودِي نَـازِف	عَينِـي جَـرَت وَتَمَـزَّقَت أَجفَـانِـي

بارككَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي أرسلَ رسولهُ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ علَىٰ الدِّينِ كلهِ وكفَىٰ باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، إقرارًا بهِ وتوحيدًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعدُ:

فالواجبُ علَىٰ المُسلمِ إن ولَّاهُ اللهُ علَىٰ رعيَّةٍ أَن يَحُوطَهُم بنُصحهِ، فبعضُ الناسِ لَم يكُن قدوةً فِي بيتهِ، ولَم يُرَبِّ أبناءَهُ حقَّ التربيةِ، ولَم يُحِطهُم بنُصحِهِ، بَل إنهُ يتركُ بيتَهُ الليالِي والأيامَ غارقًا فِي اللهوِ والعبثِ، وكَم عرَّضَ أولئكَ أبناءَهُم وزوجاتِهِم للفتنةِ، وذهبُوا بأهلهِم إلَىٰ لُجَجِ البحَارِ المُظلمةِ العَميقةِ فأغرقوهُم فيهَا، فحدثَت تلكَ الحَوادثَ المؤلمةَ التِي تتصدَّعُ لهَا القلوبُ.

أينَ هؤلاءِ مِن قولِ النبيِّ ﷺ: «**كفَىٰ بالمَرءِ إثمًا أَن يضيِّعَ مَن يقوتُ**»(١)؟ وهَل يُعقلُ أَن تمرَّ بنَا الصورُ والعظاتُ ليلَ نهارَ ولَا نتَّعظُ؟!

أيُّهَا الرجالُ: حافظُوا علَىٰ نسائكُم فإنهنَّ مفاتيحُ الشرفِ، فإِن شئتَ فأضِعْ ذلكَ المفتاحَ أَو احفَظْهُ، ولكِن اعلَم أنَّكَ بضيَاعهِ قَد فتحتَ علَىٰ نفسِكَ أبوابَ البلوَىٰ والذلِّ والامتهانِ.

لَا تشغلنَّكُم المَلذَّاتُ عَن حقوقِ نسائِكُم فتُهمِلُوا تربيتهنَّ، فيُفتحُ عليكُم مَا لَا يُغلقُ، ويَنخرقُ مَا لَا يُرقعُ.

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٨١).

لَا تفتَح علَىٰ المرأةِ أبوابَ الفتنةِ وتقولَ: تمَاسَكِي وامتنعِي!

لَا تُهمِلُوا بيوتَكُم، كفاكُم هروبًا إِلَىٰ المَجالسِ الموحشةِ.

اجلسُوا معَ زوجاتِكُم، معَ بناتِكُم، أخواتِكُم، أمهاتِكُم، تحسَّسُوا مشاكلهنَّ، أزيلُوا الحواجزَ بينكُم وبينهنَّ، ستجدونَ واللهِ معنَىٰ السعادةِ الحقيقيةِ.

لماذَا يُصغِي أحدُنا لسَمَاعِ مشكلةٍ لصديقٍ ولَو لساعاتٍ، ويسأمُ مِن مصارحةِ دقائِقَ معَ بنياتهِ وأخوَاتِهِ وزوجتِهِ.

لماذَا نجعَلُهنَّ يحتجنَ إِلَىٰ البعيدِ ليشكينَ إليهِ ممَّا يضايقهنَّ؟ هَل هوَ كِبْرٌ أَم قلَّةُ تدبيرٍ؟!

أحسِنُوا إليهنَّ الصُّحبةَ، لَا تبخَلُوا عليهنَّ بمالٍ ولَا محبَّةٍ أَو نُصحٍ، وستَرَونَ حينَ ذاكَ كيفَ يكنَّ لكُم قُرةَ عينٍ وهُدوءَ نَفسٍ.

واحرصُوا، احرصُوا -لَا سيمَا فِي هذَا الزمانِ- مِن داعياتِ السوءِ، فليسَ مِن العقلِ أَن تذهبَ بهَا لزيارةِ صديقةٍ لَم تعرفهَا إِلَّا مِن خلالِ دراسةٍ أَو عملٍ، أَو قِصَرِ مدًىٰ.

انتبهُوا لصداقَاتِهنَّ، فكَم مِن داعيةِ سوءٍ أَرْدَت شريفةَ الدينِ والعرضِ والنسبِ فأهلكتهَا.

وأنتُم أيُّهَا الشبابُ: احرِصُوا علَىٰ الجنسِ الطيِّبِ الطاهرِ إذَا أردتُم أَن ترتبطُوا بزواجٍ، ولَا تذهبُوا إِلَىٰ مواقعِ الشوكِ المُؤذِي، وتطمعُوا أَن تلتقطُوا الوردَ، ولَا تسعَوا لطلبِ الذهبِ الصافِي فِي مواقعِ الحَديدِ الصدِئ.

وعليهِ، فخُذْ مَن تراهَا وقَد تزيَّنَت بالتقوَىٰ، وتجلببَت بالحيَاءِ، فإذَا أخذْتَهَا فاتَّقِ اللهَ فيهَا، ولَا تكشِف سترَهَا الذِي حافظَت عليهِ عندَ أهلِهَا، فتأمرهَا بنزعِهِ، فإنَّ هذَا مِن أخلاقِ السفلةِ.

كمَا أنَّنِي أوصيكُم معاشرَ الشبابِ بالبعدِ عَن مواطنِ الفتنةِ، وألَّا تغرقُوا فِي بحرِ دعواتِ الرذيلةِ، مِن نساءٍ فِي هذَا الزمانِ قُدْنَ زمامَ الدعوةِ إلَىٰ الرذائلِ.

اتَّقُوا اللهَ يَا شبابَ رغمَ مَا يعترضكُم مِن الدعوةِ إلَىٰ الفسادِ بلَا ثمنٍ، واعلمُوا أنَّ عاقبةَ التقوَىٰ خيرٌ وجنةٌ فِي الآخرةِ، وصلاحُ حالٍ وبركةٌ فِي هذهِ الدنيَا، واعلمُوا أنَّهَا ستفنَىٰ الملذاتُ ويحلُّ بعدهَا الإثمُ.

وَمَا هِيَ إلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنقَضِي ... وَيَذهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ

كونُوا رجالًا، وَإِن وقعتُم فِي انحرافٍ وغلبكُم الشيطانُ فإيَّاكُم إيَّاكم أَن ترضَوهُ لأهليكُم.

إنَّ الأمةَ تعقدُ عليكُم الآمالَ بعدَ اللهِ تعالَىٰ فِي الحفاظِ علَىٰ الشرفِ والأنفةِ، فلَا تخيبُوا آمالهَا فيكُم، ولَا يتلاعبُ بكُم بعضُ السفهاءِ باسمِ الحضارةِ والتمدنِ، حتَّىٰ يسحبوكُم عَن أصالتكُم شيئًا فشيئًا، فتكونُوا وإيَّاهُم سواءً، فيأخذونَ منكُم أكثرَ ممَّا كانُوا يطمعونَ فيهِ.

وأحذِّرُكَ -أيُّهَا الشابُّ- أَن تتسبَّبَ فِي إفسادِ فتاةٍ غافلةٍ، فتجرفهَا إلَىٰ أوديةِ الشكِّ والريبةِ، فتكونُ أوَّلَ مَن علَّمهَا ذلكَ وسَحَبَهَا إليهِ، فتأخُذُ إثمَهَا وإثمَ مَن دعَتهُ إلَىٰ مَا وقعَت فيهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن دعَا إلَىٰ ضلالةٍ، كانَ عليهِ إثمهَا وإثمُ مَن عملَ بهَا إلَىٰ يومِ القيامةِ، لَا ينقصُ ذلكَ مِن آثامِهِم شيئًا**»[1].

وإذَا أفسدتَ مجتمعكَ وبنَاتِ بلدِكَ وأخواتِكَ، فكيفَ تطمعُ أَن تجدَ يومًا امرأةً عفيفةً، تُسَرُّ بالارتباطِ بهَا؟

ولعلَّكَ تعاقَبُ فِي أَن يزرعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الشكَّ فِي قلبكَ مِن جنسِ النساءِ -رغمَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٧).

وجودِ الخيِّراتِ منهنَّ، وهنَّ كثيرٌ بحَمدِ اللهِ- فتُعرِضُ عَن الارتباطِ بهِنَّ، وتنظرُ إليهنَّ نظرةً قاتمةً بسببِ شقوتِكَ، رغمَ وجودِ كثيرٍ منهنَّ ممَّن يُطمَعُ بهنَّ زوجَاتٍ مُحصَناتٍ فِي البُيوتِ، لكِن مَن أكثرَ مِن شيءٍ لَم يرَ فِي الناسِ غيرَهُ.

☙❁❁❁❧

(١١) فتنةُ السائقينَ فِي البيوتِ

الحَمدُ للهِ الذِي أعطَىٰ عبادَهُ الأسماعَ والأبصَارَ والأفئدةَ لعَلَّهم يشكرونَ، وأسدَىٰ عليهِم أصنافَ النِّعمِ وعنهَا يُسألونَ، فمَن استعانَ بهَا علَىٰ طاعةِ ربهِ فأولئكَ هُمُ المفلحونَ، وَمَن صرفهَا فِي مَعاصيهِ، فأولئكَ الذينَ خسرُوا أنفسهُم وأهليهِم يومَ القيامةِ، ألَا ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسُولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ، ومَن تبِعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ يبعثونَ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فليسَ غريبًا أَن تطرُقَ الفتنُ أبوابَ الناسِ فيخرجونَ إليهَا مُسَارعينَ، ولكِنَّ الغريبَ المُحيِّرَ، والمذهلَ المحزنَ أَن يخرجَ الناسُ يبحثونَ عَن مواقعِ الفتنِ فيهُبُّونَ إليهَا، وأبوابِ المِحَنِ فيدخلُونَهَا.

وممَّا طمَّ وانتشرَ مِن الفتنِ المُظلمةِ، التِي ضاعَ معهَا بصرُ كلِّ مبصرٍ، وعقلُ كلِّ لبيبٍ، فتنةٌ ولجَت بيوتَ كثيرٍ مِن المسلمينَ، أفسدَت الأخلاقَ والسلوكَ، وتسترَّت علَىٰ كلِّ خُلقٍ دنيءٍ، وبدَت كنافخِ الكيرِ الذِي إن لَم يُحرق الثيابَ بإيقادِهِ للنارِ والنفخِ فيهَا، لَا يعدِمُ المرءُ أَن يجدَ عندَهُ ريحًا خبيثةً.

إنَّهَا فتنةٌ عظيمةٌ، وقصةٌ حزينةٌ، طويلةُ الوقائعِ والفصُولِ، كلمَا انتهَىٰ منهَا فصلٌ، بدأَ فصلٌ آخرُ يحملُ فِي طيَّاتهِ الهمَّ والويلَ والثبُورَ، وعظائمَ الأمورِ.

لسنَا نبالغُ فيمَا نذكرُ، وكَم تردَّدنَا فِي طرحِ مثلِ هذَا الموضوعِ الحسَّاسِ، ولكِن لا بُدَّ مِن الحديثِ عنهُ نصحًا للمسلمينَ، وإعلانًا للبراءةِ مِن كلِّ سلوكٍ مشينٍ،

وتوضِيحًا للصورةِ الحقيقيةِ التِي لَم يتمعَّن فِي ملامحهَا كثيرٌ مِن الناسِ، بَل لَا زالُوا يهيمونَ فِي الغفلةِ، ويتأرجحونَ فِي غياهبِ الظُّلَم.

إنَّ هذهِ الفتنةَ العظيمةَ، هيَ فتنةُ السائقينَ فِي البيوتِ، الذينَ جعلهُم كثيرٌ مِن الناسِ بديلًا عنهُ فِي الخِدمةِ، فإذَا ببعضهِم يتحوَّلُ إلَىٰ عاشقٍ مُغرَمٍ، وبعضُهُم يتحوَّلُ إلَىٰ أداةِ شَرٍّ فاسدةٍ، لَا ترَىٰ ولَا تسمعُ ولَا تتكَلَّمُ.

ستسمعُ مَا يهولكَ، ويُشعِرُكَ بالألمِ والمرارةِ، مِن قصصٍ ليسَ لهَا مثيلٌ، وصرخاتٍ مِن نساءٍ يُرَددنَ: أنقذونَا.. فِي بيتنَا رجلٌ!

وعلَىٰ رغمِ التردُّدِ فِي الحديثِ، دفعنَا إليهِ مَا هوَ أقوَىٰ مِن ذلكَ كلِّهِ، النصحُ للمسلمينَ، ونداءاتٌ بينَ الفينةِ والأخرَىٰ للحديثِ عَن هذهِ الطامَّةِ، ورؤيةٌ لمَا بدأَ يغزُو الشوارعَ مِن التساهلِ المشينِ مِن قبلِ النساءِ معَ رجلٍ غريبٍ، فِي أعينِ كثيرٍ مِن الناسِ أنَّهُ ليسَ برجلٍ.

إنَّ هذَا السائقَ جاءَ إلَىٰ البلادِ لكَي يعيشَ ويقتاتَ، وَلَا همَّ لهُ إلَّا ذلكَ، لَم يأتِ مُصلحًا لشأنٍ أَو واعظًا عَن خَطيئةٍ، فإذَا ببعضِ الناسِ يتعاملُ معهُ وكأنَّهُ يتعاملُ معَ جدارٍ جامدٍ وصُخورٍ صماءَ، فمَا يلبثُ إلَّا وقَد أطلعهُ علَىٰ المُحَارمِ، فيرَىٰ النساءَ بلَا سترٍ ولَا حجابٍ، ويسمعُ كلامًا وضحكًا يحركُ الجبالَ الشاهقةَ، ويظنُّونَ أنَّهُ ليسَ برجلٍ!

وهذَا التساهلُ هوَ رأسُ الشرِّ كلِّهِ، ودليلٌ علَىٰ عدمِ الغَيرةِ وضعفِ الحميةِ، وكَم أخرجَ التساهلُ مخدرةً مِن سترهَا إلَىٰ البغاءِ والفسادِ، وألقاهَا بينَ براثنِ العشراءِ، ولولَا التساهلُ لكانَ منالُ الثريَّا دونَ منالهَا، والتدرُّعُ بالأكفانِ دونَ التدرُّعِ بجمالهَا، وعناقُ السيوفِ دونَ عناقهَا.

وكَم مِن امرأةٍ كانَت قاصرةَ الطرفِ علَىٰ زوجهَا، فلمَّا دَبَّ التساهلُ خرجَت علَىٰ وجههَا، فلَم يجتمِع شملُ الإحصانِ والعفةِ بعدَ ذلكَ بشملهَا.

أينَ هؤلاءِ مِن غيرةِ أناسٍ كانُوا أئمةً يُقتدَىٰ بهِم، ضربُوا فِي ذلكَ أروعَ الأمثلةِ، فاستقامَ لَهُم أمرُ دينهِم ودنياهُم؟!

أكلَ معاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تفاحًا ومعهُ امرأتهُ، فدخلَ عليهَا غلامٌ فناولتهُ تفاحةً قَد أكلَت منهَا، فأوجعهَا معاذٌ ضربًا.

وسمعَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا امرأتَهُ تكلِّمُ رجلًا مِن وراءِ جدارٍ -بينهَا وبينهُ قرابةٌ لَا يعلمهَا ابنُ عمرَ- فجمعَ لهَا قضبانَ النخلِ ثمَّ ضربهَا حتَّىٰ خفتَ صوتُهَا.

أينَ هذهِ الغيرةُ، أينَ هذهِ الحميةُ، أينَ هيَ منَّا؟!

صورٌ محزنةٌ، ووقائعُ مبكيةٌ!

نساءٌ يخرجنَ معَ السائقِ بكاملِ الزينةِ إلَىٰ الأعراسِ، عطورٌ فواحةٌ، ومجملاتٌ مبهرةٌ، وضحكاتٌ فاتنةٌ، هَل هذَا مِن الرجولةِ؟!

ونساءٌ بدأْنَ يركبْنَ بجانبِ السائقِ لَا يفصلُ بينهمَا إلَّا سنتيمتراتٍ، أينَ الأنفةُ؟ إن لَم يكُن إسلامٌ يردعُ، فأينَ الرجولةُ؟!

وهذَا مَا دعَا كثيرًا مِن السائقينَ أَن يتمنَّىٰ مَا لَم يكُن يحلُمُ بأنَّهُ سيطولهُ يومًا مِن الأيامِ، فنالهُ وطالهُ.

إنَّ السائقَ الذِي استودعَهُ كثيرٌ مِن الناسِ شرفَهُم جاءَ مِن أجلِ العيشِ، فلَو فعلَت المرأةُ مَا فعلَت لَا يهمُّهُ، إمَّا لأنَّ هذَا الأمرَ فِي بلادهِ أمرٌ عاديٌّ، أَو لمآربَ أخرَىٰ، وترْكُ الأمرِ بلَا رقيبٍ جعلَ بعضَ النساءِ تذهبُ معَ السائقِ إلَىٰ أماكنَ يجتمعُ فيهَا كلُّ شرٍّ وعيبٍ وعارٍ وخزيٍ.

اسمعُوا هذهِ الصرخاتِ المُدَوِّيَةَ، وتَفَكَّرُوا فِي هذهِ المواعظِ العظيمةِ، تبيِّنُ لكُم إلَىٰ أيِّ مدَىٰ وصلَ بنَا الحالُ.

إِلَىٰ مَن يزعمونَ أنَّ السائقَ ليسَ برجُلٍ، ويظنُّونَ أنَّ شرفَ نسائهِم وأصولَهنَّ العريقةَ تمنعهنَّ مِن الهيامِ بسائقٍ، اسمعُوا.

ففِي حادثةٍ اهتزَّ لهَا المجتمعُ، واضطربَت لهَا القلوبُ، استيقظَت إحدَىٰ الأسرِ علَىٰ فاجعةٍ مذهلةٍ، وداهيةٍ مِن الدواهِي، فقَد بحثُوا عَن ابنتهِم الصغيرةِ فلَم يجدُوا لهَا أثرًا.

أينَ ذهبَت؟ لعلَّهَا هنَا أَو هناكَ، دونَ جدوَىٰ.

حتَّىٰ يُفاجئُوا بالمصيبةِ التِي أفقدتهُم الوعيَ، إنَّ ابنتهُم الصغيرةَ التِي تعيشُ منعَّمةً، هربَت معَ عشيقهَا الفقيرِ غيرِ الوسيمِ، الذِي يزعمُ كثيرٌ مِن الناسِ أنَّه ليسَ رجلًا، هربَت معَ السائقِ الآسيويِّ!

كيفَ حدثَ هذَا؟! مَا الذِي ينقصهَا؟!

كانَت هذهِ الفتاةُ مثلهَا مثلَ باقِي الفتياتِ، عاشَت مرحلةَ الطفولةِ عزيزةً مكرمةً، إِلَىٰ أَن كبرَت وقَد توفَّرَ لهَا كلُّ شيءٍ، وقَد استقدمَ الوالدُ سائقًا يستعينُ بهِ علَىٰ تخفيفِ الأعباءِ عَن كاهلهِ.

هذَا السائقُ لَم يكُن وسيمًا، لكنَّهُ استطاعَ أَن يؤثِّرَ علَىٰ تلكَ الفتاةِ الجميلةِ الصغيرةِ، وأَن يقتحمَ قلبهَا الصغيرَ، ويؤججَ مشاعرهَا العاطفيةَ بكلماتِ الحبِّ والغزلِ، فأحبَّتهُ، وتطورَت العلاقةُ بينهمَا فيمَا كانَ أهلهُا يبيتونَ فِي سباتٍ عميقٍ، وغفلةٍ لَا يعرفونَ مِن جرائهَا أَنَّ هذَا السائقَ سيطرَ علَىٰ ابنتهِم، وامتلكَ مشاعرهَا، وأثَّرَ عليهَا لدرجةِ أَنَّهَا قرَّرت الذهابَ معهُ إِلَىٰ حيثُ يريدُ.

قطعًا! لَم ينتبهِ الأهلُ السذَّجُ إِلَىٰ نظراتِ العشيقينِ المتبادلةِ بينهمَا فِي المنزلِ، فكانَ أَن ظلَّ السائقُ يرافقُ عشيقتَهُ إِلَىٰ حيثُ السوقُ وبيوتُ الصديقاتِ، إِلَىٰ أَن قرَّرَا

الزواجَ بعيدًا عَن هذَا المُجتَمعِ.

بطريقةٍ أَو بأخرَىٰ تمكَّنَ السائقُ مِن تزويرِ وثيقةِ سفرٍ لهذهِ الفتاةِ وحجزَا مقعدينِ فِي الطائرةِ التِي أقلعَت بهمَا إِلَىٰ مطارِ بلادهِ.

أهلُ الفتاةِ دارَ فِي خَلَدِهم كلُّ شيءٍ، إلَّا فكرةً واحدةً لَم تخطُر ببالِهم، وهيَ: أَنَّ ابنةَ العزِّ والشرفِ تهربُ معَ سائقٍ! ولكِن هذَا مَا حدثَ، وهذهِ هيَ الحقيقةُ.

أهلُ الفتاةِ مَا زالُوا غيرَ مصدِّقينَ المصيبةَ التِي حلَّت بهِم، غيرَ أنَّهم لَا يملِكُونَ إلَّا الحسرةَ والقهرَ، فالأمُّ تبكِي ليلَ نهارَ علَىٰ فِلْذةِ كبدهَا، والأبُ غارقٌ فِي أحزانهِ غيرُ قادرٍ علَىٰ مواجهةِ الناسِ، وفيمَا يتألمُ أهلُ الفتاةِ، يظلُّ الآخرونَ متأهبينَ لسماعِ أخبارِ هذهِ الفاجعةِ، مِن دونِ أَن يلتفتُوا إِلَىٰ النارِ المستعرةِ فِي بيوتِهِم.

مَن يراقبُ، وَفِي البيتِ رجلٌ يملكُ مشاعرَ كالآخرينَ، يؤثِّرُ ويتأثَّرُ كإنسانٍ، يحبُّ ويكرهُ، وربمَا لَا يراهُ البعضُ كذلكَ، فيأتونَ بهِ إِلَىٰ البيتِ خادمًا يعملُ كأداةٍ، يؤدِّي الطاعةَ، ويلبِّي الحاجاتِ، لكِن كآلةٍ صمَّاءَ، لَا يحسُّ ولَا يشعرُ، وكأنَّهُم لَا يرونَ هؤلاءِ مِن أصنافِ البشرِ، بَل مِن الآلاتِ الجامدةِ، متناسينَ أَنَّ الآلةَ ربمَا تنفجرُ.

فيَا مَن فتحَ بابَ الفتنةِ، اسمَع: قيلَ لامرأةٍ مِن أشرافِ العربِ: مَا حملَكِ علَىٰ الزنَا؟

قالَت: قُربُ الوسادِ، وطولُ السوادِ، أَي: قُربُ وسادةِ الرجلِ مِن وسادتِي، وطولُ السَّوادِ بيننَا.

وأنتَ يَا مَن تستغربُ أَن تقعَ الفتاةُ المميزةُ فِي غرامِ رجلٍ فقيرٍ معدم، ربمَا يكونُ قبيحَ الشكلِ، تأمَّل جيِّدًا: ألَا ترَىٰ أنَّ نفوسَ بعضِ الناسِ مِن المميزينَ تميلُ إِلَىٰ الخادماتِ السوداواتِ، حتَّىٰ يقومُوا باقترافِ الفاحشةِ والرذائلِ معهنَّ، فمَا الفرقُ؟!

قالَت إحدَىٰ النساءِ العاقلاتِ، وقَد انتُقِدَت لتعرضِهَا لرجلٍ: لَا تعجبنَ مِن امرأةٍ أَن تقولَ: هَويتُ، فواللهِ لَو كانَت حاجتُهَا عندَ أحدِ السودانِ، لكانَ هوَ هواهَا.

وكانَ عندَ رجلٍ منَ العربِ مغنيةٌ تغنِّي بينَ يديهِ، جميلةُ الصورةِ، لهَا حسنٌ فائقٌ، وجمالٌ رائقٌ، ومعهُ فتَىٰ مِن أقبحِ مَن رأتهُ العينُ وأحمقهُ وأغباهُ، والمغنيةُ مقبلةٌ عليهِ بحديثِهَا وغنائهَا، فبينمَا هُم كذلكَ إِذ دخلَ عليهِم شابٌّ مِن أحسنِ الناسِ وجهًا، وأطيبِهِ ريحًا، فقالَ صاحبُ البيتِ: إِنَّ فِي أمرِ هذَينِ لعجبًا. قيلَ: ومَا ذاكَ؟

قالَ: المغنيَّةُ تحبُّ هذَا القبيحَ وليسَ لهَا فِي قلبهِ محبةٌ، وهذَا الحَسَنُ الوجهِ يحبهَا وليسَ لهُ فِي قلبهَا محبةٌ.

فالجمالُ والمنصبُ ليسَ هوَ القائدَ، ولكنَّهُ الميلُ، ومَن يملكُ قلبَهُ ألَّا يميلَ؟!

أَلَم تسمعُوا قولَ القائلِ:

تَعَـشَّقتُهَا شَـمطَاءَ شَـابَ وَلِـيدُهَا وَلِلـنَّاسِ فِمَـا يَعـشَقُونَ مَـذَاهِبُ

فكيفَ ببعضِ السائقينَ والخَدَمِ، مِن أصحابِ الوسامةِ والجسامةِ والاعتناءِ بالملبسِ والمظهرِ؟!

دخلَ مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ علَىٰ أخيهِ الخليفةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ، وعندهُ خادمٌ جميلٌ، فقالَ لَهُ مسلمةُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، أيُّ فتيانِنَا هذَا؟ قالَ: هذَا خادمٌ لِي، فقالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، يدخلُ علَىٰ حرمِكَ مثلُ هذَا؟!

قالَ: إنَّهُ مجبوبٌ لَا يقدرُ علَىٰ النساءِ، قالَ: إِن لَم يقدِر عليهِ ذكَّرها الرجال، فأخرجهُ هشامُ.

ومِن داهيةِ الدواهِي أَن يجعلَ الرجلُ سائقًا فِي بيتهِ ويلهُو فِي ملذاتهِ، فلَا يأتِي للبيتِ إِلَّا نادرًا، فإِذَا ببيتٍ خالٍ، ورجلٍ غريبٍ، وامرأةٍ مستوحشةٍ بسببِ لهوِ الزوجِ،

فإذَا ضعفَت ذهبَت للعبثِ، فإذَا بالسائقِ يسترُ ذلكَ، إمَّا خوفًا أَو لمآربَ أخرَىٰ، وَإِن لَم تذهَب للعبثِ فِي الخارجِ، وعمدَت إِلَىٰ الخطأِ والرذيلةِ، فعندهَا الرجلُ البديلُ، الذِي زرعهُ الرجلُ فِي المنزلِ، واستودعَهُ عرضَهُ.

ولَا تقولُوا: لَا يمكنُ للمرأةِ أَن تميلَ إِلَىٰ رجلٍ قبيحٍ وضيعٍ، فإنَّ الكلبَ إِذَا جاعَ رجعَ إِلَىٰ القمامةِ.

ولطالمَا سترَ بعضُ السائقينَ نساءَ مخدوميهِم لأَجَلٍ، حتَّىٰ إِذَا بلغوهُ جاءُوا بالتهديدِ والابتزازِ، لينالُوا مَا لَم يكُن يخطرُ علَىٰ بالِهِم وبالِ غيرهِم.

وكيفَ برجلٍ لَا ينهارُ، وهوَ يذهبُ بامرأةٍ وحيدةٍ يمنةً ويسرةً، ضحكاتٌ وتغنُّجٌ، وعُريٌّ فِي الملابسِ، لَا سِيَّمَا عندَ الذهابِ للحفلاتِ والأعراسِ، وبعضهنَّ تخرجُ لهُ بملابسِ النومِ، وربمَا لَا تردُّ يدَ لامسٍ وهيَ معهُ.

فكيفَ بهِ لَا يضعفُ، وكيفَ بهِ لَا يطمعُ؟!

أيُّها الناسُ:

اعتبرُوا بحوادثِ الزمانِ، إنَّا لَا نذكرُ هذَا شماتةً أَو تندرًا، فإنَّ السعيدَ مَن وُعِظَ بغيرهِ، والشقيَّ مَن وُعِظَ بنفسهِ، فانتبهُوا حتَّىٰ لَا تدمَّرَ الأسرُ، فيضيعُ الأبناءُ والبناتُ، وتهيمُ الزوجاتُ، بسببِ تساهُلٍ وغفلةٍ، وتعدِّي حدودَ اللهِ حتَّىٰ يقعَ المرءُ فِي مغبةِ فعلهِ.

ويَا أيَّتهَا المرأةُ العفيفةُ:

حافظِي علَىٰ سترِكِ وحيائِكِ وعديهِ رأسَ الفضائلِ، فلَا تتساهلِي فِي هذَا الأمرِ المشينِ الذِي يُذهبُ الحياءَ والأنفةَ، والتزمِي حدودَ اللهِ فِي معاملةِ هذَا الرجلِ الأجنبيِّ الغريبِ، فهوَ رجلٌ وإِن كانَ فقيرًا معدمًا، وإنَّمَا دخلَ الانحرافُ علَىٰ الكثيرِ،

بسببِ احتقارهِم لبعضِ فئاتِ البشرِ، فلَا يرونَ الخادمَ رجلًا وَلَا يرونَ الخادمةَ امرأةً، فإذَا مالَت النفوسُ فإذَا بذلكَ كلِّهِ يُنسَىٰ.

فلَا تنفردِي معَ السائقِ بطريقٍ، وإن كانَ ولا بدَّ مِن الذهابِ معهُ فخذِي معكِ مِن المحارمِ البالغينَ أَو النساءِ مَن يكسرُ الخلوةَ، وإيَّاكِ أَن تتزينِي أمامَ ناظريهِ، أَو أَن تتكلمِي علَىٰ مسامعهِ بكلامٍ فيهِ وصفٌ للنساءِ أَو التحدثُ بمحاسنهنَّ، أَو أَن تتغنَّجِي أَو تخضعِي بالقولِ أَو تضحكِي أمامهُ، فإنَّ هذَا لَا يجوزُ، وداعٍ لفقدِ الحياءِ.

وقَد تُظهرينَ مثلَ ذلكَ دونَ قصدٍ منكَ لكِن بسببِ الجهلِ بالأحكامِ، فيدعوهُ ذلكَ إِلَىٰ المكرِ بكَ بأيِّ طريقةٍ، لَا سيَّمَا فِي مثلِ هذَا الزمانِ الذِي ضعفَت فيهِ العقوباتُ، وفُتِحَ باب كُلِّ شرٍّ، فلَا شيءَ يخيفُ إِن لَم يخفِ العبدُ مِن اللهِ.

إننَا نقولُ ذلكَ، يدفعنَا واجبُ النصيحةِ لكلِّ مسلمةٍ، والخوفُ علَىٰ العفيفةِ أَن تنحرفَ عَن الطريقِ بسببِ أمرٍ لَا تعرفُ عواقبَهُ، بسببِ غفلتهَا أَو حسنِ نيَّتهَا.

وَيَا أختاهُ:

لَا تغترِّي بتساهلِ كثيرٍ منَ الرجالِ الذينَ لَم يعرفُوا لكلمةِ (رجلٍ) قدرهَا، فإذَا بهِم يدفعونَ زوجاتهِم نحوَ النقصِ والخللِ.

فإذَا ابتليتَ بمثلِ هؤلاءِ المتكاسلينَ عَن خدمةِ أهليهِم وزوجاتهِم، فإيَّاكَ أَن تتابعيهِ علَىٰ خطئهِ وتسَاهُلهِ، فإنَّ بعضَ هؤلاءِ لهُ أعينٌ تبصرُ، ولسانٌ يتكلمُ، ولكنهُ كالمغيَّبِ الذِي عمِيَ قلبهُ وانطمسَت بصيرتُهُ.

فعليكَ بالالتزامِ بأحكامِ الإسلامِ فِي هذَا البابِ الخطيرِ ديانةً للهِ، فإنهُ يدفعُ عنكَ كلَّ بلوَىٰ، ويوفقكَ لكلِّ خيرٍ.

وإنمَا المِيزانُ للعبدِ الصَّادقِ هوَ رضَا اللهِ سبحانَهُ، فاجتهدِي فِي العملِ بطاعتهِ

واجتنابِ مَعَاصيهِ، فهوَ الرصيدُ الباقِي.

وليسَ عيبًا أَن يُخطئَ المرءُ ويزلَّ، ولكنَّ الخطأَ الأكبرَ هوَ استمرارُهُ فِي الخطأِ، وعدمُ تلمُّسِ أحوالهِ وإصلاحِ شَأنهِ.

فيَا أختَ العفافِ والطهرِ: كوني علَىٰ بصيرةٍ مِن أمرِكِ، وتعقَّلِي فِي شأنكِ، وكونِي مبادرةً لكلِّ خيرٍ، مصروفةً عَن كلِّ سوءٍ.

وعندمَا تطلعُ شمسُ الحقيقةِ والطهرِ، يحمدُ الشرفاءُ مسيرَهُم إليهَا فِي الدُّلجةِ متسابقينَ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ للهِ علَىٰ توفيقهِ العامِّ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هُداةِ الأنامِ ومصابيحَ الظلامِ.

أمَّا بعدُ:

فاحذرُوا أَن تتعرضُوا لأسبابِ البلاءِ، فبعيدٌ أَن يسلمَ مُقَاربُ الفتنةِ منهَا، وكمَا أنَّ الحذرَ مقرونٌ بالنجاةِ، فالتعرُّضُ للفتنةِ مقرونٌ بالعطبِ، وندرَ مَن يسلَم مِن الفتنةِ معَ مقاربتهَا.

واحذرُوا مِن عذابِ اللهِ وأليمِ عقابهِ، وتجنبُوا الأسبابَ التِي تجلبُ للعبدِ سخطَ اللهِ حتَّىٰ يخوضَ فيهِ.

إنَّ هذَا السائقَ رجلٌ أجنبيٌّ، فلَا يجوزُ أَن يُعامَلَ وكأنَّهُ مِن المَحَارمِ، فتختلطُ بهِ النساءُ

مِن غيرِ حجابٍ، ويداعبُ البناتِ ويلعبُ معهنَّ وَقَد بلغَت أعمارهُنَّ العشرَ سنواتٍ، بحجةِ أنهنَّ صغارٌ، ويوصلهنَّ إِلَىٰ المدارسِ والأسواقِ بمُفرَدهنَّ.

إنَّ هذَا هوَ قمةُ الاستخفَافِ، وعدمُ إعطاءِ الأمرِ قدرَهُ مِن الاهتمَامِ، ودليلٌ عَلَىٰ انتكاسِ القلوبِ، حتَّىٰ صارَت ترَىٰ الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروفَ منكرًا، والمنكرَ معروفًا.

وَيَا سبحانَ اللهِ! كَم مِن قلبٍ منكوسٍ وصاحبهُ لَا يشعرُ، وقلبٍ ممسوخٌ، وقلبٍ مخسُوفٌ بهِ!

فاحذرُوا مِن فتحِ بابِ الاختلاطِ للنساءِ معَ السائقينَ فإنهُ بابُ كلِّ شرٍّ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[(١)]، ولذلكَ لمَّا فُتِحَ بابُ الاختلاطِ تولَّدَت عندنَا تلكَ المآسِي.

وَلَا يجوزُ للمرأةِ الخلوةُ معَ السائقِ الأجنبيِّ حيثُ لَا يسمعُ أحدٌ ولَا يرَىٰ أحدٌ، قالَ ﷺ: «**مَا اجتمعَ رجلٌ وامرأةٌ إلَّا كانَ الشيطانُ ثالثهمَا**»[(٢)]، وَلَا نعودُ لانتكاسِ الفطرِ، فنقولُ: إنهُ ليسَ برجلٍ، فالخلوةُ تولِّدُ الريبةَ، وكثرةُ المخالطةِ تنتجُ السوءَ والألفةَ، فيجسرُ الخائفُ، ويتجرأُ المستحيِي، ويتعلَّمُ الجاهلُ، ويَستُر مَا لَا يُسترُ.

أليسَ مِن الغبنِ الفاحشِ، أَن تمازحَ امرأةٌ سائقهَا وتُضاحكُهُ، وكأنَّهُ زوجٌ وليسَ بسائقٍ؟!

أليسَ مِن القهرِ أَن تخرجَ معهُ فِي أَيِّ ساعةٍ مِن ليلٍ أَو نهارٍ، وكأنَّهُ زوجٌ بديلٌ؟!

أينَ دورُ الرجلِ؟! أليسَ قَد أتَىٰ بالسائقِ للحاجةِ، فلماذَا تحوَّلَ الحالُ فإذَا بهِ وقَد

(١) سورة الأحزاب:٥٣.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٠).

سَلَّمهُ زمامَ الأمورِ كلهَا، فهوَ الذِي يقومُ بأعمالِ المنزلِ كلهَا بلَا استثناءٍ.

لَا شكَّ أنَّ للترفِ دورًا كبيرًا، وَقَد ورَّثَ عندَ الناسِ مِن الأخلاقِ والريبِ مَا حرفَهُم عَن جادَّةِ الحقِّ والأخلاقِ الحسنةِ، فمتَىٰ نصحُو مِن هذهِ الغفلةِ؟

هذَا وإِنَّ بعضَ الناسِ بدءُوا باستقدامِ الخَدمِ والسائقينَ إِلَىٰ هذهِ البلادِ دونَ النظرِ إِلَىٰ دياناتهِم، فلَا يهمهُم ذلكَ ولَا يتثبتونَ منهُ، سواءً كانَ هذَا السائقُ مسلمًا أَو كافرًا، نصرانيًّا أَو بوذيًّا أَو مَا سوَىٰ ذلكَ مِن مِلَلِ الكفرِ.

وبعضهُم يوحِي إليهِ الشيطانُ بإيحاءٍ ساقطٍ، وهوَ أنَّ الكافرَ فِي العملِ أفضلُ منَ المسلمِ، وهوَ بذلكَ قَد ارتكبَ فعلًا منكرًا بإعانتهِ لكافرٍ ليستغنِي بأموالِ المسلمينَ، وإعالةِ هذَا الكافرِ لأهلِ ملتهِ مِن أموالِ المسلمينَ، فيأخذُ مالَ المسلمينَ لينمِّي بلادَهُ وأهلَ ملتهِ ويُقَويهِم، كلُّ هذَا مِن مالِ المسلمينَ.

وكَم مِن العائلاتِ المسلمةِ مَن هُم بحاجةٍ، فيتركهُم ويدعمُ هؤلاءِ الكفارَ الذينَ لَم يزالُوا ولَن يزالُوا يتشبعونَ ببُغضهِ وبغضِ ملتهِ الإسلاميةِ.

كمَا أنَّ بعضَ المسلمينَ يستقدمُ هؤلاءِ الكفارَ إِلَىٰ جزيرةِ العربِ، وجلبُ الكفارِ إِلَىٰ جزيرةِ العربِ محرمٌ ومنكرٌ، وقَد جاءَت الأدلةُ عَن نبينَا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متضافرةً، تنهَىٰ عَن إبقاءِ الكفارِ فِي جزيرةِ العربِ.

قالَ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يجوزُ استقدامُ العمالِ الكَفَرةِ إِلَىٰ هذهِ الجزيرةِ العربيةِ؛ لأنَّ الرسولَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصَىٰ بإخراجِ الكفارِ منهَا، فقالَ: «**لَا يجتمعُ فيهَا دينانِ**»[(١)]، وقَد نفَّذَ ذلكَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ هذهِ الجزيرةَ لَا يجوزُ أَن يقيمَ فيهَا المشركونَ لِمَا ذكرنَا آنفًا، ولَا يجوزُ السماحُ لَهُم بدخولهَا إلَّا لحاجةٍ، كباعةِ الحاجاتِ

---

(١) رواه البيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٧).

التِي تُستورَدُ مِن بلادِ الكفرةِ إِلَىٰ هذهِ الجزيرةِ، وكالبُرُدِ الذينَ يقدمونَ مِن بلادِ الكفرةِ لمقابلةِ وليِّ الأمرِ فِي هذهِ الجزيرةِ، أمَّا أَن تكونَ محلَّ إقامةٍ لهُم فلَا يجوزُ ذلكَ، وهكذَا لَا يجوزُ منحهُم الجنسيةَ -أعنِي: جنسيةَ سكانِهَا-؛ لأنَّ ذلكَ وسيلةٌ إِلَىٰ الإقامةِ بهَا؛ لأنَّ الرسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصَىٰ بإخراجِ الكفَّارِ مِن هذهِ الجزيرةِ، ويجبُ أَن يُمنعَ مَن كانَ منهُم فيهَا مِن إظهارِ شعائرَ دينهِم، أمَّا استقدامُهُم ليَكُونُوا عمالًا أَو موظفينَ فيهَا -ومَا أشبَهَ ذلكَ- فلَا يجوزُ، بَل يجبُ الحذرُ منهُم، وأَن يُستغنَىٰ عنهُم بالعمالِ المسلمينَ، ويُكتفَىٰ بهِم فِي العملِ بدلًا مِن الكفارِ، إلَّا عندَ الضرورةِ القصوَىٰ التِي يراهَا وليُّ الأمرِ لاستقدامِ بعضِهِم لأمورٍ لابدَّ منهَا».

فاحذرُوا ممَّا يفتحُ عليكُم أبوابَ الشرِّ، واعلمُوا أنهُ مَا نَهَىٰ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن إبقاءِ الكفارِ فِي جزيرةِ العربِ، إلَّا لأنهُم يفسدونَ العقائدَ والأخلاقَ.

فهَل تظنُّ أَيُّهَا المسلمُ أَنَّ كافرًا يحرصُ علَىٰ دينكَ وعقيدتكَ، وهَل تتصورُ أَن يكونَ غيورًا علَىٰ عرضِكَ فيمنعُ عنهُ السوءَ، ويدفعُ عنهُ الأذَىٰ؟

إذَا كانَ مِن السائقينَ مَن يتدينُ بدينِ الإسلامِ ومعَ ذلكَ فقَد جرَىٰ منهُ مِن الفسادِ مَا يؤلِم، فكيفَ بغيرِهِ؟!

فانتبهُوا، ولَا تجعلُوا أعراضَكُم فِي مَهبِّ الريحِ وعواصفِ الفتنِ، وتستأمِنُونَ عليهَا أناسًا ليسُوا بهَا بمُبَالينَ.

إنَّ التجارةَ الجَائرةَ، والصَّفقةَ الخاسرةَ، لمَن غامرَ فِي عرضِهِ، وأودعهُ مكانًا غيرَ آمنٍ، ثمَّ إذَا بهِ يريدُ السلامةَ والنجاةَ، فمِن أينَ تأتِي؟!

فإذَا كانَ المرءُ قَد عجزَ عَن حفظِ نفسهِ وشئونهِ، فالناسُ لهَا أضيعُ.

اللهمَّ أحسِن عاقبتنَا فِي الأمورِ كلهَا، وجنِّبنَا الفتنَ مَا ظهرَ منهَا ومَا بطنَ.

(١٢) عيدُ الحبِّ

الحمدُ للهِ المحمودِ علَىٰ كلِّ حالٍ، الموصوفِ بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدهُ لَا شريكَ لهُ ذُو العظمةِ والجلالِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الصادقُ المقالِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ خيرِ صَحبٍ وآلٍ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فليسَ جديدًا أَن نقُولَ: إننَّا فِي زمنٍ كثُرَت فيهِ الفتنُ والآفاتُ، حتَّىٰ اقتحمَتِ الأممَ والمُجتمعاتِ، وغيَّرَتْ كثيرًا مِن المفاهيمِ؛ حتَّىٰ صارَ كثيرٌ مِن المنكراتِ مِن نوعِ المألوفِ الذِي لَا يقبلُ الجدلَ، فإذَا جاءَ مَن ينكرهَا فكأنَّهُ جاءَ ببدعٍ مِن القولِ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كيفَ أنتُم إذَا لبستكُم فتنةٌ، يربُو فيهَا الصغيرُ، ويهرمُ فيهَا الكبيرُ، ويتخذُهَا الناسُ سُنَّةً، فإذَا غُيِّرَت قالُوا: غُيِّرت السُّنةُ. قالُوا: متَىٰ ذاكَ يَا أبَا عبدَ الرحمنِ؟ قالَ: إذَا كثُرَ قراؤكُم، وقَلَّ فقهاؤكُم، وكثُرَ أمراؤكُم، وقلَّ أمناؤكُم، والتُمِسَت الدنيَا بعملِ الآخرةِ، وتُفُقِّهَ لغيرِ الدينِ».

وها نحنُ نعيشُ فِي مثلِ هذهِ الأزمَانِ، وفِي كلِّ يومٍ يظهرُ مِن الفتنِ والمنكراتِ مَا يهوِّنُ مَا كانَ قبلَهُ، ليسَ لهونِ ذلكَ المنكرِ، ولكِن لأنهُ خَلَفهُ مَا هوَ أشدُّ منهُ، حتَّىٰ جعلَهُ هيِّنًا بالنسبةِ إليهِ، كمَا قيلَ:

لَـم أَبـكِ مِـن زَمَـنٍ صَـعبٍ لِـشِدَّتِهِ ... إِلَّا بَكَـيتُ عَلَـيهِ حِـينَ أَفقِـدُهُ

مَـا قَـد جَـزَعتُ عَلَىٰ مَـيْتٍ فُجِعْـتُ بِـهِ ... إِلَّا ظَلَلـتُ لِـسِترِ القَبـرِ أَحـسُدُهُ

وَمَـا ذَمَمـتُ زَمَانًـا فِـي تَقَلُّـبِهِ ... إِلَّا وَفِـي زَمَنِـي قَـد صِـرتُ أَحمِـدُهُ

قالَ الإمامُ الشعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا بكيتُ مِن زمانٍ إلَّا بكيتُ عليهِ»، وهوَ بعينهِ قولُ القائلِ:

رُبَّ يَــومٍ بكَــيتُ فِــيهِ فَلَمَّــا صِــرتُ فِــي غَيــرِهِ بكَــيتُ عَلَــيهِ

وقَد أخبرَ عَن ذلكَ الصادقُ المصدوقُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذِي مَا تركَ طريقَ خيرٍ أَو شرٍّ إلَّا بيَّنهُ لنَا، فقالَ: «**إنَّهُ لَم يكُن نبيٌّ قبلِي إلَّا كانَ حقًّا عليهِ أَن يدلَّ أمتَهُ علَىٰ خيرِ مَا يعلمهُ لهُم، وينذرهُم شرَّ مَا يعلمهُ لَهُم، وإنَّ أمتَكُم هذهِ جُعِلَ عافيتُهَا فِي أوَّلهَا، وسيصيبُ آخرَهَا بلاءٌ وأمورٌ تنكرونَهَا، وتجيءُ فتنةٌ يرقِّقُ بعضُهَا بعضًا، وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذهِ مهلكتِي، ثمَّ تنكشِفُ، وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذهِ هذهِ، فمَن أحبَّ أَن يزحزحَ عَن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتهِ منيتُهُ وهوَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلَىٰ الناسِ الذِي يحبُّ أَن يؤتَىٰ إليهِ**»[1].

وإنَّ مِن هذهِ الفِتَنِ التِي غزَت ديارَ المسلمينَ، وخلخلَت العقائدَ والأخلاقَ، تلكَ الاحتفالاتُ المبتدعةُ، المستوردةُ مِن أممِ الكفرِ، ومنهَا مَا يحتفِلُ فيهِ الكفارُ هذهِ الأيامَ بمَا أسموهُ: «عيدَ الحبِّ»، والذِي يوافقُ الرابعَ عشرَ مِن فبراير مِن كلِّ عامٍ، وقَد قلَّدهُم -ومعَ الأسفِ الشديدِ- بعضُ المسلمينَ جهلًا منهُم بحقيقةِ الأمرِ، وظنًّا منهُم أنَّهُ مِن بابِ «الموضَة» أَو «البرستيجَات الحديثَة»، وَمَا علمَ مَن كرَّمهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالإسلامِ أنَّ ذلكَ مِن العباداتِ الوثنيةِ المحرمةِ التِي لَا يجوزُ المشاركةُ فيهَا بحالٍ مِن الأحوالِ.

تأمَّلُوا:

ففِي يومِ الرابعِ عشرَ مِن فبراير لعامِ ٢٧٠ ميلاديَّة، قامَ الإمبراطورُ الرومانِي «كلاوديس الثاني» بمنعِ عقودِ القرانِ، ذلكَ لأنهُ لاحظَ أنَّ العزَّابَ أشدُّ صبرًا فِي

---

(١) رواه مسلم (٣٤٣١).

الحربِ مِن المتزوجينَ الذينَ يرفضونَ الذهابَ إِلَىٰ جبهاتِ المعاركِ، فأصدرَ أوامرهُ بمنعِ عقدِ أيِّ قرانٍ.

غيرَ أنَّ أحدَ القساوسةِ واسمهُ «فالانتاين» -وهوَ الذِي سُمِّيَ باسمهِ عيدُ الحبِّ- عارضَ هذَا الأمرَ، واستمرَّ بعقدِ الزيجاتِ فِي كنيستهِ سرًّا حتَّىٰ اكتشفَ الإمبراطورُ أمرَهُ فسجنهُ، وفِي السجنِ تعرَّفَ علَىٰ ابنةِ أحدِ سجانيهِ، وكانَت مصابةً بمرضٍ فعالجهَا فشُفِيَت.

إِلَّا أنَّهُ قَد وقعَ فِي غرامهَا، وقبلَ أَن يُعدمَ أرسلَ إليهَا بطاقةً مكتوبًا عليهَا: مِن المخلصِ فالانتاين، وقَد اعتنقَت النصرانيةَ معَ مجموعةٍ مِن أقاربهَا -لأنَّهُ كانَ يدعُو للنصرانيةِ-.

وَقَد لاحظَ بعضُ القساوسةِ أنَّ بعضَ الشبابِ يجتمعونَ فِي بعضِ القرَىٰ الأوربيةِ فِي منتصفِ فبراير، ويكتبونَ أسماءَ بناتِ القريةِ، ثمَّ يضعونَ ذلكَ فِي صندوقٍ، ثمَّ يسحبُ كلُّ شابٍّ ورقةً، والتِي يَخرجُ اسمُهَا تكونُ عشيقتهُ طوالَ السنةِ، فيرسلُ لهَا بطاقةً مكتوبًا عليهَا: باسمِ الآلهةِ الأمِّ أرسلُ لكِ هذهِ البطاقةِ، ثمَّ تستمرُّ العلاقةُ بينهمَا إِلَىٰ عامٍ ثمَّ يستبدلهَا بعدُ بامرأةٍ أخرَىٰ.

فلمَّا وجدَ القساوسَةُ أنهُ مِن الصعبِ إلغاءَ ذلكَ الطقسِ مِن عقولِ أولئكَ الشبابِ، عَمدُوا إِلَىٰ فكرةٍ تُرسِّخُ النصرانيةَ فِي عقولِ أولئكَ الشبانِ، فقرَّرُوا أَن يُغيِّرُوا عبارةَ: باسمِ الآلهةِ التِي يستعملُهَا الشبابُ إِلَىٰ عبارةِ: «باسمِ القسيسِ فالانتاين»، وذلكَ لكونهِ رمزًا نصرانيًّا، وفِي ذلكَ يتمُّ ربطُ الشبابِ بالنصرانيةِ.

وإنهُ لَمِنَ المحزنِ جدًّا أَن ترَىٰ بعضَ القنواتِ الفضائيةِ، أَو الجرائدِ اليوميةِ، أَو الاتصالاتِ التِي يملكهَا مسلمونَ وبينَ صفوفِ المسلمينَ وهُم يروِّجونَ لهذَا العيدِ الوثنيِّ بينَ صفوفِ المسلمينَ.

إنَّ هذَا العيدَ المسمَّىٰ بعيدِ الحبِّ، عيدٌ وثنيٌّ لَا يجوزُ المشاركةُ فيهِ بحالٍ مِن الأحوالِ، ويجبُ قطعُ جميعِ الطرقِ والوسائلِ المُفضِيةِ إليهِ، وذلكَ أنهُ مِن أعيادِ الجاهليةِ التِي أبطلهَا النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ أنسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قدمَ رسولُ اللهِ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **المدينةَ ولهُم يومَانِ يلعبونَ فيهمَا، فقالَ: مَا هذَا اليومانِ؟**

قالُوا: كنَّا نلعبُ فيهمَا فِي الجاهليةِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنَّ اللهَ قَد أبدلَكُم بهمَا خيرًا منهمَا: يومُ الأضحَىٰ، ويومُ الفطرِ**»[1].

وعلَىٰ ذلكَ فلَا يجوزُ الاحتفالُ بأيِّ يومٍ واتخاذُهُ عيدًا يعودُ فِي كلِّ عامٍ إلَّا مَا حدَّدهُ الشرعُ وعظَّمهُ؛ كعيدَي الأضحَىٰ والفِطرِ.

كمَا أنَّ الاحتفالَ بهذَا العيدِ الوثنيِّ (عيدِ الحبِّ) إحياءٌ لشعيرةٍ مِن شعائرِ الكفارِ، وتعظيمٌ لأيامِهِمُ الوثنيةِ، وتشبُّهٌ بهِم فِي عبادتهِم، وقَد قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن تشبَّهَ بقومٍ فهوَ منهُم**»[2].

وفِي هذَا الاحتفالِ مضادةٌ لدينِ اللهِ، وقدحٌ فِي أصلٍ مِن أصولِ عقائدِ أهلِ السنةِ والجماعةِ، وهوَ الولاءُ والبراءُ المتمثلُ فِي محبةِ المؤمنينَ وبغضِ الكافرينَ.

كمَا أنَّ تقليدَ الكفارِ فِي هذَا اليومِ يقودُ إلَىٰ المحبةِ القلبيةِ لأعمالِ المشركينَ، وللمشركينَ أيضًا، وينمِّي الاستئناسَ بمَن يحتفلُ بهذَا اليومِ؛ لأنَّ المرءَ عادةً يرتاحُ لمَن يعملُ مثلَ عملهِ.

قالَ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مشابهةُ أهلِ الكتابِ والأعاجمِ ونحوهِم لابدَّ أَن تورِّثَ عندَ المسلمِ نوعَ مودةٍ لهُم، أَو هيَ علَىٰ الأقلِّ مظنَّةَ المودةِ، فتكونَ محرمةً مِن هذَا

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٣٩).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «غاية المرام» (١٠٩).

الوجهِ سدًّا للذريعةِ، وحسمًا لمادةِ حبِّ الكافرينَ والولاءِ لهُم، فضلًا عَن كونهَا محرمةً مِن وجوهٍ أخرَىٰ بالنصوصِ الواردةِ وغيرهَا».

وليحذَر المسلمُ أشدَّ الحَذرِ مِن التهنئةِ بهذَا اليومِ وغيرهِ مِن الأعيادِ المبتدعَةِ، لَا سيَّمَا الأيامُ المعظَّمةُ عندَ الكفارِ مِن اليهودِ والنصارَىٰ وغيرهِم.

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا التهنئةُ بشعائرِ الكفارِ المختصةِ بهِم فحرامٌ بالاتِّفاقِ، مثلَ أَن يهنئهُم بأعيادِهم وصومِهِم فيقولُ: عيدٌ مباركٌ عليكَ، أَو تَهنَأ بهذَا العيدِ ونحوِهِ، فهذَا إنْ سَلِمَ قائِلُهُ مِن الكفرِ فهوَ مِن المحرماتِ، وهوَ بمنزلةِ أَن يهنئَهُ بسجودهِ للصليبِ، بَل إنَّ ذلكَ أعظمُ إثمًا عندَ اللهِ وأشدُّ مقتًا مِن التهنئةِ بشربِ الخمرِ وقتلِ النفسِ».

قالَ: «وكثيرٌ ممَّن لَا قدرَ للدينِ عندَهُ يقعُ فِي ذلكَ ولَا يدرِي قُبْحَ مَا فَعَلَ، كمَن هنَّأَ عبدًا بمعصيةٍ أَو بدعةٍ أَو كفرٍ، فقَد تعرَّضَ لِمَقتِ اللهِ وسخطهِ».

وقالَ الشيخُ ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاحتفالُ بعيدِ الحبِّ لَا يجوزُ لوجوهٍ: الأولُ: أنهُ عيدٌ بدعيٌّ لَا أساسَ لَهُ فِي الشريعةِ. الثانِي: أنهُ يدعُو إِلَىٰ اشتغالِ القلبِ بمثلِ هذهِ الأمورِ التافهةِ المخالفةِ لهديِ السلفِ الصالحِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلَا يحلُّ أَن يُحدَثَ فِي هذَا اليومِ شيءٌ مِن شعائرِ العيدِ، سواءٌ فِي المآكلِ أَو المشاربِ أَو الملابسِ أَو التهادِي أَو غيرِ ذلكَ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

علَىٰ أنَّ الاحتفالَ والمشاركةَ فِي عيدِ الحبِّ -كمَا أنهُ قدحٌ فِي العقيدةِ- فكذلكَ

(١) سورة المائدة:٥١.

هوَ إزراءٌ بالأخلاقِ، وشهادةٌ علَىٰ النفسِ بالفجورِ.

فكَم هوَ مِن الخزي والعارِ المشينِ، أَن ترَىٰ محلاتِ الزهورِ وقَد امتلأَت باللونِ الأحمرِ -وهوَ شعارُ هذَا العيدِ الفاجرِ-، أَو ترَىٰ الأسواقَ وقَد امتلأَت بالدُّمىٰ والصورِ، وصورِ القلوبِ الحمراءِ التِي يتهافتُ عليهَا التافهاتُ والتافهونَ لإهدائهَا إلَىٰ بعضهِم البعضِ.

إنَّ المشاركةَ بهذَا الفِعلِ القَبيحِ لهوَ استيرادٌ للطريقةِ الغربيةِ فِي العلاقَةِ بينَ المرأةِ والرجلِ، وإعلانٌ لهذَا العشقِ البهيميِّ الذِي يؤسَّسُ علَىٰ عَلاقةٍ محرمةٍ.

إنَّ المرأةَ التِي تشاركُ بهذَا الفعلِ لهِيَ تشهدُ علَىٰ نفسهَا بالفجورِ وأنهَا ساقطةٌ عندَ عامةِ الناسِ، ويسيئونَ بهَا الظنَّ ولَو كانَت بريئةً، فالواجبُ عليهَا البعدُ عَن مواطنِ الريبةِ والتهمِ.

كمَا ينبغِي علَىٰ وليِّ الأمرِ أَن يكونَ حريصًا عَلَىٰ ذُريتهِ، وأَن يقطعَ حبلَ الشيطانِ قبلَ أَن يلْتفَّ حولَ أعناقِ أبنائهِ ولا سيَّمَا البناتُ، فَتَفَقَّدُوا بنَاتِكُم وحَذِّرُوهنَّ مِن هذَا الفعلِ المُشِينِ.

وَابْكِ لحالِ كثيرٍ مِن بناتِ المسلمينَ اللاتِي يتهافتنَ إلَىٰ محلاتِ الزهورِ أَو شراءِ القلوبِ وتعليقهَا فِي السياراتِ، وكأنَّهَا تقولُ للناسِ إنَّهَا تسعَىٰ إلِىٰ المجونِ، ولربمَا بعضهنَّ تفعلُ ذلكَ بحُسنِ نيةٍ تقليدًا للمجتمعِ، فيجبُ علَىٰ مَن فتحَ اللهُ عليهِ بمعرفةِ حكمِ هذَا اليومِ الوثنِيِّ أَن يحذرهَا مِن مغبةِ هذَا الفعلِ الشائنِ.

انتبهُوا أَيُّهَا الفضلاءُ -وبخاصةٍ الشبابُ- لأنكُم قَد اطلعتُم علَىٰ وسائلَ لَم يطَّلِعْ عليهَا غيرُكُم ممَّن سبقكُم، فحوطُوا الأهلَ بالنصحِ والتوجيهِ.

لَا ترضَوا أَن تتزينَ البنتُ باللباسِ الأحمرِ فِي هذَا اليومِ، أَو أَن تتبادلَ البطاقاتِ

أَو الورودَ أو القلوبَ حتَّىٰ معَ الصديقاتِ، فإنَّ الانحرافَ فِي هذهِ العصورِ لَم يقتصِرْ علَىٰ الشبابِ والبناتِ فقَط، بَل حتَّىٰ بينَ البناتِ أنفسهنَّ ممَّا يحصلُ مِن التعلقِ القلبيِّ المهلكِ.

فلَا تتساهلُوا فِي هذَا الأمرِ الخطيرِ، ولَا تغفلُوا عَن أمرٍ اكتشفَ الكفارُ مغبَّتَهُ وهَدْمَهُ للأخلاقِ فحاربوهُ، ففِي القرنينِ الثامنَ عشَرَ والتاسعَ عشَرَ، ثارَ رجالُ الدينِ فِي إيطاليَا علَىٰ هذَا العيدِ المسمَّىٰ (عيد الحبِّ) وأبطلُوهُ، واعتبَرُوهُ مَفسدَةً لأخلاقِ الشبابِ والشاباتِ، فلَا يغفلُ المسلمُ العاقلُ المتمسكُ بأخلاقِهِ عَن أمرٍ تنبَّهَ لهُ الكفارُ فاقدُو البصيرةِ.

وعلَىٰ التاجرِ المسلمِ أَن يتقِيَ اللهَ ولَا يشارِكَ فِي بيعِ مَا لَهُ علاقةٌ فِي هذَا العيدِ الوثنيِّ، فإنَّ كسْبَهُ حينئذٍ سحتٌ وحرامٌ، وحريٌّ ألَّا يبارِكَ اللهُ فيهِ.

قالَ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَا يبيعُ المسلمُ مَا يستعينُ بهِ المسلمونَ علَىٰ مشابهتِهِم -أَي: الكفَّار- فِي العيدِ مِن الطعامِ واللباسِ ونحوِ ذلكَ، لأنَّ فِي ذلكَ إعانةً علَىٰ المنكرِ».

فليتقِ اللهَ المسلمُ أَن يعينَ إخوانَهُ المسلمينَ علَىٰ مخالفةِ أمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بَل الواجبُ عليهِ أَن يُحذِّرَهُم مِن مغبةِ هذَا الفعلِ، لَا أَنْ يبحثَ عَن الربحِ الماديِّ ولَو كانَ المقابلُ ضياعَ دينِ إخوانهِ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجَلالِ وجههِ وعظيمِ سُلطانهِ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ أيُّهَا المسلمونَ:

فإِنَّ ممَّا يخطئُ فيهِ بعضُ إخوانِنَا وأخواتِنَا مِن أهلِ النوايَا الحسنةِ، أنَّ بعضَ النساءِ تشترِي لزوجِهَا شيئًا أحمرَ بهذهِ المناسبةِ احتفالًا بهذَا اليومِ، وقَد يحصلُ مِن بعضِ الأزواجِ مثلُ ذلكَ ظنًّا منهُم أَنَّ الاحتفالَ بهذَا اليومِ يحرمُ إذَا كانَت الهدايَا المتداوَلةُ بَينَ رجلٍ فاجرٍ وامرأةٍ ساقطةٍ فقَط، وهذَا ظنٌّ خاطئٌ، فكمَا أَنَّهُ يحرمُ إذَا كانَ شعارًا علَىٰ الفجورِ بينَ رجلٍ غريبٍ وامرأةٍ أجنبيةٍ جاهرُوا بالمنكرِ والفجورِ، فكذلكَ يحرمُ إذَا كانَ بينَ الزوجينِ، لأنهُ عبادةٌ كفريةٌ وثنيةٌ، ولَا يجوزُ تقليدُ الكفارِ فِي أعيادهِم، كمَا أنهُ قائدٌ إِلَىٰ اتهامِ الرجلِ والمرأةِ بمَا لَا يليقُ بمثلهِم، والحبُّ بينَ الزوجينِ ليسَ لهُ وقتٌ معينٌ، بَل هوَ طولُ العُمْرِ إن أصلحهمَا اللهُ.

هذَا وإِنَّ مثلَ هذهِ الأيامِ المبتدَعةِ -علاوةً علَىٰ كونهَا ليسَت مِن الدينِ-، فقَد أدَّت إِلَىٰ فتورِ العلاقاتِ بينَ صفوفِ المجتمعِ -كمَا هوَ فِي الواقعِ الغربيِّ- فلَا يتذكرُ الرجلُ زوجتَهُ إلَّا فِي (يومِ الحبِّ)، ولَا يذكرُ أمَّهُ إلَّا فِي (يومِ الأمِّ)، ولَا فضائلَ بلدهِ إلَّا فِي (اليَومِ الوطنيِّ) وهكذَا.

فاحذرُوا -رحمكُم اللهُ- أَن يغلبَكُم أهلُ الفجورُ علَىٰ دينِكُم وأخلاقِكُم، واحذرُوا مِن التساهلِ فيمَا ترونَهُ صغيرًا، حتَّىٰ يصيرَ كبيرًا فيطرحُ صاحبَهُ إِلَىٰ هوَّةٍ سحيقةٍ لَا نجاةَ فيهَا ولَا فكاكَ.

❊❊❊

(١٣) البحثُ عَن رجلٍ

الحمدُ للهِ الغنيِّ الحميدِ، ذِي العرشِ المجيدِ، الفعَّالِ لمَا يريدُ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ، أحمدُهُ سبحانهُ وأشكرُهُ، وأسألُهُ مِن فَضلهِ المَزيدَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ المنزلَ حينمَا تسكنهُ السعادةُ وتملأُ جوانبَهُ، فهوَ كالأرضِ التِي يزينهَا الربيعُ فتشعُّ زهوًا وابتهاجًا.

وكمَا أنَّ زينةَ الأرضِ أَن تَكسُوَهَا الخضرةُ اليانعةُ، وتتفجرُ فيهَا عيونُ الماءِ المتدفقةُ، فإنَّ هذَا هوَ الحالُ فِي بيتٍ تسكنهُ امرأةٌ تقومُ بواجبهَا وتلزمُ بيتهَا، ورجلٌ يعرفُ مسئولياتِهِ ويؤدِي حقَّ زوجتهِ وأبنائهِ وأهلِ بيتهِ.

فإذَا رأيتَ خللًا فِي القيامِ فِي الواجباتِ، وتهَرُّبًا مِن المسئوليَّةِ، عادَ ذلكَ البيتُ كالصَّحراءِ القاحلةِ التِي لَا سبيلَ للعيشِ فيهَا إلَّا علَىٰ قدرٍ كبيرٍ مِن الضررِ، وأخْذِ النفسِ بالمشقةِ والعنتِ.

وإنَّ مِن أعظمِ مَا تُعانيهِ البيوتُ فِي هذَا الزمانِ: تنصُّلُ كثيرٍ مِن الرجالِ عَن مسئولياتهِم، والتقصيرُ فِي حقوقِ أهلِ بيوتهِم، شحًّا بأنفسهِم أَن يبذلُوا شيئًا مِن الوقتِ لخدمةِ أهليهِم، وأداءِ الأمانةِ علَىٰ الوجهِ الذِي يُرضِي اللهَ عنهُم، ويشكرهُم عليهِ أهلُ البيتِ، ويمدحهُم عليهِ كلُّ عاقلٍ سويٍّ.

إنَّ مِن المحزنِ المبكِي أَن ترَىٰ بيوتًا خلَت مِن الرجالِ، تَسْفِي عليهَا رياحُ الكآبةِ،

وتهزهَا أعاصيرُ الألمِ، لافتقادهَا لرجلٍ يكونُ لهُ ارتباطٌ بزوجَتِهِ وأولادِهِ.

وليتَ ذلكَ المقصرَ قَد قضَىٰ وقتَهُ فِي أشياءٍ ضروريةٍ تتعلقُ فِي أمرِ معيشتهِ، ولكنهُ يهربُ باحثًا عَن مَلذَّاتِ نفسهِ علَىٰ حسابِ ضياعِ الأسرةِ.

وكَم هيَ تلكَ الصرخاتِ المدويةِ، والأنَّاتِ المتعبةِ التِي تبثهَا نساءٌ تحمَّلنَ كلَّ شيءٍ مِن المسئوليةِ، لأنَّ ذلكَ الزوجَ لَاهٍ فِي ملذاتهِ، منشغلٌ عَن أهلِ بيتهِ!

وقَد طافَ بآلِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهنَّ، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقَد طافَ بآلِ بيتِ محمدٍ نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهنَّ، ليسَ أولئكَ بخياركُم**»[(١)].

والناظرُ إلَىٰ حالِ هذَا المجتمعِ المسكينِ ليرَىٰ أصنافًا مِن العجبِ، يعبِّرُ عنهَا قولُ امرأةٍ مِن النساءِ لمَّا سُئلَت عَن لُبِّ المشاكلِ فِي البيوتِ، فقالَت: ذهبَ الرجالُ.

تأمَّلُوا -رحمكُم اللهُ- فِي رجلٍ يخرجُ مِن بيتهِ إلَىٰ العملِ مِن الصباحِ إلَىٰ الظهيرةِ، ثمَّ يعودُ لينامَ، ثمَّ يخرجُ مغربَ الشمسِ إلَىٰ المُخيَّماتِ الملهيةِ، أَو الاستراحاتِ، أَو الديوانياتِ التِي تقتلُ الأوقاتَ، ولَا يعودُ إلَىٰ بيتهِ إلَّا عندَ هجعةِ الناسِ أَو إلَىٰ الفجرِ، ويتكررُ هذَا الحالُ كلَّ يومٍ، فمتَىٰ يقومُ ذلكَ الشخصُ بواجبهِ؟!

ولذلكَ بِتَّ ترَىٰ ذكورًا يحملونَ نساءهُم علَىٰ الوظيفةِ، ويرغمونهنَّ علَىٰ قيادةِ السيارةِ ليقمنَ عنهُم بكلِّ شيءٍ، فالمرأةُ تصرفُ علَىٰ نفسهَا وأبنائهَا، وهيَ التِي تتسوَّقُ لهُم حاجاتِهِم الشخصيةَ، وهيَ التِي تأتِي بأغراضِ المنزلِ، حتَّىٰ الطعامِ والأغذيةِ، بَل وهيَ التِي تذهبُ بأبنائهَا إلَىٰ المستشفياتِ حتَّىٰ فِي آخرِ الليلِ.

فأينَ دورُ الأبِ؟! وأينَ هوَ فِي ذلكَ الوقتِ؟!

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢١٤٦).

إنهُ فِي مخيَّمِ الغفلةِ معَ الأصحابِ الذينَ لَم يجتمعُوا علَىٰ خيرٍ!

وانظُر إلَىٰ اليأسِ الذِي يدبُّ فِي نفسِ الطفلِ حينمَا يكلمُ أباهُ ليطلبَ منهُ طلبًا، فيردُّ عليهِ: قُل لأمِّكَ تقضيهِ لكَ، أَو قُل للسائقِ، أنَا مشغولٌ! مشغولٌ بماذَا...؟!

إنَّ هذَا الانشغالَ قادَ كثيرًا مِن النسَاءِ لافتعالِ المشاكلِ، لأنهَا باختصارٍ تُحِسُّ بَل وتوقنُ أنَّهَا لَا تعيشُ معَ رجلٍ مسؤولٍ أبدًا.

وتحمُّلُ هذهِ المسئولياتِ جعلَ المرأةَ تشعرُ بالخروجِ عَن فطرتهَا، وتبدأُ تتعاملُ كرجلٍ، فتكثُرُ المشاكلُ والخصُوماتُ.

إنَّ انشغالَ الرجلِ عَن واجباتهِ تجاهَ أهلِ بيتهِ إثمٌ عظيمٌ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفَىٰ بالمرءِ إثمًا أَن يضيِّعَ مَن يقوتُ**»(١).

كمَا أنَّهُ كفيلٌ بأَن يجعلَ الأسرةَ لَا تشعرُ بالأمانِ، لأنَّ المرأةَ تحتاجُ إلَىٰ ركنٍ شديدٍ تأوِي إليهِ، والأبناءُ يحتاجونَ إلَىٰ مَن يقوِّي ضعفَهُم، ولَا يستطيعُ ذلكَ إلَّا رجلٌ يستشعرُ المسؤوليةَ.

كمَا أنهُم معَ طولِ بُعْدِ الوالدِ عنهُم سيفتقدونَ الاستقرارَ العاطفيَّ والهدوءَ النفسيَّ، فيكبرُ معهُم هذَا وينمُو حتَّىٰ يشبُّوا ويرثُوا عدمَ المبالاةِ بسببِ مَا زرعهُ ذلكَ الوالدُ المقصِّرُ.

أسألُكُم: مَا هوَ دورُ الرجلِ إذَا كانَت المرأةُ تصنعُ كلَّ شيءٍ؟!

ومَا هذَا الإسفافُ ووظائفُ النساءِ المُشينةُ معَ الرجالِ، وخروجهنَّ قسرًا مِن بيوتهنَّ إلَّا بسببِ رجالٍ قصَّرُوا بالمسئوليةِ.

انظرُوا ماذَا كانَ يفعلُ خيرُ الورىٰ محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٦٩٢).

سُئِلَت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: مَا كانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يصنعُ فِي بيتِهِ؟

قالَت: «كانَ فِي مهنةِ أهلِه فإِذَا حضرَت الصلاةُ قامَ إِلَىٰ الصلاةِ»(١)، وفِي لفظٍ، قالَت: «كانَ فِي مهنةِ أهلِهِ، يخيطُ ثوبَهُ، ويخصفُ نعلهُ، ويعملُ مَا يعملُ الرجالُ فِي بيوتهِم»(٢).

وفِي ذلكَ دليلٌ علَىٰ أنَّ الرجلَ يعملُ فِي بيتِهِ الأعمالَ التِي يعملهَا الناسُ عادةً، ومَا هذَا إِلَّا إِشارةٌ إِلَىٰ أنَّ كونَ الرجلِ قائمًا فِي خدمةِ أهلِهِ، أنَّ ذلكَ ممَّا يُعلِي شأنَهُ، ولَا يحطُّ مِن قدرِهِ.

وهذَا معروفٌ ومقررٌ، بَل حتَّىٰ الآباءِ يحبونَ مِن أبنائِهِم ويفضِّلونَ الذِي يقومُ بخدمتِهِم، بَل ولَا يفعلونَ شيئًا إِلَّا بمَشُورتهِ مُرَاعاةً لخاطرِهِ، بعكسِ الابنِ المُهمَّشِ الذِي ليسَ لهُ أثرٌ فِي الأسرةِ.

إِنَّ خدمةَ الرجلِ لأهلِهِ؛ لزوجتِهِ وأبنائِهِ، وقيامِهِ بشأنهِم، ممَّا يقوِّي صلتَهُ بهِم، ويفرضُ مهابتَهُ وقوةَ شخصيتِهِ بينهُم.

قالَ حمَّادُ بنُ زيدٍ: قالَ لِي أيوبُ السختيانيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الزَم سوقَكَ، فإِنَّ الرجلَ لَا يزالُ عزيزًا فِي إِخوانهِ، مَا لَم يحتَج أهلُهُ إِلَىٰ غيرِهِ».

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «يُعجبنِي الرجلُ أَن يكونَ فِي أهلِ بيتِهِ كالصبيِّ، فإِذَا ابتُغِيَ منهُ وُجِد رجلًا».

وقالَ سفيانُ: سمعتُ أبَا سنانٍ يقولُ: «حلبتُ الشاةَ منذُ اليومِ، واستقيتُ لأهلِي راويةً مِن ماءٍ، وكانَ يقولُ: خيرُكُمْ أنفعكُمْ لأهلِهِ».

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٩٠٦٨).

ثمَّ إنَّ قيامَ الرجلِ بالمسئوليةِ يُنَشِّئُ أبناءَهُ علَىٰ ذلكَ، وحينمَا يرونَ أباهُمْ علَىٰ هذهِ الحالِ، فإنهُمْ سيرثونَ منهُ هذهِ الخصلةَ الجميلةَ.

وكَمْ مِنَ الناسِ مَن يأتِي يشتكِي أبناءَهُ وإهمالَهُم لَهُ، وعدمَ قيامهِمْ بشأنِ الأسرةِ، ولَوْ قلَّبتَ الصفحَاتِ لرأيتَ أنَّهُ قضَىٰ ثلاثةَ أرباعِ حيَاتهِ هاربًا مِنَ البيتِ، والربعَ الآخرَ قضاهُ فِي النَّومِ، أَو نشوبِ المَعَاركِ معَ الزَّوجةِ.

فكيفَ يريدُ أَنْ يجنيَ الثمرَ مَن زرعَ العلقَمَ؟!

يجبُ أَن يشعرَ الأبناءُ بوجودِ الوالدِ، واعلَم أَنَّ المسألةَ دَيْنٌ وَسَلَفٌ، فمَن أهمَلَ أُهملَ، ومَن لَم يزرَع هيبتَهُ فِي قلوبِ الناسِ فلَن تكونَ لَهُ هيبةٌ، ولولَا أنَّهُ قَد حبسَ رجالٌ أنفسَهُم مِن أجلِ تربيةِ أبنائِهِم، لمَا خَلَّفُوا رجالًا يُضرَبُ بِهِم المثلُ.

إنَّ البيوتَ تضجُّ بالمشاكلِ، وتتعالَىٰ منهَا الأنَّاتُ والصرخاتُ، ومَا نتجَ ذلكَ إلَّا بسببِ ضياعِ المسئوليةِ مِن قبَلِ الرجالِ.

أليسَ مِنَ العيبِ أَن تجدَ رجلًا زوَّجهُ أناسٌ ابنتَهُم التِي تعبُوا علَىٰ تربيتِهَا، مِن أجلِ أَن يرفعهَا عَن مواطنِ الرِّيَبِ، وأَن يكونَ بهَا رحيمًا لتأوِي إليهِ فِي هذهِ الحالِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يهملهَا إهمالَ قطعةٍ باليةٍ فِي ركنٍ مَنسِيٍّ.

أليسَ منَ الدينِ والعقلِ أَن يعامِلَ هذهِ المرأةَ كمَا يحبُّ أَن يعامِلَ رجلٌ غريبٌ ابنتَهُ إذَا تزوجهَا؟

كيفَ يسمَحُ رجلٌ -يحترمُ نفسَهُ- أَن يتركَ امرأتَهُ تخرجُ وتدخلُ وكأنهَا أجيرٌ مستهلكٌ، وتقومُ حتَّىٰ بالأعمالِ الشاقةِ، وتغشَىٰ مجتمعاتِ الرجالِ، حتَّىٰ إنهَا لتشتريَ لهُ ملابسهُ الخاصةَ.

إذَن، مَا هوَ دورهُ فِي الحياةِ؟ هَل هوَ مقعدٌ.. مشلولٌ.. مريض؟

لَا.. إنهُ فِي اللهوِ والسهراتِ!

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الحَيَاءُ
إِذَا رُزِقَ الفَتَىٰ وَجهًا وَقاحًا تقلبَ فِي الأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ

وكانَ مِن نَاتِجِ هذَا الإهمالِ أَنْ دفعَ بعضُ الناسِ بنسَائِهِم نحوَ الخطأِ؛ لأنَّهُ يعيشُ معهَا كصديقٍ وليسَ كزوجٍ، فليسَ لهُ دورٌ أبدًا حتَّىٰ فِي الإنفاقِ علَىٰ المنزلِ، وهنَا، إذَا ضعُفَ الدينُ فِي القلوبِ، أدَّىٰ ذلكَ إِلَىٰ الهلاكِ، فإنهُ إذَا تساوَت الشخصياتُ، بدأَت المقارنةُ وتحركَتِ الفتنةُ، قالَت امرأةٌ عاقلةٌ: «مَا مِن امرأةٍ تفرطُ فِي فضيلتهَا إلَّا وهيَ ذنبُ رجلٍ قَد أهملَ فِي واجِبَهِ».

تأمَّلُوا: رجلٌ لَا يجلسُ معهَا، لَا يغذوهَا بالعاطفةِ، رجلٌ لَا تحسُّ بِهِ كرجلٍ تعتمدُ عليهِ، بَلْ هيَ أفضلُ منهُ للبيتِ والأسرةِ!

أليسَ ذلكَ كفيلًا بهدمِ البيوتِ ووقوعِ الانحرافِ، إلَّا لِمَن عصمهُ اللهُ؟!

ومَا هذَا الانحرافُ الذِي ترَونَ إلَّا بسببِ رجلٍ يسهرُ إِلَىٰ الفجرِ لاهيًا عابثًا، والأبناءُ والبناتُ والزوجاتُ لَا رقيبَ ولَا حسيبَ! فحدثَت تلكَ الوقائعُ الموحشةُ.

فليتقِ اللهَ رجلٌ أَن يحلَّ زوجتهُ وأهلَ بيتِهِ دارَ البوارِ.

مخيماتٌ.. ديوانياتٌ.. طلعاتٌ..ومَا المضمونُ؟!

تعليقٌ.. استهزاءٌ.. سخريةٌ!

لَا يُستفادُ قصةٌ مثمرةٌ، ولَا جلسةٌ ممتعةٌ، بَلْ هوَ قتلٌ للوقتِ ليصلَ إِلَىٰ الغدِ فيقتلَهُ كمَا قتلَ اليومَ والأمسَ قبلهُ.

فكيفَ إذَا كانَت هذهِ المجالسُ شماتةً فِي أعراضِ المسلمينَ، وخوضًا فيمَا سترهُ اللهُ عليهِم؟

لقَدْ حبسَ أهلُنَا أنفسَهُم لأجلنَا، حتَّىٰ ننشأَ مُتحَمِّلينَ مسئوليةَ أنفُسِنَا ومَن ولَّانَا اللهُ

عليهِ، فإذَا أردنَا العدلَ والإنصافَ والواقعَ الذِي لَا يجادلُ فيهِ أحدٌ، فلا بُدَّ أَن نحبسَ أنفسنَا يسيرًا لنُخرجَ جيلًا يستطيعُ أَن يواجهَ هذهِ الحياةَ، ومَا تحتويهِ مِن المفاجآتِ المذهلةِ فِي خِضَمِّ هذهِ الأحداثِ المؤلمةِ.

وإنَّمَا الأمرُ اعتيادٌ، كمَا قيلَ:

صَبرتُ علَىٰ الأيَّامِ حتَّىٰ تولَّتِ ... وألزمْتُ نفسِي صَبرَهَا فاسْتمرَّتِ

ومَا النَّفسُ إلَّا حيثُ يجعلُهَا الفتَىٰ ... فإنْ أُطمِعَت تاقَت وإلَّا تسلَّتِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(١).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فاهتمُّوا بشأنِ النسَاءِ فِي البيوتِ، وليتقِ اللهَ رجلٌ فِي امرأتِهِ التِي مَلَّكهُ اللهُ أمرَهَا.

لابدَّ أَن تشعرَ المرأةُ أنَّ زوجَهَا رجلٌ يقومُ بالمسئوليةِ، ولَا نتصورُ التصوُّرَ الخاطئَ أنَّنا نعنِي بالمسئوليةِ أنهُ لَو أعطاهَا المالَ لَانتهَىٰ دورُهُ.

لَا، فالمسألةُ ليسَت مالًا فقَط، بَل رجلٌ يَقُومُ بواجبِهِ.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

ثمَّ اعلمُوا أنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أوصَىٰ بالنساءِ فقالَ: «**استوصُوا بالنساءِ خيرًا فإنهنَّ عوانٌ عندكُم**»[1]، أَي: أسيراتٌ.

فلتحسِن إليهَا مَا استطعتَ، يُخلِف اللهُ لكَ خيرًا فِي الدنيَا والآخرةِ.

ألَا ترَىٰ افتعالَ بعضِ النساءِ للمشاكلِ؟!

إنهَا تفتقدُ رجلًا يحسُّ بهَا، وأعظمُ مَا تحتاجهُ رجلًا يخافُ اللهَ فيهَا ويغرقُهَا بالعاطفةِ، لأنهَا فِي زمنٍ يُسمَعُ فيهِ مَا يسلبُ العقولَ، وهوَ بينَ أمرينِ بيَّنهمَا لهُ الشارعُ الحكيمُ: إمَّا أَن يعاملهَا بالمحبةِ، فإِن لَم يكُن ثمَّ محبَّة عاملهَا بالرحمَةِ، كمَا قالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[2].

وليتقِ اللهَ أَن يكونَ لهَا فتنةً، فقَد لَا تكونُ قَد أخذتهُ إلَّا مِن أجلِ دينهِ واستقامتهِ، فلَا يسيءُ لهَا مِن حيثُ أحسنَت.

ولَا نقولُ: النساءُ لَا يُطَقْنَ، وهُنَّ البلاءُ، فكمَا يوجدُ هذَا الصنفُ مِنَ النساءِ، يوجدُ أضعافُ ذلكِ فِي الرجالِ.

ومَا كانَ هذَا التدهورُ إلَّا بسببِ ضعفِ المسئوليةِ، التِي بدأهَا الأبُ المريضُ، وأكملَ فصولهَا الزوجُ المستهترُ.

وعلَىٰ الرجلِ أَن يكونَ منفقًا علَىٰ المرأةِ؛ لأنَّ صلاحَ المرأةِ بأَن تكونَ هيَ اليدَ الآخذةَ لَا المُعطيةَ، فإذَا كانَت هيَ التِي تعطِي فقَد تبدلَّتِ الأدوارُ أَو تساوَت، وأخرجهَا ذلكَ عَن فطرتهَا.

والرجلُ لَا يمدُّ يدَهُ لامرأتهِ مَا استطاعَ إلَىٰ ذلكَ سبيلًا، حتَّىٰ تبقَىٰ هيَ المحتاجةُ

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٣٠).

(٢) سورة الروم:٢١.

إليهِ، فهوَ شعورٌ كامنٌ فِي الرجُلِ أنهُ يحبُّ أَن يكونَ مُحتاجًا إليهِ، وإحساسٌ فِي داخلهَا مِن أنهَا تحبُّ أَن تكونَ مُحتاجَةً إلَىٰ زوجِهَا حتَّىٰ وإِن كانَت ذاتَ مالٍ، ليسَ مِن بابِ الشُّحِّ علَىٰ المالِ، فالواقعُ يشهدُ أَنَّ المرأةَ ليسَت حريصةً علَىٰ المالِ، ولكِنْ سعادتَهَا فِي شعورهَا أنهَا ضعيفةٌ محتاجةٌ إلَىٰ رجلٍ.

وأنتَ مأجُورٌ علَىٰ كلِّ حالٍ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكَ لَن تنفقَ نفقةً تبتغِي بهَا وجهَ اللهِ إلَّا أُجرتَ عليهَا، حتَّىٰ مَا تجعلهُ فِي فَمِ امرَأتكَ**»(١).

هذَا، واتقُوا اللهَ فِي أولادكُم، قومُوا بواجباتهِم وأهمُّهَا إغراقُهُم بالمحبةِ والعاطفةِ، والتعاملُ معهُم بشفافيةٍ، وأعينوهُم علَىٰ البرِّ، فرحمَ اللهُ والدًا أعانَ ولدَهُ علَىٰ برِّهِ.

تواجدُوا أمامَهُم، أشعروهُم بالمسئوليةِ والارتباطِ بِكُم، ووسِّعُوا عليهِم ممَّا وسَّعَ اللهُ عليكُم، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضلُ دينارٍ ينفقهُ الرجلُ دينارٌ ينفقهُ علَىٰ عيالهِ**»(٢)، **وقالَ حمَّادٌ**: «رأيتُ أيوبَ السختيانيَّ لَا ينصرفُ مِن السوقِ إلَّا ومعهُ شيءٌ يحملهُ لعيالهِ، حتَّىٰ رأيتَ قارورَةَ الدهنِ بيدهِ يحملهَا، فقلتُ لهُ فِي ذلكَ فقالَ: إنِّي سمعتُ الحسنَ يقولُ: إنَّ المؤمنَ قَد أخذَ عَنِ اللهِ أدبًا حسنًا، فإذَا وُسِّعَ عليهِ أوسعَ».

هذَا، واعلَمُوا أنَّ أعظمَ مسئوليةٍ تجاهَ أهلِ البيتِ منَ الزوجاتِ والأبناءِ ومَن تحتَ يدكَ وسلطانكَ: أَن تقيمَهُم علَىٰ طاعةِ اللهِ وتأمرهُم بهَا، وتنهاهُم عَن كلِّ معصيةٍ وسوءٍ، وإياكَ أَن تفسدَ دينكَ بصَلاحِ دنيَا غيرِكَ، **قالَ سفيانُ الثوريُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يؤمرُ بالرجلِ يومَ القيامةِ، فيقالُ: هذَا عيالهُ أكلُوا حسناتهُ».

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (٣٠٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٦٦٠).

(٣) سورة الفرقان: ٧٤.

(١٤) الأدبُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحمدُ للهِ الذِي لهُ مَا فِي السمواتِ ومَا فِي الأرضِ، ولهُ الحمدُ فِي الآخرةِ وهوَ الحكيمُ الخبيرُ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ مَا أولاهُ مِن الإنعامِ والإكرامِ والخيرِ الكثيرِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ السراجُ المنيرُ، والبشيرُ النذيرُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَن علَىٰ سبيلهِ إلَىٰ اللهِ يسيرُ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد كانَت الأرضُ قبلَ بعثةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليطًا مِنَ الشِّركِ والجهلِ، وحياةً مليئةً بالخوفِ والرعبِ، يتعاملُ الناسُ كوحوشِ الغابِ التِي تبحثُ عَن فريسةٍ فإذَا رأتهَا انقضَّت عليهَا دونَ رحمةٍ أَو رأفةٍ.

وقَد خيَّمَ الجهلُ بينَ فئاتِ ذلكَ المجتمعِ وضربَ بينهُم بأطنابهِ، فباتُوا يتخبَّطونَ فِي ظُلماتِ الشركِ، ويتساقطونَ فِي الهُوَّةِ تلوَ الهوةِ، يتلمَّسونَ سبيلَ النجاةِ ولكِن لَا نجاةَ.

فلمَّا أَن أرادَ اللهُ بهِم خيرًا بعثَ نبيَّهُ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ بشيرًا ونذيرًا، فكانَ مبعثُهُ رحمةً للعالمينَ، فأشرقَتِ الأرضُ بعدَ إظلامِهَا، ولبسَت ثوبَ الأنسِ والسرورِ، وصارَ مَن اتَّبعهُ آنسَ الناسِ قلبًا وأشرحَهُم صدرًا، وأسعدَهُم عيشًا، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

---

(١) سورة الأنبياء:١٠٧.

وقَد كانَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ناصحًا لأمتِهِ، رحيمًا بِهِم، حريصًا عَلَىٰ تعليمِهِم مَا ينفعهُم، شفيقًا عليهِم، مَا تركَ طريقَ خيرٍ إِلَّا دلَّهُم عليهِ، وَلَا طريقَ شرٍّ إِلَّا حَذَّرهُم منهُ.

هذَا وإنَّ حقوقَ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علَىٰ أمتِهِ كثيرةٌ لَا يكادُ يُحصِيهَا عادٌّ، ولَا يستطيعُ وصفَهَا واصفٌ، ولكِنْ حسبُنَا أَن نشيرَ إِلَىٰ ذلكَ إشاراتٍ تدلُّ علَىٰ مَا بعدهَا، ونذكرُ أهمَّ مَا يجبُ أَن يُتَّصفَ بِهِ مِنَ الأدبِ نحوَ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فمِن أعظمِ الآدابِ التِي يجبُ أَن يتصفَ بهَا المسلمُ نحوَ نبيِّهِ الكريمِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَن يستَشعِرَ محبتَهُ؛ لأنَّ محبةَ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصلٌ عظيمٌ مِن أصولِ الدينِ، ولَا إيمانَ لمَن لَم يكُنِ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحبَّ إليهِ مِن ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعينَ، قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يؤمنُ أحدكُم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليهِ مِن والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعينَ**»(١).

وقَد قالَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَا رسولَ اللهِ، لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نفسِي، فقالَ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **لَا والذِي نفسِي بيدِهِ، حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليكَ مِن نفسِكَ. فقالَ عمرُ: فإنهُ الآنَ واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن نفسِي، فقالَ النبيُّ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **الآنَ يَا عمرُ**»(٢)؛ أَي: الآنَ عرفتَ فنطقتَ بمَا يجبُ.

مِن أجلِ ذلكَ فقَد ضربَ الصحابةُ أروعَ الأمثلةِ فِي محبةِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِمَا رأوهُ مِن عظيمِ نعمةِ اللهِ عليهِم بأَن بعثَهُ لهُم ومَن بعدَهُم رحمةً ورأفةً.

فقَد سُئِلَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كيفَ كانَ حبكُم لرسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فقالَ: كانَ واللهِ أحبَّ إلينَا مِن أموالنَا وأولادنَا وآبائنَا وأمهاتنَا، ومِنَ الماءِ الباردِ علَىٰ الظمأِ».

ولمَّا أسَرَ مشركُو مكةَ زيدَ بنَ الدَّثِنةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عمدُوا إِلَىٰ قتلِهِ، فأخرجوهُ خارجَ

---

(١) رواه البخاري (١٤)، ومسلم (٦٣).

(٢) رواه البخاري (٦١٤٢).

الحرمِ، فسألهُ أبُو سفيانَ -وكانَ يومئذٍ مشركًا-: أنشدُكَ باللهِ يَا زيدُ: أتحبُّ أَنَّ محمَّدًا الآنَ عندنَا مكانكَ تُضرَبُ عنقُهُ وإنكَ فِي أهلكَ؟

فقالَ: واللهِ مَا أحبُّ أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآنَ فِي مكانهِ الذِي هوَ فيهِ تصيبهُ شوكةٌ تؤذيهِ وإنِّي جالسٌ فِي أهلِي، فقالَ أبُو سفيانَ: مَا رأيتُ مِنَ الناسِ أحدًا يحبُّ أحدًا كحبِّ أصحابِ محمَّدٍ محمَّدًا.

وهكذَا كانَ حالُ التابعينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، مِن عظيمِ مَحبَّتهِم وشوقِهِم إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذَا ذكرَ حديثَ حنينِ الجذعِ وبكائهِ علَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخذهُ منبرًا وأرادَ التحولَ عنهُ فبكَىٰ الجذعُ، فيقولُ الحسنُ: «يَا معشرَ المسلمينَ، الخشبةُ تحنُّ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شوقًا إلَىٰ لقائهِ، فأنتُم أحقُّ أَن تشتاقُوا إليهِ».

وسئلَ مالكٌ عَنِ الإمامِ أيوبَ السِّختيانيِّ فقالَ: «كانَ إذَا ذُكِرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكَىٰ حتَّىٰ أرحَمهُ، فلمَّا رأيتُ منهُ مَا رأيتُ، وإجلالهُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبتُ عنهُ».

وجاءَ عَن عامرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ: أنَّهُ إذَا ذُكرَ عندهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكَىٰ حتَّىٰ لَا يبقَىٰ فِي عينهِ دموعٌ.

ومنَ الأدبِ معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تصديقُهُ فيمَا أخبرَ بهِ، قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فرأسُ الأدبِ معَ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمالُ التسليمِ لهُ والانقيادِ لأمرهِ وتلقِّي خبرِهِ بالقبولِ والتصديقِ»، وهذَا مِن أصولِ الإيمانِ وركائزِهِ الدينيةِ، والكفرُ اتهامُهُ وتكذيبهُ فيمَا أخبرَ، قالَ تعالَىٰ: **﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾**[1].

---

(١) سورة النجم:١-٤.

كمَا أنَّ مِنَ الأدَبِ معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طاعتَهُ فيمَا أمرَ بهِ، وقَد جاءَ أمرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي وجوبِ طاعةِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آياتٍ كثيرةٍ، منهَا قولهُ تعالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾(١).

ومنَ الأدبِ معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التأدبُ عندَ ذكرهِ، فلَا يُذكَرُ اسمهُ مجرَّدًا، بَل يُقرَنُ بالصلاةِ والسلامِ عليهِ، سواءٌ كانَ لفظًا أَو كتابةً، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَغِمَ أنفُ امرئٍ ذُكرتُ عندهُ فلَم يُصَلِّ عليَّ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَخيلُ مَن ذُكِرتُ عندهُ فلَم يُصَلِّ عَليَّ**»(٣)، وفِي هذَا إطلاقُ صفةِ الذمِّ والدعاءِ علَىٰ مَن لَم يُصَلِّ عَلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ يذكرُ، ومِن هنَا ندركُ الخطأَ الذِي يفعلهُ بعضُ الكتابِ حينَ يذكرُ اسمَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكتبُ بعدهُ (ص) أَو (صلعم)، وَهُوَ قَصَدَ بذلكَ اختصارَ لفظِ الصلاةِ والسلامِ علَىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ مثلَ هذَا الفعلِ يُعدُّ نوعًا منَ الجفاءِ، كمَا أَنَّ تركَ الصلاةِ عليهِ علَىٰ مَا وردَ فيهَا مِنَ الذمِّ، فإنَّ تاركهَا كذلكَ قَد فاتهُ الأجرَ المترتبَ علَىٰ ذكرهَا، والذِي دلَّ عليهِ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن صلَّىٰ عليَّ صلاةً؛ صلَّىٰ اللهُ عليهِ بهَا عشرًا**»(٤).

ومنَ الأدبِ معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: توقيرُ سُنَّتِهِ ومَا جاءَ عنهُ منَ السننِ والأخبارِ، وأعظمُ دلائلِ ذلكَ التحاكُمُ إلَىٰ سنتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّ ذلكَ مِن أصولِ الاتباعِ، ولَا إيمانَ لمَن لَم يتحاكَم إلَىٰ سنةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعرضَ عَن هديهِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ

(١) سورة النساء: ٨٠.
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥).
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦).
(٤) رواه مسلم (٥٥٧).

﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلُّ مَن خرجَ عَن سنةِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشريعتِهِ، فقَد أقسمَ اللهُ بنفسِهِ المقدسةِ أنَّهُ لَا يؤمنُ حتَّىٰ يرضَىٰ بحكمِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جميعِ مَا شجرَ بينهُم مِن أمورِ الدينِ أَوِ الدنيَا، وحتَّىٰ لَا يبقَىٰ فِي قلوبِهِم حرجٌ مِن حكمِهِ».

وَمِن دلائلِ توقيرِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: توقيرُ سنتِهِ حينَ التحدثِ بهَا، وقَد ضربَ السلفُ فِي ذلكَ أجملَ الأمثلةِ وأروعهَا فيمَا جاءَ عنهُم مِن تعظيمِ سنةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوقيرِ حديثِهِ، قالَ عمرُو بنُ ميمونٍ: «اختلفتُ إِلَىٰ ابنِ مسعودٍ سنةً، فمَا سمعتهُ يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا أنهُ حدَّثَ يومًا فجرَىٰ علَىٰ لسانِهِ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنظرتُ إليهِ وَقَد حلَّ إزارَهُ وانتفخَت أوداجُهُ، واغرورقَت عيناهُ، فقالَ: أَو نَحو ذلكَ، أَو دونَ، أو قريبًا مِن ذلكَ».

وقالَ أَبُو الزنادِ: «كانَ سعيدُ بنُ المسيبِ وهوَ مريضٌ يقولُ: أقعدونِي، فإنِّي أُعْظِمُ أَن أحدِّثَ حديثَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنَا مضطجعٌ».

وقالَ أبُو سلمةَ الخزاعيُّ: كانَ مالكُ بنُ أنسٍ إذَا أرادَ أَن يخرجَ يحدِّثُ، توضأَ وضوءَهُ للصلاةِ، ولبسَ أحسنَ ثيابِهُ، ومشَّطَ لحيتَهُ، فقيلَ لهُ فِي ذلكَ، فقالَ: أوقِّرُ بِهِ حديثَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ محمدُ بنُ سيرينَ يتحدثُ فيضحكُ، فإذَا جاءَ الحديثُ خشعَ.

فأينَ هذهِ السيرةُ العطرةُ مِن أناسٍ قلَّ توقيرُ السنةِ فِي قلوبِهِم، فمنهُم مَن يلغُو ويرفعُ صوتَهُ إذَا ذكرَ الحديثُ، ومنهُم مَن يردُّ مَا فيهِ لشُبهٍ عقليةٍ، ومنهُم مَن يردُّ

---

(١) سورة النساء:٦٥.

الحديثَ لمخالفتهِ العقلِ أَو لعدمِ تمشيهِ معَ الواقعِ، أَو أنهُ يُكثرُ التأويلَ وعسفَ الأحاديثِ حتَّىٰ توافقَ مَا نشأَ عليهِ منَ الأفكارِ أَو الاتجاهاتِ.

فالواجبُ علَىٰ المُسلمِ تَعظيمُ السنَّةِ، وتقديمُهَا علَىٰ كلِّ قولٍ مهمَا كانَ صاحبُهُ، لأنَّ المسلمَ مأمورٌ باتباعِ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا اتباعِ غيرهِ مِنَ الناسِ.

قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمعَ العلماءُ علَىٰ أنَّ مَنِ استبانَت لهُ سنةٌ عَن رسولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يكُن لهُ أَن يدعهَا لقولِ أحدٍ كائنًا مَن كانَ».

وقالَ الحُمَيديُّ: كنَّا عندَ الشافعيِّ، فأتاهُ رجلٌ فسألهُ فِي مسألةٍ؟ فقالَ: قضَىٰ فيهَا رسولُ اللهِ كذَا وكذَا، فقالَ الرجلُ: مَا تقولُ أنتَ؟ فقالَ: سبحانَ اللهِ ترانِي فِي كنيسةٍ؟ ترانِي فِي بيعةٍ؟ ترَىٰ علَىٰ وسطِي زُنَّارًا؟ أقولُ لكَ: قضَىٰ فيهَا رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتَ تقولُ: مَا تقولُ أنتَ؟!

قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنَ الأدبِ معهُ أَلَّا يُستَشْكَلَ قولهُ، بَل تستشكلَ الآراءُ لقولهِ، ولَا يُعارَضُ نصُّهُ بقياسٍ، بَل تُهدرُ الأقيسةُ وتُلقَىٰ لنصوصهِ، ولَا يحرَّفُ كلامُهُ عَن حقيقتهِ لخيالٍ يسميهِ أصحابهُ معقولًا...، ولَا يوقفُ مَا جاءَ بهِ علَىٰ موافقةِ أحدٍ، فكلُّ هذَا مِن قلةِ الأدبِ معهُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَل هوَ عينُ الجرأةِ».

ومِن تمامِ الأدبِ معهُ: الحرصُ علَىٰ نشرِ سُنتهِ وتعليمِهَا وتبليغهَا، فإنَّ هذَا بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ البرِّ، ودليلٌ علَىٰ محبةِ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَا فيهِ مِنَ السعيِ فِي إعلاءِ سنتهِ، ونشرِ هديهِ بينَ الناسِ، وقَد دعَا النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَن سمعَ حديثهُ فبلَّغَهُ غيرَهُ فقالَ: «**نضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ منَّا شيئًا فبلَّغَهُ كمَا سمعهُ، فرُبَّ مبلَّغٍ أوعَىٰ مِن سامعٍ**»(١).

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٠).

قالَ سُفيَانُ بنُ عيينةَ: لَا تجدُ أحدًا مِن أهلِ الحديثِ إلَّا فِي وجهِهِ نَضْرَةٌ؛ لدعوةِ النبيِّ ﷺ.

وقالَ الشافعيُّ: إذَا رأيتُ رجلًا مِن أصحابِ الحديثِ فكأنِّي رأيتُ رجلًا مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ، جزاهُمُ اللهُ خيرًا، حفظُوا لنَا الأصلَ، فلهُم علينَا الفضلُ.

فنَشْرُ السنَّةِ نشرٌ للدينِ، وبقدرِ مَا يقومُ مِنَ السننِ بقدرِ مَا يموتُ مِنَ البدعِ حتَّىٰ يبقَىٰ الناسُ علَىٰ الهديِ الأوَّلِ لَا تشوبُ دينَهُم شائبةٌ، ولَا ينالهُ تبديلٌ أَو تغييرٌ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ القويِّ المتينِ، الملكِ الحقِّ المبينِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ، سيدُ المرسلينَ وإمامُ المتقينَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ، وعلَىٰ التابعينَ لهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعظمِ الآدابِ معَ النبيِّ ﷺ: الذبُّ عنهُ وعَن سنتهِ، فإنَّ هذَا دليلٌ علَىٰ قوةِ الإيمانِ، وهوَ مِن أعظمِ الجهادِ، وعلامةٌ علَىٰ صدقِ المحبةِ والإجلالِ لهُ ﷺ، فلا بُدَّ للمسلمِ القادرِ العالمِ بالسنَّةِ أَن يتصدَىٰ لحملاتِ المغرضينَ والمنافقينَ الذينَ يبثُّونَ سمومَهُم ليلَ نهارٍ، يريدونَ أَن يحرفُوا المسلمينَ عَن عقيدتهِم وتمسكهِم، ولعلَّ مَن جاهدَ هؤلاءِ وقامَ بدَحضِ شُبَهِهِم أَن يشملَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالرَّحمةِ، وأَن يحفظَ عليهِ دينَهُ فِي أزمانِ الفتنِ.

تأمَّلْ يَا عبدَ اللهِ: كانَ النبيُّ ﷺ يسيرُ علَىٰ راحلتهِ، فكادَ أَن يسقطَ منهَا

ثلاثَ مراتٍ بسببِ النومِ، وكانَ أبُو قتادةَ يدعَمُهُ حتَّىٰ لَا يسقطُ، فقالَ لهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حفظكَ اللهُ بمَا حفظتَ بهِ نبيَّهُ**»(١).

وحفْظُ سنةِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذبُّ عنهَا بعدَ موتهِ كالذبِّ عنهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حياتهِ، فمَن أرادَ اللهُ بهِ خيرًا وفَّقهُ لهذَا الفضلِ وخَصَّهُ بهِ.

وقَد ضربَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعظمَ الأساطيرِ فِي ذبِّهم عنِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فللهِ دَرُّهُم مَا أعظمهُم.

قالَ قيسُ بنُ حازمٍ: رأيتُ يدَ طلحةَ شلَّاءَ، وقَىٰ بهَا النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ أحدٍ.

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يَذُبَّ عَن نبيِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَن سنتهِ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ الشرفُ.

ويدخلُ فِي الذبِّ عنهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الذَّبُّ عَن زوجَاتهِ أمهاتِ المؤمنينَ؛ لأنهنَّ فراشُهُ وعفَّتُهُ، والوقيعةُ فِي زوجاتِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتهامهنَّ بالباطلِ مِن أعظمِ الإيذاءِ لهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا سيَّمَا مَنَ طعنَ عائشةَ بالفاحشةِ والإفكِ؛ فإنهُ كافرٌ باللهِ العظيمِ؛ لأنَّهُ طعنهَا فيمَا برَّأهَا اللهُ منهُ، كمَا أنَّ هذا طعنٌ فِي عرضِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ الإمامُ مالكٌ: مَن سبَّ عائشةَ قُتلَ، قيلَ لهُ: لمَ؟ قالَ: مَن رماهَا فقَد خالفَ القرآنَ.

إنَّ مِن أعظمِ أسبابِ السعادةِ للمسلمِ: اهتمامَهُ بهذَا البابِ العظيمِ الذِي يتحدثُ عَنِ الأدبِ معَ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهُ مِن أعظمِ أبوابِ الخيرِ، والموفقُ مَن وفَّقهُ اللهُ إلَىٰ الأخذِ بهِ وتتبعِ أسبابهِ ودواعيهِ.

جعلنَا اللهُ وإياكُم منَ الداعينَ إلَىٰ السنَّةِ الغراءِ، السائرينَ علَىٰ المحجةِ البيضاءِ، ونسألُ اللهَ أَن يوفقنَا لاتباعِ نبيهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَن يجنبنَا البدعَ والفتنَ والأهواءَ.

---

(١) رواه مسلم (١٠٩٩).

(١٥) فضائلُ الصحابةِ

الحمدُ للهِ القويِّ المتينِ، أحمدهُ وأشكرهُ، وأتوبُ إليهِ وأستغفرهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، ينصرُ المؤمنينَ بفضلهِ، مَا أخلصُوا لهُ النيَّةَ وأقامُوا لهُ الدينَ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، سيِّدُ المجاهدينَ، وإمامُ الشجعانِ المُقاتلينَ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ عليهِ، وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ الذينَ باعُوا أنفسَهُم للهِ فكانُوا منَ المهتدينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الحديثَ عَن ذَوِي الفضَائلِ ممَّا تبتهجُ بذِكرهِ النفوسُ، وتستلذُّ بسماعهِ الآذانُ، وترتوِي بجمالهِ القلوبُ، حتَّىٰ يكونَ كالسيلِ المتدفقِ علَىٰ الصحراءِ القاحلةِ، فترجعُ بعدهُ مروجًا وأنهارًا.

وإنَّ مِن أعظمِ الناسِ فضلًا، صحابةَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذينَ بلغُوا مراتبَ الكمالِ، واهتدَىٰ بهِمُ الضُّلَّالُ، واختصَّهُمُ اللهُ بأعظمِ الفضائلِ وأطيبِ الخصالِ، وفتحَ عليهِم منَ الدينِ والأخلاقِ مَا يعجزُ عنهُ وصفُ واصفٍ، وينقطعُ عندَهُ كلُّ حديثٍ، لِمَا علمَ اللهُ مَا فِي قلوبهِم منَ النقاءِ والطهارةِ والصدقِ والإقدامِ.

وَمَا وُجِد خُلقٌ إلَّا وقَد أخذَ منهُ الصحابةُ الحظَّ الأوفرَ، وسبقُوا إليهِ سبقًا يُتعِبُ مَن بعدهِم أَن يلحقَ بركبانهِم.

فمَا بالُكَ بأُناسٍ يحبُّونَ الآخرةَ كمَا يُحبُّ غيرهُمُ الدنيَا، فهَل سيوجدُ مَن هوَ أجمعُ لمكارمِ الأخلاقِ منهُم؟!

ومَا كانَ اللهُ تعالَىٰ ليختَارَهُم لصحبةِ نبيِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويخصَّهُم بهذَا الفضلِ

العظيمِ، إلَّا لعلمِهِ سبحانَهُ أنهُم أهلٌ لهُ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ اللهَ نظرَ فِي قلوبِ العبادِ، فوجدَ قلبَ محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيرَ قلوبِ العبادِ، فاصطفاهُ لنفسهِ، وابتعثهُ برسالتهِ، ثمَّ نظرَ فِي قلوبِ العبادِ بعدَ قلبِ محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فوجدَ قلوبَ أصحابهِ خيرَ قلوبِ العبادِ فجعلَهُم وزراءَ نبيهِ، يقاتلونَ علَىٰ دينهِ».

وهكذَا كانُوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فقَد صارُوا مناراتِ هدًىٰ، وشموسًا أضاءَت الأرَضِينَ، وأحْيَوا بسيرتهِم قلوبًا ميتةً، ونشطَت بعلومهِم نفوسٌ مريضةٌ.

أُولَـئِكَ أَصـحَابُ النَّبِـيِّ وَحِـزبُـهُ ... وَلَـولَاهُمُ مَـا كَـانَ فِـي الأَرضِ مُـسلِمُ

وَلَـولَاهُمُ كَـادَت تَمِـيدُ بِأَهلِهَـا ... وَلَكِـنْ رَوَاسِـيهَا وَأَوتَادُهَـا هُـمُ

وَلَـولَاهُمُ كَانَـت ظَلَامًـا بِأَهلِـهَـا ... وَلَكِـنْ هُـمُ فِيـهَا بُـدُورٌ وَأَنجُـمُ

وَقَد جزاهمُ اللهُ تعالَىٰ بصبرهِم رِفعةً وسؤددًا، وبَوَّأَهُم منزلةً لَا تنبغِي لأحدٍ مِن بعدهِم، حتَّىٰ جعلَ حُبَّهُم ميزانًا للإيمانِ، وبُغضَهُم علامةً علَىٰ النفاقِ، ومَن صَبرَ صبرَهُم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؟

بُعثَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحيدًا فريدًا، فآوَوْهُ ونصرُوهُ، وصارُوا لهُ حصنًا منيعًا، إيمانًا بهِ وتصديقًا، وحَمَوهُ مِن عَدَاءِ الكفارِ والمنافقينَ، وهُم يُتَخطَّفونَ ليلَ نهارَ، ويُعَالجونَ مكرَ الأممِ مِن حولهِم، يودُّ أحدُهُم أَن يُنشرَ بالمناشيرِ علَىٰ ألَّا يُشاكَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشوكةٍ تؤذيهِ.

وكَم مَسَّهُم منَ الجوعِ والابتلاءِ والضيقِ فِي كثيرٍ منَ المواطنِ، حتَّىٰ ضاقَت عليهِمُ الأرضُ بمَا رحُبَت، وهُم فِي كلِّ يومٍ يزدادونَ صبرًا ويقينًا وثباتًا، تقديمًا للآجلةِ الباقيةِ، علَىٰ العاجلةِ الفانيةِ.

لقَد مكثَ النبيُّ ﷺ بمكةَ عشرَ سنينَ يتتبعُ الناسَ فِي منازلِهم، وينادِي فِي المواسمِ: مَن يؤويني، مَن ينصرني، حتَّىٰ أبلِّغَ رسالةَ ربِّي ولهُ الجنةُ، فلَا يجدُ أحدًا يُؤويهِ أَو ينصرهُ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليخرجُ مِنَ اليمنِ فيأتيهِ قومُهُ ويوصونَهُ ويقولونَ: احذَر غلامَ قريشٍ لَا يفْتِنْكَ، ويمضِي بينَ رحالِهم وهُم يشيرونَ إليهِ بالأصابعِ، حتَّىٰ دخلَ قومٌ مِن أهلِ المدينةِ فِي الإسلامِ، فكانَ الرجلُ يخرجُ إلَىٰ النبيِّ ﷺ، ويرجعُ إلَىٰ أهلهِ فيدعوهُم، فيُسلمونَ بإسلامهِ، حتَّىٰ لَم تبقَ دارٌ مِن دورِ الأنصارِ إلَّا وفيهَا جماعةٌ يُظهِرُونَ الإسلامَ.

ثمَّ لمَّا طالَ الأمرُ، اجتمعَ أهلُ المدينةِ فقالُوا: حتَّىٰ متَىٰ نتركُ رسولَ اللهِ ﷺ يطوفُ ويطردُ فِي جبالِ مكةَ ويُخافُ؟

فرحلَ إليهِ سبعونَ رجلًا حتَّىٰ قدمُوا عليهِ فِي الموسمِ فبايعوهُ بيعةَ العقبةِ، وكانَ ممَّا بايعهُم عليهِ ﷺ: أَن ينصُروهُ إذَا قدمَ عليهِم ويحموهُ ممَّا يحمونَ منهُ أنفسَهُم وأزواجَهُم وأبناءَهُم ولهُمُ الجنةَ، وهذَا يعنِي أنَّهُم يبايعونَ النبيَّ ﷺ علَىٰ حمايتهِ فِي ديارِهم، أمَّا خارجَ المدينةِ فلَا يُلزمونَ بذلكَ.

فقامَ أسعدُ بنُ زرارةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وقَد كانَ أصغرَ القومِ- فقالَ: رويدًا يَا قوم، فإنَّا لَم نضرِب إليهِ أكبادَ الإبلِ، إلَّا ونحنُ نعلمُ أنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ، وأنَّ إخراجَهُ اليومَ، مناوأةٌ للعربِ كافَّةً، وقتْلُ خيارِكُم، وأَنْ تعضَّكُمُ السيوفُ، فإمَّا أنتُم قومٌ تصبرونَ علَىٰ ذلكَ، فخذوهُ وأجركُم علَىٰ اللهِ، وإمَّا أنتُم قومٌ تخافونَ علَىٰ أنفسِكُم خيفةً، فذروهُ، وبيِّنوا ذلكَ، فهوَ أعذرُ لكُم عندَ اللهِ، فقالُوا: أخِّر عنَّا يَا أسعدُ، فواللهِ لَا ندعُ هذهِ البيعةَ ولَا نسلبهَا أبدًا. فقامُوا إليهِ فبايعوهُ، وأخذَ عليهمُ الشرطَ، ويعطيهِم علَىٰ ذلكَ الجنةَ.

فلمَّا كانَت غزوةُ بدرٍ، خرجَ النبيُّ ﷺ يريدُ قافلةً لقريشٍ، فلمَّا سمعَت

قريشٌ بذلكَ، خرجَت لحربِ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا أتَىٰ النبيَّ خبرُ خروجِ قريشٍ ليحمُوا مالَهُم، استشارَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابَهُ، فقامَ أبُو بكرٍ فقالَ وأحسنَ، ثمَّ قامَ عمرُ بنُ الخطَّابِ فقالَ وأحسنَ، ثمَّ قامَ المقدادُ بنُ عمرٍو وقالَ: يَا رسولَ اللهِ، امضِ لمَا أراكَ اللهُ فنحنُ معكَ، واللهِ لَا نقولُ لكَ كمَا قالَت بنُو إسرائيلَ لموسَىٰ: اذهَب أنتَ وربُّكَ فقاتلَا إنَّا هاهنَا قاعدونَ، ولكِنِ اذهَب أنتَ وربكَ فقاتلَا إنَّا معكمَا مقاتلونَ، والذِي بعثكَ بالحقِّ لَو سرتَ بنَا إلَىٰ بَرَكِ الغمادِ (وهوَ مَوضِعٌ باليمنِ) لجالدنَا معكَ مِن دونهِ حتَّىٰ تبلغَهُ، فقالَ لهُ الرسولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيرًا ودعَا لهُ.

ثمَّ قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أشِيرُوا عليَّ أيُّهَا الناسُ**»، وإنمَا كانَ يعنِي الأنصارَ، لأنهُ أخذَ عليهِم العهدَ بحمايتهِ داخلَ المدينةِ فتخوَّفَ ألَّا ينصروهُ علَىٰ عدوِّهِ؛ لأنهُ كانَ خارجَ المدينةِ.

فلمَّا قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلكَ، قالَ لهُ سعدُ بنُ معاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهوَ سيِّدُ قومهِ: واللهِ لكأنَّكَ تريدنَا يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**أجَل**»، قالَ: لقَد آمنَّا بكَ وصدقناكَ، وشهدنَا أَنَّ مَا جئتَ بهِ هوَ الحقُّ، وأعطيناكَ علَىٰ ذلكَ عهودنَا ومواثيقنَا علَىٰ السمعِ والطاعةِ، فامضِ يَا رسولَ اللهِ لمَا أردتَ فنحنُ معكَ، فوالذِي بعثكَ بالحقِّ، لَوِ استعرضتَ بنَا هذَا البحرَ فخضتهُ لخضناهُ معكَ، مَا تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحدٌ، ومَا نكرهُ أَن تلقَىٰ بنَا عدوَّنَا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ فِي الحربِ، صُدُقٌ فِي اللِّقاءِ، ولعلَّ اللهَ يُريكَ منَّا مَا تقرُّ بهِ عينُكَ، فَسِرْ بنَا علَىٰ بركةِ اللهِ.

فسُرَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقولِ سعدٍ ونشَّطهُ ذلكَ، ثمَّ قالَ: «**سيرُوا وأبشرُوا، فإنَّ اللهَ قَد وعدنِي إحدَىٰ الطائفتينِ، واللهِ لكأنِّي أنظرُ إلَىٰ مَصارعِ القومِ**».

ولمَّا جاءَت غنائمُ غزوةِ حُنينٍ للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بدأَ بالأموالِ فقسَّمَهَا بينَ

قريشٍ وقبائلَ مِنَ العربِ، تأليفًا لقلوبهِم علَىٰ الإسلامِ، ولَم يكُن للأنصارِ منهَا شيءٌ، فوجدَ الأنصارُ فِي أنفسهِم حتَّىٰ كثرَت فيهمُ القالةُ، حتَّىٰ قالَ قائلهُم: لقيَ -واللهِ- رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قومَهُ، فدخلَ عليهِ سعدُ بنُ عبادةَ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ مِنَ الأنصارِ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ هذَا الحيَّ منَ الأنصارِ قَد وجدُوا عليكَ فِي أنفسهِم، لمَا صنعتَ فِي هذَا الفَيءِ الذِي أصبتَ، قسَّمتَ فِي قومِكَ، وأعطيتَ عطايَا عظامًا فِي قبائلِ العربِ، ولَم يكُن فِي هذَا الحيِّ مِنَ الأنصارِ منهَا شيءٌ. فقالَ: «**فأينَ أنتَ مِن ذلكَ يَا سعدُ؟**».

قالَ: يَا رسُولَ اللهِ، مَا أنَا إلَّا مِن قَومِي، فقالَ: «**فاجمَع لِي قَومَكَ فِي هذهِ الحَظيرةِ؟**». فجَاءَ رجالٌ مِنَ المُهَاجرينَ فتركهُم فدخلُوا، وجاءَ آخرونَ فردَّهُم، فلمَّا اجتمعُوا، أتَىٰ سَعدٌ فقالَ: لقَد اجتمعَ لكَ هذَا الحيُّ منَ الأنصارِ، فأتاهُم رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فحمدَ اللهَ وأثنَىٰ عليهِ بمَا هوَ أهلهُ، ثمَّ قالَ: «**يَا معشرَ الأنصارِ، مَا قالةٌ بلغَتنِي عنكُم، وجِدةٌ قَد وجدتموهَا فِي أنفسكُم، ألَم آتكُم ضُلالًا فهداكُم اللهُ بِي؟، وعالةً فأغناكُمُ اللهُ بِي؟، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبكُم؟**». فقالُوا: اللهُ ورسولهُ أمَنُّ وأفضلُ. ثمَّ قالَ: «**ألَا تجيبونَنِي يَا معشرَ الأنصارِ؟**». قالُوا: بماذَا نجيبُكَ يَا رسولَ اللهِ؟ للهِ ولرسولِهِ المنُّ والفضلُ. فقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمَا واللهِ لَو شئتُم لقلتُم، فلصدَقْتُم ولَصُدِّقتُم: أتيتنَا مكذَّبًا فصَدَّقنَاكَ، ومَخذُولًا فنصرنَاكَ، وطريدًا فآوينَاكَ، وعائلًا فآسينَاكَ. أوجَدتُم يَا معشرَ الأنصارِ فِي أنفسِكُم فِي لُعاعةٍ منَ الدنيَا، تألَّفتُ بهَا قومًا ليُسلمُوا، ووكلتكُم إلَىٰ إسلامِكُم؟، ألَا ترضونَ يَا معشرَ الأنصارِ، أَن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ، وترجعونَ برسولِ اللهِ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **إلَىٰ رحالِكُم؟، فوَالَّذِي نفسُ محمدٍ بيدهِ، لولَا الهجرةُ لكنتُ امرأً مِنَ الأنصارِ، ولَو سلكَ الناسُ شِعبًا وسلَكَتِ الأنصارُ شعبًا وواديًا لسلكتُ شعبَ الأنصارِ، اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ، فبكَىٰ القومُ حتَّىٰ أخضلُوا لحاهُم، وقالُوا: رضينَا برسولِ اللهِ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

قسمًا وحظًّا»[(١)].

ولولَا أَن سَخَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لدينِهِ هؤلاءِ النَّفَرَ الأخيَارَ، لَمَا بقيَ الدينُ محفوظًا حتَّىٰ ظفرَ بالتمسكِ بِهِ مِن بعدهِم.

كانَ أحدُهُم يبذلُ مهجتَهُ وراحتَهُ ومالَهُ فِي سبيلِ اللهِ وهوَ منشرحُ الصدرِ لِمَا ملأَ اللهُ قلبَهُ مِنَ اليَقينِ والغِنَىٰ والقَنَاعةِ.

لمَّا أُسِرَ خُبَيبُ بنُ عديٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أجمعَ المُشرِكونَ علَىٰ قتلِهِ، وخرجُوا بهِ منَ الحرمِ ليقتُلُوهُ فِي الحِلِّ، فقالَ لهُم: دعونِي أركَع ركعَتينِ، فتركوهُ فركعَ ركعتينِ، ثمَّ قالَ: واللهِ لولَا أَنْ تحسبُوا أنَّ مَا بِي جزعٌ مِنَ القَتلِ لزِدتُ، ثمَّ أنشدَ قائلًا:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسلِمًا ... عَلَىٰ أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَضجَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوصَالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

فَلَستُ بِمُبدٍ لِلعَدُوِّ تَخَشُّعًا ... وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَىٰ اللَّهِ مَرجِعِي

وحينَ يكونُ المالُ غاليًا عندَ أهلِهِ، فقَد كانَ أرخصَ مَا يكونُ عندَ صحابةِ رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فتراهُم يُعطونَ عطاءَ مَن لَا يخشَىٰ الفقرَ، ويبذلونَ بذلَ الكريمِ علَىٰ حاجةٍ وإقلالٍ، حتَّىٰ ترَىٰ الرجلَ منهُم يخرجُ مِن مالِهِ وكأنَّهُ قَد حيزَت لهُ الدنيَا، كلُّ ذلكَ لِما استيقنُوا بأنَّ مَا عندَ اللهِ خيرٌ ممَّا يبذلونَ، وأنَّ مَا ادُّخِرَ لهُم خيرٌ ممَّا أعطوهُ.

فلمَّا كانَت غزوةُ تبُوكَ، أرادَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يخرجَ إليهَا، وقَد كانُوا فِي شدَّةٍ مِنَ الأمرِ، فِي سَنةٍ مجدبةٍ وحرٍّ شديدٍ، وعسرٍ منَ الزادِ والمالِ، فحَضَّ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الناسَ علَىٰ الصدقاتِ، فجاءَ عُمرُ بنصفِ مالِهِ، وجاءَ أبُو بكرٍ بمالِهِ كلِهِ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هَل أبقيتَ لأهلِكَ شيئًا؟**». قالَ: أبقيتُ لهُمُ اللهَ ورسولَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٨٥).

وجهَّزَ عثمانُ ثلثَ الجيشِ، وجاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بألفِ دينارٍ فصبَّهَا فِي حجرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلِّبهَا ويقولُ: «**مَا ضرَّ عثمَانَ مَا عملَ بعدَ اليومِ، مَا ضرَّ عثمانَ مَا عمِلَ بعدَ اليَومِ**».

وجاءَ رجلٌ إِلَىٰ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقالَ: يَا ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لقَد ولدَ لِي فِي هذهِ الليلةِ غلامٌ، وإنِّي سميتهُ باسمكَ، وإنَّ أمَّهُ ماتَت. فقالَ لهُ: باركَ اللهُ لكَ فِي الهبَةِ وآجرَكَ علَىٰ المُصيبةِ، ثمَّ دعَا بوكيلِهِ وقالَ لهُ: انطلِق الساعةَ فاشترِ للمولودِ جاريةً تحضنهُ، وادفَع لأبيهِ مائتَي دينارٍ للنفقةِ علَىٰ تربيتهِ، ثُمَّ قالَ للرجلِ: عُد إلينَا بعدَ أيامٍ، فإنَّكَ جئتنَا وفِي العيشِ يبسٌ، وفِي النفقةِ قلةٌ، فقالَ الرجلُ: جُعِلتُ فداكَ، لَو سَبَقْت حاتمًا مَا ذكرَتْهُ العربُ.

هذَا وممَّا لا بُدَّ أَن يُعلمَ أنَّهُ مَا سبقَ أَحَدٌ الصَّحابةَ بِدِينٍ ولَا فضلٍ، إلَّا الأنبياءَ -عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ-، ومَا مِن وَصفٍ حسَنٍ إلَّا وقَد تسنَّمُوا لواءَهُ، وأخذُوا منهُ بالنصيبِ الأكبرِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجَلالِ وجههِ وعظيمِ سلطانهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن سعادةِ المسلمِ أَن يمتلئَ قلبهُ محبَّةً وإجلالًا لصَحابةِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وأَن يعرفَ لهُم فضلَهُم وسابقتهُم، وإنَّ مِن عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ سلامةَ قلوبهِم وألسِنَتهِم لأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُم أهلُ الفَضلِ والسبقِ، فلولاهُم بعدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَم يصِل إلينَا هذَا الدينُ نقيًّا واضحًا لَا لبسَ فيهِ ولَا إيهامَ.

وإنَّ مِن تمامِ توفيقِ العبدِ أَن يقتفيَ آثارَهُم، وأَن يوقِّرَهُم ويُجِلَّهُم لإجلالِ اللهِ تعالَىٰ لهُم، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1].

فلابدَّ مِن مَعرفةِ فَضلهِم، ومِن ذلكَ التَّرَضِّي عنهُم؛ لِمَا خصَّهُمُ اللهُ بهِ مِنَ الفضلِ والكرامةِ والإحسانِ والتكرِمَةِ، فإنَّ مِن علاماتِ السُّنيِّ الموفقِ: الترضِّي عَن أصحَابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن علاماتِ توقيرهِم: سلامةُ القلبِ لهُم، واستشعَارُ مَحبَّتهِم فِي القلوبِ، واليقينُ بأَنَّهُم خيرُ هذهِ الأمةِ.

وإنَّ مِن علاماتِ الشقاءِ والبُؤسِ والنَّدمِ: الطعنَ بأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسبِّ والشَّتمِ أوِ التنقُّصِ لهُم، أَو أَن يجدَ فِي قلبهِ عليهِم شيئًا مِن الغيظِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَسُبُّوا أصحابِي، فوالذِي نفسِي بيدِهِ، لَو أنَّ أحدَكُم أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهبًا مَا أدركَ مُدَّ أحدِهِم ولَا نَصِيفَهِ**»[2]، وهذَا خطابٌ لِمَن أسلمَ بعدَ فتحِ مكةَ منَ الصحابةِ، فكيفَ بمَن بعدَهُم؟

(١) سورة التوبة: ١٠٠.

(٢) رواه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (٤٦١٠).

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سبَّ أصحابِي فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ**»[١]، وقالَ: «**لعنَ اللهُ مَن سبَّ أصحابِي**»[٢].

ومِنَ السَّبِّ: التنقصُ لَهُم بذكرِ الرواياتِ الملفَّقةِ التِي لَا تَليقُ بمثلهِم، أَو الاستهزاءِ بهِم بأيِّ صورةٍ كانَت.

كمَا أنَّ الواجبَ الحذَرُ منَ الخوضِ فيمَا جرَىٰ بينَ الصحابةِ منَ القتالِ، حتَّىٰ يحملَ ذلكَ العبدَ علَىٰ أَن يتنقصَ فريقًا منهُم، أَو يبغضَ أحدًا منهُم، فيكونُ قَد تعرَّضَ لمَقتِ اللهِ وغضبهِ.

ومِن عقيدةِ أهلِ السنةِ: أنهُ لَا يجوزُ الخوضُ فيمَا جرَىٰ بينَ الصحابةِ، والعاقلُ مَنِ اشتغلَ بعيُوبِ نفسهِ، لَا أَن يجلسَ ناقدًا لعيوبِ خيرِ الورَىٰ بعدَ الأنبياءِ، وكأَنَّهُ قَد بلغَ منزلةَ التمامِ.

ومنَ الأعمالِ المُشِينةِ المُحَرَّمةِ: تمثيلُ دورِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتَّىٰ مِن قِبَلِ الأتقياءِ، فضلًا عَنِ الخمَّارينَ والفسقةِ المنحلينَ، أصحابِ المراقصِ، الديايثةِ، الذينَ ليسَ لأحدهِم نخوةٌ ولَا غيرةٌ، فلَا تُضَللكُم بعضُ الفتاوَىٰ.

ولَا يجوزُ تمثيلُ دورِ الصحابةِ، لَا الخلفاءِ الراشدينَ ولَا غيرِ الخلفاءِ؛ لأنَّ بعضَهُم يروجُ جوازَ تمثيلِ دورِ غيرِ الخُلفاءِ الأربعةِ وهذَا خطأٌ فاحشٌ.

واعلَمُوا ودرِّسُوا أبناءَكُم، أنَّهُ بإجمَاعِ المُسلمينَ، أنَّ أفضَلَ الصحابةِ أبُو بكرٍ، ثمَّ عمرُ، ثمَّ عثمانُ، ثمَّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذهِ منَ العقائدِ التِي لا بُدَّ أَن تعضَّ عليهَا أيُّهَا المُسلمُ بالنَّواجِذِ.

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٤٠).

(٢) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٤٢).

كمَا أنهُ لَا يجوزُ الجُلوسُ معَ مَن سَبَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستماعُ لهُ، فإنهُ مُبتَدِعٌ خبيثٌ، ولا بُدَّ للمسلمِ أَن يهجرَهُ، فلَا تجوزُ صُحبتُهُ ولَا الأنسُ بهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(١).

وقالَ بعضُ السلفِ: «لَا تجلسْ إلَىٰ مبتدِعٍ فتحلَّ عليكَ اللعنةُ».

فأحيُوا فِي قلوبِكُم وقلوبِ أهلِيكُم محبةَ الصحابةِ، واجعلُوا مِنَ السبلِ إلَىٰ ذلكَ تسميةَ أبنائِكُم بأسمائِهم، حتَّىٰ تغرسُوا فيهِم التوقيرَ والمحبةَ لمَن سمَّيتموهُم عليهِم، وأنتَ إن نويتَ ذلكَ، فهوَ أجرٌ ماضٍ؛ لأنهُ دليلُ المحبةِ لهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واستشعرُوا محبَّتَهُم فإنهُ بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ الخيرِ، جاءَ رجلٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، كيفَ ترَىٰ فِي رجلٍ أحبَّ قومًا ولَم يلحَق بِهِم؟

فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرءُ معَ مَن أحبَّ**»(٢).

نسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَن يجعلنَا مِنَ المحبينَ لصحابَةِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المتبعينَ لسُنَّتِهِ.

❊ ❊ ❊

(١) سورة النساء: ١٤٠.

(٢) رواه البخاري (٥٧٠٣)، ومسلم (٤٧٧٩).

(١٦) أهوالُ القيامةِ

الحَمدُ للهِ الحَكيمِ فِي خلقهِ ورزقهِ وتدبيرهِ، الحميدِ فِي خفضهِ ورفعهِ وعطائهِ ومنعهِ وجميعِ تقديرهِ، الغفورِ لمَن خشيَهُ واتقاهُ، شديدِ النكالِ والعقوبةِ علَىٰ مَن عاندَهُ وعصاهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، لَا نعبدُ إلَّا إياهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ ومختارُهُ ومصطفاهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَنِ اهتدَىٰ بهداهُ.

أمَّا بعدُ:

فَقَد جعلَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لانتهاءِ هذهِ الدنيَا وزوالهَا وقتًا محددًا وأجلًا مقدرًا، فإذَا جاءَ الأجلُ المحتومُ والأمدُ المُقدرُ، قامَتِ الساعةُ فِي يومٍ متحققِ الوقوعِ، تظهرُ فيهِ الأمورُ علَىٰ حقيقتهَا ويغشَىٰ القلوبَ بأهوالِهِ، وإذَا بالخلائقِ قائمةً للهِ ربِّ العالمينَ، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

ولقَد وصفَ اللهُ سبحانهُ يومَ القيامةِ بصفاتٍ تدلُّ علَىٰ هولهِ وشدتهِ، ومخوِّفًا عبادَهُ مِن أليمِ عقابهِ.

إنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طويلٌ ثقيلٌ، وشَرُّه مستطيرٌ، حيثُ إنَّ فيهِ مِنَ الأهوالِ مَا يشيِّبُ الولدانَ، ويغيِّبُ عقلَ الوالدةِ عَن رضيعِهَا، وتُسقطُ الحاملُ حملَهَا لمَا يصيبهَا منَ الهولِ والفزعِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾[(٢)]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ

---

(١) سورة المطففين: ٤-٦.

(٢) سورة المزمل: ١٧.

مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾[١].

وَإِذَا الجَنِينُ بِأُمِّهِ مُتَعَلِّقٌ خَوفَ الحِسَابِ وَقَلبُهُ مَذعُورُ
هَذَا بِلَا ذَنبٍ يَخَافُ لِهَولِهِ كَيفَ المُقِيمُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ دُهُورُ

وَإِذَا بالأهوالِ تقرعُ قلوبَ الناسِ، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢]، وإِذْ بالناسِ يقولُ كلٌّ منهُم: نَفسِي نَفسِي، ويفرُّ بعضُهُم مِن بعضٍ، حتَّىٰ إنَّ المرءَ ليفرُّ مِن أحبِّ الناسِ إليهِ فِي هذهِ الدنيَا، لهُ شأنٌ ولهُم شأنٌ، يرجُو نجاةَ نفسهِ وفكاكَهَا، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٣].

ولحكمتهِ البالغةِ فقَدِ استأثَرَ اللهُ سبحانَهُ بعلمِ الساعةِ، فلَم يُطلِع عليهِ أحدًا مِن خلقهِ، لَا مَلَكًا مقربًا، ولَا نبيًّا مرسلًا، فإذَا أذنَ اللهُ بانصرامِ هذهِ الدنيَا، وانتهاءِ أجلهَا، وأفولِ شمسهَا، أمرَ إسرافيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَن ينفخَ فِي الصورِ، والصورُ قرنٌ عظيمٌ كهيئةِ البوقِ -اللهُ أعلمُ بكيفيتهِ- وقَدِ التقمَهُ إسرافيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منذُ زمنٍ بعيدٍ، وأصغَىٰ بأُذُنِهِ منتظرًا الأمرَ بالنفخِ، وهذَا دليلٌ علَىٰ قربِ الساعةِ، وأنهَا كلمحِ البصرِ أَو هوَ أقربُ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كيفَ أنعمُ، وصاحبُ الصورِ قَدِ التقمَ القرنَ، واستمعَ الأُذُن، متَىٰ يؤمرُ بالنفخِ. قالُوا: فماذَا نقولُ يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: قولُوا: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ**»[٤]، فحسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ.

فيُنفَخُ فيهِ نفختانِ: نفخةُ صعقٍ وإماتةٍ، ونفخةُ البعثِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي

---

(١) سورة الحج:١-٢.

(٢) سورة الحج:٢.

(٣) سورة عبس:٣٤-٣٧.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٩).

ﵟٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَﵞ(١).

فالنفخةُ الأولَىٰ للأحياءِ آنذاكَ، والنفخةُ الثانيةُ لبعثِ جميعِ المخلوقاتِ، فيبعثونَ مِن قبورهِم، ومَن ماتَ حرْقًا، ومَن ماتَ غَرَقًا، ومَن ماتَ فِي بطونِ السباعِ، ﵟإِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞﵞ(٢)، سُبحَانَهُ وبحَمده.

فإِذَا نُفِخَ فِي الصورِ النفخةُ الأولَىٰ، يقبضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأرضَ ويطوِي السماءَ بيمينهِ، ثمَّ يقولُ: أنَا الملكُ، أينَ ملوكُ الأرضِ؟ أينَ الجبارونَ؟ أينَ المتكبرونَ؟

ويقولُ سبحانهُ: لمَنِ الملكُ اليومَ؟ لمنِ الملكُ اليومَ؟ ثمَّ يجيبُ نفسَهُ سبحانهُ: للهِ الواحدِ القهارِ، وكلُّ هذَا ممَّا وردَ علَىٰ لسانِ الصادقِ المصدوقِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمَّ يرسلُ اللهُ سبحانَهُ المطرَ، فتنبتُ أجسادُ الناسِ، ثمَّ يكونُ بينَ النَّفخَتينِ أمَدٌ اللهُ أعلمُ بهِ، ثمَّ ينفخُ فِي الصورِ النفخةُ الثانيةُ فإذَا بالناسِ يُبعثونَ مِن قبورهِم، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثمَّ يُنفَخُ فِي الصورِ فلَا يسمعهُ أحدٌ إلَّا أصغَىٰ ليتًا، ورفعَ ليتًا** -أَي: لَوَىٰ صفحةَ العنقِ-، **وأولُ مَن يسمعهُ رجلٌ يلوطُ حوضَ إبلهِ، فيُصعقُ الناسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مطرًا كأنَّهُ الطلُّ فتنبتُ أجسادُ الناسِ، وكلُّ ابنِ آدمَ يبلَىٰ إلَّا عجبُ الذنبِ، ومنهُ يُرَكَّبُ الخلقُ يومَ القيامةِ، ثمَّ ينفخُ فيهِ أخرَىٰ فإذَا هُم قيامٌ ينظرونَ**»(٣).

وهنَا يُبعثُ الناسُ فتنشقُّ عنهُم قبورهُم، وأولُ مَن ينشقُّ عنهُ القبرُ نبيُّنَا محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذَا بعثَ اللهُ سبحانهُ الخلائقَ حُشِرُوا فِي أرضِ المحشرِ لمجازاتِهم

---

(١) سورة الزمر:٦٨.

(٢) سورة الطارق:٨.

(٣) رواه مسلم (٥٢٣٣).

ومحاسبتِهِم، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[1]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[2].

فيحشرُ الناسُ حفاةً عُراةً غُرلًا ليسَ معهُم شيءٌ، قَد خلَّفُوا كلَّ شيءٍ وراءَهُم، وقدمُوا علَىٰ خالقهِم، فيحشرونَ علَىٰ أرضٍ بيضاءَ خالصةِ البياضِ، كقطعةِ الخُبزِ المبسوطةِ، لَم يُسفَك فيهَا دمٌ حرامٌ، ولَم يعمَل عليهَا خطيئةٌ، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكُم تُحشرونَ حفاةً عراةً غُرلًا**، ثمَّ قرأَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3]، **فقالَت عائشةُ: وا سوأتاهُ! الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضهُم إلَىٰ بعضٍ؟! فقالَ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الأمرُ أشدُّ مِن أَن يهمهُم ذلكَ**»[4].

فهُم فِي حالٍ عصيبةٍ، وضنكٍ شديدٍ قَد صرفهُم عَن كلِّ مَا حولَهُم إلَّا عمَّا يصيرونَ إليهِ.

وفِي الحشرِ يعانِي الناسُ الضيقَ الشديدَ، وتُدنَىٰ الشمسُ منَ الخلائقِ فتكونُ علَىٰ قدرِ ميلٍ مِن رءوسهِم -إمَّا ميلُ الأرضِ أَو ميلُ المكحلةِ-، ويعرقُ الناسُ علَىٰ قدرِ ذنوبهِم، فمنهُم مَن يصلُ العرقُ إلَىٰ كعبيهِ، ومنهُم مَن يصلُ إلَىٰ وسطهِ، ومنهُم مَن يلجمهُ العرقُ إلجامًا، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تدنَىٰ الشمسُ يومَ القيامةِ منَ الخلقِ حتَّىٰ تكونَ منهُم كمِقدارِ ميلٍ، فيكونُ الناسُ علَىٰ مقدارِ أعمالهِم مِنَ العرقِ، منهُم مَن يكونُ إلَىٰ كعبيهِ، ومنهُم مَن يكونُ إلَىٰ ركبتيهِ، ومنهُم مَن يكونُ إلَىٰ حقويهِ،**

---

(١) سورة الواقعة: ٤٩-٥٠.

(٢) سورة الكهف: ٤٧.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٤) رواه البخاري (٦٠٤٦)، ومسلم (٥١٠٢).

ومنهُم مَن يلجمهُ العرقُ إلجامًا، وأشارَ رسولُ اللهِ بيدهِ إلَىٰ فيهِ»(١)، فإذَا كانَ الناسُ يعانونَ حرارةَ الشمسِ وهيَ تبعدُ عنهُم آلافَ الكيلومتراتِ فكيفَ إذَا اقتربَت؟!

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يعرقُ الناسُ يومَ القيامةِ حتَّىٰ يذهبَ عرقهُم فِي الأرضِ سبعينَ ذراعًا ويلجمهُم حتَّىٰ يبلغَ آذانَهُم»**(٢).

ومَن تأملَ هذَا عرفَ عظمَ الهولِ فيهِ، وذلكَ أنَّ النارَ تحفُّ بأرضِ الموقفِ، وتُدنَىٰ الشمسُ مِن رءوسِ الخلائقِ قدرَ ميلٍ، فكيفَ تكونُ حرارةُ الأرضِ، وماذَا يرويهَا حتَّىٰ يبلغَ منهَا سبعينَ ذراعًا، معَ أنَّ كلًّ واحدٍ لَا يجدُ إلَّا قدرَ موضعِ قدمهِ، فكيفَ تكونُ حالُ هؤلاءِ فِي عرقهِم معَ تنوعهِم فيهِ؟! إنَّ هذَا لَمِمَّا يُبهِرُ العقولَ!

ومَن علمَ هذَا، فعليهِ أَن يبادرَ إلَىٰ التوبةِ واللجوءِ إلَىٰ الكريمِ الوهابِ فِي عونهِ علَىٰ أسبابِ السلامةِ.

وفِي هذَا الموقفِ العصيبِ: مِن الناسِ مَن يظلهُم اللهُ فِي ظلهِ يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ، منهُم: إمامٌ عادلٌ، ورجلٌ قلبهُ معلقٌ فِي المساجدِ، ورجلانِ تحابَّا فِي اللهِ اجتمعَا عليهِ وتفرقَا عليهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ، وشابٌ نشأَ فِي طاعةِ اللهِ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضَت عيناهُ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاهَا حتَّىٰ لَا تعلمُ شمالهُ مَا تنفقُ يمينُهُ، ومَن أنظرَ معسرًا أَو وضعَ عنهُ.

أيُّهَا المسلمونَ:

وإذَا أصابَ الناسَ الكربُ فزعُوا ونظرُوا إلَىٰ مَن يُخَلصُهُم ويشفعُ لهُم عندَ خالقهِم لفصلِ القضاءِ، فيأتونَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولونَ: ألَا تشفعُ لنَا؟ ألَا ترَىٰ مَا نحنُ

---

(١) رواه مسلم (٥١٠٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥١).

فيهِ؟ فيقولُ: نفسِي نفسِي، إنَّ اللهَ قَد غضبَ اليومَ غضبًا، لَم يغضَب قبلَهُ مثلَهُ ولَن يغضبَ بعدَهُ مثلهُ، اذهبُوا إلَىٰ نوحٍ، فيأتونَهُ فيقولُ: نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلَىٰ إبراهيمَ، فيأتونَهُ فيقولُ: نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلَىٰ موسَىٰ، فيأتونَهُ فيقولُ: نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلَىٰ عيسَىٰ، فيأتونهُ فيقولُ: نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلَىٰ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذَا كانَ الأنبياءُ يقولُ أحدُهُم: نفسِي نفسِي، فكيفَ بغيرهِم؟ وكيفَ بمَن كسبَ الذنوبَ؟!

فيأتونَ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولونَ: «**ألَا تشفعَ لنَا؟ ألَا ترَىٰ مَا نحنُ فيهِ؟ فيقولُ: أنَا لهَا، أنَا لهَا**».

قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأسجدُ تحتَ العرشِ، ويلهمنِي ربِّي مِنَ المحامدِ مَا لَا أعرفهُ اليومَ، فيقالُ لِي: يَا محمدُ، ارفَع رأسكَ، وسَل تعطَ، واشفَع تشفَّع، فأقولُ: يَا ربِّ، أمتِي أمتِي**»(١).

بأبِي هوَ وأمِّي، مَا قالَ: فاطمةَ، ولَا قالَ: خديجةَ، بَل قالَ: أمتِي، فتبًّا لمَن أعرضَ عَن هُداهُ.

فيشفعُ عندَ ربهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيجيءُ اللهُ تعالَىٰ مجيئًا يليقُ بجلالهِ لفصلِ القضاءِ بينَ الناسِ، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(٢)، ولَا يتمُّ فصلُ القضاءِ بينَ الخلائقِ إلَّا بشفاعةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منَّةً امتنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهَا عليهِ، وهيَ الوسيلةُ والمقامُ المحمودُ الذِي أمَرَنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن نسألَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَن يبلغَهُ إياهَا.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٩٢)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) سورة الفجر: ٢١-٢٢.

ثمَّ يأذنُ اللهُ تعالَىٰ بالحسابِ، ويُطلِعُ سبحانَهُ عبادَهُ علَىٰ أعمالِهِم ويقررهُم بهَا، فمِن مُجازَىٰ ومِن معفوٍّ عنهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[١].

فمِنَ الناسِ مَن يحاسَبُ حسابًا شديدًا يُناقَشُ فيهِ علَىٰ أعمالهِ فهوَ هالكٌ لَا محالةَ، ومنَ الناسِ مَن يحاسبُ حسابَ عَرضٍ، فيقررهُ اللهُ سبحانهُ بذنوبِهِ، ثمَّ يغفرُ لهُ ويتجاوزُ عنهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ أحدٌ يحاسبُ يومَ القيامةِ إلَّا هلكَ، فقالَت أمُّنَا عائشةُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **ألَم يقُلِ اللهُ تعالَىٰ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝١٩ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٢]، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنمَا ذلكَ العرضُ، ولكِن مَن نوقشَ الحسابَ عُذِّبَ**»[٣].

وفِي ذلكَ الموقفِ تتجلَّىٰ رحمةُ الرحيمِ الرحمنِ فيشملُ بهَا بعضَ عبادهِ، فيقررهُ بذنوبهِ ثمَّ يتجاوزُ عنهُ ويغفرُ لهُ، جاءَ رجلٌ إلَىٰ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقالَ: جئتُ أسألكَ عَن حديثِ المناجاةِ، فقالَ: «**إنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قالَ: يدنُو المؤمنُ مِن ربهِ حتَّىٰ يضعَ عليهِ كنفَهُ ويَسترُهُ، فيقولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ**: تعرف ذنبَ كذَا؟ تعرفُ ذنبَ كذَا؟ فيقولُ: أي ربِّ نعم، حتَّىٰ يرَىٰ مِن نفسهِ أنهُ قَد هلكَ، فيقولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ**: قَد سترتهَا عليكَ فِي الدنيَا، وأنَا أغفرهَا لكَ اليومَ، فيعطَىٰ كتابَ حسناتهِ، وأمَّا الكفارُ والمنافقونَ، فينادَىٰ بهِم علَىٰ رُءوسِ الخَلائقِ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]»[٥].

(١) سورة الغاشية:٢٥-٢٦.

(٢) سورة الحاقة:١٩-٢٠.

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٥)، ومسلم (٥١٢٢).

(٤) سورة هود:١٨.

(٥) رواه البخاري (٢٢٦١)، ومسلم (٤٩٧٢).

فنسألُ اللهُ أَن يعاملنَا بجميلِ سترهِ فِي الدنيَا والآخرةِ، وأَن يجعلنَا ممَّن يتجاوزُ عنهُم بمَنِّهِ وفضلهِ.

ومِن تمامِ عدلِ اللهِ أَن تُحشَرَ البهائمُ ويقعَ القصاصُ بينهَا، حتَّىٰ إنَّ الشاةَ التِي لَا قرنَ لهَا لتأخذَ حقهَا مِنَ الشاةِ القرناءِ التِي نطحتهَا فِي الدنيَا، وهذَا القصاصُ مِن بابِ المقابلةِ لَا التكليفِ، ولإظهارِ عظيمِ عدلِ اللهِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتؤدنَّ الحقوقَ إلَىٰ أهلهَا يومَ القيامةِ حتَّىٰ يقتصَّ للشاةِ الجماءِ مِنَ الشاةِ القرناءِ**»(١)، فإذَا قضيَ بالحقوقِ بينَ البهائمِ العجماواتِ، فكيفَ بحقوقِ العبادِ ومظالمهم؟!

وفِي ذلكَ اليومِ تنصبُ الموازينُ لِتوزَنَ أعمالُ الناسِ إظهارًا لعدلِ اللهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**﴾(٢)، فيوضعُ ميزانٌ لهُ كفتانِ، وتوزنُ بهِ أعمالُ بنِي آدمَ، وليسَ شيءٌ أثقَلَ فِي ميزانِ العبدِ يومَ القيامةِ مِن حسنِ الخلقِ، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾(٣).

وفِي ذلكَ الموقفِ تتجلَّىٰ رحمَةُ اللهِ وعدلُهُ كمَا بيَّنَ ذلكَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولهِ: «**إنَّ اللهَ سيُخْلِصُ رجلًا مِن أمتِي علَىٰ رءوسِ الخلائقِ، فيُنشَرُ لهُ تسعةٌ وتسعونَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ منهَا مدَّ البصرِ، فيقولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أتنكرُ مِن هذَا شيئًا؟ أظَلَمَكَ كتبتِي الحافظونَ؟ فيقولُ: لَا يَا ربِّ.**

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: **ألكَ عذرٌ؟ ألكَ حسنةٌ؟ فيُبهَتُ الرجلُ، فيقولُ: لَا يَا ربِّ.**

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: **بلَىٰ إنَّ لكَ عندنَا حسنةً واحدةً، لَا ظلمَ عليكَ اليومَ، فتُخرَجُ**

---

(١) رواه مسلم (٤٦٧٩).

(٢) سورة الأنبياء:٤٧.

(٣) سورة الزلزلة:٧-٨.

بطاقةٌ فيهَا شهادةُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فيقولُ: يَا ربِّ، مَا هذهِ البطَاقَةُ معَ هذهِ السِّجلاتِ؟!

فيقالُ: إنكَ لَا تُظلَمُ، فتوضعُ السجلاتُ فِي كفةٍ، والبطاقةُ فِي كفةٍ، قالَ: فطاشَتِ السجلاتُ وثقلتِ البطاقةُ، ولَا يثقلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ»(١).

وفِي ذلكَ الموقفِ يُعَانِي الناسُ منَ الشدةِ واللأواءِ، ويُصيبهمُ الظمأَ الشديدَ، فيمتنُّ اللهُ علَىٰ نبيهِ الكريمِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعطائهِ الحوضَ، وهوَ مجمعُ ماءٍ عظيمٍ يضعهُ اللهُ سبحانهُ فِي عرصاتِ يومِ القيامةِ يردهُ المؤمنونَ، ماؤهُ أحلَىٰ منَ العسلِ، وأبيضُ منَ اللبنِ، وأبردُ منَ الثلجِ، وأباريقهُ عددَ نجومِ السماءِ، طولهُ مسيرةُ شهرٍ، وعرضهُ مسيرةُ شهرٍ، مَن شربَ منهُ شربةً لَم يظمأ بعدهَا أبدًا، ولهُ ميزابانِ، أحدهمَا مِن ذهبٍ والآخرُ مِن فضةٍ، يمدانهُ منَ الجنةِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَا فرطكُم علَىٰ الحوضِ مَن مرَّ عليَّ شربَ، ومَن شربَ لَم يظمأْ أبدًا**»(٢).

ويُمنعُ منَ الورودِ علَىٰ الحوضِ أناسٌ بدَّلُوا شرعَ نبيهِم، وسلكُوا غيرَ طريقهِ وهديهِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليردنَّ عليَّ أقوامٌ مِن أصحابِي، فإذَا عرفتهُم اختُلجُوا دونِي، فأقولُ: يَا ربِّ، أمتِي أمتِي، فيقالُ: إنكَ لَا تدرِي مَا أحدثُوا بعدكَ، فأقولُ: سُحقًا سُحقًا لِمَن بدَّلَ بعدِي**»(٣).

فاحذرُوا مِن مخالفةِ أمرهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَا كانَ عليهِ مِنَ الهُدَىٰ، فإنَّ فِي مُخَالفتهِ الهلاكَ والعطبَ، وعجبًا مِن أناسٍ خالفُوا سيرتَهُ واجتنبُوا طريقتَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودَعَوا إلَىٰ غيرِ سُنتهِ، ويطمعونَ أَن يردُوا حوضَهُ.

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٥).
(٢) رواه البخاري (٦٠٩٧)، ومسلم (٢٤٣٤).
(٣) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٤٣٤).

ومِن رحمةِ اللهِ لهذهِ الأمةِ وتكرمةً لنبيهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهَا أوَّلُ الأممِ محاسبةً بينَ الأممِ، وتعجيلُ الحسابِ علامةٌ علَىٰ تعجيلِ الفرجِ وقربهِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحنُ الآخرونَ مِن أهلِ الدنيَا والأولونَ يومَ القيامةِ المقضيُّ بينهُم قبلَ الخلائقِ**»(١).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحنُ آخرُ الأممِ وأولُ مَن يحاسبُ**»(٢).

فنسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَن يجعلَ حسابنَا يسيرًا، وأَن يُشَفِّعَ فينَا عبدَهُ ورسولَهُ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَن يتجاوزَ عَن سيئاتنَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولهِ الصادقِ الأمينِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فإِذَا حوسبَ الناسُ يوضعُ الصراطُ، ويُضرَبُ علَىٰ متنِ جهنمَ، والصراطُ هوَ جسرٌ ممدودٌ علَىٰ جهنمَ، يعبرُ المؤمنونَ عليهِ إلَىٰ الجنةِ، ومَا مِن أحدٍ إلَّا ويمرُّ علَىٰ هذَا الصراطِ، فإمَّا أَن ينجوَ بفضلِ اللهِ ورحمتهِ، وإمَّا أَن تدركهُ شقوتُهُ فيهلكَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣).

---

(١) رواه مسلم (١٤١٥).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٤).

(٣) سورة مريم: ٧١-٧٢.

وقَد وردَ فِي وصفِ هذَا الصراطِ وأحوالِ الناسِ فيهِ مَا يُبهِرُ العقولَ، ويبعثُ الخوفَ فِي القلوبِ، فهوَ أحدُّ مِنَ السيفِ، وأدقُّ مِنَ الشعرِ، مسيرتهُ شهرٌ، ومعَ ذلكَ فهوَ فوقَ جهنمَ، مَن هوَىٰ منهُ هوَىٰ فيهَا، وزيادةٌ فِي البلاءِ فإنَّ عليهِ خطاطيفَ تخطفُ الناسَ بأعمالِهم، وهوَ مدحضةٌ مزلةٌ عظيمُ الظلمةِ، وإنَّ بعضَ هذهِ الصفاتِ لكافٍ فِي البلاءِ، فكيفَ إذَا اجتمعَت؟!

ودُعاءُ الرسلِ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- يومئذٍ: سلِّم، سلِّم. فكيفَ بغيرِهم؟! قالَ أبُو سعيدٍ الخدريُّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «بلغنِي أنَّ الجسرَ أدقُّ منَ الشعرةِ وأحدُّ منَ السيفِ»[1]، وقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنِ الصراطِ: «**مدحضةٌ مزلةٌ، عليهِ خطاطيفُ وكلاليبُ** -وهيَ حديدةٌ معقوفةُ الرأسِ-، **وحسكةٌ مفلطحةٌ** -شوكةٌ صلبةٌ عريضةٌ- **لهَا شوكةٌ عُقيفاءُ**»[2].

وقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بهِ خطاطيفُ مثلُ شوكِ السعدانِ، هَل رأيتُم شوكَ السعدانِ؟** قالُوا: نعَم. قالَ: **فإنهَا مثلُ شوكِ السعدانِ غيرَ أنَّهُ لَا يعلمُ عظمَهَا إلَّا اللهُ، تخطفُ الناسَ بأعمالِهِم**»[3]، وشوكُ السعدانِ: نبتةٌ مِن نبتِ البوادِي.

وحينذاكَ يحاسبُ الكفارُ حسابَ توبيخٍ وتقريعٍ، ثمَّ يؤمرُ بهِم إلَىٰ جهنمَ، ولَا يبقَىٰ فِي أرضِ الموقفِ إلَّا المؤمنونَ والمنافقونَ، وحينئذٍ تُلقَىٰ عليهِم الظلمةُ، وقَد سُئلَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أينَ يكونُ الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ؟ فقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**هُم فِي الظلمةِ دونَ الجسرِ**»[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩).

(٢) رواه البخاري (٦٨٨٦)، ومسلم (٢٦٩).

(٣) رواه البخاري (٧٦٤)، ومسلم (٢٦٧).

(٤) رواه مسلم (٤٧٣).

ثمَّ تلقَىٰ عليهِمُ الأنوارُ، وتُقسمُ عَلَىٰ حسَبِ إيمانهِم وأعمالهِم الصالحةِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(١)، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾(٢).

قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيُعْطَوْنَ نورَهُم علَىٰ قدرِ أعمَالِهم، فمنهُم مَن يعطَىٰ نورَهُ مثلَ الجبلِ العظيمِ يسعَىٰ بينَ أيديهِم، ومنهُم مَن يعطَىٰ نورَهُ أصغرَ مِن ذلكَ، ومنهُم مَن يُعطَىٰ نورَهُ مثلَ النخلةِ بيدهِ، ومنهُم مَن يعطَىٰ أصغرَ مِن ذلكَ، حتَّىٰ يكونَ آخرُهُم رجلًا يعطَىٰ نورَهُ علَىٰ إبهامِ قدمهِ، يُضيءُ مرةً ويطفأُ مرةً، فإذَا أضاءَ قدمَ قدمَهُ وإذَا أُطفِئ قامَ**»(٣)، نسألُ اللهَ أَن يرحمنَا برحمتهِ.

فطريقٌ طويلٌ، كحدِّ السيفِ ودقةِ الشعرِ وعليهِ الظلامُ الحالكُ، وأرضُ مزلةٍ زلقٍ، وأعمالٌ لَا يُدْرىٰ تُقبلَت أَم لَا؟ وإِن تقبلَت فأيُّ الأنوارِ يعطَىٰ صاحبهَا؟! لَا شكَّ أنهُ موقفٌ رهيبٌ مخيفٌ.

ويكونُ عبورُ المؤمنينَ علَىٰ حسبِ أعمالهِم، فمنهُم مَن يمرُّ كالطرفِ، ومنهُم مَن يمرُّ كالبرقِ، ومنهُم مَن يمرُّ كأجاويدِ الخيلِ، ومنهُم مَن يمرُّ كأجاويدِ الركابِ (الإبل)، ومنهُم مَن يجرِي جريًا، ومنهُم مَن يمشِي مشيًا، حتَّىٰ يجيءَ الرجلُ فلَا يستطيعُ السيرَ إلَّا زحفًا، وآخرهُم يُسحَبُ سحبًا، وقَد دلَّت علَىٰ ذلكَ الأحاديثُ النبويةُ.

فتخيلُوا، كيفَ حالُ رجلٍ لَم تسعفْهُ أعمالهُ إلَّا أَن يبلغَ درجةَ الذِي يركضُ فوقَ الصراطِ، متَىٰ سيصلُ إلَىٰ منتهاهُ؟

---

(١) سورة الحديد:١٢.

(٢) سورة التحريم:٨.

(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥٩١).

فكيفَ بمَن يمشِي مشيًا، ومَن يزحفُ زحفًا، وليسَ معهُ مِنَ النورِ إلَّا موضعَ الإبهامِ أَو أقلَّ، فكيفَ حالهُ؟!

كيفَ حالهُ وخطاطيفُ جهنمَ تدورُ حولَهُ تكادُ تخطفهُ، وربمَا لَا يصلُ إِلَىٰ منتهاهُ -إِن وصلَ- إلَّا وهوَ مخدوشٌ بالخطاطيفِ والكلاليبِ!

لَا شكَّ أنهُ موقفٌ يصعبُ وصفُهُ، فنسألُ اللهَ أَن يُعَاملنَا بمحضِ فضلهِ.

وأمَّا المنافقونَ، فلأَنَّهُم كانُوا يخادعونَ أنفسهُم فِي هذهِ الدنيَا ظنًّا منهُم أنهُم يخادعونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فإنهُم يُعطَونَ نورًا مخادعةً، فإِذَا ولجُوا الصراطَ انطفأَ نورُهُم، فصرخُوا واستغاثُوا بالمؤمنينَ، يريدونَ أَن يأخذُوا قبسًا مِن نورهِم، فيُمنَعونَ منهُ فيهلكونَ.

فهُم طالمَا أظهرُوا الإسلامَ والاستقامَةَ، وبينَ جوانِحِهِم قلوبٌ ماكرةٌ ترفضُ الإسلامَ وتستهزئُ بأحكامهِ، وتراهَا تخلُّفًا وعودةً إِلَىٰ الأجيالِ المتخلفةِ، وأنهُم هُمُ الذينَ يُصلِحونَ الكونَ بأفكارهِم المعتدلةِ، وأَنَّ هؤلاءِ الدعاةَ إِلَىٰ الإسلامِ والسنةِ والخيرِ إنمَا يريدونَ التشددَ والرجعيةَ، فكانُوا يحملونَ فِي هذهِ الدنيَا نورًا زائفًا، وكذلكَ فِي الآخرةِ لتمامِ عدلِ اللهِ يعطونَ نورًا زائفًا مخادعةً، فإِذَا ولجُوا فِي الظلمةِ أدركهُم شؤمُ نفاقهِم فانطفأَ النورُ؛ لأنهُم فقدُوا العملَ الذِي ينيرُ طريقَهُم، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾(١).

فيُنادِي المنافقونَ المؤمنينَ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾(٢)، فتنتُم أنفسكُم بالنفاقِ، وتربصتُم بالمؤمنينَ الدوائرَ، وشككتُم فِي دينِ الإسلامِ، وغرتكمُ الأطماعُ، وغركُمُ الشيطانُ، حتَّىٰ جاءكمُ الموتُ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ويُعطَىٰ كلُّ إنسانٍ منهُم مؤمنٌ أَو منافقٌ نورًا، ثمَّ ينطفئُ**

(١) سورة الحديد: ١٣.

(٢) سورة الحديد: ١٤.

نورُ المنافقينَ، ثمَّ ينجُو المؤمنونَ»[١]، نسألُ اللهَ العافيةَ.

ومِن بركةِ هذَا النبيِّ الكريمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَن يكونَ هوَ أولُ مَن يجوزُ الصراطَ ومِنَ الأممِ أمتهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأكونُ أنَا وأمتِي أولُ مَن يجيزهَا، ولَا يتكلمُ يومئذٍ إلَّا الرسلُ، ودعاءُ الرسلِ يومئذٍ: سلِّم، سلِّم**»[٢].

وأمَّا نتيجةُ العبورِ: فناجٍ مِنَ الجحيمِ، ومخدوشٌ بالخطاطيفِ ثمَّ تتركهُ، ومكدوسٌ فِي جهنمَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسلٌ، ومكدوسٌ فِي جهنمَ**»[٣].

ولَا يعبرُ الصراطَ إلَّا أهلُ الجنةِ، فإذَا عبروهُ حُبِسُوا فِي قنطرةٍ ليُهَذَّبوا ويتقَاصُّوا فيمَا بينهُم، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذنَ لهُم فِي دخولِ الجنةِ**»[٤].

ومَن علمَ هذهِ الأهوالَ التِي لَا تدركهَا العقولُ، عَلِمَ حقيقةَ قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو تعلمونَ مَا أعلمُ، لضحكتُم قليلًا، ولبكيتُم كثيرًا، وَمَا تلذذتُم بالنساءِ علَىٰ الفرشِ، ولخرجتُم إلَىٰ الصعداتِ تجأرونَ إلَىٰ اللهِ**»[٥].

إنَّ وراءنَا مِنَ الأهوالِ مَا يجبُ أَن نكثرَ لهُ منَ الأعمالِ الصالحةِ، ونتركَ الأعمالَ السيئةَ التِي تكونُ قائدًا إلَىٰ الهلاكِ والشقوةِ.

نسألُ اللهَ سبحانهُ أَن يرحمنَا برحمتهِ، وأَن يعامِلَنَا بجَميلِ سترهِ، وأَن يوفقنَا لصالحِ الأقوالِ والأعمالِ وأَن يتقبَّلهَا منَّا.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٦٨٨٥).

(٣) رواه البخاري (٦٨٨٦)، ومسلم (٢٦٩).

(٤) رواه البخاري (٦٠٥٤).

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢).

(١٧) أينَ أنتَ غدًا؟

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكُم أيكُم أحسنُ عملًا وهوَ العزيزُ الغفورُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، البشيرُ النَّذيرُ، والسِّراجُ المنيرُ، صلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ إلَىٰ يومِ البعثِ والنشورِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ المَوتَ هوَ الخطبُ الأفظعُ، والأمرُ الأشنعُ، والكأسُ التِي طعمهَا أكرهُ وأبشعُ، وهوَ الأهدمُ للَّذاتِ، والأقطعُ للراحاتِ، وهوَ السلطانُ الذِي لَا يردُّ حكمهُ، ومَن تأمَّلَ فِي نهايةِ أمرهِ ومَا يصيرُ إليهِ حالهُ، أورثهُ ذلكَ خوفًا لَا ينقطعُ.

إنَّ الموتَ هوَ الحقيقةُ الواقعةُ التِي لَا مفرَّ لأحدٍ منهَا، والغايةُ التِي يرتقبهَا كلُّ عبدٍ لَا يدرِي متَىٰ تحلُّ بهِ.

إنَّ العبدَ إذَا عاينَ الاحتضارَ نزلَت إليهِ الملائكَةُ لقَبضِ رُوحهِ، فيراهَا بعينهِ آنذاكَ، ويوقنُ بالحقيقةِ التِي طالمَا تمنَّىٰ ألَّا تأتِي، فإذَا بهِ ملهُوفٌ وجلٌ، وقَد زاغَ بصرهُ، وارتجفَ قلبهُ، وإذَا بالناسِ حولهُ يخاطبونهُ وينادونهُ، وهوَ فِي عالمٍ آخرٍ يرَىٰ مَا لَا يرونَ، ويسمعُ مَا لَا يسمعونَ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾(١).

فإذَا ثقلَ عليهِ الموتُ وعاينَ سكراتِهِ، اشتدَّ ألمُهُ، وبردَ جسمُهُ، وثقلَ لسانُهُ،

---

(١) سورة الواقعة: ٨٣-٨٥.

وارتخَت يدَاهُ، وإذَا بالناسِ حولهُ باكُونَ، ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾(١)، لعلَّ رقيةً تنفعهُ وتدفعُ مَا بهِ، ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾(٢)، هنَا نهايةُ المطافِ وآخرُ الرِّحلةِ التِي يسابقُ إليهَا كلُّ حيٍّ.

وإذَا بالمرءِ ينتقلُ مِن سعةِ الدنيَا إلَىٰ ضيقِ اللحودِ، ويبقَىٰ مرتهنًا بعملهِ فِي ذلكَ القبرِ الضيقِ الذِي لَا تصلهُ فيهِ نسمةُ هواءٍ، وقَد تقطعَت بهِ الأسبابُ، وفارقَ الأهلَ والأصحابَ، ولَم يبقَ لهُ إلَّا رحمةَ الرحيمِ الرحمنِ، فإِن كانَ مِن أهلهَا فقَد فازَ، وإِن لَم يكُن مِن أهلهَا فقَد خسرَ خُسرانًا مبينًا.

وقَد بيَّنَ لنَا الصادقُ الأمينُ وأنصحُ الخلقِ للخلقِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مَا يعرضُ للعبدِ مِن حينِ قبضِ روحهِ إلَىٰ حينِ بعثهِ، ومَا يعرضُ لهُ فِي قبرهِ، ممَّا ينقطعُ معهُ العذرُ وتقومُ بهِ الحجةُ.

إنَّ العبدَ إذَا حضرهُ الموتُ وكانَ مِن أهلِ الطاعةِ والاستقامةِ، وقَد كتبَ اللهُ لهُ رضوانهُ، نزلَت إليهِ ملائكةٌ منَ السماءِ بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ، معهُم كفنٌ مِن أكفانِ الجنةِ، وطيبٌ مِن طيبهَا، فيجلسونَ منهُ مدَّ البصرِ، ويجيءُ ملكُ الموتِ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتَّىٰ يجلسَ عندَ رأسهِ، فيقولُ: أيتهَا النفسُ المطمئنةُ، اخرجِي إلَىٰ مغفرةٍ منَ اللهِ ورضوانٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾(٣).

(١) سورة القيامة: ٢٧.

(٢) سورة القيامة: ٢٩-٣٠.

(٣) سورة فصلت: ٣٠-٣٢.

فتَسيلُ رُوحُهُ كمَا تسيلُ القطرةُ مِن فمِ القِربةِ، بسهولةٍ ويُسرٍ، فيأخذهَا ملكُ الموتِ، فإذَا أخذهَا لَم يدعهَا الملائكةُ فِي يدهِ طرفةَ عينٍ، فيأخذونهَا ويجعلونهَا فِي ذلكَ الكفنِ وذلكَ الطيبِ، ويخرجُ منهَا كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجِدَت علَىٰ وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بهَا، فلَا يمرونَ علَىٰ ملأٍ منَ الملائكةِ إلَّا قالُوا: مَا هذَا الروحُ الطيبُّ؟ فيقولونَ: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائهِ التِي كانَ يسمَّىٰ بهَا فِي الدنيَا، حتَّىٰ ينتهُوا بهَا إلَىٰ السَّماءِ الدنيَا، فيستفتحونَ لهُ، فيُشَيعُهُ مِن كلِّ سماءٍ مقربوهَا إلَىٰ السماءِ التِي تليهَا، حتَّىٰ ينتهيَ بهَا إلَىٰ السماءِ السابعةِ، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكتبُوا كتابَ عبدِي فِي عليينَ فِي السماءِ السابعةِ وأعيدوهَا إلَىٰ الأرضِ فِي جسدهِ.

وأمَّا إذَا كانَ العبدُ مِن أهلِ الشقاوةِ نزلَت عليهِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ، معهُم المسوحُ -وهوَ كساءٌ غليظٌ منَ الشعرِ- فيجلسونَ منهُ مدَّ البصرِ، ثمَّ يجيءُ ملكُ الموتِ حتَّىٰ يجلسَ عندَ رأسهِ، فيقولُ: أيتهَا النفسُ الخبيثةُ، اخرجِي إلَىٰ سخطٍ منَ اللهِ وغضبٍ، فتتفرقُ روحهُ فِي جسدهِ، فينتزعهَا كمَا تنتزعُ الحديدةُ ذاتُ الأسنَّةِ الملتويةِ منَ الصوفِ المبلولِ بغايةٍ منَ الصعوبةِ، فإذَا أخذهَا لَم يدعوهَا فِي يدهِ طرفةَ عينٍ، حتَّىٰ يجعلوهَا فِي تلكَ المسُوحِ ويخرجُ منهَا كأنتَنِ ريح جيفةٍ وجدَت علَىٰ وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بهَا فلَا يمرونَ علَىٰ ملأٍ منَ الملائكةِ إلَّا قالُوا: مَا هذهِ الروحُ الخبيثةُ؟ فيقولونَ: فلانُ بنُ فلانٍ، بأقبح أسمائهِ التِي كانَ يسمَّىٰ بهَا فِي الدنيَا، حتَّىٰ ينتهيَ بهَا إلَىٰ السماءِ الدنيَا، فيستفتحُ فلَا يُفتَحُ لهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(١)، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكتبُوا كتابَهُ فِي سجينٍ فِي الأرضِ السُّفلَىٰ، ثمَّ تطرحُ رُوحُهُ طرحًا، فتعادُ روحهُ فِي جسدهِ.

---

(١) سورة الأعراف: ٤٠.

فإذَا وضِعَ الميتُ فِي قبرهِ وأعيدَت روحهُ إلَىٰ جسدهِ تعرَّضَ للسؤالِ والفتنةِ، وفتنةُ القبرِ: هيَ سؤالُ الملائكةِ للميتِ فِي قبرهِ عَن ربهِ ودينهِ ونبيهِ، فمِن موفَّقٍ بالتثبيتِ ومِن مَخذُولٍ بتركِ التثبيتِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ العبدَ إذَا وُضعَ فِي قبرهِ وتولَّىٰ عنهُ أصحابهُ وإنهُ ليسمَع قرعَ نِعالهِم أتاهُ ملكانِ فيقعدانهِ فيسألانهِ»**(١).

وزيادةٌ فِي الفتنةِ علَىٰ المَقبورِ فإنَّ المَلكينِ يأتيانِ بأبشعِ صورةٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذَا قبرَ الميتُ أتاهُ مَلكانِ أسودانِ أزرقانِ يقالُ لأحدهمَا منكرٌ والآخرُ النكيرُ»**(٢).

فأمَّا العبدُ المؤمنُ فيثبِّتهُ اللهُ عندَ سؤالِ الملكينِ حينَ يسألانهِ، فيقولانِ: مَن ربُّكَ؟ فيقولُ: ربيَ اللهُ، فيقولانِ: مَا دينُكَ؟ فيقولُ: دينِي الإسلامُ، فيقولانِ: مَا هذَا الرجلُ الذِي بُعثَ فيكُم؟ فيقولُ: هوَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولانِ: مَا يدريكَ؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللهِ وآمنتُ بهِ وصدَّقتهُ، فينادِي منادٍ منَ السماءِ أَن صدقَ عبدِي؛ فأفرشوهُ منَ الجنةِ، وافتحوُا لهُ بابًا إلَىٰ الجنةِ، فذلكَ قولهُ تعالَىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾(٣)، فيفتحُ لهُ بابٌ إلَىٰ الجنةِ فيأتيهِ مِن رَوحِهَا وطِيبِهَا، ويوسعُ لهُ فِي قبرهِ مدَّ البصرِ، وينوَّرُ لهُ فيهِ، ويقالُ لهُ: انظُر إلَىٰ مقعدكَ منَ النارِ، قَد أبدلكَ اللهُ بهِ مقعدًا منَ الجنةِ فيراهمَا جميعًا، ويأتيهِ رجلٌ حسَنُ الوجهِ حسَنُ الثيابِ طيبُ الريحِ، فيقولُ: أبشِر بالذِي يسرُّكَ هذَا يومُكَ الذِي كنتَ توعدُ، فيقولُ لهُ: مَن أنتَ فوجهكَ الوجهُ الذِي يجيءُ بالخيرِ؟ فيقولُ: أنَا عملُكَ الصالحُ. فيقولُ: ربِّ أقِم الساعةَ، ربِّ أقِم الساعةَ حتَّىٰ أرجعَ إلَىٰ أهلِي ومالِي، يسأَلُ الرجوعَ إلَىٰ أهلهِ حتَّىٰ يبشرَهُم بمَا مَنَّ اللهُ عليهِ منَ النِّعمِ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٥)، ومسلم (٥١١٥).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١).

(٣) سورة إبراهيم:٢٧.

فيقالُ لهُ: نَمْ كنومةِ العروسِ الذِي لَا يوقظهُ إِلَّا أحبُّ أهلهِ إليهِ، حتَّىٰ يبعثَهُ اللهُ مِن مَضجَعِهِ ذلكَ.

وأمَّا العبدُ الفاجرُ فتُعَادُ روحهُ فِي جسدهِ، ويأتيهِ الملكانِ فيُجلسَانهِ فيقولانِ لهُ: مَن ربكَ؟ فيقولُ: هاه هاه لَا أدرِي، فيقولانِ: مَا دينكَ؟ فيقولُ: هاه هاه لَا أدرِي، فيقولانِ لهُ: مَا هذَا الرجلُ الذِي بُعِثَ فيكُم؟ فيقولُ: هاه هاه لَا أدرِي، فيقالُ لهُ: لَا دريتَ ولَا تليتَ، كنَّا نعلمُ أنكَ ستقولُ هذَا، ثمَّ ينادِي منادٍ منَ السَّماءِ أَنْ كذبَ فأفرشوهُ منَ النارِ، وافتحُوا لهُ بابًا إِلَىٰ النارِ، فيأتيهِ مِن حرهَا وسَمُومهَا، ويقالُ للأرضِ: التئمِي عليهِ، فيضيقُ عليهِ قبرهُ حتَّىٰ تختلفَ أضلاعهُ، ويأتيهِ رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، منتنُ الريحِ، فيقولُ: أبشِر بالذِي يسُوؤُكَ، هذَا يومُكَ الذِي كنتَ توعدُ، فيقولُ: مَن أنتَ؟ فوجهُكَ القبيحُ يجيءُ بالشرِّ، فيقولُ: أنَا عملُكَ الخبيثُ.

ثمَّ يضربُ بمَطَارقَ مِن حديدٍ فيصيحُ صيحةً يسمعهَا كلُّ شيءٍ إِلَّا الجنَّ والإنسَ، فيقولُ: ربِّ لَا تقمِ الساعةَ!

هنَا عرفَ أنَّ لهُ ربًّا، وأنَّ هناكَ ساعةً.

وبالرغمِ مِنَ العذابِ الذِي هوَ فيهِ، يتمنَّىٰ أَلَّا تقومَ الساعةُ؛ لعِلمهِ أَنَّ عذابَهُ فيهَا أشدُّ وأعظمُ.

إنَّ القبرَ أنصحُ واعظٍ وأصدقُهُ، ومَن علمَ مَا يجرِي فيهِ منَ الأهوالِ تنغَّصَ عيشهُ، وعَظُمَ خوفهُ لربهِ، قالَ ﷺ: «**مَا رأيتُ منظرًا قطُّ إِلَّا والقبرُ أفظعُ منهُ**»[(١)].

وكانَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذَا وقفَ علَىٰ قبرٍ بكَىٰ حتَّىٰ يبللَ لحيتهُ، فقيلَ لهُ: تذكرُ الجنةَ والنارَ فلَا تبكِي، وتبكِي مِن هذَا؟ قالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**القبرُ**

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥٥٠).

أولُ منازلِ الآخرةِ، فإِن نجَا منهُ فمَا بعدَهُ أيسَرُ منهُ، وإِن لَم يَنجُ منهُ فمَا بعدهُ أشدُّ منهُ»(١).

فإذَا ماتَ ابنُ آدمَ قامَت قيامتهُ، وعاينَ جزاءَهُ فِي قبرهِ، إمَّا روضةٌ مِن رياضِ الجنةِ أَو حفرةٌ مِن حفرِ النيرانِ.

إنَّ القبرَ بيتُ الرعبِ والأهوالِ، وبيتُ الوحشةِ والانفرادِ، مَن كانَ لهُ عملٌ صالحٌ استأنسَ بهِ، ومَن كانَ لَهُ عملُ سوءٍ ازدادَت وحشتهُ وعذابهُ، وهوَ أعظمُ معتبرٍ لمَن أرادَ الذكرَىٰ والاعتبارَ، مِن أجلِ ذلكَ قالَ ﷺ: «**كنتُ نهيتُكُم عَن زيارةِ القبورِ فزُورُوهَا؛ فإنهَا تذكركُمُ الآخرةَ**»(٢).

ومِن رحمةِ اللهِ بعبَادهِ أَن أخفَىٰ عليهِم مَا يجرِي فِي القبورِ منَ التعذيبِ الذِي لَا يطولهُ وصفٌ ولَا يُدركهُ عقلٌ، ولَو سمعُوا ذلكَ أَو رأوهُ، لَم يَطِبْ لهُم مقامُ، ولَم يهنأْ لهُم عيشٌ، ولَتَركَ بعضهُم دفنَ بعضٍ، قالَ ﷺ: «**لولَا ألَّا تَدافنُوا لدعوتُ اللهَ أَن يسمعكُم مِن عذابِ القبرِ الذِي أسمعُ منهُ**»(٣).

وقَد ذكرَ لنَا النبيُّ ﷺ أقوامًا يُعذَّبُونَ فِي قبورهِم تحذيرًا لنَا أَن نسلكَ طريقهُم، وبيانًا منهُ ﷺ أَنَّ عذابَ القبرِ حقٌّ، وأنهُ واقعٌ علَىٰ مَنِ استحقَّهُ، لَا يزالُ فيهِ إلَىٰ مَا شاءَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، كمَا ذكرَ لنَا أوصافًا، مَنِ اتصفَ بهَا استحقَّ أَن يكونَ منَ المعذبينَ فِي قبرهِ، فعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قالَ: مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ علَىٰ قبرينِ فقالَ: «**إنهمَا ليعذبانِ ومَا يُعذَّبانِ فِي كَبيرٍ، بلَىٰ إنهُ كبيرٌ، أمَّا أحدهمَا فكانَ**

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٢٦٧).

(٢) رواه مسلم (٣٦٥١).

(٣) رواه مسلم (٥١١٢).

لَا يستترُ مِن بولِهِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ يمشِي بالنَّميمةِ»[١].

فهمَا يعذبانِ بسبَبِ ذَنبَينِ فِي ظنِّ كثيرٍ منَ الناسِ انهمَا هينانِ، ولكنهمَا عندَ اللهِ مِن كبائرِ الذنوبِ التِي يستحقُّ صاحِبُهَا العذابَ بسببهَا، أمَّا أحدهمَا فكانَ لَا يتطهرُ مِن بولِهِ ولَا يتنظفُ، وقَد حذرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ذلكَ أشدَّ التحذيرِ فقالَ: «**استنزهُوا مِنَ البولِ؛ فإنَّ عامةَ عذابِ القَبرِ منهُ**»[٢].

فلا بدَّ للمرءِ أَن يحتاطَ وأَن يستنجيَ مِن بولِهِ لأنهُ نجسٌ، فإذَا مسَّ ملابسَهُ أَو بدنَهُ ولَم يغسِل أثرَهُ، فتبطُل صلاتُهُ حينذاكَ.

وأمَّا الآخرُ المستحقُّ لعذابِ القبرِ، مَن مشَىٰ بينَ الناسِ بالنميمةِ: وهيَ نقلُ الكلامِ بينَ الناسِ علَىٰ جهةِ الإفسَادِ بينَهُم، فيتسببُ بقطيعةِ الأرحامِ، وقطعِ أواصرِ الأُخُوَّةِ، وزرعِ الشحناءِ والبغضاءِ بينَ المسلمينَ، وربمَا تسببَ بوقوعِ القتلِ بينَ المسلمينَ، ولذَا فقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ النميمةِ بقولِهِ: «**لَا يدخلُ الجنةَ نمَّامٌ**»[٣].

وكَم حصلَ بينَ المسلمينَ منَ الفتنِ بسببِ النميمةِ!، وبعضهُم ينقلُ الكلامَ بينَ الناسِ دونَ النظرِ فِي العواقِبِ، ويرَىٰ أنَّ هذَا هيِّنٌ وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ.

فاحذرُوا منَ النَّميمةِ، واعلمُوا أنَّ المرءَ محاسبٌ علَىٰ مَا يتلفظُ بهِ، والعجيبُ أنَّ بعضَ الناسِ ينقلُ الكلامَ دونَ مصلحةٍ فيهِ، وبعضهُم ينقلُ الكلامَ بينَ الناسِ دونَ تثبُّتٍ، فإذَا بهِ قَد زرعَ الشقاقَ وإفسادَ ذاتِ البينِ، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ**

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩)، ومسلم (٤٣٩).

(٢) رواه الدارقطني، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٨).

(٣) رواه مسلم (١٥١).

فسادَ ذاتِ البينِ هيَ الحالقةُ، لَا أقولُ: تحلِقُ الشعرَ، ولكِن تحلِقُ الدينَ»[١].

وممَّا يُعذَّبُ بسببِهِ العبدُ فِي قبرِهِ: الكِبرُ والخُيلاءُ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينمَا رجلٌ يمشِي فِي بردَيهِ يتبختَرُ، قَد أعجبتهُ نفسُهُ، إِذ خسفَ اللهُ بِهِ الأرضَ فهوَ يتجلجلُ فيهَا إِلَىٰ يومِ القيامةِ**»[٢].

فالكبرُ ذنبٌ عظيمٌ، وعلامتهُ احتقارُ الناسِ، وردُّ الحقِّ علَىٰ مَن جاءَ بِهِ وعدمُ قبولِهِ، وهذَا فِي الناسِ كثيرٌ، منهُم مَن يتكبرُ لنسبهِ، ومنهُم مَن يتكبرُ لمالِهِ، ومنهُم مَن يتكبرُ لجاهِهِ، فإذَا عاينَ الحقيقةَ علمَ أنهُ مَا كانَ إلَّا فِي غرورٍ، وأنَّ مَن بطَّأَ بِهِ عملُهُ لَم يُسرِع بِهِ نسبهُ.

لمَّا حضرَت الخليفةَ العباسيَّ أبَا جعفرٍ المنصورَ الوفاةُ قالَ لمَن عندهُ: هذَا السلطانُ لَا سُلطانَ مَن يموتُ.

ولمَّا حضرتِ المأمونَ الوفاةُ اضطجعَ علَىٰ متاعِ دابتِهِ وجعلَ يقولُ: يَا مَن لَا يزولُ ملكهُ ارحَم اليومَ مَن زالَ ملكهُ.

فإذَا كانَ هذَا حالُ مَن ملكُوا الدنيَا فكيفَ بفقيرٍ مستكبرٍ لَا يرَىٰ الناسَ شيئًا، وكأنَّ أحدًا لَا يدانيهِ منزلةً؟!

وقَد رأَىٰ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي منامِهِ -ورؤيَا الأنبياءِ حقٌّ- صورًا مِن تعذيبِ بعضِ أهلِ المعاصِي بسببِ ذنوبِهِم، فقَد رأَىٰ رجلًا يُكسَر رأسهُ بالحجرِ، ثمَّ يعودُ كمَا كانَ ثمَّ يكسرُ مرةً أخرَىٰ يفعلُ بِهِ هكذَا إِلَىٰ يومِ القيامةِ، ورأَىٰ رجلًا يُقطعُ شدقُهُ إِلَىٰ مؤخرةِ رأسِهِ ومنخرُهُ وعينُهُ كذلكَ، ورأَىٰ رجلًا يسبحُ فِي نهرٍ منَ الدمِ، ورجلٌ قائمٌ علَىٰ حافةِ النهرِ فإذَا

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤١٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٣٨٥٩).

جاءهُ فتحَ فمهُ فألقمهُ حجرًا، وأنَّ هؤلاءِ يفعلُ بهِم هكذَا إلَىٰ يومِ القيامةِ.

فلمَّا سألَ: مَن هؤلاءِ؟ قيلَ لهُ: «**أمَّا الرجلُ الذِي أتيتَ عليهِ يُثلغُ رأسهُ بالحجرِ (أَي:يُكسَرُ)، فإنهُ الرجلُ يأخذُ القرآنَ فيرفضهُ وينامُ عَنِ الصلاةِ المكتوبةِ، وأمَّا الرجلُ الذِي أتيتَ عليهِ يُشَرشرُ شدقهُ إلَىٰ قفاهُ، ومنخرُهُ إلَىٰ قفاهُ، وعينهُ إلَىٰ قفاهُ، فإنهُ الرجلُ يغدُو مِن بيتهِ فيَكذبُ الكذبةَ تبلغُ الآفاقَ، وأمَّا الرجلُ الذِي أتيتَ عليهِ يسبَحُ فِي النهرِ ويُلقَمُ الحجرَ فإنهُ آكلُ الربَا**»(١).

فهذهِ صورٌ لبعضِ الأسبابِ التِي تؤدِّي بصاحبهَا إلَىٰ العذابِ فِي قبرهِ، فأحدهُم رجلٌ ينامُ عَن صلاةِ الفريضةِ فلَا يُصليهَا فِي وقتهَا، ولَا يعملُ بأحكامِ القرآنِ الكريمِ، فكانَ جزاؤهُ أَن يبقَىٰ فِي هذَا العذابِ المستمرِّ فِي قبرهِ إلَىٰ يومِ القيامةِ.

وكَم هُم أولئكَ الذينَ تخَلَّفُوا عَنِ الصلواتِ فلَا يحضرونَ إلَّا الجمعَ، فليحذرُوا مِن هذَا الوعيدِ الشديدِ.

وليحذَرِ المرءُ أَن يجعلَ الكذبَ لهُ مهنةً سواءً كانَ مازحًا أَو جادًّا، خشيةَ أَن يكونَ لهُ نصيبٌ مِن هذَا الوعيدِ الشديدِ، والأدهَىٰ مِن ذلكَ جَعْلُ اسمِ اللهِ لهُ بضاعةً يحلفُ بهِ كاذبًا ليأكلَ حقوقَ الناسِ.

والعجيبُ أنَّ بعضَ الناسِ يكذبُ لَا لحاجةٍ ولَا اضطرارٍ، فقَط ليتحدثَ فِي المجالسِ، ويستجلبَ الأنظارَ، فيُنسَىٰ حديثهُ، ويبقَىٰ الإثمُ مَكتُوبًا عليهِ فِي كتابٍ عندَ ربِّي، لَا يضِلُّ ربِّي ولَا ينسَىٰ.

ومِن هؤلاءِ آكلُ الربَا الذِي يُعذَّبُ بهذَا العذابِ إلَىٰ يومِ القيامةِ.

فيَا مَن تسمَعُ هذَا الوعيدَ الشديدَ المُخيفَ: هَل سيكونُ هذَا دافعًا لكَ للخروجِ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣٥).

مِن هذَا الإثمِ العظيمِ، فتُعاهدَ اللهَ علَىٰ التوبةِ منَ الربَا قبلَ حلولِ الأجلِ دونمَا مهلةٍ؟

وممَّا يعذبُ العبدُ عليهِ فِي قبرهِ: الغيبةُ، وهيَ أَن تذكرَ أخاكَ بمَا يكرهُهُ، فعَن أبي بكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: مرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرينِ فقالَ: «**إنهمَا ليعذبانِ ومَا يعذبانِ فِي كبيرٍ، أمَّا أحدهمَا فيعذبُ فِي البولِ، وأمَّا الآخرُ فيعذبُ فِي الغيبةِ**»(١).

ومَا أكثرُ وقوعَ الغِيبةِ بينَ الناسِ هذهِ الأيام، يتكلمونَ فيمَا لَا يعنيهم، ويوردونَ نقائصَ الناسِ دونمَا سببٍ ولَا عذرٍ، إنمَا لمرضٍ فِي نفوسهِم ولإطفاءِ نارِ غيظهِم، ولإشفاءِ غليلهِم، حسدًا مِن عندِ أنفسهِم، ولَا يسلمُ مِن هذَا المرضِ إلَّا مَن رحمهُ اللهُ.

ولمَا تزرعهُ الغيبةُ منَ الفسادِ بينَ الناسِ والكذبِ والبهتانِ استحقَّ صاحبُهَا هذَا الوعيدَ الشديدَ، فحريٌّ بالمسلمِ أَن يتركَ فضولَ الكلامِ فِي تتبُّعِ عوراتِ الناسِ، ومَن نظرَ فِي عيبهِ ونقصهِ لَم يتجرَّأ أَن يتوجَّهَ لأحدٍ بالطعنِ والتنقيصِ، ولكنَّ المصيبةَ أننَا فِي زمنٍ كلٌّ يدَّعِي الكمالَ فيهِ.

ومِن أسبابِ عذابِ القبرِ: النيَاحةُ علَىٰ الميتِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الميتُ يعذبُ بمَا نيحَ عليهِ**»(٢)، وهذَا إن أوصَىٰ أهلهُ بالنياحةِ عليهِ، كمَا قيلَ:

إذَا مِتُّ فَابكِينِي بِمَا أَنَا أَهلُهُ ... وَشُقِّي عَلَيَّ الثَّوبَ يَا أُمَّ مَعبَدِ

وإن علمَ أنَّ مِن عادةِ أهلهِ النياحةَ؛ فالواجبُ عليهِ أَن يوصيهُم بعدمِ النياحةِ عليهِ؛ حتَّىٰ لَا يكونَ لهُ نصيبٌ مِن هذَا الوعيدِ.

والنياحةُ حرامٌ، و«**النائحةُ إن لَم تتُب قبلَ موتهَا أُقِيمَتْ يومَ القيامةِ وعليهَا سِربالٌ مِن قَطِرانٍ ودرعٌ مِن جَرَبٍ**» كمَا صحَّ ذلكَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٢١٠)، ومسلم (١٥٣٧).

(٣) رواه مسلم (١٥٥٠).

فتعذبُ يومَ القيامةِ بأَن تلبسَ ثوبًا مِنَ النُّحاسِ المُذَابِ، ودِرعًا مِن جربٍ، تُعذَّبُ بهِ فِي النارِ.

فليَحذَرِ المسلمُ مِن هذَا أشدَّ الحذرِ، ولْيوصِ أهلهُ بعدَمِ النيَاحةِ، وهيَ رفعُ الصوتِ بالصِّياحِ، وشقُّ الجيوبِ، ولطمُ الخدودِ، والدعاءُ بدعوَىٰ الجاهليةِ مِن تعديدِ مَحَاسنِ الميتِ.

هذهِ بعضُ الأسبابِ التِي وردَ بهَا الوعيدُ الشديدُ علَىٰ لسانِ الناصحِ الأمينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذكرناهَا لكثرةِ وقوعهَا بينَ الناسِ، وإلَّا فإنَّ كلَّ معصيةٍ ماتَ عليهَا العبدُ ولَم يتُبْ منهَا، فهوَ معرَّضٌ لعذابِ القبرِ -نعوذُ باللهِ مِن ذلكَ-.

فمَن علمَ هذَا حقَّ العلمِ، وأيقنَ بهِ حقَّ اليقينِ، فحريٌّ بهِ أَن يعملَ كلَّ مَا بوسعهِ لتجنُّبِ عذابِ القبرِ وفتنِتِهِ، وعليهِ أَن يُديمَ الاستعاذةَ مِن عذابِ القبرِ وفتنتهِ، كمَا كانَ يستعيذُ منهُ نبيُّنَا محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكمَا أمرنَا بذلكَ فقالَ: «**تعوَّذُوا باللهِ مِن عذابِ القبرِ**»[1].

ومَا أكثرَ مَا كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستعيذُ مِن عَذابِ القبرِ وفتنةِ القبرِ، كمَا فِي دعائهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن فتنةِ النارِ، ومِن عذابِ النارِ، وأعوذُ بكَ مِن فتنةِ القبرِ، وأعوذُ بكَ مِن عذابِ القبرِ**»[2].

ولنُصحِهِ ورحمَتِهِ وشفقتِهِ بنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَد أمرنَا بالاستعاذةِ مِن عَذابِ القبرِ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ، فقالَ: «**إذَا تشهدَ أحدكُم فليستعِذ باللهِ مِن أربعٍ: مِن عذابِ جهنَّمَ، ومِن عذابِ القبرِ، ومِن فتنةِ المَحيَا والمَماتِ، ومِن شرِّ فتنةِ المَسيحِ الدجَّالِ**»[3].

---

(١) رواه مسلم (٥١١٢).
(٢) رواه البخاري (٥٨٩٩).
(٣) رواه مسلم (٩٢٤).

نسألُ اللهَ تعالَىٰ بأسمائِهِ الحسنَىٰ وصفاتِهِ العلَا، أَن يعيذنَا مِن عذابِ القبرِ وفتنتِهِ، وأَن يجعلنَا منَ المنعَّمينَ فيهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لهُ علَىٰ إحسانهِ العامِّ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ تفرَّدَ بالكمَالِ والتمَامِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ هُداةِ الأنامِ ومَصَابيحِ الظَّلامِ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا الناسُ:

فاحذرُوا الاغترارَ بالأمانيِّ والآمالِ، فإنكُم علَىٰ وشكِ النقلةِ والارتحَالِ.

أينَ مَن جمعَ الأموالَ ونمَّاهَا، وافتخرَ علَىٰ أقرانهِ وتمتعَ بلذاتهِ؟!

أمَا ترونَ القبرَ قَد حواهُ، والترابَ قَد أكلهُ وأبلاهُ، ولَم يبقَ لهُ إلَّا مَا قدَّمَت يداهُ؟!

أينَ السابقونَ مِنَ الأممِ؟ هَل خُلِّدُوا فِي هذهِ الدنيَا؟ هَل أخذُوا معهُم شيئًا إلَىٰ قبورهِم؟

هذهِ آثارهُم تدلُّ عليهِم، ومنازلهُم تخبرُ عنهُم، خلَّفوا الأهلَ والأموالَ ورافقَهُم إلَىٰ قبورهِم مَا كسبُوا منَ الأعمالِ، أمَا لنَا فِي ذلكَ معتبرٌ؟!

سَأَلْتُ الدَّارَ تُخبِرُنِي ... عَنِ الأَحبَابِ مَا فَعَلُوا
فَقَالَت لِي أَنَاخَ القَومُ ... أَيَّامًا وَقَد رَحَلُوا
فَقُلتُ فَأَينَ أَطلُبُهُم ... وَأَيُّ مَنَازِلٍ نَزَلُوا

فَقَالَـــــت بِالقُـــبُورِ وَقَـــدْ لَقُـــوا وَاللَّـــهِ مَـــا فَعَـلُـــوا

إننَا سنقدمُ علَىٰ هولٍ عظيمٍ، وخطبٍ جسيمٍ، ولَا ندرِي مَا خُبِّئَ لنَا، فهَل أعددنَا لذلكَ الأمرِ عدَّتهُ؟

قالَ أبُو أُمَامَةَ الباهليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وقَد وقفَ علَىٰ جنازةٍ:** إنكُم أصبَحتُم وأمسَيتُم فِي منزلٍ تَغتنمونَ منهُ منَ الحسَناتِ والسَّيئاتِ، تُوشِكُونَ أَن تظعنُوا منهُ إلَىٰ منزلٍ آخرَ وهوَ القَبرُ، بيتُ الوَحشَةِ وبيتُ الظلمةِ وبيتُ الضيقِ، إلَّا مَا وَسَّعَ اللهُ، ثمَّ تنتقلونَ منهُ إلَىٰ يومِ القيامةِ.

ولقَد أضجَّ ذِكرُ القبُورِ وأهوالُهَا مضَاجعَ الصَّالحينَ، فعَظُمَ اتعاظُهُم برُؤيتهَا، وكَبُرَ خوفهُم مِن مآلِ الحالِ فيهَا، قالَ ميمونُ بنُ مِهرانَ: خرجتُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ إلَىٰ المَقبرةِ، فلمَّا نظرَ إلَىٰ القبورِ بكَىٰ، ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ: يَا أبَا أيوبَ، هذهِ قبورُ آبائِي بنِي أميَّةَ، كأنهُم لَم يشاركُوا أهلَ الدنيَا فِي لذَّتِهم وعيشِهِم، أمَا تراهُم صَرعَىٰ قَد حلَّت بهمُ المَثُلاتُ، واستحكمَ فيهِمُ البلاءُ، وأصابَت الهَوامُّ فِي أبدانِهِم مقيلًا، ثمَّ بكَىٰ حتَّىٰ غُشِيَ عليهِ.

ومرَّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقبورِ فقالَ: السَّلامُ عليكُم يَا أهلَ الديارِ المُوحِشةِ، والمحالِ المقترةِ، أنتُم لنَا سلفٌ ونحنُ لكُم تبعٌ، وإنَّا -إن شاءَ اللهُ- بكُم عمَّا قليلٍ لاحِقُونَ، يَا أهلَ القبورِ: أمَّا الأموالُ فقَد قُسِّمَت، وأمَّا الأزواجُ فقَد نُكِحَت، وأمَّا البيوتُ فقَد سُكِنَت، هذَا خبرُ مَا عندنَا، فمَا خبرُ مَا عندكُم؟

ثمَّ التفتَ إلَىٰ أصحابهِ وقالَ: أمَا إنهُم لَو تكلمُوا لقالُوا: وجدنَا أنَّ خيرَ الزادِ التقوَىٰ.

فاعتبِر -أيُّهَا المسلمُ- بمَن حولكَ ممَّن رحلُوا عَن هذهِ الدنيَا، يوشكُ الموتُ الذِي تخطاكَ إليهِم، أَن يتخطَّىٰ غيرَكَ إليكَ، فتصبحُ عَن هذهِ الدنيَا راحلًا، ولِمَا

عملَت يداكَ ملاقيًا.

يوشكُ أَن يحُلَّ بكَ الموتُ، فيتتابعُ أنينُكَ، ويتحجَّرُ لسانُكَ، ويبكِي حَولكَ الأهلُ والأولادُ والإخوانُ، وأنتَ فِي وادٍ وهُم فِي وادٍ آخَرَ، قَد شخصَ بصرُكَ، وغرقَت عيونُكَ بالدمُوعِ، تتمنَّىٰ الرجوعَ ولَا سبيلَ إليهِ.

ومَا هيَ إلَّا لحظاتٌ فإذَا بالمَوتِ وقَد حلَّ بكَ، وانتُزِعَت رُوحُكَ، وأُخِذْتَ إلَىٰ المُغسلِ، وحُمِلْتَ علَىٰ النعشِ إلَىٰ قبركَ، فاستراحَ حسادُكَ، وانصرفَ أهلُكَ إلَىٰ مالِكَ، وبقيتَ مُرتهنًا بأعمالكَ، فيَا لهَا مِن رحلةٍ عصيبةٍ وسفرٍ بعيدٍ!

إنكَ واللهِ لَو رأيتَ الميتَ فِي قبرهِ بعدَ ثلاثٍ لاستوحشتَ منهُ بعدَ طولِ الأنسِ بهِ، ولرأيتَ بيتًا تجولُ بهِ الهوامُ، ويجرِي منهُ الصديدُ، وتخترقهُ الديدانُ، معَ تغيُّرِ الريحِ وتقطعِ الأكفانِ، وذلكَ بعدَ حسنِ الهيئةِ، وطيبِ الريحِ، ونقاءِ الثوبِ.

شيَّعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ جنازةً فوعظَ أصحابَهُ فقالَ: «إذَا مررتَ بأهلِ القبورِ فنادهِم إن كنتَ مناديًا، وادعهُم إن كنتَ داعيًا، وانظُر إلَىٰ تقاربِ منازلهِم، سَل غنيَّهُم مَا بقيَ مِن غناهُ، وسَل فقيرَهُم مَا بقيَ مِن فقرهِ؟!

واسألهُم عَنِ الألسنِ التِي كانُوا بهَا يتكلمونَ، وعَنِ الأعينِ التِي كانُوا بهَا للملذاتِ ينظرونَ، وسلهُم عنِ الجلودِ الرقيقةِ والوجوهِ الحسنةِ، والأجسادِ الناعمةِ، مَا صنعَ بهَا الديدانُ تحتَ الأكفانِ، وقَد عُفِّرَت الوجوهُ ومُحيَت المحاسنُ ومُزِّقَت الأشلاءُ.

أينَ حُجَّابهُم وقصورهُم؟ وأينَ خدمهُم وكنوزهُم؟ كأنهُم مَا وَطِئُوا فُرشًا، ولَا غرسُوا شجرًا!

أليسُوا فِي منازلِ الخلواتِ؟ أليسَ الليلُ والنهارُ عليهِم سواء؟ أليسُوا فِي مدلهمةٍ ظلماءَ؟ قَد حيلَ بينهُم وبينَ العملِ، وفارقُوا الأحبَّةَ؟

فيَا ساكنَ القبرِ غدًا، مَا الذِي غرَّكَ منَ الدنيَا؟

ويَا مغمِضَ الوالدِ والأخِ والولدِ وغاسلهِ، يَا مكفِّنَ الميتِ ويَا مدخلَهُ القبرَ وراجعًا عنهُ، صرتَ فِي محلةِ الموتِ».

فاعتبرُوا بأحوالِ مَن سبقكُم ممَّن حولكُم، وليتأمَّلِ المرءُ حالَ مَن مضَىٰ مِن إخوانهِ وأقرانهِ الذينَ بلغُوا الآمالَ، كيفَ انقطعَت آمالهُم، ولَم تُغنِ عنهُم أموالهُم، وقَد صارَت فِي الترابِ مَحَاسنُ وجوههِم، وافترقَت فِي القبورِ أجزاؤهُم، وترمَّلَ بعدَهُم نساؤُهُم، وشملَ اليُتمُ أولادَهُم.

وليتذكَّرِ العبدُ حرصهُم علَىٰ نَيلِ المَطالبِ، ورُكونهِم إلَىٰ الصحةِ والشبابِ، وغفلةِ بعضهِم عمَّا بينَ يديهِ منَ الأمرِ الفظيعِ والهلاكِ السريعِ، وأنهُ لَا بُدَّ صائرٌ إلَىٰ مصيرهِم.

ومَن أكثرَ فِي هذَا التذكرَ والاعتبارَ، أقبلَ علَىٰ أعمالِ الآخرةِ وطاعةِ ربهِ، ولانَت جوارحهُ، وخشعَ قلبهُ.

فاستعدُّوا لذلكَ اليوم بالطاعَةِ والمُسَارعةِ إلَىٰ الخيراتِ، والاعتبارِ بأحوالِ مَن مضَىٰ، وبذكرِ الموتِ فإنهُ يزهدُ فيمَا لَا ينفعُ.

وعلَىٰ العبدِ أَن يخرُجَ مِن مَظالمِ الناسِ، فإياكَ أَن يبغتكَ الأجلُ وقَد أخذتَ حقوقَ الناسِ، فالموتُ لَا يمهلُ، والأجلُ لَا يستبطئُ، وعليكُم باتبَاعِ هَديِ نبيِّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تحرِّي الأسبابِ المُجَنِّبةِ لعذابِ القبرِ، ودوامِ الاستعاذةِ مِن عذابهِ وفتنتهِ، فإنَّ ذلكَ أمرٌ حَريٌّ بالعَبدِ أَن يستعدَّ لهُ وأَن يُعِدَّ لهُ عُدَّتَهُ.

نسألُ اللهَ تعالَىٰ أَن يُعيذَنَا مِن عذابِ القبرِ وفتنتِهِ، وأَن يُجَنبنَا أسبابَ سخطهِ وأليمَ عقابهِ.

❊❊❊

(١٨) حكمةُ الوقوعِ فِي الذنوبِ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وهوَ الذِي جعلَ الليلَ والنهارَ خِلفةً لمَن أرادَ أَن يذَّكرَ أَو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، أرسلهُ إِلَىٰ جميعِ الخلقِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بإذنهِ وسراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا جرَت فيهِ حكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الخطأَ والزللَ مِن طباعِ البشريةِ، وأنَّ المرءَ مهمَا صلحَ حالهُ واستقامَ فلا بدَّ أَن يقعَ فِي الذنوبِ والمعاصِي، والناسُ فِي هذَا البابِ الخطيرِ بينَ مُقِلٍّ ومُستكثرٍ.

وعلَىٰ المسلمِ البصيرِ أَن يتأمَّلَ فِي حكمةِ اللهِ سبحانهُ فِي تخليتهِ بينَ العبدِ وبينَ ذنبهِ، وإقدارِه عليهِ، وتهيئةِ أسبابهِ لهُ، ولَو شاءَ لعصمَهُ وحالَ بينهُ وبينَ الذنبِ، ولكنهُ خلَّىٰ بينهُ وبينهُ لحكمٍ عظيمةٍ، وغاياتٍ لَو تفكَّرَ بهَا المتفكرُ لكانَت سببًا فِي استقامةِ حالهِ بعدَ اعوجاجهَا، ورجوعهِ إِلَىٰ طاعةِ ربِّهِ ومولاهُ بعدَ انصرافهِ عنهَا.

فإذَا وقعَ العبدُ في الذنبِ فليعرف مدَىٰ حاجتهِ وفقرهِ إِلَىٰ حفظِ اللهِ تعالَىٰ، ولْيوقنَ أنَّهُ إِن لَم يحفظْهُ ويَصُنْهُ أَنَّهُ هالكٌ ولا بدَّ، والشياطينُ قَد مدَّت أيديهَا إليهِ تمزقُهُ كلَّ ممزَّقٍ.

وهذَا ممَّا يورثُ العبدَ استعانتَهُ بربِّهِ وخالقِهِ، واستعاذتَهُ بهِ مِن عدوِّهِ وشرِّ نفسهِ، ودعاءَهُ والتضرعَ إليهِ والابتهالَ بينَ يديهِ؛ ولذَا فقَد كانَ مِن دعاءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولهُ: «**يَا حيُّ يَا قيومُ، برحمتكَ أستغيثُ، أصلِح لِي شأنِي كلَّهُ، ولَا تكلنِي إِلَىٰ نفسِي**

طرفةَ عينٍ»(١).

فمَن وقعَ فِي الذنبِ وفتحَ اللهُ لهُ بابَ التوبةِ، فلْيُقِرَّ لربِّهِ سبحانهُ بحاجَتِهِ إليهِ، ولْيتواضَع لمولاهُ، ولْينكسِر بينَ يديهِ سائلًا إيَّاهُ المغفرةَ لذنبهِ والثباتَ علَىٰ الطاعاتِ، فإنَّ هذهِ القلوبَ تتقلَّبُ، والسعيدُ مَن صرَّفَ اللهُ قلبَهُ علَىٰ العملِ الصَّالِحِ، ولَم يكلْهُ إلَىٰ نفسِهِ وجهدِهِ، ولذَا كانَ أكثرُ دعائهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا مقلبَ القلوبِ ثبِّت قلبي علَىٰ دينِكَ»**، فقيلَ لهُ فِي ذلكَ، فقالَ: **«إنهُ ليسَ آدميٌّ إلَّا وقلبهُ بينَ أصبعينِ مِن أصابعِ اللهِ، فمَن شاءَ أقامَ ومَن شاءَ أزاغَ»**(٢).

ومنَ الحِكَمِ العظيمةِ لوقوعِ العبدِ فِي الذنوبِ: أنَّ العبدَ لَو استقامَت حالهُ علَىٰ الطاعةِ دائمًا لربمَا أعجبتهُ نفسُهُ واغترَّ بعملِهِ، وشمخَ بأنفِهِ وظنَّ أنهُ وأنهُ...، فإذَا ابتلاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالذنبِ تصاغرَت عندَهُ نفسهُ، وعلِمَ حقيقةَ نفسِهِ وأنهَا الخطاءةُ الجاهلَةُ، وأنَّ كلَّ مَا فيهَا مِن خيرٍ أَو علمٍ أَو عملٍ فمِنَ اللهِ سبحانهُ وحدَهُ مَنَّ بِهِ عليهِ لَا مِن نفسِهِ، وزالَ عنهُ رداءُ العُجْبِ الذِي يُهلكُ مَن جعلهُ لباسًا لهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَو لَم تذنبُوا لخشيتُ عليكُم مَا هوَ أكبرُ منهُ؛ العُجْبَ»**(٣).

ومَن وقعَ فِي الذنبِ علمَ سعةَ حلمِ اللهِ وكرمَهُ فِي سترهِ عليهِ، ولَو شاءَ لعاجلَهُ بالعقوبةِ علَىٰ الذنبِ، ولهتكَهُ بينَ العبادِ فلَم يصْفُ لهُ معهُم عيشٌ.

إِذَا أُخبِــرْتَ عَــن رَجُــلٍ بَــرِيءٍ ... مِــنَ الآفَــاتِ ظَاهِــرُهُ صَــحِيحُ
فَــسَلهُم عَــنهُ هَــل هُــوَ آدَمِــيٌّ؟ ... فَــإِن قَالُــوا نَعَــمْ فَالقَــولُ رِيــحُ
وَلَكِــنْ بَعــضُنَا أَهــلُ اســتِتَارٍ ... وَعِــندَ اللَّــهِ أَجمعُــنَا جَــرِيحُ

---

(١) رواه النَّسائي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٦١).
(٢) رواه الترمذي، وحسَّنه الالباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩١).
(٣) رواه البزار، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٢١).

وَمِـــن إِنعَـــامِ خَالِقِـــنَا عَلَيـــنَا ... بِـــأَنَّ ذُنُوبَـــنَا لَيـــسَت تَفُـــوحُ
فَلَـــو فَاحَـــت لَأَصـــبَحنَا هُـــرُوبًا ... فُـــرَادَىٰ بِـــالفَلَا مَـــا نَـــستَرِيحُ
وَضَـــاقَ بِكُـــلِّ مُنـــتَحِلٍ صَـــلَاحًا ... لِنَـــتْنِ ذُنُـــوبِهِ الـــبَلدُ الفَـــسِيحُ

فالحَمدُ للهِ علَىٰ جميلِ سترِهِ، فإِنَّ مِن أعظمِ نعمِ اللهِ علَىٰ عبادِهِ أَن سَتَرَ عيوبَ بعضِهِم عَن بعضٍ، ولَو بدَت صحائفُ أعمالِ الخلقِ بعضِهِم لبعضٍ لَما صفَا لهُم عيشٌ، ولَمَا جلسَ أحدٌ إِلَىٰ أحدٍ، ولَا أحبَّ أحدٌ أحدًا.

قالَ ابنُ شوذبٍ: اجتمعَ قومٌ فتذاكرُوا، أيُّ النعمِ أفضلُ؟ فقالَ رجلٌ: مَا سترَ اللهُ بهِ بعضنَا عَن بعضٍ.

ومَن وقعَ فِي الذنبِ أنساهُ ذلكَ رؤيةَ طاعتهِ واشتغلَ برؤيةِ ذنبهِ، فلَا يزالُ نصبَ عينيهِ، فإِنَّ اللهَ تعالَىٰ إِذَا أرادَ بعبدٍ خيرًا سلبَ رؤيةَ أعمالِهِ الحسنةِ مِن قلبهِ، والإِخبارَ بهَا مِن لسانهِ، وشغلَهُ برؤيةِ ذنبهِ فلَا يزالُ نصبَ عينيهِ حتَّىٰ يدخلَ الجنةَ، فإِنَّ مَا تُقُبِّلَ مِنَ الأعمالِ مَا رُفِعَ منَ القلبِ رؤيتُهُ، ومنَ اللسَانِ ذِكرُهُ.

قالَ بعضُ السلفِ: «إِنَّ العبدَ ليعملُ الخطيئةَ فيدخلُ بهَا الجنةَ، ويعملُ الحسنةَ فيدخلُ بهَا النارَ. قالُوا: كيفَ؟ قالَ: يعملُ الخطيئةَ فلَا تزالُ نصبَ عينيهِ إِذَا ذكرهَا ندمَ واستقالَ وتضرَّعَ إِلَىٰ اللهِ وانكسرَ وذلَّ لربهِ، وزالَ عنهُ عُجْبُهُ وكبرُهُ، فيدخلُ بهَا الجنةَ، ويعملُ الحسنةَ فلَا تزالُ نصبَ عينيهِ، يراهَا ويمنُّ بهَا ويعتدُّ ويتكبرُ حتَّىٰ يدخلَ النارَ».

ومنَ الحكمِ العظيمةِ لوقوعِ العبدِ فِي الذنوبِ: أَن يعرفَ مقدارَ العافيةِ، فلَو أنهُ بقيَ مستقيمًا علَىٰ الطاعاتِ فإِنهُ لَن يعرفَ مقدارَ مَا يُعانيهِ المُبتلَىٰ ولَا يعرفُ قدْرَ العافيةِ، فإِذَا وقعَ فِي الذنبِ استُخرجَ مِن قلبهِ ذلُّ العبوديةِ للهِ ربِّ العالمينَ بالخوفِ والبكاءِ والندمِ، وعلمَ مقدارَ إساءتِهِ وظُلمِهِ، واستكثرَ القليلَ مِن نعمةِ اللهِ لعلمهِ بأنَّ

الواصلَ إليهِ منهَا كثيرٌ علَىٰ مسيءٍ مثلهِ، فاستقلَّ الكثيرَ مِن عملهِ لعلمهِ بأنَّ الذِي يَصلحُ لهُ أَن يغسلَ بهِ نجاستهُ وذنوبهُ أضعافُ أضعافِ مَا يفعلُهُ، فهوَ دائمًا مستقلٌّ لعملهِ كائنًا مَا كانَ، ولَو لَم يكُن مِن فوائدِ الذنبِ وحِكَمِهِ إلَّا هذَا وحدَهُ لكانَ كافيًا.

فإنَّ العبدَ متَىٰ كانَ محتقرًا لعملهِ، خائفًا مِن عدمِ قبولهِ، كانَ أدعَىٰ وأقربَ للقبولِ، جاءَ عَن أمِّنَا عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أنهَا سألَتِ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالَت: «**يَا رسولَ اللهِ،** ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ**﴾(١)، **أهُمُ الذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرقونَ؟**

قالَ: لَا يَا بنتَ الصدِّيقِ، ولكنهُمُ الذينَ يصومونَ ويُصَلُّونَ ويتصدَّقونَ، وهُم يخافونَ ألَّا يَقبَلَ اللهُ منهُم، ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ**﴾(٢)»(٣).

قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: إنَّ المؤمنَ جمعَ إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافقَ جمعَ إساءةً وأمنًا.

كمَا أنَّ العبدَ إذَا وقعَ فِي الذنبِ ثمَّ وفقهُ اللهُ للتوبةِ منهُ، والإنابةِ إليهِ سبحانهُ، فإنَّ اللهَ يوجبُ لهُ بهذهِ التوبةَ مزيدَ محبةٍ وشكرٍ ورضا لَا يحصلُ بدونِ التوبةِ.

وقَد يكونُ فِي القلبِ أنواعٌ مِنَ الأمراضِ المُزمِنَةِ، التِي لَا يشعُرُ بهَا العبدُ، فيقضِي عليهِ اللطيفُ الخبيرُ بذنبٍ ظاهرٍ، فيجدُ ألَمَ مَرَضِهِ فيبحثُ عَن دواءٍ نافعٍ لهُ فيشربهُ فيزولُ داؤهُ، ولَا علاجَ أنفعَ للذنوبِ والمعاصِي مِنَ التوبةِ النصوحِ، التِي تفتحُ لصاحبِهَا بعدَ ذلكَ أبوابَ الرجاءِ والعملِ.

ومِن آثارِ الذنوبِ: أنَّ العبدَ إذَا وقعَ فيهَا أذاقهُ ألَمَ الحجابِ والبعدِ عنهُ بارتكابهِ

---

(١) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون: ٦١.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

الذنبَ، فإذَا أرادَ اللهُ أَن يتمَّ علَىٰ عبدهِ نعمتَهُ وفرحَهُ وسرورَهُ، وفَّقَهُ للإقبالِ إليهِ بقلبهِ، وجمعهُ عليهِ وأقامَهُ علَىٰ طاعتهِ، فتكونُ لذتهُ فِي ذلكَ بعدَ أَن صدرَ منهُ مَا صدرَ، بمنزلةِ التذاذِ الظمآنِ بالماءِ العذبِ الزُّلالِ، والشديدِ الخوفِ بالأمنِ، والمحبِّ الطويلِ الهجرِ بوصلِ محبُوبهِ، وإنَّ لُطفَ اللهِ وبرَّهُ وإحسانَهُ ليبلُغُ بعبدهِ أكثرَ مِن هذَا، فيَا بؤسَ مَن أعرضَ عَن معرفةِ ربِّهِ ومحبتِهِ.

فإنَّ العبدَ إذَا أذنبَ سُلِبَ حلاوةَ الطاعةِ والقربِ ووقعَ فِي الوحشةِ، فإن كانَ ممَّن يصلحُ، اشتاقَت نفسهُ إلَىٰ لذةِ تلكَ المعاملةِ، فحنَّت وتضرَّعَت واستعانَت بربهَا ليردَّهَا إلَىٰ مَا عوَّدهَا مِن برِّهِ ولطفِهِ، وإن ركنَت واستمرَّ إعراضُهَا ولَم تحِنَّ إلَىٰ مَا تعوَّدتهُ منَ الطاعاتِ، ولَم تحسَّ بحاجتهَا وفقرهَا إلَىٰ مراجعةِ قُربها مِن ربِّها، عُلِم أنهَا لَا تصلحُ للهِ سبحانهُ، فبقيَت تتخبَّطُ فِي أوديةِ المهالكِ.

ومنَ الحِكمِ العظيمةِ جرَّاءَ وقوعِ العبدِ فِي الذنبِ: أن ذلكَ ينتجُ عنهُ إقامتُهُ لمعاذيرِ الخلائقِ، واتساعُ رحمتهِ لهُم، معَ إقامةِ أمرِ اللهِ فيهِم، فيقيمُ أمرَهُ فيهم رحمةً لهُم لَا قسوةً وفظاظةً عليهِم، فإذَا رأَىٰ إسرافَهُم علَىٰ أنفسهِم بالذنوبِ أقامَ أمرَ اللهِ فيهِم بمنتهَىٰ الرحمةِ والشفقةِ دونَ ازدِراءٍ لهُم واحتقارٍ، وإذَا رأَىٰ مَا وقعُوا فيهِ منَ الذنوبِ فليتذكَّر أنَّهُ قَد أذنبَ كمَا أذنبُوا، وأنهُم ضعفُوا كمَا قَد ضعفَ هوَ مِن قبلُ فأذنبَ، وتيقَّنَ أنَّ الذنبَ مِن موجباتِ البشريةِ، فمَن تفكَّرَ فِي ذلكَ حقَّ التفكرِ خلعَ صولةَ الطاعةِ والإحسانِ مِن قلبهِ فتبدَّلَت رقَّةً ورأفةً ورحمةً.

وإياكَ -أيهَا المسلمُ- مِنَ الشماتةِ بأصحابِ الذنوبِ، فإذَا رزقكَ اللهُ الاستقامةَ فاعلَم أنَّ ذلكَ مِن مِنَّةِ اللهِ عليكَ وفضلهِ لَا بكسبِ يدكَ، فاحمَدِ اللهَ علَىٰ نعمائهِ، واسألْهُ الثباتَ علَىٰ الطاعةِ حتَّىٰ تلقاهُ، قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاجعَـلْ لِقَلْـبِكَ مُقلَتَـينِ كِلَاهُمَـا ... بِالحَـقِّ فِـي ذَا الخَلْـقِ نَاظِـرَتَانِ

فَانظُر بِعَينِ الحُكمِ وَارحَمهُم بِهَا ... إِذ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ
وَانظُر بِعَينِ الأَمرِ وَاحمِلهُم عَلَىٰ ... أَحكَامِهِ... فَهُمَا إِذَن نَظَرَانِ
وَاجعَل لِوَجهِكَ مُقلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِن خَشيَةِ الرَّحمَنِ بَاكِيَتَانِ
لَو شَاءَ رَبُّكَ كُنتَ أَيضًا مِثلَهُم ... فَالقَلبُ بَينَ أَصَابِعِ الرَّحمَنِ

كمَا أنَّ وقوعَ العبدِ فِي الذنبِ يوجبُ عليهِ أَن يعامِلَ عبادَ اللهِ فِي إساءتهِم إليهِ وزلاتِهِم معَهُ بمَا يحبُّ أَن يعاملَهُ اللهُ بهِ، فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فيعملُ فِي ذنوبِ الخلقِ معهُ مَا يُحِبُّ أَن يصنعَهُ اللهُ بذنوبهِ.

وممَّا لا بُدَّ أَن يتَّصفَ بِهِ المسلمُ: شهودُهُ لذنبهِ وخطيئتِهِ، فلَا يرَىٰ لهُ علَىٰ أحدٍ فضلًا ولا حقًّا، فإنهُ إذَا شَهِدَ عيبَ نفسِهِ وخطأَهَا وذنوبَهَا، لَا يظنُّ أنهُ خيرٌ مِن مسلمٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، وإذَا شهدَ ذلكَ مِن نفسهِ لَم يَرَ لهَا علَىٰ الناسِ حقوقًا مِنَ الإكرامِ يطلبهَا منهُم ويذمهُم علَىٰ تركِ القيامِ بهَا.

ولذلكَ فإنهُ يرَىٰ أنَّ مَن سلَّمَ عليهِ أَو لقيهُ بوجهٍ منبسطٍ قَد أحسنَ إليهِ، وبذَلَ لهُ مَا لَا يستحِقُّهُ، فاستراحَ فِي نفسهِ واستراحَ الناسُ مِن عتبهِ وشِكايتهِ فمَا أطيبَ عيشَهُ!

ومِن حكمِ الوقوعِ فِي الذنبِ: أنهَا تورثُ صاحبَهَا الإمساكَ عَن عيوبِ الناسِ وإعمالَ الفكرِ فيهَا، فإنهُ فِي شُغلٍ بعَيبهِ، **قالَ أنسٌ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طوبَىٰ لمَن شغلهُ عيبُهُ عَن عيوبِ الناسِ».

فيَا سعادةَ مَن شَغلهُ عيبُهُ عَن عيوبِ الناسِ، ويَا شقاءَ مَن نسيَ عيبَهُ وتفرَّغَ لعيوبِ الناسِ!

قالَ بعضُ السلفِ: «أدركنَا قومًا لَم تكُن لهُم عيوبٌ فذكرُوا عيوبَ الناسِ فذكرَ الناسُ لهُم عيوبًا، وأدركنَا أقوامًا كانَت لهُم عيوبٌ فَكَفُّوا عَن عيوبِ الناسِ فنُسِيَت عيوبهُم».

هذَا وإنَّ أولَىٰ الناسِ بالكفِّ عَن عيوبِ الناسِ ذلكَ العبدُ المذنبُ البصيرُ بذنبِهِ، المُطَّلعُ علَىٰ عيبهِ.

ومِن حِكَمِ وقوعِ العبدِ فِي الذنبِ: أنهُ يوجبُ لصَاحبهِ الإحسانَ إلَىٰ الخلقِ، والاستغفارَ لإخوانِهِ الخاطئينَ منَ المؤمنينَ، فإنهُ يشهَدُ أنَّ إخوانَهُ الخاطئينَ يُصابونَ بمثلِ مَا أُصِيبَ بهِ، ويحتاجونَ إلَىٰ مثلِ مَا هوَ محتاجٌ إليهِ، فكمَا يحبُّ أَن يستغفرَ لهُ أخوهُ المسلمُ، فلا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ أَن يستغفرَ لأخيهِ المسلمِ.

وممَّا يورثُهُ الذنبُ حينَ يقعُ بهِ العبدُ: أنهُ يوجبُ لمَن وقعَ بهِ سعةَ حِلمِهِ ومغفرتِهِ لمَن أساءَ إليهِ، فإذَا رأَىٰ نفسَهُ معَ ربِّهِ مُسِيئًا خاطئًا مُذنِبًا معَ فرطِ إحسَانهِ إليهِ وبرِّهِ سبحانهُ، معَ شدَّةِ حاجتهِ إلَىٰ ربهِ وعدمِ استغنائهِ عنهُ طَرفَةَ عينٍ، فكيفَ يطمعُ أَن يستقيمَ لهُ الخلقُ ويعاملوهُ بمحضِ الإحسانِ وهوَ لَم يعامِل ربَّهُ بتلكَ المعاملةِ، وكيفَ يطمعُ أَن يطيعَهُ ولدُهُ وزوجتُهُ فِي كلِّ مَا يريدُ وهُوَ مَعَ ربِّهِ ليسَ كذلكَ؟ وهذَا يوجبُ أَن يغفرَ لهُم ويُسَامِحَهُم ويعفوَ عنهُم، ويُغضِي عَن الاستقصاءِ فِي طلبِ حقهِ منهُم.

نسأَلُ اللهَ أَن يمُنَّ علينَا بالتوبةِ النصُوحِ، وأَن يوفقنَا لصالحِ القولِ والعملِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولهِ وعبدهِ، نبينَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فاعلمُوا أنَّ الذنبَ مِن موجباتِ البشريَّةِ، وإنَّ الحكمةَ الإلهيةَ اقتضَت تركيبَ

الشهوةِ والغضبِ فِي الإنسانِ، ولَو لَم تُخلَق فيهِ هذهِ الدواعِي لَم يكُن إنسانًا بَل مَلَكًا، ولذَا فلا بُدَّ للإنسانِ أَن يقعَ فِي الذنوبِ والمعاصِي، قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كلُّ ابنِ آدمَ خطاءٌ، وخيرُ الخطَّائين التوَّابونَ**»(١)، وإنَّ هذهِ الذنوبَ مِن جملةِ الابتلاءِ الذِي يتعرضُ لهُ العبادُ، فمَن ردَّهَا نجحَ وأُجِرَ، ومَن وقعَ فيهَا زلَّ وخسرَ، وللهِ وحدَهُ الفضلُ والمنةُ فِي توفيقِ العبدِ إلَىٰ صالحِ الأقوالِ والأعمالِ.

هذَا وإنَّ الواجبَ علَىٰ العبدِ أَن يُسارعَ للتوبةِ كلمَا أحدثَ ذنبًا، ولْيُوقنَ بسعةِ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إن أقبلَ عبدُهُ عليهِ، ولْيُحسِن الظنَّ بهِ سبحانهُ، ولْيثِق بكريمِ عطائهِ ولطفهِ، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**والذِي نفسِي بيدِه، لَو لَم تذنبُوا لذهبَ اللهُ بكُم ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ فيستغفِرُونَ اللهَ فيغفرُ لهُم**»(٢).

وليسَ معنَىٰ هذَا ترغيبَ العبادِ وحضَّهَم علَىٰ الذنوبِ والمعاصِي، ولكِن فيهِ بيانُ سعةِ رحمةِ اللهِ وعظيمِ جُودِه.

فاللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يحبُّ التوابينَ ويفرَحُ بتوبتهِم، ولمَحَبتهِ للتوبةِ وفرحِهِ بهَا قضَىٰ علَىٰ عبدهِ بالذنبِ، ثمَّ إذَا كانَ ممَّن سبقَت لهُ العنايةُ قضَىٰ لهُ بالتوبةِ، كمَا أنهُ لَا سبيلَ إلَىٰ الفلاحِ إلَّا بالتوبةِ ممَّا يكرههُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ**﴾(٣).

نسأَلُ اللهَ أَن يوفقنَا للتوبةِ الصادقةِ، وأَن يجعلنَا هداةً مهتدينَ.

❊❊❊

---

(١) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩).

(٢) رواه مسلم (٤٩٣٦).

(٣) سورة النور:٣١.

(١٩) كفى بالموتِ واعظًا

الحمدُ للهِ الذِي أوجدَ الكَونَ مِن عدمٍ ودبَّرَهُ، وخلقَ الإنسانَ مِن نطفةٍ فقدَّرَهُ، ثمَّ السبيلَ يسَّرَهُ، ثمَّ أماتهُ فأقبَرَهُ، ثمَّ إذَا شاءَ أنشَرَهُ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَنِ استنَّ بسنتِهِ واهتدَىٰ بهديِهِ واقتفَىٰ أثرَهُ.

وبعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ الفطنِ أَن يتفكرَ فِي أحوالِ الأممِ السابقةِ والقرونِ الماضيةِ، وقَد بنَوا المَدائنَ، وجمعُوا الخزائنَ، وحفرُوا الأنهارَ، وشيَّدُوا القصورَ، وعمرُوا الديارَ، ولربمَا ظنُّوا أنهُم فِي هذهِ الدنيَا مُخَلَّدونَ، ومَا هُم عنهَا براحِلِينَ.

فبينمَا هُم يعيشُونَ مُرفَّهِينَ فِي هذَا الحُلمِ، إذ هجمَ عليهِم هادمُ اللذاتِ ومفرقُ الجماعاتِ (الموتُ)، فأصبحُوا عظامًا رميمًا، ورفاتًا هشيمًا، وإذ بمنازلِهِم خاويةٌ، وقصورِهِم خاليةٌ، وأجسادِهِم باليةٌ، وأصواتِهِم خافِتَةٌ.

فأصبحُوا لَا يُرَىٰ إلَّا مساكنهُم، وقَد خَلَّفُوا كلَّ شيءٍ وراءَهُم، لَم يأخذُوا معهُم مالًا ولَا جاهًا ولَا منصبًا، إلَّا الصاحبَ الملازمَ وهوَ العملَ.

وهاهُم قَد سكنُوا القبورَ الموحشةَ حيثُ لَا أنيسَ ولَا صاحبَ، وقَد تساوَىٰ فِي سكناهَا جميعُ الناسِ، غنيهُم وفقيرهُم، شريفهُم وحقيرهُم.

أَتَيتُ القُبُورَ فَسَاءَلتُهَا ... أَينَ المُعَظَّمُ وَالمُحتَقَرْ؟
وَأَينَ المُذِلُّ بِسُلطَانِهِ؟ ... وَأَينَ القَوِيُّ عَلَىٰ مَا قَدَرْ؟
تَفَانَوا جَمِيعًا فَمَا مُخبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الخَبَرْ

فَـيَا سَـائِلِي عَـن أُنَـاسٍ مَـضَوا ... أَمَـا لَـكَ فِـيمَا مَـضَىٰ مُعتَبَـرْ؟
تَـرُوحُ وَتَغـدُو بِـذَاكَ الثَّـرَىٰ ... وَتُمحَـىٰ مَحَاسِـنُ تِلـكَ الصُّوَرْ

إنَّ الموتَ أعظمُ واعظٍ وأبلغُ زاجرٍ، وقَد أوصَىٰ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإكثارِ مِن ذِكرِهِ لمَا فيهِ مِن دفعِ المرءِ لعملِ الصالحاتِ، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكثرُوا مِن ذِكرِ هادمِ اللذاتِ**»(١)، ومَا أوصَىٰ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإكثارِ مِن ذكرِه، إلَّا لمَا يورثُهُ ذكرُ الموتِ منَ القناعةِ فِي القليلِ، والحثِّ علَىٰ السيرِ للدارِ الآخرةِ بزادٍ يَبْلُغُ بصَاحبِهِ حيثُ النجاةُ؛ **ولذَا قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: لَو فارقَ ذكرُ الموتِ قلبِي ساعَةً لفسَدَ.

فبينمَا يعيشُ المرءُ فِي هذهِ الدنيَا، يظنُّ أنَّ أجلَهُ بعيدٌ، وقَد ألهاهُ الأملُ، إذَا بالموتِ يفْجَؤهُ، وبدأَ ينازعُ السَّكرَاتِ والشدائدَ، وقَد نزلَ ملَكُ الموتِ لقبضِ رُوحِهِ، وإذَا بالألمِ يسرِي فِي جميعِ أجزائهِ فِي كلِّ عرقٍ وعصبٍ ومفصلٍ، مِن أعلَىٰ الرأسِ إلَىٰ أسفلِ القدَمَينِ.

وقَد قيلَ: إنَّ الموتَ أشدُّ مِن ضربٍ بالسيوفِ، ونشرٍ بالمناشيرِ، وقرضٍ بالمقاريضِ، ولمَّا احتضرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يدخلُ يديهِ فِي ماءٍ يمسحُ بهمَا وجهَهُ ويقولُ: «**لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للمَوتِ سكرَاتٍ**»(٢).

وكَم مِن شخصٍ وقَد نزلَ بِهِ المَوتُ، فإذَا بِهِ قَد خفتَ صوتهُ وصياحُهُ، وضَعُفَتْ قوتُهُ وخارَت قُوَاهُ، والكربُ قَد تصاعدَ علَىٰ قلبهِ بألمٍ شديدٍ، حتَّىٰ غلبَ علَىٰ كلِّ موضعٍ مِن جسدهِ، فهدَّ كلَّ جزءٍ وأضعفَ كلَّ جارحةٍ، أمَّا العقلُ فقَد غشيَهُ الألمُ وشوَّشَهُ، وأمَّا اللسانُ فقَد أبكمَهُ، وأمَّا الأطرافُ فقَد أضعفَهَا، وكَم يودُّ المحتضرُ لَو

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٨٢).
(٢) رواه البخاري (٤٠٩٤).

قدرَ علَىٰ الاستراحةِ بالأنينِ والصياحِ ولكنهُ لَا يستطيعُ، وقَدِ انتشرَ الألمُ فِي داخلهِ وخارجهِ، وتقلَّصَ لسانهُ، واخضَرَّتْ أناملُهُ، وبردَت أطرافهُ، والناسُ حولهُ باكونَ، ينادونَهُ: يَا فلانُ... يَا فلانُ، وهوَ فِي حالٍ أخرَىٰ وعالمٍ آخرَ، يرَىٰ مَا لَا يرونَ، ويسمعُ مَا لَا يسمعونَ.

يرَىٰ الملائكةَ وقَد جاءُوا لقبضِ روحهِ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1].

فإمَّا مُبشَّرٌ برحمةٍ منَ اللهِ ورضوانٍ، وإمَّا مبشرٌ بغضبٍ منَ اللهِ ولعنةٍ، إمَّا أَن تنزلَ عليهِ ملائكةٌ بيضُ الوجوهِ، وإمَّا أَن تنزلَ عليهِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ.

إنَّ الموتَ هُوَ تلكَ الحقيقةُ التِي يوقنُ بهَا كلُّ عبدٍ، ويعرفُ أنهُ منتهٍ إليهَا لَا محالةَ، طالَ عمرُهُ أَم قَصُرَ، فلابدَّ مِن ساعةِ الرحيلِ، وسكنَىٰ ذلكَ القبرِ الموحشِ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2].

فكَم مِن صَاحبٍ قريبٍ كنَّا نأنسُ بقُربهِ ونستعذبُ حَديثَهُ، هوَ الآنَ فِي ظلمةِ القبورِ، لقَد تخطانَا الموتُ إليهِ، ولا بُدَّ مِن ساعةٍ يتخطَّىٰ غيرنَا إلينَا، فعلَىٰ أيِّ حالٍ سنكونُ؟ وماذَا أعددنَا لذلكَ اليومِ؟

لقَد خَوَّفَنَا الموتُ بمَن أخذَ منَّا، ووعظنَا بأخذِهِم أعظمَ موعظةٍ، وحذرنَا أشدَّ تحذيرٍ، فهَلِ اتعظنَا؟!

مَا لنَا فِي كلِّ يومٍ نشيِّعُ غَاديًا إِلَىٰ ربِّهِ ونرجعُ وكأَنَّ شيئًا لَم يكُن؟

---

(١) سورة الواقعة: ٨٣-٨٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

نرجعُ للغفلةِ والنسيَانِ وركوبِ بحرِ التمنِّي.

إنَّ الموتَ وعدٌ صادقٌ، وحاكمٌ عادلٌ، وكفَىٰ بِهِ مُقَرِّحًا للقلوبِ، ومُبكِيًا للعيونِ، ومُفرِّقًا للجماعاتِ، وهادمًا للذاتِ، وقاطعًا للأمنياتِ.

فهَل تفكرتَ فِي يومِ مصرعِكَ، وانتقالِكَ مِن سعةٍ إلَىٰ ضيقٍ، وقَد فارقتَ الصاحبَ والرفيقَ، وهجرَكَ الأخُ والصديقُ، وأُخِذْتَ مِن فراشِكَ وغطائِكَ ولينِ لحافِكَ،وغطَّوكَ بالترابِ؟

يَا مَن جمعتَ الأموالَ، وأسرفتَ علَىٰ نفسِكَ بالمَعاصِي والآثامِ، هَل أنقذَكَ مالُكَ مِنَ الأهوالِ؟

كلَّا، بَل تركتَهُ خلفَ ظَهرِكَ، وقدِمْتَ بأوزارِكَ علَىٰ المَلكِ الديَّانِ.

كَأَنَّ أَهلَكَ قَد دعَوكَ فَلَم ... تَسمَعْ وَأَنتَ مُحَشرَجُ الصَّدرِ
وَكَأَنَّهُم قَد قَلَّبُوكَ عَلَىٰ ... ظَهرِ السَّرِيرِ وَأَنتَ لَا تَدرِي
وَكَأَنَّهُم قَد زَوَّدُوكَ بِمَا ... يَتَزَوَّدُ الهَلكَىٰ مِنَ العِطرِ
يَا لَيتَ شِعرِيَ كَيفَ أَنتَ إِذَا ... غُسِّلتَ بِالكَافُورِ وَالسِّدرِ
أَوْ لَيتَ شِعرِيَ كَيفَ أَنتَ عَلَىٰ ... نَعشِ الضَّرِيحِ وَظُلمَةِ القَبرِ

فجَديرٌ بمَن كانَ الموتُ مصرَعَهُ، والترابُ مضجعَهُ، والدودُ أنيسَهُ، ومنكرٌ ونكيرٌ جليسَهُ، والقبرُ مقرَّهُ، وبطنُ الأرضِ مستقَرَّهُ، والقيامةُ موعِدَهُ، والجنةُ أَوِ النَّارُ مورِدَهُ، أَلَّا يكونَ لهُ فكرٌ إلَّا الموتَ، ولَا ذكرٌ إلَّا لهُ، ولَا استعدادٌ إلَّا لأجلِهِ.

وحقيقٌ بأَن يَعُدَّ نَفسَهُ مِنَ الموتَىٰ، ويراهَا مِن أصحَابِ القبورِ، فإنَّ كلَّ مَا هُوَ آتٍ قريبٌ.

إنَّ مشهدَ الموتِ هوَ المشهدُ الذِي ينتهِي إليهِ كلُّ حَيٍّ، والذِي لَا يدفعُهُ عَن نفسِهِ

ولَا عَن غيرِهِ حيٌّ.

الموتُ الذِي يُفَرِّقُ بينَ الأحبَّةِ، ويمضِي فِي طريقِهِ ولَا يتوقَّفُ، لَا يستجيبُ لصَرخَةِ مَلهُوفٍ، ولَا لحَسرَةِ مُفَارقٍ، ولَا لرغبةِ راغبٍ، ولَا لخوفِ خائفٍ، ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾(١).

الموتُ الذِي بِهِ يُصرعُ الجبابرةُ، ويُقهَرُ بِهِ المتسلطُونَ، كمَا يقهرُ بِهِ المستضعفونَ.

الموتُ الذِي لَا حيلةَ للبشرِ فيهِ، وهُم معَ ذلكَ لَا يتدبرونَ القوةَ التِي تجريهِ.

وحينَ تبلغُ الروحُ التراقِي، يكونُ النزعُ الأخيرُ، وتكونُ السكراتُ المذهلةُ، ويكونُ الكربُ الذِي تزوغُ منهُ الأبصارُ، ويتلفتُ الحاضرونَ حولَ المحتضرِ، يتلمسونَ حيلةً أَو وسيلةً لاستنقاذِ روحِ المكروبِ، ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾(٢)، لعلَّ رقيةً تفيدهُ منَ السكراتِ والنزعِ، ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾(٣)، وبطَلَت كلُّ حيلةٍ، وعجزَت كلُّ وسيلةٍ، وتبيَّنَ الطريقُ الواحدُ الذِي يسابقُ إليهِ كلُّ حيٍّ.

فِي نهايةِ المطاف: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾(٤).

فتأمَّل حالَكَ وتمثَّل نفسَكَ، وقَد رحلتَ عنِ الدنيَا إِلَىٰ ظلمةِ القبورِ وأهوالِهَا، وبقيتَ رهينًا لعملِكَ، فأيُّ عملٍ يصاحبُكَ فِي هذهِ الحفرةِ الضيقةِ؟

قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«إذَا ماتَ ابنُ آدمَ تبعَهُ ثلاثةٌ: أهلهُ ومالهُ وعملهُ، فيرجعُ اثنانِ ويبقَىٰ واحدٌ، يرجعُ أهلهُ ومالهُ، ويبقَىٰ عملهُ»**(٥).

(١) سورة ق:١٩.

(٢) سورة القيامة:٢٧.

(٣) سورة القيامة:٢٩.

(٤) سورة القيامة:٣٠.

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٣)، ومسلم (٥٢٦٠).

وقيلَ: إنَّ ملكَ الموتِ دخلَ علَىٰ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: مَن أنتَ؟ فقالَ: مَن لَا يهابُ الملوكَ، ولَا تُمنعُ منهُ القصورُ، ولَا يقبلُ الرُّشَا. قالَ: إذَن أنتَ ملكُ الموتِ، قالَ: نعَم. قالَ: أتيتنِي ولَم أستعدَّ بعدُ؟

قالَ: يَا داودُ، أينَ فلانٌ قريبُكَ، أينَ فلانٌ جارُكَ؟ قالَ: ماتَ. قالَ: أمَا كانَ لكَ فِي هؤلاءِ عبرةٌ لتستَعِدَّ؟

ومرَّ رجلٌ بغُلامٍ فقالَ: يَا غلامُ، أينَ العمرانُ؟ قالَ: اصعَدِ الرابيةَ تشرِف عليهِم، فصعدَ فأشرفَ علَىٰ مقبرةٍ، فقالَ: إنَّ الغلامَ جاهلٌ أَو حكيمٌ، فرجعَ فقالَ: سألتكَ عنِ العمرانِ فدَلَلتنِي علَىٰ مقبرةٍ. فقالَ الغلامُ: لأنِّي رأيتُ أهلَ الدنيَا ينتقلونَ إليهَا ولَا يرجعونَ.

ومرَّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقبورِ، فقالَ: السلامُ عليكُم أهلَ الديارِ الموحشةِ، والمَحَالِّ المقفرةِ، أنتُم لنَا سلفٌ ونحنُ لكُم تبعٌ، وإِن شاءَ اللهُ بكُم عمَّا قليلٍ لاحقونَ، يَا أهلَ القبورِ، أمَّا الأموالُ فقَد قُسِمَت، وأمَّا الديارُ فقَد سُكِنَت، وأمَّا الأزواجُ فقَد نُكِحَت، هذَا خبرُ مَا عندنَا، فمَا خبرُ مَا عندَكُم؟

ثمَّ التفتَ إِلَىٰ أصحابِهِ وقالَ: أمَا إنهُم لَو تكلمُوا لقالُوا: وجدنَا أنَّ خيرَ الزادِ التقوَىٰ.

ومَا وعظَ المرءُ نفسَهُ بأعظمَ مِن ذكرِ الموتِ، قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فضحَ الموتُ الدنيَا فلَم يترُك لذِي لبٍّ فرحًا.

وقالَ مُطرفُ بنُ عبدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الموتَ قَد أفسدَ علَىٰ أهلِ النعيمِ نعيمَهُم، فاطلبُوا نعيمًا لَا موتَ فيهِ.

فتفكَّر فِي القبرِ وساكنِهِ.

إنكَ لَو رأيتَ الميتَ فِي قبرِه بعدَ ثلاثٍ لاستوحشتَ منهُ بعدَ طولِ الأنسِ بهِ، ولرأيتَ بيتًا تجولُ فيهِ الهوامُّ، ويجرِي فيهِ الصديدُ، وتخترقهُ الديدانُ، معَ تغيُّرِ الريحِ وتقطُّعِ الأكفانِ، وكانَ ذلكَ بعدَ حُسنِ الهيئةِ، وطيبِ الريحِ، ونقاءِ الثوبِ، والقبرُ ينادِي: ألَا تسألُنِي مَا صنعتُ بالأحبَّةِ؟!

خرقتُ الأكفانَ، ومزقتُ الأبدانَ، ومصصتُ الدمَ، وأكلتُ اللحمَ.

ألَا تسألنِي مَا صنعتُ بالأوصالِ؟ نزعتُ الكفينِ منَ الذراعينِ، والذراعينِ منَ العضدينِ، والعضدينِ منَ الكتفينِ، والوركينِ منَ الفخذينِ، والفخذينِ منَ الركبتينِ، والساقينِ منَ القدمينِ.

بكَىٰ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وقالَ**: ألَا إنَّ الدنيَا بقاؤهَا قليلٌ، وعزيزُهَا ذليلٌ، وغنيهَا فقيرٌ، شبابُهَا يهرَمُ، وحيُّهَا يمُوتُ، فلَا يغرَّنَّكُم إقبالُهَا معَ معرفتكُم بسرعةِ إدبارِهَا.

وقالَ الحسنُ: ابنَ آدمَ، إنكَ تموتُ وحدكَ، وتُبعثُ وحدكَ، وتحاسبُ وحدكَ.

ابنَ آدمَ، لَو أنَّ الناسَ كلَّهُم أطاعُوا اللهَ وعصيتَ أنتَ لَم تنفعكَ طاعتهُم، ولَو عصَوا اللهَ وأطعتَ أنتَ لَم تضركَ معصيتهُم.

ابنَ آدمَ، ذنبَكَ، ذنبَكَ!، فإنمَا هوَ لحمُكَ ودمُكَ، فإِن سلِمْتَ مِن ذنبِكَ، سَلِمَ لكَ لحمُكَ ودمُكَ، وإِن تكنِ الأخرَىٰ، فإنمَا هيَ نارٌ لَا تطفأُ، وجسمٌ لَا يبلَىٰ، ونفسٌ لَا تموتُ.

وَحَدَّثَتكَ اللَّيَالِي أَنَّ شِيمَتَهَا ... تفرِيقُ مَا جَمَعَتْهُ فاسمَعِ الخَبَرَا
وَكُن عَلَىٰ حَذَرٍ مِنهَا فَقَد نَصَحَت ... وَانظُر إِلَيهَا تَرَىٰ الآيَاتِ وَالعِبَرَا
فَهَل رَأَيتَ جَدِيدًا لَم يَعُد خَلِقًا؟ ... وَهَل سَمِعتَ بِصَفوٍ لَم يَعُد كَدَرَا؟

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نَبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ.

أمَّا بعدُ:

فحريٌّ بالعبدِ حينَ يوقنُ أنهُ راحلٌ عَن هذهِ الدنيَا أَن يستعدَّ لرحيلِهِ، ويتزودَ منَ الزادِ الذِي يبلِّغُهُ إلَىٰ حيثُ النجاةُ والسَّلامَةُ.

وقَد نصَحَنَا نبيُّنَا الكريمُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخلصَ فِي النصيحةِ، لمعرفتهِ بمَا ينتظرنَا مِن أهوالٍ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أخذَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبَيَّ وقالَ: «**كُن فِي الدنيَا كأنكَ غريبٌ أَو عابرُ سبيلٍ، وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ: إذَا أمسيتَ فلَا تنتَظِرِ الصبَاحَ، وإذَا أصبَحْتَ فلَا تنتظرِ المسَاءَ، وخُذ مِن صحتِكَ لمرضِكَ، ومِن حياتِكَ لموتِكَ**»[1].

ومَن تأمَّلَ أحوالَ الماضينَ وكلامَهُم حينَ منازعةِ الروحِ فِي حالِ الاحتضارِ، كانَ ذلكَ أعظمَ واعظٍ لهُ، فقَد بلَّغُوا الوصيَّةَ بأصدَقِ لهجةٍ، ووصفُوا حالَهُم بأتَمِّ بيانٍ وأجزلِهِ، لمَّا عاينُوا الحقيقةَ.

لمَّا حضرَت معاويةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الوفاةُ، قالَ: أقعِدُونِي، فأُقعدَ، فجعلَ يسبحُ اللهَ تعالَىٰ ويذكرُهُ، ثمَّ بكَىٰ وقالَ: تذكرُ ربَّكَ يَا معاويةُ بعدَ الهرمِ والانحطاطِ؟ ألَا كانَ هذَا وغصنُ الشبابِ نَضِرٌ ريانٌ؟ وبكَىٰ حتَّىٰ علَا بكاؤهُ، وقالَ: يَا ربِّ، ارحَم الشيخَ

(١) رواه البخاري (٥٣٩٧).

العاصِي، ذَا القلبِ القاسِي، اللهمَّ أَقِلْ العثرةَ، واغفرِ الزلةَ، وجُدْ بحِلمكَ علَىٰ مَن لَا يرجُو غيرَكَ، ولَا يثقُ بأحَدٍ سِواكَ.

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فِي مرضِ موتهِ: ارفعوني، فرفعوهُ حتَّىٰ شمَّ الهواءَ وقالَ: يَا دنيَا مَا أطيبكِ، إنَّ طويلَكِ لقصيرٌ، وإنَّ كثيرَكِ لحقيرٌ، وإنْ كنَّا بكِ لفِي غرورٍ، قيلَ لهُ: كيفَ تجدكَ؟ قالَ: أجدنِي كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(١).

وقالَ بعضُهُم: دخلنَا علَىٰ عطاءٍ السُّلميِّ نعُودهُ فِي مرضهِ الذِي ماتَ فيهِ، فقلنَا لهُ: كيفَ ترَىٰ حالَكَ؟ فقالَ: الموتُ فِي عنقِي، والقبرُ بينَ يديَّ، والقيامةُ موقفِي، وجسرُ جهنمَ طريقِي، ولَا أدرِي مَا يُفعَلُ بِي، ثمَّ بكَىٰ بُكاءً شديدًا حتَّىٰ غُشِيَ عليهِ، فلمَّا أفاقَ قالَ: اللهمَّ ارحَمنِي، وارحَم وحشَتِي فِي القبرِ، ومصرَعِي عندَ الموتِ، وارحَم مقامِي بينَ يديكَ يَا أرحمَ الراحمينَ.

فإِنْ كانَ هذَا هوَ حالُ الأتقياءِ البررةِ، فكيفَ بحالِ المسرفينَ علَىٰ أنفسهِم أمثالِنَا، وقَد كثرَت ذنوبنَا، وقَلَّ زادنَا معَ بُعدِ السفرِ؟!

هَل أعددنَا لأنفُسِنَا زادًا يبلغنَا الغايةَ، أَم لَا نزالُ بالتسويفِ والأمنياتِ حتَّىٰ يبغتَنَا الأجلُ.

إنَّ الكيسَ الفَطِنَ مَن أعدَّ لسَفرِهِ عُدَّتَهُ، وجهَّزَ لرحيلهِ مؤنتَهُ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يرجُو رحمةَ اللهِ وعفوَهُ ومغفرتَهُ.

كلُّنَا سنرحلُ عَن هذهِ الدنيَا، ولكِن هَل عملنَا لمَا بعدَ المَوتِ؟!

كلُّ الناسِ يغدُو، فبائعٌ نفسهُ فموبقهَا أَو معتقهَا، ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ

---

(١) سورة الأنعام: ٩٤.

﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾(١).

نسألُ اللهَ أَن يرحمنَا برحمتهِ، وأَن يغفرَ ذنوبنَا، ويسترَ عيوبَنَا.

❀❀❀

(١) سورة القيامة:٢٦-٣٠.

(٢٠) الخوفُ منَ اللهِ

الحمدُ للهِ الذِي أوجدَ الكونَ مِن عدَمٍ ودبَّرَهُ، وخلقَ الإنسانَ مِن نطفةٍ فقدَّرَهُ، ثمَّ السبيلَ يسَّرهُ، ثمَّ أماتهُ فأقبرَهُ، ثمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدهِ ورسولهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَنِ استَنَّ بسُنَّتهِ واهتدَىٰ بهَديهِ واقتفَىٰ أثرهُ.

وبعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فاعلمُوا أنَّ هذهِ الدنيَا دارُ انصِرَامٍ لَا دارُ دَوَامٍ، ودارُ عُبورٍ لَا دارُ حُبورٍ، ودارُ نَفادٍ لَا دارُ إخلادٍ.

دارٌ أهلُهَا يتحَوَّلونَ، وسُكانُها يرتحلونَ، ثمَّ إنهُم يومَ القيامةِ عندَ ربهِم يختصمونَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ولذَا كانَ الواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يكونَ مُخبتًا لربِّهِ منيبًا إليهِ، مُطيعًا لأوامرهِ مُجتَنبًا لنواهيهِ، يتقربُ إليهِ بفعلِ الطاعاتِ، واجتنابِ المَعاصِي والمنكراتِ، كمَا يجبُ عليهِ أَن يكونَ للهِ خائفًا وجِلًا، فإنَّ ذلكَ حرِيٌّ بهِ أَن يسلكَ بهِ سُبلَ النجاةِ وطرقَ السلامةِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**وعزتِي لَا أجمعُ علَىٰ عبدِي خوفَينِ، ولَا أجمعُ لهُ أمنَينِ، إن أَمِنَنِي فِي الدنيَا أخفتُهُ يومَ القيامَةِ، وإن خافنِي فِي الدنيَا أَمَّنْتُهُ يومَ القيامةِ**»[2].

فإذَا كانَ المسلمُ فِي هذهِ الدنيَا خائفًا مِنَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، مراقبًا لهُ سبحانهُ فِي جميعِ

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٦).

أعمالِهِ، يتقربُ إليهِ بفعلِ الطاعاتِ ويبتعدُ عمَّا يبغضهُ، فإنَّ لهُ الأمنَ التامَّ يومَ القيامةِ.

وإِن كانَ ممَّنِ اقترفَ المعاصِيَ والآثامَ، ولَم يراقبِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِي سرِّه وجهرِهِ، فإنَّهُ قَد تُوعِّدَ بالخوفِ يومَ القيامةِ.

أَلَم يتفكرِ الإنسانُ فِي حقيقتِهِ ومُنتهَاهُ؟!

لابدَّ لهُ مِن يومٍ سيرحَلُ فيهِ عَن هذهِ الدنيَا، فهَل تفكَّرَ فيمَا سينتهِي إليهِ أمرُهُ وعلَىٰ ماذَا سيقدمُ؟

قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**قالَ لِي جبريلُ: يَا محمَّدُ، عِش مَا شئتَ فإنكَ ميِّتٌ، وأحبِب مَن شئتَ فإنكَ مفارقُهُ، واعمَل مَا شئتَ فإنكَ مَجزِيٌّ بِهِ**»[1].

فرُبَّمَا يعيشُ المرءُ فِي هذهِ الدنيَا طويلًا، ويتمتعُ فِي مَلذَّاتهَا، والنهايةُ هِيَ الموتُ، ومهمَا عمَّرَ فِي هذهِ الدنيَا فسيرحلُ عنهَا ويتركُ الأموالَ والأولادَ والزوجاتِ، ولَن يذهبَ معهُ إلَّا العملَ، فإِن كانَ عملَ خيرٍ وجدَ مَا يسرُّهُ، وَإِن كانَ عملَ سُوءٍ وجدَ مَا يسوؤُهُ، فإِلَىٰ متَىٰ تستمرُّ غفلةُ الإنسانِ وبعدُهُ عَنِ اكتسابِ الأعمالِ الصالحةِ؟

إنَّ خوفَ اللهِ جَلَّوَعَلَا دليلُ الإيمانِ والتقوَىٰ، ومبشِّرٌ بنجاةِ العبدِ وسلامتِهِ منَ الآفاتِ والبلوَىٰ، ويقرِّبُ العَبدَ إلَىٰ ربهِ، وكلمَا كانَ العبدُ للهِ أخوفَ كانَ للهِ أقربَ.

وحَريٌّ بالمسلمِ أَن يتعلَّمَ الخشيَةَ لخالقِهِ، وأَن يعاشرَ مَن هذَا وصفهُ، فإنَّ فِي قربهِ غنيمةً.

قيلَ للحسنِ البصريِّ رَحِمَهُٱللَّهُ: يَا أبَا سعيدٍ، كيفَ نصنعُ بمجالسةِ أقوامٍ يحدثونَنَا عنِ الآخرةِ حتَّىٰ تكادَ قلوبُنَا تطيرُ؟ قالَ: «إنكَ واللهِ إِن تصحبْ قومًا يخوِّفونَكَ حتَّىٰ تدركَ أمنًا، خيرٌ لكَ مِن أَن تصحبَ أقوامًا يؤمِّنونَكَ حتَّىٰ تلحقَكَ المخاوفُ».

---

(١) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

وقَد حرَّكَ خوفُ اللهِ تعالَىٰ قلوبَ السَّلفِ نحوَ لذَّةِ المُنَاجاةِ، وانكسارِ القلوبِ، وإخلاصِ القصدِ والنيَّةِ، وصدقِ اللجوءِ إِلَىٰ اللهِ، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قرأَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾(١)، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أهمُ الذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرقونَ؟ قالَ: **لَا يَا بنتَ الصدِّيقِ، ولكنهُمُ الذينَ يصومونَ ويصلونَ ويتصدقونَ، وهُم يخافونَ ألَّا يُقبَل منهُم**»(٢).

للهِ درُّهُم، مَا أعظمَ علمَهُم وأخلَصَ قلوبَهُم!، فهُم يعملونَ أعمالًا صالحةً كالجبالِ، وفِي قلوبهِم منَ الخوفِ والورعِ والإنابةِ مَا يتوقعونَ معهُ أنهُ قَد لَا تُقبَلُ منهُم أعمالهُم، فكيفَ بالذِي يُقيمُ علَىٰ الذنوبِ وهوَ يرجُو أَن يأمنَ يومَ القيامةِ، والذِي يعملُ العملَ الصغيرَ ويمتنُّ بهِ، وكأنهُ قَد أخذَ عهدًا علَىٰ اللهِ أَن يُدخلَهُ الجنةَ.

يقولُ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللهِ لقَد مضَىٰ بينَ أيديكُم أقوامٌ لَو أنفقَ أحدُهُم عددَ الحصَىٰ ذهبًا لظنَّ ألَّا ينجوَ لِعظَمِ الذنبِ فِي نفسهِ».

وقَد جاءَت سِيَرُ السَّلفِ وأقوالُهُم الصادقةُ شاهدَةً بنقاءِ قلوبِهِم، ورقَّةِ أفئدتِهِم، وعظيمِ صِلَتِهِم بخالقِهِم، فلَم تغرَّهُمُ الدنيَا، ولَم يفتَتِنُوا ببَهجتِهَا، وكانُوا أشدَّ مَا يكونونَ منهَا هربًا أشدَّ مَا تكونُ لهُم طلَبًا.

قالَ معاويةُ بنُ أَبِي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لرجُلٍ**: صِف لِي عليًّا، فقالَ: «كانَ واللهِ بعيدَ المدَىٰ، شديدَ القوَىٰ فِي ذاتِ اللهِ، يقولُ فصلًا ويحكمُ عدلًا، يتفجرُ العلمُ مِن جوانبهِ، وتنطقُ الحكمةُ مِن نواحيهِ، يستوحشُ منَ الدنيَا وزهرتهَا، ويستأنسُ بالليلِ وظلمتهِ، وكانَ واللهِ غزيرَ الدمعةِ، طويلَ الفكرةِ، يُقلِّبُ كفيهِ تأسفًا وحزنًا، يعجبُهُ منَ اللباسِ مَا خشنَ، ومنَ الطعامِ مَا حضرَ، وكانَ واللهِ كأحدنَا، يجيبنَا إِذَا سألناهُ، ويأتينَا

---

(١) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

إذَا دعوناهُ، ونحنُ واللهِ معَ تقريبِهِ لنَا وقُربهِ منَّا لَا نكلِّمهُ هيبةً لهُ، يُعظِّمُ أهلَ الدِّينِ، ويحبُّ المساكينَ، لَا يطمعُ القويُّ فِي باطلِهِ، ولَا ييأسُ الضعيفُ مِن عدلِهِ، وأشهدُ باللهِ لرأيتُهُ فِي بعضِ مواقفِهِ، وقَد أرخَىٰ الليلُ ستورَهُ، وغارَت نجومُهُ، وقَد تمثَّلَ فِي محرابِهِ قابضًا علَىٰ لحيتِهِ، يتململُ تململَ اللَّديغِ، ويبكِي بكاءَ الحزينِ، وكأنِّي أسمعهُ يقولُ: يَا ربَّنَا يَا ربَّنَا، يتضرعُ إليهِ، ثمَّ يقولُ: يَا دنيَا، ألِي تعرضْتِ أم لِي تشوفْتِ؟ هيهاتَ هيهاتَ، غُرِّي غيرِي، غُرِّي غيرِي، طلقتُكِ ثلاثًا لَا رجعةَ فيهَا، فعمرُكِ قصيرٌ، وعيشُكِ حقيرٌ، وخطرُكِ كبيرٌ، آهٍ مِن قلةِ الزادِ وبُعدِ السفرِ ووحشةِ الطريقِ، فبكَىٰ معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتَّىٰ سالَت دموعُهُ علَىٰ لحيتِهِ، وقَدِ اختنقَ القومُ بالبُكاءِ، ثمَّ قالَ: رحمَ اللهُ أبَا الحسَنِ، كانَ واللهِ كذلكَ».

انظُر إلَىٰ ورعِهِ، وتواضُعِهِ لربِّهِ وإخبَاتِهِ وإنابَتِهِ، وهوَ مِنَ المبشَّرينَ بالجَنةِ، ومعَ ذلكَ يقولُ: آهٍ مِن طولِ السَّفرِ وقلَّةِ الزادِ وبُعدِ الطريقِ، فماذَا يقولُ أمثالنَا، الذينَ قَد أكثرُوا الذنوبَ والمَعَاصِي والإسرافَ والتقصيرَ فِي جنبِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟

وقَد غلبَ الخوفُ علَىٰ عُلمَاءِ الصَّحابةِ، حتَّىٰ إنَّ أبَا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذِي لَو وُضِعَ إيمانُهُ فِي كفةٍ ووضعَ إيمانُ الأمةِ فِي كفةٍ ليسَ فيهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجحَ إيمانُهُ، كانَ يقولُ: «ليتنِي شعرةٌ فِي صَدرِ مُؤمنٍ».

وقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الويلُ لعُمرَ إن لَم يُغفرَ لَهُ، ولمَّا طُعِنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقرُبَت وفاتُهُ، قالَ لابنِهِ: ويلَكَ، ضَع خدِّي علَىٰ الأرضِ لَا أمَّ لكَ، ثمَّ قالَ: ويلِي إن لَم يرحَمنِي ربِّي، فقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا هذَا الخوفُ يَا أميرَ المؤمنينَ، وقَد فتحَ اللهُ بكَ الفتوحَ، ومصَّرَ بكَ الأمصارَ، وفعلَ بكَ وفعلَ؟ فقالَ: وددتُ أن أنجوَ لَا عليَّ ولَا لِي.

وكانَ فِي وجهِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطَّانِ أسودانِ مِنَ البكاءِ.

فإذَا كانَ هذَا حالُ أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذينَ بُشِّرُوا بالجِنانِ التِي عرضُهَا

السمواتُ والأرضُ، فأينَ نحنُ مِن هؤلاءِ؟ وأينَ أعمالُنا منهُم؟ ألسنَا فِي موقفٍ صعبٍ وعصيبٍ؟

وقالَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **فِي قولِهِ تعالَىٰ:** ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾(١)، قالَ: هوَ عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ليتنِي إذَا متُّ لَا أبعثُ.

فعجبًا لِمَن أقامَ علَىٰ ذنبِهِ، وعصَىٰ ربَّهُ، ويعيشُ خالِي القلبِ، عريضَ الضحكةِ، وكأنهُ قَد أخذَ عهدًا بدخولِ الجنةِ والنجاةِ منَ النارِ.

فأينَ الخوفُ الذِي يدخلُ القلوبَ فيمنعهَا منَ المَعاصِي والآثامِ والقطيعةِ، ويدفعهَا للأعمالِ الصَّالحَةِ؟

يقولُ يحيَىٰ بنُ معاذٍ: «مِن أعظمِ الاغترارِ أنَّ المذنبَ يرجُو العفوَ مِن غيرِ نَدَامةٍ، ويتوقعُ القربَ منَ اللهِ بغيرِ طاعةٍ، وينتظرُ الجزاءَ بلَا عملٍ، ويتمنَّىٰ علَىٰ اللهِ الأمانيَّ».

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلوقٍ بالفَناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبَقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصَابيحِ الدُّجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ السعادةَ الحقيقيةَ هيَ فِي الإقبالِ عَلَىٰ اللهِ ولزومِ طاعتهِ، معَ أخذِ النصيبِ منَ

---

(١) سورة الزمر: ٩.

الدنيَا وجعلِهَا بلاغًا للآخرةِ.

إنَّ أصحابَ الاستقامَةِ همُ السعدَاءُ حقًّا، وهمُ الملُوكُ صِدقًا.

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ: «نحنُ واللهِ الملوكُ الأغنياءُ، نحنُ الذينَ قَد تعجَّلْنَا الراحةَ فِي الدنيَا فلَا نبالِي علَىٰ أيِّ حالٍ أصبحْنَا وأمسينَا إذَا أطعنَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ».

وتأملُوا هذَا الكلامَ النفيسَ للإمامِ ابنِ القيِّمِ، حيثُ يذكرُ فيهِ حقيقةَ السعادةِ، ويصِفُ فيهِ حالَ أحدِ السعداءِ بمَا لَا مزيدَ عليهِ فِي الوصفِ، قالَ -رحمهُ اللهُ تعالَىٰ-: «والإقبالُ علَىٰ اللهِ، والإنابةُ إليهِ، والرضَا بهِ وعنهُ، وامتلاءُ القَلبِ مِن محبَّتِهِ، واللَّهجُ بذكرهِ، والفرحُ والسرورُ بمعرفتِهِ ثوابٌ عاجِلٌ، وجنَّةٌ وعيشٌ لَا نسبَةَ لعَيشِ المُلوكِ إليهِ البتَّةَ.

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ -قدَّسَ اللهُ روحهُ- يقولُ: إنَّ فِي الدنيَا جنةً مَن لَم يدخلهَا لَا يدخلُ جنةَ الآخرةِ، وقالَ لِي مرةً: مَا يصنعُ أعدائِي بِي؟ أنَا جنَّتِي وبستانِي فِي صدرِي، إنْ رُحْتُ فهِيَ معِي لَا تفارقنِي، إنَّ حبسِي خلوةٌ، وقتلِي شهادةٌ، وإخراجِي مِن بلدِي سياحةٌ، وكانَ يقولُ فِي محبسِهِ فِي القلعةِ: لَو بذلْتُ ملءَ هذهِ القلعةِ ذهبًا مَا عدلَ عندِي شُكْرَ هذهِ النعمةِ، أَو قالَ: مَا جزيتهُم علَىٰ مَا تسبَّبُوا لِي فيهِ منَ الخيرِ، وكانَ يقولُ فِي سجودهِ وهوَ محبوسٌ: اللهمَّ أعنِّي علَىٰ ذكرِكَ وشكرِكَ وحسنِ عبادتِكَ، مَا شاءَ اللهُ أَنْ يقول، وقالَ لِي مرةً: المحبوسُ مَن حُبس قلبُهُ عَن ربهِ، والمأسورُ مَن أسرهُ هواهُ، ولمَّا دخلَ القلعةَ وصارَ داخلَ سورِهَا نظرَ إليهِ وقالَ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1].

وعَلِم اللهُ مَا رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منهُ قطُّ، معَ مَا كانَ فيهِ مِن ضيقِ العيشِ،

(١) سورة الحديد:١٣.

وخِلافِ الرفاهيةِ والنعيمِ، بَل ضدِّهَا، ومعَ مَا كانَ فيهِ منَ الحبسِ والتهديدِ والإرهاقِ، وهوَ معَ ذلكَ مِن أطيبِ الناسِ عَيشًا، وأشرحِهم صدرًا، وأقواهُم قلبًا، تلوحُ نضرةُ النعيمِ علَىٰ وجهِهِ، وكنَّا إذَا اشتدَّ بنَا الخوفُ، وساءَت منَّا الظنونُ، وضاقَت بنَا الأرضُ، أتيناهُ، فمَا هوَ إلَّا أَن نسمَعَ كلامَهُ حتَّىٰ يذهبَ ذلكَ كلُّهُ، وينقلبَ انشراحًا وقوةً وطمأنينةً، فسبحانَ مَن أشهدَ عبادهُ جنتهُ قبلَ لقائهِ، وفتحَ لهُم أبوابهَا فِي دارِ العملِ فأتاهُم مِن رَوْحِهَا ونسيمهَا وطيبهَا مَا استفرغَ قواهُم لطلبهَا والمُسَابقةِ إليهَا».

فمَن تواصَلَ بقلبهِ معَ ربِّهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بلغَ منتهَىٰ السعادةِ، ولذلكَ كانَ بعضُ العارفينَ يقولُ: لَو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ مَا نحنُ فيهِ لجالدونَا عليهِ بالسيوفِ.

وقالَ آخرُ: مساكينُ أهلُ الدنيَا خرجُوا منهَا ومَا ذاقُوا أطيبَ مَا فيهَا، قالُوا: ومَا أطيبُ مَا فيهَا؟ قالَ: محبَّةُ اللهِ ومعرفتُهُ وذِكرُهُ، وقالَ آخرُ: إنَّهُ لتمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ يرقصُ فيهَا طَرَبًا.

وقالَ آخرُ: إنَّهُ لتمرُّ بِي أوقاتٌ أقولُ: إن كانَ أهلُ الجنةِ فِي مثلِ هذَا إنَّهُم لفِي عيشٍ طيبٍ.

وكلمَا زادَ إيمانُ الإنسانِ أحسَّ بهذَا الإحساسِ العظيمِ، وانظُر فِي نفسِكَ إذَا عملتَ يومًا بعضَ الأعمالِ الصالحةِ، مِن صلاةٍ خاشعةٍ، وصلةِ رحمٍ، وصدقةٍ، ومساعدةٍ لضعيفٍ، فإنَّكَ ستجدُ فِي نهايةِ الأمرِ لذةً تجدُ حلاوتهَا علَىٰ لسانِكَ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ: «فمحبةُ اللهِ، ومعرفتهُ، ودوامُ ذكرهِ، والسكونُ إليهِ، وإفرادُه بالحبِّ والخوفِ والرجَاءِ والتوكلِ والمعاملةِ بحيثُ يكونُ هوَ همُّ العبدِ، هوَ جنةُ الدنيَا، والنعيمُ الذِي لَا يشبههُ نعيمٌ، وهوَ قرةُ عينِ المحبينَ، وحياةُ العارفينَ، وإنَّمَا تقرُّ عيونُ الناسِ بهِ علَىٰ حسَبِ قُرَّةِ عينِهِ باللهِ، فمَن قَرَّت عينهُ باللهِ قرَّت بهِ كلُّ عينٍ، ومَن لَم تقرَّ عينُهُ باللهِ تقطعَت نفسهُ علَىٰ الدنيَا حسَرَاتٍ».

(٢١) مراقبةُ اللَّهِ

الحَمدُ للهِ والشكرُ لهُ علَىٰ إحسانِهِ العامِّ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمامِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصَحبِهِ هُدَاةِ الأنامِ ومصابيحِ الظلامِ.

أمَّا بعدُ:

فحريٌّ بالمرءِ أَن يعملَ علَىٰ مراقبةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيمَا يأتِي ويذرُ، لَاسيمَا ونحنُ فِي أزمانٍ تمرُّ كلمحِ البصرِ، وتسرعُ بالأفولِ سرعةَ الغيمِ حينَ تستدبرهُ الريحُ.

فحياةُ قلبِ المسلمِ فِي دوامِ المراقبةِ لخالقهِ، والحرصِ علَىٰ مَا ينفعهُ منَ الأعمالِ الصالحةِ التِي تأتِي شاهدةً لهُ يومَ القيامةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾(١).

والمرءُ مَا دامَ فِي حالِ الحياةِ، فعليهِ بالاجتهادِ بالعمَلِ الصالحِ، والابتعادِ عَن مواطنِ الإثمِ وأسبابِهِ، فإنهُ عمَّا قليلٍ راحلٌ عَن هذهِ الدارِ، قَد فارقَ اللهوَ والملذَّاتِ، وخلَّف الدنيَا وراءَ ظهرهِ، وأقبلَ علَىٰ ربهِ وخالقه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢).

مِن أجلِ ذلكَ وجبَ علَىٰ العبدِ أَن يراقبَ أحوالَهُ ويحصِيَ أعمالهُ مَا دامَ فِي دارِ العملِ، ولَا يمهلُ حتَّىٰ يبغتَهُ الأجلُ علَىٰ حينِ غرةٍ، وقَد قضَىٰ عمرهُ بالمُلهِيَاتِ، واشتغلَ

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٧-٢١٩.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

عنِ العملِ بالركضِ خلفَ متاعِ الدنيَا الزائلِ حتَّىٰ مضَىٰ وتركهُ فلَم يأخُذْ منهُ شيئًا.

مِن أجلِ ذلكَ فقَد أوصَىٰ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المسلمَ بمراقبةِ مولاهُ، وحثَّهُ علَىٰ ذلكَ فقالَ: «**اتَّقِ اللهَ حيثمَا كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُهَا، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسَنٍ**»(١).

فيَا سعادةَ مَن أحيَا قلبَهُ بذكرِ اللهِ، ووفَّقهُ لسلوكِ السبيلِ الموصلِ إليهِ سبحانهُ، واستعملهُ فِي العملِ الصالحِ الذِي يُرضِي اللهَ عنهُ.

هَل تفكَّرتَ فِي نهايةِ كلِّ يومٍ بنعمةِ اللهِ عليكَ حيثُ أمدَّ فِي عمرِكَ حتَّىٰ تستعتِبَ إذَا كنتَ مذنبًا، أَو تستكثرَ إذَا كنتَ مُحسِنًا.

هَل حمِدتَ اللهَ حينَ تصبحُ وقَد أمدَّ بعُمركَ لتزدادَ عملًا صالحًا، وقَد علمتَ أنَّ فلانًا قَد رحلَ عَن هذهِ الدنيَا وقَد كانَ أحوجَ مَا يكونُ إلَىٰ التزودِ منَ الأعمالِ الصالحةِ؟

هَل تفكَّرتَ فِي وقوفِكَ بينَ يدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ ليسَ بينكَ وبينهُ ترجمانٌ؛ فأعددتَ لذلكَ الموقفَ عُدَّتَهُ منَ العملِ الصَّالحِ معَ حُسنِ الظنِّ باللهِ؟

قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا منكُم مِن أحدٍ إلَّا وسيكلمُهُ ربُّهُ ليسَ بينهُ وبينهُ ترجمانٌ، فينظرُ أيمنَ منهُ فلَا يرَىٰ إلَّا ما قدَّم، وينظرُ أشأمَ منهُ فلَا يرَىٰ إلَّا مَا قدَّمَ، وينظرُ بينَ يديهِ فلَا يرَىٰ إلَّا النارَ تِلقَاءَ وجهِهِ، فاتقُوا النارَ ولَو بشقِّ تمرةٍ، فإِن لَم يكُن فبكلِمَةٍ طيبةٍ**»(٢).

إنَّ الواجبَ علَىٰ المُسلمِ أَن يَجتَهدَ فِي تحصيلِ الأعمالِ الَّتِي تُقرِّبهُ مِن ربِّهِ وخالقِهِ،

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وحسَّنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٠٨٣).
(٢) رواه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

وكلمَا كانَ الزمانُ مليئًا بالفتنِ، كانَ الجهادُ لإصلاحِ النفسِ أشدَّ وأعظمَ.

والعاقلُ هوَ الذِي يسعَىٰ لتحصيلِ العملِ والإكثارِ منهُ فِي حالِ حياتهِ، فإذَا فاتهُ شيءٌ مِن أبوابِ الخيرِ تحسَّرَ علَىٰ فواتهِ، وعقَدَ النيَّةَ علَىٰ استحداثِ عملٍ صالحٍ آخَرَ يَسُدُّ بهِ تقصِيرَهُ، فلَا أحَدَ أحرصَ علَىٰ نجاةِ الإنسانِ مِن نفسِهِ.

وإنمَا هذهِ الدنيَا دارُ انصِرَامٍ لَا دارَ دَوَامٍ، والذِي يأمُلُ البقاءَ فيهَا دونَ همٍّ وشقَاءٍ، وضنكٍ وبلاءٍ، وفتنٍ ولأْواءٍ، فقَد تقحَّمَ المستحيلَ.

كيفَ، وهيَ قَد طبعَت علَىٰ ذلكَ؟ قالَ تعالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾(١).

لِمَا تُوعِدُ الدنيَا بِهِ مِن شُرُورِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطفلِ سَاعَةَ يُوضَعُ
وَإِلَّا فَمَا يُبكِيهِ مِنهَا وَإِنَّهَا ... لَأَرْوحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَوسَعُ
إِذَا أَبصَرَ الدُّنيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّمَا ... يَرَىٰ مَا سَيَلقَىٰ مِن أَذَاهَا وَيَسمَعُ

فعجبًا لِمَن عاشَ فِي هذهِ الدنيَا وكأنهُ باقٍ إلَىٰ طولِ الأمَدِ، أَو أنهُ سيعيشُ فيهَا مخلدًا، فتجدُهُ يعملُ عملَ مَن لَا يرحَلُ عنهَا، فيخوضُ فِي المحرَّماتِ، ويفرطُ فِي الواجبَاتِ، ويضحكُ وكأنهُ أخذَ عهدًا مِنَ اللهِ ألَّا يُعذَّبَ فِي دارِ الخُلودِ.

وفِي كلِّ يَومٍ ترَاهُ يزدادُ ظُلمًا لنفسهِ، وإسرَافًا فِي عَملِهِ، ولَا يدرِي لعلَّ اللهَ اطَّلعَ علَىٰ قلبهِ، فكانَ كمَن قالَ تعالَىٰ عنهُم: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾(٢).

فالواجبُ علَىٰ المُسلمِ الفِطَنِ ألَّا يغترَّ بالدنيَا ويُلهيهِ طولُ الأملِ، فإنهُ مَا دخلَ فِي قلبِ عَبدٍ إلَّا أنسَاهُ ذِكرَ ربِّهِ، وأشغلَهُ عَن أمرِ أُخرَاهُ.

---

(١) سورة البلد: ٤.

(٢) سورة النحل: ١٠٨.

لمَّا آلتِ الخِلافَةُ إلَىٰ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ، كتبَ إليهِ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أمَّا بعدُ، فإنِّي لَا أراني إلَّا لمَا بِي، ومَا أرَىٰ الأمرَ إلَّا سيُفضِي إليكَ، فاللهَ اللهَ فِي أمةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنكَ عمَّا قليلٍ ميتٌ، فتدعُ الدنيَا لمَن لَا يَحمَدُكَ، وتُفضِي إلَىٰ مَن لَا يعذرُكَ، والسَّلامُ.

وكتبَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ إلَىٰ أخيهِ هشامَ: أمَّا بعدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ قَد بلغَهُ أنكَ استبطأتَ حياتَهُ، وتمنيتَ وفاتَهُ، ورُمتَ الخلافةَ، وكتبَ فِي آخرِهِ:

تَمَنَّىٰ رِجَالٌ أَن أَمُوتَ وَإِن أَمُت ... فَتِلكَ سَبِيلٌ لَستُ فِيهَا بِأَوحَدِ
وَقَد عَلِمُوا لَو يَنفَعُ العِلمُ عِندَهُم ... مَتَىٰ مِتُّ مَا البَاغِي عَلَيَّ بِمُخلَدِ
مَنِيَّتُهُ تَجرِي لِوَقتٍ وَحَتفُهُ ... يُصَادِفُهُ يَومًا عَلَىٰ غَيرِ مَوعِدِ
فَقُل لِلَّذِي يَبغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَىٰ ... تَهَيَّأ لِأُخرَىٰ مِثلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

فكتبَ إليهِ هشامُ: جعلَ اللهُ يومِي قبلَ يومكَ، وولدِي قبلَ ولدكَ، فلَا خيرَ فِي العيشِ بعدكَ.

وانظرُوا إلَىٰ مَن جمعَ الدنيَا وحيزَت لهُ كنوزهَا، فلَم يلبَث إلَّا وقَد تحوَّلَ عنهَا، وقدمَ إلَىٰ ربهِ وخالقِهِ مرتهنًا بعملِهِ، ومَا قدَّمهُ فِي سالفِ أيامِهِ.

وعظَ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ العزيزِ العمريُّ الرشيدَ يومًا، فقالَ لهُ وهوَ واقفٌ علَىٰ الصفَا: انظُر كَم حولهَا منَ الناسِ؟ فقالَ: بشَرٌ كثيرٌ، فقالَ: كلٌّ منهُم يسألُ يومَ القيامةِ عَن خاصَّةِ نَفسِهِ، وأنتَ تُسألُ عنهُم كلهُم، فبكَىٰ الرشيدُ بكاءً كثيرًا، وجعلُوا يأتونَهُ بمِنديلٍ بعدَ منديلٍ للدُّمُوعِ!

ثمَّ قالَ لهُ: يَا هارونُ، إنَّ الرجُلَ ليُسرعُ فِي مالِهِ فيستحقُّ الحجرَ عليهِ، فكيفَ بمَن يسرعُ فِي أموالِ المسلمينَ كلهِم؟! ثمَّ تركهُ وانصرفَ والرشيدُ يبكِي.

وقالَ الفَضلُ بنُ الرَّبيعِ: حججتُ معَ الرشيدِ فمررنَا بالكوفةِ، فإذَا بُهلولُ المجنونُ يهذِي، فقلتُ: اسكُت، فقَد أقبلَ أميرُ المؤمنينَ، فسكتَ، فلمَّا حاذاهُ الهودجُ قالَ: يَا أميرُ المؤمنينَ، إنَّ قدامةَ بنَ عبدِ اللهِ العامريَّ قالَ: «رأيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنَىٰ علَىٰ جملٍ وتحتَهُ رحلٌ رثٌّ، ولَم يكُن ثمَّ طَردٌ ولَا ضَربٌ ولَا إليكَ إليكَ»[(١)].

فقلتُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنهُ بهلولُ المجنونُ، فقالَ: قَد عرفتهُ، قُل يَا بهلولُ، فقالَ:

فَهَـب أَنْ قَـد مَلَكـتَ الأَرضَ طَـرًّا ... وَدَانَ لَـكَ العِـبَادُ فَكَـانَ مَـاذَا؟
أَلَـيسَ غَـدًا مَـصِيرُكَ جَـوفَ قَبـرٍ ... وَيَحثُو عَلَيكَ التُّربَ هَذَا ثُمَّ هَذَا؟

قالَ: أجدتَ يَا بهلولُ، أفغيرهُ؟

قالَ: نعَم يَا أميرَ المؤمنينَ، مَن رزقهُ اللهُ جمالًا ومالًا، فعفَّ فِي جمَالِهِ، وواسَىٰ فِي مالهِ، كُتِب فِي ديوانِ الأبرارِ.

فظنَّ هارونُ أنهُ يريدُ شيئًا، فقالَ: إنَّا قَد أمرنَا بقضاءِ دينكَ.

قالَ: لَا تفعَل يَا أميرَ المؤمنينَ، لَا تقضِ دينًا بدَينٍ، اردُدِ الحقَّ إلَىٰ أهلهِ، واقضِ دَينَ نفسِكَ مِن نفسِكَ.

قالَ: إنَّا أمرنَا أَن يجريَ عليكَ رزقٌ.

قالَ: لَا تفعَل يَا أميرَ المؤمنينَ، فإنهُ لَا يعطيكَ وينسانِي، ولَا حاجةَ لِي فِي جرايتِكَ.

ولمَّا علمَ السَّلفُ قدْرَ الدنيَا زهدُوا بهَا، وأقبلوُا علَىٰ الآخرةِ لإيثارِهم الباقِي علَىٰ الفانِي، فسَعِدتَ بهمُ الدنيَا، وأثَّرَت موعظتُهم فِي القلوبِ.

كانَ الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرَ العبادةِ، حَسَنَ الصلاةِ، وكانَ يقولُ: مَن أطالَ القيامَ فِي

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٦٢٣).

صلاةِ الليلِ هوَّنَ اللهُ عليهِ طولَ القيامِ يومَ القيامةِ، وقَد أخذَ ذلكَ مِن قولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾(١).

وقالَ بعضُهُم: مَا رأيتُ أحدًا أشدَّ اجتهادًا منَ الأوزاعيِّ فِي العبادةِ، حجَّ فمَا نامَ علَىٰ الراحلةِ، إنمَا هوَ فِي صلاةٍ، فإذَا نعسَ استندَ إلَىٰ القتبِ، وكانَ مِن شدةِ الخشوعِ كأنهُ أعمَىٰ.

ودخلَت امرأةٌ علَىٰ امرأةِ الأوزاعيِّ، فرأَتِ الحصيرَ الذِي يصلِّي عليهِ مبلولًا، فقالَت لهَا: لعلَّ الصبيَّ بالَ هاهنَا، فقالَت: لَا، هذَا مِن أثرِ دموعِ الشيخِ فِي سجودِهِ، وهكذَا يصبحُ كلَّ يومٍ.

ودخلَ بعضُ الزهَّادِ علَىٰ المنصورِ، فقالَ: إنَّ اللهَ أعطاكَ الدنيَا بأسرِهَا، فاشترِ نفسَكَ ببعضِهَا، واذكُر ليلةً تبيتُ فِي القبرِ لَم تَبِت قبلهَا ليلةً، واذكُر ليلةً تمخضُ عَن يومٍ لَا ليلةٍ بعدهُ، فرقَّ المنصورُ لقولِهِ، وأمرَ لهُ بمالٍ، فقالَ: لَو احتجتُ إلَىٰ مالِكَ لَمَا وعظتُكَ.

ودخلَ رجلٌ علَىٰ المنصورِ، فأكرمهُ وعظَّمهُ وأدناهُ، وسألهُ عَن أهلهِ وعيالِهِ، ثمَّ قالَ لهُ، عظنِي، فقرأَ عليهِ أولَ سورةِ «الفجرِ» إلَىٰ قولِهِ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾(٢)، فبكَىٰ المنصورُ بكاءً شديدًا حتَّىٰ كأنهُ لَم يسمَع بهذِهِ الآياتِ قبلَ تلكَ الساعةِ، ثمَّ قالَ: زدنِي، فقالَ: إنَّ اللهَ قَد أعطاكَ الدنيَا بأسرِهَا، فاشترِ نفسكَ ببعضِهَا، وإنَّ هذَا الأمرَ كانَ لمَن قبلكَ، ثمَّ صارَ إليكَ، ثمَّ هوَ صائرٌ لمَن بعدَكَ، واذكُر ليلةً تسفرُ عَن يومِ القيامةِ، فبكَىٰ المنصورُ أشدَّ مِن بكائِهِ الأولِ حتَّىٰ اختلفَ جنباهُ، فقالَ لهُ سليمانُ

---

(١) سورة الإنسان:٢٦-٢٧.

(٢) سورة الفجر:١٤.

ابنُ مجالدٍ: رفقًا بأميرِ المؤمنينَ، فقالَ الرجلُ: وماذَا علَىٰ أميرِ المؤمنينَ أَن يبكيَ مِن خشيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

ثمَّ أمرَ لهُ المنصورُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ، فقالَ: لَا حاجةَ لِي فيهَا، فقالَ المنصورُ: واللهِ لتأخذَنهَا، فقالَ: واللهِ لَا آخذهَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، والعاقبَةُ للمتقينَ، ولَا عُدوانَ إلَّا علَىٰ الظالِمِينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعَمَ علَىٰ عبدِهِ ورسُولِهِ محمدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن سعادةِ العبدِ أَن يوفِّقهُ اللهُ إلَىٰ التوبةِ النصُوحِ، فيسلكَ طريقهَا، ويخلصَ مِن رقِّ الهمِّ والشقاءِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(١).

هذَا وإنَّ للتوبةِ المَقبولَةِ علامَاتٍ: منهَا أَن يكونَ حالُ العبدِ بعدَ التوبةِ خيرًا ممَّا قبلهَا، وأَن يبقَىٰ الخوفُ مصاحبًا لهُ فلَا يأمنُ مكرَ اللهِ طرفةَ عينٍ، ويستمرُّ خوفهُ إلَىٰ أَن يسمعَ قولَ الرسُلِ إذَا جاءُوا لقبضِ روحهِ: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾(٢)، فهنَا يزولُ الخوفُ.

ومِن علامَاتِهَا: انخلاعُ القلبِ وتقطعُهُ ندمًا وخوفًا، وهذَا علَىٰ قدرِ عظمِ الجنايةِ وصغرِهَا، ولذَا قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ فِي قولهِ تعالَىٰ: ﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ رِيبَةً فِى

(١) سورة الشورىٰ:٢٥.

(٢) سورة فصلت:٣٠.

﴿قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[(١)]، قالَ: تقطُّعهَا بالتوبةِ.

ولَا ريبَ أنَّ الخَوفَ الشديدَ منَ العقوبةِ يوجبُ انصداعَ القلبِ وخوفَه وانخِلاعَهُ، وهذهِ هيَ حقيقةُ التوبةِ؛ لأنَّهُ يتقطعُ قلبُهُ حَسرةً علَىٰ مَا فرَّطَ منهُ، وخوفًا مِن سُوءِ العَاقبةِ، فمَن لَم يتقطَّع قلبهُ فِي الدنيَا علَىٰ مَا فرَّطَ منهُ حسرةً وخوفًا، تقطَّعَ قلبهُ فِي الآخرةِ إذَا حقَّتِ الحقائقُ، وعاينَ ثوابَ المطيعينَ وعقابَ العاصينَ.

ومِن علاماتِ التوبةِ: كسرةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلبِ لَا يشبههَا شيءٌ، ولَا تكونُ لغيرِ المذنبِ، تكسِرُ القلبَ كسرةً تامةً تحيطُ بهِ مِن جميعِ جهاتهِ، وتلقيهِ بينَ يدَي ربِّهِ طريحًا ذليلًا خاشعًا كحالِ عبدٍ جانٍ فرَّ مِن سيدهِ، فأُخذَ فأُحضرَ بينَ يديهِ، ولَم يجِد مَن ينجِّيهِ مِن سطوتهِ، ولَم يجِد منهُ بُدًّا ولَا غناءً ولَا مهربًا، وعلمَ أنَّ حياتَهُ وسعادتَهُ وفلاحَهُ ونجاحَهُ فِي رضَا سيدهِ عنهُ، فيجتمعُ لهُ فِي هذهِ الأحوالِ كسرةٌ، وذلٌّ، وخضوعٌ، مَا أنفعهَا للعبدِ، ومَا أجدَىٰ عائدتهَا عليهِ، قالَ يحيَىٰ بنُ معاذٍ: «علامةُ التائبِ: إسبالُ الدمعةِ، وحبُّ الخلوةِ، والمحاسبةُ للنفسِ عندَ كلِّ همَّةٍ».

فللَّهِ مَا أحلَىٰ قولَهُ فِي هذهِ الحالِ: أسألكَ بعزِّكَ وذلِّي إلَّا رحمتنِي، أسألكَ بقوتكَ وضعفِي، وبغناكَ عنِّي وفقرِي إليكَ، هذهِ ناصيتِي الكاذبةُ الخاطئةُ بينَ يديكَ، عبيدُكَ سوايَ كثيرٌ وليسَ لِي سيِّدٌ سواكَ، لَا ملجأَ ولَا منجَىٰ منكَ إلَّا إليكَ، أسألكَ مسألةَ المسكينِ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ الخاضِعِ الذَّليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ، سؤالَ مَن خضعَت لكَ رقبتُهُ، ورَغِم لكَ أنفُهُ، وفاضَت لكَ عيناهُ، وذلَّ لكَ قلبُهُ.

هذَا وممَّا لا بُدَّ أَن يُعلَمَ: أنهُ بالرَّغمِ مِن مُقَارفةِ بعضِ الناسِ للذنوبِ إلَّا أنَّ قلوبَهُم عامرةٌ بحبِّ اللهِ ورسولهِ، وحبِّ الخيرِ وسبلِهِ، فلمَّا علمَ اللهُ مَا فِي قلوبهِم منَ

(١) سورة التوبة: ١١٠.

الخيرِ وفَّقهُم للتوبةِ النَّصُوحِ.

تأمَّلوا:

قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ رجلًا كانَ علَىٰ عهدِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَ اسمهُ عبدَ اللهِ، وكانَ يلقَّبُ حمارًا، وكانَ يُضحِكُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَد جلدهُ فِي الشرابِ -أَي: الخمرِ- فأُتيَ بهِ يومًا، فأمَرَ بهِ فجُلِدَ، فقالَ رجلٌ منَ القومِ: اللهمَّ العنْهُ، مَا أكثرَ مَا يُؤتَىٰ بهِ، فقالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **لَا تلعنُوهُ، فواللهِ مَا علمتُ إنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسُولَهُ**»[1].

وكانَ أبُو مِحْجَنٍ الثقفيُّ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ يشربُ الخمرَ، ولطالمَا جُلِدَ بسببِ ذلكَ، فلمَّا كانَت غزوةُ القادسيةِ شربَ الخمرَ فحبسَهُ سعدُ بنُ أبِي وقاصٍ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ -وكانَ قائدَ المعركةِ يومئذٍ- وقَد أصيبَ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ بعرقِ النَّسَا فلَا يستطيعُ ركوبَ الخيلِ، فلمَّا اشتدَّ القتالَ بالمعركةِ، ونالَ الكفارُ منَ المسلمينَ، وأبُو محجَن يراقبُ ذلكَ كلَّهُ وهوَ موثَقٌ بقيودِهِ، فتاقَت نفسهُ إلَىٰ الجهادِ، فأتَىٰ إلَىٰ سلمَىٰ امرأةِ سعدٍ، فقالَ: يَا سلمَىٰ، هَل أدلُّكِ إلَىٰ خيرٍ؟ فقالَت: ومَا ذاكَ؟

قالَ: تحلينَ قَيدِي وتعيرينِي فرسَ سعدٍ، ولكِ عهدُ اللهِ عليَّ إن سلَّمنِي اللهُ أَن أجيءَ حتَّىٰ أضعَ رجلِي فِي القيدِ، وإِن قُتِلتُ استرحتُم منِّي، فقالَت: مَا أنَا وذاكَ، فرجعَ يرفلُ فِي قيودهِ وهوَ يقولُ:

كَفَىٰ حَزَنًا أَن تُردِيَ الخَيلُ بِالقَنَا ... وَأُتـرَكَ مَشدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا

إِذَا قُمتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وَأُغلِقَت ... مَصَارِيعُ دُونِي قَد تَصُمُّ المُنَادِيَا

وَقَد كُنتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخوَةٍ ... فَقَد تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا

---

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

فَلِلَّـــهِ عَهـــدٌ لَا أَخِـيسَ بِعَهــدِهِ ... لَـــئِن فُـــرِّجَت أَلَا أَزُورَ الحَوَانِـــيَا

فقالَت سلمَىٰ: إنِّي استخرتُ اللهَ، ورضيتُ بعهدكَ، فأطلقَتهُ وأعطَتهُ البلقاءَ فرسَ سعدٍ، فاقتادَ الفَرسَ، فأخرجهَا مِن بابِ القصرِ وركبهَا، حتَّىٰ إذَا كانَ بحيالِ المَيمَنةِ كبَّرَ، ثمَّ حملَ علَىٰ ميسرةِ القومِ يلعبُ برُمحهِ وسلاحِهِ بينَ الصفَّينِ، ثمَّ رجعَ مِن خلفِ المسلمينَ، ثمَّ بَدَرَ أمامَ الناسِ، وجعلَ لَا يحملُ علَىٰ رجلٍ حتَّىٰ يقتلَهُ ويَدُقَّ صلبَهُ، وكانَ يقصفُ الناسَ ليلتئذٍ قصفًا مُنكَرًا، وتعجَّبَ الناسُ منهُ، وهُم لَا يعرفونَهُ ولَم يَرَوهُ منَ النهارِ، فنظرَ إليهِ سعدٌ وجعلَ يتعجَّبُ ويقولُ: مَن ذاكَ الفارسُ؟

فلَم يلبثُوا إلَّا يسيرًا حتَّىٰ هزمَهُمُ اللهُ، ورجعَ أَبُو مِحجَنٍ، وردَّ السلاحَ، وجعلَ رجلَيْهِ فِي القيودِ كمَا كانَ، فجاءَ سعدٌ، فقالَت لهُ امرأتهُ: كيفَ قتالُكُم؟ فجعلَ يخبرُهَا ويقولُ: لقينَا، ولقينَا، وبعثَ اللهُ رجلًا علَىٰ فرسٍ أبلَقَ، فلولَا أنِّي تركْتُ أبَا محجنٍ فِي القيُودِ لقلتُ إنَّهَا بعضُ شمائِلِهِ، فقالَت: واللهِ إنَّهُ أَبُو مِحجَنٍ، كانَ مِن أمرهِ كذَا وكذَا، وقصَّت عليهِ قصَّتَهُ، فدعَا بهِ فحَلَّ قيودَهُ وقالَ: أرجُو ألَّا نجلدَكَ علَىٰ الخمرِ أبدًا، فقالَ أبُو محجنٍ: وأنَا واللهِ لَا أشربُهَا أبدًا.

هذَا وإنهُ لَا أسوأَ حالًا ممَّنِ استعبَدَهُ هوَاهُ، ولَا أخسَرَ صفقةً ممَّن باعَ آخرتَهُ بدُنيَاهُ، قَد شملَتِ الغفلةُ قلبَهُ، وسترَتِ الجهالةُ عنهُ عَيبَهُ.

وهاهيَ صوارمُ الموتِ بينَ الناسِ لامعةٌ، وقوارعُهُ بهِم واقعةٌ، وفجائعُهُ لعُذرِهِم قاطعةٌ، وسهَامُهُ فيهِم نافذةٌ، وأحكامهُ بنواصيهِم آخذةٌ، والسعيدُ مَن قطعَ الطمعَ فِي بقاءِ الأبدِ، وأنابَ إلَىٰ ربِّهِ الواحدِ الصمدِ، لعِلمِهِ أنَّ الموتَ لهُ بالرصَدِ.

❊❊❊

(٢٢) أمراضُ القلوبِ

الحمدُ للهِ الذِي بنعمتهِ اهتدَىٰ المُهتدونَ، وبعدلهِ ضلَّ الضالونَ، لَا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُم يُسألونَ، أحمدهُ تعالَىٰ وأشكرهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ سيدنَا محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ وباركَ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحَابهِ وأتباعِهِ وسَلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الاهتمامَ بشَأنِ القلوبِ وإصلاحِهَا كانَ مِن دأبِ الصالحينَ، وذلكَ لمنزلةِ القلبِ منَ الأعضاءِ حيثُ إنهُ بالنسبةِ إليهَا كالمَلِكِ بالنسبةِ للجنودِ، فإذَا استقامَ استقامَتْ، وإذَا زاغَ فسَدَتْ وزاغَتْ، فهيَ تابعةٌ لهُ علَىٰ كلِّ حالٍ، تميلُ معهُ حيثُ مالَ، وقد نبَّهَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ ذلكَ فقالَ: «**ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلحَت صلحَ الجسدُ كلهُ، وإذَا فسدَت فسدَ الجسدُ كلهُ، ألَا وهيَ القلبُ**»[1].

ولمَّا علمَ عدوُّ اللهِ إبليسُ هذهِ الحقيقةَ وتيقَّنَ منهَا، أقبلَ علَىٰ القلوبِ بأنواعِ الوساوسِ والشبهاتِ، وزيَّنَ لهَا الباطلَ والشهواتِ، ليصدهَا عنِ السبيلِ القويمِ والصراطِ المستقيمِ، ولَا زالَ يعملُ جاهدًا فِي سبيلِ تحقيقِ غايتهِ بإفسادِ القلبِ وصدِّهِ عنِ الحقِّ، فإن عجزَ عَن ذلكَ نصبَ لهُ منَ الحِيلِ والمكائدِ مَا يؤخِّرُهُ بهِ عَن بلوغِ الكمَالِ، حتَّىٰ يجدَ المسلمُ نفسَهُ بعدَ ذلكَ فِي جهَادٍ شاقٍّ، وعناءٍ مستمرٍّ، يتلمَّسُ أسبابَ النجاةِ، ولَن يجدَهَا، إلَّا إذَا استعانَ باللهِ، والتجأَ إلَىٰ خالقهِ ومولاهُ، وأقبلَ عليهِ إقبالَ الخائفِ الذليلِ، الذِي يخشَىٰ أَن ينصرفَ قلبهُ عنِ الهدَىٰ، فيضيعَ فِي مهاوِي الرَّدَىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٠٧).

ولعلمهِ بأحوالِ القلوبِ ومَا يعرضُ لهَا، فقَد كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ أشدُّ الناسِ إيمانًا وثباتًا يدعُو اللهَ تعالَىٰ أَنْ يثبِّتَ قلبَهُ علَىٰ الحقِّ والدِّينِ، قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**يَا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبِي علَىٰ دينِكَ**، فقلتُ: يَا نبيَّ اللهِ، آمنَّا بكَ وبمَا جئتَ بهِ، فهَل تخافُ علينَا؟ قالَ: **نعَم، إنَّ القلوبَ بينَ أصبعَينِ مِن أصابعِ اللهِ يقلِّبُهَا كيفَ يشاءُ**»(١).

قالَ أبُو موسَىٰ الأشعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّمَا سُمِّيَ القلبُ مِن تقَلُّبِهِ، وإنَّ مثلَ القلبِ كمثَلِ ريشَةٍ بأرضِ فضاءٍ، تضربُهَا الريحُ ظهرًا لبطنٍ».

فإن أرادَ اللهُ بعبدهِ خيرًا، فتحَ لهُ أبوابَ التوفيقِ، وهدَىٰ قلبَهُ إلَىٰ الصلاحِ، فاكتسبَ منَ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ مَا فيهِ حياةُ قلبهِ، وإنْ عمدَ إلَىٰ العملِ السيِّئِ كانَ ذلكَ دليلًا علَىٰ فسادِ قلبهِ، فتراهُ يتخبَّطُ فِي الظلماتِ، ويزدادُ مرضًا إلَىٰ مرضٍ حتَّىٰ يموتَ ولَا يبقَىٰ فيهِ حياةٌ ولَا نورٌ.

وهذهِ القلوبُ، مَا دامَت تنبضُ بهَا الحياةُ، فإنهَا مُعَرَّضةٌ للأمراضِ والآفاتِ، وفتنِ الشبهاتِ والشَّهواتِ، والناجِي منهَا مَن نَجَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُعرضُ الفتنُ علَىٰ القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أشربهَا نُكتَت فيهِ نُكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرهَا نُكتَت فيهِ نُكتةٌ بيضاءُ، حتَّىٰ تصيرَ القلوبُ علَىٰ قلبينِ: علَىٰ أبيضٍ مثلِ الصفَا لَا تضرُّهُ فتنةٌ مَا دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مُربَادًّا كالكوزِ مجخِّيًا لَا يعرفُ مَعروفًا ولَا ينكرُ منكرًا إلَّا مَا أُشرِبَ مِن هواهُ**»(٢)، أَي: يكونُ مائلًا عنِ الاستقامةِ والاعتدالِ، فشبَّهَ القلبَ الَّذِي لَا يعِي خيرًا بالكوبِ المنكوسِ الذِي لَا يثبتُ فيهِ شيءٌ.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٣١).

هذَا وإنَّ أمراضَ القلبِ كثيرةٌ، وأعظمُهَا الرياءُ وفسادُ القصدِ والنيةِ، وحبُّ الشهوةِ الخفيةِ، وهذَا مِن أخطرِ مَا يضرُّ القلبَ ويفسدُهُ، حيثُ يعملُ المرءُ العملَ الصالحَ ويحبُّ أَن يُمدحَ عليهِ، أَو أَن يحسِّنَ عملهُ لمَا يرَىٰ مِن نظرِ الناسِ إليهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أخوفَ مَا أخافُ علَىٰ أمتِي الرياءُ والشهوةُ الخَفِيَّةُ**»(١).

قالَ سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ: إيَّاكُم والشهوةَ الخفيةَ، قالُوا: ومَا هيَ؟ قالَ: الذِي يحبُّ أَن يُمدحَ علَىٰ الخيرِ.

والرياءُ مفسدٌ للأعمالِ، محبطٌ للأجرِ، متوعَّدٌ صاحبهُ بالإثمِ والعقوبةِ، وتأمَّل هذَا الحديثَ العظيمَ الَّذِي يبينُ فسادَ عملِ المرائِي، واستحقاقَهُ للعذابِ، رغمَ أنَّ مَا قدمهُ مِن عملٍ هوَ مِن أجلِّ الأعمالِ وأفضلِهَا، ولكِن لمَّا أحاطَ بهَا الرياءُ أبطلهَا ومحقَ بركتهَا، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أولَ مَا يُقضَىٰ يومَ القيامةِ عليهِ رجلٌ استُشهِدَ، فأُتي بهِ فعرَّفهُ نِعَمَهُ، فعرفهَا، قالَ: فمَا عملتَ فيهَا؟ قالَ: قاتلتُ فيكَ حتَّىٰ استُشْهدتُ، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ قاتلتَ لأَن يقالُ: هوَ جريءٌ، فقَد قيلَ، ثمَّ أُمِر بهِ فسُحِبَ علَىٰ وجههِ حتَّىٰ ألقيَ فِي النارِ.**

ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمهُ وقرأَ القرآنَ، فأتي بهِ فعرَّفهُ نِعَمهُ فعرفهَا، قالَ: فمَا عملتَ فيهَا؟ قالَ: تعلمتُ العلمَ وعَلَّمتُهُ، وقرأتُ فيكَ القرآنَ، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلمتَ ليقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: هوَ قارئٌ، فقَد قيلَ، ثمَّ أُمرَ بهِ فسُحبَ علَىٰ وجههِ حتَّىٰ ألقيَ فِي النارِ.

ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليهِ، وأعطاهُ مِن أصنافِ المالِ، فأتي بهِ فعرَّفهُ نِعَمهُ فعرفهَا، قالَ: فمَا عملتَ فيهَا؟ قالَ: مَا تركتُ مِن سبيلٍ تحبُّ أَن ينفقَ فيهَا إلَّا أنفقتُ فيهَا

---

(١) رواه الطبراني، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٩٠).

لكَ، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ أنفقتَ ليقالَ: هوَ جوادٌ، فقَد قيلَ، ثمَّ أُمِر بِهِ فسُحبَ علَىٰ وجهِهِ حتَّىٰ ألقيَ فِي النارِ»[(١)].

فعلَىٰ المسلمِ أَن يكونَ مخلصًا بعملِهِ للهِ ربِّ العالمينَ، وأَن يبتغيَ وجهَ اللهِ بذلكَ، ولَا يجعل عملَ الآخرةِ وسيلةً للحصُولِ علىٰ متاعٍ زائِلٍ في هذه الدنيَا الفانيةِ، وأنْ يدَّخِرَ عملَهُ الصالحَ ليومِ الفقرِ والحاجةِ، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[(٢)].

قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القَلبُ السليمُ مِنَ الشركِ، وقالَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ: القلبُ السليمُ هوَ الصحيحُ، وهوَ قلبُ المُؤمنِ؛ لأنَّ قلبَ الكافرِ والمُنافقِ مريضٌ.

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العملُ بغيرِ إخلاصٍ ولَا اقتداءٍ، كالمسافرِ يملأُ جرابَهُ رملًا، يُثقِلُهُ ولَا ينفعُهُ».

فالرياءُ مِن أخطَرِ أمراضِ القلوبِ والأوبئةِ الأخلاقيةِ الضارَّةِ الَّتِي تحتاجُ إلَىٰ يقظةٍ دائمةٍ وعلاجٍ مستمرٍّ، ولَا يعمَدُ إلَىٰ ذلكَ إلَّا مَن رقَّ دينُهُ وعَمِيَت بصيرتُهُ، حيثُ يبيعُ الآجلَ بالعاجِلِ، والباقِي بالفانِي، طمعًا فِي أَن يحصُلَ علَىٰ شيءٍ مِن حُطَامِ الدنيَا، قَد يحصلُ لهُ وقَد لَا يحصُلُ، فقَد كتبَ اللهُ مقاديرَ كلِّ شيءٍ، ولَن يأتيَ المرءَ إلَّا مَا قُدِّرَ لهُ ولَو بذَلَ الأسبابَ الماديةَ المحسُوسَةَ كلَّهَا، فكيفَ إذَا أرادَ أَن يتوصَّلَ إلَىٰ ذلكَ عَن طريقِ المتاجرةِ بالدِّينِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾[(٣)].

ومَن تيقَّنَ هذَا حقَّ اليقينِ قطعَ أسبَابَ الرجَاءِ إلَّا منَ اللهِ، وعلمَ أنَّ الأمورَ كلَّهَا

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) سورة الشعراء:٨٨-٨٩.

(٣) سورة الإسراء:١٨.

بيَدِهِ سبحَانَهُ، فلَم يَسألهَا إلَّا منهُ عَزَّوَجَلَّ، فَضْلًا عَن أَن يَبِيعَ دينَهُ رجاءَ أَن يحصُلَ علَىٰ مَتَاعٍ، فيُرائِي بعمَلِهِ بَشرًا مثلِهِ، عبيدًا ضعفاءَ، لَا يملكونَ لأنفسهِم ضرًّا ولَا نفعًا، ولَا يملكونَ موتًا ولَا حياةً ولَا نشُورًا.

ومِن أعظمِ أسبابِ فسادِ النيةِ والقصدِ: حبُّ الرئاسةِ والتصدُّرِ، والاجتهادُ فِي حبِّ الظهورِ بكلِّ وسيلةٍ وسبيلٍ، حتَّىٰ لَو كانَ ذلكَ عَن طريقِ الإفكِ والباطلِ؛ ولذَا ترَىٰ أصحابَ الرئاساتِ المُبتَغينَ لإقامةِ رئاستِهِم بأيِّ طريقٍ، إذَا جاءَ الحقُّ مُخَالفًا لأهوائِهِم، مُعارضًا لطريقِ رئاستِهِم وتصدرِهِم حادُوا عنهُ، فإنْ لَم يجدُوا بدًّا إلَّا ردَّهُ، ردُّوهُ بكلِّ سَبيلٍ، وعمدُوا إلَىٰ التحريفِ والتأويلِ، وشَوَّهُوا صورةَ أهلِ الحقِّ الذِي يبيِّنونَ حقيقتَهُم للخلقِ، ولفَّقُوا لهُمُ التُّهَمَ الجزافَ، وصدُّوا النَّاسَ عنهُم عَن طريقِ وصفهِم بأشنعِ الأوصافِ، وإذَا رأَىٰ عاشقُو الرئاسةِ والتصدُّرِ أنَّ الحقَّ قَد جاءَ موافقًا لأهوائِهِم استجابُوا لهُ، وأتَوا إليهِ مسارعينَ مُذعِنينَ، لَا لأنَّهُ حقٌّ، لكِن لأنَّهُ جاءَ موافقًا لأغراضِهِم وأهوائِهِم، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

والعبدُ المُخلِصُ هوَ الذِي يعملُ للهِ يرجُو ثوابَ اللهِ، ويجعلُ هذهِ الدنيَا تبعًا لدينهِ، ويعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ عطاءَ الدنيَا ليسَ بميزانٍ عندَ ذوِي البصيرةِ، فقَد يُعطَىٰ منهَا الكافرُ ويمنعُ منهَا المؤمنُ لحكمةٍ يريدُهَا اللهُ، فلَا يقاتلُ مِن أجلهَا، ولأَن يكونَ المرءُ تابعًا فِي الخيرِ، أفضلُ مِن أَن يكونَ متبوعًا فِي الشرِّ، أَو رأسًا فِي الضلالةِ.

ومِن أسبابِ مرَضِ القلوبِ، تعاطِي المعاصِي والذنوبِ حتَّىٰ تصرفَ القلبَ عَن صحتِهِ واستقامتِهِ، فلَا يزالُ مريضًا معلولًا لَا ينتفعُ بالأدويةِ الَّتِي فيهَا حياتُهُ وصلاحُهُ،

---

(١) سورة النور: ٤٨-٥٠.

وذلكَ أَنَّ تأثيرَ الذنوبِ فِي القلوبِ أشدُّ مِن تأثيرِ الأمراضِ فِي الأبدانِ، ولَا دواءَ للقلبِ إِلَّا بتركِ الذنبِ، ولَن يصلَ المذنبُ إِلَىٰ صحةِ قلبِهِ إِلَّا بمُخَالفةِ هوَىٰ النفسِ الَّذِي يقطعُ طريقَ العبدِ عَنِ الوصولِ إِلَىٰ ربِّهِ وخالقِهِ، فالمعاصِي سمومُ القلبِ، وسببٌ لمرضِهِ وهلاكِهِ.

والعبدُ مَا دامَ أَنَّهُ يعيشُ فِي هذهِ الحياةِ، فلا بُدَّ أَن يحصلَ منهُ الخطأُ والزَّلَلُ، فإِنْ أصابَ شيئًا مِن ذلكَ سَارَعَ إِلَىٰ مَحوِ أثرِهِ بالتوبةِ والاستغفارِ، والحسناتِ الماحيةِ، فإِن هوَ وفِّقَ لذلكَ، حمدَ اللهَ تعالَىٰ أَن فتحَ لهُ بابَ التوبةِ والإنابةِ، لأنَّ هذَا مِن علاماتِ توفيقِ اللهِ لعبدِهِ، فإِنَّ مِن أعظمِ الخُذلانِ أَن يَحُولَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بينَ العبدِ وبينَ التوبةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾(١)، **قالَ ابنُ عباسٍ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: يَحُولُ بينَ المؤمنِ وبينَ الكفرِ، وبينَ الكافرِ وبينَ الإيمانِ.

هذَا وإِنَّ مِن أعظمِ مَا يقودُ المرءُ إِلَىٰ المعاصِي: إطلاقَ لسَانِهِ فِي فضولِ الكلامِ، فمَن أرخَىٰ عِنَانَ لسانِهِ باءَ بالخسرانِ، فإِنَّ اللسانَ كسبُعٍ عقورٍ إِن أَمِنْتَهُ عدَا عليكَ فقتلكَ، وقَد قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وهَل يكبُّ الناسَ فِي النارِ علَىٰ وجوهِهِم** -أَو قالَ: **علَىٰ مناخرِهِم- إِلَّا حصائدُ ألسنتِهِم**»(٢)، **وحصائدُ الألسنةِ**: جزاءُ الكلامِ وعقوباتُهُ، فإِنَّ الإنسانَ يزرعُ بقولِهِ وعملِهِ الحسناتِ والسيئاتِ، ويومَ القيامةِ يحصدُ مَا زرعَ.

ولخطورةِ أمرَ اللسانِ فقَد حذَّرَ منهُ السلفُ وشدَّدُوا فِي شأنِهِ، **قالَ ابنُ مَسعُودٍ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «واللهِ الَّذِي لَا إِلهَ إِلَّا هوَ، مَا علَىٰ ظهرِ الأرضِ شيءٌ أحوجُ إِلَىٰ طولِ سجنٍ مِن لسانٍ»، **وقالَ أَبُو وائلٍ**: ارتقَىٰ ابنُ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا علَىٰ الصفَا فأخذَ بلسانِهِ فقالَ: «يَا لسانُ، قُل خيرًا تغنَم، واسكُت عَن شرٍّ تسلَم، مِن قبلِ أَن تندمَ، ثمَّ قالَ: سمعتُ

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٤١٣).

رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: **«أكثرُ خطايَا ابنِ آدمَ فِي لسَانِهِ»**[١].

فآفاتُ اللسَانِ كثيرةٌ، كالغيبةِ، والنميمةِ، والكذبِ، والفحشِ، والخوضِ فِي الباطلِ، وإيذاءِ الخَلْقِ وهتكِ أستارِهِم، وغيرِ ذلكَ كثيرٌ، والموفَّق مَن رزقهُ اللهُ الصمتَ إلَّا عَن بيانِ الحقِّ والدلالةِ علَىٰ الخيرِ.

كمَا أنَّ كثرةَ الكلامِ بابٌ خطيرٌ إلَىٰ الوقوعِ فِي الحرامِ، فقَد يبدأُ المرءُ بكلامٍ مباحٍ، ثمَّ تتابعُ الأحداثُ وإذ بهِ سقطَ فِي كبيرةٍ مِن كبائرِ الذنوبِ وهوَ لَا يشعرُ، فكيفَ إذَا تعاطَىٰ ذلكَ عَن علمٍ وتمييزٍ.

كمَا أنَّ كثرةَ الخوضِ فِي الأحاديثِ علامةٌ علَىٰ رقَّةِ الدِّينِ، وقَد حذَّرَ السلفُ مِن ذلكَ أشدَّ تحذيرٍ، **قالَ الحسنُ البصريُّ**: كانُوا يقولونَ: إنَّ لسانَ المؤمنِ وراءَ قلبِهِ، فإذَا أرادَ أَن يتكلمَ بشيءٍ تدبَّرهُ بقلبِهِ ثمَّ أمضاهُ، وإنَّ لسانَ المنافقِ أمامَ قلبِهِ، فإذَا همَّ بشيءٍ أمضاهُ بلسانِهِ ولَم يتدبَّرهُ بقلبِهِ.

ومِن أمراضِ القلوبِ: حسدُ الناسِ علَىٰ مَا آتاهُمُ اللهُ مِن فضلِهِ، فتجِدُ الحاسدَ أضيقَ الناسِ عيشًا وأبأسَهُم حالًا، يغتمُّ إذَا أُعطيَ المحسودُ، ويفرحُ إذَا زالَت عنهُ النعمةُ، وكأنَّهُ يحاسِبُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ علَىٰ قضائِهِ وقدَرِهِ، فيقودُهُ ذلكَ إلَىٰ كفرِ نعمةِ اللهِ عليهِ والتسخطِ علَىٰ أقدارِهِ، وقَد يزيدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المحسودَ نعمةً، فيزدادُ الحاسدُ غمًّا إلَىٰ غمٍّ، وكفَىٰ بهِ بذلكَ عذابًا، كمَا قالَ القائلُ: قاتلَ اللهُ الحسدَ مَا أعدلَهُ، بدأَ بصاحبِهِ فقتلَهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٢]، وقَد يزيدُ الحاسدُ فعلَهُ شناعةً

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٢).

(٢) سورة النساء: ٥٤.

بالتعدِّي علَىٰ المحسودِ بالكذبِ والغيبةِ والنميمةِ وهتكِ السترِ وتلفيقِ الأراجيفِ، وهذهِ مِن كبائرِ الذنوبِ والظلمِ الَّذِي لَا يرضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وحريٌّ أَنْ يقتصَّ سبحانَهُ للمظلومِ ممَّن ظلمَهُ عاجلًا غيرَ آجلٍ.

فمَا أعجبَ أَن يتعرَّضَ العاقلُ إِلَىٰ أسبابِ سخطِ اللهِ تعالَىٰ مِن غيرِ نفعٍ يصلُ إليهِ، إضافةً إِلَىٰ مَا يصيبهُ منَ الأمراضِ والآلامِ بسببِ أمرٍ ليسَ للمحسودِ فيهِ تقديمٌ ولَا تأخيرٌ، بَل هوَ مِنْ عطاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والحسدُ داءٌ كامنٌ فِي النفوسِ، ولكنَّ الناسَ فِي ردِّهِ متفاوتونَ علَىٰ حسَبِ مَا أعطاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الثبَاتِ واليَقينِ، وقَد قالَ بعضُ السَّلفِ: لَا يخلُو جسدٌ مِن حسدٍ، ولكنَّ الكريمَ يُخفِيهِ، واللئيمَ يُبدِيهِ.

ومِن أمراضِ القُلوبِ: العُجْبُ، وهوَ استعظامُ النعمةِ والركونُ إليهَا معَ نسيانِ إضافتِهَا إِلَىٰ اللهِ سبحانَهُ، وقَد ذمَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ العُجْبَ والالتفاتَ إليهِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(١)، فقَد يُعجَبُ المرءُ بعملِهِ أَو نفسِهِ أَو عدَّتِهِ، فيكِلهُ اللهُ إِلَىٰ نَفسِهِ فيَهلكُ.

وقالَ النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو لَم تذنبُوا، لخَشِيتُ عليكُم مَا هوَ أشدُّ: العجبُ**»(٢).

فلْيحذرِ المَرءُ أَن يُعجَبَ بشيءٍ مِنَ الأسبابِ الماديةِ، كالمالِ، وكثرةِ الأبناءِ، أوِ النسبِ، أو طاعتِهِ وعملِه الصَّالحِ، دونَ الالتفاتِ إِلَىٰ نِعمةِ اللهِ عليهِ، فقَد يكونُ ذلكَ سببًا لانفتاحِ أبوابِ الشرِّ عليهِ.

---

(١) سورة التوبة: ٢٥.

(٢) رواه البزَّار، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٢١).

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الهلاكُ فِي اثنتَيْنِ: القنوطُ والعُجْبُ، وقالَ مطرِّفُ: لأَن أبيتَ نائمًا، وأصبحَ نادمًا، أحبُّ إليَّ مِن أن أبيتَ قائمًا وأصبحَ مُعجَبًا، **وجاءَ عَن بشرِ ابنِ منصورٍ**: أَنَّهُ صلَّىٰ فأطالَ الصلاةَ، فقالَ بعدَ سلامِهِ لشخصٍ كانَ ينظرُ إليهِ: لَا يعجبُكَ مَا رأيتَ منِّي، فإنَّ إبليسَ قَد عبَدَ اللهَ معَ الملائكةِ مدةً طويلةً ثمَّ صارَ إلَىٰ مَا صارَ إليهِ.

ومِن أعظَمِ مَا يُعَالِجُ المرءُ بهِ نفسَهُ إنْ رأَىٰ إعجابَهَا بمَا تحوزُ مِن علمٍ أَو عملٍ أَو دنيَا: أَنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالَىٰ هوَ المقدِّرُ لهُ ذلكَ، والمنعمُ عليهِ بالتوفيقِ لنَيلِ ذلكَ، فكيفَ يُعجَبُ بمَا ليسَ إليهِ ولَا منهُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لهُ علَىٰ تَوفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهَدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ تعظيمًا لشانِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الداعِي إلَىٰ رِضوَانِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ مِن أعظمِ أمراضِ القلوبِ: قَسوةَ القلبِ، فإنَّ القلوبَ القاسيةَ أبعدُ القلوبِ منَ اللهِ، وإذَا قسَا القلبُ قحطَتِ العيونُ.

قالَ عيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لَا تكثرُوا الكلامَ بغيرِ ذكرِ اللهِ، فتقسُوَ قلوبُكُم، وإنَّ القلبَ القاسِي بعيدٌ مِنَ اللهِ.

وقسوةُ القلبِ مِن علاماتِ اليَهودِ، ومَنِ اتَّصفَ بهَا فقَد تَشبَّهَ بِهِم، قالَ تعالَىٰ:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

ومِن أعظمَ مَا يعالجُ فيهِ المسلمُ قسوةَ قلبهِ: الإكثارُ مِن ذكرِ اللهِ.

قالَ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذكرُ للقلبِ كالماءِ للسمكِ، فكيفَ يكونُ حالُ السمكِ إذَا أُخرجَ منَ الماءِ»، وذلكَ أنَّ القلبَ إذَا استولَت عليهِ الغفلةُ اشتدَّت بهِ القسوةُ، فإذَا ذكَرَ اللهَ تعالَىٰ ذابَت تلكَ القسوةُ كمَا يذوبُ الرصاصُ فِي النارِ، ومَا أُذِيبَت قسوةُ القلبِ بمثلِ ذكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قالَ رجلٌ للحسنِ البصريِّ: يَا أبَا سعيدٍ، أشكُو إليكَ قسوةَ قلبِي، قالَ: أذِبْهُ بالذِّكرِ.

ومِن علاجِ قسوةِ القلبِ: النظرُ فِي حالِ الضعفاءِ، فقَد أتَىٰ رجلٌ إلَىٰ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يشكُو قسوةَ قلبهِ، فقالَ: «**أتُحِبُّ أَن يَلينَ قلبُكَ، وتدركَ حاجتَكَ؟ ارحَمِ اليتيمَ، وامسَح رأسَهُ، وأطعِمهُ مِن طعَامِكَ، يَلِنْ قَلبُكَ وتُدرِكْ حاجتَكَ**»[2].

وممَّا يعالجُ قسوةَ القلبِ: تعلُّقُ القلبِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، استسقَىٰ موسَىٰ بنُ نُصَيرٍ فِي الناسِ عامَ ثلاثٍ وتسعينَ حينَ أقحطُوا بإفريقيَّةَ، فأمرَهُم بالصيامِ، ثمَّ خرجَ بِهِم، وميَّزَ أهلَ الذمةِ عنِ المسلمينَ، وفرَّقَ بينَ البَهائمِ وأولادِهَا، ثمَّ أمرَ بالبكاءِ، وارتفاعِ الضَّجيجِ، وهوَ يدعُو اللهَ تعالَىٰ حتَّىٰ انتصفَ النهَارُ، ثمَّ نزلَ، فقيلَ لهُ: ألَا دَعوتَ لأميرِ المؤمنينَ؟ فقالَ: هذَا مَوطِنٌ لَا يُذكَرُ فيهِ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فسَقَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لمَّا قالَ ذلكَ.

---

(١) سورة الحديد:١٦.

(٢) رواه أحمد والطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٥٤).

وممَّا يعالِجُ المرءُ بِهِ قسوَةَ قَلبِهِ: تذكُّرُ اللهِ والدارِ الآخرةِ، والبُكاءُ علَىٰ الذنوبِ والمَعَاصِي التِي جناهَا، ولَا يعلمُ مَا اللهُ فاعلٌ بهَا.

ضَحكَ زيادٌ ذاتَ يومٍ حتَّىٰ علَا صوتُهُ، ثمَّ قالَ: أستغفرُ اللهَ، وبكَىٰ بُكاءً شديدًا، فقالَ لهُ جلساؤُهُ بعدَ ذلكَ المجلسِ: مَا رأينَا -أصلحَ اللهُ الأميرَ- بكاءً فِي إثْرِ ضَحِكٍ أسرَعَ مِن بكائِكَ بالأمسِ، فقالَ: إنِّي واللهِ ذَكرتُ ذنبًا أذنبتُهُ، كنتُ بِهِ حينئذٍ مَسرُورًا، فذكرتهُ فبَكيتُ خوفًا مِن عاقبتِهِ، ثمَّ بكَىٰ.

نسألُ اللهَ أَن يصلحَ قلوبَنَا، ويغفرَ زلَّاتِنَا.

❊❊❊

(٢٣) حسنُ الخلقِ

الحمدُ للهِ المَذكورِ بكلِّ لسانٍ، المشكورِ علَىٰ كلِّ إحسانٍ، خلقَ الخلقَ ليعبدُوهُ، وأظهرَ لهُم آياتِهِ ليعرِفُوهُ، فهوَ ذُو الفضلِ العظيمِ، والخيرِ الواسِعِ العَميمِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ حُسنَ الخلقِ جامعٌ لأبوابِ الخيرِ، ومفتاحٌ لسُبلِ البرِّ، مَن وفَّقهُ اللهُ إليهِ فقَدْ حازَ فضلًا عظيمًا، وسبقَ سبقًا كبيرًا، وقَد أعظمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منزلَتَهُ حتَّىٰ قالَ بعضُ السلفِ: «لكلِّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الإسلامِ الخُلقُ الحَسنُ».

ومِن أجلِ ذلكَ فقَد أثنَىٰ اللهُ علَىٰ خيرِ خَلقهِ محمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَا فضَّلهُ بهِ مِن حسنِ الخُلُقِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١)، فمَا بالُكَ بأمرٍ عظَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟

ولمَّا سُئلَت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عَن خُلُقِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَت: «كانَ خلقُهُ القرآنَ»(٢)؛ أَي: كانَ متمسِّكًا بآدابِهِ وأوامرِهِ ونواهيهِ، ومَا يشتملُ عليهِ مِن مَكَارمِ الأخلاقِ ومَحَاسنِ الأمورِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحقيقةُ حُسنِ الخُلُقِ: بذلُ المعروفِ وكفُّ الأذَىٰ وطلاقةُ الوجهِ، وأَن يحتملَ مَا يكونُ منَ الناسِ، وأَن يأخذَ النَّفْسَ نحوَ الأحمَدِ منَ الأفعالِ بينَ الناسِ، ويكونَ سمحًا بحقوقهِ، لَا يطالبُ غيرَهُ بهَا، ويوفِي مَا يجبُ لغيرهِ عليهِ منهَا.

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) رواه مسلم (١٢٣٣).

فمَن أرادَ اللهُ بهِ خيرًا وفَّقهُ لمَحاسنِ الأخلاقِ، فإنَّ ذلكَ هوَ الفضلُ العظيمُ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البرُّ حسنُ الخلقِ**»(١)، والبرُّ هوَ الخيرُ الكثيرُ.

ومَن رأىٰ عظيمَ منزلةِ حسنِ الخلقِ فِي الشريعةِ، سعَىٰ سعيًا حثيثًا ليكونَ لهُ النصيبُ الأعظمُ مِن ذلكَ.

فإنَّ حسنَ الخلقِ مُثقِّلٌ لميزانِ العبدِ يومَ القيامةِ، فقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن شيءٍ أثقلُ فِي ميزانِ المُؤمنِ يومَ القيَامَةِ مِن خُلقٍ حَسنٍ**»(٢).

كمَا أنَّهُ أكثرُ مَا يَدخُلُ بِهِ الناسُ الجنةَ، فقَد سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن أكثرِ مَا يُدخِلُ الناسَ الجنةَ، فقالَ: «**تقوَىٰ اللهِ وحسنُ الخلقِ**»(٣).

وهوَ دليلٌ علَىٰ كمالِ إيمانِ العَبدِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ مِن أكمَلِ المُؤمِنينَ إيمانًا أحسنَهُم خُلقًا**»(٤).

وكفَىٰ بهِ قدرًا أنَّهُ وَسيلةٌ إلَىٰ مَحبَّةِ اللهِ للعبدِ، وأنَّ صاحبَهُ قريبُ المَنزلةِ يومَ القيامةِ مِن خيرِ الورَىٰ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَد جاءَت بذلكَ الأحاديثُ الصحيحةُ، فقد سُئلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أحَبُّ عبادَ اللهِ إلَىٰ اللهِ؟ قالَ: أحسَنُهُم خُلُقًا**»(٥).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ أحبِّكُم إليَّ وأقرَبِكُم منِّي مَجلِسًا يومَ القيامةِ أحسَنُكُم**

(١) رواه مسلم (٤٦٢٣).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٧٦).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٢٣).

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤).

(٥) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٢).

أخلاقًا»[١].

فهذهِ الأحاديثُ النبويةُ الكريمةُ ممَّا يشحذُ الهممَ لبلوغِ تلكَ المنازلِ بالعملِ الدءوبِ علَىٰ تحصيلهَا، علَىٰ أنَّ هِمَمَ الناسِ تختلفُ فِي هذَا المِضمَارِ، واللهُ هوَ الهادِي إلَىٰ أقومِ سَبِيلٍ.

وممَّا يَدُلُّ علَىٰ عَظيمِ مَنزِلةِ الأخلاقِ: مُلازَمَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاءَ بأَن يحسِّنَ اللهُ خُلُقَهُ، وهذَا تشريعٌ لأمَّتِهِ لتَحذُوَ حذوَهُ، فكانَ يقولُ فِي دعائِهِ: «**اللهُمَّ كمَا حَسَّنتَ خَلْقِي فحَسِّن خُلُقِي**»[٢].

وكانَ مِن دعائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ اهدنِي لأحسَنِ الأخلاقِ لَا يَهدِي لأحسَنِهَا إلَّا أنتَ، واصرِف عنِّي سيئَهَا لَا يصرفُ عنِّي سيئَهَا إلَّا أنتَ**»[٣].

كمَا أنَّ حسنَ الخلقِ عونٌ علَىٰ الدِّينِ والاستقامةِ.

قالَ الإمامُ محمدُ بنُ سيرينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانُوا يرونَ حُسنَ الخُلقِ عَونًا علَىٰ الدِّينِ»، **وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليتَّقِ الرجلُ دناءةَ الأخلاقِ كمَا يتَّقِي الحرامَ».

وحُسنُ الخلقِ مِن شِيَمِ أهلِ المُروءاتِ، **قالَ الشَّافعيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «للمُروءةِ أركانٌ أربعةٌ: حُسنُ الخُلقِ، والسخَاءُ، والتواضُعُ، والنسُكُ»، **وقالَ عليٌّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أكرمُ الحسَبِ حُسنُ الخلقِ».

هذَا وإنَّ مِن أوسَعِ الأبوابِ إلَىٰ محَاسنِ الأخلاقِ: طلاقةَ الوجهِ والبِشرَ عندَ اللقاءِ، فإنَّ الابتسامةَ دليلٌ علَىٰ حسنِ الخلقِ، وتُوطِّنُ النفسَ علَىٰ الأخذِ بمَحَاسنِ الأخلاقِ، كيفَ لَا،

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٩).

(٢) رواه البيهقي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٢٠٩).

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**تبسُّمكَ فِي وجهِ أخيكَ صدقةٌ**»(١)، **وقالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البَجَليُّ**: «مَا حجبنِي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذُ أسلمتُ، ولَا رآنِي إلَّا تبسَّمَ فِي وجهِي»(٢).

فكَم هوَ جميلٌ أَن نجعلَ الابتسامةَ عنوانًا لنَا حينَ مُخَاطبةِ الناسِ ومحادثتِهم، ومَا ذلكَ إلَّا لأنَّ الابتسامَةَ مفتاحٌ للقُلوبِ، وسبيلٌ إلَىٰ التآلفِ والتواصُلِ.

ومنَ الخطأِ الفاحشِ عندَ بعضِ الناسِ: ظنُّهُ بأنَّ التبسُّمَ فِي وجوهِ الناسِ يجرِّئُهُم عليهِ، أَو أنَّهُ لَا يليقُ بالسمتِ والرزانةِ، فتجدُ أحدَهُم إذَا سلَّمَ علَىٰ الناسِ أَو خاطبَهُم أقبلَ عليهِم بوجهٍ عبوسٍ وكأنَّهُ مغضَبٌ مِن أمرٍ مَا، وهذَا خطأٌ بالغٌ جسيمٌ، وهوَ مِن تلبيسِ الشيطانِ، فالسَّمتُ وقوةُ الشخصيةِ ليسَت بتركِ التبسُّمِ ومحاسنِ الأخلاقِ، بَل إنَّ التعاملَ بهذَا المنطقِ دليلُ الجفاءِ والغلظةِ.

قالَ الحَارثُ بنُ جزءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يعجبنِي منَ القراءِ كلُّ طليقٍ مِضحَاكٍ، فأمَّا الذِي تلقاهُ ببشرٍ، ويلقاكَ بوجهٍ عبوسٍ كأنَّهُ يمنُّ عليكَ، فلَا كثَّرَ اللهُ فِي المسلمينَ مثلهُ».

والهيبةُ لَا يُنقصُهَا حسنُ الخُلقِ فِي التعامُلِ معَ الناسِ، والتبسُّمُ فِي وجوهِ الخلقِ، فقَد كانَ سلفُ الأمةِ أحسَنَ الناسِ أخلاقًا، وأعظَمُهُم هَيبةً فِي قلوبِ الناسِ.

قالَ ضِرَارُ بنُ حَمزةَ يصِفُ عليَّ بنَ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كانَ واللهِ يجيبُنَا إذَا سَألنَاهُ، ويَأتينَا إذَا دَعونَاهُ، ونحنُ واللهِ معَ تقريبِهِ لنَا وقربِهِ منَّا، لَا نكلِّمُهُ هيبةً لهُ، يعظِّمُ أهلَ الدينِ، ويحبُّ المساكينَ، لَا يطمعُ القويُّ فِي باطلهِ ولَا ييأسُ الضعيفُ مِن عدلهِ».

ومِن محاسنِ الأخلاقِ: أَن يكونَ هيِّنًا ليِّنًا معَ الناسِ، متواضعًا لهُم، قريبًا منهُم،

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٨٥).

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٩)، ومسلم (٤٥٢٣).

يصغِي إلَىٰ حاجاتِهم، فإنَّ بعضَ الناسِ تكونُ لهُ الحاجةُ عندَكَ فلَا يستطيعُ أَن يفصحَ بهَا إليكَ بسببِ خجَلِهِ، فإن لَم تجعَل لهُ بابًا علَىٰ نفسِكَ بأَن تُجَرِّئَهُ علَىٰ نفسِكَ بعضَ الجرأةِ، كأَن تخلُوَ بهِ وتسألَهُ عَن حاجتِهِ، فلَن يبلغَ إليكَ بحاجتِهِ، وقَد بيَّنَ لنَا ذلكَ معلمُ الناسِ الخيرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمَّ بيانٍ، بقولِهِ وفعلِهِ، فقَد قالَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنَّ أبَا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استأذَنَ علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ مضطجعٌ علَىٰ فراشِهِ، فأَذِنَ لهُ وهوَ كذلكَ، فقضَىٰ إليهِ حاجتَهُ ثمَّ انصرفَ، ثمَّ استأذنَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأذنَ لهُ وهوَ علَىٰ تلكَ الحالِ، فقضَىٰ إليهِ حاجتَهُ ثمَّ انصرفَ، ثمَّ استأذنَ عليهِ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجلسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالَ لعَائشةَ: اجمعِي عليكِ ثيابَكِ، فقضَىٰ إليهِ حاجتَهُ ثمَّ انصرفَ.

فقالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رسولَ اللهِ، مَا لِي لَم أركَ فزِعتَ لأبِي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كمَا فزعتَ لعثمانَ؟ فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنَّ عثمانَ رجلٌ حييٌّ، وإنِّي خشيتُ إن أذنتُ لهُ علَىٰ تلكَ الحالِ ألَّا يبلغَ إليَّ فِي حاجَتِهِ**»(١).

فصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعمَ علَىٰ مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ، الذِي أتمَّ اللهُ بهِ الدينَ، وهداهُ إلَىٰ أحسَنِ الأخلاقِ وأعظمِهَا.

هذَا وإنَّ منَ الخَطإِ الَّذِي يصنَعُهُ البَعضُ، أنَّهُ قَد يدخلُ عليهِ بعضُ الناسِ فِي حاجةٍ لَا يريدُ أَن يطلعَ عليهَا أحدٌ، وهوَ قَد جلسَ فِي جماعةٍ منَ الناسِ، فيسألُ هذَا الداخلَ عَن حاجتِهِ، فإذَا قالَ لهُ: إنَّ حاجتِي خاصَّةٌ أريدُهَا بينِي وبينَكَ، قالَ: لَا، فالأمرُ عاديٌّ، وليسَ عندِي إلَّا فلانٌ وفلانٌ أصحابِي، فيعودُ المرءُ منهُ دونَ إبلاغِهِ حاجتَهُ.

وهذَا مِن سوءِ التصرفِ، فإنَّ طباعَ الناسِ تختلفُ، وقَد يكونُ هذَا المرءُ حييًّا،

---

(١) رواه مسلم (٤٤١٥).

أَو لَا يريدُ أَن يُظهرَ حاجتَهُ أمامَ الناسِ لأنَّهَا تتعلقُ بأمرٍ خاصٍّ، أَو حفاظًا علَىٰ كرامتهِ، أَو خوفًا مِن ردِّ حاجتِهِ، فإِذَا بهذَا يحرجُهُ ويجرحُهُ فِي آنٍ واحدٍ.

وكأَنَّ مَن يفعلُ هذَا الفعلَ لَا يريدُ بتصرفهِ ذلكَ إلَّا إيجادَ العذرِ لنفسهِ لردِّ حاجةِ مَن جاءَهُ، فيعتذرُ بعدَ ذلكَ بأَنَّهُ سألَهُ فِي محضرِ الناسِ، فلَا هوَ بالذِي أمضَىٰ حاجتَهُ وأعانَهُ علَىٰ إتمامِهَا، ولَا بالذِي جعلَ لنفسهِ عذرًا مقبولًا عندَ العقلاءِ.

فملاحظةُ حاجاتِ الناسِ ومعرفةُ سبلِ التعاملِ معهَا، مِن أعظمِ الدلائلِ علَىٰ حُسنِ أخلاقِ صاحبِهَا.

هذَا وإنَّ أولَىٰ الناسِ بالمُعَاملةِ الحسَنةِ وحُسنِ الخُلُقِ هُم أهلُ البيتِ، الزوجةُ والأبناءُ، فالعَجَبُ أَنَّ بعضَ الناسِ يقصرُ ابتسامتَهُ وتخلقَهُ بالأخلاقِ الحسَنةِ المصطنعَةِ علَىٰ الناسِ، فإذَا عادَ إِلَىٰ بيتهِ صارَ وكأَنَّهُ وحشٌ كاسرٌ، لَا يبتسمُ ولَا يُهذِّبُ ألفاظَهُ، بَل يعودُ فظًّا غليظًا، كأَنَّهُ يمتنُّ علَىٰ أهلِ بيتهِ بمَا ينفِقُهُ عليهِم، ويُهَيِّئُهُ لهُم مِن سبلِ المعيشةِ، ونسِيَ أَنَّ أولَىٰ الناسِ بكلِّ حسنَىٰ هُم أهلُ البيتِ، وأَنَّهُم مُقَدَّمونَ علَىٰ كلِّ أحدٍ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ تعظيمًا لشَأنهِ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فإِنَّ الخُلُقَ الحَسنَ قَد يكونُ غريزةً فِي المرءِ، وقَد يكونُ مكتسبًا يكتسبُهُ المرءُ مِن خلالِ البحثِ عنهُ فِي مظانِّهِ، ومنَ المعلومِ أَنَّ الحكيمَ يزدادُ بمجالستهِ أولِي

الأحلامِ والنُّهىٰ رأيًا، والعالِمَ بمخالطةِ العلماءِ علمًا، فلَا يُنكَرُ أَن يكونَ ذُو الخُلُقِ الجميلِ يزدادُ حُسْنَ خُلُقٍ بمجالسةِ أُولِي الأخلاقِ الحسنةِ.

قالَ الأشعثُ بنُ قيسٍ يومًا لقومِهِ: «إِنَّمَا أنَا رجلٌ منكُم، ليسَ بِي فضلٌ عليكُم، ولكنِّي أبسطُ لكُم وجهِي، وأبذلُ لكُم مالِي، وأقضِي حقوقَكُم، وأحوطُ حريمَكُم، فمَن فعلَ مثلَ فعلِي فهوَ مثلِي، ومَن زادَ علَيَّ فهوَ خيرٌ منِّي، ومَن زدتُ عليهِ فأنَا خيرٌ منهُ.

قيلَ لهُ: يَا أبَا مُحمَّدٍ، مَا يَدعُوكَ إِلَىٰ هذَا الكلامِ؟ قالَ: أَحُضُّهُم علَىٰ مكارمِ الأخلاقِ».

ومِمَّا لا بُدَّ أَن يعلَمَهُ المسلمُ أنَّهُ مأمورٌ بتحسينِ خُلُقِهِ، وإِن غلَبَتهُ نفسُهُ علَىٰ بعضِ الطباعِ الدَّنيئَةِ فلَا يستسلمُ ويقولُ: هذهِ سجيَّتِي ولَا أستطيعُ تغييرَ طبعِي، فإِنَّ سوءَ الخُلُقِ أمرٌ مذمومٌ، يجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يتجنَّبَهُ، وقَد جاءَ منَ الأخبارِ والآثارِ مَا يدلُّ علىٰ أنَّ العبدَ يمكنهُ تحسينُ خلقِهِ، وأعظمُ مَا يدلُّ علَىٰ ذلكَ أمرُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهِ كمَا فِي قولهِ: «**وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ**»(١).

فهذَا بيانٌ علَىٰ أنَّ تحسينَ الخُلُقِ مِن تمَامِ الدِّينِ، وأنَّهُ لَا تتمُّ التقوَىٰ إِلَّا بهِ، وإِنَّمَا أفردَهُ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالذكرِ، للحاجةِ إِلَىٰ بيانِهِ، فإِنَّ كثيرًا منَ الناسِ يَظُنُّ أَنَّ التقوَىٰ هيَ القيامُ بحقِّ اللهِ دونَ حقوقِ عبادِهِ، فنصَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علَىٰ الأمرِ بإحسَانِ العِشرةِ للناسِ، فإنهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَ قَد بعثَ معاذًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إِلَىٰ اليمنِ ووصَّاهُ بهذهِ الوصيةِ معلمًا لهُم، ومُفَقِّهًا وقاضيًا، ومَن كانَ كذلكَ فإِنَّهُ يحتاجُ إِلَىٰ مُخَالَقةِ الناسِ بخُلُقٍ حسنٍ، مَا لَا يحتاجُ إليهِ غيرهُ ممَّن لَا حاجةَ للناسِ بهِ ولَا يخالطُهُم، وكثيرًا مَا يغلبُ علَىٰ مَن يعتنِي بالقيامِ بحقوقِ اللهِ والاعتكافِ علَىٰ محبتهِ وخشيتهِ وطاعتهِ،

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٠٨٣).

إهمالُ حقوقِ العبادِ بالكليةِ أوِ التقصيرِ فيهَا، والجمعُ بينَ حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادهِ عزيزٌ جدًّا لَا يقوَىٰ عليهِ إلَّا الكُمَّلُ منَ الأنبياءِ والصِّدِّيقِينَ.

فينبغِي علَىٰ العاقلِ الحِرصُ علَىٰ التزودِ منَ الأخلاقِ، وأَن يجنِي ثمارهَا اليانعةَ كلمَا تيسَّرَ لهُ سبيلٌ إلَىٰ ذلكَ، ويجعلَ الطريقَ إلَىٰ ذلكَ قيامه بحقوقِ المسلمينَ، فِي أَن يحبَّ لهُم مَا يحبُّ لنفسهِ، وأَن يتواضعَ لهُم ولَا يفخرَ عليهِم ولَا يختالَ، ولَا يتكبَّرَ ولَا يعجبَ، وأَن يوقِّرَ الشيخَ الكبيرَ، ويرحمَ الطفلَ الصغيرَ، ويعرفَ لكلِّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، معَ طلاقَةِ الوجهِ وحُسنِ التلقِّي ودَوامِ البِشرِ، كمَا قيلَ:

وَمَا اكتَسَبَ المَحَامِدَ طَالَبُوهَا ... بِمِثلِ البِشرِ وَالوَجهِ الطَّلِيقِ

وعليهِ بلينِ الجانبِ، وحُسنِ المُصَاحَبَةِ، وسهولةِ الكلمةِ، معَ إصلاحِ ذاتِ بينِ إخوانهِ، وتفقُّدِ أقرانهِ وأخدانِهِ وجيرانِهِ، وألَّا يسمَعَ كلامَ الناسِ بعضِهِم فِي بعضٍ، وأَن يبذلَ معروفَهُ لهُم لوجهِ اللهِ، لَا لأجلِ غرَضٍ، معَ سترِ عوراتِهِم، وإقالةِ عثراتِهِم، وإجابةِ دعواتِهِم، وألَّا يقفَ مواقفَ التُّهَمِ، وأَن يحلمَ عَمَّن جهلَ عليهِ، ويعفوَ عمَّن ظَلَمَهُ.

قالَ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَعَالِي الأخلاقِ للمُؤمنِ: قوةٌ فِي لينٍ، وحزمٌ فِي دينٍ، وإيمانٌ فِي يقينٍ، وحرصٌ علَىٰ العلمِ، واقتصادٌ فِي النفقةِ، وبذلٌ فِي السعةِ، وقناعةٌ فِي الفاقةِ، ورحمةٌ للمجهودِ، وإعطاءٌ فِي كرمٍ، وبرٌّ فِي استقامةٍ.

وكمَا أنَّ تحسينَ الأخلاقِ أمرٌ واجبٌ ومحمودٌ، فتجنبُ أخلاقِ السوءِ أمرٌ لازمٌ مؤكدٌ، لأنَّ سوءَ الخلقِ بابٌ مِن أبوابِ الإثمِ، وينفرُ الناسَ ممَّنِ اتَّصَفَ بهِ، ولذلكَ قيلَ: «مَن ساءَ خُلقُهُ قَلَّ صديقهُ»، وقالَ الحسَنُ: «مَن ساءَ خُلُقُهُ عذَّب نفسَهُ».

وعلَىٰ المسلمِ أَن يصاحبَ مَن يَدُلُّهُ علَىٰ مَحَاسنِ الأخلاقِ، وينهاهُ عَن مساوئِهَا، فإنَّ الصاحبَ الناصحَ مِن خيرِ مَا يستفيدُهُ المُسلمُ فِي حياتِهِ.

قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ: «إذَا خالطْتَ فخالِط حَسَنَ الخُلُقِ، فإنَّهُ لَا يدعُو إلَّا إلَىٰ خيرٍ، وصاحبهُ منهُ فِي راحةٍ، ولَا تخالِط سيِّئَ الخُلُقِ، فإنَّهُ لَا يدعُو إلَّا إلَىٰ شرٍّ، وصاحبهُ منهُ فِي عناءٍ، ولَأنْ يصحبَنِي فاجرٌ حَسَنُ الخُلُقِ، أحبُّ إليَّ مِن أَن يصحَبَنِي قارئٌ سيِّئُ الخُلُقِ، إنَّ الفاسقَ إذَا كانَ حَسنَ الخُلُقِ عاشَ بعَقلِهِ وخفَّ علَىٰ الناسِ وأحبُّوهُ، وإنَّ العابدَ إذَا كانَ سيِّئَ الخُلُقِ ثَقُلَ علَىٰ الناسِ ومَقَتوهُ».

اللهمَّ اهدنَا لأحسنِ الأخلاقِ لَا يهدِي لأحسنهَا إلَّا أنتَ، واصرِف عنَّا سيئَهَا، لَا يصرفُ عنَّا سيئَهَا إلَّا أنتَ.

❊❊❊

(٢٤) لزومُ الصدقِ ومجانبةُ الكذبِ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ هُداةِ الأنامِ ومصَابيحِ الدجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن سعادةِ المرءِ اشتغالَهُ بصلاحِ حَالِهِ وتصحيحِ سلوكِهِ، ومِن أعظمِ مَا يُعينُ علَىٰ ذلكَ أَن يتعاهدَ لسانَهُ بمَا يصلحهُ، فقَد قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبَىٰ لمَن ملكَ لسانَهُ، ووَسِعَهُ بيتُهُ، وبكَىٰ علَىٰ خطيئتِهِ**»(١).

ومِن أهمِّ مَا يجبُ علَىٰ العاقلِ فِعلُهُ: أَن يُدَاوِمَ علَىٰ رعايةِ لسانِهِ بلزومِ الصِّدقِ ومَا يعودُ عليهِ نفعُهُ فِي الدَّارَينِ، لأنَّ اللسانَ يقتضِي مَا عوِّدَ، إِن صدقًا فصدقٌ، وإِن كانَ غيرَ ذلكَ فهوَ علَىٰ حسَبِ مَا عوَّدهُ عليهِ.

واللسانُ بوابةٌ يلجُ مِن خلالهَا المرءُ فِي تعاملِهِ معَ الآخرينَ، فمِنَ الناسِ مَن يُكْرَمُ للسانِهِ، ومنهُم مَن يُهانُ بسببِهِ، ولذَا فالواجبُ علَىٰ العاقلِ أَنْ يتعاهدَ لسانَهُ، ولَا يكونُ ممَّن يشقَىٰ بهِ.

وخيرُ مَا يحملُ المرءُ لسانَهُ عليهِ أَن يعوِّدَهُ الصدقَ ومجانبةَ الكذبِ فِي الأقوالِ والأفعالِ، فإنَّ كلَّ شيءٍ يستعارُ ليُتَجمَّلَ بِهِ إلَّا اللسانَ فإنَّهُ ينضحُ بمَا اعتادَهُ؛ لأنَّ الألسنةَ مغاريفُ القلوبِ، والصدقُ ينجِّي صاحبَهُ والكذبُ يُردِيهِ. وقَد قيلَ:

(١) رواه الطبراني، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٠).

عَـوِّد لِسَانَكَ قَـولَ الخَيـرِ تَحْـظَ بِـهِ إِنَّ اللِّـسانَ لِمَـا عَـوَّدْتَ مُعتَادُ
مُـوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَـا سَـنَنتَ لَـهُ فَاختَـر لِنَفسِكَ وَانظُـر كَـيفَ تَـرتَادُ

والصدقُ مِن أعظمِ أبوابِ الخيرِ الَّتِي تقودُ صاحبَهَا إِلَىٰ جنَّاتِ الخلدِ، كمَا فِي قولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكُم بالصدقِ، فإنَّ الصدقَ يهدِي إِلَىٰ البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدِي إِلَىٰ الجنةِ، ومَا يزالُ الرجلُ يصدُقُ وَيتحرَّىٰ الصدقَ حتَّىٰ يُكتَبَ عندَ اللهِ صدِّيقًا، وإيَّاكُم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يهدِي إِلَىٰ الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدِي إِلَىٰ النارِ، ومَا يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّىٰ الكذبَ حتَّىٰ يُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّابًا**»[1].

قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ: مَا مِن مُضْغةٍ أحبُّ إِلَىٰ اللهِ مِن لسانٍ صَدُوقٍ، ومَا مِن مضغةٍ أبغضُ إِلَىٰ اللهِ مِن لسانٍ كَذُوبٍ.

ولِمَا تميَّزَ بِهِ الصِّدقُ منَ الفضلِ وعلوِّ المنزلةِ فقَدْ أوصَىٰ بِهِ العقلاءُ، وحَثُّوا عليهِ، ومدحُوا صاحبَهُ، ومَا ذاكَ إِلَّا لأَنَّ الصدقَ عمودُ الدينِ، وركنُ الأدبِ، وأصلُ المروءةِ ولَا تتمُّ هذهِ الثلاثةُ إِلَّا بِهِ.

قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ أبَا بكرٍ قامَ فينَا عامَ أوَّلَ فقالَ: إنَّهُ لَم يُقْسَمْ بينَ الناسِ شيءٌ أفضلُ منَ المُعَافاةِ بعدَ اليقينِ، ألَا إنَّ الصِّدقَ والبرَّ فِي الجنَّةِ، ألَا وإنَّ الكذبَ والفجورَ فِي النارِ.

قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليكَ بالصدقِ وإن قتلكَ.

وقالَ المهلبُ بنُ أبِي صُفرةٍ: مَا السيفُ الصارمُ فِي يدِ الشجاعِ بأعَزَّ لَهُ مِنَ الصدقِ.

وقالَ إسماعيلُ بنُ عبيدِ اللهِ: لمَّا حضرَت أبِي الوفاةَ جمعَ بنيهِ فقالَ لهُم: يَا بَنِيَّ، عليكُم بتقوَىٰ اللهِ، وعليكُم بالقرآنِ فتعاهَدُوهُ، وعليكُم بالصدقِ حتَّىٰ لَو قتَلَ

(١) رواه البخاري (٥٦٢٩)، ومسلم (٤٧١٩).

أحدَكُم قتيلًا ثمَّ سُئِلَ عنهُ أقرَّ بِهِ، واللهِ مَا كذبْتُ كذبةً قطُّ مُذْ قرأتُ القُرآنَ.

ولمَّا خرجَ الشعبيُّ معَ ابنِ الأشعثِ علَىٰ الحجَّاجِ، فانتصرَ الحجَّاجُ علَىٰ ابنِ الأشعثِ، استشارَ الشعبيُّ أصحابَهُ فأشارُوا عليهِ بالاعتذارِ، قالَ الشعبيُّ: فلمَّا دخلْتُ خالفتُ مشورَتَهُم، ورأيتُ واللهِ غيرَ الَّذِي قالُوا، فسلَّمْتُ عليهِ بالإمرةِ ثمَّ قلتُ: أيَّدَ اللهُ الأميرَ، إنَّ الناسَ قَد أمَرونِي أَن أعتذرَ بغيرِ مَا يعلمُ اللهُ أنَّهُ الحقُّ، ولكَ اللهُ ألَّا أقولَ فِي مقامِي هذَا إلَّا الحقَّ: قَد جهدنَا وحَرَصْنَا، فمَا كنَّا بالأقوياءِ الفجرةِ، ولَا الأتقياءِ البررةِ، ولقَد نصرَكَ اللهُ علينَا، وأظفركَ بنَا، فإِن سطَوتَ علينَا فبذنوبنَا، وإِن عفوتَ فبحِلمِكَ والحُجةُ لكَ علينَا.

فقالَ الحجَّاجُ: أنتَ واللهِ أحبُّ إلينَا قولًا ممَّن يدخلُ علينَا وسيفُهُ يقطرُ مِن دمائِنَا ويقولُ: واللهِ مَا فعلتُ ولَا شهِدْتُ، أنتَ آمنٌ يَا شعبيُّ.

فقلتُ: أيُّهَا الأميرُ، اكتحَلتُ واللهِ بعدَكَ السَّهَرَ، واستَحلسْتُ الخوفَ، وقطعْتُ صالحَ الإخوانِ، ولَم أجِد أحدًا منَ الأميرِ خَلَفًا. قالَ: صَدقتَ. وانصرَفتُ.

ومَن لزمَ الصدقَ وعوَّدَ لسانَهُ عليهِ وُفِّقَ، فلَا يكادُ ينطقُ بشيءٍ يظنُّهُ إلَّا جاءَ علَىٰ ظنِّهِ، وأحسنُ الكلامِ مَا صدَقَ فيهِ قائلُهُ، وانتفعَ بِهِ سامِعُهُ، كمَا أنَّ اللهَ تعالَىٰ يرزقُ صاحبَهُ منَ الصفاتِ مَا يتميَّزُ بِهِ بينَ الناسِ مَن عَرَفَ منهُم ومَن لَم يعرِف.

قالَ يوسفُ بنُ أسبَاطٍ: للصادقِ ثلاثُ خصالٍ، الحلاوةُ، والملاحةُ، والمهابةُ، فالصادقُ يرزقهُ اللهُ مهابةً وجلالةً، فمَن رآهُ هابَهُ وأحبَّهُ، والكاذبُ يرزقُهُ إهانةً ومَقتًا، فمَن رآهُ مقتَهُ واحتقَرَهُ.

والصدقُ يرفعُ المرءَ فِي الدارَيْنِ، ولَو لَم يكُن فِي الصدقِ خَصلةٌ تُحمَدُ إلَّا أنَّ المرءَ إذا عُرِفَ بِهِ قُبِلَ كذبُهُ، وصارَ صدقًا عندَ مَن يسمعهُ، لكانَ الواجبُ علَىٰ العاقلِ أَن يبلغَ مجهُودَهُ فِي تدريبِ لسَانِهِ حتَّىٰ يستقيمَ لهُ علَىٰ الصدقِ ومجانبةِ الكذبِ.

قيلَ لسيَّارٍ: تروِي عَن مثلِ خالدٍ القسريِّ؟ فقالَ: إنَّهُ أشرفُ مِن أن يكذِبَ.

وينبغِي علَىٰ الوالدِ أَن يُربِّي ولدَهُ علَىٰ الصدقِ مِن حينِ الصغرِ، فإنَّهُم إذَا نَشَأوا علَىٰ ذلكَ صارَ لَهُم عادةً ملازمةً، وصفةً دائمةً.

وقَد كانَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ يقولُ لمؤدِّبِ ولدِهِ: علِّم بَنِيَّ الصدقَ كمَا تعلمهُمُ القرآنَ، وجنِّبهُمُ الكذبَ، وإنْ كانَ فيهِ كذَا وكذَا، يعنِي: القتلَ.

وقَد كانتِ العربُ تفخرُ بالصدقِ ومُجَانبةِ الكذبِ حتَّىٰ فِي أيامِ جاهليتِهِم وشِركِهِم، حتَّىٰ قالَ أبُو سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وقَد كانَ مُشرِكًا-: كنتُ امرأً سيِّدًا أترفَّعُ عَنِ الكذبِ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ ازدادُوا بهِ تمسُّكًا وفخرًا.

جاءَ عَن بلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ خطبَ لأخيهِ امرأةً قرشيَّةً، فقالَ لأهلِهَا: نحنُ مَن قَد عرفتُم، كُنَّا عبدَيْنِ فأعتقنَا اللهُ تعالَىٰ، وكنَّا ضالَّيْنِ فهدانَا اللهُ تعالَىٰ، وكنَّا فقيرَيْنِ فأغنانَا اللهُ تعالَىٰ، وأنَا أخطُبُ منكُم فلانةَ لأخِي، فإِن تزوِّجوهُ فالحمدُ للهِ، وإِن تردُّونَا فاللهُ أكبرُ.

فأقبلَ بعضهُم علَىٰ بعضٍ، فقالُوا: بلالٌ ممَّن عرفتُم سابقتَهُ ومشاهِدَهُ ومكانَهُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزوِّجُوا أخاهُ، فزوَّجوهُ، فلمَّا انصرفُوا قالَ لهُ أخوهُ: يغفرُ اللهُ لكَ أمَا كنتَ تذكرُ سوابقنَا ومشاهِدنَا معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عدَا ذلكَ، فقالَ: مهْ يَا أخِي! صدقْتَ فزوَّجكَ الصدقُ.

وامتدحَ ابنُ ميادةَ جعفرَ بنَ سليمانَ، فأمرَ لهُ بمائةِ ناقةٍ، فقبَّلَ يدهُ وقالَ: واللهِ مَا قبَّلْتُ يدَ قُرشيٍّ غيرَكَ إلَّا واحدًا، فقالَ: أهوَ المنصورُ؟ قالَ: لَا واللهِ، قالَ: فمَن هوَ؟ قالَ: الوليدُ بنُ يزيدَ.

فغضبَ وقالَ: واللهِ مَا قبَّلتَهَا للهِ تعالَىٰ، فقالَ: واللهِ ولَا يدُكَ مَا قبلتُهَا للهِ تعالَىٰ، ولكِن قبلتُهَا لنفسِي، فقالَ: واللهِ لَا ضرَّكَ الصدقُ عندِي، أعطوهُ مائةً أخرَىٰ.

وقَد تورَّعَ السلفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عنِ الكذبِ حتَّىٰ فيمَا تهاونَ الناسُ فيهِ بدعوَىٰ مُسَايرةِ الآخرينَ، قالَ المنصورُ لهشامِ بنِ عُروةَ: يَا أبَا المنذرِ، تذكرُ يومَ دخلتُ عليكَ أنَا وإخوتِي معَ أبِي، وأنتَ تشربُ سويقًا بقصبةِ يراعٍ؟ فلمَّا خرجنَا، قالَ أبونَا: اعرفُوا لهذَا الشيخِ حقَّهُ، فإنَّهُ لَا يزالُ فِي قومِكُم بقيةٌ مَا بقيَ.

قالَ: لَا أذكرُ ذلكَ يَا أميرَ المُؤمنينَ، فلمَّا ذهبَ المنصورُ لامُوا هشامًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّهُ لَم يُسَايرْهُ فِي حديثِهِ، فقالَ: لَم يُعَوِّدْنِي اللهُ فِي الصِّدقِ إلَّا خيرًا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، والعاقبَةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بعدُ:

فكمَا يجبُ علَىٰ المسلمِ لزومُ الصدقِ، فيَجبُ عليهِ كذلكَ مجانبةُ الكذبِ، عامدًا كانَ أَو مازحًا، فالكلامُ أكثرُ مِن أَن يكذبَ فيهِ عاقلٌ، ومَنْ أكثَرَ الكَذِبَ لَم يترُكْ لنفسهِ شيئًا يُصَدَّقُ بهِ، وإنَّمَا يكذِبُ الكاذبُ مِن مَهانةِ نفسهِ، ولَو لَم يكُن للكذبِ منَ الذمِّ إلَّا إنزالُهُ صاحِبَهُ بحيثُ إنَّهُ إنْ صَدَقَ لَم يُصدَّق، لكانَ الواجبُ علَىٰ العاقلِ أَن يتجنبَهُ ويلزمَ التثبتَ بالصدقِ الدائمِ.

كَذَبْتَ وَمَن يَكذِبُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ ... إِذَا مَا أَتَىٰ بِالصِّدقِ أَلَّا يُصَدَّقَا
إِذَا عُرِفَ الكَذَّابُ بِالكِذْبِ لَم يَزَلْ ... لَدَىٰ النَّاسِ كَذَّابًا وَإِن كَانَ صَادِقَا
وَمِنْ آفَةِ الكَذَّابِ نِسيَانُ كِذْبِهِ ... وَتَلقَاهُ ذَا فَقْهٍ إِذَا كَانَ حَاذِقَا

والكذبُ يَهوِي بصاحبهِ فِي الدنيَا والآخرةِ، فلَا يتركُ لهُ قيمةً ولَا أثرًا، ومِن أجل ذلكَ قالَت الحُكمَاءُ: الموتُ معَ الصدقِ خيرٌ منَ الحياةِ معَ الكذبِ، فلَا شيءَ أشدُّ وأشنعُ منَ الكَذبِ، حيثُ يضعُ صاحبَهُ ويُحقِّرُهُ بحيثُ لَا يرتفعُ بعدَ ذلكَ.

والكذِبُ لهُ تأثيرٌ عظيمٌ فِي سَوادِ الوجهِ، ويكسُوهُ برقعًا منَ المقتِ يراهُ كلُّ صادقٍ، فتظهرُ سِيمَا الكاذبِ فِي وجههِ بينةً يراهَا مَن لهُ عينانِ، فالواجبُ علَىٰ العاقلِ أَن يتنزَّهَ عنهُ حفاظًا علَىٰ دينهِ أَن يُجرحَ، وعلَىٰ مروءتِهِ أَن تُقدحَ.

ومِن تمَامِ عقلِ المرءِ: تجنُّبهُ الخوضَ فيمَا لَا يَعلمُ، حتَّىٰ لَا يُتَّهمَ فيمَا يعلمُ، ولَا يجبُ علَىٰ المرءِ إِذَا سمعَ شيئًا يَعيبُهُ أَن يحدِّثَ بهِ؛ لأنَّ مَن حَدَّثَ عَن كلِّ شيءٍ، أَزْرَىٰ برأيهِ وأفسَدَ صِدْقَهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفَىٰ بالمَرءِ كذبًا أَن يُحدِّثَ بكلِّ مَا سمعَ**»(١).

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَسْبُ المؤمنِ منَ الكذبِ أَن يحدِّثَ بكلِّ مَا سمعَ.

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يحتاطَ لدينهِ، وأَن يبتعدَ عمَّا شأنُهُ أَن يُزرِيَ بدِينِهِ ويَحُطَّ مِن قدرهِ، ولَا شيءَ يبلغُ بهِ هذَا المبلغَ مِن نِسبَتِهِ إِلَىٰ الكذِبِ؛ لأنَّ الكذبَ رأسُ الذنوبِ، وهوَ يُبدِي الفضائحَ ويكتمُ المَحَاسنَ.

هذَا وإنَّ مِن أنواعِ الكذبِ: تعمُّدَ الكذبِ بدعوَىٰ المزاحِ، وقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ذلكَ أشدَّ تحذيرٍ فقالَ: «**ويلٌ للَّذِي يحدِّثُ بالحديثِ ليُضحِكَ بهِ القومَ فيكذبُ، ويلٌ لَهُ ويلٌ لهُ**»(٢).

(١) رواه مسلم (٦).

(٢) رواه أبو داود، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٤٤).

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يجدُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يَدعَ المِراءَ وهوَ مُحِقٌّ، ويدَعَ الكذبَ فِي المِزاحِ وهوَ يرَىٰ أنَّهُ لَو شاءَ لغَلبَ.

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يلزمَ الصِّدقَ فِي أقوالِهِ وأعمَالِهِ، وأَن يجتَنِبَ الكذبَ فِي جميعِ أحوالِهِ، ويحفَظَ لسانَهُ عَن جميعِ مَا يُضعِفُ دينَهُ، فإنَّ فِي ذلكَ النجاةَ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا تنطِقْ فيمَا لَا يعنِيكَ، واخْزُنْ لسانَكَ كمَا تخزنُ دراهمَكَ.

❊❊❊

(٢٥) التحصُّنُ بالأذكارِ

الحمدُ للهِ الذِي أعطَىٰ الذاكِرينَ مَا لَم يُعطِ أحدًا منَ العالَمِينَ، ورفعَ لهُم المنازلَ العاليةَ وجعلَهُم صفوةَ المؤمنينَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، لَا ضدَّ لهُ ولَا معينَ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ أفضلُ الذاكرينَ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ، وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ هذهِ القلوبَ تصدأُ، كمَا يصدأُ الحديدُ، وصُدُوُّها بالغفلةِ والذنوبِ، ومَن كانَتِ الغفلةُ أغلبَ أوقاتِهِ؛ صارَ الصَّدأُ مُتَراكمًا علَىٰ قلبِهِ، وكلَّمَا عظُمَتِ الغفلةُ؛ عَظُمَ صدأُ القلوبِ، حتَّىٰ يَفسدَ تصورُ صَاحبِهِ وإدراكُهُ، وينطمِسَ نُورُ قلبِهِ وتَعمَىٰ بصيرَتُهُ.

هذَا وإنَّ لكلِّ شيءٍ جِلاءً، وجِلاءُ القلوبِ ذكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الذكرَ يَجلُو القلوبَ حتَّىٰ يدعهَا كالمرآةِ الصَّافيةِ.

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(١)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(٢).

وقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مثلُ الذِي يذكرُ ربَّهُ والَّذِي لَا يذكرُ ربَّهُ، كمثلِ الحيِّ والميِّتِ**»(٣).

---

(١) سورة الكهف:٢٨.

(٢) سورة الأعراف:٢٠٥.

(٣) رواه البخاري (٥٩٢٨)، ومسلم (١٢٩٩).

وقَد دلَّتِ النصوصُ الكَريمةُ علَىٰ فضلِ الذكرِ والحثِّ علَىٰ المُداومةِ عليهِ، زيادةً فِي أجورِ العبادِ، وتثقيلًا لمَوَازينِ أعمَالِهِم.

قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا أنبئُكُم بخيرِ أعمالِكُم، وأزكاهَا عندَ مليكِكُم، وأرفعِهَا فِي درجاتِكُم، وخيرٍ لكُم مِن إنفَاقِ الذَّهبِ والوَرِقِ، وخيرٍ لكُم مِن أَن تَلقَوا عدوَّكُم، فتضربُوا أعناقَهُم ويضربُوا أعناقَكُم؟ قالُوا: بلَىٰ يَا رسولَ اللهِ. قالَ: ذِكرُ اللهِ**»[1].

وجاءَ رجلٌ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «**يَا رسولَ اللهِ، إنَّ شرائعَ الإيمانِ قَد كثُرَت علَيَّ، فأخبرنِي بشيءٍ أتشبَّثُ بهِ. قالَ: لَا يزالُ لسانُكَ رطبًا مِن ذكرِ اللهِ تعَالَىٰ**»[2].

وهذَا مِن أعظَمِ الحثِّ علَىٰ لُزومِ ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علَىٰ جميعِ الأحوالِ؛ لأنَّ الذكرَ عملٌ يسيرٌ يستطيعُهُ كلُّ أحَدٍ، مَن كانَ متعلِّمًا وغيرَ متعلِّمٍ.

ومِن تمامِ رحمةِ اللهِ بعبَادِهِ أَن شرعَ لهُم منَ الأذكارِ مَا يدفعُ بهَا عنهُم كلَّ سوءٍ وشرٍّ، وجعلهَا مقترنةً ببَعضِ أعمالِهِم، وقَد شرعَ ذلكَ رحمةً بعبادِهِ، ولعلمِهِ بضعفِهِم، وأنَّهُم لَا يملكونَ قوَّةً ولَا تحويلًا إلَّا بِهِ سبحانَهُ، حتَّىٰ صارَت هذهِ الأذكارُ علامةً علَىٰ نظامٍ لَا يختَلُّ، فتبارَكَ اللهُ علَىٰ جميعِ قضَائِهِ.

وتأمَّلُوا هذهِ النصوصَ؛ ترَونَ جميلَ بهائِهَا وحُسنِهَا، ثمَّ جاهِدُوا النفسَ علَىٰ العملِ بهَا.

فقَد كانَ مِن هَدْيِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النومِ أنَّهُ إذَا أوَىٰ إلَىٰ فراشهِ يقولُ: «**باسمكَ اللَّهُمَّ أموتُ وأحيَا**»[3].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٢٦٩).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٩١).

(٣) رواه البخاري (٥٨٣٧).

وأمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ بقراءةِ آيةِ الكرسيِّ فقالَ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيةَ الكُرسيِّ فإنَّهُ لَن يَزَالَ معكَ منَ اللهِ حافِظٌ، ولَا يَقرَبُكَ شَيطانٌ حتَّىٰ تُصبِحَ»(١).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قَرأَ بالآيتينِ مِن آخرِ سُورةِ البَقرةِ فِي ليلةٍ كفتاهُ»(٢)، أَي: كفتاهُ مِن شرِّ مَا يُؤذيهِ.

ومِن هَديهِ فِي النَّومِ: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قامَ أحدُكُم عَن فراشِهِ ثمَّ رجعَ إليهِ، فلينفِضْهُ بصنفةِ إزارِهِ ثلاثَ مراتٍ -أَي: يُمسِكُهُ بطرَفِهِ فينفُضُهُ- فإنَّهُ لَا يدرِي مَا خلفَهُ عليهِ بعدَهُ، وإِذَا اضطجَعَ فليقُل: باسمِكَ اللهمَّ ربِّي وضعتُ جنبِي وبكَ أرفعُهُ، فإِن أمسَكتَ نفسِي فارحَمهَا، وإِن أرسلتَهَا فاحفَظهَا بمَا تحفظُ بهِ عبادَكَ الصَّالحينَ»(٣).

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قامَ مِن نَومِهِ قالَ: «الحَمدُ للهِ الَّذِي أحيانَا بعدمَا أماتنَا وإليهِ النشُورُ»(٤).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا استيقظَ أحدُكُم فليَقُل: الحَمدُ للهِ الَّذِي عافَانِي فِي جسَدِي وردَّ عليَّ رُوحِي وأذنَ لِي بِذِكرِهِ»(٥).

ومنَ الأذكارِ الَّتِي تُقالُ عندَ الخُروجِ منَ المَنزلِ: باسمِ اللهِ توكلتُ علَىٰ اللهِ ولَا حولَ ولَا قوةَ إلَّا باللهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قالَ إذَا خرجَ مِن بيتِهِ: باسمِ اللهِ، توكلتُ علَىٰ اللهِ، ولَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ، يُقَالُ لهُ: كُفيتَ، ووُقيتَ، وهُدِيتَ، وتنحَّىٰ عنهُ الشيطانُ، فيقولُ لشَيطانٍ آخرَ: كيفَ لكَ برجُلٍ قد هُديَ وكُفيَ ووُقيَ»(٦).

(١) رواه البخاري (٣٠٣٣).
(٢) رواه البخاري (٣٧٠٧)، ومسلم (١٣٤١).
(٣) رواه البخاري (٥٨٤٥)، ومسلم (٤٨٨٩).
(٤) رواه البخاري (٥٨٣٧)، ومسلم (٤٨٨٦).
(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٤٠١).
(٦) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (٥٨).

وقالَت أمُّ سَلمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: مَا خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن بيتِي إلَّا رفعَ طرفَهُ إِلَىٰ السماءِ فقالَ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظلِمَ أو أُظلَمَ، أو أجهلَ أو يُجهَلَ عليَّ**»[1].

ومنَ الأذكارِ مَا يقالُ عندَ الدخُولِ إِلَىٰ المَنزلِ، وذلكَ بأَن يذكرَ اللهَ، كأَن يقولَ: باسمِ اللهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دخلَ الرجُلُ بيتَهُ، فذكرَ اسمَ اللهِ تعالَىٰ عندَ دخولِهِ وعندَ طعامِهِ، قالَ الشيطانُ: لَا مَبيتَ لكُم ولَا عشاءَ، وإذَا دخلَ فلَم يذكُرِ اللهَ عندَ دخولِهِ، قالَ الشيطانُ: أدركتُمُ المبيتَ، فإذَا لَم يذكرِ اللهَ تعالَىٰ عندَ طعامِهِ، قالَ: أدركتمُ المبيتَ والعشاءَ**»[2].

ومنَ الأذكارِ مَا يقالُ عندَ نزولِهِ منزلًا مَا، ويُقصَدُ بالمنزلِ، إذَا نزلَ فِي أيِّ مكانٍ، سواءً كانَ فِي البرِّ أَوِ البحرِ أَوِ البيوتِ، فيقولُ عندئذٍ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ مِن شرِّ مَا خلقَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نزلَ مَنزلًا ثمَّ قالَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ مِن شرِّ مَا خلقَ؛ لَم يضُرَّهُ شيءٌ حتَّىٰ يرحلَ مِن منزلِهِ ذلكَ**»[3].

ومنَ الذِّكرِ الواردِ مَا يكونُ عندَ الأكلِ، كالتسميةِ فِي أولِهِ، قالَ عمرُ بنُ أَبِي سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بُنَيَّ، سمِّ اللهَ، وكُل بيمينِكَ، وكُل مِمَّا يليكَ**»[4].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا أكلَ أحدُكُم فليذكرِ اسمَ اللهِ تعالَىٰ فِي أولِهِ، فإذَا نسيَ أَن**

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٤٢).

(٢) رواه مسلم (٣٧٦٢).

(٣) رواه مسلم (٤٨٨١).

(٤) رواه البخاري (٤٩٥٧)، ومسلم (٣٧٦٧).

يذكرَ اللهِ فِي أولهِ، فليقُل: باسمِ اللهِ أوَّلَهُ وآخرَهُ»[١].

فإذَا انتهَىٰ مِن أكلهِ قالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي أطعمَنِي هذَا ورزَقنيهِ مِن غيرِ حولٍ منِّي ولَا قوَّةٍ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أكلَ طعامًا فقالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي أطعمنِي هذَا ورزَقنيهِ مِن غيرِ حولٍ منِّي ولَا قوَّةٍ، غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِهِ**»[٢].

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ ليرضَىٰ عنِ العبدِ أَن يأكلَ الأكلةَ فيحمدُهُ عليهَا، ويشربَ الشَّربةَ فيحمَدُهُ عليهَا**»[٣].

ومنَ الأذكارِ: مَا جاءَ عنهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي أدبِ العطاسِ**، والَّذِي يُسمَّىٰ تشميتَ العاطسِ، فِي أَن يقولَ العاطسُ: الحمدُ للهِ، ويُرَدَّ عليهِ: يرحمُكَ اللهُ، ثمَّ يرُدُّ هوَ يقولُ: يهديكُمُ اللهُ ويصلحُ بالَكُم، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا عطسَ أحدُكُم فليَقُل: الحمدُ للهِ، وليقُل لهُ أخوهُ أَو صاحبُهُ: يرحَمُكَ اللهُ، فإذَا قالَ لهُ: يرحَمُكَ اللهُ، فليَقُل: يهدِيكُمُ اللهُ ويُصلِحُ بالَكُم**»[٤].

ولَا يَرُدُّ بقولهِ: يرحَمُكَ اللهُ، إلَّا لِمَن قالَ عندَ عطاسهِ: الحمدُ للهِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا عطسَ أحدُكُم فحمدَ اللهَ فشَمِّتُوهُ، فإِن لَم يَحمَدِ اللهَ فلَا تُشَمِّتوهُ**»[٥].

ومنَ الأذكارِ مَا وردَ فِي لبسِ الثوبِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لبسَ ثوبًا فقالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي كسَانِي هذَا ورزَقنيهِ مِن غيرِ حولٍ منِّي ولَا قوَّةٍ، غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِهِ**»[٦].

---

(١) رواه أبو داود (١٩٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٩٨٩).

(٣) رواه مسلم (٤٩١٥).

(٤) رواه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (١٢٩٩).

(٥) رواه مسلم (٥٣٠٨).

(٦) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٠٤٢).

ومنَ **الأذكارِ مَا يقالُ عندَ دخولِ الخلاءِ والخروجِ منهُ**، فيقولُ عندَ دخولِه: باسمِ اللهِ، ويقولُ: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منَ الخُبُثِ والخبائثِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سترُ بينَ الجنِّ وعوراتِ بنِي آدمَ، إذَا دخلَ أحدُكُمُ الخلاءَ أن يقولَ: باسمِ اللهِ**»(١)، وقالَ أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كانَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا دخلَ الخلاءَ قالَ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منَ الخُبُثِ والخبائثِ**»(٢)، **الخُبُث**: ذكورُ الجنِّ، **والخبائثُ**: إناثُ الجنِّ.

فإذَا خرجَ منَ الخلاءِ قالَ: غُفرَانكَ، لحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَت: «كانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا خرجَ منَ الخلاءِ قالَ: **غُفرَانَكَ**»(٣).

ومنَ **الأذكارِ مَا يقالُ عندَ الوضوءِ**، فإنَّ منَ المشروعِ للمسلمِ إذَا أرادَ الوضوءَ أن يقولَ: باسمِ اللهِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا وضُوءَ لمَن لَم يذكُرِ اسمَ اللهِ عليهِ**»(٤).

فإذَا انتهَىٰ مِن وضوئهِ، قالَ بالذكرِ الواردِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيثُ قالَ: «**مَا منكُم مِن أحدٍ يتوضأُ فيُسبِغُ الوضوءَ** -أَي: يتمُّهُ- **ثمَّ يقولُ: أشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ اجعَلنِي منَ التوابينَ، واجعَلنِي منَ المتطهرينَ، إلَّا فُتحَت لهُ أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ يدخلُ مِن أيِّهَا يشاءُ**»(٥).

ومنَ **الأذكارِ المهمَّةِ أذكارُ طرفَي النهارِ المسمَّاة**: أذكارُ الصباحِ والمساءِ، وهمَا الوقتانِ بينَ الصبحِ وطلوعِ الشمسِ، وبينَ العصرِ والمغربِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾(٦)، وهذهِ الأذكارُ ممَّا ينبغِي

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥٠).

(٢) رواه البخاري (١٣٩)، ومسلم (٥٦٣).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥٢).

(٤) رواه أحمد، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٨١).

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٦).

(٦) سورة الأحزاب: ٤١-٤٢.

للعبدِ ألَّا يخلَّ بهَا؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليهَا، وعظمِ الانتفاعِ بهَا فِي الآجِلِ والعاجِلِ.

ومِن ذلكَ: قراءةُ قُل هوَ اللهُ أحدٌ والمُعوِّذتيَنِ ثلاثَ مراتٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُل هوَ اللهُ أحدٌ والمُعوذتينِ، حينَ تُمسِي وحينَ تُصبحُ ثلاثَ مراتٍ تكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ**»(١).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا أصبحَ أحدُكُم فليَقُل: اللهمَّ بكَ أصبحنَا وبكَ أمسينَا وبكَ نحيَا وبكَ نموتُ وإليكَ النشورُ، وإذَا أمسَىٰ فليَقُل: اللهمَّ بكَ أمسينَا وبكَ أصبحنَا وبكَ نحيَا وبكَ نموتُ وإليكَ المصيرُ**»(٢).

ومِن ذلكَ قولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن عبدٍ يقولُ فِي صباحِ كلِّ يومٍ ومساءِ كلِّ ليلةٍ: باسمِ اللهِ الَّذِي لَا يضرُّ معَ اسمهِ شيءٌ فِي الأرضِ ولَا فِي السماءِ وهوَ السميعُ العليمُ** -ثلاثَ مرَّاتٍ- **فيضرُّهُ شيءٌ**»(٣)، وغيرَ ذلكَ كثيرٌ ممَّا صحَّ عنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنَ الأذكارِ مَا يُقَالُ بعدَ الصلاةِ، فإنَّهُ يُسَنُّ للمسلمِ إذَا انتهَىٰ مِن صلاتهِ أَن يقولَ: أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ.

اللهمَّ أنتَ السَّلامُ ومنكَ السَّلامُ تبارَكتَ يَا ذَا الجلالِ والإكرامِ.

لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، لَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ، لَا إلهَ إلَّا اللهُ ولَا نعبدُ إلَّا إياهُ، لهُ النعمةُ ولهُ الفضلُ ولهُ الثناءُ الحسنُ، لَا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصينَ لهُ الدِّينَ ولَو كَرِهَ الكافرونَ.

لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ،

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٤٩).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٢).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٩١).

اللهمَّ لَا مانعَ لمَا أعطيتَ، ولَا مُعطِي لمَا منعتَ، ولَا ينفعُ ذَا الجدِّ منكَ الجدُّ.

ثمَّ يقولُ: «**سبحانَ اللهِ**» ثلاثًا وثلاثينَ مرَّةً، و«**الحمدُ للهِ**» ثلاثًا وثلاثينَ مرةً، و«**اللهُ أكبرُ**» ثلاثًا وثلاثينَ مرةً، ثمَّ يقُولُ تمَامَ المائةِ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثمَّ يقرأُ: «قُل هوَ اللهُ أحدٌ، وقُل أعوذُ بربِّ الفلقِ، وقُل أعوذُ بربِّ الناسِ»، ثمَّ يقرأُ آيةَ الكرسيِّ، وكلُّ هذَا ممَّا ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ بالأدلةِ الصحيحةِ.

ومنَ الأذكارِ أَنْ يَدعُوَ الصَّائمُ عندَ فِطرهِ بمَا وردَ عنِ النبيِّ ﷺ بقولهِ: «**ذهبَ الظمأُ، وابتلَّتِ العروقُ، وثبتَ الأجرُ إن شاءَ اللهُ**»[1]، وهذَا هوَ الصحيحُ الواردُ عنِ النبيِّ ﷺ، أمَّا قولُ القائلِ: «**اللهمَّ لكَ صُمنَا وعلَىٰ رزقِكَ أفطَرنَا...**»، فهذَا ضعيفٌ لَا يثبتُ عَن رسولِ الهُدَىٰ ﷺ.

ومنَ الأذكارِ مَا يقالُ عندَ رؤيةِ أهلِ البلاءِ، قالَ ﷺ: «**مَن رأَىٰ مبتلًىٰ فقالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي عافانِي ممَّا ابتلاكَ بهِ، وفضلَّنِي علَىٰ كثيرٍ ممَّن خلَقَ تفضيلًا، لَم يُصِبْهُ ذلكَ البلاءُ**»[2]، ويكُونُ التعوُّذُ منَ البلاءِ فِي الدينِ والدنيَا، والتعوُّذ مِن حالِ المبتلَىٰ فِي دينهِ آكدُ.

ومنَ الأذكارِ مَا يقالُ عندَ سماعِ نهيقِ الحميرِ، ونباحِ الكلابِ، والتعوُّذُ مِن ذلكَ، وسؤالُ اللهِ مِن فضلهِ إذَا سُمِعَ صياحُ الدِّيكَةِ، قالَ ﷺ: «**إذَا سمِعتُم نهيقَ الحمارِ، فتعوَّذُوا باللهِ منَ الشيطانِ فإنَّهَا رأَت شيطانًا، وإذَا سمعتُم صياحَ الديكةِ، فسلُوا اللهَ مِن فضلهِ فإنَّهَا رأَت ملكًا**»[3].

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٩٢٠).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٢).

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (٤٩٠٨).

هذَا ولا بدَّ أَن يُعلمَ أنَّ الذكرَ سلاحٌ، وإنَّمَا السلاحُ بضَاربِهِ، فكلَّمَا كانَ الإيمانُ بهذِهِ الأذكارِ أقوَىٰ، واليقينُ بهَا أتمَّ، آتَت ثمارهَا، ومَن عملَ بهَا وهوَ غافلُ القلبِ لاهٍ عَنِ استحضارِ مَا يَذكرُ بِهِ، فحريٌّ ألَّا ينتفعَ بذلكَ علَىٰ الوجهِ الأكملِ، قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ادعُوا اللهَ وأنتُم موقنونَ بالإجابةِ، واعلمُوا أنَّ اللهَ لَا يستجيبُ دعاءً، مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»(١).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعَاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فاعلمُوا أنَّ منَ الأذكارِ مَا جاءَ بِهِ العملُ مطلقًا ولَم يُقيَّد بحالٍ دونَ حالٍ، وقَد شُرعَ مِن أجلِ التزوُّدِ منَ البرِّ والعملِ الصالحِ، كالتسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ والتكبيرِ والاستغفارِ وغيرِ ذلكَ.

ومِن رحمةِ اللهِ سبحانَهُ وعظيمِ فضلهِ وجُودِهِ، أَن رتَّبَ علَىٰ هذهِ الأذكارِ المُيَسَّرَةِ منَ الأجرِ مَا لَا يخطرُ علَىٰ بالٍ، كمَا فِي هذهِ النصوصِ:

قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَن قالَ سبحانَ اللهِ وبحمدهِ فِي يومٍ مائةَ مرَّةٍ، حُطَّتْ عنهُ خطاياهُ، وإِن كانَت مثلَ زَبَدِ البحرِ**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٩٢٦)، ومسلم (٤٨٥٧).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلمتانِ خَفيفتانِ علَىٰ اللسانِ، ثقيلتانِ فِي الميزانِ، حبيبتانِ إلَىٰ الرحمنِ: سبحانَ اللهِ وبحَمدِهِ، سبحانَ اللهِ العظيمِ»(١).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأن أقولَ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولَا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، أحبُّ إليَّ ممَّا طَلَعَت عليهِ الشمسُ»(٢).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيعجزُ أحدُكُم أَن يكسبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟ فسألَهُ سائلٌ مِن جُلسَائِهِ: كيفَ يكسِبُ أحدُنَا ألفَ حسنةٍ؟ قالَ: يسبِّحُ مائةَ تسبيحةٍ، فتُكتَبُ لهُ ألفُ حسنةٍ، أَو تُحطُّ عنهُ ألفُ خطيئةٍ»(٣).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألَا أدلُّكَ علَىٰ كَنزٍ مِن كنوزِ الجنَّةِ؟ قُل: لَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ»(٤).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طوبَىٰ لِمَن وَجَدَ فِي صحيفتِهِ استغفَارًا كثيرًا»(٥).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن أحبَّ أَن تسُرَّهُ صحيفتُهُ يومَ القيامةِ، فليُكثِرِ الاستغفارَ»(٦).

فهذهِ أذكارٌ سَهلةٌ ميسَّرةٌ، ينبغِي للمُسلمِ أَن يستغلَّ بهَا وقتَ فرَاغِهِ، فِي سيارتِهِ أَو عملِهِ، أَو حالِ مَشيِهِ، أَو حالِ انتظارِهِ فِي مكانٍ ذهبَ إليهِ لإنهاءِ عملٍ مَا.

إنَّ هذهِ هديةٌ مهداةٌ إليكَ أَيُّهَا المسلمُ، وفرصةٌ أُتيحَت لكَ فاغتنِمهَا، وصدقةٌ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (٤٨٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦١).

(٣) رواه مسلم (٤٨٦٦).

(٤) رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٤٨٧٣).

(٥) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٨١٣).

(٦) رواه البيهقي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٩).

تتصدقُ بهَا علَىٰ نفسِكَ، جاءَ أناسٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالُوا: «**يَا رسُولَ اللهِ، ذهبَ أهلُ الدُّثورِ بالأجورِ، يصلُّونَ كمَا نصلِّي، ويصومونَ كمَا نصومُ، ويتصدقونَ بفضولِ أموالِهِم، فقالَ: أوَليسَ قَد جعلَ اللهُ لكُم مَا تَصدَّقونَ؟ إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وكلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكلِّ تهليلةٍ صدقةً، وأمرٍ بمعروفٍ صدقةً، ونهيٍ عَن منكرٍ صدقةً، وفِي بضعِ أحدِكُم صدقةً** -يعنِي: الجماعَ-.

قالُوا: يَا رسولَ اللهِ: أيأتِي أحدُنَا شهوتَهُ فيكونُ لهُ أجرٌ؟

قالَ: **أرأيتُم لَو وضعهَا فِي حرامٍ أكانَ عليهِ وزرٌ، فهكذَا لَو وضعهَا فِي حلالٍ كانَ لهُ فيهَا أجرٌ**»[1].

اللهمَّ اجعلنَا لكَ ذاكرينَ، لكَ شاكرينَ، أوَّاهينَ منيبينَ.

❊❊❊

(١) رواه مسلم (١٦٧٤).

(٢٦) تواضعُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحمدُ للهِ الَّذِي منِ اعتصمَ بحبلِ رجائِهِ وفَّقهُ وهداهُ، ومَن لجأَ إليهِ حَفِظهُ ووقاهُ، ومَن تواضعَ لهُ رفعهُ وحماهُ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ مَا أعطَىٰ منَ الإنعامِ وأولاهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ الذينَ عضُّوا علَىٰ سنَّتهِ بالنواجذِ وتمسَّكُوا بهداهُ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمونَ:

فإنَّ مِن توفيقِ اللهِ للعبدِ أَن يوفقَهُ للعملِ بسنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتفاءِ أثرهِ والعملِ بهديهِ فِي أقوالهِ وأفعالهِ وأخلاقهِ.

وهذهِ نعمةٌ منَ اللهِ لَا يحصلُ عليهَا إِلَّا مُسَدَّدَ، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

فإذَا أرادَ المرءُ أَن تكتملَ شخصيتُهُ، وأَن يجمعَ مكارمَ الأخلاقِ ومحاسنَ الشيمِ، فلينظُر فِي سيرةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقلِّب صفحاتِهَا، ويحرِص أشدَّ الحرصِ أَن يأخذَ منهَا بالنصيبِ الأوفرِ.

لقَد أعطَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نبيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنزلةَ الَّتِي ليسَت لأحدٍ منَ العالمينَ، وبوَّأَهُ المقامَ المحمودَ الَّذِي لَا ينبغِي لأحدٍ سواهُ.

وبالرَّغمِ ممَّا أعطاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ منَ المكانةِ وجميلِ الصفاتِ إِذ بهِ يزدادُ تواضعًا، حتَّىٰ

---

(١) سورة فصلت:٣٥.

بلغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غايةَ التواضعِ وصارَ مضربَ المثلِ فِي هذَا الخُلُقِ العظيمِ.

ومَن تأمَّلْ سيرتَهُ العطرةَ، رأَىٰ كيفَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جعلَ هذَا الخُلُقَ واقعًا ملموسًا تتلذَّذُ بسماعِ أخبارِهِ القلوبُ والآذانُ.

سُئلَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا كانَ يصنعُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بيتِهِ؟ فقالَت: كانَ يكونُ فِي مهنةِ أهلِهِ، فإذَا حضرتِ الصلاةُ خرجَ فصلَّىٰ(١).

وقالَت: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرًا منَ البشرِ، يفلِي ثوبَهُ، ويحلبُ شاتَهُ، ويخدمُ نفسَهُ، ويصنعُ كمَا يصنعُ أحدُكُم فِي بيتِهِ، يخصفُ نعلَهُ ويرقِّعُ ثوبَهُ»(٢).

وفِي هذَا الحديثِ بيانُ أنَّ المرءَ يفعلُ فِي بيتِهِ مَا يفعلهُ الرجالُ عادةً منَ الأعمالِ الَّتِي يحتاجونَ إليهَا أَو يحتاجُهَا أهلُوهُم.

ومِن تواضُعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كانَ يُجِيبُ دعوةَ الفقيرِ والمَملُوكِ، ويحضرُ مجامعَ الناسِ فِي الخيرِ، قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعودُ المريضَ ويتَّبعُ الجنائزَ ويجيبُ دعوةَ المملوكِ ويركبُ الحمارَ»(٣).

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**لَو دُعيتُ إِلَىٰ كُرَاعٍ لأجبتُ، ولَو أُهدِيَ إليَّ كُرَاعٌ لقَبِلْتُ**»(٤).

وفِي هذَا ضربُ المثلِ فِي الكُراعِ وليسَ الذِّراعِ، لأنَّ كراعَ الشاةِ لَا يُدعَىٰ عليهِ ولَا يُؤكَلُ، ولكِنْ كلُّ ذلكَ ليبيِّنَ مقدارَ التواضُعِ الَّذِي كانَ عليهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والَّذِي ينبغِي أَن يكونَ المسلمُ متَّصِفًا بهِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٧١).

(٣) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ١١٥).

(٤) رواه البخاري (٢٥٦٨).

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركبُ المتواضعَ منَ الدوابِّ، فقَد حدَّثَ عنهُ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يركبُ الحمارَ، قالَ: ولقَدْ رأيتُهُ يومًا علَىٰ حمارٍ خِطامُهُ ليفٌ.

وهذَا يدفعُ مَا عندَ الناسِ منَ الظنِّ الخاطئِ، أنَّ المركبَ إذَا كانَ فارهًا أدَّىٰ إلَىٰ توقيرِ صاحبِهِ ورَفْعِ مَقامِهِ، فإنَّ المركبَ لَا يوقِّرُ صاحبَهُ توقيرًا حقيقيًّا، بَل هيَ بهرجةٌ مزيَّفةٌ توشِكُ أَن ترحلَ برحيلِ مَا وُقِّرَ مِن أجلِهِ.

وقَد كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعودُ المرضَىٰ مهمَا كانَ قدرُهُم وشأنُهُم، وهذَا مِن جميلِ تواضُعِهِ وخَفضِ جناحِهِ للضعفاءِ، حتَّىٰ أثَّرَ بهِم ذلكَ أبلغَ التأثيرِ.

وممَّا جاءَ فِي ذلكَ أنَّ غلامًا يهوديًّا كانَ يخدُمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمرضَ، فعادَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: «**أتشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ؟، فنظرَ الغلامُ إلَىٰ والدِهِ، فقالَ لهُ أبوهُ: أَطِعِ أبَا القَاسِمِ. فقالَهَا فماتَ، فقالَ النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الحمدُ للهِ الَّذِي أنقذَهُ بِي منَ النارِ**»(١).

فتأمَّلْ تواضُعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زيارةِ غلامٍ يهوديٍّ حتَّىٰ استمالَ بذلكَ قلبَهُ وقلبَ والدِهِ بسببِ تواضعهِ العظيمِ وحُسنِ سَجَاياهُ، حتَّىٰ أثَّرَ ذلكَ بهمَا الأثرَ الَّذِي لَم يملكَا معهُ أَن يرُدَّا دعوةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهمَا إلَىٰ الخيرِ، لِمَا عَلِمَا مِن كَرَمِ أخلاقِهِ وشَديدِ نُصحِهِ.

وقَد كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريبًا منَ الناسِ، مَن أرادَهُ سَهُلَ وصولُهُ إليهِ، ولَم يحتَج إلَىٰ أَن يبحَثَ عنِ الشفاعةِ تِلوَ الشفَاعَةِ حتَّىٰ يصلَ إلَىٰ مُرادهِ، ولربَّمَا انقطعَ سعيُهُ دونَ ذلكَ.

ذكرَ الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فقالَ: «**لَا واللهِ، مَا كانَت تُغلَقُ**

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٦).

دونَهُ الأبوابُ، ولَا يقومُ دونَهُ الحُجَّابُ، ولَا يُغدَىٰ عليهِ بالجِفَان -أَي: الصحونِ الكبيرةِ-، **ولَا يُراحُ عليهِ بهَا، وكانَ بارزًا، مَن أرادَ أَن يلقَىٰ نبيَّ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لقيَهُ، وكانَ يجلسُ علَىٰ الأرضِ، ويوضعُ طعامُهُ بالأرضِ، ويلبسُ الغليظَ، ويركبُ الحمارَ، ويردفُ عليهِ، ويلعَقُ** -واللهِ- **يدَهُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقَد جاءَهُ رجلٌ يومًا فلمَّا قامَ بينَ يدَيْهِ ارتعدَتْ فرائِصُهُ، فقالَ لهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هوِّن عليكَ، فإنِّي لستُ ملِكًا، إنَّمَا أنَا ابنُ امرأةٍ مِن قريشٍ كانَت تأكلُ القَدِيدَ**»[1]، **والقديدُ**: هوَ اللَّحمُ المجفَّفُ بالشَّمسِ.

ومِن تواضُعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ كانَ يسلِّمُ علَىٰ الصبيانِ، ويمسحُ علَىٰ رءوسِهِم، ويدعُو لهُم بالبركةِ، وكانَ يُكنِّي بعضَهُم، فيقولُ مازحًا: «**يَا أَبَا عُمَير، مَا فعلَ النُّغَير؟**»[2].

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمرُّ بالنسوةِ فيسلِّم عليهِنَّ، ويمشِي معَ الأرملةِ حتَّىٰ يقضِيَ لهَا حاجتَهَا، ويمشِي فِي حاجةِ المسكينِ حتَّىٰ يُنجزَهَا.

قالَ ابنُ أَبِي أوفَىٰ: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يأنَفُ ولَا يستكبرُ أَن يمشيَ معَ الأرملةِ والمسكينِ فيقضِي لهُ حاجتَهُ، وإِن كانَتِ الوليدةُ مِن ولائدِ المدينةِ -أَي: الجاريةُ الصغيرةُ- تجيءُ فتأخذُ بيدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَا ينزعُ يدَهُ مِن يَدِهَا حتَّىٰ تذهبَ بِهِ حيثُ شاءَت»[3].

وقالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ امرأةً كانَ فِي عقلهَا شيءٌ** -أَي: مِنَ الجنونِ أَوِ السَّفهِ- **قالَت: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ لِي إليكَ حاجةً، فقالَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا أمَّ فلانٍ، انظُرِي أَيَّ**

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٧٢).

السكك شئتِ حتَّىٰ أقضِي لكِ حاجتَكِ، فخلَا معهَا فِي بعضِ الطرقِ يُنَاجِيهَا حتَّىٰ قضَت حَاجتَهَا»(١).

ومعَ مَا أعطاهُ اللهُ منَ المنزلةِ العاليةِ الرفيعةِ فقَد كانَ يمشِي هونًا، لَا يزاحمُ الناسَ، ولَا يشقُّ عليهِم فِي طُرقَاتِهِم، ولَا يؤذِيهِم فِي مجتمعاتِهِم.

قالَ قُدامَةُ بنُ عبدِ اللهِ: «رأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرمِي الجمرةَ -أَي: جمرةَ العَقَبةِ يومَ الحجِّ- علَىٰ ناقةٍ شَهباءَ، لَا ضربَ، ولَا طردَ، ولَا إليكَ إليكَ»(٢)؛ أَي: لَا يضربُ أحدًا، ولَا يطردُ أحدًا، ولَا يقولُ: افتَحِ الطريقَ.

ومِن تواضُعِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أنَّهُ كانَ إذَا دخلَ الرجلُ الأجنبيُّ إلَىٰ مجلسِهِ معَ أصحابِهِ لَم يعرِفهُ**، حيثُ إنَّهُ لَم يتميَّزْ عَن أصحابِهِ بهندامٍ أَو لِبَاسٍ أَو طريقةِ جلوسٍ.

قالَ أبُو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلسُ بينَ ظَهرِ أصحَابِهِ، فيجيءُ الغريبُ فلَا يدرِي أيُّهُم هوَ حتَّىٰ يسأَلَ: أيُّكُم ابن عبدِ المطَّلِب؟

وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأكلُ أكلةَ المتواضعِ لَم يتميَّز بهيئةٍ معينةٍ، ولَا بصبغةٍ خاصَّةٍ، فقَد قالَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، جعلَنِي اللهُ فِداكَ، كلْ متكئًا فإنَّهُ أهونُ عليكَ، فقالَ: لَا، بَل آكلُ كمَا يأكلُ العَبدَ، وأجلسُ كمَا يجلسُ العبدَ»**(٣).

إنَّ مَن تأمَّلَ هذهِ السيرةَ الجميلةَ، علِمَ منزلةَ التواضعِ الَّتِي حثَّ عليهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولًا وعملًا، وعَلِمَ أنَّ غايةَ التوفيقِ للعبدِ أَن يهديَهُ اللهُ تعالَىٰ لِأن يكونَ مِنَ المتَّصِفينَ بهَا، فإنَّ التواضُعَ منَ العِبَاداتِ الَّتِي تُقرِّبُ العَبدَ إلَىٰ ربِّهِ سبحانَهُ فينالُ بهَا رضوانَهُ، قالَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«إنَّكُم تتركونَ خيرَ أعمالِكُم: التواضُعَ»**.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٦).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٦٢٣).

(٣) رواه البَغَوي في شرح السنة، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٤).

وعلَىٰ قدرِ مَا يكونُ المرءُ متواضعًا علَىٰ قدرِ مَا يفتحُ اللهُ لهُ قلوبًا مغلقةً، وعلَىٰ قدرِ قُربِهِ منهُم سيتلقَّونَ منهُ مَا يُمليهِ عليهِم منَ الخيرِ والهُدَىٰ.

وبالتواضُعِ يزدَادُ المَرءُ رفعةً فِي الدارَيْنِ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا تواضَعَ أحدٌ للهِ إلَّا رفعَهُ اللهُ**»[1].

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعظمِ الخُسرانِ أنَّ أُناسًا لبَّسَ عليهمُ الشيطانُ أنَّهُم إذَا تواضعُوا للناسِ تجرَّءُوا عليهِم، وجهلُوا قدرَهُم، فترَاهُم منقبضينَ عنِ الناسِ فِي كلامهِم وطريقةِ سلامهِم، حتَّىٰ رفضَهُمُ الناسُ ولَم يتقبَّلُوهُم، فعاشُوا فِي غربةٍ نفسيَّةٍ إلَىٰ أبعدِ مدًىٰ، وبعضُهُم قَد لَا يكتشفُ ذلكَ إلَّا بعدَ فواتِ الأوانِ، فتجدهُ يحاولُ الاستدراكَ، ويتكلَّفُ غيرَ مَا ألِفَهُ الناسُ منهُ فيزدادُ همًّا إلَىٰ غمٍّ، ولَو أنَّهُ وطَّن نفسَهُ علَىٰ التواضُعِ مِن أوَّلِ أمرِهِ، معَ مراعاةِ احترامِ ذاتِهِ، لعاشَ عيشَ السعداءِ.

هذَا وإنَّ أكثرَ الناسِ حاجةً إلَىٰ التواضعِ والعملِ بِهِ الدعاةُ إلَىٰ الخيرِ والرشادِ، لكونِ هذَا الخُلُقِ مفتاحًا إلَىٰ قلوبِ الناسِ، وأولَىٰ الناسِ أَن يتواضعُوا لهُم مَن كانُوا علَىٰ طريقِ الاستقامةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) سورة الشعراء: ٢١٥.

وقالَ تعالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[(١)].

قالَ البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أذلةٍ علَىٰ المؤمنينَ، يعنِي: أرقَّاءَ رحماءَ، كقولهِ تعالَىٰ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[(٢)]، ولَم يُرِد بهِ الهوانَ، بَل أرادَ أَنَّ جانِبَهُم ليِّنٌ علَىٰ المؤمنينَ، يعنِي: أَنَّهُم متواضعونَ، وقالَ عطاءُ: أذلةٍ علَىٰ المؤمنينَ، كالولدِ لوالِدِهِ، والعبدِ لسيِّدِهِ».

ومِن أشدِّ الأمورِ قبحًا واستنكارًا: أَن يكونَ المرءُ ظاهرُهُ الخيرُ، ومعَ ذلكَ يعامِلُ الناسَ معاملةَ غيرِ الواثقِ مِن نَفسِهِ، فتراهُ منقبضًا بلَا سببٍ.

وأَعظِمْ بهِ سوءًا أَن يندفعَ إليهِ الناسُ فَرِحِينَ بلقائِهِ، فيستقبلهُم بسلام باردٍ، ووجهٍ مكفَهِرٍّ، وحقِيقٌ بهذَا قولُ سعيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ: يُعجبنِي منَ القرَّاءِ كلُّ سَهلٍ طلقٍ، فأمَّا الَّذِي تلقَاهُ ببشرٍ ويلقَاكَ بوجهٍ عبُوسٍ، فلَا كثَّرَ اللهُ فِي المسلمينَ مثلهُ.

تَوَاضَــع تكُــن كَالــنَّجمِ لَاحَ لِنَاظِــرٍ ... عَلَــىٰ صَــفَحَاتِ المَــاءِ وَهْــوَ رَفِــيعُ
وَلَا تَــكُ كَالــدُّخَانِ يَــرفَعُ نَفــسَهُ ... عَلَــىٰ طَــبَقَاتِ الجَــوِّ وَهْــوَ وَضِــيعُ

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة الإسراء: ٢٤.

(٢٧) حادثةُ الإفكِ

الحمدُ للهِ الخبيرِ فلَا تخفَىٰ عليهِ خافيةٌ، يعلمُ مَا توسوسُ بهِ نفسُ المرءِ ومَا ينطقُ بهِ سرًّا أَو علانيةً، أحمدهُ سبحانهُ، أمرَنا بحفظِ ألسنتنَا عَن قولِ الزورِ والفحشاءِ، وأسأَلُهُ التوفيقَ لقولِ الحقِّ فِي السرَّاءِ والضرَّاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، بشَّرَ الصادقينَ بجناتٍ تجرِي مِن تحتهَا الأنهارُ، وآذَنَ الكاذِبينَ بسُوءِ العاقبَةِ والنارِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسَلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد جعلَ اللهُ سُبحانَهُ هذهِ الدنياَ دارَ بلاءٍ وفتنةٍ، يُبتلَىٰ فيهَا الناسُ بأنواعِ الفتنِ والبلايَا، وتمَسُّهُمُ المِحَنُ والرزايَا، فيُجازَىٰ المؤمنُ الصابرُ بعلوِّ الدرجاتِ، وتحلُّ بالفاجرِ أنواعُ العقوباتِ، وليمحِّصَ اللهُ الذينَ آمنُوا ويمحقَ الكافرينَ، وليعلمنَّ اللهُ الذينَ آمنُوا وليعلمنَّ المنافقينَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(١)].

وأشدُّ الناسِ عرضةً للابتلاءِ فِي هذهِ الدنيَا الأنبياءُ ثمَّ الصالحونَ، وكلَّمَا كانَ المؤمنُ أكملَ إيمانًا وأمثلَ حالًا كانَ بلاؤهُ أشدَّ، قالَ ﷺ: «**أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبيَاءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلَىٰ الرجُلُ علَىٰ حسَبِ دينهِ، فإِن كانَ دينهُ صلبًا اشتدَّ بلاؤهُ، وإِن كانَ فِي دينهِ رقَّةٌ ابتُلِيَ علَىٰ حسَبِ دينهِ، فمَا يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّىٰ يتركَهُ**

(١) سورة العنكبوت: ٢-٣.

يمشِي علَىٰ الأرضِ مَا عليهِ خَطِيئةٌ»[(١)].

وإنَّ مِن أعظمِ الابتلاءاتِ الَّتِي دوَّنهَا التاريخُ بمَرَارةٍ، وسطَّرَتهَا الكتبُ بأقلامٍ تنزفُ ألمًا، مَا حدثَ منَ الابتلاءِ العظيمِ لأمِّ المؤمنينَ -الصِّدِّيقةِ بنتِ الصدِّيقِ- حبيبةِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المطهَّرةِ مِن فوقِ سبعِ سَمواتٍ، عائشةَ بنتِ أبِي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، مِن حادثةِ الإفكِ المُبينِ الَّتِي نالَت مِن عرضِهَا، وقَد تولَّىٰ كبرَهَا رأسُ المنافقينَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ وتوارثَهَا عنهُ المنافقونَ جيلًا بعدَ جيلٍ حتَّىٰ أزمَانِنَا هذهِ.

فتأمَّلوهَا بعقُولٍ واعيةٍ، وقلوبٍ حاضرةٍ، حتَّىٰ تعلمُوا عِظَمَ البلاءِ الَّذِي وقعَ بهَا وبرسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ مَا كانَ بعدَ ذلكَ مِن حُسنِ العاقبةِ لهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قالَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا أرادَ سفرًا أقرعَ بينَ نسائِهِ، فأيَّتهنَّ خرجَ سهمُهَا خرجَ بهَا معَهُ، فلمَّا كانَت غزوَةُ بنِي المُصطَلقِ أقرعَ بينَ نسائهِ كمَا كانَ يصنعُ، فخرجَ سهمِي عليهنَّ معهُ فخرجَ بِي رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا فرغَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن سفرِهِ ذلكَ وجَّهَ قافلًا، حتَّىٰ إذَا كانَ قريبًا منَ المدينةِ نزلَ منزلًا فباتَ فيهِ بعضَ الليلِ، ثمَّ أذَّنَ فِي الناسِ بالرَّحيلِ، فارتحلَ الناسُ، وخَرجتُ لبعضِ حاجَتِي وفِي عُنُقِي عقدٌ لِي، فلمَّا فرغتُ انسلَّ مِن عنقِي ولَا أدرِي، فلمَّا رجعتُ إلَىٰ الرحلِ ذهبتُ ألتمِسُهُ فِي عنقِي فلَم أجِدهُ، وقَد أخذَ الناسُ بالرَّحيلِ، وجاءَ الناسُ الَّذِينَ يرحلونَ لِي البعيرَ وقَد حملُوا الهودجَ وهُم يظنُّونَ أنِّي فيهِ -لأنهَا كانَت جاريةً صغيرةَ السنِّ خفيفةَ الوزنِ فلَم يفطنُوا لهَا- فاحتملُوهُ فشدُّوهُ علَىٰ البعيرِ وانطلقُوا بهِ، فرجعتُ إلَىٰ المكانِ ومَا فيهِ مِن داعٍ ولَا مجيبٍ، وقَدِ انطلقَ الناسُ، فتلفَّفتُ بجلبابِي ثمَّ اضطجَعتُ فِي مكانِي، فواللهِ إنِّي لمُضطجعةٌ إذ مرَّ بِي صفوانُ بنُ المعطَّلِ السُّلَمِيُّ،

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٣).

وكانَ قَد تخلَّفَ عنِ الجيشِ لبعضِ حاجَتِهِ، فلَم يبِت معَ الناسِ، فلمَّا رآنِي أقبلَ عليَّ، وقَد كانَ يرانِي قبلَ أَن يضربَ علينَا الحِجابُ، فلمَّا رآنِي قالَ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، ظعينةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَا متلفِّفةٌ فِي ثيابِي، قالَ: مَا خلَّفَكِ يرحمُكِ اللهُ؟ فمَا كلَّمتُهُ.

ثمَّ قرَّبَ البَعيرَ، فقالَ: اركبِي واستأخرَ عنِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فركبتُ، وأخذَ برأسِ البعيرِ فانطلقَ سريعًا يطلبُ الناسَ، ومَا افتُقِدتُ حتَّىٰ أصبحْتُ ونزلَ الناسُ، فلمَّا نزلُوا طلعَ الرجلُ يقودُ بِي، فقالَ أهلُ الإفكِ مَا قالُوا -أَي: نسجُوا حولَهَا قصةَ الإفكِ، واتَّهموهَا بصَفوانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

ثمَّ قَدِمنَا المدينةَ، فلَم ألبَث أَنِ اشتكيتُ شكوَىٰ شديدةً -أَي: مَرِضَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، ولَا يَبلُغُنِي مِن ذلكَ شيءٌ، وقَدِ انتهَىٰ الحديثُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلَىٰ أبويَّ فلَا يذكرونَ لِي منهُ قليلًا ولَا كثيرًا، إلَّا أنِّي أنكرتُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ لُطفِهِ بِي، فقَد كنتُ إذَا اشتكيتُ رحِمَنِي ولطفَ بِي، فلَم يفعَل ذلكَ بِي فِي شَكوايَ تلكَ، فأنكرتُ ذلكَ منهُ.

كانَ إذَا دخلَ عليَّ وعندِي أمِّي تُمَرِّضُنِي قالَ: كيفَ تيكُم؟ لَا يزيدُ علَىٰ ذلكَ، حتَّىٰ حزِنتُ فِي نفسِي، فقلتُ -حينَ رأيتُ مَا رأيتُ مِن جفائِهِ-: يَا رسولَ اللهِ، لَو أَذِنتَ لِي فانتقلتُ إلَىٰ أمِّي فتمرضُنِي. قالَ: «**لَا عليكِ**».

قالَت: فانتقلتُ إلَىٰ أمِّي ولَا علمَ لِي بشيءٍ ممَّا كانَ، حتَّىٰ نقهتُ مِن وجعِي بعدَ بضعٍ وعشرِينَ ليلةً.

فخرجتُ ليلةً لبعضِ حاجتِي ومعِي أمُّ مِسْطَحٍ بنتُ أبِي رُهْمٍ، فواللهِ إنَّهَا لتمشِي معِي إذ عثَرَتْ فِي كسائِهَا، فقالَت: تَعِسَ مسطحٌ، قلتُ: بئسَ مَا قلتِ لرجلٍ منَ المهاجرينَ قَد شهِدَ بدرًا، قالَت: أَوَمَا بلغَكِ الخبرُ يَا بنتَ أبِي بكرٍ؟ قُلتُ: ومَا الخبرُ؟

فأخبرَتنِي بالَّذِي كانَ مِن قولِ أهلِ الإفكِ.

قالَت: فواللهِ مَا قدرتُ علَىٰ أَن أقضِيَ حاجَتِي ورجعتُ، فواللهِ مَا زلتُ أبكِي حتَّىٰ ظننتُ أنَّ البكاءَ سيصدَعُ كَبِدِي، وقلتُ لأمِّي: يغفرُ اللهُ لكِ! تحدَّثَ الناسُ بمَا تحدَّثُوا بهِ ولَا تذكُرينَ لِي مِن ذلكَ شيئًا!

قالَت: أَي بُنَيَّةُ! هوِّني عليكِ الأمرَ، فواللهِ لقلَّمَا كانَتِ امرأةٌ حسناءُ عندَ رجلٍ يحبُّهَا، لهَا ضَرَائرُ، إلَّا كثَّرنَ عليهَا وكثَّر الناسُ عليهَا.

عبادَ اللهِ:

ولَقَد تجلَّىٰ ذلكَ المَوقفُ الرائعُ للمؤمنينَ الذينَ وَثِقُوا ببيتِ النبوَّةِ، وفراشِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعفتِهِ، فقَد جاءَت أمُّ أيوبَ إلَىٰ زوجهَا أبِي أيوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأخبرتهُ بالخبَرِ وقالَت: يَا أبَا أيوبَ، أَلَم تسمَع بمَا تحدَّثَ الناسُ؟

قالَ: ومَا يتحدَّثونَ؟ فأخبرَتْهُ بقولِ أهلِ الإفكِ، فقالَ: مَا يكونُ لنَا أَن نتكلَّمَ بهذَا سبحانكَ هذَا بهتانٌ عظيمٌ، يَا أمَّ أيُّوبَ، لَو كنتِ أنتِ أكنتِ فاعلةً؟ قالَت: واللهِ مَا كنتُ لأفعلَهُ. قالَ: فعائشةُ واللهِ خيرٌ مِنكِ.

فقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مادحًا لهُم: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾(1).

قالَت عائشَةُ: وقَد قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الناسِ يَخطُبُهُم -ولَا أعلمُ بذلكَ- فقالَ: «**أيُّهَا الناسُ، مَا بالُ رجَالٍ يُؤذُونِي فِي أهلِي، يقولُونَ عليهِم غيرَ الحقِّ، واللهِ مَا علمتُ منهُم إلَّا خيرًا، ويقولونَ ذلكَ لرجلٍ واللهِ مَا علمتُ منهُ إلَّا خيرًا، وَمَا يدخلُ بيتًا مِن بيوتِي إلَّا وهوَ معِي**».

---

(1) سورة النور:١٦.

قالَت: وكانَ تولَّىٰ كبرَ ذلكَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ.

وجاءَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألُ زينبَ بنتَ جحشٍ، وقَد كانَت عندَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَم تكُنِ امرأةٌ مِن نسائهِ تساويني فِي المنزلةِ عندَهُ غيرهَا، فعصَمَهَا اللهُ بِدِينهَا وورَعِهَا فلَم تقُل إلَّا خيرًا.

رضيَ اللهُ عنهَا، مَا دفعتهَا الغيرةُ مِن جارتهَا للظلمِ والافتراءِ وتلفيقِ التُّهَمِ الكاذبةِ.

قالَت: فَلمَّا قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلكَ المَقالةَ، قالَ أُسيدُ بنُ حُضَيرٍ: يَا رسولَ اللهِ، إن يكونُوا منَ الأوسِ نكفِيكَهُم، وإِن يكُونُوا مِن إخوانِنَا الخزرجِ فمُرنَا بأمرِكَ، فواللهِ إنَّهُم لأهلٌ أَن تُضرَبَ أعناقُهُم، فقامَ سعدُ بنُ عُبادَةَ -وكانَ قبلَ ذلكَ يُرىٰ رجلًا صالحًا ولكِن أخذَتْهُ الحَمِيَّةُ- فقالَ: كذبتَ لَعَمرُ اللهِ لَا تُضرَبُ أعناقُهُم، أَمَا واللهِ مَا قلتَ هذهِ المقالةَ إلَّا أنَّكَ قَد عرفتَ أنَّهُم منَ الخَزرَجِ، ولَو كانَ مِن قومِكَ مَا قلتَ هذَا!

فقالَ أُسيدٌ: كذبتَ لَعَمرُ اللهِ؛ ولكنَّكَ منافقٌ تجادِلُ عنِ المنافقينَ.

وفِي هذَا دليلٌ علَىٰ أنَّ الرجلَ الصالحَ لَا يُؤاخَذُ بمَا قالَهُ إذَا كانَ غضبًا للهِ ورسولِهِ.

قالَت: وتَواثَبَ الناسُ، حتَّىٰ كادَ يكونُ بينَ الحَيَّينِ منَ الأوسِ والخَزرجِ شرٌّ، ونزلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخلَ عليٌّ، فدعَا عليَّ بنَ أَبِي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ فاستشارَهُمَا، فأمَّا أسامةُ فأثنىٰ عليّ خيرًا وقالَ: يَا رسولَ اللهِ، أهلُكَ ولَا نعلمُ إلَّا خيرًا، وهذَا الكذبُ والباطلُ.

وأمَّا عليٌّ فإنَّهُ قالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ النساءَ لكثيرٌ، وإنَّكَ لقادرٌ علَىٰ أَن تستخلفَ، وسَلِ الجاريةَ فإنَّهَا تصدقكَ.

فدعَا رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجاريَةَ ليسألَهَا، فقالَت: واللهِ مَا أعلمُ إلَّا خيرًا، ومَا كنتُ أعيبُ علَىٰ عائشةَ إلَّا أنَّنِي كنتُ أعجِنُ فآمرُهَا أَن تحفظَهُ، فتنامُ فتأتِي الشاةُ فتأكلُهُ.

قالَت: فدخلَ عليَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعندِي أبوايَ، وعندِي امرأةٌ منَ الأنصارِ وأنَا أبكِي، فلَم تَجِد مَا تفعلُهُ لِي إلَّا أنَّهَا كانَت تبكِي لبكائِي، فجلسَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فحَمِدَ اللهَ وأثنَىٰ عليهِ وقالَ: **«أمَّا بعدُ، يَا عائشةَ، فإنَّهُ قَد بلغنِي عنكِ كذَا وكذَا، فإِن كنتِ بريئةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإِن كنتِ ألمَمْتِ بذنبٍ فاستغفِرِي اللهَ وتُوبِي إليهِ، فإنَّ العبدَ إذَا اعترفَ بذنبِهِ وتابَ، تابَ اللهُ عليهِ»**.

قالَت: فلمَّا قضَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مقالتَهُ قَلَصَ دَمعِي حتَّىٰ مَا أُحِسُّ منهُ قطرةً، فقلتُ لأبِي: أَجِب عنِّي رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالَ: واللهِ مَا أدرِي مَا أقولُ لرسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقلتُ لأمِّي: أجِيبِي رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالَت: واللهِ مَا أدرِي مَا أقولُ لرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قالَت: فقُلتُ -وأنَا جاريةٌ حديثَةُ السنِّ لَا أقرَأُ كثيرًا منَ القُرآنِ-: واللهِ لقَد علمتُ أنَّكم قَد سمعتُمُ الحديثَ حتَّىٰ استقرَّ فِي نفوسِكُم وصدَّقتُم، فلَئِن قلتُ لكُم إنِّي بريئةٌ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةً- لَا تُصَدقونِي، ولئنِ اعترفتُ بأمرٍ -واللهُ يعلمُ أنِّي منهُ بريئةٌ- لتصدِّقنِّي، فواللهِ مَا أجدُ لِي ولكُم مثلًا إلَّا كمَا قالَ أبُو يوسفَ -وقَد التمَستُ اسمَ يعقوبَ فلَم أذكرهُ-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١).

قالَت: ثمَّ تَحوَّلتُ فاضْطجَعْتُ علَىٰ فراشِي، وأنَا واللهِ أعلمُ حينئذٍ أنِّي بريئةٌ وأنَّ اللهَ تعالَىٰ مُبَرِّئِي ببراءتِي، ولكِن مَا كنتُ أظنُّ أَن ينزلَ فِي شأنِي وحيٌ يُتْلَىٰ، ولَشأنِي كانَ أحقرَ فِي نفسِي مِن أَن يتكلمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلَىٰ، ولكِن كنتُ أرجُو أَن يرَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي النَّومِ رؤيَا يُبرِّئنِي اللهُ بهَا.

قالَت: فواللهِ مَا فارقَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مجلسَهُ، ولَا خرجَ مِن أهلِ البيتِ أحدٌ

---

(١) سورة يوسف:١٨.

حتَّىٰ أنزلَ اللهُ تعالَىٰ علَىٰ نبيِّهِ، فأخذَهُ مَا كانَ يأخذُهُ منَ الشِّدَّةِ عندَ الوَحيِ، حتَّىٰ إنَّهُ ليتحَدَّرُ منهُ مثلُ الجُمَانِ منَ العَرَقِ وهوَ فِي يومٍ شَاتٍ مِن ثِقَلِ القولِ الَّذِي أنزلَ عليهِ.

قالَت: فسُرِّيَ عَن رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ يضحكُ، فكانَ أوَّلُ كلمةٍ تكلَّمَ بهَا أَن قالَ: «**أبشِري يَا عائشةُ، أمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فقَد برَّأكِ**».

فقالَت أمِّي: قُومِي إليهِ، فقلتُ: واللهِ لَا أقومُ إليهِ ولَا أحمدُ إلَّا اللهَ، هوَ الَّذِي أنزلَ براءَتِي، فأنزلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(١)، وقَد أنزلَ اللهُ تعالَىٰ عَشرَ آياتٍ فِي سُورةِ النُّورِ فيهَا براءةُ عائشةَ منَ الإفكِ المُبينِ، وبيانُ طهارةِ فراشِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممَّا رمَاهُ بِهِ المُنَافقونَ وورثَتُهُم.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسلامُ علَىٰ رسُولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلهِ وصَحبِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ هذهِ الحادثَةَ المؤلمَةَ لَتمثِّلُ عظمَ الابتلاءِ الَّذِي وقعَ بالنبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجِهِ الطاهرةِ المُطهَّرَةِ، وذلكَ أَنَّ الطعنَ فِي العرضِ مِن أشدِّ الأمورِ، لأنَّهُ أمرٌ خفيٌّ، ويكثرُ لهُ ناقلُو الكَلامِ الَّذِينَ يفرحونَ بفضَائحِ المسلمينَ، وينشُرونَ الرذيلةَ فِي المُجتمعِ، كمَا يتابعُهُم عليهِ مَن عظمَت غفلَتُهُ جاهلًا الحكمَ الشرعيَّ المتعلِّقَ بذلكَ.

---

(١) سورة النور:١١.

وقَد كانَ لهَذِهِ الحادثةِ كثيرٌ منَ الفوائدِ الَّتِي استنبطَهَا أهلُ العلمِ، ولهَا أبلغُ الأثرِ فِي سُلوكِ مَن عَمِلَ بهَا.

فمِن ذلكَ: مَعرفةُ أنَّ الابتلاءَ للمؤمنينَ سُنَّةٌ مِن سُننِ اللهِ الكونيَّةِ، وقَد يُبتلَىٰ المؤمنُ بالأمرِ يظنُّهُ شرًّا وهوَ خيرٌ لهُ، ولذلكَ فبالرغمِ مِن شدَّةِ الابتلاءِ الَّتِي تعرَّضَ لهَا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنونَ باختبَارِهم فِي دينِهم إلَّا أنَّ اللهَ تعالَىٰ قالَ: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[1].

ومِن ذلكَ: وجوبُ إحسَانِ الظنِّ بالمسلمينَ، لَا سيَّمَا العدولُ منهُم، فقَد قالَ صفوانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -الَّذِي اتُّهِمَ فِي هذهِ القصةِ-: «واللهِ مَا كشفتُ كنَفَ أنثَىٰ قطُّ».

وكذَا الواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يُحسِنَ الظنَّ بإخوانهِ المسلمينَ، لَا سِيَّمَا إذَا ظهرَت حولَهُمُ الإشاعاتُ، وكانُوا ذوِي عدالةٍ فِي المجتمعِ ولَم يُظهِرُوا المنكرَ أَو يُجاهِرُوا بهِ، وقَد عاتبَ اللهُ تعالَىٰ المؤمنينَ حيثُ أفاضَ بعضُهُم فِي ذلكَ السوءِ ومَا ذُكِرَ مِن شأنِ الإفكِ، فقالَ: ﴿**لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾[2]، وبأنفُسِهم فِي هذهِ الآيةِ؛ أَي: بإخوانِهم، فجعلَ الأخَ مقامَ النفسِ.

كمَا يجبُ علَىٰ المُسلمِ ألَّا يُشِيعَ أخبارَ الفسَادِ والرذَائلِ الَّتِي تحصُلُ فِي المجتمعاتِ؛ لأنَّ ذلكَ يُقلِّلُ الحياءَ، وينشرُ اليأسَ بينَ صفوفِ الأفرادِ والمجتمعاتِ، ويصبحُ تلقِّي أخبارَ المنكراتِ أمرًا مستساغًا.

وممَّا يُستفادُ مِن ذكرِ هذهِ الواقعةِ: ذمُّ الحميَّةِ لغيرِ اللهِ ورسولهِ، والَّتِي تحملُ المرءَ علَىٰ أَن ينحازَ إلَىٰ الخطأِ بدافعِ الحميَّةِ إلَىٰ القبيلةِ، أوِ التَّعصُّبِ إلَىٰ الجماعةِ

---

(١) سورة النور:١١.

(٢) سورة النور:١٢.

حتَّىٰ لَو كانَ ذلكَ مضادًّا للدَّليلِ الشرعيِّ.

ومنَ الفَوائدِ الجَميلةِ فِي هذَا البابِ: مواساةُ الأخِ بالمُستَطاعِ إذَا حلَّت بهِ مُصيبةٌ أَو ضائقةٌ، وأَنَّ وقتَ الضيقِ هوَ الَّذِي يتميَّزُ بِهِ نُبلاءُ الأخلاقِ، وهذَا واضحٌ فِي جلوسِ المرأةِ تبكِي معَ عائشةَ، حيثُ إنَّهَا لمَّا لَم تَجِد مَا تُواسيهَا بِهِ إلَّا ذلكَ جلسَت تبكِي معهَا.

ومِن ذلكَ أَنَّ الرجُلَ الصالحَ قَد يخرجُ منهُ اللفظُ الخطأُ لَا يقصدُهُ فلَا يؤاخَذُ بهِ، كمَا قالَ أُسيدُ بنُ حُضيرٍ لسعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنَّكَ منافقٌ تجادلُ عنِ المنافقينَ»، وسعدٌ صحابيٌّ جليلٌ، ولكِن قَد ظهرَتِ الكلمةُ مِن أُسَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدافعِ الغيرةِ والحميَّةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يؤاخِذهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهَا.

كمَا أنَّ هذهِ القصةَ تبيِّنُ فَضِيلةَ الورعِ معَ وجودِ الدَّافعِ للمَيلِ عنِ الحقِّ، وحصُولِ الظلمِ بسببِ الغيرةِ، إلَّا أنَّ الورعَ ومخافةَ اللهِ يَمنعانِ صاحبَهُمَا مِنَ الوقوعِ فِي شيءٍ مِن ذلكَ، كمَا حصلَ فِي قولِ أمِّنا زينبَ بنتِ جحشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لمَّا سألهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن عائشةَ، فقالَت: «يَا رسولَ اللهِ، أحمِي سمعِي وبصرِي، واللهِ مَا علمتُ إلَّا خيرًا»، قالَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وهيَ الَّتِي كانَت تُساميني مِن أزواجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعصَمَهَا اللهُ تعالَىٰ بالوَرعِ».

ومنَ الفوائدِ الجميلةِ: تفويضُ الأمرِ للكبارِ، لَا سيَّمَا فِي الأمورِ المهمَّةِ الشائكةِ، ولَا يَحسُنُ أَن يتصدَّرَ الشبابُ وصغارُ السنِّ للقضايَا الحساسةِ دونَ ردِّ الأمرِ إلَىٰ كبارِهِم، ولذلكَ لمَّا وقعَ مَا وقعَ لعائشةَ، طلبَت مِن والدِهَا أَبِي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومِن أمِّهَا، أَن يُجيبَا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهَا .

والفائدَةُ العَظيمةُ الَّتِي لا بدَّ مِن معرفتهَا، وهيَ الأصلُ الَّذِي لا بدَّ مِنَ اعتقادهِ والتيقُّنِ بهِ: هوَ اعتقَادُ طهارةِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وبراءَتِهَا ممَّا قالَهُ أَهلُ الإفكِ والزورِ،

وأَنَّهَا عفيفةٌ نقيَّةٌ تقيَّةٌ، ومَن طعنَ بهَا فِي ذلكَ أَو رضِيَ بهِ فهوَ كافرٌ بإجماعِ المسلمينَ؛ لأَنَّهُ مُكذِّبٌ للقرآنِ، طاعنٌ فِي فِرَاشِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإنِ ابتلاكَ اللهُ بمُخَالطةِ المنافقينَ، الَّذِينَ ورثُوا رأسَهُم عبدَ اللهِ بنَ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ فيمَا قالَ، فأَبغِضْهُم بقلبِكَ، وأعلِنِ البراءةَ منهُم بقولِكَ وفِعلِكَ، واهجُرهُم ببدنِكَ، وقدِّمْ رضَا اللهِ تعالَىٰ علَىٰ القراباتِ والصلاتِ الَّتِي لَا تسرُّ مؤمنًا، ولَا تدحرُ عدوًّا، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1].

وقالَ بعضُ السَّلفِ: «لَا تجلِس إِلَىٰ مُبتدعٍ فتحلَّ عليكَ اللعنةُ».

فلَا تجعَل مسألةَ القرابةِ أَوِ القبليَّةِ وسيلةً تتنازَلُ فيهَا عَن دينِكَ، مُجَامَلةً لبعضِ أهلِ الضَّلالِ الَّذِينَ يطعنونَ فِي فِرَاشِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁❁❁

(١) سورة النساء: ١٤٠.

(٢٨) رحمة النبي ﷺ

الحَمدُ للهِ الَّذِي منَّ علَىٰ المُؤمنينَ إذ بعثَ فيهِم رسولًا منهُم، يتلُو عليهِم آياتِهِ ويزكِّيهِم، ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ وإن كانُوا مِن قبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ، وخصَّهُ بجوامعِ الكلمِ، وجعلَ قبولَ سنَّتهِ واتباعَ هديهِ داعيًا لمحبةِ ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ المَلِكُ الحقُّ المبينُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الصادقُ الناصحُ الأمينُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ الطيبينَ الطاهرينَ، ومَن تبِعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

لقَد كانَت هذِهِ البشَريَّةُ قبلَ بعثةِ النبيِّ ﷺ، تعيشُ فِي جاهليَّةٍ جَهلَاءَ، وفوضَىٰ عارمةٍ، قدِ اشتدَّت عليهِمُ الظلمَةُ، وتفشَّتْ بينَهُم أخلاقُ السوءِ، فلَم يعرفُوا للهِ حقًّا، ولَم يرفعُوا بحدودِ اللهِ رأسًا.

حتَّىٰ بعثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهُم نبيَّهُ بالنورِ والهُدَىٰ، فكانَ رحمةً للعالمينَ، أنارَ اللهُ بِهِ الدنيَا بعدَ إظلامِهَا، وأشرقَت شمسُ الحياةِ، وابتهجَت ببعثتِهِ الأرضُ، فارتدَت ثوبَ العافيةِ، والتَحفَت ثوبَ الفرحِ، وأصبحَت بعَد طُولِ أمَدِ الظلامِ وقَد كسَاهَا النورُ، ولبسَت ثوبَ الهناءِ والحُبورِ.

وسَعِدَتْ ببِعثَتِهِ القلوبُ، فانطفأَت نِيرانُهَا الغامرةُ، وسكنَتهَا جناتُ الأُنسِ، فأصبحَت بهَا السعادةُ عامرةٌ، ووجدَت مَا يملأُ جوانحَهَا المتعطشةَ إلَىٰ الهدايةِ، بعدَ جحيمِ الضلالِ والغوايةِ، ويَفتحُ لهَا أبوابَ الخلاصِ والفرجِ، بعدَ أن سجنَتهَا الهُمومُ والأحزانُ، وكبَّلتهَا القيودُ والأصفَادُ، وأشرقتِ الأرضُ بنورِ ربِّهَا..

فكانَت بِعثَتُهُ نعمةً لَا تُدانِيهَا نِعمَةٌ، فقَد كانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدايةً للضالينَ، وطمأنينةً للحائرينَ، وسكينةً للخائفينَ، ودلالةً للتائهينَ، فكانَ حقًّا رحمةً للعالمينَ، وبذلكَ وصفَهُ ربُّهُ عَزَّوَجَلَّ، وهوَ أصدقُ القائلينَ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصفُ نفسَهُ: «**إنَّمَا أنَا رحمةٌ مهداةٌ**»(٢)، وقالَ: «**إنَّمَا بُعثتُ رحمةً**»(٣).

وذلكَ أنَّ اللهَ تعالَىٰ قَد أرسلَهُ رحمةً للعالمينَ كلِّهِم، فَمَن قَبِلَ هذهِ الرحمَةَ وشَكرَ هذهِ النعمَةَ، سَعِدَ فِي الدنيَا والآخرَةِ، ومَن ردَّهَا وجحدهَا خسرَ الدنيَا والآخرَةَ.

وقَد حصلَ لعُمومِ العَالَمينَ النفعُ برسَالتِهِ، فأمَّا أتباعُهُ فنالُوا بهَا كرامةَ الدنيَا والآخرةِ، وأمَّا أعداؤُهُ المُحَارِبونَ لهُ، فالَّذينَ عُجِّلَ قتلُهُم وموتُهُم خيرٌ لهُم؛ لأنَّ حياتَهُم زيادةٌ لهُم فِي تغليظِ العذابِ عليهِم فِي الدارِ الآخرةِ، وأمَّا المعاهَدُونَ فقَد عاشُوا فِي الدنيَا تحتَ ظلِّهِ وعهدِهِ وذمَّتِهِ فأمنُوا بذلكَ، وأمَّا المنافقونَ فحصلَ لهُم بإظهارِ الإيمانِ بهِ حقنُ دِمائِهِم وأموالِهِم وأهليهِم واحترامِهَا، وجريانِ أحكامِ المسلمينَ عليهِم فِي الظاهرِ، وأمَّا الأممُ النائيةُ عنهُ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رفعَ برسالتِهِ العذابَ العامَّ عَن أهلِ الأرضِ.

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **فِي قولِهِ تعالَىٰ:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: «مَن تَبِعَهُ كانَ لهُ رحمةً فِي الدنيَا والآخرةِ، ومَن لَم يتَّبعهُ عُوفيَ ممَّا كانَ يُبتلَىٰ بهِ سابقُ الأممِ منَ الخسفِ والمسخِ والقذفِ».

---

(١) سورة الأنبياء:١٠٧.

(٢) رواه الدارمي في «السنن»، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٨٠٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٩).

ولمَّا سألَ المشركونَ -لشدَّةِ عُتُوِّهِم وعنادِهِم وكفرِهِم- ربَّهُم عَزَّوَجَلَّ أَن ينزِّلَ عليهِم عذابًا منَ السماءِ، رفعَ اللهُ عنهُم ذلكَ بسببِ وجودِ الرحمةِ المهداةِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينَ أظهُرِهِم، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إنَّ اللهَ جعلَ فِي هذهِ الأمَّةِ أمانَينِ، لَا يزالونَ معصومينَ، مُجَارِينَ مِن قوارعِ العذابِ مَا دامَا بينَ أظهُرِهِم، فأمانٌ قبضَهُ اللهُ إليهِ، وأمانٌ بقيَ فيكُم»، وقالَ: «كانَ فيهِم أمانَانِ: النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والاستغفارُ، فذهبَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبقيَ الاستغفارُ».

ومَن تأمَّلَ ذلكَ اتَّضحَ لهُ جليًّا كيفَ أنَّ بَعثَةَ النبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَت رحمةً شامِلَةً لأهلِ الأرضِ مسلمِهِم وكافرِهِم، فالحمدُ للهِ علَىٰ عظيمِ فضلِهِ، ولطيفِ جودِهِ، وكريمِ عطائِهِ.

أيُّهَا المسلمونَ:

وكمَا أنَّ مَبعثَ النبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَ رحمةً عامَّةً للخلقِ، فكذلكَ كانَ هوَ متَّصفًا بالرحمةِ، فشمَلَت رحمتهُ البشرَ، وتعدَّتهُم إِلَىٰ البهائمِ العجمَاواتِ والجمادِ، بَل وشملَت عتاةَ الكفارِ ودعاةَ الشركِ الَّذينَ آذُوهُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي دينِهِ وأهلِهِ ونفسِهِ، وردُّوا دعوتَهُ، وطعنُوا فِي صدقِهِ وحسنِ سجاياهُ، وبلغُوا فِي أذيَّتِهِ أشدَّ درجاتِ الإيذاءِ، ومعَ ذلكَ لمَّا خُيِّرَ بينَ أنْ ينزلَ اللهُ بهِمُ العذابَ أَو يفتحَ لهُم أبوابَ الرحمةِ، قدَّمَ الرحمةَ، ولَم يكُن مُنتَصِرًا لنفسِهِ، مسارعًا إِلَىٰ الاقتصاصِ منهُم ليشفيَ غيظَ صدرِهِ،

(١) سورة الأنفال: ٣٢-٣٣.

بل احتملَ ذلكَ لأنَّهُ رحمةً.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**قالَت قريشٌ للنبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ادعُ لنَا ربَّكَ أَن يجعلَ لنَا الصفَا ذهبًا نؤمنُ بكَ. قالَ: وتفعلونَ؟ قالُوا: نعَم، فدعَا، فأتاهُ جبريلُ فقالَ: إنَّ ربَّكَ يقرأُ عليكَ السلامَ ويقولُ: إن شئتَ أصبحَ لهمُ الصفَا ذهبًا، فمَن كفرَ بعدَ ذلكَ منهُم عذَّبتُهُ عذابًا لَا أعذبُهُ أحدًا منَ العالمينَ، وإن شئتَ فتحتُ لهُم بابَ التوبةِ والرحمةِ، قالَ: بَل بابُ التوبةِ والرحمةِ**»[1].

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبيِّ ابنُ سَلُولَ رأسُ المنافقينَ، مِن أشدِّ الناسِ إيذاءً للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتَّىٰ بلغَ أذاهُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أهلِهِ، فهوَ قائدُ حملةِ الإفكِ الطاعنةِ فِي عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانَ يصدُّ الناسَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويخذِّلُ عنهُ، فلمَّا ماتَ، قامَ علَىٰ قبرِهِ وصلَّىٰ عليهِ وكفَّنهُ فِي قميصِهِ، قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لمَّا توفِّيَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ، جاءَ ابنهُ -وكانَ صحابيًّا- إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، أعطِنِي قميصَكَ أُكفِّنُهُ فيهِ، وصلِّ عليهِ، واستغفِر لهُ، فأعطاهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قميصَهُ، فقالَ: «**آذنِّي أصلِّي عليهِ**»، فآذنَهُ.

فلمَّا أرادَ أَن يصلِّيَ عليهِ جذبَهُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ: أليسَ اللهُ نهاكَ أَن تصلِّيَ علَىٰ المنافقينَ؟ فقالَ: «**أنَا بينَ خيرَتَيْنِ، قالَ:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2]»[3].

وقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا ماتَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ، دُعيَ لهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصلِّيَ عليهِ، فلمَّا قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثَبْتُ إليهِ، فقلتُ:

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٨٨).

(٢) سورة التوبة: ٨٠.

(٣) رواه البخاري (١٢٦٩).

يَا رسولَ اللهِ، أتصلِّي علَىٰ ابنِ أبيٍّ وقَد قالَ يومَ كذَا وكذَا، كذَا وكذَا؟ أعدِد عليهِ قولهُ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقالَ: «**أخِّر عنِّي يَا عمرُ**»، فلمَّا أكثرتُ عليهِ، قالَ: «**إنِّي خُيِّرتُ فاخترتُ، لَو أعلمُ أنِّي إن زِدْتُ علَىٰ السَّبعينَ يُغفرُ لهُ لزدتُ عليهَا**».

قالَ: فصلَّىٰ عليهِ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثمَّ انصرفَ، فلَم يمكُث كثيرًا حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالَىٰ -فِي المنافقينَ-: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[1][2].

ومِن عظيمِ رحمتِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّهُ أتَىٰ عبدَ اللهِ بنَ أبيٍّ حينَ موتهِ فنفثَ فيهِ مِن ريقهِ، وألبسَهُ قميصَهُ، فأيُّ رحمةٍ تبلغُ هذَا المبلغَ؟

ومِن دلائلِ رحمتِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: رحمتُهُ بالصغارِ، وشفقتُهُ عليهِم، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنِّي لأقومُ فِي الصلاةِ أريدُ أَن أطوِّلُ فيهَا، فأسمعُ بكاءَ الصبيِّ، فأتجوَّزُ فِي صلاتِي كراهيةَ أَن أشقَّ علَىٰ أمِّهِ**»[3].

ومِن أعظمِ الدلائلِ علَىٰ رحمتِهِ: رحمتُهُ لهذهِ الأمَّةِ، فقَد قامَ ليلةً حتَّىٰ أصبحَ وهوَ يقرأُ آيةً واحدةً يردِّدُهَا: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[4][5].

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ: إنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تلَا قولَ اللهِ تعالَىٰ فِي إبراهيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾[6]، وقولَ عيسَىٰ: ﴿ إِن

---

(١) سورة التوبة: ٨٤.

(٢) رواه البخاري (١٣٦٦).

(٣) رواه البخاري (٧٠٧)، مسلم (١٩٢).

(٤) سورة المائدة: ١١٨.

(٥) رواه النسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٢٠٥).

(٦) سورة إبراهيم: ٣٦.

﴿تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فرفعَ يدَيهِ فقالَ: «**اللهمَّ أمَّتِي أمَّتِي**»، وبكَىٰ، فقالَ اللهُ تعالَىٰ: «**يَا جبريلُ، اذهَب إلَىٰ محمَّدٍ -وربُّك أعلمُ-، فسلْهُ مَا يبكِيهِ؟** فأتاهُ جبريلُ فسألَهُ، فأخبرَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَا قالَ: **فقالَ اللهُ لجبريلَ: اذهَب إلَىٰ محمَّدٍ فقُل: إنَّا سنرضِيكَ فِي أمَّتكَ ولَا نسوؤُكَ**»(١).

فحريٌّ بمَن هذَا نبيُّهُ، أَن يستشعرَ حبَّهُ، ويكابدَهُ الشوقُ إلَىٰ لقائهِ وورودِ حوضهِ، ولَا سبيلَ إلَىٰ ذلكَ إلَّا بلزومِ سنَّتِهِ، وتعظيمِ أمرهِ، والوقوفِ علَىٰ مَا حدَّهُ لهُ ودلَّهُ عليهِ منَ الخيرِ، وألَّا يقدِّمَ عليهِ بشرًا كائنًا مَن كانَ محبةً واتباعًا، معَ صادقِ الدعاءِ للهِ تعالَىٰ، بأَن يجعلَهُ منَ المقتفينَ لآثارِهِ، المُعظِّمينَ لسنَّتِهِ، المُوَفَّقينَ لذلكَ.

وقَد كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحيمًا فِي تعليمهِ، لَا سيَّمَا معَ مَن يجهلُ الأحكامَ الشرعيَّةَ.

قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بينمَا نحنُ فِي المسجدِ معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاءَ أعرابيٌّ، فقامَ يبولُ فِي المسجدِ، فقالَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ، مَهْ!، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تزرِمُوهُ، دعُوهُ**»، فتركوهُ حتَّىٰ بالَ، ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاهُ فقالَ لهُ: «**إنَّ هذَا المساجدَ لَا تصلحُ لشيءٍ مِن هذَا البولِ ولَا القذَرِ، وإنَّمَا هيَ لذِكرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وللصلاةِ وقراءةِ القرآنِ**»، ثمَّ أمَرَ رجلًا منَ القومِ فجاءَ بدلوٍ مِن ماءٍ فشنَّهُ عليهِ(٢).

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزرِمُوهُ**»، أَي: لَا تتسبَّبُوا بحصرهِ فيُؤذَىٰ بسببِ ذلكَ، فنظرَ إلَىٰ حالِ الرجلِ الخاصَّةِ ومَا سيلحقُهُ منَ الأذَىٰ، بالرغمِ مِن تعاطيهِ لأمرٍ كبيرٍ، لكنَّهُ فعلَهُ بسببِ جَهلِهِ بالأحكامِ الشرعيَّةِ.

وقَد تعدَّت رحمتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البشريَّةَ حتَّىٰ بلغَتِ البهائمَ العجماواتِ الَّتِي

---

(١) رواه مسلم (٣٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٥).

لَا تتكلمُ ولَا تستطيعُ أَن تفصحَ عَن حاجاتِهَا.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرَ: دخلَ النبيُّ ﷺ حائطًا لرجلٍ منَ الأنصارِ، فإذَا جملٌ، فلمَّا رأَىٰ النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفَت عيناهُ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ فمسحَ سنامَهُ وذفراهُ، فسكَنَ، فقالَ: مَن ربُّ هذَا الجملِ؟ لِمَن هذَا الجملُ؟ فجاءَ فتَىٰ منَ الأنصارِ، فقالَ: هذَا لِي يَا رسولَ اللهِ، قالَ: «**أَلَا تتَّقِي اللهَ فِي هذِهِ البَهيمةِ الَّتِي ملَّكَكَ اللهُ إيَّاهَا، فإنَّهُ شكَا لِي أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدئِبُهُ**»(١).

وقالَ يحيَىٰ بنُ مرَّةٍ: كنتُ معَ النبيِّ ﷺ جالسًا ذاتَ يومٍ، إِذ جاءَ جملٌ يخبُّ حتَّىٰ ضربَ بجرانهِ بينَ يديهِ ثمَّ ذرَفَت عيناهُ، فقالَ: «**ويحَك!، انظُر لِمَن هذَا الجمَلُ إنَّ لهُ لشأنًا**». قالَ: فخرَجتُ ألتمِسُ صاحبَهُ، فوجدتُهُ لرجُلٍ منَ الأنصارِ، فدعوتُهُ إليهِ فقالَ: «**مَا لبعيرِكَ يشكُوكَ؟ زعمَ أنَّكَ سنأْتَهُ حتَّىٰ كبرَ تريدُ أَن تنحَرَهُ**».

فقالَ: صدقتَ، عملنَا عليهِ ونضَحنَا عليهِ حتَّىٰ عجزَ عنِ السقايةِ، فأْتمرنَا البارحةَ أَن ننحرَهُ ونقسِّمَ لحمَهُ، قالَ: «**فلَا تفعَل، هبْهُ لِي أَو بِعنِيهِ**». قالَ: بَل هوَ لكَ يَا رسولَ اللهِ، قالَ: فوسمَهُ بميسَمِ الصدقةِ ثمَّ بعَثَ بهِ(٢).

وإِن كنتَ متعجِّبًا، فاعجَب كيفَ أنَّ رحمتَهُ ﷺ تجاوزتِ البشرَ والبهائمَ العجماواتِ حتَّىٰ بلغَتِ الجمادَ!

قالَ جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ النبيُّ ﷺ إذَا خطبَ استندَ إِلَىٰ جذعِ نخلةٍ مِن سوارِي المسجدِ، فلمَّا صُنعَ لَهُ المنبرُ فاستوَىٰ عليهِ، صاحَت النخلةُ الَّتِي كانَ يخطبُ عندهَا حتَّىٰ كادَت تنشقُّ، فنزلَ النبيُّ ﷺ حتَّىٰ أخذهَا فضمَّهَا إليهِ، فجعلَت

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٦٩).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٧٠).

تئنُّ أنينَ الصبيِّ الَّذِي يُسكَّتُ حتَّىٰ استقرَّت، قالَ: «**بكَت علَىٰ مَا كانَت تسمعُ مِنَ الذِّكرِ**»[(١)].

فيَا سبحانَ اللهِ، مَا أعظمَ هذَا القلبَ الَّذِي وسعَ الدنيَا!

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجَلالِ وجهِهِ وعظيمِ سُلطانِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريبًا منَ الناسِ، تُحَركُهُ المواقفُ وتستمطرُ أدمُعَهُ، فلمَّا توفِّيَ صاحبُهُ عثمانُ بنُ مظعونٍ، دخلَ عليهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكشفَ عَن وجهِهِ، ثمَّ أكبَّ عليهِ فقبَّلهُ وبكَىٰ[(٢)].

ولمَّا رُفِعَ لهُ ابنهُ إبراهيمُ، جاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشمَّهُ وقبَّلهُ، وبكَىٰ بدمعةٍ، ثمَّ أتبعهَا بأخرَىٰ، فقالَ لهُ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: مَا هذَا يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**إنَّهَا رحمةٌ، إنَّ العينَ لتَدمَعُ وإنَّ القلبَ ليحزَن، ولَا نقولُ إلَّا مَا يُرضِي ربَّنَا، وإنَّا بفراقِكَ يَا إبراهيمُ لمحزونونَ**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٥).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٢١).

(٣) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

ولمَّا تُوفِّيَ ابنُ بنتهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُفِعَ إليهِ الصبيُّ ونفسُهُ تَقَعْقَعُ، فبكَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ لهُ سعدٌ: مَا هذَا يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**إنَّهَا رحمةٌ يجعلُهَا اللهُ فِي قلوبِ مَن شاءَ مِن عبادِهِ، وإنَّمَا يرحَمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرحمَاءَ**»(١).

فحَرِيٌّ بالمسلمِ أَن يتَّصفَ بالرحمةِ اقتداءَ بنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجاءَ أَن يجازيَهُ اللهُ بمثلِ صنيعِهِ الَّذِي يفعلهُ، فالراحمونَ يرحمهُمُ الرحمنُ، وليعلَم أنَّ هذَا الخلقَ مِنَ الصفاتِ العظيمةِ الَّتِي لَا يحويهَا إلَّا قلبٌ حيٌّ، جعلنَا اللهُ مِن أهلِهِ.

❊❊❊

(١) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢٩) رحيلُ أهلِ السُّنَّةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي لَم يتَّخِذ ولدًا ولَم يكُن لهُ شريكٌ فِي المُلكِ، ولَم يكُن لهُ وليٌّ منَ الذلِّ وكبِّرهُ تكبيرًا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، تعالَىٰ عمَّا يقولُ الظالمونَ علوًّا كبيرًا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ -أرسلَهُ بينَ يَدَي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنهِ وسراجًا منيرًا-، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحابهِ وأتباعهِ إلَىٰ يومِ الدينِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد بعثَ اللهُ تعالَىٰ نبيَّهُ محمَّدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ، فأكملَ بِهِ الدينَ، وأتمَّ بِهِ النعمةَ، وهدَىٰ بِهِ الضُّلَّالَ، وأرشدَ بِهِ الحيارَىٰ، ولَم يرحَل صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَن هذهِ الدنيَا حتَّىٰ بلَّغَ الرسالةَ، وأدَّىٰ الأمانةَ كمَا أمرَهُ ربُّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلمَّا تُوُفِّيَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خلَفَهُ أناسٌ ورثُوا ميراثَهُ الطاهرَ جيلًا بعدَ جيلٍ، فنصرُوا سنَّتهُ، واقتفَوا أثرَهُ، وجاهدُوا فِي سبيلِ إبقاءِ سنَّتِهِ واضحةً بيِّنةً نقيَّةً لَا يشوبُهَا نقصٌ ولَا تغييرٌ، ولَن يزالُوا علَىٰ ذلكَ حتَّىٰ تقومَ الساعَةُ.

فكانُوا هُم أهلَ السنَّةِ والجماعةِ، والطائفةَ المنصورةَ بظهورِ الحقِّ وبيانِ الحجَّةِ، والفرقةَ الناجيةَ مِن كلِّ بِدعةٍ وانحرافٍ فِي هذهِ الدنيَا، ومنَ الخِزيِ والعذابِ يومَ القيامةِ.

وقامُوا للهِ حقَّ القيامِ، متحمِّلينَ فِي سبيلِ ذلكَ ظُلمَ الظالمينَ، وكذبَ الأفَّاكينَ، وغربتَهُم بينَ طوائفِ أهلِ البدعِ والضَّلالِ، مُحتَسبينَ الأجرَ فِي جهادِهِم فِي سبيلِ نُصرةِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ينفونَ عنهَا تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطلينَ، وتأويلَ

الجاهلينَ، لتبقَىٰ السُّنَّةُ الغرَّاءُ كالصفحةِ البيضاءِ لَا يخالِطُهَا سوادٌ، وكالعذراءِ المخدرةِ لَا يكشفُ سترَهَا غاوٍ، ولَا ماجنٌ ساقطٌ، ولَو ذهبَت فِي سبيلِ ذلكَ الأموالُ والأعمارُ.

وينشرونَ الخيرَ بينَ صفوفِ المسلمينَ، قاصدينَ نصحَهُم ونجاتَهُم رغمَ مَا يتعرضونَ إليهِ مِن هجماتٍ شرسةٍ ودعاوَىٰ مضلِّلَةٍ، فمَا أحسنَ أثرَهُم علَىٰ الناسِ، وأسوأَ أثرَ الناسِ عليهِم!

ولَا تزالُ السُّنَّةُ منصورةً مَا دامَ لهَا قومٌ يَقُومونَ بهَا للهِ، ويريدونَ وجهَ اللهِ فِي أعمالِهِم، ويعلَمُونَ عِظَمَ الأجرِ فِي تمسُّكِهِم بهَا، ودعوَتِهِم الناسَ إليهَا، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّتِي ظاهِرِينَ علَىٰ الحقِّ، لَا يضرُّهُم مَن خذَلَهُم ولَا مَن خالفَهُم حتَّىٰ تقومَ السَّاعةُ**»[1].

قالَ الإمامُ أحمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنْ لَم يكونُوا أهلَ الحديثِ فلَا أدرِي مَن هُم.

وأهلُ الحَديثِ: أَي أهلُ السُّنَّةِ المُتَّبِعينَ لآثارِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهديِ السَّلَفِ الصَّالحِ.

قالَ القاضِي عياضٌ: إنَّمَا أرادَ أحمدُ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومَن يعتقدُ مذهبَ أهلِ الحَديثِ، وقالَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُم أهلُ العلمِ.

وهؤلاءِ همُ الَّذِينَ تَحْمَىٰ أنوفُهُم نُصرَةً لدينِ اللهِ ومَا بُعثَ بهِ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا تأخذُهُم فِي اللهِ لومةُ لائمٍ، ولَا يتحيَّزونَ إلَىٰ فئةٍ مُعيَّنةٍ، ويَنصُرونَ اللهَ ورسولَهُ بكلِّ قولٍ حقٍّ، قالَهُ مَن قالَهُ.

إنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ هُمُ النورُ الَّذِي يضيءُ لهذهِ الأمَّةِ طريقَهَا؛ لأنَّهُم يَدعُونَ الناسَ إلَىٰ طريقةِ خيرِ القُرونِ، ويَنهَونَ عنِ الابتداعِ فِي الدِّينِ، ويَغرِسُونَ فِي الناسِ

---

(١) رواه مسلم (٣٥٤٤).

أَنَّ كلَّ طريقٍ إِلَىٰ اللهِ مسدودٌ إلَّا طريقَ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي جاءَ بالبيناتِ والهُدَىٰ، ونصحَ للهِ حقَّ النصحِ، فمَا تركَ طريقَ خيرٍ إلَّا دَلَّ الناسَ عليهِ، ولَا طريقَ شرٍّ إلَّا حذَّرَ الناسَ منهُ.

ولَن يُجرِّبَ المرءُ طريقَ السعادةِ حتَّىٰ يسلكَ سبيلَهُم، ويأخذَ مِن حيثُ أخذُوا، وينهلَ مِن حيثُ نَهَلُوا مِن ذلكَ المَعِينِ الصافِي الَّذِي لَا يُخَالطُهُ كدَرٌ؛ لأنَّ مَن قامَ عليهِ ودعَا الناسَ إليهِ هوَ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن خاصمَهُم لهوًىٰ فِي نفسِهِ وليَصُدَّ الناسَ عمَّا يدعونَ إليهِ منَ التَّمسُّكِ بهَدْيِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِهِ، فقَد رامَ بعيدًا، وضلَّ عَن سواءِ السَّبيلِ، وسيكُونُ مردُّ أمرِهِ إِلَىٰ خِذْلانٍ وهوَ فِي الآخرةِ منَ الخاسرينَ.

قالَ حمَّادٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حضرتُ أيُّوبَ السختيانيِّ وهوَ يُغَسِّلُ شعيبَ بنَ الحبحابِ وهوَ يقولُ: إنَّ الَّذِينَ يتمنَّونَ موتَ أهلِ السنَّةِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

وكَم هِيَ نِعمَةٌ عُظمَىٰ أَن يجدَ المَرءُ إخوانًا لهُ، وإِن تباعدَت ديارُهُم، يدعونَ إِلَىٰ مَا يدعُو إليهِ مِن حسنِ الاعتقادِ والتمسُّكِ بسنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيزيدُهُ ذلكَ فرحًا واغتباطًا، لأنَّهُ يعلمُ أنَّ هذَا هوَ السبيلُ الأوحدُ لنصرةِ الدينِ، ونجاةِ الأمَّةِ منَ الضياعِ والانحدارِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذَا ظفَرتَ برجلٍ واحدٍ مِن أولِي العلمِ، طالبٍ للدليلِ محكمٍ لهُ، مُتَّبعٍ للحقِّ حيثُ كانَ وأينَ كانَ ومعَ مَن كانَ، زالَتِ الوحشةُ، وحصلَتِ الألفةُ، ولَو خالفَكَ فإنَّهُ يخالفكَ ويعذرُكَ، والجاهلُ يخالفُكَ بلَا حُجَّةٍ، ويكفِّرُكَ بلَا حُجَّةٍ، وذنبُكَ مخالفةُ طريقتهِ الوخيمةِ، وسيرتهِ الذميمةِ، فلَا تغترَّ بكثرةِ هذَا الضربِ، فإنَّ

(١) سورة الصف:٨.

الآلافَ المؤلَّفَةَ منهُم لَا يعدلونَ بشخصٍ واحدٍ مِن أهلِ العلمِ، والواحدُ مِن أهلِ العلمِ يعدلُ بملءِ الأرضِ منهُم.

ومِن أجلِ ذلكَ فقَد عَظُمَتِ الصِّلةُ بينَ سلفِ الأمَّةِ الصالحِ، وطَهُرَت قلوبُهُم، وصَفَت لبعضِهِمُ البعض، وجاءَت نصوصُهُمُ المتكاثرةُ تحثُّ علَىٰ الأخذِ بهذَا الخُلُقِ العالِي، وتوثيقِ الروابطِ والصِّلاتِ بينَ أهلِ الحقِّ الداعينَ إليهِ.

قالَ سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذَا بلغَكَ عَن رجلٍ بالمشرقِ صاحبِ سنَّةٍ وآخرَ بالمغربِ، فابعَث لهمَا بالسلامِ وادعُ لهُمَا، مَا أقلَّ أهلَ السنَّةِ!

وقالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحبُّوا أهلَ السنَّةِ علَىٰ مَا كانَ منهُم.

ومَن بلغَهُ مثلُ هذهِ النصوصِ؛ جعلَ الرحمةَ والمودَّةَ نبراسًا لهُ وشعارًا فِي تعامُلِهِ معَ إخوانِهِ، وجعلَ الشفقَةَ مقدَّمَةً علَىٰ الاستعجالِ، فيكونُ بارًّا بِهِم، متعاونًا معَهُم علَىٰ الخيرِ، ذابًّا عَن أعرَاضِهِم فِي الغَيبَةِ، يفرحُ لتقَدُّمِهِم فِي العلمِ ودعوةِ الناسِ إلَىٰ الحقِّ، ومَا فتحَ اللهُ علَىٰ أيدِيهِم منَ الخيرِ؛ لأنَّ الهدفَ واحدٌ وهوَ الدعوةُ إلَىٰ السُّنَّةِ، والنجاةُ بالأمَّةِ مِن مَزَالِقِ الفِتَنِ، فمَن وجدَ لهُ مُعِينًا علَىٰ هذَا الطريقِ فليتشَبَّث بهِ.

هذَا وإنَّ تحقيقَ النصرِ وحصولَ البرَكةِ، ووقوعَ الأمَنَةِ فِي الدارينِ، إنَّمَا هوَ بالتمسُّكِ بهديِ نبيِّكُم محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَا كانَ عليهِ السَّلفُ الصالحُ منَ الصحابةِ والتابعينَ، فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ فِي اتباعِهِم، والشرَّ كلَّ الشرِّ فِي تركِ هديهِم والأخذِ بمَا أحدثَهُ المحدثونَ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتأمَّل قولَهُ تعالَىٰ لنبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[1]، كيفَ يفهمُ منهُ أنَّهُ إذَا كانَ وجودُ بدنِهِ وذاتِهِ فيهِم دفعَ عنهُمُ

---

(١) سورة الأنفال:٣٣.

العذابَ وهُم أعداؤهُ، فكيفَ وجودُ سرِّهِ والإيمانِ بِهِ ومحبَّتِهِ، ووجودِ مَا جاءَ بِهِ إِذَا كانَ فِي قومٍ أَو كانَ فِي شخصٍ، أَليسَ دفعُهُ عنهمُ العذابَ بطريقِهِ الأولَىٰ والأحرَىٰ.

وقَد كانَ السلفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يستبشرونَ خيرًا لِمَن ماتَ علَىٰ السنَّةِ، ويرجونَ لهُ خيرًا عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّهُم يعلَمُونَ أَنَّ مِن إكرامِ اللهِ لعبدِهِ أَن يقبضَهُ وهوَ مِنَ المتَّبعينَ للسُّنَّةِ، لَم يُحدِث بدعةً وضَلالًا.

قالَ عونٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن ماتَ علَىٰ الإسلامِ والسنَّةِ فلَهُ بشيرٌ بكلِّ خيرٍ.

وقالَ معتمرُ بنُ سليمانَ: دخلتُ علَىٰ أَبِي وأَنَا منكسرٌ، فقالَ: مَا لكَ؟ قلتُ: ماتَ صديقٌ لِي. قالَ: ماتَ علَىٰ السنَّةِ؟ قلتُ: نعَم. قالَ: فلَا تخَف عليهِ.

وقالَ أيوبُ: يَا عمارةُ، إِذَا كانَ الرجلُ صاحبَ سنَّةٍ وجماعةٍ، فلَا تسأَل عَن أيِّ حالٍ كانَ فيهِ.

ومَا هذَا الكلامُ مِن هؤلاءِ الأئمةِ إِلَّا مِن بابِ إحسانِ الظنِّ بربِّهِم الكريمِ الرحيمِ أَلَّا يُضِيعَ أجرَ مَن تمسَّكَ بالسنَّةِ وهديِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقامَ علَىٰ أمرِهِ، ودعَا إِلَىٰ ذلكَ، وكابَدَ المتاعبَ والمشاقَّ فِي سبيلِ ذلكَ، وإِنْ حدثَ منهُ شيءٌ مِنَ التقصيرِ والخَلَلِ، فالعبدُ ضعيفٌ، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

هذَا وممَّا يجبُ مَعرِفَتُهُ واليقينُ بِهِ: أَنَّ البركةَ قرينةُ السنَّةِ، فكلُّ عملٍ قامَ علَىٰ سنَّةٍ فهوَ إِلَىٰ خيرٍ ونماءٍ، وكلُّ عملٍ قامَ علَىٰ بدعةٍ فهوَ إِلَىٰ بترٍ وانقطاعٍ.

قيلَ لأَبِي بكرِ بنِ عيَّاشٍ: إِنَّ هاهنَا فِي المسجدِ أقوامًا يجلسونَ فيجلسُ الناسُ إِليهِم، قالَ: مَن جلسَ للناسِ جلسَ الناسُ إِليهِ، ولكنَّ أهلَ السنَّةِ يموتونَ ويبقَىٰ ذكرُهُم، وأهلُ البدعةِ يموتونَ ويموتُ ذكرُهُم.

---

(١) سورة الزخرف:٣٢.

ومَن تأمَّلَ بعينِ البَصِيرةِ سننَ اللهِ تعالَىٰ فِي خلقهِ أيقنَ بذلكَ حقَّ اليقينِ، فكَم مِنَ السلفِ الصالحِ والعلماءِ الربَّانيِّينَ الَّذِينَ لَم تزَل مقالاتُهُم وكتاباتُهُم يُنتفعُ بهَا علَىٰ مرِّ العصورِ والأزمانِ، وإِلَىٰ أَن يشاءَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كلُّ ذلكَ بسَببِ اتِّباعِهِم لسُنَّةِ خيرِ الورَىٰ محمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الَّذِي قالَ فيهِ ربُّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(١)، أَي: مُبغضُكَ هوَ المقطوعُ، فكلُّ مَن بغضَ شيئًا ممَّا جاءَ بهِ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَو رغبَ عَن سنَّتِهِ أَو أعرضَ عنهَا، كانَ لهُ نصيبٌ مِن هذهِ الآيةِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصَحبهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مُنتَهَىٰ الفجيعةِ أَن تفقدَ الأمَّةُ شابًّا ملتزمًا بالسنَّةِ فِي قولهِ وفعلهِ، جعلَ همَّهُ الأكبرَ وهمتَهُ العليَا الدعوةَ إليهَا فِي كلِّ مَحفِلٍ واجتماعٍ.

وإنَّ الفاجعةَ لتعظُم وتشتدُّ إذَا كانَ الراحلُ عَن هذهِ الدنيَا عالمًا أَو شيخًا مِن ورثةِ ميراثِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تنكشفُ بهِ الأهواءُ وتندَحِرُ بهِ الخصومُ.

إنَّهَا لمُصيبَةٌ عُظمَىٰ أَن تفقدَ الأمُّ أحدَ أبنائِهَا الَّذِينَ يعودُونَ عليهَا بالنفعِ والخِدمةِ، فكيفَ إذَا كانَت هذهِ الأمُّ هيَ تلكَ الأمَّةُ المسكينةُ الَّتِي تصارعُ الأهواءَ والبدعَ

(١) سورة الكوثر:٣.

والأفكارَ الماجنةَ والركضَ وراءِ أممِ الكفرِ، وهيَ تُعَانِي منَ الغربةِ، ولهَا ابنٌ بارٌّ يدافعُ عنهَا الفتنَ والشرورَ فافتقدَتهُ، فبأيِّ حالٍ ستكونُ؟!

إنَّ ذهابَ أهلِ العلمِ الملتزمينَ بالسنَّةِ، لهوَ أعظمُ الفجائعِ وأشدُّ المصائبِ، فبذهابِهِم يذهبُ العلمُ وينقصُ، وتخورُ القُوَىٰ وتضعفُ الأمَّةُ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لَا يقبضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ منَ الناسِ، ولكِن يقبضُ العِلمَ بقبضِ العلماءِ، حتَّىٰ إذَا لَم يترُكْ عالِمًا اتَّخَذَ الناسُ رُءوسًا جهَّالًا، فسُئِلُوا، فأفتَوا بغيرِ علمٍ فضَلُّوا وأضَلُّوا**»(١)، وهذَا يعنِي: أنَّ قبضَ العلمِ لَا يكونُ بمَحوِهِ منَ الصُّدورِ، ولكِن بموتِ حَمَلَتِهِ، ويتَّخذُ الناسُ جُهَّالًا يحكمونَ بجهالَاتِهِم، فيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ.

ومَن عَلِمَ أنَّ بذهَابِهِم نُقصَانَ العِلمِ وانتشارَ الجَهلِ، ومَا سيحدُثُ للناسِ منَ التخبُّطِ لذهابِ الهادِي إلَىٰ السبيلِ الأقْوَمِ، عَلِمَ قَدْرَ المُصِيبةِ.

لذَلكَ قالَ عبدُ اللهِ بنُ المُبَاركِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلَىٰ اللهِ نشكُو وحشتَنَا، وذهابَ الإخوانِ، وقلةَ الأعوانِ، وظهورَ البدعِ، وإلَىٰ اللهِ نشكُو عظيمَ مَا حلَّ بهذِهِ الأمَّةِ مِن ذهابِ علماءِ أهلِ السنَّةِ.

فإلَىٰ اللهِ نشكُو، ففِي كلِّ يومٍ يأفلُ نجمٌ عظيمٌ ينيرُ للأمَّةِ طريقَهَا، ويذهبُ نورُهُ، فِي وقتٍ نحنُ أحوجُ فيهِ إلَىٰ ذُبَالَةِ نورٍ.

إنَّ الرَّاحِلينَ عَن هذهِ الدنيَا كثيرٌ، ولكنَّ بعضَ الناسِ يرحلُ وقَد تركَ فِي قلوبِ الصادقينَ جرحًا لَا يُداوَىٰ، وخلَّةً لَا تُسدُّ، وحسرةً لَا تُعالَجُ، فقَد كانَ رجلًا سنيًّا، يدعُو إلَىٰ السنَّةِ فِي كلِّ وقتٍ وحينٍ، يفرحُ إِن عَلَت راياتُهَا، ويحزنُ إِن رأَىٰ فِي أهلِهَا تراجعًا وفتورًا.

---

(١) رواه البخاري (٩٨)، ومسلم (٤٨٢٨).

نصرَها فِي وقتِ كُربةٍ، وقامَ بحقِّهَا فِي وقتِ غُربةٍ، لَم يأبَه بطعنِ طاعنٍ، ولَا بقولِ مُخذِّلٍ، ولَا بلَعْنِ لاعِنٍ، يبذلُ جاهَهُ لإخوانِهِ، وينصحُ لأمَّتِهِ كتابةً وتأليفًا، ودعوةً بالقلمِ واللسانِ، طمعًا فِي الآخرةِ الباقيةِ، وحُسْنَ ظنٍّ بربِّهِ الَّذِي يُعطِي العطاءَ الجزيلَ، ويُعظِمُ الأجرَ والمَثُوبةَ.

فمثلُ هذَا حريٌّ بأَن يتأسَّفَ علَىٰ فراقِهِ، وقَد كانَ السلفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يتحسَّرُونَ علَىٰ فواتِ مثلِ هذَا الصنفِ المباركِ؛ لانتفاعِ الأمَّةِ بهِم علَىٰ مرِّ العصورِ والأزمانِ.

قالَ أيوبُ السِّختيانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي أخبرُ بموتِ الرجلِ مِن أهلِ السنَّةِ، وكأنِّي أفقدُ أحدَ أعضائِي».

وقالَ حمَّادٌ: كانَ أيوبُ يبلغُهُ موتَ الفتَىٰ مِن أصحابِ الحديثِ -أهلِ السنَّةِ- فيُرَىٰ ذلكَ فيهِ، ويبلغهُ موتُ الرجلِ يذكرُ بعبادةٍ فمَا يُرَىٰ ذلكَ فيهِ.

ونُعيَ إلَىٰ سفيانَ بنِ عيينةَ عبدُ العزيزِ الدراورديُّ، فجزعَ وأظهرَ الجزعَ -ولَم يكُن قَد ماتَ- فقيلَ لهُ: مَا عَلِمنَا أنَّكَ تبلغُ مثلَ هذَا! قالَ: إنَّهُ مِن أهلِ السنَّةِ.

ومَن تحسَّسَ هذَا، عَلِمَ قوَّةَ الصلةِ الَّتِي ترَبطُ بينَ أهلِ الحديثِ والأثرِ، المُلتزمينَ بالكتابِ والسنَّةِ علَىٰ فهمِ سلفِ الأمةِ، فتجعلُهُم كالجسدِ الواحدِ، ومَا ذلكَ إلَّا لأنَّهُم عَلِمُوا علمَ اليقينِ أنَّهُ لَا يُوحِّدُ القلوبَ إلَّا الالتزامُ بالسنَّةِ النبويةِ والتمسُّكُ بهَا.

فأهلُ السنَّةِ أهلُ جماعةٍ، وأهلُ البدعةِ أهلُ فرقةٍ وشتاتٍ، كلٌّ يرسمُ لطائفتِهِ طريقًا خلافَ مَا كانَ عليهِ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُهُ، ويريدُ أَن يلتزمَ الناسُ بهِ.

فإذَا اتَّفقتِ القلوبُ علَىٰ السنَّةِ، تلاشَىٰ مَا سوَىٰ ذلكَ منَ اتباعِ الأهواءِ والآراءِ المضلَّةِ، وتوحَّدَت علَىٰ الألفةِ والمحبَّةِ الَّتِي يهدِي إليهَا متبوعهُمُ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووجَدْتَ المرءَ يتأثَّرُ بفواتِ أحدِ إخوانِهِ ممَّن نفعَ اللهُ بهِم فِي العلمِ والإصلاحِ، لعلمِهِ أَنَّ مَا

ينقصُ منَ العلمِ والجهدِ، بقدرِ مَا ذهبَ فِي صدرِ ذلكَ الراحِلِ.

يَا عَينُ فِي سَاعَةِ التَّودِيعِ يَشغَلُكِ الـ ـبُكَاءُ عَن لَذَّةِ التَّودِيعِ وَالنَّظَرِ

خُذِي بِحَظِّكِ مِنهُم قَبلَ بَيْنِهِمُ فَفِي غَدٍ تَفرَغِي لِلدَّمعِ وَالسَّهَرِ

(٣٠) هذهِ دعوتُنَا

الحَمدُ للهِ الربِّ الغَفُورِ، العفوِّ الرؤوفِ الشكورِ، الَّذِي وفَّقَ مَن شاءَ مِن عبادِهِ لتحصيلِ المَكاسبِ والأجورِ، وجعَلَ شُغلَهُم بتحقيقِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، يرجونَ تجارةً لَن تبورَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ بيدِهِ تَصَاريفُ الأمورِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، أفضلُ آمِرٍ وأجلُّ مأمورٍ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ البعثِ والنشورِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الدعوةَ إلَىٰ اللهِ مهمَّةٌ عُظمَىٰ، ومبلغٌ أسمَىٰ، وخيرُ مَا يدَّخرُهُ العبدُ بينَ يدَي اللهِ يومَ لقائِهِ، وللهِ المنَّةُ الخالصةُ علَىٰ مَن وُفِّقَ إليهَا وكانَ مِن جنودهَا، فعملَ فِي سبيلِ ذلكَ دونَ كَلَلٍ ولَا مَلَلٍ، واجتهَدَ فِي إصلاحِ الناسِ، وبثِّ مَا شأنُهُ أَن يَقُودَهُم إلَىٰ كلِّ خَيرٍ.

ومُنتهَىٰ التوفيقِ والسَّدادِ، أَن تكونَ هذهِ الدعوةُ علَىٰ منهاجِ النبوَّةِ، دونَ ميلٍ ولَا انحرافٍ، دعوةٌ وسطٌ، لَا وكسَ ولَا شططَ، كمَا قالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1].

فدعوةُ الناسِ إلَىٰ السنَّةِ الغرَّاءِ، والمحجَّةِ الواضحةِ البيضاءِ هيَ الجهادُ الممدوحُ صاحبُهُ، حيثُ يبذلُ نفسَهُ ووقتَهُ ومالَهُ وجهدَهُ مِن أجلِ إرساءِ قواعدِ الدعوةِ إلَىٰ الخيرِ.

---

(١) سورة البقرة:١٤٣.

ومَن أرادَ نصرةَ الدعوةِ وتوضيحَهَا وبيانَهَا وإيصالَهَا إلَىٰ الناسِ، فلا بُدَّ أَن يتحلَّىٰ بأعظمِ سلاحٍ يُجَاهَدُ بِهِ الأعداءَ، ويندَحِرُ بِهِ الخصومُ، وهوَ: «العلمُ».

ومَن لَم يكُن لَهُ علمٌ يُعينُهُ انقطعَ بِهِ الدربُ، وفاتَهُ الركبُ، وخارَت قواهُ، وذَبُلَت نضَارتُهُ، ويبسَت أوراقُهُ.

فإذَا بِهِ يحتاجُ إلَىٰ مَن يرفَعُهُ بعدَ أَن كانَ يرَىٰ فِي نفسِهِ أَنَّهُ سيفعلُ مَا لَم تفعَلهُ القبائلُ، ويَأتِي بمَا لَم تأتِ بِهِ الأوائلُ، وإذَا بِهِ يرجعُ عاميًّا، يقضِي وقتَهُ بالكلامِ وسفاسِفِ الأوهامِ.

فمَن أرادَ نصرةَ الدعوةِ إلَىٰ السنَّةِ والعقيدةِ الصحيحةِ، فلابدَّ أَن يتحلَّىٰ بالعلمِ.

فإذَا تحلَّىٰ بالعلمِ فقَد أمسكَ بيدِهِ السلاحَ، الَّذِي يدفعُ بِهِ الشبهةَ ويدحرُ بِهِ الهوَىٰ، وإذ بِهِ قَد سلكَ طريقَ المجاهدينَ، الَّذِينَ يذبُّونَ عنِ الدينِ، ويوضحونَ للناسِ مَا التبسَ عليهِم، وعكَّرَ صفوَ عقائدِهم، وهذَا أعظمُ الجهادِ، وهوَ أفضلُ مِن ضربِ السيوفِ، وطعنِ الرماحِ، والقصفِ بأشنعِ الأسلحةِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجهادُ بالحجةِ واللسانِ، مقدمٌ علَىٰ الجهادِ بالسيفِ والسنانِ».

وقالَ: «فالجهادُ بالعلمِ والحُجَّةِ، جهادُ أنبيائِهِ ورسلِهِ، وخاصَّتِهِ مِن عبادِهِ المخصوصينَ بالهدايةِ والتوفيقِ والاتفاقِ، ومَن ماتَ ولَم يغزُ، ولَم يحدِّث نفسَهُ بغزوٍ، ماتَ علَىٰ شعبةٍ منَ النفاقِ».

فالأمَّةُ تحتاجُ لطالبِ العلمِ الَّذِي يبصِّرُهَا فِي دينِهَا أكثرَ مِن حاجتِهَا إلَىٰ أيِّ شيءٍ آخرَ؛ لأنَّهُ بالعلمِ يعبدُ المسلمُ ربَّهُ علَىٰ بصيرةٍ، ويعرفُ سبيلَ السعادةِ والنجاةِ، فينجُو مِن غياهِبِ الظلماتِ، ويفرُّ مِن مواقعِ الفتنِ.

ولَو نظَرنَا فِي تاريخِ الأمَّةِ وأمجادِهَا، نجدُ أنَّ مَن بلغَ بهَا السؤددَ همُ العلماءُ الربَّانِيُّونَ، الَّذِينَ أنارُوا طريقَ السالكينَ، وأرشدُوا كلَّ تائهٍ، وهَدَوا كلَّ حائرٍ.

ومَن عرفَ عظمَ الأجرِ فِي طلبِ العلمِ، ومنازلَ أهلِ العلمِ ومكانتِهِم، وحاجةَ الأمَّةِ إلَىٰ طالبِ العلمِ، جعلَ ذلكَ هدفًا لَا يألُو جهدًا فِي سبيلِ الوصولِ إلَيهِ.

يقولُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنَا شابٌّ، قُلتُ لشابٍّ منَ الأنصارِ: يَا فلانُ، هلمَّ فلنسأَل أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولنتعلَّم منهُم فإنَّهُم كثيرٌ، فقالَ: العجبُ لكَ يَا ابنَ عباسٍ! أترَىٰ الناسَ يحتاجونَ إليكَ وفِي الأرضِ مَن ترَىٰ مِن أصحابِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قالَ: فتركتُ ذلكَ، وأقبلتُ علَىٰ المسألةِ، وتتبُّعِ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَد كنتُ لآتِي الرجلَ فِي الحديثِ يبلغنِي أنَّهُ سمعَهُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجدُهُ قائِلًا، فأتوسَّدُ ردائِي علَىٰ بابِهِ، تسفِي الريحُ علَىٰ وجهِي، حتَّىٰ يخرجَ، فإذَا خرجَ قالَ: يَا ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكَ؟

فأقولُ: بلغَنِي حديثٌ عنكَ أنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحببتُ أَن أسمعَهُ منكَ، فيقولُ: فهلَّا بعثتَ إليَّ حتَّىٰ آتيكَ، فأقولُ: أنَا أحقُّ أَن آتيكَ.

فكانَ الرجُلُ بعدَ ذلكَ يرانِي، وقَد ذهبَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتاجَ الناسُ إليَّ، فيقولُ: كنتَ أعقلَ منِّي».

فالعلمُ الشرعيُّ سببٌ إلَىٰ الدينِ، ومنبهةٌ للرجلِ، مؤنسٌ فِي الوحشةِ، وصاحبٌ فِي الغربةِ، ووصلةٌ فِي المجالسِ، وذريعةٌ فِي طلبِ الحاجةِ، ورِفعةٌ لأهلِهِ.

قالَ الحجاجُ لخالدِ بنِ صفوانٍ: مَن سيِّدُ أهلِ البصرةِ؟ فقالَ: الحسنُ البصريُّ، قالَ: وكيفَ ذاكَ وهوَ مولًى؟! قالَ: احتاجَ الناسُ إليهِ فِي دينِهِم، واستغنَىٰ عنهُم فِي دنياهُم،

وَمَا رأيتُ أحدًا مِن أشرافِ أهلِ البصرةِ، إلَّا وهوَ يطلبُ الوصولَ فِي حلقتِهِ إليهِ، ليستمعَ قولَهُ، ويكتبَ علمَهُ، قالَ الحجَّاجُ: هذَا واللهِ السؤددُ.

فالعلماءُ هُم سراجُ الأمَّةِ الذينَ يجاهدونَ أهلَ الأهواءِ، ويذبُّونَ عنِ الدينِ، ويحمونَ بيضَتَهُ، ومَن لَم يتحصَّن بالعلمِ، وتصدَّىٰ لدعوةِ الناسِ أتَىٰ بالعجائبِ، وثغرَ ثغرةً فِي الإسلامِ، فأُتيَ مِن قِبَلِهِ.

ومِن أجلِ ذلكَ فلَا ينبغِي أَن يسلَّمَ زمامَ الأمَّةِ للمتعالمينَ، الَّذِينَ لَم يكتسبُوا علمًا ولَا أدبًا، فيقودونَ الأمَّةَ إلَىٰ الهاويةِ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يزالُ الناسُ بخيرٍ مَا أخذُوا العلمَ عَن أكابرِهِم، فإذَا أخذوهُ عَن أصاغرِهِم وشرارِهِم هلكُوا».

وعلَىٰ طالبِ العلمِ أَن يصحِّحَ نيَّتَهُ فِي طلبِهِ للعلمِ، ويكونَ مخلصًا فِي ذلكَ للهِ وحدَهُ، لَا يريدُ بطلبِهِ شيئًا منَ الدنيَا، أَو طمعًا فِي تصدُّرٍ أَو منصبٍ أَو جاهٍ، وأَن يكونَ هدفُهُ نشرَ الدينِ، ونصرةَ سنَّةِ سيِّدِ المرسلينَ، ويفرحُ لذلكَ، سواءٌ كانَ ذلكَ علَىٰ يدِهِ أَو علَىٰ يدِ غيرِهِ، وهذَا مِن عَلامَاتِ الإخلاصِ.

وليحذَر أَن يطلبَ العلمَ الشرعيَّ وهوَ يريدُ بِهِ حطامًا مِن حطامِ الدنيَا الزائلِ، فقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبتغَىٰ بهِ وجهُ اللهِ لَا يتعلَّمُهُ إلَّا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضًا منَ الدنيَا لَم يجِد عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ»**[1]، يعنِي: ريحَهَا.

وقيلَ للإمامِ أحمدَ: «مَا ينوِي طالبُ العلمِ؟ قالَ: ينوِي رفعَ الجهلِ عَن نفسِهِ وعَنِ الناسِ».

كمَا أنَّ الواجبَ علَىٰ طالبِ العلمِ أَن يعرفَ أولوياتِ الدعوةِ، فيبدأُ بالأهمِّ ثمَّ

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٦٦٤).

المهمِّ، ويتجنَّبُ مَا لَا يفيدُهُ، وليسَ مِن ضروريَّاتِ دعوتِهِ، ولَا ينشغلُ بالسفاسفِ الَّتِي لَم يأتِ بهَا الشرعُ، بَل هيَ مِنَ اختلاقِ أهلِ الأهواءِ، فينشغلُ عَنِ الهدفِ الأسمَىٰ.

وأهمُّ المهمَّاتِ الَّتِي يجبُ علَىٰ طالبِ العلمِ أَن يبدأَ بهَا ويقدِّمَهَا علَىٰ مَا سواهَا: أَن يدعوَ إِلَىٰ توحيدِ اللهِ وإفرادِهِ بالعبادةِ، لأنَّ هذَا هوَ سبيلُ المُرسَلينَ -عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ-، فمَا بعثَ اللهُ نبيًّا مِن أنبيائِهِ إلَّا مِن أجلِ هذهِ الغايةِ، لِعِظَمِ قدرِهَا، وأهميَّةِ تحقيقِهَا، ومَا بُعثَ نبيٌّ إِلَىٰ قومِهِ إلَّا ونادَىٰ بهِم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾(١)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٢).

ومَا سُلَّ السيفُ، وفُرِضَ الجهادُ، وسالَتِ الدماءُ، وقامَ سوقُ الجنَّةِ والنارِ، إلَّا مِن أجلِ تحقيقِ هذهِ الغايةِ.

وقَد أقامَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مكَّةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعوهُم إِلَىٰ التوحيدِ وإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وينادِي بهِم فِي كلِّ اجتماعٍ: «**قولُوا لَا إلهَ إلَّا اللهَ تُفلحُوا**»(٣).

فإذَا عرفَ طالبُ الحقِّ هذَا المطلبَ، نجحَ وأفلحَ، وسلكَ الطريقَ الَّتِي لَا يضلُّ سالكُهَا ولَا يزيغُ.

علَىٰ أنَّهُ لَا بدَّ أَن يُبيَّنَ للناسِ -ولَا سيَّمَا فِي هذهِ العصورِ لانتشارِ الجهلِ- حقيقةُ التوحيدِ ومَاهيَّتُهُ، ومعنَىٰ شهَادةِ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ، بأنَّ معناهَا أنَّهُ لَا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهَ،

---

(١) سورة الأعراف:٥٩.

(٢) سورة النحل:٣٦.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان» (٩/ ٢٨٢).

فلَا تُصرفُ عبادةٌ إلَّا لهُ سبحانَهُ، ومَن صَرَفَ نوعًا مِن أنواعِ العبادةِ مِن خوفٍ أَو رجاءٍ أَو توكُّلٍ أَو رغبةٍ أَو رهبةٍ أَو ذبحٍ أَو نذرٍ ونحوِ ذلكَ، لغيرِ اللهِ، فقَد أشركَ باللهِ واستحقَّ الخلودَ فِي النارِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾(١).

فلابدَّ مِن بيانِ هذَا الهدفِ أتمَّ بيانٍ وأوضَحَهُ، خصوصًا وأنَّ كثيرًا مِن دعاةِ الضلالةِ بدءُوا يفسِّرُونَ شهادةَ التوحيدِ بغيرِ معناهَا المرادِ، فحرَّفُوا الناسَ عَن جادَّةِ الحقِّ وسبيلِ الهدَىٰ.

وعلَىٰ طالبِ العلمِ أَن يتأدَّبَ بأدبِ الإسلامِ الَّذِي أرشدَت إليهِ نصوصُ الكتابِ والسنَّةِ، وأَن يتذوَّقَ محاسنَ الأخلاقِ الَّتِي تكونُ مِفتَاحًا إلَىٰ قلوبِ الخلقِ ووسيلةً لاجتذابِهِم إلَىٰ المنهجِ الحقِّ، لَا سيَّمَا فِي وقتٍ نَفَرَ فِيهِ كثيرٌ منَ الناسِ منَ الالتزامِ بسببِ الشبهاتِ المضلَّةِ والشهواتِ المرديَةِ، الَّتِي تدعوهُم فِي كلِّ وقتٍ وحينٍ قائلةً: «**هلمَّ إليَّ**».

ومَن نَظَرَ فِي سيرةِ المصطفَىٰ والنبيِّ المجتبَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأَىٰ فِي ذلكَ أعظمَ دليلٍ، فقَد كانَ معروفًا بالصدقِ ومكارمِ الأخلاقِ قبلَ أَن يُبعثَ، ولذلكَ لمَّا بُعثَ لَم يطعنُوا فِي أخلاقِهِ وسجاياهُ، بَل سُرعانَ مَا فتحَ اللهُ لهُ قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا.

ولذلكَ لمَّا جاءَهُ الملكُ بالوحيِ وضمَّهُ وقالَ لهُ: اقرأْ، رجعَ إلَىٰ خديجةَ وهوَ خائفٌ، وقالَ لهَا: «**زمِّلونِي، زمِّلونِي، فدثَّرُوهُ حتَّىٰ ذهبَ عنهُ الروعُ، فقالَ لخديجةَ -وأخبرهَا الخبرَ-: لقَد خشيتُ علَىٰ نفسِي**.

فقالَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **كلَّا واللهِ لَا يخزيكَ اللهُ أبدًا، إنَّكَ لتصلُ الرحمَ، وتحملُ الكَلَّ،**

---

(١) سورة المائدة:٧٢.

وتُكسبُ المعدومَ، وتقرِي الضيفَ، وتُعينُ علَىٰ نوائبِ الحقِّ»[1]، فوصفَتهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمكارمِ الأخلاقِ.

وكانَ يسمِّيهِ أهلُ الجاهليَّةِ: الصادقَ الأمينَ، ولمَّا جمعهُمُ للدعوةِ، قالُوا: مَا جرَّبنَا عليكَ الكذبَ، ومَن ردَّ دعوتَهُ فلَم يردَّهَا لأجلِ طعنٍ فِي أخلاقِهِ؛ بَل عُتوًّا واستكبارًا.

فالأخلاقُ والآدابُ مفتاحٌ لتبليغِ الدعوةِ إلَىٰ الناسِ، فيكونُ لفظُ المرءِ حسنًا، وفعلُهُ حسنًا حسَبَ الإمكانِ، ويجاهِدُ نفسَهُ فِي هذَا البابِ حقَّ الجهادِ، مُحتسبًا الأجرَ ومستشعرًا الغنيمةَ، فلعلَّكَ بأخلاقِكَ تقيمُ أخلاقَ الزوجةِ والأبناءِ، أَو تدعُو رجلًا بمَعروفٍ تُسديهِ إلَيهِ فيهتدِي، فيكونُ لكَ مِن وراءِ ذلكَ -بفَضلِ اللهِ ورحمتِهِ- مَا لَم يخطُر لكَ علَىٰ بالٍ، وربَّمَا دعَا المرءَ بفعلِهِ أكثرَ مِن قولِهِ، قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعلَّمُوا العلمَ وعلِّمُوهُ الناسَ، وتعلَّمُوا لهُ الوقارَ والسَّكينةَ، وتواضَعُوا لمَن تعلَّمتُم منهُ ولِمَن علمتمُوهُ، ولَا تكونُوا جبابرةَ العلماءِ، فلَا يقومُ جهلُكُم بعلمِكُم».

وقالَ مالكُ: إنَّ حقًّا علَىٰ مَن طلبَ العلمَ، أَن يكونَ لهُ وقارٌ وسكينةٌ وخشيةٌ، وأَن يكونَ متَّبِعًا لآثارِ مَن مضَىٰ قبلَهُ.

ولَا يعنِي كونُ المرءِ خَلُوقًا أَن يسكتَ عَن إنكارِ المنكرِ، ويقرَّ الباطلَ حتَّىٰ يُقالَ عنهُ خلوقٌ، فإنَّهُ لَا تضادَّ بينَ إنكارِ المنكرِ والتمسُّكِ بالآدابِ والأخلاقِ، فيكونُ أمرُهُ بالمعروفِ بمعروفٍ، وإنكارهُ للمنكرِ بغيرِ منكرٍ، فلَا يجفُو ولَا يغلُو.

فإذَا كانَ متأدِّبًا فِي طرحِهِ، قويًّا فِي حُجَّتِهِ، فمَا يضُرُّهُ بعدَ ذلكَ كلامُ مَن تكلَّمَ، وتشويهُ مَن شَوَّهَ، وليكُن همُّهُ رضَا اللهِ وحدَهُ، لَا شريكَ لَهُ ولَا معبودَ سواهُ، فلَا ينظرُ

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٣١).

إِلَىٰ فلانٍ أَو إِلَىٰ علَّانٍ، ولكُلِّ حالٍ مَا يَقتضيهِ، والموفَّقُ مَن وفَّقَهُ اللهُ لاتِّبَاعِ خيرِ الورَىٰ وصفوةِ الخلقِ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإِذَا أمرَ بالمعروفِ ونهَىٰ عنِ المنكرِ بكلِّ أدبٍ وحِكمةٍ ولَم يُتقَبَّل منهُ، فليحمَدِ اللهَ علَىٰ مَا وُفِّقَ إليهِ منَ الخيرِ، حينَ ضلَّ عنهُ كثيرٌ.

قالَ الحسَنُ البَصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السنِّيُّ يعرِضُ الحكمةَ؛ فإِن قُبلَت حمدَ اللهَ، وإِن رُدَّت حمدَ اللهَ».

إِن قُبلَت:حمدَ اللهَ لهدايةِ الخلقِ علَىٰ يديهِ، وإِن رُدَّت: حمدَ اللهَ أَن وفَّقَهُ اللهُ للحقِّ الَّذِي لَم يوفَّق لَهُ مَن دعاهُ إِليهِ.

وينبغِي لهُ بينَ ذلكَ أَن يتحسَّسَ نعمةَ اللهِ تعالَىٰ عليهِ أَن هداهُ، وأَن يرحمَ حالَ مَن لَم يوفَّق إِلَىٰ الخيرِ، فإِذَا بهِ يتأَرجحُ بينَ شُبهاتِ البِدَعِ، أَو ظلماتِ الآثامِ، معَ القيامِ بأمرِ اللهِ فيهِ، وحَمْدِ اللهِ الَّذِي عافاهُ مِن حالِهِ، وليستحضِر دائمًا قولَهُ تعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وليحذَر أَن يأخذَهُ الكبرُ والاغترارُ وكأَنَّهُ معصُومٌ، فيحتقرُ العصاةَ، وكأَنَّهُ كُتِبَت لَهُ النجاةُ بينَ يدَيِ اللهِ، وعليهِ بلزومِ التواضُعِ وحَمدِ اللهِ علَىٰ المنَّةِ الخالصةِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاجعَـل لِقَلـبِكَ مُقلَتَـينِ كِلاَهُمَـا	**بِالحَـقِّ فِـي ذَا الخَلـقِ نَاظِـرَتَانِ**
فَانظُـر بِعَـينِ الحُكـمِ وَارحَمهُـم بِهَـا	**إِذ لَا تُـرَدُّ مَـشِيئَةُ الـدَّيَّانِ**
وَانظُـر بِعَـينِ الأَمـرِ وَاحمِلهُـم عَلَـىٰ	**أَحكَامِـهِ فَهُمَـا إِذَن نَظَـرَانِ**

(١) سورة النساء: ٩٤.

وَاجعَل لِوَجهِكَ مُقلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِن خَشيَةِ الرَّحمَنِ بَاكِيَتَانِ
لَو شَاءَ رَبُّكَ كُنتَ أَيضًا مِثلَهُم ... فالقلبُ بَينَ أَصَابِعِ الرَّحمَنِ

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الحميدِ فِي وصفهِ وفِعلِهِ، الحكيمِ فِي خلقهِ وأمرهِ، الرحيمِ فِي عطائِهِ ومنعهِ، المحمودِ فِي خفضهِ ورفعهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لَهُ فِي كمَالِهِ وعظمتِهِ ومَجدِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ، أفضلُ مُرسَلٍ مِن عندهِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وجندِهِ.

أمَّا بعدُ:

فعلَىٰ طالبِ العلمِ إن أرادَ لدعوتِهِ المضيَّ قدمًا، وقطفَ ثمرةِ مَا غرسَهُ مِنَ الخيرِ والنبتِ المباركِ، أَن يكونَ رحيمًا بمَن سارَ معَهُ علَىٰ طريقِ التمسُّكِ بالآثارِ، والعملِ بهديِ الصادقِ المختارِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَا يكونُ فظًّا غليظًا فينْفِرُ منهُ القريبُ قبلَ البعيدِ، وليأخُذ بمَا أدَّبَ اللهُ سبحانَهُ بِهِ نبيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قالَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، فأوصاهُ بالتواضُعِ والرَّحمةِ لِمَن سارَ علَىٰ طريقِهِ، وأحقُّ مَن عملَ بهذَا الهديِ الواضحِ، مَنِ ادَّعَىٰ اتِّبَاعَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ تألُّفَ القلوبِ أعظمُ نِعمَةٍ، ألَم ترَ إلَىٰ امتنانِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علَىٰ نبيِّهِ أَن ألَّفَ

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٥-٢١٦.

القلوبَ عليهِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ومَن تأمَّلَ غربةَ إخوانِهِ بينَ أهلِ الشبهاتِ والشهواتِ، رأفَ بحالِهِم، ولَم يزِد غربَتَهُم، فلربَّمَا رأيتَ فِي الظاهرِ شخصًا قائمًا بأمرِ اللهِ فِي لباسهِ ومظهرِهِ، وهوَ منَ الداخلِ منهارٌ، يدافعُ الفتنَ وهيَ إليهِ أسرعُ، فتنةٌ فِي الشارعِ، وفتنةٌ فِي المنـزلِ، ضغطٌ نفسيٌّ، همومٌ متراكمةٌ، يحتاجُ إِلَىٰ يدٍ حانيةٍ تساعدهُ علَىٰ المسيرِ حتَّىٰ يبلغَ الهدفَ، فيأتيهِ الفظُّ الغليظُ فيسيءُ معاملتَهُ فيُعينُ الشيطانَ عليهِ.

فالرَّحمةَ الرَّحمةَ يَا مَن تُريدُونَ نصرةَ الخيرِ، وبثَّ الاعتقادِ الصحيحِ، واتباعِ هديِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ البشريَّةِ، **قالَ سفيانُ الثوريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «استوصُوا بأهلِ السُّنَّةِ خيرًا فإنَّهُم غرباءُ».

وعلَىٰ طالبِ العلمِ أَن يتجنَّبَ كلَّ خُلُقٍ دنيءٍ، وأعظمُهَا الحسدُ، الَّذِي يفسدُ القلوبَ، ويوغرُ الصدورَ، ويشتِّتُ الشملَ، ويبثُّ الفرقةَ.

فإذَا رأَىٰ أحدَ إخوانِهِ وقَد فتحَ اللهُ علَىٰ يديهِ فليفرَح لذلكَ، لأنَّ الهدفَ واحدٌ، وليستشعِر وكأنَّهُ هوَ مَن فتحَ اللهُ علَىٰ يديهِ، أمَّا إِن حسدَهُ فدعاهُ ذلكَ إِلَىٰ تنقُّصِهِ، وتنفيرِ الناسِ منهُ، وتزويرِ الحقائقِ، فحينئذٍ يعودُ الجهدُ إِلَىٰ شتاتٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(٢).

---

(١) سورة الأنفال: ٦١-٦٢.

(٢) سورة النساء: ٥٤.

فإذَا أيقنَ بأنَّ فَتْحَ اللهِ علَىٰ العبدِ مِنَّةٌ منَ اللهِ وفضلٌ، طفئَت نارُ الحسدِ الَّتِي تتقدُ فِي صَدرِهِ.

ومَا قادَ الناسَ إلَىٰ حبِّ الرئاسةِ والظهورِ إلَّا الحسدَ، وامتلاءَ القلبِ منَ الغلِّ، فكَم منَ الناسِ مَن يدفعُهُ الحسدُ إلَىٰ حبِّ الترؤُّسِ، فيريدُ أَن يكونَ رأسًا يرجعُ الناسُ إليهِ، يدفعهُ لذلكَ الحسدُ واحتقارُ الناسِ، حتَّىٰ لربَّمَا فتحَ أبوابَ البدعِ والأقوالِ الشاذَّةِ، ودفعَهُ ذلكَ لتركِ طلبِ العلمِ مخافةَ أَن يُقالَ: فلانٌ الَّذِي يَعُدُّه الناسُ شيخًا يطلبُ العلمَ، فيستمرُّ فِي جهلهِ ويستكبرُ أَن يسألَ، فإذَا بهِ بعدَ فترةٍ وقَد فتحَ بابَ الشبهاتِ علَىٰ الناسِ، قالَ أبُو العتاهيةَ:

أأُخَيَّ مِن عَشِقَ الرِّئَاسَةَ خِفتُ أَنْ ... يطغَىٰ وَيُحدِثَ بِدعَةً وَضَلَالَا

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا مِن أحدٍ أحبَّ الرئاسةَ، إلَّا حسدَ وبغَىٰ وتتبَّعَ عيوبَ الناسِ، وكرِهَ أَن يُذكَرَ أحدٌ بخيرٍ.

ولذَلِكَ لَو نظَرتَ إلَىٰ مَن فتحَ اللهُ علَىٰ أيديهِم، وهدَىٰ لَهُم قلوبَ الناسِ، لرَأيتَهُم أكثرَ الناسِ تَوَاضُعًا وطهَارَةً للقلوبِ منَ الحَسدِ والغلِّ والضَّغِينَةِ، ولَم يمنَعْهُم مَا بلغوهُ منَ المنزلةِ، وامتلاءِ صدورِهِم منَ العلمِ أَن يتواضَعُوا، فوفَّقَهُمُ اللهُ بسببِ ذلكَ إلَىٰ أَن سخَّرَ لَهُمُ الخَلقَ فانتفعُوا بِهِم، يقولُ عبدُ العزيزِ بنُ حازمٍ: «سمعتُ أبِي يقولُ: العلماءُ كانُوا فيمَا مضَىٰ منَ الزمانِ، إذَا لقيَ العالمُ مَن هوَ فوقَهُ فِي العلمِ كانَ ذلكَ يومَ غنيمةٍ، وإذَا لقيَ مَن هوَ مثلهُ ذاكرَهُ، وإذَا لقيَ مَن هوَ دونَهُ لَم يزْهُ عليهِ -أَي: لَم يتكبَّر-، حتَّىٰ جاءَ هذَا الزمانُ، فصارَ الرجلُ يعيبُ مَن هوَ فوقَهُ ابتغاءَ أَن ينقطعَ منهُ، حتَّىٰ يَرَىٰ الناسُ أنَّهُ ليسَ بهِ حاجةٌ إليهِ، ولَا يذاكرُ مَن هوَ مثلُهُ، ويزهَىٰ علَىٰ مَن هوَ دونِهِ؛ فهَلَكَ الناسُ».

وعلَىٰ طالبِ العلمِ أَن يجتنبَ الكَذبَ، ونقلَ الكلامِ بينَ الناسِ علَىٰ غيرِ وجهِ التثبُّتِ، فإنَّهُ منَ الكذبِ، وقَد قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكُم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يهدِي**

إِلَىٰ الفجُورِ، وإِنَّ الفجُورَ يَهدِي إِلَىٰ النَّارِ، ولَا يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّىٰ الكذبَ، حتَّىٰ يُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّابًا»(١).

فالكذِبُ مِن أعظمِ الآثامِ، ومِن مسَاوئِ الأخلاقِ، وقَد كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يترفَّعُونَ عنهُ، حتَّىٰ قالَ أبُو سفيانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ -وقَد كانَ مُشرِكًا-: «كنتُ امرأً سيدًا أترفعُ عنِ الكذبِ».

وليحذَر إِن أبغضَ شخصًا أَن يفتريَ عليهِ، أَو ينقلَ عنهُ مَا يعلمُ أنَّهُ بريءٌ منهُ لأنَّهُ يبغضُهُ.

فمَن أرادَ نجاحَ دعوتِهِ فعليهِ بالصدقِ، فإِنَّ اللهَ يفتحُ عليهِ أبوابَ النعمِ والكراماتِ، وأمَّا الكاذبُ، فإِنَّهُ وإِن طالَ بهِ الزمنُ فسيفتضِحُ يومًا مَا، وعذابُ اللهِ أخزَىٰ، ومثلُ هذَا لَا يؤخَذُ عنهُ العلمُ؛ لأنَّ مَن لَم يُفِدْهُ مَا ادَّعَاهُ منَ الطلبِ، ولَم يورِّثْهُ خشيةً وإنابةً فلَا خيرَ فيهِ، **قالَ الإمامُ مالكٌ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يؤخَذُ العلمُ عَن رجلٍ معروفٍ بالكذبِ فِي أحاديثِ الناسِ، وإِن كانَ لَا يكذبُ علَىٰ الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

مِن أجلِ ذلكَ فإِنَّكَ تجدُ مَن تميَّزَ بالصدقِ قَد جعلَ اللهُ لهُ إجلالًا ومهابةً حتَّىٰ فِي قلوبِ مُخَالِفيهِ، بعكسِ الكذَّابِ الَّذِي أذلَّهُ اللهُ بذَنبِهِ، وسرعانَ مَا يبوءُ بالخزيِ والاندحارِ، **قالَ ابنُ القيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والكذبُ لهُ تأثيرٌ عظيمٌ فِي سوادِ الوجهِ، ويكسوهُ بُرقعًا منَ المقتِ، يراهُ كلُّ صادقٍ، فسِيمَا الكاذبِ فِي وجهِهِ يُنادَىٰ عليهِ لمَن لهُ عينَانِ، والصَّادقُ يرزقهُ اللهُ مَهابةً وجلالةً، فمَن رآهُ هابَهُ وأحبَّهُ، والكاذبُ يرزقُهُ اللهُ إهانةً ومقتًا، فمَن رآهُ مَقَتَهُ واحتقَرَهُ.

نسألُ اللهَ تعالَىٰ أَن يجعلَنَا منَ الدعاةِ إِلَىٰ توحيدِ اللهِ بالعبادةِ، وإفرادِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بالمتابعةِ، وأَن يجعلنَا هداةً مهتدينَ غيرَ ضالِّينَ ولَا مضلِّينَ.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٢١).

(٣١) فقدُ الأحبَّةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي أوجدَ الكونَ مِن عدَمٍ ودبَّرهُ، وخلقَ الإنسانَ مِن نطفةٍ فقدَّرَهُ، ثمَّ السبيلَ يسَّرهُ، ثمَّ أماتَهُ فأقبرَهُ، ثمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدهِ ورسولهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ، ومَنِ استنَّ بسُنَّتهِ، واهتدَىٰ بهَديهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مَن يعِش فِي هذهِ الدنيَا يَرَ مِن عجائبِ الزمانِ صورًا، ومِن حوادثِ الأيَّامِ عِبرًا، وكلَّمَا طالَ بهِ الأمدُ، فإذَا بهِ يطوِي المرحلةَ تلوَ المرحلةِ، حتَّىٰ يصلَ إلَىٰ الغايةِ الَّتِي عندهَا منتهَىٰ أجلِهِ، وانقطاعِ أملِهِ.

وإنَّهُ بيَّنَ ذلكَ ليَمُرُّ بمَحطَّاتِ الاختبارِ والامتحانِ، فمرَّةً ينجُو ويَسلَمُ، ومرَّةً يُصَابُ فِي مَقتلٍ، وكُلَّمَا كانَ إيمَانُ العبدِ باللهِ أقوَىٰ، كانَ بلاؤُهُ أشدَّ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُبتلَىٰ المرءُ علَىٰ حَسَبِ دينِهِ، فإِن وُجدَ فِي دِينهِ رقَّةٌ خُفِّفَ عنهُ، وإِن وُجدَ فِي دينِهِ صَلابةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ**»(١).

ومَا هذَا الابتلاءُ إلَّا مِن أجلِ تَطهيرِ العبدِ منَ الذنُوبِ، ولَا يزالُ الابتلاءُ بهِ حتَّىٰ يأتيَ يومَ القيامةِ وقَد كُفِّرَت سيئاتُهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمُؤمِنةِ فِي نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ حتَّىٰ يلقَىٰ اللهَ ومَا عليهِ خَطيئَةٌ**»(٢).

والفائزُ الحقُّ عندَ هَيجَانِ عواصِفِ الابتلاءِ، مَن قويَ باللهِ يقينُهُ، واطمأنَّ قلبُهُ

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٣).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٠).

لأقدارِ اللهِ، وعلمَ أنَّ كلَّ شيءٍ بقدرٍ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وعلَىٰ تنوُّعِ الابتلاءاتِ الَّتِي تمرُّ بالعبدِ، فإنَّهُ مأمورٌ بالصبرِ علَىٰ كلِّ حالٍ، لأنَّ فِي الصبرِ تسليةً للمصابِ، وتهدئةً للنفوسِ، وبعثًا للطمأنينةِ فِي قلبِ العبدِ.

وإنَّ مِن أعظمِ مَا يُبتلَىٰ بِهِ المرءُ، فقدَ الأحبَّةِ مِن قريبٍ أَو صاحبٍ.

وَمَا الدَّهرُ إِلَّا هَكَذَا فَاصطَبِر لَهُ ... رَزِيَّةُ مَالٍ أَو فِرَاقُ حَبِيبِ

فبينمَا يعيشُ المرءُ فِي كنفِ والدِهِ، يَغذُوهُ بالحَنانِ، ويمُدُّهُ بالعطفِ، ويُعَلِّمهُ كيفَ يعيشُ فِي هذهِ الدنيَا علَىٰ خيرِ حَالٍ، فإذَا بالمَوتِ يَخطفُهُ، وإذَا بِهِ قَد أقامَ تحتَ الجَنادلِ وحيدًا، قَد خلَّفَ كلَّ شيءٍ وراءَهُ، ولَم يأخُذ مَعهُ إلَّا عمَلَهُ، وإذ بذلكَ الابنِ الَّذِي كانَ لَا يعرفُ الهَمَّ حمَلَ همَّ أسرةٍ فقدَت عائلَهَا، فراحَ يكابدُ عناءَ المعيشةِ، وإذَا بفراغٍ يخيِّمُ علَىٰ قلبِهِ كلَّمَا علمَ أنَّهُ فقدَ بابًا مِن أبوابِ البرِّ، وطريقًا إلَىٰ الأجرِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّةِ، فإن شئتَ فأَضِع ذلكَ البابَ أَوِ احفَظهُ**»[2].

فقَد كانَ يطمعُ أَن يلجَ الجنَّةَ مِن خلالِ ذلكَ البابِ برًّا وإحسانًا، فإذَا بِهِ يفقدُهُ، وكَم هيَ حسرةٌ إِن لَم يكُن قَد أحسنَ معاشرةَ أبيهِ فِي حياتِهِ!

وآخرونَ افتقدُوا نبعَ الحنانِ الَّذِي لَا ينضبُ، مِن والدةٍ كانَت ترعَىٰ الصغيرَ حتَّىٰ كَبِرَ، وتأمَلُ أَن يكونَ لهَا متَّكئًا عندَ النوائبِ، تُعَلِّمُهُ الوصلَ بإخوانِهِ، والرحمَةَ بأخواتِهِ، تسهرُ لينامَ، وتتعبُ ليرتاحَ، لَا تسأمُ ولَا تملُّ.

وفجأةً فإذَا بهَا تودِّعُ الدنيَا، مخلِّفةً قلوبًا منكسرةً، وأكبادًا متصدِّعةً، لَا يُعلَمُ علَىٰ

---

(١) سورة القصص: ٦٨.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩١٤).

أيِّ حالٍ يَكُونونَ.

فإذَا بالولدِ يحتاجُ إِلَىٰ مستندٍ، وإذَا بالبنتِ يُخافُ عليهَا الضيعةَ إِن لَم تَجِد أبًا أَو أخًا قويًّا ناصحًا، وإذَا بالأبناءِ قَدِ افتقدُوا سُلَّمًا إِلَىٰ الجنةِ وجسرًا موصلًا إليهَا، جاءَ رجلٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «**يَا رسولَ اللهِ، أردتُ أَن أغزوَ وقَد جئتُ أستشيرُكَ، فقالَ: هَل لكَ مِن أمٍّ؟. قالَ: نعَم. قالَ: فالزَمهَا فإنَّ الجنَّةَ تحتَ رِجْليهَا**»(١).

وحقٌّ علَىٰ مَن عَلِمَ أَنَّ برَّها كنزٌ موصِلٌ إِلَىٰ الجنَّةِ، أَن يحزنَ علَىٰ خُسرانِ مَا يرجوهُ منَ البرِّ والخيرِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وأَن يكونَ هذَا دافعًا لحُسنِ صُحبتِهَا فِي الدنيَا.

وَأُمُّكَ كَم بَاتَت بِثُقْلِكَ تَشتَكِي ... تُوَاصِلُ مِمَّا شَقَّهَا البُؤسَ وَالغَمَّا
وَفِي الوَضعِ كَم عَانَت وَحِينَ فِطَامِهَا ... مُذِيبًا يَشُقُّ الجِلدَ وَاللَّحمَ وَالعَظمَا
وَكَم سَهِرَتْ وَجدًا عَلَيكَ جُفُونُهَا ... وَأَكبَادُهَا لَهفًا بِجَمرِ الأَسَىٰ تَحمَىٰ
وَكَم غَسَلَت عَنكَ الأَذَىٰ بِيَمِينِهَا ... حُنُوًّا وَإِشفَاقًا وَأَكثَرَتِ الضَّمَّا

وآخرُ قَدِ افتقدَ زوجةً كانَت عنوانًا فِي الأدبِ، ورأسًا فِي العفَّةِ والسلوكِ الحسَنِ، ومُقدَّمةً فِي الصلاحِ، تحوطُهُ بنصحِهَا وخدمتِهَا، ولَا تقصِّرُ فِي مطالبِهِ، وتعينُهُ علَىٰ صلةِ رَحِمهِ، تتودَّدُ إليهِ طاعةً للهِ، لَا تُفشِي سرَّهُ، ولَا تُظهرُ أمرَهُ.

فبينمَا هيَ كذلكَ إِذ باغَتهَا الأجلُ، فإذَا بهِ وحيدًا مِن أنيسٍ، وحولَهُ أطفالٌ يُخشَىٰ عليهِمُ الضياعُ بينَ يدَي نسَاءٍ لَا يعرفنَ احتسابَ الأجرِ، ولَا جرَّبنَ حلاوةَ الصبرِ.

لَعَمرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقدُ مَالٍ ... وَلَا فَرسٌ يَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرَّزِيَّةَ فَقدُ حُرٍّ ... يَمُوتُ لِمَوتِهِ خَلقٌ كَثِيرُ

وآخرُ قَدِ افتقَدَ ابنًا كانَ يراهُ يترعرعُ بينَ يديهِ، كلَّمَا كبرَ رأَىٰ أحلامَهُ فيهِ تكبُرُ،

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٨٥).

وبينَمَا هوَ يراهُ كالشجرةِ اليانعةِ، فِي كلِّ يومٍ تزدادُ أغصانُهَا زهوًا، وعذوقُهَا ثمرًا، وبينمَا يرَىٰ ابنًا بارًّا بهِ، يقومُ بخدمتِهِ، ويتَّكِئُ عليهِ عندَ الملمَّاتِ والضَّعفِ.

فجأةً! فإذَا بالموتِ يخترمُهُ، وإذَا بهِ قَد تصدَّعَ قلبُهُ، وعادَ فراغًا بعدَ أَن كانَ مُغتَبِطًا بهِ فرحًا، وقَد عظمَ عليهِ المصابُ، وكادَ أَن يفقدَ صوابَهُ، لكنَّهُ أيقنَ بموعودِ اللهِ وصدَّقَ بوعدهِ، فإذَا بهِ صابرًا محتسبًا؛ لِمَا عَلِمَ مِن أجرِ الصبرِ علَىٰ فقدِ الأحبَّةِ.

قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا مَاتَ ولدُ العبدِ قالَ اللهُ تعالَىٰ لملائكتِهِ: قبضتُم ولدَ عبدِي؟ فيَقُولونَ: نَعَم، فيقولُ: قبضتُم ثمرَةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعَم، فيقولُ: ماذَا قالَ عبدِي؟ فيقولونَ:حمِدَكَ واسترجَعَ، فيقولُ اللهُ تعالَىٰ: ابنُوا لعبدِي بيتًا فِي الجنةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمدِ**»[1].

وكانَ رجلٌ يأتِي النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعَهُ ابنٌ لهُ، فقالَ لهُ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتحبُّهُ؟، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، أحبَّكَ اللهُ كمَا أحبُّهُ، ففقدَهُ النبيُّ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقالَ: مَا فعلَ ابنُ فلانٍ؟، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ماتَ. فقالَ رسولُ اللهِ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أمَا تحبُّ ألَّا تأتِي بابًا مِن أبوابِ الجنَّةِ إلَّا وجدتَهُ ينتظرُكَ؟، فقالَ رجلٌ: يَا رسولَ اللهِ، لَهُ خاصَّةً أَم لِكُلِّنَا؟ قالَ: بَل لكُلِّكُم**»[2].

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَمُوتُ لهُ ثلاثةٌ لَم يبلُغُوا الحِنثَ إلَّا أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ بفضلِ رحمتِهِ إيَّاهُم**»[3].

ومنَ الناسِ مَن يَفقِدُ أخًا، كانَ عونًا لَهُ علَىٰ مُلِمَّاتِ الحوادثِ، وَصُولًا لرَحِمِهِ، باذلًا نفسَهُ فِي سبيلِ تحقيقِ راحتِهِ، قَد رضعَا مِن ثَديٍ واحدٍ، وعاشَا إلفَينِ متآلِفَينِ،

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠١٢).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠٠٧).

(٣) رواه البخاري (١١٧١)، ومسلم (٤٧٦٨).

كلٌّ منهمَا يُعِدُّ أخَاهُ ليومِ حاجتِهِ، يستأنسُ بهِ فِي الوحشةِ، ويخلفهُ فِي الغربةِ، وإذ بالموتِ يخطفُهُ، وإذ بهِ خاوِي اليدينِ منهُ، وقَد صارَ وحيدًا بعدَ اجتماعٍ، ضعيفًا بعدَ قوَّةٍ ومنعةٍ، مستهدفًا بعدَ تخوُّفٍ، وكَم يزدادُ استيحاشُهُ إذَا كانَ ذَا طاعةٍ لربِّهِ، وسلوكٍ حسنٍ واستقامةٍ علَىٰ دينٍ.

لمَّا استُشهِدَ زيدُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شقيقُ عمرَ بنِ الخطابِ الأكبرِ -وهوَ مِن عُبَّادِ الصحابةِ الأتقياءِ البررةِ- لمَّا استُشهِدَ يومَ اليمامةِ حزنَ عليهِ عمرُ كثيرًا، وكانَ كثيرًا مَا يتذكَّرُهُ ويقولُ: «مَا هَبَّت ريحُ الصبَا إلَّا وأنَا أجدُ ريحَ زيدٍ».

ومنَ الناسِ مَن يفقدُ صديقًا، كانَ مؤنسًا لهُ فِي الوحشةِ، ومعينًا علَىٰ الطاعةِ، يقوِّيهِ إذَا ضَعُفَ، ويرشدُهُ إلَىٰ سبلِ الخيرِ، ويسهِّلُ لهُ طرقَهُ، قَدِ اجتمعَا علَىٰ الطاعةِ وحسنِ القصدِ.

وفجأةً! إذ بالأجلِ يباغتُ صاحبَهُ، فِي زمنٍ قلَّ فيهِ الأصدقاءُ الناصحونَ، والأحبةُ المخلصونَ المُعِينُونَ علَىٰ طاعةِ اللهِ، وإذَا بهِ قَد فقدَ مَن فِي فقدِهِ أبلغُ التأثيرِ.

فكَم هوَ شديدٌ علَىٰ النفسِ أَن تفقدَ ذَا تُقًىٰ، يهتدِي بهِ الضُّلَّالُ، ويستأنسُ بهِ المستوحشونَ، ويسترشدُ بهِ الحيارَىٰ.

إِلَىٰ اللَّـهِ أَشـكُو لَا إِلَـىٰ النَّاسِ إِنَّنِي ... أَرَىٰ الأرضَ تُطـوَىٰ وَالأَخِـلَّاءُ تَـذهَبُ

وهكذَا تتنوَّعُ الابتلاءاتُ فِي هذَا البابِ، وكلٌّ يفقدُ شخصًا يحبُّهُ ويودُّهُ ويألفُهُ، ولكنَّ المصيبةَ العظمَىٰ أنَّ كثيرًا منَّا مفرِّطٌ فِي حقوقِ أحبَّتِهِ فِي حياتِهِم، فإذَا رحلُوا عنِ الدنيَا بكَىٰ وتألَّمَ، وتمَنَّىٰ أَن لَو كانَ كذَا وكذَا.

فمَا دُمنَا فِي زمنِ الإمهالِ، فلماذَا لَا نُحسِنُ لأحبتِنَا ونعملُ معهُم فِي هذهِ الحياةِ، الَّذي طالمَا تمنَّينَا فعلَهُ حينَ يُغَيَّبونَ عَن أعينِنَا تحتَ الثَّرَىٰ؟!

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن نعمِ اللهِ علَىٰ المؤمنِ، أَن يعلمَ أنَّهُ فِي دارِ اختبارٍ، فيورثُهُ ذلكَ يقينًا لَا ينقطعُ، ومَنِ ابتُلِيَ بفقدِ الأحبَّةِ فليعلَم أنَّ أعظمَ مَا يعالِجُ الإنسانُ فيهِ نفسَهُ ويسلِّي قلبَهُ، اليقينُ بأنَّ مَا قدَّرَهُ اللهُ كائنٌ لَا محالةَ، وأنَّهُ لَا يُرَدُّ شيءٌ مِن قضاءِ اللهِ وقدرِهِ، وأَنَّ مَا أصابَهُ لَم يكُن ليخطِئَهُ، ومَا أخطأَهُ لَم يكُن ليصِيبَهُ، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[(١)].

فإذَا علِمَ هذَا الأصلَ العظيمَ؛ أورثَهُ ذلكَ الصبرَ علَىٰ الأقدارِ المُؤلِمَةِ، ووجدَ بالصبرِ علاجَهُ وراحتَهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[(٢)].

فَلِعِظَمِ مَنزِلَةِ الصبرِ جعلَ اللهُ تعالَىٰ لعبدِهِ هذَا الأجرَ العظيمَ، مِن ثنائِهِ عليهِ ورحمتِهِ لهُ، وجعْلِهِ مهتديًا، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[(٣)].

وقَد أرشدَنَا نبيُّنَا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذَا الخُلُقِ الحسنِ الَّذِي لَا يأتِي إلَّا بخيرٍ، وقَد

(١) سورة الحديد: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.

(٣) سورة الزمر: ١٠.

حثَّ عليهِ بقولِهِ وفعلِهِ وسيرتِهِ، مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بامرأةٍ تبكِي عندَ قبرٍ فقالَ: «اتَّقِي اللهَ واصبرِي. فقالَت: إليكَ عنِّي، فإنَّكَ لَم تُصَب بمصيبتِي -ولَم تعرِفهُ- فقيلَ لهَا: إنَّهُ النبيُّ ﷺ، فأتَت بابَ النبيِّ ﷺ فلَم تجِد عندَهُ بوَّابينَ، فقالَت: لَم أعرِفكَ! فقالَ: إنَّمَا الصبرُ عندَ الصَّدمَةِ الأولَىٰ»[١].

وقالَ ﷺ: «مَا أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ منَ الصبرِ»[٢].

ومَن أصابَتهُ مصيبةٌ أَو فَقَدَ حبيبًا، فليتذكَّر مصيبتَهُ بالنبيِّ ﷺ، قالَ ﷺ: «مَن أصابَتهُ مصيبةٌ فليتذكَّر مصيبَتَهُ بِي، فإنَّهَا مِن أعظمِ المصائبِ»[٣].

فموتُهُ ﷺ أعظمُ مصيبةٍ وقعَت علَىٰ الأمَّةِ، لأنَّ بموتِهِ انقطعَ الوحيُ، وظهرَ الشرُّ، وانتشرَتِ الفِتَنُ، وكانَ أوَّلُ انقطَاعِ الخيرِ وأوَّلُ نُقصَانِهِ، ورُفِعَتِ الأمنةُ الَّتِي كانَت بوجودِهِ، ودبَّ التفرُّقُ والتشتُّتُ، وكَثُرَ التخبُّطُ.

قالَ أنسٌ رضي الله عنه: «لمَّا دخلَ النبيُّ ﷺ المدينةَ أضاءَ منهَا كلُّ شيءٍ، ولمَّا ماتَ ﷺ أظلمَ منهَا كلُّ شيءٍ، ومَا نفضنَا أيدِينَا مِن قبرِ الرسولِ ﷺ -وإنَّا لفِي دَفنِهِ- حتَّىٰ أنكرنَا قلوبَنَا»[٤].

اصْبِر لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ ... واعلَم بِأَنَّ المَرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا ذَكَرتَ مُحَمَّدًا وَمُصَابَهُ ... فَاجعَل مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وإذَا احتسبَ العبدُ الأجرَ، ورُزِقَ الصبرَ، فقَد هانَت عليهِ مصيبتُهُ، وإذَا تذكَّرَ معافاةَ اللهِ لهُ فِي جوانِبَ كثيرةٍ مِن حياتِهِ، حمِدَ اللهَ أَن لَم تكُن بَلوَاهُ أعظَمَ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (١٥٣٤).
(٢) رواه البخاري (١٣٧٦)، ومسلم (١٧٤٥).
(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٦).
(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٩٦٢).

جاءَ عَن عروةَ بنِ الزبيرِ -وكانَ عابدًا تقيًّا- أَنَّهُ قَد وقعَت فِي رجِلِهِ الآكِلَةُ -وهوَ فِي سفرٍ-، فدُعِيَ لهُ الطبيبُ فقطعَ رجلَهُ مِن نصفِ الساقِ، فمَا سُمعَ لهُ حِسٌّ مِن صبرِهِ، ثمَّ جاءهُ الخبرُ بوفاةِ ابنِهِ محمَّدٍ، وطئَتهُ بغلةٌ فِي إسطبَلٍ فلَم يُسمَع منهُ فِي ذلكَ كلمةٌ، فلمَّا رجعَ قافلًا، قالَ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾[1]، اللهُمَّ كانَ لِي بنُونَ سبعةٍ فأخَذتَ واحِدًا وأبقيتَ لِي ستَّةً، وكانَ لِي أطرافٌ أربعةٍ، فأخذتَ واحدًا وأبقيتَ لِي ثلاثةً، ولَئن ابتَليتَ لقَد عافيتَ، ولَئِن أخَذتَ لقَد أبقَيتَ.

ومَن فقدَ حَبيبًا فليتذكَّر قولَهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: مَا لعَبدِي المُؤمنِ عندِي جزاءٌ إذَا قبَضتُ صفيَّهُ -حبيبَهُ- مِن أهلِ الدنيَا ثمَّ احتسبَهُ إلَّا الجنَّةُ**»[2].

ومَن علمَ أنَّ الأرواحَ إنَّمَا هيَ أمانَةٌ فِي يدِ العبدِ، وأنهَا لا بدَّ أَن تُرَدَّ إلَىٰ خالقِهَا، وعلمَ أنَّهُ ليسَ بمُخلَّدٍ هانَت علَيهِ مُصيبتُهُ، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[3].

وقَد يبكِي العَبدُ مِن أجلِ فقدِ حَبيبٍ ارتحلَ عَن هذهِ الدنيَا، ولكِن أما سأَلَ نفسَهُ كيفَ كانَ حالُهُ معَهُ فِي حياتِهِ؟

أكانَ يبَرُّ أمًّا وأبًا، ويصِلُ أختًا وأخًا، ويرحمُ زوجًا، ويشفقُ علَىٰ ابنٍ، ويودُّ صديقًا، أَم أنَّ العبدَ لَا يتذكرُ هذهِ الصِّلاتِ إلَّا فِي حَالِ المَوتِ والمُفارَقَةِ؟!

هَل قُمنَا بواجبِ النصحِ لأحبتنَا فِي حيَاتِهِم، حتَّىٰ إذَا ماتُوا وبكيناهُم نبكِي علَىٰ فِراقِهِم، ولَا نبكِي لأننَا لَا ندرِي علَىٰ أيِّ حالٍ سيكونونَ فِي قبورِهِم، وقَد كانُوا فِي

---

(١) سورة الكهف:٦٢.

(٢) رواه البخاري (٥٩٤٤).

(٣) سورة آل عمران:١٨٥.

هذهِ الدنيَا مُسرِفينَ.

هذَا وإنَّ الأحبَّةَ أحوجُ مَا يكونونَ فِي قبورِهِم إلَىٰ أعمالِ الخيرِ، الَّتِي تُرفعُ بهَا الدرجَاتُ، وتُمحَىٰ بهَا السيئاتُ مِن صدقةٍ ودعاءٍ وإحسانٍ، فلَا تبخلُوا بمَا تستطيعونَ.

ومَن كانَ باكيًا، فليبكِ علَىٰ نفسهِ، ومَا رحيلُ هؤلاءِ الأحبَّةِ إلَّا إنذارٌ لنَا، بأنَّنَا قريبٌ عَن هذهِ الدنيَا راحلونَ، ولهَا مُفَارقونَ، فهَل أحسنَّا العَملَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(١).

وقالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جاءنِي جبريلُ فقالَ: يَا محمَّدُ، عِش مَا شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ، وأحبِب مَن شئتَ فإنَّكَ مفارقُهُ، واعمَل مَا شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ**»(٢).

نَبكِي عَلَىٰ الدُّنيَا وَمَا مِن مَعشَرِ   جَمَعَتهُمُ الدُّنيَا فَلَم يَتفَرَّقُوا

فهَل قدَّمنَا بينَ أيدينَا منَ الأعمالِ الصالحةِ مَا يكونُ سببًا فِي نجاتِنَا؟

هَل سينفعنَا فِي قبورنَا دمعةٌ تُذرفُ، أَو قلبٌ يَئنُّ وينزفُ؟

لَا واللهِ! كلُّ هذَا يزولُ ويتلاشَىٰ ويُنسَىٰ، ولَا يبقَىٰ فِي القبورِ إلَّا العملَ، فهَل أخذَنا معنَا منَ الأعمالِ الصالحةِ مَا تُنوِّرُ بهِ القبورُ وتوسَّعُ، وتكونُ خيرَ أنيسٍ، أَم أنَّنَا لَا زلنَا نخوضُ فِي الغفلةِ، رجاءَ أَن يُحسِنَ إلينا مَن بعدنَا، وقَد لَا يُحسِنُ، وقَد يُحسنُ ولَا يُقبَلُ؟!

ومَن هانَت عليهِ نفسُهُ وضيَّعَهَا، كانَت علَىٰ غيرِهِ أهْوَن.

❊❊❊

---

(١) سورة الزمر: ٣٠-٣١.

(٢) رواه الطيالسي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

(٣٢) فتنةُ الْمَسيحِ الدجالِ

الحمدُ للهِ الَّذِي جعلَ الشريعةَ محتويةً علَىٰ الهدَىٰ والنورِ، وأوصلَ مَنِ استرشدَ بكلامِهِ وكلامِ رسولِهِ إِلَىٰ كلِّ خيرٍ وسرورٍ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ فِي ألوهيتِهِ وربوبيتِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ بريَّتِهِ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ علَىٰ محمدٍ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ القائمينَ بحقوقِهِ ونصرتِهِ.

أمَّا بعدُ:

فعَن حذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**اطَّلعَ علينَا النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ونحنُ نتذاكرُ، فقالَ: مَا تذاكرونَ؟ قالُوا: نذكرُ الساعةَ. قالَ: إنَّهَا لَن تقومَ حتَّىٰ ترَوا قبلهَا عشرَ آياتٍ، فذكرَ الدخانَ، والدجَّالَ، والدابَّةَ، وطلوعَ الشمسِ مِن مَغربِهَا، ونزولَ عِيسَىٰ بنِ مَريمَ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ، خسفٌ فِي المشرقِ، وخسفٌ فِي المغربِ، وخسفٌ فِي جزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلكَ نارٌ تخرجُ منَ اليمنِ تطردُ الناسَ إلَىٰ محشَرِهِم**»(١).

ففِي هذَا الحديثِ العظيمِ ذَكَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علاماتِ الساعةِ الكبرَىٰ الَّتِي تسبقُ قيامَ الساعةِ، والَّتِي إذَا ظهرَتِ الأولَىٰ منهَا، تتابعَتِ البقيةُ علَىٰ إثرِهَا سريعًا، كتساقُطِ حبَّاتِ العِقدِ إذَا انقطعَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأماراتُ خرزاتٌ منظوماتٌ فِي سلكٍ، فإِن يُقطَعِ السِّلكُ يتبعُ بعضُها بَعضًا**»(٢).

وقَد ذكرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي علاماتِ الساعةِ أعظمَ فتنةٍ فِي تاريخِ البشريَّةِ،

---

(١) رواه مسلم (٥١٦٢).

(٢) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٦٢).

وهيَ فتنةُ المسيحِ الدجَّالِ، الَّتِي تقلبُ الموازينَ، وتطيشُ أمامَهَا العقولُ، ولَا يثبتُ فيهَا إلَّا مَن ثبَّتَهُ اللهُ تعالَىٰ رحمةً منهُ وفضلًا؛ ولذلِكَ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بينَ خلقِ آدمَ إلَىٰ قيَامِ السَّاعةِ خلقٌ أكبرُ منَ الدجَّالِ**»(١).

ولِعِظَمِ فِتنَتِهِ فقَد حذَّرَ جميعُ الأنبياءِ -عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ- أقوامَهُم منهُ، وكانَ نبيُّنا الكريمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناصحُ الأمينُ، أكثرَ تحذيرًا لأمَّتِهِ منهُ؛ لأنَّهُ يخرجُ فيهِم، قالَ: «**إنِّي لأنذركمُوهُ، مَا مِن نبيٍّ إلَّا أنذرَهُ قومَهُ، لقَد أنذرَهُ نوحٌ قومَهُ، ولكنِّي سأقولُ لكُم فيهِ قولًا لَم يقُلهُ نبيٌّ لقومِهِ، إنَّهُ أعورُ وإنَّ اللهَ ليسَ بأعْوَرَ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بُعثَ نبيٌّ إلَّا أنذرَ أمَّتهُ الأعورَ الكذَّابَ، ألَا إنَّهُ أعورُ، وإنَّ ربَّكُم ليسَ بأعورَ، وإنَّ بينَ عينيهِ مَكتُوبٌ كَافرٌ**»(٣).

وسُمِّيَ المسيحَ؛ لأنَّ إحدَىٰ عينيهِ ممسوحةٌ، والدجَّالُ هوَ المموِّهُ الكذَّابُ، سُمِّيَ بذلكَ لأنَّهُ يغطِي الحقَّ بالباطلِ، أَو لأنَّهُ يغطِّي علَىٰ الناسِ كفرَهُ بكذبِهِ وتَمويهِهِ وتلبيسِهِ عليهِم، وهوَ يَفتِنُ الناسَ بمَا يُعطاهُ منَ الآياتِ الَّتِي أجرَاهَا اللهُ علَىٰ يديهِ ابتلاءً للبشَرِ، كإنزالِ المَطرِ، وإحيَاءِ الأرضِ بالنباتِ، وغيرِهَا مِنَ الخَوارقِ والآياتِ.

جاءَ فِي وصفِهِ: أنَّهُ رجلٌ شابٌّ أحمَرُ قصيرٌ أفحجُ، جعدُ الرأسِ، أجلَىٰ الجَبهةِ، عريضُ النَّحرِ، ممسوحُ العينِ اليُمنىٰ، كأنَّ عينَهُ عنبةٌ طافِئَةٌ، وعينهُ اليُسرَىٰ عليهَا ظفرةٌ غليظةٌ، مكتوبٌ بينَ عينيهِ (ك ف ر) بالحُروفِ المقطَّعةِ، أَو (كافرٌ) بدونِ تقطيعٍ، يقرؤُهَا كلُّ مسلمٍ، كاتبٌ وغيرُ كاتبٍ، ومِن صفاتِهِ أنَّهُ عقيمٌ لَا يولَدُ لهُ.

قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صفتِهِ: «**فإذَا رجلٌ جسيمٌ أحمرُ، جعدُ الرأسِ، أعورُ العينِ**

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٠٨٩)، ومسلم (٥٢١٥).

(٣) رواه البخاري (٦٥٩٨)، ومسلم (٥٢١٩).

كأنَّ عينهُ عنبةٌ طافئةٌ»(١).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ المسيحَ الدجَّالَ، رجلٌ أفحجُ، جعدٌ، أعورُ مطموسُ العينِ، ليسَ بناتئةٍ ولَا جحراءَ، فإن أُلبسَ عليكُم فاعلَمُوا أنَّ ربَّكُم ليسَ بأعورَ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنَّ بينَ عينَيهِ مكتوبٌ كافرٌ** -وفِي روايةٍ: **ثمَّ تهجَّاهَا: (ك ف ر)**- **يقرؤهُ كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ**»(٣).

وهذهِ الكتابةُ كتابةٌ حقيقيَّةٌ، جعلهَا اللهُ آيةً وعلامةً مِن جملةِ العلاماتِ القاطعةِ بكفرِهِ وكذبِهِ، يظهرُهَا اللهُ تعالَىٰ لكلِّ مسلمٍ، كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ، ويُخفيهَا عمَّن أرادَ شقوتَهُ وفتنتَهُ، كمَا أخبرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الدجَّالَ «**عقيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ**»(٤).

وأمَّا مكانُ خروجِهِ، فإنَّهُ يخرجُ مِن جهةِ المشرقِ، مِن خُراسانَ، مِن حارةٍ يقُالُ لهَا اليهوديَّةُ، مِن أصبهَانَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرجُ الدجَّالُ مِن يهوديَّةِ أصبهانَ، معهُ سبعونَ ألفًا منَ اليهودِ**»(٥).

وأمَّا وقتُ خروجِهِ، فإنَّهُ يكونُ بعدَ الملحمةِ الَّتِي تكونُ فِي آخرِ الزمانِ بينَ المسلمينَ والرومِ -أَي: النصارَىٰ-، وتُفتحُ علَىٰ إثرِهَا القسطنطينيةُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تقومُ الساعةُ حتَّىٰ تنزلَ الرومُ بالأعماقِ أَو بدَابِقَ، فيخرجُ لهُم جيشٌ منَ المَدينةِ، مِن خيارِ أهلِ الأرضِ يومئذٍ، فإذَا تصافُّوا، قالَتِ الرومُ: خلُّوا بيننَا وبينَ الَّذينَ سُبُوا منَّا نقاتلْهُم** -أَي: الَّذِينَ كانُوا منَ النصارَىٰ فأسلَمُوا-.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٨٥).

(٣) رواه مسلم (٥٢٢٣).

(٤) رواه مسلم (٥٢١١).

(٥) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٨١).

فيقولُ المُسلمونَ: واللهِ لَا نُخلِّي بينكُم وبينَ إخوانِنَا، فيقاتلونَهُم، فيُهزمُ ثلثٌ لَا يتوبُ اللهُ عليهِم أبدًا، ويُقتَلُ ثلثٌ أفضلُ الشهداءِ عندَ اللهِ، ويَفتتحُ ثلثٌ لَا يُفتنونَ أبدًا، فيفتتحونَ قسطنطينيةَ، فبينمَا هُم يقتسمونَ الغنائمَ، قَد علَّقُوا سيوفَهُم بالزيتونِ، إِذ صاحَ فيهِمُ الشيطانُ: إنَّ المسيحَ قَد خلَفَكُم فِي أهليكُم، فيخرجونَ، وذلكَ باطلٌ -أَي: كذبٌ-، **فإذَا جاءُوا الشامَ خرجَ**»[(١)].

وإذَا خرجَ الدجَّالُ، فيكونُ أكثرُ أتباعِهِ منَ اليهودِ والتركِ والأعرابِ والنساءِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يتبَعُ الدجَّالَ مِن يهودِ أصبهانٍ سبعونَ ألفًا عليهِم الطيالسةُ**»[(٢)].

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يتبعهُ أقوامٌ كأنَّ وجوهَهُمُ المجانُّ المُطرَّقةُ**»[(٣)]، قالَ أهلُ العلمِ: همُ التُّركُ.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنَّ مِن فتنتِهِ، أَن يقولَ للأعرابيِّ: أرأيتَ إِن بعثتُ لكَ أمَّكَ وأباكَ، أتشهدُ أنِّي ربُّكَ؟ فيقولُ: نعَم، فيتمثَّلُ لهُ شيطانَانِ فِي صورةِ أبيهِ وأمِّهِ، فيقولانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعهُ فإنَّهُ ربُّكَ**»[(٤)].

وأمَّا النساءُ، فإنَّ الدجَّالَ ينزلُ فِي وادٍ خارجَ المدينةِ، فيكونُ أكثرُ مَن يخرجُ إليهِ النساءُ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليرجعُ إِلَىٰ أمِّهِ وابنتِهِ وأختِهِ وعمَّتِهِ، فيوثقهنَّ رباطًا، مخافةَ أَن يخرجنَ إليهِ، وبذلكَ جاءَتِ الأحاديثُ الصحيحةُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)].

وأمَّا مُكثُهُ فِي الأرضِ، فإنَّهُ يمكثُ أربعينَ يومًا، يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ

---

(١) رواه مسلم (٥١٥٧).

(٢) رواه مسلم (٥٢٣٧).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٩١).

(٤) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥).

(٥) رواه أحمد، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٥٣٥٣).

كجمعةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كسائرِ أيَّامِ الدنيَا.

فقَد سأَل الصحابةُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ المدَّةِ الَّتِي يمكثُهَا الدجَّالُ فِي الأرضِ، فقالُوا: «**مَا لبثَهُ فِي الأرضِ؟ فقالَ: أربَعُونَ يومًا: يومٌ كسَنَةٍ، ويومٌ كشَهْرٍ، ويومٌ كجُمُعةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامِكُم.**

قُلنَا: يَارسولَ اللهِ، فذلكَ اليومُ الَّذِي كسنةٍ، أتكفينَا فيهِ صلاةُ يومٍ؟

قالَ: **لَا، اقدُروا لَهُ قدرَهُ**»[(١)]، وهذَا دليلٌ علَىٰ أنَّ اليومَ يطولُ حقيقةً، حتَّىٰ يكونَ كسنةٍ، أَو كشهرٍ، أَو كأسبوعٍ.

ثمَّ يسيرُ فِي الأرضِ فلَا يتركُ بلدًا ولَا قريةً إلَّا دخلَهَا، إلَّا مكَّةَ والمدينةَ، فلَا يستطيعُ دخولَهُمَا؛ لأنَّ الملائكةَ تحرُسُهمَا، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّهُ لَا يبقَىٰ شيءٌ منَ الأرضِ إلَّا وَطِئَهُ وظهرَ عليهِ إلَّا مكةَ والمدينةَ، لَا يأتيهِمَا مَن نقبَ مِن أنقابِهِمَا إلَّا لقيَتهُ الملائكةُ بالسيوفِ صَلتَةً، حتَّىٰ ينزلَ عندَ الظُّرَيبِ الأحمرِ عندَ منقطعِ السَّبخَةِ، فترجفُ المدينةُ بأهلِهَا ثلاثَ رَجَفَاتٍ، فلَا يبقَىٰ فيهَا منافقٌ ولَا منافقةٌ إلَّا خرجَ إليهِ، فتنفِي الخبيثَ منهَا، كمَا ينفِي الكيرُ خبثَ الحديدِ**»[(٢)].

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يدخلُ المدينةَ رعبُ المسيحِ، لهَا يومئذٍ سبعةُ أبوابٍ، علَىٰ كلِّ بابٍ مَلَكَانِ**»[(٣)].

وقالَ: «**يأتِي المسيحُ مِن قبلِ المشرقِ وهمَّتُهُ المدينةُ، حتَّىٰ إذَا جاءَ دُبُرَ أحدٍ، تلقَّتهُ الملائكةُ فضربَت وجهَهُ قبلَ الشامِ، هنالكَ يهلِكُ، هنالِكَ يهلِكُ**»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (٥٢٢٨).
(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥).
(٣) رواه البخاري (١٧٤٦).
(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٧٠).

وإنَّ فتنةَ الدجَّالِ أعظمُ فتنةٍ، لمَا يُجرِي اللهُ علَىٰ يديهِ منَ الخوارقِ العظيمةِ، الَّتِي تُبهرُ العقولَ وتحيِّرُ الألبابَ، وقَد جاءَت كثيرٌ منَ الأحاديثِ تبيِّنُ بعضَ مَا أُعطيَهُ منَ الخوارقِ، فإنَّهُ سريعُ الانتقالِ فِي الأرضِ، كالغيثِ استدبرَتهُ الريحُ، وأنَّهُ يجولُ فِي أقطارِ الأرضِ لَا يتركُ بلدًا إلَّا دخلَهُ، إلَّا مكةَ والمدينةَ، وأنَّ معَهُ جنَّةً ونارًا، وواقعُ الأمرِ ليسَ كمَا يبدُو للناسِ، فجنَّتُهُ نارٌ، ونارُهُ جنَّةٌ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**معهُ جنَّةٌ ونارٌ، فنارُهُ جنةٌ، وجنَّتُهُ نارٌ**»(١).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمَن أدركَ ذلكَ منكُم فليقَع فِي الَّذِي يراهُ نارًا، فإنَّهُ ماءٌ عذبٌ طيِّبٌ**»(٢).

ومِن فتنتِهِ: استجابةُ الحيوانِ والجمادِ لأمرِهِ، وأنَّهُ يأمرُ السماءَ فتمطرُ، ويأمرُ الأرضَ فتنبتُ، ويدعُو البهائمَ فتتبعُهُ، ويأمرُ الخرائِبَ أَن تُخرِجَ كنوزَهَا المدفونةَ فتَستَجِيبُ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيأتِي علَىٰ القومِ فيدعوهُم فيؤمنونَ بهِ، ويستجيبونَ لهُ، فيأمرُ السماءَ فتمطرُ، والأرضَ فتنبتُ، فتروحُ عليهِم سارحتُهُم** -أي: ماشيتُهُم-، **أطولَ مَا كانَت ذرًا، وأسبغَهُ ضروعًا، وأمدَّهُ خواصرَ، ثمَّ يأتِي القومَ فيدعوهُم فيردُّونَ عليهِ قولهُ، فينصرفُ عنهُم، فيُصبِحونَ ممحلينَ ليسَ بأيديهِم شيءٌ مِن أموالِهِم، ويمرُّ بالخربةِ** -أَي: القمامةِ-، **فيقولُ لهَا: أخرجِي كنُوزَكِ، فتتبَعُهُ كنوزُهَا كيَعَاسيبِ النحلِ**»(٣).

ومِن فتنتِهِ: أنَّهُ يقولُ للأعرابِيِّ: أرأيتَ إِن بعثتُ لكَ أباكَ وأمَّكَ، أتشهدُ أنِّي ربُّكَ؟ فيقولُ: نعَم. فيمتثَّلُ لهُ شيطانانِ فِي صورةِ أبيهِ وأمِّهِ، فيقولانِ: يَا بنيَّ اتَّبِعهُ فإنَّهُ ربُّكَ.

(١) رواه مسلم (٥٢٢٢).
(٢) رواه مسلم (٥٢٢٥).
(٣) رواه مسلم (٥٢٢٢).

ومِن فتنتِهِ: أنَّهُ يقتلُ الرجلَ ثمَّ يُحييهِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يأتِي الدجَّالُ فينزلُ بعضَ السباخِ الَّتِي تلِي المَدينةَ، فيخرجُ إليهِ يومئذٍ رجلٌ هوَ خيرُ الناسِ، أَو مِن خيارِ الناسِ، فيقولُ: أشهدُ أنَّكَ الدجَّالُ الَّذِي حدَّثنَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثَهُ، فيقولُ الدجَّالُ: أرأيتُم إِن قتَلتُ هذَا ثمَّ أحييتُهُ، هَل تشكُّونَ فِي الأمرِ؟ فيقولونَ: لَا. فيقتلُهُ، ثمَّ يحيِيهِ، فيقولُ** -ذلكَ الشابُّ المؤمنُ-: **واللهِ مَا كنتُ فيكَ أشدَّ بصيرةٍ منِّي اليومَ، فيريدُ الدجَّالُ أَن يقتُلَهُ فلَا يُسلَّطُ علَيهِ**»(١).

ويكونُ هلاكُ الدجَّالِ علَىٰ يدَي المَسيحِ عيسَىٰ بنِ مريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، المرفوعُ إلِىٰ السَّمَاءِ، والَّذِي ينزلُ منَ السماءِ آخرَ الزمانِ، وذلكَ أَنَّ الدجَّالَ يظهرُ علَىٰ الأرضِ كلِّهَا إلَّا مكةَ والمدينةَ، فيكثُرُ أتباعُهُ، وتعمُّ فتنتُهُ، ولَا ينجُو إلَّا قلةٌ منَ المؤمنينَ الَّذينَ ثبَّتَهُمُ اللهُ تعالَىٰ، وعندَ ذلكَ ينزلُ عيسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندَ المنارةِ الشرقيَّةِ بدمشقَ، ويلتفُّ حولَهُ المؤمنونَ، فيسيرُ قاصدًا الدجَّالَ، فليحقُهُ عندَ بابِ لُدٍّ فِي فلسطينَ، قُربَ بيتِ المقدسِ، فإِذَا رآهُ الدجَّالُ ذابَ كمَا يذوبُ الملحُ، فيقولُ لهُ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ لِي فيكَ ضربةً لَن تفوتنِي، فيتداركُهُ عيسَىٰ فيقتلهُ بحربتِهِ، وينهزمُ أتباعُهُ، فيتبعهُمُ المؤمنونَ فيقتلونَهُم، قالَ نبيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قصةِ نزولِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقتلهِ الدجَّالَ: «**فلَا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسِهِ إلَّا ماتَ، ونفسُهُ ينتهِي حيثُ ينتَهِي طرفُهُ، فيطلبُهُ حتَّىٰ يدركَهُ ببابِ لُدٍّ فيقتُلُهُ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيدركهُ عندَ بابِ لدٍّ الشرقيِّ فيقتلُهُ، فيهزمُ اللهُ اليهودَ، فلَا يبقَىٰ شيءٌ ممَّا خلقَ اللهُ يتوارَىٰ بِهِ يهوديٌّ إلَّا أنطقَ اللهُ ذلكَ الشيءَ، لَا حجرَ ولَا شجرَ**

(١) رواه البخاري (١٧٤٩)، ومسلم (٥٢٢٩).
(٢) رواه مسلم (٥٢٢٨).

ولَا حائطَ ولَا دابَّةَ -إلَّا الغرقدةَ فإنَّهَا مِن شجرِهِم لَا تَنطِقُ- إلَّا قالَ: يَا عبدَ اللهِ المسلمَ هذَا يهوديٌّ فتعالَ فاقتُلْهُ»(١).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فَلِعَظِيمِ رحمةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذهِ الأمَّةِ، فقَد دَلَّها علَىٰ سبلِ الوقايةِ مِن كيدِ المسيحِ الدجَّالِ وفتنتِهِ.

فأوَّلُ مَا يقِي مِن فتنةِ الدجَّالِ: التسلُّحُ بسلاحِ الإيمانِ باللهِ تعالَىٰ، ومعرفَتُهُ بأسمائِهِ الحسنَىٰ وصفاتِهِ العلَا، وأنَّهُ سبحانَهُ منزَّهٌ عَن كلِّ نقصٍ وعيبٍ.

فقَد تركَ لنَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العلمِ بالدجَّالِ، مَا يكشفُ البَصيرةَ ويُزيلُ الغمَّةَ، فالدجَّالُ جسمٌ مرئيٌّ يأكلُ ويشربُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُرىٰ فِي الدنيَا، وإنمَا يراهُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ بأبصارِهِم منَّةً منهُ وفضلًا، والدجَّالُ أعورُ كمَا جاءَ فِي أحاديثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قالَ: «**إنَّهُ شابٌّ قطَطٌ عَينُهُ طافئةٌ**»(٢).

ومَن كانَ كذلكَ فإنَّ دعواهُ الربوبيةَ والألوهيةَ كذبٌ وافتراءٌ بلَا شكٍّ، وهذَا ممَّا يزيدُ المؤمنَ رغبةً في تعلُّمِ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأسمائِهِ الحسنَىٰ، وأَن يُثبِتَ للهِ تعالَىٰ

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٥).
(٢) رواه مسلم (٥٢٢٨).

الصفاتِ الَّتِي أثبتهَا لنفسِهِ، وأثبتَهَا لهُ نبيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، علَىٰ الوجهِ الَّذِي يكونُ لائقًا بربِّنَا دونَ مشابهةِ المخلوقينَ.

وممَّا يقِي مِن فتنتهِ أيضًا: أَن يُقرأَ عليهِ فواتحُ سورةِ الكهفِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حفظَ عشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سورةِ الكهفِ عُصِمَ منَ الدجَّالِ**»(١).

وممَّا ينجِّي العبدَ منَ الدجَّالِ: صِدْقُ الالتجاءِ إِلَىٰ اللهِ، والاستعاذةُ بهِ مِن فِتنَتِهِ، ولذلكَ أُمرنَا بالاستعاذةِ منهُ آخرَ كلِّ صلاةٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا تشهَّدَ أحدُكُم فليستَعِذ باللهِ مِن أربعٍ، يقولُ: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن عَذابِ جهنَّمَ، ومِن عذابِ القبرِ، ومِن فتنةِ المحيَا والمماتِ، ومِن شرِّ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ**»(٢).

وممَّا يعصِمُ منهُ أيضًا: الفرارُ منهُ والابتعادُ عنهُ -وهذَا شأنُ كلِّ فتنةٍ لا بدَّ أَن يُهربَ منهَا- قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَمِعَ بالدجَّالِ فلينأَ عنهُ، فواللهِ إنَّ الرجلَ ليأتيهِ وهُوَ يحسبُ أنَّهُ مؤمنٌ، فيتَّبِعُهُ لِمَا يبعثُ بهِ منَ الشبهَاتِ**»(٣).

كمَا يعصمُ منهُ أيضًا سُكنَىٰ مكَّةَ والمدينةِ، فإنَّ الدجَّالَ لَا يدخلُهُمَا.

نعوذُ باللهِ مِن فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ.

❊❊❊

(١) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٢) رواه مسلم (٩٢٤).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٨٨).

(٣٣) تعظيمُ القرآنِ

الحمدُ للهِ العليِّ القادرِ، عالمِ الغَيبِ والشهادةِ المُطَّلعِ علَىٰ السرائرِ والضمائرِ، خلقَ فقدَّرَ، ودبَّرَ فيسَّرَ، فكلُّ عبدٍ إِلَىٰ مَا قدَّرهُ عليهِ صائرٌ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ خفيِّ لطفهِ، وجزيلِ برِّهِ المتظاهرِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صاحبُ الآياتِ والبصَائرِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحَابهِ، ومَن علَىٰ سبيلِهِ إِلَىٰ اللهِ سائرٌ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ منَ الأمورِ المسلَّمةِ المَعلومَةِ لدَىٰ كلِّ مسلمٍ، وجوبَ تعظيمِ القُرآنِ العظيمِ؛ لأنَّهُ كلامُ ربِّنَا سبحانَهُ الَّذِي أنزلَهُ علَىٰ نبيِّهِ الكريمِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتدبَّرُهُ أولُو النُّهَىٰ، وهُدًىٰ وذكرَىٰ للمُؤمِنينَ.

وقَد خصَّ اللهُ تعالَىٰ كتابَهُ بكثيرٍ منَ الفضَائلِ الَّتِي تجعلُ المسلمَ أسرعَ مَا يكونُ حالًا فِي طلبِ الأجرِ مِن خلالِهِ، قراءةً وحفظًا وتدبرًا، وعملًا بأوامرِهِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرءُوا القرآنَ فإنَّهُ يأتِي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِهِ**»(١).

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقالُ لصاحِبِ القرآنِ: اقرَأ وارتَقِ ورتِّل كمَا كنتَ ترتِّلُ فِي الدنيَا، فإنَّ منزلتَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُهَا**»(٢).

فهَذهِ الأحاديثُ المُبَاركةُ تُبيِّنُ فضلَ قراءةِ القرآنِ، وكيفَ يَسُوقُ صاحبَهُ إِلَىٰ كلِّ خيرٍ، إذَا قرأَهُ المسلمُ مُحتَسبًا الأجرَ، مخلصًا النيَّةَ والقصدَ للهِ ربِّ العَالمينَ.

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٤٠).

فعلَىٰ المسلمِ أَن يُكثِرَ مِن تلاوةِ كتابِ اللهِ سبحانَهُ؛ لأنَّهُ بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ البرِّ ومُضاعفةِ الأجورِ، معَ مَا يسَّرَ اللهُ سبحانَهُ مِن ذكرِهِ وقراءتِهِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قرأَ حرفًا مِن كتابِ اللهِ فلهُ حسنَةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِهَا، لَا أقولُ: الم حرفٌ، ولكِن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ**»(١).

فهذَا الحديثُ يُبيِّنُ أَنَّ بكلِّ حرفٍ مِن كلِّ كَلمةٍ عشرَ حسنَاتٍ، وهذهِ نعمةٌ عظيمَةٌ وأجرٌ كثيرٌ، فيَنبغِي للإنسانِ أَن يُكثرَ مَا استطاعَ مِن تلاوةِ كتابِ اللهِ، ولَا يلزمُ أَن يكونَ قد حفظَ القرآنَ كلَّهُ حتَّىٰ يقرأَ كتابَ اللهِ، ولكنَّ المسلمَ الَّذِي يريدُ تكثيرَ عملِهِ الصالحِ يقرأُ مَا تيسَّرَ مِن كلامِ اللهِ سبحانَهُ، فقراءةُ القرآنِ سببٌ لتطهيرِ القُلوبِ، وعلامةٌ علَىٰ حياةِ القلبِ.

قالَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَو أنَّ قلوبَنَا طهرَت مَا شَبِعَت مِن كلامِ اللهِ، وَما أُحِبُّ أَن يأتِيَ عليَّ يومٌ وليلةٌ، إلَّا أنظرُ فِي كَلامِ اللهِ فِي المُصحَفِ».

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ: «لَم نَجِد شيئًا أرقَّ لهذهِ القلوبِ، ولَا أشدَّ استجلابًا للحقِّ مِن قراءةِ القرآنِ لِمَن تدبَّرَهُ».

علَىٰ أنَّهُ لَا بُدَّ لقارئِ القرآنِ أَن يَظْهَرَ أثَرُ تلكَ القراءَةِ عليهِ، وأهمُّ تلكَ الآثارِ أَن يكونَ عاملًا بمَا علِمَ، حتَّىٰ يكونَ كلامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حجةً لَهُ لَا عليهِ، ولذَا جاءَ فِي حديثِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القرآنُ حجةٌ لكَ أَو عليكَ**»(٢).

وجاءَ عَن أَبِي موسَىٰ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّهُ قالَ**: «إنَّ هذَا القرآنَ كائنٌ لكُم أجرًا، وكائنٌ عليكُم وزرًا، فاتَّبِعوا القرآنَ، ولَا يتبعنَّكُمُ القرآنُ، فإنَّهُ منِ اتبعَ القرآنَ هبَطَ بِهِ علَىٰ رياضِ الجنَّةِ، ومَن تبعَهُ القرآنُ زُخَّ فِي قفاهُ، فقذفَهُ فِي النارِ».

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤١٦).

(٢) رواه مسلم (٣٢٨).

فالقرآنُ يأخذُهُ الناسُ يتلونَهُ ويقرَءُونَهُ، فمِنهُم مَن يرفعُهُ اللهُ بهِ فِي الدنيَا والآخرةِ، ومنهُم مَن يضَعُهُ اللهُ بهِ فِي الدنيَا والآخرةِ، فمَن عملَ بهِ تصديقًا بأخبارِهِ، وعملًا بأوامرِهِ واجتنابًا لنواهيهِ، واهتداءً بهَديهِ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يرفعُهُ بهِ فِي الدنيَا، لأنَّ القرآنَ أصلُ العلمِ ومنبعُهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١).

وأمَّا رفعُهُ فِي الآخرَةِ فعلوُّ درجَاتِ صاحبِهِ فِي جناتِ النعيمِ، وأمَّا الذينَ يضعهُمُ اللهُ بهِ فقومٌ يقرءونَهُ ويُحَسِّنونَ تلاوتَهُ، ولكنَّهُم لَا يعملونَ بأحكامِهِ، ولَا يأتمرونَ بأمرِهِ، ولَا ينتهونَ بنهيِهِ، فهؤلاءِ يضعهُمُ اللهُ فِي الدنيَا بسببِ مَا يئولُ إليهِ حالُهُم مِن حُلولِ عقوبةِ الذنبِ بِهِم، وفِي الآخرةِ هُم مُتوعَّدُونَ بعذابِ اللهِ سبحانَهُ، وبيانُ ذلكَ فيمَا جاءَ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِهِ: «**إنَّ اللهَ يرفعُ بهذَا الكتابِ أقوامًا ويضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(٢).

وعلَىٰ قارئِ القرآنِ أَن يَظهَر عليهِ أثرُ ذلكَ، وأَن يكونَ مُسارعًا لاغتنامِ الفضَائلِ الَّتِي يدلُّهُ كتابُ اللهِ عليهَا، والتأدُّبِ بآدابهَا مَا استطاعَ إلَىٰ ذلكَ سبيلًا، قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ينبغِي لحَاملِ القرآنِ أَن يُعرَفَ بليلِهِ إذَا الناسُ نائمونَ، وبنهارِهِ إذَا الناسُ مُفرِّطونَ، وبِحُزنِهِ إذَا الناسُ يَفرَحُونَ، وببكائِهِ إذَا الناسُ يضحكُونَ، وبصمتِهِ إذَا الناسُ يخلطونَ، وبخشوعِهِ إذَا الناسُ يختالونَ، وينبغِي أَن يكونَ باكيًا محزونًا حكيمًا عليمًا سكينًا، ولَا يكونُ جافيًا، ولَا غافلًا ولَا صاخبًا ولَا صياحًا ولَا حديدًا».

أيُّهَا المُسلِمونَ:

ومِن جملةِ الآدابِ الَّتِي ينبغِي لقارئِ القرآنِ أَن يحافظَ عليهَا: قراءتُهُ بتدبُّرِ معانيهِ

(١) سورة المجادلة: ١١.

(٢) رواه مسلم (١٣٥٣).

وفهمِ مرادِهِ؛ لأنَّ تدبُّرَ القرآنِ يوجبُ طمأنينةً فِي القلوبِ وخشوعًا وسكينةً تحملُ صاحِبَهَا علَىٰ العملِ المَرضيِّ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

وأثنَىٰ اللهُ سبحانَهُ علَىٰ مَن تَدبَّرَ كتابَ اللهِ تعالَىٰ حينَ سماعِهِ فأثَّرَ ذلكَ فِي عملِهِ وسُلوكِهِ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٢).

قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَد رأيتُ رجالًا يُؤتَىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ، فيقرأُ مَا بينَ فاتحتِهِ إلَىٰ خاتمتِهِ لَا يدرِي مَا آمِرُهُ ولَا زاجِرُهُ، ومَا يَنبَغِي أَن يقِفَ عندَهُ».

وقالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تهذُّوا القرآنَ هذَّ الشعرِ، ولا تنثرُوهُ نثرَ الدقلِ -أي: رديء التَّمرِ-، قِفُوا عندَ عجَائبِهِ، وحَرِّكُوا بِهِ القُلوبَ، ولَا يكُن هَمُّ أحدِكُم آخرَ السورةِ».

وعلَىٰ قارئِ القرآنِ أَن يُحَسِّنَ صوتَهُ بالقرآنِ مَا استطاعَ، وذلكَ لأنَّ تحسينَ الصوتِ بالقرآنِ أوقعُ فِي النفوسِ وأسمعُ فِي القلوبِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ منَّا مَن لَم يتغنَّ بالقرآنِ**»، والتغنِّي هنَا: يُقصدُ بهِ التحسينُ، وقَد أجمعَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ علَىٰ استحبابِ تحسينِ الصوتِ بالقرآنِ.

قيلَ لابنِ أَبِي مُليكةَ: «يَا أبَا محمَّدٍ، أرأيتَ الرجلَ إذَا لَم يكُن حَسَنَ الصوتِ، قالَ: يحسِّنُهُ مَا استطاعَ».

ومِن علاماتِ تحسينِ الصوتِ: أَن يميلَ بِهِ نحوَ التحزينِ، قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقرَؤُهُ حَدْرًا وتَحزِينًا»، ولذلكَ قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ مِن أحسَنِ النَّاسِ صَوتًا**

---

(١) سورة ص:٢٩.

(٢) سورة المائدة:٨٣.

بالقرآنِ الَّذِي إذَا سمِعتُمُوهُ يقرأُ حسبتموهُ يخشَىٰ اللهَ»[١].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أذِنَ اللهُ لشَيءٍ، مَا أذنَ لنبيٍّ حسنِ الصوتِ يتغنَّىٰ بالقرآنِ يجهَرُ بِهِ**»[٢]، وأَذِنَ هنَا بمعنَىٰ استمَعَ، وفيهِ بيانٌ علَىٰ أنَّ اللهَ تعالَىٰ يستَمِعُ لِمَن حَسُنَ صوتُهُ بالقرآنِ؛ لأنَّهُ يحبُّ الصَّوتَ الحسَنَ، وقَد مرَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأَبِي موسَىٰ الأشعريِّ وهوَ يقرأُ القرآنَ فاستمَعَ إليهِ، فلمَّا جاءَهُ قالَ لهُ: «**لَو رأيتنِي وأنَا استمعُ لقراءَتِكَ البارحةَ، لقَد أوتيتَ مزمارًا مِن مزاميرِ آلِ داودَ**»[٣]، يعنِي: لَقَد أُعْطِيتَ صوتًا حسنًا كصوتِ آلِ داودَ؛ لأنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ حسنَ الصوتِ، فإذَا قرأَ جَاوَبَتهُ الجبالُ والطيرُ ورجَّعت معهُ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[٤].

ولَا بأسَ للمَرءِ مِن أجلِ خُشُوعِ قلبِهِ وتجديدِ إيمانهِ أَن يبحثَ عَن رجلٍ حسنِ الصوتِ فيسمعَ منهُ، أَو أن يطلبَ مِن امرئٍ حسنِ الصوتِ أَن يقرأَ لهُ القرآنَ لِيَتَّعِظَ ويتدبَّرَ، فربَّمَا كانَ استماعُ المرءِ مِن غيرهِ أوقعَ فِي نفسهِ مِن قراءتِهِ هوَ لنفسهِ.

كمَا أَنَّهُ لَا بأسَ بأَن يحسِّنَ المرءُ صوتَهُ بالقرآنِ ليتلذَّذَ بهِ السَّامعُ ويُسَرَّ بهِ، ولَا يُعَدُّ ذلكَ منَ الرياءِ المذمومِ إن أخلصَ صاحبُهُ النيَّةَ، بَل إنَّ هذَا يدعُو إِلَىٰ الاستمَاعِ لكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولذَا لمَّا قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبِي موسَىٰ: «**لَو رأيتنِي وأنَا استمعُ لقراءَتِكَ البارحَةَ. قالَ أبُو موسَىٰ: لَو علمتُ مكانكَ لحبَّرتُ لكَ تحبيرًا**»[٥]، أَي: لحسَّنتُهُ وزيَّنتُهُ أحسنَ مَا يكونُ.

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (١٣١٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٦٠)، ومسلم (١٣٢٢).

(٤) سورة سبأ: ١٠.

(٥) رواه البخاري (٤٤٦٠)، ومسلم (١٣٢٢).

علَىٰ أنَّهُ لَا ينبغِي المبالغةُ والتكلُّفُ عندَ القراءةِ بحجَّةِ التحسينِ، كمَن يتكلَّفُ لإقامةِ أحكامِ التجويدِ ومَخَارجِ الحُروفِ بحُجَّةِ تحقيقِ التلاوةِ، فيصرفُ همَّتَهُ عَن فهمِ المعنَىٰ لانشغالِهِ بالتَّفكيرِ فِي الأحكامِ فيخرجُ عَنِ المَقصُودِ.

فعلَىٰ قارئِ القرآنِ أَن تكُونَ قراءَتُهُ طبيعيَّةً دونَ تكلُّفٍ، وعليهِ أَن يبيِّنَ الحروفَ والحَرَكاتِ دونَ التَّعمُّقِ والغلوِّ والمُبَالغةِ، فإنَّ المقصودَ الاتعاظُ والتدبُّرُ والعملُ الَّذِي يكونُ مِن جملةِ أسبابِهِ تحسينُ الصَّوتِ معَ إقامةِ الأحكامِ، وليسَ انشغالُ الذهنِ بكيفيَّةِ القراءةِ حتَّىٰ يفقدَ القارئُ والمستمعُ المقصودَ منَ التلاوةِ.

وعلَىٰ المَرءِ أَن يتفقَّدَ قلبَهُ عندَ قرَاءَةِ القُرآنِ، وإِن أرادَ اللهُ بهِ خَيرًا، أرسلَ دمُوعَهُ بالبكاءِ لِمَا يمرُّ بهِ منَ الآياتِ والعبرِ والمواعظِ العظيمةِ، وهذَا دأبُ الصالحينَ الذينَ عَلِمُوا منزلةَ القرآنِ، ووَقَرَ فِي قلوبِهِم تعظيمُ كلامِ اللهِ، فخافُوا ممَّا فيهِ منَ الوعيدِ، وأمَّلُوا خيرًا لِمَا فيهِ منَ الرحمةِ، واتَّعظُوا بمَا ذُكِرَ فيهِ منَ الأخبارِ والعبرِ، فذرفَت أعينُهُم خوفًا ورجاءً ورهبةً ورغبةً.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ لِي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عليَّ القرآنَ. فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أَقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟** قالَ: **إنِّي أحبُّ أَن أسمعَهُ مِن غيرِي، فقرأتُ عليهِ سورةَ النساءِ حتَّىٰ جئتُ إلَىٰ الآيةِ:** ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1]. قالَ: **حسبُكَ الآنَ، فالتفتُّ فإذَا عيناهُ تَذرِفانِ**»[2].

وقَد جاءَ عَن أَبِي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -حينَمَا كانَ بمكَّةَ- أَنَّهُ ابتنَىٰ مسجدًا فِي فناءِ دارِهِ، وكانَ يصلِّي فيهِ فيقرأُ القرآنَ ويبكِي، فيقفُ عليهِ نساءُ المشركينَ وأبناؤُهُم وهُم

---

(١) سورة النساء: ٤١.

(٢) رواه البخاري (٤٢١٦)، ومسلم (١٣٣٢).

يتعجَّبُونَ منهُ وينظرونَ إليهِ، قالَت عائشةُ: وكانَ أبُو بكرٍ رجلًا بكَّاءً لَا يملكُ دمعَهُ حينَ يقرأُ القرآنَ.

وقالَ شدَّادُ بنُ الهادِ: «سَمِعتُ نَشيجَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ وأنَا فِي آخرِ الصفوفِ فِي صلاةِ الصبحِ يقرأُ مِن سورةِ يوسفَ يقولُ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]».

وقالَ الحسنُ: «كانَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يمرُّ بالآيةِ فِي وردِهِ فتخيفُهُ فيبكِي، ويلزمُ بيتَهُ اليومَ واليومينِ حتَّىٰ يُعَادَ ويَحسَبُونَهُ مَريضًا».

ومِن تَعظِيم كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ألَّا ينزلَ بِهِ صاحبُهُ الَّذِي فتحَ اللهُ عليهِ بحفظِهِ وقراءَتِهِ المنازلَ الَّتِي لَا تليقُ بِهِ، فلَا ينبغِي للمسلمِ أن يقرأَ القرآنَ بصِفَةِ التلحينِ الَّذِي يشبهُ تلحينَ الغناءِ، فإنَّ ذلكَ أمرٌ مبتدعٌ حادثٌ، ويُخشَىٰ علَىٰ صاحبِهِ منَ الفتنةِ فِي الدينِ، كمَن وُجِدَ فِي هذهِ العصُورِ ممَّن يتعلمُ قراءةَ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفقَ المقاماتِ الغنائيةِ، ليعودَ يتمايلُ فِي قراءَتِهِ، ويرفعُ صوتَهُ ويخفضُهُ كمَا يفعلُ المطربينَ.

ولَا يجوزُ لحاملِ القرآنِ أَن يجعلَ كلامَ اللهِ العظيمِ وسيلةً لجلبِ الأموالِ كمَن يقرأُ فِي المآتمِ والمجالسِ ليُعطَىٰ منَ الأموالِ نظيرَ ذلكَ.

كمَا أنَّهُ ليسَ مِن أدبِ حاملِ القرآنِ أَن يباهيَ بقراءتِهِ قارئًا آخرَ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يخلُّ بإخلاصِهِ ويوقعهُ فِي الرياءِ المَذمُومِ، وقَد ذَكَرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منَ الثلاثةِ الَّذِينَ أوَّلُ مَن تسَّعرُ بهِمُ النارُ قارئٌ للقرآنِ مَا قرأَ إلَّا ليُقَالَ عنهُ قارئٌ.

فليحذَرِ المسلمُ مِن ذلكَ الوعيدِ الشديدِ.

ومِن حُسنِ الأدبِ معَ كلامِ اللهِ حينَ يُقرأُ أَن يُحسنَ لهُ الاستماعَ، وأَن ينصِتَ لهُ المستمعُ لينتفعَ بِهِ ويتدبَّرَ مَا فيهِ منَ الحِكَمِ والمَصَالحِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ

---

(١) سورة يوسف:٨٦.

﴿ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[(١)]، فلعلَّهُ باستماعِهِ أَن يفتحَ اللهُ لهُ أبوابًا مِنَ الرحماتِ فتتحققُ لهُ السعادةُ الأبديَّةُ.

ومِن تعظيمِ كتابِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أَلَّا يستدبرُهُ المسلمُ فيجعلُهُ خلفَ ظهرِهِ، أَو أَنْ يضعَ عليهِ كتابًا أَو شيئًا منَ الأغراضِ، ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾[(٢)].

وإِذَا كانَ الجماعةُ فِي مسجدٍ وقرءُوا القرآنَ فلَا يجهرُ بِهِ بعضُهُم علَىٰ بعضٍ لِئَلَّا يؤذِي بعضُهُم بعضًا ويشوِّش عليهِ فِي قراءَتِهِ، وقَد جاءَ فِي الحديثِ أَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتكَفَ فِي المسجدِ فسَمِعَهُم يجهرونَ بالقرآنِ -وهوَ فِي قُبَّةٍ لهُ- فكشفَ الستورَ وقالَ: «**أَلَا إِنَّ كلَّكُم مُناجٍ ربَّهُ، فلَا يؤذيَنَّ بعضُكُم بعضًا، ولَا يرفعنَّ بعضكُم علَىٰ بعضٍ بالقراءةِ**»[(٣)].

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومَصَابيحِ الدُّجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فإِنَّ مِن تمَامِ الأدبِ معَ كتابِ اللهِ أَلَّا يُهجَرَ فلَا يقرأُ، فينبغِي علَىٰ المُسلمِ إدامةُ

---

(١) سورة الأعراف:٢٠٤.

(٢) سورة الحج:٣٢.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٠٣).

النظرِ فِي كتابِ اللهِ فإنَّهُ مِفتَاحُ كلِّ خيرٍ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾(١).

كمَا أنَّ علَىٰ المسلمِ أَن ينزِّهَ كتابَ اللهِ تعالَىٰ ولَا يجعلَهُ مِن وسائلِ الزينةِ فِي البيوتِ أَوِ السَّيَّاراتِ، كمَن يعلِّقُ بعضَ الآياتِ أَوِ المصاحفَ الصغيرةَ علَىٰ الجُدرانِ أَوِ السياراتِ أَوِ الأطفالِ الصغارِ، فهذَا ليسَ مِن كمالِ الأدبِ، ومنافٍ لتقديرِ كلامِ اللهِ وتعظيمِهِ، فالمقصودُ منَ القرآنِ العملُ بمَا فيهِ منَ الأوامرِ واجتنابُ مَا فيهِ منَ النواهِي، والعملُ بهِ علَىٰ وفقِ مَا أرادَهُ اللهُ وعملَ بهِ رسولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذَا وإنَّ منَ الفضلِ العظيمِ الَّذِي يفوِّتُهُ بعضُ المسلمينَ علَىٰ نفسهِ، أنَّهُ إذَا حضرَ إلَىٰ المسجدِ انشغلَ بالأحاديثِ الجانبيةِ الملهيةِ معَ غيرهِ منَ المصلينَ، وتَرَكَ قراءةَ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أيُّكُم يحبُّ أَن يغدوَ كلَّ يومٍ إلَىٰ بُطْحَانَ أَو إلَىٰ العقيقِ فيأتِي منهُ بناقتينِ كومَاوَينِ فِي غيرِ إثمٍ ولَا قطعِ رحمٍ؟**

فقلنَا: يَا رسولَ اللهِ، كلُّنَا نحبُّ ذلكَ. قالَ: أفلَا يغدُو أحدُكُم إلَىٰ المسجدِ فيعلمُ أَو يقرأُ آيتينِ مِن كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خيرٌ لهُ مِن ناقتينِ، وثلاثٌ خيرٌ لهُ مِن ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ لهُ مِن أربعٍ، ومِن أعدادهنَّ منَ الإبلِ»(٢).

فينبغِي علَىٰ المسلمِ إذَا حضرَ إلَىٰ المسجدِ أَن ينشغلَ بقراءةِ القرآنِ، نظرًا للأجرِ العظيمِ المترتبِ علَىٰ قراءتِهِ.

فمِنَ الغبنِ العظيمِ والخسارةِ الكبيرةِ، أَن يجلسَ المسلمُ ينتظرُ الصلاةَ الوقتَ الطويلَ الَّذِي يستطيعُ أَن يجمعَ فيهِ الأجرَ الكبيرَ ويفوِّتهُ علَىٰ نفسهِ.

---

(١) سورة الفرقان: ٣٠.

(٢) رواه مسلم (١٣٣٦).

وممَّا ينبغِي أَن يتنبَّهَ لهُ المسلمُ مَا يُرَىٰ مِن انتشارِ كثيرٍ منَ الكتبِ الَّتِي تذكرُ أنواعًا منَ الفضائلِ لبعضِ سورِ القرآنِ دونَ أَن يثبتَ بذلكَ حديثٌ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجبُ التنبهُ لذلكَ ومعرفةُ أنَّهُ ليسَ لكلِّ سورةٍ منَ القرآنِ فضلٌ خاصٌّ إلَّا مَا ثبتَ فِي بعضِ السورِ، كسورةِ الفاتحةِ والبقرةِ وآلِ عمرانَ والمعوِّذتينِ والإخلاصِ والكافرونَ والملكِ والكهفِ.

ونَعنِي هنَا مَا يدَّعيهِ بعضُ الناسِ مِن إلحاقِهِ نوعًا منَ الفضائلِ ببعضِ السورِ، كمَن قرأَ سورةَ كذَا قُضِيَ دَينُهُ، ومَن قرأَ سورةَ كذَا وُقِيَ مِن فتنةِ القبرِ، ويُصدِرُونَ بذلكَ كتبًا خاصةً يوزعونهَا علَىٰ المسلمينَ، وإِن كانَ القرآنُ كلُّهُ خيرٌ، وفِي قراءتِهِ الأجرُ والغنيمةُ، ودفعُ الضُرِّ عنِ المسلمِ، وأنَّهُ سبيلٌ يُعتَصَمُ بهِ منَ الشيطانِ، ولكِن لَا يعنِي ذلكَ أنَّ نَخُصَّ بعضَ سورِ القرآنِ بفضلٍ خاصٍّ دونَ غيرهَا منَ السورِ إلَّا مَا ثبتَ فيهِ الفضلُ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❀❀❀

(٣٤) التوكلُ علَى اللهِ

الحمدُ للهِ جامعِ الناسِ ليومٍ لَا ريبَ فيهِ، عالمٍ بمَا يُسِرُّهُ العبدُ ويُخفيهِ، مَن توكَّلَ عليهِ كفاهُ، ووجدَ كفايتَهُ خيرًا مِن توقِّيهِ، ومَن تواضعَ لهُ رفَعَهُ وزادَ فِي ترقِّيهِ، أحمدُهُ سبحانَهُ وأتوبُ إليهِ وأستغفرُهُ وأستهديهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وحدهُ لَا شريكَ لهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهاديهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ معلمُ الإيمانِ وداعيهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن سعادةِ العبدِ أَن يرزقَهُ اللهُ تعالَىٰ حُسنَ التوكُّلِ عليهِ فِي أمورهِ كلِّهَا، هذَا وإنَّ بلوغَ هذهِ المنزلةِ لهُوَ مِن أعظمِ الامتنانِ والتفضُّلِ علَىٰ العبدِ، فمَن توكَّلَ علَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقَّ التوكُّلِ سَكَنَ قلبُهُ، واطمأنَّت نفسُهُ، ولذَّ عيشُهُ، ذلكَ أَنَّ حقيقةَ التوكُّلِ هيَ صدقُ اعتمادِ القلبِ علَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي استجلابِ المصالحِ، ودفعِ المضارِّ مِن أمورِ الدنيَا والآخرةِ، وتفويضِ الأمورِ كلِّهَا إِلَىٰ اللهِ سبحانَهُ، وتحقيقِ الإيمانِ بأنَّهُ لَا يُعطِي ولَا يمنعُ ولَا يضرُّ ولَا ينفعُ سواهُ، وهذهِ منزلةٌ لَا يبلغُهَا إلَّا الصِّدِّيقونَ، **قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ**: «التوكُّلُ جماعُ الإيمانِ».

فالتوكلُ عبادةٌ قلبيَّةٌ محضةٌ، ليسَت قولًا باللسانِ، ولَا عملًا بالجوارحِ فَقَط، **ولذلكَ قالَ الإمامُ أحمدُ**: «التوكُّلُ عملُ القلبِ».

فلا بدَّ للقلبِ أَن يكونَ متعلقًا باللهِ حقَّ التعلُّقِ، وأنْ يوقنَ العبدُ بأنَّ مردَّ الأمورِ إِلَىٰ اللهِ، فمَا شاءَ كانَ ومَا لَم يشَأ لَم يكُن.

وَلِعظَمِ منزلةِ التوكُّلِ فقَد جاءَتِ الأدلَّةُ الكثيرةُ تحُثُّ عليهِ وتبيِّنُ منزلتَهُ ليأخذَ بهِ

المسلمُ، لِمَا فيهِ مِن حلاوةِ العيشِ وحُسنِ العاقبةِ، فقَد قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)، أَي: كافيهِ، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

وجاءَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**لو أنَّكُم تتوكلونَ علَىٰ اللهِ حقَّ توكُّلِهِ لرزقَكُم كمَا يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتَرُوحُ بِطَانًا**»(٣).

ففِي هذَا الحديثِ ضربَ النبيُّ ﷺ المثَلَ بالطيرِ علَىٰ ضعفهِ، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَد تكفَّلَ لهُ بالرزقِ وهداهُ لأسبابهِ، وهذَا ممَّا يورثُ اليقينَ عندَ العبدِ بأنَّ عَيْشَهُ مكفولٌ، فإذَا علمَ ذلكَ أورثَهُ ذلكَ حُسنَ ظنٍّ بربِّهِ سبحانَهُ، لأنَّ المتوكِّلَ حقيقةً مَن يعلمُ أنَّ اللهَ قَد ضَمنَ لعبدهِ رزقَهُ وكفايَتَهُ، فيصدِّقُ اللهَ فيمَا ضمنَهُ، ويثقُ بذلكَ حقَّ الثقةِ، ويحقِّقُ الاعتمادَ عليهِ فيمَا ضمنَهُ منَ الرزقِ، وأنَّ الرزقَ مقسومٌ لكلِّ أحدٍ مِن برٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٤)، هذَا معَ ضعفِ كثيرٍ منَ الدوابِّ وعجزِهَا عنِ السعيِ فِي طلبِ الرزقِ، فمَا دامَ العبدُ حيًّا، فرزقُهُ علَىٰ اللهِ، وقَد يُيَسِّرهُ اللهُ بكسبٍ أَو بغيرِ كسبٍ، وإِن كانَ بذلُ الأسبابِ مطلوبًا.

والتوكُّلُ دليلٌ علَىٰ حُسنِ ظنِّ العبدِ بربِّهِ، **قالَ محمَّدٌ الذهليُّ**: سألتُ الخريبيَّ عنِ التوكُّلِ فقالَ: «أرَىٰ التوكُّلَ حسنَ الظنِّ باللهِ»، فعلَىٰ قدرِ حسنِ ظنِّ العبدِ بربِّهِ ورجائِهِ لهُ يكونُ توكُّلُهُ عليهِ، فحسنُ الظنِّ باللهِ يدعُو العبدَ إِلَىٰ التوكُّلِ عليهِ، إِذ لَا يُتَصَوَّرُ التوكُّلُ علَىٰ مَن ساءَ ظنُّهُ بهِ، ولَا التوكُّلُ علَىٰ مَن لَا يرجوهُ، وهذَا مَا فعلَهُ

(١) سورة الطلاق:٣.

(٢) سورة آل عمران:١٦٠.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

(٤) سورة هود:٦.

أولياءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي أحلكِ الظروفِ وأصعبِ المواقفِ، حيثُ فوَّضُوا أمورَهُم إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِحُسنِ ظنِّهِم بكفايَتِهِ لهُم.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «حسبُنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ، قالَهَا إبراهيمُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينَ أُلقيَ فِي النارِ، وقالهَا محمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينَ قالُوا: إنَّ الناسَ قَد جمعُوا لكُم فاخشوهُم فزادَهُم إيمانًا وقالُوا: حسبُنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ»[1].

فهذَا بيانٌ لحالِ الأنبياءِ -عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ- وكيفَ بلغَ بهِمُ التوكُّلُ علَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحسنُ ظنِّهِم بهِ علَىٰ الرغمِ ممَّا هُم فيهِ منَ الخوفِ والضنكِ الشديدِ، فكانَ قولُهُم: حسبُنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ؛ أَي: أنَّهُ كافينَا فِي مهمَّاتِنَا وملماتِنَا، وهُوَ نعمَ الكافِي ومَن نُفَوِّضُ لهُ الأمرُ.

فإبراهيمُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لمَّا دعَا قومَهُ إِلَىٰ التوحيدِ وكسَّرَ أصنامَهُم، أَوقدُوا لهُ نارًا عظيمةً ثمَّ رموهُ فيهَا، فلمَّا رموهُ قالَ: حسبُنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ، فكانَتِ النتيجةُ أَن أنجاهُ اللهُ منَ النارِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]، فنجَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لحسنِ ظنِّهِ بهِ وصِدْقِ توكُّلِهِ عليهِ.

ولمَّا رجعَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن غزوةِ أُحدٍ، وقَد هُزِمَ المسلمونَ فيهَا وأصابَهُم غمٌّ شديدٌ وضنكٌ عظيمٌ، وقُتِل منهُم خَلقٌ كثيرٌ، جاءَ مَن أخبرَ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ المشركينَ عزمُوا علَىٰ العودةِ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابتِهِ ليستأصِلُوا بقيَّتَهُم، وقَد جمعُوا لذلكَ الجموعَ، فمَا كانَ منَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابَتِهِ إلَّا أَن فوَّضُوا أمرَهُم إِلَىٰ اللهِ، وأحسنُوا الظنَّ بهِ سبحانَهُ، وزادَهُم ذلكَ الأمرُ علَىٰ شدَّتِهِ إيمانًا، وقالُوا: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ.

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٧).

(٢) سورة الأنبياء:٦٩.

فماذَا كانَتِ النتيجةُ؟

قالَ تعالَىٰ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وفِي ذلكَ أعظمُ دليلٍ علَىٰ أنَّ الإنسانَ مهمَا مسَّهُ منَ الضنكِ والشدائدِ، إن لجأَ إلَىٰ اللهِ سبحانَهُ فِي أمورِهِ أعانَهُ وتولَّاهُ ونصرَهُ، لكنَّ البلاءَ العظيمَ أَنَّ بعضَ الناسِ إذَا مسَّهُ الكربُ لجأَ إلَىٰ الأمورِ الماديَّةِ يبحثُ مِن خلالِهَا عنِ الفَرَجِ، ولَو تعلَّقَ قلبهُ بخالقِهِ لكفاهُ مَا أهمَّهُ.

ثمَّ إنَّ اعتمادَ القلبِ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ، واستنادَهُ وسكونَهُ إليهِ؛ يُذهِبُ عنهُ مَا يكونُ فِي القلوبِ منَ التشويشِ، والخوفِ مِن فواتِ الأسبابِ، لعلمِهِ أَنَّ هذهِ الأسبابَ بيدِ مُسَبِّبِهَا سبحانَهُ، ولذلكَ لَا يبالِي بإقبالِهَا وإدبارِهَا، ولَا يضطربُ قلبُهُ ويخفقُ عندَ إدبارِ مَا يحبُّ منهَا، وإقبالِ مَا يكرَهُ؛ لأنَّ اعتمادَهُ علَىٰ اللهِ وسكونَهُ إليهِ، واستنادَهُ إليهِ، قَد حصَّنَهُ مِن خوفِهَا ورجائِهَا، فحالُهُ فِي ذلكَ حالُ مَن خرجَ عليهِ عدوٌّ عظيمٌ لَا طاقةَ لهُ بهِ، فرأَىٰ حِصنًا مَفتُوحًا فأدخلَهُ صاحبُهُ إليهِ، وأغلقَ عليهِ بابَ الحصنِ، فهوَ يشاهدُ عدوَّهُ خارجَ الحصنِ، فاضطرابُ قلبهِ وخوفُه مِن عدوِّهِ فِي هذهِ الحالِ لَا معنَىٰ لهُ.

وروحُ التوكُّلِ ولبُّهُ وحقيقتُهُ فِي تفويضِ الأمورِ إلَىٰ اللهِ، وأَن يلقيَ المرءُ أمورَهُ كلَّهَا للهِ سبحانَهُ، وإنزالَهَا بهِ طلبًا واختيارًا، لَا كرهًا واضطرارًا.

وقَد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيمَا حكاهُ عَن مؤمنِ آلِ فرعونَ حيثُ قالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢)، والمفوِّضُ لَا يفوِّضُ أمرَهُ إلَىٰ اللهِ إلَّا لإرادتِهِ أَن يقضيَ لهُ مَا هوَ خيرٌ لهُ فِي معاشِهِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٤.

(٢) سورة غافر: ٤٤.

ومعادِهِ، وإِن كانَ المقضيُّ لهُ خلافَ مَا يظنُّهُ خيرًا فهوَ راضٍ بهِ لأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ خيرٌ لهُ وإِن خفيَت عليهِ جهةُ المَصلَحةِ فيهِ، وهكذَا حالُ المتوكلِ سواءً، بَل هوَ أرفعُ منَ المفوِّضِ، لأنَّ مقامَ التوكُّلِ اعتمادُ القلبِ كلِّهِ علَىٰ طاعةِ اللهِ بعدَ تفويضِهِ.

ومِن أجلِّ ثمراتِ التوكُّلِ علَىٰ اللهِ: الرضَا بمَا يقدِّرُهُ اللهُ سبحانَهُ، وهذَا مِن أعظمِ درجاتِ العبوديَّةِ، **قالَ بشرٌ الحافِي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ أحدُهُم: توكَّلتُ علَىٰ اللهِ، يكذبُ علَىٰ اللهِ، لَو توكَّلَ علَىٰ اللهِ لرضيَ بمَا يفعلهُ اللهُ بهِ».

فمَن وكَّلَ اللهَ سبحانَهُ فِي أمرِهِ، فمِن تمامِ عبوديَّتِهِ أَن يرضَىٰ بمَا كتبَ اللهُ لهُ وقدَّرهُ عليهِ فيمَا وكَّل اللهَ فيهِ منَ الأمورِ.

ومَن تأمَّلَ الجزاءَ الَّذِي جعلَهُ اللهُ تعالَىٰ للمتوكِّلِ عليهِ، وأنَّهُ لَم يجعلْهُ لغيرِهِ علِمَ أنَّ التوكُّلَ أحبُّ السُّبلِ الموصِلَةِ إليهِ سبحانَهُ، فقَد قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ الَّذِي وعدَ المتوكلينَ عليهِ بالكفايَةِ التامَّةِ والمعونةِ، وهوَّنَ عليهِم الأثقالَ وحمْلَ المشقةِ والمئونَةَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن تمَامِ التوكُّلِ الأخذَ بالأسبَابِ، ولَا يعنِي التوكلُ ألَّا يأخذَ العبدُ بالأسبابِ؛

(١) سورة الطلاق:٣.

لأنَّ تَرْكَ الأسبَابِ جُملَةً ممتنعٌ عَقلًا وحِسًّا، ومَا أحلَّ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ مِنَ الأسبَابِ، فقَد لبسَ دِرْعَينِ يومَ أُحُدٍ، واستأجرَ دليلًا مشركًا يدُلُّهُ علَىٰ طريقِ الهجرةِ، وكانَ إذَا سافرَ فِي حَجٍّ أَو جهادٍ حملَ الزادَ والمَزادَ، وهكذَا فعلَ أصحابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهُم أولُو التوكُّلِ حقًّا.

ومعَ كونِ الأخذِ بالأسبَابِ مِن تمامِ التوكُّلِ فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ ألَّا يلتفتَ قلبُهُ إلَىٰ الأسبابِ، بَل إلَىٰ مُسَبِّبِهَا سبحانَهُ، فقَد يجمعُ المَرءُ جميعَ الوسَائلِ الماديَّةِ ولَا يَتِمُّ لهُ مَا عزمَ عليهِ، فإنَّ الأمورَ بيدِ اللهِ.

ولمَّا كانَ الأمرُ كلُّهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وليسَ للعبدِ فيهِ شيءٌ البتَّة، كانَ توكُّلُهُ علَىٰ اللهِ تسليمَ الأمرِ لِمَن هُوَ لَه، وعزْلَ نفسِهِ عَن منازعَةِ مالِكِهِ، واعتمادَهُ عليهِ فيهِ، وخروجَهُ عَن تصرُّفِهِ بنفسِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ إلَىٰ تَصَرُّفِهِ بربِّهِ، وكونِهِ بِهِ سبحانَهُ دونَ نفسِهِ، وهذَا مقصودُ التوكُّلِ.

فإذَا عزلَ العبدُ نفسَهُ عَن مقامِ التوكُّلِ عَزَلَهَا عَن حقيقةِ العبوديَّةِ، وقَد خاطبَ اللهُ سبحانَهُ -فِي كتابِهِ- بالتوكُّلِ خواصَّ خلقِهِ وأقربَهُم إليهِ وأكرمَهُم عليهِ، وشَرَطَ فِي إيمانِهِم أَن يكونُوا متوكِّلِينَ، وهذَا يدلُّ علَىٰ انتفاءِ الإيمانِ عندَ انتفاءِ التوكُّلِ، فمَن لَا توكُّلَ لهُ لَا إيمانَ لهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

وقالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]، وهذَا يدلُّ علَىٰ انحصارِ المؤمنينَ فيمَن كانَ بهذِهِ الصفةِ، وأخبرَ تعالَىٰ عَن رُسُلِهِ بأنَّ التوكُّلَ ملجؤُهُم ومعاذُهُم، فقالَ تعالَىٰ:

(١) سورة المائدة:٢٣.

(٢) سورة الأنفال:٢.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)، وقالَ رسلُ اللهِ وأنبياؤُهُ: ﴿ **وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا** ﴾(٢)، فالعبدُ آفتُهُ إمَّا مِن عدمِ الهدايةِ، وإمَّا مِن عدمِ التوكُّلِ، فإذَا جمعَ التوكُّلَ إلَىٰ الهدايةِ فقَد جمعَ الإيمانَ كلَّهُ.

وقَد كانَ فِي دعاءِ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يدلُّ علَىٰ توكُّلِهِ الدائمِ علَىٰ خالقِهِ سبحانَهُ، فكانَ مِن دعائِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ: «**اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ**»(٣).

فإذَا كانَ هذَا حالُ الأنبياءِ -صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليهِم-، فينبغِي علَىٰ المسلمِ أَن يقتدِيَ بِهِم، وأَن يستشعرَ حقيقةَ التوكُّلِ فِي قلبِهِ، والَّتِي ينتجُ عنهَا ترجمةُ هذهِ العقيدةِ القلبيَّةِ علَىٰ لسانِهِ وجوارحِهِ، ويوقِنُ أشدَّ اليقينِ بأنَّ العبدَ إذَا توكَّلَ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ أورثَهُ ذلكَ علمًا أكيدًا بأنَّهُ لَا يملكُ لنفسِهِ ولَا لغيرِهِ حولًا ولَا قوَّةً، وأنَّ استطاعتَهُ بيدِ اللهِ لَا بيدِهِ، فهوَ مالِكُهَا دونَهُ، وأنَّهُ إنْ لَم يعطِهِ الاستطاعةَ فهوَ عاجزٌ، وأنَّهُ لَا يتحرَّكُ إلَّا باللهِ لَا بنفسِهِ؛ ولذَا كانَ مِن دعائِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا حيُّ يَا قيُّومُ، برحمتِكَ استغيثُ، أصلِح لِي شأنِي كلَّهُ ولَا تكِلنِي إلَىٰ نفسِي طرفةَ عينٍ**»(٤).

وكانَ مِن دعاءِ عليِّ بنِ الحسينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللهمَّ لَا تكِلنِي إلَىٰ نفسِي فأعجزُ عنهَا ولَا تكلنِي إلَىٰ المخلوقينَ فيضيِّعونِي».

---

(١) سورة يونس: ٨٤-٨٥.

(٢) سورة إبراهيم: ١٢.

(٣) رواه البخاري (١٠٥٣)، ومسلم (٤٨٩٤).

(٤) رواه النَّسائي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٦١).

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يلزمَ التوكُّلَ؛ لأَنَّهُ محضُ العبوديةِ وخالصُ التوحيدِ إذَا قامَ بهِ صاحبهُ حقيقةً، ومَن ترسَّخَت فِي قلبهِ هذهِ العقيدةُ فهوَ الموفَّقُ حقًّا.

اللهمَّ اغفِر لنَا وارحَمنَا، وتوفَّنَا وأنتَ راضٍ عنَّا..

(٣٥) الإخلاصُ

الحمدُ للهِ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ مَا أولاهُ مِن إحسانِهِ وإفضالِهِ، وأشكرُهُ علَىٰ جزيلِ بِرِّهِ ونوالِهِ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ فِي ربوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ وصفاتِ كمالِهِ، شهادةً أرجُو بهَا النجاةَ مِن شدائدِ يومِ الفزعِ وأهوالِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الَّذِي أنعمَ اللهُ علَىٰ جميعِ أهلِ الأرضِ ببعثِهِ وإرسالِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ صحبِهِ وآلِهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ أَن يكونَ مخلصًا بأعمالِهِ للهِ ربِّ العالمينَ، مبتغيًا وجهَ اللهِ بذلكَ، فالإخلاصُ مِن أجلِّ العباداتِ القلبيَّةِ الَّتِي يظهرُ أثرُهَا علَىٰ اللسانِ والجوارحِ، وبهِ يتميَّزُ العملُ المقبولُ منَ المردودِ، وحقيقةُ الإخلاصِ أَن يستويَ عندَ المسلمِ الغيبُ والشهادةُ، والسرُّ والعلانيةُ، والجماعةُ والخلوةُ، وأَن يخلِّصَ عملَهُ منَ الشوائبِ كلِّهَا قليلِهَا وكثيرِهَا، حتَّىٰ يتجرَّدَ فيهِ قصدُ التقرُّبِ إلَىٰ اللهِ، فلَا يكونُ فيهِ باعثٌ سواهُ.

فكلُّ شيءٍ يُتصوَّرُ أَن يشوبَهُ غيرهُ، فإذَا صفَا عَن شَوبِهِ وخَلُصَ منهُ سُمِّيَ خالصًا؛ **ولذلكَ قالَ يحيَىٰ بنُ معاذٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاصُ تَمييزُ العَملِ منَ العُيوبِ كتَمييزِ اللَّبنِ منَ الفرثِ والدَّمِ».

والإخلاصُ شرطٌ فِي قبولِ الأعمالِ، فإنَّهُ لَا يُقبلُ منَ الأعمالِ إلَّا مَا كانَ خالصًا لوجهِ اللهِ، وكانَّ صاحبَهُ متَّبعًا سُنَّةَ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العملُ الصالحُ أخلَصُهُ وأصوبُهُ، فإنَّ العملَ إذَا كانَ خالِصًا ولَم يكُن صوابًا لَم يُقبل، وإذَا كانَ صوابًا ولَم يكُن خالصًا لَم يُقبل، حتَّىٰ يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ إذَا كانَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والصوابُ إذَا كانَ علَىٰ السنَّةِ».

مِن أجلِ ذلكَ فلا بُدَّ للمسلمِ أَن يُفرِّغَ قلبَهُ لخالقِهِ سبحانَهُ فلَا يبقَىٰ فيهِ شركٌ لأحدٍ معَ اللهِ، وأَن يُخرجَ حظوظَ النَّفسِ وملاحظةَ الخلقِ مِن جميعِ أعمالِهِ ظاهرًا وباطنًا، وهذهِ منزلةٌ لَا يُوَفَّقُ إليهَا إلَّا مَن أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهِ خيرًا، وذلكَ أنَّ الإخلاصَ مِن أشدِّ الأمورِ علَىٰ النفسِ؛ لأنَّهُ ليسَ لهَا فيهِ نَصيبٌ، وإنَّمَا هوَ بذلُ العملِ للهِ دونَ النظرِ إلَىٰ متاعِ الدنيَا.

والإخلاصُ قائدٌ إلَىٰ أبوابِ الخَيرِ، جامعٌ لخِصَالِ البرِّ، هادٍ إلَىٰ سُبُلِ الرشادِ والنَّعيمِ المُقيمِ فِي دارِ الكرامةِ، ويَدفعُ عَن أصحابِهِ مصارعَ السوءِ، ولذلكَ عَظُمَتِ الوصيَّةُ بهِ منَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلفِ الأمَّةِ الكرام؛ لأنَّ قيامَ الأعمالِ عليهِ، ولَن تُقطفَ ثمرةُ العملِ إلَّا إذَا أُحسِنَ الغرسُ، وتأمَّل قولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وإنَّ فِي الجسدِ مُضغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدَت فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ**»(١).

فهذَا إخبارٌ منهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ صلاحَ القَلبِ مستلزِمٌ لصَلاحِ سائرِ الجسدِ، وفسادَهُ مستلزمٌ لفسادِهِ، فإذَا رُئِيَ ظاهِرُ الجسدِ فاسدًا غيرَ صالحٍ، عُلِم أنَّ القلبَ ليسَ بصالحٍ بَل فاسدٍ، ويمتنعُ فسادُ الظاهرِ معَ صلاحِ الباطنِ، كمَا يمتنعُ صلاحُ الظاهرِ معَ فسادِ الباطنِ؛ إذ كانَ صلاحُ الظاهرِ وفسادُهُ مُلازمًا لصلاحِ الباطنِ وفسادِهِ.

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانَ العلماءُ فيمَا مضَىٰ يكتبُ بعضُهُم إلىٰ بعضٍ

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦).

بهؤلاءِ الكلماتِ: مَن أصلحَ سريرتَهُ أصلحَ اللهُ علانيَتَهُ، ومَن أصلحَ مَا بينَهُ وبينَ اللهِ أصلحَ اللهُ مَا بينَهُ وبينَ الناسِ، ومَن عَمِلَ لآخرتِهِ كفاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أمرَ دنياهُ».

وقَدِ اعتنَىٰ السلفُ بإصلاحِ السرائرِ لعلمِهِم أنَّ إصلاحَهَا ينتجُ عنهُ صلاحُ الأعمالِ والأحوالِ؛ ممَّا يعودُ عليهِم بالنفعِ فِي الدِّينِ والدنيَا، وفِي أمرِ الآخرةِ والأولَىٰ.

قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **لرجلٍ:** «عليكَ بعملِ العلانيةِ. قالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، ومَا عملُ العلانيةِ؟ قالَ: مَا إذَا اطُّلِعَ عليكَ لَم تستحِي منهُ».

وليسَ تحقيقُ الإخلاصِ بالأمرِ السَّهلِ، ولذلكَ كانَ أشدَّ مَا يكونُ علَىٰ صاحبِ العملِ، **قالَ أيوبُ السختيانيُّ:** «تخليصُ النيَّاتِ علَىٰ العُمَّالِ أشدُّ عليهِم مِن جميعِ الأعمالِ»، **وقالَ بعضُ السلفِ:** «فِي إخلاصِ ساعةٍ نجاةُ الأبدِ، ولكنَّ الإخلاصَ عزيزٌ».

وكانَ سلفُ الأمَّةِ رَحِمَهُمُٱللَّهُ يجتهدونَ فِي المحافظةِ علَىٰ الإخلاصِ فِي أعمالِهِم بالرغمِ مِن تزيُّنِ الدنيَا لهُم، وبالرغمِ مِن كثرةِ الدواعِي الَّتِي تدورُ حولَهُم لإظهارِ أعمالِهِم، ومعَ ذلكَ كانُوا شديدِي التمسُّكِ بحسنِ النوايَا وإخلاصِ أعمالِهِم للهِ تعالَىٰ، فأعقبَهُمُ اللهُ رفعةً فِي الدنيَا، وعلوَّ شأنٍ فِي العلمِ والعملِ والذكرِ الحسنِ، لِمَا وافقَ قلوبَهُم منَ الإخلاصِ.

قالَ عَبدَةُ بنُ سليمانَ: «كنَّا فِي سريَّةٍ معَ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ فِي بلادِ الرومِ فصادفنَا العدوَّ، فلمَّا التقَىٰ الصفَّانِ خرجَ رجلٌ منَ العدوِّ فدعَا إلَىٰ المبارزةِ، فخرجَ إليهِ رجلٌ فطاردَهُ ساعةً فطعنَهُ فقتلَهُ، ثمَّ آخرُ فقتلَهُ، ثمَّ آخرُ فقتلَهُ، فازدحمَ الناسُ عليهِ، وكنتُ فيمَنِ ازدحَمَ عليهِ، فإذَا هوَ يلثِّمُ وجهَهُ بكُمِّهِ، فأخذْتُ بطرَفِ كمِّهِ فمددتُهُ، فإذَا هوَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ، فقالَ: وأنتَ يَا أبَا عمرَ ممَّن يشنِّعُ علينَا؟».

والإخلاصُ فِي النيَّةِ سببٌ لجريانِ الأجرِ وإن لَم يعملِ المسلمُ العملَ الصالحَ، وقَد

قالَ قائلٌ: «دلُّوني علَىٰ عملٍ لَا أزالُ بِهِ عاملًا للهِ تعالَىٰ، فقيلَ لهُ: انوِ الخيرَ، فإنَّكَ لَا تزالُ عاملًا وإن لَم تعمَل، فالنيَّةُ تعملُ وإن عُدِمَ العملُ»، **وقالَ جعفرُ بنُ حيَّانٍ**: «ملاكُ هذهِ الأعمالِ النيَّاتُ، فإنَّ الرجلَ يبلغُ بنيَّتِهِ مَا لَا يبلغُ بعملِهِ».

والإخلاصُ سببٌ للوقايةِ مِن مصارعِ السوءِ ومواردِ الهلاكِ، وقَد جاءَ فِي السنَّةِ النبويَّةِ الشريفةِ مَا يوضِّحُ ذلكَ، فقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممَّن كانَ قبلَكُم حتَّىٰ آواهُمُ المبيتُ إلَىٰ غارٍ فدخلوهُ، فانحدَرَت صخرةٌ منَ الجبلِ فسدَّت عليهِمُ الغارَ، فقالُوا: إنَّهُ لَا ينجِّيكُم مِن هذهِ الصخرةِ إلَّا أَن تدعُوا اللهَ بصالحِ أعمالِكُم، فقالَ رجلٌ منهُم: اللهمَّ كانَ لِي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، وكنتُ لَا أغبقُ قبلهُمَا أهلًا ولَا مالًا، فنأَىٰ بِي طلبُ الشجرِ يومًا فلَم أرِح عليهِمَا حتَّىٰ نامَا، فحلبتُ لهُمَا غبوقَهُمَا فوجدتُهُمَا نائمينِ، فكرهتُ أَن أوقظَهُمَا وأَن أغبقَ قبلهُمَا أهلًا أَو مالًا، فلبثتُ -والقدحُ علَىٰ يدِي- أنتظرُ استيقاظَهُمَا حتَّىٰ برقَ الفجرُ والصبيةُ يتضاغونَ عندَ قدميَّ، فاستيقظَا فشربَا غبوقَهُمَا، اللهمَّ إِن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّج عنَّا مَا نحنُ فيهِ مِن هذهِ الصخرةِ، فانفرجَت شيئًا لَا يستطيعونَ الخروجَ منهُ.**

وقالَ الآخرُ: اللهمَّ إنَّهُ كانَت لِي ابنةُ عمٍّ كانَت أحبَّ الناسِ إلَيَّ -وفِي روايةٍ: **كنتُ أحبُّهَا كأشدِّ مَا يحبُّ الرجالُ النساءَ**-، **فأردتُهَا عَن نفسِهَا فامتنعَت منِّي، حتَّىٰ ألَمَّت بهَا سنةٌ منَ السنينَ فجاءَتنِي فأعطيتُهَا عشرينَ ومائةَ دينارٍ علَىٰ أَن تخلِّي بينِي وبينَ نفسِهَا ففعَلَت، حتَّىٰ إذَا قدرتُ عليهَا** -وفِي روايةٍ: **فلمَّا قعدتُ بينَ رِجلَيهَا**-، **قالَت: اتَّقِ اللهَ ولَا تفضَّ الخاتمَ إلَّا بحقِّهِ، فانصرفتُ عنهَا وهيَ أحبُّ الناسِ إلَيَّ وتركتُ الذَّهبَ الَّذِي أعطيتُهَا، اللهمَّ إِن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّج عنَّا مَا نحنُ فيهِ، فانفرجَتِ الصخرةُ غيرَ أنَّهُم لَا يستطيعونَ الخروجَ منهَا.**

وقالَ الثالثُ: اللهمَّ إنِّي استأجرتُ أُجَرَاءَ فأعطيتُهُم أجرَهُم غيرَ رجلٍ واحدٍ تركَ الَّذِي لهُ وذهبَ، فثمَّرْتُ أجرَهُ حتَّىٰ كثَّرتُ منهُ الأموالَ، فجاءَنِي بعدَ حينٍ فقالَ: يَا عبدَ اللهِ، أدِّ إليَّ أجرِي، فقلتُ: كلُّ مَا ترَىٰ مِن أجرِكَ -منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ-.

فقالَ: يَا عبدَ اللهِ لَا تستهزِئْ بِي، فقلتُ: لَا أستهزِئُ بكَ، فأخذَهُ كلَّهُ فاستاقَهُ فلَم يترُك منهُ شيئًا، اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ ففرِّج عنَّا مَا نحنُ فيهِ، فانفرجَتِ الصخرةُ فخرجُوا يمشونَ»[1].

فهذَا الحديثُ العظيمُ يبيِّنُ كيفَ أنَّ الإخلاصَ كانَ سببًا فِي إنقاذِ هؤلاءِ النَّفرِ الثلاثةِ، حيثُ توسَّلُوا إلَىٰ اللهِ سبحانَهُ بالعملِ الصالحِ الَّذِي أخلصُوا فيهِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ففرَّجَ اللهُ عنهُم بذلكَ، ووقاهُم مصرعَ السوءِ.

فهذَا حثٌّ علَىٰ الإخلاصِ وبيانٌ لأهميَّتِهِ، فإذَا كانَت تلكَ ثمراتُهُ الدنيويَّةُ مِن تفريجِ الكروبِ، فكيفَ بأجرِهِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؟!

فلذَا ينبغِي علَىٰ المسلمِ العاقلِ أَن يُجَاهدَ نفسَهُ أشدَّ المجاهدةِ ليُنقِّي أعمالَهُ منَ الشوائبِ، حتَّىٰ تكونَ خالصةً لوجهِ اللهِ تعالَىٰ؛ **ولذَا قالَ بعضُ السلفِ:** «إنَّ للهِ عبادًا عقلُوا، فلمَّا عقلُوا علِمُوا، فلمَّا علِمُوا أخلصُوا، فاستدعاهمُ الإخلاصُ إلَىٰ أبوابِ البرِّ أجمَع».

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه البخاري (٢١١١)، ومسلم (٤٩٢٦).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ الإخلاصَ مِن أعظمِ أسبابِ النجَاةِ مِن عذابِ الآخرةِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[1].

وفِي ذلكَ أتمُّ بيانٍ علَىٰ أنَّ العبدَ إذَا عبَدَ اللهَ مخلصًا لهُ الدِّينَ حالَ رخائِهِ مشفقًا مِن عذابِهِ، فإنَّ ذلكَ سببٌ لنجاتِهِ.

والإخلاصُ سببٌ لمَحبَّةِ اللهِ تعالَىٰ وأهلِ السمواتِ للمخلصِ، ووضعِ القبولِ لهُ فِي الأرضِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ إذَا أحبَّ عبدًا دعَا جبريلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيحبُّهُ جبريلُ ثمَّ ينادِي فِي السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبُّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ، قالَ: ثمَّ يوضَعُ لهُ القبولُ فِي الأرضِ**»[2].

كمَا أنَّ الإخلاصَ مِن أسبَابِ وقايةِ دِينِ العبدِ منَ الآفاتِ، ولذلكَ لمَّا اشتدَّ البلاءُ بيوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيثُ تعرَّضَت لهُ امرأةُ العزيزِ وراودَتهُ عَن نفسِهِ، فقَد لجأَ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مخلصًا أَن ينجِّيَهُ منَ الوقوعِ فِي الفتنةِ والإثمِ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ لِما عَلِمَ مِن

(١) سورة الإنسان:٨-١٢.

(٢) رواه البخاري (٢٩٧٠)، ومسلم (٤٧٧٢).

إخلاصِهِ فِي مناشدَتِهِ، حتَّىٰ صارَ السجنُ أحبَّ إليهِ منَ الوقوعِ فِي معصيةِ اللهِ، حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾(١). فنجَّاهُ اللهُ تعالَىٰ بسببِ إخلاصِهِ، وأثنَىٰ عليهِ بقولهِ تعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٢).

وكذلكَ كلُّ مَن صرفَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ الإثمَ ودواعِيَهُ، فإنَّ ذلكَ دليلٌ علَىٰ تديُّنِهِ وإخلاصِهِ، وأنَّ اللهَ قَد أرادَ بِهِ خيرًا، وجعلَ مِن علاماتِ ذلكَ أَنْ صرَفَهُ عَنِ الإثمِ، وصرَفَ الإثمَ عنهُ.

نسألُ اللهَ أَن يَهدِيَ قُلوبَنا، وأَن يرزقَنَا الإخلاصَ والقبولَ.

❊❊❊

(١) سورة يوسف:٣٣.

(٢) سورة يوسف:٢٤.

(٣٦) الرياءُ عدوُّ الإخلاصِ

الحمدُ للهِ الَّذِي خلقَ السمواتِ والأرضَ وجعلَ الظلمَاتِ والنورَ ثمَّ الَّذِينَ كفَرُوا بربِّهِم يعدِلُونَ، نصبَ أدلةَ مخلوقاتِهِ، وأقامَ براهينَ آياتِهِ، وتحبَّبَ بنِعَمِهِ وآلائِهِ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لَا يعلمونَ، أحمَدُهُ سبحانَهُ علَىٰ مَا أولاهُ مِن عظيمِ إنعامِهِ، ومَا اختصَّنَا بهِ مِن معرفتِهِ وإكرامِهِ، وهدانَا لتوحيدِهِ وإسلامِ الوجهِ لهُ، وقَد ضلَّ عَن ذلكَ الأكثرونَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الصادقُ المأمونُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ الَّذِينَ هُم بسنَّتِهِ مستمسِكُونَ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِنَ الحقَائقِ المسلَّمةِ الَّتِي يشهدُ لهَا واقعُ الناسِ، أنَّ نفوسَ البشرِ تميلُ بطبيعتِهَا إلَىٰ حبِّ المدحِ والثناءِ، وأَن يكونَ للمرءِ منزلةٌ فِي قلوبِ الناسِ والَّتِي ينتجُ عنهَا بعدَ ذلكَ تعظيمُهُ وطاعتُهُ وإضفاءُ صفاتِ المدحِ والثناءِ عليهِ، ولذلكَ كانَ أعظمُ مَن يُبتلَىٰ بهذِهِ الآفةِ الخطيرةِ العلماءُ العاملونَ، والعُبَّادُ المشمِّرُونَ لطاعةِ اللهِ؛ لأنَّهُم لمَّا منعُوا أنفسَهُم منَ الشهواتِ والمعاصِي الظاهرةِ، أعيَتِ الشيطانَ الحيلةُ منهُم فلَم يجِد إليهِم سبيلًا إلَّا عَن طريقِ الشهوةِ الخفيةِ، وهيَ مراءاةُ الناسِ بالأعمالِ والأقوالِ.

فالرياءُ هوَ إظهارُ العبادةِ لقصدِ رؤيةِ الناسِ لهَا فيحمدونَ صاحبَهَا، وهوَ الشهوةُ الخفيَّةُ الَّتِي يقودُ إليهَا محبَّةُ مدحِ الناسِ، والبحثُ عنِ المنزلةِ فِي قلوبِهِم؛ **لذَا قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إيَّاكُم والشهوةَ الخَفِيَّةَ، قالُوا: ومَا هيَ؟ قالَ: الَّذِي يحبُّ أَن يُمدَحَ علَىٰ الخيرِ».

فالنفسُ تحبُّ انتشارَ الصيتِ والاشتهارَ، وذلكَ هوَ الداءُ الدَّفينُ الَّذي نسجَ الشيطانُ شباكَهُ مِن خلالِهِ ليصطادَ بهِ أهلَ الاستقامةِ والتديُّنِ لمَّا أعيَوْهُ باستقامةِ سلوكِهِم علَىٰ الطاعةِ، فاجتهَدَ أَن يحرِفَ نيَّاتِهِم عَن جادَّةِ الحقِّ، فيبوءُوا بحبوطِ أعمالِهِم وذهَابِ أجورِهِم.

فالرياءُ عدوُّ الإخلاصِ، يُحبِطُ الأعمالَ، ويؤذنُ بحلولِ غضبِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علَىٰ مَنِ اتَّصَفَ بِهِ، قالَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[(١)].

ولأنَّ اللهَ سبحانَهُ لَا يقبلُ منَ الأعمالِ إلَّا مَا كانَ خالصًا لهُ وحدَهُ سبحانَهُ دونَ مَا سواهُ، فقَد حذَّرَ عبادَهُ مِن مُراءاةِ الخلقِ بأعمالِهِمُ الصالِحةِ فيجعلونَهُم شركاءَ معَ اللهِ تعالَىٰ، قالَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: أنَا أغنَىٰ الأغنيَاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عملًا أشركَ فيهِ معِي غَيرِي تَركتُهُ وشِركَهُ**»[(٢)].

وحذَّرَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منَ الرياءِ لعظيمِ خطرِهِ، فقالَ: «**إنَّ أخوفَ مَا أخافُ عليكُم الشركَ الأصغرَ. قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ومَا الشركُ الأصغرُ. قالَ: الرياءُ، يقولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لهُم يومَ القيامةِ إذَا جزَىٰ الناسَ بأعمالِهِم: اذهَبُوا إلَىٰ الذينَ كُنتُم تُرَاءُونَ فِي الدنيَا، هَل تجدونَ عندَهُم مِن جَزاءٍ**»[(٣)].

ومَا كانَ هذَا الوَعيدُ الشديدُ إلَّا لأنَّ هذَا المُرائِي قَدِ التمسَ بعملِهِ الصالِحِ رضَا المخلوقينَ ومَدْحَهُم، فكانَ جزاؤُهُ أَن وكَلَهُ اللهُ سبحانَهُ لِمَن كانَ يرائِيهِم فِي عملِهِ ويطلبُ مدحَهُم وثناءَهُم.

---

(١) سورة الماعون: ٤-٧.

(٢) رواه مسلم (٥٣٠٠).

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥١).

ومِن أجلِ ذلكَ فقَد عَظُمَ خوفُ السلفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وتحذيرُهُم منَ الرياءِ، ومَا كانَ ذلكَ إلَّا لعظيمِ إخلاصِهِم ومعرفتِهِم بخطرِ الرياءِ، حيثُ يُذهِبُ الدِّينَ، ويَقتلُ روحَ العبَادةِ، فتكونُ كالجسدِ الَّذِي لَا يحوِي روحًا فلَا حياةَ لهُ ولَا نجاةَ.

كتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لأبِي موسَىٰ**: «مَن خَلُصَت نيَّتُهُ كفاهُ اللهُ تعالَىٰ مَا بينَهُ وبينَ الناسِ، ومَن تزيَّنَ للناسِ بغيرِ مَا يعلمُ اللهُ مِن قلبهِ شانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فمَا ظنُّكَ فِي ثوابِ اللهِ فِي عاجِلِ رزقِهِ، وخزائِنِ رحمتِهِ، والسلامُ».

ومَن تأمَّلَ سيرةَ السلفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَجَدَ أنَّهُم مِن أبعدِ الناسِ عنِ الرياءِ معَ قوَّةِ عبَادتهِم وإخلاصِهِم، وقَد كانُوا يُؤثِرُونَ الخمولَ ويكرهونَ المدحَ خوفًا علَىٰ أنفسهِم مِن زيغِ القلوبِ وتغيُّرِ النيَّاتِ، ولذلكَ أعقبَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأورثَهُم ذكرًا حسنًا وثناءً عطرًا، ودعاءً صادقًا علَىٰ لسانِ المسلمينَ، وعلَىٰ قدرِ مَا كانُوا مخلصينَ بأعمالِهِم مُبتَعدينَ عنِ الرياءِ وحبِّ المدحِ علَىٰ قدرِ مَا فتحَ اللهُ لهُم قلوبًا غُلفًا وآذانًا صمًّا، فنفعَ اللهُ بأعمالِهِم وأقوالِهِم، وكانُوا كالغيثِ الَّذِي إذَا حَلَّ بأرضٍ قاحلةٍ عادَت مروجًا وأنهارًا، فسُقيَ منهَا الظمآنُ، وانبتَتِ الكلأَ وانتفعَ بهَا الإنسانُ والحيوانُ.

وقَد قالَ عليُّ بنُ الفضيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ **لأبيهِ**: «يَا أبتِ، مَا أحلَىٰ كلامَ أصحابِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقالَ: يَا بنيَّ، وتدرِي لِمَ حلَا؟ قالَ: لَا يَا أبتِ. قالَ: لأنَّهُم أرادُوا اللهَ بهِ».

وقالَ ابنٌ لعُمرَ بنِ ذرٍّ لأبيهِ: «مَا بالُ المتكلمينَ يتكلَّمونَ فلَا يبكِي أحدٌ، فإذَا تكلَّمتَ يَا أبتِ سمعتُ البكاءَ مِن هاهنَا وهاهنَا؟ فقالَ: يَا بُنَيَّ، ليسَتِ النائحةُ المستأجرةُ كالنائحةِ الثَّكلَىٰ».

أيُّهَا المسلِمُونَ:

لقَد كانَ كثيرٌ منَ السَّلفِ يُخفِي عبادتَهُ حتَّىٰ عَن أقربِ الناسِ إليهِ خوفًا مِنَ الرياءِ

وطلبًا للإخلاصِ، وكانُوا يحبُّونَ خُمولَ الذكرِ بالرغمِ ممَّا حباهُمُ اللهُ بهِ مِنَ العلمِ والديانَةِ.

قالَ محمَّدُ بنُ واسِعٍ: «لقَد أدرَكتُ رجالًا، كانَ الرجلُ يكونُ رأسُهُ معَ رأسِ امرأتهِ علَىٰ وسَادةٍ واحدةٍ، قَد بلَّ مَا تحتَ خَدِّهِ مِن دموعِهِ، لَا تشعرُ بهِ امرأتُهُ، ولَقَد أدركتُ رجالًا يقومُ أحدُهُم فِي الصفِّ فتَسيلُ دموعُهُ علَىٰ خدِّهِ، ولَا يشعرُ بِهِ الَّذِي إلَىٰ جنبهِ».

وقالَ إسحاقُ بنُ حنبلٍ: «دخلتُ علَىٰ أحمدَ ويدُهُ تحتَ خدِّهِ، فقلتُ لَهُ: يَا ابنَ أخِي، أيُّ شيءٍ هذَا الحُزنُ، فرفعَ رأسَهُ وقالَ: طوبَىٰ لِمَن أخملَ اللهُ ذكرَهُ».

وكانَ أيوبُ السختيانيُّ يقومُ الليلَ كلَّهُ فيُخفِي ذلكَ، فإذَا كانَ عندَ الصبحِ رفعَ صوتَهُ، كأنَّهُ قامَ تلكَ الساعةَ.

وقالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وددتُ أَنَّ كلَّ علمٍ أعلمُهُ يعلمُهُ الناسُ، أؤجرُ عليهِ، ولَا يحمدونِي».

رحِمَهُمُ اللهُ، ومَن يصلُ إلَىٰ مَا وصلُوا إليهِ مِن قوَّةِ الإخلاصِ، والبُعدِ عَنِ المدحِ وحُبِّ الظهورِ.

إنَّ الرياءَ فِي الدِّينِ أمرٌ خطيرٌ، ولذلكَ خَوَّفَت منهُ النصوصُ الشرعيَّةُ، ومِن ذلكَ أَن يُرائِيَ بأنواعٍ منَ العبَاداتِ؛ كتطويلِ المصلِّي صلاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ الناسِ إليهِ، أَو يتصدَّقُ أَو يصومُ لطلبِ المَدحِ والثناءِ.

ومنهُ مَا يكونُ بالقَولِ، كمَن يعظُ ويذكِّرُ أَو يحفظُ الأخبارَ والآثارَ لأجلِ المحاورةِ وإظهارِ غزارةِ العلمِ، أَو تحسينُ الصوتِ بالقرآنِ ليجتمعَ إليهِ الناسُ.

ومنهُ مَا يفعلُهُ بعضُ الناسِ مِن إظهارِ علاماتِ الخمولِ والذبولِ بسببِ العبادةِ، وهذهِ أنواعٌ منَ الرياءِ، وتكونُ رياءً إذَا قصَدَ فِي دينهِ طلبَ مراءاةِ المخلوقينَ وحُبَّ مدحِهِم والتماسَ الثناءِ منهُم عليهِ، وإلَّا لَو أنَّ اللهَ أنعمَ عليهِ بنعمةٍ منَ النعمِ الدينيَّةِ،

كالصلاةِ أوِ الصومِ، أَو فُتِحَ عليهِ فِي جمالِ صوتِهِ بالقرآنِ، أَو أمرِهِ بالمعروفِ ونهيِهِ عنِ المنكرِ، أَو وعظِهِ للناسِ وتأثيرِهِ فيهِم، وهوَ لَا يريدُ المدحَ منهُم ولَا يحبُّهُ ومدحوهُ علَىٰ ذلكَ، فهذَا ليسَ منَ الرياءِ، بَل إنَّهُ ممَّا عجَّلَهُ اللهُ لهُ منَ البُشرَىٰ الحسنةِ.

وقَد قيلَ لرسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا رسولَ اللهِ، أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ مِنَ الخيرِ، ويحمدهُ الناسُ عليهِ؟ فقالَ: تلكَ عاجلُ بشرَىٰ المؤمنِ**»(١).

أمَّا إذَا كانَ يعملُ العملَ وذكرَهُ الناسُ بهِ ففَرِحَ بمدحِهِم لاطِّلَاعِهِ بعلوِّ منزلتِهِ عندَهُم، وطمعًا فِي أَن يمدحوهُ ويعظِّموهُ ويكرِمُوهُ علَىٰ ذلكَ فهذَا هوَ المذمومُ.

ومِن أعظَمِ علاماتِ الرياءِ: أَن يعملَ المرءُ العملَ، فإذَا اطَّلَعَ عليهِ الناسُ سَرَّهُ ذلكَ وارتاحَ لهُ، وروَّحَ ذلكَ عَن قلبهِ شدَّةَ العبادةِ، فهذَا السُّرورُ يدلُّ علَىٰ رياءٍ خفيٍّ فِي قلبهِ، وأنَّهُ لولَا التفاتُ قلبهِ إلَىٰ الناسِ لَمَا ظهرَ سرورُهُ عندَ اطِّلَاعِ الناسِ علَىٰ عملِهِ، فَعُلِمَ بذلكَ أنَّ الرياءَ كانَ مستكنًّا فِي قلبهِ استكنانَ النارِ فِي الحجرِ، فأظهرَ منَ اطِّلاعِ الناسِ أثرَ الفرحِ والسرورِ، ثمَّ استشعرَ تلكَ اللذَّةَ بالاطلاعِ ولَم يقابِل ذلكَ بكراهةٍ.

وقَد يتخفَّىٰ المرءُ بعبادتِهِ ولَا يريدُ أَن يطَّلِعَ عليهِ أحدٌ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ إذَا رأَىٰ الناسَ أحبَّ أَن يبدءوهُ بالسَّلامِ، وأَن يقابلوهُ بالبشاشةِ والتوقيرِ، وينشطُوا فِي قضاءِ حوائجِهِ، ويسامحوهُ فِي المعاملةِ، ويوسِّعُوا لهُ بالمكانِ، فإذَا قصَّرَ فِي ذلكَ مقصِّرٌ، شقَّ عليهِ وثَقُلَ ذلكَ علَىٰ قلبهِ، وكأنَّ نفسَهُ تتقاضَىٰ الاحترامَ علَىٰ الطاعةِ الَّتِي أخفاهَا.

ولَا زالَ المخلصونَ يخافونَ منَ الرياءِ علَىٰ أعمالِهِم، ويجتهدونَ فِي مخادعةِ

---

(١) رواه مسلم (٤٧٨٠).

الناسِ عَن أعمالِهِم الصالحةِ، ويحرصونَ علَىٰ إخفائِهَا أعظمَ مَا يحرصُ الناسُ عَن إخفاءِ فواحِشِهِم، كلُّ ذلكَ رجاءَ أَن يخلُصَ عَملُهُم لوجهِ اللهِ، ليُجَازيَهُمُ اللهُ تعالَىٰ يومَ القيامةِ بإخلاصِهِم.

قالَ وهبُ بنُ مُنبِّهٍ: «ذُكِر لأحدِ الملوكِ رجلٌ منَ العُبَّادِ، فطمعَ فِي لقائِهِ، فركبَ فِي موكبِهِ وإذَا السَّهلُ قدِ امتلأَ منَ الناسِ، فقالَ العابدُ: مَا هذَا؟ قيلَ: هذَا الملكُ. فقالَ لصاحبِهِ: ائتنِي بطعامٍ، فجعلَ يحشُو فمَهُ ويأكُلُ أكلًا عنيفًا. فقالَ المَلِكُ: أينَ صاحبُكُم؟ فقالُوا: هذَا. فقالَ: كيفَ أنتَ؟ قالَ: كالناسِ. فقالَ الملكُ: مَا عندَ هذَا خيرٌ، وسقطَ مِن عينِهِ، فلمَّا انصرفَ قالَ العابدُ: الحمدُ للهِ الَّذِي صَرَفَهُ عنِّي وهوَ لائِمٌ».

ولذَا قالَ أيوبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللهِ مَا صدقَ عبدٌ إلَّا سرَّهُ ألَّا يُشعَرَ بمكانِهِ».

وقالَ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قُل لعبدِ الوهَّابِ: أخمِل ذكرَكَ فإنِّي قَدِ ابتُليتُ بالشهرةِ».

هذَا وإنَّ أشدَّ مَا عانَىٰ منهُ الأتقياءُ المخلصونَ تثبيتُ النيَّاتِ علَىٰ إخلاصِ العملِ للهِ ربِّ العالمينَ، **حتَّىٰ قالَ بعضُ علماءِ السلفِ**: «اثنانِ أعالجهُمَا منذُ ثلاثينَ سنةً: تركُ الطمعِ فيمَا بينِي وبينَ الناسِ، وإخلاصُ العملِ للهِ ربِّ العالَمِينَ».

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ تعظيمًا لشانِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا يدفعُ المسلمَ إلَىٰ تجنُّبِ الرياءِ وتحقيقِ الإخلاصِ: أَن يُفَرِّغَ قلبَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ،

وأَن يُجاهدَ فِي تثبيتِ نيَّتِهِ علَىٰ إرادةِ وجهِ اللهِ فِي أعمالِهِ كلِّهَا، وأَن يعلمَ المسلمُ مضرَّةَ الرياءِ فِي الآجلةِ والعاجلةِ، ومَا يفوتهُ بسببِ ذلكَ مِن صلاحِ قلبِهِ، ومنَ المنزلةِ فِي الآخرةِ، ومَا يتعرَّضُ لهُ منَ العذابِ والمقتِ والخزيِ يومَ القيامةِ، معَ مَا يتعرَّضُ لهُ فِي الدنيَا مِن تشتُّتِ قلبهِ منَ الهمِّ بسببِ ملاحظةِ الخَلقِ وطلبِ رضاهُم، فإنَّ إرضاءَ الناسِ غايةٌ لَا تُدرَكُ، ومَا يُرضِي قومًا يُسخِطُ آخرينَ، ومَن طلبَ رضَا الناسِ فِي سخطِ اللهِ سَخَطَ اللهُ عليهِ وأسخطَ عليهِ الناسَ.

ثمَّ ماذَا يجنِي العبدُ مِن وراءِ مدحِ الناسِ، ولَا يزيدُهُ مدحُهُم رزقًا ولَا أجلًا، ولَا ينفعهُ يومَ فقرهِ وفاقتِهِ حينَ يقفُ بينَ يدي اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومَا الَّذِي يَحذَرُهُ العبدُ مِن ذمِّ الناسِ لهُ إذَا عملَ بطاعةِ اللهِ ولَا يضرُّهُ ذمُّهُم شيئًا، ولَا يُعجِّلُ أجلَهُ، ولَا يؤخِّرُ رزقَهُ، فإنَّ العبادَ كلَّهُم عجزةٌ لَا يملكونَ لأنفسِهم نفعًا ولَا ضرًّا، ولَا يملكونَ موتًا ولَا حياةً ولَا نشورًا.

فإذَا تَقَرَّرَ ذلكَ فِي نفسِهِ ضَعُفَت رغبتُهُ فِي الرياءِ، وأقبلَ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ بقلبِهِ، فإنَّ العاقلَ لَا يرغبُ فيمَا يضرُّهُ ويقلُّ نفعُهُ، فإنَّ أكثرَ الناسِ إنمَا هلكُوا لخوفِ مذمَّةِ الناسِ وحُبِّ مدحِهِم، فصارَت حركاتُهُم كلُّهَا علَىٰ مَا يوافقُ رضَا الناسِ، رجاءَ المدحِ وخوفًا منَ الذمِّ، وذلكَ منَ المهلكاتِ، فوجبَ علَىٰ العاقلِ معالجةُ نفسِهِ.

وإنَّ مِن أعظمَ مَا يُضْعِفُ رغبةَ الرياءِ فِي قلبِ العبدِ: عِلمَهُ أنَّ مَا يحصلُ لهُ منَ الثناءِ والمدحِ علَىٰ ألسنةِ الخلقِ إنَّمَا هوَ مِن فضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليهِ، ولجميلِ سترِ اللهِ لعيوبِهِ عنِ الناسِ حيثُ أطلَعَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علَىٰ جميلِ أفعالِهِ، وأظهرَ عليهِ الطاعةَ وسترَ عليهِ القبيحَ منَ الأفعالِ، وأظهرَ الجميلَ منهَا حتَّىٰ قامَت لهُ المنزلةُ فِي قلوبِ الناسِ، وهذَا يوجبُ لهُ أَن يحمدَ اللهَ علَىٰ جميلِ سترهِ وأَن يفرحَ بسترِ اللهِ لهُ لَا بحمدِ الناسِ، وهذَا ممَّا يرسِّخُ عندَ العبدِ أَنَّ الأمورَ كلَّهَا بيدِ اللهِ، وأنَّ قلوبَ العبادِ بينَ أصابعِهِ يقلِّبُهَا كيفَ

يشاءُ، فيطلُبُ بعملِهِ التقرُّبَ إِلَىٰ اللهِ لَا مدحَ الخَلقِ عَلَىٰ مَا يعملهُ للهِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: «إذَا رأيتَ منَ الناسِ ثناءً فلَا تغترَّ، فإنمَا ذلكَ بجميلِ سترِ اللهِ عليكَ».

هذَا وإنَّ ممَّا يجدرُ التنبُّهُ لهُ: أَنَّهُ ليسَ لخوفِ العبدِ منَ الرياءِ أَن يتركَ الطاعاتِ، بَلِ الواجبُ علَىٰ العبدِ أَن يتحرَّىٰ الخيرَ ويُكثِرَ منَ العملِ الصالحِ، معَ مجاهدةِ النفسِ بإصلاحِ النيَّةِ، فإنَّ العملَ متَىٰ كانَ الباعثُ عليهِ الدِّينَ وكانَ خالصًا لوجهِ اللهِ تعالَىٰ فإنَّهُ لَا يُتركُ.

نسألُ اللهَ أَن يُفَقِّهَنَا فِي الدينِ، وأَن يوفِّقَنَا للتمسُّكِ بسنَّةِ خيرِ الورَىٰ، وأَن يُصلحَ نيَّاتنَا وزوجاتِنَا وذريَّاتِنَا.

❊❊❊

(٣٧) النعمةُ الكبرىٰ

الحمدُ للهِ الَّذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقديرًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ وكفَىٰ باللهِ وليًّا ونصيرًا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ إلَىٰ الناسِ كافةً بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ الَّذِينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطهَّرَهم تطهيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ منَ المعلومِ للعقلاءِ أنَّ الناسَ لَا تنتظمُ حياتُهُم، ولَا تأمنُ سُبُلُهُم، إلَّا بحاكمٍ يسوسُهُم، فإن لَم يكُن لهُم حاكمٌ عمَّت بهِمُ الفوضَىٰ، واستشرَىٰ بهِمُ الجهلُ، وانتشرَ بينهمُ العدوانُ.

مِن أجلِ ذلكَ كانَت عقيدةُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ أَن نصبَ الإمامِ فرضٌ واجبٌ علَىٰ المسلمينَ، وهذَا بالاتفاقِ، وإجماعُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعدَ موتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ نصبِ الإمامِ قبلَ الاشتغالِ بدفنهِ، لأكبرُ دليلٍ وأعظمُ حُجَّةٍ علَىٰ أنَّ هذَا الأمرَ مِن أهمِّ الواجباتِ.

وكانَ منَ المسائلِ الَّتِي خالفَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهَا أهلَ الجاهليةِ، أنَّهُم كانُوا يرونَ الطاعةَ للأميرِ ذلًّا فجعلَهَا طاعةً للهِ وقربةً، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1].

ولَا يُشترَطُ فِي الطاعةِ أَن يكونَ الحاكمُ معيَّنًا مِمَّن كانَ قبلَهُ أَو مبايعًا مِنَ الناسِ، بَل لَو غلبَ الحاكمُ الناسَ علَىٰ الحكمِ وَجَبَت طاعتُهُ وهذَا بالإجماعِ.

---

(١) سورة النساء:٥٩.

قالَ ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَد أجمعَ الفقهاءُ علَىٰ وجوبِ طاعةِ السلطانِ المتغلِّبِ والجهادِ معَهُ، وأنَّ طاعتَهُ خيرٌ منَ الخروجِ عليهِ، لِمَا فِي ذلكَ مِن حقنِ الدماءِ وتسكينِ الدهماءِ».

ونصبُ الإمامِ منَ النِّعمِ الَّتِي يُحمَدُ اللهُ عليهَا؛ لأنَّ الناسَ طُبعوا علَىٰ الفوضَىٰ وحبِّ التملُّكِ والاستئثارِ، فلَو لَم يكُن عليهِم سلطانٌ يسوسُ أمورَهُم لكانُوا كوحوشِ الغابِ يأكلُ القويُّ الضعيفَ.

وإذَا أردتَ أَن تعرفَ كيفَ تنتشرُ الفوضَىٰ عندَ غيابِ الحاكمِ فتأمَّل فِي إشاراتِ المرورِ، كيفَ تُنَظِّمُ السَّيرَ، فإذَا تعطَّلَت رأيتَ فوضَىٰ عارمةً، وتناحرًا شديدًا، كلٌّ يريدُ المُرورَ ويرَىٰ أنَّ لهُ حقًّا، ويحصلُ الاختناقُ الشديدُ فِي السياراتِ، وقَد يرتقِي الأمرُ إلَىٰ السبابِ والشتامِ والضربِ حتَّىٰ يجيءَ شرطيُّ المرورِ فيحتاجُ إلَىٰ وقتٍ لتنظيمِ هذَا السَّيرِ وفكِّ هذَا الاشتباكِ.

فإذَا كانَ هذَا فِي إشارةِ المرورِ، فكيفَ ببلدٍ يُنزَعُ فيهِ السلطانُ أَو يضعُفْ، فلَا سلطانَ فيهِ يُحكِمُ أمرَهُ، ويُنصِفُ أصحابَ الحقوقِ، ويمنعُ المظالمَ وينظمُ أحوالَ الناسِ فِي معايشِهِم؟!

ولأجلِ كلِّ هذَا تجدُ أنَّهُ حينَ ينتشرُ الرعبُ فِي بلادٍ لَا سلطانَ لهَا، ترَىٰ أنَّ أهلَ تلكَ البلادِ يتمنَّونَ أَن يحكمَهُم حاكمٌ أيًّا كانَ، ولَو كانَ طاغيةً، علَىٰ أَن يؤمِّنَهُم فِي مساكنِهِم وينظِّمَ حياتَهُم.

فإذَا تَحقَّقْتَ ذلكَ أيُّهَا المسلمُ، علِمتَ شموليَّةَ الإسلامِ ورحمتَهُ ودقَّتَهُ، فحمدتَ اللهَ عليهِ.

إنَّ وجودَ الحاكمِ نعمةٌ عُظمَىٰ للناسِ، فإِن كانَ برًّا مطيعًا فهوَ السعادةُ التامَّةُ، وإنِ كانَ فاجرًا، فلما يصلحُ اللهُ بهِ أكثرَ ممَّا يفسدُ، ويكفِي أنَّهُ يحقنُ دماءَ المسلمينَ،

ولذلكَ قالَ عمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سلطانٌ عادلٌ خيرٌ مِن مطرٍ وابلٍ، وسلطانٌ غشومٌ خيرٌ مِن فتنةٍ تدومُ».

وتأمَّل فِي فقهِ الصحابةِ الأطهارِ وسلفِ الأمَّةِ الأبرارِ، الَّذينَ أوتُوا العلمَ والزكاةَ، كيفَ عرفُوا الأمرَ حقَّ المعرفةِ فقدَرُوا لهُ قدرَهُ.

قالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُصلِحُ الناسَ إلَّا أميرٌ برٌّ أَو فاجرٌ، قالُوا: يَا أميرَ المؤمنينَ، هذَا البرُّ فكيفَ بالفاجرِ؟!

قالَ: إنَّ الفاجرَ يُؤمِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ السُّبُلَ، ويجاهَدُ بِهِ العدوَّ، ويجيءُ بِهِ الفيءُ، وتُقامُ بِهِ الحدودُ، ويُحَجُّ بِهِ البيتُ، ويَعبدُ اللهَ فيهِ المسلمُ آمنًا حتَّىٰ يأتيهِ أجلهُ».

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَولَا الأئِمَّةُ لَم تَأمَنْ لَنا سُبُلٌ ... وَكَانَ أَضعَفُنَا نَهبًا لِأَقوَانَا

للهِ درُّهُم مَا أفقهَهُم!

وقالَ الطرطوشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي قولِهِ تعالَىٰ:** ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ**﴾[١]، **قالَ:** لولَا أنَّ اللهَ تعالَىٰ أقامَ السلطانَ فِي الأرضِ يدفعُ القويَّ عنِ الضعيفِ، وينصفُ المظلومَ مِن ظالمِهِ لتواثَبَ الناسُ بعضُهُم علَىٰ بعضٍ.

ومَن تأمَّل هذهِ النصوصَ عَلِمَ فقهَ السلفِ، وعَلِمَ حكمةَ اللهِ العظيمةَ فِي أَنْ جعلَ للناسِ إمامًا يسوسُهُم وأوجبَ عليهِم طاعتَهُ، فكلُّ ذلكَ يعودُ عليهِم بالمصلحةِ وحفظِ الأنفسِ والأموالِ والأعراضِ، ولولَا ذلكَ لَم ينتظِم لهُم حالٌ، ولَم يستقرَّ لَهُم قرارٌ، فتفسدُ الأرضُ ومَن عليهَا.

---

(١) سورة البقرة:٢٥١.

وقَد ثبتَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**السلطانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأرضِ، مَن أكرمَهُ أكرمَهُ اللهُ، ومَن أهانَهُ أهانَهُ اللهُ**»(١).

قالَ أهلُ العلمِ: كمَا أنَّ الظلَّ يُلجأُ إليهِ منَ الحرِّ والشدَّةِ، فكذلكَ السلطانُ يأوِي إليهِ الضعيفُ وبهِ ينتصرُ المظلومُ، فإنَّ الظلمَ لهُ وهجٌ وحرٌّ يُحرقُ الأجوافَ ويظمئُ الأكبادَ، فإذَا أوَىٰ إلَىٰ سلطانٍ سكنَت نفسُهُ، وارتاحَت فِي ظلِّ عَدلِهِ، ومَن أكرمَ سُلطانَ اللهِ فِي الدنيَا، أكرمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ.

وقالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي الأمراءِ**: «هُم يلُونَ مِن أمورنَا خمسًا: الجمعةَ والجماعةَ والعيدَ، والثغورَ، والحُدودَ، واللهِ مَا يستقيمُ الأمرُ إلَّا بِهِم وإِن جارُوا أَو ظَلَمُوا، واللهِ لمَا يُصلحُ اللهُ بهِم أكثرُ ممَّا يُفسِدُونَ».

ولذَا فإنَّ منَ الواجبِ علَىٰ الرعيَّةِ توقيرَ حاكمِهِم المسلمِ طاعةً للهِ ورسولهِ، واعترافًا بفضلهِ عليهِم فِي تأمينِ سُبُلِهِم ومعايشِهِم، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أهانَ سُلطانَ اللهِ فِي الأرضِ أهانَهُ اللهُ**»(٢).

ولمَّا خرجَ أبُو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَىٰ الربذةِ، لقيَهُ ركبٌ مِن أهلِ الفتنِ، فقالُوا: يَا أبَا ذرٍّ، قَد بلغنَا الَّذِي صنعَ بكَ، فاعقِد لواءً يأتِكَ رجالٌ مَا شئتَ، قالَ: مهلًا يَا أهلَ الإسلامِ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**سيكونُ بعدِي سلطانٌ فأعزُّوهُ، منِ التمسَ ذلَّهُ ثغرَ ثغرةً فِي الإسلامِ، ولَم يُقبَل منهُ توبةٌ حتَّىٰ يُعيدَهَا كمَا كانَت**»(٣).

رضيَ اللهُ عنهُ، مَا أرادَ دنيَا ولَا زاحمَ عليهَا كمَا يفعلُ الخوارجُ، الَّذِينَ لَو عُرِضَ عليهِم هذَا العرضُ لتسابقُوا إليهِ واغترُّوا بهِ ورأوهُ فرصةً لتحقيقِ دنياهُم بدمارِ دنيَا

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وحسنه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٢٤).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٦).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٧٩).

غيرهِم ودينهِ.

ولذلكَ كلمَّا تجرَّأَ الناسُ علَىٰ الحاكمِ اختلَّ الأمنُ وتزعزعَ الهدوءُ، وقديمًا قيلَ: (المُلكُ هيبةٌ).

كمَا أَنَّهُ مِن تمامِ توقيرهِ عدمُ غِيبَتِهِ؛ لأنَّ ذلكَ ممَّا يحطُّ مِن قدرهِ ويجرِّئُ الناسَ عليهِ، فتذهبُ هيبتُهُ مِن قلوبِ الرعيَّةِ، فتتحرَّكُ الفتنُ، ويهيجُ الشرُّ، وربَّمَا أدَّىٰ ذلكَ إلَىٰ خروجِ الرعيَّةِ عليهِ، وتخريبِ البلادِ، وإفسادِ معايشِ العبادِ.

وإنَّ ممَّا يفعلهُ بعضُ الجهَّالِ لقلَّةِ وَرَعِهِم ودينهِم، أنَّهُم إن أبغضُوا حاكمًا ألصقُوا بهِ التُّهَمَ، فجعلوهُ فاسقًا خمَّارًا، ماجنًا زنديقًا، دونَ بيِّنَةٍ واضحةٍ ولَا سلطانٍ بيِّنٍ، وهؤلاءِ لَو راقبُوا اللهَ لمَا نطقُوا بهذَا الكلامِ، وقَد قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾[1].

وقَد حدثَت فِي العصورِ الأولَىٰ قصةٌ شبيهةٌ بمَا يفعلهُ بعضُ الناسِ مِنَ الطعنِ فِي الحكَّامِ، أَو عمَّالٍ للحكَّامِ -ربَّمَا كانَ بعضهُم أكثرَ ديانةٍ وحراسةٍ لثغورِ الإسلامِ مِن هؤلاءِ المتكلمينَ-، وذلكَ أنَّهُ لمَّا رجعَ أهلُ المدينةِ مِن عندِ يزيدَ بنِ معاويةَ، مشَىٰ بعضهُم إلَىٰ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأرادوهُ علَىٰ خلعِ يزيدَ، فأبَىٰ عليهِم، فقالَ بعضهُم: إنَّ يزيدَ يشربُ الخمرَ، ويتركُ الصلاةَ ويتعدَّىٰ حكمَ الكتابِ.

فقالَ لهُم: مَا رأيتُ منهُ مَا تذكرونَ، وقَد حضرتُهُ وأقمتُ عندَهُ فرأيتهُ مواظبًا علَىٰ الصلاةِ متحرِّيًا للخيرِ، يسألُ عنِ الفقهِ ملازمًا للسنَّةِ.

قالُوا: فإنَّ ذلكَ كانَ منهُ تصنُّعًا لكَ.

«وهذهِ هيَ الشبهةُ الَّتِي تطلقُ دائمًا حتَّىٰ أزمانِنَا هذهِ مِن قِبَلِ خوارجِ العصرِ».

---

(١) سورة الزخرف:١٩.

فقالَ: ومَا الَّذِي خافَ منِّي أَو رجَا عندِي حتَّىٰ يُظهرَ إليَّ الخشوعَ؟!

أفَأَطْلعكم علَىٰ مَا تذكرونَ مِن شربِ الخمرِ؟!

فلَئِن أطلَعَكُم علَىٰ ذلكَ، إنكُم لشركاؤهُ، وإِن لَم يكُن أطلَعَكُم، فمَا يحلُّ لكُم أَن تشهدُوا بمَا لَم تعلمُوا.

قالُوا: إنَّهُ عندنَا لحقٌّ، وإِن لَم نكُن رأيناهُ.

قالَ: أبَىٰ اللهُ ذلكَ علَىٰ أهلِ الشهادةِ فقالَ: ﴿ **إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[1]، ولستُ مِن أمرِكُم فِي شيءٍ.

واعلَم أنَّهُ ممَّا ينبغِي للسلطانِ علَىٰ رعيَّتِهِ: الدعاءُ لهُ، وهذَا مِن علاماتِ السُّنِّيِّ المتبعِ لهديِ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالَ الإمامُ البربهاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إذَا رأيتَ الرجلَ يدعُو علَىٰ السلطانِ، فاعلَم أنَّهُ صاحبُ هوًىٰ، وإذَا رأيتَ الرجلَ يدعُو للسلطانِ بالصلاحِ فاعلَم أنَّهُ صاحبُ سنَّةٍ إِن شاءَ اللهُ.

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَو أنَّ لِي دعوةً مستجابةً مَا صيرتُهَا إلَّا فِي الإمامِ، قيلَ: وكيفَ ذلكَ يَا أبَا عليٍّ؟!

قالَ: متَىٰ صيرتُهَا فِي نفسِي لَم تجزنِي، ومتَىٰ صيرتهَا فِي الإمامِ عمَّت، فصلاحُ الإمامِ صلاحُ العبادِ والبلادِ.

فقبَّلَ ابنُ المباركِ جبهتَهُ وقالَ: يَا معلِّمَ الخيرِ مَن يحسنُ هذَا غيرَكَ.

فيَا للهِ مَا أعظمَ فِقهَهُم!

ولَا يُدعَىٰ عليهِم لِمَا فِي ذلكَ منَ الشرِّ المستطيرِ، وقَد جيءَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) سورة الزخرف:٨٦.

برجلٍ يشربُ الخمرَ فلعنَهُ أحدُ الصحابةِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، فنهاهُ قائلًا: «**لَا تكونُوا عونَ الشيطانِ علَىٰ أخيكُم**»(١)، والدعاءُ علَىٰ الحاكمِ إعانةٌ للشيطانِ عليهِ.

قالَ أبُو عثمانَ الزاهدُ: فانصَح للسلطانِ وأكثِر لهُ منَ الدعاءِ بالصلاحِ والرشادِ بالقولِ والعملِ والحكمِ، فإنَّهُم إذَا صلحُوا صلحَ العبادُ بصلاحِهِم، وإيَّاكَ أَن تدعوَ عليهِم باللعنةِ فيزدادُوا شرًّا ويزدادَ البلاءُ علَىٰ المسلمينَ، ولكِنِ ادعُ لهُم بالتوبةِ فيتركُوا الشرَّ فيرتفعَ البلاءُ عنِ المسلمينَ، **قالَ معروفٌ الكرخيُّ**: مَن لعنَ إمامَهُ حُرِمَ عدلَهُ.

كمَا ينبغِي إقامةُ العذرِ للسلطانِ فيمَا لَا يطلعُ عليهِ إلَّا هوَ، فهذَا أعظمُ الفقهِ وغايتُهُ، وَثِق أنَّهُ مبتلَىٰ بعظائمِ الأمورِ وإن رآهُ الناسُ فِي عافيةٍ.

قالَ الطرطوشيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: كانَ العلماءُ يقولونَ: أقيمُوا عذرَ السلطانِ لانتشارِ الأمورِ عليهِ، وكثرةِ مَا يكابدُهُ مِن ضبطِ جوانبِ المملكةِ، واستئلافِ الأعداءِ، وإرضاءِ الأولياءِ، وقلةِ الناصحِ، وكثرةِ التدليسِ والطمعِ.

وممَّا يُخطِئُ بهِ البعضُ -بسببِ الأفكارِ المنحرفةِ- ظنَّهُ أنَّهُ لمجردِ كونِ الحاكمِ حاكمًا أنَّ هذَا يبيحُ عرضَهُ وسبَّهُ والكلامَ عليهِ بمَا لَا يجوزُ ولَا يستحسنُ.

وكَم منَ الحكَّامِ مَن لهُ فضائلُ علَىٰ بلدِهِ وأمَّتِهِ أكثرُ ممَّن يخاصمونَهُ مِن أجلِ الملكِ والدنيَا مِن أولئكَ الخوارجِ الذينَ تزيَّوا بزيِّ النُّسَّاكِ، فيكفُّ اللهُ بالسلطانِ الدَّمَ، وتُقامُ الشعائرُ، وتقامُ الجماعاتُ والجمعُ، ويؤمَّنُ السبيلُ، أليسَ هذَا حريًّا بأَن يُشكَرَ لَهُ؟!

ومَن تأمَّلَ بعينِ البصيرةِ، علمَ أنَّهُ لربَّمَا انفتحَت بذهابِ هذَا الحاكمِ الَّذِي يسوسُ أمرَهُ أبوابَ الفتنِ، فأورثَهُ ذلكَ الرضَا بسلطانِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٨٣).

قالَ عمارُ بنُ ليثٍ الواسطيُّ: قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ: مَا مِن نفسٍ تموتُ أشدُّ عليَّ موتًا مِن أميرِ المؤمنينَ هارونَ، ولوددتُ أنَّ اللهَ زادَ مِن عمرِي فِي عمرِه، فكَبُرَ ذلكَ علينَا، فلمَّا ماتَ هارونُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وظهرَتِ الفتنُ، قلنَا: الشيخُ كانَ أعلمَ بمَا تكلَّمَ.

والفُضَيلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ ذلكَ دِيانةً للهِ، لَم يَقُل ذلكَ طَمَعًا فِي دنيَا، بَل إنَّهُ كانَ منَ العُبَّادِ الزهَّادِ، وكانَ هارونُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعطيهِ العطاءَ والمالَ، فيرفُضُهُ ولَا يأخذُ منهُ شيئًا، وإنَّمَا كانَ قولُهُ هذَا دليلًا علَىٰ فقههِ وديانتهِ، فلَا نامَت أعينُ الخَوَارجِ.

إخوانِي: تَحَسَّسُوا هذهِ النعمَ حيثُ تسيرونَ آمنينَ فِي الطريقِ، محفوظةً أعراضُكُم، مُؤَمَّنَةً سُبلُكُم، مُوَفَّرةً معايشُكُم، وغيرُكُم محرومٌ مِن ذلكَ، فاشكرُوا لِمَن ولَّاهُ اللهُ أمرَكُم، ولَا تغترُّوا بالخوارجِ الَّذِينَ ينافسونَ علَىٰ الحكمِ مِن أجلِ دنياهُم، ولَو تَوَلَّوْكُم لأفسدُوا دينَكُم ومنعوكُمُ الدنيَا.

وتأمَّلُوا فِي كثيرٍ منَ البلادِ الإسلاميَّةِ -الَّتِي أفسدَهَا الخوارجُ بزرعِ القَلاقِلِ والفتنِ- لَا زالَت تَئِنُّ منَ الحسراتِ، وفسدَت معايشُ الناسِ، وحلَّ الخوفُ والرعبُ فِي كلِّ طريقٍ، فلَا يهنأُ الناسُ فِي عبادةٍ ولَا يستمتعونَ بعيشٍ، وزعماءُ الخوارجِ الَّذينَ أحدثُوا كلَّ هذَا الفسادَ، يعيشونَ بينَ أظهُرِ الكفارِ، ويكتفونَ بتوجيهِ الأغبياءِ لتدميرِ بلادِهِمُ المُسلِمةِ.

فأينَ زعماءُ الخوارجِ مِن قولِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أنَا بريءٌ مِن كلِّ مُسلمٍ يقيمُ بينَ أظهرِ المشركينَ**»[1]؟!

ويَا طالبَ الحقِّ، يَا مَن تريدُ اتِّبَاعَ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ وسيرتِهِ: اعلَم أنَّ الكلامَ فِي هذَا الموضوعِ الَّذِي يتعلَّقُ بجانبِ السلطانِ حسَّاسٌ جدًّا، ولكنَّ الكلامَ فيهِ ديانةٌ للهِ، وقَد كانَ أجلَّةُ أئمةِ الإسلامِ يتكلمونَ فيهِ، ويؤلفونَ فيهِ الكتبَ بعيدًا عنِ

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٠٧).

الأعراضِ الدنيويةِ، ومَا أَلَّفُوا ذلكَ إلَّا ديانةً للهِ، وخوفًا علَىٰ الأمةِ منَ الاختلافِ المؤدِّي إلَىٰ الهرجِ والمرجِ، وهوَ الخلافُ علَىٰ السلطانِ.

ولَا تغترَّ بكلامِ أولئكَ الخوارجِ الخونةِ الَّذِينَ يُشهِّرونَ بمَن تكلَّمَ فِي هذَا الموضوعِ، ويرجفونَ بِهِ بأنَّهُ مَا قالَ ذلكَ إلَّا مداهنةً ورياءً، بَل هوَ دينٌ وشرعٌ، والنوايَا عندَ عالمِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنَّمَا لكلِّ امرئٍ مَا نوَىٰ.

كمَا أنَّ الكلامَ فِي هذَا، وبيانَ فضلِ السلطانِ منَ المروءةِ ومِن شكرِ المعروفِ، ولَا يرضَىٰ المسلمُ أَن يكونَ لهُ مَثَلُ السوءِ، فيسبُّ حاكمَهُ الَّذِي يأكلُ فِي صحنِهِ، ويعيشُ فِي ظلِّهِ، فيكونُ كالكلبِ الَّذِي يأكلُ فِي الصحنِ ثمَّ يبولُ فيهِ.

والعجبُ العجابُ أنَّ أكثرَ مَن يسبُّ الحكَّامَ ويهينهُم، هُوَ أكثرُ الناسِ استفادةً مِن خيرِهِم، وأكلًا فِي صحونِهِم، فلَا تعجَب إنَّنَا فِي زمنِ المتناقضاتِ!

والأمرُ المحيِّرُ أنَّ بعضَ هؤلاءِ قبلَ أَن تتوحَّدَ البلادُ علَىٰ سلطانٍ، كانَ مستضعفًا فِي الأرضِ، لَا يقدرُ علَىٰ حمايةِ نفسِهِ وأموالِهِ وبساتينِهِ، فإذَا بِهِ لمَّا منَّ اللهُ عليهِ بالأمنِ والنعمةِ فِي ظلِّ حَاكمٍ يرعَىٰ لهُ ذلكَ فإذَا بِهِ يَهدِرُ كمَا يهدرُ الجملُ الحاقدُ، ويَرغِي ويَزبدُ، ويصيحُ ويُنَدِّدُ، نَسِيَ هذَا الأحمقُ أنَّهُ لَو حصلَ تفكُّكٌ وضعفٌ فِي السلطانِ أنَّ المتضرِّرَ الأكبرَ مِن هذَا الانفلاتِ هوَ وأمثالُهُ، الذينَ لَا يستطيعونَ عيشًا بينَ أفواجِ الأممِ المتناحرةِ، والوحوشِ الكاسرةِ.

فليتَ هذَا وأمثالَهُ ينظرُ إلَىٰ ماضيهِ وحاضِرِهِ، فيشكرُ نعمةَ اللهِ عليهِ أَن صارَ موقَّرًا بعدَ ذلَّتِهِ، وغنيًّا بعدَ فاقتِهِ، بسببِ أمنِ السلطانِ الَّذِي أنعمَ اللهُ بِهِ عليهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لهُ علَىٰ إحسانهِ العامِّ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمامِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصَحبِهِ هُداةِ الأنامِ ومصابيحِ الظلامِ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ إنكارَ المنكرِ مِن محاسنِ دينِ الإسلامِ، وقَدِ امتدحَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذهِ الأمَّةَ بهِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ**﴾(١)، ولكِن ليسَ الحاكمُ كغيرِهِ فِي هذَا البابِ.

وممَّا وُفِّقَ لهُ أهلُ السنَّةِ وضَلَّ عنهُ الخوارجُ: طريقَةُ الإنكارِ علَىٰ الحاكمِ -ممَّا لَا يفتحُ بابَ فتنةٍ وشرٍّ علَىٰ المسلمينَ- وذلكَ أَن يُنصحَ الحاكمُ سرًّا فيمَا صدرَ عنهُ منَ المنكراتِ، ولَا يكونُ ذلكَ علَىٰ رُءوسِ المنابرِ وفِي مجامعِ الناسِ، لِمَا ينتجُ عَن ذلكَ مِن تأليبِ العامَّةِ وإثارةِ الرعاعِ، وإشعالِ فتيلِ الفتنةِ.

والإنكارُ العلنيُّ علَىٰ الحاكمِ ليسَ دأبَ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ، بَل سبيلُهُم ومنهجُهُم جمعُ قلوبِ الناسِ علَىٰ ولاتِهِم، والعملُ علَىٰ نشرِ المحبَّةِ بينَ الراعِي والرعيَّةِ، والأمرُ بالصبرِ علَىٰ مَا يصدرُ منَ الولاةِ منَ استئثارٍ بالمالِ، أَو ظلمٍ للعبادِ، والتحذيرُ مِنَ المنكراتِ عمومًا أمامَ الناسِ دونَ تخصيصِ فاعلٍ، كالتحذيرِ منَ الزنَا والربَا والظلمِ -ونحوِ ذلكَ- بالعمومِ.

وقَد بيَّنَت لنَا السنَّةُ الغراءُ كيفيةَ الإنكارِ علَىٰ الحاكمِ، وأَن يكونَ ذلكَ سرًّا دفعًا

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

للمفسدةِ، ومِن ذلكَ مَا جاءَ فِي الحديثِ: أنَّ عياضَ بنَ غنمٍ جلَدَ صاحبَ (دَارَا) حينَ فُتِحَت، فأغلظَ لهُ هشامُ بنُ حكيمٍ القولَ حتَّىٰ غضبَ عياضٌ، ثمَّ مكثَ ليالِي فأتاهُ هشامُ بنُ حكيمٍ فاعتذرَ إليهِ ثمَّ قالَ هشامٌ لعِياضٍ: ألَم تسمَعِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ مِن أشدِّ الناسِ عذابًا أشدَّهُم عذابًا فِي الدنيَا للناسِ**؟

فقالَ عياضُ بنُ غنمٍ: يَا هشامُ بنَ حكيمٍ، قَد سمِعنَا مَا سمعتَ، ورأينَا مَا رأيتَ، أولَم تسمَع رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: **مَن أرادَ أَن ينصحَ لسلطانٍ بأمرٍ فلَا يُبدِ لهُ علانيةً، ولكِن ليأخذَ بيدِهِ فيخلُو بِهِ، فإِن قَبِلَ منهُ فذاكَ، وإلَّا كانَ قَد أدَّىٰ الَّذِي عليهِ**. وإنَّكَ يَا هشامُ لأنتَ الجريءُ، إِذ تجترئُ علَىٰ سلطانِ اللهِ، فهلَّا خشيتَ أَن يقتلَكَ السلطانُ فتكونَ قتيلَ سلطانِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[1].

ولَو أنَّ الدعاةَ المخلصينَ أخذُوا بهذَا الأصلِ فِي النصيحةِ سرًّا للولاةِ، لأصلحَ اللهُ لهُمُ الحكَّامَ، وكانَ أدعَىٰ لإخلاصِهِم، وأنتَ ترَىٰ أنَّ عامَّةَ الناسِ يغضبونَ إذَا نصحُوا علنًا، فكيفَ بالحاكمِ؟!

ومَا سَدَّ الشارعُ بابَ الإنكارِ العلنيِّ علَىٰ السلطانِ، إلَّا لمَا ينتجهُ ذلكَ مِنَ الفتنِ والفسادِ، وقَد جاءَ عَن أسامةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ قيلَ لَهُ: ألَا تدخلُ علَىٰ عثمانَ لتكلِّمَهُ؟ فقالَ: «أترونَ أنِّي لَا أكلِّمُهُ إلَّا أسمعُكُم، واللهِ لَقَد كلَّمتهُ بينِي وبينَهُ مَا دونَ أَن أفتحَ أمرًا لَا أحبُّ أَن أكونَ أوَّلَ مَن فتحَهُ»[2].

قالَ أهلُ العلمِ: مرادُ أسامةَ أنَّهُ لَا يفتحُ بابَ المجاهرةِ بالنكيرِ علَىٰ الإمامِ لِمَا يَخشَىٰ مِن عاقبةِ ذلكَ، بَل يتلطَّفُ بهِ وينصَحُهُ سرًّا فذلكَ أجدرُ بالقبولِ.

ولمَّا فتحُوا الشرَّ فِي زمنِ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنكرُوا عليهِ جهرةً، نشأَ عَن ذلكَ قتلُهُ،

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٧٩).

(٢) رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (٥٣٠٥).

ونمَتِ الفتنةُ والقتالُ والفسادُ الَّذِي لَا يزالُ الناسُ فِي آثارِهِ إِلَىٰ اليومِ.

ومَن تأمَّلَ هذهِ النصوصَ عَلِمَ أنَّ الإنكارَ العلنيَّ علَىٰ السلطانِ مقدِّمَةٌ للخروجِ عليهِ، وبابٌ مِن أبوابِ الفتنةِ العمياءِ الصمَّاءِ.

وقَد خالفَ بعضُ الوعَّاظِ والقصَّاصِ -مِن مروِّجي فكرَ الخوارجِ- فِي هذَا العصرِ، والمتصدرونَ للدعواتِ السياسيَّةِ هذَا الأصلَ فِي إسرارِ النصيحةِ للسلطانِ، فبَاتُوا يهيجونَ الشبابَ علَىٰ الخروجِ ويزينونَهُ لهُم، ويحيكونَ لذلكَ القصصَ الملفَّقَةَ ويلتمسونَ الرواياتِ الضعيفةَ لنصرةِ مذهبِهِمُ الخارجيِّ الغالِي المتشدِّدِ.

قالَ ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مخالفةُ السلطانِ فيمَا ليسَ مِن ضرورياتِ الدِّينِ علنًا، وإنكارُ ذلكَ عليهِ فِي المحافلِ والمساجدِ والصحفِ ومواضعِ الوعظِ -وغيرِ ذلكَ- ليسَ مِن بابِ النصيحةِ فِي شيءٍ، فلَا تغترَّ بمَن يفعلُ ذلكَ وإِن كانَ عَن حسنِ نيَّةٍ فإنَّهُ خلافَ مَا عليهِ السلفُ الصالحُ المُقتَدَىٰ بِهِم».

هذَا واعلمُوا -أيُّهَا المسلمونَ- أنَّ اللهَ أوجبَ عليكُم طاعةَ مَن وليَ أمرَكُم، فإيَّاكُم وتتبعَ فكرِ الخَوَارِجِ، والانحرَافَ عمَّا جاءَ فِي نصوصِ السنَّةِ النيِّرَةِ، الَّتِي تهدِي إِلَىٰ أقومِ طريقٍ وأوضحِ سبيلٍ وأنجاهُ بينَ يدَيِ اللهِ تعالَىٰ.

وخذُوا العلمَ فِي هذَا البابِ الخطيرِ عَن أهلِهِ، فهاهِيَ آثارُ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أيديكُم فتأمَّلُوا بهَا، ولَا تَحِيدُوا عنهَا، فقَد كانُوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يرونَ طاعةَ السلطانِ طاعةً للهِ ولرسُولِهِ، لَم يرَوا ذلكَ ذلًّا ولَا ضَعفًا، ومِن أجلِ ذلكَ سَلِمَ لهُم دِينُهُم وطابَت لهُم معَايشُهُم.

لمَّا قدمَ أبُو ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علَىٰ عثمانَ منَ الشامِ -وقَد بلغَهُ عنهُ شيءٌ- وقفَ علَىٰ البابِ، وقالَ: «يَا أميرَ المؤمنينَ، افتَحِ البابَ حتَّىٰ يدخلَ الناسُ، أتحسبُنِي مِن قومٍ يقرءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ حناجرَهُم -أَي: الخَوارِج- يمرقونَ منَ الدينِ مروقَ السهمِ منَ

الرَّميَّةِ ثمَّ لَا يعودونَ فيهِ، حتَّىٰ يعودَ السهمُ علَىٰ فُوقِهِ هُم شرُّ الخلقِ والخليقة.

والَّذِي نفسِي بيدهِ، لَو أمرتنِي أَن أقعدَ لمَا قمتُ، ولَو أمرتنِي أَن أكونَ قائمًا لقُمتُ مَا أمكنتنِي رِجلايَ، ولَو ربطتنِي علَىٰ بعيرٍ لَم أطلِق نفسِي حتَّىٰ تكونَ أنتَ الَّذِي تطلِقُنِي، ثمَّ استأذنَهُ أَن يأتِيَ الربذةَ، فأذنَ لهُ، فأتاهَا، فإذَا عبدٌ يؤمهُم فقالُوا: أبُو ذرٍّ، فنكصَ العبدُ، فقيلَ لهُ: تقدَّم، فقالَ: أوصانِي خليلِي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَن أسمعَ وأطيعَ ولَو لعبدٍ حبشيٍّ مجدَّعِ الأطرافِ**»(١).

واحذرُوا أَن يُلَبِّسَ عليكمُ الخوارجُ ويقولُوا لكُم إنَّ هذهِ الأحاديثَ إنَّمَا هيَ فِي الولاةِ والسلاطينِ العادلينَ، لَا، بَل إنَّهَا تشملُ الحاكمَ المسلمَ، البرَّ والفاجرَ الظالمَ، ويدلُّ علَىٰ ذلكَ قولهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكونُ بعدِي أئمةٌ، لَا يهتدونَ بهُدايَ ولَا يستنُّونَ بسنتِي، وسيقومُ فيهِم رجالٌ قلوبهُم قلوبُ الشياطينِ فِي جثمانِ إنسٍ**، قالَ حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلتُ: كيفَ أصنعُ يَا رسولَ اللهِ إِن أدركتُ ذلكَ؟ قالَ: **تسمعُ وتطيعُ للأميرِ، وإِن ضَربَ ظَهرَكَ وأَخذَ مالَكَ فاسمَع وأطِع**»(٢).

فهذَا الحديثُ يبيِّنُ أَنَّهُ معَ أنَّ كونَ السلطانِ ظالمًا جائرًا، فقَد أُمرَ المسلمُ بالسمعِ والطاعةِ لهُ.

وليسَ معنَىٰ هذَا أَن يُطَاعَ الحاكمُ فِي معصيةِ اللهِ، فلَو أمرَ الناسَ بمعصيةٍ فلَا طاعةَ لهُ، لقولهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّمَا الطاعةُ بالمعروفِ**»(٣).

وقولهُ: «**لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ**»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٥١).

(٢) رواه مسلم (٣٤٣٥).

(٣) رواه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٣٤٢٤).

(٤) رواه أحمد، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٦٩٦).

فلَو أمرَ النَّاسَ بأمرٍ محرَّمٍ فلَا يُطاعُ فِي ذلكَ، كمَا يجبُ عليهِم بغضُ مَا ارتكبَهُ منَ المعاصِي.

وتعجَبُ مِن أُناسٍ تمرُّ بهِم هذهِ النصوصُ فلَا يسمعونَ ولَا يفقهونَ، قَد أعماهُم مَا فِي نفوسهِم منَ البدعِ والهوَىٰ عَن فقهِ النصوصِ الشرعيَّةِ، وتأمُّلِ هذهِ الآدابَ المرعيَّةَ، وكيفَ يُوَفَّقُ مبتدِعٌ؟! أتريدونَ أَن تهدُوا مَن أضلَّ اللهُ؟ ومَن يُضلِلِ فلَن تجدَ لهُ سبيلًا.

فمَا فتئُوا يُؤَلِّبُونَ الناسَ علَىٰ حُكَّامِهِم، حتَّىٰ أفسدُوا القلوبَ وملئوهَا بالحقدِ والضغينةِ والغلِّ والحسدِ، والمصيبةُ أنَّ بعضَ هؤلاءِ أصبحَ رأسًا لفكرِ الخوارجِ فِي هذَا الزمانِ، وهوَ قليلُ البضاعةِ فِي العلمِ، نفخَت فيهِ القنواتُ الفضائيَّةُ -حتَّىٰ ظنَّ نفسَهُ عالمًا- وهوَ خليطٌ منَ الجهلِ!

ومَا أجدرَ هذَا وأمثالَهُ بقولِ الراغبِ الأصفهانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **حينَ قالَ:** ولمَّا ترشَّحَ قومٌ للزعامةِ فِي العلمِ بغيرِ استحقاقٍ، وأحدثُوا بجهلِهِم بدعًا استَغْرَوا بهَا العامَّةَ، واستجلبُوا بهَا منفعةً ورياسةً، ووجدُوا منَ العامَّةِ مساعدةً لمشاكلَتِهِم لهُم، وقُربِ جوهرِهُم منهُم، ففتحُوا بذلكَ طرقًا مُنسَدَّةً، ورفعُوا ستورًا مسبلةً، وطلبُوا منزلةَ الخاصَّةِ فوصلُوا إليهَا بالوقاحةِ وبمَا فيهِم منَ الشَّرَهِ، فبَدَّعُوا العلماءَ وجَهَّلوهُم اغتصابًا لسُلطانِهِم، ومنازعةً لمكانِهِم، فأغرَوا بهِم أتباعَهُم حتَّىٰ وطئوهُم بأظلافِهِم وأخفافِهِم، فتولَّدَ بذلكَ البوارُ والجَورُ العامُّ والعارُ.

ومَن تأمَّلَ كلامَ الراغبِ وأنزلَهُ علَىٰ خوارجِ عصرنَا رأَىٰ أنَّهُ لَم يغادِر منهُم موضعَ إبرةٍ، فهاهُم يتزعَّمونَ رئاسةَ العِلمِ بلَا علمٍ، ويُحدِثُونَ البدعَ، ويتصنعونَ للحكَّامِ حتَّىٰ يصِلُوا إلَىٰ مَا يريدونَ منَ الجاهِ، ويستعينونَ بالفسَّاقِ مِن أجلِ تشويهِ صورةِ أهلِ الحقِّ، ويحيكونَ عليهِمِ القصصَ الكاذبةَ والأراجيفَ الباطلةَ لتنفيرِ الناسِ

منهُم؛ لأنَّهُم يُحذِّرونَ مِن فكرِهِمُ الباطلِ.

هذَا واعلمُوا أيُّهَا المسلمونَ: أنَّ غالبَ مَن خرجَ علَىٰ الحكَّامِ، وهيَّجَ عليهِمُ العوامَّ وأهاجَ عليهِمُ الفتنَ، مَا فعلَ ذلكَ إلَّا مِن أجلِ الجاهِ أوِ المالِ، وقَد يتلبَّسُ بلباسِ الدِّينِ للاستخفافِ بعقولِ أتباعِهِ منَ الجهَّالِ الَّذِينَ والَوا كلَّ مبتدعٍ، وأبغضُوا كلَّ صاحبِ سنَّةٍ، ولَو تأمَّلتَ فِي خوارجِ العصرِ، لرأيتَ أنَّ ولاءَهُم للحاكمِ مرتبطٌ بالجاهِ والمالِ والدنيَا، ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾(١).

ومَن كانَ هذَا حالُهُ فهوَ مخذولٌ متوعَّدٌ بمَا يسوؤهُ علَىٰ لسانِ الصادقِ المصدوقِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قالَ: «**ثلاثةٌ لَا يكلمهمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولَا ينظرُ إليهِم ولَا يزكِّيهِم ولهُم عذابٌ أليمٌ: رجُلٌ علَىٰ فضلِ ماءٍ بالفلاةِ يمنعهُ منَ ابنِ السبيلِ، ورجلٌ بايعَ رجلًا بسِلعَةٍ بعدَ العصرِ فحلفَ باللهِ لأخذهَا بكذَا وكذَا، فصدَّقهُ، وهوَ علَىٰ غيرِ ذلكَ، ورجلٌ بايعَ إمامًا لَا يبايعهُ إلَّا لدنيَا، فإِن أعطاهُ منهَا وفَىٰ، وإِن لَم يعطِه منهَا لَم يَفِ**»(٢).

قالَ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فطاعةُ اللهِ ورسولهِ واجبةٌ علَىٰ كلِّ أحدٍ، وطاعةُ ولاةِ الأمورِ واجبةٌ لأمرِ اللهِ بطاعتهِم، فمَن أطاعَ اللهَ ورسولَهُ بطاعةِ ولاةِ الأمرِ، فأجرهُ علَىٰ اللهِ، ومَن كانَ لَا يطيعهُم إلَّا لمَا يأخذهُ منَ الولايةِ والمالِ فإِن أعطوهُ أطاعهُم وإِن منعوهُ عصاهُم، فمَا لهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ.

والعجيبُ أنَّ بعضَ زعماءِ الخوارجِ فِي عصرنَا، لمَّا أُعطيَ منَ الدنيَا بدأ يتكلمُ بكلامِ الأخيارِ، بَل وصلَ كلامُهُ فِي مدحِ الحكَّامِ حدًّا لَم يتكلَّم بهِ مَن يحبُّهُم أشدَّ الحبِّ، وبعضهُم بدأَ ينكرُ أفعالَ أتباعِهِ الَّذينَ يقومونَ بعملِ التفجيراتِ، وترويعِ الآمنينَ،

---

(١) سورة التوبة:٥٨.

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٧).

وسفكِ الدماءِ، وصوتياتُهُ المنشورةُ مليئةٌ بالحثِّ علَىٰ الهيجانِ والخروجِ.

والمصيبةُ أنَّ بعضَ الحمقَىٰ لَا زالَ يُمَجِّدُ هؤلاءِ ويقدمُهُم، وقَدِ انكشفَ حالُهُم لكلِّ مبصرٍ، وافتضحَ أمرُهُم مِن كثرةِ خروجهِم فِي القنواتِ الفضائيَّةِ، وبانَ جهلُهُم للناسِ وتخبُّطُهُم؛ لأنَّهُم تقحَّمُوا بابًا لَا قدرةَ لهُم بدخولِهِ، وليتَهُم يَصدُقُونَ فيمَا يتكلمونَ بِهِ، بَل إنَّ لكلامهِم ألفَ وجهٍ وألفَ معنًىٰ، وبدءُوا يستعملونَ التقيَّةَ، ولَا أعجبَ مِن رجلٍ يستنكرُ أفعالَ التفجيرِ فِي بلادِ التوحيدِ -فِي بيانٍ أصدرَهُ- وفِي نفسِ البيانِ يطالبُ بمزيدٍ منَ الحريَّاتِ، فأيُّ حريَّاتٍ يطالبُ بهَا هذَا وأمثالهُ مِن مثيرِي الفتنِ؟!، ومَا دخلُ هذهِ التفجيراتِ بالحريَّاتِ؟!

إذَن، هلَ كانَتِ التفجيراتُ لدنيَا، أَم أنَّ عقولَ هؤلاءِ الشبابِ تلوثَّت ورأَوا أنَّ ذلكَ دينٌ فسارعُوا إِلَىٰ تطبيقِهِ؟

ولماذَا يستغلُّ هذَا المتلوِّنُ مثلَ هذَا الظرفِ السيِّئِ ويدخلُ مدخلَ السوءِ، فيطالبُ بالحُريَّاتِ فِي وقتٍ يطالبُ فيهِ أهلُ الفسادِ والفسقِ بالحريَّاتِ المزعومةِ!، فهَل هوَ تأييدٌ لمطالبِهِم؟!

وإِن كنتَ متعجبًا، فاعجَب مِن أناسٍ يريدونَ أَن يليَهُم أمثالُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وهُم قَد تركُوا أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسارَعُوا إِلَىٰ المحرماتِ، وتركُوا الواجباتِ، وقَد قيلَ: «**مثلمَا تكونُوا يولَّىٰ عليكُم**»، وقالَ تعالَىٰ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(١).

فإذَا ابتلِيَ الناسُ بحاكمٍ ظالمٍ، فليعلمُوا أنَّ ذلكَ مِن كسبِ أيديهِم، ولَا يرفعهُ عنهُم إلَّا التوبةُ إِلَىٰ اللهِ ربِّ العالمينَ.

---

(١) سورة الأنعام:١٢٩.

قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلَم -عافاكَ اللهُ-: أنَّ جورَ الملوكِ نقمةٌ مِن نقمِ اللهِ تعالَىٰ، ونقمُ اللهِ لَا تُلاقَىٰ بالسيوفِ، وإنَّمَا تُتَّقَىٰ وتُستدفعُ بالدعاءِ والتوبةِ والإنابةِ والإقلاعِ عنِ الذنوبِ، إنَّ نقمَ اللهِ متَىٰ لُقِيَت بالسيفِ كانَت هيَ أقطعَ، ولقَد حدَّثَني مالكُ بنُ دينارٍ أنَّ الحجَّاجَ كانَ يقولُ: اعلمُوا أنَّكُم كلَّمَا أحدثتُم ذنبًا أحدثَ اللهُ فِي سلطانِكُم عقوبةً، ولَقَد حُدِّثتُ أنَّ قائلًا قالَ للحجاجِ: إنكَ تفعلُ بأمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيتَ وكيتَ!، فقالَ: أجَل، إنَّمَا أنَا نِقمةٌ علَىٰ أهلِ العراقِ لَمَّا أحدثُوا فِي دينِهم مَا أحدثُوا، وتركُوا مِن شرائعِ نبيِّهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما تركُوا.

وقيلَ: إنَّ الحسنَ سمعَ رجلًا يدعُو علَىٰ الحجَّاجِ، فقالَ: لَا تفعَل -رحمَكَ اللهُ- إنَّكُم مِن أنفسِكُم أُتيتُم، إنَّمَا أخافُ إن عُزِلَ الحجَّاجُ أو ماتَ، أَن تليكمُ القردةُ والخنازيرُ.

وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واللهِ لَو أنَّ الناسَ إذَا ابتلُوا مِن قبلِ سلطانِهم صبرُوا، مَا لبثُوا أَن يرفعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذلكَ عنهُم -وذلكَ أنَّهُم يفزَعُونَ إلَىٰ السيفِ فيُوكلُونَ إليهِ-، وواللهِ مَا جاءُوا بيوم خيرٍ قط، ثمَّ تلَا قولَهُ تعالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾(١).

هذَا وليعلَم أنَّهُ لَم يُعهَد فِي تاريخِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ أَنَّ طائفةً خرجَت علَىٰ السلطانِ فنُصِرُوا عليهِ، ومَن تأمَّلَ فِي قولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السلطانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأرضِ مَن أكرمَهُ أكرمَهُ اللهُ، ومَن أهانَهُ أهانَهُ اللهُ**»، عَلِمَ السرَّ فِي ذلكَ.

نسألُ اللهَ تعالَىٰ أَن يقينَا شرَّ الفتنِ، وأَن يرزقنَا الإخلاصَ والقبولَ.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأعراف: ١٣٧.

(٣٨) فضلُ التوحيدِ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسنَا ومِن سيِّئَاتِ أعمالِنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ، ومَن يضلِل فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

وبعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ لغايةٍ عظيمةٍ، وألزمَهُم بفريضةٍ لَا يسعهُمُ الخروجُ عنهَا، ولَا يَصِحُّ عملُهُم إلَّا بهَا، وهيَ توحيدُهُ وإفرادُهُ بالعبادةِ.

فتعالَىٰ اللهُ أَن يخلقَ عبادَهُ عبثًا، أَو أَن يتركَهُم سُدًىٰ، بَل خلقَهُم لحكمةٍ عظيمةٍ،

---

(١) آل عمران:١٠٢.

(٢) سورة النساء:١.

(٣) سورة الأحزاب:٧٠-٧١.

خلقَهُم وهوَ غنيٌّ عنهُم، لَا ليستكثرَ بهِم مِن قلَّةٍ ولَا ليتقوَّىٰ بهِم مِن ضعفٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾(١)، وهذَا أمرٌ لكلِّ الخلقِ أَن يعبدوهُ سبحانَهُ، ويفردوهُ بأنواعِ العباداتِ وحدَهُ دونَ مَا سواهُ؛ لأنَّهُ خلقَهُم مِن أجلِ أَن يعبدوهُ، فإذَا كانَ هوَ الَّذِي خلقَهُم وصرَفُوا العبادةَ لأحدٍ غيرِهِ، فقَد عبدوهُ مِن دونِ اللهِ، وهذَا منَ الظلمِ العظيمِ.

ولذلكَ كانَ منَ الواجبِ علَىٰ المسلمِ ألَّا يَصرفَ عبادةً منَ العباداتِ إلَّا للهِ سبحانَهُ، مِن سجُودٍ، وطوافٍ، وذبحٍ، ونَذرٍ، ودُعاءٍ، وتَوكُّلٍ، وغيرِ ذلكَ منَ العِبَاداتِ؛ لأنَّهُ إِن صرفَ شيئًا مِن هذهِ العباداتِ لغيرِ اللهِ سبحانَهُ فقَد عبدَهُ.

فالتوحيدُ هوَ أوَّلُ واجبٍ علَىٰ العبادِ، وبهِ توزنُ الأعمالُ يومَ القيامةِ، ومَا أرسلَ اللهُ الرسلَ، ولَا أنزَلَ الكتبَ، إلَّا مِن أجلِ دعوةِ الناسِ إلَىٰ توحيدِهِ وإفرادِهِ بالعبادةِ.

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٢)، وهذَا بيانٌ واضحٌ جليٌّ علَىٰ أهميَّةِ التوحيدِ، حيثُ أرسلَ اللهُ رُسُلَهُ إلَىٰ الخلقِ يدعونَهُم إليهِ ويُحَذرونَهُم مِن ضدِّهِ -وهوَ الشركُ- ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣).

فمَا أرسلَ اللهُ تعالَىٰ نبيًّا إلَىٰ قومهِ إلَّا نادَىٰ بهِم وقالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ومَا قامَ سوقُ الجنةِ والنارِ، وشُرِعَ الجهادُ ورُفِعَت راياتُهُ، إلَّا مِن أجلِ توحيدِ اللهِ

(١) سورة الذاريات:٥٦-٥٧.

(٢) سورة النحل:٣٦.

(٣) سورة النساء:١٦٥.

وإفرادِهِ بالعبادةِ، وذلكَ بألَّا يُصرَفَ أيُّ نوعٍ مِن أنواعِ العباداتِ القوليَّةِ والفعليَّةِ إلَّا لهُ عَزَّوَجَلَّ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتَّىٰ يشهدُوا أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ويُؤمِنُوا بِي وبمَا جئتُ بِهِ، فإذَا فعلُوا ذلكَ عَصَمُوا منِّي دِمَاءَهُم وأموالَهُم إلَّا بحقِّهَا وحسابُهُم علَىٰ اللهِ تعالَىٰ**»(١).

هذَا وقَد تضافرَتِ الأدلةُ منَ الآياتِ القُرآنيَّةِ الكثيرةِ، والأحاديثِ النبويةِ المستفيضةِ بالدعوةِ إلَىٰ هذَا الأمرِ العظيمِ، ومَا كانَ ذلكَ إلَّا لأهميَّتِهِ القُصوىٰ ومَنزلتِهِ العظمَىٰ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾(٢)، فلَا يُشرَكُ معهُ غيرُهُ، لَا مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولَا نبيٌّ مرسَلٌ، ومَن تأمَّلَ هذهِ الآياتِ بعينِ البصيرةِ والتوفيقِ، رأَىٰ أنَّ التوحيدَ أوَّلُ مَا أمرَ اللهُ بهِ، وأعظمُ مَا حثَّ عليهِ، وألزَمُ مَا أوجَبَ بهِ.

وكمَا أنَّ اللهَ قَد أمَرَ بتوحيدِهِ وإفرادِهِ بالعبادَةِ، فقَد نَهَىٰ عنِ اتخَاذِ الندِّ والشريكِ لهُ؛ لأنَّهُ لَا يصحُّ توحيدُ العبدِ إلَّا بالبراءةِ مِن ضدِّهِ وهوَ الشركُ، وإنَّ قولَهُ تعالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، لَأعظمُ دليلٍ علَىٰ أنَّهُ لَا يصحُّ التوحيدُ إلَّا باجتنابِ الشركِ.

ويخطئُ بعضُ الناسِ فِي تَصَوُّرِهِ، وذلكَ بأنَّهُ يجعلُ الشركَ مقصُورًا علَىٰ عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وهذَا خطأٌ بالغٌ جسيمٌ، بَل إنَّ الشركَ هوَ أن يصرفَ العبدُ أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ تعالَىٰ، فمَن فعلَ ذلكَ فهوَ المشركُ، ولذلكَ لمَّا قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمشركينَ: «**قولُوا لَا إلهَ إلَّا اللهُ تُفلِحُوا**»، قالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(٣)، ومَا ذلكَ إلَّا لفَهمِهِم أَنَّ معنَىٰ التوحيدِ هوَ إفرادُ اللهِ تعالَىٰ

(١) رواه البخاري (٢٤)، ومسلم (٢٩).

(٢) سورة النساء:٣٦.

(٣) سورة ص:٥.

بالعبادةِ، والامتناعُ عَن صَرفِ العبادةِ لغيرِهِ سبحانَهُ، فمَن دعَا، أَو رغبَ، أَو رهبَ، أَو سجدَ، أَو ذبحَ لغيرِ اللهِ، أَو طافَ بقبرٍ، فقَد وقعَ فِي الشركِ، ومثلُهُ سائرُ أنواعِ العباداتِ، فَتَعْجَبُ مِن أناسٍ فِي هذَا الزمانِ أَن قَصُرَ فَهمهُم عمَّا انتبهَ لهُ وفَقِهَهُ مشركُو الجاهليةِ.

مِن أجلِ ذلكَ فقَد جعلَ اللهُ تعالَىٰ الشركَ مِن أعظمِ المُحَرماتِ، ولما عدَّدَ المحرَّمَاتِ فِي كتابهِ بدَأَهَا بذكرِ الشِّركِ فقَالَ تعالَىٰ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[1].

وقَد دَلَّتِ النصوصُ النبويَّةُ علَىٰ أنَّ توحِيدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإفرادَهُ بالعبادَةِ، واجتنابَ الشركِ والأسبابِ المُوصِلةِ إليهِ هوَ أعظمُ حقوقِ اللهِ علَىٰ عبادهِ، قالَ معاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«كنتُ رديفَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علَىٰ حمارٍ، فقالَ: يَا معاذُ، أتدرِي مَا حقُّ اللهِ علَىٰ العبادِ وحقُّ العبادِ علَىٰ اللهِ؟ قُلتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعلَمُ. قالَ: حقُّ اللهِ علَىٰ العبادِ أَن يعبدُوهُ ولَا يُشرِكُوا بهِ شيئًا، وحقُّ العبَادِ علَىٰ اللهِ ألَّا يُعذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بهِ شيئًا»**[2].

فهذَا يُبيِّنُ أنَّ توحيدَ العبدِ لربِّهِ هوَ أعظمُ الحُقوقِ عليهِ، كمَا أنَّهُ يجبُ عليهِ أَن يجتنبَ الشِّركَ باللهِ تعالَىٰ، ويبيِّنُ الفَضلَ العظيمَ الَّذِي جعلَهُ اللهُ جزاءً لِمَن وحَّدَهُ واجتنبَ الإشراكَ بهِ مِن أنَّه لَا يُعَذِّبُهُ، بَل وجعَلَ اللهُ سبحانَهُ ذلكَ حقًّا واجبًا، أوجبَهُ علَىٰ نَفسِهِ تفضُّلًا وإحسَانًا، ليسَ لإيجابٍ منَ الخَلقِ، ولكنَّهُ صارَ واجبًا لأنَّ اللهَ أوجبَهُ علَىٰ نفسِهِ بيَانًا لأهميَّةِ هذَا الأمرِ الَّذِي أوجبَهُ عليهِم، وتنبيهًا علَىٰ عظمتِهِ، حيثُ جعلَ جزاءَهُ الأمنَ منَ العذابِ، ووعدَهُم بذلكَ -وهوَ أصدقُ القائلينَ- حتَّىٰ يُشَمِّروا بهِمَمِهِم إِلَىٰ التمسُّكِ بهِ وتركِ مَا يُنافيهِ ويخالفُهُ.

(١) سورة الأنعام:١٥١.
(٢) رواه البخاري (٥٥١٠)، ومسلم (٤٣).

فالتوحيدُ أوجبُ الواجباتِ، والشركُ أعظمُ المحرماتِ؛ لأنَّهُ محبطٌ للأعمالِ، ومهلكٌ لصاحبِهِ، فيعيشُ فِي هذهِ الدنيَا ذليلًا خائفًا وَجِلًا ممَّن أشركَ بهِم معَ اللهِ منَ السحرةِ والكهَّانِ والمشعوذينَ، ويُحشرُ يومَ القيامةِ إِلَىٰ عذابِ النارِ وبئسَ المصيرِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(١)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾(٢)، وقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن ماتَ وهوَ يدعُو مِن دونِ اللهِ ندًّا دخلَ النارَ**»(٣)، والدعاءُ هوَ العبادةُ.

ودعاءُ العبادةِ: بأَن يخافَهُ كخِيفةِ اللهِ أَن يُلحقَ بهِ الأذَىٰ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إِلَّا اللهُ، أَو أَنَّهُ يدعوهُ لكشفِ ضرٍّ أَو جلبِ نفعٍ، أَو يستغيثَ بالأمواتِ والمقبُورينَ، أَو أَن يدعوَ ميتًا بأَن يعطيَهُ ولدًا أَو زوجةً، أَو أَن يعلِّق التمائمَ والحروزَ والجوامعَ لدفعِ ضرٍّ وجلبِ نفعٍ، أَو أَن يذبحَ الذبائحَ للأمواتِ وإِن كانُوا صالحينَ أَو للأحياءِ منَ الصالحينَ أَوِ الفجرةِ، مخافةَ إِن لَم يَفعَل فإِنَّهَا ستقعُ بِهِ مُصيبةٌ، أَو أَن ينذرَ، أَو يطوفَ بقبرٍ، أَو يذهبَ إِلَىٰ ساحرٍ دجَّالٍ وهوَ فاجرٌ لَا تظهرُ عليهِ سِماتُ الصالحينَ، فكلُّ هذهِ منَ العباداتِ الَّتِي إِذَا صُرِفَت لغيرِ اللهِ كانَ صاحبُهَا مشركًا، فإِذَا ماتَ علَىٰ ذلكَ كانَ مِن أهلِ النارِ خالدًا فيهَا أبدًا، قالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(٤)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾(٥)، وقالَ مُخاطبًا خيرَ الورَىٰ والنبيَّ

(١) سورة المؤمنون:١١٧.
(٢) سورة الشعراء:٢١٣.
(٣) رواه البخاري (٤١٣٧).
(٤) سورة المائدة:٧٢.
(٥) سورة النساء:٤٨.

المجتبىٰ -صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليهِ-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(١)].

فإذَا كانَ هذَا قولَهُ تعالَىٰ لنبيِّهِ وخليلِهِ وصفوتِهِ مِن خلقِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيفَ مَا سواهُ منَ الخلقِ؟

هذَا وممَّا لَا بُدَّ منَ التنبُّهِ لهُ: أنَّ التوحيدَ لَا يتمُّ إلَّا باجتنابِ مَا يضادهُ وهوَ الشركُ، فلَو صلَّىٰ العبدُ طولَ عمرِهِ، وصامَ وزكَّىٰ وحجَّ، وهوَ قائمٌ علَىٰ نوعٍ مِن أنواعِ الشركِ، فإنَّ ذلكَ لَا ينفعُهُ، لأنَّ الشركَ يُحبطُ الأعمالَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[(٢)]، فالشركُ يأتِي إلَىٰ كثيرِ العملِ، فيجعلهُ كأَن لَم يكُن.

وإنَّ منتهَىٰ الحسرةِ أَن تجدَ بعضَ أهلِ الإسلامِ وهوَ مِن أصحابِ الأعمالِ الخيِّرةِ العظيمةِ، إلَّا أنَّهُ متلبِّسٌ بشيءٍ مِن أنواعِ الشركِ ظانًّا أنَّهَا لَا تؤثرُ، وهيَ واللهِ مُذهِبةٌ للعملِ، مُحبِطةٌ للأجرِ.

فلا بُدَّ مِن فقهِ هذَا البابِ العظيمِ؛ لأنَّ الأعمالَ تقومُ بهِ، فكَم ممَّن يعملُ الأعمالَ العظيمةَ مِن أنواعِ البرِّ، ولَم ينفعهُ ذلكَ العملُ الصالحُ بسببِ الشركِ الَّذِي أحبطَهُ، وفِي المقابلِ ربَّمَا يفوزُ بعضُ العُصاةِ برحمةِ اللهِ، وينجونَ مِن عذابِهِ، بسببِ تمسُّكهِم بالتوحيدِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لقِيَ اللهَ لَا يشركُ بِهِ شيئًا دخلَ الجنةَ، ومَن لقيَهُ يشركُ بِهِ شيئًا دخلَ النارَ**»[(٣)].

وليسَ معنَىٰ هذَا أَن يقومَ العبدُ بارتكابِ المعاصِي اتِّكالًا علَىٰ التوحيدِ فقَط، فإنَّ العاصِي قَد تحيقُ بِهِ مَعاصِيهِ فتُردِيهِ فِي النارِ، ولكنَّ الفرقَ بينَهُ وبينَ المشركِ أنَّ

---

(١) سورة الزمر:٦٥.

(٢) سورة الفرقان:٢٣.

(٣) رواه مسلم (١٣٦).

المشركَ مخلَّدٌ فِي النارِ، والعاصِي الموحِّدُ قَد تدركُهُ رحمةُ اللهِ، فينجِيهِ اللهُ مِن عذابِهِ ابتداءً فلَا يدخلُ النارَ، أَو أنَّهُ يدخلُ النارَ ثمَّ يخرجُ بعدمَا يُقضَىٰ مَا عَليهِ، وعلَىٰ كلِّ حالٍ فمَن ذَا الذِي يريدُ أَن يكونَ داخلًا تحتَ الوعيدِ بالعذابِ فِي نارٍ فُضِّلت علَىٰ نارِ الدنيَا بتسعٍ وستينَ درجةً، نسألُ اللهَ العافيَةَ والسلامَةَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نارُكُم هذِهِ جزءٌ مِن سبعينَ جزءًا مِن نارِ جهنَّمَ، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، إِن كانَت لكافيَةً، قالَ: فُضِّلَت عليهَا بتسعَةٍ وسِتينَ جزءًا**»(١).

فتمسَّكُوا بالتوحيدِ، واجتنبُوا المعَاصِي والآثامَ، واتقُوا اللهَ مَا استطعتُم، واعلَمُوا أنَّكُم تتعاملونَ معَ رَبٍّ رحيمٍ، يجزِي بالحسناتِ ويغفرُ السيئاتَ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فقَد جاءَ الإسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ، ليرفعَ نفوسَ المسلمينَ ويغرسَ فِي قلوبِهِمُ العزَّةَ والأنفةَ والحميَّةَ، وليعتِقَ رقابَهُم مِن رقِّ العبوديَّةِ، فلَا يذِلُّونَ إلَّا للهِ تعالَىٰ، ولذلكَ فقَد تركَ الإسلامُ بفضلِ عقيدةِ التوحيدِ ذلكَ الأثرَ الصالحَ فِي نفوسِ المسلمينَ فِي العصورِ الأولَىٰ، فكانُوا ذوي أنفةٍ وعزةٍ وإباءٍ.

ولَن يسترجعَ المسلمونَ سالفَ مجدِهِم، ولَن يبلغُوا مَا يريدونَ لأنفسِهِم مِن

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٥)، ومسلم (٥٠٧٧).

سعادةِ الحياةِ، إلَّا إذَا استرجعُوا قبلَ ذلكَ مَا أضاعوهُ مِن عقيدةِ التوحيدِ.

كمَا أنَّ للتمسُّكِ بالتوحيدِ السببَ الأعظمَ بالحصولِ علَىٰ خيرَيِ الدنيَا والآخرةِ، فهوَ سببٌ عظيمٌ لتفريجِ الكرباتِ فِي الدنيَا والآخرةِ، ودفعِ عقوباتِهِمَا، ويحصلُ لصاحبِهِ الهُدَىٰ الكاملُ والأمنُ التامُّ فِي الدنيَا والآخرةِ.

وهوَ السببُ لنَيلِ رِضَا اللهِ وثوابِهِ، ومَن تمسَّكَ بِهِ فهوَ أسعدُ الناسِ بشفاعةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القيامةِ.

ومِن أعظمِ فوائدِهِ: أنَّهُ يمنعُ الخلودَ فِي النارِ إذَا كانَ فِي القلبِ منهُ أدنَىٰ مثقالِ حبةٍ مِن خردلٍ، وإذَا كملَ فِي القلبِ فإنَّهُ يمنعُ دخولَ النارِ بالكليَّةِ.

ومِن فضائلِهِ: أنَّهُ يُسهِّلُ علَىٰ العبدِ فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ، ويسلِّيهِ عندَ المصيباتِ.

ومِن أعظمِ فضائلِهِ: أنَّ جميعَ الأعمالِ الَّتِي يؤديهَا العبدُ، متوقِّفٌ قبولُهَا وكمَالُهَا وترتُّبُ الثوابِ عليهَا علَىٰ التوحيدِ، فكلَّمَا قويَ التوحيدُ والإخلاصُ للهِ، كَمُلَت هذهِ الأمورُ ونَمَت.

والتوحيدُ يُخفِّفُ عَنِ العبدِ المَكَارهَ، ويهوِّنُ عليهِ الآلامَ، فبحسبِ قوةِ التوحيدِ فِي قلبِهِ، يتلقَّىٰ المكارهَ والآلامَ بقلبٍ منشرحٍ، ونفسٍ مطمئنةٍ، وتسليمٍ ورضًا بأقدارِ اللهِ وإِن كانَت مؤلمةً.

والتوحيدُ يَجعلُ العبدَ عزيزًا فِي تعبُّدِهِ للهِ، لَا يرجُو سواهُ ولَا يخشَىٰ إلَّا إيَّاهُ، ولَا ينيبُ إلَّا إليهِ.

والتوحيدُ إذَا تمَّ وكَمُلَ فِي القلبِ، وتحقَّقَ تحققًا كاملًا بالإخلاصِ التامِّ، يُصيِّرُ القليلَ مِن عملِهِ كثيرًا، وتُضاعفُ أعمالُهُ وأقوالُهُ بغيرِ حصرٍ ولَا حسابٍ.

ومِن فضائلِهِ: أنَّ اللهَ يدفعُ عنِ الموحِّدينَ -أهلِ الإيمانِ- شرورَ الدنيَا والآخرةِ، ويمنُّ عليهِم بالحياةِ الطيِّبةِ والطمأنينةِ إليهِ، كمَا أنَّ التوحيدَ يحرِّرُ العبدَ مِن عبوديَّةِ المخلوقينَ والتعلُّقِ بِهِم، وخوفِهِم ورجائِهِم، والعملِ لأجلِهِم، وهذَا هوَ العزُّ الحقيقيُّ والشرفُ العالِي.

وكلُّ هذَا ممَّا وردَت بهِ النصوصُ الشرعيَّةُ مِن كتابِ ربِّنَا عَزَّوَجَلَّ وسنَّةِ نبيِّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

نسألُ اللهَ أَن يحيينَا علَىٰ التوحيدِ والسنَّةِ سعداءَ، وأَن يميتنَا علَىٰ التوحيدِ والسنَّةِ شهداءَ.

❀❀❀

(٣٩) تحقيقُ التوحيدِ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسنَا ومِن سيِّئاتِ أعمالنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

وبعدُ:

فإنَّ مِن توفيقِ اللهِ للعبدِ أَن يهديَهُ للإسلامِ الخالصِ، وذلكَ بتحقيقِ التوحيدِ، وإفرادِ اللهِ تعالَىٰ بالعبادةِ، ثمَّ يجزيهِ علَىٰ ذلكَ بالأمنِ منَ الخوفِ والعذابِ فِي الآخرةِ، والهِدَايةِ إلَىٰ الصراطِ المُستقيمِ فِي الدنيَا، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ

---

(١) سورة آل عمران:١٠٢.

(٢) سورة النساء:١.

(٣) سورة الأحزاب:٧٠-٧١.

يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(١)، ومعنَىٰ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أَي: لَم يخلطُوا إيمانَهُم.

ولمَّا نزلَت هذهِ الآيةُ شَقَّ ذلكَ علَىٰ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقالُوا: **يَا رسولَ اللهِ، وأيُّنَا لَم يظلِم نفسَهُ؟، فقالَ النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ليسَ الأمرُ كمَا تظنونَ، ألَم تسمعُوا قولَ لقمانَ لابنهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢)**»(٣).

فقَد فهمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ مَنِ اقترفَ ظلمًا لَم يحصِل لهُ الأمنُ ولَا الاهتداءُ، فبيَّنَ لهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ المقصودَ بالظلمِ هنَا، هوَ الظلمُ الأكبرُ وهوَ الشركُ.

وتأمَّلُوا رحمةَ اللهِ ومنَّتَهُ علَىٰ عبادِهِ حيثُ أنعمَ تعالَىٰ علَىٰ مَن حقَّقَ التوحيدَ بالأمنِ والاهتداءِ، **قالَ الحسنُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: لهُمُ الأمنُ فِي الآخرةِ والاهتداءُ فِي الدنيَا.

وكلَّما كانَ توحيدُ المرءِ أكملَ وأتمَّ، كانَ الأمنُ والاهتداءُ لهُ أتمَّ وأكملَ، وإنَّمَا يكونُ تحقيقُ التوحِيدِ وكمالِهِ بمعرفتهِ والاطلاعِ علَىٰ حقيقتِهِ والقيامِ بهَا علمًا وعملًا، وتصفيتِهِ منَ الشركِ والبدعِ والمعاصِي، فإذَا وقعَ فِي المعصيةِ سارعَ إلَىٰ التوبةِ منهَا.

ومَن عَلِمَ منزلةَ تحقيقِ التوحيدِ وأهميَّتَهُ، ومَا أعدَّ اللهُ لأهلِهِ منَ الأجرِ المترتبِ علَىٰ تحقيقِهِ، دعاهُ ذلكَ إلَىٰ تنقيَتِهِ وتخليصِهِ مِن كلِّ شائبةٍ، وعدَّهُ الكنزَ الَّذِي لَا يُفرَّطُ فيهِ، والهدفَ الَّذِي لا بُدَّ مِن بلوغِ مُنتهاهُ، ولَو كانَ ذلكَ علَىٰ حسابِ ذهابِ المالِ والنفسِ.

إنَّ التوحيدَ هوَ طوقُ النجاةِ الَّذِي لا بدَّ أَن يسعَىٰ كلُّ مسلمٍ للحصولِ عليهِ، والتشبثِ بهِ غايةَ التشبثِ، والعضِّ عليهِ بالنواجذِ، ومِن نعمةِ اللهِ تعالَىٰ البالغةِ، ومنتهَىٰ مِنَّتِهِ

---

(١) سورة الأنعام: ٨٢.

(٢) سورة لقمان: ١٣.

(٣) رواه البخاري (٣١٧٥)، ومسلم (١٧٨).

الَّتِي لَا يُوفَّقُ إليهَا إلَّا مَن أرادَ اللهُ بِهِ خيرًا، أَن كانَ هذَا التوحيدُ إذَا حقَّقَهُ صاحبُهُ علَىٰ الوجهِ المطلوبِ، سببًا لتكفيرِ الذنوبِ، وذلكَ أنَّ التوحيدَ حسنةٌ عظيمةٌ لَا تُقابلهَا سيئةٌ إلَّا طَمَسَتهَا وأذهبَت أثرَهَا.

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتأمَّل قولَهُ تعالَىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[1]، كيفَ تجدُ تحتَهُ بألطفِ دلالةٍ وأدقِّهَا وأحسنِهَا أنَّهُ منِ اجتنبَ الشركَ جميعَهُ كُفِّرَت عنهُ كبائرُهُ، وأنَّ نسبةَ الكبائرِ إلَىٰ الشركِ كنسبةِ الصغائرِ إلَىٰ الكبائرِ، فإذَا وقعَتِ الصغائرُ مُكَفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، فالكبائرُ تقعُ مكفَّرَةً باجتنابِ الشركِ، وتجدُ الحديثَ الصحيحَ كأنَّهُ مشتقٌّ مِن هذَا المعنَىٰ، وهوَ قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ، لَو أتيتَنِي بقُرابِ الأرضِ خطايَا ثمَّ لقيتنِي لَا تُشرِكُ بِي شيئًا لقيتُكَ بقُرَابِهَا مغفرةً**»[2].

وقولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ حرَّمَ علَىٰ النارِ مَن قالَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ خالصًا مِن قلبِهِ**»[3].

فالتوحيدُ منجاةٌ مِنَ الهمومِ والغمومِ، مُؤَمِّنٌ صاحبُهُ منَ المخاوفِ، وهادِيهِ إلَىٰ أحسنِ طريقٍ وأقومِ سبيلٍ، ومرجِّحٌ لميزانِ الأعمالِ الصالحةِ.

ومَن عَلِمَ ذلكَ عِلمَ اليقينِ؛ جعلَ هَمَّهُ الأكبرَ أَن يحقِّقَهُ غايةَ التحقيقِ؛ ليَفُوزَ بالأثرِ المُترتبِ علَىٰ ذلكَ.

علَىٰ أنَّهُ لا بُدَّ مِن معرفةِ أنَّ هذَا الأمنَ التامَّ، إنَّمَا يكونُ لِمَنْ حقَّقَ التوحيدَ أتمَّ تحقيقٍ، أمَّا مَن خاضَ فِي المعاصِي والذنوبِ وماتَ علَىٰ ذلكَ، فلَا يحصلُ لهُ الأمنُ

---

(١) سورة النساء: ٣١.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٣) رواه البخاري (٤٠٧)، ومسلم (١٠٥٢).

التامُّ، فهوَ تحتَ مشيئةِ اللهِ -إذَا كانَ موحِّدًا- فإِن شاءَ اللهُ تعالَىٰ غفرَ لهُ، وإِن شاءَ عذَّبَهُ علَىٰ قَدرِ ذنُوبهِ، ومآلُهُ إِلَىٰ الجنَّةِ، ومَن يُطيقُ أَن يدخُلَ جهنَّمَ؟!

وهذَا هوَ الَّذِي يدعُو إِلَىٰ تحقيقِ التوحيدِ وتخليصِهِ مِن سائرِ أنواعِ الشركِ والبدعِ والمعاصِي، وإِنَّمَا يكونُ الأمنُ التامُّ لِمَن حقَّقَ التوحيدَ تامًّا وماتَ علَىٰ ذلكَ، وقَد صحَّ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «**مَن شَهِدَ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأَنَّ عيسَىٰ عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وكلمتُهُ أَلقاهَا إِلَىٰ مريمَ ورُوحٌ منهُ، والجنَّةَ حقٌّ والنَّارَ حقٌّ، أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ علَىٰ مَا كانَ منَ العمَلِ**»(١).

أَي: أدخلَهُ الجنَّةَ علَىٰ الَّذِي كانَ عليهِ منَ العملِ، ولَو كانَ مقصرًا فِي العملِ وعندَهُ ذنوبٌ وعِصيانٌ، وفِي هذَا أعظمُ بيانٍ لفَضلِ التوحيدِ علَىٰ أهلِهِ.

فمَن شَهِدَ أَنَّهُ لَا معبودَ بحقٍّ إِلَّا اللهُ، ولَم يَصرِفْ عبَادةً لغيرِ اللهِ، وشهدَ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وذلكَ بتصديقِهِ فيمَا أخبَرَ، وطاعتِهِ فيمَا أَمَرَ، والانتهاءِ عمَّا نهَىٰ عنهُ وزجرَ، وأَلَّا يعبدَ اللهُ إِلَّا بمَا شَرعَ، وشهدَ أَنَّ عيسَىٰ عبدُ اللهِ ورسولُهُ، خِلافًا لِمَا يعتقدُهُ النصارَىٰ أَنَّهُ اللهُ أَوِ ابنُ اللهِ، تعالَىٰ اللهُ عمَّا يقُولُونَ علوًّا كَبيرًا، ويشهَدُ أَنَّهُ رسولُ اللهِ خِلافًا لِمَا يعتقدُهُ اليهُودُ أَنَّهُ ولدُ بغِيٍّ -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وسلَّمَ وبَرَّأَهُ ممَّا قَالُوا-.

وشهدَ أَنَّهُ سُمِّيَ كلمةَ اللهِ، لصدورِهِ بكلمةِ (كُن)، كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

وأَنَّهُ رُوحٌ منهُ، أَي: روحٌ منَ اللهِ، فمِن أمرِ اللهِ كانَ الروحُ فيهِ، وليسَ المقصودُ أَنَّهُ جزءٌ مِنَ اللهِ، بَل إضافتُهُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إضافةُ تشريفٍ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وشهِدَ أَنَّ الجنَّةَ حقٌّ والنارَ حقٌّ، بأَنَّهُمَا مخلوقتانِ موجودتانِ الآنَ، فالجنةُ دارُ

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٠)، ومسلم (٤١).

(٢) سورة آل عمران:٥٩.

المتَّقينَ، والنارُ دارُ الكفارِ والمنافقينَ ولِمَن وَقَعَ عليهِ الوعيدُ منَ العصاةِ، وممَّا يدلُّ علَىٰ أنَّهُمَا مخلوقتانِ موجودتانِ الآنَ: قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشتكَتِ النارُ إلَىٰ ربِّهَا، فقالَت: أَكَلَ بعضِي بعضًا، فأَذِنَ لهَا بِنَفَسَينِ: نفسٌ فِي الصيفِ ونفسٌ فِي الشتاءِ، فهوَ أشدُّ مَا تجدونَ منَ الحرِّ، وأشدُّ مَا تجدونَ منَ الزَّمهَريرِ**»(١).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سألَ اللهَ الجنةَ ثلاثَ مراتٍ قالَتِ الجنةُ: اللهمَّ أدخِلهُ الجنَّةَ، ومَنِ استجارَ منَ النارِ ثلاثَ مرَّاتٍ قالَت النارُ: اللهمَّ أجِرهُ منَ النارِ**»(٢).

فمَن شهدَ بذلكَ، وتكلَّمَ بهِ عارفًا معناهُ، عاملًا بمُقتضاهُ ظاهرًا وباطنًا، أدخلَهُ اللهُ الجنةَ علَىٰ الَّذِي كانَ عليهِ منَ العملِ، حتَّىٰ وإن كَانَ مُقَصِّرًا فِي الطاعَةِ، وفِي هذَا أعظمُ بيانٍ وأوضحُهُ وأجلاهُ علَىٰ عظيمِ منزلةِ التوحيدِ، وكيفَ يُكَفِّرُ اللهُ بهِ عنِ العبدِ.

وهذَا الجزاءُ لِمَن قالَ مَا ذكرهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرَنَ بالشهادتينِ حقيقةَ الإيمانِ والتوحيدِ، فيكونُ لهُ منَ الأجرِ مَا يُرَجِّحُ علَىٰ سيئاتِهِ، ويوجبُ لهُ المَغفِرَةَ والرحمَةَ، ودخولَ الجنَّةِ لأوَّلِ وَهلَةٍ.

وممَّا يدلُّ علَىٰ فَضلِ التوحيدِ العظيمِ علَىٰ مَن تمسَّكَ بهِ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ، لَو لقيتنِي بقُرابِ الأرضِ خطايَا ثمَّ لقيتنِي لَا تُشرِكُ بِي شيئًا لأتيتُكَ بِقُرابِهَا مغفرةً**»(٣).

فهذَا الحديثُ يبيِّنُ أنَّ العبدَ لَو لقيَ اللهَ وقَد جاءَ بمثلِ ملءِ الأرضِ ذنوبًا، ولكنَّهُ لقيَ اللهَ موحِّدًا تاركًا الشِّركَ، لَلَقِيَهُ اللهُ تعالَىٰ بقدرِ الخطايَا مغفرةً، وهذَا لأجلِ فضلِ التوحيدِ وعظيمِ أجرِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٩٧٧).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٥٤).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦١٦).

فتأمَّلُوا فِي هذَا الحديثِ، وكيفَ أنَّهُ صارَ كالميزانِ الَّذِي يُرَجِّحُ الأعمالَ، وأنَّ اللهَ تعالَىٰ لَم يطلُب شيئًا يَشُقُّ علَىٰ عبادِهِ، بَل أمَرَهُم بالاعتزازِ بِهِ بالتذلُّلِ لهُ تعالَىٰ، ونهَاهُم عنِ الشركِ الَّذِي فيهِ مُنتهَىٰ الذلَّةِ للمَخلُوقينَ، ورتَّبَ علَىٰ ذلكَ الأجرَ العظيمَ بمغفرتِهِ للذنوبِ مهمَا عَظُمَت إذَا صَحَّ توحيدُ صَاحبِهَا وكانَ مُقلِعًا عنِ الشِّركِ، هاجرًا لهُ ولأسبابِهِ، ذلكَ لأنَّ اللهَ تعالَىٰ لَا يتعاظمُهُ ذنبٌ، وإنَّمَا جعلَ عظيمَ الأجرِ بمحوِ جميعِ الذنوبِ -مهمَا عَظُمَت- مُترتبًا علَىٰ تحقيقِ التوحيدِ وتنقيَتِهِ وتخليصِهِ.

فاجتهِدُوا بتوحيدِ القلبِ لخالقِهِ ومالكِهِ، وتشبَّثُوا بهذَا الأصلِ العظيمِ الَّذِي فيهِ سعادةُ الدنيَا والآخرةِ.

وَلِـوَاحِدٍ كُـن وَاحِـدًا فِـي وَاحِـدٍ أَعنِـي سَـبِيلَ الحَـقِّ وَالإِيمَـانِ

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ الَّذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ وكفَىٰ باللهِ وليًّا ونصيرًا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ إِلَىٰ الناسِ كافةً بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الَّذِينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرِّجسَ وطهَّرَهُم تطهيرًا.

أمَّا بعدُ:

فاعلَمُوا أنَّ تحقيقَ التوحيدِ لَا يتمُّ ولَا يكملُ إلَّا باجتنابِ الشركِ والخَوفِ منهُ، والحذرِ منهُ بمعرفةِ أسبابِهِ ودَوَاعيهِ، وأنَّهُ أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ تعالَىٰ بِهِ.

ولمَّا كانَ التوحيدُ نعمَةً تَفضَّلَ اللهُ بهَا علَىٰ العبدِ، فعليهِ الخوفُ مِن زوالِ هذهِ النعمةِ بمعرفةِ مَا يُضَادُّهَا وهوَ الشِّركُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[1].

قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -فيمَا أخبرَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ-: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[2]، فإذَا كانَ الَّذِي يدعُو بهذَا الدعاءِ هوَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، النبيُّ، الَّذِي أقامَ التوحيدَ ودعَا إليهِ، وكَسَّرَ الأصنامَ بيدِهِ، فمَا هوَ الحالُ بالنسبةِ لغيرِهِ؟

وَلَا يَقُولُ قائلٌ أَو يظنُّ ظانٌّ أَنَّهُ بمأمنٍ منَ الشركِ، فإنَّهُ متَىٰ مَا نُسِيَ العلمُ انتشرَت وسائلُ الشركِ وعَظُمَ خطرُهَا.

ويَعظُمُ الخَوفُ إذَا كَثُرَ المَفتُونونَ بالشركِ ودواعيهِ، فهذَا ممَّا يجعلُ المُسلمَ أكثرَ طلبًا للنجاةِ، وأكثرَ إلحاحًا ولجُوءًا إلَىٰ ربِّهِ أَن يُجَنِّبَهُ الوقوعَ فِي الشركِ، وقَد قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخوفُ مَا أخافُ عليكُمُ الشركَ الأصغرَ، فسُئِلَ عنهُ، فقالَ: الرياءُ**»[3]، وهذَا مِن تمامِ رحمةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخوفِهِ علَىٰ أُمَّتِهِ، فِي أَن يحذِّرهُم مَا يخافُهُ عليهِم.

وقَد خَوَّفَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ منَ الشركِ الأصغرِ معَ كمالِ إيمانِهِم ودينِهِم واستقامتِهِم، وفِي ذلكَ التحذيرُ والتخويفُ العظيمُ لغيرِهِم منَ الشركِ الأكبرِ نظرًا لنقصانِ إيمانِهِم ومعرفتهِم باللهِ.

وإنَّمَا كَثُرَ فِي سنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التحذيرُ منَ الشركِ والتخويفُ منهُ، وذلكَ لأنَّ الوقوعَ فيهِ لَا نجاةَ بعدَهُ، إنَّمَا هوَ خلودٌ فِي جهنَّمَ أبدَ الآبدينَ، فلَا فكاكَ ولَا نجاةَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن ماتَ وهوَ يدعُو مِن دونِ اللهِ ندًّا دخلَ النارَ**»[4].

---

(١) سورة النساء: ٤٨.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٥.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥١).

(٤) رواه البخاري (٤١٣٧).

وفِي ذلكَ أوضحُ بيانٍ فِي أنَّ منِ اتَّخذَ للهِ ندًّا وشبيهًا فيمَا يختصُّ بهِ اللهُ تعالَىٰ ويستحقُّهُ منَ العبادةِ أنَّ مآلَهُ إلَىٰ النارِ، وليسَ اتَّخاذُ النِّدِّ فقط أَن يتخذَ صنمًا يعبدُهُ مِن دونِ اللهِ، بَلِ اتخاذُ النِّدِّ أَن يصرفَ العبادةَ أيًّا كانَ نوعُهَا لغيرِ اللهِ -مِن رجاءٍ وتوكُّلٍ وخوفٍ ودعاءٍ وذبحٍ ونذرٍ- وسائرِ أنواعِ العباداتِ، فإذَا فعلَ ذلكَ فقَد وجبَ لهُ العذابُ الأبديُّ لكونِهِ مشركًا باللهِ تعالَىٰ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[(١)].

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لقِيَ اللهَ لَا يشرِكُ بِهِ شيئًا دخلَ الجنَّةَ، ومَن لقيهُ يشرِكُ بِهِ شيئًا دخلَ النارَ**»[(٢)].

وهذَا الحديثُ العَظيمُ يدلُّ علَىٰ فَضْلِ اللهِ، ورحمتِهِ لِمَن لقِيَهُ موحِّدًا، أَن يدخلَهُ الجنةَ، كمَا أنَّ فيهِ أنَّ مَن ماتَ علَىٰ الشركِ دخلَ النارَ، وهذَا ممَّا يوجبُ الخوفَ مِن ذلكُمُ المآلِ، كيفَ والمآلُ هوَ الخلودُ فِي نارٍ تلظَّىٰ؟!

إنَّ الشركَ هوَ أقبحُ ذنبٍ عُصيَ اللهَ بهِ، ودليلٌ علَىٰ كفرانِ العبدِ لربِّهِ، حيثُ رزَقَهُ وخلقَهُ وأعطاهُ، ثمَّ يأبَىٰ إلَّا أن يصرفَ العبادةَ لغيرِهِ، ولذلكَ فقَد أعظمَ اللهُ العقابَ لصاحبِهِ، وإذَا كانَ اللهُ تعالَىٰ يقولُ لخليلِهِ وصفيِّهِ مِن خلقِهِ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[(٣)]، فكيفَ بغيرِهِ؟!

وإذَا كانَت هذهِ العقوبَةُ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لَو حصلَ منهُ الشركُ- وقَد نزَّهَهُ اللهُ عنِ الشركِ -صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليهِ-، فكيفَ لَو وقعَ الشركُ ممَّن بعدَهُ؟!

(١) سورة المائدة:٧٢.

(٢) رواه البخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٦).

(٣) سورة الزمر:٦٥.

ثمَّ إنَّ هذَا الوعيدَ الشديدَ لَيُبيِّنُ عِظَمَ جُرمِ الشركِ فِي إحباطِهِ للعملِ، وهذَا ممَّا يُعظِّمُ الخوفَ منَ الوقوعِ فيهِ؛ لأنَّ نتيجةَ ذلكَ أنَّ الشِّركَ يحبطُ جميعَ مَا يعملُهُ العبدُ مِن أعمالِ البرِّ مِن صَلاةٍ وصيَامٍ وحجٍّ وصَدَقاتٍ وغيرِ ذلكَ.

فإِذَا توافَرَت دَوَاعِي الخَوفِ، دعَا ذلكَ العبدَ المُسلمَ لِتَعلُّمِ أنواعِ الشِّركِ، للتَّبَصُّرِ فِي أسبَابِهِ ووسَائلِهِ لِئَلَّا يقعَ فيهِ فيَكُونُ عملُهُ هبَاءً.

ويَا حسرَةَ مَنِ اجتهَدَ عُمرَهُ فِي تَحصِيلِ الأعمَالِ الصَّالحَةِ، ثمَّ خالطَ عملُهُ الشركَ فحبطَ عملُهُ فكَانَ ممَّن قالَ اللهُ تعالَىٰ فيهِم: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[(١)].

وأعظَمُ الغَبنِ وقُوعُ أنَاسٍ فِي الشِّركِ علَىٰ مَا عِندَهُم مِن أعمَالِ البرِّ الكَثيرَةِ، فلَا يجدُونَ معَ الأسفِ الشَّديدِ مَن يدلُّهُم علَىٰ التَّوحِيدِ، ويُحَذِّرُهُم منَ الشركِ حتَّىٰ تقبضَ أروَاحَهُم وهُم علَىٰ ذلكَ، وهذَا ممَّا يُعَظِّمُ مسئوليَّةَ المُوحِّدِ الَّذِي أنعمَ اللهُ عَليهِ بهذهِ النِّعمةِ العظيمَةِ -مَهمَا قلَّ علمُهُ وعمَلُهُ- أَن يوجِّهَ النَاسَ إِلَىٰ التوحِيدِ ويُحَذِّرُهُم منَ الشِّركِ، خصُوصًا فِي المُجتمعَاتِ الَّتِي يقلُّ فيهَا الناصحُونَ المتبصِّرونَ، فقَد ينقذُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بكَ أمًّا أَو أبًا أَو أخًا أَو قريبًا، فتأتِي يومَ القيامةِ وقَد فُزتَ بأجرِهِ، وكنتَ سببًا فِي نجاةِ أخٍ لكَ أَن يبقَىٰ مُتخَبِّطًا فِي ظلمَاتِ الشِّركِ والجَهلِ، ولرُبَّمَا ماتَ علَىٰ ذلكَ فيدخلُ تحتَ الوعيدِ بالعذابِ الشديدِ.

فتمسَّكُوا بمَا أنعَمَ اللهُ عليكُم بِهِ مِن نِعمَةِ التَّوحِيدِ، واجعَلُوا مِن شُكرِكُم لهذهِ النعمَةِ الخَوفَ عليهَا مِن أَن تُسلَبَ، والقيامَ بحقِّهَا وذلكَ بالدعوةِ إليهَا والتحذيرِ ممَّا يضادُّهَا.

❊❊❊

---

(١) سورة الفرقان:٢٣.

(٤٠) الغلوُّ داعيةُ الشركِ

الحمدُ للهِ إقرارًا بوحدانيتِهِ، والشكرُ لهُ علَىٰ سَوَابغِ نِعمَتِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ فِي ربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ المفضَّلُ علَىٰ جميعِ بريَّتِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ، والتابعينَ لهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فقدِ اهتمَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غايةَ الاهتمامِ بتقريرِ التوحيدِ، وبيَّنَهُ أتمَّ بيانٍ وأكملَهُ، وجاهدَ فِي دعوةِ الناسِ إليهِ، وتحمَّلَ البلاءَ فِي سبيلِ ذلكَ صابرًا محتسبًا، ولَم يزَل هذَا دأبَهُ مِن أوَّلِ بعثتِهِ إلَىٰ أَن أتاهُ اليقينُ مِن ربِّهِ.

ولمَّا بعثَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للبشريَّةِ كافةً وأمَرَهُ بالبلاغِ، كانَ أوَّلُ مَا دوَّىٰ بهِ أسماعَ المشركينَ أَنْ نادَىٰ بِهِم: «**قولُوا لَا إلهَ إلَّا اللهُ تُفلحُوا**»، فاستدارُوا حولَ أنفسِهِم حائرينَ، ثمَّ وقفُوا متعجبينَ، ثمَّ نطقُوا قائلينَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]، فلَم يَرُدَّهُ ذلكَ عمَّا جاءَ بهِ، ولَم يَثْنِهِ عَن بَيانِ مَا أُمرَ بهِ، مِن بيانِ حقِّ اللهِ علَىٰ عبادِهِ، وانطلقَ مُبيِّنًا للتوحيدِ الَّذِي هوَ سبيلُ نجاةِ الخلقِ وهاديهِم إلَىٰ دارِ العزَّةِ والكرامةِ فِي جنَّاتِ الخلودِ، ومُحذِّرًا لهُم مِنَ الشركِ الداعِي إلَىٰ الذلِّ والهوانِ، والعذابِ المقيمِ فِي دارِ الجحيمِ.

وكانَ مِن تمامِ دعوتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ توحيدِ الخالقِ سبحانَهُ، تحذيرُهُ مِنَ الوسائلِ المُردِيةِ الَّتِي تقودُ إلَىٰ الشركِ، وقَد لَا ينتبهُ إليهَا كثيرٌ مِنَ الخلقِ حتَّىٰ يقعُوا

---

(١) سورة ص: ٥.

فيهَا وتكونَ لهُم عادةً يصعبُ عليهِم تركُهَا، وإذَا حُذِّرُوا منهَا لَم يستمِعُوا إلَىٰ تحذيرِ الصادقينَ، ولَا إلَىٰ بيانِ الناصحينَ، وتراهُم فِي كلِّ يومٍ يزدادونَ انغماسًا فِي الضلالةِ، حتَّىٰ يكونَ الشركُ هوَ الدِّينَ الَّذِي لَا يَقبلونَ فيهِ نقاشًا، ولَا يَتقبَّلونَ لهُ نقدًا!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

ولذلكَ فقَد كانَ ممَّا جاءَ بِهِ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمايتُهُ لجنابِ التوحيدِ، ونهيهُ عَن كلِّ مَا يُضَادُّهُ منَ الشركِ ووسائلِهِ، ومِن ذلكَ نهيهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الغلوِّ، وهوَ مجاوزةُ الحدِّ فِي الثناءِ مدحًا أَو قدحًا.

والغلوُّ أعظمُ أسبابِ الوقوعِ في الشركِ، ومَا فُتِحَ علَىٰ الناسِ بابُ الشرِّ إلَّا بسببِ الغلوِّ فِي الأشخاصِ، سواءً كانُوا منَ الصالحينَ، أَو غيرِ الصالحينَ ويظُنُّهُمُ الناسُ صالحينَ، أَو مِن أُناسٍ جُهِلَ حالُهُم وقَد حِيكَت عليهِمُ القصصُ والأساطيرُ حتَّىٰ اعتقدَ الناسُ فيهِمُ العقائدَ الباطلةَ، الَّتِي أخرجتهُم مِن بحبوحةِ التوحيدِ إلَىٰ ضيقِ الشركِ والخرافةِ.

هذَا وإنَّ أوَّلَ وقوعِ الشركِ كانَ بسببِ الغلوِّ فِي الصَّالحينَ، فقَد ذَكَرت أمُّ حبيبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسةً رأتهَا بأرضِ الحبشةِ ومَا فيهَا منَ الصورِ - أَي: التماثيلِ -، فقالَ: «**أولئكَ إذَا ماتَ فيهِم الرجلُ الصالحُ أوِ العبدُ الصالحُ بَنَوا علَىٰ قبرهِ مسجدًا، وصوَّرُوا فيهِ تلكَ الصورَ، أولئكَ شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ**»[2].

وقَد نهَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأممَ السابقةَ عَن تعاطِي الغلوِّ، كمَا قالَ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ

---

(١) البقرة:١١-١٢.

(٢) رواه البخاري (١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

ﭐلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾[١].

كمَا حذَّرَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمَّتَهُ منَ الغلوِّ فِي الدينِ ومِن كلِّ وسيلةٍ تُوصِلُ إليهِ، ومِن ذلكَ أنَّهُ نهاهُم عَن إطرائِهِ وتجاوُزِ الحدِّ فِي مدحِهِ والثناءِ عليهِ، لِئَلَّا يقعُوا فيمَا وقعَ فيهِ غيرُهُم، فهلكُوا بسببِ ذلكَ، فقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إيَّاكُم والغلوَّ؛ فإنَّمَا أهلكَ مَن كانَ قبلَكُمُ الغلوُّ**»[٢].

ولمَّا كانَ الإطراءُ والغلوُّ سببًا فِي كُفرِ النصارَىٰ وقولِهِم فِي عيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ غيرَ الحقِّ، فقَد نهَىٰ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنِ الإطراءِ والتجاوزِ فِي المدحِ؛ سدًّا لذريعةِ الغلوِّ، فقالَ: «**لَا تطرونِي كمَا أطرَتِ النصارَىٰ ابنَ مريمَ، إنَّمَا أنَا عبدٌ، فقولُوا: عبدُ اللهِ ورسُولُهُ**»[٣].

ولمَّا بالغَ الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ فِي مدحِهِ والثناءِ عليهِ، نهاهُم عَن ذلكَ خوفًا عليهِم مِن مجاوزةِ الحدِّ، وحمايةً لجانبِ التوحيدِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ الشخيرِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**انطلَقتُ فِي وفدِ بنِي عامرٍ إلَىٰ النبيِّ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **فقُلنَا: أنتَ سيِّدُنَا، فقالَ: السيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، **قُلنَا: وأفضلُنَا فضلًا، وأعظمُنَا طولًا، فقالَ: قولُوا بقولِكُم أَو بعضِ قولِكُم، ولَا يستجرينَّكُمُ الشيطانُ**»[٤].

وقالَ أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إنَّ أُناسًا قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، يَا خيرَنَا وابنَ خيرِنَا، وسيدَنَا وابنَ سيدنَا، فقالَ: يَا أيُّهَا الناسُ، قولُوا بقولِكُم ولَا يستهوينَّكُمُ الشيطانُ، أنَا محمَّدٌ**

---

(١) النساء: ١٧١.

(٢) أخرجه النسائي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢١٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٩٠٠).

عبدُ اللهِ ورسولُهُ، مَا أحبُّ أَن ترفَعُونِي فوقَ منزلتِي الَّتِي أنزلنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(١)، وإذَا كانَ النهيُ عنِ الإطراءِ ومجاوزةِ الحدِّ فِي شخصهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغيرهُ مِن بابِ أولَىٰ.

ومَا دخلَ الشيطانُ علَىٰ كثيرٍ منَ الناسِ، واستزلَّهُم إلَىٰ الشركِ إلَّا بسببِ الغلوِّ، حتَّىٰ تعلَّقَت قلوبُهُم بالعبادِ ممَّن لَا يملكونَ لأنفسِهم ضرًّا ولَا نفعًا، ولَا يملكونَ موتًا ولَا حياةً ولَا نشورًا.

ومِن صورِ هذَا الغلوِّ الَّذِي قادَ إلَىٰ الشركِ ووسائلِهِ: مَا يفعلُهُ مَن لَا علمَ لَهُ عندَ قبورِ الموتَىٰ مِن طلبٍ لجلبِ خيرٍ أَو دفعِ ضُرٍّ، أَو زعمًا منهُ أَنَّهَا قبورُ صالحينَ فيُلتمسُ عندهَا البركةُ والخيرُ، وقَد نهَتِ الشريعةُ عَن ذلكَ لِمَا يؤدِّي إليهِ منَ الخروجِ مِن ملَّةِ الإسلامِ أَوِ الاستدراجِ إلَىٰ ذلكَ.

فمِمَّا نَهَت عنهُ الشريعةُ: اتخاذُ القُبورِ مسَاجدَ؛ أَي: مواضعَ للعبادةِ، وهذَا ممَّا يقودُ إلَىٰ الشركِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقَد شُرِعَت زيارةُ القبورِ مِن أجلِ تذكُّرِ الآخرةِ، والاعتبارِ بحالِ أهلِ القبورِ، والدعاءِ للميتِ والاستغفارِ لهُ، وكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد نهَىٰ عَن زيارةِ القبورِ أوَّلَ الأمرِ سدًّا للذريعةِ، فلمَّا تمكَّنَ التوحيدُ فِي القلوبِ أَذِنَ فِي زيارتِهَا، وفِي ذلكَ يقولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كنتُم نهيتُكُم عَن زيارةِ القبورِ، فزورُوهَا، فإنَّهَا تُذَكِّرُكُم الآخرةَ»**(٢).

ومَن رأَىٰ أحوالَ المشركينَ عندَ زيارةِ القبورِ رأَىٰ عجبًا مِن صرفِ العباداتِ الَّتِي لَا تُصرَفُ إلَّا للهِ إلَىٰ هؤلاءِ الموتَىٰ، مِن دعاءِ الميِّتِ والاستغاثةِ بِهِ والنذرِ لهُ والذبحِ

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «غاية المرام» (١٢٧).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧٧٢).

عندَ قبرِهِ والطوافِ حولَهُ، وغيرِ ذلكَ منَ العباداتِ الخالصةِ الَّتِي لَا تكونُ إلَّا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمَن أدَّاهَا لغيرِ اللهِ فقَدِ اتَّخذَهُ ندًّا للهِ؛ فكانَ منَ المشركينَ الخارجينَ عَن ملَّةِ الإسلامِ، المخلَّدينَ فِي نارِ جهنَّمَ، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١).

وقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ذلكَ فقالَ: «**اللهُمَّ لَا تَجعَل قبرِي وثنًا يُعبَدُ**»(٢).

ومثلُ هذهِ الزيارةِ هيَ التِي فَتَحَت أبوابَ الشركِ والبدعِ علَىٰ المسلمينَ؛ إذ جعلَ أهلُهَا القبورَ مقصدًا لِمَن أرادَ الدعاءَ وطلبَ الحاجاتِ وتفريجَ الكرباتِ، وعظَّمُوهَا أشدَّ مِن تعظيمِ بيوتِ اللهِ تعالَىٰ، فيعطونَهَا منَ التعظيمِ والاحترامِ والخشُوعِ والخضُوعِ مَا لَا يفعلونَ بعضَهُ فِي المساجدِ الَّتِي هيَ مكانُ العبادةِ والصلاةِ وذِكرِ اللهِ وسؤالِهِ، ولذلكَ فقَد سعَوا إلَىٰ عمارةِ القبورِ والمشَاهِدِ والبناءِ عليهَا وإسراجِهَا والدعوةِ إليهَا، وخرابِ المساجدِ وهجرِهَا، وتقليلِ مكانتِهَا وعَظَمَتِهَا فِي نفوسِ المسلمينَ، ولَا ريبَ أنَّ فِي ذلكَ مِنَ المفاسدِ مَا يعجزُ العبدُ عَن حصرِهِ.

ولَو تفكَّرُوا فِي حالِهِم وصحَّت عقولُهُم، لوجَدُوا أنَّهُم يدعُونَ عبيدًا ضعفاءَ، قَد توسَّدُوا الترابَ، وانقطعَت بِهِمُ الأسبابُ، إلَّا مَا يرجونَ مِن رحمةِ الكريمِ الوهَّابِ، وقَد قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي حالِهِم، ومَا يرجونَهُ مِن رحمةِ اللهِ وخوفِهِم مِن عذابِ اللهِ، وموبِّخًا مَن يدعونَهُم مِن دونِ اللهِ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

(١) المائدة: ٧٢.

(٢) رواه مالك في «الموطأ»، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٧٥٠).

﴿أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾(١).

وقَد شدَّد النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النهي عنِ اتخاذِ القبورِ مساجدَ خوفًا مِن أَن يُتَّخَذَ ذلكَ وسيلةً إلَىٰ الشركِ، وسبيلًا إلَىٰ الوقوعِ فيهِ، قالَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«لمَّا نُزِلَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يطرحُ خميصةً علَىٰ وجهِهِ، فإِذَا اغتمَّ كشفَهَا، فقالَ -وهوَ كذلكَ-: لعنةُ اللهِ علَىٰ اليهودِ والنصارَىٰ اتَّخذُوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ، يُحَذِّرُ مَا صنعُوا، ولولَا ذلكَ لأُبرِزَ قبرُهُ، غيرَ أنَّهُ خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مسجدًا»**(٢).

وقالَ جندبُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ أَن يموتَ بخمسٍ، وهوَ يقولُ: **«إنِّي أبرأُ إلَىٰ اللهِ أَن يكونَ لِي منكُم خليلٌ، فإنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خليلًا، ولَو كنتُ متَّخِذًا مِن أمَّتِي خليلًا لاتَّخذتُ أبَا بكرٍ خليلًا، ألَا وإنَّ مَن كانَ قبلَكُم كانُوا يتَّخِذُونَ قبورَ أنبيائِهِم وصالحِيهِم مساجدَ، ألَا فلَا تتَّخذُوا القبورَ مساجدَ، إنِّي أنهاكُم عَن ذلكَ»**(٣).

واتخاذُ القبورِ مساجدَ يشملُ السجودَ لهَا وإليهَا، واستقبالَهَا عندَ الصلاةِ والدعاءِ، وقَد كانَ المشركونَ يفعلونَ ذلكَ، يسجدونَ لهَا تعظيمًا، ويتوجَّهونَ إليهَا فِي صلاتِهِم، فلذلكَ لَعَنَهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهَىٰ أمتَهُ عَن مشابهتِهِم بعملٍ مثلِ هذهِ الأعمالِ، لِئَلَّا يكونَ مصيرُهُم سواءً، كمَا نَهَىٰ عنِ الوسائلِ القائدةِ إلَىٰ الوقوعِ فِي الشركِ، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تجلسُوا علَىٰ القبورِ، ولَا تُصَلُّوا إليهَا»**(٤).

كمَا دلَّتِ الأدلةُ علَىٰ تحريمِ بناءِ المساجدِ علَىٰ القبورِ ولعْنِ مَن فعلَ ذلكَ، سواءً

---

(١) الإسراء:٥٦-٥٧.
(٢) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١).
(٣) رواه مسلم (٥٣٢).
(٤) رواه مسلم (٩٧٢).

كانَ ببناءِ المساجدِ علَىٰ القبورِ، أَو إدخالِ القبورِ فِي المساجدِ بعدَ أَن تُبنىٰ، فعَن أَبِي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: «**إنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **نهَىٰ أَن يُبنَىٰ علَىٰ القبورِ أَو يُقعَدَ عليهَا أَو يُصَلَّىٰ عليهَا**»[1].

وقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لعنةُ اللهِ علَىٰ اليهودِ والنصارَىٰ اتَّخذُوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ**»[2].

وقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللهمَّ لَا تجعَل قبرِي وثنًا يُعبَدُ، اشتدَّ غضبُ اللهِ علَىٰ قومٍ اتخذُوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ**»[3].

وفِي قولِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اجعلُوا مِن صلاتِكُم فِي بيوتِكُم ولَا تتخذوهَا قبورًا**»[4]، وقولهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا تجعلُوا بيوتَكُم مقابرَ، فإِنَّ الشيطانَ يفرُّ مِنَ البيتِ الَّذِي يسمعُ سورةَ البقرةِ تُقرأُ فيهِ**»[5]، دليلٌ علَىٰ عدمِ الصلاةِ عندَ القبورِ وقراءةِ القرآنِ والدعاءِ فيهَا.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: أَي: لَا تعطِّلُوهَا منَ الصلاةِ فيهَا والدعاءِ والقراءةِ، فتكونُ بمنزلةِ القبورِ، فأمرَ بتحرِّي العبادةَ فِي البيوتِ، ونَهَىٰ عَن تحرِّيهَا عندَ القبورِ، عكسَ مَا يفعلُهُ المشركونَ منَ النصارَىٰ ومَن تشبَّهَ بِهِم مِن هذهِ الأمَّةِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في «مسنده»، وصححه الألباني في «تحذير الساجد» (ص٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٤)، ومسلم (٥٣١).

(٣) رواه مالك في «الموطأ»، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٧٥٠).

(٤) رواه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

(٥) رواه مسلم (٧٨٠).

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيهِ كمَا يحبُّ ربُّنَا ويرضَىٰ، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ، ومَنِ اهتدَىٰ بهديهِ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن صُوَرِ الغلوِّ فِي القبورِ: البناءَ عليهَا، وقَد نهَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن تجصيصِ القبرِ، وأَن يُقعَدَ عليهِ وأَن يُبنَىٰ عليهِ بناء[1].

ولَا يجوزُ السفرُ مِن أجلِ زيارةِ قبرٍ مِنَ القبورِ مهمَا علَا شأنُ صاحبِهِ، ودليلُ ذلكَ قولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُشَدُّ الرحالُ إلَّا إلَىٰ ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحرامِ، ومسجدِي هذَا، والمسجدِ الأقصَىٰ**»[2].

ومَن عَلِمَ هذهِ النصوصَ الشرعيَّةَ ووفَّقَهُ اللهُ إلَىٰ فَهمِهَا، تلقَّىٰ مَا دلَّت عليهِ بالقبولِ والتسليمِ، وحذَّرَ أشدَّ الحذرِ مِن مخالفتِهَا، وأذعنَ لِمَا جاءَت بهِ منَ التحذيرِ منَ الغلوِّ فِي القبُورِ والتوسُّلِ بأهلِهَا، واتخاذِهَا مساجدَ ومجاوزةِ الحدِّ المشروعِ فِي تعظيمِهَا وتخصيصِهَا بالدعاءِ، واعتقادِ أفضليةِ شيءٍ منَ العبادةِ عندَهَا، واتخاذِهَا أعيادًا، ورفعِهَا والبناءِ عليهَا وتَجصِيصِهَا، واتخاذِ السُّرُجِ عليهَا، وشدِّ الرحالِ لزيارتِهَا.

وقَد تلقَّىٰ صحَابَةُ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُم أعمقُ الناسِ فهمًا، وأزكاهُم نفوسًا، مَا حذَّرهُم منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقبولِ، فلَو كانَ للدعاءِ عندَ القبُورِ، والصلاةِ

(١) رواه مسلم (٩٧٠).
(٢) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (٨٢٧).

عندهَا، والتبَرُّكِ بهَا فَضيلةٌ لتسابقَ إليهَا المهاجِرونَ والأنصارَ، وسنُّوا ذلكَ لِمَن بعدَهُم، ولكنَّهُم كانُوا أعلمَ باللهِ ورسولِهِ ودينِهِ مِمَّن جاءَ بعدَهُم، فلَم يفعلُوا شيئًا مِن بوادرِ ذلكَ الغلوِّ، ثمَّ أدركَهُم أفواجٌ منَ التابعينَ، وكانَ عندَهُم مِن قبورِ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمصارِ عددٌ كثيرٌ، فمَا منهُم مَن استغاثَ عندَ قبرِ صاحبٍ، ولَا دعاهُ ولَا دعَا بهِ، ولَا دعَا عندَهُ ولَا استشفَىٰ بهِ، ولَا استسقَىٰ بهِ، ولَا استنصرَ بهِ، ولَو كانَ خيرًا لسبقونَا إليهِ، ولَنُقِلَ ذلكَ عنهُم، بَلِ الثابتُ ضدُّ ذلكَ أنَّهُم كانُوا ينهونَ عَن أقلَّ مِن ذلكَ، كمَا ثبتَ عَنْ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ أنكرَ علَىٰ أنسٍ صلاتَهُ عندَ القبرِ، وقالَ لَهُ: القبرَ، القبرَ، وكمَا فعلَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقبرِ دانيالَ لمَّا فتحُوا تُستُر، إذ حفرُوا قبورًا متفرقةً، ودفنوهُ ليلًا فِي إحداهَا وسَوَّوا القبورَ جميعًا لِئَلَّا يعرفَهُ الناسُ.

وإنَّمَا كانَ هذَا ممَّا ورِثُوهُ عَن رسولِ الهُدىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الغرسِ المباركِ، بتعظيمِ حقِّ اللهِ علَىٰ عبادِهِ، بإفرادِهِ بالتوحيدِ، واجتنابِ الشركِ والوسائلِ المؤدِّيةِ إليهِ، فصلحَ لهُم أمرُ دينِهِم ودُنيَاهُم.

❊❊❊

(٤١) التحذيرُ منَ الكهَّانِ وأعمالِهِم

الحَمدُ للهِ المتفردِ بالعظمةِ والجلالِ، المتفضلِ علَىٰ خلقهِ بجزيلِ النوالِ، أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكرُهُ، وأتوبُ إليهِ وأستغفرُهُ، وهوَ الكبيرُ المتعالُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، الداعِي إلَىٰ الحقِّ والمنقذُ -بإذنِ ربِّهِ- منَ الضَّلالِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ خيرِ صحبٍ وآلٍ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ المآلِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ توحيدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ رأسُ مالِ المسلمِ، والقائدُ إلَىٰ جناتِ الخلدِ، وإن تلبَّسَ المرءُ بشيءٍ منَ الذنوبِ والمعاصِي، قالَ اللهُ تعالَىٰ: «**يَا ابنَ آدمَ، لَو أتيتَنِي بقُرابِ الأرضِ خطايَا** -أَي: ملؤُهَا-، **ثمَّ لقيتنِي لَا تشرِكُ بِي شيئًا، لأتيتُكَ بقُرابِهَا مغفرةً**»[١].

وعلَىٰ ذلكَ فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يحافظَ علَىٰ توحيدِهِ ونقاءِ عبادتِهِ، ويحذَرَ أشدَّ الحذرِ منَ الوقوعِ فِي الشركِ؛ لأنَّهُ قائدٌ إلَىٰ الخلودِ فِي النارِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢].

وإنَّ مِن أخطرِ مَا يهدِّدُ عقيدةَ التوحيدِ، ويقودُ إلَىٰ الشركِ والضلالةِ والخروجِ منَ الملَّةِ، الذهابَ إلَىٰ الكهنةِ والعرافينَ، وتعاطِي الأمورِ الَّتِي يتعامَلُونَ بهَا، كالسحرِ والشعوذةِ وادِّعَاءِ علمِ الغيبِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأعمالِ الَّتِي تُفسِدُ دينَ المرءِ ودنياهُ.

وقدِ اغترَّ بِهِم كثيرٌ منَ الناسِ مِن قليلِي العلمِ وضعفاءِ الإيمانِ، ففتنُوهُم فِي

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٢) المائدة: ٧٢.

دينِهم، وأوقَعُوهُم فِي الشِّركِ، والتعلُّقِ بالمَخلُوقينَ، وصرفوهُم عَن عبادةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَد تتابعَتِ الأدلةُ الصحيحةُ بالتحذيرِ منَ الكهَّانِ، وبيانِ تلبيسِهم وحِيَلِهم وكذبِهم علَىٰ الناسِ، وبيَّنَت طريقةَ الكُهَّانِ فِي نقلِهِمُ الأخبارَ حتَّىٰ تقبَّلَهَا الناسُ، فالكاهنُ يُخبرُ عنِ المغيَّبَاتِ، حيثُ يأخذُ شيئًا منهَا عَن مُسترِقِ السمعِ منَ الشياطينِ الَّذِينَ يستمعونَ إلَىٰ خبرِ السماءِ، فإذَا جاءَ إليهِ الخبرُ خَلَطَ معهُ مائةَ كذبةٍ، فإذَا أخبرَ بهَا مَن جاءُوا إليهِ صدَّقوهُ بمَا قالَ، واستقرَّ ذلكَ فِي قلوبِهم، وقَد وصفَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقةَ الكهَّانِ فِي نقلِهِمُ الأخبارَ، فقالَ: «**إذَا قَضَىٰ اللهُ الأمرَ فِي السماءِ ضربَتِ الملائكةُ بأجنحتِهَا خُضْعانًا لقولِه، كأنَّهُ سلسِلَةٌ علَىٰ صفوانٍ، فإذَا فُزِّعَ عَن قلوبِهِم، قالُوا: ماذَا قالَ ربُّكُم؟ قالُوا: الحقَّ وهوَ العليُّ الكبيرُ، فيسمَعُهَا مُسترِقُ السمعِ، ومُسترِقُ السمعُ هكذَا بعضُهُ فوقَ بعضٍ، فيسمعُ الكَلِمَةَ فيُلقِيهَا إلَىٰ مَن تحتَهُ، حتَّىٰ يُلقيهَا علَىٰ لسانِ الساحرِ أَوِ الكاهنِ، فربَّمَا أدركَهُ الشهابُ قبلَ أَن يلقيهَا، وربَّمَا ألقاهَا قبلَ أَن يدركَهُ، فيَكذِبُ معهَا مائةَ كذبةٍ، فيقالُ: أليسَ قالَ لنَا يومَ كذَا أَو كذَا: كذَا وكذَا، فيُصدَّقُ بتلكَ الكلمةِ الَّتِي سَمِعَ منَ السَّماءِ**»(١).

وأمَّا العرَّافُ، فهوَ المنجِّمُ والرمَّالُ ونحوُهُم، **وقَد قالَ العلماءُ**: العرافةُ طرفٌ منَ السحرِ، والسحرُ أخبثُ.

وهُم علَىٰ كلِّ حالٍ يجمعُهُم ادعاءُ علمِ الغيبِ، واستخدامُ الشياطينِ، والكَذبُ والشعوذةُ الَّتِي يُلَبِّسونَ بِهَا علَىٰ مَن أطاعَهُم مِن ضعيفِي العلمِ والإيمانِ.

وقَد دلَّتِ النصوصُ الشرعيَّةُ علَىٰ كُفرِهِم وكُفرِ مَن سأَلَهُم وصدَّقَهُم فيمَا يدَّعونَهُ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

مِن علمِ الغيبِ الَّذِي اختصَّ اللهُ بعلمِهِ، وحذَّرت مِن خطرِ المجيءِ إليهِم وسؤالِهِم وتصديقِهِم فيمَا يذكُرونَهُ منَ الأخبارِ، ومِن ذلكَ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أتَىٰ كاهنًا فصدَّقَهُ بمَا يقولُ؛ فقَد برئَ ممَّا أُنزِلَ علَىٰ محمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أتَىٰ عرَّافًا أَو كاهنًا فصدَّقَهُ بمَا يقولُ؛ فقَد كفرَ بمَا أُنزِلَ علَىٰ محمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

وممَّا يتعاطاهُ أهلُ الشَّعوذَةِ منَ الكهَّانِ والعرَّافينَ ويُوقِعُونَ الناسَ فيهِ: السِّحرُ الَّذِي يذهبُ بالدينِ والدنيَا، ويدمِّرُ حياةَ مَن أصابَهُ حتَّىٰ يجعلَهُ ليسَ منَ الأحياءِ ولَا منَ الأمواتِ.

فكَم فُجِعَت بسببِهِ البيوتُ، ومَرَجَت علَىٰ إثرِهِ العقولُ، وتقطَّعت مِن جرَّائِهِ العلاقاتُ، وفرحَ بهِ أناسٌ أوَّلَ مَا أقدمُوا عليهِ حينَ تحصَّلَ لهُم شيءٌ مِن متاعِ الدنيَا الزائلِ، ثمَّ عادُوا مُفلِسينَ لسوءِ مَا صنعُوا، وعاقبَهُمُ اللهُ بمكرِهِم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٣)، ووقعَ عليهِمُ الشقاءُ بعدَ السعادةِ المتوهمةِ المؤقتةِ، وضاقَت عليهِم أنفسُهُم بسببِ ظلمِهِم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

والسحرُ بابٌ مِن أبوابِ الشرِّ، مَن دخلَهُ هلَكَ، وباعَ آخرَتَهُ بدنياهُ، ولَم يَجِد إلَىٰ النجاةِ مسلكًا، إلَّا إذَا تابَ قبلَ حلولِ الأجلِ، وهوَ أنواعٌ منوَّعةٌ تؤثِّرُ فِي القلوبِ والأبدانِ، فهوَ يُمرِضُ ويقتُلُ، ويفرِّقُ بينَ المرءِ وزوجِهِ بالرغمِ مِن قوةِ العلاقةِ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٣٩).
(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٥٩٩).
(٣) فاطر: ٤٣.
(٤) النمل: ٥٢.

والارتباطِ، ويؤدِّي إلَىٰ الجنونِ والغَيبَةِ عنِ الواقعِ، وبسببِ هؤلاءِ السحرةِ المجرمينَ يظهرُ لهُ فِي كلِّ فترةٍ نوعٌ مستحدثٌ ووسيلةٌ جديدةٌ.

والسحرُ كفرٌ، ومَن سحرَ كفرَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾(1).

قالَ أبُو بكرٍ بنُ العربيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومَا كفرَ سليمانُ قطُّ ولَا سحرَ، ولكنَّ الشياطينَ كفرُوا بسحرِهم، وأنَّهُم يُعَلِّمُونَ الناسَ، ومعتقِدُ السحرِ كافرٌ، وقائلُهُ كافرٌ، ومعلِّمُهُ كافرٌ، ويُعَلِّمُونَ الناسَ مَا أُنزلَ علَىٰ الملكينِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ، ومَا كانَ الملكانِ يُعَلِّمَانِ أحدًا حتَّىٰ يقولَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾(2).

والسحرُ منَ الكبائرِ، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ** -أي: المهلكاتِ-، **قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ومَا هُنَّ؟ قالَ: الشركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النفسِ الَّتِي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الربَا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المُحصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ**»(3).

والسحرُ حقيقةٌ، وقَد أمرَ اللهُ بالاستعاذةِ منهُ ومِن أهلِهِ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ

---

(١) البقرة:١٠٢.

(٢) البقرة:١٠٢.

(٣) رواه البخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(١)، والنفَّاثاتُ هنَّ: السواحرُ.

وقد ذمَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السحرَ وأهلَهُ فِي كتابِهِ الكريمِ، وبيَّنَ بطلانَ عملِهم، وأنَّهُم لَا نصيبَ لهُم فِي الآخرةِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾(٢).

وقالَ تعالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٣)، وقالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾(٤).

وممَّا يُقدِمُ عليهِ هؤلاءِ الكهَّانُ الرُّقَىٰ الشركيَّةَ، حيثُ يُوهِمونَ الناسَ بأنَّهُم يقرأونَ عليهِمُ القرآنَ، وهُم دجاجلةٌ أفَّاكُونَ، ينفثُونَ علَىٰ الناسِ برُقًىٰ وأدعيةٍ شِركيَّةٍ، تحملُ فِي ثناياهَا الاستغاثةَ بالجنِّ والشَّياطينِ، الَّذِينَ يدعونَهُم مِن دُونِ اللهِ تضرُّعًا وخِيفةً، ويعتقدونَ فيهَا دفعَ الآفاتِ والحفظَ منَ المكروهاتِ، وفِي هذَا يقولُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الرُّقَىٰ والتمائمَ والتولةَ شركٌ**»(٥).

ولَا يدخلُ فِي ذلكَ الرُّقَىٰ المشروعةُ الَّتِي أذنَ بهَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِهِ: «**اعرِضُوا علَيَّ رُقاكُم، لَا بأسَ بالرُّقَىٰ مَا لَم تكُن شركًا**»(٦).

وممَّا يصنعُهُ هؤلاءِ الكَهنةُ ويَدعُونَ إليهِ: التمائمَ، وهيَ: الحجُبُ والجوامعُ والحروزُ والخَرزُ الَّتِي يُعَلِّقهَا المرءُ؛ لاعتقادِ دفعِ الضرِّ وجلبِ النفعِ، والتِّوَلةِ: وهيَ

(١) الفلق: ١-٥.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) يونس: ٨١.

(٤) طه: ٦٩.

(٥) رواه أحمد في «المسند»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣١).

(٦) رواه مسلم (٢٢٠٠).

شيءٌ تصنعُهُ المرأةُ تجلبُ بهِ محبَّةَ زوجِها وهوَ ضربٌ منَ السحرِ.

وقد نُهِيَ عَن هذهِ الأعمالِ لِمَا فيهَا منَ اعتقادِ جلبِ النفعِ ودفعِ الضرِّ مِن دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

وحذَّرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن تعلُّقِ القلبِ بهذهِ التمائمِ والحُروزِ فقالَ: «**مَن تعلَّقَ تميمةً فقد أشركَ**»[3]، ومَن تعلَّقَ قلبُهُ بهذهِ التمائمِ ونحوِهَا، وَكَلَهُ اللهُ إليهَا، فجنَىٰ الخسارَةَ والخِذْلانَ.

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَلَّا يلتفتَ قلبُهُ لغيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَا يتعلَّقَ إلَّا بهِ، فمَن تعلَّقَ باللهِ، وأنزلَ حَوائجَهُ بهِ، والتجأَ إليهِ، وفوَّضَ أمرَهُ إليهِ؛ كفاهُ ووقاهُ وهداهُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وليِّ مَن اتَّقَاهُ، مَنِ اعتمدَ عليهِ كفاهُ، ومَن لاذَ بهِ وقاهُ، أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكرهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ومصطفاهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن دعَا بدَعوتِهِ واهتدَىٰ بهُدَاهُ.

أمَّا بَعدُ:

وممَّا بثَّهُ هؤلاءِ الكهنَةُ المَارِقونَ بينَ الناسِ ودَعَوا إليهِ أتباعَهُم: الذبحُ لغيرِ اللهِ

(١) يونس: ١٠٧.

(٢) يونس: ١٠٦.

(٣) رواه أحمد في «المسند»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٢).

تعالَىٰ منَ الأحياءِ أَوِ الأمواتِ؛ طلبًا للنفعِ ودَفعًا للضرِّ، حتَّىٰ صارَ بعدَ ذلكَ متفشِّيًا بينَ ضُعَفاءِ الدِّينِ واليقينِ.

والذَّبحُ علَىٰ جِهَةِ التقرُّبِ بطلبِ النَّفعِ ودفعِ الضرِّ عبادةٌ خالصةٌ لَا تجوزُ إلَّا للهِ سبحانَهُ، وأداءُ ذلكَ لغيرِ اللهِ مِن صنيعِ أهلِ الجاهليَّةِ، وهوَ شركٌ أكبرُ يُخرِجُ صاحبَهُ مِن ملَّةِ الإسلامِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

قالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يأمرُهُ تعالَىٰ أَن يخبرَ المشركينَ الَّذِينَ يعبدونَ غيرَ اللهِ، ويذبحونَ لغيرِ اسمِهِ، أنَّهُ مخالفٌ لهُم فِي ذلكَ، فإنَّ صلاتَهُ للهِ، ونُسُكَهُ علَىٰ اسمِهِ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وهذَا كقولِهِ تعالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[2]؛ أَي: أَخْلِص لهُ صلاتَكَ وذبحَكَ، فإنَّ المشركينَ كانُوا يعبدونَ الأصنامَ، ويذبحونَ لهَا، فأمَرَهُ اللهُ تعالَىٰ بمخالفتِهِم، والانحرافِ عمَّا هُم فيهِ، والإقبالِ بالقصدِ والنيَّةِ والعزمِ علَىٰ الإخلاصِ للهِ تعالَىٰ.

وقَد جاءَ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن قالَ: «**لعنَ اللهُ مَن ذبحَ لغيرِ اللهِ، لعَنَ اللهُ مَن لعنَ والديهِ، لعنَ اللهُ مَن آوىٰ محدثًا، لعنَ اللهُ مَن غيَّرَ منارَ الأرضِ**»[3].

واللعنُ معناهُ: الطردُ والإبعادُ مِن رحمةِ اللهِ تعالَىٰ، وهذَا دليلٌ علَىٰ خطُورَةِ هذهِ الأمورِ الَّتِي نَهَىٰ عنهَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعظمُهَا خطرًا الذبحُ لغيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، منَ الأصنامِ والأولياءِ والسادةِ والكهَّانِ والسحرةِ والمنجِّمينَ، أَوِ الأشجارِ والكواكبِ، وجميعِ مَا أُهِلَّ بهِ لغيرِ اللهِ تعالَىٰ، ومثلُ هذَا مَا يقعُ منَ المعتقدينَ بالأمواتِ منَ الذبحِ

(١) الأنعام:١٦٢-١٦٣.

(٢) الكوثر:٢.

(٣) رواه مسلم (١٩٧٨).

علَىٰ قبورِهِم، فإِنَّهُ ممَّا أُهِلَّ بهِ لغيرِ اللهِ، ولَا فرقَ بينَهُ وبينَ الذبحِ للوثَنِ.

فالذبحُ للهِ تعالَىٰ تقرُّبًا إليهِ سبحانَهُ مِن أفضلِ وأعظمِ القرباتِ، كمَا أنَّ الذبحَ لغيرِهِ تقرُّبًا مِن أعظمِ الذنوبِ والآثامِ، إذ هوَ الشركُ الأكبرُ المُخرِجُ منَ الملَّةِ الَّذِي لَا يغفرُهُ اللهُ تعالَىٰ لِمَن ماتَ عليهِ ولَم يتُب، وقَد قالَ سبحانَهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾(١).

وقَد بلغَ مِن حرصِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحمايتِهِ لجنابِ التوحيدِ، أَن منعَ أمَّتَهُ منَ الذبحِ للهِ تعالَىٰ فِي مكانٍ كانَ يُتَقَرَّبُ فيهِ لغيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَو يعتادُهُ أهلُ الشركِ فِي أعمالِهِمُ الجاهليَّةِ، وإِن كانَ هذَا العملُ فِي نفسِهِ لَيسَ شِركًا، ولكنَّهُ إنَّمَا فعلَ ذلكَ سدًّا لبابِ الشركِ ووسائلِهِ، فقَد جاءَ فِي الحديثِ: أنَّ رجلًا نذرَ أَن ينحرَ إبلًا ببوانَة -وهوَ اسمٌ لمكانٍ- فسأَلَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقالَ: «**هَل كانَ فيهَا وثنٌ مِن أوثانِ الجاهليَّةِ يُعبَدُ؟ قالُوا: لَا، قالَ: فهَل كانَ فيهَا عيدٌ مِن أعيادِهِم؟ قالُوا: لَا، فقالَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَوفِ بنذرِكَ، فإِنَّهُ لَا وفاءَ لنذرٍ فِي معصيةِ اللهِ، ولَا فيمَا لَا يملكُ ابنُ آدمَ**»(٢).

فهذَا الرجلُ الَّذِي نذرَ أَن يذبحَ للهِ فِي ذلكَ المكانِ، مَا سألَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلكَ الأسئلةَ، إلَّا سدًّا للطريقِ الموصلةِ إلَىٰ الشركِ، ولَو كانَت تلكَ الأوثانُ أَوِ الأعيادُ قَد زالَت واندَثَرَت، وكلُّ ذلكَ كانَ حمايةً منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتوحيدِ المسلمِ أَن يتسلَّلَ إليهِ الشركُ؛ لأنَّ الناسَ لَو تتابعُوا علَىٰ الذبحِ للهِ فِي هذَا المكانِ، سيأتِي الزمانُ الَّذِي يُنسَىٰ فيهِ العلمُ، فيُلَبِّسُ الشيطانُ علَىٰ مَن بعدِهِم ويوهمُهُم أنَّ ذلكَ الذبحَ كانَ تقرُّبًا لأولئكَ الأمواتِ، فيصرفونَ لَهُم هذهِ العبادةَ مِن دونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،

(١) النساء:٤٨.

(٢) رواه ابو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٤٣٧).

ولذلكَ لمَّا علمَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بخلوِّ ذلكَ المكانِ مِن هذهِ الأمورِ؛ أَذِنَ للرجُلِ أَن يذبحَ، وقالَ: أَوفِ بنَذرِكَ.

نسأَلُ اللهُ أَن يُحيِينَا علَىٰ التوحيدِ سعداءَ، وأَن يتوفَّانَا عليهِ شهداءَ، ويحشرَنَا فِي زُمرَةِ الأتقياءِ الأصفياءِ.

❊❊❊

(٤٢) شروطُ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وفضائلُهَا

الحمدُ للهِ الَّذِي أرشدَ عقولَ أوليائِهِ إِلَىٰ توحيدِهِ وهَدَاهَا، وأعمَىٰ بصائرَ المنافقينَ لمَّا أدبرَت عَنِ الدِّينِ فلَم تُجِبهُ لِمَا دعاهَا، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تتناهَىٰ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ الَّذِي بيَّنَ كلمةَ التوحيدِ لفظَهَا ومعناهَا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ الَّذِينَ عضُّوا علَىٰ سنَّتِهِ بالنواجذِ وتمسَّكُوا بعرُاهَا، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ أَن يعلمَ أَنَّ شهادةَ التوحيدِ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، لَا تُقبَلُ مِن قائلهَا بمجرَّدِ نُطقِهِ لهَا باللسَانِ، بَل لا بُدَّ مِن أداءِ حقِّهَا وفرضِهَا، واستيفاءِ شُروطِها الَّتِي دلَّ عليهَا الكتابُ والسنَّةُ.

وقَد أشارَ السلفُ الصالحُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ أهميَّةِ العنايةِ بشروطِ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، ووجوبِ الالتزامِ بهَا، وأنَّها لَا تُقبلُ إِلَّا بذلكَ.

قيلَ للحسنِ البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ ناسًا يقولونَ: مَن قالَ: لَا إلهَ إِلَّا اللهُ دخلَ الجنَّةَ، فقالَ: مَن قالَ لَا إلهَ إِلَّا اللهَ فأدَّىٰ حقَّهَا وفرْضَهَا دخلَ الجنَّةَ.

وقالَ رجلٌ لوهبِ بنِ منبهٍ: أليسَ مفتاحُ الجنَّةِ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ؟ قالَ: بلَىٰ، ولكِن مَا مِن مفتاحٍ إِلَّا لهُ أسنانٌ، فإِن أتيتَ بمفتاحٍ لهُ أسنانٌ فُتِحَ لكَ، وإِلَّا لَم يُفتَح.

وهوَ بذلكَ يشيرُ إِلَىٰ شروطِ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ الواجبِ اعتقادُها والعملُ بمُقتضاهَا.

وقَد أحصَىٰ العلماءُ شروطَ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وبيَّنوهَا أتمَّ بيانٍ، واهتمُّوا بهَا غايةَ الاهتمامِ بهَا، نَظَرًا لمَا يتعَلَّقُ بهَا منَ الآثارِ.

فمِن شُروطِ (لَا إلهَ إلَّا اللهُ): العلمُ بمعناهَا المرادِ منهَا علمًا منافيًا للجهلِ، وذلكَ أَنْ يعلمَ مَن قالهَا أنَّهَا تنفِي جميعَ أنواعِ العبادةِ عَن كلِّ مَن سوَىٰ اللهِ، وتُثبتُ ذلكَ للهِ وحدَهُ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]؛ أَي: نَعبدُكَ ولَا نعبدُ غيرَكَ، ونستعينُ بكَ ولَا نستعينُ بسِوَاكَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3]، **قالَ المفسِّرونَ**: إلَّا مَن شهدَ بِـ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أَي: مَعنَىٰ مَا شَهِدُوا بهِ فِي قلوبِهِم وألسنتِهِم.

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن مَاتَ وهوَ يعلمُ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا اللهُ دخلَ الجنَّةَ**»[4]، فاشترَطَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ العلمَ بمعناهَا.

ومِن شروطِهَا: أَن يكونَ قائلُهَا موقنًا بهَا يقينًا جازمًا لَا شكَّ فيهِ ولَا ريبَ، واليقينُ هوَ تمامُ العلمِ وكمالُهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ فِي وصفِ المؤمنينَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[5]، ومعنَىٰ قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أَي: أيقنُوا ولَم يَشُكُّوا.

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ، لَا يلقَىٰ اللهَ بِهِمَا عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهِمَا إلَّا دخلَ الجنَّةَ**»[6].

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبِي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَن لقيتَ مِن وراءِ هذَا**

(١) سورة الفاتحة:٥.

(٢) سورة محمد:١٩.

(٣) سورة الزخرف:٨٦.

(٤) رواه البخاري (٤١٣٧).

(٥) سورة الحجرات:١٥.

(٦) رواه مسلم (٢٧).

الحائطِ يشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ مُستيقنًا بهَا قلبُهُ فبشِّرهُ بالجنَّةِ»(١)، فاشترطَ اليقينَ.

وممَّا يُشترطُ لهَا: الإخلاصُ المنافِي للشركِ والرياءِ، وذلكَ إنَّمَا يكونُ بتصفيةِ العملِ وتنقيتِهِ مِن جميعِ الشوائبِ الظاهرةِ والخفيَّةِ، بإخلاصِ النيَّةِ فِي جميعِ العباداتِ للهِ وحدَهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾(٢)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٣).

وقالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أسعَدُ الناسِ بشَفَاعتِي مَن قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ خَالصًا مِن قَلبِهِ»**(٤)، فاشترطَ الإخلاصَ.

ومِن شروطِهَا: الصدقُ المُنَافِي للكذبِ، وذلكَ بأَن يقولَ العبدُ هذهِ الكلمةَ صادقًا مِن قلبِهِ، والصدقُ أَن يوافقَ القلبُ اللسانَ، ولذَا قالَ اللهُ تعالَىٰ فِي ذمِّ المنافقينَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(٥)، فوصفَهُم سبحانَهُ بالكذبِ؛ لأنَّ مَا قالُوهُ بألسنتِهِم لَم يكُن موجودًا فِي قلوبِهِم.

وقالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٦).

وقالَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَا مِن أحدٍ يشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ**

---

(١) رواه مسلم (٣١).

(٢) سورة الزمر:٣.

(٣) سورة البينة:٥.

(٤) رواه البخاري (٩٩).

(٥) سورة المنافقون:١.

(٦) سورة العنكبوت:٢-٣.

ورسولُهُ صادقًا مِن قَلبِهِ إلَّا حرَّمَهُ اللهُ علَىٰ النَّارِ»(١)، فاشترطَ الصِّدقَ.

ومِن شروطِهَا: المحبَّةُ المنافيةُ للبُغضِ والكرهِ، وذلكَ بأَن يحبَّ قائلُهَا اللهَ ورسولَه ودينَ الإسلامِ والمسلمينَ القائمينَ بأوامرِ اللهِ الواقفينَ عندَ حدودِهِ، وأَن يُبغضَ مَن خالفَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأتَىٰ بمَا يُناقضهَا مِن شركٍ وكفرٍ، وممَّا يدلُّ علَىٰ اشتراطِ المحبَّةِ فِي الإيمانِ قولُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾(٢).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوثقُ عُرَىٰ الإيمانِ الحبُّ فِي اللهِ والبغضُ فِي اللهِ**»(٣).

وممَّا يُشترطُ لهَا: القَبُولُ المنافِي للردِّ، فلا بُدَّ مِن قبولِ هذهِ الكلمةِ قبولًا حقًّا بالقلبِ واللسانِ، وقَد قصَّ اللهُ علينَا فِي القرآنِ الكريمِ أنباءَ مَن سبقَ ممَّن أنجاهُم لقَبولِهِم لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وإهلاكَهُ لِمَن ردَّهَا ولَم يقبَلْهَا، قالَ تعالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٤)، وقالَ سبحانَهُ فِي شأنِ المشركينَ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾(٥).

ومِن شروطِهَا: انقيادُ قائلِها لشرعِ اللهِ، وإذعانُهُ لحكمِهِ، وأَن يُسلِمَ وجهَهُ إلَىٰ اللهِ، إذ بذلكَ يكونُ متمسكًا بلَا إلهَ إلَّا اللهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾(٦)، أَي: استمسكَ بـ: (لَا إلهَ إلَّا اللهُ)، فاشترطَ

---

(١) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٢) سورة البقرة:١٦٥.

(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في تحقيق كتاب «الإيمان» لابن تيمية (ص١١٩).

(٤) سورة يونس:١٠٣.

(٥) سورة الصافات:٣٥-٣٦.

(٦) سورة لقمان:٢٢.

سبحانَهُ الانقيادَ لشرعِ اللهِ، وذلكَ بإسلامِ الوجهِ لهُ سبحانَهُ.

فهذهِ هيَ شروطُ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وليسَ المرادُ منهَا عدَّ ألفاظِهَا وحفظَهَا فقَط، ولكنَّ المقصودَ العلمُ بمَا دلَّت عليهِ، والعملُ بمُقتضَىٰ ذلكَ، ليكونَ المرءُ بذلكَ مِن أهلِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ صِدقًا، ومِن أهلِ كلمةِ التوحيدِ حقًّا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لَهُ علَىٰ إحسانِهِ العامِّ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمَامِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصابيحِ الظلامِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ لشهادةِ التوحيدِ «لَا إلهَ إلَّا اللهُ» فضَائلَ عظيمةً، ومنازلَ كريمةً، فلأجلِ هذهِ الكلمةِ خُلقَتِ الخليقةُ، وأُرسلَتِ الرسلُ، وأُنزلَتِ الكتبُ، وبهَا افترقَ الناسُ إلَىٰ مؤمنينَ وكفَّارٍ، سعداءَ فِي الجنَّةِ، وأشقياءَ فِي النارِ، فهيَ العروةُ الوثقَىٰ، وكلمةُ التقوَىٰ، وهيَ أعظمُ أركانِ الدِّينِ وأهمُّ شُعَبِ الإيمانِ، وأصلُ الدينِ وأساسُهُ ورأسُ أمرِهِ.

وفضائلُ هذهِ الكلمَةِ فوقَ مَا يصِفُهُ الواصِفُونَ ويعرفُهُ العارِفُونَ.

فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جعلَهَا زبدةَ دعوةِ الرسلِ، وخلاصةَ رسالاتِهِم، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾(١).

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١)، قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ فِي قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٢): «مَا أنعمَ اللهُ علَىٰ عبدٍ منَ العبادِ نعمةً أعظمَ مِن أَن عرَّفهُم لَا إلهَ إلَّا اللهُ».

ومِن فضائلِهَا: أنَّ اللهَ وصفَهَا فِي القرآنِ بأنَّهَا الكلمةُ الطيِّبةُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وهيَ القولُ الثابتُ فِي قولِهِ تعالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٤).

ومِن فضائلِهَا: أنَّهَا العُروةُ الوثقَىٰ الَّتِي مَن تمسَّكَ بهَا نجا، ومَن لَم يتمَسَّك بهَا هلَكَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٥).

ومِن فضائلِ هذهِ الكلمةِ: أنَّهَا منتهَىٰ الصوابِ وغايتُهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٦).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قولِهِ تعالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾: «إلَّا

(١) سورة النحل:٣٦.
(٢) لقمان:٢٠.
(٣) سورة إبراهيم:٢٤-٢٥.
(٤) سورة إبراهيم:٢٧.
(٥) سورة البقرة:٢٥٦.
(٦) سورة النبأ:٣٨.

مَن أذِنَ لهُ الربُّ عَزَّوَجَلَّ بشهادةِ أَن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، وهيَ مُنتهَىٰ الصوابِ».

ومِن فضائلِهَا: أنَّهَا هيَ الرابطةُ الحقيقيَّةُ الَّتِي اجتمعَ عليهَا أهلُ دينِ الإسلامِ، فعليهَا يُوالونَ ويعادونَ، وبهَا يُحبُّونَ ويُبغِضونَ، وبسببهَا أصبحَ المجتمعُ المسلمُ كالجسدِ الواحدِ وكالبنيانِ المرصوصِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا.

ومِن فضائلِ هذهِ الكلمةِ: أنَّها أفضلُ الحسناتِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾(١)، وقَد وردَ عَنِ ابنِ مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ، وأبِي هريرةَ، وغيرِهِم: أنَّ المرادَ بالحسنةِ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ.

وعَن أبِي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، علِّمني عملًا يُقرِّبنِي منَ الجنَّةِ ويُباعدنِي منَ النارِ. فقالَ: إذَا عملتَ سيِّئةً فاعمَل حسنةً فإنَّها عشرُ أمثالِهَا. قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أفَمِنَ الحسناتِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ؟ قالَ: نَعَم هيَ أحسنُ الحسَناتِ**»(٢).

ومِن فضائلِهَا: أنَّها أفضَلُ الأعمالِ وأكثرُهَا تَضعِيفًا، وتَعدِلُ عِتقَ الرِّقابِ، وتكونُ لقائلهَا حِرزًا منَ الشيطانِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهُوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ فِي يومٍ مائةَ مرَّةٍ كانَت لهُ عِدْلَ عشرِ رقابٍ، وكُتبَ لهُ مائةُ حسنةٍ، ومُحيَ عنهُ مائةُ سَيِّئةٍ، ولَم يأتِ أحدٌ بأفضلِ ممَّا جاءَ بهِ، إلَّا أحدٌ عَمِلَ أكثرَ مِن ذلكَ**»(٣).

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قالهَا عشرَ مرَّاتٍ كانَ كمَن أَعتقَ أربعةَ أنفسٍ مِن وَلَدِ إسماعيلَ**»(٤).

---

(١) سورة النمل:٨٩.

(٢) رواه الطبراني في الدعاء، وصححه الألباني في تحقيق كتاب «الإخلاص» لابن رجب (ص٥٥).

(٣) رواه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٠٤)، ومسلم (٢٦٩٣).

ومِن فضائلِهَا: أنَّهَا ترجحُ بصحائفِ الذنوبِ يومَ القيامةِ، كمَا جاءَ فِي حديثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**يُصاحُ برجلٍ مِن أمَّتِي علَىٰ رُءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فيُنشرُ لهُ تسعةٌ وتسعونَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منهَا مدَّ البصرِ، ثمَّ يقولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لهُ: أتُنكِرُ مِن هذَا شيئًا؟ فيقولُ: لَا يَا ربِّ. فيقولُ** عَزَّوَجَلَّ: **ألَكَ عُذرٌ أو حسنةٌ؟ فيهابُ الرجلُ فيقولُ: لَا يَا ربِّ. فيقولُ** عَزَّوَجَلَّ: **بَلىٰ إنَّ لكَ عندنَا حسنةً، وإنَّه لَا ظلمَ عليكَ، فتُخرجُ لَهُ بطاقةٌ فيهَا: أشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فيقولُ: يَا ربِّ مَا هذِهِ البطاقةُ معَ هذهِ السجِلَّاتِ؟ فيقولُ** عَزَّوَجَلَّ: **إنَّكَ لَا تُظلمُ، قالَ: فتُوضَعُ السجلَّاتُ فِي كِفَّةٍ والبطاقةُ فِي كِفَّةٍ، فطاشَتِ السِجِلَّاتُ وثقُلتِ البطاقةُ**»(١).

ولَا ريبَ أنَّ هذَا قَد قامَ بقلبهِ منَ الإيمانِ مَا جعلَ بطاقتَهُ الَّتِي فيهَا لَا إلهَ إلَّا اللهُ تطيشُ بتلكَ السِجلاتِ، إذِ الناسُ متفاضلونَ فِي الأعمالِ بحسبِ مَا يقومُ بقلوبِهِم منَ الإيمانِ، وإلَّا فكَم مِن قائلٍ لَا إلهَ إلَّا اللهُ لَا يحصلُ لهُ مثلُ هذَا لضَعْفِ إيمانِهِ بهَا فِي قلبِهِ.

ومِن فضَائلِ هذهِ الكلمةِ: أنَّهَا لَو وُزِنَت بالسمواتِ والأرضِ رجحَت بهنَّ، فَقد جَاءَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَّ نوحًا قالَ لابنِهِ عندَ موتِهِ: آمُرُك بلَا إلهَ إلَّا اللهُ، فإنَّ السَّمواتِ السبعَ والأرضينَ السبعَ لَو وُضعَت فِي كِفَّةٍ، ووُضعَت لَا إلهَ إلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رجحَت بهنَّ لَا إلهَ إلَّا اللهَ، ولَو أنَّ السمواتِ السبعَ فِي حلقةٍ مبهمَةٍ لقصمتهنَّ لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»(٢).

ومِن فضائلِهَا: أنَّها ليسَ لَهَا دونَ اللهِ حجابٌ، بَل تخرقُ الحُجُبَ حتَّىٰ تصلَ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا قالَ عبدٌ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصًا إلَّا فُتحَت لَهُ أبوابُ السَّماءِ حتَّىٰ تُفضِي إلَىٰ العرشِ مَا اجتَنَبَ الكبائرَ**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٣٣).

(٢) رواه البزّار، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٢٦).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٦٤٨).

ومِن فضائلِهَا: أنَّهَا نجاةٌ لقائلِهَا منَ النارِ، فقَد صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَّهُ سمعَ مؤذِّنًا يقولُ: أشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فقالَ: خرجَ منَ النارِ**»[1].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ حرَّمَ علَىٰ النارِ مَن قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ يبتغِي بذلكَ وجهَ اللهِ**»[2].

ومِن فضائلِهَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلَهَا أفضلَ شُعبِ الإيمانِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شعبةً، أعلاهَا قولُ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناهَا إماطةُ الأذَىٰ عَنِ الطريقِ**»[3].

ومِن فضائلِهَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَ أنَّهَا أفضلُ الذِّكرِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضلُ الذِّكرِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ للهِ**»[4].

ومِن فضائلِهَا: أنَّ مَن قالهَا خالصًا مِن قلبهِ يكونُ أسعَدَ الناسِ بشفاعةِ الرسولِ الكريمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القيامةِ، قيلَ: **يَا رسولَ اللهِ، مَن أَسعدُ الناسِ بشفاعَتِكَ يومَ القيامةِ؟ قالَ رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَسعدُ الناسِ بشفاعتِي يومَ القيامةِ مَن قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصًا مِن قلبِهِ أَو نفسِهِ**»[5].

وفِي قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ خالصًا مِن قلبِهِ**»، دليلٌ علَىٰ أنَّ «لَا إلهَ إلَّا اللهُ» لا تُقبلُ مِن قائلِهَا بمجرَّدِ قولِهِ لهَا بلسانِهِ فقَط، بَل لا بُدَّ مِنَ استيفَاءِ شروطِهَا والإتيانِ بقيودِهَا الواردَةِ فِي الكِتَابِ والسنَّةِ، إِذ هيَ لَا تُقبلَ مِن قائلِهَا إلَّا بذلكَ.

---

(١) رواه ابن خزيمة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤٥).
(٢) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).
(٣) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).
(٤) رواه الترمذي وابن ماجه، وحسَّنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٠٦).
(٥) رواه البخاري (٩٩).

(٤٣) أصولُ الإيمانِ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفُسِنَا ومِن سيئاتِ أعمَالِنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فلَا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

وبعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّ الإيمانَ هوَ الدينُ كلُّهُ، ومَا بعثَ اللهُ بِهِ رسولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ.

ومدارُ هذَا الإيمانِ علَىٰ أصولٍ ستَّةٍ هيَ أصولُ الدِّينِ، ذكرهَا اللهُ فِي مُحكَمِ

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠-٧١.

التنزيلِ، وأوضحَهَا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيمَا صحَّ عنهُ منَ السنَّةِ الصحيحةِ.

قالَ تعالَىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(١).

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾(٢).

وقَد أوضحَ اللهُ سبحانَهُ أنَّ الكفرَ بهذِهِ الأصولِ ضلالٌ بعيدٌ عنِ الهدَىٰ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٣).

وسُئِلَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنِ الإيمانِ فقالَ: «**أَن تؤمنَ باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وبالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ**»(٤)، ففسَّرَ الإيمانَ بهذِهِ الأمورِ الستَّةِ الَّتِي هيَ أصولُ الإيمانِ، وهيَ فِي نفسِهَا أصولُ الدينِ كلِّهِ؛ لأنَّهُ لَا إيمانَ لِمَن لَا إسلامَ لهُ، ولَا إسلامَ لِمَن لَا إيمَانَ لَهُ.

والإيمانُ يقتضِي العملَ الظَّاهِرَ، كمَا أنَّ الإسلامَ بدُونِ إيمانٍ مِن عملِ المنافقينَ، فالإيمانُ الكاملُ الواجبُ يقتضِي فعْلَ مَا أمرَ اللهُ بهِ ورسولُهُ، وتركَ مَا نهَىٰ عنهُ اللهُ ورسولُهُ.

وهذهِ الأصولُ هيَ أصولُ الدِّينِ كلِّهِ، فمَن أتَىٰ بهَا معَ الأعمالِ الظاهرةِ صارَ

---

(١) سورة البقرة:١٧٧.

(٢) سورة البقرة:٢٨٥.

(٣) سورة النساء:١٣٦.

(٤) رواه مسلم (٨).

مسلمًا مؤمنًا، ومَن لَم يأتِ بهَا فلَا إسلامَ لَهُ ولَا إيمَانَ، كالمُنَافقينَ فإنَّهُم أظهرُوا الإسلامَ وادَّعَوا الإيمانَ وصَلَّوا معَ الناسِ وحجُّوا وجاهدُوا معهُم إلَىٰ غيرِ ذلكَ، ولكنَّهُم فِي الباطنِ ليسُوا معَ المسلمينَ؛ لأنَّهُم مكذِّبُونَ للهِ ورسولِهِ، منكرونَ لِمَا جاءَت بهِ الرسلُ، متظاهرونَ بالإسلامِ لحظوظِهِمُ العاجلةِ ولمقاصدَ معروفةٍ، فأكذبهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي ذلكَ، وصارُوا كفَّارًا ضُلَّالًا، بَل صارُوا أكفرَ وأشرَّ مِمَّن أعلنَ كفرَهُ، ولهذَا صارُوا فِي الدركِ الأسفلِ منَ النارِ، ومَا ذاكَ إلَّا لأنَّ خطرَهُم أعظمُ؛ لأنَّ المسلمَ يظنُّ أنَّهُم إخوتُهُ وعلَىٰ دينِهِ، وربَّمَا أفشَىٰ إليهِم بعضَ الأسرارِ، فضرُّوا المسلمينَ وخانُوهُم، فصارَ كفرُهُم أشدَّ، وضررُهُم أعظمَ، وهكذَا مَنِ ادَّعَىٰ الإيمانَ بهذِهِ الأصولِ ثمَّ لَم يؤدِّ شرائعَ الإسلامِ الظاهرةِ.

والمؤمنُ سُمِّيَ مؤمنًا، لتصديقِهِ بقلبِهِ وإسلامِهِ بجوارحِهِ للهِ وحدَهُ، فالمؤمنونَ مؤمنونَ بتصديقِهِم، وإسلامِهِم، وقيامِهِم بأمرِ اللهِ، ووقوفِهِم عندَ حدودِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

واسمُ الإيمانِ باللهِ: يتضمنُ الإيمانَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ووجودِهِ، وأنَّهُ ربُّ العالمينَ الَّذِي يستحقُّ العبادةَ، كمَا يتضمَّنُ الإيمانَ بجميعِ مَا أخبرَ بهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشرعَهُ لعبادِهِ، ويتضمنُ أيضًا الإيمانَ بجميعِ الرسُلِ والملائكةِ والكتبِ والأنبياءِ، وبكلِّ مَا أخبرَ اللهُ بهِ ورسولُهُ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكلِّ مَا شَرَعَهُ لعبادِهِ.

ومِن أصولِ الإيمَانِ: الإيمانُ بالملائكةِ، قسمٌ سُمُّوا لنَا، فنؤمنُ بِهِم وبأسمائِهِم تفصيلًا، كجبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملكِ الموتِ وغيرِهِم منَ الملائكةِ الكرامِ، ونؤمنُ ببقيَّةِ الملائكةِ إجمالًا، كمَا أخبرَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهُم فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء:٢٦-٢٧.

ونؤمنُ بأنَّ منهُم: مَن هوَ موكَّلٌ بحفظِ أعمالِ بنِي آدمَ وكتابتِهَا، **ومنهُم**: مَن هوَ موكَّلٌ بالسِّياحةِ فِي الأرضِ يحضُرونَ مجالسَ الذِّكرِ ويستمعونَ إليهِ، **ومنهُم**: الَّذِينَ يتعاقبونَ فِي الخَلقِ ليلًا ونهارًا، ومنهُم: حملةُ العرشِ، ومنهُم غيرُ ذلكَ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يدخلُ البيتَ المعمورَ الَّذِي فِي السماءِ السابعةِ كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ، ثمَّ لَا يعودونَ إليهِ آخرَ مَا عليهِم**»[١]، وهذَا ممَّا يدلُّ علَىٰ كثرتِهِم، وأنَّهُم جنودٌ لَا يُحصيهِم إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ونؤمنُ بأنَّهُم عبادٌ مُكْرَمونَ، ليسُوا بشرًا ولَا جنًّا، ولكنَّهُم خَلْقٌ آخرُ خُلِقُوا منَ النورِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ الملائكةُ منَ النورِ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكُم**»[٢].

ومِن أصولِ الإيمانِ: الإيمانُ بالكتبِ، فنؤمنُ بكتبِ اللهِ إجمالًا، وأنَّ لَهُ سبحانَهُ كتبًا أنزلَهَا علَىٰ رُسلهِ وأنبيائِهِ لَا تُحصَىٰ، أمَّا تفاصيلُهَا ومَا فيهَا فإلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنهَا مَا سُمِّيَ لنَا كالتوراةِ، والإنجيلِ، والزَّبورِ، وصحفِ إبراهيمَ وموسَىٰ، وكتابِ اللهِ العظيمِ وهوَ القرآنُ الكريمُ.

فنؤمنُ بالكتبِ الَّتِي سُمِّيَت لنَا، وأمَّا مَا لَم يُسَمَّ لنَا فنؤمنُ بأنَّ للهِ كتبًا أنزلَهَا علَىٰ رسلهِ وأنبيائهِ لَا يحصيهَا ولَا يعلَمُهَا إلَّا هوَ سبحانَهُ.

ومِن أصولِ الإيمانِ: الإيمانُ بالرسلِ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ-، فنؤمنُ بأنَّ للهِ رسلًا أرسلَهُم إلَىٰ الناسِ، يَدعُونَهُم إلَىٰ اللهِ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[٣]، وقولُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٣) سورة النحل:٣٦.

رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)، فللهِ سبحانَهُ رسلٌ أرسلَهُم لعبادِهِ مبشرينَ ومنذرينَ، أمَّا إحصاؤُهُم وبيانُ أسمائِهِم، وعلمُ عددِهِم، فهذَا إليهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالواجبُ علينَا الإيمانُ بِهِم إيمانًا مجملًا، وأنَّهُم أُرسلُوا لبيانِ الحقِّ وإرشَادِ الخَلقِ، كمَا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾(٢)، وقالَ سبحانَهُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾(٣).

ونؤمنُ بِمَن سمَّىٰ اللهُ منهُم، كنوحٍ، وإبراهيمَ، وموسَىٰ، وعيسَىٰ، وداودَ، وسليمانَ، وهودٍ، وصالح، وغيرِهِم ممَّن سُمِّيَ لنَا.

ومِن أصُولِ الإيمَانِ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ، فنؤمنُ بهِ إجمالًا وتفصيلًا، ومِن ذلكَ مَا سَمَّىٰ اللهُ مِن أمرِ الآخرةِ، كالجنةِ والنارِ والصراطِ والميزانِ.

ومِن أصولِ الإيمانِ: الإيمانُ بالقدرِ، وذلكَ يتضمنُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَد علِمَ الأشياءَ كلَّهَا وأحصاهَا، وأنَّهُ لَا تخفَىٰ عليهِ خافيةٌ، فهوَ سبحانَهُ يعلَمُ كلَّ شيءٍ، كمَا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٤).

كمَا يتضمَّنُ الإيمانُ بالقدرِ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ قَد كتبَ الأشياءَ كلَّهَا، كمَا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٥)، وقالَ سبحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة الأنبياء:٢٥.

(٢) سورة الحج:٥٢.

(٣) الحديد:٢٥.

(٤) سورة المجادلة:٧.

(٥) سورة الحديد:٢٢.

إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[(١)].

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ كتبَ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وعَرشُهُ عَلَىٰ الماءِ**»[(٢)].

كمَا يتضمَّنُ الإيمانَ بمشيئةِ اللهِ النافذةِ، وأنَّ مَا شاءَ كانَ ومَا لَم يشَأْ لَم يكُن، وأنَّهُ لَا يكونُ شيءٌ فِي مُلكِهِ دونَ مشيئتِهِ جَلَّ وَعَلَا، بَل مَا شاءَ اللهُ كانَ وإِن لَم يشَأِ الخلقُ، ومَا لَم يشَأْ لَم يكُن وإِن شاءَ الخلقُ، فلا بُدَّ منَ الإيمانِ بهذِهِ المشيئةِ، قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾[(٣)]، وقالَ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٤)].

ويتضمنُ الإيمانُ بالقدرِ: الإيمانَ بقدرةِ اللهِ علَىٰ الأشياءِ وخلقِهِ وإيجادِهِ لهَا، وأنَّهُ سبحانَهُ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّهُ الخَلَّاقُ العليمُ، وأنَّ جميعَ الأشياءِ الموجودةَ هوَ الَّذِي خلقَهَا وأوجدَهَا، لَا يشاركُهُ أحدٌ فِي ذلكَ، بَل هوَ الخلَّاقُ الرزَّاقُ، وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبكلِّ شيءٍ عليمٌ، كمَا قالَ سبحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[(٥)].

فمَن آمنَ بهذِهِ الأمورِ الأربعةِ، وهيَ: عِلمُ اللهِ سبحانَهُ بجميعِ الأشياءِ، وكتابتُه لَهَا، ومشيئتُهُ لِمَا وُجِدَ منهَا، وأنَّهُ سبحانَهُ خالقُ الأشياءِ وموجدُهَا، فقَد آمنَ بالقدرِ إيمانًا كاملًا، ومَن قصَّرَ فِي ذلكَ فقَد قصَّرَ فِي الإيمانِ بالقدَرِ، ولَم يَسِر علَىٰ هَدْيِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ فِي ذلكَ، ولَم يؤمِن بالقدرِ علَىٰ حقيقتِهِ، بَل آمنَ ببعضِهِ وكفَرَ ببعضٍ.

---

(١) سورة الحج: ٧٠.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) سورة التكوير: ٢٨.

(٤) سورة التكوير: ٢٩.

(٥) سورة الزمر: ٦٢.

ثمَّ إنَّ الإيمانَ بالقدرِ لَا يلزمُ منهُ أَن يكونَ العبدُ مجبورًا لَا إرادةَ لَهُ ولَا مشيئةَ، بَل لهُ اختيارٌ ومشيئةٌ، ولَهُ إرادةٌ وعقلٌ يميِّزُ بِهِ، ولكنَّ هذهِ المشيئةَ لَا يكونُ بهَا شيءٌ إلَّا بعدَ مشيئةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

فالعبدُ مخيَّرٌ ومسيَّرٌ، مخيَّرٌ لأنَّ اللهَ أعطاهُ عقلًا وبصرًا وأدلَّةً وأدواتٍ، ومكَّنَهُ منَ الإيمانِ والعملِ، فهوَ قادرٌ ولَهُ إرادةٌ ومشيئةٌ، يقدرُ أَن يطيعَ ويعصِي، وأَن يتصدَّقَ أَو يمتنعَ، وهوَ مسيَّرٌ مِن جِهَةِ أَنَّهُ ليسَ لَهُ مشيئةٌ إلَّا بعدَ مشيئَةِ اللهِ، فلَهُ إرادةٌ خاصَّةٌ ومشيئةٌ خاصَّةٌ، ولكِن بعدَ مشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِن نفسٍ منفوسةٍ إلَّا كُتِبَ مكانُهَا منَ الجنَّةِ والنارِ، وإلَّا قَد كُتِبَ شقيَّةً أَو سَعيدةً**، فقالَ رجلٌ: يَا رسولَ اللهِ، أفلَا نتَّكِلُ علَىٰ كتابِنَا وندعُ العملَ؟ فمَن كانَ منَّا مِن أهلِ السعادةِ فسيصيرُ إلَىٰ عملِ أهلِ السعادةِ، ومَن كانَ منَّا مِن أهلِ الشقاوةِ فسيصيرُ إلَىٰ عملِ أهلِ الشقاوةِ، قالَ: **اعملُوا فكلٌّ ميسَّرٌ، أمَّا أهلُ السعادةِ فيُيسرونَ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأمَّا أهلُ الشقاوةِ فيُيسرونَ لعملِ أهلِ الشقاوةِ**، ثمَّ قرأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[2]»[3].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) سورة التكوير: ٢٨-٢٩.

(٢) سورة الليل: ٥-١٠.

(٣) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبَةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فهذهِ الأصولُ السِّتَّةُ هيَ أصولُ الدينِ الجامعةُ لكلِّ مَا أخبرَ اللهُ عنهُ، فمَنِ استقامَ عليهَا عقيدةً وقولًا وعملًا فقَدِ استكملَ الإيمانَ وسَلِمَ منَ النفاقِ؛ لأنَّ هذهِ الأصولَ تقتضِي منَ المؤمنِ بهَا أداءَ مَا أوجبَ اللهُ عليهِ، وتصديقَهُ بكلِّ مَا أخبرَ اللهُ بهِ فِي كتابِهِ، أَو أخبرَ بهِ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمَا صحَّ عنهُ، ومَن جَحَدَها أَو جحدَ شيئًا منهَا لَم يكُن مُؤمِنًا.

فالواجبُ مراعاتُهَا، والاستقامَةُ عليهَا فِي جَميعِ الأحوالِ، والبَرَاءةُ مِن كلِّ مَا خالفَهَا، ولا بدَّ مِن معرفةِ أنَّ هذهِ الأمورَ إنَّمَا تؤخذُ أحكامُهَا ممَّا أخبرَ اللهُ بهِ ورسولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكتابِ والسنَّةِ، وممَّا جاءَ عَن سلفِ الأمَّةِ، ومَن أبَىٰ ذلكَ وادَّعَىٰ خلافَ مَا تقتضيهِ هذهِ الأصولُ فإنَّ دَعواهُ باطلَةٌ.

❊❊❊

(٤٤) دعوةُ التوحيدِ وسهامُ الحاقدينَ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أحمدُهُ حمدَ الحامِدِينَ، وأشكرُهُ وأستعينُهُ فهوَ نِعمَ المولَىٰ ونعمَ المُعينُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ المَلِكُ الحقُّ المُبينُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ النبيُّ المصطفَىٰ الأمينُ صَلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فقَد مَرَّ علَىٰ الديارِ النجديَّةِ فيمَا مضَىٰ أيامٌ انتشرَ فيهَا الشركُ وارتفعَت رايتُهُ، وطُمِسَت معالمُ التوحيدِ فِي كثيرٍ مِن بقاعِهَا، وفشَتِ البدعُ والخرافاتُ بينَ الناسِ حتَّىٰ صارَ التوحيدُ بينَهُم غريبًا، ومَن دعَا إليهِ فكأنَّهُ جاءَ بدعًا مِنَ القولِ، فنادَوا بهِ بكلِّ تهمةٍ، وكادُوهُ بكلِّ طريقٍ وسبيلٍ، واستعانُوا عليهِ بأعوانِهِم مِنَ الفسقةِ والأراذلِ، حتَّىٰ ارتفعَ صوتُ الباطلِ ودوَّىٰ، وضعفَ صوتُ الحقِّ وخَفَتَ نورُهُ.

وقَد فشَا الشركُ بينَ الجهلَةِ، فكانُوا يأتونَ القبورَ فيدعونَهَا رغبًا ورهبًا ويزعمونَ أنَّهَا تقضِي الحوائجَ، وكانَتِ المرأةُ إِذَا تأخَّرَ زواجُهَا ولَم يرغَب فيهَا الأزواجُ تذهبُ إِلَىٰ فحلِ نخلٍ وتدعوهُ مِن دونِ اللهِ قائلةً: يَا فحلَ الفحولِ، أريدُ زوجًا قبلَ الحولِ.

وكانُوا يتبركونَ بالأشجارِ فيعلِّقُونَ عليهَا الخِرَقَ رجاءَ البركةِ، وللاستشفاءِ مِنَ الأمراضِ، وهكذَا مِن وسائلِ الشركِ والانحدارِ وصرفِ العبادةِ لغيرِ اللهِ.

فلمَّا أرادَ اللهُ سبحانَهُ أَن يُتِمَّ نعمتَهُ علَىٰ عبادِهِ، وينصرَ دينَهُ ويُعلِي كلمتَهُ، أَذِنَ بظهورِ نورِ التوحيدِ برَّاقًا فِي كلِّ أفقٍ وبقعةٍ فِي تلكَ الديارِ، فازدهرَتِ الأرضُ بهِ بعدَ مَحْلٍ وقَحْطٍ، وارتوَت بهِ بعدَ ظمأٍ وهلكةٍ، وأنقذَ اللهُ بهِ عبادَهُ مِن ظلماتِ الجَهلِ

والشركِ والتذلُّلِ لغيرِهِ سبحانَهُ.

وكانَ ذلكَ علَىٰ يدِ الإمامِ المجاهدِ محمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعاونُهُ علَىٰ ذلكَ ويشدُّ أزرَهُ الإمامُ محمَّدُ بنُ سعودٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقَد وُلِدَ الإمامُ محمَّدُ فِي عامِ ١١١٥هـ، ولمَّا اشتدَّ عودُهُ رحلَ لطلبِ العلمِ، فجابَ الديارَ فِي سبيلِ ذلكَ وهوَ فتىً فِي عنفوانِ شبابِهِ، فلمَّا حصلَ لَهُ مِنَ العلمِ مَا يعينُهُ علَىٰ دعوتِهِ وجهادِهِ رجعَ إلَىٰ بلادِهِ حريملاء عامَ ١١٤٠هـ، وعمرُهُ آنذاكَ خمسةٌ وعشرونَ عامًا.

وبدأَ يدعُو للتوحيدِ ونبذِ الشركِ والخرافةِ، ممَّا أهاجَ عليهِ عُبَّادَ القبورِ والفسقَةَ والسفلةَ، وقَد تبعَهُ أناسٌ مِن أهلِ البلدِ لمَّا رأَوا صِدقَهُ وإخلاصَهُ فِي الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ.

وكعادةِ المصلحينَ فِي كلِّ زمنٍ؛ فقَد حَصَلَ علَىٰ الشيخِ منَ الشرِّ الَّذِي كادَ أَن يُودِيَ بحيَاتِهِ، وذلكَ بأنَّهُ كانَ هناكَ بعضُ الفسَّاقِ والأسَافِلِ، وقَد كثُرَ تعَدِّيهِم وفِسقِهِم فأرادَ الشيخُ أَن يُمنعُوا منَ الفسادِ، وينفِّذَ فيهِمُ الأمرُ بالمَعرُوفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، فهَمُّوا بقتلِ الشيخِ فتسوَّرُوا عليهِ الجدارَ ليلًا، فكانَ مِن لطفِ اللهِ أَن شعرَ بهِمُ الناسُ فصاحُوا بهِم فهَرَبُوا.

فانتقلَ الشيخُ بعدَهَا إلَىٰ العُيَينةِ، وأميرُها آنذاكَ عثمانُ بنُ حمدِ بنِ معمرٍ، فتلقَّاهُ بالقبولِ وأكرمَهُ، وبيَّنَ لهُ الشيخُ دعوتَهُ وقالَ لَهُ: إنِّي لأرجُو إن أنتَ قمتَ بنصرِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ أَن يُظهِرَكَ اللهُ تعالَىٰ، وتملكَ نجدًا وأعرابَهَا، فساعدَهُ عثمانُ علَىٰ ذلكَ، فأعلنَ بالدعوةِ وتَبِعَهُ الناسُ، وكانَ بهَا أشجارٌ تُعظَّمُ فقطعَهَا، وقبورٌ تُعبَدُ فأزالَهَا، وفشَا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، وأقيمَتِ الحدودُ.

فلمَّا ارتفعَ صيتُ الشيخِ فِي الآفاقِ بلغَ ذلكَ حاكمَ الأحساءِ، وكانَ يؤدِّي خراجًا لابنِ معمرٍ، فهدَّدَهُ بقطعِ الخراجِ إِن لَم يُخرِجِ الشيخَ مِن عندِهِ، فأخبرَ ابنُ معمرٍ الشيخَ محمَّدًا بالخبرِ، فقالَ الشيخُ قولَ الواثقِ: إنَّ هذَا الَّذِي قمتُ بهِ أنَا ودعوتُ إليهِ كلمةُ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأركانُ الإسلامِ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، فإن أنتَ تمسَّكتَ بهِ ونصَرْتَهُ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ سيظهرُكَ علَىٰ أعدائِكَ، فلَا يزعجكَ صاحبُ الأحساءِ ولَا يفزعكَ، فإنِّي أرجُو أَن ترَىٰ منَ الظهورِ والتمكينِ والغلبةِ، مَا تملكُ بهِ بلادَهُ ومَا وراءَهَا ومَا دونَهَا، فاستحيَا عثمانُ وأعرضَ عنِ الشيخِ.

فلمَّا رجعَ جاءَ جُلسَاءُ السوءِ إلَىٰ عثمانَ وخَوَّفوهُ وأرجفُوا بهِ، حتَّىٰ طلبَ منَ الشيخِ أَن يُغَادرَ العيينةَ، وهذَا مِن حكمةِ اللهِ وعلمِهِ أَنَّ نَصْرَ هذَا الدِّينِ والظهورَ والغلبةَ والتمكينَ يكونُ لغيرِهِ وعلَىٰ يدِ غيرِهِ.

فانتقلَ الشيخُ إلَىٰ الدرعيَّةِ، وكانَ أميرُهَا يومئذٍ محمَّدَ بنَ سعودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وكأنَّ حالَ الشيخِ يومئذٍ كحالِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ كانَ ينادِي: مَن ينصرُنِي؟ مَن يُؤوينِي حتَّىٰ أُبَلِّغَ كلامَ ربِّي؟

فلمَّا نزلَ بالدرعيَّةِ، حلَّ ضيفًا علَىٰ أحدِ أهلِ الدرعيَّةِ، فخافَ الرجلُ علَىٰ نفسِهِ مِن محمَّدِ بنِ سعودٍ، فوعظَهُ الشيخُ وأسكَنَ جأشَهُ، وعَلِمَ بهِ أناسٌ مِن أهلِ الدرعيَّةِ فزاروهُ خفيَةً، فقرَّرَ لهمُ التوحيدَ واستقرَّ فِي قلوبِهِم، فأرادُوا أَن يخبرُوا محمَّدَ بنَ سعودٍ بمجيئِهِ، ويشيرُوا عليهِ بنصرتِهِ ولكنَّهُم هابوهُ، فأتَوا إلَىٰ زوجتِهِ الصالحةِ «موضي»، وكانَت ذاتَ عقلٍ ودِينٍ ومعرفةٍ، فأخبروهَا بمكانةِ الشيخِ، وصفةِ مَا يأمرُ بهِ وينهَىٰ عنهُ، فوقرَ فِي قلبهَا حبُّ التوحيدِ، وقذفَ اللهُ فِي قلبِهَا محبَّةَ الشيخِ، فلمَّا دخلَ عليهَا زوجُهَا محمَّدٌ أخبَرَتهُ بمَكانِهِ.

وقالَت: إنَّ هذَا الرجلَ أتَىٰ إليكَ وهوَ غنيمةٌ ساقَهَا اللهُ لكَ، فأكرِمهُ وعظِّمهُ،

واغتَنِم نصرَتَهُ، فقَبِلَ قولَها، ثمَّ دخلَ عليهِ أخواهُ «ثنيان ومشاري»، وأشارُوا عليهِ بمساعدتِهِ ونصرتِهِ، وألقَىٰ اللهُ سبحانَهُ فِي قلبِ محمَّدِ بنِ سعودٍ محبَّةَ الشيخِ محمَّدٍ فأرادَ أَن يرسلَ إليهِ، فقالَت لهُ زوجتُهُ وأخواهُ: سِر إليهِ برِجلِكَ وأظهِر تعظيمَهُ، لعلَّ الناسَ أَن يُكرموهُ ويعظِّمُوهُ، فسارَ إليهِ محمَّدُ بنُ سعودٍ.

وهذَا القولُ منهُم -أَي: ثنيان ومشاري وموضي-، واستجابةُ محمَّدِ بنِ سعودٍ وذهابُهُ للشيخِ، لهوَ دليلٌ علَىٰ أَنَّهُم أهلُ دينٍ وتَقوىٰ، مَا سعَوا إِلَىٰ الملكِ، بَل إنَّهُم نصرُوا الشيخَ وهوَ مستضعَفٌ ليسَ لَهُ دولةٌ ولَا ملكٌ، وإِنَّهُم مَا أرادُوا إِلَّا نصرةَ التوحيدِ ورفعَ رايتِهِ، ولذلكَ لمَّا دخلَ محمَّدُ بنُ سعودٍ علَىٰ الإمامِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الوهابِ رَحَّبَ بهِ وقالَ لَهُ: أبشِر ببلادٍ خيرٍ مِن بلادِكَ، وأبشِر بالعزِّ والمنعةِ والنصرةِ والأمنِ، فقالَ لَهُ الشيخُ: وأنتَ أبشِر بالنصرِ والتمكينِ والعاقبةِ الحميدةِ، هذَا دينُ اللهِ، مَن نصرَهُ نصرَهُ اللهُ، ومَن أيَّدَهُ أيَّدَهُ اللهُ.

وهكذَا فقَد فتحَ اللهُ علَىٰ يدِ محمَّدِ بنِ سُعودٍ، واختارَهُ لنصرةِ دينِهِ وإقامةِ شرعِهِ بالرغمِ مِن كثرةِ الحكَّامِ فِي وقتِهِ، كمَا اختارَ اللهُ الإمامَ محمَّدَ بنَ عبدِ الوهَّابِ لرفعِ رايةِ التوحيدِ بالرغمِ مِن وجودِ علماءَ غيرِهُ، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(١).

وكانَ الشيخُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ لَا ينسَىٰ مُناصرةَ محمَّدِ بنِ سعودٍ لَهُ لإقامةِ التوحيدِ ودعوةِ الناسِ إليهِ، فكانَ يقولُ فِي مراسلَاتِهِ: إنَّ العلماءَ فِي الشامِ واليمنِ إذَا سُئِلُوا عمَّا أَدعُو إليهِ، قالُوا: إنَّ مَا يدعُو إليهِ ابنُ عبدِ الوهَّابِ هوَ دينُ اللهِ ورسولِهِ، ولكِن لَا نقدرُ علَىٰ إظهارِهِ، لأنَّ الدولةَ تحاربُنَا ولَا ترضَىٰ بذلكَ، وأمَّا ابنُ عبدِ الوهابِ أظهرَهُ لأنَّ

(١) سورة الحديد:٢١.

الحاكمَ فِي بلدِهِ مَا أنكرَهُ، بَل لمَّا عرفَ الحقَّ اتَّبَعَهُ.

ثمَّ فِي عامِ ١١٥٨هـ بدأَ الجهادُ الفعليُّ بالحُجَّةِ والبيانِ والسيفِ والسنانِ، وبدأَ الشيخُ يكاتبُ أهلَ البلدانِ ويراسلُهُم، ويكتبُ للرؤساءِ والقضاةِ ومُدَّعِي العلمِ، فمنهُم مَنِ اتبعَ الحقَّ وقَبِلَ بِهِ، ومنهُم مَن صَدَّ عنهُ وأعرضَ واتَّخَذَهُ سخريًّا، واستهزأَ بالشيخِ ونسبَهُ إِلَىٰ الجهلِ والسحرِ وغيرِ ذلكَ.

وقامَ عليهِ علماءُ السوءِ بالتشنيعِ والإفكِ، يصدُّهُم عَنِ اتِّباعِ الهوَىٰ حبُّ الدنيَا والبحثُ وراءَ متاعِهَا الزَّائلِ، ومَا وَرِثُوهُ عَن أسلافِهِم منَ العاداتِ الرديئةِ والخرافاتِ البائدةِ، كمَا قالَ تعالَىٰ عنهُم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وهاهيَ عادَتُهُم فِي كلِّ زمنٍ وحينٍ، يحارِبُونَ التوحيدَ وإقامةَ الدينِ، وينصرونَ الشركَ والبدعَ والخرافاتِ، ولَوِ اضطرَّهُم ذلكَ إِلَىٰ الهجومِ بالإفكِ الظاهرِ، والأكاذيبِ الواضحةِ، واتِّهامِ أهلِ السنَّةِ بالزورِ والبهتانِ، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

فبدأَت دعوةُ الشيخِ تُؤتِي ثِمَارَهَا، والتزمَ الناسُ بالطاعةِ والدخولِ فِي دينِ اللهِ، وهدَمُوا مَا عندَهُم منَ القبابِ وأزالُوا مَا لديهِم منَ المَساجدِ المبنيَّةِ علَىٰ القبورِ، وحَكَّمُوا الشريعةَ، وتركُوا تحكيمَ قوانينِ الآباءِ، وسَادَ الأمنُ.

وفِي عامِ ١١٧٩هـ تُوُفِّيَ الإمامُ محمَّدُ بنُ سعودٍ، ناصِرُ دعوةِ التوحيدِ، بعدَ أَن أقامَ تلكَ الدولةَ العظيمةَ الَّتِي بَلَغَت محاسنُهَا الآفاقَ، وسَارَ بسِيرَتِهَا الركبَانُ، وابتهَجَ بهَا قلبُ كلِّ مُوَحِّدٍ صادقٍ، ولَم يزَلِ الشيخُ مجتهدًا فِي دعوتِهِ بعدَ أَن خلفَ محمدَ بنَ

(١) سورة الزخرف:٢٢.

(٢) سورة التوبة:٣٢.

سعودٍ ابنُهُ العادلُ عبدُ العزيزِ، الَّذِي أقامَ العدلَ وبثَّ العلمَ، فسارَ علَىٰ طريقةِ والدِهِ، وناصرَ الشيخَ فِي دعوتِهِ، ولَا زالَ حتَّىٰ توسَّعَتِ الدولةُ بعدَ أن كانَت قريةً صغيرةً، فأصبَحَت دولةً عظيمةً فسيحَةَ الأرجاءِ، متناهيةَ الأطرافِ.

وبقَىٰ الشيخُ علَىٰ ذلكَ حتَّىٰ توفَّاهُ اللهُ فِي عامِ ١٢٠٦هـ، وكَفَىٰ بفضلِهِ شرفًا مَا حصلَ بسببِهِ مِن إزالةِ البِدَعِ واجتماعِ المُسلمينَ، وتقويمِ الجماعاتِ والجُمَعِ، وتجديدِ الدِّينِ بعدَ دروسِهِ، وقطعِ أصولِ الشركِ بعدَ غروسِهِ، فلَم يزَل مجاهدًا حتَّىٰ أذعنَ أهلُ نجدٍ وتابَعُوا، وعملَ فيهَا بالحقِّ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المنكرِ، فعمرَت نجدٌ بعدَ خَرَابِهَا، وصَلحَت بعدَ فسَادِهَا، ونالَ الفخرَ والمُلكَ مَن نصرَهُ وآوَاهُ، وصارُوا مُلُوكًا بعدَ التفرُّقِ والقتَالِ.

وهكَذَا كلُّ مَن نصرَ الشريعةَ مِن قديمِ الزمانِ وحديثِهِ، اللهُ ينصرُهُ علَىٰ أعدائِهِ، ويجعلُهُ مالكًا لِمَن عادَاهُ.

وكانَت عقيدَتُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدةَ السلفِ الأُولِ فِي الإيمانِ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، ويدعُو الناسَ إلَىٰ التوحيدِ ونبذِ الشركِ والبدعِ، وهذَا هوَ أساسُ العداوةِ والنزاعِ بينَ الناسِ، حِينَ تُنكرُ الشركَ، وتدعو إلَىٰ التوحيدِ الخالصِ، وتُنكرُ البدعَ والخرافاتِ كالبناءِ علَىٰ القبورِ واتِّخاذِهَا مساجدَ.

فالإمامُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ مَا جاءَ بدينٍ جديدٍ ولَا بشريعةٍ محدثةٍ، بَل إنَّهُ علَىٰ عقيدةِ خيرِ القرونِ، ويدعُو إلَىٰ مَا دَعَت إليهِ الأنبياءُ كافةً، وهوَ توحيدُ اللهِ وإفرادُهُ بالعبادةِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1].

(١) سورة النحل:٣٦.

فالتوحيدُ هوَ أوجبُ الواجباتِ علَىٰ العبدِ، وأوَّلُ مَا يجبُ علَىٰ العبدِ أَن يتديَّنَ بهِ لربِّهِ، ومَا خاصمَ أهلُ الضلالةِ أهلَ التُّقَىٰ والديانةِ وحاربُوهُم وحذَّرُوا منهُم، إلَّا لدعوتِهِم لتوحيدِ اللهِ وحثِّ الناسِ عليهِ.

فلمَّا طُمِسَت بصيرتُهُم، وزاغَت قلوبُهُم، طمسَ اللهُ بصائرَهُم عَن معرفةِ حقيقةِ التوحيدِ ولذَّتِهِ، فتاهُوا فِي غياهِبِ الظلمَاتِ، لَا يفقَهُونَ ولَا يعقلونَ، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهُم لَا يرجعونَ، وقامُوا بالحربِ علَىٰ الهُدَىٰ، واقتفَوا طُرُقَ الضلالةِ، فباتُوا فِي طغيانِهِم يعمهونَ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ هداةِ الأنامِ ومصابيحِ الدُّجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا دعَا إلَىٰ هذهِ الكلماتِ إزالةَ اللَّبسِ الَّذِي أحدَثَهُ بعضُ الناسِ ممَّن جهلُوا حقيقةَ دعوةِ الشيخِ محمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ، فقامُوا يكيلونَ لهَا بالتُّهَمِ الكاذبةِ، والأراجيفِ الظالمةِ، ويُشَوِّهونَ صورتَهَا عندَ الناسِ.

وممَّا دفعَهُم لذَلكَ أنَّهَا دعوةُ التوحيدِ الحقِّ الَّتِي تَنبُذُ الشِّركَ والخُرافَةَ الَّتِي يتديَّنُ بهَا كثيرٌ مِن هؤلاءِ الملبِّسينَ الظلمةَ، الَّذِينَ جعلُوا خرافاتِهِم وبدعَهُم وسيلةً للتكسُّبِ وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ ممَّن يَحُثُّونَهُم علَىٰ التقرُّبِ للقبورِ والنذرِ عندَهَا، فيستولونَ

علَىٰ أموالِهِم بهذهِ الحيلِ الشيطانيَّةِ.

كمَا أنَّ ممَّا دعَا إلَىٰ هذهِ الكلماتِ أيضًا قيامَ بعضِ الجَهَلةِ مِن رمُوزِ دُعَاةِ الباطلِ ممَّن تُلَمِّعُهُمُ القنواتُ الفضائيةُ بالهجومِ علَىٰ دعوةِ الشيخِ محمَّدٍ -فِي إحدَىٰ القنواتِ الفضائيَّةِ النتنةِ، ومَا أكثرَهَا- ووصفِهَا بالإرهابِ والتطرفِ.

ومَا كانَت دعوةُ محمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ والدولةُ الَّتِي قامَت فِي وقتِهِ ولَا زالَت دولةَ إرهابٍ وتطرُّفٍ، بَل إنَّهَا دعوةٌ تقومُ علَىٰ مَا قامَت عليهِ دعوةُ الأنبياءِ -عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ-، مِن إقرارِ التوحيدِ ونبذِ الشركِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[1].

ومَا ظهرَ الإرهابُ والتطرفُ إلَّا مِن قبلِ هذَا وأمثالِهِ، مِن أصحابِ الدعواتِ الثوريَّةِ السياسيَّةِ الَّتِي جعلَتِ السياسةَ دينَهَا وديدَنَهَا، فهُم أبعدُ مَا يكونونَ عَن تعاليمِ الدينِ، وأقربُ إلَىٰ ألاعيبِ السياسةِ والإفكِ والعدوانِ.

والغريبُ فِي الأمرِ أَنَّ هذهِ الاتهاماتِ تزامنَت معَ الحملةِ الإعلاميَّةِ الشرسةِ الَّتِي تقودُهَا بعضُ دولِ الكفرِ ضدَّ دولةِ التوحيدِ، وتُظهِرُهَا بأنَّهَا رأسُ الإرهابِ ومنبعُ التطرُّفِ ولكِن مَن نظرَ فِي التاريخِ عرفَ أنَّ أسلافَ هذَا الحاقدِ، الَّذِينَ شربَ مِن منهلِهِمِ الكدرِ ومستنقعِهِمُ الضَّحلِ، كانُوا كلَّمَا قامَ الكفارُ علَىٰ دعوةِ التوحيدِ آزروهُم وزيَّنُوا لَهُم باطِلَهُم، فليسَ غريبًا أَن يأخذَ هذَا وأمثالُهُ ميراثَ أصحابِهِ السابقينَ، وليسَ غريبًا أَن يكتمَ الحاقدُ حقدَهُ وبغضَهُ حتَّىٰ إذَا جاءَتهُ الفرصةُ أظهرَ مَا فِي مكنونِهِ، كمَا قيلَ:

إِنَّ العَــدُوَّ وَإِن أَبــدَىٰ مُــسَالَمَةً ... إِذَا رَأَىٰ مِــنكَ يَــومًا غــرةً وَثَــبَا

---

(١) سورة الأنعام:٣٣.

وفِي هذَا عبرةٌ للمُعتَبِرِينَ، وأصحابِ النوايَا السَّليمةِ، حتَّىٰ لَا يغترُّوا بالأدعياءِ الَّذِينَ يتحيَّنُونَ الفُرَصَ للتهجُّمِ عليهِم، وإِن كانَتِ القضيةُ مسألةَ كفرٍ وإسلامٍ، فالحاقدُ أعمَىٰ، وحينَ تسنحُ لَهُ الفرصةُ، لَا ينظرُ إِلَىٰ شيءٍ سوَىٰ أَن يشفيَ حقدَهُ مَهمَا كانَتِ النتائجُ.

نسأَلُ اللهَ أَن يجنِّبَنَا كيدَ الأدعياءِ والحاقدينَ، وأَن يوفِّقَنَا للحقِّ الواضحِ المبينِ، وأَن يرزقَنَا الإخلاصَ فِي القولِ والعَملِ.

❊❊❊

(٤٥) دعاةُ الفتنةِ

الحَمدُ للهِ الَّذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ وكفَىٰ باللهِ وليًّا ونصيرًا، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ إِلَىٰ الناسِ كافةً بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسُرَاجًا مُنيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبهِ الَّذِينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطهَّرَهُم تطهيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِنَ المَعلُومِ للعقلاءِ أنَّ الفتنةَ إذَا نَفَخَ فيهَا السفيهُ اتَّقَدَت نارُهَا وعظمَ شررُهَا، وإذَا وقعَتِ الفتنةُ وابتُلِيَ بهَا الناسُ تاهَتِ العقولُ واضطَرَبَت.

يَقُولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفتنةُ إذَا وقعَت عجزَ العقلاءُ فيهَا عَن دفعِ السفهاءِ، وهذَا شأنُ الفتنِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1]، وإذَا وقعَتِ الفتنةُ لَم يسلَم منَ التلوثِ بهَا إلَّا مَن عصمَهُ اللهُ».

هذَا وإنَّنَا فِي زمانٍ انتشرَت فيهِ الفتنُ بينَ المسلمينَ، وبدأَ المَرءُ يرَىٰ أمورًا عَظُمَ بهَا المصابُ، واحتارَ منهَا ذووُ الألبابِ، وصدقَ فيهَا قولُ القائلِ:

أُمُــورٌ يَــضحَكُ الــسُّفَهَاءُ مِــنهَا وَيَبكِـــي مِـــن مَغَبَّـــتهَا اللَّبِـــيبُ

ومعَ الأسفِ البالغِ الشديدِ، فبالرغمِ مِن كثرةِ الفتنِ وتزاحمِهَا، بدأَ جنسٌ منَ البشريَّةِ يحسبهُمُ الناسُ علَىٰ خيرٍ، بدءُوا يشاركونَ فِي هذَا الواقعِ الأليمِ، ويرفعونَ لواءَ الفتنةِ، وهُم يتسمَّوْنَ باسمِ الدِّينِ ولكنَّهُم فِي الحقيقةِ قليلُو العلمِ، كثيرُو الخوضِ

(١) سورة الأنفال:٢٥.

فِي السياسةِ دونَ عقلٍ ولَا كياسةٍ، حَكَّمُوا العقولَ فِي دعوتِهِم وجعلوهَا أساسَ انطلاقتهِم إِلَىٰ الناسِ، وكَم ابتُلِيَت مُجتمعاتُنَا المُسلِمةُ بمثلِ هذهِ الأجناسِ، ولَو تأمَّلت حالَهُم لَم تجِد بينَهُم عالِمًا بالشَّرعِ ممَّن تجَرَّدُوا للعلمِ الشرعيِّ، بَل إِنَّ غالبَهُم ممَّن جعلَ السياسَةَ مطيَّةً لَهُ، ويرَىٰ نفسَهُ أنَّهُ أذكَىٰ مَن وُجدَ علَىٰ وجهِ هذهِ البَسيطَةِ، فإذَا بهِ قَد قادَ زِمامَ الفتنةِ، وعرَّضَ المسلمينَ للقتلِ والنهبِ والتشريدِ لتحقيقِ مآربِهِ السياسيَّةِ.

إِلَىٰ متَىٰ يستمرُّ هؤلاءِ بتهييجِ الشبابِ حتَّىٰ يخترِقُوا أبوابَ الفتنِ؟!

لماذَا نجدُ بعضَ الدعاةِ يسعَىٰ للتكثيرِ دونَ أَن يمحِّصَ عقائدَ مَن سارُوا معَهُ، حتَّىٰ يأخذَهُ الاغترارُ ويحاصرَهُ الغرورُ حينمَا يتكاثرُ حولَهُ الشبابُ، ويَا ليتَهُ يحافظُ عليهِم بعدَ أَن وثقُوا بهِ فلَا يلجُ بِهِم أبوابَ الفتنِ فِي الدِّينِ والدنيَا.

يقولُ المَاورديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَع أنَّ لكلِّ جديدٍ لذَّةً ولكلِّ مستحدثٍ صبوةً، وقالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أخوفَ مَا أخافُ علَىٰ أمَّتِي منافقٌ عليمُ اللسانِ**»[1] فتصيرُ البدعُ فاشيةً، ومذاهبُ الحقِّ واهيةً، ثمَّ يفضِي الأمرَ إِلَىٰ التحزُّبِ والعصبيَّةِ، فإذَا رأَوا كثرةَ جمعِهِم وقوَّةَ شوكتِهِم، داخَلَهُم عِزُّ القوَّةِ ونخوةُ الكثرةِ، فتظافرَ جهالُ نُسَّاكِهِم، وفسَقَةُ علمائِهِم بالميلِ إِلَىٰ مُخَالفِيهِم -يتَّحِدُ الفاسقُ منَ العلماءِ والجاهِلُ مِن عبادِهِم مَعَ المُخَالفينَ مِن أيِّ ملَّةٍ كانَت- يقولُ: فإذَا استتبَّ لهُم ذلكَ زاحَمُوا السلطانَ فِي رئاستِهِ، وقبَّحُوا عندَ العامَّةِ جميلَ سيرتِهِ، فربَّمَا انفتقَ مَا لَا يُرتَقُ فإنَّ كبارَ الأمورِ تبدُو صغارًا»، وكأنَّهُ يحكِي واقعنَا -رحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-.

إِنَّ الواجبَ علَىٰ الدَّاعيةِ الناصحِ الَّذِي يريدُ وجهَ اللهِ ألَّا يعرِّضَ نفسَهُ وإخوانَهُ للبلاءِ والفتنةِ، فرُبَّ متعرِّضٍ للبلاءِ لَا يقوَىٰ علَىٰ دفعِهِ فإذَا بهِ أولُ مفتونٍ.

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠١٣).

إنَّ بعضَ الناسِ يعيشونَ فِي بلادٍ يتمتعونَ فيهَا بالحريَّةِ فِي ممارسةِ دينهِم وعقيدتهِم وعبادتهِم، يعبدونَ ربَّهُم دونَ خوفٍ، ويمارسونَ دعوتَهُم بكلِّ أمانٍ دونَ ضغوطٍ، ولكِن سرعانَ مَا تغشاهُمُ الأفكارُ الدخيلةُ الَّتِي تدفعهُم لتغييرِ هذَا الواقعَ الطيِّبَ بتصرفاتٍ هوجاءَ لَا ينظرونَ إلَىٰ عواقبِهَا.

تأمَّلوا، كَم مِن دولةٍ كانَت تتمتَّعُ بالدعوةِ إلَىٰ الخيرِ، معَ إقبالِ أهلِهَا علَىٰ الدينِ والاستقامةِ والتوجُّهِ إلَىٰ السنَّةِ، فلَم يهدَأ أصحابُ الدعواتِ السياسيَّةِ والثوراتِ حتَّىٰ قامُوا ببعضِ الأعمالِ المناوئةِ للحكومةِ، فضيَّقَت عليهِم، ومحَت رسومَ الدعوةِ، بَل إنَّكَ لَم تعُد تجِد مَن يتزيَّا بزيِّ الإسلامِ، بسببِ الحماسِ غيرِ المنضبطِ وعدمِ اتِّبَاعِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دعوتِهِ.

إنَّ مِن قواعدِ الإسلامِ العظيمةِ الَّتِي جاءَ بهَا: جلبَ المصالحِ وتكثيرَهَا، ودفعَ المفاسدِ وتقليلَهَا، وأنَّ درءَ المفاسدِ مقدَّمٌ علَىٰ جلبِ المصالحِ، فلماذَا لَا يستعملُ كثيرٌ مِن دعاةِ السياسةِ هذهِ القاعدةَ؟!

لقَد تركَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلَ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلُولَ -رأسُ المُنَافقينَ- بالرغمِ مِن إيذائِهِ الشَّديدِ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَا تركَ قتلَهُ إلَّا خشيةَ المفسدةِ، وذلكَ مخافةَ أَن يسمعَ بِهِ البَعيدُ فيقولُ: محمَّدٌ يَقتُلُ أصحَابَهُ، فلَا يدخُلُ فِي الإسلامِ ظنًّا منهُ أَنَّ ابنَ سلولَ مِن أصحابِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتركَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلَهُ مَعَ مَا فيهِ منَ المصلحةِ العظيمةِ وهيَ كفُّ الأذَىٰ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذَا وقَد كانَ فِي العملِ مصلحةٌ، فكيفَ إذَا لَم يوجدْ وراءَ هذهِ الأعمالِ إلَّا مفسدةٌ مثلُهَا أَو أكبَرُ منهَا كمَا هوَ الواقعُ اليومَ؟!

إنَّنَا نُعَانِي منَ التصرفاتِ غيرِ المسئولةِ عندَ بعضِ المتصَدِّرينَ للدعوةِ، فكَم رجعَ

علَىٰ الدعوةِ الإسلاميَّةِ بالضررِ والفسادِ، وأدَّىٰ إلَىٰ تراجعِهَا عشراتِ السِّنينَ.

هَل فكَّرَ مَن يقومُ ببعضِ الأعمالِ الإفساديَّةِ مَا الَّذِي يمكنُ أَن يَحدُثَ لإخوانِهِ المسلمينَ الَّذِينَ يعيشونَ بينَ صفوفِ الكفارِ؟

أتدرِي أنَّ الأعمالَ غيرَ المدروسةِ شرعًا أفسدَت معايشَ كثيرٍ مِن إخوانِنَا المسلمينَ الَّذِينَ يعيشونَ فِي ديارِ الكفرِ؟!

فمسلمٌ يوجدُ مقتولًا ملقًىٰ فِي طريقٍ! ومحجبةٌ تختفِي فجأةً! وأخرياتٌ يسجنَّ معَ عتاولةِ المجرمينَ! وغيرُ ذلكَ مِنَ الأمورِ الَّتِي كانَ مِن أبرزِهَا تحجيمُ أعمالِ الخيرِ فِي كثيرٍ مِن دولِ الإسلامِ، وتشويهُ صورةِ الإسلامِ الَّتِي يسعَىٰ بعضُ المسلمينَ المخلصينَ إلَىٰ تحسينِهَا عندَ الكفارِ مِن أجلِ دعوتِهِم.

فماذَا استفدنَا مِن تلكَ الأعمالِ الهوجاءِ؟!

وتأمَّلُوا بمَا يُحيِّرُكُم مِن أحوالِ بعضِ الدعاةِ المتحمسينَ الَّذِينَ يظنُّونَ أنَّهُم أذكَىٰ الناسِ، فيقومونَ بالأعمالِ الَّتِي تجلبُ لدعوتنَا التأخُّرَ، وقَد صدقَ فيهِم قولُ سفيانِ الثوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا رأيتُ مبتدعًا عاقلًا قطُّ».

إنَّ بعضَ هؤلاءِ يتخبطُ فِي عقيدتِهِ، فيؤاخِي المبتدعةَ ويواليهِم ويحبُّهُم، ويقرِّبُ بينَ الأديانِ -بينَ دينِ الإسلامِ الحقِّ الناصعِ وأديانِ الكفرِ-، وبعضهُم جعلَ التيسيرَ والشذوذَ فِي فتاواهُ دينًا يوالِي ويعادِي عليهِ، فيُفتِي بجوازِ الغناءِ وجوازِ التمثيلِ، ويصرِّحُ بأنَّهُ التقَىٰ بعضَ الفناناتِ التائباتِ وأقنعهنَّ بضرورةِ العودةِ للتمثيلِ، وبعضهُم ابتدعَ رقصًا إسلاميًّا، وبعضهُم ينافحُ ويقاتلُ مِن أجلِ قيامِ الأحزابِ لزيادةِ التفرُّقِ والشتاتِ فوقَ مَا هوَ حاصلٌ الآنَ.

وإذَا قامَت دولتُهُم فأيُّ دينٍ سيُقيمُونَ، وهُم يدعونَ إلَىٰ التقاربِ بينَ الأديانِ،

ويجاهدونَ مِن أجلِ ذلكَ؟!

والعجيبُ أنَّ هؤلاءِ يرفعونَ شعاراتِ الجهادِ، فمَن يجاهدونَ وهُم يرَونَ أنَّ كلَّ الدياناتِ علَىٰ حقٍّ، وهَل أمثالُ هؤلاءِ يستحقُّونَ النصرَ منَ اللهِ؟!

إنَّ بعضَ الشبابِ بدءُوا يهوِّنونَ مسائلَ العقيدةِ الَّتِي مِن أجلهَا بُعثَ الرسلُ وسُلَّ السيفُ وأُريقَتِ الدماءُ، مِن أجلِ توحيدِ اللهِ وإفرادِهِ بالعبادةِ، فأخَذُوا يعذرونَ بعضَ الكتَّابِ السياسيينَ رغمَ تخبُّطِهِم فِي مسائلٍ عظيمةٍ تضادُّ العقيدةَ؛ لأنَّهُم أخَذُوا عقولَهُم وتلاعبُوا بهَا، وفِي المُقَابلِ نزعُوا مِن قلوبِهِمُ الرحمةَ تجاهَ دُعَاةِ الحقِّ وأنصَارِ سنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزعُوا مِن قلوبِهِمُ الرأفةَ تجاهَهُم، وألَّبُوا عليهِم الفسَّاقَ والدهماءَ، وتشدَّدُوا ضدَّهُم أكثرَ مِن تشدُّدِهِم ضدَّ الطوَّافينَ بالقبورِ ومنكرِي الصفاتِ والمستغيثينَ بغيرِ اللهِ والداعينَ مِن دونهِ شركاءَ، كلُّ ذلكَ لأنَّهُم اتَّفَقُوا فِي مسألةٍ عظيمةٍ عندَهُم وهيَ الكراسيُّ والزعاماتُ.

ألَا وإنَّ كلَّ عملٍ لَا يقومُ علَىٰ تقوَىٰ اللهِ وإخلاصِ القصدِ لَهُ مَخذُولٌ صاحبُهُ، فيَا ويحَ مَنِ اشترَىٰ الدنيَا بعملِ الآخرةِ، قَد خابَ وخسرَ خُسرانًا مُبينًا.

فلَا تغترُّوا بكثيرٍ منَ الرموزِ الزائفةِ الَّتِي تزيِّنُهَا لكُمُ القنواتُ الفضائيةُ وتصوِّرُهُم مجاهدينَ، فَوَاللهِ إنَّهُم علَىٰ غيرِ هُدًىٰ، بَل هُم دعاةُ ضلالةٍ وفتنةٍ، لَا يزالونَ بِكُم حتَّىٰ يهيجُوا عليكُم أمَمَ الكفرِ بأعمالِهِمُ التخريبيَّةِ، والواقعُ يشهدُ بذلكَ.

فبأيِّ وجهٍ تُفجَّرُ سفارةٌ لدولةٍ كافرةٍ فِي حالِ السِّلمِ؟ وبأيِّ حقٍّ تفجَّرُ باخرةٌ؟ وبأيِّ وجهٍ يُقتَلُ رجلٌ -وإن كانَ كافرًا- قَد أمَّنَهُ حاكمُ المسلمينَ أَوِ استعانَ بهِ علَىٰ دفعِ عدوٍّ؟

إنَّ هذَا لَا يجوزُ، وإنَّ الغدرَ ليسَ مِن شيمَ الإسلامِ، علَىٰ مَا يُلحِقُهُ هذَا العملُ

الإفساديُّ منَ النتائجِ الَّتِي لَا تُحمَدُ عقباهَا، نسأَلُ اللهَ أَن يقينَا شرَّ الفتنِ، والفتنةُ نائمةٌ لعنَ اللهُ مَن أيقظهَا.

كَم ستفتحُ علينَا هذهِ الحوادثُ منَ الفتنِ؟! أينَ الفقهُ فِي الدِّينِ؟!

إنَّ بغضَ الكفَّارِ واجبٌ، وكراهيتَهُم واجبةٌ، ولكِن هذَا لَا يعنِي الاعتداءَ علَىٰ مَن أمَّنَهُ الحاكِمُ المسلمُ فِي بلادِهِ، فإنَّهُ قَد جاءَ بأمانٍ ودخلَ بأمانٍ، علَىٰ أنَّ هذهِ الحوادثَ ممَّا تزيدُ الكفارَ حقدًا علَىٰ المسلمينَ، وتشوِّهُ صورةَ الإسلامِ أكثرَ مِن ذِي قَبلُ، فيجتمعُ رأيهُم علَىٰ حربِ الإسلامِ وأهلِهِ، فلابدَّ للمسلمِ أَن يعملَ بتعاليمِ الإسلامِ، ولَا يتتبع آراءَ الحَمقَىٰ والجهلةِ والرموزِ الزائفةِ، **وقَد سُئِلَ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **هذَا السؤالُ: مَا حكمُ الاعتداءِ علَىٰ الأجانبِ السيَّاحِ والزوَّارِ فِي البلادِ الإسلاميَّةِ؟**

فقالَ: «هذَا لَا يجوزُ، الاعتداءُ لَا يجوزُ علَىٰ أيِّ أحدٍ، سواءً كانُوا سُيَّاحًا أَو عمَّالًا؛ لأَنَّهُم مستأمنونَ دخلُوا بالأمانِ، فلَا يجوزُ الاعتداءُ عليهِم».

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجَلالِ وجهِهِ وعظيمِ سُلطانِهِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فيَا أيُّهَا الدعاةُ: إِن كنتُم تريدونَ وجهَ اللهِ ودعوةَ الخلقِ إلَىٰ الحقِّ فأَخرِجُوا الدنيَا مِن قلوبِكُم.

لماذَا بدأَ البعضُ ينافسُ علَىٰ الزعاماتِ والرئاسةِ، ولَو كانَ المقابلُ أَن يُشَتِّتَ الأمةَ ويجعلَها فرقًا وأحزابًا؟

إنَّ بعضَ الناسِ قَد قتلَهُ الغرورُ والعُجبُ، وحالُهُ فِي ذلكَ كحالِ الذبابةِ الَّتِي حطَّت علَىٰ شجرةٍ، فلمَّا أرادَت أَن تطيرَ قالَت للشجرةِ: اثبتِي.

ألَا ترونَ أنَّ بعضَ الدعاةِ بدأَ يتصرَّفُ وكأَنَّهُ قائدُ دولةٍ؟!

يأمرُ وينهَىٰ، ويخاطبُ رؤساءَ الدولِ الكافرةِ ويراسلُهُم، وبعضُهُم يقومُ بتهديدِ الدولِ وكأَنَّهُ قَد ملكَ الجيوشَ الجرَّارَةَ والأسلحةَ الفتَّاكةَ.

أمَا نظرَ إلَىٰ حقيقةِ نَفسِهِ قبلَ أَن يُقدِمَ علَىٰ هذَا الفعلِ؟

نخشَىٰ مِن عاقبةِ هذَا الغرورِ والتصرفاتِ غيرِ المنضبطةِ الَّتِي ستجلبُ للدعوةِ الفشلَ.

لماذَا ننطلقُ عاليًا ومَا أرسينَا قواعدنَا؟

شبابُنَا يعانونَ مِنَ التَّوهَانِ: تكفيرٌ.. ضعفٌ.. انهزاميةٌ، ونريدُ أَن نستكثرَ بِهِم!

مَا أجملَ الرجوعَ إلَىٰ الدعوةِ علَىٰ منهاجِ النبوةِ، لَاسيَّمَا فِي وقتٍ اتَّخذَ الناسُ فيهِ رؤوسًا جهَّالًا، فسُئِلُوا فأفتَوا بغيرِ علمٍ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا.

إنَّ تعليمَ الناسِ هوَ الأصلُ، وهوَ النجاةُ، وهوَ الرصيدُ الباقِي عندَ اللهِ تعالَىٰ، فمتَىٰ نُخلِصُ فِي دعوتنَا بعيدًا عنِ البهرجةِ والزخرفةِ الكاذبةِ؟

قالَ بعضُ السلفِ: «مَا أخلصَ للهِ عبدٌ أحبَّ الشهرةَ».

وقالَ غيرُهُ: «مَا أَحَبَّ عبدٌ الرئاسةَ إلَّا بغَىٰ وظَلَمَ وأحبَّ ألَّا يُذكرَ أحدٌ بخيرٍ».

واعلمُوا أنَّ العبدَ كلمَّا خَلصَت نيتُهُ للهِ تعالَىٰ وكانَ قصدُهُ وهمُّهُ وعملُهُ لوجههِ سبحانَهُ كانَ اللهُ معَهُ، فإنَّهُ سبحانَهُ معَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُم مُحسِنُونَ، ورأسُ التقوَىٰ

والإحسانِ خلوصُ النيَّةِ للهِ فِي إقامةِ الحقِّ، واللهُ سبحانَهُ لَا غالبَ لَهُ، فمَن كانَ معَهُ فمَن ذَا الَّذِي يغلبُهُ أَو ينالُهُ بسوءٍ، وإِن كانَ اللهُ معَ العبدِ فممَّن يخافُ، وإِن لَم يكُن معَهُ فمَن يرجُو، وبِمَن يثِقُ، ومَن يَنصُرُهُ مِن بَعدِهِ؟

فإِذَا قامَ العبدُ بالحقِّ علَىٰ غيرِهِ وعلَىٰ نفسِهِ أوَّلًا، وكانَ قيامُهُ باللهِ وللهِ لَم يضرَّهُ شيءٌ، ولَو كادَتهُ السمواتُ والأرضُ والجبالُ لكفاهُ اللهُ مؤنتَهَا، وجعلَ لَهُ فرَجًا ومخرجًا، وإِنَّمَا يُؤتَىٰ العبدُ مِن تفريطِهِ وتقصيرِهِ، ومَن كانَ قيامُهُ فِي باطلٍ لَم يُنصَر، وهوَ مذمومٌ مَخذُولٌ، وإِن قامَ فِي حقٍّ لكِن لَم يَقُم فيهِ للهِ وإِنَّمَا قامَ لطلبِ المَحمَدةِ والجزاءِ مِنَ الخلقِ أَوِ التوصُّلِ إِلَىٰ غرضٍ دنيويٍّ جعلَهُ هوَ المقصودَ الأوَّلَ لعملِهِ، وإِنَّمَا جعلَ القيامَ فِي الحقِّ وسيلةً إليهِ، فهذَا لَم تُضمَنْ لهُ النُّصرَةُ، فإِنَّ اللهَ إِنَّمَا ضَمِنَ النُّصرةَ لِمَن جاهدَ فِي سبيلِهِ وقاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العليَا، لَا لِمَن كانَ قيامُه لنفسِهِ وهواهُ، فإِنَّهُ ليسَ مِنَ المتَّقينَ ولَا منَ المحسنينَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ التمسَ رضَا اللهِ بسخطِ الناسِ، رضيَ اللهُ عنهُ وأرضَىٰ عنهُ الناسَ، ومَنِ التمسَ رضَا الناسَ بسخطِ اللهِ، سخطَ اللهُ عليهِ وأسخطَ عليهِ الناسَ**»[1].

ويَا أيُّهَا الشبابُ: إِنَّ الداعيةَ الناصحَ هوَ الَّذِي يحبُّ الخيرَ للناسِ جميعًا، فيجتهدُ فِي إصلاحِ أحوالِهِم وتآلفِهِم، ويعملُ كلَّ مَا فيهِ مصلحتُهُم فِي الدِّينِ والدنيَا.

اجتَهِدُوا فِي إصلاحِ أحوالِ بلادِكُم بكلِّ تعقُّلٍ وحِكمَةٍ وسَدادِ رأيٍ، فإِنَّ هذَا مِن شكرِ النعمةِ.

مالِ بعضِ الشبابِ يتصرَّفُ وكأنَّهُ ملَّ الأمنَ وسَئِمَ الرفاهيةَ، فبدأَ يعملُ بطيشٍ، يريدُ أَن يغيِّرَ هذَا الواقعَ إِلَىٰ واقعٍ بئيسٍ.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣١١).

فأينَ يذهبُ هذَا وأمثالُهُ مِن سطوةِ اللهِ وأليمِ عقابِهِ؟

إنَّ منتهَىٰ الخزيِ أَن ترَىٰ بلادَكَ يعملُ ضدَّهَا الكافرُ والمنافقُ وداعيةُ الفجورِ، فتقومَ مُعِينًا لهم ومُنَاصِرًا دونَ أَن تشعرَ، بدلًا مِن أَن تقفَ مناصرًا لبلدِكَ الَّتِي تعبدُ اللهَ فيهَا بمنتهَىٰ الرَّاحةِ، ودونَ إرهابٍ، وتوفِّرُ لكَ سبلَ المعيشةِ.

أأجعلُهَا تحتَ الرَّحَىٰ ثُمَّ أَبتَغِي خَلَاصًا لَهَا إِنِّي إِذَن لَرَقِيعُ

إنَّ بلادًا تُحكَمُ بالزَّندَقةِ والرفضِ والإلحادِ والكفرِ، تجدُ أبناءَهَا يخافونَ عليهَا، ويحبُّونهَا ويَفدُونهَا بالغالِي والنفيسِ، فمالِ بعضِ شبابِنَا تخاذَلُوا عَن نصرةِ بلادِهِم والمحافظةِ علَىٰ أمنِهَا، وهيَ تدينُ بالإسلامِ وترفعُ لواءَهُ، وفيهَا تُقَامُ شعائرُ الإسلامِ.

واللهِ إنَّا فِي نعمةٍ، بَل أعظمُ النعمِ.

نخشَىٰ أَنَّ بعضَ الناسِ سَئِمَ الألفةَ والمودَّةَ واحترامَ الدِّينِ وعلوَّ مكانتِهِ فِي القلوبِ، فاشتاقَ لبلدٍ يكثُر فيهِ البطشُ والإهانةُ والتعذيبُ كمَا يُفعلُ فِي بعضِ الدولِ الغاشمةِ الظالمةِ.

أينَ هؤلاءِ مِن قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا ينبغِي لمؤمنٍ أَن يذلَّ نفسَهُ. قالُوا: وكيفَ يذلُّ نفسَهُ؟ قالَ: يتعرَّضُ منَ البلاءِ مَا لَا يطيقُ**»(١).

متَىٰ يعرفُ الشبابُ فِي بلادِ الخيرِ أنَّ بينَ صفوفِهِم أُناسًا يحسدونَهُم علَىٰ عقيدتِهِمُ الصافيةِ، ويريدونَهَا خرافةً وضلالاتٍ، ويحسدونَهُم علَىٰ أمنِهِم، ويريدونَهَا أَن تكونَ كغيرِهَا منَ البلادِ، يكثرُ فيهَا الكفرُ والخوفُ والرعبُ وقطعُ السَّبيلِ.

أيُّهَا الشبابُ: إنَّ هؤلاءِ قَد أفسدُوا بلادَهُم، ووضعُوا الشبابَ فِي حلوقِ الحُكَّامِ، وجاءُوا ليعيدُوا الكَرَّة معكُم.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦١٣).

وهاهوَ بعضهُم يعيشُ بينَ أحضانِ الكفارِ، أَو يعيشُ فِي بلادِهِ فِي مأمنٍ، ولَا يفترُ عَن تهييجِ الشبابِ، فإذَا وقعَتِ الطامَّةُ وقُتِلَ الأبرياءُ، ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

وإِذ بآخرَ يُصَرِّحُ أنَّهُ ضدَّ الأعمالِ الإرهابيَّةِ.

إِذَن، مَنِ الَّذِي دفعَ الشبابَ البريءَ إِلَىٰ الفتنةِ، ومَنِ الَّذِي غَذَّاهُم بهذَا الفكرِ المتشدِّدِ؟!

فاحذرُوا أيُّهَا الشبابُ البريءُ.

أينَ بصيرتُكُم؟ أينَ عقولُكُم؟

أمَا ترونَ أعمالَ بعضِ المتصدِّرينَ وقَد بدَا فيهَا التناقضُ واضحًا، والكذبُ سمةً بارزةً.

أمَا ترونَ أنَّكُم إذَا وقعتُم فِي الشَّرَكِ تبرَّءُوا مِنكُم واستنكرُوا أفعالَكُم، وكأنَّهُم لَم يكونُوا وراءَهَا، وأنَّهُم مَن دَفَعَكُم إليهَا؟

لَا يغرَّنَّكُم نداؤُهُم للجهادِ، فهُم تنازلُوا عَن كثيرٍ مِن تعاليمِ الإسلامِ ولَم يحكمُوا بعدُ، فكيفَ إذَا سادُوا الناسَ؟!

نسألُ اللهَ ألَّا يُمَكِّنَهُم.

لماذَا هُم يعيشونَ بينَ أولادِهِم وأموالِهِم فِي أمانٍ، وأنتُم جَوعَىٰ مشرَّدُونَ؟!

إذَا كانُوا يرونَ ذلكَ جهادًا فلماذَا لَا يجاهدونَ، وإِن كانُوا يرونَ ذلكَ عبثًا فلماذَا يعبثونَ بِكُم، وكيفَ ترضَونَ أَن تكونُوا أُلعُوبَةً فِي أيديهِم؟

أيُّهَا الشبابُ: لماذَا كلمَّا جاءَكُم ناصحٌ أسميتُمُوهُ منافقًا؟!

ألَا تستيقظونَ؟

ليتَكُم تستيقظونَ!

هذَا واعلمُوا أنَّ خيرَ الهديِ هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَن سلكَ طريقَهُ نجَا، ومَن تركَ هديَهُ ضَلَّ وغوَىٰ، وشقيَ فِي الدارَينِ الآخرةِ والأُولَىٰ، وخيرُ الهديِ مِن بعدِهِ هديُ صحابَتِهِ، الَّذِينَ عَن علمٍ كفُّوا، وعَن بصرٍ نافذٍ وَقَفُوا، ومَن لَم يسَعهُ هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابَتِهِ فلَا وسَّعَ اللهُ عليهِ.

❊❊❊

(٤٦) الخوارجُ الوجهُ الآخرُ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسنَا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنَا، منَ يَهدِهِ اللهُ فلَا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلِل فلَا هادِيَ لَهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

وبعدُ:

فإنَّ الأمَّةَ لمَّا خالفَت سَبيلَ نبيِّهَا محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمزَّقَت أشلاءً، وتفرَّقَت أحزابًا وفرقًا وطوائفَ مُتعددةً، كلُّ حزبٍ بمَا لديهِم فرحونَ.

وعلَىٰ افتراقِ الطوائفِ الَّتِي خرجَتْ فِي هذهِ الأمَّةِ، وخالفَت السَّبيلَ القويمَ، فإنَّ

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠-٧١.

الأمَّةَ الإسلاميَّةَ لَم تُبتَل بطائفةٍ كمَا ابتُلِيَت بطائفَةِ الخوارِجِ.

تلكَ الطائفةُ الَّتِي خَرَجَت علَىٰ جماعةِ المسلمينَ وإمامِهِم، وكانَ انتشارُهَا وقوَّتُهَا فِي زمَنِ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وإِن كانَ أصلُ خروجِهَا ونشأتِهَا قَد حصلَ فِي زمنِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فمَا ابتُلِيَت أمَّةُ الإسلامِ بطائفةٍ وفتنةٍ، كمَا ابتُلِيَت بهذهِ الطائفةِ الَّتِي ابتعدَت عنِ العلمِ، وتاهَت فِي ظلماتِ الجَهلِ، وتركَت سبيلَ السنَّةِ وطريقةَ العُلماءِ الربانيِّينَ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ **تعليقًا علَىٰ قولِ النبيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فِي الخوارجِ: «شرُّ قتلَىٰ تحتَ أديمِ السمَاءِ خيرُ قتيلٍ مَن قتلوهُ»**(١): «أَي: إنَّهُم شرٌّ علَىٰ المسلمينَ مِن غيرِهِم، فإنَّهُم لَم يكُن أحدٌ شرًّا علَىٰ المسلمينَ منهُم، لَا اليهودُ ولَا النصارَىٰ، فإنَّهُم كانُوا مُجتهدينَ فِي قتلِ كلِّ مسلمٍ لَم يوافِقهُم، مُستَحِلِّينَ لدماءِ المسلمينَ وأموالِهِم وقتلَ أولادِهِم، مُكَفِّرِينَ لَهُم، وكَانُوا مُتَدَيِّنِينَ بذلكَ -أَي: يرونَ ذلكَ دينًا- لِعِظَمِ جهلِهِم وبدعتِهِمُ المُضِلَّةِ».

فهذَا حالُ الخَوارِجِ الَّذِينَ خرجُوا علَىٰ جَماعةِ المسلمينَ، وهذَا شيءٌ مِن أوصافِهِمُ العديدةِ المتعدِّدَةِ.

وأصلُ هؤلاءِ الخوارجِ كانَ موجودًا فِي زمنِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حيثُ إنَّهُ قَد جاءَتهُ الغنائمُ فِي غزوةِ حُنَينٍ، فقسَّمَهَا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقَد فَضَّلَ أُناسًا مِن أمراءِ القبائلِ فِي الأعطياتِ مِن أجلِ مَصلحةٍ عظيمةٍ رآهَا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهيَ تأليفُهُم علَىٰ الإسلامِ، فجاءَهُ رجلٌ ناتئُ الجبهةِ، عريضُ الوَجنتَينِ، فقالَ لَهُ: «يَا محمَّدُ، اعدِل فإنَّكَ لَم تَعدِل»(٢)، يقولُ: اعدِل ويقولُ: يَا محمَّدُ، لأنَّهُ رأَىٰ فِي نفسِهِ أنَّهُ بلغَ فِي العلمِ

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم (٣٥٥٤).
(٢) رواه البخاري (٢٩٠٥)، ومسلم (١٧٦٥).

والتُّقَىٰ مبلغَهُمَا حتَّىٰ قالَ: اعدِل يَا محمَّدُ، وفِي لفظٍ قالَ: «إنَّ هذهِ قسمةٌ مَا أُريدَ بهَا وجهُ اللهِ»(١) -كِبرٌ وتعالُمٌ- فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألَا تأمنُونِي وأنَا أمينُ مَن فِي السَّماءِ؟!»**(٢).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمَن يعدِلُ إن لَم أعدِل؟،خِبتَ وخَسِرتَ إن لَم أعدِل.**

فقالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **دَعنِي** يَا رسولَ اللهِ أضربُ عُنُقَ هذَا المُنَافقِ، فقالَ: **دَعهُ.** فلمَّا ولَّىٰ مدبرًا قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنَّ مِن ضِئضئِ هذَا قومًا يَقرَءُونَ القرآنَ لَا يُجَاوزُ حناجرَهُم، يقتلونَ أهلَ الإسلامِ، ويدَعونَ أهلَ الأوثانِ، يَمرُقُونَ منَ الإسلامِ كمَا يمرقُ السَّهمُ منَ الرميَّةِ، لَئِن أدركتُهُم لأقتلنَّهُم قتلَ عادٍ»**(٣).

إنَّ مِن ضئضئِ هذَا: يعنِي أصلَهُ؛ أَي: إنَّ هذَا الأصلَ وسَيأتِي لهُ فُروعٌ.

يقرَءُونَ القُرآنَ لَا يجاوزُ حناجرَهُم: أَي يقرَءُونَهُ مِن غيرِ فِقهٍ، فيصلُ إلَىٰ هاهنَا ويقفُ، وقيلَ: معناهُ: لَا ترتفعُ أجورُهُم إلَىٰ السماءِ.

يمرقُونَ منَ الإسلامِ كمَا يمرقُ السهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ: كمَا يأتِي السَّهمُ فيضربُ الطائرَ مِن مكانٍ فيخرجُ مِن مكانٍ آخرَ، لَا يأخذُ مِن دمِهِ ولَا مِن ريشهِ شيئًا، وهذَا دليلٌ علَىٰ قلَّةِ نصيبِهِم منَ الإسلامِ.

لَئِن أدركتُهُم لأقتلنَّهُم قتلَ عادٍ: أَي: قتلًا مُستأصِلًا، كمَا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾(٤).

وفِي زمنِ عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اجتمَعُوا مِن بلادٍ عديدةٍ، وجاءُوا قافِلينَ حتَّىٰ بَلَغُوا

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٧)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٠٤)، ومسلم (١٧٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٠٩٥)، ومسلم (١٧٦٢).

(٤) سورة الحاقة:٨.

المَدِينةَ، وخرجُوا عليهِ، وقتَلُوهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمُصحفُ فِي يدِهِ، ورَكِبَ خارجيٌّ علَىٰ صدرِهِ، وطعنَهُ بتسعِ طعناتٍ، ثمَّ قالَ: أمَّا ثلاثٌ فهيَ للهِ، وأمَّا ستٌّ فلشيءٍ فِي نفسِي عليهِ، وهذَا دليلٌ علَىٰ أنَّهُم كانُوا يُرِيدُونَ الدنيَا.

ثمَّ خرجُوا فِي وقتِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانَ خروجُ قادتِهِم للدنيَا، وذلكَ أنَّ الأشتَرَ -وهوَ منَ الخوارِجِ- كانَ يطمعُ أَن يجعلَهُ عليٌّ أميرًا علَىٰ البصرةِ، فجعلَ عليهَا عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعندَ ذلكَ خرجُوا عَن طاعتِهِ، وذهبُوا إِلَىٰ منطقةٍ يُقَالُ لَهَا حروراءُ -وهيَ بجانبِ الكوفةِ- واعتزلُوا الناسَ، وبدَءُوا بالكلامِ وإثارةِ الناسِ علَىٰ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باسمِ الدينِ ورفعِ شِعارِ الورعِ والتنسُّكِ، فقالَ لَهُم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَكُم علينَا ثلاثٌ: لَا نَمنَعُكُم مساجِدَ اللهِ أَن تذكُرُوا فيهَا اسمَ اللهِ، ولَا نمنعكُم الفَيءَ مَا دامَت أيدِيكُم معنَا، ولَا نبدؤكُم بقتالٍ»[1].

ثمَّ مالُوا إِلَىٰ عبدِ اللهِ بنِ خبَّابِ بنِ الأرتِّ ابنِ صاحبِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ أميرًا لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاءُوا إليهِ وقتَلُوهُ وشقُّوا بطنَ أمِّ ولدِهِ، عنفٌ وقسوةٌ فِي القتلِ، يقتلونَ مسلمًا موحِّدًا لأنَّهُ لَم يكُن سائرًا علَىٰ طريقَتِهِم.

وهذَا ليُعلَمَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا ينطقُ عنِ الهوَىٰ حيثُ قالَ فيهِم: «**يقتلونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثانِ**».

وقَد حَثَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ قتالِ الخوارجِ فقَالَ: «**سيخرجُ فِي آخرِ الزمانِ قومٌ أحداثُ الأسنانِ، سُفهَاءُ الأحلامِ، يقولُونَ مِن خيرِ قولِ البريَّةِ، يقرءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ حناجرَهُم، يمرُقونَ منَ الدِّينِ كمَا يمرقُ السهمُ منَ الرميَّةِ، فإذَا لقيتموهُم فاقتلوهُم، فإنَّ فِي قتلِهِم أجرًا لِمَن قَتَلَهُم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ**»[2].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٨/ ٧٤١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٧٧١).

أحداثُ الأسنانِ: أَي أَنَّهُم شبابٌ صغارٌ يتحمَّسُونَ فِي مجلسٍ، ويملؤهُم رجلٌ فِي كلامٍ تهييجيٍّ، ثمَّ يدفعهُم لأعمالِ التخريبِ.

سفهاءُ الأحلامِ: أَي أنَّ عقولَهُم صغيرةٌ.

يقولونَ مِن خيرِ قولِ البريَّةِ: أَي أَنَّهُم إذَا تكلَّمُوا، قلتَ: ليسَ هناكَ أبلغُ مِن فلانٍ، فإنَّهُم أُوتُوا جدلًا ولحنًا، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾[1].

يقرءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ حناجرَهُم: أَي يقرءونَهُ مِن غيرِ فِقهٍ ولَا إدراكٍ.

كمَا أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَد وصفَهُم بوصفٍ شَديدٍ، وسمَّاهُم شرَّ الخَلقِ والخَليقَةِ، فقالَ: «**إنَّ بَعدِي مِن أمَّتِي قَومًا يَقرَءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ حلاقيمَهُم، يخرجونَ مِنَ الدِّينِ كمَا يخرجُ السهمُ مِنَ الرميَّةِ، ثمَّ لَا يعودونَ فيهِ، هُم شرُّ الخلقِ والخَليقَةِ**»[2].

وخرجَت خارجَةٌ مِن هؤلاءِ فِي الشَّامِ فقُتِلُوا وأُلقُوا فِي بئرٍ، فجاءَ أَبُو أُمامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ صاحبُ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ وقفَ عليهِم، ثمَّ بكَىٰ وقالَ: «**سبحانَ اللهِ! مَا فعلَ الشيطانُ بهذهِ الأمَّةِ، كلابُ النارِ، كلابُ النارِ، كلابُ النارِ، شرُّ قتلَىٰ تحتَ ظلِّ السماءِ، خيرُ قتلَىٰ تحتَ ظلِّ السماءِ مَن قتلوهُ.**

قيلَ: يَا أبَا أُمامةَ، أشيءٌ تقولُهُ برأيِكَ، أَم شيءٌ سمعتَهُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؟

قالَ: إنِّي إذَن لجريءٌ، بَل سمعتُهُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ غيرَ مرَّةٍ، ولَا مرَّتَينِ، ولَا ثلاثًا، حتَّىٰ عدَّ سبعًا»[3].

فوصفَهُمُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بأَنَّهُم شرُّ قتلَىٰ تحتَ أديمِ السماءِ، وسمَّاهُم كلابَ النارِ.

---

(١) سورة محمد: ٣٠.

(٢) رواه مسلم (١٠٦٧).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٥٥٤).

ووصفهُم بالكلابِ؛ لأنَّ الكلبَ لَا يزالُ ينبحُ ويستهيجُ الناسَ حتَّىٰ يَدُلَّ العدوَّ علَىٰ قومِهِ، أَو لأنَّهُم لَا يزالونَ تقتيلًا فِي المسلمينَ وتكفيرًا، كمَثَلِ الكلبِ إِذَا جاعَ فإنَّهُ يرجعُ إِلَىٰ ذَنَبِهِ فيأكلُهُ.

أيُّهَا المسلمونَ:

وقَد أكرمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقتالِ الخوارجِ، فأخبرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ يقاتلُهُم، وأنَّ آيةَ ذلكَ أنَّ فيهِم رجلًا يدُهُ مقطوعةٌ، وأنَّ يدَهُ فِي مؤخرتِهَا قطعةُ لحمٍ كحلمةِ الثديِ، فقاتَلَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هؤلاءِ الخوارجَ، ثمَّ بعدَ أَنِ انتهَىٰ مِن قتالِهِم بعثَ مَن يبحثُ لهُ عَن هذهِ الصفةِ، فبحثُوا فلَم يجدُوا شيئًا، فرجعُوا إِلَىٰ عليٍّ وأخبروهُ فقالَ: «ارجعُوا فواللهِ مَا كذبْتُ وَمَا كُذِّبت» -مرتينِ أَو ثلاثًا- فبحثُوا حتَّىٰ وجدُوا ذلكَ الرجلَ علَىٰ الصفةِ الَّتِي ذكرهَا لهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: أشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ.

وعندَ ذلكَ سُرَّ أصحابهِ لِمَا رأَوا مِن تصديقِ الخبرِ، وذلكَ أنَّ بعضَهُم لَمَّا رأَىٰ اجتهادَ الخوارجِ فِي العبادةِ والصلاةِ وطولِ القيامِ، أخذَتهُ ريبةٌ مِن أمرِهِم، كمَا حدثَ ذلكَ معَ جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقَد كانَ معَ جيشِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يقولُ جندبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لمَّا كانَ يومُ قاتَلَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخوارجَ، نظرتُ إِلَىٰ وجوهِهِم وإِلَىٰ شمائلِهِم فشككتُ فِي قتالِهِم، (أَي أنَّهُ لمَّا رأَىٰ الناسَ يُصَلُّونَ ويبيتونَ قائمينَ يطيلونَ القيامَ استرَابَ فِي أمرِهِم)، يقولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فشككتُ فِي قتالِهِم فتنحَّيتُ عنِ العسكرِ، فنزلتُ عَن دابَّتِي وركَزتُ درعِي تحتِي وعلَّقتُ ترسِي سترًا مِنَ الشمسِ، وأنَا معتزلُ العسكرَ ناحيةً، إِذ طلعَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علَىٰ بغلةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ فِي نفسِي: مَا لِي ومَا لَهُ، أنَا أفِرُّ منهُ وهوَ يجيءُ إليَّ؟ -يعنِي: أنَّهُ يودُّ اعتزالَ هذَا القتالِ- فقالَ لِي: يَا جندبُ، مَا لَك فِي هذَا

المكانِ تنحَّيت عنِ العسكرِ؟

فقلتُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، أصابَنِي وعكٌ فشقَّ عليَّ الغبارُ فلَم أستطِعِ الوقوفَ، فقالَ: أمَا بلغَكَ مَا للعبدِ فِي غبارِ العسكرِ منَ الأجرِ؟ ثمَّ ثنَىٰ رجلَهُ فنزلَ، فأخذتُ برأسِ دابَّتِهِ، وقعدَ فقعدتُ، فأخذتُ الترسَ بِيَدَيَّ فسترتهُ منَ الشمسِ، فواللهِ إنِّي لقاعدٌ، إذ جاءَ فارسٌ يركضُ فقالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ القومَ قَد قطعُوا الجسرَ ذاهبينَ، فالتفتَ إليَّ وقالَ: إنَّ مصارِعَهُم دونَ النهرِ -لأنَّ الَّذِي أخبرَهُ بذلكَ هُوَ الَّذِي لَا ينطقُ عَنِ الهوَىٰ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وإنَّ الَّذِي أَجِدُهُ عندَهُ واقفٌ -يعنِي: لَا زالَ الرجلُ واقفًا عندَهُ-، إذ جاءَهُ رجلٌ آخرُ فقالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، واللهِ قَدِ ابتعدُوا فمَا بقِيَ منهُم أحدٌ، قالَ: ويحَكَ إنَّ مصارِعَهُم دونَ النهرِ، فجاءَ فارسٌ يركضُ، فقالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، والَّذِي بعثَ نبيَّهُ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقَد رجعُوا، ثمَّ جاءَ الناسُ فقالُوا: قَد رجعُوا حتَّىٰ إنَّهم ليتساقطونَ فِي الماءِ.

(تأمَّل حماسَهُم إلَىٰ قتلِ أصحابِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ إنَّهُم ليتساقطونَ فِي الماءِ زِحامًا علَىٰ العبورِ؛ لأنَّ الجسرَ كانَ فوقَ النهرِ).

ثمَّ إنَّ رجلًا جاءَ فقالَ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ القومَ قَد صفُّوا الصفوفَ، ورمَوا فينَا، وقَد جرحُوا فلانًا، فقالَ عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هذَا حينَ طابَ القتالُ، فوثبَ فقعدَ علَىٰ بغلتِهِ، وقُمتُ إلَىٰ سلاحِي فلبستُهُ ثمَّ شددتُهُ عليَّ، ثمَّ قعدتُ علَىٰ فرسِي، وأخذتُ رُمحِي ثمَّ خرجتُ، فواللهِ مَا صلَّيتُ الظهرَ -أَو قالَ: العصرَ- حتَّىٰ قتلتُ بيدَيَّ سبعينَ[1].

فهاهوَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَدِ استرابَ فِي أمرِهِم لمَّا رأَىٰ عبادتَهُم، لكِن لمَّا رأَىٰ حماسَهُم لقتلِ المسلمينَ، بَل أخيارِ الناسِ بعدَ الأنبياءِ أصحابِ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تيقَّنَ

---

(١) «الشريعة» للآجري (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

الخبرَ، لَا سيَّمَا وقَد سمعَ مِن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّهُ يُحَدِّدُ مصارِعَهُم.

وقَد هزمَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ شرَّ هزيمةٍ علَىٰ يدِ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ولذلكَ قالَ الآجرِّيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «فلَا ينبغِي لِمَن رأَىٰ اجتهادَ خارجيٍّ قَد خرجَ علَىٰ إمامٍ عدلًا كانَ أَو جائرًا، فخرجَ وجمعَ جماعةً، وسَلَّ سيفَهُ واستحلَّ قتالَ المسلمينَ، فلَا ينبغِي لَهُ أَن يغترَّ بقراءَتِهِ للقرآنِ، ولَا بطولِ قيامِهِ فِي الصلاةِ، ولَا بمداومةِ الصيامِ، ولَا بحُسنِ ألفاظِهِ فِي العلمِ، إذَا كانَ مذهبُهُ مذهبَ الخَوارجِ».

ولَا يظنُّ مسلمٌ أَنَّ بدعةَ الخوارجِ قَدِ انتهَت، بَل إنَّ بدعتَهُم باقيةٌ إِلَىٰ أَن يخرجَ قومٌ منهُم فِي الدجَّالِ، كمَا بيَّنَ ذلكَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولكنَّ الَّذِي حصلَ أنَّ الأزياءَ تغيَّرَت، والألسنَ تبدَّلَت، ولذلكَ التبسَ أمرُهُم علَىٰ كثيرٍ منَ المسلمينَ، فعَن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ينشأُ نَشءٌ يقرءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ تراقيهِم كلَّمَا خرجَ قرنٌ قُطِعَ**.

قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقولُ: **كلَّمَا خرجَ قرنٌ قُطِعَ، أكثرَ مِن عِشرينَ مرَّةً، حتَّىٰ يخرُجَ فِي عِرَاضِهِم الدجَّالُ**»(١).

وقولُهُ: كلَّمَا خَرجَ قرنٌ قُطِعَ: دليلٌ علَىٰ أنَّ الخوارجَ لَن تقومَ لَهُم قائمةٌ أبدًا.

ومعنَىٰ قولِهِ: حتَّىٰ يخرُجَ فِي عراضِهِمُ الدجَّالُ: يعنِي حتَّىٰ يخرجَ فِي خداعِهِمُ الدجَّالُ.

فبدعةُ الخوارجِ باقيةٌ ولَا زالَت تعيشُ بينَ صفوفِنَا، ولكِن أُلبِسَت علَىٰ كثيرٍ منَ الناسِ؛ لأنَّ أصحابَهَا فِي هذَا الزمنِ تغيَّرَت أزياؤُهُم، وتبدَّلَت ملابسُهُم، وتلوَّنَت وجوهُهُم، فباتُوا يَظهَرُونَ فِي كلِّ وجهٍ.

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٥٥).

ومَن تأمَّلَ السنَّةَ وخبرَ أعمالَهُم معَ أصحَابِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلِمَ أوصافَهُم فحَذِرَهُم، وإِنْ رأَىٰ منهُم عبادةً؛ لأنَّ عبادَتُهم لأنفسِهِم، ولكِنَّ ضرَرَهُم يعودُ علَىٰ المسلمينَ جميعًا.

فهُم يخرجونَ علَىٰ أئمةِ المسلمينَ بالطعنِ والثلبِ، وإحداثِ القلاقلِ والفتنِ، كمَا خرجُوا فِي وجهِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لمَّا خرجَ أصلهُمُ الفاسدُ ونبتتُهُمُ الأولَىٰ فقالَ للنبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: اعدِل يَا محمَّدُ فإنَّكَ لَم تعدِل، وكمَا خرجُوا علَىٰ عثمانَ وعليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

ويجبُ التنبُّهُ إِلَىٰ أنَّ الخوارجَ طبقاتٌ ودرجَاتٌ، ومِن هؤلاءِ الخوارجِ طبقةٌ تُسمَّىٰ القعديَّةَ، وهمُ الذينَ يُهَيِّجُونَ الناسَ علَىٰ الخروجِ علَىٰ الحاكمِ ويحسِّنُونَهُ لَهُم، ولَا يخرجونَ، وهذِهِ الطائفةُ مِن طوائفِ الخَوَارجِ قَدِ انتشرَت صوتِيَّاتُهُم بينَ صفوفِ المسلمينَ، ولَا يزالونَ يُهَيِّجُونَ الناسَ علَىٰ الحكامِ ويدفعونَ بالناسِ إِلَىٰ الفتنِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ ينسلُّونَ فِي بيوتِهِم، بَل ويفعلونَ مَا هوَ أشدُّ مِن ذلكَ، مِن إعلانِ البراءةِ مِن فعلِ هؤلاءِ المَغرورينَ، وهذِهِ طامَّةٌ عظمَىٰ يراهَا كلُّ مُبصِرٍ ويَعِيهَا كلُّ عاقلٍ.

وتجدُ أنَّ هؤلاءِ إذَا مُنِعُوا مِنَ الدنيَا هاجُوا وماجُوا، وإِن أُعطوا منهَا تحوَّلَ حالُهُم إِلَىٰ مَا هوَ أحسنُ، فإذَا بِهِم يكيلونَ للولاةِ والحُكَّامِ مِن عباراتِ المدحِ والثناءِ، مَا لَو قالَهُ صاحبُ سُنَّةٍ لَوَصفُوهُ بالنفاقِ والعمالةِ.

فتأمَّلُوا فِي هذَا الواقعِ الَّذِي يُشَيِّبُ الولدانَ، فتجدُ رجلًا يُهَيِّجُ الناسَ ويُحَرِّضُهم، فإذَا أُعطِيَ مِنَ الدنيَا فإذَا بلسانِهِ يتغيَّرُ، وإذَا بمدحِهِ يزدادُ، وإذَا بالذمِّ يعودُ مدحًا للحُكَّامِ والولاةِ، فأينَ الطاعةُ بالمعروفِ؟

فهوَ مأمورٌ بالطاعةِ إِن مُنِعَ أَو أُعطِيَ، فلماذَا يعلِّقُ هذَا الأمرَ الشرعيَّ بالدنيَا، فإِن أُعطِيَ منهَا مَدَحَ، وإذَا مُنِعَ منهَا قَدَحَ.

والطاعةُ ملازمةٌ لهُ علَىٰ كلِّ حالٍ للحاكمِ المسلمِ فِي بلادِ المسلمينَ فَلَا تُعلَّقُ بالدنيَا.

ومِن صفاتِ هؤلاءِ الخوارجِ: الجَهلُ، كمَا وصفَهُم بذلكَ أصدقُ الخلقِ، وأنصحُ الخلقِ للخلقِ محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيثُ إنَّهُم يقرءونَ القرآنَ لَا يجاوزُ حناجرَهُم، فتجدُهُم يحملونَ الآياتِ الواردةَ فِي الكفارِ والمنافقينَ ويضعونَهَا علَىٰ المسلمينَ، وإذَا بِهِم يضعونَ النصوصَ فِي غيرِ مَحلِّهَا الصحيحِ.

ومِن عاداتِهِمُ الخروجُ علَىٰ العلماءِ والطعنُ فيهِم، وتنفيرُ الناسِ منهُم، وذلكَ للإنفرادِ بتوجيهِ الشبابِ، فإذَا رأَوا عالمًا سُنيًّا مقتفيًا لسنَّةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَأَوا منهُ توجيهًا وتسديدًا ونُصحًا للمسلمينَ، فإذَا بهِم يعودونَ عليهِ بالقدحِ والسبِّ والطَّعنِ، لتنفيرِ الناسِ منهُ.

ومعَ الأسفِ الشديدِ، أنَّ هذَا قَد درَجَ عليهِ بعضُ الناسِ بسببِ مَا يسمعونَهُ مِن هؤلاءِ، فتجدُ بعضَ العامَّةِ مَعَ أَنَّ فطرتَهُم سليمةٌ، (أسلَمُ مِن فطرةِ هؤلاءِ المنحرفينَ)، تجدُهُ يتكلَّمُ فِي عالمٍ كبيرٍ جليلٍ، ويطعنُهُ بأنَّهُ عَميلٌ، وأنَّهُ لَا يُنكِرُ علَىٰ الحُكَّامِ، وأنَّهُ وأنَّهُ... **وقَد قالَ بعضُ السلفِ**: «لحومُ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةُ اللهِ فِي هتكِ أستارِ منتقصِهِم معلومةٌ»، بَل ولعلَّهُ يأتِي إلَىٰ أمورٍ لَا يعلمُهَا إلَّا اللهَ، فيتَّهِمُهُ بأنَّهُ حصَلَ علَىٰ الأموالِ، أَو قَبَضَ المبالغَ الكبيرةَ للتَّحَدُّثِ فِي هذَا الحديثِ أَو ذاكَ.

فأينَ العقولُ؟ وأينَ البصائرُ؟

ولكِن لَا غرابةَ فقَد أُوذِيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأشدَّ مِن ذلكَ فصبرَ، ومَن كانَ علَىٰ طريقتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا بدَّ أَن ينالَهُ نصيبٌ مِن كلامِ هؤلاءِ الخوارجِ.

ومِن صفاتِهِم مَا ذكرَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِن قتالِهِم أهلَ الإسلامِ، ومُسَالَمَةِ أهلِ الأوثانِ، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهُم: «**يقتلونَ أهلَ الإسلامِ ويَدَعُونَ أهلَ الأوثانِ**»،

فتجدُ رجلًا منهُم يعيشُ فِي ديارِ الكفرِ ويمدحُهَا، لأجلِ مَا يحصلُ عليهِ مِن معايشِ الدنيَا وهوَ قَد سُلبَ دينُهُ.

فإذَا بهِ إذَا ذُكِرَت أممُ الكفرِ مجَّدَ ومدحَ وأثنَىٰ، وإذَا ذُكِرَت بلادُ الخيرِ مِن بلادِ التوحيدِ أَوِ البلادِ الَّتِي تظهرُ فيهَا شعائرُ الإسلامِ، فإذَا بهِ يظهرُ كلُّ نقيصةٍ، حتَّىٰ إنَّهُ ليكذبُ ويزوِّرُ الحقَائقَ.

ومِن أعمالِهِم الَّتِي أدَّىٰ إليهَا هذَا الفكرُ المتشددُ: تلكَ التفجيراتُ الَّتِي تحصلُ فِي بلادِ المسلمينَ، فيقومُ بهَا أولئكَ النشءُ الجاهلُ، الَّذِينَ مَا زالُوا يملأُ عقولَهُم أولئكَ المهيجونَ، الَّذِينَ إذَا حدثَت طامَّةٌ قالُوا: لَسنَا منهُم فِي شيءٍ «وهذَا عملٌ نُدِينُهُ»!

وماذَا عَنِ الصوتيَّاتِ الَّتِي مَا زالَت تُغَذِّي الناسَ سنينَ عديدةً بهذَا الفكرِ المتشددِ، فإذَا فعلُوا هذَا الفعلَ قلت: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾(١).

هذهِ الأفكارُ إنَّمَا كانَت مِن أفكارِ أولئكَ الخوارجِ الَّذِينَ لَا زالُوا يبثونَهَا فِي الشبابِ، حتَّىٰ حدثَت عندنَا تلكَ الطوامُّ العظيمةُ، فيأتونَ إلَىٰ بلادِ المسلمينَ فيفجِّرُونَ فيهَا.

وأينَ أنتَ مِن ذلكَ الرجلِ الموحِّدِ الَّذِي قُتِلَ فِي هذَا الانفجارِ، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾(٢)، وكيفَ ستحاجَّ بينَ يدَي اللهِ وأنتَ قتلتَهُ مِن غيرِ ذنبٍ، فماذَا تقولُ؟! وبماذَا تدفعُ؟!

انظرُوا إلَىٰ الجهلةِ ماذَا يتأوَّلُونَ؟

---

(١) سورة النساء:٧٢.

(٢) سورة التكوير:٩.

يقولونَ: إن حدثَ هذَا الانفجارُ وقُتِلَ فيهِ بعضُ المسلمينَ فإنَّهُم سيُبعثُونَ علَىٰ نيَّاتِهِم!

اللهُ أكبرُ! كيفَ يُبعثونَ علَىٰ نيَّاتِهِم؟!

التفجيرُ فِي بلادِ المسلمينَ لَا يجوزُ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، ولَو كانَ المتفجَّرُ فيهِ كافرًا، قَد جاءَ بعهدٍ وأمانٍ مِن حاكمِ المسلمينَ.

وكيفَ يُحَاجُّ ذلكَ المغرورُ، وقَد نشرَ الرعبَ والخوفَ بينَ صفوفِ المسلمينَ، بالقتلِ والتفجيرِ.

أليسَ ذلكَ نوعًا منَ الخيانةِ، واستجلابًا لدُعَاءِ المُسلمينَ عليهِ؟

يُؤتَىٰ إلَىٰ بلدٍ مِن بلادِ الإسلامِ تُقامُ فيهِ الصلاةُ والشعائرُ الإسلاميَّةُ فيُفَجَّرُ فيهِ، لَا شكَّ أنَّ هذَا مِن فعلِ الخوارجِ.

وفِي الجانبِ الآخرِ إذَا تكلَّمَ بعضُهُم يتكلَّمُ وكأنَّهُ إمامُ المسلمينَ؛ سنفعلُ ونفعلُ، ونُفَجِّرُ فِي المكانِ الفلانيِّ!

ومَن أنتَ؟!

والمصيبةُ أنَّهُ لَا يُذكَرُ بالتفجيرِ إلَّا بلادُ المسلمينَ.

ولعلَّهَا ستُظهِرُ الأيامُ أنَّ بعضَ هؤلاءِ مَا كانَ إلَّا آلةً فِي أيدِي الأعداءِ إن لَم يكُن قَد ظهرَ حالُهُ، نسألُ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أَن يُعَجِّلَ بكشفِ سرِّهِم وفضحِهِم.

ومِن صفاتِ هؤلاءِ الَّتِي فارقُوا فيهَا أصحابَهُمُ الماضِينَ: أنَّ الخوارجَ فِي السابقِ وإِن كانُوا أصحابَ باطلٍ إلَّا أنَّهُم كانُوا أصحابَ شجاعةٍ ولَا يكذِبُونَ، فلمَّا وقفَ الخارجيُّ بينَ يدَي الحجَّاجِ -وهوَ صاحبُ باطلٍ- سبَّهُ فِي وجهِهِ، ولكنِ انظرُوا إلَىٰ خوارجِ هذَا الزمانِ.

مئاتُ الصوتيَّاتِ تنضَحُ بالفكرِ الخارجيِّ وتحريضِ الناسِ علَىٰ التخريبِ، فإذَا حدثَتِ الفتنةُ خرجَ فِي القنواتِ الفضائيَّةِ ليُنَدِّدَ بهذِهِ الأفعالِ علَىٰ استحياءٍ.

فمَنِ الَّذِي أوصلَهُم إلَىٰ هذَا؟

ولماذَا لمَّا أعطِيتَ مِنَ الدنيَا، فإذَا بكَ تتنازلُ عمَّا تراه دُيناً؟!

ولماذَا بدأَ بعضُ هؤلاءِ يستعملونَ التَّقِيَّةَ، فإذَا بِهِ يظهرُ لأصحابِهِ بوجهٍ، وإذَا خرجَ إلَىٰ الناسِ -وقَد أُعطِيَ شيئًا منَ الدنيَا- فإذَا بِهِ يتنازلُ عَن مبادئِهِ، ويلبسُ وجهًا آخرَ.

إنَّ المصيبةَ العظمَىٰ والطامَّةَ الكبرَىٰ، أَنْ قُدِّمَ أمثالُ هؤلاءِ لإفتاءِ الناسِ، ولَا يملكونَ علمًا، ولَا زالُوا صغارَ السنِّ والعلمِ، وقَد فتنَتهُمُ القنواتُ الفضائيَّةُ بتسميتِهِم علماءَ، فإذَا بهِم لمَّا رَقَوا جبلًا صعبًا، شقَّ عليهِم نزولُهُ، فراحُوا يتخبطونَ فجاءُوا بالعجائبِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تعظيمًا لشانِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد ذكرَ الإمامُ اللالكائيُّ فِي كتابِهِ السنَّة، أنَّهُ طافَ خارجيانِ بالبيتِ، فقالَ أحدهُمَا لصاحبِهِ: انظُر إلَىٰ هذَا الخلقِ، لَن يدخلَ منهُمُ الجنَّةَ إلَّا أنَا وأنتَ، فقالَ لهُ

صاحبُهُ: جنةٌ عرضُهَا كعرضِ السماءِ والأرضِ بُنِيَت لِي ولكَ؟

قالَ: أجَل. قالَ: هيَ لكَ، وتركَ مَذهَبَهُ.

إنَّ هذِهِ النظرةَ القاتمةَ لَدَىٰ ذلكَ الرجلِ، هيَ عينُهَا الَّتِي ورِثَهَا أصحابُهُ فِي زمنِنَا هذَا، فبدءُوا ينظرونَ إلَىٰ المجتمعِ المسلمِ نظرةً سوداءَ قاتمةً، فمَن كانَ معهُم فهوَ علَىٰ الخيرِ والهدَىٰ، ومَن خالفَ مذهبَهُم فقَد ضلَّ سواءَ السبيلِ.

كمَا أنَّ هذَا الفكرَ المتشددَ قَد جلبَ لهمُ الوسواسَ، وسوءَ الظنِّ بالمسلمينَ واحتقارَهُم، ومعاملَتَهُم بوحشيَّةٍ، وكلُّ ذلكَ إنَّمَا كانَ بسببِ مَا يرونَهُ مِنَ اعتقادِ تكفيرِ مَن لَم يكُن علَىٰ طريقتِهِم.

ومَا تلكَ الأعمالُ التخريبيَّةُ الَّتِي تحصلُ فِي بلادِ المُسلِمِينَ إلَّا بسببِ هذَا المنطلقِ السَّيِّئِ.

وإنَّ ممَّا يُحزِنُ كلَّ مسلمٍ صادقٍ، وتستنكرُهُ الفطرُ السليمةُ، مَا أحدثَهُ أولئكَ المغرورونَ مِنَ التخريبِ فِي بلادِ الحرمينِ، فقتلُوا الأبرياءَ، وشوَّهُوا صورةَ الإسلامِ البيضَاءَ الناصعَةَ.

فمَا ذنبُ طفلٍ يُقتَلُ بلَا سببٍ ولَا جريمةٍ؟ ومَا ذنبُ شعبٍ يُرَوَّعُ بلَا جنايةٍ؟ ومَا هيَ النتيجةُ المرجوَّةُ مِن وراءِ هذَا الفعلِ الدمويِّ؟

والأدهَىٰ مِن ذلكَ: مَا عزمَ عليهِ أهلُ الشرِّ منَ التفجيرِ فِي مكَّةَ المكرمَةِ، قبلةِ المسلمينَ الَّتِي حرَّمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأوجبَ تأمينَ مَن دخلَهَا، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1]، وكانتِ الجاهليَّةُ تعرفُ ذلكَ، فكانَ الرجلُ يَلقَىٰ قاتلَ أبيهِ أَو أخيهِ، فلَا يؤذيهِ بشيءٍ، تعظيمًا لهذِهِ البقعةِ المباركةِ الطاهرةِ.

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

وقَد توعَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن هَمَّ فيهِ بالإلحادِ والظلمِ أَو أرادَهُ بالعذابِ الأليمِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١)، فكيفَ بِمَن فعلَهُ؟

ولمَّا فتحَ اللهُ علَىٰ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّةَ المكرمَةَ، خطبَ الناسَ فقالَ: «**إنَّ هذَا البلدَ حرَّمَهُ اللهُ يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ، فهُوَ حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلَىٰ يومِ القيامةِ، وإنَّهُ لَم يَحِلَّ القتالُ فيهِ لأحدٍ قَبلِي، ولَم يَحِلَّ لِي إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، فهوَ حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلَىٰ يومِ القيامةِ، لَا يعضدُ شوكُهُ، ولَا يُنَفَّرُ صيدُهُ، ولَا يُلتقَطُ لقطتُهُ إلَّا مَن عرَّفَهَا، ولَا يُختَلَىٰ خلاهُ**»(٢).

فإذَا كانَ الصيدُ والشجرُ مُحترَمَينِ فِي هذَا البَلدِ الحَرَامِ، فكيفَ بحالِ المسلمِ الَّذِي هوَ أشدُّ حرمةً عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن بيتِهِ الحرامِ؟!

إنَّ هذهِ الفتنَ لَمِمَّا يُحيِّرُ العقولَ والأفهامَ!

إنَّ مَن لَم يُدرِك فِكرَ هؤلاءِ وأبعادَهُ، يظُنُّ أنَّ فِي الأمرِ مبالغةً، ولكِن مَن عرفَ نظرتَهُم للمسلمينَ، وحقدَهُمُ الدفينَ؛ عَلِمَ أنَّ هذَا ممَّا يمليهِ عليهِم دينُهُم الَّذِي تديَّنُوا بهِ، ألَم يَقُلِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقتلونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثانِ**»؟

والعجبُ ممَّن إذَا سُئِلَ عنهُم فِي القنواتِ الفضائيَّةِ ووسائلِ الإعلامِ، أخذَ يُهَوِّنُ مِن شأنِهِم، ويشرحُ طريقةَ علاجِهِم، ويصوِّرُهُم وكأنَّهُم هُمُ الضحايَا المظلومينَ، وكأنَّهُ يبرِّرُ فعلَهُم، لكِن علَىٰ خجَلٍ ووَجَلٍ.

إنَّ منتهَىٰ الحَسرةِ والغبنِ أَن ترَىٰ شبابًا كانَت تعدُّهُم أمَّتُهُمُ المسلمةُ ليكونُوا لها

---

(١) سورة الحج: ٢٥.

(٢) رواه البخاري (٢٩٥١)، ومسلم (٢٤١٢).

حصنًا وسترًا، فإذَا بِهِم يتحولونَ إلَىٰ خونةٍ، يكشفونَ عورتَهَا، ويفضحونَ أسرارَهَا، مَثلُهُم فِي ذلكَ، مَثَلُ الابنِ العاقِّ الَّذِي مَا زالَت أمُّهُ تغذوهُ وترعاهُ، فلمَّا قويَ عودُهُ، فإذَا بهِ يتَّهِمُهَا بكلِّ ريبةٍ، ويصفُهَا بكلِّ لقبٍ دنيءٍ.

فمتَىٰ يعرفُ أولئكَ أنَّهُم مغرورونَ؟

ألَا يرونَ أنَّ بعضَ هؤلاءِ الَّذِينَ يدفعونَهُم لِبَثِّ الرعبِ فِي بلادِهِم وأمَّتِهِم قَد عاشَ فِي بلادِ الكفرةِ، ودُعِمَ بقناةٍ فضائيَّةٍ، ينشرُ بهَا فكرَهُ، ويطعنُ فيهَا بدينِهِ، وإذَا تكلَّمَ فإذَا بهِ يطالبُ بإعطاءِ الحريَّاتِ الَّتِي تناقضُ الإسلامَ، مِن حريَّةِ الاعتقادِ، وسفورِ المرأةِ واختلاطِهَا السافرِ معَ الرجالِ، وإذَا بهِ ينتقدُ الحكَّامَ لدنيَا وهوَ يلبسُ لباسَ الدينِ زُورًا وبُهتانًا، ولَو تمكَّنَ لَعَلِمنَا علمَ اليقينِ أنَّ الحكَّامَ أشرفُ منهُ وأطهرُ.

وهذَا ليسَ تخمينًا، فمطالبُهُ وهوَ لَا يملكُ شيئًا حَوَتِ الفجورَ كلَّهُ، فكيفَ إذَا تَمَكَّنَ؟!

أَرَىٰ خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ نَار ... فَيُوشِكُ أَن يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودَينِ تُذكَىٰ ... وَإِنَّ الحَربَ أَوَّلُهَا الكَلَامُ
لَئِن لَم يُطفِهَا عُقَلَاءُ قَومٍ ... يَكُونُ وَقُودَهَا جُثَثٌ وَهَامُ
فَقُلتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيتَ شِعرِي ... أَأَيقَاظٌ أُمَيَّةُ أَم نِيَامُ؟!
فَإِن كَانُوا لِحِينِهِمُ نِيَامًا ... فَقُل قُومُوا فَقَد حَانَ القِيَامُ

(٤٧) محنةُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ

الحمدُ للهِ الَّذِي جعلَ فِي كلِّ زمانِ فترةٍ منَ الرُّسلِ بقايَا مِن أهلِ العلمِ، يدعونَ مَن ضلَّ إلَىٰ الهُدَىٰ، ويَصبرُونَ منهُم علَىٰ الأذَىٰ، يُحيونَ بكتابِ اللهِ الموتَىٰ، ويُبصِّرونَ بنورِ اللهِ أهلَ العمَىٰ، فكَم مِن قتيلٍ لإبليسَ قَد أحيوهُ، وكَم مِن ضالٍّ تائهٍ قَد هدوهُ.

وبعدُ:

فإنَّ الحقَّ والباطلَ لَا زالَا فِي صراعٍ منذُ خُلِقَتِ الدنيَا وحتَّىٰ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليهَا، ولَا يزالُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يبتلِي أهلَ الحقِّ بأهلِ الباطلِ لحِكمتِهِ البالغةِ، ليميزَ أهلَ الإيمانِ مِن أهلِ الضلالةِ والبهتانِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(١).

وبينَ ذلكَ يختصُّ اللهُ قومًا يقومونَ بنصرةِ دينِهِ، وإعلاءِ كلمتِهِ، محتسبينَ الأجرَ ومتجرعينَ مرارةَ الصبرِ لينالُوا حلاوةَ العاقبةِ.

وإنَّ مِن أعظمِ الابتلاءِ الَّذِي يقعُ فِي البشريَّةِ: امتحَانَ الناسِ فِي عَقيدتِهِم، والتلبيسَ عليهِم فِي أمرِ دينِهِم، وإرغامَهُم علَىٰ مُخَالفةِ سُنَّةِ خيرِ الوَرَىٰ، والتحيُّزَ للعقائدِ الباطلةِ والآراءِ المُضِلَّةِ، وممَّا يزيدُ الأمرَ شدَّةً إذَا كانَ لأهلِ البدعةِ سُلطَانٌ علَىٰ أهلِ السنَّةِ، فإنَّهُم حينَ ذلكَ لَا يألونَ جهدًا فِي سبيلِ إيذائِهِم بكلِّ طريقةٍ ووسيلةٍ، مصداقًا لقولِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران:١٧٩.

(٢) سورة التوبة:٨.

وذلكَ أنَّ أهلَ الضلالةِ إذَا كانَ لهُم سلطانٌ وقوةٌ، فإنَّهُم لَا يراعونَ لأهلِ السنَّةِ قرابةً ولَا عهدًا، فيتناسونَ ذلكَ فِي سبيلِ إعلاءِ بدعتهِم والانتصارِ لهَا.

هذَا وإنَّ حدوثَ ذلكَ فِي الزمانِ كثيرٌ، فلَا يكادُ يخلُو منهُ زمنٌ، وكلَّمَا قامَ رجلٌ ينصرُ سنَّةَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويدعُو الناسَ إليهَا، تصدَّىٰ لَهُ مِن أهلِ البدعِ مَن يُؤذيهِ وينفِّرُ الناسَ عنهُ.

وقَد حدثَ لأهلِ السنَّةِ فِي أوائلِ التاريخِ الإسلاميِّ بلاءٌ ومحنةٌ، ثبَّتَ اللهُ سبحانَهُ بِهَا مَن شاءَ مِن عبادِهِ، فنصرَ بِهِ السنَّةَ، وأقامَ بهِ الملَّةَ، وأظهرَ بِهِ الحقَّ.

وذلكَ أنَّ المأمونَ -الخليفةَ العباسيَّ- كانَ متأثِّرًا بكتبِ الفلاسفةِ حتَّىٰ ترجمَ منهَا الكثيرَ، وقَد تلوَّثَ فكرُهُ بمَا تتقيَّؤهُ هذهِ الكتبُ منَ العقائدِ المنحرفةِ، وكانَ يريدُ أَن يظهرَ القولَ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ، [والَّذِي عليهِ المسلمونَ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، ومَنِ اعتقدَ غيرَ ذلكَ فإنَّهُ كافرٌ، وذلكَ لأنَّ الهدفَ مِن هذَا القولِ الباطلِ نَفيُ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونفيُ صفةِ الكلامِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واللهُ سبحانَهُ يوصفُ بأنَّهُ يتكلَّمُ كلامًا يليقُ بجلالِهِ].

وكانَ ممَّا يمنعُ المأمونَ مِن إظهارِ هذَا القولِ وحملِ الناسِ عليهِ، مهابَتُهُ للإمامِ يَزيدَ بنِ هَارُونَ، مخَافةَ أَن يُنكِرَ عليهِ فتحدثَ الفِتنةُ، فكانَ يقولُ: «لولَا مكانةُ يزيدَ بنِ هارونَ لأظهرتُ أنَّ القُرآنَ مَخلُوقٌ».

فلمَّا كانَ عامُ مائتينِ وأربعةَ عشَرَ للهجرةِ، حملَ المأمونُ الناسَ علَىٰ الفتنةِ، وأظهرَ ذلكَ القولَ الباطلَ، وامتحنَ بِهِ أهلَ العلمِ، فمنهُم مَن خافَ السيفَ وتأوَّلَ بينَ يدَيِ المأمونِ ظاهرًا مكرهًا، ومنهُم مَن ثبتَ علَىٰ الحقِّ ظاهرًا وباطنًا، ولَم يُجبِ الخليفةَ إلَىٰ مَا دعَا إليهِ.

وكانَ ممَّن ردَّ هذهِ المَقَالةَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ -إمامُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ- ومحمَّدُ بنُ نوحٍ، فحُبسَا وقُيِّدا، وكتبَ المأمونُ إِلَىٰ عاملِهِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ يأمرُهُ بإحضارِهِمَا إليهِ علَىٰ الثغرِ بطَرطُوسَ، فحُمِلَا متعادلَينِ.

فلمَّا نزلَا الرحبةَ جاءَ رجلٌ فقالَ: أيُّكُمَا أحمدُ بنُ حنبلٍ؟ فقيلَ: هذَا، فسلَّمَ، ثمَّ قالَ: يَا هذَا، مَا عليكَ أَن تُقتَلَ هاهنَا، وتَدخُلَ الجنَّةَ هاهنَا، ثُمَّ سلَّمَ وانصرفَ.

فقالَ أحمدُ: مَن هذَا؟ قيلَ: رجلٌ مِنَ العربِ -مِن ربيعةَ- يعملُ الشعرَ فِي الباديةِ يقالُ لهُ: جابرُ بنُ عامرٍ.

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا رأيتُ أحدًا علَىٰ حداثةِ سنِّهِ أَقوَمَ بأمرِ اللهِ مِن محمَّدِ بنِ نوحٍ، وإنِّي لأرجُو أَن يكونَ قَد خُتِمَ لَهُ بخيرٍ، قالَ لِي ذاتَ مرَّةٍ وأنَا جالسٌ معَهُ: يَا أبَا عبدِ اللهِ، اللهَ اللهَ، إنَّكَ لستَ مثلِي ولستُ مثلَكَ، وإنِ اللهُ ابتلانِي فأجبتُ، فلَا يُقَاسُ بِي، فإنَّكَ لستَ مثلِي ولستُ مثلَكَ، إنَّكَ رجلٌ يُقتدَىٰ بكَ، وقَد مَدَّ الخلقُ أعناقَهُم إليكَ لِمَا يكونُ منكَ، فاتَّقِ اللهَ واثبُت لأمرِ اللهِ، فتعجَّبتُ مِن تقويتِهِ وموعظتِهِ إيايَ، قالَ أحمدُ: وانظُر بمَا خُتِمَ لَهُ.

ولمَّا كانُوا ببعضِ الطَّريقِ جاءَهُم أعرابيٌّ، يقولُ الإمامُ أحمدُ عنهُ: مَا سمعتُ كلمةً كانَت أوقعَ فِي قلبِي مِن كلمةٍ سمعتُهَا مِن أعرابيٍّ فِي رحبةِ طوقٍ، قالَ لِي: يَا أحمدُ، إِن قَتَلَكَ الحقُّ مِتَّ شهيدًا، وإِن عشتَ عشتَ حميدًا.

قالَ أبُو حاتمٍ: فكانَ كمَا قالَ، لقَد رفعَ اللهُ شأنَ أحمدَ بعدَمَا امتُحِنَ، وعَظُمَ عندَ الناسِ وارتفعَ أمرُهُ جدًّا.

قالَ أحمدُ: لمَّا خرجنَا جعلتُ أفكِّرُ فيمَا نحنُ فيهِ، حتَّىٰ إذَا صرنَا إِلَىٰ الرحبةِ أُنزلنَا خارجًا منَ البيوتِ ممَّا يلِي البرِّيَّةَ، فعامَّةُ مَن كانَ معنَا نامُوا فجعلتُ أفكِّرُ فِي

تلكَ البريَّةِ، وماذَا أقولُ إذَا صرتُ إِلَىٰ ذلكَ، فأنَا علَىٰ تلكَ الحالِ إِذ مَددتُ بصرِي فإذَا بشيءٍ لَم أستبِنْهُ، فلَم يزَل يدنُو حتَّىٰ استبانَ، فإذَا بأعرابيٍّ عليهِ ثيابُ الأعرابِ، قَد دنَا وجعلَ يتخطَّىٰ حتَّىٰ صارَ إليَّ، فوقفَ عليَّ ثمَّ سلَّمَ، ثمَّ قالَ: أنتَ أحمدُ بنُ حنبلٍ؟ قلتُ: نَعَم، فقالَ: أبشِر واصبِر فإنَّمَا هيَ ضربةٌ هاهُنَا، وتدخلُ الجنةَ هاهُنَا.

يَا أحمدُ: تحبُّ اللهَ، قلتُ: نعَم، قالَ: فإنَّكَ إِن أحببتَ اللهَ أحببتَ لقاءَهُ.

قالَ أحمدُ: فلمَّا ضُرِبتُ بالسياطِ جعلتُ أذكرُ كلامَ الأعرابيِّ.

قالَ أبُو جعفرٍ الأنباريُّ: لمَّا حُمِلَ أحمدُ بنُ حنبلٍ إِلَىٰ المأمونِ اجتزتُ فعبرتُ الفرَاتَ، فإذَا هوَ جالسٌ فِي الخانِ، فسلَّمتُ عليه، فقالَ: يَا أبَا جعفرٍ، تعنَّيتُ، قلتُ: ليسَ فِي هذَا عناءٌ، فقلتُ لهُ: يَا هذَا، أنتَ اليومَ رأسٌ، والناسُ يقتدونَ بكَ، فواللهِ لَئِن أجبتَ إِلَىٰ القولِ بخلقِ القرآنِ ليُجيبنَّ بإجابَتِكَ خلقٌ مِن خلقِ اللهِ، وإِن أنتَ لَم تُجِب ليمتنعنَّ خلقٌ منَ الناسِ كثيرٌ، ومعَ هذَا إنَّ الرجلَ إنْ لَم يقتُلك فأنتَ تموتُ ولا بدَّ منَ الموتِ، فاتَّقِ اللهَ ولَا تُجِبهُم إِلَىٰ شيءٍ، فجعلَ أحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ، مَا شاءَ اللهُ، يَا أبَا جعفر، أَعِد عليَّ مَا قُلتَ، فأَعَدتُ عليهِ، فقالَ: مَا شاءَ اللهُ، مَا شاءَ اللهُ.

فحُمِلَ أحمدُ ومحمدُ بنُ نوحٍ إِلَىٰ المأمونِ فِي طَرطُوسَ وكانَ مقيَّدًا، وكانَ يُصَلِّي فِي قيدِهِ.

فلمَّا وصلَا إِلَىٰ المأمونِ أجلسَ فِي خيمةٍ، قالَ أحمدُ: وقَد كنتُ أدعُو اللهَ أَلَّا يُرِيَنِي وجهَهُ، وذلكَ أنَّهُ بلغنِي أنَّهُ يقولُ: لَئِن وقعَت عينِي عليهِ لأقطِّعنَّهُ إِرْبًا إِرْبًا.

فخرجَ خادمٌ وهوَ يمسحُ دموعَهُ عَن وجهِهِ بِكُمِّهِ وهوَ يقولُ: عزَّ عليَّ يَا أبَا عبدِ اللهِ أَن جرَّدَ أميرُ المؤمنينَ سيفًا لَم يجرِّدهُ قطُّ، وبسَطَ نطعًا لَم يبسُطهُ قطُّ، وقالَ: لَا دفَعْتُ عَن أحمدَ وصاحِبِهُ حتَّىٰ يقولَا: القرآنُ مخلوقٌ.

فبركَ أحمدُ علَىٰ ركبتَيهِ ولحظَ إلَىٰ السماءِ بعينيهِ، ثمَّ قالَ: سيِّدِي، غَرَّ هذَا الفاجرَ حلمُكَ، حتَّىٰ تجرَّأَ علَىٰ أوليائِكَ بالضربِ والقتلِ، اللهمَّ فإِن يَكُنْ القرآنُ كلامُكَ غيرَ مخلوقٍ فاكفِنَا مؤنَتَهُ، فمَا مضَىٰ الثلثُ الأوَّلُ منَ الليلِ إلَّا وقَد جاءَ الصريخُ: لقَد ماتَ أميرُ المؤمنينَ، وذلكَ فِي عامِ مِائَتينِ وثمانيةَ عشَرَ.

ثمَّ تولَّىٰ بعدَهُ المعتصمُ، وقَدِ اتَّخَذَ المعتصمُ لَهُ مستشارًا مبتدعًا يُسَمَّىٰ أحمدَ بنَ أَبِي دُؤَادٍ، فسَمَّم أفكارَهُ، ولَم يزَل بتحريضِهِ علَىٰ أهلِ السُّنَّةِ.

وكَم هوَ مُهلِكٌ أَن يتَّخِذَ الوالِي وزيرًا مبتدعًا يُفسِدُ دينَهُ ودُنياهُ.

وحُمِلَ بعدَ ذلكَ أحمدُ ومُحمدُ بنُ نوحٍ إلَىٰ بغدادٍ بمشورةِ ابنِ أَبِي دؤادٍ علَىٰ المعتصمِ، فلمَّا بلغَا بعضَ الطريقِ تُوُفِّيَ محمدُ بنُ نوحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قالَ أحمدُ: «تعجَّبتُ مِن تقويتِهِ وموعظتِهِ إيايَ، وانظُر بمَا خُتِمَ لَهُ بهِ، فلَم يزَل كذلكَ حتَّىٰ مَرِضَ فِي بعضِ الطريقِ ثمَّ ماتَ، فصليتُ عليهِ ودفنتُهُ».

فبقِيَ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحيدًا فِي مواجَهَةِ الابتِلاءِ والفِتنةِ.

قالَ بِشرُ بنُ الحَارِثِ: «محنةُ أحمدَ فِي وحدتِهِ، وغربتُهِ فِي وقتِهِ، مثلُ محنةِ أَبِي بكرٍ الصديقِ فِي وحدتِهِ، وغربتِهِ فِي وقتِهِ».

واستمرَّت محنةُ الإمامِ أحمدَ فِي وقتِ المعتصمِ، قالَ أَبُو مَعمَرٍ: كنَّا أحضرنَا فِي دارِ السلطانِ أيامِ المحنةِ، وكانَ أَبُو عبدِ اللهِ قَد أُحضِرَ، والناسُ يجيبونَ، وكانَ أَبُو عبدِ اللهِ رجلًا لينًا، فلمَّا رأَىٰ الناسَ يجيبونَ انتفخَت أوداجُهُ، واحمرَّت عيناهُ، وذهبَ ذلكَ اللينُ الَّذِي معَهُ، وعلمتُ أنَّهُ غضبَ غضبًا للهِ.

قالَ أحمدُ: لمَّا قدمتُ علَىٰ المعتصمِ، قالَ لِي: ادنُه، ادنُه.

فقلتُ: أتأذنُ لِي؟ فتكلَّمتُ، فقالَ: ويحَكَ لولَا أنَّني وجدتُكَ فِي يدِ مَن كانَ قبلِي

مَا عَرَضتُ لكَ، ويحكَ يَا أحمدُ، أجبنِي إلَىٰ شيءٍ فيهِ أدنَىٰ فرجٍ حتَّىٰ أطلقَ عنكَ، وأركَبَ إليكَ بخيلِي، فقلتُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، أعطنِي شيئًا مِن كتابِ اللهِ أَو سنَّةِ رسولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ أقولَ بهِ.

فيقولُ المعتصمُ: ناظِروهُ، كلِّموهُ، فيتكلمونَ فيحجُّهُم أحمدُ، فيقولُ ابنُ أَبِي دُؤَادٍ: هوَ واللهِ يَا أميرَ المؤمنينَ ضالٌّ مبتدعٌ، وهؤلاءِ قضاتُكَ والفقهاءُ فسَلْهُم.

وهذهِ حجَّةُ المبتدعةُ فِي كلِّ زمنٍ، إذَا عجزُوا عنِ الردِّ العلميِّ علَىٰ أهلِ السنَّةِ عادُوا عليهِم بالسبِّ والتضليلِ والتكفيرِ ولمزِهِم بالألقابِ.

قالَ أحمدُ: فلَا يزالونَ يتكلمونَ، ويعلُو صوتِي علَىٰ أصواتِهِم حتَّىٰ ينقطعُوا.

فقالَ المعتصمُ: يَا أحمدُ، أتعرفُ صالحًا الرشيديَّ؟! كانَ مؤدِّبي وكانَ فِي هذَا الموضعِ -وأشارَ إلَىٰ ناحيةٍ منَ الدارِ- فتكلَّمَ وذكرَ القرآنَ فخالفَنِي فأمرتُ بهِ فسُحِبَ ووطِئَ.

وكانَ المعتصمُ يقولُ: واللهِ إنَّهُ لفقيهٌ، وواللهِ إنَّهُ لعالمٌ، ويسرُّنِي أَن يكونَ مثلُهُ معِي، يردُّ عنِّي أهلَ المِلَلِ، ولئِن أجابَنِي إلَىٰ شيءٍ فيهِ أدنَىٰ فرجٍ لأطلقنَّ عنهُ بيدَيَّ، ولأطأنَّ عقبَهُ، ولأركبنَّ إليهِ بجندِي، ثمَّ يلتفتُ إلَىٰ أحمدَ ويقولُ: ويحكَ يَا أحمدُ مَا تقولُ؟

فأقولُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، أعطونِي شيئًا مِن كتابِ اللهِ أَو سُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ يقولُ: يَا أحمدُ، إنِّي عليكَ لشفيقٌ.

فلمَّا ضجرَ المعتصمُ مِن أحمدَ أمرَ بجلدِهِ بالسياطِ.

قالَ أحمدُ: فِي اليومِ الَّذِي خرجتُ فيهِ للسياطِ ومُدَّت يدايَ للعقابينَ، إذَا أنَا بإنسانٍ يجذبُ ثوبِي مِن ورائِي، ويقولُ: تعرفُنِي؟ قلتُ: لَا، قالَ: أنَا أَبُو الهيثمِ العيارُ،

اللصُّ الطرارُ، مكتوبٌ فِي ديوانِ أميرِ المؤمنينَ أنِّي ضُرِبتُ ثمانيةَ عشرَ ألفَ سوطٍ بالتفاريقِ، وصبرتُ علَىٰ ذلكَ فِي طاعةِ الشيطانِ لأجلِ الدنيَا، فاصبِر أنتَ فِي طاعةِ الرحمنِ لأجلِ الدينِ.

فكانَ الإمامُ أحمدُ دائمًا يقولُ: رحمَ اللهُ أبَا الهيثمِ، غفرَ اللهُ لأبِي الهيثمِ، عفَا اللهُ عَن أبِي الهيثمِ.

وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ أهلَ المعاصِي خيرٌ مِن أهلِ البِدَعِ، وأقربُ إلَىٰ الخيرِ منهُم، فإنَّ العاصِي إذَا عصَىٰ استغفرَ، وأمَّا المبتدعُ فيرَىٰ بدعتَهُ دينًا، ولَا يزالُ فِي ضلالٍ وعمايةٍ ومحاربةٍ لأهلِ السنَّةِ لأنَّهُ يرَىٰ أنَّهُم يصدُّونَهُ عمَّا يراهُ دينًا فلَا يزالُ فِي حربِهِم وعدائِهِم، وكلَّمَا ازدادَ فِي بدعتِهِ ازدادَ فِي حقدِهِ، فكيفَ يوفَّقُ للتوبةِ؟!

ولذَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «البِدعَةُ أحبُّ إلَىٰ إبليسَ منَ المعصيةِ، فإنَّ المعصيةَ يُتابُ منهَا، والبدعةُ لَا يُتابُ منهَا».

ثمَّ قُدِّمَ الإمامُ أحمدُ للجلدِ فِي حَضرَةِ المُعتَصِمِ، فكانَ يقولُ للجلَّادينَ: تقدَّمُوا.

قالَ أحمدُ: فكانَ الجلَّادُ يتقدَّمُ فيَضربُنِي سَوطَينِ ويتنَحَّىٰ، وهوَ فِي خِلالِ ذلكَ يقولُ: شدَّ، قطعَ اللهُ يدكَ، حتَّىٰ سقطَ أحمدُ مغشيًّا عليهِ.

قالَ بعضُ الجلَّادينَ: ضربتُهُ ضربًا لَو كانَ بِجَمَلٍ لسقطَ مغشيًّا عليهِ.

فلمَّا أفاقَ ممَّا غشاهُ مِن جَلدِ السياطِ، تخلَّعَت يداهُ، وقُطِعَ اللحمُ الميِّتُ مِن ظهرهِ، وكُسِرَت لهُ أضلعٌ فلمَّا سحبَهَا الطبيبُ المعالِجُ غُشِيَ عليهِ منَ الألمِ.

وممَّا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ أهلَ البِدَعِ والأهواءِ إذَا نالُوا سلطةً وقربًا منَ الحاكمِ فإنَّهُم أعتَىٰ الناسِ وأظلَمَهِم، وَلَا يزالونَ يحرِّضُونَ المسئولينَ علَىٰ أهلِ الحقِّ، ويشوِّهونَ صورتَهُم، ويَشونَ بِهِم، قولُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيتُ المعتصمَ فِي الشمسِ

قاعدًا بغيرِ ظلَّةٍ، فربمَا لَم أعقِل وربَّمَا عَقلتُ، إذَا أعادَ الضربَ ذهبَ عقلِي فلَا أدرِي فيُرفعُ عنِّي الضربُ، فسمعتُهُ يقولُ لابنِ أَبِي دؤادٍ: لقَدِ ارتكبتُ إثمًا فِي حقِّ هذَا الرجُلِ.

فيقولُ ابنُ أَبِي دؤادٍ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّهُ واللهِ كافرٌ مشركٌ، وقَد أشركَ مِن غيرِ وجهٍ، فلَا يزالُ بهِ حتَّىٰ يصرفَهُ عمَّا يُريدُ، وقَد كانَ أرادَ تخلِيَتِي بغيرِ ضربٍ فلَم يَدَعهُ، وعزمَ حينئذٍ علَىٰ ضَربِي».

وهذَا ممَّا يدلُّ علَىٰ أنَّ الحاكمَ وإِن كانَ لَهُ معاصٍ فهوَ أرحمُ بأهلِ السنَّةِ مِن أهلِ البدعِ، وأنَّهُ لَا يحاربُهُم لدِينِهِم، وأمَّا صاحبُ البدعةِ فلَا يزالُ يحاربُ أهلَ السنَّةِ بكلِّ سبيلٍ، ظلمًا وكذبًا وعدوانًا، ويتَّسِعُ أُفُقُهُ لحوارِ العلمانيِّ والزنديقِ، ولَا يرضَىٰ بنصحِ السنيِّ للمسلمينَ، لأنَّهُ يبيِّنُ طريقتَهُ الخارجةَ عَن منهجِ السلفِ، فليتَ أهلَ البدعةِ يعاملونَ أهلَ السنَّةِ بنفسِ المِيزانِ الَّذِي يُعَامِلُونَ بهِ أعداءَ اللهِ ورسولِهِ منَ العلمانيِّينَ والمنافقينَ، ولَا يذهبونَ للتدقيقِ بألفاظِ أهلِ السنَّةِ لعلَّهُم يظفرونَ بشيءٍ يتعلَّقُونَ بهِ.

وأينَ يذهبُ أناسٌ مِن أهلِ البدعِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهُم يدَّعونَ الإنصافَ، وأنهُ لا بدَّ مِن ذكرِ الحسناتِ والسيئاتِ، وهُم يريدونَ أَن يكتمُوا صوتَ السنيِّ حتَّىٰ لَو تكلَّمَ بأمورِ الفقهِ والأخلاقِ، وتصحيحِ سلوكِ الناسِ لأنَّهُ لَا ينتمِي لمشربِهِم وحزبِهِم.

أَحَـرَامٌ عَلَـىٰ بلابلِـهِ الـدوحُ ... حَـلَالٌ لِلطَّيـرِ مِـن كُـلِّ جِـنسِ

فلَا ننظرُ للحكَّامِ دائمًا مِن بابِ سوءِ الظنِّ؛ لأنَّ هؤلاءِ وإِن كانَ عندَهُم شيءٌ مِنَ المعاصِي، فإنَّهُم لَا يحاربونَكَ فِي دينِكَ، ولَا يفتنونَكَ فِي عقيدتِكَ، ولَا يريدونَ كتمَ صوتِكَ إِن كُنتَ رجلًا سُنيًّا عاقلًا تُعَلِّمُ الناسَ دونَ فتنٍ، بَل ولعلَّهُ فِي الغالبِ إنْ حصلَت فتنةٌ لصاحبِ سنَّةٍ فِي دينهِ مِن حاكمٍ أَو مسئولٍ فلا بدَّ أَن يكونَ وراءَهَا صاحبُ بدعةٍ يُظهِرُ الزهدَ والتخشُّعَ والنصحَ، وقارنُوا بينَ موقفِ ابنِ أَبِي دؤادٍ

المبتدعِ، وأَبِي الهيثَمَ اللصِّ العاصِي، كيفَ كانَ ابنُ أَبِي دؤادٍ عدوًّا للهِ ورسولِهِ، قاسيًا علَىٰ أهلِ الحقِّ، وكيفَ كانَ ذلكَ اللصُّ مُوَفَّقًا لقولِ الحقِّ رحيمًا بأهلِ السنَّةِ؛ لأَنَّهُ علَىٰ الفطرةِ، حتَّىٰ إنَّ إمامَ أهلِ السنَّةِ يدعُو لَهُ.

قالَ أحمدُ: أمرَ المعتصمُ بإطلاقِي فلَم أعلَم حتَّىٰ أُخرِجَ القيدُ مِن رجلَيَّ، وقالَ لهُ ابنُ أَبِي دؤادٍ بعدمَا ضُرِبتُ وأمرَ بتخليتِي: يَا أميرَ المؤمنينَ، احبسهُ فإِنَّهُ فتنةٌ، يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّهُ ضالٌّ مبتدعٌ وإِن خلَّيتَهُ فَتَنْتَ بهِ الناسُ، وقالَ غيرهُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، دمُهُ فِي عنقِي.

فقالَ: أطلقوهُ، وقامَ فدخلَ، فحينئذٍ عَقَلتُ بالقيدِ وقَد نُزِعَ مِن رجلَيَّ.

وجاءَ أَنَّ أحمدَ قالَ: لِي ولَهُم موقفٌ بينَ يدَيِ اللهِ تعالَىٰ، وكتبَ بهَا إِلَىٰ المعتصمِ، فقالَ: يُخلَّىٰ سبيلُهُ الساعةَ.

وقالَ المعتصمُ لابنِ أَبِي دؤادٍ وأصحابِهِ: ليسَ هذَا كمَا وصفتُم لِي، وذلكَ أَنَّهُم وضعُوا مِن قَدرِهِ عندَهُ، ونالُوا منهُ وصغَّرُوهُ عندَهُ، فلمَّا شاهدَهُ ورأَىٰ مَا عندَهُ عرَفَ فضلَهُ.

قالَ أحمدُ: لولَا الخبيثُ ابنُ أَبِي دؤادٍ، كانَ أَبُو إسحَاقَ المعتصمُ قَد خلَّانِي، ولكِن هوَ وإسحاقُ بنُ إبراهيمَ قالَا لهُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، ليسَ مِن تدبيرِ الخلافةِ أَن تخالفَ مَن قبلَكَ وتخَلِّي سبيلَهُ، ولولَا ذلكَ كانَ أَبُو إسحاقَ المعتصمُ قَد أرادَ تخليتِي قبلَ الضربِ، وقَد أرادَ ابنُ أَبِي دؤادٍ أَن يحبسنِي بعدَ الضربِ، فقالَ أَبُو إسحاقَ المعتصمُ: يُخلَّىٰ، فعاوَدَهُ، فغَضِبَ وقالَ: يُخلَّىٰ عنهُ، فلَم أعلَم إِلَّا بالقيدِ وقَد نُزِعَ منِّي.

وقَد قِيلَ: إنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ جَعلَ المعتصمَ فِي حِلٍّ يومَ فَتَحَ عاصمةَ بابكَ وظفرَ

بِهِ، أَو فِي فتحِ عموريَّةَ، فقالَ: هوَ فِي حلٍّ مِن ضَربِي، وقالَ: قَد جعلتُهُ فِي حِلٍّ إلَّا ابنَ أَبِي دؤادٍ ومَن كانَ مثلَهُ، فإنِّي لَا أجعلُهُ فِي حِلٍّ، فتأمَّلُوا.

ولمَّا ولِيَ الواثقُ عامَ مائتينِ وتسعةٍ وعشرينَ، حسَّنَ لهُ ابنُ أَبِي دؤادٍ امتحانَ الناسِ بخلقِ القرآنِ ففعلَ ذلكَ، ولَم يعرض لأحمدَ بنِ حَنبلٍ لِمَا عُلِمَ مِن صبرِهِ، وخافَ مِن تأثيرِ عقوبتِهِ، لكنَّهُ أرسلَ إليهِ ألَّا تساكِنَنِي بأرضٍ، فاختفَىٰ بقيَّةَ حياةِ الواثقِ، فمَا زالَ ينتَقِلُ فِي الأماكنِ، ثمَّ عادَ إلَىٰ منزلِهِ بعدَ أشهرٍ، فاختفَىٰ فيهِ إلَىٰ أن ماتَ الواثقُ.

وفِي عامِ مائتينِ واثنينِ وثلاثينَ تولَّىٰ المتوكلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنصرَ اللهُ بهِ الدينَ، وأقامَ بهِ السنَّةَ، وأظهرَ عقيدةَ السلفِ أهلِ السنَّةِ ودعَا إليهَا، بعدَ ابتلاءِ أهلهَا وفتنتِهِم وامتحانِهِم علَىٰ عهدِ ثلاثةٍ مِنَ الخلفاءِ قبلَهُ.

قالَ أحمدُ بنُ هلالٍ القاضِي: «رأيتُ المتوكلَ بعدَ موتِهِ فإذَا عليهِ ثيابٌ بيضٌ، فقلتُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، مَا فعلَ اللهُ بكَ؟

فقالَ: غفرَ لِي بثلاثٍ: بإظهارِي للسنَّةِ، وبنيانِي مسجدَ الجامعِ، وقُتِلتُ مظلومًا».

وفِي عامِ مائتينِ وأربعٍ وثلاثينَ جمعَ المتوكلُ الفقهاءَ والمحدثينَ وأجرَىٰ عليهِمُ المالَ، وأمَرَهُم أَن يُحَدِّثُوا الناسَ بالأحاديثِ الَّتِي فيهَا الردُّ علَىٰ الجهميَّةِ والمعتزلةِ.

وقَد ذُكِرَ عندَ المتوكلِ أنَّ أصحابَ أحمدَ يجرِي بينَهُم وبينَ أهلِ البدعِ الشرُّ، فقالَ المتوكلُ لصاحبِ الخبرِ: «لَا ترفعْ إليَّ مِن أخبارِهِم شيئًا، وشُدَّ علَىٰ أيدِيهِم، فإنَّ صاحبَهُم مِن سادَةِ أمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَد عرفَ اللهُ لأحمدَ صبرَهُ وبلاءَهُ، ورفَعَ عِلمَهُ أيامَ حياتِهِ وبعدَ موتِهِ، وأصحابُه أجلُّ الأصحابِ، فأنَا أظنُّ أَنَّ اللهَ يعطِي أحمدَ ثوابَ الصدِّيقينَ».

ومعَ نصرةِ المتوكلِ للسنَّةِ فإنَّ الإمامَ أحمدَ لَم يرهُ ولَم يقبَل منهُ مالًا وَلَا عطاءً،

وقَد وجَّهَ لَهُ المتوكلُ بمالٍ، فبكَىٰ أحمدُ وقالَ: سَلِمتُ مِن هؤلاءِ حتَّىٰ إذَا كانَ آخرُ عمرِي بُلِيتُ بِهِم؟!

وكانَ يدعُو رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَا يرَىٰ المتوكلَ، ولمَّا أُخبِرَ بمحبةِ أميرِ المؤمنينَ لَهُ، وشوقِهِ إليهِ كانَ يعدُّ ذلكَ فتنةً، ويقولُ: واللهِ لَقَد تمنَّيتُ الموتَ فِي الأمرِ الَّذِي كانَ -أي: الفِتنةِ- وإنِّي لأتمنَّىٰ الموتَ فِي هذَا، وذاكَ أَنَّ هذهِ فتنةُ الدنيَا، وكانَ ذلكَ فتنةَ الدينِ، ثمَّ جعلَ يضمُّ أصابعَهُ ويقولُ: لَو كانَت نفسِي فِي يديَّ لأرسلتُهَا، ثمَّ يفتحُ أصابعَهُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقِينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظَّالِمِينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ أجمَعينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا ينبغِي أن يقومَ بِهِ مَن دَانَ بسُنَّةِ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزعمَ أنَّهُ علَىٰ الاتباعِ، ألَّا يخذلهَا حيثُ تحتاجُ إلَىٰ النصرةِ والبيانِ، وتوضيحِهَا للمسلمينَ، ويتأولَ فِي ذلكَ التأويلاتِ الخاطئةَ، مخافةَ تهويشِ مبتدعٍ، وإرجافِ زائغٍ، وليتذَكَّرْ قولَ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناسِ أَن يقولَ بحقٍّ إذَا علمَهُ أَو شهدَهُ أَو سمعَهُ**»[1].

ولذَا فقَد كانَ الإمامُ أحمدُ إذَا ذَكَرَ العلماءَ الَّذِينَ أجابُوا المأمونَ خوفًا مِن بطشِهِ

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٨).

يقولُ: هؤلاءِ لَو كانُوا صبرُوا وقامُوا للهِ لكانَ الأمرُ قَدِ انقطعَ، وحَذِرَهُمُ الرجُلُ -يعنِي: المأمونَ-، ولكنَّهُم لمَّا أجابُوا وهُم عينُ البَلَدِ اجترأَ علَىٰ غيرِهِم.

وكانَ إذَا ذكرَهُم اغتمَّ لذلكَ، وقالَ: هُم أوَّلُ مَن ثَلَمَ هذهِ الثلمَةَ وأفسدَ هذَا الأمرَ.

وقَد جاءَ الإمامُ يحيَىٰ بنُ معينٍ -وكانَ ممَّن أجابَ فِي الفتنةِ متأوِّلًا- فدخلَ علَىٰ أحمدَ وهوَ مريضٌ فسلَّمَ عليهِ، فلَم يردَّ عليهِ السلامَ، وكانَ أحمدُ قَد حلفَ ألَّا يكلِّمَ أحدًا ممَّن أجابَ حتَّىٰ يلقَىٰ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فمَا زالَ يعتذرُ فلَم يَقبَلْ منهُ شيئًا.

فالسنَّةَ.. السنَّةَ يَا أهلَ السنَّةِ -تمسُّكًا وعلمًا وعملًا ودعوةً- فهيَ الرصيدُ الباقِي، وأعظمُ مَا يُقَرِّبُكُم منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كيفَ لَا؟ وهيَ الحميَّةُ لدينِ خيرِ الورَىٰ محمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ولَا يتهاونُ المرءُ عَن نصرةِ السنَّةِ خوفًا مِن عداءٍ، أَو مجاملةً لعدوٍّ، وليعلَمْ أنَّهُ كلَّمَا كانَ بدينِ اللهِ أقومَ؛ كانَتِ الحربُ عليهِ أشدَّ وأشنعَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾(١).

وكلُّ مَن كانَ علَىٰ طريقةِ الأنبياءِ الواضحةِ الناصعةِ، ودعَا إليهَا، لا بدَّ وأَن يكونَ لَهُ أعداءٌ منَ المجرمينَ، ولكنَّ اللهَ تكفَّلَ بهدايةِ مَن دعَا إِلَىٰ سبيلِهِم ونصرِهِ.

ومَن كانَ اللهُ معَهُ فمِمَّن يخافُ ومَن يرهَبُ، والقلوبُ بينَ أصابعِهِ يُقَلِّبُهَا كيفَ يشاءُ، ومَقاليدُ الأمورِ فِي يدِهِ يُصرِّفُهَا كيفَ يشاءُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(٢).

كَفكِـف دُمُـوعَكَ فَالطَّـرِيقُ طَـوِيلَ ... لَا تَتـرُكِ الدَّمـعَ العَزِيـزَ يَـسِيلُ

(١) سورة الفرقان:٣١.

(٢) سورة الزمر:٣٦.

فِـي أَوَّلِ الـدَّربِ الطَّـوِيلِ تَحَـسُّرٌ	مَــاذَا عَــسَاكَ إِنِ ابتُلِــيتَ تَقُــولُ؟
يَــا أَيُّهَــا الــسُّنِّيُّ لَا تَجــزَع إِذَا	شَــحَّ الوُجُــودُ وَهَاجَمَــتكَ فُلُــولُ
وَاعلَــم بِــأَنَّ اللَّــهَ نَاصِــرُ عَــبدِهِ	وَلَــهُ مَقَالِــيدُ الأُمُــورِ تَــئُولُ

اللهمَّ اغفِر لنَا وارحَمنَا، وتوفَّنَا وأنتَ رَاضٍ عنَّا، وجنِّبنَا الفتنَ مَا ظَهرَ منهَا ومَا بطنَ.

(٤٨) أحكامُ الْمَسحِ علَى الخفينِ

الحَمدُ للهِ مُعِزِّ مَن أطَاعَهُ واتَّقَاهُ، ومُذِلِّ مَن أضاعَ أمرَهُ وعصَاهُ، الَّذِي وَفَّقَ أهلَ طاعتِهِ للعملِ بمَا يرضاهُ، وحقَّقَ علَىٰ أهلِ مَعصيتِهِ مَا قدَّرَهُ عليهِم وقضَاهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَا ربَّ لنَا سواهُ ولَا نعبدُ إلَّا إياهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ ومَنِ اهتدَىٰ بهُدَاهُ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ منَ الواجبِ علينَا كمُسلمينَ أَنْ نحمدَ اللهَ تعالَىٰ علَىٰ مَا امتنَّ بهِ علَىٰ هذهِ الأمةِ مِن تيسيرِ الشريعةِ واختصاصِهَا بذلكَ مِن بينِ الشرائعِ والأممِ بكونهَا سمحةً مُيَسَّرةً، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ**﴾[1]، وقالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**بُعثتُ بالحنيفيَّةِ السمحةِ**»[2].

وممَّا خصَّ اللهُ سبحانَهُ بهِ هذهِ الأمَّةَ منَ التيسيرِ: أَن شرَعَ لَهُمُ المسحَ علَىٰ الخُفَّينِ لحاجةِ الناسِ لهذهِ العبادةِ لَا سيَّمَا فِي حالِ البَردِ، فشرعَ لهُم سبحانَهُ مَا يُناسِبُ ضعفَهُم وفقرَهُم إليهِ، فنَحمدُ اللهَ علَىٰ فضلِهِ وتيسيرِهِ.

والمَسحُ علَىٰ الخُفَّينِ زيَادَةً علَىٰ أنَّهُ رُخصَةٌ منَ اللهِ، فهوَ عبادةٌ مشروعَةٌ وسُنَّةٌ مورُوثةٌ عَن خيرِ الورَىٰ وإمامِ الهدَىٰ محمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فينبغِي للعبدِ معَ أخذهِ بهذهِ الرخصَةِ المُهدَاةِ إليهِ، أَن يستشعِرَ كونَهَا عبادةً يُتقرَّبُ بهَا إلَىٰ اللهِ تعالَىٰ، مُتَّبعًا

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

بذلكَ سُنَّةَ نبيِّهِ ومَتبُوعهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وجوازُ المَسحِ علَىٰ الخُفَّينِ ثابتٌ بإجماعِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ، وفيهِ مخالفةٌ لأهلِ البدعِ الَّذِينَ رَدُّوا ذلكَ، ومِن أجلِ ذلكَ فقَد أوردَهُ بعضُ أئمةِ السلفِ فِي كتبِ العقائدِ وذَكَرُوا مشروعيَّتَهُ لكونهِ منَ المسَائلِ الَّتِي خالفَ بهَا أهلُ السنَّةِ طوائفَ مِن أهلِ البدعِ الزائغينَ عنِ الهُدَىٰ، الرَّادِّينَ للحقِّ مِن غيرِ حُجَّةٍ واضحةٍ ولَا دليلٍ بيِّنٍ.

والخُفُّ: هوَ مَا يُلبَسُ علَىٰ الرِّجلِ منَ الجُلودِ، ويَلحَقُ بهِ مَا شابَهَهُ منَ الجَواربِ ونحوِهَا، فيثبتُ لهَا مَا ثبتَ للخُفَّينِ مِن أحكَامٍ.

ولجَوازِ المسحِ علَىٰ الخُفَّينِ شروطٌ وأحكامٌ يجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يمتثلَهَا حتَّىٰ يكونَ مأذونًا لهُ بالمسحِ علَىٰ خُفَّيهِ عِوضًا عَن غسلِ قدميهِ حالَ وضوئِهِ.

ومِن جملةِ الأحكامِ المُبيحَةِ للمسحِ علَىٰ الخفينِ والجواربِ: أَن تُلبَسَ بعدَ كمالِ الطهارةِ، فعنِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قالَ: «**كنتُ معَ النبيِّ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فتوضأَ، فأهويتُ لأنزعَ خُفَّيهِ، فقالَ: دعهُمَا فإنِّي أدخلتُهُمَا طاهرتَينِ فمسحَ عليهِمَا**»(١).

ويكونُ المسحُ علَىٰ الخفينِ فِي الحدثِ الأصغرِ لَا الأكبرِ، والحدثُ الأصغرُ هوَ مَا أوجبَ الوضوءَ كالغائطِ والبَولِ والريحِ، والحدثُ الأكبرُ مَا أوجبَ الغُسلَ كالجماعِ، فعَن صفوانَ بنِ عسَّالٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قالَ: «**كانَ رسولُ اللهِ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يأمُرُنا إذَا كنَّا سفرًا ألَّا ننزعَ خفافَنَا ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليهنَّ إلَّا مِن جنابةٍ، ولكِن مِن غائطٍ وبولٍ ونومٍ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٩٩)، ومسلم (٤٠٨).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٠).

وأمَّا المدةُ الَّتِي يجوزُ فيهَا للمتوضئِ أَن يمسحَ علَىٰ خفيهِ فهيَ يومٌ وليلةٌ للمقيمِ وثلاثةُ أيامٍ بلياليهِنَّ للمسافرِ، فعَن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: «**جعلَ النبيُّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ للمسافرِ، ويومًا وليلةً للمُقِيمِ** -يعنِي: فِي المَسحِ علَىٰ الخُفَّينِ-»(١).

ولَو مسحَ المسلمُ علَىٰ خُفَّيهِ فِي السفرِ ثمَّ أقامَ، فإنَّهُ يُتِمُّ مسحَ مقيمٍ إِن بقيَ منَ المدةِ شيءٌ، وإِن مَسَحَ فِي إقامتِهِ ثمَّ سافرَ قبلَ أَن تنتهيَ مدةُ الإقامةِ فإنَّهُ يتمُّ مسحَ مسافرٍ لوجودِ السببِ الَّذِي يستبيحُ بِهِ هذهِ المدةَ.

ويبدأُ حسابُ مدةِ المسحِ مِن أوَّلِ مسحٍ بعدَ الحدثِ، وذلكَ أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَد علَّقَ الحكمَ بالمَسحِ فقالَ: «**المسحُ علَىٰ الخُفينِ للمسافرِ**»(٢).

ولَو مسحَ المسلمُ علَىٰ خفِّهِ أَو جوربِهِ ثمَّ احتاجَ أَن يلبسَ خُفًّا آخرَ أَو جوربًا، فلَا بأسَ أَن يمسحَ علَىٰ الأعلَىٰ منهمَا مَا دامَتِ المدةُ باقيةً ولَا يحتاجُ إِلَىٰ خَلعِهِ، ولكِن تُحسَبُ المدةُ منَ المسحِ علَىٰ الأولِ لَا منَ المسحِ علَىٰ الثانِي.

وأمَّا كيفيةُ المسحِ فإنَّهُ يَمسَحُ ظاهرَ قدَمَيهِ، فيبدأُ مِن أصابعِ رِجلِهِ حتَّىٰ يشرعَ فِي ساقِهِ ولَا يمسحُ أسفلَ القدَمِ، قالَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَو كانَ الدينُ بالرأيِ لكانَ أسفلُ الخفِّ أولَىٰ بالمسحِ مِن أعلاهُ، وقَد رأيتُ رسولَ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يمسحُ علَىٰ ظاهرِ خفَّيهِ**»(٣).

ومنَ الأحكامِ المهمَّةِ الَّتِي يجبُ معرفتُهَا فِي هذَا البابِ: جوازُ المسحِ علَىٰ الجوربِ الشفَّافِ الَّذِي يصفُ البشرةَ؛ لأنهُ ساترٌ لمحلِّ الفرضِ، وكونُ البشرةِ تُرىٰ

---

(١) رواه مسلم (٤١٤).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥٧).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٠٣).

مِن ورائِهِ فإنَّ ذلكَ لَا يضرُّ، وليسَ فِي سنَّةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يدلُّ علَىٰ اشتراطِ سَترِ الرِّجلِ بخفٍّ أَو جوربٍ ثقيلٍ لَا تُرىٰ مِن ورائِهِ البشرةُ.

كمَا يجوزُ المسحُ علَىٰ الخفِّ المخرَّقِ، فإنَّ كثيرًا منَ الصحابةِ كانُوا فقراءَ، وغالبُ الفقراءِ لَا تخلُو خفافُهُم مِن خروقٍ، فإذَا كانَ ذلكَ الحالُ هوَ الغالبُ مِن قومٍ فِي عهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولَم ينبِّه عليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ المسحَ عليهِ جائزٌ.

كمَا ينبغِي أَن يُعلمَ أنَّ مَن كانَ علَىٰ طهارةٍ وانتهَت مدةُ المسحِ المأذونِ لهُ بهَا أنَّ طهارَتَهُ لَا تَبطُلُ بذلكَ، فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا وقَّتَ مدةَ المسحِ ليُعرفَ بذلكَ انتهاءُ مدةِ المسحِ لَا انتهاءُ الطهارةِ، ولذَا فإذَا تمَّتِ المدةُ والإنسانُ علَىٰ طهارةٍ فإنَّ طهارَتَهُ لَا تبطلُ بمجرَّدِ انتهاءِ المدةِ، ولَا دليلَ علَىٰ ذلكَ مِن سنَّةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كمَا أنَّهَا لَا تبطلُ طهارَةُ مَن خَلَعَ خُفَّيهِ بمجرَّدِ الخلعِ، لكنْ لَو أنَّهُ مسحَ عليهِ ثمَّ خَلَعهُ ثمَّ عادَ ولبسَهُ فإنَّهُ لَا يجوزُ لَهُ أَن يمسحَ عليهِ، بلِ الواجبُ أَن يتوضأَ ويغسلَ قدميهِ؛ لأنَّ لُبْسَهُ لَهُ لَم يكُن مِن وضوءٍ ولكنْ مِن مَسحٍ.

ومنَ الأحكامِ الميسَّرةِ فِي هذَا البابِ: جوازُ المسحِ علَىٰ اللِّفافةِ إذَا كانَت تستوعبُ القدمَ، بَل إنَّ صاحبَهَا أحوجُ إلَىٰ المسحِ عليهَا أكثرَ منَ الخفينِ، وقَد جاءَ فِي حديثِ ثوبانَ قالَ: «**بعثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَريةً فأمَرَهُم أَن يمسحُوا علَىٰ العصائبِ والتسَاخِينِ**»[(١)].

وفِي ذلكَ جوازُ المسحِ علَىٰ اللِّفافةِ؛ لأنَّهُ يحصلُ بهَا التسخينُ، والغرضُ الَّذِي مِن أجلِهِ تُلبَسُ الخفافُ موجودٌ فِي لبسِ اللِّفافةِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٦).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلُوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصَابيحِ الدجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فاعلمُوا أنَّ مشروعيَّةَ المسحِ علَىٰ الخفينِ والجوربينِ رخصةٌ مِنَ اللهِ تعالَىٰ امتنَّ بهَا علَىٰ مَن شاءَ مِن عبادِهِ، لَا تختصُّ بفصلٍ دونَ فصلٍ أَو مُنَاخٍ دونَ مُنَاخٍ، فيجوزُ استعمالُ هذهِ الرخصةَ لِمَن لبسَ الخفينِ مطلقًا سواءً كانَ الجوُّ حارًّا أَم باردًا، صيفًا أَو شتاءً، وَلَا يُفرَّقُ فِي هذَا الحكمِ بينَ جنسٍ دونَ جنسٍ، فهوَ شاملٌ للرجالِ والنساءِ.

كمَا أنَّ منَ الأحكامِ المهمَّةِ فِي هذَا البابِ: معرفةَ أنَّ المسحَ علَىٰ الخفِّ والجوربِ لِمَن لَبِسَهُ أفضلُ مِن خلعهِ لغسلِ القدمِ؛ لأنَّ فِي المسحِ إقامةً للسنَّةِ النبويَّةِ وأخذًا بالرخصةِ، وقَد جاءَ فِي حديثِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**إنَّ اللهَ يحبُّ أَن تُؤتَىٰ رُخَصُهُ كمَا يحبُّ أَن تؤتَىٰ عزائِمُهُ**»[1].

فهذِهِ صدقةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بهَا علَىٰ عبادِهِ، فالواجبُ عليهِم أَن يقبلُوا صدقَتَهُ، وأَن يحمَدُوهُ عَلَىٰ بِرِّهِ ولُطفِهِ وإحسانِهِ ورحمتِهِ بِهِم مَعَ غناهُ عنهُم.

نسألُ اللهَ أَن يرزقَنَا الفقهَ فِي الدينِ، وأَن يجعلنَا هداةً مهتدينَ.

❊❊❊

(١) رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٦٠).

(٤٩) طهارةُ الْمَريضِ وصلاتُهُ

الحمدُ للهِ الَّذِي خلقَ السمواتِ والأرضَ الواحدِ القهَّارِ، يخلقُ مَا يشاءُ ويختارُ، يكوِّر الليلَ علَىٰ النهَارِ ويكوِّرُ النهارَ علَىٰ الليلِ، وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرِي لِأَجَلٍ مسمًّىٰ ألَا هوَ العزيزُ الغفارُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ عالمُ الغيبِ والشهادةِ وكلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ الَّذِي رفعَ اللهُ ببعثتِهِ الأغلالَ والآصارَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ مَا تعاقبَ الليلُ والنهارُ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعظيمِ كرمِهِ وجودِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ، قدِ امتنَّ عليهِم بأَن خفَّفَ عنهمُ التكاليفَ فلَم يُكلِّفهُم فوقَ طاقتِهِم، ويسَّرَ عليهِم فيمَا شرعَهُ لَهُم مِنَ الأحكامِ وألزمَهُم بهِ منَ الأوامرِ، وخفَّفَ عنهُم فِي أوجهِ العباداتِ، فكانَت شريعةُ الإسلامِ سهلةً مُيسرةً مبنيَّةً علَىٰ السهولةِ والتخفيفِ، فلَم يُشَدَّد عليهِم كمَا شُدِّدَ علَىٰ الأممِ السالفةِ، وهذَا محضُ امتنانٍ منَ اللهِعَزَّوَجَلَّ، ولعظيمِ بركةِ نبيِّ هذهِ الأمةِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[(١)].

وقالَ تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[(٢)].

---

(١) سورة الحج:٧٨.

(٢) سورة الأعراف:١٥٧.

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحبُّ الدينِ إلَىٰ اللهِ الحَنيفيةُ السَّمحةُ**»(١).

ومِن مظاهرِ التخفيفِ فِي الشريعةِ الإسلاميةِ: الأحكامُ المتعلقةُ بطهارةِ المريضِ وصلاتِهِ، فإنَّ المسلمَ معرضٌ للحوادثِ والآفاتِ، ومِن جملةِ ذلكَ الأمراضُ الَّتِي تعتريهِ، فكانَ منَ الواجبِ أَن يتعلَّمَ منَ الأحكامِ مَا تقومُ بهِ طهارتُهُ وصلاتُهُ؛ لأنَّ الصلاةَ لَا تسقطُ عنِ المسلمِ مَا دامَ حاضرَ القلبِ، والطهارةُ شرطٌ مِن شروطِ الصلاةِ، وتعلُّمُ هذهِ الأحكامِ ممَّا يزيدُ المسلمَ فقهًا فينبغِي لَهُ أَن يحفظَهَا لحاجتِهِ إليهَا وليعلِّمَهَا مَنِ احتاجَهَا مِن إخوانِهِ المسلمينَ، ليَعلَمُوا يُسرَ الشريعةِ ويحمَدُوا اللهَ سبحانَهُ علَىٰ نعمائِهِ.

فمِمَّا يتعلَّقُ بطهارةِ المريضِ أَنَّ بعضَ المرضَىٰ لَا يستطيعُ استعمالَ الماءِ فِي الطهارةِ منَ الحدثِ الأصغرِ أَوِ الأكبرِ -كالجنابةِ والطهارةِ منَ الحيضِ-، وذلكَ للخوفِ مِن زيادةِ المرضِ أَو تأَخُّرِ البُرءِ والشِّفاءِ، فمثلُ هذَا يُشرَعُ لهُ أَن يتيمَّمَ وذلكَ بأَن يضربَ بيدَيْهِ علَىٰ الترابِ الطاهرِ ضربةً واحدةً ثمَّ يمسحُ وجهَهُ وكفَّيهِ مرةً واحدةً، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(٢).

ولذلكَ فينبغِي لِمَن كانَ مريضًا لَا يستطيعُ استعمالَ الماءِ أَن يُجعلَ عندَهُ ترابٌ ليتيمَّمَ بهِ إذَا حضرَ وقتُ الصلاةِ، خصُوصًا إذَا كانَ عاجزًا عنِ التحرُّكِ والانتقالِ، أمَّا إذَا كانَ المريضُ يستطيعُ التحرُّكَ ولَا يضرُّهُ استعمالُ الماءِ فَلا يجوزُ لهُ التيمُّمُ.

كمَا أنَّ منَ الواجبِ معرفتَهُ أنَّ الطهارةَ إذَا كانَت منَ الحدثِ الأصغرِ ووَجَدَ

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٨١).

(٢) سورة النساء:٤٣.

المريضُ مَن يُحضرُ لَهُ الماءَ أَو يُساعدُهُ علَىٰ الوضوءِ فإنَّهُ لَا يجوزُ لَهُ أَن ينتقلَ للتيمُّمِ، ولذَا فينبغِي للمسلمِ أَن يعينَ مريضَهُ علَىٰ أَن يحضرَ لَهُ الوضوءَ أَو يوضئَهُ حسَبَ الإمكانِ.

ولَا نتخيَّلُ ونحنُ نسمعُ هذَا الكلامَ أنَّ المقصودَ بالمريضِ مَن رقدَ بالمستشفَىٰ، فإنَّ هذهِ الأحكامَ متعلقةٌ بالمريضِ سواءً كانَ فِي المستشفَىٰ أَو فِي بيتهِ أَو أيِّ مكانٍ آخرَ، فالحكمُ يدورُ معَ المَرضِ.

ومنَ المرضَىٰ مَن يكونُ قَد عُمِلَت لَهُ عمليَّةٌ جراحيَّةٌ، وحضَرَ وقتُ الصلاةِ ولَا يستطيعُ القيامَ، ولَم يجِد أحدًا يعينُهُ علَىٰ الوضوءِ، فهذَا ينتقلُ إلَىٰ التيمُّمِ.

ومنَ المرضَىٰ مَن يكونُ بِهِ جروحٌ أَو حروقٌ أَو كسورٌ أَو مرضٌ يضرُّ بِهِ استعمالُ الماءِ، فيُجنِبُ، فإنَّهُ يجوزُ لَهُ التيمُّمُ، وإنِ استطاعَ أَن يغسلَ الصحيحَ مِن جسدِهِ وجَبَ عليهِ ذلكَ ويتيمَّمُ للباقِي.

هذَا وإنَّ منَ الواجبِ علَىٰ المريضِ المتطهِّرِ منَ الجنابةِ بالتيمُّمِ إذَا عافَاهُ اللهُ أَن يغتسلَ عَن جنابتِهِ السَّابقةِ الَّتِي طهَّرهَا بالتيمُّمِ، لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّعيدُ وضوءُ المُسلمِ وإِن لَم يجِدِ المَاءَ عشرَ سِنينَ، فإذَا وجدَ الماءَ فلْيُمسَّهُ بشَرَتَهُ فإنَّ ذلكَ خيرٌ**»[1].

فإذَا وجدَ الجُنبُ الماءَ اغتسلَ عمَّا مضَىٰ، وأمَّا صَلواتُهُ بالتيمُّمِ فكلُّهَا صحيحةٌ عندَ عجزهِ عنِ استعمالِ الماءِ للمرضِ، فيتيمَّمُ حتَّىٰ يشفَىٰ مِن مرضِهِ وحتَّىٰ يجدَ الماءَ ولَو طالَتِ المدَّةُ.

وإذَا كانَ المريضُ فِي محلٍّ لَم يجِد فيهِ ماءً ولَا ترابًا ولَا مَن يُحضر لَهُ الموجودُ منهمَا، فإنَّهُ يصلِّي علَىٰ حَسَبِ حالِهِ وليسَ لَهُ تأجيلُ الصلاةِ؛ لقولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٥٣).

ﭐللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾(١).

هذَا وإنَّ مِنَ المرضَىٰ مَن يُصابُ بحريقٍ أَو نحوِهِ فِي أحدِ أعضاءِ الوضوءِ، ويُمنَعُ منَ استعمالِ الماءِ مخافَةَ الضَّررِ عليهِ، فإن كانَ علَىٰ هذَا العضوِ المصابِ جبيرةٌ أَو ضمادٌ فإنَّهُ يتوضأُ ويمسحُ علَىٰ الجَبيرةِ.

وإن كانَ العضوُ المُصَابُ مكشوفًا ولكِن يؤذِيهِ الماءُ، فإنَّهُ يتوضأُ فِي بقيَّةِ الأعضاءِ، ويتيمَّمُ عَن هذَا العضوِ، فيجمعُ بينَ الوضُوءِ والتيمُّمِ، ولَا بأسَ أَن يُقدِّمَ التيمُّمَ علَىٰ الوضوءِ أَو يجعلَهُ بعدَهُ.

ومِن أنواعِ المرضِ مَن يكونُ مُصَابًا بسَلسِ البولِ أَوِ استمرارِ خروجِ الدمِ أَوِ الريحِ، ولَم يبرَأْ بمعالجَتِهِ، فعليهِ أَن يتوضأَ لكلِّ صلاةٍ بعدَ دخولِ وقتِهَا ويغسلَ مَا يصيبُ بدنَهُ وثوبَهُ، وأَن يحتاطَ لنفسِهِ احتياطًا يمنعُ انتشارَ البولِ أَوِ الدمِ فِي الثوبِ أَوِ الجسمِ أَو مكانِ الصلاةِ، فإن خرجَ الوقتُ وجبَ عليهِ أَن يُعيدَ الوضوءَ -أَو التيمُّمِ إن كانَ لَا يستطيعُ الوضوءَ-؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ المُستحاضةَ أَن تتوضأَ لكلِّ صلاةٍ، **والمُستحَاضةُ**: هيَ الَّتِي يستمرُّ معَهَا دمٌ غيرُ دمِ الحيضِ، والمصابُ بالسلسِ يُحكَمُ لَهُ بنفسِ الحُكمِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعَاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

---

(١) سورة التغابن:١٦.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الصلاةَ لَا تسقطُ عنِ المريضِ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ مَادامَ عقلُهُ ثابتًا، ولكِن مِن منَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ شُرعَ فيهَا التخفيفُ والتيسيرُ.

فقَد أجمعَ أهلُ العلمِ علَىٰ أَنَّ مَن لَا يستطيعُ القيامَ فِي صلاتِهِ فلَهُ أَن يصليَ جالسًا، فإِنْ عجزَ عَنِ الصلاةِ جالسًا فإنَّهُ يصلِّي علَىٰ أحدِ جنبيهِ سواءً الأيمنُ أَوِ الأيسَرُ، فيَفعلُ الأيسَرَ فِي حقِّهِ، فقَد قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعِمرانَ بنِ حصينٍ: «**صَلِّ قَائمًا، فإِن لَم تستَطِع فقاعدًا، فإِن لَم تستَطِع فعلَىٰ جَنبٍ**»(١).

ومَن قَدَرَ علَىٰ القيَامِ وعجَزَ عنِ الركُوعِ أَوِ السجودِ لَم يسقُط عنهُ القيامُ، بَل يصلِّي قائمًا فيُومئُ بالركُوعِ ثمَّ يجلسُ ثمَّ يومئُ بالسجُودِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿**وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ**﴾(٢)، ولعمومِ قولِهِ تعالَىٰ: ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ**﴾(٣).

ومَن عجزَ عنِ القيامِ والقعودِ والصلاةِ علَىٰ جنبِهِ، فيصلِّي مستلقيًا ويجعلُ رجلَيهِ إلَىٰ القِبلَةِ.

ومَن عَجزَ عَنِ الركوعِ والسجودِ فيومئُ بِهِمَا، ويجعلُ السجودَ أخفضَ مِنَ الركوعِ، وإِن عجزَ عَنِ السجودِ وحدَهُ ركعَ وأَوْمأَ بالسجودِ، وإِن لَم يُمكِنهُ أَن يحنِيَ ظهرَهُ حنَىٰ رقبَتَهُ.

وإِن لَم يَقدِر علَىٰ الإيمَاءِ بالرأسِ كفاهُ النيَّةُ والقولُ، وأمَّا قولُ مَن قالَ أنَّهُ يصلِّي بعَينَيهِ فيجعلُ إغماضَهُ بالسجودِ أكثرَ مِنَ الركوعِ فهذَا غيرُ صَحِيحٍ.

ومثلُهُ قولُ بعضِ العامَّةِ أَنَّ مَن عجزَ عَنِ الإيماءِ بالرأسِ أوْمَأَ بأصبعِهِ، فينصبُ

(١) رواه البخاري (١٠٥٠).
(٢) سورة البقرة:٢٣٨.
(٣) سورة التغابن:١٦.

الأصبعَ حالَ القيامِ، ويحنيهِ قليلًا حالَ الركوعِ، ويضمُّهُ حالَ السجودِ، فهذَا أيضًا ليسَ بصَحيحٍ.

ومتَىٰ قَدَرَ المريضُ فِي أثناءِ صلاتِهِ علَىٰ مَا كانَ عاجزًا عَنهُ -مِن قيامٍ أَو قعودٍ أَو ركوعٍ أَو سجُودٍ أَو إيماءٍ- انتقلَ إليهِ وبنَىٰ علَىٰ مَا مضَىٰ مِن صلاتِهِ.

وإذَا غلبَ المريضَ النومُ عَن صلاةٍ أَو نسِيَهَا، وجبَ عليهِ أَن يصلِّيَهَا حالَ استيقاظِهِ منَ النومِ أَو حالَ ذكرِهِ لهَا، ولَا يجوزُ لَهُ أَن يترُكَهَا حتَّىٰ يدخلَ وقتُ مثلِهَا منَ اليومِ التالِي ليُصلِّيهَا، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نامَ عَن صلاةٍ أَو نسِيَهَا فليصلِّهَا متَىٰ ذكرهَا، لَا كفَّارةَ لهَا إلَّا ذلكَ**»(١).

ومَن أجرِيَت لهُ عمليةٌ فأُغمِيَ عليهِ بسببِ البنجِ فعليهِ حينَ يفيقُ أَن يقضيَ الأوقاتَ الَّتِي فاتَتهُ عَلَىٰ الترتيبِ، الفجرَ ثمَّ الظهرَ ثمَّ العصرَ، وهكذَا حتَّىٰ يقضِيَ مَا عليهِ، فإِن طالَ الإغماءُ فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ سقطَ عنهُ القضاءُ وصارَ فِي حكمِ المعتوهِ حتَّىٰ يرجعَ إليهِ عقلُهُ فيبتدئُ فعلَ الصلاةِ بعدَ رجوعِ عقلِهِ إليهِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُفِعَ القلمُ عَن ثلاثةٍ: عَنِ النائمِ حتَّىٰ يستيقظَ، وعَنِ الصغيرِ حتَّىٰ يبلغَ، وعنِ المَجنُونِ حتَّىٰ يُفيقَ**»(٢).

ومَن صلَّىٰ مِنَ المرضَىٰ علَىٰ كرسيٍّ لِعَدَمِ استطاعتِهِ القيامَ والسجودَ فليصلِّ إيماءً ولَا يسجُد علَىٰ الكرسيِّ، فقَد جاءَ فِي الحديثِ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عادَ مريضًا فرآهُ يصلِّي علَىٰ وسادةٍ، فرمَىٰ بهَا، وقالَ: «**صلِّ علَىٰ الأرضِ إِنِ استطعتَ وإلَّا فأومِئ إيماءً واجعَل سجودَكَ أخفضَ مِن ركوعِكَ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٢)، ومسلم (١١٠٢).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٩٧).

(٣) رواه البيهقي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٣).

وإذا صلَّىٰ علىٰ الأرضِ جلسَ متربعًا لقولِ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: **«رأيتُ النبيَّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يصلِّي متربِّعًا»(١)، ويجوزُ لَهُ أَن يجلسَ أَيَّ جلسةٍ يستريحُ بهَا.

وإِن شقَّ علَىٰ المَريضِ فَعَلَ كلَّ صلاةٍ فِي وقتهَا، فلهُ الجمعُ بينَ الظهرِ والعصرِ وبينَ المغربِ والعشَاءِ جَمعَ تقديمٍ أَو تأخيرٍ حسبَمَا تيسَّرَ لَهُ وكانَ أرفقَ لحالِهِ، أمَّا الفجرُ فلَا تُجمَعُ إِلَىٰ غيرِهَا؛ لأنَّ وقتَهَا منفصلٌ عمَّا قبلَهَا وعمَّا بعدَهَا.

ومَن جَمَعَ بينَ الصلاتَينِ لعذرِ المرضِ وهوَ مقيمٌ فِي بلدِهِ، فإِنَّهُ يجمعُ مِن دونِ قصرٍ، لأنَّ القصرَ رخصةٌ متعلِّقَةٌ بالسفرِ.

وهذَا وإِنَّهُ لَا يجوزُ للمُكلَّفِ تركُ الصلاةِ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، بَل يجبُ عليهِ أداؤُهَا، ولَا يجوزُ لَهُ أَن يتركَهَا حتَّىٰ يخرجَ وقتُهَا ولَو كانَ مريضًا.

نسأَلُ اللهَ أَن يفقهَنَا فِي دينِنَا.

❀❀❀

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صفة الصلاة» (ص٧٩).

(٥٠) الصلاةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي فرضَ علَىٰ عبادهِ الصلواتِ لِحِكَمٍ عظيمةٍ وأسرارٍ، وجعلَ هذهِ الصلواتِ مكفِّرَاتٍ لِمَا بينهنَّ مِن صغائرِ الذنوبِ والأوزارِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ ذُو العَظمةِ والاقتدارِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ إمامُ المتقينَ الأبرارِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ البررةِ الأطهارِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا شرَعَهُ اللهُ، وأوجبَهُ علَىٰ عبادهِ وألزمَهُم بهِ، وجعلَهُ فرضًا لازمًا لَا يُعذَرونَ بتركِهِ فريضةَ الصلاةِ، الركنُ الثاني مِن أركانِ الإسلامِ، الَّتِي صحَّ بهَا قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإسلامُ علَىٰ خَمسٍ: شَهَادةُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسُولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وحجُّ البيتِ، وصومُ رمضانَ**»[1].

وهيَ أوَّلُ مَا يُحَاسبُ عنهُ العبدُ يومَ القيامةِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أوَّلَ مَا يُحاسَبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ مِن عملِهِ الصلاةُ، فإِن صَلحَت فقَد أفلحَ وأنجحَ، وإِن فَسَدَت فقَد خابَ وخَسِرَ**»[2].

فمَن حافَظَ علَىٰ هذهِ الصلاةِ كانَت لَهُ نورًا وبرهانًا بينَ يَدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَن أضاعَهَا فقَد خَسِرَ خسرانًا مبينًا.

وَلِعِظَمِ هذهِ الفَريضَةِ الغَاليةِ العاليةِ، فقَد أكثَرَ سبحانَهُ ذكرَهَا فِي كتابِهِ، آمرًا عبادَهُ بإقامتِهَا بقولِهِ فِي مواضِعَ كثيرةٍ مِن كتابِهِ العزيزِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقَد فرضَهَا

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٤٠).

علَىٰ عبدِهِ ورَسُولِهِ محمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلةَ المِعرَاجِ مِن فوقِ سبعَ سمواتٍ، كمَا أنَّهُ سبحانَهُ يُكَفِّرُ بهَا السيئَاتِ، ويرفعُ بهَا الدرجاتِ مِنَّةً منهُ وفضلًا.

وممَّا يدلُّ علَىٰ فضلِهَا قولُهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أرأيتُم لَو أنَّ نهرًا ببابِ أحدِكُم يغتسلُ منهُ كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ، هَل يبقَىٰ مِن دَرَنِهِ شيءٌ؟**

قالُوا: لَا يبقَىٰ مِن دَرَنِهِ شيءٌ. قالَ: فذلكَ مثلُ الصَّلواتِ الخَمسِ يمحُو اللهُ بهنَّ الخطايَا»(١).

وقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلَىٰ الجمعةِ، كفارةٌ لِمَا بينهنَّ مَا لَم تُغشَ الكبائرَ**»(٢).

فهذَا فضلٌ ساقَهُ اللهُ إلَىٰ عبادِهِ وهوَ غنيٌّ عنهُم، فالواجبُ أَن يبادِرُوا إلَىٰ المسارَعَةِ إليهِ، ولَا يكونُوا منَ المفرِّطِينَ الَّذِينَ أذهبُوا حياتَهُم بملاذِّ الدنيَا متناسينَ حقَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وحريٌّ بالعبدِ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يُتَقَرَّبُ إليهِ بأنواعِ النعمِ والفضائلِ، أَن يُتَقَرَّبَ إليهِ بشكرِهِ علَىٰ نعمائِهِ، والعملِ بأوامرِهِ، والابتعادِ عَن نواهيهِ.

هذَا وإنَّهُ قَد كَثُرَ فِي الناسِ التسَاهُلُ فِي أمرِ الصلاةِ، فمِن مُضَيعٍ لهَا بالكلِّيَّةِ فلَا يرفعُ بهَا رأسًا، ومِن مُضَيعٍ لَهَا بتأخيرِهَا عَن وقتِهَا حتَّىٰ يدخلَ وقتُ الصلاةِ الأخرَىٰ، وقَد جاءَ بذلكَ منَ الوعيدِ الشديدِ مَا يقرعُ القلوبَ ويذهبُ الأفئدةَ، ويبعثُ الخوفَ فِي قلبِ كلِّ متدبِّرٍ، فقالَ تعالَىٰ عَن أصحَابِ النارِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

(٣) سورة المدثر: ٤٢-٤٣.

فأيُّ قلبٍ هذَا الَّذِي يَعرِفُ مآلَ تاركِ الصلاةِ، وأنَّهُ متوعَّدٌ بجهنَّمَ ثمَّ يطيبُ لهُ بعدَ ذلكَ تركُهَا؟!

وقَد أطلقَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ تاركِهَا اسمَ الكفرِ، وجعلَ إقامتَهَا فرقًا بينَ أهلِ الإيمانِ وأهلِ النفاقِ والبهتانِ، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المنافقينَ: «**العهدُ الَّذِي بيننَا وبينَهُمُ الصلاةُ، فمَن تركَهَا فقَد كفَرَ**»(١).

وقَد غلَّظَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ مَن تركَ الصلاةَ حتَّىٰ قالَ **شقيقُ ابنُ عبدِ اللهِ -التابعيُّ الجليلُ-**: «كانَ أصحابُ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يرونَ شيئًا مِنَ الأعمالِ تركُهُ كفرٌ غيرَ الصلاةِ»(٢).

وقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أمَا إنَّهُ لَا حَظَّ لأحدٍ فِي الإسلامِ أضاعَ الصَّلاةَ».

فكيفَ يطيبُ لعبدٍ المقامُ علَىٰ هذَا الذنبِ مِن تركٍ للصلاةِ، وهوَ يسمعُ هذهِ النصوصَ؟! وكيفَ يرضَىٰ أَن يُسمَّىٰ كافرًا أَو منافقًا علَىٰ لسانِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وكيفَ يطيبُ لَهُ أَن يُعرِضَ عَنِ امتثالِ أوامرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ والمردُّ إليهِ؟! فمَن يعصمُهُ منهُ سبحانَهُ؟ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣).

إنَّمَا هيَ خمسُ صلواتٍ فِي اليومِ والليلةِ، تؤدَّىٰ بسهولةٍ ويُسرٍ، وتكونُ سببًا لنجاةِ العبدِ بينَ يدَيِ اللهِ سبحانَهُ.

ألَم يرَ العبدُ أنَّ اللهَ تعالَىٰ لَم يكلِّفهُ فوقَ طاقتِهِ؟!

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٦٥).

(٣) سورة يونس: ٢٧.

فمَا عذرُهُ إن جاءَ يومَ القيامَةِ ووقفَ بينَ يدَيِ اللهِ سبحانَهُ، وقَد أَصَحَّ لَهُ بَدَنَهُ، وأنعمَ عليهِ بنِعَمِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ ولَا تُحصَىٰ وقَد كفرَ نعمتَهُ؟

فمَا العذرُ يومَئذٍ؟!

إنَّ أُناسًا لينالُوا جنَّةَ الخلدِ قدَّمُوا أعناقَهُم للسيوفِ، وأرخَصُوا أعمارَهُم فِي سبيلِ اللهِ، فمَا بالُ بعضِ الناسِ يبخلُ أَن يتقرَّبَ إلَىٰ اللهِ بسجودٍ يطَّرِحُ فيهِ بينَ يديهِ؟ ويعفِّرُ وجهَهُ لخالقِ الأرضِ والسمواتِ، العظيمِ، الَّذِي يقبضُ الأرضَ يومَ القيامةِ بيدِهِ ويطوِي السمواتِ بيمينِهِ، فمَن يعصمُهُ منهُ إن خالَفَ أمرَهُ؟

أَلَم يستَمِع هذَا وأمثالُهُ لقولِ خيرِ الورَىٰ والنبيِّ المجتبَىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهوَ يقولُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[(١)].

فكيفَ إذَا عصيتُ أنَا، أَو عصيتَ أنتَ؟!

أَلَا يخشَىٰ وهوَ يتكبَّرُ أَن يذلَّ هذَا الوجهَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، أَن يكبَّهُ اللهُ سبحانَهُ علَىٰ وجهِهِ فِي نارِ جهنَّمَ؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[(٢)].

أيُّهَا الناسُ:

التوبةَ التوبةَ، والإنابةَ الإنابةَ.

إنَّ ربَّنَا الرحيمَ الكريمَ لَم يكلِّفنَا منَ العملِ مَا يشقُّ علينَا، بَل إنَّهُ يَسَّرَ لنَا الدينَ، وسَهَّلَ لنَا الشرعَ، تفضُّلًا منهُ ورحمةً، وقطعًا للحُجَّةِ.

فمَا حُجَّةُ مَن تركَ الصلاةَ، وهيَ خمسُ صلواتٍ فقَط فِي اليومِ والليلَةِ، مَجموعُهَا

---

(١) سورة الزمر:١٣.

(٢) سورة الفرقان:٣٤.

لَا يأتِي ساعةً مِن أربعٍ وعشرينَ ساعةً؟

مَا حُجَّةُ مَن تركَ الصلاةَ وأداؤُهَا ممَّا يزيدُ العبدَ قربًا منَ اللهِ، فينشرحُ صدرُهُ، ويطمئنُّ قلبُهُ، ويحفظُهُ اللهُ ببركةِ هذَا العملِ المباركِ منَ الشرورِ ومهالكِ الردَىٰ.

فالواجبُ علَىٰ المسلمِ العاقلِ ألَّا يستَهوِيَهُ الشيطانُ، فيقولُ لَهُ: إنَّ العُمرَ طَويلٌ، وبعدَ الأربعينَ صلِّ أَو بعدَ سَنةٍ أَو بعدَ سَنتَينِ.

ولينْظُر حَولَهُ، ويتفكَّرُ فيمَن ماتَ صغيرًا لَم يُمهِلهُ الأجَلُ، ومَن خُتِمَ لَهُ وهوَ سكرانٌ، ومَن خُتِمَ لهُ بكفرٍ، ومَن خُتِمَ لَهُ وهوَ لَا يُصَلِّي!

فكيفَ باللهِ حالُهُم؟!

كانَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمشِي فِي جنازةٍ فقالَ لرجلٍ: «أرأيتَ هذَا المحمولَ علَىٰ النعشِ لَو عادَ إلَىٰ الدنيَا هَل يعودُ إلَىٰ معصيةٍ؟ قالَ: لَا. قالَ الحسنُ: فأنتَ إذَن».

فالحذرَ الحذرَ مِن طولِ الأملِ!

فمَا أقلَّ مَن ماتَ وهوَ يظنُّ أنَّ الموتَ سيأتيهِ بغتةً، بَل وكأنِّي بكثيرٍ مِنَ الناسِ يرَىٰ أنَّهُ سيعيشُ عمرًا مديدًا، فلَم يُمهِلهُ الموتُ حتَّىٰ قطعَ عليهِ أمنيَّتَهُ ومَا كانَ يرجُو!

أرأيتَ كَم أكَلَت حوادثُ السياراتِ مِنَ الموتَىٰ؟!

كيفَ لَو كُنتَ أنتَ، وأنتَ لَا تُصَلِّي، فبأيِّ حالٍ ستكونُ؟!

هذَا ومِمَّا لا بدَّ أَن يُعلمَ أنَّ إقامَةَ الصلاةِ فِي وقتِهَا واجبٌ لَا تبرأُ الذمَّةُ إلَّا بِفعلِهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء:١٠٣.

وقَد جعلَ اللهُ سُبحانَهُ لكلِّ صلاةٍ وقتَ ابتداءٍ لَا يجوزُ فعلُهَا قبلَهُ، فإِن صلَّاهَا قبلَ وقتِهَا لَم تُقبَل، وجعلَ لكلِّ صلاةٍ وقتَ انتهاءٍ، فإِن صلَّاهَا بعدَ خروجِ وقتِهَا رُدَّت علَىٰ صاحبِهَا، ودخلَ تحتَ الوعيدِ بالعذابِ الشديدِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(١)، **قالَ ابنُ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الَّذِينَ يؤخِّرونَهَا عَن وقتِهَا».

وقالَ تعالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(٢)، أَي: خُسرَانًا.

فهذَا وعيدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالوَيلِ والخُسرانِ، فمَن يُطِيقُ ذلكَ؟

قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَم تَكُن إضاعتُهُم تركَهَا، ولكِن أضاعُوا الوقتَ».

وقالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عطِّلُوا المساجدَ ولزَمُوا الضيعاتِ»؛ أَي: العقارَ والنخيلَ.

فكيفَ بِمَن ألهَتهُ الدنيَا، مِن مخيَّمَاتٍ ونزهاتٍ ورحلاتٍ، ونومِ الأمواتِ المتواصلِ عنِ الصلاةِ، فمَا عذرُهُ بتأخيرِ الصلاةِ عَن وقتِهَا؟

ألَا يخشَىٰ أَن يكونَ لَهُ نصيبٌ مِن هذَا الوعيدِ؟

وقَد يعمَدُ بعضُ الناسِ إِلَىٰ وضعِ المنبهِ علَىٰ ساعةِ الدوامِ الرسميِّ مفوِّتًا صلاةَ الفجرِ، فليعلَم أَنَّهُ بعملِهِ هذَا لَا يزالُ فِي سخطِ اللهِ، وأَنَّهُ يخوضُ فِي كبيرةٍ مِن كبائرِ الذنوبِ، وقَد رأَىٰ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صورًا لبعضِ المعذبينَ، فذكرَ منهُم رجلًا

(١) سورة الماعون:٤-٥.

(٢) سورة مريم:٥٩.

يُكسَرُ رأسُهُ بالحجرِ، وأنَّهُ يُفعلُ بهِ هكذَا فِي قبرِهِ إلَىٰ يومِ القيامةِ، فسألَ مَن هؤلاءِ؟ فقيلَ لَهُ: إنَّهُ الرجلُ يأخذُ القرآنَ فيرفضُهُ، وينامُ عَنِ الصلاةِ المكتوبةِ[1].

فليحذَر مَن يؤخِّرِ الصلاةَ عَن وقتِهَا ساهيًا لاهيًا هائمًا فِي غفلتِهِ وشهَواتِهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي وعدَ المحافظينَ علَىٰ الصلاةِ أجرًا عظيمًا، وأعدَّ لَهُم فِي جناتِ الفردوسِ نعيمًا مُقيمًا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أفضلُ المصلينَ، وإمامُ المتقينَ، وقائدُ الغُرِّ المحجلينَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ والتابعينَ لَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ، وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّهُ ممَّا لا بُدَّ أَن يُعرفَ أنَّ صلاةَ الجماعةِ واجبةٌ علَىٰ الرجالِ منَ المُسلمينَ، ولَا يجوزُ للمسلمِ أَن يتخلَّفَ عنهَا، فمَن فعلَ ذلكَ فهوَ آثمٌ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن سرَّهُ أَن يَلقىٰ اللهَ غدًا مسلمًا، فليحافِظ علَىٰ هؤلاءِ الصلواتِ حيثُ يُنادىٰ بهنَّ، فإنَّ اللهَ شرعَ لنبيِّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الهُدَىٰ، وإنهنَّ مِن سُنَنِ الهُدَىٰ، ولَو أنَّكُم صلَّيتُم فِي بيوتِكُم كمَا يصلِّي هذَا المتخلفُ فِي بيتِهِ، لتركتُم سنَّةَ نبيِّكُم، ولَو تركتُم سنَّةَ نبيِّكُم لضلَلتُم، ولَقَد رأيتُنَا ومَا يتخلَّفُ عنهَا إلَّا منافقٌ معلومُ النفَاقِ، ولَقَد كانَ الرجلُ يُؤتَىٰ بهِ يُهَادَىٰ بينَ الرجلينِ -أَي: يتمايلُ-

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٥).

حتَّىٰ يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[١].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سمعَ النداءَ فلَم يُجِب فلَا صلاةَ لَهُ إلَّا مِن عذرٍ**»[٢].

وقَد همَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأَن يحرِقَ علَىٰ أناسٍ لَا يشهدونَ الصلاةَ بيوتَهُم، وهذَا دليلٌ علَىٰ وجوبِ صلاةِ الجَماعةِ.

قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والَّذِي نفسِي بيدِهِ لَقَد همَمتُ أَن آمُرَ بحطبٍ فيُحتَطبَ، ثمَّ آمُرَ بالصَّلاةِ فيؤذَّنَ لهَا، ثمَّ آمرَ رجلًا فيؤمَّ الناسَ، ثمَّ أخالفَ إلَىٰ رجالٍ لَا يشهدونَ الصلاةَ فأحرِّقَ عليهِم بيوتَهُم**»[٣].

هذَا علَىٰ أَنَّ شهودَ الرجلِ لصلاةِ الجماعةِ دليلٌ علَىٰ إيمانِهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٤].

وقَد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن ترْكِ إقامةِ الجمَاعةِ فِي الحاضرةِ والباديةِ، لاستحواذِ الشيطانِ علَىٰ مَن تركَهَا، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن ثلاثةٍ فِي قريةٍ ولَا بدوٍ لَا تُقامُ فيهِم الصلاةُ إلَّا قدِ استحوذَ عليهِمُ الشيطانُ، فعليكُم بالجماعةِ، فإنَّمَا يأكلُ الذئبُ مِنَ الغنمِ القاصيةَ**»[٥]، أَي: البعيدةِ عَنِ الغنمِ، وكلُّ خيرٍ فِي اتِّبَاعِ طريقتِهِ والعملِ بسنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن تمامِ المعرفةِ أَن يُعلمَ أَنَّ حضورَ الجماعةِ واجبٌ فِي صلاةِ الجُمعةِ كمَا هوَ

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٠٠).

(٣) رواه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١).

(٤) سورة التوبة:١٨.

(٥) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠١).

الحالُ فِي الصلواتِ الخمسِ، حتَّىٰ لَا يَظُنَّ ظانٌّ أَنَّ حضورَهَا سنَّةٌ، وقَد جاءَ الوعيدُ الشديدُ علَىٰ مَن تركَهَا كمَا قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لينتهينَّ أقوامٌ عَن ودعهم الجُمُعاتِ، أَو ليَختِمَنَّ اللهُ علَىٰ قلوبِهِم ثمَّ ليكونُنَّ منَ الغافلينَ**»(١).

هذَا وإنَّ السعيدَ مَن حاسبَ نفسَهُ قبلَ أَن يُحاسَبَ، ووزنَ أعمالَهُ قبلَ أَن يوزنَ، وتزيَّنَ للعرضِ الأكبرِ علَىٰ اللهِ، يومَ يُعرضُ الخلقُ علَىٰ اللهِ سبحانَهُ لَا تَخفَىٰ منهُم خافيةٌ.

❊❊❊

(١) رواه مسلم (٨٦٥).

(٥١) مِن أحكامِ العِيدَيْنِ

الحمدُ للهِ الَّذِي كانَ بعبادهِ خبيرًا بصيرًا، وتباركَ الَّذِي جعلَ فِي السماءِ بروجًا وجعلَ فيهَا سراجًا وقمرًا منيرًا، وهوَ الَّذِي جعلَ الليلَ والنهارَ خِلفَةً لمَن أرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خصَّ عيدَ الفطرِ وعيدَ الأضحَىٰ بمزيدٍ منَ الفضلِ والإكرامِ، وجعلهُمَا بعدَ موسمِ عبادةٍ وتقرُّبٍ إلَىٰ اللهِ بصالحِ الأعمالِ والصيامِ، فأمَّا عيدُ الفطرِ فيأتِي بعدَ صومِ رمضانَ، وأمَّا عيدُ الأضحَىٰ فهوَ ختامُ عشرةِ أيَّامٍ هيَ أفضلُ الأيَّامِ، والعملُ فيهَا مِن أفضلِ الأعمالِ، وقبلَهُ يومُ عرفةَ الَّذِي شرعَ اللهُ صيامَهُ وأعظمَ الأجرَ فِي ذلكَ، وقَد صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**مَا مِن أيَّامٍ العملُ الصالحُ فيهنَّ أحبُّ إلَىٰ اللهِ مِن هذهِ الأيامِ -أَي: العَشرِ-، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ولَا الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ؟ قالَ: ولَا الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ؛ إلَّا رجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ فلَم يرجِع بشيءٍ**»[(١)].

ولَا يُشرَعُ مِنَ الأعيادِ فِي دينِ الإسلامِ إلَّا هذينِ العيدينِ، فقَد قَدِمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ ولَهُم يومَانِ يَلعَبونَ فيهِمَا، فقالَ: «**مَا هذانِ اليَومانِ؟ قالُوا: كنَّا نلعبُ فيهِمَا فِي الجاهليَّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَد أبدلَكُمُ اللهُ بِهِمَا خيرًا منهمَا: يومَ الأضحَىٰ ويومَ الفطرِ**»[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٩٥٣).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٣٩).

وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١).

وقَدِ اختصَّ اللهُ سبحانَهُ يومَ العيدِ بجُملةٍ مِنَ الأحكامِ، منهَا مَا يتعلَّقُ بالصلاةِ ومنهَا مَا يتعلَّقُ ببعضِ الآدابِ المَسنُونةِ فِي يومِ العيدِ، والسعيدُ مَن وفَّقَهُ اللهُ لصالحِ الأقوالِ والأعمالِ.

فمِمَّا ينبغِي العلمُ بهِ أنَّهُ يتأكَّدُ حضورُ صلاةِ العيدِ، لأمرِ اللهِ سبحانَهُ بهَا بقولِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾(٢)، كمَا أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد واظبَ عليهَا ولَم يتخلَّف عنهَا.

وليسَ لصلاةِ العيدِ سُنَّةٌ راتبةٌ لَا قبليَّةٌ ولَا بعديَّةٌ؛ **لقولِ ابنِ عبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ يومَ الفطرِ فصلَّىٰ ركعتينِ لَم يصلِّ قبلهَا ولَا بعدهَا(٣).

وهذَا إذَا صلَّىٰ العيدَ فِي المصلَّىٰ، أمَّا إذَا صلَّاهَا فِي المسجدِ، فلَا يجلِس حتَّىٰ يصلِّيَ ركعتينِ، لقولِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا دخلَ أحدُكُم المسجدَ فليركَع ركعتَينِ قبلَ أن يجلسَ**»(٤).

وتُسَنُّ صلاةُ العيدِ فِي المصلَّىٰ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يخرجُ إلَىٰ المصلَّىٰ ويدَع مسجدَهُ مَعَ عظيمِ فضلِهِ، وكذلكَ الخلفاءُ مِن بعدِهِ، فعَن أبِي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: «كانَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرجُ يومَ الفطرِ والأضحَىٰ إلَىٰ المصلَّىٰ، فأوَّلُ شيءٍ يبدأُ بِهِ الصلاةُ، ثمَّ ينصرفُ فيقومُ مقابلَ الناسِ والناسُ جلوسٌ علَىٰ صفوفِهِم فيعظُهُم

(١) المائدة:٣.

(٢) الكوثر:٢.

(٣) رواه البخاري (٩٦٤)، ومسلم (٨٨٤).

(٤) رواه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

ويوصيهم ويأمرُهُم»[١].

ولَا حرجَ فِي صلاةِ العيدِ فِي المسجدِ، لكِن إذَا تيسَّرَت فِي المصلَّىٰ فهُوَ الأفضلُ.

ووقتُ صلاةِ العيدِ مِنَ ارتفاعِ الشمسِ مقدارَ رمحٍ إِلَىٰ الزوالِ -وهوَ وقتُ صلاةِ الظهرِ-.

وكانَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤخِّرُ صلاةَ عيدِ الفطرِ ويعجِّلُ الأضحَىٰ حتَّىٰ يستفيدَ الناسُ مِنَ الوقتِ، فتقديمُ الأضحَىٰ حتَّىٰ يذهبَ الناسُ للتضحيةِ؛ لأنَّ وقتَها بعدَ الصلاةِ، وتأخيرُ الفطرِ حتَّىٰ يتَّسعَ الوقتُ لإخراجِ زكاةِ الفطرِ، لأنَّ وقتَهَا قبل الصلاةِ.

ولَا يُنادَىٰ لصلاةِ العيدِ ولَا يؤذَّنُ لَهَا، فعَن جابرِ بنِ سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: صليتُ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العيدينِ غيرَ مرَّةٍ ولَا مرَّتينِ بغيرِ أذانٍ ولَا إقامةٍ[٢]، ولَم يَكُن يُنادَىٰ لهَا بالصلاةِ جامعةً أَو غيرَ ذلكَ، بَل كانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذَا انتهَىٰ إِلَىٰ المصلَّىٰ صلَّىٰ.

وتُقدَّمُ صلاةُ العيدِ علَىٰ الخُطبةِ، فقَد قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: شَهدتُ العيدَ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبِي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فكلُّهُم كانُوا يُصَلُّونَ قبلَ الخُطبةِ[٣].

واتَّفقتِ الأمةُ علَىٰ أنَّ صلاةَ العيدِ مخصوصةٌ بتكبيرٍ زائدٍ، فيُكبِّرُ فِي الأولَىٰ سبعًا دونَ تكبيرةِ الركوعِ، وفِي الثانيةِ خمسًا دونَ تكبيرةِ النهوضِ.

ويرفعُ يديهِ معَ كلِّ تكبيرةٍ؛ لحَديثِ وائلِ بنِ حجرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يرفعُ يدَيهِ معَ التكبيرِ، وهذَا عامٌّ فِي العِيدِ وغيرِه.

---

(١) رواه البخاري (٩٥٦)، ومسلم (٨٨٩).

(٢) رواه مسلم (٨٨٧).

(٣) رواه البخاري (٩٦٢)، ومسلم (٨٨٤).

ولَا خلافَ فِي أنَّ التكبيراتِ الزوائدَ سُنَّةٌ وليسَت بوَاجبٍ، ولَا تبطلُ الصلاةُ بتركِهَا عَمدًا ولَا سهوًا، لكِن مَن تعَمَّدَ تركَهَا فقَد تركَ سنَّةً ثابتةً عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفاتَهُ خيرُهَا.

ومَن دخلَ معَ الإمامِ وقَد فاتَهُ بعضُ التكبيراتِ الزوائدِ، فإنَّهُ يكبِّرُ معَ الإمامِ ويكملُ معهُ، ويسقطُ عنهُ مَا فاتَهُ منَ التكبيراتِ.

والسنَّةُ أَن يقرأَ فِي صلاةِ العيدِ فِي الركعةِ الأولَىٰ بسورةِ (ق)، وفِي الثانيةِ بسورةِ (القمر)، أَو فِي الركعةِ الأولَىٰ بسورةِ (الأعلىٰ) وفِي الثانيةِ بسورةِ (الغاشية)؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأَ بِهِمَا فِي العِيدَيْنِ(١).

وإذَا لَم يَعلمُوا بالعيدِ إلَّا بعدَ زوالِ الشمسِ صَلَّوا منَ الغدِ؛ لحديثِ عُمَيرِ بنِ أنسٍ عَن عمُومَةٍ لَهُ مِنَ الأنصارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالَ: غُمَّ علينَا هلالُ شوالٍ فأصبحنَا صيامًا، فجاءَ ركبٌ فِي آخرِ النهارِ فشهدُوا أنَّهُم رأَوا الهلالَ بالأمسِ، فأمرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يُفطِرُوا يومَهُم، وأَن يخرجُوا غدًا لعيدِهِم(٢).

وإذَا اجتمعَ يومُ جمعةٍ وعيدٌ وصلَّىٰ العيدَ، كفاهُ ذلكَ عَن صلاةِ الجمعةِ، فقَدِ اجتمعَ علَىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدٌ وجمعةٌ، فصلَّىٰ بِهِمُ العيدَ ثمَّ قالَ: «**قَدِ اجتمعَ فِي يومِكُم هذَا عيدانِ ؛ فمَن شاءَ أجزأَهُ عَنِ الجمعةِ؛ وإنَّا مُجمِّعونَ**»(٣).

وعليهِ فمَن صلَّىٰ العيدَ فإن شاءَ صَلَّىٰ الجمعةَ، وإن شاءَ اكتفَىٰ بالعيدِ ولَم يصلِّ الجمعةَ، لكِن عليهِ أَن يصلِّيَ الظهرَ فِي بيتِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٨٧٨).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٣٤).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٥).

وحضورُ خُطبةِ العِيدِ سنَّةٌ، لقولِ ابنِ السَّائبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**شهدتُ مَعَ رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **العيدَ، فلمَّا قضَىٰ الصلاةَ قالَ: إنَّا نخطبُ؛ فمَن أحبَّ أن يجلسَ للخطبةِ فليَجلِس، ومَن أحبَّ أن يذهبَ فليذهَبْ**»(١).

ويُخطَبُ للعيدِ خطبةٌ واحدةٌ، **قالَ ابنُ عثيمينَ**: ومَن نظرَ فِي السنَّةِ المتَّفَقِ عليهَا فِي الصحيحينِ وغيرِهَا تبيَّنَ لَهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يخطب إلَّا خطبةً واحدةً.

والسنَّةُ أَن يخصَّ النساءَ بموعظةٍ خاصَّةٍ، فعَن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ فبدأَ بالصلاةِ، ثمَّ خطبَ الناسَ بعدُ، فلمَّا فرغَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزلَ، فأتَىٰ النساءَ، فذكَّرَهُنَّ(٢).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسَانِهِ، والشكرُ لَهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تعظيمًا لشانِهِ، وأشهدُ أَنَّ نبيَّنَا محمَّدًا عبدهُ ورسولُهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَدِ اختُصَّ يومُ العيدِ بمجموعةٍ منَ السننِ والآدابِ، الَّتِي ينبغِي للمسلمِ أَن يتعلَّمَهَا ويعملَ بِهَا، اتباعًا للسنَّةِ، واقتفاءً للأثرِ، والتماسًا للأجرِ.

ومِن ذلكَ أَنَّهُ يُسَنُّ للمسلمِ أَن يتزيَّنَ يومَ العيدِ، **فعَنِ ابنِ عمرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: أخذَ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٢٩).

(٢) رواه البخاري (٩٦١)، ومسلم (٨٨٥).

عُمَرُ جُبَّةً مِن إستبرقٍ تُبَاعُ فِي السوقِ، فأَتَىٰ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، ابتَع هذهِ تجمَّلَ بِهَا للعيدِ والوفودِ[١].

وكانَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يلبسُ فِي العيدِ أحسنَ ثيابِهِ.

وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ التجمُّلَ عندَهُم فِي هذهِ المواضعِ كانَ مشهورًا، **قالَ الإمامُ مالكٌ**: سمعتُ أهلَ العلمِ يستحبُّونَ الطيبَ والزينةَ فِي كلِّ عيدٍ.

ووردَ عَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كانَ يَغتَسِلُ يومَ الفطرِ قبلَ أَن يغدُوَ إِلَىٰ المصلَّىٰ.

ويُسنُّ أَن يأكلَ يومَ الفِطرِ قبلَ أَن يَذهَبَ إِلَىٰ الصَّلاةِ، فعَن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يغدُو يومَ الفطرِ حتَّىٰ يأكلَ تَمراتٍ، ويأكلهنَّ وترًا[٢].

ويؤخِّرُ الأكلَ يومَ الأضحَىٰ حتَّىٰ يذبحَ، ليَأكُلَ مِن أضحيتِهِ، فعَن بريدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يخرجُ يومَ الفطرِ حتَّىٰ يَطعَمَ، ولَا يَطعَمُ يومَ الأضحَىٰ حتَّىٰ يُصَلِّي[٣].

وإذَا لَم يَكُن لَهُ ذَبحٌ فلَهُ أَن يأكلَ قبلَ خُروجِهِ للصلاةِ، فالأمرُ واسعٌ.

وينبغِي التبكيرُ فِي الخُرُوجِ لصَلاةِ العيدِ، لقَولِ البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَطَبَنَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ النحرِ فقالَ: **إنَّ أوَّلَ مَا نبدأُ بهِ فِي يومِنَا هذَا أَن نصلِّيَ**»[٤].

قالَ العلماءُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّهُ لَا ينبغِي الاشتغالُ فِي يومِ العيدِ بشيءٍ غيرِ التأهُّبِ للصلاةِ والخُروجِ إليهَا، فاقتضَىٰ ذلكَ التَّبكيرَ إليهَا.

---

(١) رواه البخاري (٩٤٨)، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) رواه البخاري (٩٥٣).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٤٠).

(٤) رواه البخاري (٩٥١).

وتَخرُجُ النساءُ لصلاةِ العيدِ، لحديثِ أمِّ عطيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَت: أمرَنَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن نُخرجهُنَّ فِي الفطرِ والأضحَىٰ: العواتقَ والحُيَّضَ وذواتِ الخدورِ، فأمَّا الحُيَّضُ فيعتزلنَ الصلاةَ، ويشهدنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمينَ(١).

فإذَا أحبَّتِ المرأةُ أَن تُصَلِّي معَ المُسلمينَ فلَا تُمنَعُ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَمنَعُوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ**»(٢)، لكِن يجبُ عليهَا السترُ وتركُ السفورِ، وأَن تجتنبَ الطيبَ والزينةَ الَّتِي تُحدثُ الفتنةَ بينَ صفوفِ الرجالِ.

ويستحبُّ أَن يأتِيَ إِلَىٰ المصلَّىٰ ماشيًا؛ **لِمَا وردَ عَن عليٍّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّهُ قالَ**: مِنَ السنَّةِ أَن يأتِيَ العيدَ ماشيًا.

قالَ العلماءُ: المشيُ إِلَىٰ العيدِ أحسنُ وأقربُ إِلَىٰ التواضعِ، ولَا شيءَ علَىٰ مَن رَكِبَ.

ويُستحبُّ التهنئةُ بالعيدِ، وهذَا فِعْلُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، **قالَ جبيرُ بنُ نفيرٍ**: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا التقَوا يومَ العيدِ يقولُ بعضُهُم لبعضٍ: تقبَّلَ اللهُ منَّا ومنكَ.

وتَصِحُّ التهنئةُ بأيِّ صيغةٍ كانَت، مَا لَم تكُن مشتملةً علَىٰ لفظٍ محرَّمٍ أَو خارجٍ عنِ المألوفِ أَوِ الأدبِ.

وتُستَحَبُّ مخالفةُ الطريقِ، لِمَا جاءَ عَن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا كانَ يومَ عيدٍ خالفَ الطريقَ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٩٨١)، ومسلم (٨٩٠).

(٢) رواه مسلم (٤٤٢).

(٣) رواه البخاري (٩٨٦).

والحكمةُ مِن مخالفةِ الطريقِ: إظهارُ شعائرِ الإسلامِ، وإظهارُ ذكرِ اللهِ تعالَىٰ، ولِيَشهَدَ لهُ الطريقانِ، وللسلامِ علَىٰ أهلِ الطريقَيْنِ، أوِ الصدقةِ، أَو لِيَصِلَ رَحِمَهُ.

ويشرعُ فِي أيَّامِ الأعيادِ إظهارُ الفرَحِ والسرورِ، والتوسعةُ علَىٰ العيالِ بأنواعِ مَا يحصلُ لَهُم مِن بسطِ النفسِ وترويحِ البدنِ، مَا لَم يكُن هذَا العملُ محرَّمًا، أَو يقودُ إلَىٰ الإسرافِ ونحوِ ذلكَ، فإظهارُ السرورِ فِي الأعيادِ مِن شعائرِ الدينِ.

واجتماعُ الناسِ علَىٰ الطعامِ فِي العيدِ مُستَحَبٌّ، **قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: جَمْعُ الناسِ للطعامِ فِي العيدينِ وأيامِ التشريقِ سنَّةٌ، وهوَ مِن شعائرِ الإسلامِ الَّتِي سنَّهَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊❊❊

(٥٢) أحكامُ الجنائزِ والإحدادِ

الحمدُ للهِ الَّذِي أوجدَ الكَونَ مِن عدَمٍ ودَبَّرَهُ، وخَلقَ الإنسانَ مِن نُطفةٍ فقدَّرَهُ، ثمَّ السبيلَ يسَّرَهُ، ثمَّ أماتَهُ فأقبرَهُ، ثمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدهِ ورسولِهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واهتدَىٰ بهديهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المُسلمونَ:

فإنَّ العبدَ مهمَا عمَّرَ فِي هذهِ الدنيَا، فإنَّ نهايةَ أمرهِ إلَىٰ زَوالٍ، وآخِرَ سَعيهِ إلَىٰ اضمِحلالٍ، وكلَّمَا تقدَّمَ بهِ العمرُ فإذَا بهِ يطوِي المَراحلَ مرحلةً مرحلةً، حتَّىٰ يصِلَ إلَىٰ مُنتهَىٰ أجلِهِ، وانقِطَاعِ أملِهِ.

وهاهوَ قَد فارقَ كلَّ صاحبٍ ومحبوبٍ، ولقِيَ مَا قدَّمَتهُ يداهُ بينَ يدَي علَّامِ الغيوبِ، قالَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**جاءنِي جبريلُ فقالَ: يَا محمَّدُ، عِش مَا شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ، وأحبِب مَن شئتَ فإنَّكَ مفارقُهُ، واعمَل مَا شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بِهِ**»[1].

قالَ تعالَىٰ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

فالسعيدُ مَن وفَّقَهُ اللهُ للعملِ الصالحِ والتزودِ مِن أعمالِ البرِّ والتقوَىٰ.

هذَا وإنَّ ممَّا يَحسُنُ بالمسلمِ أَن يتعلَّمَهُ أحكامًا تتعلَّقُ بالمتوفَّىٰ، مِن حينِ معاينتِهِ الاحتضارَ إلَىٰ أَن يُدفنَ ويصيرَ مِن عدادِ الموتَىٰ.

---

(١) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

(٢) سورة يونس: ٤٩.

فممَّا ينبغِي مَعرِفتُهُ لِمَن حضَرَهُ الموتُ أَن يحسِنَ الظنَّ بربِّهِ سبحانَهُ، ويكونُ بينَ الخوفِ والرجاءِ، يخافُ عقابَ اللهِ علَىٰ ذنوبِهِ، ويرجُو رحمتَهُ؛ لقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يموتنَّ أحدُكُم إلَّا وهوَ يُحسِنُ الظنَّ باللهِ تعالَىٰ**»(١).

وعلَىٰ مَن حَضَرَ امرأً يحتَضِرُ أَن يُلقِّنَهُ الشهادةَ بقولِهِ: قُل لَا إلهَ إلَّا اللهُ؛ لقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقِّنُوا موتَاكُم لَا إلهَ إلَّا اللهُ**»(٢).

أمَّا قراءةُ «سورةَ يس» عندَ رأسِهِ، أَو توجيهِهِ للقبلةِ عندَ الاحتضارِ، فلَا يصحُّ فيهِ شيءٌ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذَا قُبِضَ الميِّتُ أُغلِقَت عيناهُ، وسُتِرَ بدنُهُ لِئلَّا ينكَشِفَ، فقَد دخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ أَبِي سَلَمَةَ -وقَد شَقَّ بصرُهُ- فأغمضَهُ ثمَّ قالَ: «**إنَّ الروحَ إذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البصرُ، فَضَجَّ ناسٌ مِن أهلِهِ، فقالَ: لَا تَدْعُوا علَىٰ أنفسِكُم إلَّا بخيرٍ؛ فإنَّ المَلائكَةَ يؤمِّنونَ علَىٰ مَا تَقُولونَ**»(٣).

وقالَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ توفيَ سُجِّي ببُردِ حبرةٍ»(٤).

ويجوزُ البكاءُ علَىٰ الميتِ بمَا لَا يكونُ معَهُ ضجَرٌ أَو تسخُّطٌ علَىٰ أقدارِ اللهِ، فلمَّا توفيَ إبراهيمُ ابنُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُعلَت عينَا رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذرفانِ، فقالَ لَهُ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وأنتَ يَا رسولَ اللهِ؟! فقالَ: يَا ابنَ عوفٍ، إنَّهَا رَحمَةٌ. ثمَّ أَتبعَهَا بأخرَىٰ فقالَ: إنَّ العينَ تدمعُ، وإنَّ القلبَ يحزنُ، ولَا نقولُ إلَّا مَا**

(١) رواه مسلم (٥١٢٥).

(٢) رواه مسلم (١٥٣٢).

(٣) رواه مسلم (١٥٢٨).

(٤) رواه البخاري (٥٣٦٧).

يُرضِي ربَّنَا، وإنَّا بفراقِكَ يَا إبراهِيمُ لمَحزُونونَ»(١).

وقالَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ عثمانَ بنِ مظعونٍ وهوَ ميتٌ، فكشَفَ عَن وجهِهِ ثمَّ أكبَّ عليهِ فقبَّلَهُ وبكَىٰ حتَّىٰ رأيتُ الدمُوعَ تَسيلُ علَىٰ وَجنتَيهِ»(٢).

وتحرمُ النياحةُ علَىٰ الميتِ: وهيَ البكاءُ بتسخُّطٍ، وشقُّ الجيوبِ، ولطمُ الخدودِ، والدعاءُ بدعوَىٰ الجاهليةِ بتعديدِ محاسنِ الميتِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ منَّا مَن لطمَ الخدودَ وشقَّ الجيوبَ ودعَا بدعوَىٰ الجاهليةِ**»(٣).

وقالَ أبُو موسَىٰ الأشعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَا بريءٌ ممَّا برئَ منهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برئَ منَ الصالقةِ والحالقةِ والشاقَّةِ»(٤).

الشاقَّةُ: هيَ الَّتِي تشقُّ ثوبَهَا عندَ المصيبةِ، **والحالقةُ**: الَّتِي تحلقُ شعرَهَا عندَ المصيبةِ، **والصالقةُ**: الَّتِي ترفعُ صوتَهَا عندَ المصيبةِ.

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النائحةُ إذَا لَم تتُبْ قبلَ موتِهَا، تُقامُ يومَ القيامَةِ وعَليهَا سربالٌ مِن قطرانٍ ودرعٌ مِن جَرَبٍ**»(٥).

والميتُ يعذَّبُ بنياحةِ أهلِهِ عليهِ؛ لقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الميتُ يُعَذَّبُ بمَا نِيحَ عليهِ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٠).

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٢١).

(٣) رواه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (١٤٨).

(٤) رواه البخاري (١٢١٣)، ومسلم (١٤٩).

(٥) رواه مسلم (١٥٥٠).

(٦) رواه البخاري (١٢١٠)، ومسلم (١٥٣٧).

قيلَ: إنَّهُ يُعذَّبُ إذَا أوصَىٰ بالنياحةِ عليهِ، كمَا قيلَ:

إِذَا مِتُّ فَابكِينِي بِمَا أَنَا أَهلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الثَّوبَ يَا أُمَّ مَعبَدِ

وقيلَ: يُعذَّبُ بنياحَةِ أهلِهِ عليهِ إذَا لَم يوصِهِم بتركِ النياحةِ، لَا سِيَّمَا إذَا كانَ مِن عادتِهِم النياحةُ، كمَا فِي بعضِ المُجتَمعاتِ والدولِ، فيعذَّبُ فِي قَبرِهِ بسببِ ذلكَ.

ولذَا فإنَّ منَ المشروعِ للمسلمِ أَن يوصِيَ أهلَهُ بعدمِ النياحةِ عليهِ لَو ماتَ.

ويجِبُ المبادرةُ بقضاءِ دَينِ المتوفَّىٰ مِن مالِهِ إن وُجِدَ لهُ مالٌ، ويُقدَّمُ الدَّينُ علَىٰ الوصيةِ، وعلَىٰ قسمةِ التركةِ، فإن لَم يوجَد لَهُ مالٌ وتحمَّلَ أحدُ المسلمينَ دَينَهُ فهوَ مُحسِنٌ، وقَد غلَّظَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي حقِّ مَن ماتَ وعليهِ دَينٌ، حتَّىٰ إنَّهُ تركَ الصلاةَ عليهِ فِي أوَّلِ الأمرِ تأديبًا لغيرِهِ أَن يفعلَ مثلَ فعلِهِ، فقَد جيءَ إليهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ برجلٍ متوفًّىٰ ليصلِّي عليهِ، فقالَ: «**أعليَهِ دينٌ؟ قالُوا: نَعَم. قالَ: صلُّوا علَىٰ صاحبِكُم**»(١).

وقالَ لَهُ رجلٌ: «**يَا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إن قُتِلتُ فِي سبيلِ اللهِ؟ أتُغفرُ ذنوبِي؟ قالَ: نعَم. فلمَّا انصرفَ قالَ: إن قُتِلتَ مقبلًا غيرَ مدبرٍ تُغفَرُ ذنوبُكَ إلَّا الدينَ، فإنَّ جبريلَ سارَّنِي بِهَا**»(٢).

وقالَ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُغفَرُ للشهيدِ كلُّ شيءٍ إلَّا الدَّينَ**»(٣).

فعلَىٰ المُسلمِ أَن يتخلَّصَ مِن حُقوقِ العبادِ ومظالِمِهِم، وأَن يُوفِّي دينَهُ إن كانَ عليهِ دينٌ، وعَليهِ أَن يَكتبَ وصِيَّتَهُ بحُقوقِ الناسِ ومَا لَهُم عندَهُ منَ المالِ، فإذَا كانَ

---

(١) رواه البخاري (٢١٢٧).

(٢) رواه مسلم (٣٤٩٧).

(٣) رواه مسلم (٣٤٩٨).

الدَّينُ يوقِفُ الشَّهيدَ فكيفَ بِمَن سواهُ؟!

ويجبُ تغسيلُ الميِّتِ لقولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اغسِلُوهُ بماءٍ وسِدرٍ**»[1]، ويُغسَّلُ وترًا، ويُبدَأُ بميامنِهِ ومواضِعِ الوضُوءِ منهُ، ويُضَفَّرُ شعرُ المرأةِ ثلاثةَ قرونٍ مِن خلفِهَا، ويُطَيَّبُ المَيتُ، إلَّا مَن ماتَ وهوَ مُحرِم، فلَا يُطيَّبُ؛ لقَولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الرجلِ الَّذِي ماتَ مُحرِمًا: «**اغسلوهُ بماءٍ وسدرٍ، ولَا تمسُّوهُ طيبًا، فإنَّهُ يُبعَثُ يومَ القيامةِ مُلَبِّيًا**»[2].

ويُختارُ لَهُ مُغَسِّلٌ أَمِينٌ يسترُ مَا يرَىٰ منهُ، ويحتسبُ الأجرَ فِي عملِهِ وسترِهِ علَىٰ أخيهِ المسلمِ، قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن غسَّلَ مسلمًا فكتَمَ عليهِ غفرَ اللهُ لهُ أربعينَ مرَّةً**»[3].

ويجوزُ للمغسِّلِ أَن يُخبِرَ بعلاماتِ الخيرِ الَّتِي رآهَا فِي المتوفَّىٰ، ولَا يجوزُ أَن يخبرَ بعلاماتِ الشرِّ؛ لأنَّ هذَا منَ الغيبَةِ المحرَّمَةِ.

ولَا يجوزُ للرجلِ أَن يُغَسِّلَ المرأةَ، ولَا المرأةِ أَن تُغَسِّلَ الرجلَ إلَّا الزوجانِ فيجوزُ لأحدِهِمَا أَن يُغَسِّلَ صاحبَهُ إذَا ماتَ.

ويُغسَّلُ جميعُ المسلمينَ إلَّا شهيدَ المعركةِ فإنَّهُ لَا يُغَسَّل ولَا يُصلَّىٰ عليهِ، أمَّا الشهداءُ مِن غيرِهَا كالغريقِ والحريقِ وصاحبِ الطاعونِ ونحوِهِم، فيُغَسَّلُونَ ويُصَلَّىٰ عليهِم بلَا نزاعٍ، فهُم شهداءُ فِي ثوابِ الآخرةِ.

ويُصلَّىٰ علَىٰ المسلمِ العاصِي وإنِ ارتكَبَ كبيرةً وماتَ فاسقًا، إلَّا مَن عُلِم نفاقُهُ

(١) رواه البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٢) رواه البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٣) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٩٢).

وزندقتُهُ، فإنَّهُ لَا تجوزُ الصلاةُ عليهِ، وإن كانَ مُظهرًا للإسلامِ.

ولَا بأسَ بالنعي -وهوَ الإخبارُ بموتِ الميتِ- لتكثيرِ المصلينَ عليهِ والدعاءِ لهُ، فقد نَعَىٰ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النجاشيَّ لأصحابهِ حينَ ماتَ(١).

ويُمنَعُ النعيُ علَىٰ طريقةِ أهلِ الجاهليةِ مِن إرسالِهِم مَن يُعلِن بِخَبَرِ الميتِ علَىٰ أبوابِ الدورِ، ومثلهُ الآنَ تلكَ الإعلاناتُ الَّتِي تُوضَعُ فِي الشوارعِ باسمِ المتوفَّىٰ، وتُكتَبُ باللونِ الأسودِ إظهارًا للحزنِ.

وتُسَنُّ التعزيةُ بالميتِ لقولهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن عزَّىٰ أخاهُ فِي مصيبتِهِ كساهُ اللهُ حُلَّةً خضراءَ يُحبَرُ بِهَا يومَ القيامةِ. قيلَ: ومَا يُحبَرُ؟! قالَ: يُغبطُ**»(٢).

ولَو عُزِّيَ أهلُ الميتِ فِي المنزلِ فلَا بأسَ؛ لأنَّ التعزيةَ سُنَّةٌ، والوسائلُ لَهَا أحكامُ المقاصدِ، ولكِن لَا تُقامُ الخيامُ والمَجالسُ المبتدعةُ، ولَا تُصنَعُ الولائمُ إظهارًا للحزنِ.

ولَا تُعمَلُ الولائمُ مِن قِبَلِ أهلِ الميتِ ويُجتمعُ إليهَا الناسُ، فإنَّ ذلكَ أمرٌ منهيٌّ عنهُ، حتَّىٰ قالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنَّا نعدُّ الاجتماعَ إلَىٰ أهلِ الميتِ وصنيعةَ الطعامِ بعدَ دفنِ الميتِ منَ النياحةِ»(٣).

ولَو جاءَ بعضُ جيرانِ المتوفَّىٰ بالطعامِ إلَىٰ أهلِهِ فهذَا إحسانٌ، وهوَ مِن مكارمِ الأخلاقِ الَّتِي دلَّت عليهَا السنَّةُ النبويَّةُ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ توفيَ جعفرُ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اصنعُوا لآلِ جعفرٍ طعامًا؛ فإنَّهُ جاءَهُم مَا يشغلُهُم**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (١١٦٨)، ومسلم (١٥٨٠).

(٢) أخرجه الخطيب، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٦٣).

(٣) رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني «أحكام الجنائز» (ص١٦٧).

(٤) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٧٣٩).

ولَو صُنِعَ لأهلِ الميتِ طعامٌ مِن جيرانِهِم، فدَعَوا إليهِ مَن يزورُهُم مِنَ المُعَزِّينَ فلَا بأسَ بذلكَ.

ولَا يشرعُ لِمَن زارَ أهلَ المتوفَّىٰ لتعزيتِهِم أَن يرفعَ يديهِ، أَو يقولَ: الفاتحةَ، أَو يقرأَ القرآنَ قبلَ الدخولِ والسلامِ، فهذهِ بدعةٌ محدثةٌ لَا أصلَ لهَا فِي الشرعِ.

وتجوزُ التعزيةُ فِي المقبرةِ، بشرطِ ألَّا يضرَّ ذلكَ بالمقبورِ منَ انصرافِ الناسِ عنهُ دونَ الدعاءِ لَهُ، وهوَ فِي تلكَ الحالِ فِي أمسِّ الحاجةِ للدعَاءِ.

وليسَ للعزاءِ توقيتٌ، فتَحديدُهُ بثلاثةِ أيَّامٍ ليسَ بصحيحٍ، بَل متَىٰ مَا سنحَت للمرءِ الفرصةُ عَزَّىٰ أخاهُ بمصيبتِهِ؛ لأنَّ التعزيةَ مواساةٌ.

ولَا بأسَ بالتعزيةِ فِي المسلمِ وإِن ماتَ عاصيًا.

ولَا يجوزُ ذبحُ «الطمانة»، والوليمةُ الَّتِي يسمونَهَا صدقَةً بعدَ مرورِ اليومِ الثالثِ، فهذهِ بدعةٌ لَا تُشهَدُ ولَا تؤكَل.

كمَا يُحرَمُ إقامةُ الذكرَىٰ للميتِ؛ لأنَّهَا منَ البدعِ المحدثةِ.

وإذَا أُدخلَ المتوفَّىٰ فِي قبرهِ، فالمشروعُ أَن يُدخَلَ منَ اللحدِ مِن قِبَلِ رجليهِ، ويقولُ الَّذِي يضعُهُ فِي لحدهِ: «**باسمِ اللهِ وعلَىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ**، أَو: **باسمِ اللهِ وعلَىٰ مِلَّةِ رسولِ اللهِ**»، كمَا صحَّ بذلكَ الحديثُ عنِ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

ولَا يُشرَعُ كشفُ وجهِ الميتِ فِي قبرهِ سواءً كانَ رجلًا أَوِ امرأةً.

كمَا أنَّهُ لَا يلزمُ أَن يُلَحِّدَ المرأةَ أحدُ محارمِهَا، بَل يجوزُ أَن يُلَحِّدَهَا أحدُ صالحِي الحاضرينَ إذَا دعَتِ الحاجةُ إليهِ، **ويدلُّ علَىٰ ذلكَ**: أنَّهُ لمَّا توفيَت إحدَىٰ بناتِ

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧٤٧).

النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكانَت زوجةً لعثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمَرَ النبيُّ أبَا طلحةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَن يُلَحِّدَهَا(١).

وَلَا يُشرَعُ تلقينُ الميتِ الشهادةَ -بعدَ دفنهِ- فِي لحدهِ فإنَّ هذَا منَ البدعِ المحدثَةِ، ولَا يثبتُ فيهَا حديثٌ عَن رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

كمَا أنَّهُ لَا يُشرَعُ قراءةُ سورةِ «يس» ولَا غيرهَا منَ القرآنِ، ولَا الأذانُ ولَا الإقامةُ علَىٰ القبرِ بعدَ الدفنِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا تجعلُوا بيوتَكُم مقابرَ فإنَّ الشيطانَ يفرُّ منَ البيتِ الَّذِي يُقرأُ فيهِ سورةُ البقرةِ»**(٢)، فقَد أشارَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلَىٰ أنَّ القبورَ ليسَت موضعًا لقراءةِ القرآنِ.

فإذَا دُفنَ الميتُ أعيدَ ترابُ قبرهِ إليهِ، ولَا يُزادُ عليهِ مِن ترابِ غيرهِ، لِمَا جاءَ عنِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أنَّهُ نَهَىٰ أَن يُزَادَ علَىٰ القبرِ»**(٣).

وتُسَنُّ زيارةُ القبورِ للعبرةِ والعظةِ وتَذَكُّرِ الآخرةِ والدعاءِ للمسلمينَ، فإذَا خلَت مِن هذهِ الأسبابِ لَم تكُن مرادةً شرعًا.

كمَا أنَّهُ يُشترطُ عندَ زيارتِهَا ألَّا يقولَ أَو يفعلَ مَا يُغضِبُ الربَّ سبحانَهُ، فقَد قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«كُنتُ نهيتُكُم عَن زيارةِ القبورِ فزورُوهَا، فإنَّهَا تُذكِّرُكُم الآخِرَةَ، ولتزدكُم زيارتُهَا خيرًا، فمَن أرادَ أَن يزورَ فليزُر، ولَا تقولُوا هُجرًا»**(٤)؛ أَي: باطلًا.

فالواجبُ علَىٰ مَن زارَ القبورَ أَن يستحضرَ أنَّ زيارتَهَا للعظةِ والاعتبارِ، لَا العملِ

(١) رواه البخاري (١٢٠٥).

(٢) رواه مسلم (١٣٠٠).

(٣) رواه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧٥٧).

(٤) رواه مسلم (٣٦٥١).

الباطلِ والانشغالِ فِي الكلامِ المنكرِ كمَا يحدثُ مِن بعضِ العامَّةِ.

كمَا أنَّ فِي زيارتِهَا نفعًا للميتِ وإحسانًا إليهِ بالسَّلامِ عليهِ، والدعاءِ والاستغفارِ لهُ، فقَد كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرجُ إلَىٰ البقيعِ فيدعُو لَهُم.

كمَا سنَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاءَ لأهلِ القبورِ، حيثُ كانَ يُعَلِّمُ أصحابَهُ إذَا زارُوا القبورَ أَن يَقُولُوا: «**السلامُ عليكُم دارَ قومٍ مُؤمِنينَ، وإنَّا إن شاءَ اللهُ بِكُم لَاحِقُونَ، نسألُ اللهَ لنَا ولكُمُ العافيةَ**»(١).

ومِنَ البدعِ المحدثَةِ المنكرةِ الَّتِي لَا يجوزُ فعلُهَا: تحديدُ يومٍ معينٍ لزيارةِ القبورِ كمَا يفعلُهُ الكفارُ معَ أمواتِهِم، فتجدُ بعضَ المسلمينَ وقَد حدَّدَ لزيارةِ أقربائِهِ موعدًا معينًا، كيومِ الجمعةِ مِن كلِّ أسبوعٍ، أَو زيارتِهَا أيامَ العيدِ، وهذَا مِنَ البدعِ المحدثةِ الَّتِي لَا يؤجَرُ العبدُ عليهَا؛ لأنَّهَا تشريعُ مَا لَم يأذنُ بهِ اللهُ، ولَم يَرِد فيهِ نصٌّ صريحٌ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قالَ: «**مَن أحدثَ فِي أمرِنَا هذَا مَا ليسَ منهُ فهوَ ردٌّ**»(٢)، أَي: مردودٌ عليهِ.

ولَا يجوزُ البناءُ علَىٰ القبورِ ولَا رَفعُهَا ولَا القعودُ عليهَا ولَا الكتابةُ عليهَا فهذَا أمرٌ محدَثٌ شنيعٌ، ولَو كانَ فيهِ خيرٌ لَمَا تركَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَد نهَىٰ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَن يُجَصَّصَ القبرُ، وأَن يُقعدَ عليهِ، وأَن يُبنَىٰ عليهِ أَو يُزادَ عليهِ، أَو يُكتَبَ عليهِ**»(٣).

ومَا نهَىٰ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن ذلكَ إلَّا مِن بابِ سَدِّ الذرائعِ المُفضِيةِ إلَىٰ

---

(١) رواه مسلم (٣٦٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (٣٢٤٢).

(٣) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبو داود والنسائي والترمذي، انظر: «أحكام الجنائز» (ص٢٠٤).

التعلُّقِ بأصحَابِ القبورِ.

ولذلكَ فقَد صارَ البناءُ علَىٰ القبورِ ووضعُ اللَّبِن عليهَا ذريعةً للغلوِّ فِي أصحَابِهَا، حتَّىٰ عُبِدَت مِن دُونِ اللهِ فِي كثيرٍ مِنَ البلدانِ، فصارَ الناسُ يدعونهَا مِن دونِ اللهِ، ويتبرَّكُونَ بهَا، وقَد تعلَّقَت بهَا قلُوبُهُم.

وقَد نهَىٰ الشارعُ الحكيمُ عَن ذلكَ؛ سَدًّا لكلِّ بابٍ يُفضِي إلَىٰ الشرِّ والانحرافِ بالناسِ عنِ التدَيُّنِ الصَّحيحِ للهِ ربِّ العَالَمِينَ.

ولَا بأسَ لِمَن أرادَ أَن يُمَيِّزَ قبرَ قريبِهِ، أَن يضعَ عليهِ علامةً كحجرٍ أَو حديدٍ أَو عظمٍ ونحوِهِ، كمَا عَلَّمَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبرَ عثمانَ بنِ مظعون بحجرٍ، وقالَ: «**أَتَعَلَّمُ بهَا قبرَ أخِي**»[1].

ولَا يجوزُ وضعُ الرياحينَ والورُودِ علَىٰ القبورِ، فهذَا مِن فعلِ الكفارِ والمشركينَ فِي قبورِهِم، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**مَن تشبَّهَ بقومٍ فهوَ منهُم**»[2].

ولَا يوطأُ علَىٰ القَبرِ ولَا يُجلَسُ عليهِ؛ لقولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأن يجلسَ أحدُكُم علَىٰ جمرةٍ فتحرقَ ثيابَهُ فتخلصَ إلَىٰ جِلدِهِ خيرٌ مِن أن يطأَ علَىٰ قبرٍ**»[3].

وتحرمُ الصلاةُ إلَىٰ القبورِ؛ لقولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُصَلُّوا إلَىٰ القبورِ ولَا تجلسُوا عليهَا**»[4].

كمَا أَنَّهَا تحرمُ الصلاةُ فِي مسجدٍ أُقيمَ علَىٰ قبرٍ، سواءً كانَ هذَا القبرُ فِي القبلةِ أَو غيرِهَا، سدًّا لذريعةِ الشركِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعنةُ اللهِ علَىٰ اليهودِ والنصارَىٰ**

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٧١١).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٦٩١).

(٣) رواه مسلم (١٦١٢).

(٤) رواه مسلم (١٦١٤).

اتخذُوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ»(١)؛ أَي: موضعًا للعبادةِ.

لذَا فالواجبُ عليكَ أَيُّهَا المسلمُ إِن دخَلتَ مسجدًا فيهِ قبرٌ، أَلَّا تصلِّي فيهِ؛ لأنَّ هذَا حرامٌ، وصاحبهُ متوعَّدٌ باللعنةِ علَىٰ لسانِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَد نصَّ أهلُ العلمِ علَىٰ أنَّ المسلمَ لَو لَم يكُن فِي بلدتِهِ إِلَّا مسجدٌ واحدٌ، وهذَا المسجدُ فيهِ قبرٌ، فإِنَّ عليهِ أَن يصلِّيَ فِي بيتِهِ، ولَا يصلِّي فِي المسجدِ، ومَن صلَّىٰ فِي المساجدِ الَّتِي فيهَا القبورُ فصلاتُهُ باطلةٌ وعليهِ الإعادةُ.

ولَا يجوزُ الدعاءُ عندَ قبرِ أيِّ أحدٍ كانَ، ولَو كانَ نبيًّا أَو وليًّا، ظنًّا منهُ أَنَّ الدعاءَ عندَ قبرهِ مُبارَكٌ، فهذَا مُنكَرٌ شنيعٌ لَا يجوزُ لمسلمٍ عاقلٍ أَن يفعلَهُ.

أَمَّا مَن دعَا صاحبَ القبرِ لجلبِ نفعٍ أَو دفعِ ضرٍّ، فهذَا ليسَ منَ اللهِ فِي شَيءٍ، بَل هوَ مشركٌ خارجٌ مِن ملَّةِ الإسلامِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٢).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مَخلُوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هُدَاةِ الأنامِ ومصابيحِ الدجَىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٤١٧)، ومسلم (٨٢٣).

(٢) سورة النساء:٤٨.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فإنَّ مِن أحكامِ الوفاةِ حكمًا يتعلَّقُ بالمرأةِ المتوفَّىٰ عنهَا زوجُهَا، وهوَ أنَّ الواجبَ فِي حقِّ مَن توفيَ عنهَا زوجُهَا أَن تُحِدَّ عليهِ إِلَىٰ أجلٍ مقدَّرٍ.

والإحدادُ: يُقصدُ فيهِ أَن تتركَ المرأةُ الَّتِي ماتَ زوجُهَا كلَّ مَا يدعُو إِلَىٰ نكاحِهَا منَ الطيبِ والزينةِ والخروجِ منَ المنزلِ لغيرِ حاجةٍ حتَّىٰ تنتهيَ عدَّتُهَا.

وتنتهِي عدَّةُ المرأةِ إِن توفيَ عنهَا زوجُهَا وهيَ حاملٌ بوضعِ الحملِ، طالَ زمنُهُ أَم قصُرَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿**وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾[1].

وإِن توفِّيَ عنهَا وهيَ ليسَت بحاملٍ، أَو لَم يدخُل بهَا أصلًا، فعدَّتُهَا أربعةُ أشهرٍ وعشرةُ أيامٍ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[2].

وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يحِلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أَن تحدَّ فوقَ ثلاثٍ إلَّا علَىٰ زَوجٍ أربعةَ أشهُرٍ وعَشرًا**»[3].

وعليهِ فإنَّهُ يُعرَفُ مِن خلالِ هذهِ النصوصِ أنَّهُ لَا يجوزُ للمرأةِ أَن تُحِدَّ علَىٰ غيرِ زوجِهَا أكثرَ مِن ثلاثةِ أيامٍ.

ويلزمُ المحِدَّةَ أَن تجتنبَ أمورًا نصَّ الشارعُ عليهَا، فيَحرُمُ عليهَا أَن تباشرَهَا فِي عدَّتِهَا، وحتَّىٰ يبلغَ الكتابُ أجلَهُ.

---

(١) سورة الطلاق: ٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٤.

(٣) رواه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٢٧٣٣).

فيلزمُهَا أَن تجتنبَ الزينةَ فِي مَلبَسِهَا، فتلبسُ الثيابَ العاديَّةَ غيرَ المُزَينةِ، وأَن تجتنبَ الطيبَ فِي البدنِ والملبسِ، وأَن تجتنبَ الحنَّاءَ والكحلَ والأصباغَ الَّتِي تتزينُ بهَا النساءُ، كمَا يلزمُهَا أَن تَجتنبَ الحليَّ.

وقَد صحَّ بذلكَ قولُهُ ﷺ: «**المتوفَّىٰ عنهَا زوجُهَا لَا تلبَسُ المُعصفَرَ مِنَ الثيابِ، ولَا المُمَشَّقةَ، ولَا الحُليَّ، ولَا تختضِبُ ولَا تكتحلُ**»(١).

ويجوزُ لهَا إذَا اغتسلَت مِن حيضِهَا، أَن تأخذَ شيئًا يسيرًا منَ الطيبِ تتبعُ بهِ أثرَ الدمِ لإزالةِ الرائحةِ الكريهةِ؛ لقولهِ ﷺ: «**لَا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أَن تحدَّ فوقَ ثلاثٍ إلَّا علَىٰ زوجٍ، فإنَّهَا لَا تكتحلُ، ولَا تلبسُ ثوبًا مصبوغًا إلَّا ثوبَ عَصْبٍ، ولَا تمسُّ طيبًا، إلَّا إذَا طهُرَت نُبذةً مِن قُسْطٍ أَو أظفارٍ**»(٢).

كمَا يجبُ علَىٰ المحدَّةِ أَن تلزمَ بيتَهَا الَّذِي ماتَ عنهَا زوجُهَا وهيَ فيهِ، حتَّىٰ تنقضِي عدَّتُهَا؛ لقولهِ ﷺ للفريعةِ بنتِ مالكٍ حينَ تُوفِّيَ عنهَا زوجُهَا: «**امكثِي فِي بيتِكِ حتَّىٰ يبلغَ الكتابُ أجلَهُ**»(٣).

ولَا يجوزُ لهَا أَن تنتقِلَ عَن بيتِهَا إلَّا لضَرُورةٍ، كأَنْ تخافَ علَىٰ نفسِهَا، أَو تتحوَّلُ منهُ قهرًا، أَو يكونُ مستأجرًا وتنتهِي مدَّةُ الإجارةِ، ونحوُ ذلكَ.

ويجوزُ لهَا الخروجُ مِن منزلِهَا بالنهارِ لحاجَةٍ كمُرَاجعةِ طبيبٍ، أَو أمرٍ يتوقفُ عليهَا، أَوِ استوحاشِ بيتٍ، ولكِن ليسَ لدرجةِ السرفِ، فإنَّ الخروجَ لغيرِ حاجةٍ لَا يجوزُ، والضروراتُ تُقَدَّرُ بقدرِهَا وقَد سُئِلَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن نساءٍ نُعِيَ إليهنَّ أزواجهنَّ وأنهنَّ يستوحِشنَ البيوتَ، فقالَ: «تجتمعنَ بالنهارِ فِي منزلِ إحداكنَّ، ثمَّ

---

(١) رواه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢١٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (٢٧٣٩).

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٠٠).

ترجعُ كلُّ امرأةٍ منكنَّ إِلَىٰ بيتِهَا بالليلِ».

ولَا يجوزُ لأحدٍ أَن يُصَرِّحَ بخِطبةِ المعتدَّةِ لوفاةِ زوجِهَا، بَل إِن كانَ يرغبُ بمثلِهَا فيكتفِي بالتعريضِ بذلكَ والتلميحِ، كقولِ القائلِ: «مثلُهَا يُرغبُ بِهِ، لَا تَسبقِينِي بنفسِكِ»، ومَا شابهَ ذلكَ دونَ تَصريحٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[1].

هذَا وإِنَّهُ يَجُوزُ للمرأةِ المُحِدَّةِ أَن تسلِّمَ علَىٰ محارمِهَا، وأَن تكشفَ وجهَهَا أمامَهُم، وأَن تتحدثَ بالهاتفِ دونَ خضوعٍ بالقولِ، ويجوزُ لهَا الخروجُ إِلَىٰ ساحةِ المنزلِ، وردُّ السلامِ علَىٰ مَن سلَّمَ عليهَا مِن رجالِ قومِهَا وعزَّاهَا بفقيدِهَا دونَ التكشُّفِ لَهُ، ودونَ التعرُّضِ للفتنةِ وفتحِ بابِ الشرِّ، كمَا يجوزُ لهَا صعودُ سطحِ بيتِهَا ولَو فِي ليلةٍ مقمِرَةٍ.

وقَد نبَّهنَا علَىٰ ذلكَ لأنَّ بعضَ الناسِ يشدِّدُ فِي هذهِ الأمورِ دونَ بيِّنَةٍ ولَا دليلٍ، فعسرَ علَىٰ الناسِ بغيرِ حجةٍ، ومنعَهُم ممَّا لَم يأتِ بِهِ مانعٌ.

نسأَلُ اللهَ أَن يرزقَنَا الفقهَ فِي الدينِ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علَىٰ نبيِّنَا محمَّدٍ.

---

(١) سورة البقرة:٢٣٥.

(٥٣) مِن أحكامِ الزكاةِ

الحمدُ للهِ، لَهُ الحمدُ فِي الأولَىٰ والآخِرةِ، أحمدُهُ وأشكرُهُ علَىٰ نِعَمِهِ الباطنةِ والظاهِرَةِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، هدَىٰ بإذنِ ربِّهِ القُلوبَ الحائِرةَ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ نجومِ الدُّجَىٰ والبدورِ السافرةِ، والتابعينَ ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الزكاةَ مِن أهمِّ أركانِ الإسلامِ بعدَ الصلاةِ، ولهذهِ الأهميةِ فقَد قرنَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصلاةِ كثيرًا فِي كتابِهِ العزيزِ، كمَا فِي قولِهِ تعالَىٰ: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾[١]، ولهَا فوائدُ عظيمةٌ تعودُ علَىٰ الفردِ والمجتمعِ، فبذلُهَا ينجِّي العبدَ مِن حرِّ يومِ القيامةِ، فقَد قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلُّ امرئٍ فِي ظلِّ صدقتِهِ يومَ القيامةِ**»[٢]، ويزكِّي المالَ، فإنَّ الإنسانَ إذَا تصدَّقَ مِن مالِهِ فإنَّ ذلكَ يقيهِ الآفاتِ، ويفتحُ اللهُ لَهُ زيادةَ رزقٍ بسببِ هذهِ الصدقةِ، ولهذَا جاءَ فِي الحديثِ: «**مَا نقصَتْ صَدقةٌ مِن مالٍ**»[٣]، كمَا أَنَّهَا سببٌ لنزولِ الخيراتِ، ففِي الحديثِ: «**مَا منعَ قومٌ زكاةَ أموالِهِم إلَّا مُنِعُوا القَطرَ مِن السماءِ**»[٤]، وتكفِّرُ الخطايَا، كمَا قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كمَا يُطفِئُ الماءُ النارَ**»[٥].

---

(١) البقرة:٤٣.

(٢) رواه أحمد (١٧٣٣٣)، وهو حسن، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٧٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٠٦).

(٥) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٥١٣٦).

هذَا وإنَّ للزكاةِ أحكامًا مِنَ الضروريِّ معرفتُهَا، للقيامِ بِهَا علَىٰ الوجهِ المطلوبِ، وليفقَهَ المُسلمُ أداءَهَا كمَا أمرَ اللهُ سبحانَهُ.

ومِن حكمةِ اللهِ وإتقانِهِ فِي فرضِهِ وشرائعِهِ: أنَّهُ جعلَ لهَا أوصافًا معيَّنَةً لَا تجبُ إلَّا بوجودِهَا.

فلَا تجبُ الزكاةُ فِي المالِ إلَّا إذَا بلغَ النصابَ، وهوَ القدرُ الَّذِي رتَّبَ الشارعُ وجوبَ الزكاةِ علَىٰ بلوغِهِ، ودليلُ اشتراطِ ملكِ النصابِ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ فيمَا دونَ خمسةِ أوسقٍ صدقةٌ، ولَا فيمَا دونَ خمسِ أواقٍ صدقةٌ، ولَا فيمَا دونَ خمسِ ذَوْدٍ صدقةٌ**»(١).

كمَا يُشترطُ مُضيُّ الحَوْلِ؛ أَي: تمامُهُ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا زكاةَ فِي مالٍ حتَّىٰ يحولَ عليهِ الحولُ**»(٢)، ويُستثنَىٰ مِن ذلكَ الخارجُ مِنَ الأرضِ فإنَّ الزكاةَ تجبُ فيهِ وقتَ حصَادِهِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾(٣).

والأموالُ الَّتِي تَجِبُ فيهَا الزكاةُ خَمسَةُ أصنافٍ: الذهبُ، والفضةُ، وعُروضُ التجارةِ، والخارجُ منَ الأرضِ، وبهيمةُ الأنعامِ منَ الإبلِ والبَقرِ والغنمِ.

فتجبُ الزكاةُ فِي الذهبِ والفضةِ، والوزنُ المعتبَرُ فِي نصابِ الذهبِ: عشرونَ مثقالًا؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا كانَ لكَ عشرونَ دينارًا وحالَ عليهَا الحولُ، ففيهَا نصفُ دينارٍ**»(٤)، ويساوِي خمسةً وثمانينَ جرامًا مِنَ الذهبِ الخالصِ.

ونصابُ الفضةِ: مائةٌ وأربعونَ مثقالًا، وتبلغُ خَمسَمِائةٍ وخَمسَةً وتِسعينَ جرامًا،

(١) رواه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (٩٧٩).
(٢) رواه ابن ماجه (١٧٩٣)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٧٨٧).
(٣) الأنعام: ١٤١.
(٤) رواه أبو داود (١٥٧٣)، وهو صحيح، انظر: «صحيح أبي داود» (١٤٠٥).

لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ فيمَا دونَ خمسِ أواقٍ صَدَقةٌ**»(١).

والأوراقُ النقديَّةُ بمَنزلةِ النقدينِ فِي وجوبِ الزكاةِ؛ لدخولِهَا فِي عمومِ قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أعلِمهُم أنَّ اللهَ افترضَ عليهِم صدقةً فِي أموالِهِم**»(٢).

والزكاةُ فِي هذهِ العُملاتِ واجبةٌ مطلقًا، سواءٌ قصدَ بِهَا التجارةَ أَو لَا، فلَو كانَ الإنسانُ عندَهُ مالٌ ليتزوَّجَ بِهِ، فحالَ عليهِ الحولُ فعليهِ الزكاةُ فيهِ، ولَو كانَ عندَهُ مالٌ مِنَ النقودِ ليشتريَ بهِ بيتًا، فحالَ عليهِ الحولُ فتجبُ عليهِ الزكاةُ، ولَو كانَ يجمعُ دراهِمَ مِن أجلِ أَن يحجَّ بِهَا، فعليهِ الزكاةُ إذَا حالَ عليهَا الحولُ.

ويجبُ فيهَا ربعُ العشرِ، وهوَ واحدٌ مِن أربعينَ، فمثلًا أربعونَ مليونًا زكاتُهَا مليونٌ، وذلكَ بقِسمَتِهَا علَىٰ أربعينَ.

ولَا يُضمُّ الذهبُ إلَىٰ الفضةِ فِي تكميلِ النصابِ، كمَا أنَّ الشعيرَ لَا يُضَمُّ إلَىٰ الحنطةِ فِي تكميلِ النصابِ، وكذلكَ لَو كانَ عندَ الإنسانِ نصفُ نصابٍ مِنَ الضأنِ ونصفُ نصَابٍ مِنَ البقرِ، فلَا يُكَمَّلُ أحدُهُمَا بالآخرِ.

ولَا زكاةَ فِي الحليِّ المُعَدِّ للاستعمالِ الشَّخصيِّ، أَوِ العاريةِ وهيَ بذلُ العينِ لِمَن ينتفعُ بِهَا ويَرُدَّهَا، وهيَ إحسانٌ محضٌ، وبهِ قالَ خمسةٌ مِنَ الصحابةِ: أنسٌ، وجابرٌ، وابنُ عمرَ، وعائشةُ، وأسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقيلَ بوجوبِ زكاةِ الحليِّ مِنَ الذهبِ والفضةِ عمُومًا، والأحوطُ إخراجُ الزكاةِ فيهِ لِمَن قدرَ علَىٰ ذلكَ خُروجًا مِنَ الخلافِ، وهذهِ المسألةُ قَدِ اختلفَ فيهَا الناسُ اختلافًا كثيرًا.

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (٩٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

فإن أُعِدَّ الحليُّ للأجرةِ، بأَن يكونَ عندَ المرأةِ حليٌّ تُعِدُّهُ للإيجارِ، تؤجِّرَهُ علَىٰ النساءِ فِي المناسباتِ ففيهِ الزكاةُ؛ لأنَّهُ خرجَ عَنْ الاستِعمَالِ الَّذِي أسقطَ الزكاةَ، وصارَ معدًّا للنماءِ، وكذلكَ إذَا أُعِدَّ للنفقةِ، بأَن يكونَ عندَ امرأةٍ حليٌّ أعدَّتهُ للنفقةِ كلَّمَا احتاجَت إلَىٰ طعامٍ أَو شَرابٍ أَو أجرةِ بيتٍ، أَو غيرِ ذلكَ، أخذَت منهُ وباعَت وأنفقَت، ففيهِ الزكاةُ؛ لأنَّهُ الآنَ يشبِهُ النقودَ حيثُ أُعِدَّ للبيعِ أَوِ الشراءِ، أَو نحوِ ذلكَ.

وتجبُ الزكاةُ فِي بَهيمَةِ الأنعامِ مِنَ الإبلِ، والبقرِ: وتتبعُهَا الجواميسُ، والغنمِ: وتشملُ الماعزَ والضأنَ، إذَا اتَّخذَهَا للدرِّ والنسلِ.

ودليلُ وجوبِ الزكاةِ فيهَا: مَا جاءَ فِي كتابِ أَبِي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلَىٰ أهلِ البحرينِ، وفيهِ: «فِي أربعٍ وعشرينَ مِنَ الإبلِ فمَا دونَهَا مِن كلِّ خمسٍ شاةٌ، وفيهِ: وفِي صدقةِ الغنمِ فِي سائمَتِهَا إذَا كانَت أربعينَ ففيهَا شاةٌ إلَىٰ عشرينَ ومائةِ شاةٍ»[1].

وأمَّا البقرُ فقَد جاءَ ذكرُهَا فِي قولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِي ثلاثينَ مِنَ البقَرِ تبيعٌ، أَو تبيعةٌ، وفِي أربعينَ مُسِنَّةٌ**»[2].

ولَا تجبُ الزكاةُ فِي بهيمةِ الأنعامِ حتَّىٰ تبلغَ النِّصابَ وحتَّىٰ تكونَ سائمةً، والسائمةُ: هيَ الَّتِي ترعَىٰ المباحَ الَّذِي نبتَ بفعلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الحولَ أَو أكثرَهُ.

ونصابُ الإبلِ خمسٌ، ونصابُ البقرِ ثلاثونَ، ونصابُ الغنمِ أربعونَ شاةٍ، وقَد دلَّت علَىٰ ذلكَ السنَّةُ النبويَّةُ.

وتجبُ الزكاةُ فيمَا خرَجَ منَ الأرضِ منَ الحُبوبِ والثِّمارِ، وهوَ مخصوصٌ بأربعةِ أشياءَ: الحنطةُ، والشعيرُ، والتمرُ، والزبيبُ؛ لحَديثِ أَبِي موسَىٰ الأشعريِّ

(١) رواه البخاري (١٤٥٤).
(٢) رواه أبو داود (١٥٧٦)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٧٩٥).

ومعاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لَهُمَا: «**لَا تأخُذَا فِي الصدقَةِ إلَّا مِن هذِهِ الأصنافِ الأربعةِ: الشعيرُ، والحنطةُ، والزبيبُ، والتمرُ**»(١).

ويُشترَطُ فِي وجوبِ زكاتِهَا بلوغُ النصابِ وهوَ خمسةُ أوسقٍ؛ لقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ فيمَا دونَ خمسةِ أوسقٍ صدقةٌ**»(٢)، والوسقُ: ستونَ صاعًا.

ومقدارُ مَا يخرجُ مِن زكاتِهَا العشرُ فيمَا سُقيَ بلَا مؤونةٍ، ومَا سُقِيَ بِلَا مؤونةٍ يشملُ مَا يشربُ بعروقِهِ، فلَا يحتاجُ إلَىٰ ماءٍ، ومَا يكونُ مِنَ الأنهارِ والعيونِ، ومَا يكونُ مِنَ الأمطارِ.

ويجبُ معَ المؤونةِ نصفُ العُشرِ؛ ويدلُّ علَىٰ ذلكَ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِيمَا سقَتِ السماءُ والعيونُ أَو كانَ عثريًّا العشرُ، وفيمَا سُقيَ بالنَّضحِ نِصفُ العُشرِ**»(٣).

وَلا يُضَمُّ جنسٌ إلَىٰ آخرَ، فلَو كانَ عندَهُ مزرعةٌ نصفُها شَعيرٌ، ونِصفُها حِنطةٌ، وكُلُّ واحدٍ نِصفُ النصَابِ، فإِنَّهُ لا يُضَمُّ بَعضُهُ إلَىٰ بعضٍ؛ لاختِلافِ الجِنسِ، كمَا لَا تُضَمُّ البقرُ إلَىٰ الإبلِ أو الغنَمِ؛ لأنَّ الجنسَ مُختلفٌ.

وَلَا يستقِرُّ وجوبُ الزكَاةِ إلَّا بجَعلِهَا في البَيدرِ، وهُو المَحلُّ الذِي تُجمعُ فيهِ الثمارُ والزُّروعُ، والدَّليلُ عَلىٰ أنَّ استقرَارَ الوجُوبِ يكونُ بجعلِهَا في البَيدرِ قَولُه تعَالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾(٤)؛ وإذَا حُصِدَ الزَّرعُ فإنهُ يجعَلُ في البيادِرِ فورًا.

وتجبُ الزكاةُ في عُروضِ التجارَةِ، وهِي: كلُّ مَا أُعِدَّ للتجارَةِ مِن أيِّ نَوعٍ، ومِن أيِّ صنفٍ كانَ، كمَا أنهَا أعمُّ أموالِ الزَّكاةِ وأشمَلُها؛ إذْ إنهَا تدخُلُ في العقارَاتِ، وفِي

---

(١) رواه البيهقي (٧٤٥١)، وهو صحيح، انظر: «تمام المنة» للألباني (ص٣٦٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (٩٧٩).

(٣) رواه البخاري (١٤٨٣).

(٤) الأنعام: ١٤١.

الأقمشَةِ، وفِي الأوانِي، وفِي الحيَوانِ، وفِي كلِّ شَيءٍ.

ودليلُ وجُوبِ الزكاةِ فِيهَا دخُولهَا فِي عمُوم قَولِ النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمُعاذِ بنِ جبلٍ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ حينَ بعثَهُ إِلَىٰ اليَمنِ: «**أَعلِمهُم أنَّ الله افترضَ عليهِم صدقَةً فِي أموالِهِم، تُؤخذُ مِن أغنيَائِهِم فترُدُّ علَىٰ فُقرَائِهِم**»(١)، وعُروضُ التجَارَةِ مَالٌ.

ويُشترطُ لوجُوبِ الزكاةِ فِي عُروضِ التجارَةِ أن تَبلغَ قِيمتُهَا نِصابًا، وتُقَوَّمُ قِيمَتُهَا عندَ تمَامِ الحَولِ بِكَم تُساوِي منَ المَالِ، ثُم يُخرَجُ المِقدارُ الواجبُ علَيهِ وهُوَ رُبعُ العُشرِ، أي: وَاحدٌ مِن أربَعِينَ.

وَلَا تجبُ الزكاةُ فيهَا إلا إِذَا نَوىٰ فيهَا التجارَةَ، فلَو كانَ عندَ إنسانٍ عقاراتٌ لا يريدُ التجارةَ بهَا، ولكِن لو أُعطِي ثَمنًا كَثيرًا باعَهَا فإِنَّها لا تكونُ عُروضَ تجارَةٍ؛ لأنَّهُ لم يَنوِها للتجارَةِ، وكلُّ إنسانٍ إِذَا أتاهُ ثَمنٌ كَثيرٌ لِمَا في يدِهِ، فالغالِبُ أنهُ سَيبيعُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حَمدًا كَثيرًا طيبًا مُباركًا فيهِ كمَا يُحبُّ ربُّنَا ويَرضَىٰ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهَدُ أن مُحمدًا عَبدُهُ ورسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ، ومَن اهتدَىٰ بهَديهِم إِلَىٰ يَومِ الدِّينِ.

أمَّا بَعدُ:

فإِنَّهُ ثَمَّةَ أحكامٌ تتعَلَّقُ فِي إخراجِ الزكَاةِ، تَكثُرُ حاجةُ الناسِ إِلَىٰ مَعرفتِهَا، وبيانِ

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

وجهِ الصَّوابِ فِيهَا، **ومِن ذلكَ**: أنهُ يجبُ عَلىٰ مَن وجبَتْ عليهِ الزكاةُ المُبادَرةُ بإخرَاجِها من مُلكِهِ إلَىٰ مُستحقِّها؛ ولَا يُؤخِّرُ ذَلكَ، فإذَا لَم يُمكنْهُ الإخراجُ فورًا؛ كمَا لَو كانَ لهُ دَينٌ في ذمَّةٍ مُوسِرٍ أو فِي ذمةِ مُعسرٍ، وهوَ الآنَ ليسَ بيدِهِ، فَلَا يَلزمُهُ المبادرَةُ بالإخراجِ لعَدمِ إمكَانِهِ.

ويجوزُ أنْ يُؤخرَ الزكاةَ لمَصلحةِ الفقرَاءِ، فمَثلًا: فِي رمضانَ يكثُرُ إخراجُ الزكاةِ ويَغتني الفُقراءُ أو أكثرُهُم، لكِن في أيامِ الشتاءِ التِي لا تُوافقُ رمضانَ يكونونَ أشدَّ حاجةً، ويَقلُّ مَن يُخرجُ الزكاةَ، فهُنَا يجوزُ تأخيرُهَا؛ لأنَّ في ذلكَ مَصلحةً لمَنْ يستحِقُّها، لكِن بِشرطِ أن يفرِزَهَا عنْ مَالهِ، أَوْ أنْ يُوصيَ بهَا.

كمَا يجوزُ لهُ أن يؤخرَ الزكاةَ من أجلِ أن يتحرَّىٰ مَن يستحقُّها؛ لأنَّ فِي ذلكَ مصلحةَ المستحِقِّ.

وتجبُ الزكاةُ فِي مالِ الصبيِّ والمجنُونِ؛ لأنَّها واجبةٌ في المَالِ، فَلا يُشترطُ البلوغُ والعقلُ، ويُخرِجُ الزكاةَ الواجبةَ في مالِ الصبيِّ والمجنونِ وَليُّ كلٍّ منهُمَا، ولَا ينتظرُ بُلوغَ الصَّغيرِ، وعَقلَ المَجنونِ، لوجُوبِ إخراجِ الزكاةِ عَلىٰ الفورِ.

وَلَا يُجزئُ إخراجُ الزكاةِ إلَّا بنيةٍ ممَّن تجبُ عَليهِ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنمَا الأعمالُ بالنيَّاتِ، وإنمَا لكلِّ امرئٍ مَا نَوَىٰ**»[1]، ولَو أخرجَ رجلٌ الزكاةَ عَن آخرَ بدُونِ تَوكيلٍ، فإنَّها تُجزئُ إذَا أجازَ ذلكَ مَن تَجبُ عَليهِ الزكَاةُ.

والأفضلُ إخراجُ زكاةِ كلِّ مالٍ فِي فقراءِ بَلدِهِ؛ لأنهُ أيسَرُ للمُكلفِ؛ وأكثَرُ أمانًا؛ ولأنَّ فُقراءَ بلدِهِ تتعلَّقُ أطماعُهُم بمَا عندَهُ منَ المَالِ، بخِلافِ الأبعدِينَ، فربَّما لَا يعرفونَ عنهُ شَيئًا.

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

ويجوزُ نقلُها إِلَىٰ البلدِ البعيدِ والقَريبِ للحاجَةِ؛ مثلُ مَا لَو كانَ البلدُ البعيدُ أهلُهُ أَشَدُّ فقرًا، كمَا يجوزُ نقلُها للمَصلحةِ، مثلُ أنْ يكونَ لصاحبِ الزكاةِ أقاربُ فُقراءُ فِي بلدٍ بعيدٍ، ففِي دَفعِها لهُم تحصُلُ المَصلحةُ، وهِي صدقةٌ وصِلةُ رحِمٍ.

لكِن إذَا نقلَ الزكاةَ إِلَىٰ بلدٍ آخَرَ؛ فمُؤنةُ النقلِ عَلىٰ صاحبِ المَالِ، لَا مِن الزكَاةِ.

ويجوزُ لمَن وجبَتْ عَليهِ الزكاةُ أنْ يُعجِّلَها لحَولَيْنِ إنْ أرادَ ذلكَ؛ لِمَا وردَ عَن النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه تعجَّلَ منَ العبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صدقةَ سنتَيْنِ(١).

ولَو عجلَ الزكاةَ ثُمَّ زادَ النصابُ فتجبُ الزكاةُ فِي الزيادَةِ أيضًا.

ولَا زكاةَ فِي الدَّينِ عَلىٰ المُعسرِ إِلَّا إذَا قبضَهُ، فإنهُ يُزكيهِ سَنةً واحدةً فقَطْ.

ولَا يجوزُ أنْ يُسقطَ الدائنُ عنِ المَدينِ ما لَهُ عليهِ منَ الدَّينِ ويَنويهِ منَ الزكاةِ.

ومَن كانَ لهُ عِيالٌ يَعولُهُم منْ زَوجاتٍ وأولادٍ وإخوَةٍ، فإنَّهُ يَأخذُ مَا يَكفِيهِم وَلَو كانَ مَالًا كثيرًا؛ لأنَّ عائلتَهُ لازمةٌ لهُ، فيُعطَىٰ مَا يَكفيهِ ويَكفِي عِيالَهُ؛ لأنَّ ذلكَ مِن بابِ سدِّ الحاجَةِ.

وأهلُ الزكاةِ المُستحقُّونَ لهَا ثمانيَةُ أصنافٍ عَلىٰ سَبيلِ الحصرِ، كمَا فِي قولِهِ تعَالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢)، وَلَا يجوزُ أنْ تُصرفَ الزكاةُ فِي غيرِهِم.

ويجوزُ صرفُ الزكاةِ إِلَىٰ صِنفٍ واحدٍ مِنَ الأصنافِ الثمانيةِ، كمَا يجوزُ أنْ تُدفعَ لفردٍ واحدٍ مِن أحدِ هذهِ الأصنَافِ.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٢٤)، وهو حسن، انظر: «إرواء الغليل» (٨٥٧).

(٢) التوبة: ٦٠.

ويسَنُّ صَرفُ الزكاةِ فِي أقارِبِهِ الذينَ لَا تَلزمُهُ مُؤونتُهُم مثلُ أخِيهِ، وعمِّهِ، وخالِهِ، وابنِ أخِيهِ، ومَا أشبَهَ ذلكَ؛ لقَولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**صَدقتُكَ علَىٰ ذِي القرابةِ صدقةٌ وصِلَةٌ**»(١).

٭٭٭

(١) رواه الترمذي (٦٥٨)، وهو حسن، انظر: «إرواء الغليل» (٧٩١).

(٥٤) رمضَانُ شهرُ الخيرِ

الحمدُ للهِ الذِي فرضَ الصيامَ عَلىٰ المؤمنينَ مَوقُوتًا بشَهْرٍ، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، لهُ المُلكُ ولَهُ الحَمدُ، ولهُ الخَلقُ وَالأمْر، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عَليهِ وَعَلىٰ آلهِ وَصَحبِهِ والتَّابِعينَ لَهُم بإحسَانٍ إلَىٰ يَومِ الحَشْرِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلىٰ عبادِهِ أنْ جدَّدَ لَهُم مواسمَ الخيرِ؛ ليتزوَّدُوا مِنَ الأعمالِ الصالحةِ، ويتقرَّبُوا منهُ سُبحانَهُ بأنواعِ القُربِ والطاعاتِ.

ومِن هذهِ المَواسمِ العظيمَةِ التِي امتنَّ اللهُ بهَا عَلىٰ عبادِهِ شَهرُ رَمضَانَ المُباركُ، الذِي أظلَّنا هذهِ الأيَّامَ، وقَدْ خصَّهُ اللهُ تعَالىٰ بأنواعٍ منَ المِننِ والكراماتِ وأعظَمَ فيهِ الأجورَ، مِن أجلِ أنْ يُكثِرَ المسلمُ مِن العملِ الصالحِ مَادامَ فِي أرضِ الزَّرعِ والعمَلِ، فإذَا جاءَ موسمُ الحصَادِ حَمدَ المَرءُ سَعيَهُ فِي الأيامِ الخَاليَةِ.

فنسألُ اللهُ تعَالىٰ أنْ يُوفقَنَا لصيَامِهِ وقيامِهِ والعَملِ الصَّالح فيهِ، وأن يتقبلَ ذَلكَ منَّا.

وممَّا لا بُدَّ للمُسلمِ أن يَعلمَهُ وهُوَ فِي مُقتبلِ هذَا الشَّهرِ أنْ يَعظُمَ فَرحُهُ لقُدومِ شهرِ رمضانَ، حيثُ امتنَّ اللهُ عَليهِ بشُهودِهِ، ممَّا قَد يكُونُ سَببًا في رَفعِ درجاتِهِ وتَكفيرِ سيئاتِهِ، ولذلكَ فقَد كانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذَا جاءَ رمضَانُ يُبشرُ أصحابَهُ بقُدومِهِ لمَا فيهِ منَ الفضَائلِ العظيمَةِ، والخِصالِ الجَميلةِ الجَسيمةِ، ليَحُثَّهُم عَلىٰ العملِ الصَّالحِ، فيُشمِّرُوا عنْ ساعدِ الجِدِّ بالحصُولِ عَلىٰ النصيبِ الأوفَرِ منَ الخَيرِ الذِي ساقَهُ اللهُ

إليهِم، فكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**جاءكُم رمضانُ، شَهرٌ كتبَ اللهُ عليكُم صيامَهُ، تُفتحُ فيهِ أبوابُ السماءِ، وتُغلقُ فيهِ أبوابُ الجَحيمِ، وتُغلُّ فيهِ الشَّياطينُ، فِيهِ ليلةٌ خَيرٌ مِن ألفِ شَهرٍ، مَنْ حُرِمَ خيرَهَا فقَدْ حُرِمَ**»(١).

وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إذَا كانَ أولُ ليلةٍ مِن رمضانَ صُفِّدتِ الشياطينُ ومردَةُ الجنِّ، وغُلِّقتْ أبوابُ النارِ فلَم يُفتَح منهَا بابٌ، وفُتحتْ أبوابُ الجنةِ فلَم يُغلقْ منهَا بابٌ، ونادَىٰ مُنادٍ: يَا باغِيَ الخيرِ أقبِل، ويَا باغيَ الشرِّ أقصِرْ، وللهِ عُتقاءُ مِن النارِ، وذَلكَ كلَّ ليلَةٍ**»(٢)، فمَا أعظمَ الفضلَ والإحسانَ، ومَا أعظمَهَا من منَّةٍ يمتنُّ اللهُ بهَا علىٰ عبادِهِ.

وهذَا ممَّا يدعُو المسلمَ أنْ يتعلقَ قلبُهُ بهذَا الموسمِ المبارَكِ، وأنْ ينتظرَهُ بفارغِ الصَّبرِ، فإذَا شهدَهُ أرَىٰ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مِن نفسِهِ خَيرًا، وقَد كانَ هذَا هوَ حالُ السلفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، حيثُ تعلَّقتْ قلوبُهُم بشَهرِ رمضانَ شهرِ الجودِ والإحسانِ.

قال مُعلَّىٰ بن الفَضلِ: «كانُوا يدعُونَ اللهَ ستةَ أشهُرٍ أنْ يبلِّغَهُم رمضانَ، ثُمَّ يدعونَهُ ستةَ أشهُرٍ أنْ يتقبَّلَهُ منهُم».

إنَّ الصومَ منْ فرائضِ الإسلامِ وأركانِهِ العظَامِ، وقدْ فرضَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ علَىٰ عبادِهِ ليعلَمَ مَن يُطيعُهُ ممَّنْ يُخالفُ أمرَهُ، قالَ تعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٣).

فالصومُ فُرِضَ علَىٰ العبادِ ابتلاءً لتقواهُم، فيتبَيَّنُ مَنْ عمِلَ بطاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ممَّنْ خالفَ أمرَهُ، ولَمْ يُفرَضِ الصيامُ ليُحرَمَ الناسُ منْ أنواعِ المآكِلِ والمشَارِبِ والمَلاذِّ،

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٩٩).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٦٨٢).
(٣) سورة البقرة: ١٨٣.

فإنَّ اللهَ تعَالىٰ غنيٌّ عنْ تعذيبِ عبادِهِ أنفُسَهُم، ولكنَّ الغايةَ العُظمَىٰ منَ الصومِ هيَ أنْ ينالَ العبدُ درجةَ التَّقوَىٰ، لذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَن لَم يدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بِهِ والجَهلَ، فلَيسَ للهِ حاجةٌ فِي أنْ يدَعَ طعامَهُ وشَرابَهُ**»(١).

فتأمَّلُوا ذلكَ حقَّ التأملِ، واجعَلُوا الصيامَ وسيلةً تتقربونَ بهَا إلىٰ اللهِ وتَفوزونَ بتقوَاهُ؛ لأنَّ مَن اتقَىٰ اللهَ فتحَ لهُ أبوابَ السعادَةِ وأنالَهُ حسنَ العاقبَةِ.

هذَا وليُعلمَ أنَّ الصيامَ يطهِّرُ النفوسَ ويُهذبُها ويُزكيهَا منَ الأخلاقِ السيئَةِ والصفَاتِ الذَّميمَةِ كالبُخلِ والبَطَرِ والحرصِ، ويُعَوِّدُها الأخلاقَ الكريمَةَ كالصَّبرِ والجُودِ والحِلمِ، فاجعَلُوا هذَا الشهرَ مُدرِّبًا لكُم علَىٰ الأخلاقِ الحسنَةِ فتعمَلونَ بهَا فِي مُستقبلِ أيامِكُم، ومَن علمَ سيرةَ النبيِّ ﷺ وعملَهُ فِي رمضانَ رَأىٰ ذلكَ واضِحًا بينًا فِي أخذِهِ بمَكارمِ الأخلاقِ فوقَ ما كانَ يعمَلُهُ فِي غيرِ رمضانَ.

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ الناسِ، وكانَ أجودَ مَا يكُونُ فِي رمضَانَ حينَ يَلقاهُ جِبريلُ، وكانَ جبريلُ يلقاهُ فِي كلِّ ليلةٍ مِن رمضَانَ فيُدارِسُهُ القُرآنَ، فلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ يلقاهُ جِبريلُ أجودَ بالخَيرِ منَ الرِّيحِ المُرسَلَةِ»(٢).

فليجتَهِدِ المُسلمُ فِي هذَا الشَّهرِ الكريمِ علَىٰ تنقيَةِ أخلاقِهِ وتَطهيرِهَا، والأخذِ بمحَاسنِ الصفاتِ ومكَارمِ الأخلاقِ، واجتنابِ المَذمُومِ منهَا، فإنَّ رمضانَ فُرصةٌ لمُراجعَةِ حسَاباتِ النَّفسِ، وتَقويمِ المُعوَجِّ وسَدِّ النقصِ، وليُعلَم أنَّ رمضَانَ شَهرٌ يُضَاعِفُ اللهُ بهِ الأجُورَ ويُكفرُ السيئاتِ، فاجتهدُوا عَلىٰ أنفسِكُم بمَا تنالونَ بِهِ مرضَاةَ

---

(١) رواه البخاري(١٧٧٠).

(٢) رواه البخاري (٥)، ومسلم (٤٢٦٨).

اللهِ، والفوزَ بمِنَّةِ اللهِ تعَالىٰ فيمَا يُسبغُهُ عَلىٰ عبادِهِ مِن أنواعِ الفضَائلِ والكَرامَاتِ، والسعيدُ مَن وفَّقهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للعملِ الصالحِ.

تأمَّلُوا، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقولُ اللهُ تعَالىٰ: كلُّ عمَلِ ابنِ آدمَ لهُ إلَّا الصَّومَ فإنَّهُ لِي وأنَا أجزِي بِهِ، يدعُ طعامَهُ وشرَابَهُ وشهوَتَهُ مِن أجلِي، للصائمِ فرحتَانِ، فرحةٌ عندَ فِطرِهِ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ، ولخُلُوفُ فَمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المِسكِ**»[1].

قال سفيانُ بن عُيينةَ: «إذَا كانَ يومُ القيامةِ يُحاسبُ اللهُ عبدَهُ ويُؤدِّي مَا عليهِ مِن المظالِمِ مِن سائرِ عمَلِهِ حتَّىٰ لَا يبقَىٰ إلَّا الصومُ، فيتحمَّلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا بقِيَ عليهِ مِن المَظالمِ، ويُدخلُهُ بالصَّومِ الجنَّةَ».

والصومُ يكفِّرُ السيئاتِ ويمحُو الخطَايَا، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصلواتُ الخَمسُ، والجمعةُ إلَىٰ الجمعةِ، ورمضانُ إلَىٰ رمضانَ، مُكفراتٌ لمَا بينهُنَّ إذَا اجتُنِبَتِ الكبائِرُ**»[2].

وإذَا بعثَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ كانَ للصائمينَ الجزاءُ الأعظمُ، فيزدادونَ بسببِ ذلكَ غِبطةً وفرحًا لِمَا يجدونَهُ عندَ اللهِ مِنْ ثوابِ الصيامِ مُدخرًا لهُم، فيجدونَهُ أحوجَ مَا كانُوا إليهِ، فالأيامُ خزائنُ للناسِ، ممتلئَةٌ بما خزنُوهُ فيهَا مِنْ خيرٍ وشرٍّ، ويومَ القيامَةِ تُفتحُ هذِهِ الخزَائنُ لأهلِهَا، فالمتقُونَ يجدُونَ فِي خزائنِهِمُ العزَّ والكرامَةَ، والمُذنبونَ يجدونَ في خزائنِهِمُ الحسرَةَ والندَامَةَ.

وممَّا يجبُ عَلىٰ المسلمِ أن يستقبِلَ بِهِ هذَا الشهرَ الكَريم: العزيمةُ الصادقَةُ عَلىٰ التوبةِ مِن سائرِ الذنُوبِ والمعَاصِي، وما تلبَّسَ بِهِ مِن دَرَنِ الآثَامِ، فيَجبُ عَليهِ أن يُقلعَ

---

(١) رواه البخاري (١٧٦١)، ومسلم (١٩٤٥).

(٢) رواه مسلم (٣٤٢).

عنِ الذَّنبِ وأن يندَمَ عليهِ وأن يعزِمَ علىٰ عدمِ العَودةِ إليهِ، وأنْ يكونَ مُخلِصًا بتَوبتِهِ للهِ ربِّ العالَمينَ، ولَا يَتُبْ توبةَ الكذابينَ الذينَ يترکُونَ الذنبَ في رمضانَ وهُم عازمُونَ علَىٰ العودةِ إليهِ إذَا انتَهَىٰ شهرُ الصيامِ، أوِ الذِينَ يتركُونَ الذَّنبَ لأنهُ لَم يَعُد مُتوفِّرًا فِي مُتناوَلِ أيدِيهِم، فهذه توبَةٌ ليسَتْ صادقةً، وحَرِيٌّ بصاحبِها ألَّا يوفَّقَ للخَيرِ.

فأقبِلْ عَلىٰ هذَا الشهرِ واجعَلهُ بدَايةَ العَهدِ لكَ معَ اللهِ، فلعلَّكَ لصِدقِ نِيَّتِكَ تُوفَّقُ لخَيرِ الدنيَا والآخرَةِ، وأنْ يأخُذَ اللهُ بيدَيكَ حيثُ السعادةُ الأبديةُ والحيَاةُ السرمديةُ فِي جناتِ الخُلودِ، ولعلَّكَ إنْ أدركتَ هذَا الشهرَ فإنَّكَ لَا تُتمُّهُ، فعَلىٰ أي حَالٍ تُريدُ أنْ تكونَ آخرَ أيَّامِكَ فِي هذِهِ الدنيَا الفَانيَةِ.

فَتُبْ إلَىٰ اللهِ، وسارِعْ بالتَّوبةِ الصَّدوقِ، فهَاهُو شَهرُ الخَيرِ قَد أظلَّكَ فاغتَنِم أيامَهُ بالعملِ الصالِحِ، فإنمَا هو غَنيمةٌ ساقَهَا اللهُ إليكَ، وإياكَ أنْ تَمضِيَ أيامُهُ ولَم تَستثمِرْهَا بمَا يكونُ سَببًا في سعَادتِكَ.

فأقبِلْ علَىٰ ربِّكَ بقَلبٍ تائبٍ مُنيبٍ، فهَذا شَهرُ الرَّحمةِ، مَن رُحِم فيهِ فَهُوَ المَرحومُ حَقًّا، ومَن حُرمَ خَيرَهُ فَهُوَ المَحرومُ.

وليحرِصِ المُسلمُ فِي هذَا الشهرِ الكَريمِ عَلىٰ التزودِ مِن أعمالِ البِرِّ ونوافلِ العبَاداتِ، وأعظَمُها قراءَةُ القرآنِ، فرمضَانُ شهرُ القُرآنِ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾(١).

وقَدْ كانَ السلفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يجتهدُونَ فِي قراءَتِهِ أيَّما اجتهَادٍ، فقَد كانَ بعضُ السلفِ يختِمُ القرآنَ فِي رمضانَ فِي كلِّ ثلاثِ ليالٍ، وبعضُهم فِي كلِّ سَبعٍ، وجاءَ عن الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهُ كانَ لهُ فِي رمضانَ سِتونَ خَتمةً.

---

(١) سورة البقرة:١٨٥.

وقَد كانَ الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذَا دخلَ رمضانُ قَالَ: إنمَا هوَ تلاوةُ القرآنِ وإطعَامُ الطعامِ.

وكانَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذَا دخلَ رمضانُ يفرُّ مِن قراءَةِ الحَديثِ ومُجالسةِ أهلِ العلمِ، ويُقبلُ علَىٰ تلاوةِ القُرآنِ منَ المُصحَفِ.

وعَلىٰ المُسلمِ أنْ يقرَأَ القُرآنَ بتَدبُّرٍ، ولَا يَهُذُّه كَهَذِّ الشِّعرِ، فلعلَّ اللهَ أن يفتَحَ عَليهِ فتحًا لَم يَكُن يخطُرُ لَهُ عَلىٰ بالٍ، يكونُ سَببًا فِي حياةِ قَلبِهِ.

كمَا أنهُ يَنبغِي عَلىٰ المُسلمِ أن يلزَمَ الأذكَارَ، ويَجعلَ لسَانَهُ دائمَ الذِّكرِ للهِ ربِّ العَالَمينَ، مِن تسبيحٍ وتَحميدٍ وتَهليلٍ وتكبيرٍ واستغفَارٍ، فإنَّ الذكرَ حياةُ القلوبِ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

والذكرُ سَهلٌ ومُيسَّرٌ، لَا عُذرَ لأحَدٍ بتركِهِ؛ لأَنَّهُ مُستطاعٌ لكُلِّ أحدٍ مُتعلِّمٍ وغَيرِ متعلِّمٍ، وصَغيرٍ وكَبيرٍ، فاجتَهدْ بتَقويمِ لسَانِكَ علَىٰ ذِكرِ اللهِ.

وعَلىٰ المسلمِ أنْ يجتهدَ بكثرَةِ الصلوَاتِ، وأعظمُهَا المُحافظةُ عَلىٰ صلاةِ الفريضَةِ معَ جماعةِ المُسلمينَ فِي المَسجدِ، ثُمَّ الإكثَارُ منَ النَّوافِلِ لَا سيَّما صلاةُ التَّراوِيحِ والقيامِ معَ المُسلمينَ، فيشهَدُ حضورَ المُسلمينَ ودُعاءَهُم، فهَذا منَ الخَيرِ الذي يسوقُهُ اللهُ لعبادِهِ ليَرفعَ بهِ درجاتِهم، قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قامَ رمضانَ إيمَانًا واحتسَابًا غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذَنبِهِ**»[2].

فانظُرْ إلَىٰ هذَا الفضلِ العَظيمِ، وانظُر إلَىٰ عِظَمِ الغَنيمةِ فاغتَنِمْهَا، ولَا يَكُن حَالُ المُسلمِ كحَالِ أصحَابِ الغفلَةِ الذينَ لَا يَشهدُونَ جمَاعَةَ المُسلمِينَ، أو الذينَ يُصلونَ

---

(١) سورة الرعد:٢٨.

(٢) رواه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٢٦٦).

العشاءَ ثمَّ ينصرفونَ بعدَ التسليمِ مُسرعينَ ولَا يُصلونَ التراوِيحَ معَ المُسلمينَ، لاهثِينَ وراءَ المجَالسِ الفارغةِ والأعمَالِ المُلهِيةِ، شَاحِّينَ علَىٰ أنفُسِهِم باغتنَامِ أجرِ صَلاةِ القيَامِ التِي تكونُ سَببًا في غُفرانِ الذنوبِ.

كمَا ينبَغِي للمسلمِ أنْ يجتهِدَ فِي صلاةِ القيَامِ فِي العَشرِ الأواخِرِ علَىٰ وَجهِ الخصُوصِ؛ لأنَّ فيهَا ليلةَ القَدرِ التِي هيَ خيرٌ مِنْ ألفِ شَهرٍ، فلعَلَّ المَرءَ أنْ يُدرِكَهَا فتُكتَبَ لهُ السعادَةُ الأبديَّةُ، وقَد كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهِدُ فِي العَشرِ الأواخرِ مِن رمضَانَ أعظَمَ اجتهادٍ، فقَدْ جاءَ فِي الحديثِ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَتْ: «**كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا دخلَ العَشرُ شَدَّ مِئزرَهُ وأحيَا ليلَهُ وأيقَظَ أهلَهُ**»(١).

وهذَا دليلٌ علَىٰ غايَةِ الاجتهادِ، فليَكُنْ لنَا فيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأسوَةُ الحسَنَةُ، ولْنَنْأَ بأنفُسِنا عن مجَالسِ الغَفلةِ التِي لَا تزيدُنَا مِنَ اللهِ إلَّا بُعدًا.

كمَا أنهُ ينبَغِي للمُسلمِ فِي هذِهِ العَشرِ أنْ يتحَرَّىٰ ليلَةَ القَدرِ، وهِيَ أحرَىٰ مَا تكُونُ فِي الوِترِ منَ العَشرِ الأواخِرِ كمَا صحَّ بذَلكَ الحَديثُ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنمَا كانَ تَعميَةُ وقتِهَا عنِ الناسِ لحِكمةٍ عَظيمةٍ، وذلكَ ليَجتهِدُوا فِي سائرِ العَشرِ التِمَاسًا لهَا؛ لقَولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التمسُوهَا فِي العشرِ الأواخِرِ فِي كُلِّ وِترٍ**»(٢)، والتمَاسُها يكونُ بالاجتهَادِ فِي العبادَةِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قامَ ليلةَ القَدرِ إيمَانًا واحتسَابًا غُفرَ لهُ مَا تقَدَّمَ مِن ذنبِهِ**»(٣).

فلعَلَّ المَرءَ أنْ يُدركَهَا فيكونَ قَد وُفِّقَ للخَيرِ الذِي لَم يَكُن يَخطُرُ لَهُ علَىٰ بَالٍ، وقَد قَالَت عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ علِمتُ ليلةَ القدرِ مَا أقولُ فيهَا؟**

(١) رواه البخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٢٠٠٨).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٧٩٢).
(٣) رواه البخاري (١٧٦٨)، ومسلم (١٢٦٨).

قالَ: قُولِي: اللهُمَّ إنكَ عَفوٌّ تحِبُّ العفوَ فاعفُ عَنِّي»(١).

قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾(٢).

ومِمَّا ينبَغِي عَلىٰ المُسلمِ عمَلُهُ فِي هذَا الشهرِ الكَريم: الإحسانُ إِلَىٰ الفقرَاءِ والمُحتاجينَ، وتَلمُّسُ حاجَاتِهم -لاسيَّما من الأَقَاربِ والجِيرانِ-، فإنَّ هذَا هُوَ شَهرُ الجُودِ والإحسَانِ والبَذلِ والعطَاءِ.

وَلا يَنبغِي للمُسلمِ أن يتنعَّمَ بأنواعِ النِّعمِ والخيرَاتِ والمآكلِ والمشَاربِ، وجارُهُ فقيرٌ لا يشعُرُ بحَالِهِ، أوْ أنهُ يشعُرُ بحَالِهِ ويُهمِلُهُ، فإنَّ هذَا مِن أعظَمِ التقصِيرِ.

كمَا يَنبَغي الإحسَانُ للفُقراءِ عَلىٰ اختِلافِ أحوَالِهم كانُوا أقربَاءَ أو أجانِبَ، وإنمَا المَرءُ يُعطِي مِن مالِ اللهِ الذِي استودعَهُ إياهُ، وصدقةُ المَرءِ سَبيلٌ لنجاتِهِ.

ومِنَ الأعمالِ المُستحبةِ فِي هذا الشَّهرِ تفطيرُ الصائمِينَ وإن كانُوا أغنيَاءَ، طمَعًا في أجرِهِم، قالَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«مَن فَطَّرَ صَائمًا كان له مثلُ أجرِهِ غيرَ أنهُ لَا يَنقُصُ مِن أجرِ الصَّائمِ شيءٌ»**(٣).

كما أنَّ منَ الأعمالِ المستحبَّةِ فِي هذَا الشهرِ أيضًا العُمرَةُ فيهِ، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«عُمرةٌ فِي رمضَانَ تَعدلُ حجَّةً»**(٤).

فاجتهِدُوا باغتنامِ الأجرِ فِي هذَا الشَّهرِ، واعلَمُوا أن رمضانَ غَنيمةٌ ساقَهَا اللهُ إليكُم، فسَارعُوا باقتناصِهَا، واعلمُوا أن السعيدَ مَن وفَّقهُ اللهُ فِيهَا لصالحِ القَولِ والعَمَلِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٠٩١).

(٢) سورة القدر:٣.

(٣) رواه الترمذي والنَّسائي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٧٨).

(٤) رواه البخاري (١٧٣٠)، ومسلم (٢٢٠١).

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ الذِي منَّ علَىٰ عبادِهِ بمَواسمِ الخَيراتِ، فمَن وفقَهُ لاغتنامِهَا كانَ مِن الفائزِينَ، ومَن فرَّطَ فيهَا كانَ منَ الخاسِرينَ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ أفضَلُ الخَلقِ أجمَعِينَ، صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلَىٰ آلهِ وصَحبِهِ والتابِعينَ لَهُم بإحسَانٍ مَدَىٰ الدهُورِ والسِّنِينَ.

أمَّا بعدُ:

فعلَيكُم بالتمسكِ برَأسِ الأمرِ فِي هذهِ العبادَةِ العَظيمةِ وكُلِّ عبَادةٍ، ألَا وهُوَ الإخلاصُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ تعَالَىٰ لَا يقبَلُ منَ الأعمالِ إلَّا مَا كانَ لهُ خالِصًا، ومُوَافقًا لسُنةِ نبيِّهِ مُحمدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيجبُ عَلىٰ المسلمِ أنْ يكُونَ مُخلِصًا بصيامِهِ للهِ تعَالَىٰ، لَا يَصُومُ بَطرًا ولا رياءً ولا سُمعةً، وعليَهِ إذَا أدَّىٰ شَيئًا منَ الأعمالِ المُستحبَّةِ فِي هذَا الشهرِ أنْ تكُونَ نِيتُهُ صالحَةً، سَواءٌ فِي قيامِهِ أو إطعَامِهِ للفُقراءِ أو تَفطيرِهِ للصَّائمِينَ.

وليَحذرِ المسلمُ أنْ يُفاخرَ بشَيءٍ مِن ذلكَ، أوْ أنْ يتحدَّثَ بِهِ عَلىٰ وجهِ الامتنَانِ والمُباهاةِ والسمعَةِ، فمَن فعلَ ذلكَ فقَدْ خسِرَ خُسرَانًا مُبينًا، وليسَ لهُ فِي الآخرَةِ مِن نَصيبٍ.

هذَا وإنَّ مِن أعظَمِ الغَبنِ أن تَرَىٰ رَجُلًا قد أصحَّ اللهُ لهُ بدَنَهُ، وعافَاهُ فِي جسدِهِ، فلَم يَرعَ لشَهرِ الصومِ حُرمةً، فيتعَدَّىٰ حدُودَ اللهِ بإفطارِ شهرِ الصَّومِ، وقَد ورَدَ الوعِيدُ الشَّديدُ عَلىٰ لسَانِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ أفطَرَ قَبلَ وَقتِ الإفطَارِ، فقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بينَا أنَا نائِمٌ أتَانِي رجُلانِ فأخذَا بضبعَيَّ فأتيَا بِي جَبلًا وَعرًا، فقَالَا: اصعَد، فقُلتُ:**

إنِّي لَا أطيقُه، فقَالَا: إنَّا سنُسهلُهُ لكَ، فصعدتُ حتَّىٰ إذَا كنتُ فِي سواءِ الجبلِ إذَا بأصواتٍ شديدَةٍ، قلتُ: مَا هذِهِ الأصوَاتُ؟، قالُوا: هذَا عواءُ أهلِ النارِ، ثمَّ انطُلِقَ بِي، فإذَا أنَا بقَومٍ مُعلَّقينَ بعرَاقِيبِهِم، مُشققةً أشدَاقُهُم، تَسيلُ أشداقُهُم دمًا، قلتُ: مَن هؤلاءِ؟، قالَا: الذِينَ يُفطرونَ قَبلَ تَحلةِ صَومِهِم»(١).

فإذَا كانَ هذَا الوَعيدُ فِي حَقِّ مَن يُفطِرُ قبلَ وقتِ الإفطَارِ، فكَيفَ بمَن يُفطرُ اليومَ كلَّهُ، والأدهَىٰ أنْ يُفطرَ الشهرَ كُلَّه؟!

هذَا واحمَدُوا اللهَ تعَالىٰ أنْ بلغَكُم رمضَانَ، حِينَ حُرِمَ منهُ كَثيرٌ، كانُوا يتَمنَّونَ أنْ يُدركُوهُ لكِن حَالَت مَنيَّتُهُم دونَ ذَلكَ، وعَليكُم باستغلَالِ هذِهِ الفُرصَةِ العَظيمةِ التِي امتَنَّ اللهُ بهَا عَليكُم، واحذَرُوا مِن فوَاتِهَا، واعلَمُوا أن الخاسِرَ الحَقيقيَّ هُوَ مَن أدركَهُ رمضَانُ ثُمَّ مضَىٰ وَلَم يَكُنْ قَد كَسَبَ بِهِ أَجرًا أَو عملَ بِهِ مَعرُوفًا، قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«رَغمَ أنفُ امرِئٍ دخَلَ عَليهِ رَمضانُ ثُمَّ انسَلَخَ قَبلَ أنْ يُغفرَ لَهُ»**(٢).

واجتهِدُوا -رَحِمكُم اللهُ- بالعملِ بطاعَةِ اللهِ، والزَمُوا الدعَاءَ بِأن يَشرَحَ اللهُ صدورَكُم للعمَلِ بما يُرضيهِ.

فهَاهِي أبوابُ الرحمَاتِ قد فُتحَت، ونفحَاتُ الخَيرِ قَد هبَّت، فاسأَلُوا اللهَ بتضَرُّعٍ وتذللٍ واطِّراحٍ بينَ يديهِ أنْ يجعلَكُم مِن أهلِهَا، فإنَّ الفائزَ حقًّا مَن فتحَ اللهُ لهُ أبوَابَ الرحمَةِ والغُفرانِ، ووفَّقهُ للعمَلِ بأسبابِهَا.

نسألُ اللهَ أنْ يجعَلَنَا وإياكُم مِنَ المَرحُومينَ، وأن يأخُذَ بنَواصِينَا إِلىٰ البِرِّ والتقوَىٰ، وأنْ يتقبَّلَ مِنَّا صيَامَنَا وقيَامَنَا، إنهُ جَوادٌ كَريمٌ.

---

(١) رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٩٥١).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «المشكاة» (٩٢٧).

(٥٥) العَشرُ الأواخِرُ من رمضَانَ

الحمدُ للهِ مُعزِّ مَن أطاعَهُ واتَّقَاه، ومُذلِّ مَن خالفَ أمرَهُ وعَصَاه، أحمَدُهُ سُبحانَهُ وأشكُرُه، وأشهَدُ أن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ وخَليلُهُ الذِي اجتبَاه، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلىٰ آلهِ وصَحبِهِ، ومَن استَنَّ بسنَّتِهِ واقتفَىٰ أثرِهِ واهتَدَىٰ بهُدَاه، وسَلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فهاهِيَ قَد أظلَّتنَا العشرُ الأواخرُ، أهمُّ أيام شَهرِ رمضانَ المُبارَكِ، فالواجبُ عَلىٰ المسلمِ أن يُرِيَ الله عَزَّوَجَلَّ مِن نَفسِهِ خَيرًا، وأن يجتهدَ فيهَا غايةَ الاجتهَادِ؛ لأنهَا غَنيمةٌ ساقَهَا اللهُ إلَيهِ، كمَا أنَّ الواجبَ عَلىٰ المسلمِ أن يغتنِمَ الفُرصَ ومَواسمَ الخَيرِ، وقَد تفضَّلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَليهِ بأنْ مكَّنهُ مِن شهُودِ هذِهِ الأيَّامِ، فليَجتَهِدْ فِي عبادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلىٰ الوَجهِ الذِي يُرضِيهِ عَنهُ.

ومِنَ الأعمالِ المَشروعةِ فِي العشرِ الأواخِرِ: إحياءُ هذِهِ العَشرِ بالانقطَاعِ لعبادَةِ اللهِ تعَالىٰ، والابتعَادِ عن فضُولِ الكلامِ وفضُولِ النظَرِ ومَا لَا يَنفعُ المُسلمَ فِي آخرَتِهِ.

إنَّ هذِهِ العشرَ الأواخِرَ أيامٌ مباركَةٌ، فالواجبُ عَلىٰ المُسلمِ أن يغتَنِمَهَا وأن يتعَبَّدَ اللهَ فيهَا، وألَّا يتركَ سَبيلًا يستطيعُ مِن خلالِهِ أنْ يصلَ إلَىٰ مرضَاةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلَّا اجتهَدَ فيهِ، ولذَلكَ جاءَ عَن أمِّنا عائشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالَت: «كانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ إذَا دخلَ العَشرُ الأواخِرُ شدَّ مِئزَرَهُ، وأحيَا لَيلَهُ وأيقَظَ أهلَهُ»[(١)].

وهذَا معنَاهُ أنَّ المُسلمَ يجتهدُ غايةَ الاجتهَادِ، فشَدُّ مئزَرِهِ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ معناهُ أنهُ

(١) رواه البخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٢٠٠٨).

كانَ يعتزلُ النسَاءَ مِن أجلِ التفرُّغِ لعبَادةِ اللهِ، ولعَلَّهُ لَا يُطمَعُ مِن كثيرٍ منَ الناسِ أنْ يصلَ إلَىٰ هذِهِ الدرجةِ، ولكنَّ هذَا لَا يمنَعُ أن يُطلبَ من المُسلمِ أن يتعبَّدَ لربِّهِ ويَعلمَ أنهُ فِي موسِمٍ عظيمٍ مِن مَواسِمِ الخَيرِ، وأنَّ مُنتهَىٰ الغَبنِ والخسَارةِ العَظيمةِ أنْ تَفوتَهُ هذِهِ الأيامُ ولَم يَغتنِمْهَا بطاعةِ اللهِ تَعالىٰ.

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوقِظُ أهلَهُ، وهذَا فيهِ دَليلٌ علىٰ أنَّ المُسلمَ يُعينُ أهلَهُ علىٰ الطاعَاتِ، ويُنبِّهُهُم علىٰ مرضَاةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهُوَ يَجتهدُ فِي إصلاحِ نَفسِهِ، ويَجتهِدُ فِي تَعليمِ أهلِهِ مَا يَنفَعُهُم فِي هَذِهِ العَشرِ.

ولَا يلزَمُ أنْ يكونَ المُسلمُ قَد بلغَ الكمَالَ فِي طاعَةِ اللهِ حتَّىٰ ينصحَ الآخَرينَ، فلَو لَم يكُن ينصَحُ الناسَ إلَّا رجلٌ قَد بَلغَ المَبلغَ العَالي منَ الطَّاعاتِ فمَا كانَ أحَدٌ ليستحِقَّ أنْ ينصحَهُم بعدَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَكنَّ المرءَ يُذكِّرُ أهلَهُ وأولادَهُ بطَاعةِ اللهِ، ويَعظُهُم بأعظَمِ موعظَةٍ وهِي أنَّ المسلمَ إذَا كانَ قَد أدرَكَ هذِهِ الأيامَ فلعلَّهُ لَا يُتمُّها، أو لَا يُدركُ شَهرًا آخرَ، ولذلِكَ كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهدُ غايةَ الاجتهَادِ فيُوقظُ أهلَهُ ويشُدُّ مئزرَهُ ويُحيي ليلَهُ، وإحياءُ الليلِ كانَ بقرَاءةِ القُرآنِ والصلاةِ والذِّكرِ، ويَدلُّ علىٰ ذلكَ أنَّ أمَّنا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَت: «مَا رأيتُ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ ليلةً حتَّىٰ الصباحِ»[1]، أَي: أنهُ لَم يقُمْ ليلةً كاملةً فِي صَلاةٍ، وهذَا يدُلُّ علىٰ أنهُ يُحييهِ بالصلاةِ وقراءَةِ القُرآنِ والذِّكرِ، وأنْ يخلُوَ بنفسِهِ عَن النَّاسِ، ويجعَلَ لنفسِهِ عُزلةً يُراجعُ فيهَا حسابَاتِهِ، فيراجعُ ذَنبًا قد ستَرَهُ اللهُ عَليهِ فيَتُوبُ منهُ، ومَظلمةً للناسِ فلَا يَستمِرُّ عَليهَا، فَإنَّ الموتَ أقربُ للعَبدِ مِن شِراكِ نَعلِهِ، ولَيسَ بينَهُ وبينَ المَوتِ إلَّا أنْ تُقبضَ هذِهِ الرُّوحُ، فلا بُدَّ أن يُراجعَ المُسلمُ نَفسَهُ.

فاجعَلْ لنَفسِكَ دَائمًا خلوَةً تُراجعُ فيهَا حسَاباتِكَ وتَقصيرَكَ فِي جَنبِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) رواه مسلم (١٢٣٥).

فإنَّ أصدقَ الناسِ معَ الإنسانِ هوَ نفسُهُ، فهيَ التِي تعرفُ مواضعَ السدَادِ والخَللِ، فتعرفُ إذَا كانَ كَريمًا أو بخيلًا، شجاعًا أو جبانًا، رحيمًا أو قاسيًا، مصلحًا أو مفسدًا نمَّامًا، رزينًا أو أضحوكةً يستخفُّ بهِ الناسُ، متكلمًا بليغًا بصدقٍ أو أنهُ يمتهِنُ الكذبَ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ النَّاسُ ليَقُولُوا: مَا أبلغَهُ!

فلَنْ يصدُقَ معَ المرءِ مثلُ نَفسِهِ، وإلَّا فنحنُ فِي وقتٍ لا يُعطِي الناسُ بَعضَهُم بعضًا ما يكونُ مِن خلاصةِ قُلوبِهِم إلا القليلَ النادِرَ الذِي لا يكادُ يُذكرُ، وهذَا ليسَ مِن بابِ التشاؤمِ ولكنَّهُ مِن بابِ الواقِعِ المَفروضِ الذِي نراهُ.

وتخَلَّصْ -أيهَا المُسلمُ- من المظالِمِ، واجتَهِد فِي إقامةِ العباداتِ، إنْ كان ثمَّةَ حقٌّ سُلبَ فأعِدهُ، وإنْ كانَ هناكَ حَرامٌ تخُوضُ فيهِ كأموَالِ الربَا والأموالِ المَحظُورَةِ التِي تكونُ ناتجَةً عنِ التجاراتِ المُحرَّمةِ، فأسرِع بالتخَلُّصِ منهَا فَلَن يُنجيكَ مِنَ اللهِ تعَالىٰ إلَّا أن تأخُذَ بطاعَتِهِ وتقفَ عندَ حدودِهِ، فليسَ لكَ منَ اللهِ مِن عاصمٍ ولَنْ ينجيَكَ أحدٌ منَ اللهِ إلَّا إذَا سَعيتَ إلَىٰ نَجاةِ نَفسكَ، فاجتَهِد فِي تَخليصِ نَفسِكَ ممَّا يشُوبُها منَ المَفاسدِ والذنوبِ والمعَاصِي والآثَامِ والمظَالِمِ، وابرَأْ إلَىٰ اللهِ ممَّا كُنتَ عَليهِ مِنَ الذنُوبِ ومظَالمِ العبَادِ.

ويُسَنُّ للمُسلمِ فِي هذِهِ العَشرِ أمُورٌ كثيرَةٌ، مِن أعظَمِهَا أن يتحَرَّىٰ ليلَةَ القَدرِ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**مَن قامَ ليلةَ القَدرِ إيمَانًا واحتسابًا غفرَ الله ما تقدَّمَ مِن ذنبِهِ**»(١).

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنِ القُرآنِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٧٦٨)، ومسلم (١٢٦٨).

(٢) سورة الدخان:٣-٤.

فهذَا القرآنُ العظيمُ أنزلَهُ اللهُ سُبحانَهُ فِي تلكَ الليلَةِ المُباركةِ، وهذِهِ الليلَةُ المباركَةُ كَثيرةُ الخَيرِ، ولذلِكَ أسماهَا اللهُ تعَالىٰ مُباركَةً، فينزلُ فِيهَا الأمرُ ويُفصَلُ مِن اللوحِ المحفوظِ الذِي لَا يُبدَّلُ فِيهِ شَيءٌ ولا يُغيَّرُ، إلىٰ الصحائِفِ التِي فِي أيدِي المَلائكَةِ، والتِي تُكتَبُ فيهَا الآجالُ والأرزَاقُ.

وقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[1]، **القَدْر**: الشرفُ والعظَمَةُ، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾[2]، أي: خَيرٌ مِن عَملِ ألفِ شَهرٍ، فيَا خسَارةَ مَن فَاتَهُ هَذَا الفَضلُ العَظيمُ، ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾[3]، تنزلُ الملائكةُ بالرحمَةِ والبَركةِ والخَيرِ، (والروحُ) جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد خُصَّ بذَلك لشَرفِهِ، ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[4]، لهُم السَّلامةُ مِن المخَاوفِ؛ لأنهُم يحظَونَ فِي هَذِهِ الليلةِ بأنْ يكونُوا عُتقاءَ مِنَ النَّارِ.

وَينتهِي وقتُ ليلةِ القدرِ بطلوعِ الفجرِ، فيجتهدُ المسلمُ فيهَا بالتنويعِ بينَ أوجهِ العبادَاتِ مِن صلاةٍ وقيامٍ وذكرٍ وتسبيحٍ، ومحاسبةِ النفسِ، فيتذكرُ ذنبًا فيَبكِي عَليهِ، ومَظلمةً فيبكِي عليهَا، وقطيعةً فيصلُهَا، وهكذا ممَّا يحاسبُ الإنسانُ بِهِ نفسَهُ.

واعلمُوا أن المرءَ إذَا كانَ له نفسٌ لا تلومُهُ علَىٰ مَا يأتِي منَ الإثمِ حُقَّ لهُ أنْ يُعزَّىٰ في نفسِهِ، فإنَّه يُخافُ عليهِ أنْ يكونَ اللهُ قدْ ختمَ علَىٰ قلبِهِ، واحمَدِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مِن حالِهِ.

عبادَ اللهِ:

لا تظنُّوا أن دعاءَ البلاءِ الذِي أَمرنَا النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ نقولَهُ عندَ رؤيةِ المُبتلَىٰ

---

(١) سورة القدر: ١.

(٢) سورة القدر: ٢-٣.

(٣) سورة القدر: ٤.

(٤) سورة القدر: ٥.

فنقولُ: «**الحمدُ للهِ الذِي عافانِي ممَّا ابتلاكَ بهِ وفضَّلنِي علَىٰ كثيرٍ ممَّن خَلقَ تفضِيلًا**»(١)، لا تظنُّوا أنَّ هذَا البلاءَ مَقصورٌ علَىٰ أصحابِ العاهَاتِ كالحريقِ والكسيرِ والمَريضِ، فإنَّ أعظَمَ الابتلاءِ ابتلاءُ المَرءِ في دينِهِ، فإذَا رأيتَ الرجلَ يُصَلِّي ويصومُ ولَكِن يشتَكِي منهُ البلادُ والعبادُ والبهائمُ، فيُقطِّعُ الصلاتِ بينَ الناسِ، ويشتمُ هذَا ويَسُبُّ ذاكَ، فقُلْ: الحمدُ للهِ الذِي عافَانِي ممَّا ابتَلاكَ بهِ وفضَّلَنِي عَلىٰ كَثيرٍ ممَّنْ خلقَ تَفضيلًا، فإنَّ أعظَمَ الابتِلاءِ -يَا عبادَ اللهِ- الابتِلاءُ بأمرِ الدِّينِ.

فإذَا رَأيتَ مَن هذَا وصفُهُ فاحمَدِ اللهَ الذِي عافَاكَ مِن حالِهِ، واعلَم أنكَ عَلىٰ خَيرٍ أنْ لَم تكُنْ مثلَهُ، ألَم يُذكَرْ للنبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ امرَأةٌ تقومُ الليلَ وتصُومُ النهَارَ، فقيلَ لهُ: إن فلانَةَ تَقُومُ الليلَ وتصومُ النهارَ وتفعلُ وتصَدَّقُ وتُؤذي جيرانهَا بلسَانِها، فقَالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا خيرَ فيهَا، هِيَ منْ أهلِ النارِ**»(٢).

فكيفَ الذِي تشتَكِي منهُ الخلائقُ والبهائِمُ، ولا تُعينُهُ نَفسُهُ حتَّىٰ عَلىٰ مقولَةِ الخَيرِ، فلَو جاءَ فقيرٌ يسألُ فأرادَ أنْ يتصَدَّقَ عليهِ أحَدٌ، لقالَ: لِمَ تعطِيهِ؟ ولَو أنَّ رجُلًا احتاجَ إلَىٰ إنهاءِ مُعاملةٍ فَرقَّ له قلبُ أحدٍ من الناسِ فأرادَ مساعدتَهُ لخذَّلَ عنهُ وقالَ: إنَّ فيها كذَا وكذَا، ولا يزالُ بهِ حتَّىٰ يصرفَهُ عمَّا أرادَهُ مِن فِعلِ المَعروفِ، فمِثلُ هَذَا مخذُولٌ لَم تُعِنْهُ نفسُهُ حتَّىٰ علىٰ قَولِ الخَيرِ فَضلًا عَن فِعلِهِ، فإذَا رأيتَ مِثلَ ذلكَ فاحذَرْ أن تَسلُكَ طَرِيقَهُ، واحمَدِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ عافَاكَ مِن حَالِهِ.

وحرِيٌّ بالعبدِ أنْ يشتغِلَ فِي مِثلِ هذِهِ الأيامِ بإصلاحِ حَالِهِ، وأهمُّهَا إصلاحُ سريرَتِهِ مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٢).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٠).

قالَ بعضُ السلَفِ: أصلُ الانتكَاساتِ ذُنوبُ الخَلواتِ، وهِي التِي يخلُو بهَا بَينَهُ وبينَ نَفسِهِ، نسألُ اللهَ أنْ يُعافِيَنَا مِن ذَلكَ.

وممَّا يُسَنُّ للمسلِمِ فِي هذِهِ الليالِي أنْ يتحرَّىٰ ليلةَ القَدرِ في الوِترِ منهَا؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**تَحرَّوا ليلَةَ القَدرِ فِي الوترِ مِنَ العَشرِ الأواخِرِ من رَمضَانَ**»(١)، أي: الأيَّامِ الفَرديَّةِ.

فلا يَحسُنُ بالعبدِ أنْ يكونَ نشيطًا قدْ أمدَّهُ اللهُ سُبحانَهُ بالصحَّةِ وسَلامةِ البَدنِ فَلَا يقومُ إلَّا ليلةَ سَبعٍ وعِشرينَ، وأينَ الضمَانُ بأنَّ ليلَةَ القَدرِ هِيَ ليلةُ سبعٍ وعِشرينَ، فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**ليلةُ القَدرِ فِي الوِترِ منَ العَشرِ الأواخِرِ مِن رمَضَانَ**».

وقال: «**التمسُوهَا فِي العشرِ الأواخِرِ مِن رمضَانَ، ليلةُ القدرِ فِي تاسعَةٍ تبقَىٰ، فِي سابعَةٍ تَبقَىٰ، فِي خامسَةٍ تَبقَىٰ**»(٢)، أي: أنهَا تتنقلُ بينَ ليَالِي الوِترِ.

فالواجِبُ عَلىٰ المسلِمِ أنْ يَجتهِدَ فِي ليَالِي العَشرِ كلِّهَا رجاءَ مَا عِندَ اللهِ، لأنَّ كلَّ ليلةٍ تُبْنَىٰ علىٰ الليلةِ التِي قَبلهَا، فإذَا أقبلَ المسلِمُ عَلىٰ العملِ الصالِحِ وكانَ قدِ اعتَادَ العبادةَ فَلَن تثقُلَ عَلَيهِ لَيلةٌ دونَ ليلَةٍ.

هذَا واعلمُوا أنَّ الذنبَ رُبَّما يحجُبُ العبدَ عَن نعمَةٍ عظيمَةٍ وهِي شهودُهُ تِلكَ الليلَةَ، فليَحرِصِ المسلِمُ عَلىٰ أنْ يَبتَعِدَ عَنِ الذنُوبِ والمَعَاصِي، وأصلُ الذنُوبِ والمَعاصِي مِن مُخالطَةِ النَّاسِ، فإنَّهُمْ يَجُرُّونَكَ إلَىٰ مَا لَا تُريدُ مِنْ سَيِّئِ الكلامِ والغِيبَةِ والنميمَةِ، فأقلِلْ مِن مُخالَطَةِ النَّاسِ، واجعَل لنَفسِكَ وَقتًا تَخلُو فيهِ برَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ.

إنَّ تحَرِّي ليلةِ القَدرِ والاجتهَادَ فِيهَا من علامَاتِ الصالحِينَ، وقَد كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهدُ فِي تحريهَا، فقَد اعتكفَ العَشرَ الأولَ مِن رمضَانَ ثُم اعتكَفَ

---

(١) رواه البخاري (١٨٧٨)، ومسلم (١٩٩٨).

(٢) رواه البخاري (١٨٨١).

الأوسطَ ثمَّ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي اعتكَفتُ العشرَ الأولَ ألتمِسُ هذِهِ الليلَةَ، ثُمَّ اعتكَفتُ العَشرَ الأوسَطَ، ثُمَّ أُتيتُ فقِيلَ لِي: إنهَا فِي العَشرِ الأواخِرِ، فمَن أحَبَّ منكُم أَن يعتَكِفَ فَليعتَكِفْ، فاعتكفَ الناسُ معَهُ**»(١).

ومنَ السُّننِ في هذِهِ الأيَّامِ: الاعتكافُ في مسجدٍ يخلُو بهِ لعبَادَةِ ربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، والاعتكافُ هوَ قطعُ العَلائقِ عنِ الخلائقِ، والاجتهَادُ بخِدمةِ الخَالِقِ، فيَعتكفُ فِي مسجدٍ، ويتزودُ منَ الخَيرِ، كالصَّلواتِ وقِراءَةِ القُرآنِ والأذكارِ المَشروعَةِ وهكَذَا، والاعتكافُ أمرٌ مَسنونٌ، فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَعتكفُ العَشرَ الأواخِرَ، وفِي آخرِ رمضَانَ أدركَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتكَفَ عِشرينَ يومًا، وقَدِ اعتكَفَ أزوَاجُهُ بَعدَهُ، واعتكَفَ أصحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمَنِ استطَاعَ أنْ يَعتكِفَ فليعتَكِفْ؛ فإنَّ ذلكَ منَ السنَنِ المَشرُوعَةِ.

فإذَا اعتكَفَ المُسلمُ فَلَا يخرجُ إلَّا لحاجَةٍ، كأنْ يَخرجَ لدَورةِ المياهِ أو ليَستحِمَّ من جنَابَةٍ، ولهُ أن يَشترطَ عَلىٰ نفسِهِ الخروجَ لبَعضِ الأمورِ كعيادَةِ مَريضٍ أو الذهَابِ لوظيفَتِهِ، ثُمَّ إذَا رَجعَ لزمَ المُعتكفَ، ولَا يخرجُ لغَيرِ ذَلكَ فإنَّهُ ممنوعٌ عَلىٰ المُعتكِفِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي مَنَّ عَلىٰ عبادِهِ بمَواسِمِ الخيراتِ، فمَن وَفَّقَهُ لاغتنَامِهَا كانَ مِنَ الفَائزِينَ، ومَن فرَّطَ فيهَا كانَ منَ الخَاسرِينَ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ أفضَلُ الخَلقِ أجمَعِينَ، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٤).

وصَحبِهِ والتَّابعينَ لَهُم بإحسَانٍ مَدىٰ الدهُورِ والسِّنين.

أَمَّا بَعدُ:

فمِنَ الواجبَاتِ المَفروضةِ التِي تجبُ فِي آخِرِ هذَا الشَّهرِ زكَاةُ الفِطرِ، وزكَاةُ الفطرِ فريضةٌ علَىٰ المُسلمِينَ، قالَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَرضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زكاةَ الفِطرِ صاعًا مِن تَمرٍ أو صَاعًا مِن شَعيرٍ عَلىٰ العَبدِ والحُرِّ والذكَرِ والأُنثَىٰ والصَّغيرِ والكَبيرِ مِنَ المُسلمِينَ، وأمرَ بهَا أنْ تُؤدَّىٰ قَبلَ خروجِ الناسِ إِلَىٰ الصَّلاةِ»(١).

فهَذا الحديثُ يُبيِّنُ أموراً مهمةً تتعَلَّقُ بزكَاةِ الفِطرِ.

فلَا بُدَّ أنْ يُؤدِّيَ المُسلمُ زكاةَ الفِطرِ مِنَ الطعَامِ، فَلَا يُجزِئُ أداؤُهَا مِنَ الأموَالِ النقديَّةِ أَو الأوَانِي ومَا شَابَهَ ذَلكَ.

وتُؤدَّىٰ هذِهِ الزكاةُ مِن قُوتِ أهلِ البَلدِ، ويَدُلُّ عَلىٰ ذلكَ قَولُ أَبِي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنَّا نُخرِجُ زكاةَ الفِطرِ فِي عهدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعًا مِن طعَامٍ، وكانَ طَعامُنَا يَومئذٍ الشَّعيرُ والزَّبيبُ والأقِطُ والتَّمرُ»(٢).

والواجبُ أنْ تُؤدَّىٰ هذِهِ الزكاةُ فِي وَقتٍ مُحدَّدٍ مَعلومٍ، فأفضَلُ الأوقاتِ الذِي تُؤدَّىٰ فيهِ هذِهِ الزكَاةُ أنْ يُؤدِّيَها قبلَ صَلاةِ العِيدِ، **قالَ ابنُ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فرضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زكاةَ الفِطرِ طُهرةً للصائِمِ منَ اللغوِ والرفَثِ، وطُعمَةً للمساكِينِ، مَن أدَّاها قبلَ الصَّلاةِ فهِي زكاةٌ مقبُولةٌ، ومَن أدَّاهَا بعدَ الصَّلاةِ فهِيَ صَدقةٌ منَ الصدقَاتِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (١٦٤٥).

(٢) رواه البخاري (١٤١٤).

(٣) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٨٤٣).

ويجُوزُ أنْ تُؤدَّىٰ هذِهِ الزكَاةُ فِي آخرِ يَومَينِ مِن رمضانَ لِفعلِ بعضِ الصحابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ولَا يجُوزُ تأخِيرُهَا إِلَىٰ مَا بعدَ صلاةِ العِيدِ إلَّا لعُذرٍ قاهرٍ؛ كأنْ يكونَ فِي مكانٍ بعيدٍ ولَيسَ عندَهُ أحدٌ من الفقرَاءِ، أو أنْ يغلبَهُ النومُ فلَم يَستيقِظْ إلَّا بعدَ الصَّلاةِ، أو أنْ ينسَاهَا، فهُنا يجوزُ لهُ أنْ يُخرجَها ولَو بعدَ الصلاةِ، وعَليهِ أنْ يبادرَ بذلكَ دونَ تأخيرٍ.

أمَّا تأخيرُهَا بعدَ صلاةِ العِيدِ مِن أجلِ انتظَارِ فَقيرٍ بعَينِهِ، فإنَّ هَذا لا يجُوزُ لأنَّها عبادةٌ مؤقتَةٌ بوقتٍ.

وتجبُ هذهِ الزكاةُ عَلىٰ مَن أدركَ غُروبَ شَمسِ ليلةِ العيدِ وهُوَ حَيٌّ.

فلو وُلِد لهُ مولُودٌ قبلَ غروبِ شمسِ ليلَةِ العيدِ فقَد وجَبَت عليهِ الزكاةُ، ولَو ماتَ رجلٌ قبلَ الغروبِ فإنَّهَا لَا تجبُ عَليه زكاةُ الفِطرِ، فالحُكمُ يتعلقُ بليلَةِ الفِطرِ، وليلَةُ الفطرِ تبدأُ بغُروبِ شمسِ اليَومِ الذِي قَبلَهَا.

فعلَيكُم بالاجتهادِ فِي هذِهِ الأيَّامِ المباركةِ، واعلَمُوا أنهَا غَنيمةٌ ساقَهَا اللهُ إلَيكُم، فأَرُوا اللهَ مِن أنفُسِكُم خَيرًا.

❊❊❊

(٥٦) الْمُبادرةُ إلى الحَجِّ

الحَمدُ للهِ الذِي أكملَ لهذِهِ الأمةِ شرائعَ الإسلَام، وفَرضَ عَلىٰ المستَطيعِ منهُم حجَّ بيتِهِ الحَرَام، ووعَدَ مَن حجَّ البَيتَ فَلَم يَرفُثْ وَلَم يَفسُقْ بأنْ يخرُجَ من ذنوبِهِ كيومِ ولدَتهُ أمُّه نقيًّا مِنَ الآثَام، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا هوَ الملكُ القُدوسُ السَّلَام، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أفضلُ مَن صلَّىٰ وحجَّ وزكَّىٰ وصَام، صَلىٰ اللهُ عليهِ وعَلىٰ آلِهِ وأصحَابِهِ البررَةِ الكِرام، وعَلىٰ التابعِينَ لَهُم بإحسَانٍ مَا تعاقَبَتِ الليَالِي والأيَّام، وسَلَّمَ تسليمًا كَثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ ممَّا فرضَهُ اللهُ تعَالىٰ عَلىٰ عبادِهِ حجَّ بيتِهِ الحَرامِ، وجعلَ ذلكَ مِن أركانِ الإسلامِ ومبانِيهِ العِظامِ، الذِي لا تبرَأُ ذِمةُ المُسلمِ المُستطِيعِ إلَّا بِالإتيَانِ بهِ، فقَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خَمسٍ: شهادةِ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وحجِّ البيتِ، وصومِ رمضَانَ**»(٢).

وقد رتبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلىٰ الحجِّ الأجرَ الجزيلَ والثوابَ العظيمَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العمرَةُ إلىٰ العمرَةِ كفَّارةٌ لمَا بَينهُمَا، والحجُّ المبرورُ لَيسَ لهُ جزاءٌ**

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (٢١).

إلَّا الجَنةُ»[١].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حَجَّ فَلَم يَرفُث ولَم يفسُقْ رجَعَ كيومِ ولدَتهُ أمُّهُ**»[٢].

فالواجبُ عَلىٰ المسلمِ المُستطيعِ أنْ يُبادرَ إلىٰ حجِّ بيتِ اللهِ الحَرامِ ليقضِيَ مَا فرضَ اللهُ عَليهِ، ويحصُلَ عَلىٰ الأجرِ العظِيمِ المترَتِّبِ عَلىٰ أداءِ هَذهِ العبَادَةِ العظيمَةِ، فإن المَرءَ إنْ كانَ فِي يَومِهِ آمِنًا صَحيحًا مُستَطيعًا فإنَّهُ لَا يَدرِي مَا سيحدثُ لهُ فِي مستقبَلِ أيامِهِ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعجَّلُوا إلَىٰ الحجِّ** -يعنِي: الفريضَةَ-، **فإنَّ أحدَكُم لَا يدرِي مَا يعرِضُ لهُ**»[٣].

وهذَا تَنبيهٌ عَلىٰ وجوبِ المبادرَةِ إلىٰ الحجِّ قبلَ أن تَحُولَ بينَهُ وبينَ العبدِ الحوائلُ والمَوانعُ.

والحجُّ واجِبٌ مرةً واحِدةً في العُمُرِ، ومَن زادَ عَلىٰ ذلكَ فهُوَ مِن بابِ النوافِلِ والمُستحباتِ التِي يتقربُ بهَا العبدُ إلَىٰ خالقِهِ ومَولاهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحجُّ مَرةً**»[٤].

وعَن أبي هريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**خطبنَا رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقالَ: أيهَا الناسُ، إنَّ اللهَ قدْ فرضَ عليكُمُ الحجَّ فحُجُّوا. فقالَ رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟، فسكتَ حتَّىٰ قالهَا ثلاثًا، فقالَ: لَو قلتُ: نعَم لوجَبَت ولمَا استطَعتُم، ثمَّ قالَ: ذَرونِي مَا تركتُكُم، فإنمَا هلكَ مَن كانَ قبلَكُم بكَثرَةِ سُؤالِهم واختلافِهم عَلىٰ أنبيَائِهم، فإذَا**

(١) رواه البخاري (١٦٥٠)، ومسلم (٢٤٠٣).

(٢) رواه البخاري (١٤٢٤)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٣) رواه أحمد، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٩٩٠).

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٩٤٩).

أمرتُكُم بشَيءٍ فأْتُوا منهُ مَا استطعتُم، وإذَا نَهيتُكُم عن شَيءٍ فدَعُوهُ»(١).

ويسنُّ الإكثارُ من الحجِّ والعمرةِ تطوعًا؛ لمَا ثبتَ عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ: «**العمرةُ إلَىٰ العمرَةِ كفارةٌ لِمَا بينَهُما، والحجُّ المَبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلَّا الجَنةُ**»(٢)، **والمَبرُورُ**: هو المتقبَّلُ.

ولا يجبُ الحجُّ إلَّا عَلىٰ القادِرِ المستطيعِ، وتُعرَفُ القدرةُ بقوةِ البدنِ عَلىٰ أداءِ هذهِ الفريضَةِ، وأنْ يكونَ لدَيهِ منَ النفقَاتِ ما يكفِيهِ لحجهِ وعودَتِهِ مِنهُ، ومَا يقومُ بحَاجةِ أهلِهِ مِن بَعدِهِ، وتَوفُّرُ أمنِ الطريقِ وسُهولةِ الوصولِ إلَىٰ البيتِ الحرامِ، قَالَ تعَالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾(٣).

ومَن كانَ عليهِ دَيْنٌ حالٌّ للناسِ، وقَد طالَبَ فيهِ صاحِبُهُ فإنهُ يُقدَّمُ عَلىٰ الحجِّ فيَقضِي دَيْنَهُ، فإنْ فَضُلَ عندَهُ شَيءٌ مِنَ المالِ بعدَ قضاءِ الدَّينِ حَجَّ بِهِ، وإنْ لَم يَبقَ معَهُ شيءٌ فإن الحجَّ ليسَ بواجبٍ عليهِ لعدمِ الاستطاعَةِ.

ولا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ الدَّيْنُ حيلةً للتهربِ مِن أداءِ فريضَةِ الحجِّ، فتجدُ المَرءَ يفضِّلُ بقاءَ نفسِهِ مَدينًا معَ أنَّ عندَهُ منَ المالِ مَا يكفِي لقضَاءِ دَينِه، فإن هذَا منَ الحِيَلِ الباطلةِ التِي لا تُغنِي عَن صاحبِهَا شَيئًا، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ مطلعٌ علىٰ السرائِرِ ولا تَخفَىٰ عليهِ خافيَةٌ، فليَحذَرِ المسلمُ منَ التلاعُبِ فِي دينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وإن كانَ عَلىٰ الإنسانِ دَينٌ مؤجلٌ وهو يغلبُ عَلىٰ ظنهِ أنهُ يُوفيَه إذَا حَلَّ الأجلُ وعندَهُ الآنَ ما يحُجُّ بهِ فإنَّ الحجَّ واجِبٌ عَليهِ فِي هذِهِ الحالِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (١٦٥٠)، ومسلم (٢٤٠٣).

(٣) سورة آل عمران: ٩٧.

ويجبُ عَليهِ فِي هذِهِ الصورَةِ أنْ يَكتُبَ وصيَّتَهُ بحُقوقِ الناسِ، حتَّىٰ تُوفَّىٰ مِن تركَتِهِ إنْ بغتَهُ الأجَلُ.

فإنَّ بعضَ المسلمينَ -هداهُمُ اللهُ- إذَا أرادَ الحجَّ وعليهِ دَيْنٌ استأذنَ الدائِنَ ظانًّا أن العِلةَ مِن منعِ الحجِّ ألَّا يأذنَ لهُ الدائنُ، وهذَا خطأٌ، فإنَّ إذْنَ الدائنِ ليس معنَاهُ إسقاطَ حَقِّهِ، ولذَا فالطريقةُ الأسلمُ أن يوصيَ مَن بعدَهُ منَ الزوجةِ والأبناءِ، أو يكتبَ وصيَّتَهُ بأنَّ لفلانٍ عندِي مبلغَ كذَا وكذَا، حتَّىٰ لَا تضيعَ حقوقُ الناسِ.

فمَنْ توفَّرَ له المالُ وصحةُ البدنِ وأمنُ الطريقِ وجبَ عليهِ الحجُّ، وإنْ عجزَ المسلمُ أن يؤدِّيَ الحجَّ بنفسِهِ لعجزٍ أصابَهُ كَكِبرٍ أو مرضٍ لا يُرجىٰ برؤُهُ ولديهِ مَالٌ، فالواجبُ عَليهِ أن يُنيبَ غيرَهُ ليحجَّ عنهُ، فقَد جاءَتِ امرأةٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَت: «**يَا رسُولَ اللهِ، إنْ أَبِي أدركَتهُ فريضَةُ اللهِ عَلىٰ عبادِهِ فِي الحجِّ شيخًا كبيرًا لَا يثبتُ عَلىٰ الراحلةِ أفأحجُّ عَنهُ، قالَ: حُجِّي عَن أبيكِ**»(١).

ويُشترَط لمَن أرادَ أنْ يحُجَّ عَن غيرِهِ: أن يكونَ قد حجَّ عَن نفسِهِ، فقَد سمِعَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا يقُولُ: لبَّيكَ عَن شُبرمَةَ، فقالَ لهُ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحجَجْتَ عن نفسِكَ؟، قالَ: لَا. قالَ: حجَّ عَن نفسِكَ ثُمَّ حجَّ عَن شُبرمَةَ**»(٢).

ومِن شروطِ الاستطاعَةِ بالنسبةِ للمَرأةِ: أن يتوفَّرَ لهَا مَحْرمٌ ليحُجَّ مَعهَا، فإنْ لَم يتيَسَّر لهَا ذلكَ فلا يجبُ عَليهَا الحجُّ وهِيَ بريئةُ الذمَّةِ.

والمَحرَمُ لا بُدَّ أنْ يكونَ ذكرًا بالغًا عاقلًا، وهو الزوجُ أو مَن تَحْرُمُ عليهِ المَرأةُ علىٰ التأبيدِ، جَاء رجلٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «**يَا رسولَ اللهِ، إنَّ امرَأتِي خرجَت**

---

(١) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (٢٣٧٥).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٩٤).

حَاجَّةً، وَإِنِّي اكتُتِبْتُ فِي غَزوةِ كذَا وكذَا، قالَ: انطلِق فحُجَّ معَ امرَأتِكَ»(١).

فلا يجوزُ للمرأةِ أن تُسافرَ -ولَو للحجِّ- مِن غيرِ محرَمٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تسافرُ المرأةُ إلَّا معَ ذِي مَحرمٍ، ولَا يَدخُلُ عليهَا رجلٌ إلَّا ومعَهَا مَحرمٌ**»(٢).

فسفرُ المرأةِ دونَ مَحرمٍ يعرِّضُها للخطَرِ والفتنةِ والطمَعِ ممَّن تضعفُ نَفسُه؛ ولذَا ينبغي عَلىٰ المُسلمِ الصالحِ إنْ رَأىٰ من بعضِ محارمِهِ من النسَاءِ رغبةً في الحجِّ أن يُعينَها عَلىٰ ذلكَ، وأن يحتسِبَ الأجرَ فِي ذلكَ، فإنَّ هذَا مِن إحسانِ الصحبَةِ والعملِ الصالحِ الذِي يقربُهُ منَ اللهِ تعَالىٰ، ولا يَحسُنُ بالمسلمِ أنْ يتعنَّتَ فِي هذَا الأمرِ.

وإذَا توفرَتْ للمُسلمِ شروطُ الاستطاعةِ فقَدْ وجبَ عليهِ الحجُّ علَىٰ الفورِ ولَا يؤجِّلُهُ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيهَا الناسُ، إنَّ اللهَ فرضَ عَليكُمُ الحجَّ فحُجُّوا**»(٣).

والأمرُ يدلُّ علَىٰ الفوريةِ دونَ استبطاءٍ، كمَا أنَّ الإنسانَ لَا يدرِي مَا يعرضُ لهُ فِي مستقبَلِ أيامِهِ.

فالعجَبُ مِن أنَاسٍ قَدْ أصحَّ اللهُ لهُم أجسَامَهُم وأمَدَّهُم بالأموَالِ، ومعَ ذلكَ يتقاعسُونَ عنْ أداءِ هذهِ الفَريضَةِ ويتعلَّلُونَ بالرُّخصِ وأنهُ ليسَ بأيدِيهِم شيءٌ منَ المالِ، ولَو كانَ سفرَ سياحةٍ لأعدُّوا لهُ عُدَّتَهُ، ولتأهَّبُوا لهُ وسارَعُوا إليهِ، وبذَلُوا الأسبابَ في جمعِ المالِ لهُ، حتَّىٰ إذَا جاءَ موعدُهُ فإذَا بهِم قَد جمَعُوا مَبلغًا ضخمًا ليسَافرُوا بهِ، وهَذا قدْ يكونُ فِي أمرٍ مباحٍ أو مُحرَّمٍ، فلمَاذَا لا يكونُ الإعدادُ لمَا أوجبَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أولَىٰ بالعَملِ والإعدَادِ لهُ.

إنَّ الحجَّ بابٌ عظيمٌ منْ أبوَابِ الإحسانِ، ومِن أعظمِ الإحسَانِ أن يَحجَّ المُسلمُ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٢)، مسلم (٢٣٩١).

(٢) رواه البخاري (١٧٢٩)، ومسلم (٢٣٩١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠).

عن قَرِيبٍ لهُ أَوْ أحدِ إخوانِهِ المسلمِينَ الذِي ماتَ ولمْ يحُجَّ عنْ نفسِهِ، فينُوبُ عنهُ بأداءِ فريضةِ الحجِّ.

وَلَا يلزمُ مَن أرادَ أنْ يحجَّ عَن غيرِهِ أنْ يستأذنَ ورثتَهُ أو يُخبِرَهُم بذلكَ، كمَا يجوزُ للرجلِ أنْ يحجَّ عنِ المرأةِ، والمَرأةِ أنْ تحجَّ عَنِ الرجُلِ، شريطَةَ أن يكُونَ النائبُ الحاجُّ عن غيرِهِ قدْ حجَّ عَن نفسِهِ.

ويجوزُ للمُسلمِ أن يُنيبَ غيرَهُ ليحُجَّ عَنْ قَرِيبٍ لهُ قدْ ماتَ ولمْ يَقضِ فَرضَهُ، وأنْ يدفَعَ لهُ تكالِيفَ رحلتِهِ ومصارِيفَه، ولا يلزمُ أن يكُونَ النائبُ من بلدِ مَن نابَ عنهُ، فلَو كانَ النائبُ من بلدٍ آخرَ حتَّىٰ لو من مكةَ نفسِها جازَ ذَلكَ.

وعلَىٰ المُسلمِ أنْ يبحثَ عنِ الثقَةِ الذِي يريدُ وَجهَ اللهِ فِي حجهِ والإحسانَ إلَىٰ أخيهِ المسلمِ، وليسَ مَن جعلَ الإنابةَ في الحجِّ تجارةً فيسَاومُ ويشترطُ وكأنَّهَا صفقةٌ تجاريَّةٌ، فإنَّ مَن كانَت نيَّتُهُ مِن حَجِّهِ المالَ فقَطْ فليسَ لهُ فِي الآخرةِ مِن نصيبٍ، وأمَّا مَن أرادَ شهودَ اجتماعِ المسلمينَ ودُعائِهم والإحسانَ إلَىٰ أخيهِ المُسلمِ وليسَ عندَهُ مَا يكفيهِ فطلبَ نظِيرَ ما يحُجُّ بهِ ومصَاريفَهُ دونَ اشترَاطٍ ومساومَةٍ ومغالاةٍ فيجوزُ لهُ ذلكَ، وإنمَا الأعمالُ بالنياتِ وإنمَا لكلِّ امرئٍ مَا نوَىٰ.

هذَا وإنَّ مِن أعظمِ صورِ الإحسانِ والبرِّ أنْ يحُجَّ المسلمُ عن وَالدَيْهِ، سَواءٌ ماتَا ولمْ يَحُجَّا، أوْ أنْ يكُونَا كَبيرِي السنِّ أو مَريضَينِ بحيثُ لَا يَستطيعُ أحدهُما أن يحجَّ بنفسِهِ، فيُسارِعُ لقضَاءِ مَا وجبَ عليهِمَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي جعلَ بيتَهُ مثَابةً للناسِ وأمْنًا، أحمدُهُ سبحانَهُ لهُ الصفاتُ العُلَا والأسماءُ الحُسنَىٰ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلىٰ آلهِ وصَحبِهِ وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ عَلىٰ المسلمِ إذَا عزمَ عَلىٰ السفرِ إلَىٰ الحجِّ أن يتَّقيَ اللهَ تعَالىٰ فِي فِعْلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيهِ.

فعليهِ أنْ يقصدَ بحَجِّهِ وعمرتهِ وجهَ اللهِ تعَالىٰ، وأن يُخلصَ نيتَهُ للهِ ربِّ العَالمِينَ، ويحذرَ كلَّ الحذرِ أنْ يقصدَ بحَجِّهِ متاعًا منْ متاعِ الدنيَا الزائلِ، أوْ أنهُ يُريدُ بحجِّهِ الرياءَ والسمعةَ حتَّىٰ يقولَ الناسُ عنهُ: «الحاجُّ فُلان»، فإنَّ ذلكَ مِن أسوأِ المقَاصدِ، وسببٌ لحبوطِ العملِ وعدمِ قَبولِهِ، قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

فهذَا مِن شركِ النياتِ المَذمومُ صاحبُهُ، وقَد جاءَ عَنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ: **«قالَ اللهُ تعَالىٰ: أنَا أغنَىٰ الشركاءِ عنِ الشركِ، من عَمِلَ عملًا أشركَ مَعِي فيهِ غيرِي تركتُهُ وشِرْكَهُ»**[2].

فعَلىٰ المسلمِ أن يجاهدَ نفسهَ أعظم المجاهدَةِ أنْ يكونَ مُخلصًا بأعمالِهِ للهِ ربِّ

(١) سورة هود: ١٥-١٦.

(٢) رواه مسلم (٥٣٠٠).

العالَمِينَ، فلَا يحجُّ مِن أجلِ المالِ أوِ المُبَاهاةِ أو الرياءِ أو السمعَةِ، فإنَّ مِن سوءِ الأدبِ معَ اللهِ تعَالىٰ أنْ تعملَ العملَ الذِي لا يكونُ إلَّا للهِ فتطلبَ فيهِ شَيئًا منَ الدنيَا.

وعلَىٰ المسلمِ أن يحُجَّ من نفقَةٍ حَلالٍ طيبةٍ، فلا يحجُّ من مالٍ حرامٍ كأموالِ الربَا وما نتجَ عن الكسبِ المحرمِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ طيبٌ لا يقبلُ إلَّا طيبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بمَا أمرَ بِه المُرسلِينَ، فقالَ تعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[(١)]. وقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[(٢)]، ثمَّ ذكرَ الرجلَ يُطيلُ السفَرَ، أشعَثَ أغبَرَ، يَمُدُّ يدَيه إلَىٰ السمَاءِ: يَا ربِّ، يَا ربِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّىٰ يُستجابُ لذلكَ؟**»[(٣)].

وعَلىٰ المسلمِ وهو ماضٍ إلىٰ الحجِّ أن يتوبَ إلىٰ اللهِ ممَّا اقترفَهُ منَ الذنوبِ، ويقبلَ علَىٰ اللهِ بقلبٍ صادقٍ مُنيبٍ، يرجُو رحمةَ اللهِ تعَالىٰ ويخافُ عقابَهُ، والواجبُ عليهِ -لتصحَّ توبتُهُ- الإقلاعُ عنِ الذنوبِ والندمُ عليهَا والعزمُ علىٰ ألَّا يعودَ إليهَا، كمَا يجبُ عليهِ أنْ يخرجَ من مظالمِ الخَلقِ وأن يتحلَّلَ منَ الناسِ قبلَ سفرِهِ، وإنْ كانَ عندَهُ للناسِ مظَالمُ من نفسٍ أو مالٍ أو عرضٍ ردَّها إليهِم، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانَت عندهُ مظلمَةٌ لأخيهِ منْ مالٍ أو عِرضٍ فليتحلَّلِ اليومَ، قبلَ ألَّا يكونَ دِينارٌ ولَا درهمٌ، إنْ كانَ لهُ عَملٌ صالحٌ أُخِذَ منهُ بقدرِ مَظلمتِهِ، وإنْ لَم يكُن لهُ حسنَاتٌ أُخذَ مِنْ سيئاتِ صاحبِهِ فحُملَ عَليهِ**»[(٤)].

---

(١) سورة المؤمنون:٥١.

(٢) سورة البقرة:١٧٢.

(٣) رواه مسلم (١٦٨٦).

(٤) رواه البخاري (٢٢٦٩).

وعلَىٰ المسلمِ فِي هذَا السفرِ المبارَكِ أنْ يصاحبَ الأخيارَ منْ أهلِ التقوَىٰ والصلاحِ، حتَّىٰ يُعينوهُ علىٰ طاعةِ اللهِ والتزودِ من أعمالِ البرِّ، وليحذَرْ من مصاحبَةِ السفهاءِ الذينَ لَا يُعينونَ عَلىٰ طاعةٍ، بلْ يَغْمِسونَ صاحبَهم في الآثامِ أو المزاحِ الذِي يُقسِّي القلوبَ أو يقودُ إلىٰ الألفاظِ الفاحشَةِ.

كمَا ينبغِي للمسلمِ الحرصُ علىٰ تعَلُّمِ الأحكامِ الشرعيَّةِ، سوَاءٌ بأخذهِ لمجموعةٍ من المؤلفاتِ التِي توضحُ لهُ مَا أشكلَ عَليهِ فِي أمورِ عبادتِهِ، أو بسؤالِهِ لأهلِ العِلمِ فيمَا أشكلَ عليهِ.

هذَا وإننَا ننبِّهُ إخواننَا علَىٰ ضرورَةِ سؤالِ أهلِ العلمِ فيمَا أَشْكَلَ عليهِم مِن أمرِ عبادَتِهِم أولَ وقوعِ الإشكَالِ، ولا ينتظِرُوا حتَّىٰ تمُرَّ الأيامُ تِلْوَ الأيامِ والشهورُ ولربمَا السنونَ، ثمَّ إذَا سألُوا بعدَ ذلكَ فإذَا بهِم وقدْ ترتَّبَ عَليهِم مجموعَةٌ منَ الأحكَامِ فتثاقَلُوهَا.

كمَا ينبَغِي للمسلمِ إذَا أرادَ أنْ يصطحِبَ معهُ شيئًا منَ الكتبِ أوِ الأشرطةِ أنْ تكونَ لعلماءَ أو طلابِ عِلمٍ يثقُ بهِم ومشهُودٌ لهُم بالخَيرِ، ولَا يَقرَأ كلَّ ما وقعَ فِي يدِهِ.

نسألُ اللهَ أن يُفقهنَا في دِينِنا، وأن يجعلَنَا هداةً مهتدينَ غيرَ ضالِّينَ ولا مُضِلِّينَ.

❊❊❊

(٥٧) تنبيهاتٌ للحُجاجِ

الحمدُ للهِ الذِي أكملَ لهذِهِ الأمةِ شرائعَ الإسلامِ، وفرضَ علَىٰ المُستطيعِ منهُم حجَّ بيتِهِ الحرَامِ، ووعَدَ مَن حجَّ البيتَ فلَم يرفُثْ ولمْ يفسُقْ بأنْ يخرجَ مِن ذنوبِهِ كيَومِ ولدَتْهُ أمُّهُ نَقيًّا منَ الآثامِ، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا هُوَ الملكُ القدوسُ السَّلامُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أفضلُ مَن صلَّىٰ وحجَّ وزكَّىٰ وصامَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وأصحَابِهِ البررَةِ الكِرَامِ، وعَلىٰ التابِعيَن لهُم بإحسَانٍ مَا تعاقَبتِ الليَالِي والأيامِ، وسلَّمَ تسلِيمًا كَثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعظَمِ نعَمِ اللهِ عَلىٰ عبدِهِ أنْ يشرَحَ صدرَهُ لحجِّ بيتِهِ الحرَامِ، وأن يُيسِّرَ لهُ أسبابَ ذَلكَ.

هذَا وإنَّ مِن أعظمِ التوفيقِ أنْ يحجَّ المُسلمُ حَجًّا صحيحًا يؤدِّي بِهِ هذِهِ الشَّعيرةَ العظيمَةَ علَىٰ أكملِ وَجهٍ، مُحافظًا علىٰ الشُّروطِ والأركانِ والواجبَاتِ، مجتهدًا بأداءِ السننِ، مُجتنبًا النواهِي والمَحظُوراتِ.

ولذَا فحَرِيٌّ بالمسلمِ أن يتعَلَّم كيفيةَ أداءِ الحجِّ كمَا صحَّتْ بذَلكَ الأدلَّةُ الشرعيةُ، حتىٰ تَسْكُنَ نفسُهُ، ويَطمئِنَّ قلبُهُ أنْ قَد وقَعَ حَجُّهُ مُوَافِقًا لسنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كمَا قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا عنِّي مَناسِكَكُم**»[١].

فالواجبُ عَلىٰ المُسلمِ إذَا أرادَ الحجَّ أنْ يُحرِمَ منَ المِيقاتِ، والمِيقاتُ مكَانٌ

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨٦).

حَدَّدَهُ الشارعُ ليُحرِمَ منهُ الحاجُّ والمُعتمرُ، والمَواقيتُ المكانيةُ خمسَةٌ جاءَتْ مبيَّنَةً في السنةِ النبويَّةِ، **قَال ابنُ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقَّت لأهلِ المدينةِ ذَا الحليفَةِ، ولأهلِ الشامِ الجُحفةَ، ولأهلِ نجدٍ قرنَ المنازِلِ (وهوَ المسمَّىٰ اليومَ: السَّيلُ)، ولأهلِ اليمنِ يَلملَمَ، هنَّ لهُنَّ ولمَن أتَىٰ عليهنَّ مِن غيرهنَّ ممَّن أرادَ الحجَّ والعمرَةَ، ومَن كانَ دونَ ذلكَ فمِن حيثُ أنشأَ حتَّىٰ أهلُ مكَّةَ مِن مَكَّةَ»[١].

وعنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقَّتَ لأهلِ العراقِ ذاتَ عِرقٍ»[٢].

فمنْ أرادَ الحجَّ ومرَّ بأحدِ هذهِ المواقيتِ فيَحْرُمُ عليهِ أنْ يتجاوزَهَا مِن غيرِ إحرامٍ إذَا كانَ قاصِدًا مكةَ يريدُ حجًّا أو عمرَةً.

ومَن حجَّ عَن طريقِ الجَوِّ فإنهُ لَا ينوِي الدخُولَ فِي النسُكِ وَلَا يُلبِّي بذَلكَ إلَّا إذَا حاذَىٰ الميقَاتَ أوِ اقترَبَ مِنهُ.

ومَنْ كانَ مَسكنُهُ دُونَ المَواقيتِ، فإنَّ مسكَنَهُ هوَ مِيقاتُهُ، فمتَىٰ أرادَ الحجَّ أوِ العُمرةَ أحرَمَ مِنهُ.

ويستحبُّ للحاجِّ إذَا وصلَ إلَىٰ الميقاتِ أنْ يغتَسِلَ، لمَا صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ تجرَّدَ لإهلالِهِ واغتسَلَ[٣].

والاغتسالُ للإحرامِ مشروعٌ للجميعِ حتَّىٰ الحائضُ والنفسَاءُ، وقدْ أمرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشَةَ لمَا حاضَتْ، وقَد أحرَمَتْ بالعُمرةِ أنْ تغتسلَ وتحرمَ بالحَجِّ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٨).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٩).

ويستحبُّ لِمَنْ أرادَ الإحرامَ أنْ يتعاهَدَ شَاربَهُ وأظفارَهُ وعانتَهُ وإبطَيهِ، فيأخذُ مَا تدعُو الحاجَةُ إلَىٰ أخذِهِ لئلَّا يحتَاجَ إلَىٰ أخذِ شَيءٍ مِن ذلكَ بَعدَ الإحرامِ وهوَ مُحرَّمٌ عليهِ.

كما يُستحَبُّ للحَاجِّ قبلَ أنْ يحرِمَ بالحجِّ أن يتطيَّبَ في جسمِهِ، ولكنْ لا يُطيِّبُ إحرامَهُ، قالتْ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «كنتُ أطيبُ رسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لإحرامِهِ قبلَ أنْ يحرِمَ، ولحلِّهِ قبلَ أنْ يطُوفَ بِالبيتِ»[1]، ولَوْ بَقِيَ أثرُ الطيبِ فِي رأسِهِ وجِسمِهِ بَعدَ الإحرَامِ بالحجِّ فإنَّهُ لَا يَضُرُّهُ.

والواجبُ عَلىٰ المُحرمِ أنْ يتجرَّدَ مِنْ مَلابسِهِ ويُحرِمَ فِي إزارٍ ورِدَاءٍ، ويُستحَبُّ أن يكونَا أبيضَيْنِ، كمَا يُستحبُّ أن يحرِمَ فِي نَعلَينِ، لقولِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ليُحرِمْ أحدُكُم فِي إزارٍ ورداءٍ ونعلَينِ**»[2]، ولا يُشترطُ نَعلٌ معيَّنٌ، فيجوزُ لهُ أنْ يلبسَ منَ النعالِ مَا شاءَ سواءٌ كانَ مِن جِلدٍ أو غَيرِهِ.

وتُحرمُ المرأةُ بمَا شاءَتْ منَ الثيابِ غيرَ متبرجَةٍ بزينةٍ، ولَا يُشترطُ لونٌ معَينٌ كالأخضرِ أو الأبيَضِ، فإنَّ هذَا غيرُ صحيحٍ وَلَا دَليلَ عَليهِ مِن الشَّرعِ.

ثمَّ يُلبِّي الحاجُّ وهُوَ عندَ المِيقاتِ بالنسكِ الذِي يريدُ بقَولِهِ: «لبَّيكَ عمرةً، أو لبَّيكَ حَجَّةً»، والأفضلُ أنْ يكونَ التلفُّظَ بذَلكَ بعدَ ركُوبِهِ لمَركوبِهِ مِن سيارَةٍ أَو غيرِهَا، وليسَ مِنَ السنَّةِ التلفُّظُ بالنيَّةِ فِي العبادَاتِ إلَّا فِي الإحرامِ خاصَّةً لورُودِهِ عَن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والواجبُ عَلىٰ الحاجِّ أو المُعتمرِ إذَا دخَلَ فِي النسُكِ وَلبَّىٰ بِهِ أنْ يجتنِبَ محظُوراتِ الإحرَامِ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٩)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٠٩٦).

فلَا يجُوزُ للمُحرِمِ -ذكَرًا كانَ أو أنثَىٰ- أن يأخُذَ مِن شَعرِهِ أو أظفَارِهِ، ولَا بَأسَ للمُحرمِ أن يغتسلَ ويغسلَ رأسَهُ ويحكَّهُ إذَا احتاجَ لذلكَ برِفقٍ وسهولَةٍ فإنْ سقطَ شيءٌ من الشعرِ بسَببِ ذلكَ فَلَا حَرجَ عَليهِ.

ويحرُمُ عَلىٰ الذَّكَرِ خاصةً أنْ يلبسَ المَخيطَ، وليسَ المَقصودُ بالمخيطِ مَا وُجِدَ فيه خياطةٌ، بَل المَقصُودُ مَا فُصِّلَ عَلىٰ الجسمِ وأحاطَ بِهِ كالقَميصِ والثوبِ والسروالِ والجَوارِبِ.

ويحرُمُ عَلىٰ المَرأةِ المُحرمَةِ أنْ تَلبسَ مَخِيطًا لوَجهِهَا كالبُرقعِ والنقَابِ، أو ليَدَيهَا كالقُفَّازَينِ، لقَولِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَتنقبُ المَرأةُ المحرِمةُ ولا تَلبسُ القُفازَيْنِ**»[1]، ولَيسَ مَعنىٰ هَذَا أنْ تَكشفَ وَجهَهَا أمامَ الرجالِ الأجَانبِ وتتعَرَّضَ للفتنَةِ، بلْ يجبُ عَليهَا تَغطيةُ وجهِهَا بغطاءٍ غيرِ النقابِ والبُرقعِ، وإذَا لبِستِ الغِطاءَ فلا تشدِّدْ عَلىٰ نَفسِها وتصنعُ لهُ أعوادًا حتَّىٰ لا يمسَّ وَجهَها، فلو مَسَّ الغِطاءُ وجهَها فلا بأسَ، ووَضْعُ الأعوادِ لهُ أو العِصَابَةِ حتَّىٰ لَا يَمَسَّ الوَجهَ، ليسَ عَليهِ دَليلٌ وَلَا يصحُّ هذَا الفِعلُ.

ولا يجوزُ للمحرمِ أنْ يلبسَ شَيئًا منَ الثيابِ مسَّهُ الطِّيبُ، كمَا لَا يجُوزُ لهُ أنْ يطيِّبَ بدنَهُ أوْ مَلابسَهُ أوْ أنْ يشربَ مَا فيهِ طِيبٌ كالزعفرانِ.

ويحرُمُ عَلىٰ المُحرِمِ الذَّكرِ تَغطيةُ رأسِهِ بمُلاصقٍ كالغُترةِ والطاقيةِ والعمامَةِ والبَرانسِ، لقولِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الذِي سقطَ عَن راحلتِهِ وهُو مُحرمٌ فمَاتَ: «**اغسلُوهُ بمَاءٍ وسِدرٍ وكفِّنوهُ فِي ثَوبَيهِ وَلَا تُخَمِّرُوا رأسَهُ فإنَّهُ يُبعثُ يومَ القيامَةِ مُلَبيًا**»[2].

(١) رواه البخاري (١٧٠٧).

(٢) رواه البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٢٠٩٢).

ويجوزُ للمُحرمِ أنْ يَستظلَّ بسَقفِ السيارَةِ أو الخَيمةِ أو الشَّمسيةِ ممَّا لَا يَكونُ ملاصِقًا للرَّأسِ، فقَد صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنهُ بُنِيَت له قُبةٌ بنَمرَةٍ، فنزلَ تَحتَها حتَّىٰ زالتِ الشمسُ يومَ عَرفةَ.

وقَد جاءَ ذكرُ هذِهِ الأشيَاءِ التِي تُحظَرُ عَلىٰ المُحرمِ مِن لُبسِ المخيطِ وتغطيةِ الرأسِ واستعمالِ الطيبِ مَجموعًا بقولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للرجلِ الذِي سألَه مَا يلبسُ المُحرمُ مِنَ الثيابِ، فقَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا تلبسُوا القُمصَ، ولَا العمائِمَ، ولَا السَّراويلاتِ، ولا البَرانسَ، ولا الخفافَ، إلَّا أحدٌ لَا يجدُ النعلَينِ فليَلبسِ الخُفَّينِ وليَقطَعهُمَا أسفلَ مِنَ الكَعبينِ، ولَا تَلبسُوا شَيئًا مسَّهُ الزعفرانُ أو الوَرسُ**»[1].

ويحرمُ عَلىٰ المُحرمِ -منَ الرجالِ أو النسَاءِ- قتلُ الصيدِ البرِّيِّ والمعاونَةُ عَلىٰ ذلكَ وتَنفيرُهُ مِن مكانِهِ.

ويحرمُ عَلىٰ المُحرمِ عقدُ النكاحِ، والجماعُ، وخِطبةُ النساءِ ومُباشرتُهُن بشَهوةٍ، لقولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا ينكِحُ المحرِمُ، ولا يُنكِحُ ولا يَخطِبُ**»[2].

وإن وقعَ المحرِمُ في محظورٍ من محظوراتِ الإحرامِ فإنهُ تجبُ علَيهِ الفديَةُ، ولَو لبسَ مَخيطًا أو غَطَّىٰ رأسَهُ أو تطيَّبَ نَاسيًا أو جاهِلًا فلا فديةَ عليهِ، ويُزيلُ ذلكَ متىٰ ذكَرَ أو عَلمَ، ولَو حلَقَ رأسَهُ أو أخذَ من شعرِهِ شَيئًا أو قَلَّمْ أظافِرَهُ نَاسيًا أو جاهِلًا فلَا شيءَ علَيهِ.

هذَا وإن ممَّا لا بُدَّ من الإشارَةِ إليهِ أن مَحظُوراتِ الإحرامِ بَعضُها عامٌّ في الرجَالِ والنساءِ، كالطيبِ وتَقليمِ الأظافِرِ وقتلِ الصيدِ البرِّيِّ وإزالةِ الشَّعرِ، وعقدِ النكاحِ والجماعِ، والخِطبةِ والمبَاشرَةِ بشَهوةٍ ، فتحرمُ عَلىٰ الرجالِ والنساءِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣)، ومسلم (٢٠١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٢٢).

ومنهَا: مَا هُوَ خَاصٌّ بالرجالِ دونَ النساءِ، كتغطيةِ الرأسِ بمُلاصقٍ، ولبسِ المخيطِ ولبسِ الجوربَينِ، فتحرمُ علَىٰ الرجالِ دونَ النساءِ، وتزيدُ النساءُ بمحظورٍ خاصٍّ بهنَّ، وهو لبسُ النقابِ والقفازينِ علىٰ اليدَينِ.

ويحرُمُ علَىٰ المسلمِ مُحرِمًا كانَ أو غيرَ محرمٍ، ذكرًا كانَ أو أنثَىٰ، قتلُ صيدِ الحرمِ والمُعاونةُ علىٰ قتلِهِ بآلةٍ أو إشارةٍ أو نحوِ ذلكَ، ويحرُمُ تنفيرُهُ من مكانِهِ، ويحرمُ قطعُ شجرِ الحرَمِ ونباتِهِ الأخضرِ، ولُقَطَتُهُ إلَّا لمَن يُعرِّفُها، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ هذَا البلدَ** -يعنِي: مكةَ- **حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلَىٰ يومِ القيامَةِ، لَا يُعضدُ شجرُهَا، ولا ينفرُّ صيدُها، ولا يُختلَىٰ خلاَهَا، ولا تَحِلُّ ساقطتُهَا إلا لمُنشدٍ**»(١).

الخَلا: الحشيشُ الرطبُ، **والمنشِدُ**: هو المعرِّفُ.

وهذَا الحكمُ مُختصٌّ بالحرمِ، ومنًىٰ، ومُزدلفَةُ من الحرمِ، وأما عرفَةُ فمن الحلِّ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي جعلَ بيتَهُ مثَابةً للناسِ وأمنًا، أحمدُهُ سُبحانَهُ لهُ الصفَاتُ العلَا والأسماءُ الحسنَىٰ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فممَّا لا بدَّ أنْ يفقهَهُ الحاجُّ ليكونَ حَجُّهُ صَحيحًا، جُملةٌ منَ الأحكامِ الشرعيَّةِ الفقهيَّةِ المُهمَّةِ، نُوردُهَا علىٰ وجهِ الإيجازِ والتَّنبيهِ، ليكُونَ المسلمُ منهَا عَلىٰ دِرايَةٍ.

---

(١) رواه البخاري (١٠٩)، ومسلم (٢٤١٤).

فمِنَ الأحكامِ المُهمةِ: معرفةُ أنهُ لَا يجوزُ للحاجِّ أو المعتمرِ أن يجاوزَ الميقاتَ بلَا إحرامٍ، فإنْ جاوزَهُ بلَا إحرَامٍ وجبَ عَليهِ الرجُوعُ، فإنْ لَم يَرجع فعَليهِ دمٌ، وهوَ رأسٌ منَ الغنمِ يجزئُ فِي الأضحيةِ أَو سُبُعُ بقرةٍ أو سُبُعُ بدنَةٍ.

ولا تُشترطُ الطهارةُ الصُّغرَىٰ ولَا الكُبرَىٰ لمنْ أرادَ الإحرامَ، ولهذَا صَحَّ الإحرامُ من الحائضِ والنفساءِ، ويستحبُّ للجميعِ الغُسلُ.

ولَوْ حجَّ المسلمُ عنْ آخرَ، فتكفِي النيةُ عنِ المُستنيبِ ولا يحتاجُ إلَىٰ ذِكرِ اسمِهِ، فإنْ سماهُ لفظًا عندَ الإحرامِ فهُوَ أفضلُ، وإنْ نسِيَ فَلا شيءَ عَليهِ، فَالنيةُ كافيةٌ.

ويَجوزُ للمرأةِ أخذُ حبوبِ منعِ الدورَةِ فِي الحجِّ إذَا لَم يَكُن فِيهَا مَضرةٌ، وبعدَ استشارةِ الطبيبِ.

ويستحبُّ للحاجِّ أوِ المُعتمِرِ أنْ يُهِلَّ بنُسكِهِ إذَا رَكبَ عَلىٰ رَاحلتِهِ، ومِثلُهَا السيارَةُ.

ويجوزُ للحاجِّ أنْ يَشترِطَ وقتَ الإحرامِ إذَا دعَتِ الحاجةُ لذَلكَ، كأنْ يكونَ مريضًا يخشَىٰ عدمَ استطاعتِهِ إتمَامَ حجِّهِ؛ لمَا جاءَ فِي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: «**أنَّ ضباعةَ بنتَ الزُّبيرِ قالتْ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي أريدُ الحجَّ وأنَا شاكيَةٌ، فقَالَ لهَا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: **حجِّي واشتَرطِي أنَّ مَحِلِّي حيثُ حَبستَنِي**»(١)، وفائدةُ هذَا الاشتراطِ أنهُ إذَا عجزَ حَلَّ وَلَا شيءَ عَليهِ.

ويجوزُ للمحرمِ أنْ يغتسلَ وأنْ يغيِّرَ ملابسَ الإحرامِ بمَلابسَ أخرَىٰ جديدةٍ أَو مغسولةٍ، كمَا يجُوزُ لهُ أن يغسِلَ ملابسَ الإحرامِ إذَا أصابَهَا شيءٌ منَ الوَسَخِ.

ويجوزُ الإحرامُ بأيِّ واحدٍ منَ الأنساكِ الثلاثَةِ، التمتُّعِ أوِ القِرانِ أوِ الإفرَادِ، وقدْ

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢١٠١).

أجمعَ العُلماءُ علَىٰ ذَلكَ، فمَن أحرمَ بأيِّ واحِدٍ منهَا صحَّ إحرَامُهُ، إلَّا أنَّ التمتُّعَ أفضَلُ الأنساكِ الثلاثَةِ.

وَلَا حرجَ عَلىٰ المُحرمِ مِن استِعمالِ الصابونِ المعطرِ؛ لأنَّهُ ليسَ طِيبًا ولا يُسمَّىٰ مُستعمِلُهُ متطيِّبًا، وإنمَا فيه رائحةٌ حسنَةٌ فلَا يَضُرُّهُ، وإنْ تركَهُ تَورُّعًا فهُوَ أفضَلُ.

ولَا بأسَ للمُحرمِ أو المُحرمةِ مِن استِعمالِ الحنَّاءِ لأنَّهُ ليسَ طِيبًا.

ولَا بأسَ فِي لبسِ المُحرِمِ للحزامِ والساعَةِ والنظارَاتِ، والنعالِ وإنْ كانَ فيهِ خياطَةٌ.

ويجوزُ للمحرمةِ أنْ تلبسَ الجواربَ والخفَّينِ، ولَكِن لَا تتنقبُ ولَا تَلبسُ القفازَينِ، ولكِن تُغطِّي وجههَا بغَيرِ النقابِ، ويَدَيهَا بغيرِ القفازَينِ فتغطيهَا بالعباءَةِ مثلًا؛ لأنَّ المرأةَ فِتنَةٌ.

ومن احتلَمَ وهُوَ مُحرمٌ فَلَا شيءَ عَليهِ سِوَىٰ الغسلِ.

والسنةُ للمُحرمِ في طوَافِ القدومِ أن يضطبعَ، أمَّا في غيرِهِ منَ الطوافِ فإنَّهُ يُغطِّي كتِفَيهِ.

والاضطبَاعُ هوَ: أنْ يجعلَ وَسَطَ ردائِهِ تحتَ إبطِهِ الأيمَنِ وطرفَيهِ عَلىٰ عاتقِهِ الأيسَرِ إلَىٰ أنْ ينتَهِي منَ الطَّوافِ، ثمَّ يجعلُ الرداءَ علىٰ عاتقَيهِ قبلَ ركعَتَي الطوافِ.

ويُشرَعُ للطائفِ استلامُ الحجرِ الأسودِ والركنِ اليمانيِّ فِي كلِّ شوطٍ، كمَا يُستحبُّ تقبيلُ الحجرِ الأسودِ إنْ تيسرَ ذلكَ بدونِ مشقَّةٍ، أمَّا معَ المشقةِ والزحامِ فيُكرَهُ، فإنْ لَم يستطعْ أشارَ إلَىٰ الحجرِ الأسودِ وكبَّرَ، ولَا يَفعلُ ذلكَ عندَ الركنِ اليمانِيِّ، فإنهُ إنْ لَم يَستطعْ أنْ يستلِمَهُ لَا يُشيرُ إليهِ.

ويشرعُ للطائفِ صلاةُ ركعتَي الطوافِ خلفَ المقامِ، فإنْ لَم يتيسَّرْ صَلَّاهُمَا فيمَا

شاءَ مِن بقيةِ المسجدِ وَلَا يزاحِمُ المُسلمينَ.

وإِذَا أرادَ المسلمُ الطوافَ فإِنَّهُ يتوضَّأُ، لقَولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطوافُ بالبيتِ صلاةٌ إلَّا أنَّ اللهَ أباحَ فِيهِ الكَلَامَ**»(١).

ومن قطع طوافَه للصلاةِ بدأ من حيث انتهىٰ ولا يلزمه العودةُ إلىٰ أوَّلِ الشوط.

ولا يجبُ عَلىٰ الساعِي بينَ الصفَا والمروَةِ الصعُودُ عَلىٰ الصفَا والمروةِ، ويكفِي الساعِي استيعَابُ مَا بَينهُمَا، ولكنَّ الصعودَ عليهِمَا هوَ السنةُ والأفضلُ، إن تيسَّرَ ذلكَ.

ولَا يلزمُ الطهارةُ للسَّعي، فمَن سعَىٰ عَلىٰ غيرِ طهارةٍ أجزَأهُ ذَلكَ؛ لأنَّ الطهارَةَ ليسَتْ شَرطًا فِي السَّعي وإنمَا هِي مُستحبةٌ.

والواجبُ علىٰ المُسلم الوقوفُ بعرفَةَ مِن بعدِ الزوالِ إلَىٰ غُروبِ الشَّمسِ، وإنْ انصرَفَ قبلَ الغروبِ ولم يَعُدْ إليهَا فعليهِ دمٌ، ومَن وقفَ بعَرفَةَ ليلًا أجزَأهُ ولَو مرَّ بهَا مرورًا.

ويجبُ عَلىٰ الحاجِّ المبيتُ فِي مزدلفةَ حتَّىٰ يسفرَ الظلامُ بعدَ صلاةِ الفَجرِ، ويجوزُ للنسَاءِ مُطلقًا وللضَّعفَةِ الدفعُ مِن مُزدلفة بعدَ مُنتصَفِ الليلِ ليلةَ النَّحرِ.

ومَن تركَ المبيتَ فِي مزدلفةَ فعَليهِ دمٌ.

ولَا يتعيَّنُ جَمعُ الحصَىٰ مِن مزدلفةَ فقدِ التقطَهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن منًىٰ.

وفي رَمي الجمراتِ لَا يُشترطُ بقاءُ الحصَىٰ فِي المرمَىٰ، ولكِن يُشترطُ وقوعُهُ فيهِ، فَلَو وقَعَت الحصَاةُ في المَرمَىٰ ثمَّ خَرَجت منه أجزَأَت.

وتجوزُ الإنابةُ في الرَّمي عنِ العاجزِ كالمَريضِ وكبِيرِ السنِّ وَالأطفالِ، ولَا تجُوزُ الوَكالةُ إلا لعُذرٍ شرعيٍّ، ومَن نابَ عَن غيرِهِ بَدَأَ بنفسِهِ عندَ كلِّ جَمرَةٍ.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢١).

والمرأةُ تُقصِّرُ مِن شعرِهَا عندَ التحَللِ مِن كلِّ ضفيرَةٍ أنملةٌ فأقَلُّ.

ويسقطُ المبيتُ فِي منًىٰ عَن أصحابِ الأعذارِ كالسقَاةِ والمريضِ الذِي يشقُّ عَليهِ المبيتُ، ويُرخَّصُ للعاملينَ علَىٰ مصلحَةِ الحجاجِ أنْ يتركُوا المبيتَ بمنًىٰ، وَأنْ يؤخِّرُوا الرمْيَ لليومِ الثالثِ إلَّا يَومَ النَّحرِ فالمشروعُ للجَميعِ فعلُهُ وعدمُ تأخيرِهِ، ومَن تركَ المبيتَ فِي منًىٰ ليلةَ الحاديَ عشَرَ وليلةَ الثانِيَ عشَرَ لغَيرِ عذرٍ فعليهِ دَمٌ.

ويجبُ عَلىٰ الحاجِّ أن يطُوفَ طوافَ الوداعِ، ولَوِ احتاجَ أنْ يَشتريَ حاجةً بعدَ طوافِ الودَاعِ أو انتظَرَ رفاقَهُ وكانَتِ المدةُ يَسيرةً عرفًا جازَ، فإنْ كانتْ طويلةً أعادَ الطوَافَ.

نسألُ اللهَ أنْ يرزُقَنا الفقهَ فِي الدينِ، وأنْ يوفِّقَنا لاتباعِ سُنَّةِ خَاتَمِ المرسَلينَ.

❀❀❀

(٥٨) فَضلُ عَشرِ ذِي الحجَّةِ وأحكامُ الأضحيَةِ

الحمدُ للهِ الذِي يجيرُ ولا يُجارُ عَلَيهِ، ولَا أَحَدَ يُماثِلُهُ أو يضاهِيهِ، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، أرسلَهُ بالهُدَىٰ ودِينِ الحقِّ ليُظهرَهُ عَلىٰ الدِّينِ كلِّهِ، فبلَّغَ مَا وجبَ عليهِ، اللهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ عَلىٰ عَبدِكَ ورسُولِكَ مُحمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الذينَ تمسَّكُوا بهَديهِ حتَّىٰ ماتُوا عَلَيهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سبحانَهُ قَد أعظمَ عَلىٰ عبادِهِ المنَّةَ أنْ يَسَّرَ لهُم سبلَ الخيرِ، وجعَلَ لهُم مواسِمَ يَزدادونَ فيهَا مِن الأجرِ وأعمَال البرِّ، ومِن هذِهِ المَواسمِ أيامُ العَشرِ الأُوَلِ مِن شهرِ ذِي الحجَّةِ، التِي أظلتنَا هذِهِ الأيامَ، والتِي فضَّلَها اللهُ سبحانَهُ علَىٰ سائرِ الأيامِ، وضاعفَ فيهَا الأجرَ لمَن عمِلَ صَالحًا.

ولتعظِيمِ هذِهِ الأيامِ المُباركةِ فقَد أقسمَ بهَا الربُّ -وَلا يقسِمُ إلَّا بعظيمٍ- فقالَ تعالَىٰ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾(١).

قالَ ابنُ عباسٍ وابنُ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **وغيرُ واحدٍ منَ السلَفِ:** المرادُ بهَا عشرُ ذِي الحجةِ.

كمَا أنهُ قَد ثبتَ فضلُهَا فِي سنةِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَد قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن أيامٍ العمَلُ الصَّالحُ فيهَا أحبُّ إلَىٰ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **من هذِهِ الأيامِ**

(١) سورة الفجر: ١-٢.

-يعنِي: أيامَ العَشرِ-. **قَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ولَا الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ؟ قالَ: ولا الجهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ، إلَّا رجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ ثمَّ لمْ يرجِعْ بشَيءٍ مِن ذلكَ»**(١).

فهَذا الحديثُ المباركُ يشحَذُ هممَ الصَّالحينَ للإكثارِ مِن أعمَالِ الخَيرِ، والتزودِ منَ البرِّ والتقوَىٰ، ودَليلٌ علَىٰ مضاعفَةِ الأجرِ وعظِيمِ امتنَانِ اللهِ عَلىٰ مَن عملَ صالِحًا فِي هذهِ الأيامِ، حتَّىٰ إنَّهُ لَا يَفوقُهُ أحدٌ إلَّا مجاهدٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ، فقُتلَ شهيدًا فِي سبيلِ اللهِ وذهبَ سلاحُهُ ومركوبُهُ.

وممَّا يُستحبُّ فعلُهُ هذِهِ الأيامَ الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وفضَائلُ الذكرِ كثيرةٌ، فقَد جاءَ أناسٌ إلَىٰ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالُوا: «**يَا رسُولَ اللهِ، ذهبَ أهلُ الدثورِ بالأجورِ، يُصلونَ كمَا نُصلِّي، ويصُومونَ كمَا نصومُ، ويتصدَّقونَ بفضُولِ أموالِهِم.**

فقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **أولَيسَ قَد جعلَ اللهُ لكُم مَا تصَدَّقونَ؟ إنَّ بكلِّ تسبيحَةٍ صدقةً، وكُلِّ تكبيرةٍ صدقَةً، وكُلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكُلِّ تهليلةٍ صدقَةً، وأمرٌ بمعروفٍ صدقةٌ، ونَهيٌ عنْ منكرٍ صدقَةٌ، وفِي بُضعِ أحدِكُم صدقَةٌ. قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، أيأتِي أحدُنَا شهوتَهُ فيكُونُ لهُ فيهَا أجرٌ؟ قالَ: أرأيتُم لَو وضعَهَا فِي حرَامٍ أكانَ عَليهِ وِزرٌ؟ فكذَلكَ إذَا وضعَهَا فِي حلالٍ كانَ لهُ أجرٌ»**(٢).

وقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كلمتانِ خفيفتَانِ علَىٰ اللسانِ، ثقيلتانِ فِي الميزَانِ، حبيبتَانِ إلَىٰ الرحمنِ: سُبحانَ اللهِ وبِحمدِهِ، سُبحانَ ربِّي العَظِيمِ»**(٣).

وقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن أحبَّ أن تسرَّهُ صحيفَتُهُ يومَ القيامَةِ فليُكثِرْ مِنَ**

---

(١) رواه البخاري (٩٦٩).

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

الاستِغفَارِ»[١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾، **قالَ ابنُ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الأيامُ المَعلُومات: أيامُ العَشرِ».

وكانَ ابنُ عمرَ وأبُو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخرجانِ إلَىٰ السوقِ فِي أيامِ العشرِ يُكبِّرانِ ويكبرُ الناسُ بتكبيرِهمَا.

ولَا يعنِي ذلكَ جوازُ التكبيرِ الجماعيِّ؛ لأنهُ منَ البدعِ المُنكرَةِ، ولكِن يُكبِّرُ كلُّ واحدٍ علَىٰ حدَةٍ، وهذَا التكبيرُ مطلقٌ فِي أيِّ وقتٍ، ولَا يَلتزمُ بوقتٍ معينٍ، فإذَا دخلَ يومُ عرفةَ فإنَّه يكبِّرُ عقِبَ كلِّ صلاةٍ، مِن فجرِ يَومِ عرفةَ إلَىٰ عصرِ آخرِ أيامِ التشريقِ، وهذَا هوَ التكبيرُ المُقيدُ بوقتٍ، وقَد ورَدَ ذلكَ عَن عليٍّ وابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكيفيةُ التكبِيرِ هيَ أنْ يقولَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ وللهِ الحمدُ، جَاءَ ذلكَ عَن عمرَ الفَاروقِ وابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وممَّا يستحبُّ فعلُهُ فِي هذِهِ الأيامِ: الإكثَارُ مِنَ الصَّومِ، فإنِ استطاعَ صيَامَ «التسعِ مِن ذِي الحجةِ كُلهَا» فهُو خيرٌ وفَضلٌ، قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن عبدٍ يصومُ يَومًا فِي سَبيلِ اللهِ إلَّا باعدَ اللهُ بذَلكَ اليَومِ وجهَهُ عَنِ النارِ سَبعينَ خَرِيفًا**»[٢].

ومَن لَم يَستطعْ صَومَها جميعًا، فَلا يبخَلْ عَلىٰ نَفسِهِ بأجرِ صيامِ بعضِ أيامِهَا، فقَد جاءَ فِي الحديثِ عَن بعضِ أزواجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَت: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومُ تسعَ ذِي الحجةِ، ويومَ عاشُوراءَ، وثلاثَةَ أيامٍ مِن كلِّ شهرٍ»[٣].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢١٠٦).

وعمُومًا فالصومُ يدخُلُ فِي قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن أيامٍ العملُ الصَّالحُ فيهَا أحبُّ إلَىٰ اللهِ مِن هذِهِ العَشرِ...**»، وقَد بينَ أهلُ العلمِ أنهُ لَا نِزاعَ فِي استحبَابِ صَومِ عشرِ ذِي الحجةِ، ويَقصدونَ بذلكَ التسعَ؛ لأنَّ العاشرَ يومُ العيدِ وصيامُهُ حرامٌ لَا يجوزُ.

وقَد سئلَ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ **عمَّن زعمَ أنَّ صيامَ عشرِ ذِي الحجةِ بدعَةٌ، فقَالَ:** «هذَا جاهلٌ يُعلَّمُ، فالرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَضَّ علَىٰ العملِ الصالِحِ فيهَا، والصيامُ مِن العمَلِ الصَّالحِ».

وممَّا يُستحبُّ فِعلُهُ فِي هذِهِ العَشرِ: صيامُ يَومِ عرفَةَ، لِمَا جعلَ اللهُ فِي ذلكَ مِنَ الأجرِ العَظيمِ، فقَد سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن صَومِ يَومِ عرفَةَ. فقالَ: «**يُكَفِّرُ السنةَ المَاضيَةَ وَالبَاقيَةَ**»[1].

وهذَا الاستحبابُ فِي حقِّ غيرِ الحُجَّاجِ، وأمَّا الحاجُّ فَلَا يَصومُ يومَ عرفَةَ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقفَ فِي عرفةَ مُفطِرًا، وخيرُ الهَدي هديُ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهُوَ الأتقَىٰ والأخشَىٰ للهِ، ولوْ كانَ خَيرًا لسبقَنَا إلَيهِ.

وممَّا يسارعُ إلَيهِ العَبدُ فِي هذِهِ الأيامِ: الحجُّ إلَىٰ بَيتِ اللهِ الحَرامِ، وهُوَ فَرضٌ مؤكَّدٌ ووَاجبٌ عَلَىٰ الفَورِ لمَنِ استطَاعَ إلَيهِ سَبيلًا، قَالَ تعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

فمَتىٰ مَا مَلكَ العبدُ النفقةَ الكافيَةَ، والقُدرةَ علَىٰ الحجِّ في البَدنِ وأمِنَ الطريقَ وجبَ عَليهِ الحَجُّ وَلا يَجُوزُ لَهُ تأخيرُهُ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعجلُوا بالحجِّ، فإنَّ**

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) سورة آل عمران:٩٧.

أحدَكُم لا يَدرِي مَا يعرِضُ لَهُ»(١).

فأنتَ اليومَ نشيطٌ قادرٌ مُستطيعٌ، ولَا تَدرِي بمَا تَحمِلُهُ الأيامُ مِن غيبٍ اختصَّ اللهُ سبحانَهُ بعِلمِهِ، فلعلَّ القادرَ يعودُ عاجزًا، والغنيَّ يعودُ مُعوِزًا، فالأمورُ بيدِ اللهِ سبحانَهُ.

فكيفَ بالعبدِ إذَا ذهبَ للحجِّ يريدُ قضاءَ فَرضهِ ومغفرةَ ربِّهِ، ووافقَ ذلكَ مَوسِمًا عظيمًا للتزودِ مِنَ الطاعَاتِ، قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحجُّ المَبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلَّا الجنةُ**»(٢).

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حجَّ فَلمْ يرفُثْ ولَمْ يَفسُقْ رجعَ كيومِ ولدَتهُ أمُّهُ**»(٣)، لَا شكَّ أنهَا مُنتهَىٰ المِنةِ والفَضلِ منَ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٤).

وفِي العمومِ فإنَّ المسلمَ يُستحبُّ لهُ أنْ يكثِرَ مِن كلِّ عملٍ صالحٍ، دونَ التقيدِ بنوعٍ مُعينٍ، فإنمَا هُوَ مَوسمٌ لِجَنْي الأعمَالِ الصَّالحَةِ، فليُسارِعِ المُسلمُ إلَىٰ التزودِ منهَا بمَا يستطيعُ مِنَ البرِّ والصلةِ وعيادَةِ المريضِ، والتَّوبةِ إلَىٰ اللهِ مِنَ التقصيرِ فِي تركِ الواجباتِ وفِعلِ المُحرماتِ، والابتعَادِ عنْ مجالسِ السُّوءِ، واتباعِ الجنائِزِ، والدعَاءِ والتضرُّعِ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والإكثَارِ منْ نوافِلِ الصَّلواتِ، وَالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، وغَيرِ ذلكَ ممَّا دلَّتْ عَلىٰ فضلِهِ النصوصُ الشرعيَّةُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٩٩٠).
(٢) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).
(٣) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).
(٤) سورة فصلت:٣٥.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجَلالِ وجههِ وعظيمِ سُلطانِهِ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وَعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيهَا المُسلمونَ:

فمِن الشَّعائرِ التِي يَنبغِي للمُسلمينَ أنْ يُحافظُوا عليهَا فِي هذِهِ الأيامِ المُباركَةِ، ذَبحُ الأضاحِي تَقربًا إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فالذبحُ مِن العبَاداتِ التِي لا يجوزُ صرفُهَا إلَّا للهِ ربِّ العالمينَ سُبحانه، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، نسُكي، أي: ذَبحِي.

وقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(٢)، فمَن ذبحَ الأضحيَةَ فقَد تقرَّبَ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بشيءٍ يحبُّهُ ويرضاهُ وشَرعَهُ لعبَادِهِ.

والأفضلُ ذبحُ الأضحيةِ فِي البلدِ حتَّىٰ تبقَىٰ هذِهِ الشعيرَةُ ظاهرةً؛ لأنَّ المقصُودَ منَ الأضحيَةِ هُوَ التقرُّبُ إلَىٰ اللهِ بإهرَاقِ الدَّمِ، استجابَةً لمَا شَرعَهُ اللهُ لعبَادِهِ، واتباعًا لسنةِ نبيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كمَا فِي حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «ضَحَّىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكبشَينِ أملحَينِ أقرنَينِ، ذَبحهُمَا بيَدِهِ وسَمَّىٰ وكبَّرَ»(٣).

وتُجزئُ الأضحيةُ عَنِ الرجلِ وأهلِ بَيتِهِ، فقَد قالَ أبُو رافعٍ: «إنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) سورة الأنعام:١٦٢.

(٢) سورة الكوثر:٢.

(٣) رواه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦).

ضحَّىٰ عنهُ وَعن أهلِ بَيتِهِ»[١].

ومَن كانَ فِي بَيتٍ مُستقلٍّ فيُشرعُ لهُ أنْ يضحِّيَ عنهُ وَعَن أهلِ بيتِهِ بأضحيَةٍ مُستقلَّةٍ.

والواجبُ عَلىٰ مَن أرادَ أنْ يُضحِّيَ أنْ يُمسِكَ عَن شعرِهِ وأظفارِهِ فلَا يُأخُذ منهَا شيئًا مِن أولِ شهرِ ذِي الحجَّةِ وحتَّىٰ يُضحِّي؛ لقولِهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذَا دخلَ شهرُ ذِي الحجَّةِ وأرادَ أحدُكُم أنْ يضحِّيَ فلَا يُأخُذْ مِن شَعرِهِ ولَا مِن بشَرتِهِ ولَا مِن أظفَارِهِ شيئًا**»[٢].

ومَن لَم يَعرفْ هذَا الحُكمَ إلَّا بعدَ دخولِ أولِ أيامِ ذِي الحجةِ، وقَد أخذَ مِن شعرِهِ وأظفارِهِ فليُمسِكْ فيمَا بقِيَ منَ الأيامِ.

ويدخلُ فِي ذلكَ مَن وكَّلَ شَخصًا أن يضحِّيَ عنهُ، فإنهُ يلزمُ صاحبَ الأضحيَةِ أَنْ يمسكَ عَن شعرِهِ وأظفارِهِ ولَا يلزَمُ المُوكَّلَ لأنهُ مُتبرِّعٌ.

والسنَّةُ أنْ يُضحيَ الحيُّ عنْ نفسِهِ وعَن أهلِ بيتِهِ، فمِنَ الخطأِ أنَّ بعضَ الناسِ يضحِّي عَن أموَاتِهِ ولَا يضحِّي عَن نفسِهِ وأهلِ بيتِهِ، والنبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضَحَّىٰ عَن نفسِهِ وأهلِ بيتِهِ.

وأمَّا الأضحيَةُ عنِ المَيتِ، فإنْ كانَ قَد تركَ مَالًا وأوصَىٰ أنْ يُضحَّىٰ عنهُ، فالواجبُ إنفاذُ وصيَّتِهِ، وإنْ لَم يكُن قَد خلَّفَ مَالًا، وأرادَ أحدُ أهلِهِ أنْ يُضحِّيَ لهُ تبرعًا فَلا مانِعَ.

عَلىٰ أنهُ لا بدَّ أن يُعرفَ أنَّ الأضحيَةَ فِي الأصلِ عنِ الحيِّ، والنبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١١٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٧).

إنمَا ضحَّىٰ عَن أهلِ بيتِهِ، ولَم يُذكَرْ أنهُ ذبحَ عَن أمواتِهِ.

ولَا مانعَ أنْ يَدخلَ الأمواتُ فِي قولِ المُضحِّي: «عنِّي وعَن أهلِ بَيتي»، ففضلُ اللهِ واسعٌ.

ووقتُ ذبحِ الأضحيَةِ بعدَ صَلاةِ العِيدِ، فمَن ذبحَها قبلَ صلاةِ العيدِ فَلا تُجزئُ عنهُ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن ذبحَ قبلَ الصَّلاةِ فليذبَحْ مكانَهَا أُخرَىٰ**»(١).

ويمتَدُّ وقتُ الأضاحِي مِن بعدِ صلاةِ العيدِ وحتَّىٰ غروبِ الشمسِ فِي اليومِ الثالثَ عشَرَ مِن ذِي الحجةِ؛ أي: رَابع أيَّامِ العِيدِ.

ولا تكونُ الأضحيَةُ إلَّا مِن بهيمَةِ الأنعامِ «الغنَم والمَعز والبقَر والإِبل».

ولا بُدَّ مِن اعتبارِ السنِّ فِي الأضاحِي، فإنْ ضحَّىٰ منَ الغنَمِ فلا بُدَّ ألا يقِلَّ سِنُّهَا عَن ستَّةِ أشهُرٍ، والمَعزُ سنةٌ، والبقرُ سنتَانِ، والإبلُ خَمسُ سِنينَ.

ويقبلُ فِي هذَا بقَولِ البائعِ الثقةِ المأمُونِ؛ لأنَّ هذَا خبرٌ دينيٌّ فلا بدَّ مِن تحرِّي الصادِقِ الثقَةِ فِيهِ.

ولا يجوزُ أنْ يشترِكَ أكثَرُ مِن شَخصٍ مَاليًّا بشراءِ أضحيَةٍ مِنَ الغنمِ أو المَعزِ؛ لأنَّ الأضحيَةَ مِنَ الغنمِ والمَعزِ تكونُ عَنِ المَرءِ وأهلِ بيتِهِ.

أمَّا الإبلُ والبقَرُ فيَجُوزُ أنْ يشترِكَ فيهَا سبعةُ أشخاصٍ، عَن كلِّ واحدٍ منهُم سُبعُ أضحيَةٍ عَنهُ وعَن أهلِ بَيتِهِ.

قالَ جابرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نحَرنَا فِي عامِ الحُديبيَةِ البدنَةَ عَن سبعَةٍ، والبقرَةَ عَن سبعَةٍ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١٩٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٣١٨).

ولا يُجزئُ أن يُضحِّيَ بالمَعيبَةِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أربعٌ لَا تجوزُ فِي الأضاحِي: العوراءُ البيِّنُ عورُهَا، والمَريضَةُ البَيِّنُ مرَضُهَا، والعرجَاءُ البيِّنُ ضلعُهَا، والعجفَاءُ التِي لَا تَنقِي**»[1]، العَجفَاء التِي لا تنقِي: الهزيلةُ التِي ليسَ فيهَا مُخٌّ.

ويجوزُ أنْ يضحيَ «بالهَتماءِ» التِي ذهبَتْ ثنَايَاهَا، «والجَدَّاءِ»: التِي نشفَ ضَرعُهَا، ولكِن كلمَا كانَت أكمَلَ فهو أفضَلَ.

ويُكرهُ أنْ يُضحِّي بالعَضباءِ التِي ذهبَ أكثرُ قَرنِها أو أكثَرُ أذنِهَا، ويجوزُ أنْ يضحيَ بالخصيِّ، فقَد ثبتَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضحَّىٰ بكبشَيْنِ مَوجُوءَيْنِ**»[2].

وممَّا لا بُدَّ أن يُعلمَ أنهُ لا يجوزُ لصاحبِ الأضحيةِ أنْ يعطِيَ الجازرَ أجرتَهُ منهَا، وإنْ أعطاهُ علَىٰ وجهِ الصدقةِ إذَا كانَ فقيرًا أو هديَّةً فهَذَا جائزٌ.

كمَا أنهُ لَا يجوزُ لهُ أنْ يَبيعَ جِلدَهَا أَو شَيئًا مِن أجزائِهَا بعدَ ذَبحِهَا؛ لأنهَا تعيَّنتْ للهِ.

ويجُوزُ لهُ أنْ يذبحَ فِي الليلِ إذَا لَم يُخِلَّ بتَقسيمِهَا، ويَأكلُ منهَا ويُهدِي ويتصَدَّقُ.

كمَا يجوزُ للمرأةِ أنْ تذبحَ الأضحيَةَ ولَا مَانعَ مِن ذلكَ.

❊❊❊

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٨٦).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١١٤٧).

(٥٩) المُحرماتُ فِي النكاحِ وأحكامُ العِدَّةِ

الحمدُ للهِ الرحيمِ الرحمَن، علمَ القُرآن؛ خلقَ الإنسانَ علَّمَهُ البيَان، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ، أنزلَ القرآنَ هُدًىٰ للناسِ وبينَاتٍ مِنَ الهُدَىٰ والفُرقَان، وأشهَدُ أنَّ نبينَا مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ سيدُ ولدِ عَدنَان، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَن تَبعَهُم بإحسَان.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لحِكمتِهِ البالغَةِ أباحَ النكاحَ؛ لمَا فيهِ مِن الاستقرَارِ والطمأنينَةِ والإشبَاعِ العاطفيِّ، وحاجَةِ كلٍّ مِن الرجُلِ والمرأةِ إلَىٰ مَن يَسكنُ إليهِ، كمَا قالَ تعَالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وعَلىٰ الرَّغمِ مِن إباحةِ النكَاحِ إلَّا أنَّ هناكَ مِن النساءِ مَن لَا يحِلُّ الارتبَاطُ بهَا فِي عقدِ الزَّوجيةِ، إمَّا عَلىٰ التأبيدِ، وإمَّا إلَىٰ أمدٍ حتَّىٰ يَزولَ سَببُ المَنعِ، وقَد جاءَ بيانُ ذلكَ فِي الكتابِ والسنَّةِ.

فمِن المُحرمَاتِ فِي النكاحِ عَلىٰ التأبيدِ: المُحرمَاتُ بالنسَبِ، وهُنَّ: الأمُّ وإن عَلَت، والبنتُ وإن نزلَت، والأخوَاتُ سواءٌ كنَّ شقيقاتٍ أو لأبٍ أو لأمٍّ وما تفرَّع عنهُنَّ، وبناتُ الأخِ وإنْ نزَلْنَ، وبناتُ الأختِ وإن نَزلنَ، والعمَّةُ، والخالَةُ وإن علونَ،

---

(١) الروم:٢١.

وهَؤلاءِ مُحرماتٌ بالنصِّ والإجمَاعِ، ولَم يُخالِف فِي هذَا أحدٌ مِن أهلِ العِلمِ، قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾(١).

وممَّن يحرُمُ نكاحُهَا علَىٰ التأبِيدِ: الملاعَنةُ، وهِي التِي رماهَا زوجُها بالزنَا ولَم تُقرَّ بِهِ، ولَم تَقُم بينَةٌ علَىٰ مَا قذفَهَا بِهِ، ففِي هذِهِ الحالِ إذَا طَالبَتْ بإقامةِ حدِّ القذفِ عليهِ فلهُ إسقَاطُهُ باللعَانِ، فإذَا تمَّ ذلكَ فُرِقَ بينَهُما تفريقًا مُؤبدًا، لا تحلُّ لهُ أبَدًا.

ومنَ المُحرماتِ فِي النكاحِ علَىٰ التأبيدِ: المُحرماتُ بالرضَاعِ، فيحرمُ بسَببِ الرضاعِ مَا يحرمُ بسَببِ النَّسبِ، فيُعدُّ المحرمَاتُ بالرضَاعِ كمَا يُعدُّ المحرماتُ بالنسَبِ، سوَاءً بسواءٍ، فتحرُمُ الأمُّ منَ الرضَاعِ، والبِنتُ منَ الرضاعِ، والأختُ منَ الرضَاعِ، وبنتُ الأختِ منَ الرضَاعِ، وبنتُ الأخِ منَ الرضَاعِ، والعمَّةُ منَ الرضَاعِ، والخالةُ مِنَ الرضاعِ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يَحرمُ منَ الرضَاعِ ما يَحرُمُ مِنَ النسَبِ**»(٢).

ويُشترط للرضَاع المُحرِّمِ شَرطانِ: أنْ يكونَ الرضاعُ خَمسَ رضعاتٍ فأكثَرَ، وأنْ يكونَ الرضاعُ فِي زمنٍ يتغذَّىٰ فِيهِ الطفلُ باللَّبنِ، ويُحملُ ذلكَ علَىٰ الغالبِ وهُوَ سنتانِ، فمتَىٰ وقعَ الإرضاعُ بعدَ السنتَينِ فَلَا أثرَ لَهُ؛ لقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿**وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ**﴾(٣)، وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يُحرِّمُ مِنَ الرضَاعِ إلَّا مَا فتَقَ الأمعَاءَ، وكَان قَبلَ الفِطامِ**»(٤).

(١) النساء: ٢٣.

(٢) رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

(٣) البقرة: ٢٣٣.

(٤) رواه الترمذي (١١٥٢) وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٢١٥٠).

وممَّنْ يَحرمُ نكاحُهنَّ علىٰ التأبيدِ: المُحرماتُ بالمصَاهرَةِ، فيحرمُ بعَقدِ النكاحِ زوجةُ الأبِ وكلِّ جَدٍّ، فمَتىٰ عقدَ إنسانٌ علَىٰ امرأةٍ حَرمَ علىٰ ابنِهِ أن يتزَوَّجَها، سَواءٌ دخلَ بهَا أم لَم يَدخُلْ، وحتَّىٰ لَو طلقهَا أو ماتَ عنهَا قَبلَ الدخُولِ فهِيَ حرامٌ عَلىٰ ابنِهِ؛ لقولِ اللهِ تعَالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(١).

وتحرُمُ زوجةُ الابنِ منَ الصُّلبِ، وزوجَةُ ابنِ ابنِهِ وإنْ نزَلَ، وزوجَةُ ابنِ بِنتهِ وإنْ نزَلَ؛ لقَولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾(٢).

وتحرمُ أمُّ زَوجتِهِ وجَدَّاتُها بمجرَّدِ العقدِ، فَلو عقدَ عَلىٰ امرأةٍ وطلَّقها قبلَ الدخولِ حُرِّمَتْ عليهِ أمُّهَا؛ لقَولِ اللهِ تعَالىٰ: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾(٣)، والمرأةُ تكونُ مِن نسَائِهِ بمُجرَّدِ العقدِ.

وتحرمُ بنتُ الزوجةِ -وهيَ الربيبَةُ- عَلىٰ زوجِ الأمِّ، بشَرطِ أنْ يجامِعَ الأمَّ، فَلَو تزوجَ امرأةً وخَلا بهَا ولم تُعجِبْهُ، وطلَّقَهَا قبلَ أنْ يُجامِعَها، فلهُ أنْ يتزوجَ بِنتَهَا، ومَن تفرعَ منهَا كبنَاتِ بناتِهَا وبناتِ أبنائِهَا، سواءٌ كانَت ابنَةَ المَعقودِ عَليها مِن زوجٍ سابقٍ، أو مِن زوجٍ لاحِقٍ؛ لقَولِ اللهِ تعَالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾(٤)، فالمقصُودُ بالدخُولِ هُنا الجِمَاع، ومَن شرطِ تحريمِ الربيبَةِ ومَن تفرعَ منهَا أنْ يدخلَ بأمِّهَا، ولو طَلَّقَهَا وانقضَتِ العِدةُ جازَ أن يتزَوَّجَ ابنتَهَا، إذَا لم يُجامِعْ أمَّهَا.

---

(١) النساء:٢٢.

(٢) النساء:٢٣.

(٣) النساء:٢٣.

(٤) النساء:٢٣.

ويحرُمُ عَلىٰ الزوجِ بناتُ زَوجتِهِ التِي دخلَ بهَا وإِن كُنَّ مِن زوجٍ بعدَهُ.

ومِنَ المُحرماتِ فِي النكاحِ مَن يُمنعُ مِن نِكاحِها إلىٰ أمدٍ، إمَّا إلَىٰ مدةٍ مُعينةٍ، أَو تغيُّرِ حالٍ إلَىٰ أخرَىٰ، أو لزَوالِ سَببٍ.

فمِن ذلكَ: أنه يحرمُ الجمعُ بينَ المَرأةِ وأختِهَا؛ لقولِهِ تعَالىٰ: **﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾**(١)، وَلَا يجوزُ الجمعُ بينَ زَوجتِهِ وعمتِهَا أو خالَتِها، وكذلكَ مُعتدتُهُ وعمتُهَا أو خَالتُهَا، لقَولِ النبيِّ ﷺ: «**لَا يُجمعُ بينَ المرأةِ وعمَّتِها، وَلَا بينَ المَرأةِ وخَالتِهَا**»(٢).

ويَحرُمُ الجمعُ بينَ الأختينِ مِنْ رضاعٍ، وبينَ المَرأةِ وعمتِها أو خالتِهَا مِن رضَاعٍ، لأنهُ حرُمَ الجمعُ بينَ هاتَينِ المَرأتَينِ بالنَّسبِ، فكَذلكَ يَحرمُ الجمعُ بينَهُمَا بالرضَاعِ، وفِي الحَديثِ: «**يَحرُمُ مِنَ الرضَاعِ مَا يَحرُمُ مِنَ النَّسبِ**»(٣).

ويَحرمُ نكاحُ الزَّانيةِ عَلىٰ الزَّانِي حتَّىٰ تتوبَ وتنقَضِي عدَّتُهَا؛ لقَولِ اللهِ تعَالىٰ: **﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**(٤).

وتَحرمُ المُطلقةُ ثَلاثًا عَلىٰ طَليقِها حتَّىٰ يطَأَهَا زوجٌ غيرُهُ؛ لقولِهِ تعَالىٰ: **﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾**(٥)، ثُم قالَ: **﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾**، أَي: المرةَ الثالثَةَ؛ **﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾**(٦).

---

(١) النساء:٢٣.

(٢) رواه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

(٤) النور:٣.

(٥) البقرة:٢٢٩.

(٦) البقرة:٢٣٠.

ولا تحلُّ لزَوجِها الأولِ حتَّىٰ يتزوَّجَها الثاني بعَقدٍ صَحيحٍ ويطَأَها، فَلو تزَوَّجها بنيَّةِ التَّحليلِ فالعَقدُ فاسدٌ؛ لقَولِ اللهِ تعَالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾(١)، ولَا يمكنُ أنْ يكونَ زَوجًا إلَّا إذَا كانَ النكاحُ صَحيحًا، ولهَذَا لَو نكحَهَا مُحللٌ وجَامَعَها لَم تحِلَّ للأوَّلِ.

ولَو أنَّ الزوجَ الثَّانِي تزوَّجَها بعقدٍ صَحيحٍ، ودخلَ عليهَا وباشرَهَا، ولكِن لَم يطَأهَا، فإنهَا لا تَحلُّ للأولِ، لقصةِ امرأةِ رفَاعةَ القُرظيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن رفاعةَ طلقهَا ثلاثَ تطليقاتٍ، وتزوجَت بعدَهُ عبدَ الرحمَنِ بنَ الزبَيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكنَّهُ لَم يكُن لهُ قدرةٌ علَىٰ النكاحِ، فجاءَت تشتَكِي إلَىٰ الرسُولِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تقولُ لهُ: إنَّ رفاعةَ طلقهَا وبتَّ طلاقَهَا، وإنهَا تزوَّجَت عبدَ الرحمنِ بنَ الزبَيرِ، وليسَ معهُ إلَّا مثلُ هدبَةِ الثَّوبِ وأشارَت بثوبِهَا، فقالَ لهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتُريدينَ أنْ ترجعِي إلَىٰ رفاعةَ؟ لَا، حتَّىٰ تذوقِي عُسيلتَهُ، ويذوقَ عُسيلتَكِ**»(٢)، فيُؤخذُ مِن هذَا أنهُ لا بدَّ منَ الجمَاعِ، حتَّىٰ يكونَ النكاحُ مُرادًا حقًّا.

ولا يصحُّ عقدُ النكاحِ عَلىٰ المُحرِمةِ حتَّىٰ تحِلَّ، سواءٌ كانَت مُحرمةً بعُمرةٍ أو بحجٍّ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ينكِحُ المُحرمُ ولَا يُنكِحُ ولَا يخطِبُ**»(٣).

ولا يحلُّ لكافرٍ أيًّا كانَ كُفرُهُ -سواءٌ كانَ يَهوديًّا أم نَصرانيًّا أم وثنيًّا أم شيوعيًّا- أنْ يتزوجَ مسلمَةً؛ لقَوله تعَالىٰ: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ﴾(٤)، وقولِهِ تعَالىٰ: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

---

(١) البقرة: ٢٣٠.

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٠)، ومسلم (١٤٣٣).

(٣) رواه مسلم (١٤٠٩).

(٤) البقرة: ٢٢١.

وَلا يحلُّ لمسلمٍ أن ينكحَ امرأةً كافرةً؛ لقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(١).

ويُستثنىٰ مِن منعِ نكاحِ المسلمِ بالكافرَةِ الحُرةُ الكتابيةُ، فيجوزُ نِكاحُها بشرطَينِ: أن تكونَ حرَّةً، وأن تكونَ كتابيَّةً؛ لقولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٢).

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ عَلىٰ جزيلِ النعمَاء، والشكرُ لهُ عَلىٰ ترادُفِ الآلَاء، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، إمامُ المتقينَ والأولِيَاء، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلىٰ آلِهِ الأصفِيَاء، وأصحَابِهِ الأتقِيَاء، والتابِعينَ لهُم بإحسَانٍ إلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بَعدُ:

فممَّنْ يحرمُ نكاحُهَا إلَىٰ أمدٍ: المُعتدةُ منَ الغَيرِ، ولَو كانَتْ بائنةً بينونَةً كبرَىٰ؛ لأنهُ قدْ تعلَّقَ بهَا حقُّ الزوجِ الأولِ، وقَدْ أجمعَ العلماءُ عَلىٰ أنَّ المرأةَ المعتدةَ لَو عُقدَ عليهَا فالنكاحُ باطلٌ؛ لقَولِ اللهِ تعَالىٰ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾(٣)، ويجبُ التفريقُ بينَ الواطِئِ والزوجَةِ المعتدةِ، كمَا يجبُ عليهَا أن تتمَّ عدَّةَ الأولِ، ثمَّ تستأنِفُ العدَّةَ للثانِي.

---

(١) البقرة: ٢٢١.

(٢) المائدة: ٥.

(٣) البقرة: ٢٣٥.

ومنَ الضروريِّ معرفةُ أنواعِ المعتدَّاتِ، لارتباطِ ذلكَ بجملةٍ منَ الأحكَامِ الشرعيَّةِ المهمَّةِ فِي بابِ النكاحِ وغَيرِه.

فمِنْ أنواعِ المُعتداتِ: الحَاملُ، وعدةُ المرأةِ المُفارَقةِ وهِيَ حاملٌ، مِنَ الفِراقَ إلَىٰ وضعِ الحَملِ، سواءٌ كانتْ عدَّتُها منْ موتِ الزَّوجِ، أو طلاقِهَا، أو فَسخِ نكاحِهَا؛ لقولِهِ تعَالىٰ: ﴿**وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ**﴾[1].

ولحديثِ أمِّ سلمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «قُتِل زوجُ سُبيعةَ الأسلميَّةِ وهيَ حُبلَىٰ، فوضعَتْ بعدَ موتِهِ بأربعينَ ليلةً، فخُطِبتْ، فأنكحَهَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2]؛ فدلَّ هذَا عَلىٰ أنهَا تعتَدُّ بوضعِ الحَملِ طالَتْ المدةُ أو قَصُرَتْ.

ولَو خرجَ بَعضُ الحملِ لمْ تَنقَضِ العدةُ، ولَو كانَا تَوأَمَيْنِ فخرجَ واحدٌ لمْ تَنقضِ العدةُ، فلا بُدَّ أن تضعَ جميعَ الحَملِ؛ لعُمومِ قولِهِ تعَالىٰ: ﴿**أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ**﴾[3]، وإذَا وضعَتْ مَا تبينَ فيهِ خلقُ إنسانٍ، فإنَّ العدَّةَ تنقَضِي بهِ وإنْ لَم تُنفَخْ فيهِ الرُّوحُ.

ومِن أنواعِ المُعتداتِ: المُتوفَّىٰ عنهَا زَوجُهَا بلَا حملٍ منهُ، سواءٌ قبلَ الدخُولِ والخلوةِ أوْ بعدَهُ، ويدلُّ عَلىٰ ذلكَ أنَّ ابنَ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئلَ عنْ رجلٍ تزوجَ امرأةً ولَم يدخُلْ بهَا ثمَّ ماتَ، فقالَ: عليهَا العدةُ ولهَا الصداقُ والميرَاثُ، فقامَ رجلٌ فقالَ: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضَىٰ فِي بَرْوَعَ بنتِ واشقٍ بمثلِ مَا قضَيتَ[4].

وعدَّتُها أربعةُ أشهرٍ وعشرَةُ أيامٍ؛ لقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ**

(١) الطلاق: ٤.
(٢) رواه البخاري (٤٩٠٩)، ومسلم (١٤٨٥).
(٣) الطلاق: ٤.
(٤) رواه أبو داود (٢١١٦)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (١٩٣٩).

﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(١)، وهذِهِ المدةُ سواءٌ حاضَتْ أَمْ لَمْ تحِضْ، فلَا أثرَ لذلِكَ.

وإذَا ماتَ إنسانٌ وزوجَتُهُ فِي عدةِ طلاقٍ رجعِيٍّ، فإنهَا تَبتدئُ عِدةَ وفاةٍ منذُ ماتَ؛ لقولِهِ تعَالىٰ فِي المُطلقاتِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾(٢)، فقَد سمَّىٰ اللهُ تعَالىٰ المُطَلِّقَ فِي الطلاقِ الرَّجعيِّ بَعلًا.

وإذَا ماتَ فِي عدةِ المُبانَةِ التِي لَا ترثُ فإنَّهَا لَا تَنتقلُ؛ لأنَّهَا أجنبيَّةٌ منهُ لَا يَملكُ ردَّهَا.

ومِن المُعتدَّاتِ: الحائلُ، غيرُ الحاملِ، التي يُفارقُها زوجُهَا فِي حالِ الحيَاةِ بطلاقٍ أوْ فسخٍ، وَعدَّتُهَا ثلاثةُ قُروءٍ -أَي: حِيَضٍ-؛ لقولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(٣)، ولَو طلقَ أثناءَ الحيضَةِ فإنَّ بقيةَ الحيضةِ لَا تُحتَسبُ.

ومِنَ المعتداتِ: مَن فارَقَهَا زوجُهَا حيًّا وَلَم تَحض لأنَّها صغيرةٌ، أَوِ التِي لَا تحيضُ لأنَّها كَبرتْ فهِي آيسةٌ، فتعتدُّ بثلاثةِ أشهُرٍ؛ لقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾(٤).

وعدةُ مَن بلغَت ولَم تحِضْ ثلاثةُ أشهرٍ؛ لعمُومِ قولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾(٥).

وعدَّة المستحاضةِ الناسيَةِ ولَم يكُن لهَا تَمييزٌ ثلاثةُ أشهُرٍ، فإنْ كانَ لهَا تَمييزٌ

(١) البقرة:٢٣٤.

(٢) البقرة:٢٢٨.

(٣) البقرة:٢٢٨.

(٤) الطلاق:٤.

(٥) الطلاق:٤.

فعدَّتُهَا ثلاثةُ قُروءٍ كغَيرِهَا؛ لأنَّ التمييزَ يُعتبَرُ حَيضًا صَحِيحًا.

وعدةُ المستحاضَةُ المُبتدأةُ التِي مِن أولِ مَا جاءَهَا الدمُ استمَرَّ بهَا، ثلاثةُ أشهُرٍ؛ لأنهُ ليسَ لهَا عادَةٌ سابقَةٌ.

ومَن كانَت مِن ذواتِ الحيضِ، وارتفَعَ حيضُهَا بسَببٍ تعلَمُهُ، وتعلمُ أنَّ الحيضَ لَن يعودَ، كمَا لَو كانَ بسَببِ عمليةِ استئصالِ الرَّحِمِ، فإنهَا تعتدُّ بثلاثَةِ أشهُرٍ؛ لدخُولهَا في قولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾[1]، وهذِهِ قَد أيسَتْ إيَاسًا قطعيًّا فتعتدُّ بثلاثَةِ أشهُرٍ.

ومِن المعتدَّاتِ: مَن فارقَهَا زوجُها حيًّا، وارتفعَ حيضُهَا ولَم تَدرِ مَا سببُ رفعِهِ، وهيَ مِن ذواتِ الحيضِ، فتعتدُّ سنةً كاملةً؛ وذلكَ مرويٌّ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقضَىٰ بِهِ بينَ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولَمْ يُنكَرْ علَيهِ.

ومِن أنواعِ المعتداتِ: زوجةُ المَفقودِ، وهوَ الذِي انقطعَ خبرُهُ فلَمْ يُعلَمْ لهُ حياةٌ ولَا موتٌ، فإذَا أرادَتْ أنْ تتزوجَ، فإنَّهَا تنتظِرُ مُدَّةً يُرجَعُ فيهَا إلَىٰ اجتهادِ القاضِي، ثمَّ تعتدُّ بعدَ ذلكَ للوفاةِ أربعَةَ أشهُرٍ وعشرَةَ أيامٍ، ثمَّ تتزوجُ إذَا شاءَتْ.

وإذَا ضربَ القاضِي مدةَ الانتظَارِ، فإذَا تمَّتْ تبتدئُ عدةَ الوفاةِ، ولَا حاجةَ أنْ يحكُمَ القاضِي.

وإنْ تزوَّجَتِ امرأةُ المفقودِ وقَدمَ الزوجُ الأولُ، فهوَ بالخيارِ، إنْ شاءَ تركَهَا للثانِي، وإن شاءَ أخذَهَا زوجةً بالعقدِ الأولِ، وهذَا هوَ المرويُّ عنْ عمرَ وعثمَانَ وعليٍّ وابنِ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2]، فَلا يحتاجُ إلَىٰ عقدٍ جديدٍ؛ لأنَّ أخْذَهُ إياهَا استبقَاءٌ

---

(١) الطلاق: ٤.

(٢) رواه ابن أبي شيبه في «المصنَّف» (٣/ ٥٢٢-٥٢٣)، والبيهقي في «السنن» (٧/ ٧٣٥).

لنكاحِهِ الأولِ، والاستبقاءُ لَا يحتاجُ إِلَىٰ ابتداءٍ، ولكِن لا يطأُ حتَّىٰ تنتهِيَ عدةُ الثانِي، وعدَّتُها حيضةٌ واحدِةٌ؛ لأنَّها ليسَت عدةَ طلاقٍ، ولكِن عدةَ استبرَاءٍ للرَّحِم.

وإِذَا تركَهَا معَ الزوجِ الثانِي فلَا يحتاجُ الزوجُ الثانِي إِلَىٰ تجديدِ عَقدٍ؛ لأنَّ ترْكَ الأولِ للمرأةِ معَ الزوجِ الثانِي إمضَاءٌ لعَقدِهِ عَليهَا.

ومَن ماتَ زَوجُهَا الغائِبُ أو طَلَّقَها، فتعتدُّ منذُ الفُرقةِ وإنْ لَم تَعلمْ إلَّا بعدَ مَوتِهِ أو بعدَ طلاقِهِ بزمَانٍ؛ لقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(١)، ولقَولِهِ تعَالىٰ فِي المتوفَّىٰ عنهَا زَوجُها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(٢)، فإِنْ لَم تعلَمْ إِلَّا بعدَ انتهاءِ المدَّةِ، فقدِ انتهَتْ وإنْ لَم تأتِ بالإحدادِ؛ لأنهُ تابعٌ للعدَّةِ.

---

(١) البقرة:٢٢٨.

(٢) البقرة:٢٣٤.

(٦٠) حُسنُ معَاشرةِ الزَّوجاتِ

الحمدُ للهِ أنشأَ الكونَ مِن عدَمٍ وعَلَىٰ العرشِ استَوَىٰ، وأرسلَ الرسلَ وأنزَلَ الكتبَ تِبيانًا لطريقِ النجاةِ والهُدَىٰ، أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكرُهُ علىٰ نعمِهِ التِي لَا حصرَ لهَا وَلَا مُنتهَىٰ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ، لَا شريكَ لهُ يُرتَجَىٰ، وأشهدُ أنَّ نبيَّنَا محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ النبيُّ المُجتبَىٰ، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وصَحبهِ ومَن سارَ عَلَىٰ نهجِهِ واقتَفَىٰ.

أمَّا بَعدُ:

فقَدْ عظمَتْ وصيةُ الإسلامِ بالمرأةِ، وأكَّدَ عَلىٰ إحسانِ عِشرتِهَا، فقالَ تعَالىٰ: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾[(١)]، وذلكَ بأنْ يُعاملَهَا بمَا لَا يُنكرُهُ الشرعُ والمُروءةُ، وأنْ يطيِّبَ قولَهُ لهَا، ويحسِّنَ أفعالَهُ وهيئَتَهُ بحسَبِ قُدرتِهِ، وأنْ يفعَلَ معَهَا مَا يُحبُّ أنْ تفعَلَهُ هيَ معهُ، كمَا قَالَ تعَالىٰ: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾[(٢)].

كمَا أوصَىٰ النبيُّ ﷺ بهَا بقَولِهِ: «**استَوصُوا بالنسَاءِ خَيرًا، فإنهنَّ عوانٍ عندَكُم**»[(٣)]، أي: أسِيراتٌ، وقالَ ﷺ: «**خيرُكُم خيركُم لأهلِهِ، وأنَا خيرُكُم لأهلِي**»[(٤)].

فهذِهِ النصوصُ تَدُلُّ عَلىٰ تأكيدِ وصيَّةِ الزوجِ بحُسنِ العِشرةِ لامرأتِهِ بالمَعروفِ،

---

(١) النساء:١٩.

(٢) البقرة:٢٢٨.

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠٣٠).

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٥٢).

نظرًا لضَعفِها، وإنْ ادَّعت امتلاكَ أسبابِ القوَّةِ، وطبيعةِ خلقتِهَا التِي جعلَهَا اللهُ عَليهَا، وأعظمُ شاهدٍ عَلىٰ ذلكَ قولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي أحَرِّجُ حقَّ الضعيفَينِ: اليَتيمِ، والمَرأةِ**»(١)، وكلُّ أمرٍ يُتصورُ فِي الدينِ والعُرفِ أنهُ حَسَنٌ، فهُوَ مِنَ المُعاشَرَةِ بالمَعروفِ التِي أمرَ اللهُ بهَا.

وقدْ جاءَتِ الشريعَةُ ببيَانِ جُملةٍ منَ الأسبابِ الدافعَةِ إلَىٰ حُسنِ مُعاشرةِ المَرأةِ ومصَاحبتِهَا بالمَعروفِ، وأنَّ مَن عملَ بذَلكَ فقَد حازَ مراتبَ الأخلاقِ ومحَاسنَ الصفَاتِ.

ومِن ذلكَ: أنْ ينفقَ عليهَا ويكفِيَها بحيثُ لَا تحتاجُ إلَىٰ غيرِهِ، وهذِهِ النفقةُ واجبَةٌ للمرأةِ عَلىٰ زوجِهَا، وهيَ تشملُ الطعامَ، والشرابَ، والملبسَ، والمسكنَ، وسائرَ مَا تحتاجُ إليهِ الزوجَةُ لإقامةِ مُهجتِهَا، وقوامِ بدنِهَا، والإنفاقُ علَىٰ الزوجةِ مِن أسبابِ قوامةِ الرجلِ وفضلِهِ علَيهَا، كمَا قالَ تعَالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾(٢).

وإنمَا تكونُ النفقَةُ علَىٰ حسَبِ العرفِ المُحيطِ بهَا وقيَاسًا عَلىٰ مثيلاتِها، وحسبَ يسارِ الزوجِ وقُدرتِهِ، كمَا قالَ تعَالىٰ: ﴿**لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا**﴾(٣)، وقولُهُ تعَالىٰ: ﴿**وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ**﴾(٤).

وقولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتقُوا اللهَ فِي النساءِ فإنهُنَّ عَوانٍ عندَكُم، أخذتمُوهُنَّ**

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وهو حسن، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٠١٥).

(٢) النساء:٣٤.

(٣) الطلاق:٧.

(٤) البقرة:٢٣٣.

بأمانَةِ اللهِ، واستحللتُم فروجَهُنَّ بكلمَةِ اللهِ، ولهُنَّ عليكُم رزقهُنَّ، وكسوتهُنَّ بالمَعروفِ»(١).

وقالَ رسولُ الله ﷺ فِي حجَّة الودَاع: «... **ألَا إنَّ لكُم عَلىٰ نسائِكُم حقًا، ولنسائِكُم عليكُم حقًّا، فأمَّا حَقكُم عَلىٰ نسائِكُم: فَلا يُوطِئنَ فُرُشَكُم مَنْ تكرهُونَ، ولَا يأذَنَّ فِي بُيوتِكُم لمَن تَكرهُونَ، ألَا وحَقُّهُنَّ عَليكُم أنْ تُحسِنُوا إليهِنَّ فِي كِسوَتهنَّ وطعامهِنَّ»**(٢).

وسئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا حقُّ زوجَةِ أحدِنَا عَليهِ؟، قَالَ: أنْ تُطعِمَهَا إذَا طعِمتَ، وتكسُوَهَا إذَا اكتسَيْتَ، وَلَا تُقَبِّحِ الوجهَ، وَلَا تَضرِبْ**»(٣).

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ رَاعٍ عمَّا استرعَاهُ، أحفِظَ ذلكَ أَم ضَيَّعَ، حتَّىٰ يَسأَلَ الرجُلَ عَنْ أهلِ بَيتِهِ**»(٤).

قالَ أهلُ العِلم: فِي هذَا إيجابُ النفقَةِ والكسوَةِ لهَا، وهُوَ عَلىٰ قَدرِ وُسعِ الزوجِ، وإذَا جعلَهُ النبيُّ ﷺ حقًّا لهَا، فهوَ لازمٌ، حضرَ أو غابَ، فإنْ لَم يجِدْ فِي وقتِهِ، كانَ دَيناً عليهِ كسَائِرِ الحقوقِ الوَاجبَةِ.

وجاءَت هندُ بنتُ عُتْبَةَ إلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَتْ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ أبَا سُفيانَ رجلٌ شَحيحٌ، وليسَ يُعطِينِي مَا يكفينِي ووَلدِي، إلَّا مَا أخذتُ منهُ، وهُوَ لَا يعلمُ، فقالَ: خُذِي مَا يكفِيكِ وولَدَك بالمَعرُوفِ**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).
(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٨٠).
(٣) رواه أبو داود، وحسنه الالباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٨٧).
(٤) رواه النسائي وابن حبان، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٤).
(٥) رواه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

قالَ العلمَاءُ: فيهِ دلالةٌ عَلىٰ وجوبِ النفقَةِ لهَا عَلىٰ زَوجِها، وأنَّ ذلكَ مقدَّرٌ بكفَايَتِهَا، وأنَّ نفقَةَ وَلدِهِ عَليهِ دُونَهَا بقَدرِ كفايتِهِم، وأنَّ ذلكَ بالمعروفِ، وأنَّ لهَا أن تأخُذَ ذلكَ بنَفسِها، مِن غيرِ عِلمِهِ إِذَا لَم يُعطِهَا إيَّاهُ.

كمَا أنهُ تجبُ نفقةُ الزَّوجَةِ عَلىٰ الزوجِ حتَّىٰ ولَو كانَتِ الزوجَةُ مُوسِرَةً، لأنَّ نفقتَهَا لَم تَجِب للحاجَةِ، وإنمَا بسَببِ احتبَاسِهَا لحَقِّ الزَّوجِ.

ومِن أعظَمِ أسبَابِ اختِلالِ البُيوتِ وكثرَةِ الخصومَاتِ فِي زمنِنَا تَملُّصُ بعضِ الأزواجِ عَن مسؤوليَّةِ الإنفَاقِ، بحجَّةِ أنَّ الزوجةَ تعملُ ولَا بُدَّ أنْ تساهِمَ فِي نفقَةِ البيتِ، ثمَّ يتدرَّجُ حتَّىٰ يكلِّفَها بكلِّ شيءٍ فِي المَنزلِ، وهذَا خلافُ المُروءةِ وسَببٌ فِي نقصِ القوامَةِ، فإذَا رأتِ المَرأةُ كثرةَ التكاليفِ المُلقاةِ عَلىٰ عاتقِها، نفَرتْ منَ العَيشِ معهُ، ودبَّت المشاكِلُ بينَهُما، وأصبَحَت مُتحفزَّةً لأدنَىٰ ردةِ فِعلٍ حتَّىٰ تخرُجَ مِن هذِهِ الحياةِ التِي أخذَت فيهَا دورَ الرجُلِ والمَرأةِ.

ومِن إحسَانِ عِشرتِهَا: أنْ يصبِرَ عَلىٰ مَا يجدُ مِنهَا مِن النقصِ، وَلَا يَستَعجِل الفراقَ عندَ أولِ المِشوارِ، فالمرأةُ لا بُدَّ فيهَا مِن النقصِ، ولَن يتِمَّ الاستمتَاعُ بهَا ومعَاشرتُهَا إلَّا معَ قبولِ هذَا النقصِ والصَّبرِ عَليهِ، وقَد أشارَ إِلَىٰ ذلكَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِهِ: «**إنَّ المرأةَ خُلقتْ مِن ضِلَع، لَن تستقيمَ لكَ عَلىٰ طريقةٍ، فإنِ استمتَعتَ بهَا، استمتَعتَ بهَا وبهَا عِوجٌ، وإنْ ذَهبتَ تُقيمُهَا كَسرتَهَا، وكسرُهَا طَلَاقُها**»[1]، وقالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استوصُوا بالنسَاءِ فإنَّ المرأةَ خُلقَت مِن ضِلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ فِي الضلعِ أعلاهُ، إنْ ذهَبتَ تُقيمُهُ كَسرتَهُ، وإنْ تركتَهُ لَم يزَلْ أعوَجَ**»[2].

(١) رواه مسلم (١٤٦٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

فقولُه: «إنْ ذهَبتَ تُقيمُها كسرتَهَا»؛ أي: إنْ أردتَ منهَا تسويَةَ اعوجَاجِها أدَّىٰ إلَىٰ فراقِهَا، والإشارَةُ إلَىٰ أنَّ أعوجَ شيءٍ فِي الضلعِ أعلاهُ: ضربُ المثلِ لأعلَىٰ المرأةِ، وأعلاهَا رأسُها، وفيه لسَانُهَا، وهوَ الذِي يحصلُ بهِ الأذَىٰ، وقبولُ الوصيةِ فيهَا وهيَ عَلَىٰ هذَا الوصفِ لأنَّ الانتفاعَ بهَا لَا يحصُلَ إلَّا بأن يُدارِيَهَا، ويُلاطِفَهَا، ويُوفيَهَا حقُوقَهَا.

وعليهِ أنْ يصبرَ عَليهَا حتَّىٰ وإنْ رَأىٰ منهَا شَيئًا يكرهُهُ، ويحتَسبَ ذلِكَ عندَ اللهِ مَا دامَ هذَا النقصُ ليسَ فِي السلوكِ والآدابِ أو ممَّا يعيبُ العشرَةَ أو يُكدِّرُها، فإنَّ عاقبَةَ الصبرِ إلَىٰ خيرٍ، وقَد يَجنِي بسَببِهِ مَا لَم يَكُنْ يخطُرُ لهُ عَلىٰ بالٍ، فقَد قالَ تعالَىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَفْرَكُ مُؤمِنٌ مُؤمنةً، إنْ كرِهَ منهَا خُلقًا رضِيَ منهَا آخرَ**»[2]، لا يَفركُ: لَا يُبغضُ؛ أي لَا يُبغِضها بغضًا كُليًّا يحملُهُ عَلىٰ فِراقِهَا، بَل يغفِرُ سيئتَهَا لحسنَتِهَا، ويتغاضَىٰ عمَّا يكرَهُ لمَا يُحبُّ.

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **فِي قولِهِ تعالَىٰ:** ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[3]: الخيرُ الكثيرُ أنْ يعطفَ عليهَا فيُرزقَ الرجلُ ولدَهَا، ويجعلَ اللهُ فِي ولدِهَا خيرًا كثيرًا.

وقالَ قتادةُ: عسَىٰ أن يمسكَهَا وهوَ لهَا كارِهٌ، فيجعَلَ اللهُ فيهَا خيرًا كثيرًا.

وقد جاءَ عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنهُ قالَ لرجلٍ طلقَ امرأتَهُ: لِمَ طلقتَهَا؟، قالَ: لَا أحبُّهَا، فقالَ: أوَ كُلُّ البيوتِ بُنِيَ عَلىٰ الحبِّ؟ فأينَ الرعايَةُ والتذمُّمُ؟

---

(١) النساء:١٩.

(٢) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٣) النساء:١٩.

ومِنْ إحسانِ عِشرتِهَا: أنْ يكونَ معهَا لطيفَ المَعشرِ بالقَولِ والفِعلِ، فيُقابلُهَا بلطفِ عبارَةٍ، وطلاقَةِ وَجهٍ وبشَاشةٍ، فقَدْ قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(١).

وقالَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكلِمَةُ الطيبَةُ صدقَةٌ**»(٢)، وقالَ: «**لَا تحقرَنَّ منَ المعرُوفِ شيئًا، ولَو أنْ تلقَىٰ أخاكَ بوجهٍ طَلَقٍ**»(٣)، وأحقُّ الناسِ بهذَا المَعروفِ، وهذِهِ الصدقَةِ هِيَ الزوجَةُ وأهلُ البَيتِ، والعجَبُ أنَّ بعضَ الناسِ يعتادُ الانبسَاطَ خارجَ بيتِهِ، فإذَا رجعَ إِلَىٰ أهلِهِ جاءَ بوجهٍ مُغضبٍ، وكأنَّهُ يرَىٰ أنَّ منَ الواجِبِ عَلَىٰ أهلِ البيتِ أنْ يتقبلُوا ثقلَ طَبعِهِ وتغيراتِ مِزاجِهِ، بلْ وأنْ يحُبُّوهُ بالرَّغمِ منْ سوءِ طبعِهِ، وهذَا فهمٌ مغلوطٌ، فالكلمَاتُ العذبَةُ الجميلةُ ولقاءاتُ البِشرِ والتوددِ، تَروِي النفوسَ الظمآنَةَ، وبَلسمٌ للجُروحِ المُؤلمَةِ، ورَاحةٌ للقُلوبِ المُتعبةِ، وأولَىٰ الناسِ ببذلِهَا لهُم هُم أقرَبُ الناسِ إِلَيكَ.

وهكذَا الكلمَةُ الطيبَةُ فِي حياةِ الزوجَةِ منَ الثناءِ عَليهَا، والتحدثِ عَن محَاسنِهَا، والشكرِ عَلَىٰ خِدمتِهَا، والتقديرِ لجهودِهَا التِي تَبذلُهَا مِنْ أجلِ الأسرَةِ، هذِهِ الكلماتُ هيَ فِي كثيرٍ منَ الأحيانِ أغلَىٰ منَ الحُليِّ والهدَايَا؛ لأنَّ العاطفةَ الجَميلةَ المقرونَةَ بالكلماتِ الطيبَةِ والابتساماتِ المُشرقةِ تُغذِّي الأرواحَ، وتشحَذُ الهمَمَ، وتُذيبُ التعبَ، فينتعشُ فؤادُهَا المُتشوقُ للعطفِ والحنَانِ.

ومنَ المُعاشرةِ بالمعروفِ: التغافلُ عنِ الأخطاءِ والزلَّاتِ، وعدمُ التوبيخِ والتعنيفِ فِي كلِّ شيءٍ، إلَّا فِي حقٍّ منْ حقوقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالتغافلُ مِن شيمِ الكرامِ، المُحافظينَ عَلىٰ بقاءِ المودَّةِ، وقَد قالَ تعَالىٰ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا

(١) البقرة:٨٣.

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).

نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾(١).

وقالَ أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «لقَد خدمتُ رسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ عشرَ سِنينَ، فمَا قالَ لِي قطُّ: أُفٍّ، ولَا قالَ لشَيءٍ فعلتُهُ: لِمَ فعلتَهُ؟ ولَا لشيءٍ لَم أفعَلهُ: ألَا فَعلتَ كذَا؟»(٢).

فالتدقيقُ فِي كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ يورثُ الملَلَ والسآمةَ، فليسَ منَ الإنصافِ الإكثارُ منهُ حينَ التعامُلِ معَ الزوجةِ التِي تعيشُ بينَ جُدرانِ البيتِ أكثرَ الوقتِ، وتتحملُ المسئولياتِ الجسَامِ التِي تجعلُهَا فِي أحيانٍ كثيرَةٍ تفقِدُ التركيزَ.

ومنَ المعاشرَةِ بالمَعرُوفِ: أنْ يُسلمَ علَىٰ أهلِهِ إذَا دخلَ عَليهِم، فعَن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قالَ: «**يَا بُنيَّ إذَا دخلتَ علَىٰ أهلكَ فسلِّمْ، يكُن سلامُكَ بركةً عليكَ، وعَلَىٰ أهلِ بيتِكَ**»(٣).

ومِن إحسانِ عِشرتِهَا: أنْ يدُاويَها إذَا مرضَتْ، ويَسعَىٰ فِي البحثِ عَن علاجِهَا، وإنْ حالَ ذلكَ دونَ انتفاعِهِ بهَا، فهَذَا منَ الوفاءِ وحُسنِ العِشرةِ، وقَد تغيبَ عثمانُ بنُ عفانَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عَنْ غزوةِ بدرٍ لأنَّ زوجَهُ رُقيةَ بنتَ رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ كانَت مريضةً، فقالَ لهُ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**أقِم معَهَا، ولكَ أجرُ مَن شهدَ بَدرًا وسَهمُه**»(٤).

ومنَ المُعاشرةِ بالمَعروفِ: أنْ يعملَ الرجُلُ فِي بيتِهِ علَىٰ خدمةِ أهلِهِ فِي الأعمالِ التِي يفعلُهَا الرجالُ فِي بيوتِهِم فِي العادةِ، فَقدْ سُئلتْ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: مَا كانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يعمَلُ فِي بيتِهِ؟ فقَالَتْ: كانَ يَخيطُ ثَوبَهُ، ويَخصفُ نعلَهُ، وكانَ يعملُ مَا

---

(١) التحريم:٣

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٠٨).

(٤) رواه البخاري (٣٦٩٨).

يعمَلُ الرجَالُ فِي بيوتِهِم[١]، وفِي روايَةٍ قَالَت: كانَ بَشَرًا منَ البَشرِ: يَفْلِي ثوبَهُ، ويَحلُبُ شاتَهُ، ويخدِمُ نفسَهُ[٢].

ومِن حُسن العشرَةِ: أنَّ يكُفَّ عنهَا الأذَىٰ بالقولِ والفِعلِ، فلاَ يعمدُ إلَىٰ إهانَتِهَا الدائمَةِ بسببٍ وبِلَا سَببٍ، أوْ يتعامَلُ معهَا بأشنعِ العبارَاتِ والألفَاظِ، والسبابِ والشتيمَةِ التِي لَا تليقُ بالبهَائمِ والساقطَاتِ، أوْ أنْ يتعامَلَ معَها بالضربِ المُؤذِي الذِي يتركُ الآثارَ السيئةَ فِي النفسِ والبَدنِ، فقَد قالتْ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: مَا ضربَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ شيئًا قَطُّ بيدِهِ، ولَا امرَأةً، ولَا خَادِمًا، إلَّا أنْ يُجاهدَ فِي سبيلِ اللهِ[٣].

وجاءَ عَن رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ أنهُ قالَ: «**لَا تَضربُوا إماءَ اللهِ، فجَاءَ عمرُ بنُ الخطابِ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ **إلَىٰ رسُولِ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ **فقَالَ: ذَئِرْنَ النساءُ علَىٰ أزواجِهِنَّ، فرخَّصَ فِي ضربهِنَّ، -أي: الضربِ المَأذونِ بِهِ وهُوَ الضربُ غيرُ المُبرِّحِ- فأطافَ بآلِ رسولِ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ **نساءٌ كثيرٌ، يشكُونَ أزواجَهُنَّ، فقالَ رسولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: **لقَد طافَ بآلِ مُحمدٍ نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجَهنَّ، ليسَ أولئكَ بخِيارِكُم**»[٤].

وقيلَ للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**يَا رسُولَ اللهِ، نساؤُنَا مَا نأتِي منهُنَّ ومَا نَذرُ؟ فقَالَ: أطعِمْهَا إذَا طَعِمْتَ، واكسُهَا إذَا اكتسَيتَ، وَلَا تُقَبحِ الوجهَ، وَلَا تَضرِبْ، ولا تَهجُرْ إلَّا فِي البيتِ**»[٥].

هذَا ومَن تعدَّىٰ علَىٰ المرأةِ بالضَّربِ الأليمِ، فهِيَ مظلومَةٌ، وهُوَ حَرِيٌّ بالعقوبَةِ

(١) رواه أحمد، وصححه الالباني في «صحيح الجامع» (٤٩٣٧).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٧١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٨٦٣).

(٥) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٥٩).

بينَ يدَي اللهِ إنْ لَم تَعفُ عنهُ، فليسَ كونُهَا زَوجةً يُبيحُ لهُ ذَلكَ أنْ يُعامِلَهَا بمَا حَرَّمَهُ الشرعُ مِن الظُّلمِ والعُدوانِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسَّلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نَبينَا مُحمدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ، ومَنِ استَنَّ بسُنَّتِهِ، واقتَفَىٰ أثرَهُ، واهتَدَىٰ بهَديِهِ.

أمَّا بعدُ:

فمَن تتبعَ سيرةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأىٰ جَميلَ أخلاقِهِ معَ أهلِهِ، فقَدْ كانَ لَطيفَ العِشرةِ، دَائمَ البِشرِ، يُداعبُ أهلَهُ، ويتلطَّفُ بِهِم، ويُوسعُ عَلَيهِم بالنفقَةِ، ويضاحِكُ نساءَهُ ويُمازحُهُم، حتَّىٰ إنهُ كانَ يسابِقُ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يتودَّدُ إلَيهَا بذَلكَ، وفِي ذلكَ تقولُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**سابقَنِي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبقتُهُ، وذلكَ قبلَ أنْ أحملَ اللحمَ، ثُمَّ سابقتُهُ بعدَمَا حملتُ اللحمَ، فسَبقنِي، فقَالَ: هذِهِ بتِلكَ**»(١).

وكانَ يتودَّدُ إلَىٰ زَوجتِهِ بمَا يدعُو إلَىٰ المحبَّةِ والألُفَةِ ويُزيلُ الوحشَةَ، كمَا قَالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنتُ أتعَرَّقُ العظمَ وأنَا حائضٌ، فأعطِيهِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيضَعُ فَمَهُ فِي المَوضعِ الذِي فيهِ وضَعتُهُ، وأشربُ الشرابَ فأناوِلُهُ، فيضَعُ فَمَه في المَوضعِ الذِي كنتُ أشربُ مِنهُ(٢).

وكانَ يدخلُ مَنزلَهُ فيُسامِرُ أهلَهُ قَليلًا قبلَ أن ينَامَ يُؤانسُهُم بذَلكَ، كما قَالَتْ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٥١).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠).

عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كانَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا صلَّىٰ رَكعتَي الفَجرِ، فإنْ كُنتُ مستيقظَةً حَدَّثني، وإلَّا اضطجَعَ حتَّىٰ يُؤذَّنَ بالصَّلاةِ(١).

وكانَ يَستمعُ إلَىٰ حَديثِ زَوجتِهِ، ويُشاورُهَا فِي بعضِ أمورِهِ ويأخذُ برَأيهَا إنْ رآهُ صوابًا، كمَا فعلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الحُديبيَةِ حينَ أخذَ برَأيِ أمِّ سلمَةَ، وذلكَ حينَ امتنعَ الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِن أن ينحَرُوا هَديَهُم، فأشارَت عليهِ أمُّ سلمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنْ يخرُجَ، ولَا يُكلمَ أحَدًا منهُم كلمَةً حتَّىٰ ينحَرَ بُدْنَهُ، ويَحلِقَ، ففَعلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا رَأىٰ أصحابُهُ ذلكَ قامُوا فنحَرُوا(٢).

وخيرُ الهَديِ هديُ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسعيدُ مَن تابعَهُ واهتَدَىٰ بهَديِهِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري (١١٦٧)، ومسلم (٧٤٣).
(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).
(٣) الأحزاب:٢١.

(٦١) حقُّ الزوجِ علَى زَوجتِه

الحمدُ للهِ لهُ الحمدُ فِي الأولَىٰ والآخرَة، أحمدُهُ وأشكرُهُ علَىٰ نِعمِهِ الباطنَةِ والظاهِرَة، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ، هَدَىٰ بإذنِ ربِّهِ القُلوبَ الحَائرَة، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ عليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ نُجومِ الدُّجَىٰ والبُدورِ السافِرَة، والتابِعينَ ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

فقَد أعظَمَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقَّ الزوجِ علَىٰ زَوجتِهِ، وأكَّدَ حقَّهُ عَليهَا، وجاءَتِ النصوصُ الصحيحَةُ الصريحَةُ مُبينةً فضلَهُ عليهَا، حتَّىٰ قالَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَو كنتُ آمرًا أحدًا أنْ يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزَوجِها**»[1].

ومِن الضَّروريِّ أنْ تعلمَ المَرأةُ مَا يلزَمُهَا مِن حقوقِ زَوجِها عَليهَا، فتعمَلَ بذلكَ مريدةً وجهَ اللهِ بعَملِهَا، ومُتقربةً إليهِ سُبحانَهُ بمَا أمرَهَا بهِ دُونَ النظرِ إلَىٰ واقعِ الزَّوجِ وهلْ هوَ يستحقُّ ذلكَ أوْ لَا يستحِقُّ؛ لأنَّ عملَهَا بذَلكَ مِن بابِ تَطبيقِ أوامرِ اللهِ ولَيسَ منْ بابِ المُكافأةِ.

ومِن هذِهِ الحُقوقِ: أنْ تطيعَ المرأةُ زوجَهَا فيمَا يأمُرُها بهِ، وهذِهِ الطاعةُ واجبَةٌ وليسَت مَحضَ اختيَارٍ، ولَكنْ تُطيعُهُ بالمَعروفِ وفِي حدودِ استطَاعَتِهَا.

وطاعةُ المرأةِ لزوجِهَا تُؤدِّي إلَىٰ محبةِ الزوجِ لزَوجتِهِ، ويُحفظُ بهَا كيانُ الأسرَةِ، وتعمِّقُ رابطةَ التآلفِ والمودةِ بينَ أفرادِهَا، وتُعطي الرجلَ أحقيَّةَ القِوامةِ، وهذَا ممَّا

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٥٥).

فضَّلَ اللهُ بهِ الرجالَ علىٰ النساءِ، كمَا فِي قولِهِ تعَالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾(١)، وهَذا يَقتضِي وجوبَ طاعتِهَا لزوجِهَا مُطلقًا، مِن خدمَةٍ، وسفرٍ معَهُ، وتَمكينٍ لهُ، وغَيرِ ذلكَ ممَّا دَلَّت عَليهِ سُنةُ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسُئلَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أيُّ النسَاءِ خيرٌ؟، قالَ: التِي تسرُّهُ إذَا نظرَ، وتُطيعهُ إذَا أمَرَ، ولَا تُخالفُهُ فِي نَفسِهَا وَلَا مَالِهَا بمَا يكرَهُ»**(٢).

كمَا جاءتِ الأدلَّةُ مُحذرةً مِنْ عصيانِ المَرأةِ لزَوجِهَا، والخروجِ عنْ طاعتِهِ، فَقَدْ قالَ حُصينُ بنُ مِحصَنٍ: حدَّثتني عمَّتِي قَالَت: **«أتيتُ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي بعضِ الحاجَةِ، فقَالَ: أيْ هذِهِ! أذاتُ بَعلٍ؟، قلتُ: نَعَم، قالَ: كيفَ أنتِ لهُ؟ قلتُ: مَا آلوهُ؛ إلَّا مَا عجَزتُ عنهُ، قالَ: فانظُرِي أينَ أنتِ مِنهُ، فإنمَا هُوَ جنتُكِ ونَارُكِ»**(٣).

فالزوجُ هوَ بابُ المرأةِ إلَىٰ الجنةِ إذَا رضِيَ، أو للنارِ إذَا سخطَ، ولكِن هذهِ الطاعَةُ لا تكونُ إلَّا بالمعروفِ، أمَّا إذَا أمرَها بمعصيةٍ فَلَا سمعَ ولا طاعَةَ، لمَا ثبتَ عنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ: **«لَا طاعَةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالِقِ»**(٤).

وطاعةُ المرأةِ زوجَهَا دليلُ صلاحِهَا، وسببٌ لدخولِهَا الجنَّةَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذَا صلتِ المرأَةُ خَمْسَها، وصامَتْ شهرَهَا، وحصَّنَتْ فرجَهَا، وأطاعَتْ زَوجَهَا، قيلَ لهَا: ادخُلِي الجنَّةَ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ شِئتِ»**(٥).

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) رواه النسائي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٧٢).

(٣) رواه أحمد، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٠٩).

(٤) رواه أحمد، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٦٩٦).

(٥) رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٠).

فهذِهِ الأدلةُ تبيِّنُ أنَّ المرأةَ المسلمَةَ حينَ تطيعُ زَوجَها تكونُ فِي طاعةٍ للهِ، وأنهَا مأجورةٌ عَلىٰ ذلكَ، خصُوصًا إذَا كانَتِ الطاعةُ فِي الأمرِ الذِي لَا تُوافقُ عَليهِ أَو تكرهُهُ، فتُبادرُ إِلَىٰ الأمرِ بكلِّ رضًا، دُونَ إبداءِ علاماتِ التأفُّفِ، أو يَعلُو وَجهَها العبوسُ وأماراتُ الكراهيةِ والضِّيقِ.

ومِن أخلاقِ المرأةِ الصالحَةِ أنهَا تُبادرُ إِلَىٰ إرضاءِ زوجِهَا إذَا غضبَ، ولَا تَنتظرُ أنْ يبدَأَ هُوَ بذلكَ، فقَد صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**نسَاؤكُم مِن أهلِ الجنَّةِ: الودودُ الوَلودُ العَؤودُ عَلىٰ زَوجِها، التِي إذَا غضبَ جاءَتْ حتَّىٰ تضَعَ يدَهَا فِي يَدِ زوجِها وتَقُولُ: لَا أذوقُ غُمْضًا حتَّىٰ ترضَىٰ**»[1].

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أخبرُكُم بنسائِكُم فِي الجنَّةِ؟ قُلنَا: بلَىٰ يَا رسولَ اللهِ، قالَ: ودودٌ ولودٌ، إذَا غَضِبَتْ أو أُسِيءَ إليَهَا، أو غضِبَ زوجُهَا، قالَت: هذِهِ يدِي فِي يدِكَ، لَا أكتحلُ بغُمْضٍ** -أَي: لَا أنامُ- **حتَّىٰ تَرضَىٰ**»[2].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَي: أنَّ المرأةَ إذَا أحسنَت معاشَرةَ بَعلِها كانَ ذلكَ مُوجبًا لرضاءِ اللهِ وإكرامِهِ لهَا، مِن غيرِ أن تعمَلَ مَا يختصُّ بالرجَالِ.

وقالَ أيضًا: وليسَ عَلىٰ المرأةِ بعدَ حقِّ اللهِ ورسُولِهِ أوجَبُ مِن حقِّ الزَّوجِ.

ويجبُ عَلىٰ الزوجةِ خدمةُ زَوجِها فِي حدودِ استطَاعتِهَا، مِن تدبيرِ مَنزلِهِ، وتَهيئةِ أسبابِ المَعيشةِ بهِ مِن طبخٍ وتنظيفٍ، وتَربيةِ أولادِهِ، ونَحوِ ذلكَ ممَّا جرَتِ العادَةُ بمثلِهِ.

قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا زفُّوا امرأةً إِلَىٰ

(١) رواه تمام الرازي في «الفوائد»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٧).
(٢) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٤١).

زوجِها يَأمرونَهَا بخِدمةِ الزَّوجِ ورعايَةِ حَقِّهِ.

وقالَ عَليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لقَد تزوجتُ فاطمَةَ ومَا لِي ولهَا فِراشٌ غَيرُ جِلدِ كَبشٍ ننامُ عليهِ بالليلِ، ونَضعُهُ عَلَىٰ الناضِحِ بالنهَارِ، ومَا لِي ولهَا خادمٌ غَيرُها، ولمَّا زَوَّجَها رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أرسلَ بِي مَعهَا بخَميلةٍ ووسادَةٍ أدم حَشْوُها لِيفٌ، ورِحاءَينِ وسقاءً وجَرَّتينِ، فَجَرت بالرحَاءِ حتَّىٰ أثرَتْ فِي يَدِهَا، واستقَتْ بالقِربةِ حتَّىٰ أثرَتِ القربَةُ بنَحرِها، وَقَمَّتِ البيتَ حتَّىٰ اغبَرَّت ثيَابُها، وأوقَدَتْ تحتَ القِدرِ حتَّىٰ دَنِسَتْ ثيابُهَا.

وقالَتْ أسماءُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كنتُ أخدمُ الزبيرَ خدمَةَ البيتِ كُلِّهِ، وكانَ لهُ فَرَسٌ، وكنتُ أسُوسُهُ، وكنتُ أحتَشُّ لهُ، وأقومُ عَليهِ.

ومع القولِ بوجوبِ خِدمةِ الزوجَةِ لزَوجِها، فإنَّ هذِهِ الخِدمةَ تَجبُ بالمَعروفِ، أي أنَّ عَليهَا أنْ تخدمَهُ الخِدمةَ المَعروفةَ مِن مِثلِهَا لمِثلِهِ.

هذَا ومِنَ الواجبِ عَلىٰ المُسلمَةِ الصالحةِ أنْ تحذَرَ أشدَّ الحذرِ مِن صَنيعِ أولئِكَ النساءِ المُولعاتِ بمُخالفَةِ أزواجِهنَّ، فَلَا تُؤمرُ الواحدةُ مِنهنَّ بشيءٍ إلَّا سارَعَت إلَىٰ مخالفتِهِ حتَّىٰ ولَو كَانَ فيهِ مُصلحتُهَا، إنَّ هؤلاءِ يقَعنَ فِي سخطِ اللهِ، كمَا أنهنَّ يُعرِّضنَ حياتَهُنَّ وحياةَ الأسرَةِ للدمَارِ والشتَاتِ.

وعليهَا أَلَّا تنخدِعَ بعملِ أولئكَ التافهَاتِ اللاتِي يَعشنَ بِلا هدفٍ ولا غايَةٍ، ويرفَعنَ شعاراتِ التحرُّرِ مِن طاعةِ الزَّوجِ، ومساوَاةِ المَرأةِ بالرجُلِ، فهذِهِ خدعَةٌ أطلقَهَا بعضُ الفجَّارِ، وصدَّقَها ضعافُ العقُولِ، معَ تكذيبِ الواقعِ لهَا، حتَّىٰ صارَتْ هذِهِ الفكرةُ سَببًا رَئيسًا فِي هدمِ بُنيانِ كثيرٍ مِنَ الأسَرِ اليومَ السَّعيدَةِ الهَانئَةِ الهَادئَةِ.

إنَّ ممَّا لَا شَكَّ فيهِ أنَّ الحياةَ الزوجيَّةَ يَنبغِي أنْ تكونَ مَبنيَّةً عَلىٰ التفاهُمِ والتحَاورِ والتشَاوُرِ، ولكنَّ القِيادَةَ ينبَغِي أنْ تكونَ للرجُلِ، والرجُلُ السويُّ لَا يحبُّ المرأةَ

المسترجِلَةَ التِي ترفَعُ صَوتَهَا فوقَ صَوتِهِ، وتشاجِرُهُ فِي كلِّ أمرٍ، وتخَالفُهُ فِي كلِّ رغبَةٍ، وتسَارعُ إلَىٰ رَدِّ رأيهِ، وتحاوِلُ جاهدةً أنْ تَقودَ مركبَ الأسرَةِ، فإنْ لَم تظفَرْ بذلكَ إمَّا أنْ تتسبَّبَ لنفَسِها بالطَّلاقِ الذِي ستعرِفُ آثارَهُ بعدَ مُرورِ سَنواتٍ، حينَ تستيقظُ مِن نشوةِ الانتصَارِ المَكذوبِ، أوْ أنْ تعيشَ -علَىٰ الرغمِ مِن إمسَاكِ الزوجِ لهَا- حياةَ الحُزنِ والكآبَةِ، وتَحرمَ نَفسَها حياةَ البهجَةِ والمَرحِ معَ زَوجٍ يعيشُ معهَا حياةَ الاستنفَارِ والتوتُّرِ وتوقعِ حُدوثِ المُصادماتِ فِي أيِّ لحظَةٍ.

ومِن حقِّ الزوجِ علَىٰ زَوجتِهِ: أنْ تَحفظَهُ فِي دِينِهِ وعِرضِهِ، فَلَا تتبرَّجُ، ولَا تُبدِي زينتَها إلَّا لزَوجِهَا ولذَوِي محَارِمِهَا عَلَىٰ التأبيدِ مِعَ أمنِ الفتنَةِ، ولَا تَخلُو بأجنبيٍّ عنهَا ولَو كانَ شَقيقَ زَوجِها، فقَد قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**خَيرُ نسائِكُم الودودُ الولودُ، المواتيَةُ المواسيَةُ، إذَا اتقَينَ اللهَ، وشَرُّ نسائِكُم المُتبرجاتُ المُتخيلاتُ، وهنَّ المنافقَاتُ، لَا يدخلُ الجنَّةَ منهُنَّ إلَّا مثلُ الغرابِ الأعصَم**»[1].

والمَرأةُ أمينةٌ علَىٰ مالِ زَوجِها، ومِن حقِّهِ عَليهَا أنْ تحفظَ مالَهُ ومَا يُودعُهُ فِي البيتِ مِن نَقدٍ أو مُؤنَةٍ أو غيرِ ذَلكَ، فَلَا يجوزُ لهَا أنْ تتصَرَّفَ فِيهِ بغَيرِ رضاهُ، وقَد أثنَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علَىٰ المرأةِ التِي تَحنُو علَىٰ زَوجِها وتُشفقُ عَليهِ وتَرعَىٰ مالَهُ، فقَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**خيرُ نساءٍ رَكبنَ الإبلَ صَالحُ نساءِ قُريشٍ، أحنَاهُ عَلىٰ ولدٍ فِي صِغرِهِ، وأرعَاهُ عَلىٰ زَوجٍ فِي ذاتِ يَدِهِ**»[2]، وكلُّ مَن كانَت علَىٰ هذَا الوصفِ تدخُلُ فِي هذَا الفَضلِ.

وقِيلَ لرسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أيُّ النساءِ خيرٌ؟، قالَ: التِي تَسرُّهُ إذَا نظرَ، وتُطيعهُ**

(١) أخرجه البيهقي في «السنن»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٤٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤٣٤)، ومسلم (٢٥٢٧).

إذَا أمرَ، وَلَا تُخالفُهُ فِي نفسِهَا وَلَا مالِهَا بمَا يَكرَهُ»[١].

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُنفقُ امرأةٌ شيئًا مِن بيتِ زَوجِها إلَّا بإذنِ زَوجِها، قِيلَ: يَا رسُولَ اللهِ، وَلَا الطعَامُ؟، قالَ: ذاكَ أفضَلُ أموَالِنَا**»[٢].

وينبَغِي للمرأَةِ إنْ كانَ لهَا مالٌ ألَّا تتصرَّفَ فِيهِ إلَّا بإذنِ زَوجِها، فقَد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَجوزُ لامرأةٍ عطيَّةٌ إلَّا بإذنِ زوجِهَا**»[٣]، ولكِنْ هذَا الاستئذانُ مِنْ بابِ حُسنِ العشرَةِ، وليسَ وَاجبًا، فقَد ثَبتَ عَن رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ للنسَاءِ: «**تصدَّقْنَ، فجعَلتِ المرأةُ تُلقِي القُرطَ والخاتَمَ، وبلالٌ يتلقَّاهَا بكسَائِهِ**»[٤]، وهذِهِ عطيَّةٌ بغَيرِ إذنِ أزواجِهِنَّ.

ومِن حقِّ الزوجِ علَىٰ زوجتِهِ: ألَّا تُرهقَهُ بطَلباتِهَا الماليةِ غَيرِ الضروريَّةِ ممَّا يكونُ زائدًا عَنِ الحاجَةِ، وعلَيهَا أن تقتصِدَ فِي مالِهِ، فلَا تُهدرُهُ بَطرًا بغيرِ حقٍّ، وعَليهَا أنْ تصحبَ زَوجَهَا بالقنَاعَةِ، فلَا تتطلَّعُ إلَىٰ مَا عِندَ الغَيرِ، ولا تُقلِّدُ مَن حولَهَا منَ النساءِ فِي اقتناءِ الكمَالياتِ، فِي حينِ أنَّ ذلكَ ممَّا يُثقلُ كاهِلَ الزَّوجِ، وعَليهَا أنْ تتأسَّىٰ بمَن هوَ أقلُّ منهَا حَالًا، ممَّن هوَ أضيقُ عَيشًا، وأبأسُ حَالًا، ففِي ذلكَ الراحَةُ فِي الآجلَةِ والعَاجِلَةِ، ويَبعَثُ عَلَىٰ شُكرِ النعمَةِ والشُّعورِ بالرِّضَا، وقَد قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظرُوا إلَىٰ مَن هُوَ أسفَلَ مِنكُم، وَلَا تَنظرُوا إلَىٰ مَن هُوَ فوقَكُم، فهُوَ أجدَرُ ألَّا تَزدَرُوا نِعمَةَ اللهِ عَليكُم**»[٥].

---

(١) رواه النسائي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٧٢).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٥٦٥).

(٣) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٢٥).

(٤) رواه البخاري (٩٨)، ومسلم (٨٨٤).

(٥) رواه البخاري (٦٤٩٠)، و مسلم (٢٩٦٣).

ومِن حقِّهِ عَليهَا: أنْ تشكُرَ لهُ مَا يؤدِّي لهَا مِن رزقٍ؛ مِن مَأوًىٰ وطعامٍ وشرابٍ وغيرِ ذلكَ، علَىٰ حسَبِ وسعِهِ وطاقتِهِ، وتَدعُو لهُ بالعِوضِ والإخلافِ، فقَد قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَنظرُ اللهُ إلَىٰ امرأَةٍ لَا تَشكرُ لزَوجِهَا، وهِي لا تَستَغنِي عَنهُ**»[1].

وقالَتْ أسماءُ ابنَةُ زَيدٍ الأنصاريَّةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «**مَرَّ بِي النبيُّ** صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **وأنَا فِي جَوارٍ أترابٍ لِي، فسلَّمَ عَلينَا، وقالَ: إياكُنَّ وكُفْرَ المنعَمِينَ، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، ومَا كفرُ المُنعَمِينَ؟ قالَ: لعلَّ إحداكُنَّ تطولُ أيمَتُها مِن أبوَيْها، ثمَّ يرزُقُهَا اللهُ زَوجًا، ويرزُقُهَا منهُ ولدًا، فتغضَبُ الغضبَةَ فتَكفرُ، فتقُولُ: مَا رأيتُ منكَ خيرًا قطُّ**»[2].

ومِن حقِّهِ عَليهَا: أنْ ترعَىٰ مشاعِرَهُ وحواسَّهُ، فتتحرَّىٰ مَا يُرضيهِ فتَأتيهِ، ومَا يُؤذيهِ فتَجتنِبُهُ، فَلا يشَمنَّ منهَا إلَّا طَيبًا، وَلَا يَسمعُ مِنهَا إلَّا حسَنًا، ولا يرَىٰ منهَا إلا جَميلًا، وأنْ تجتنِبَ الغَيرةَ المُفرطَةَ الخَانقَةَ؛ لأنَّها مِفتاحُ الطلاقِ، ولَا تُكثرُ العتَبَ؛ لأنهُ يورِثُ البَغضَاءَ، وَلَا تَفتخِرُ عليهِ بجَمالٍ، ولا تَعيبُهُ بقَبيحٍ إن كانَ فِيهِ.

ومِن حقِّهِ عَليهَا: ألَّا تَصومَ تَطوعًا وهُوَ حَاضرٌ إلَّا بإذنِهِ، لقَولِهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يحِلُّ للمرأةِ أنْ تصومَ وزَوجُهَا شاهِدٌ إلَّا بإذنِهِ**»[3]، وهذَا المنعُ فِيمَا إذَا كانَ الزوجُ حاضرًا يُريدُها لحاجَتِهِ، أمَّا لَو كانَ مُسَافرًا، فيجوزُ لهَا التطوعُ، ومِثلُهُ لَو كانَ مريضًا بحيثُ لَا يستطيعُ الجمَاعَ.

ولمَّا شَكَتْ امرأةُ صفوَانَ بنِ المُعطلِ إلَىٰ رَسولِ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّه يُفطِّرُهَا إذَا صامَتْ، سَألَهُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عمَّا قَالَت، فقَالَ: «**أمَّا قَولُهَا، يُفطِّرُنِي إذَا صُمتُ، فإنَّهَا**

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٤٤).
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٢٣).
(٣) رواه البخاري (٥١٩٥)، ومسلم (١٠٢٦).

تنطلِقُ فتصُومُ، وأنَا رجلٌ شابٌّ، فَلَا أصبِرُ، فقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ: لَا تصومُ المَرأةُ إلا بإذنِ زَوجِها»(١).

ومِن حقِّهِ عليهَا: ألَّا تأذَنَ لِأحدٍ في بيتِهِ إلَّا بإذنِهِ سواءٌ كانَ رجلًا أو امرأةً أو حتَّىٰ محرَمًا لهَا، فقَد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَحلُّ للمرأةِ أنْ تصومَ وزوجُهَا شاهدٌ إلَّا بإذنِهِ، ولَا تَأذنُ فِي بيتِهِ إلَّا بإذنِهِ**»(٢).

وَمِن حقِّهِ عليهَا: ألَّا تَخرُجَ مِن بَيتِهِ بغَيرِ إذنِهِ، لعُمومِ وجُوبِ طاعتِهَا لَهُ، **وفِي ذلكَ يقُولُ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذَا خرجَتْ مِن دارِهِ بغيرِ إذنِهِ فَلا نفقَةَ لهَا وَلَا كسوَةَ، **وقَالَ**: لَا يحلُّ للزوجَةِ أنْ تخرجَ مِن بيتِهَا إلَّا بإذنِهِ، وَلَا يحِلُّ لأحدٍ أنْ يَأخذَهَا إلَيهِ، ويَحبسَهَا عَن زَوجِها، سَواءٌ كانَ ذَلكَ لكونِهَا مُرضعًا، أوْ لكونِهَا قابِلَةً، أوْ غيرِ ذلكَ مِن الصنَاعاتِ، وإذَا خَرجَتْ مِن بيتِ زوجِهَا بغيرِ إذنِهِ كانَتْ ناشزَةً عاصيَةً للهِ ورسُولِهِ؛ ومُستحقَّةً للعقوبَةِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ العليمِ الخَبيرِ، السَّمِيعِ البَصِيرِ، أحاطَ بكُلِّ شيءٍ علمًا، وأحصَىٰ كُلَّ شيءٍ عددًا، لَا إلهَ إلَّا هُوَ إليهِ المَصِيرِ، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شريكَ لَهُ العليُّ الكَبيرِ، وأشهَدُ أنَّ نبينَا مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ البَشيرُ النَّذيرُ والسراجُ المُنِيرِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ ذَوِي الفَضلِ الكَبيرِ.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥١٩٥)، ومسلم (١٠٢٦).

أمَّا بعدُ:

فمعَ بيانِ عَظيمِ حقِّ الرجلِ عَلىٰ زَوجتِهِ، يَجبُ عَلىٰ المسلِمِ أنْ يتقِيَ اللهَ فِي زوجَتِهِ، وألَّا يتخذَ هذَا الحقَّ وسيلةً لإيذائِهَا والتضييقِ عَليهَا، وأنْ يستغلَّ ضَعفَهَا وانكسَارَهَا، فقَد قَالَ ﷺ: «**إنِّي أحرِّجُ حقَّ الضعيفَينِ: اليتيمِ والمَرأةِ**»(١).

هذَا وإنَّ بعضَ الناسِ إذَا أرادَ أن يُسهِّلَ لنَفسهِ أمرًا مَا، لبَّسَهُ ثَوبَ الدِّينِ، والدينُ لا يَأمرُ بالظلمِ ولَا يُبيحُهُ، وإنَّما يُؤتَىٰ الإنسانُ مِن قلةِ فقهِهِ للشرعِ وضَعفِ دِينِهِ هُو.

فلَا يجوزُ للمسلمِ أنْ يتعسَّفَ باستعمالِ حقهِ تجَاهَ زوجتِهِ، فيمنعُهَا ممَّا هوَ حقٌّ لهَا أو ممَّا تضطرُّ إلَيهِ أو تحتاجُهُ، كمَن يَمنعُهَا من زيارةِ والدَيهَا أو أخواتِهَا وليسَ فِي زيارَتِها لهُم مَفسدةٌ أوْ إفسادٌ عَلىٰ الزوجِ ومَا أشبَهَ ذَلكَ، فإنَّ هذَا ليسَ مِن المعاشَرَةِ بالمَعروفِ، كمَا أنهُ يُلجئُ المرأةَ إلَىٰ مُخالفتِهِ، ويؤدِّي بهَا إلىٰ النفُورِ، ويغريهَا بالعقوقِ.

فالواجبُ عَلىٰ المسلِمِ -رجُلًا كانَ أوِ امرأةً- أنْ يتقيَ اللهَ تعَالىٰ فِي صحبةِ زوجِهِ، فيعاشِرَهُ بالمعروفِ، ويؤدِّي حقَّهُ الذِي أوجبَهُ اللهُ لهُ، وليعلَمْ أنهُ عمَّا قريبٍ سيقفُ بينَ يدَي ربهِ، ويسألُهُ اللهُ تعَالىٰ عمَّا استرعَاهُ، وقدْ جاءَ فِي الحديثِ أنهُ ﷺ قال: «**الرجلُ راعٍ عَلَىٰ أهلِ بيتِهِ وهُو مَسؤُولٌ عَن رعيتِهِ، والمرأَةُ راعيَةٌ عَلَىٰ بيتِ زَوجِهَا وولدِهِ وهِيَ مَسؤولةٌ عنهُم**»(٢).

❀❀❀

(١) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٤٧).
(٢) رواه البخاري (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩).

(٦٢) مِن أحكامِ الطَّلاقِ

الحمدُ للهِ الذِي لهُ الحمدُ كُلُّه، ولَهُ المُلك كُلُّه، وبِيدِهِ الخَيرُ كُلُّه، وإليهِ يُرجعُ الأمرُ كلُّه، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ فِي ذاتِهِ وأسمَائِهِ وصفاتِهِ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ أفضَلُ مخلوقَاتِه، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعَلىٰ آلهِ وصحبِهِ المُقتدينَ بهِ فِي كلِّ حَالَاتِه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المُسلِمونَ:

فلَا شكَّ أنهُ منَ المُقررِ المعلومِ لدَىٰ العقلاءِ أنَّ الزواجَ مِن أعظمِ أسبابِ العفَّةِ والبعدِ عَنِ الحرامِ، وقَد دلَّ علَىٰ ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ: «**يَا مَعشرَ الشبابِ، مَن استطاعَ منكُمُ الباءَةَ فليتزوَّج؛ فإنَّهُ أغضُّ للبَصر وأحصَنُ للفَرجِ**»[1]، كمَا أنَّ الزواجَ سببٌ لهدوءِ الأنفسِ وإطفاءِ نارِ الغَريزةِ المُركبةِ فِي بنِي البشرِ، ووسيلةٌ إلَىٰ السعادةِ والطمأنينةِ والراحةِ والدَّعةِ، قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وممَّا لا بُدَّ أنْ يعلمَهُ الرجلُ البصيرُ أنَّه مهمَا حاولَ أنْ تكونَ المرأةُ علَىٰ وفقِ مَا يريدُ، فإنَّها لنْ تستقِيمَ لهُ علَىٰ حالٍ أبدًا، وهَذا أمرٌ جُبلَت عليهِ المرأةُ، ولكِنَّ الأهمَّ ألَّا يكونَ مَا فيهَا مِن النقصِ والخلَلِ فِي أمرِ دِينِها، فإنَّ هذَا أمرٌ لا بُدَّ أنْ يَحمِلَها الرجلُ عليهِ وأنْ يُقوِّمَها علَىٰ التمسُّكِ بِهِ، أمَّا فِي أمورِ الدنيَا فإنَّهُ لَا بُدَّ وأنْ يكونَ عِندَ المَرأةِ

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) سورة الروم:٢١.

نقصٌ فِي بعضِ الجوانِبِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ المرأةَ خُلِقَت مِن ضلعٍ، وإنَّ أعوجَ مَا فِي الضلعِ أعلاهُ، فإنْ ذهَبْتَ تُقيمُهُ كَسرتَهُ، وإنِ استمتَعتَ بهَا، استمتَعتَ بهَا وبهَا عوجٌ، فاستَوصُوا بالنسَاءِ**»(١).

وقد جَاءَ فِي حديثٍ آخرَ قَولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإنْ ذهَبتَ تُقيمُهُ كسَرتَهُ، وكسرُهَا طَلاقُهَا**»(٢).

ففِي هذَا الحديثِ العَظيمِ الوَصيَّةُ بالمرأةِ، وأنَّها لَن تستقِيمَ للرجلِ عَلىٰ طريقَةٍ، فالواجبُ عَليهِ أنْ يرحمَهَا ويُحسنَ مُعاشرَتَهَا وأنْ يَستوصِيَ بهَا خَيرًا، فيَقبلُ إحسانَهَا، ويُحسنَ معاملَتَها فيمَا كانَ منهَا مِن نقصٍ وخَللٍ.

كمَا أنَّ فِي الحديثِ بيانًا عَلىٰ أنَّ العِوجَ موجودٌ فيهَا وَلا بُدَّ، وأنَّ إقامةَ العوجِ فيهَا كمُحاولةِ إقامَتِهِ فِي الضلعِ؛ فإنهُ يؤدِّي إلَىٰ الكَسرِ، كمَا أنَّ فيهِ إشارةً أيضًا إلَىٰ أنَّ العِوجَ كمَا أنهُ فِي أعلَىٰ الضلَعِ، فكذلِكَ العِوجُ فِي أعلَىٰ المَرأةِ وهُوَ اللسَانُ، نَظرًا لمَا جُبلتْ عَليهِ، ولذَلكَ فقَد أوصَىٰ بهَا خَيرًا أرحمُ الخلقِ بالخَلقِ مُحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبمَا أنَّ النقصَ والخَللَ موجودٌ فِي المَرأةِ، فإنهُ وفِي هذِهِ الحياةِ الطويلةِ لا بُدَّ أنْ يحدُثَ منهَا شيءٌ منَ التقصِيرِ فِي حقِّ الزوجِ يصِلُ إلَىٰ درجَةِ العصيانِ والخُروجِ عَن أمرِهِ، فمَا هُو العلاجُ فِي مثلِ هذِهِ الحَالِ؟

لقَد بيَّنَ لنَا الشرعُ المطهرُ قواعِدَ مهمةً لَو عملَ بهَا المرءُ حِينَ تَعامُلِهِ معَ زَوجتِهِ فيمَا لَو خَرَجت عَن طاعتِهِ، لاستقَامَ لهُ الحَالُ وحمدَ عاقبَةَ فِعلِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٨٤)، ومسلم (٢٦٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾[١].

فِي هذِهِ الآيةِ أسسُ التعاملِ معَ الزَّوجةِ حينَ ترفعُ عَلىٰ زوجِها وتخرُجُ عَن طاعتِهِ، وذلكَ بأنْ يبدأَ بوَعظِهَا وتذكيرِهَا، فيُذكِّرَها بحَقِّ الزوجِ ومَا أوجَبَ اللهُ عليها مِن طاعتِهِ، وأنْ يَستدرجَهَا بحلوِ الكلامِ وجَميلِ المَنطقِ، ولا ييأسُ مِن كثرةِ وَعظِها، لأنَّ المرأةَ كثيرةُ النسيانِ، ورُبمَا ينبهُهَا الزوجُ عَلىٰ الشيءِ الواحدِ مراتٍ عديدَةً فترجعُ إِلَىٰ تكرارِ نفسِ الخطَأِ، فإنْ لَم ينفَعِ الوعظُ وقَد ذئرتْ علَىٰ زوجِها وترفَّعتْ علَيهِ، فإنَّهُ ينتقِلُ إِلَىٰ الخطوَةِ الأخرَىٰ وهِيَ الهَجرُ فِي المَضجَعِ، فيهجُرُ فراشَهَا، قالَ بعضُ السلفِ: ينامُ عَلىٰ فراشِهِ ويُوليهَا ظَهرَهُ فإنَّهُ شديدٌ عَلَيها.

وقَد بينَتِ السُّنةُ النبويَّةُ أنَّ الهجرَانَ لَا يكونُ إلَّا فِي المنزلِ، لذَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَهجُر إلَّا فِي البيتِ**»[٢]، فيثقلُ علَيهَا حتَّىٰ ترتدِعَ وتُحسَّ بفداحَةِ مَا فَعلتْهُ، والهجرُ منَ الأمورِ الشاقَّةِ عَلىٰ المرأةِ التِي تؤدِّي إِلَىٰ ارتداعِهَا ورجُوعِهَا إِلَىٰ مصالحَةِ زَوجِها.

فإذَا عملَ بهذِهِ الخطواتِ ولَم ترتَدِعْ، انتقلَ إِلَىٰ العِلاجِ الثالثِ وهُوَ الضربِ، وهذَا الضربُ يكونُ ضَربًا خفيفًا غيرَ مُبرِّحٍ، فَلَا يضربُهَا ضربًا شَديدًا يؤدِّي إِلَىٰ إحداثِ علاماتٍ فِي جِسمِها أو يضرُّهَا بأيةِ صورَةٍ، وقَد جاءَتِ السنةُ بذَلكَ، كمَا فِي قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فاضرِبُوهُنَّ ضَربًا غيرَ مُبرِّحٍ**»[٣].

ومَا ذلكَ إلَّا لأنَّ ألَمَ الضربِ النَّفسيَّ أكثَرُ مِن الجَسدِيِّ، وليسَ كثرةُ الضربِ

---

(١) سورة النساء: ٣٤.

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧).

تؤدِّي إِلَىٰ هيبَةِ الزَّوجِ ورجوعِ المَرأةِ عنِ الخطَأ، فكَم مِنَ النساءِ مَن تُضربُ ضربًا مبرحًا ولا تزالُ عَلىٰ مَا هيَ عَليهِ مِن الخطَأ.

وليتنبَّهِ المسلمُ أنهُ إنْ عملَ بهذِهِ الخطوَاتِ واستقَامَتِ المرأةُ عَلىٰ مَا يريدُ وتركَتِ الخَطأَ، فلَا يبغِي عليهَا بعدَ ذلكَ أو يَظلمُهَا أو يُعيرُهَا بمَا ارتكبَتْهُ منَ الخطَأِ فِي حقِّهِ، أَو أنهُ يُحاوِلُ أن يتَحَيَّنَ الفرصَ مِن أجلِ تلمُّسِ عثَرَاتِهَا ليُعاقِبَهَا عَلىٰ مَا ارتكَبَت فِي سالفِ الأيَّامِ، ولذلكَ قَالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[1].

فهُوَ سبحانَهُ لهُ تمامُ العُلوِّ، فإنْ تذكرْتَ عُلوَّكَ علَىٰ هذِهِ الزوجةِ فتذكَّرْ علوَّ اللهِ عليكَ، فإنَّهُ إنْ شاءَ اقتصَّ لهَا مِن ظُلمِكَ إيَّاهَا.

فإنْ عمِلَ المرءُ بهذِهِ الخطوَاتِ، ولَم تَستقِمِ المَرأةُ لهُ عَلىٰ حالٍ وأعيَاهُ أمرُهَا، فقَد بيَّنَ اللهُ تعَالىٰ لنَا عِلاجًا آخرَ ينتقِلُ إليهِ الزوجُ لإصلَاحِ أخلاقِ زَوجتِهِ إذَا خُشيَ الشقاقُ بَينهُمَا، فقالَ تعَالىٰ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[2].

ففِي حالِ وقوعِ الشقاقِ ينتدِبُ الرجلُ حَكَمًا عاقِلًا مِن أهلِهِ، وتنتدبُ المرأةُ حكمًا عاقِلًا مِن أهلِهَا، فيجتمعَانِ ويَريانِ مواقعَ الخطأِ فِيهما، ويُحاولانِ إصلاحَ مَا وقعَ مِن الزلَلِ، وليَنتبِهْ إِلَىٰ أنَّ الحَكَمَ لَا بدَّ أنْ يكونَ عاقلًا يقصدُ الإصلاحَ ولَمَّ الشملِ بينَ الزوجَينِ، ويحذَر مِن إفسادِ العلاقةِ بَينهُمَا لأنَّ هذَا منَ الإثمِ العَظيمِ، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ منَّا مَن خَبَّبَ امرأةً عَلىٰ زَوجِهَا**»[3].

---

(١) سورة النساء: ٣٤.

(٢) سورة النساء: ٣٥.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٠١٤).

والتَّخبيبُ هُو الإفسادُ، فإنَّ بعضَ الناسِ إذَا تدخَّلَ بينَ الزوجَينِ يتصرَّفُ بحُمقٍ وعنادٍ، فلربَّما اضطرَّ الزوجَ إلىٰ طلاقِ زوجتِهِ فتفرَّقتِ الأسرَةُ وتشتتَ الأبنَاءُ.

وهُنا أنبِّهُ أنَّ بعضَ الآباءِ إذَا جاءَتهُ ابنتُهُ شَاكيَةً زوجَها، أخذَ بكلِّ مَا سمعَهُ منهَا دونَ استثنَاءٍ وتَعقُّلٍ وصدَّقَها فِي كلِّ مَا تقُولُ، وهذَا خطأٌ؛ لأنَّ المرءَ فِي العادَةِ لَا يذكرُ إلَّا مَا لهُ وَلَا يذكُرُ مَا عَليهِ، ومِن أحسَنِ الوسائِلِ العِلاجيةِ أنَّ المرءَ إذَا جاءَتهُ ابنتُهُ تشتَكِي زَوجَها، أنْ يجمعَهَا بهِ ويأمرَهَا بالحَديثِ أمامَهُ ليَسمعَ وِجهةَ نَظرِهِ، فلربَّمَا تكونُ هِيَ الباغيَةَ الظالمَةَ، ولكنَّهَا سبَقتهُ بالشَّكوَىٰ إلَىٰ أهلِهَا، فحديثُهَا بحضَرتِهِ يجعَلُهَا بعيدةً عنِ المُبالغَةِ بالشَّيءِ.

وليَكُنِ الوليُّ عاقلًا وهمُّهُ الإصلاحُ والبعدُ عَن مواطنِ الشقَاقِ، فَلا يدقِّقْ علَىٰ كلِّ مَا يسمعُ، ولْيُعرِضْ عَنْ بعضِ الأمورِ التِي ليسَ مِن شَأنِها أنْ تضُرَّ بالحيَاةِ الزوجيَّةِ ولَا تَمنعُ استمرَارَهَا، فهَذَا مُنتهَىٰ الحكمَةِ.

فإنْ وصلَ الزوجُ إلَىٰ حقيقةٍ متيقنَةٍ مؤكدَةٍ وهِيَ أنهُ لَا سبيلَ إلَىٰ الإصلاحِ فإنَّهُ ينتقِلُ إلَىٰ العلاجِ الأخيرِ وهُو الطلاقُ، قالَ تعَالىٰ: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾[1].

والطلاقُ هوَ العلاجُ الأخيرُ للمشاكِلِ الزوجيَّةِ، ولكِن معَ الأسفِ الشديدِ فإنَّ بعضَ الناسِ يجعلُهُ الحلَّ الأولَ دَائمًا، وهذَا خطأٌ بالِغٌ، خصوصًا أنَّ بعضَ الناسِ يُقدِمُ عليهِ فِي أولِ حياتِهِ الزَّوجيةِ وقبلَ تَمرسِهِ فِي قيادَةِ مَركبِ الزَّواجِ الذِي يحتاجُ إلَىٰ طولِ أمدٍ للتبصُّرِ بِهِ والصَّبرِ عَلَىٰ مَا يكونُ فِيهِ.

---

(١) سورة النساء: ١٣٠.

عبادَ اللهِ:

وإذَا أرادَ الرجلُ أنْ يطلِّقَ المرأةَ، فلَا بُدَّ أنْ يعلَمَ جُملةً منَ الآدابِ والأحكَامِ، وهيَ أنهُ لَا يجُوزُ للزوجِ إنْ طلقَ امرأتَهُ -وقَدْ دَخلَ بِهَا- أنْ يستردَّ شَيئًا مِن مَهرِهَا، قالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(١).

كمَا أنهُ لَا يجوزُ لهُ أنْ يعضلَ المرأةَ ويُضَارَّ بهَا حتَّىٰ تفتَدِيَ نَفسَها منهُ بأنْ تُعطيَهُ مهرَهُ أَو شَيئًا منهُ، قالَ تعَالىٰ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾(٢).

فلَا يجوزُ للزَّوجِ أنْ يُقدِمَ عَلىٰ هذَا الفعلِ المُشينِ إذَا لَم يَكُن بالزَّوجةِ بأسٌ، بَل إنهُ يُطلقُهَا وَلَا يُأخذُ مِن مَهرِهَا شَيئًا ويُغنيهِ اللهُ تَعالىٰ.

أمَّا إنْ كانَتِ الزوجةُ كارهَةً للزوجِ ولَيسَ فِي أخلاقِهِ بأسٌ، فإنهُ لَا بأسَ أنْ تفتَدِيَ منهُ بمَهرِها أوْ شيءٍ منهُ وتُخالعَهُ عَلَىٰ ذلكَ، قالَ تعَالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾(٣).

ولَا بأسَ أنْ يقبَلَ بأخذِ العِوضِ منهَا ويُفارقَهَا عَلىٰ ذلكَ، وهُنا لا بُدَّ مِن التَّنبيهِ إلَىٰ أنَّ بعضَ النساءِ إذَا كرِهَت الزوجَ وأرَادَت الاحتيَالَ عَليهِ بأخذِ المَهرِ، ذَهبَتْ إلَىٰ المحكمَةِ ورَفعَت دَعوىٰ طلاقٍ للضَّرَرِ، ولفَّقَت بعضَ الأورَاقِ أوْ أنهَا تَذكرُ بعضَ

---

(١) سورة النساء: ٢٠-٢١.

(٢) سورة النساء: ١٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٩.

الأضرارِ التِي لَا تُعتبَرُ مِن الضرَرِ عُرفًا، فتحصُلُ عَلىٰ الطلاقِ معَ ظفرِهَا بالمَهرِ، وهَذَا أمرٌ باطلٌ، وحُكمُ القَاضي إنمَا هوَ عَلىٰ الظاهِرِ ولكنَّهُ لَا يغُيِّرُ الحقيقَةَ، فليُنتبَهْ إِلَىٰ مثلِ ذلكَ التلاعُبِ.

وممَّا يجبُ علَىٰ الزوجِ إنْ طلقَ امرأتَهُ أنْ يعمَلَ بالسنَّةِ، وهُو أن يُطلقَهَا طلقَةً واحدَةً، ولَا يَجوزُ لَهُ أنْ يَجمعَ الطلاقَ الثلاثَ بلفَظٍ واحدٍ كقَولِهِ: أنتِ طالقٌ ثلاثًا، أو يقُولُ: أنتِ طالقٌ طالقٌ طالقٌ، فإنَّ هذَا لَا يجوزُ، قالَ تعَالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾(١).

فإذَا طلَّقَها الطلقَةَ الأولَىٰ أو الثَّانيَةَ، فهذِهِ طلقَةٌ رجعيَّةٌ فلَا تَخرجِ المرأةُ مِن بَيتِهَا إِلَىٰ بيتِ أهلِهَا؛ لأنَّ لهُ أنْ يُراجِعَهَا فِي العدَّةِ، بَل تبقَىٰ فِي بَيتِهَا، فلرُبَّما حنَّت نَفسُهُ إليهَا ورَاجعَهَا إِلَىٰ ذِمَّتِهِ، قالَ تَعَالىٰ: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾(٢).

كمَا أنهُ يجبُ عليهِ إنْ أرادَ طلاقَهَا أنْ يطلقَهَا وهِي طاهرٌ، فِي طهرٍ لَم يُجامِعْهَا فيهِ؛ لأنَّ الطلاقَ فِي الحيضِ أو فِي طهرٍ جامعَهَا فيهِ يؤدِّي إِلَىٰ طولِ العدَّةِ، وهذَا ممَّا يَضرُّ بهَا، فلمَّا طلَّقَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا امرَأتهُ وهيَ حائضٌ، قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرهُ فليُراجِعهَا حتَّىٰ تطهُرَ ثُمَّ تحيضَ ثُمَّ تَطهُرَ، ثُمَّ إن شاءَ طلَّقَ وإنْ شاءَ أمسَكَ**»(٣).

فالطلاقُ فِي حالِ كونِ المرأَةِ حَائضًا أو فِي طُهرٍ جامعَهَا فيهِ طلاقٌ بِدعيٌّ، ثمَّ إنَّ الطلاقَ في طُهرٍ جامعَها فيهِ قدْ تكونُ المرأةُ حملَتْ منهُ، وهذَا يؤدِّي إِلَىٰ سلبياتٍ ومساوِئَ تتعلقُ فِي ذلكَ الحَملِ، فيندمُ عَلىٰ مَا أقدمَ عليهِ.

---

(١) سورة البقرة:٢٢٩.

(٢) سورة الطلاق:١.

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

ومنَ المستحسنِ للزوجِ إنْ طلقَ أنْ يطيِّبَ نفسَ المرأةِ بشيءٍ وأنْ يُعطيَهَا مَبلغًا منَ المالِ أو هديةً، علىٰ حسَبِ استطاعتِهِ، كمَا قالَ تعَالىٰ: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، فإنَّ مثلَ ذلكَ دليلٌ علَىٰ التسريحِ بإحسانٍ وشِراءِ الخواطرِ، وعدمِ قطعِ العلاقاتِ فيمَا يُستقبلُ منَ الأيامِ؛ لأنَّ البعضَ ومعَ الأسفِ يتعاملُ معَ الطلاقِ وكأنهُ حربٌ لا بدَّ أنْ تتقطعَ بعدَهَا الأواصرُ والعلاقاتُ، وهذَا خطأٌ، فإنَّ الطلاقَ أمرٌ كتبَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فلا بُدَّ أنْ نرضَىٰ بقضَاءِ اللهِ.

والواجبُ علَىٰ الزوجِ احترامُ أهلِ الزوجةِ بعدَ الطلاقِ والعكسُ بالعَكسِ، لا سيَّما إذَا كانَ بينهُمَا أولادٌ، والواجبُ علَىٰ كلٍّ منَ الطرفَينِ ألَّا يذكُرَ الآخرَ إلَّا بالجَميلِ والذكرِ الحسنِ؛ لأنَّ مسبةَ الأصهارِ منَ النقائصِ، والعيبِ الذِي يمجُّهُ الناسُ ويرفضونَهُ، ويرونَ أنَّ مَن تكلَّمَ بذلكَ إنمَا تكلَّمَ لتبرئةِ نَفسِهِ فيردُّونَ كلامَهُ وإنْ كانَ صادقًا فيمَا قالَ.

وممَّا يجبُ علَىٰ المسلمِ الذِي يخافُ اللهَ سواءٌ كانَ زَوجًا أو مِن أولياءِ الزوجةِ أنْ يتقيَ اللهَ ويبعدَ الأبناءَ ويجعلَهُم بمنأىٰ عمَّا جرَىٰ بينَ الزوجَينِ، فلَا يحسنُ بزوجةٍ أو أوليائِهَا أنْ يمنعُوا والدًا مِن رؤيةِ أبنائِهِ؛ لأنَّ هذَا سيؤدِّي إلَىٰ تحطيمِ الأبناءِ نفسيًّا وأنْ ينشئُوا بشخصياتٍ مضطربَةٍ أوْ ربمَا إجراميَّة.

كمَا يجبُ علَىٰ الزوجِ أنْ ينفقَ علَىٰ أبنائِهِ مَا يكفِيهم وأكثَرَ، وألَّا يعاقبَ أبناءَهُ بسببِ والدتِهم؛ لأنَّ الولدَ بضعةٌ مِن أبيهِ، وأيُّ نقصٍ فيهِ يعدُّ عيبًا فِي والدِهِ.

هذَا ولْيُعْلَم أنَّ السعيدَ مَن عملَ بهَديِ الكتابِ والسنةِ فِي هذَا البابِ وغيرِهِ، فإنَّهُ سيوفقُ إلَىٰ الصوابِ ولَا شكَّ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) سورة البقرة:٢٣٦.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عُدوانَ إلا علىٰ الظالمِينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلمَ وباركَ وأنعمَ عَلىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ.

أمَّا بعدُ:

فممَّا يجبُ عَلىٰ المسلمِ أنْ يعلمَهُ: الحذرُ منَ العبثِ فِي الطلاقِ، فإنَّ عاقبةَ ذلكَ الندمُ، ومآلُهُ الخسرانُ، معَ ما يترتبُ عليهِ مِن ضياعِ الأسرةِ وتشتتِ الشملِ.

ومنْ أعظمِ العبثِ أنْ يطلقَ الرجلُ زوجتَهُ بدعوَىٰ المزاحِ أو الهَزلِ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثٌ جدُّهنَّ جدٌّ، وهزلهُنَّ جدٌّ، النكاحُ والطلاقُ والرجعَةُ**»(١).

فمَن طلقَ زوجتَهُ مازحًا أو هازلًا طلقَتْ عليهِ كمَا لَو كانَ جادًّا، فالطلاقُ رباطٌ دقيقٌ وثيقٌ لَا يقبلُ الاستهزاءَ، ويستوِي فِي حقِّهِ الجدُّ والهزلُ، فتنبَّهُوا لذلكَ رحمَكُمُ اللهُ.

ومِن صورِ العبثِ فِي الطلاقِ -والتِي يقعُ بهَا الطلاقُ- مَا يفعلُهُ بعضُ الأزواجِ مِن أنْ يكتبَ: «أنتِ طالقٌ» فِي ورقةٍ، ويبعثُهَا لزوجتِهِ، ويبررُ ذلكَ أنهُ فعلَهُ مِن بابِ ممازحَةِ الزوجةِ أو تَخويفِها، ومِثلُ ذلكَ يقَعُ به الطلاقُ ولَا يغنِي عنِ الزوجِ دعوَاهُ بأنَّهُ فعلَ ذلكَ مِن بابِ المزاحِ وأنَّهُ لَم ينوِ طلاقَ زوجتِهِ؛ لأنَّ الطلاقَ لفظٌ صريحٌ لَا ينظرُ معَهُ إلَىٰ النيةِ.

ومثلُ ذلكَ فِي الحُكمِ مَا يفعلُهُ بعضُ الأزواجِ حيثُ يرسلُ لزوجتِهِ رسالةً عبرَ الهاتفِ الجوَّالِ يكتبُ فيهَا: «أنتِ طالقٌ»، وهذَا ممَّا يقعُ بِهِ الطلاقُ وتترتبُ عَليهِ الأحكامُ.

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٨٢٦).

هذَا وممَّا ينبَغِي للعقلاءِ أنْ يفعَلُوهُ -سواءٌ كانَ الزوجَ أو أولِيَاءَ الزوجةِ- أنْ يتعاملُوا معَ الطلاقِ بأنَّهُ أمرٌ قَدْ كتبَهُ اللهُ تعالَىٰ، وعَليهِم بالتسليمِ لقضَاءِ اللهِ وقدَرِهِ، ولَا يَجعَلُوا هذِهِ المسألَةَ وكأنَّهَا نهايةُ العالَمِ، أو أنَّهَا إعلانٌ عَن نشُوبِ حَربٍ لَا تَنتَهِي.

بلِ الواجبُ عَلىٰ الزوجِ إنْ أرادَ تطليقَ امرأتِهِ أنْ يضفِيَ عليهَا كلماتِ المَدحِ والثناءِ، وأن يبررَ لهَا سببَ طلاقِهِ؛ لأنَّ هذَا الفعلَ مِنَ التسريحِ بإحسَانٍ، ويُطيبُ النفوسَ، خصوصًا إذَا كانَ بينهُمَا أولادٌ فإنَّ الخصومَاتِ تعودُ عَلىٰ الأبناءِ بالضررِ البالغِ فينشَئونَ وهُم يحمِلُونَ أحقادًا داخليَّةً، وأرواحًا إجراميَّةً.

كمَا أنَّ الواجبَ عَلىٰ المرأةِ وأوليائِهَا ألَّا يُدخلُوا الأولادَ فِي خصومَتِهِم معَ الزوجِ، فإنَّ الأبناءَ لَا ذنبَ لَهُم فيمَا حصلَ مِن الانفصَالِ، فمِنَ المحزنِ أنَّ بعضَ الزوجاتِ إذَا طلقَتْ منَعَتِ الزوجَ مِن رؤيَةِ أبنائِهِ، وتجدُ -ومَعَ الأسَفِ- مَن يُعينُها علَىٰ ذلكَ مِن الأولِيَاءِ السفهَاءِ، وهذَا أمرٌ لَا يجوزُ، فبَأيِّ حقٍّ تمنعُ الوالدَ مِن رؤيَةِ أبنَائِهِ؟

أوْ أنَّها لَا تزالُ تشوهُ سُمعةَ والدِهِم حتَّىٰ يُبغِضُوهُ!

ولكِن لتَثِقْ مثلُ هذِهِ المرأةُ أنَّ إرضاعَ الأبنَاءِ بالضغَائنِ والأحقَادِ سيجعَلُ قُلوبَهُم قاسيَةً، وسينَالُهَا نصيبٌ عظيمٌ ممَّا سقَتهُ لَهُم إذَا تقدَّمُوا فِي العُمرِ، ولَا سيَّما إذَا كانَ الوالدُ بَريئًا ممَّا نَسبتهُ إلَيهِ مِن التهَمِ، فإنَّهُ مَظلومٌ وسَينصرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وكمْ مِن ولدٍ عاشَ فِي كنفِ أمهِ، فلمَّا شبَ وكَبرَ، ورَأىٰ معاملةَ أبيهِ الحسَنةَ لَهُ، رجعَ إليهِ وهجرَهَا، فتجرَّعَتِ المرارَةَ مِن نفسِ الكأسِ الذِي سقَتهُ لطَليقِهَا.

ويَا معشَرَ العُقلاءِ:

اعلَمُوا أنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ باتباعِ الأوامِرِ الربانيَّةِ، ولَو عملَ الناسُ بذلكَ لاستقامَتْ

لهُمْ أحوالُهُم، وجماعُ ذلكَ فِي هذَا البابِ فِي قَولِهِ تعَالىٰ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾(١).

وعَلىٰ المرأةِ عَلىٰ وَجهِ الخصوصِ إذَا طُلِّقتْ أنْ تكونَ عَاقلةً إلَىٰ أبعدِ حَدٍّ ولَا تكثرُ الكلامَ فِي طليقِهَا أو تَفضحُهُ فيمَا اطَّلعَت عليهِ ولَا يعلمُهُ الناسُ، فلعلَّ اللهَ تعَالىٰ أنْ يعيدَ بينهُمَا الوئامَ يومًا، بأنْ يُحننَ قلبَهُ عليهَا فيُراجعَها سواءٌ لأجلِهَا أو لأجلِ أولادِهِ، وإذَا كانَت تطمَعُ بذَلك فلَيسَ مِنَ العقلِ أنْ تفعَلَ مَا مِن شأنِهِ أنْ يَزيدَ الشُّقَّةَ بينَهُمَا، بحيثُ لَا يُمكنُ بَعدَ ذَلكَ أَن يَأتلِفَا.

نسألُ اللهَ تعَالىٰ أنْ يقيمَ بيوتَنا عَلىٰ السعادَةِ، وأنْ يجعلَنَا هُداةً مُهتدِينَ.

❁❁❁

(١) سورة البقرة:٢٢٩.

(٦٣) أَثَرُ الْمَرأةِ الصَّالحةِ في نهضةِ الأُمَّةِ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدرَهُ تقديرًا، ودبرَ عبادَهُ عَلَىٰ مَا تقتضيهِ حِكمتُهُ وكانَ بهِم لطيفًا خبيرًا، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شريكَ لَهَ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ وكانَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قَديرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ أرسلَهُ بينَ يدَي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا مُنيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كَثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أعظَمِ الأهدافِ والغاياتِ التِي يجبُ أنْ يسعَىٰ إليهَا المُسلمُ، العملَ عَلىٰ صلاحِ المَرأةِ، فمَن رزقَهُ اللهُ امرأةً صالحةً فقَد أتَمَّ عليهِ النعمَةَ، وزادَهُ مِن فضلِهِ وإحسانِهِ؛ لأنَّ المرأةَ كالأرضِ التِي يُغرسُ فيهَا البَذرُ، فإنْ كانَت صالحَةً فقَدْ أينَعَ الثمرُ وانتفعَ بِهِ القريبُ والبَعيدُ، وإنْ كانَت غيرَ ذلكَ فقَد خابَ سَعيُ مَن زرعَ، ولَم يجنِ غيرَ الندامَةِ والخسرانِ.

ولذلكَ لمَّا علمَ أعداءُ الفضيلةِ ودعاةُ الرذيلةِ حقيقةَ دورِ المرأةِ المُؤثرِ فِي الأسرةِ والمجتمعاتِ، سَعَوا إلَىٰ إفسادِهَا بكلِّ طريقٍ وسبيلٍ، وواصَلُوا الليلَ بالنهارِ منْ أجلِ أنْ يخرجُوهَا مِن مهمتِهَا الأصليَّةِ، المُتمثلةِ فِي الأمومةِ ولمِّ شملِ الأسرةِ، إلَىٰ مواقِعِ الضياعِ والسيرِ بِلَا هدفٍ، حتَّىٰ عادَتْ تترنحُ، فلَا تعرفُ ماذَا تريدُ ولَا إلَىٰ أينَ تسيرُ؟

ومعَ الأسفِ الشديدِ أنَّ كثيرًا منَ المسلمينَ لَم يقدرُوا لهَذَا الأمرِ قدرَهُ، وحصَرُوا المرأةَ فِي زاويةِ المخلوقِ الضَّعيفِ الذِي لَا يَستطيعُ أن ينهَضَ بالأمةِ، ولَا يقوَىٰ علَىٰ

تغييرِ واقِعِها إِلَىٰ واقعٍ قويٍّ رشيدٍ، فأهملُوهَا ظنًّا منهُم أنَّ المسئوليَّةَ تقعُ عَلىٰ الرجَالِ فقطْ، ومَا علمُوا أنَّ أعظمَ البيوتِ نفعًا وأكثرَهَا رشَدًا، هيَ التِي قامَتْ عليهَا نساءٌ صالحاتٌ، فأخرَجنَ رِجالًا غيَّرُوا مجرَىٰ التارِيخِ، وبلَغَتْ بهِمُ الأمةُ أعلَىٰ درجَاتِ المَجدِ.

إنَّ فِي صلاحِ المرأةِ سعادةً للخاصِّ والعامِّ، والقريبِ والبَعيدِ، سواءٌ كانَتْ أمًّا أَو بنتًا أو أختًا أو زوجًا، وفي صلاحِهَا السعادةُ التِي لَا تُضاهيهَا سعادةٌ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيَا متاعٌ، وخيرُ متاعِهَا المرأةُ الصالحَةُ**»[1].

فيجبُ عَلينا الاهتمامُ بصلاحِ المرأةِ، وبَذلُ الجهودِ المُتواصلةِ مِن أجل ذلكَ، وتذليلُ العقباتِ التِي تحولُ بَينَها وبينَ الوصولِ إِلَىٰ هذَا المطلبِ العَظيمِ، ويجبُ علينَا أنْ تمتلئَ قلوبُنا باليَقينِ فيمَا نسعَىٰ إِلَيهِ، وليسَ مجردَ شعاراتٍ زائفَةً، ثُمَّ عندَ الواقِعِ نظنُّ أنَّ الصلاحَ والتميزَ مَقصورٌ عَلىٰ الأولادِ، فنُكثفُ الجهودَ مِن أجلِ صلاحِهِم معَ إهمالِ المَرأةِ التِي ستكونُ أمًّا لَهُم وستُلازمُهم أكثرَ منَ الآباءِ، وهِيَ التِي ستُوجهُ وتعلمُ وتزرعُ القِيمَ والمبادئَ، فإِذَا أردْنَا أنْ نجنيَ ثمرةَ الفَرعِ فلا بُدَّ أنْ نجاهدَ مِن أجلِ صلاحِ الأصلِ، وأنْ نكونَ لهَا حصنًا منيعًا يحُولُ دونَ الوقوعِ فِي التخبطَاتِ الفِكريَّةِ وَالمنزلقَاتِ الأخلاقيَّةِ، وأنْ نَحمِيَهَا مِن ذَلكَ.

إنَّ المرأةَ الصالحَةَ كنزٌ مُدَّخرٌ، وثروةٌ لَا تُضاهِيهَا ثَروةٌ، وعدَّةٌ عندَ الحاجةِ والشدةِ، ومَن تأمَّلَ سيرَ الصالحينَ مِنَ الأولينَ والآخرِينَ، عَلِمَ مدَىٰ تأثيرِ النساءِ الصالحاتِ ودَورهنَّ العظيمِ فِي حياةِ الأبناءِ والآباءِ والإخوةِ والأزوَاجِ، مُؤازرةً ونصرةً ومواساةً وتثبيتًا عَلىٰ الطريقِ، فكُنَّ رأسَ المفاخرِ لمَن جاءَ بعدهُنَّ، وقدوةً للسائرينَ عَلىٰ طريقِهِنَّ، وشكرَ لهُنَّ مَن عَمَّهُ الخيرُ بسَببِ صَنيعهِنَّ.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٧).

وتأمَّلْ فِي هذهِ النوادرِ الجميلةِ، تَعرِفْ مدَىٰ تأثيرِ المرأةِ الصالحةِ عَلىٰ الأفرادِ والمجتمعَاتِ، وثمَارِ عملِهَا الصالحِ الذِي كانَ ولَا زالَ ينتفِعُ بهِ الناسُ جِيلًا بعدَ جيلٍ.

فلمَّا جاءَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلَىٰ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالوَحيِ وهوَ فِي غارِ حراءٍ بصورَتِهِ الحقيقيَّةِ، ضمَّهُ ضمةً شديدةً حتَّىٰ بلغَ منهُ الجهدُ ثُمَّ تركَهُ، فقالَ: اقرَأْ، قالَ: «**مَا أنَا بقَارِئٍ**»، فأخذَهُ فضمَّهُ الثانيةَ حتَّىٰ بلغ منهُ الجَهدُ ثُمَّ تركَهُ، فقَالَ: اقرَأْ، فقَالَ: «**مَا أنَا بقَارِئٍ**»، فأخذَهُ فضمَّهُ الثالثةَ ثمَّ تركَهُ، فقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فرجعَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرجفُ فؤادُهُ، فدخلَ عَلىٰ زوجتِهِ خديجَةَ بِنتِ خويلدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فقالَ: «**زمِّلوني زمِّلوني**»؛ أي: دَثِّروني، فأبصرَتْ مَا بوجهِهِ مِن تغيُّرِ لونِهِ، فأفزَعَها ذلكَ، فقامَتْ إلَيهِ ودثَّرتْهُ، ودَنَتْ منهُ وجعَلَتْ تمسَحُ عَلىٰ وجهِهِ حتَّىٰ ذهبَ عنهُ الرَّوعُ، فقالَ لخديجةَ -وقَد أخبرَهَا الخبرَ-: «**لقَد خشِيتُ عَلىٰ نفسِي**»، فعصَمَ اللهُ خديجةَ عنِ التكذِيبِ، وشرحَ صدرَهَا للتصدِيقِ، فقالَتْ: «كلَّا واللهِ، مَا يخزيكَ اللهُ أبدًا، إنَّكَ لتصِلُ الرحِمَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المَعدومَ، وتَقرِي الضيفَ، وتُعينُ عَلىٰ نوائبِ الحقِّ»(١).

فواستْهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بجميلِ كلماتِهَا، وثبَّتتْهُ بلطِيفِ عبارَاتِها، وآوتهُ إلَيهَا، وذكَرَتْ مِن صفاتِهِ ما يكونُ سببًا فِي تثبيتِهِ عَلىٰ الحقِّ، وهكَذا كَانَت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ طولَ حياتِهِ مَعهَا مؤنسةً مناصرةً مؤازِرةً، لَم يأتِهَا فِي أمرٍ يهمُّهُ إلَّا وجَدَ عندَهَا ما يكونُ سَببًا فِي التخفيفِ عَنهُ، ولَا يسمعُ شَيئًا يكرهُهُ، مِن ردٍّ عَليهِ، وتكذيبٍ لهُ، فيُحزِنُهُ ذلكَ، إلَّا

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فرَّجَ اللهُ عنهُ بِهَا، إذَا رجعَ إليهَا تُثبتُهُ، وتُخففُ عنهُ، وتصدقُهُ، وتُهوِّنُ عَليهِ أمرَ الناسِ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، ولذلِكَ قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**أمرتُ أنْ أبشِّرَ خديجةَ ببيتٍ فِي الجنةِ مِن قصَبٍ** -وهُو: اللؤلؤُ المُجوَّفُ- **لَا صخبَ فِيهِ ولَا نَصبَ**»[1].

وتأمَّلْ فيمَا فعلَتهُ المرأةُ الصالحةُ أمُّ الدَّحداحِ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا؛ مِن سرعَةِ استجابَتِها للخيرِ، وإعانَةِ زَوجِها عَلىٰ طاعةِ اللهِ دونَ ترددٍ أوْ تأخيرٍ، وتَشجيعِها لهُ عَلىٰ فِعلِ المَعروفِ، وتَذكيرِهِ بمَا يكونُ لهُ عندَ اللهِ منَ الجزاءِ الحسَنِ، فلمَّا نزلَ قولُ اللهِ تعَالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾[2]، قالَ أبُو الدحداحِ الأنصاريُّ: «يَا رسُولَ اللهِ، وإنَّ اللهَ ليريدُ منَّا القرضَ؟، قالَ: **نعَمْ يَا أبَا الدَّحداحِ**، فقالَ: فإنِّي قَد أقرضتُ ربِّي حائطِي -أَي: بُستانِي-، ولهُ حائطٌ فيهِ سِتمائةِ نَخلةٍ، وفيهِ أمُّ الدحداحِ وعيالُهَا، فجاءَ أبُو الدحداحِ، ونادَاهَا: يَا أمَّ الدحدَاحِ، قالَت: لبَّيكَ، قالَ: اخرُجي، فقَد أقرضتُهُ ربِّي عَزَّوَجَلَّ، فقالَتْ لهُ: رَبِحَ بيعُكَ يَا أبَا الدحدَاحِ، ونقَلت منهُ متاعَها وصبيانَهَا».

وقدْ كانَ للمرأةِ دورٌ مُهمٌّ فِي حياةِ أئمَّةِ الإسلامِ، فقَد بذَلَت جهدًا عظيمًا، وتحملَتِ الصعَابَ مِن أجلِ أنْ تُخرجَ للأمةِ أولئِكَ النَّفرَ الصالحِينَ، الذينَ قدَّمُوا للإسلامِ منَ المآثرِ والعلومِ ما شكرَهُم عليهِ كلُّ مسلمٍ، وانتفَعَ فيهِ القاصِي والدَّانِي، حتَّىٰ كتبَ اللهُ لَهُم القبُولَ والانتشَارَ فِي كلِّ بقاعِ الأرضِ، وإنمَا كانَ بدايةُ الأمرِ يتمثَّلُ باهتمامِ امرأةٍ صَابرةٍ ناصحَةٍ تحملُ نيَّةً سليمَةً صالحَةً.

فهذِهِ أمُّ الإمامِ الشافعِيِّ رَحِمَهَاٱللَّهُ، قد مَاتَ زوجُهَا بعدَ أنْ وُلِدَ الشافعيُّ بزمنٍ يسيرٍ، فنشَأَ الشافعِيُّ يَتيمًا فِي حِجرِ أمِّهِ، فقَامَت عَليهِ أفضلَ قيَامٍ، ونصَحَت لهُ أتمَّ

(١) أخرجه ابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٥٤).
(٢) البقرة: ٢٤٥.

النصحِ، وحرَصَتْ عَلىٰ تنشئتِهِ تنشئةً صالحةً، فارتَحلَتْ بِهِ حينَ بلغَ عامَيْنِ منْ عمرِهِ مِن غزَّةَ -مَسقطِ رأسِ الشَّافعيِّ- إِلَىٰ مكَّةَ، لينهَلَ مِنَ العِلمِ، ويُقوِّمَ لسانُهُ، وتَستقيمَ لغتُهُ، فكانَ مِن ثمرةِ جهودِ تِلكَ المَرأةِ الصالحَةِ، أنْ أصبحَ إمَامًا مِن أئمَّةِ الإسلامِ.

ومِثلُها فعَلَت صفيةُ بنتُ عبدِ الملكِ الشيبانيَّةُ أمُّ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رَحِمَهَاٱللَّهُ، حيثُ إنهَا عاشَتْ فِي بيتٍ فقيرٍ، ولمَّا وَلدَتِ الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُٱللَّهُ، لَم تَلبَثْ حتَّىٰ ماتَ أبوهُ وهُوَ طِفلٌ، فتكفَّلَتْ هِي بتَربيَتِهِ، ورَعتْهُ حقَّ الرعايةِ، واجتهَدتْ فِي ذلكَ أيمَا اجتهَادٍ، وبذَلتْ مَا بوسعِهَا بإخلاصٍ دونَ كللٍ وَلَا مللٍ حتَّىٰ خرجَ هذَا الإمامُ الصالحُ، فحفَّظَتْهُ القرآنَ وعُمرهُ عشرَ سنواتٍ، وكانَت تُلبسُهُ اللباسَ، وتُوقظُهُ، وتحمِي لهُ الماءَ قبلَ صلاةِ الفَجرِ وهُوَ ابنُ عشرِ سنواتٍ، وتتخمَّرُ وتتغَطَّىٰ بحجابِهَا وتذهَبُ معهُ إِلَىٰ المسجدِ؛ لأنهُ بَعيدٌ.

قالَ أحمدُ: فلمَّا بلغتُ السادسةَ عشرَةَ مِن عُمرِي، قَالت لِي أمِّي: اذهَب فِي طلبِ الحديثِ، فإنَّ السفرَ فِي طلبِ الحديثِ هجرةٌ إِلَىٰ اللهِ الواحدِ الأحَد، فأعطَتنِي متاعَ السفرِ عَشرةَ أرغفَةِ شَعيرٍ، ووضَعَتْ معهَا صُرةَ مِلحٍ، وقالَتْ: يَا بنيَّ، إنَّ اللهَ إذَا استُودِعَ شيئًا لَا يضيعُهُ أبدًا، فأستودِعُكَ اللهَ الذِي لَا تَضيعُ ودائِعُهُ.

فكانَتِ النتيجةُ أنْ أصبحَ عالمًا محدثًا فقيهًا، وإمامًا مِن أئمةِ أهلِ السنةِ والجمَاعةِ، قَد نصرَ اللهُ بِهِ السنَّةَ وأقَامَ بِهِ الاعوجاجَ فِي أحلَكِ الظروفِ، حينَ انتشَارِ الفتنِ التِي عصَفَتْ بِهذِهِ الأمَّةِ.

وكانَ للمرأَةِ الصالحَةِ دورٌ عظيمٌ فِي حياةِ الإمامِ ابنِ حجرٍ العسقلَانيِّ -صاحبِ أنفسِ شرحٍ لصَحيحِ البُخاريِّ-، حيثُ كفَلتهُ أختُهُ، وقَامَت عليهِ أفضلَ قيامٍ، ونشَّأتْهُ عَلىٰ الصلاحِ والعِلمِ وحبِّ الخيرِ، واستطَاعَتْ أنْ تصنعَ منهُ بعدَ اللهِ عالِمًا مشهورًا، بالرغمِ مِن أنهَا ماتَتْ وهِي في سِنِّ الثامنةِ والعشرِينَ، فقَد رحَلَ والِدُها وعمرُهَا

يقاربُ العشرَ سنَواتٍ، وكانَتْ أمهَا قَد توفيَتْ قبلَ ذلكَ بمُدَّةٍ يَسيرَةٍ، فقَامَتْ عَلىٰ أخِيها، وتكَفَّلَتْ بتَربيتِهِ رَغمَ أنهَا كانَتْ تكبُرُهُ بثَلاثِ سنَواتٍ، واستطَاعَتْ أنْ تكُونَ لَهُ عونًا وسنَدًا وصاحبَةَ دَورٍ مؤثرٍ، وتمَكَّنَت أنْ تصنَعَ مِن أخيهَا الصغِيرِ مُحدثًا وعَالِمًا جليلًا لَا يزَالُ تَأثيرُهُ واضحًا فِي كلِّ مَن انتفَعَ بِهِ، وفِي ذلكَ يقُولُ ابنُ حجرٍ عنهَا: كانَتْ أمِّي بعدَ أمِّي، وقَالَ: كانَت بِي برَّةً رفيقَةً مُحسنَةً جزَاهَا اللهُ عنِّي خيرًا، فلَقَد انتفَعتُ بِها وبآدابِهَا معَ صِغرِ سِنِّها، ولمَّا رحَلَتْ عنِ الدنيَا كانَ ابنُ حجرٍ قَد بلغَ الدرجَاتِ العاليَةَ فِي العِلمِ وهُوَ لَم يتجاوَزِ الرابعَةَ والعِشرينَ.

وفِي زَمنِنا هذَا نجدُ أنَّ الشيخَ العلامةَ الفقيهَ عبدَ الرَّحمَنِ بنَ ناصرٍ السعديَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَد عاشَ يتيمَ الأبوَينِ، فقَد ماتَت أمُّه رَحِمَهَا ٱللَّهُ وهِي فِي طريقِ عودتِهَا مِنَ الحجِّ، ولَهُ مِن العمرِ أربعُ سنواتٍ، ثمَّ توفِّيَ والدُهُ ولَهُ مِنَ العُمرِ سبعُ سنواتٍ، فسَخَّرَ اللهُ زوجةَ أبيهِ الصالحَةَ رقيةَ العُريناَنِ القُرشيَّةَ، فكفَلتهُ وقَامَت عَليهِ أتمَّ قيامٍ وربَّتْهُ أحسَنَ تَربيةٍ، وحَنتْ عَليهِ حُنوَّ المُرضعاتِ عَلىٰ الفَطيم، فنشَأَ فِي ظلِّ حُنوِّهَا نشأَةً صالحَةً كريمَةً، وظهرَتْ عليهِ علاماتُ النبُوغِ وحُبِّ التعَلُّم منذُ الطفولَةِ، فحفِظَ القرآنَ الكريمَ وهُوَ فِي الثانيةَ عشرةَ مِن عُمرِهِ، ثمَّ انطلقَ يتعَلَّمُ العلومَ الشرعيةَ والعربيةَ عَلىٰ علمَاءِ بَلدتِهِ حتَّىٰ تفوقَ عَلىٰ أقرانِهِ؛ حِفظًا وفَهمًا، وأصبحَ لهُ القدرُ العَالِي فِي العلمِ والفَهمِ، بلْ وأصبحَ مُدرسًا يتحلقُ حولَهُ الطلابُ وهُوَ فِي الثالثةِ والعِشرينَ مِن عمرِهِ.

فكانَ لهذِهِ المرأةِ الصالحةِ الدورُ العظيمُ فِي تنشئتِهِ عَلىٰ الخيرِ والهُدَىٰ حتَّىٰ بلَغَ مَا بلغَ مِن العلمِ والنفعِ الذِي لَم يَزلْ مُستمرًا، وينتفعُ بهِ الخلائِقُ عبرَ الليالِي والأزمانِ.

وقَد كانَ العلامَةُ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ يَتيمًا، حيثُ توفِّي والدُهُ وهوَ فِي سنِّ الثلاثِ سنواتٍ، فنشَأَ يتيمًا فِي حِجْرِ أمِّهِ هيَا بنتِ عثمَانَ، فقَامَت برعايَتِهِ وتَربيتِهِ عَلىٰ

الأخلاقِ الفَاضلَةِ والآدابِ الحَميدَةِ، وحَرصَتْ عَليهِ أشدَّ الحرصِ، فكانَت تنتظرُهُ حتَّىٰ يعودَ مِن المسجدِ وتحثُّهُ عَلىٰ حضورِ الدرُوسِ، وقَد حضرَ دَرسًا فِي يومٍ شديدِ المطرِ لَم يَحضُرهُ غَيرُهُ، ولَم تَزلْ تَحثهُ عَلىٰ الخَيرِ حتَّىٰ توفِّيَتْ رَحِمَهَاٱللَّهُ والشيخُ ابنُ بازٍ فِي السَّادسةِ والعشرينَ مِن عمرِهِ، وقَد بلغَ مِن العِلمِ والذكرِ مَا لَا يخفَىٰ عَلىٰ أحدٍ.

ولَا زالَتِ المرأةُ الصالحَةُ فِي كلِّ عصرٍ وزمَانٍ، تجمِّلُ صفحاتِ المَجدِ بآثارِهَا المُباركةِ، وأفعالِهَا الجميلَةِ، وتَبعثُ روحَ الأملِ فِي الأمةِ بتَربيتِها لجيلٍ يغتبطُ بهِ كلُّ مَن عاصَرَهُ أوِ انتفَعَ بهِ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ عَلىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لهُ عَلىٰ توفيقِهِ وامتِنانِهِ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لهُ تَعظيمًا لشَأنِهِ سُبحانَه، وأشهدُ أنَّ نبينَا مُحمدًا عبدُ اللهِ ورسولُهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وبارَكَ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وأصحَابِهِ وإخوَانِهِ.

أمَّا بعدُ:

فالواجبُ علَىٰ المرأةِ الصالحةِ أنْ تعلمَ مقدارَ المسؤوليةِ الملقاةَ علَىٰ عاتقِها، فإنَّ النساءَ مصانعُ الرجالِ، ومِن فجرِ تاريخِ الإسلامِ والمرأةُ المسلمةُ قَد ضربَتْ أروعَ الأمثلةِ فِي التضحيةِ والبذلِ والعطاءِ؛ ليخرجَ لنَا جيلٌ كانَت ولا زَالت تفخرُ بِهِم الأمةُ، وتعلُو عِندَ ذِكرِهِم الهمَّةُ، فحَريٌّ بنساءِ أمتِنا فِي هذهِ العصورِ أن يسلُكنَ سبيلهُنَّ ديانَةً وصَلاحًا وإصلاحًا.

والواجبُ عَلىٰ المرأةِ الكريمةِ أن تعرفَ مقدارَ المكرِ الذِي يستحدثُهُ الأعداءُ فِي

كلِّ يومٍ، بحجةِ إعطائِهَا الحريةَ وتخليصِهَا من تسلطِ الرجلِ، فيشوشُون أفكارَهَا، ويسرقونَها من أسرتِها، حتَّىٰ إذَا أفلسَتْ مِن كلِّ شيءٍ، وعاينَتِ الحقيقةَ، ألقوهَا عَلىٰ قارعةِ الطريقِ وقَد أصيبَتْ فِي مقتلٍ، فبقيَتْ تتأوهُ مِنَ الجراحِ الداميَةِ، لَا تَدرِي أينَ تذهبُ ولَا أينَ تسيرُ، فلَا بالتِي تستطيعُ أن تُكمِلَ الطريقَ وقد عايَنتِ الخَطرَ، ولَا بالتِي تستطيعُ الرجُوعَ وقَد رفضَها المجتمَعُ الذِي كانَت تعيشُ فيهِ سعيدةً هانئَةً.

فالحذرَ الحذرَ مِن أهلِ الأفكارِ الزائغَةِ، عبيدِ الغربِ والشهوَةِ أنْ يجرفُوها إلَىٰ حظيرةِ الذلِّ، ومستنقعاتِ الأفكارِ الضَّحلةِ، التِي تبدُو في ظاهرِهَا لامعَةً، وفِي داخلِها يقطنُ السمُّ القاتلُ الزعافُ، الذِي لَا يزالُ يستشرِي بالفضيلةِ حتَّىٰ يقتلَهَا، فتنهارَ عَلىٰ إثرِ ذلكَ الأممُ، وتنعدِمُ المبادئُ والأخلاقُ والقِيمُ.

❊❊❊

(٦٤) الاهتمامُ بتربيةِ الأبناءِ

الحمدُ للهِ فتحَ بابَهُ للطَّالِبينَ، وأظهَرَ غِناهُ للراغبينَ، وبسطَ يدَهُ للسَّائِلينَ، قصدَتْهُ الخلائقُ بحاجَاتِها فقضَاهَا، وتوجَّهَتْ لهُ القُلوبُ بلهفَاتِها فهَدَاهَا، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، أرسلَهُ ربُّهُ رحمَةً للعَالمِينَ، وحجَّةً علَىٰ العبادِ أجمعينَ، فهدَىٰ اللهُ بِهِ منَ الضلالَةِ، وبصَّرَ بِهِ منَ الجهالَةِ، صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الأبناءَ هبةٌ منَ اللهِ، تبتهجُ بهِمُ الحياةُ، وتَستأنسُ بهمُ القلوبُ، وتستلذُّ بهِمُ النفوسُ، وهذِهِ فطرةٌ جعلَهَا اللهُ فِي قلوبِ الخَلقِ، ولَا يَعلمُ حَقيقتَهَا إلَّا مَن جرَّبَ الأبوةَ أوِ الأمومَةَ، فإذَا أصبحَ فِي هذِهِ الحالِ علِمَ مقدارَ هذِهِ النعمَةِ، ولَا أدلَّ علَىٰ ذلكَ مِن قولِ اللهِ تعَالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(١).

ومَن جرَّبَ الحرمانَ علمَ معنَىٰ الفَقْدِ، ومَنِ ابتُلِيَ بفراقٍ لَا لقاءَ بعدَهُ علمَ مقدارَ الوحشَةِ، ومِن أجلِ ذلكَ تَجدُ مَن تأخَّرَ إنجابُهُ وقَد سارعَ إلَىٰ طَرْقِ أبوابِ الأطبَّاءِ والمُعالجينَ، طمعًا فِي أنْ يُرزقَ بابنٍ أو ابنَةٍ يكونَانِ لهُ أُنْسًا، ليفيضَ بعدَ ذلكَ رقَّةً وحنَانًا.

ومِن فوائدِ وجُودِ الأبناءِ أنَّهُم يُمثِّلونَ قوَّةً قادرَةً علَىٰ تَغييرِ الوَاقعِ، والتحكُّم فِي

(١) الكهف:٤٦.

النفسيَّاتِ، وإعادَةِ ترتيبِ البُيوتِ، وإنْ كانَ ذلكَ بصورَةٍ غير مباشرةٍ، فقَطْ لدخُولِهِم ضمنَ أفرادِ الأسرَةِ، فوجودُهُم سببٌ لتَغْيير واقعِ مَن حولَهُم وطريقَةِ حياتِهِم، ومِن أجلِ هؤلاءِ الأبناءِ تَرىٰ كثيرًا منَ الأزواجِ وقَد عظمَ صبرُهُ عَلىٰ شريكِهِ رَغمَ أنَّهُ لَا يطيقُ العيشَ معَهُ، خَوفًا علَىٰ ضياعِ الأبناءِ وتَشتتِهِم.

ومِن أجلِ أنْ يكتملَ الفرحُ بهَؤلاءِ الأبناءِ، لا بُدَّ مِن بذلِ الجهدِ حتَّىٰ يكونُوا صالحِينَ حَقًّا، فعَلَىٰ قدرِ الصَّلاحِ تكونُ الثمرَةُ، وعَلىٰ قدرِ الجهدِ يُحمَد السَّعيُ.

إنَّ الاهتمامَ بتربيةِ الأبناءِ ليسَ لغايةٍ مجردَةٍ، أوْ أنهُ عملٌ وظيفيٌّ يجبُ عَلىٰ المرءِ أنْ يُؤديَهُ عَلىٰ الوَجهِ الأكمَلِ دونَ خَللٍ؛ بَل الأمرُ أعظمُ مِن ذلكَ، فهُو يعنِي أنَّ هناكَ مستَقبلًا مشرِقًا ينتظرُنَا إنْ أحسَنَّا سلوكَ الطَّريقِ، والتَمسنَا الأسبابَ المُؤدية إلَىٰ النجاحِ، كمَا أنهُ يُورثُ الشعُورَ بالاغتباطِ حِينمَا نرَىٰ فلذَاتِ الأكبادِ وقَد تجاوَزُوا مراحِلَ الحياةِ الغامضَةِ حتَّىٰ بلغُوا المَرافئَ الآمنَةَ، وابتعدُوا عَن مواطِنِ العَطَبِ إلَىٰ أماكنِ السلامَةِ، فنفرحُ بوصُولِهِم آمِنينَ، ونغتبِطُ لرُؤيتِهِم نَاجحينَ، يَعرفونَ التعامُلَ معَ الأحداثِ، ويُحسِنُونَ مُعالجةَ الوَقائعِ.

وعليهِ فَلا بُدَّ أنْ يتأمَّلَ المَرءُ فِي الثمراتِ المُبهرةِ التِي يجنِيهَا إنْ أحسنَ تربيةَ أبنائِهِ، فهذَا كَفيلٌ بأنْ يجعلَهُ شديدَ الاهتمَامِ بذلِكَ، فيقومُ بهذِهِ المهمةِ وهُوَ فِي غايةِ السعَادَةِ، بالرَّغمِ ممَّا يعترِيهَا مِن المشقَّةِ والمُعوِّقاتِ؛ طمعًا فِي الحصُولِ علَىٰ ثمرَةِ عمَلِهِ، وحَصيلَةِ جهدِهِ ومثابرتِهِ.

فمِن ذلكَ: مَا استقرَّ فِي النفوسِ أنَّ الأبناءَ زينَةُ الحياةِ الدنيَا، يستأنِسُ بهِمُ المرءُ فِي صغرِهِم، ويَملؤونَ حياتَهُ فِي كبَرِهم، ويُعينونَهُ عَلىٰ الإشباعِ العاطفِيِّ والنفسيِّ المُتمَثِّلِ فِي حاجَةِ المرءِ إلَىٰ الاجتمَاعِ، ويَسُدُّونَ الفراغَ القَلبيَّ الذِي يحتاجُ كلُّ شخصٍ إلَىٰ مَلْئِهِ، ولا يَملؤُهُ إلَّا صنفٌ واحدٌ منَ البَشريَّةِ وهُم الأبناءُ، ولذلِكَ قالَ تعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ

وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(١)]، فمعهُم تطوِي المراحِلَ، وتبلغُ الغايةَ، وتتشبعُ مِنَ العاطفَةِ التِي كلمَا كَبر سنُّكَ كُنتَ إليهَا أحوَجَ، ولَكِن لَن تصِلَ إلَىٰ هذِهِ الأهدافِ إلَّا بأبناءٍ قَد هُذِّبُوا ورُبُّوا تربيَةً ناجحَةً، فعَظُمَت بهِمُ الفرحَةُ، وكَبرَ بهِمُ الأنسُ.

ومنهَا: أنَّ صلاحَ الأبناءِ وتَحسينَ تَربيتِهم، تَحقيقٌ للفطرَةِ القابعَةِ فِي قلبِ كُلِّ أحدٍ، حيثُ يحبُّ أنْ يكُونَ ابنُهُ مُقدَّمًا، سَابقًا لأقرَانِهِ، مُتميزًا عَن أصحَابِهِ، فيزدَادُ الوَالدُ بِهِ فَخرًا، ويَنتَشِي فرحًا أنْ حققَ ابنُهُ هذِهِ المَنزلةَ، قَالَ تعَالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾[(٢)].

وقَد جاءَ فِي السنةِ النبويَّةِ مَا يؤيدُ هَذا المَعنَىٰ منَ الفرحِ بتقدُّمِ الابنِ وظهُورِ تَميزِهِ ونَجابَتِهِ، فقَد جاءَ فِي حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهُ قالَ: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إنَّ مِنَ الشجَرِ شَجرَةً لَا يسقُطُ ورَقُها، وإنهَا مثلُ المُسلمِ، فحَدِّثونِي مَا هِيَ؟** فوقَعَ الناسُ فِي شجرِ البادِيَةِ، ووقَعَ فِي نفسِي أنهَا النخلَةُ، فاستحيَيتُ، فقَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أخبِرنَا بهَا، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنهَا النَّخلَةُ**. فحدَّثتُ أبِي بمَا وقعَ فِي نفسِي، فقالَ: لأنْ تكونَ قُلتَها أحبُّ إليَّ مِن أنْ يكونَ لِي كذَا وكذَا»[(٣)].

فقولُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأنْ تكونَ قُلتَها أحَبُّ إليَّ مِن كذَا وكذَا»، فيهِ بيانٌ لمَا طُبعَ عليهِ الإنسانُ مِن مَحبةِ ظهُورِ نجابَةِ ابنِهِ وفَضيلتِهِ فِي الفَهْمِ مِن صِغَرِه، وقَد كانَتِ العَربُ تَقولُ: «مَن أدَّب ابنَهُ أرغَمَ أنفَ عَدُوِّه»، وذلكَ لأنَّ هذَا الشيءَ ميدانٌ للمُفاخرةِ، وبحُسنِ التربيةِ يتميزُ الشخصُ عنْ غيرِهِ، ويكسبُ مِن محاسِنِ الصفَاتِ مَا فاتَ عَلىٰ الآخرينَ كَسبُهُ، ويحققُ منَ الثمراتِ مَا يكونُ سَببًا فِي رِفعتِهِ والرجُوعِ عَلىٰ

(١) الكهف: ٤٦.
(٢) الحديد: ٢٠.
(٣) رواه البخاري (١٣١)، ومسلم (٢٨١١).

مُرَبيهِ بالثنَاءِ.

وممَّا يدفعُ المَرءَ إلَىٰ الاهتمامِ بتربيَةِ أبنائِهِ: أنْ يُوقنَ الوالدُ أنَّ هذَا الابنَ قطعَةٌ منهُ، وانعكاسٌ لشخصِهِ، فإنَّ ذَلكَ ممَّا يدعُوهُ لأنْ يجتهِدَ أعظمَ الاجتهادِ فِي إحسَانِ تربيتِهِ، وتَقويمِ سُلوكِهِ، وأنْ يُحققَ فِيهِ مِنَ الأهدافِ مَا كانَ يأمُلُ أنْ يُحقِّقَهُ فِي نَفسِهِ لكنَّهَا فاتَتْهُ، أو أنهُ كانَ قادِرًا علَىٰ تحقيقِهَا لكِنْ حالتْ دُونَهَا الحَوائلِ، وقَد قيلَ:

إنَّ فِـي عَينَـيكَ تَـبدُو صُـورَتِي ... يَـا صَـغِيرِي فَـأَرَىٰ فِـيكَ أنَـا
وأرَىٰ فِـيكَ حيَاتِـي كُلَّهَـا ... مِـن تَـباريحَ وشَـجوٍ ومُنَـىٰ
وأرَىٰ دُنـيَايَ فِـيكَ ابـتَدَأَت ... مِـن جَدِيـدٍ باخـضِرَارٍ وسَـنَا
فَـإذَا وَلَّـىٰ زَمَانِـي وانطَـوَىٰ ... بِـكَ إنِّـي قَـد مَـدَدْتُ الـزَّمَنَا

فينبَغِي أنْ يجعلَ الوالدُ هذِهِ النظرَةَ مِن مُنطلقاتِهِ نحوَ تربيَةِ أبنَائِهِ، فَالابنُ امتدادٌ للأبِ والأمِّ، ومنَ المَعلومِ فِطريًّا أنَّ المرءَ لَا يحبُّ أنْ يتفوَّقَ عليهِ أحَدٌ فِي بلوغِ هدفٍ إلا ابنَهُ، فتجدُهُ دائمًا يحبُّ أنْ يراهُ أفضلَ منهُ، وأن يَرَىٰ فيهِ مَا لَم يَرَهُ فِي نَفسِهِ، وأنْ يُحَققَ مِن خلالِهِ الأهدافَ التِي لَم يستَطِعْ تَحقيقَهَا، أَو قصرَتْ عنهَا همتُهُ، أوْ لَم تتوفَّر لهُ الظروفُ المحيطَةُ التِي تساعدُهُ عَلىٰ الوصولِ إلَىٰ مَا يُريدُ.

ومِنهَا: أنْ تعلمَ أنكَ إذَا أحسنتَ تربيَةَ الابنِ فقَد شقَقتَ لهُ الطريقَ، وميَّزتَ لهُ علاماتِ السَّيرِ، حتَّىٰ يصلَ إلَىٰ منتهَىٰ الطريقِ الذِي خططْتَهُ لهُ، ويفرَحُ حينَ بُلوغِهِ، ويشكُرُكَ عَلىٰ أنْ بَلغتَ بِهِ هذَا المَبلغَ، وكُلما كبرَ سِنُّهُ ورَأىٰ فِي نفسِهِ نجاحَ شَخصِهِ، علِمَ مِقدارَ الفَضلِ الذِي قدَّمتَهُ لَهُ، وشَديدَ العنَاءِ والجهدِ الذِي بَذلتَهُ مِن أجلِ أنْ يصِلَ إلَىٰ هذَا المَقامِ، ولَيسَ المقَامُ مقَامَ ثَروَةٍ، أَو عَيشٍ رغدٍ، بقَدرِ مَا هُو أنكَ علَّمتَهُ كيفَ يعيشُ مُتَّزنًا فِي عَالمٍ مُتلاطمِ الأمواجِ، مُتباعدِ الآراءِ، مُختلفِ الأفكارِ والاتجاهَاتِ.

ومعَ ذلكَ فأنتَ معَ اجتهادِكَ فِي تَحسينِ تَربيتِهِ، سيتحَمَّلُ عنكَ هذَا الابنُ كثيرًا منَ المَسؤولياتِ، وسيخفُّ عليكَ الحِمْلُ، خُصوصًا معَ تقدُّمِ العمرِ وضَعفِ القوةِ، فتحتَاجُ إلَىٰ مَن يُقاسمُكَ الجهدَ، ويُنحِّي عنكَ بعضَ التكاليفِ والمَسؤولياتِ.

عَلىٰ أنهُ وممَّا يجبُ أن يُنتبَه لَهُ: أنهُ ليسَ مَعنَىٰ أنْ يتحملَ الابنُ بعضَ المَسؤولياتِ المتعلقَةِ بِكَ، أنْ تخرِجَهُ مِن إطارِ طفولتِهِ ومراحِلِ حياتِهِ، فالاعتدَالُ فِي هذَا الأمرِ مطلوبٌ، ومِن الاستقرارِ النَّفسيِّ للابنِ: أنْ يعيشَ مراحلَ حياتِهِ ويتذوَّقَ شَيئًا مِن ثمارِ الزمنِ الذِي يعيشُ فيهِ.

وممَّا يدفعُ إلَىٰ حسنِ التربيَةِ: معرفةُ المربِّي أنَّ هذَا الابنَ سيُصَاحبُهُ فترَةً محددةً بزمنٍ مهمَا طالَ أوانُهُ، ثمَّ لَا تبرحُ الابنةُ أنْ تتزوَّجَ وتَعيشَ فِي كنَفِ شخصٍ آخرَ، والولدُ يستقِلُّ بحياتِهِ، فإذَا أحسَنَ التربيَةَ خرجَ بثمرةِ تعبِهِ ونتيجَةِ سعيِهِ، ثمَّ مِن جانبٍ آخرَ يكونُ قدْ قدَّمَ لهُم الخدمةَ التِي لا تُنسَىٰ عَلىٰ مرِّ السنينَ وتقادُمِ الأعوامِ، وذلكَ بتعليمِهِ إياهُم كيفَ يُواجهُونَ الحياةَ، ويتعامَلونَ مَعَ الأحداثِ والخَلْقِ علىٰ اختلافِ أنواعِهِم ومَشارِبِهم، فيَعرفونَ فضلَهُ الكبيرَ عَلَيهم، ويَشكُرونَ صَنيعَهُ نَحوَهُم.

ومِن أعظمِ أسبابِ التربيةِ الناجحَةِ التِي يقومُ بهَا الوَالدُ: أنْ يربيَ أولادَهُ عَلىٰ الصلاحِ، وفِي ذلكَ يُقدِّمُ إلَىٰ المُجتمعِ هديةً عظيمَةً، تحفظُ الاتزانَ، وتنتجُ الثمارَ اليانعةَ التِي لَا ينقطعُ نَفعُها، وأعظمُ مِن ذلكَ أنْ يقدمَ لنفسِهِ عملًا عظيمًا، كبيرَ النفعِ، عظيمَ الأجرِ، يعرفُ قَدرَهُ حينَ لقاءِ ربِّهِ، حيثُ يجدُ لنفسِهِ أجرَ عملٍ لم يَكسبْهُ فِي حياتِهِ، ولَم يَسعَ للحصولِ عليهِ فِي ذاتِهِ، ومعَ ذلكَ وجدَ أجرَهُ محفُوظًا، فقَد جاءَ فِي حديثِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ليَرفَعُ الدرجةَ للعبدِ الصالِحِ فِي الجنةِ، فيقولُ: يَا رَبِّ أنَّىٰ لِي هذَا؟ فيقُولُ: باستغفَارِ ولَدِكَ لَكَ**»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦١٧).

فلمَّا أحسنَ الوالدُ تربيَةَ ابنِهِ، وقوَّمَهُ عَلىٰ الصلاحِ مُتقربًا بذلكَ للهِ ربِّ العالمِينَ، جزاهُ اللهُ أنْ جعلَ عملَهُ مُستمرًّا، وأجرَهُ مُستقرًّا، بسبَبِ عملِ هذَا الابنِ الصالحِ، الذِي أحسَنَ الوالِدُ تَربيتَهُ؛ حيثُ ربَّاهُ عَلىٰ الصلاحِ، وقادَهُ صَلاحُهُ أنْ بَرَّ بوالدَيْهِ بالدعَاءِ والاستغفَارِ، فَثَقَّلَ اللهُ مَوازينَ والدَيهِ بعَملِهِ، وهذِهِ مِنَ الثمراتِ التِي يجبُ أنْ ينبَّهَ إلَيهَا الناسُ، فقَد لَا يكونُ الوالدُ ذَا عمَلٍ صالحٍ كبيرٍ، ويُرزَق بولدٍ صالحٍ، فالواجبُ عليهِ أنْ يُعينَهُ عَلىٰ صلاحِهِ، ويوفرَ لهُ أسبابَ التمسُّكِ بالهدايَةِ، ويتيقَّنَ أنَّ هذَا الابنَ كنزٌ مُدَّخرٌ، وأجرٌ لَا ينقطِعُ، ورحمَةٌ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أُهدِيَت إلَيهِ، فلا بُدَّ أن يتلقَّاهَا بالشكرِ، وأعظمُ أبوابِ الشكرِ: إعانةُ الابنِ عَلىٰ مَا يكونُ فيهِ صَلاحُ حالِهِ واستقامَتِهِ.

وعليهِ، فالواجبُ عَلىٰ الوالدِ أنْ يجعلَ أبناءَهُ فِي الدرجةِ الأولَىٰ مِن اهتماماتِهِ، فهُمْ مَن سيفقدُهُ عندَ رحيلِهِ، ويذكرونَهُ فِي دعائِهِم، وعَلىٰ قَدرِ البَذلِ مِن قبَلِ الآباءِ تتحققُ النتيجَةُ مِنَ الأبناءِ، وَالمُوَفِّقُ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسلامُ عَلىٰ رسُولِهِ وعبدِهِ، نبينَا مُحمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن استنَّ بسنتِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ، واهتَدَىٰ بهَديِهِ.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ قضيةَ تربيةِ الأبناءِ ليسَت قضيةً سهلةً؛ لأنكَ تتعاملُ معَ شخصياتٍ مختلفَةٍ مجتمعةٍ فِي شخصٍ واحدٍ، مَا بينَ فترةٍ وفترةٍ تجدُ لهُ شخصيةً مغايرةً، وطِباعًا مختلفةً، وأنتَ مُلزمٌ أنْ تتعايشَ معَ هذِهِ الشخصيَّاتِ سريعَةِ التطورِ والمُتغيراتِ، مُتقلِّبةِ الطبَاعِ.

ومعَ ذلكَ فيجبُ عَلىٰ المربِّي أنْ ينتبهَ إِلَىٰ طورِ النشأةِ فِي حياةِ الأبنَاءِ ودَورِهِ فِي التربيةِ، وألَّا يُستَهَانَ بهذِهِ المرحلةِ؛ لأنَّ الابنَ فِي أولِ نُشوئِهِ أسهلُ انقيادًا، وأسرعُ استجابَةً، كالأرضِ المُجَهَّزةِ للزراعَةِ، إنْ أصابَهَا ماءٌ نفَعَ، وإنْ وضعَ بهَا بذرٌ أينَعَ، والصبيُّ فِي حالِ نُشوئِهِ خُلِقَ قَابلًا للخيرِ والشرِّ جَميعًا، وإنمَا أبوَاهُ يَميلانِ بِهِ إِلَىٰ أحدِ الجانبَينِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مولودٍ يولَدُ علَىٰ الفِطرةِ، وإنمَا أبوَاهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنصِّرانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

فمَن أحبَّ أن يُحمَدَ سَعيُهُ بعدَ طُولِ زمنٍ، فَلْيهتَمَّ بمراحِلِ الطفلِ الأولَىٰ؛ فيَزرعُ فيهِ مَا استطاعَ منَ الآدابِ والسلوكيَّاتِ؛ لأنَّ هذِهِ المَرحلةَ هِي مرحلَةُ التأسيسِ والانطباعِ الذهنيِّ لدَىٰ الأطفَالِ، فتجدُهُم يحفَظُونَ مَا يُلقَىٰ إليهِم، ويستجِيبُونَ لمَا يؤمَرونَ بِهِ، كمَا أنَّ هذِهِ المَرحلةَ تتطلبُ منَ الآباءِ الحذَرَ مِن تربيَةِ أبنائِهِم عَلىٰ المُتَناقضَاتِ القوليةِ والفعليةِ؛ لأنَّ ذلكَ سيؤدِّي إِلَىٰ اضطرَابِ طبَاعِهِم، وتعقيدِ أفهَامِهِم، فيعيشُونَ فِي حالةٍ من التذبذُبِ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أهملَ تعليمَ ولدِهِ مَا ينفعُهُ، وترَكَهُ سدًىٰ، فقَد أساءَ غايةَ الإساءةِ، وأكثَرُ الأولادِ إنمَا جاءَ فسادُهُم مِن قِبَلِ الآباءِ وإهمالِهِم لهُم، وتَركِ تعليمِهم فرائضَ الدِّينِ وسُنَنَهُ، فأضاعُوهُم صِغارًا، فلَم ينتفِعُوا بأنفُسِهم، ولم ينفَعُوا آباءَهُم كبَارًا، كمَا عاتبَ بعضُهُم ولدَهُ علىٰ العقوقِ، فقالَ: يَا أبتِ، إنكَ عققْتَنِي صغيرًا فعقَقْتُك كَبيرًا، وأضعْتَني وليدًا فأضَعْتُك شيخًا».

وقالَ: «ومَا يحتاجُ إليهِ الطفلُ غايةَ الاحتيَاجِ، الاعتناءُ بأمرِ خُلُقِهِ، فإنهُ ينشَأُ عَلىٰ ما عوَّدَهُ المُربِّي فِي صغرِهِ، مِن حردٍ وغضَبٍ، ولجاجٍ وعجلَةٍ، وخفةٍ معَ هوَاهُ، وطيشٍ

---

(١) رواه مسلم (١٣٥٨).

وحدَّةٍ وجشعٍ، فيصعبُ عليهِ فِي كبرِهِ تلافِي ذلكَ، وتصيرُ هذهِ الأخلاقُ صفاتٍ وهيئاتٍ راسخَةً لهُ، فلَو تَحرَّزَ منهَا غايةَ التحرُّزِ فضحَتهُ ولا بُدَّ يومًا مَا، ولهَذا تجدُ أكثرَ الناسِ منحرفةً أخلاقُهُم، وذلكَ مِن قِبَلِ التربيَةِ التِي نَشأَ عليهَا».

هذَا وليُعلَمْ أنهُ مَهمَا بذلَ المرءُ منَ الأسبابِ لكَي يُحقق ثمرَةً صالحةً لا بُدَّ أنْ يتيقَّنَ أنَّ مَا يبذُلُهُ مِن الأمورِ العَمليةِ والأسبَابِ المَاديَّةِ إنمَا هُوَ مِن بابِ بَذلِ السَّببِ فقَط، وفِي آخرِ المَطافِ وعَلىٰ كلِّ الأحوالِ، فإنَّ هذَا السَّببَ أو ذَاكَ، إنْ لَم يكتبِ اللهُ لهُ النجاحَ فلَن يُقدِّمَ ولن يُؤَخِّرَ.

ومِن هنَا يَعرفُ المَرءُ ويُوقنُ بحاجتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ وخالِقِهِ وفقرِهِ إليهِ، وأنهُ لَا يَستَغنِي عَن تَوفيقِ اللهِ لهُ ولَو للحظَةٍ، فقَدْ تُطَبِّقُ بعضُ البيوتِ جَميعَ القواعدِ التربويةِ، ومَعَ ذلكَ لَا تحصلُ عَلىٰ الثمرَةِ التِي كانَت تأمُلُ أنْ تَقطفَهَا، وتجدُ بُيوتًا أخرَىٰ لَم تَقُمْ عَلىٰ قواعدَ تَربويةٍ مَرسومَةٍ، بَل وربمَا كانتِ الظروفُ لَم تساعِدِ الوالدَ عَلىٰ الحصولِ عَلىٰ مُبتَغاهُ، ومعَ ذلكَ يخرجُ مِن هذَا الواقعِ المُشَتَّتِ ثمرةٌ جَنيَّة، ونبتةٌ صالحَةٌ، لحِكمةٍ يُريدُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أو جَزاءٍ عَلىٰ فِعلِ مَعروفٍ، أو صلاحِ وَالدٍ.

كمَا يجبُ عَلىٰ المُربِّي أن يعرفَ أنهُ لنْ يحققَ أهدافَهُ حتَّىٰ ينفقَ مِن جميلِ أيامِهِ، ويكونَ قدوةً عمليَّةً أكثرَ مِن التنظِيرِ، ويتوقَّعُ أنهُ ربمَا لَن تَظهرَ تلكَ النتائجُ التِي كانَ يطمعُ بهَا عَلىٰ الأبناءِ، لكِن يكفِيهِ أنهُ كانَ مُربيًا ناجحًا، قامَ بدورِهِ عَلىٰ الوجهِ المطلوبِ، أمَّا حصولُ النتائجِ فهذَا أمرٌ لَا يملكُهُ، فهذَا رزقٌ منَ اللهِ ومَحضُ امتنانٍ منهُ سُبحانَهُ.

❊❊❊

(٦٥) مِن آدابِ الطعامِ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ فسَوَّىٰ، وقدَّرَ فهَدَىٰ، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ أعطَىٰ كلَّ شيءٍ خلقَهُ ثُمَّ هدَىٰ، لَا تُحصَىٰ نِعمُهُ عَدًّا، ولَا نُطيقُ لهَا شُكرًا، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ النبيُّ المُصطفَىٰ والخَليلُ المُجتبَىٰ، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وَعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ ومَن عَلَىٰ النهجِ اقتَفَىٰ، وسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ عَلىٰ المسلمِ أنْ يحمدَ اللهَ تعَالىٰ عَلىٰ مَا خصَّهُ بهِ مِن أنواعِ النِّعَمِ، وامتنانِهِ عَلَىٰ عبادِهِ حيثُ أباحَ لَهُم الأكلَ والشرابَ مِن سائرِ الأصنافِ، وسهَّلَ لهُم سبيلَ ذلكَ ويَسرَهُ، قالَ تَعالىٰ: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ وَلَا تُسۡرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ**﴾[1]، وقالَ تعَالىٰ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا**﴾[2].

هذَا وممَّا يُستحسَنُ ذِكْرُهُ وإيرادُهُ: آدابٌ متعلقةٌ بالولائمِ والأطعمةِ، ينبغِي العَملُ بهَا التماسًا للأجرِ، ومراعاةً للأعرافِ العامَّةِ المَقبولةِ.

فممَّا ينبغِي الإتيانُ بهِ مِن هذِهِ الآدابِ قَولُه: «بِاسمِ اللهِ» عندَ الأكلِ والشربِ، حيثُ أمرَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلِكَ، فقالَ لعُمرَ بنِ أبِي سلمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**يَا غُلامُ، سمِّ اللهَ**»[3]، وجَاءَتْ جاريةٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كأنَّها تُدفعُ، فذهبَتْ لتضعَ يدَهَا فِي الطعامِ، فأخذَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بيدِهَا، وقالَ: «**إنَّ الشيطانَ يستحِلُّ الطعامَ**

---

(١) الأعراف:٣١.

(٢) البقرة:٢٩.

(٣) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

أَلَّا يُذكرَ اسمُ اللهِ عَليه، وإنهُ جاءَ بهذِهِ الجاريَةِ ليَستحلَّ بهَا فأخذتُ بيدِهَا»[١].

ويحسُنُ بهِ أنْ يسمِّي جهرًا مِن أجلِ أنْ يتعلَّم منهُ غيرُهُ، ومِن أجلِ إعلانِ هذَا الذكرِ الذِي يُطرَدُ بهِ الشيطانُ.

وَلَو أنَّ جماعةً بدأوا بالأكلِ جَميعًا، فإنهَا تَكفِي تسميةُ أحدهِم، ولا يلزَمُ أنْ يسميَ كلُّ إنسانٍ بنَفسِهِ، والأفضلُ أنْ يسمِّيَ كلُّ إنسانٍ بنَفسِهِ.

ويسنُّ لمَن فرغَ مِن طعامِهِ أنْ يحمدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فيقُولُ: الحمدُ لله؛ لقولِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ ليَرضَىٰ عنِ العبدِ يأكلُ الأكلةَ فيَحمدُهُ عَليهَا، ويشرَبُ الشرْبَةَ فيحمَدُهُ عَليهَا**»[٢].

ويكونُ الحمدُ عندَ الفراغِ منَ الطعامِ نهَائيًّا، وليسَ عندَ كلِّ أكلةٍ أو شَربَةٍ.

وينبَغِي لهُ أن يَغسلَ يَديهِ قَبلَ الطعامِ إذَا كانَ لذلكَ حاجَةٌ، كمَن لمَسَ شَيئًا تلوَّثَتْ بهِ يدُهُ، أو كثرَ سلامُ الناسِ عَليهِ، أو وجَدَ رائحةً كريهَةً، ومَا أشبَهَ، فإذَا لَم يكُنْ هناكَ سببٌ لغَسلِهَا، فلَا حاجَةَ لذلِكَ.

ومنَ الأدبِ إذَا جلسَ معَهُ أحدٌ علَىٰ الطعامِ وكانَ الطعامُ صِنفًا واحدًا، أنْ يأكلَ ممَّا يَليهِ، لقولِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمرَ بن أبِي سلمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**وَكُل ممَّا يَليكَ**»، ولأنَّ هذَا منَ المروءَةِ والأدبِ، أمَّا إذَا كانَ وحدَهُ فلَهُ أنْ يأكلَ مِن أيِّ جانبٍ، ولكِنْ لَا يأكُلُ مِن أعلَىٰ الصَّحنِ؛ لأنَّ البركَةَ تنزلُ فِي أعلَاهُ، فقَد أتِي النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقَصعةٍ مِن ثَريدٍ فقَال: «**كلُوا مِن جوانِبِهَا ولَا تأكلُوا مِن وسطِهَا؛ فإنَّ البركةَ تنزلُ فِي وسطِهَا**»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٣) رواه أحمد في «المسند»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٠٢).

أَمَّا إذَا كانَ الأكلُ أنواعًا، فَلا بأسَ أنْ يأخذَ ممَّا لَا يَليهِ، وقَد جَاءتِ السنَّةُ بذَلك، فعَن أنسِ بنِ مَالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: «إنَّ خياطًا دعَا رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لطعامٍ صنعَهُ، فقرَّبَ إلىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خبزًا مِن شعيرٍ ومرقًا فيهِ دُبَّاءٌ وقديدٌ، فرأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتتبعُ الدباءَ مِن حوَالَي الصحفَةِ»[(١)].

ومن السنةِ الأكلُ باليمينِ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمرَ بنِ أبي سلمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**كُل بيَمينِكَ**»[(٢)]، والأكلُ باليمينِ واجبٌ، لنَهي النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنِ الأكلِ بالشمالِ، حيثُ قالَ: «**لَا يَأكلْ أحدٌ بشِمالِهِ، ولَا يَشرَبْ بشمَالِهِ، فإنَّ الشيطَانَ يأكلُ بشمَالِهِ ويشرَبُ بشِمالِهِ**»[(٣)].

والأكلُ أو الشربُ بالشِّمالِ منَ الأمورِ المُستهجنَةِ، وقَد ابتُلِيَ المجتمعُ بأُناسٍ منَ المسلمينَ يظنونَ أنَّ الأكلَ بالشمالِ نوعٌ منَ التمدُّنِ والحضَارَةِ، فتجِدُ أحدَهُم يمسِكُ السكينَ بيَمينِهِ والشوكَةَ بشِمالِهِ، فيقطعُ الطعامَ بالسكينِ، ثُمَّ يتناولُهُ عنْ طريقِ الشوكةِ بالشمالِ، أو أنْ يجعلَ تناولَ الطعامِ أيًّا كانَ نوعُهُ بالشمَالِ عادةً مستمرَّةً لَهُ، وإنمَا اكتسَبُوا هذا الفِعلَ المُنكرَ منَ الكفارِ، وإذا نُصحِ أحدُهُم بأنْ يأكلَ بيَمينِهِ ضاقَ صدرُهُ وتمعَّرَ وجهُهُ مُستكبرًا، وكأنَّهُ قَد أُمرَ بمُنكرٍ، وقَد قالَ سلمةُ بنُ الأكوَعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ رجُلًا أكلَ عند رسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشمالهِ، فقالَ: **كُل بيمينِكَ**، قالَ: لَا أستطيعُ، قالَ: **لَا استطعْتَ**، ما منعَهُ إلا الكبرُ، فمَا رفعَها إلَىٰ فيهِ»[(٤)].

وينبغِي أنْ يأكلَ الطعامَ بثلاثِ أصابِعَ إنْ أمكنَ: الإبهَامُ، والوسطَىٰ، والسبابَةُ؛

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٠٢٠).

(٤) رواه مسلم (٢٠٢١).

لأنَّ الأكلَ بالأصابعِ كُلهَا يدلُّ علىٰ الشرَهِ، خصُوصًا إذَا كانَ معَهُ أحدٌ، أمَّا إذَا كانَ لَا يمكنُهُ الأكلُ بثلاثِ أصابعَ فإنَّهُ يأكلُ بمَا يُمكنُ، وقَد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يأكلُ بثلاثِ أصابعَ، ويلعَقُ يدَهُ قَبلَ أنْ يمسَحَهَا(١).

ولَا يأكلُ الطعامَ شَديدَ السخونَةِ؛ لأنَّ المعدَةَ تتألَّمُ منهُ ويحدُثُ فيهَا القُروحُ والأذَىٰ، ولهَذا فإنهُ ينبغِي للمَرءِ أنْ يصبرَ عَلىٰ طعامِهِ حتَّىٰ يبرَدَ، حتَّىٰ لَا يضُرَّ مَن يأكُلُهُ، وقَد كانَت أسمَاءُ بنتُ أبِي بَكرٍ إذَا ثَردَتْ غطَّتهُ شَيئًا حتَّىٰ يذهبَ فَورُهُ ثُم تقُولُ: إنِّي سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّهُ أعظَمُ للبَركَةِ**»(٢).

ويُكرَهُ الأكلُ مِن وسطِ آنيةِ الطعَامِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نَهَىٰ عَن ذلكَ، وقالَ: «**إنَّ البركةَ تَنزلُ فِي أعلَاهَا**»، والغالبُ أنَّ الأعلَىٰ هُوَ الأوسطُ.

ومن السُّنةِ أن يأكلَ مَا سقطَ منَ الطعامِ بعدَ إزالَةِ مَا فيهِ مِنَ الأذَىٰ، فقَد قالَ ﷺ: «**إذَا سقطَتْ مِن أحدِكُم لُقمةٌ فليُمِط مَا كانَ بهَا مِن أذًىٰ ثُم ليأكُلهَا ولَا يَدعهَا للشيطَانِ**»(٣)، وهذَا يدلُّ عَلىٰ أنَّ الشيطانَ يأكلُ مَا تناثَرَ إذَا لَم يؤكَلْ، وأمَّا مَا لَا يُمكنُ أكلُهُ إذَا تناثَرَ فإنَّهُ يُترَكُ.

وعَلىٰ مَن قدَّمَ طعامًا لأضيافِهِ أنْ يجتنِبَ كثرَةَ المَدحِ لهُ، وبيانِ مقدارِ مَا أنفقَهُ فيهِ؛ وكأنَّهُ يمُنُّ بذلِكَ عَلىٰ الضيفِ.

ومنَ الأدبِ أنْ يغُضَّ طرفَهُ عَن جَليسِهِ الذِي يأكلُ معَهُ، ولَا يَبقَىٰ مشتغلًا بالنظَرِ إلَىٰ مَا يأكلُ هذَا أو ذَاكَ، فإنَّ هذَا خلافُ الأدبِ وممَّا ينَزعجُ الناسُ بسَببِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٢).

(٢) رواه الدارمي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٩٢).

(٣) رواه مسلم (٢٠٣٣).

ويُكرَهُ أنْ يفجَأَ قومًا عندَ وضعِ طعامِهِم تعمُّدًا؛ لأنَّ هذَا الفعلَ فيهِ دناءةٌ، كمَا أنَّ فيهِ إحراجًا لأهلِ البيتِ، أمَّا لَو كانَ عَن غيرِ عَمدٍ، كمَن دخَلَ عَلَىٰ قومٍ ووجدَهُم عَلَىٰ الطعامِ، فلَا بأسَ بذلِكَ، ومَردُّ مثلِ هذِهِ الأمورِ إِلَىٰ العُرفِ وقُوةِ العلاقَةِ معَ الآخرينَ.

وعَلَىٰ مَن شارَكَ الناسَ فِي طعامِهِم أنْ يجتنِبَ الأمورَ المنفرَةَ المَكروهَةَ التِي تخالفُ المروءةَ، ويُعرفُ ذلكَ بالنظَرِ إِلَىٰ مخَالفتِهَا لأعرافِ الناسِ الصحيحَةِ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ ممَّا أدركَ الناسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأُولَىٰ، إذَا لَم تَستَحِ فاصنَعْ مَا شِئتَ**»(١)، وقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمانُ بضعٌ وسَبعونَ شُعبةً، أعلاَهَا قولُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدنَاهَا إماطَةُ الأذَىٰ عَنِ الطَّريقِ، والحياءُ شعبَةٌ منَ الإيمَانِ**»(٢)، وكلُّ مَا يخالِفُ المُروءةِ، فهُوَ مخالفٌ للحيَاءِ.

فيُكرهُ لهُ أنْ يتنفَّسَ فِي الإناءِ، ولَو اضطرَّ إِلَىٰ ذلكَ وأرَادَ أن يتنفَّسَ، فينبَغِي لَهُ أَن يُبعِدَ الإناءَ عَن فمِهِ ثُمَّ يتنفَّسُ.

وينبغِي لهُ عندَ الكحَّةِ والسُّعالِ ونَحوِهِ أنْ يُبعِدَ وَجهَهُ عَنِ الطعامِ، لئلَّا يَخرجَ منهُ شيءٌ منَ الريقِ ونَحوِهِ، فيَقعُ فِي الطعامِ فينفِّرُ الناسَ.

وإذَا كانَ معَهُ مَن يُشاركُهُ فِي الطعامِ، فلَا يقرنْ بينَ اللقمَةِ واللقمتَيْنِ؛ لأنَّ هذَا دليلٌ عَلَىٰ الحِرصِ والشَّرَهِ، ومَوضِعٌ للانتقَادِ.

ويُكرَهُ لهُ إنِ انتهَىٰ مِن طعامِهِ أنْ ينفضَ يَدَهُ فِي الصَّحنِ؛ لأنَّ هذَا ممَّا يقذُرُهُ الناسُ.

وإنْ أكَلَ شَيئًا فلَا يردُّ شيئًا مِن فَمِهِ إِلَىٰ الإنَاءِ، كمَن يأخُذُ قطعةَ اللحمِ يُريدُ أكلَهَا، فيجدُهَا قاسيَةً فيردُّهَا فِي الإناءِ، أو أنْ يغمِسَ بقيةَ اللقمَةِ التِي أكَلَ منهَا فِي المرقَةِ، ثُمَّ يعيدُهَا إِلَىٰ فَمِهِ، فإنَّ هذَا مدعاةٌ إِلَىٰ النفورِ والتقزُّزِ، كمَا أنهُ خِلافُ المُروءَةِ، وممَّا

(١) رواه البخاري (٦١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

تعافُهُ النفُوسُ، كمَا أنهُ يبغِّضُ الطعَامَ إلَىٰ الناسِ.

ويشبهُ ذلكَ مَا يفعلُهُ بعضُ الناسِ فِي البوفيهاتِ، حيثُ يأخذُ أحدُهُم ملعقَةً ويقفُ أمامَ مُسخنِ الطعامِ، ويبدأُ الأكلَ ويجعلُ المِلعقةَ مترددَةً بينَ فَمِهِ والصَّحنِ مراتٍ ومرَّاتٍ، وهذَا ممَّا يستقذرُهُ الناسُ، وسَببٌ لتركِهِم الطعامَ ونفُورِهِم منهُ، والإنسانُ يَنبغِي لهُ أن يتعاملَ معَ الناسِ معاملَةً طيبَةً، ولَا يأتِي بمَا يخَالفُ الأدبَ.

والقاعدةُ فِي ذلكَ أنَّ المرءَ لَا يفعَلُ مَا يستقذرُهُ مِن غيرِهِ، وقَد قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤمنُ أحدُكُم حتَّىٰ يُحبَّ لأخِيهِ مَا يحبُّ لنَفسِهِ**»[1]، وقال: «**مَن أحبَّ أنْ يُزحزَحَ عنِ النارِ ويدخلَ الجنةَ فلتَأتِهِ مَنيَّتُهُ وهُوَ يؤمنُ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ، وليأتِ إلَىٰ الناسِ مَا يُحبُّ أنْ يُؤتَىٰ إلَيهِ**»[2].

ويكرَهُ عَيبُ الطعامِ، خصُوصًا إذَا كانَ مَدعوًّا إلَيهِ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يكدِّرُ خواطِرَ مَن دَعَوْهُ، لاحتقارِهِ مَا قدَّمُوا بينَ يدَيهِ، وقَد كانَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَعيبُ طعامًا، إن اشتهَاهُ أكلَهُ، وإن كرهَهُ ترَكَهُ[3].

ولَو أنهُ عابَ طعامَ أهلِ بيتِهِ حتَّىٰ لَا يَعودُوا لمِثلِ ذلكَ العَيبِ، فلَا بأسَ؛ لأنَّ هذَا مِن بابِ التعليمِ، فهُوَ لَم يُرد عَيبَ الطعَامِ، ولكنَّهُ عابَ صَنعَةَ أهلِهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ بينَ يدَي الساعَةِ بَشيرًا ونَذيرًا، وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسِراجًا مُنيرًا، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإِنَّ الواجبَ عَلىٰ المسلمِ ألَّا يتلَهَّىٰ بطيباتِ الدنيَا حتَّىٰ تشغلَهُ عَنْ عملِ الآخرَةِ، ومَن فعلَ ذلكَ نقصَتْ درجاتُهُ فِي الآخرةِ، وكانَ علىٰ خَطرٍ عظيمٍ.

ولا يعنِي ذلكَ تركَ التنعُّمِ بنِعَمِ اللهِ منَ الأطعمةِ وَالأشربةِ المباحةِ، فَإِنَّ منَ السنةِ أكلَ الطيباتِ بِلَا سَرفٍ ولا كِبرٍ ولا مَخِيلةٍ، وقَد جاءَ فِي الحديثِ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمَلَ رجلًا علىٰ خيبرَ، فجاءَهُ بتمرٍ جَنيبٍ -أي: طيِّبٍ- فقالَ: «**أكُلُّ تمرِ خَيبرَ هكَذَا؟** قالَ: لَا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ، إنَّا لنأخذُ الصاعَ مِن هذَا بالصاعَينِ، والصاعَينِ بالثلاثِ، فقالَ: **لَا تفعَلْ، بِعِ الجَمعَ بالدراهِمِ ثُمَّ ابتَعْ بالدَّراهِمِ جنِيبًا**»[1]. فلَم يُنكرْ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهِم أكْلَ الطيِّبِ، بَل أقرَّهُم عَلىٰ أنَّهم يختارُونَ لهُ الطيِّبَ، ولكِن أنكرَ عَليهِم مَا يجرِي فِي هذِهِ المعاملَةِ مِنَ الربَا.

فَلا يُتركُ أكلُ الطيباتِ تَورعًا، وتركُ ذلكَ تورعًا خلافُ سنةِ الأولِينَ والآخرينَ، لكِن إنْ لزمَ مِن أكلِ الطيباتِ الخروجُ إِلَىٰ حدِّ الإسرافِ مُنعَ ذَلكَ، لَا لأَنَّهُ أكَلَ مِنَ الطيباتِ، ولكِن لأجلِ السَّرَفِ.

---

(١) رواه البخاري (٢٢٠١)، ومسلم (١٥٩٣).

وليسَ مِنَ السرَفِ أنْ يأكُلَ المَرءُ مَا اشتهَىٰ، بَل هوَ مِن التنعُّمِ بنِعَمِ اللهِ، إلَّا إذَا اختارَ أشياءً غاليةً لا تَليقُ بمثلِهِ.

وقَد يتركُ بعضُ الناسِ أكلَ لذيذِ الطعامِ بُخلًا وهُو قادرٌ عَليهِ، ويُلبسُ ذَلكَ الفعلَ الشنيعَ لباسَ التواضعِ والاقتصادِ فِي النفقاتِ، فيحيَا حياةَ البؤسِ والحرمانِ حتَّىٰ يأتِيهِ الأجلُ وهوَ مُقيمٌ عَلىٰ ذلكَ الخلُقِ المَذمومِ، فلَا هُو الذِي استمتَعَ بنعمَةِ ربِّهِ عليهِ، ولَا هوَ الذِي تخلصَ مِن تبعاتِ ذلكَ المالِ وآثارِهِ، وقَد جاءَ فِي الحديثِ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يَرَىٰ أثرَ نِعمتِهِ عَلىٰ عبدِهِ**»[1].

❊❊❊

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٣٥٠).

(٦٦) صفحَاتٌ مِن حياةِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

الحمدُ للهِ الذِي منِ اعتصَمَ بحَبلِ رجَائِهِ وفَّقهُ وهَداه، ومَن لجَأ إلَيهِ حفظَهُ ووَقَاه، ومَن تواضَعَ لهُ رفعَهُ وحَمَاه، أحمدُهُ سُبحانهُ عَلىٰ مَا أعطَىٰ منَ الإنعامِ وَأولَاه، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، أرسلَهُ إلَىٰ خلقِهِ وأوصَاهُ بتَقوَاه، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الذِينَ عضُّوا عَلَىٰ سُنَّتِهِ بالنَّواجذِ وتمسكُوا بهُدَاه، وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ امتنَّ عَلىٰ أناسٍ مِن عبادِهِ، فاختَصَّهُم بالفَضلِ والرِّفعةِ وعُلوِّ الشأنِ، وأجرَىٰ علىٰ أيدِيهم منَ الفضائلِ مَا لَا يستطيعُ وصفَهُ واصفٌ، ولَا حَصرَهُ متتبعٌ.

ومِن هؤلاءِ النفرِ الكرامِ الذينَ اصطفاهُمُ اللهُ سبحانَهُ بالكرامةِ وَالتعظِيمِ، الطاهرَةُ المطهرَةُ، والصدِّيقةُ بنتُ الصديقِ، المُبرأةُ مِن فوقِ سبعِ سمواتٍ، أمُّ المُؤمنينَ عائشَةُ بنتُ أبِي بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فرَاشُ رسُولِ اللهِ وعفَّتُهُ، وريحانَتُهُ وحبِيبَتُهُ.

فكَم لهَا منَ الفضائلِ، فبَأيِّها نبدَأُ؟!

وكَم لهَا منَ المنازلِ العظيمَة، فكيفَ نصفُهَا؟!

أليسَت هيَ التِي يقولُ عنهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضلُ عائشَةَ عَلىٰ النسَاءِ كفَضلِ الثريدِ عَلَىٰ سائرِ الطعَامِ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٩)، ومسلم (٤٤٥٩).

كانَت أحبَّ الناسِ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحينَ سُئِلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أحبُّ الناسِ إلَيكَ؟ قالَ: عائشَةُ. قالُوا: مِنَ الرجَالِ؟ قالَ: أبوهَا**»(١).

ومَا كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُحبَّ إلَّا طَيبًا.

وكانَ خبرُ حبِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهَا أمرًا مُستفيضًا، حتَّىٰ إنَّ الناسَ كانُوا يتحَرَّونَ بهدَايَاهُم للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ عائشَةَ مِن بَينِ نسَائِهِ تَقربًا إلَىٰ مرضَاتِهِ، فقَد جاءَ فِي الحدِيثِ الصحيحِ: «كانَ الناسُ يتحَرَّونَ بهَدايَاهُم يومَ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فاجتَمعَ أزوَاجُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ أمِّ سلمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقُلنَ لهَا: إنَّ الناسَ يتحَرَّونَ بهدَايَاهُم يومَ عائشَةَ، فقُولِي لرسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمُرُ الناسَ أنْ يُهدُوا لهُ أينمَا كانَ. فذَكرت أمُّ سلمَةَ لهُ ذلكَ، فسكتَ فَلَم يَردَّ عليهَا، فعادَت الثانيةُ فَلَم يرُد عَليهَا، فلمَّا كانَت الثالثةُ، قالَ: **يَا أمَّ سلمَةَ، لَا تؤذِينِي فِي عائشةَ، فإنَّهُ وَاللهِ مَا نزلَ علَيَّ الوحيُ وأنَا فِي لحَافِ امرَأةٍ مِنكُنَّ غَيرُهَا**»(٢).

لقد تبوأَتْ أمُّنَا عائشةُ بنتُ الصدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مكانةً عاليَةً فِي قلبِ نبيِّنا مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانَت أحبَّ نسائِهِ إليهِ، وكانَ بهَا لَطيفًا رَحيمًا علَىٰ عادَتِهِ -صلَواتُ ربِّي وسلامُهُ عَليهِ-.

«استأذَنَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علَىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذَا عائشَةُ ترفعُ صَوتَهَا علَيهِ، فقالَ: يَا بنتَ فُلانةٍ، ترفَعينَ صَوتَكَ علَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فحَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَهُ وبينَهَا، ثمَّ خرجَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فجعَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يترَضَّاهَا، ويقُولُ: **ألَم ترينِي حلتُ بينَ الرجُلِ وبَينَكِ؟**

(١) رواه البخاري (٤٠١٠)، ومسلم (٤٣٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩١).

ثمَّ استأذنَ أبُو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرةً أخرَىٰ، فسمِعَ تضاحكَهُمَا، فقالَ: أشرِكانِي فِي سلمكُمَا كمَا أشركتُمَانِي فِي حربِكُمَا»(١).

وقالَت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «كنتُ أتعرَّقُ العظمَ وأنا حائضٌ -والتَّعرقُ: هوَ أنْ يأخذَ اللحمَ بأسنانِه-، فيأخذُهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيضعُ فمَهُ حيثُ كانَ فمِي، وأشربُ مِن الإناءِ فيأخذُهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيضعُ فمَهُ حيثُ كانَ فمِي وأنَا حائضٌ»(٢).

وكانَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستأنسُ بالحَديثِ إليهَا ويُسَرُّ بقُربِهَا، ويعرفُ رضَاهَا مِن سخطِهَا، فقَد قَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهَا: «**إنِّي لأعلَمُ إذَا كُنتِ عنِّي رَاضيَةً، وَإذَا كُنتِ عَلَيَّ غَضبَىٰ. قَالَت: وكَيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: إذَا كنتِ عنِّي راضيةً قُلتِ: لَا ورَبِّ مُحمدٍ، وإذَا كنتِ عَليَّ غضبَىٰ قُلتِ: لَا وربِّ إبراهِيمَ. قالَت: أجَل واللهِ مَا أهجُرُ إلَّا اسمَكَ**»(٣).

وكانَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يضعُهَا خلفَ ظهرِهِ لتَرَىٰ لعبَ أهلِ الحبشةِ بالحِرابِ فِي المسجدِ، ويطولُ وقوفُهُ لهَا دَليلًا علىٰ حبِّهِ لهَا، تقولُ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «دعانِي رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وَالحبشةُ يلعبُونَ بحرابِهِم فِي المسجدِ- فقالَ لِي: **أتحبينَ أنْ تنظُرِي إليهِم؟** فقلتُ: نَعَم، فطأطَأَ لِي منكبَيهِ لأنظُرَ إلَيهِم، فوضَعتُ ذقنِي عَلىٰ عاتقِهِ، وأسنَدتُ وجهِي إلَىٰ خدِّهِ، فنظَرتُ حتَّىٰ إذَا مَللتُ، قالَ: **حَسبُكِ**. قلتُ: لا تعجَل، فقامَ لِي ثمَّ قالَ: **حسبُكِ**، قُلتُ: لَا تعجَل. قالَت: ومَا بِي حبُّ النظَرِ إلَيهِم، ولَكِن أحبَبتُ أنْ يبلَغَ النساءَ مقَامُهُ لِي ومكَانِي مِنهُ»(٤).

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحه» (٢٩٠١).

(٢) رواه مسلم (٤٥٣).

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٧)، ومسلم (٤٤٦٩).

(٤) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (١٤٨١).

لقَدْ كَانَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا امرأةً مباركَةً، مَا وقعَت فِي ضِيقةٍ إلَّا جعلَ اللهُ تعالَىٰ بسببِ ذلكَ فَرجًا وتَخفيفًا للمُسلمينَ، تقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خرَجنا معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بعضِ أسفارِه، حتَّىٰ إذَا كنَّا بالبيداءِ، انقطَعَ عِقدِي، فأقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ التمَاسِهِ، وأقامَ الناسُ معَهُ وليسُوا علَىٰ ماءٍ، فأتَىٰ الناسُ أبَا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالُوا: مَا تَدرِي مَا صنعَت عائشةُ؟ أقامَتْ برسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالناسِ، وليسُوا علَىٰ ماءٍ، وليسَ معهُم ماءٌ! قالَت: فعاتَبنِي أبُو بَكرٍ، فقَالَ مَا شاءَ اللهُ أنْ يقُولَ، وجعَلَ يطعنُ بيدِهِ فِي خاصِرَتِي، فلَا يَمنعنِي مِنَ التحركِ إلَّا مكَانُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ فَخذِي، فنامَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ أصبَحَ علَىٰ غيرِ ماءٍ، فأنزَلَ اللهُ آيةَ التيمُّمِ، فتيَمَّمُوا.

فقالَ أُسيدُ بنُ حُضَيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا هذَا بأولِ بركتِكُم يَا آلَ أبِي بكرٍ!

قالَت: فبعَثنَا البعيرَ الذِي كنتُ علَيهِ، فوجَدنَا العقدَ تَحتَهُ، فقالَ لهَا أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ جاءَ منَ اللهِ رخصةٌ للمُسلمينَ: واللهِ الذِي علَمتِ يَا بنيَّةُ أنَّك مُباركَةٌ، ماذَا جعلَ اللهُ للمسلمينَ فِي حبسِكِ إيَّاهُم منَ البركَةِ واليُسرِ»(١).

وكانَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِن أعلمِ الصحابةِ، قالَ أبُو مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أشكلَ علَينَا أصحابَ مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدِيثٌ قطُّ، فسَألنَا عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلَّا وَجدنَا عِندهَا منهُ عِلمًا.

وكانَتْ مُوقرةً مِنَ الصحابَةِ، يَعرفونَ لهَا قَدرَهَا وعِلمَها ومَنزلتَهَا بينَ الناسِ، نالَ رجلٌ مِنْ عائشةَ عندَ عمارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَالَ لهُ عمَّارٌ: اغرُبْ مَقبُوحًا، أتُؤذِي حبيبَةَ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وقَالَ عمارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنهَا لزَوجةِ نبيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدنيَا والآخرَةِ»(٢)، نشهَدُ باللهِ إنهَا لزَوجَتُهُ.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢)، ومسلم (٥٥٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٨٨).

وكانَ مَسروقٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذَا حدَّثَ عَن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالَ: حَدثَتنِي الصدِّيقَةُ بنتُ الصديقِ، حَبيبَةُ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُبرأةُ مِن فوقِ سَبعِ سَمواتٍ.

وقالَ مُعاويَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: واللهِ مَا سمعتُ قطُّ أبلغَ مِن عائشَةَ غيرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانَتْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مِنْ أحسنِ الناسِ رَأيًا فِي العامَّةِ، قالَ الزهرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَو جُمعَ علمُ عائشةَ إلِىٰ عِلمِ جميعِ النساءِ لكَانَ عِلمُ عائشَةَ أفضَلَ.

وقالَ مصعبُ بنُ سعدٍ: فَرضَ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأمهاتِ المُؤمنينَ عشرَةَ آلافٍ، عشرَةَ آلافٍ، وزادَ عائشَةَ ألفَينِ، وقالَ: إنهَا حبيبةُ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمَا بالُ أقوامٍ عمِيَتْ أعيُنُهم، وطُمِسَتْ قلوبُهُمْ أنْ يعرفُوا لهَا قَدرَهَا، فهَلْ مثلُهَا تخفَىٰ شمائِلُهُ وطِيبُ خِصالِهِ؟

وهلْ مَن شهدَ لهُ هؤلاءِ النفَرُ الأخيارُ بالعلمِ والتقَىٰ، تَبقَىٰ فِي قلوبِنَا ريبَةٌ نَحوَهُ، وَلَا نستشعِرُ حُبَّهُ؟!

أمَا إنهُ لَا يُنكرُ فَضلهَا، وزِنَةَ عقلِهَا، وطهَارَةَ قَلبِها، وأنَّهَا حطَّتْ فِي الجنَّةِ رَحلَهَا، لَا يُنكِرُ ذَلكَ إلَّا مُنافِقٌ مَطمُوسُ القَلبِ، يَمشِي كالبهيمَةِ العجمَاءِ.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

وحينَ نتكلمُ عَن ورعِ أمِّ المؤمنِينَ عائشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وزُهدِهَا وخَوفِها مِن خالقِهَا، تتَلاشَىٰ عندَ ذلكَ الكلمَاتُ، وتَهربُ حِينئذٍ المعَانِي خَجَلًا ألَا تُدرِكَ بلُوغَ الثنَاءِ الذِي يليقُ بهَا.

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

لقَد كانَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا رَمزًا فِي الكَرمِ، وغَايةً فِي العظمَةِ وسخاءِ النفسِ، كيفَ لَا، وقَدْ تعلمَتْهَا ممَّنْ كَانَ أصلَ الكَرمِ والوفاءِ، ومُعلمِ البشريةِ كلِّها أخلاقَ الخَيرِ؟

بعثَ معاويَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ إليهَا مرةً بمائةِ ألفِ دِرهمٍ، فمَا أمسَتْ حتَّىٰ فرَّقَتْهَا، فقَالَت لهَا خادمَتُها: لَو اشتريتِ لنَا منهَا بدرهَمٍ لحمًا؟ فقَالَتْ: أَلَا قُلتِ لِي؟

وقالَ عطاءٌ: إنَّ معاويَةَ بعثَ لهَا بقلادَةٍ بمائةِ ألفٍ، فقسمَتهَا بينَ أمهاتِ المُؤمنِينَ.

وقالَ عُروةُ -ابنُ أختِها-: إنَّ عائشةَ تصدَّقَتْ بسَبعينَ ألفًا، وإنهَا لترقعُ جانِبَ دِرعِهَا، رَضِي اللهُ عنهَا وارضَاهَا.

تَجودُ بِالنَّفسِ إنْ ضَنَّ البَخِيلُ بِهَا ... وَالجُودُ بِالنَّفسِ أقصَىٰ غَايَةِ الجُودِ

وبعثَ إليهَا ابنُ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا بمالٍ بلغَ مائَةَ ألفٍ، فدَعَتْ بطبقٍ، فجعلَتْ تقسمُ فِي الناسِ، فلمَّا أمسَتْ، قالَتْ: هَاتِي يَا جاريَةُ فطُورِي، فقَالتْ: يَا أمَّ المؤمنِينَ، أَمَا استطَعتِ أنْ تشتَرِي لنَا لحمًا بدرهَمٍ؟ قَالَت: لَا تُعنفِينِي، لَو أذكرتِينِي لفَعلتُ.

وكانَت قمةً فِي التواضُعِ فَلا تَرىٰ نفسَها شَيئًا، وهيَ مَن هيَ، وكانَتْ تخافُ ثنَاءَ الناسِ عَليهَا فَلَا تودُّ سماعَهُ مخافَةَ الفِتنَةِ.

جاءَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا يستأذِنُ عَلىٰ عائشَةَ، وهِيَ فِي الموتِ، وعندَ رأسِهَا ابنُ أخِيها عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمَنِ، فقِيلَ لهَا: هذَا ابنُ عباسٍ يستَأذنُ، قالَت: دَعنِي مِن ابنِ عباسٍ لَا حاجةَ لِي بِهِ وَلَا بِتزكيتِهِ.

فقالَ عبدُ اللهُ: يَا أمَّه، إنَّ ابنَ عباسٍ مِنْ صالِحِي بَنِيكِ، يودِّعُكِ ويُسَلِّمُ عَليكِ. قالَت: فأْذَنْ لهُ إنْ شِئتَ، قالَ: فجاءَ ابنُ عباسٍ، فلمَّا قعَدَ قالَ: أبشرِي فواللهِ مَا بينَكِ وبينَ أنْ تُفَارِقِي كُلَّ نصَبٍ، وتلَقَيْ مُحمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأحبَّةَ، إلَّا أنْ تُفارِقَ روحُكِ جَسدَكِ، كُنتِ أحبَّ نساءِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهِ، ولَم يَكُنْ يُحبُّ إلَّا

طَيبًا، سَقطَتْ قِلادَتُكِ ليلَةَ الأبواءِ، وأصبَحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ليلقُطَهَا، فأصبَحَ النَّاسُ ليسَ معَهُم ماءٌ، فأنزَلَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾(١)، فكانَ ذلكَ مِن سببِكِ، ومَا أنزلَ اللهُ بهذِهِ الأمةِ مِنَ الرخصَةِ، ثُمَّ أنزلَ اللهُ تعَالَىٰ براءَتَكِ مِن فَوقِ سَبعِ سموَاتٍ، فأصبَحَ لَيسَ مَسجِدٌ يُذكرُ فيهِ اسمُ اللهِ إلَّا بَراءَتُكِ تُتلَىٰ فِيهِ آناءَ اللَّيلِ والنهَارِ. قالَتْ: دَعنِي يَا ابنَ عبَّاسٍ، فَواللهِ ودِدْتُ أنِّي كنتُ نَسيًا مَنسِيًّا.

وقالَ ابنُ أبِي مُليكَةَ: إنَّ ابنَ عباسٍ استأذَنَ عَلىٰ عائشَةَ وهِيَ مَغلوبَةٌ فقَالَتْ: أخشَىٰ أنْ يُثنِيَ عَليَّ، فقيلَ: ابنُ عمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ومِن وجُوهِ المُسلِمينَ، قالَتْ: ائذَنُوا لَهُ، فقَالَ: كيفَ تَجدِينَكِ؟ قالَتْ: بخَيرٍ إنِ اتَّقيتُ، قالَ: فأنتِ بخَيرٍ -إنْ شاءَ اللهُ-، زَوجةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ولَم يَتزوجْ بِكرًا غيرَكِ، ونَزلَ عُذرُكِ مِنَ السماءِ، فلمَّا جاءَ ابنُ الزبَيرِ، قَالَت: جاءَ ابنُ عباسٍ وأثنَىٰ عليَّ، ووَدِدتُ أنِّي كنتُ نسيًا مَنسيًّا.

أمَّاهُ عُذرًا إذَا مَا الشِّعرُ قامَ عَلَىٰ ... سُوقِ الكسَادِ يُنادِي مَن يُواسِينِي

مَا لِي أرَاهُ إذَا مَا جِئتُ أكتُبُهُ ... نَاحَ القَصِيدُ ونَوحُ الشِّعرِ يُشجِينِي

حَاولتُ أكتُبُ بيتًا فِي مَحبَّتِكُمْ ... يَا قِمَّةَ الطُّهرِ يَا مَنْ حُبُّكُمْ دِينِي

فَأطرَقَ الشِّعرُ نَحوِي رَأسَهُ خَجَلًا ... وَأسبَلَ الدَّمعَ مِنْ عَينَيهِ فِي حِينِ

وَقالَ عُذرًا فَإنِّي مَسَّنِي خَوَرٌ ... شَحَّ القَصِيدُ وقَامَ البَيتُ يَرثِينِي

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) سورة النساء:٤٣.

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ والشكرُ لهُ علَىٰ إحسانِهِ العَامِّ، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمَامِ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسُولُه، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وَعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ هُداةِ الأنَامِ ومَصَابيحِ الظَّلامِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّنا حينَ نتكلمُ عنْ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يدفَعُنا لذلكَ عظيمُ حقِّها علَينَا، الذِي جعلَهُ اللهُ لهَا، وأوجبَهُ عَلىٰ كُلِّ مسلمٍ.

رضِيَ اللهُ عنهَا، قمةُ التواضُعِ، ومُنتَهىٰ الذلةِ للهِ، وهيَ تعلمُ أنهَا مِن أهلِ الجنةِ، المحبوبَةُ لخَالِقِها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعائشةُ بنتُ أبِي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليسَت كغَيرِها منَ النسَاءِ، فهِيَ زوجُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التِي فرضَ اللهُ علَينا حُبَّها، واختارَهَا زوجةً لنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدنيَا والآخرَةِ، وسمَّاهَا أمَّ المُؤمِنينَ، قالَ تعَالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾(١).

وبرَّأهَا مِن فوقِ سَبعِ سمواتٍ ممَّا رمَاهَا بهِ المنافقُونَ وورثَتُهُم إلَىٰ عصرِنَا الحَاليِّ، الذِينَ يرمُونَها بالفاحشَةِ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(٢)، شلَّ اللهُ ألسنتَهُم، وجازَاهُم بسُوءِ صَنِيعِهِم.

وهَلْ يختارُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّهِ إلَّا طاهرةً مطهرَةً نقيةً؟! فهَلْ مِن مُتفكِّرٍ؟!

(١) سورة الأحزاب:٦.

(٢) سورة الكهف:٥.

وحتَّىٰ تعلمُوا شناعةَ القولِ: فليتخَيلْ كلُّ واحدٍ منَّا أنهُ طُعنَ فِي شرفِهِ، واتهِمَتْ زوجَتُهُ بالفاحشَةِ، فعلَىٰ أيِّ حالٍ سيكونُ؟ فكيفَ إذَا كانَ المَطعونُ بهَا زَوجةَ خَيرِ الورَىٰ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهَلْ أعرَاضُنَا أغلَىٰ مِن عِرضِهِ؟!

إنَّ ممَّا يجِبُ عَلىٰ كلِّ مُسلمٍ اعتقَادُهُ أنَّ عائشةَ مطهرةٌ، ومِن قولِ أهلِ الكَذبِ والبُهتانِ مُبرَّأةٌ، ولَا نَشُكُّ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُمكنُ أن يَجعلَ تَحتَ نبيِّهِ إلَّا مُطهرَةً عفيفَةً مَصُونَةً.

هذَا مِن صَميمِ عَقيدتِنَا، ومَن زعَمَ فِي عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا غيرَ هذَا، ممَّا رمَاهَا بِهِ أهلُ البُهتانِ، كرَأسِ المُنافقينَ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلُولَ ووارثِيهِ إلَىٰ هذَا الزمَانِ، كرَمْيِهِم لهَا بالفاحشَةِ، فهَذَا كافرٌ بإجمَاعِ المُسلمينَ، وغدًا عِندَ ربِّهِم يَجتمعُونَ، فيقتصُّ المظلومُ ممَّنْ ظلمَهُ، فيَا ويحَ مَن كانَ خصمُهُ مُحمدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاللهُ المَوعِدُ.

فعليكَ أيهَا المسلمُ أنْ تعتقِدَ هذهِ العقيدَةَ الصحيحَةَ فِي أمِّكَ الصديقةِ بنتِ الصدِّيقِ، المُبرأةِ مِن فوقِ سبعِ سمَواتٍ، وأنْ تبرَأَ مِن كلِّ قولٍ يَقدحُ بهَا وبِعدالتِهَا، واعلَمْ أنَّ الطعنَ فيهَا طعنٌ فِي فراشِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَدحٌ فِي حِكمَةِ اللهِ تعالَىٰ الذِي اختارَهَا زَوجةً لنَبيِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كمَا أنهُ يجبُ عليكَ أنْ تبغضَ كلَّ ملةٍ تدينُ وتعتقِدُ الطعنَ فِي عائشَةَ واتهامَهَا بالرذيلَةِ، وإنْ تسمَّىٰ أصحابُهَا باسمِ الإسلامِ وتلفظُوا بالشهادَتينِ، فإنَّ مَن اعتقدَ ذلكَ كافرٌ، لَا تجوزُ مُحبَّتُهُ ولَا مُوالاتُهُ ولَا أكلُ ذَبيحتِهِ ولَا الزواجُ منهُ ولَا تَزويجُهُ.

ويكفِي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِعظيمِ حكمتِهِ، ابتَلَىٰ هؤلاءِ باقترافِهِمْ لفاحشَةِ الزنَا يسمُّونَها بغيرِ اسمِها «جَزاءً وِفاقًا»، لطعنِهِم بعائشَةَ المطهَّرَةَ العفيفَةَ المُبرأَةَ.

فالواجبُ عليكَ أيهَا المسلمُ مَحبَّةُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومُوالاتُهَا ومعرفةُ تمَامِ قدرِها ومَنزلتِهَا، واعتقادُ هذِهِ العَقيدةِ دونَ النظَرِ لأقاويلِ المُرجفينَ الدخلَاءِ عَلىٰ دينِنَا وشَرعِنَا.

ويكفِي أنَّ اللهَ سمَّاهَا أمَّ المُؤمنينَ، هِيَ وأزواجُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فمَن لَم تَكُنْ عائشَةُ أمَّهُ فلَيسَ بمُؤمنٍ، ومَن تبرَّأَ منهَا فحَرِيٌّ بهِ أنْ يحالَ بَينَهُ وبينَ جنانِ الخُلدِ، فإذَا اعتقَدتَ موَالاتَهَا ومَحبَّتَها فعُدَّ ذلكَ أرجَىٰ أعمالِكَ عندَ اللهِ، وثِقْ أنكَ قَد عمِلتَ عملًا عَظيمًا تستحِقُّ عَليهِ الأجرَ مِنَ الكريمِ الذِي لَا يُضيعُ أجرَ المُحسنينَ.

هذَا ولْيُعلَمْ أنهُ لَا يَحزَنُ عَلىٰ عائشَةَ إلَّا مَن كانَتْ هِيَ أمُّهُ، وأمَّا أولئكَ السقطُ المُتهافتُونَ وراءَ الإفكِ، الصَّادونَ عنِ الحقِّ، الطاعنُونَ فِي خيرِ الخَلقِ، فإيَّاكَ وإيَّاهُم، واحذَرْ طَريقَهُم، فإنَّهُم يقودُونَ إلَىٰ الهاويَةِ، فِي التبرُّؤِ مِن خَيرِ البشَرِ أصحَابِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومُوالاةِ كُلِّ كافِرٍ وفاجِرٍ.

❊❊❊

(٦٧) صفحَاتٌ مِن حيَاةِ هارُونَ الرَّشِيدِ

الحمدُ للهِ الكريمِ المنَّان، العَزيزِ ذِي السُّلطَان، يُعطِي ويَمنَع، ويخفِضُ ويَرفَع، ويصِلُ ويَقطَع، كلَّ يوم هُوَ فِي شَأن، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَريكَ لهُ وَلَا ولدَ وَلَا أعوَان، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ، بعثَهُ رحمَةً لأهلِ الإيمَان، وحُجَّةً علَىٰ أهلِ الظُّلمِ والطغيَان، صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعَلَىٰ آلِهِ وأصحَابِهِ أهلِ الفضَائلِ والإحسَان، وسَلَّم تسليمًا كَثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ المتأملَ فِي تاريخِنا الإسلاميِّ يجدُهُ زَاخرًا بالوقائعِ المُنيرةِ والحوادِثِ المثيرَةِ، والذكريَاتِ العَطرةِ التِي يستأنسُ بهَا المسلمُ عَلىٰ مرِّ العصورِ.

هذَا وإنَّ اللهَ سبحانَهُ اختصَّ أناسًا بالفضلِ والإحسانِ والبركةِ، فكانُوا فِي حياتِهم نِبراسًا للخيرِ ودعَاةً للهُدَىٰ، وأعقبَهُم بعدَ وفَاتِهم بالثناءِ والذكْرِ الحَسَنِ.

وإنَّ مِنْ هؤلاءِ النَّفرِ، الإمامَ الفاتحَ المجاهِدَ الذِي دانَتْ لهُ البُلدانُ واندحَرَتْ أمامَهُ الشجعَانُ: أميرُ المُؤمنينَ هَارونُ الرَّشيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذِي كانَ يغزُو عامًا ويحجُّ عامًا، حتَّىٰ قالَ فيهِ القائلُ:

فمَـــنْ يطلُـبْ لقَـاءَكَ أَو يُـرِدْهُ ... فبِالحـرَمَينِ أوْ أقـصَىٰ الـثغُورِ
وَمَـا حَـازَ الـثغُورَ سِـواكَ خَلـقٌ ... مِـنَ المُـستخلَفينَ عَلـىٰ الأمُـورِ

فقَدْ خلَّفَ ذِكرًا حسَنًا، وتاريخًا مجيدًا هوَ بحقٍّ مفخرَةٌ لكلِّ مسلمٍ.

كانَ مِن أحسنِ الناسِ سيرَةً فِي نفسِهِ ورعيتِهِ، فكانَ يتصدَّقُ مِن صُلبِ مالِهِ فِي كلِّ يومٍ بألفِ درهَمٍ، وكانَ سريعَ العطاءِ جزيلَهُ، يحبُّ الفقهَاءَ والشعراءَ ويعطِيهِم، لَا يضيعُ

لدَيهِ برٌّ ولا معروفٌ، وكانَ يصلِّي فِي كلِّ يومٍ مائةَ ركعةٍ تطوعًا إِلَىٰ أن فَارقَ الدنيَا، إلَّا أنْ تعرضَ لَهُ عِلةٌ، وإذَا حَجَّ أحجَّ معَهُ مِائةً منَ الفقهاءِ وأبنائِهم، وإذَا لَمْ يحجَّ أحجَّ ثَلثمائَةٍ بالنفقَةِ السابغةِ والكسوةِ التامَّةِ، حتَّىٰ قالَ فِيهِ القائلُ:

أَلَـم تَـرَ أنَّ الـشَّمسَ كانَـت سَـقيمَةً فَلمَـا وَلـي هـارُونُ أشـرَقَ نُـورُهَا

وكانَ شهمًا شجاعًا حازمًا، جوادًا مُمَدَّحًا، فيهِ دينٌ وسُنةٌ.

فلمَّا نقضَتِ الرومُ الصلحَ الذِي كانَ بينَهُم وبينَ المسلمِينَ، وملَّكَوا علَيهِم النقفُورَ وكانَ شجاعًا، كتب نَقفُورُ إِلَىٰ الرشيدِ كتابًا، قالَ فِيهِ: مِن نقفُورَ ملِكِ الرومِ إِلَىٰ هارونَ ملكِ العَربِ.

أَمَّا بعدُ: فإنَّ المَلِكةَ التِي كانَتْ قَبلِي، حمَلَتْ إليْكَ مِنْ أموالِهَا مَا كنْتَ حَقيقًا بحَمْلِ أمثالِهِ إِلَيهَا، وذلكَ مِن ضعفِ النسَاءِ وحُمقِهنَّ، فإذَا قرأْتَ كتَابِي هذَا فارددْ إليَّ ما حمَلَتْهُ إِلَيْكَ منَ الأموالِ، وافتَدِ نفسَكَ بِهِ وَإِلَّا فالسيفُ بَينَنَا وبَينَكَ، فلمَّا قرأَ هارونُ الرشِيدُ كتَابَهُ، أخذَهُ الغضبُ الشديدُ حتَّىٰ لَمْ يتمكَّنْ أحدٌ أنْ ينظُرَ إلَيهِ وَلَا يستطيعُ مخاطبَتَهُ، وأشفَقَ علَيهِ جلساؤُهُ خَوفًا مِنهُ، ثُمَّ استدعَىٰ بالقَلمِ وكتَبَ عَلَىٰ ظَهرِ الكتَابِ: بِسمِ اللهِ الرحمَنِ الرحِيمِ، مِن هارونَ أميرِ المؤمنينَ إِلَىٰ نَقفُورَ كَلبِ الرومِ، قَد قرأْتُ كتَابَكَ يَا ابنَ الكافرَةِ والجَوابُ مَا ترَاهُ دُونَ مَا تَسمَعُهُ، والسَّلَامُ.

ثُمَّ نهضَ مِن حينِهِ وسارَ حتَّىٰ نزَلَ ببَابِ هِرَقْلَةَ، ففتحَهَا واصطَفَىٰ ابنَةَ مَلكِهَا وغنِمَ مِنْ أموالِهِم شيئًا كثيرًا وخَرَّبَ دِيارَهُم.

وقَدِ اتَّسعَتْ رُقعةُ الخلافةِ الإسلاميةِ فِي عصرِهِ، حتَّىٰ بلغَتْ مشارِقَ الأرضِ ومغَارِبَهَا، وكانَتِ الأموالُ تُحملُ مِن جميعِ الأقاليمِ -بعدَ تكفِيَةِ الجيوشِ- إِلَىٰ بيتِ المَالِ عَلىٰ بعدِ المسافَةِ، وكانَ يَستلقِي علَىٰ قفاهُ وينظُرُ إِلَىٰ السحابَةِ، فيقُولُ: اذهَبِي إِلَىٰ حيثُ شئتِ، خراجُكِ يأتِينِي بإذنِ اللهِ.

وكانَ يخضعُ للكبارِ ويتأدبُ معَهُم، ويتواضعُ لأهلِ العلمِ والدِّينِ، ويحبُّ مجالسةَ العلماءِ والصالحِينَ.

قالَ أبو معَاويةَ الضريرُ: استدعانِي الرشيدُ إليْهِ ليسمَعَ منِّي الحديثَ، فما ذكرتُ عندَهُ حديثًا إلَّا قالَ: صَلىٰ اللهُ وسلَّمَ عَلىٰ سيدِي، وإذَا سمِعَ فِيهِ مَوعظةً بكَىٰ حتَّىٰ يبُلَّ الثَّرَىٰ، وأكَلتُ عندَهُ يومًا ثمَّ قمتُ لأغسِلَ يَديَّ، فصبَّ الماءَ عليَّ وأنَا لَا أراهُ، ثمَّ قالَ: يَا أبَا معاويَةَ، أتدرِي مَن يَصُبُّ عَليكَ الماءَ؟ قلتُ: لَا. قَالَ: يَصبُّ عليْكَ أميرُ المؤمنينَ. قالَ أبُو معاويَةَ: فدَعوتُ لهُ. فقَالَ: إنمَا أردْتُ تعظِيمَ العِلمِ.

وكانَ كثيرَ البكاءِ منْ خشيَةِ اللهِ تعَالىٰ سَريعَ الدمعَةِ عندَ الذكرِ، مُحبًّا للمواعِظِ.

قالَ منصورُ بن عمَّارٍ: ما رَأيتُ أغزرَ دمعًا عند الذِّكرِ مِن ثلاثةٍ، الفُضيلِ بنِ عياضٍ وأبِي عَبدِ الرحمنِ الزاهدِ وهارُونَ الرشِيدِ.

ودخلَ عليْهِ الإمامُ الشافعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقالَ لَهُ: عِظنِي، فقَالَ: اعلَمْ أنَّ مَنْ أطالَ عِنانَ الأملِ في الغِرَّة طَوَىٰ عِنانَ الحذَرِ فِي المُهلَةِ، ومَن لَمْ يعولْ عَلىٰ طريقِ النجاةِ، خسِرَ يومَ القيامَةِ إذَا امتَدَّتْ يدُ الندامَةِ، فبَكَىٰ هَارُونُ.

وقالَ الفُضيلُ: قالَ لِي هارونُ: عِظنِي، فقلتُ: يَا حسَنَ الوَجهِ، حسابُ الخلقِ كُلُّهُم عَليْكَ، فجَعَلَ يَبكِي ويشهَقُ، فردَّدتُ عَليهِ وهُو يَبكِي.

وبعثَ هارونُ الرشيدُ إلَىٰ ابنِ السَّمَّاكِ، فدخلَ عليْهِ وعندَهُ يحيَىٰ بنُ خالدٍ، فقَالَ يحيَىٰ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ أرسَلَ إليْكَ لمَا بلغَهُ مِن صلَاحِ حالِكَ فِي نفسِكَ، وكثرَةِ ذِكرِكَ لربِّكَ عَزَّوَجَلَّ، ودعائِكَ للعامَّةِ، فقَالَ ابنُ السمَّاكِ: أمَّا مَا بلغَ أميرَ المؤمنينَ مِنْ صلاحِنَا فِي أنفسِنَا فذلِكَ بسترِ اللهِ علَيْنا، فلَوِ اطَّلعَ الناسُ عَلَىٰ ذنبٍ مِن ذنُوبِنَا لمَا أقدَمَ قلبٌ لنَا عَلىٰ مودَّةٍ، وَلَا جرَىٰ لسَانٌ لنَا بمِدحَةٍ، وإنِّي لأخافُ أنْ أكونَ بالسترِ مغرورًا، وبمَدحِ الناس مفتُونًا، وإنِّي لأخافُ أنْ أهلِكَ بهِمَا وبقِلَّةِ الشكرِ عليهِمَا.

وطلَبَ الرشيدُ ماءً ليشرَبَ، ثمَّ قالَ لابنِ السمَّاكِ: عظنِي، فقالَ لَهُ: باللهِ يَا أميرَ المؤمنينَ لَو مُنعتَ هذِهِ الشربَةَ بكَمْ تَشتَرِيها؟ قالَ: بنِصفِ مُلكِي، قالَ: لَو مُنعتَ خُروجَها بكَمْ كنتَ تَشتَرِيهِ؟ قالَ: بنِصفِ مُلكِي الآخَرِ، فقَالَ: إنَّ ملكًا قِيمتُهُ شربَةُ ماءٍ لجَديرٌ ألَّا يُنافسَ فِيهِ، فبَكَىٰ هارُونُ.

وقالَ لَهُ ابنُ السمَّاكِ يَومًا: إنَّكَ تموتُ وحدَكَ، وتدخُلُ القبرَ وحدَكَ، وتُبعثُ منْهُ وحدَكَ، فاحذَرِ المقامَ بينَ يدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والوقُوفَ بينَ الجنةِ والنارِ، حينَ يؤخذُ بالكَظمِ، وتزلُّ القدمُ، ويقعُ الندمُ، فلا توبةٌ تُقبلُ، ولَا عثرةٌ تُقَالُ، ولا يقبلُ فِداءٌ بمالٍ.

فجعلَ الرشيدُ يبكِي حتَّىٰ علَا صوتُهُ، فقالَ لهُ يَحيَىٰ بنُ خالدٍ: يَا ابنَ السماكِ، لقَدْ شقَقْتَ علَىٰ أميرِ المؤمِنينَ الليلَةَ، فقامَ فخرَجَ مِن عندِهِ وهُوَ يَبكِي.

قالَ الفُضيلُ: استدعَانِي الرشيدُ يومًا، وقَدْ زخرَفَ منزلَهُ وأكثَرَ الطعامَ والشرابَ واللذَّاتِ، ثمَّ استدعَىٰ أبَا العتاهيَةِ، فقالَ لَهُ: صِفْ لنَا مَا نحنُ فيهِ منَ العَيشِ والنعيمِ، فقَالَ:

عِشْ مَا بدَا لَكَ سَالِمًا ... فِي ظِلِّ شاهقَةِ القُصُورْ
تَجرِي عَليكَ بمَا اشتهَيتَ ... مِنَ الرَّواحِ إلَىٰ البُكُورْ
فَإذَا النفُوسُ تقَعقَعَتْ ... عَن ضِيقِ حشرَجَةِ الصُّدُورْ
فهُناكَ تعلَمُ مُوقِنًا ... مَا كُنتَ إلَّا فِي غُرورْ

قالَ: فبكَىٰ الرشيدُ بكاءً كثيرًا شديدًا، فقالَ لهُ الفضلُ بنُ يحيَىٰ: دعاكَ أميرُ المؤمنينَ لتَسرَّهُ فأحزنتَهُ، فقالَ لهُ الرشيدُ: دَعهُ فإنَّهُ رآنَا فِي عمًىٰ فكَرِهَ أنْ يزيدَنَا عَمًىٰ.

وقالَ ذاتَ مرةٍ لأبِي العتاهيَةِ: عِظنِي بأبياتٍ منَ الشعرِ وأوجِزْ، فقَالَ:

لَا تَأمَنِ الموتَ فِي طَرفٍ وَلَا نفَسٍ ... ولَو تمتَّعتَ بِالحُجَّابِ والحرَسِ

واعلَمْ بأنَّ سهَامَ الموتِ صَائبَةٌ لكُلِّ مُدَّرعٍ مِنهَا ومُتَّرسِ
تَرجُو النجَاةَ ولَم تسلُكْ مَسَالِكَهَا إنَّ السفينَةَ لَا تَجري علَىٰ اليَبَسِ

فَخَرَّ الرشيدُ مَغشيًّا علَيْه.

ولمَّا آذنَ هارونُ بالرحِيلِ أمَرَ بحَفرِ قَبرِهِ فِي حياتِهِ وحُملَ حتَّىٰ نظَرَ إلَيهِ، فجعَلَ يقولُ: إلَىٰ هنَا تَصيرُ يَا ابنَ آدمَ، ويَبكِي، وأمرَ أنْ يوسَّعَ عِندَ صدرِهِ، وأن يُمَدَّ مِن عندِ رجلَيْهِ، ثمَّ جعلَ يقُولُ: مَا أغنَىٰ عنِّي مَاليَه، هلَكَ عنِّي سُلطانِيَه، ويَبكِي.

وقيلَ: إنهُ لمَّا احتُضِرَ قالَ: اللهُمَّ انفَعْنَا بالإحسَانِ واغفِرْ لنَا الإساءَةِ، يَا مَنْ لَا يمُوتُ ارْحَمْ مَن يَمُوتُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، والعاقبةُ للمُتَّقِين، ولا عدوَانَ إلَّا عَلىٰ الظالِمِين، وصَلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وبَاركَ وأنعَمَ عَلىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بَعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّ فضائلَ الرشيدِ ومكارمَهُ كثيرَةٌ جدًّا، وإنمَا ذكَرْنَا نموذجًا مِن سيرتِهِ، وطرَفًا مِن أخبارِهِ، لتدلَّ عَلىٰ مآثِرِهِ العظيمةِ التِي حفظَهَا التاريخُ، وشكرَهَا لَهُ كلُّ مسلمٍ صادقٍ، فقَدْ كانَ رجلًا صالحًا، وليسَ كمَا ينشرُهُ عنْهُ أهلُ الإفكِ والبهتانِ مِن أنَّهُ كانَ ذَا لهوٍ ولعبٍ ومجُونٍ.

بَل هوَ الحاجُّ الغازِي، الإمامُ الورعُ، العابدُ التقيُّ، وإنمَا لفقَ لهُ هذِهِ التهَمَ أهلُ الأهواءِ والضلالِ الذِينَ غاظَهُمْ بفتُوحِهِ وشدَّتِهِ عَلىٰ المُخالفينَ لسنَّةِ النبيِّ ﷺ.

فكَمْ قمَعَ اللهُ بِهِ مِنْ فتنةٍ، وسدَّ بِهِ مِن ثُلمَةٍ، حتَّىٰ كانَ الفُضَيلُ بنُ عيَاضٍ -أحدُ أئمةِ السَّلفِ- يقولُ: ليسَ موتُ أحدٍ أعزَّ علينَا مِن موتِ الرَّشيدِ، لِمَا أتخوفُ بعدَهُ مِنَ الحوادِثِ، وإنِّي لأدعُو اللهَ أنْ يَزيدَ فِي عُمرِهِ مِن عُمرِي.

قالُوا: فلمَّا ماتَ الرشيدُ، وظهَرَتْ تلكَ الفتنُ والحوادِثُ والاختلافَاتُ، وظهَرَ القولُ بخَلقِ القرآنِ، عرَفنَا مَا كانَ تخوَّفَهُ الفُضيلُ مِن ذلكَ.

لَا شَكَّ أنَّ فِي مُجتمعاتِنَا أناسًا مِنَ المُبطلينَ، وصورةً تتكَرَّرُ فِي كلِّ زمنٍ، كلَّمَا رأَوا إمَامًا مِن أئمةِ الدِّينِ، نصَرَ اللهُ بِهِ السنةَ، وأعزَّ بهِ الأمةَ، وأعلَىٰ بِهِ الكلمَةَ، قامُوا إِلَيهِ بالكذِبِ والتشوِيهِ وتلفِيقِ التهَمِ، ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

واللهُ المَوعِدُ!

إِلَـىٰ دَيَّـانِ يَـومِ الـدِّينِ نَمـضِي ... وَعِـنـدَ اللَّـهِ تَجـتـمِعُ الخُـصومُ

وإنمَا هذَا هوَ دأبُهُم فِي كلِّ زمَانٍ.

فإيَّاكُم وتتبُّعَ كلامِ أهلِ الأهواءِ والملبِّسينَ ومَن فِي قلوبِهم مرضٌ، فإنَّهُم يُريدُونَ أنْ يمسَخُوا تَارِيخَنا العطِرَ، وأنْ يقطَعُوا صِلتَنا برمُوزِنَا التِي نفخَرُ بهَا علَىٰ مرِّ الأزمانِ، فلَا تُمكنُوهُم مِن ذلِكَ، وتقعُوا فِي شَرَكِهِم، فإنَّهُم إنْ بلغُوا منكُم ذلِكَ، ألقَوْا إليكُمْ بعقَائدِهِم المُردِيَةِ وآرائِهِمُ الشاذةِ، فغيَّرُوا عقيدتَكُم وتابعتُمُوهُم علَىٰ باطلِهِم، فتهلِكُونَ معَ الهالكينَ.

فانتبهُوا لمَا تَقرءونَ وتسمَعُونَ، ولَا تجعَلُوا آذانكُم سمَّاعةً لكلِّ منكَرٍ، وقلوبَكُم متشربَةً لكلِّ شبهَةٍ، واعرفُوا عمَّنْ تأخذونَ وإلَىٰ مَن تسمعُونَ، واحذَرُوا تلكَ الكتبَ

---

(١) سورة النساء:١١٢.

والمحاضرَاتِ التاريخيةَ التِي لَم تُؤسَّسْ عَلىٰ عِلمٍ وتقوَىٰ، بَل أسسَتْ عَلىٰ شفَا جُرُفٍ هارٍ فانهَارَ بِهَا فِي أوديَةِ الأهواءِ السحيقَةِ والضلالَاتِ البعيدَةِ، فلَا تتناولُ أسلافَكُم إلا بالسبِّ، ولا تذكُرُهُم إلَّا بالقَدحِ والعَيبِ.

نسألُ اللهَ تعَالىٰ أنْ يُنيرَ قلوبَنَا بنُورِ الإيمَانِ، وأنْ يكفيَنَا شرَّ أهلِ الضلالَةِ والبُهتانِ.

❁❁❁

(٦٨) غزوةُ بَدرٍ

الحمدُ للهِ المَعبودِ فِي أرضِهِ وسمَائِه، المُجيبِ دُعاءَ مَن يَدعُوهُ بأسمَائِه، المُنفَرِدُ بالقُدرَةِ القَاهِرَة، المتوحِّدُ بالقوَّةِ الظاهِرَة، وهُوَ اللهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ لهُ الحَمدُ فِي الأولَىٰ والآخِرَة، وصَلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عَلىٰ الذِي رفَعَهُ باصطفَائِهِ إلَىٰ محلِّهِ المُنِيف، وبعثَهُ إلَىٰ الناسِ كافَّةً بالدينِ القيِّمِ الحَنِيف، وجعلَهُ أفضَلَ مَن كانَ وأفضلَ مَن يَكُون، وأرسَلَهُ بالهُدَىٰ ودينِ الحقِّ ليُظهرَهُ عَلىٰ الدينِ كلِّهِ ولَو كرِهَ المُشركُون.

أمَّا بعدُ:

ففِي العامِ الثانِي منَ الهجرَةِ جاءَ الخبرُ إلَىٰ رسولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أبَا سفيَانَ جاءَ مُقبلًا منَ الشامِ فِي قافلةٍ عظيمَةٍ لقُريشٍ فيهَا أموالٌ وتجَارَةٌ، فخرَجَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ أصحَابِهِ فندَبَهُم وقَالَ: «**مَن كانَ ظَهرُهُ حاضرًا فليَركَبْ معنَا، هذِهِ عِيرُ قريشٍ فيهَا أموالُهُم، فاخرُجُوا إليهَا لعَلَّ اللهَ أنْ يُنفلكُمُوهَا**»، فانتدَبَ الناسُ فخفَّ بعضُهُم وثقلَ بعضٌ، وذلكَ أنَّهُم لَم يظنُّوا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلقَىٰ حربًا، فانطلَقَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُهُ مسرعينَ إلَىٰ جهةِ بَدرٍ، وقَد بلغَ عددُهُم يَومئذٍ ثلثمائَةٍ وثلاثةَ عشرَ رَجلًا.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنَّا يومَ بدرٍ كلَّ ثلاثةٍ عَلىٰ بَعيرٍ، وكانَ أبُو لبابَةَ وعَليٌّ زميلَي رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا كانَت عَقْبَةُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَا: نحنُ نَمشِي عنكَ، فقالَ: «**مَا أنتُمَا بأقوَىٰ مِنِّي، ولَا أنَا بأغنَىٰ عَنِ الأجرِ مِنكُمَا**».

وكانَ أبو سفيانَ حينَ دنَا منَ الحجازِ يتحسَّسُ الأخبارَ ممَّنْ لقِيَ مِن الركبَانِ تخوفًا عَلىٰ أموالِ الناسِ، حتَّىٰ أصابَ خَبرًا مِن بعضِ الركبَانِ أنَّ محمدًا قدِ استنفَرَ

أصحَابَهُ لكَ ولقافِلتِكَ، فأخذَ حذرَهُ عندَ ذلِكَ، واستأجَرَ ضمضَمًا الغفارِيَّ فبعثَهُ إِلَىٰ مكةَ، وأمرَهُ أنْ يأتِيَ قُريشًا فيستنفرَهُم إِلَىٰ أموالِهِم، ويُخبرَهُم أنَّ محمدًا قَد عرَضَ لهَا فِي أصحابِهِ، فخرجَ ضمضَمٌ سريعًا إِلَىٰ مكةَ، فلمَّا دخلَهَا شقَّ قميصَهُ وصرخَ بأعلَىٰ صوتِهِ: يَا معشرَ قريشٍ، اللطيمَةَ اللطيمَةَ، أموالُكُم معَ أَبِي سفيانَ قَد عرضَ لهَا محمدٌ وأصحابُهُ، لَا أرَىٰ أنْ تدرِكُوهَا، الغوثَ الغَوثَ.

ثمَّ إنَّ أبَا سفيانَ وجَّهَ قافلتَهُ ناحيَةَ الساحِلِ، وتركَ بدرًا يسارَهُ، وانطلَقَ مسرِعًا لينجُوَ بهَا، فلمَّا رَأىٰ أنَّهُ قَدْ حمَىٰ قافلتَهُ أرسَلَ إِلَىٰ قُريشٍ: إنكُم إنَّمَا خَرجتُم لتمنَعُوا عيرَكُم ورجالَكُم وأموالَكُم، فقَدْ نجَّاهَا اللهُ فارجِعُوا، فقالَ أبُو جهلٍ: واللهِ لَا نرجعُ حتَّىٰ نرِدَ بدرًا -وكانَ بدرٌ مَوسمًا من مواسِمِ العربِ يجتمِعُ لهُم بهِ سُوقٌ كُلَّ عامٍ- فنُقيمُ عليْهِ ثَلاثًا، فننحرُ الجَزُورَ، ونُطعمُ الطعامَ، ونَسقِي الخَمرَ، وتعزفُ علينَا القِيانُ، وتسمعُ بنَا العربُ وبمَسيرِنَا وجَمْعِنا، فلَا يزالونَ يهَابُونَنا أبدًا.

فقالَ الأخنسُ بنُ شريقٍ -وقدْ كانَ مُطاعًا فِي قومِهِ-: يَا بَنِي زهرَةَ، قَدْ نجَّىٰ اللهُ لكُم أموالَكُم، وخلصَ لَكُم صاحِبَكُم مخرمَةَ بنَ نَوفَلٍ، وإنمَا نفرْتُم لتمنَعُوهُ ومالَهُ، فاجعَلُوا بِي جُبْنَها وارجِعُوا فإنَّهُ لَا حاجَةَ لَكُم بأنْ تخرُجُوا فِي غيرِ ضيعَةٍ، فأطاعُوهُ ورجَعُوا فلَم يشهَدهَا زُهريٌّ واحِدٌ.

ثمَّ قامَ عُتبةُ خطيبًا فقالَ: يَا معشرَ قريشٍ، إنكُم واللهِ مَا تصنعونَ بأنْ تلقَوا مُحمدًا وأصحابَهُ شيئًا، واللهِ لئِنْ أصبتُمُوهُ لَا يزالُ الرجلُ ينظرُ إِلَىٰ وجهِ رجلٍ يكرَهُ النظَرَ إليهِ، قتَلَ ابنَ عمِّهِ، أوِ ابنَ خالِهِ، أو رَجلًا مِن عشيرتِهِ، فارجِعُوا وخَلُّوا بينَ محمدٍ وبينَ سائرِ العربِ، فإِنْ أصابُوهُ فذلكَ الذِي أردتُمْ، يَا قَومِ اعصِبُوها برَأسي وقولُوا: جَبُن عتبةُ بنُ ربيعَةَ، وقَد علمْتُم أنِّي لستُ بأجبَنِكُم.

فقَالَ أبُو جهلٍ: يَا قَومِ، انتفَخَ واللهِ سَحرُ عُتبةَ حينَ رَأىٰ محمدًا وأصحابَهُ، فلا

واللهِ لَا نرجعُ حتَّىٰ يحكُمَ اللهُ بَينَنا وبينَ محمدٍ، ومَا بعتبَةَ مَا قالَ، ولكنَّهُ رأَىٰ محمدًا وأصحابَهُ وفِيهِم ابنُهُ، فقَد تخوَّفكُم عَليْهِ.

فأفسَدَ عَلىٰ الناسِ الرَّأيَ الذِي دعاهُم إلَيهِ عتبَةُ، واستوثَقُوا عَلىٰ مَا هُم عَلَيهِ مِن الشَّرِّ.

فخرَجَتْ قريشٌ عَلىٰ الصَّعبِ والذَّلولِ فِي تسعمِائةٍ وخَمسينَ مُقَاتلًا، مَعهُم مِائتَا فرسٍ يقُودُونَها، ومعَهُم المغنياتُ يضرِبْنَ بالدفُوفِ ويُغنِّينَ بهجَاءِ المسلمِينَ.

فلمَّا نزلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدرًا أتَاهُ الخبرُ عَن قريشٍ ومَسيرِهِم لقتالِ المسلمينَ، فاستشارَ الناسَ وأخبرَهُم عنْ قريشٍ، فقامَ أبُو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ وأحسَنَ، ثمَّ قامَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ وأحسَنَ، ثمَّ قامَ المقدادُ بنُ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَالَ: يَا رسُولَ اللهِ، امضِ لمَا أراكَ اللهُ فنحنُ معَكَ، واللهِ لَا نقُولُ لكَ كمَا قالَتْ بنُو إسرائيلَ لمُوسَىٰ: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقَاتِلَا إنَّا هَاهُنَا قَاعدُونَ، ولَكن اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقَاتِلَا إنَّا مَعكُما مقاتلونَ، فوالذِي بعثَكَ بالحقِّ لَو سِرتَ بنَا إلَىٰ بَرَكِ الغمَادِ (موضِعٌ باليَمنِ) لجالَدْنَا معَكَ مِن دونِهِ حتَّىٰ تبلغَهُ، فقالَ لهُ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا ودعَا لَهُ.

ثمَّ قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشِيرُوا عَليَّ أيُّهَا الناسُ**»، وإنمَا كانَ يريدُ الأنصارَ، وذلكَ أنهُم حِينَ بايعُوهُ بالعقبةِ، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، إنَّا برَآءُ مِن ذِمامِكَ حتَّىٰ تصلَ إلَىٰ ديارِنَا، فإذَا وَصلْتَ إليْنَا فأنتَ فِي ذمَّتِنَا نَمنَعُكَ ممَّا نمنَعُ منْهُ أبناءَنَا ونسَاءَنَا، وهذَا يعنِي أنهُم لَم يُبايعُوهُ عَلىٰ القتالِ معَهُ خارجَ المَدينَةِ، فكانَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخَوفُ ألَّا تكونَ الأنصارُ ترَىٰ عَليهَا نَصرَهُ إلَّا ممَّنْ دهمَهُ بالمدينَةِ مِنْ عدُوِّهِ.

فلمَّا قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قالَ، قامَ سعدُ بنُ مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ: وَاللهِ لكأنَّكَ تُريدُنَا يَا رسولُ اللهِ؟ قالَ: «**أَجَلْ**». فقالَ سعدٌ: قَد آمنَّا بكَ وصدَّقنَاكَ، وشهِدْنَا

أنَّ مَا جئتَ بهِ هُوَ الحقُّ، وأعطيناكَ علَىٰ ذلكَ عهُودَنَا ومَواثِيقَنَا علَىٰ السمعِ والطاعَةِ لكَ، فامضِ يَا رسُولَ اللهِ لِمَا أرَدْتَ فنحنُ معَكَ، فوَالذِي بعثَكَ بالحقِّ، لَوِ استعرضْتَ بنَا البَحرَ فخُضتَهُ لخُضناهُ معَكَ، مَا تخلَّفَ منَّا رجُلٌ واحدٌ، ولعَلَّكَ أنْ تكُونَ خَرجتَ لأمرٍ، وأحدَثَ اللهُ لَكَ غيرَهُ، فانظُرِ الذِي أحدَثَ اللهُ إلَيكَ فامضِ، فَصِلْ حِبالَ مَن شئتَ، واقطَعْ حبالَ مَن شِئتَ، وعَادِ مَن شئتَ، وسالِمْ مَن شِئتَ، وخُذْ مِن أموالِنَا مَا شئتَ، ومَا أخذْتَ منَّا كانَ أحبَّ إلَيْنَا ممَّا تركْتَ، ومَا نكرَهُ أنْ تلقَىٰ بنَا عَدوَّنَا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ فِي الحربِ، صُدُقٌ عِندَ اللقَاءِ، ولعَلَّ اللهَ أنْ يُريكَ مِنَّا مَا تقرُّ بهِ عَينُكَ، فَسِرْ علَىٰ برَكَةِ اللهِ.

فَسُرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَولِ سَعدٍ ونشَّطَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**سِيرُوا وأبشِرُوا، فإنَّ اللهَ قَد وعَدَنِي إحدَىٰ الطائفتَينِ، واللهِ لكَأنِّي أنظُرُ إلَىٰ مصارِعِ القَومِ**».

فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا نبيَّ اللهِ، ألَا نَبنِي لكَ عريشًا تكونُ فيهِ، ونُعِدُّ عندكَ ركائِبَكَ، ثمَّ نلقَىٰ عدوَّنَا، فإنْ أعزَّنَا اللهُ وأظهَرَنَا علَىٰ عدوِّنَا كانَ ذلِكَ مَا أحببنَا، وإِن كانَتِ الأُخرَىٰ، جلسْتَ علَىٰ ركائِبِكَ فلحقْتَ بمَنْ وراءَنَا مِن قومِنَا، فقَدْ تخلَّفَ عنكَ أقوامٌ مَا نحنُ بأشدَّ حبًّا لكَ منهُم، ولَو ظنُّوا أنكَ تلقَىٰ حَربًا مَا تخلَّفُوا عنكَ، يمنعُكَ اللهُ بِهِم، يناصِحُونَكَ ويجاهدُونَ معَكَ.**

فأثنَىٰ عليهِ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا ودَعَا لهُ بخَيرٍ.

ثمَّ بنِيَ لرسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عريشٌ يكونُ فيهِ، وقامَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصُفُّ أصحابَهُ ويُعبِّئُهم أحسنَ تَعبِئَةٍ، وبينَمَا هُوَ يعدلُ صفوفَ أصحابِهِ بسَهمٍ كانَ فِي يدِهِ، إذْ مَرَّ بسَوادِ بنِ غزيَّةَ وهوَ مُتقدمٌ عنِ الصفِّ، فطعَنَ فِي بطنِهِ بالقدَحِ وقالَ: «**استوِ يَا سوَادُ**». فقالَ: يا رسُولَ اللهِ، أوجعتَنِي، وقَد بعثَكَ اللهُ بالحقِّ والعدلِ، فأَقِدْني فكشفَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن بطنِهِ وقالَ: «**استَقِد**»، فاعتنقَهُ سَوادٌ وقبَّلَ بطنَهُ، فقَالَ: «**مَا حملَكَ علَىٰ هذَا يَا سوادُ؟**».

قالَ: يَا رسُولَ اللهِ، حضرَ مَا ترَىٰ، فأردْتُ أنْ يكونَ آخِرَ العَهدِ بكَ أن يَمَسَّ جلدِي جلدَكَ، فدعَا لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخَيرٍ.

ولمَّا انتهَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن تَعديلِ الصفُوفِ، رجَعَ إِلَىٰ العَريشِ فدخلَهُ ومعَهُ أَبُو بكرٍ لَيسَ معَهُ فيهِ غَيرُهُ، فوقَفَ سعدُ بنُ معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَىٰ بابِ العريشِ متقلدًا سيفَهُ ومعَهُ رجالٌ منَ الأنصارِ يحرسُونَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوفًا عليْهِ مْن أنْ يدهمَهُ العدُوُّ مِنَ المشركِينَ، وقَد هيئَتْ لهُ النجَائِبُ ليركَبَهَا إنِ احتَاجَ إليهَا حتَّىٰ يرجعَ إِلَىٰ المدينةِ كمَا أشارَ عليهِ سَعدُ بنُ معاذٍ بذَلكَ.

فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكثَرَ الابتهالَ والتضرعَ والدعاءَ، يقولُ: «**اللهُمَّ إنْ تهلِكْ هذِهِ العصابَةَ مِن أهلِ الإسلامِ لَا تُعبَد بعدَهَا فِي الأرضِ**»، وجعلَ يهتفُ بربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ويقولُ: «**اللهمَّ أنجزْ لِي مَا وعدتَنِي، اللهمَّ نصرَكَ**»، ويرفعُ يدَيْهِ إِلَىٰ السمَاءِ حتَّىٰ سقطَ رداؤُهُ عَن مَنكبَيْهِ، وجعَلَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتزمُهُ مِن ورائِهِ ويسَوِّي علَيْهِ رداءَهُ، ويقولُ مُشفقًا علَيْهِ مِن كثرَةِ الابتِهَالِ: يَا رسُولَ اللهِ، بعضَ مناشدَتِكَ ربَّكَ فإنَّهُ سينجزُ لَكَ مَا وَعدَكَ، وقَدْ كانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقيقَ القلبِ شديدَ الإشفاقِ عَلىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأنزلَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مُردِفينَ، وراءَ كلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ.

فخفقَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خفقَةً وهُوَ فِي العريشِ، ثمَّ انتبهَ فقَالَ: «**أبشِرْ يَا أبَا بكرٍ،**

---

(١) سورة الأنفال:٩-١٠.

أتاكَ نَصرُ اللهِ، هذَا جبريلُ آخذٌ بعِنانِ فرسِهِ يقودُهُ، عَلىٰ ثناياهُ النَّقعُ -يعنِي: الغُبارَ-».

فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُوَ يثبُ فِي الدِّرعِ وهُوَ يقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(١)، قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لمَّا نزلَ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾. قلتُ: أيُّ جَمعٍ يهزمُ وأيُّ جمعٍ يغلَبُ؟ فلمَّا كانَ يومُ بدرٍ رأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثِبُ فِي الدِّرعِ وهُوَ يقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾، فعرَفتُ تأويلَهَا.

ولمَّا تقابَلَ الفَريقانِ قَلَّلَ اللهُ كلًّا منهُمَا فِي أعيُنِ الآخرِينَ ليَجترِئَ هؤلاءِ عَلىٰ هؤلاءِ، وهؤلاءِ عَلىٰ هؤلاءِ لمَا لهُ فِي ذلكَ مِنَ الحكمَةِ البالغَةِ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾(٢).

وبعثَ اللهُ ماءً مِنَ السماءِ، فأصابَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَهُ منهَا ماءٌ لَبَّدَ لهُمُ الأرضَ ولَم يمنَعْهُم مِنَ السَّيرِ، وأصابَ قريشًا منْهَا ماءٌ لَم يقدِرُوا علىٰ أنْ يرتحِلُوا معَهُ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾(٣).

فطهَّرَهُم ظاهرًا وباطنًا، وثبتَ أقدامَهُم وشجَّعَ قلوبَهُم وأذهَبَ عنْهُم تخذِيلَ الشيطانِ وتخويفَهُ للنفوسِ ووسوستَهُ، وهذَا تثبيتُ الباطنِ والظاهِرِ.

ولمَّا تَواجَهَ الفريقانِ وحضرَ الخصمانِ، كانَ أولَ مَن قُتِلَ منَ المشركينَ الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ المَخزوميُّ، وكانَ رجُلًا شرسًا سيِّئَ الخُلقِ، فقَالَ: أعاهِدُ اللهَ لأشرَبَنَّ مِنْ

---

(١) سورة القمر: ٤٥.

(٢) سورة الأنفال: ٤٤.

(٣) سورة الأنفال: ١١.

حوضِهِم أَوْ لأهدِمَنَّهُ أَوْ لأموتَنَّ دُونَهُ، فلَمَّا خرَجَ، نهَضَ إليْهِ حَمزةُ بنُ عبدِ المُطلبِ، فلمَّا التقيَا ضربَهُ حمزةُ فقطَعَ ساقَهُ وهُوَ دونَ الحَوضِ، فوقَعَ علَىٰ ظهرِهِ تشخُبُ رِجلُهُ دمًا، ثُمَّ حبَا إلَىٰ الحوضِ حتَّىٰ اقتحَمَ فيهِ يُريدُ أنْ يبَرَّ يمينَهُ، فأتبعَهُ حَمزةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بضربةٍ حتَّىٰ قتلَهُ فِي الحَوضِ.

فحمِيَ عندَ ذلكَ عتبةُ بنُ ربيعَةَ، وأرادَ أنْ يُظهِرَ شجاعَتَهُ، فبرَزَ بينَ أخيهِ شَيبةَ وابنِهِ الوليدِ، فلمَّا توسَّطُوا بينَ الصفَّينِ دعَوا إلىٰ البِرازِ، فخرجَ إلَيهِم فتيةٌ منَ الأنصارِ ثلاثَةٌ، وهُم عوفٌ ومعاذٌ ابنَا الحارِثِ وأمهُمَا عفرَاءُ، والثالثُ عبدُ اللهِ بنُ رواحَةَ، فقالُوا: مَن أنتُم؟

قالُوا: رهطٌ منَ الأنصارِ، فقالُوا: مَا لنَا بكُم مِن حاجَةٍ، ونادَىٰ مُنادِيهِم: يا محمدُ، اخرُجْ إلينَا أكفاءَنَا مِن قومِنَا، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُم يَا عُبيدةُ بنُ الحارِثِ، وقُمْ يا حمزَةُ، وقُمْ يَا عَلِيُّ**».

فبارزَ عُبيدةُ -وكانَ أسنَّ القومِ- عتبةَ، وبارزَ حمزةُ شيبةَ، وبارزَ عليٌّ الوليدَ بنَ عتبةَ.

فأمَّا حمزَةُ فلَم يُمهِلْ شيبَةَ حتَّىٰ قتلَهُ، وأمَّا عليٌّ فلَم يُمهِلْ الوليدَ حتَّىٰ قتلَهُ، واختلَفَ عبيدةُ وعتبةُ بينَهُمَا بضربتَينِ فأصابَ كلُّ واحدٍ منهُمَا صاحبَهُ، وكرَّ حمزَةُ وعليٌّ بأسيافِهِمَا علَىٰ عتبةَ فقضَيَا عليهِ، واحتمَلَا صاحبَهُمَا.

ثمَّ قامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ أصحابِهِ فحرَّضَهُم عَلىٰ القتالِ، وقالَ: «**والذِي نفسُ محمدٍ بيَدِهِ لَا يُقاتِلُهُم اليومَ رجلٌ فيُقتلُ صَابرًا مُحتسبًا مقبلًا غيرَ مُدبرٍ، إلَّا أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ**».

فلمَّا دنَا المشركُونَ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **قومُوا إلَىٰ جنةٍ عرضُهَا السموَاتُ والأرضُ**. فقالَ عميرُ بنُ الحِمامِ الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رسولَ اللهِ، جنةٌ عرضُهَا السمواتُ

والأرضُ؟! قالَ: **نعَم**. قالَ: بَخٍ بَخٍ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا يحمِلُكَ علَىٰ قولِ بَخٍ بَخٍ؟. قالَ: لَا واللهِ يَا رسولَ اللهِ، إلَّا رجاءَ أنْ أكونَ مِن أهلِهَا.**

قالَ: **فإنَّكَ مِن أهلِهَا**. فأخرجَ تمراتٍ مِن كيسٍ كانَ معَهُ، فجعلَ يأكُلُ منهُنَّ، ثمَّ قالَ: لئِن أنَا حَيِيتُ حتَّىٰ آكلَ تمرَاتِي هذِهِ إنهَا لحياةٌ طويلَةٌ، فرَمَىٰ مَا كانَ معَهُ مِن التمرِ، وتَقدَّمَ نحوَ المُشركِينَ وهُوَ يقُولُ:

رَكضًا إلَىٰ اللَّهِ بغَيرِ زَادِ ... إلَّا التُّقَىٰ وعَمَلُ المعَادِ

والصَّبرُ فِي اللَّهِ علَىٰ الجهادِ ... وكلُّ زادٍ عرضةُ النفادِ

غيرَ التقىٰ والبرِّ والرشَادِ

ثمَّ قاتلَهُم حتَّىٰ قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذَ حفنَةً منَ الترابِ فرمَىٰ بهَا وجوهَ المُشركينَ، فلَم يبقَ مُشركٌ إلَّا دخلَ فِي عينَيهِ مِن ذلكَ الترَابِ شيءٌ، وأمرَ أصحابَهُ فقَالَ: «**شُدُّوا**»، فكانَتِ الهزيمةُ، وقُتِلَ مَن قُتلَ مِن صناديدِ قريشٍ، وأُسرَ مَن أسرَ مِن أشرافِهِم، قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١).

وفِي ذلكَ المَوقفِ تَجلَّت شجاعَةُ الشجعَانِ، حينَ بذلُوا مُهجتَهُم فِي سبيلِ إعلاءِ كلمَةِ اللهِ تعَالىٰ ونُصرةِ دِينِهِ، فلمَّا قامَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عريشِهِ الذِي أُعدَّ لهُ، قامَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شاهرًا بالسَّيفِ عَلىٰ رأسِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَهوِي إليْهِ أحدٌ منَ المشركِينَ إلَّا أهوَىٰ إليهِ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتَلَهُ دُونَ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنِّي لواقفٌ يومَ بدرٍ فِي الصفِّ فنظرْتُ عَنْ يمينِي وشِمالِي فإذَا أنَا بينَ غُلامَيْنِ منَ الأنصارِ حديثَةٍ أسنانُهُما وهُما: معاذُ بنُ عَمرِو

(١) سورة الأنفال:١٧.

ابنِ الجَموحِ، ومعاذُ بنُ عفرَاءَ، فتمنَّيتُ أنْ أكونَ بَينَ أظلعَ مِنهُمَا، فغمزَنِي أحدُهُمَا فقالَ: يَا عمِّ، أتعرِفُ أبَا جهلٍ؟ فقُلتُ: نعَم، ومَا حاجتُكَ إلَيهِ؟

قالَ: أُخبِرتُ أنهُ يسُبُّ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوالذِي نَفسِي بيدِهِ لئِنْ رَأيتُهُ لَا يفارِقُ سوَادِي سوادَهُ حتَّىٰ يمُوتَ الأعجلُ منَّا، فتعجَّبتُ لذَلكَ، فغمزَنِي الآخرُ فقالَ لِي أيضًا مثلَهَا، فلَمْ أنشبْ أنْ نظرْتُ إلَىٰ أبِي جهلٍ وهُوَ يجُولُ فِي الناسِ فقُلتُ: هذَا صاحِبُكُمُ الذِي تسألَانِ عَنهُ فابتدَرَاهُ بسَيفَيهِمَا فضرَبَاهُ حتَّىٰ قتَلَاهُ، ثُمَّ انصرَفَا إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرَاهُ فقَالَ: «**أيكُمَا قتلَهُ؟**». فقالَ كلٌّ منهُمَا: أنَا قتلتُهُ. قال: «**هَلْ مَسحتُمَا سيفَيكُمَا؟**». قالَا: لَا، قالَ: فنظَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السيفَيْنِ فقَالَ: «**كِلاكُمَا قتَلَهُ**»، وقضَىٰ بسَلبِهِ لمُعاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ. ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن ينظرُ مَاذَا صنعَ أبُو جَهلٍ؟**». فقالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَا يَا رسولَ اللهِ، فانطلَقَ فوجدَهُ قدَ ضربَهُ ابنَا عفرَاءَ حتَّىٰ بَردَ، قالَ ابنُ مسعُودٍ: فوجدتُهُ بآخرِ رمقٍ فعرفتُهُ، فأخذتُ بلحيَتِهِ، ووضَعتُ رِجلِي عَلَىٰ عنقِهِ وقُلتُ: أنتَ أبُو جهلٍ؟ هَلْ أخزَاكَ اللهُ؟ فقالَ: وهَل فوقَ رجلٍ قتَلَهُ قومُهُ، أخبرنِي لمَنِ الدائرَةُ اليومَ؟ قلتُ: للهِ ولرسُولِهِ، ثمَّ احتزَزتُ رأسَهُ وجِئتُ بِهِ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، هذَا رأسُ عدوِّ اللهِ.

ولـمَّا دارَتِ رحَىٰ المعركةِ أبصَرَ بِلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميةَ بنَ خلفٍ وهُوَ الذِي كانَ يَلِي تعذيبَهُ بمكَّةَ، فقالَ: أميةُ بنُ خَلفٍ؟! لا نجوتُ إنْ نَجَا، وخرجَ معَهُ فريقٌ منَ الأنصَارِ، فطعَنُوهُ بسُيوفِهِم حتَّىٰ ماتَ.

وفِي هذِهِ الغزوةِ العظيمةِ أيَّدَ اللهُ المؤمنينَ بالملائكةِ تُقاتِلُ معَهُم، جاءَ جِبريلُ إلَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «**مَا تعدُّونَ أهلَ بدرٍ فِيكُم؟ قالَ: مِن أفضلِ المُسلمينَ. قالَ: وكذلِكَ مَن شهدَ بَدرًا منَ المَلائكَةِ**».

وبينَمَا رجلٌ منَ المُسلمينَ يشتدُّ في أَثَرِ رجلٍ منَ المُشركينَ أمامَهُ، إذْ سمعَ ضَربةً بالسوطِ فوقَهُ وصَوتَ الفارسِ يقُولُ: «أقدِمْ حَيزُومُ»، إذْ نظَرَ إلَىٰ المشركِ أمامَهُ قَد خرَّ مُستلقيًا، فنظَرَ إليهِ فإذَا هُوَ قَد خُطِمَ أنفُهُ وشُقَّ وجهُهُ كضَربةِ السَّوطِ، واخضَرَّ ذلكَ أجمَعُ، فجاءَ الأنصاريُّ فحدَّثَ بذلِكَ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: «**صدَقتَ، ذلكَ مِن مدَدِ السماءِ الثالثَةِ**»، فقتَلُوا يومئذٍ سَبعينَ، وأسَرُوا سبعينَ، قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجلالِ وجهِهِ وعَظيمِ سلطانِهِ، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وَعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمُونَ:

فلمَّا انتهَتِ المعركَةُ ونصرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أولياءَهُ، أمرَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ تُطرَحَ رُءوسُ الكُفرِ فِي قليبِ بَدرٍ، فطُرِحوا فِيهِ، فلمَّا ألقاهُمْ فِي القليبِ وقَفَ علَيهِم فقَالَ: «**يَا أهلَ القَليبِ، يَا عُتبةَ بنَ رَبيعَةَ، ويَا شَيبةَ بنَ رَبيعَةَ، ويَا أميَّةَ بنَ خَلفٍ ويَا أبَا جَهلٍ** -فعدَّدَ مَنْ كانَ مِنهُمْ فِي القَليبِ- **هَلْ وَجدتُم مَا وعَدَ ربُّكُم حقًّا، فإنِّي قَد وجدْتُ مَا وعدَنِي ربِّي حَقًّا**؟. فقالَ المسلِمونَ: يَا رسُولَ اللهِ، أتنَادِي قومًا قد جُيفُوا؟

---

(١) سورة الأنفال:١٢.

قالَ: **مَا أنتُم بأسمَعَ لِمَا أقُولُ مِنهُم، ولكنَّهُم لَا يستطيعُونَ أنْ يُجيبُونِي**».

ولمَّا أمرَ رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يُلقَوا فِي القليبِ، وأُخِذَ عُتبةُ بنُ رَبيعَةَ، فسُحبَ فِي القَليبِ، نظرَ رسُولُ اللهِ ﷺ فِي وجهِ أبِي حُذيفةَ بنِ عتبةَ فإِذَا هوَ كئيبٌ قد تغيَّرَ لونُهُ، فقالَ: «**يَا أبَا حُذيفةَ، لعلَّكَ قَد دخلَكَ مِن شأنِ أبِيكَ شيءٌ؟**». فقالَ: لَا واللهِ يَا رسولَ اللهِ، ما شككتُ فِي أبِي وَلَا فِي مَصرعِهِ، ولكنِّي كنتُ أعرِفُ مِن أبِي رأيًا وحِلمًا وفضلًا، فكنتُ أرجُو أنْ يهدِيَهُ ذَلكَ للإسلامِ، فلمَّا رأيتُ مَا أصابَهُ وذَكرتُ مَا ماتَ عَليهِ مِنَ الكُفرِ بَعدَ الذِي كنتُ أرجُو لَهُ أحزنَنِي ذَلكَ، فدعَا لَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ بخيرٍ وقَالَ لهُ خيرًا.

ومِن تمَامِ رَحمَةِ اللهِ تعَالَىٰ أنْ كانَ جُملةُ مَن قُتلَ منَ الكفارِ يومَ بدرٍ سَبعينَ، معَ حضورِ ألفٍ مِنَ الملائكَةِ، وذلكَ لمَا كانَ مِن قدَرِ اللهِ السابقِ فِيمَنْ بقِيَ منهُم أنْ سيَسلَمُ مِنهُم بشرٌ كثيرٌ، ولَو شاءَ اللهُ لسلطَ عَليهِم مَلَكًا واحدًا فأهلكَهُم عَن آخرِهِم.

كمَا أنَّ مِن حكمَةِ اللهِ تعَالَىٰ أنْ جعلَ قتلَ صنادِيدِ المُشركينَ عَلىٰ يدِ الصحابةِ، حتَّىٰ يشفُوا صدورَهُم ممَّنْ كانَ يُعذِّبُهُم أولَ ظهورِ الإسلامِ، فكانَ قَتلُهُم بأيدِي المؤمنينَ أبلَغَ مِن أنْ تأتِيَ أحدَهُم صاعقةٌ، أو يمُوتَ حتفَ أنفِهِ، وللهِ فِي ذلكَ الحِكمَةُ البالغَةُ، قالَ تعَالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾(١).

وممَّا عذَّبَ اللهُ بهِ قُريشًا أنهُم لمَّا بلغَهُم خبرُ القَتلىٰ بَكَوا علىٰ قَتلاهُم، ثمَّ قالُوا: لَا تفعَلُوا، يبلغُ مُحمدًا وأصحابَهُ فيشمَتُوا بِكُم، وكانَ هذَا مِن تمامِ مَا عذبَ اللهُ بِهِ أحياءَهُم فِي ذَلكَ الوَقتِ، وهُوَ تركهُم البُكاءَ علَىٰ قتلَاهُم؛ لأنَّ البكَاءَ عَلَىٰ المَيتِ

(١) سورة التوبة: ١٤-١٥.

ممَّا يَبلُّ فؤادَ الحَزينِ.

وقَد كانَت غَزوَةُ بَدرٍ فِي يوم الجُمعةِ السابعَ عَشرَ مِن شَهرِ رَمضانَ، فنصَرَ اللهُ بهَا الإسلامَ وأهلَهُ، وأذلَّ الشِّركَ وأهلَهُ، وقَد فتَحَ اللهُ بِهَا عَلىٰ المُؤمنينَ فَتحًا مبينًا، وكتَبَ لهُم بِهَا مَجدًا عَظيمًا يبقَىٰ عَلىٰ مرِّ الأيامِ والدهورِ، لَا يَخبُو نُورُهُ، ولَا تزولُ ذِكرَاهُ.

၈ ❁❁❁ ၈

(٦٩) غزوةُ أحُدٍ

الحمدُ للهِ لهُ الحَمدُ فِي الأولَىٰ والآخرَةِ، أحمدُهُ وأشكرُهُ علَىٰ نعمِهِ البَاطنَةِ والظاهرَةِ، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، هدَىٰ بإذنِ ربِّهِ القلوبَ الحائِرَةَ، صَلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ نُجومِ الدجَىٰ والبُدورِ السافِرَةِ.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّهُ لمَّا دخَلتْ سنَةُ ثلاثٍ مِنَ الهجرَةِ عقدَ مُشرِكُو قريشٍ العزمَ علَىٰ غزوِ المدينَةِ، ليُدرِكُوا ثأرَهُم مِنْ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَا فعَلَهُ بأصحابِ القَليبِ فِي غزوةِ بَدرٍ.

ولمَّا رجعَ إلَىٰ مكةَ مَن نَجَا مِن كفَّارِ قُريشٍ مِنَ القَتلِ فِي بدرٍ، ورجَعَ أبُو سفيانَ ابنِ حربٍ بالقافلَةِ، مشَىٰ عبدُ اللهِ بنُ أبِي ربيعةَ، وعكرمةُ بنُ أبِي جهلٍ، وصفوانُ بنُ أميَّةَ فِي رجالٍ مِن قريشٍ ممَّنْ أصيبَ آباؤُهُم وأبنَاؤُهُم وإخوَانُهُم يومَ بدرٍ، فكلَّمُوا أبَا سُفيانَ ومَن كَانَت لَهُ تجارَةُ تِلكَ العِيرِ مِنْ قُريشٍ، فقالُوا: يَا معشرَ قُريشٍ، إنَّ محمدًا قَدْ وترَكُم وقتَلَ خيارَكُم، فأعينُونَا بهذَا المالِ علَىٰ حَربِهِ، لعَلَّنَا نُدرِكُ منهُ ثأرَنَا، ففعَلُوا.

فأجمَعَت قُريشٌ ومَن أطاعَهَا مِن قبائِلِ كنانَةَ وأهلِ تهَامَةَ لحَربِ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعَا جُبيرُ بنُ مطعمٍ غلامًا لهُ حبشيًّا يقَالُ لهُ: وَحشيٌّ، يقذِفُ بحربَةٍ لَهُ قلَّما يُخطِئُ بهَا، فقالَ لَهُ: اخرُجْ معَ الناسِ، فإنْ أنتَ قتلتَ حَمزةَ عَمَّ مُحمدٍ بعَمِّي طُعيمةَ بنِ عَديٍّ فأنتَ عَتيقٌ.

وكانَ وحشيٌّ كلَّمَا مرَّ بهِندِ بنتِ عُتبةَ أوْ مَرتْ بهِ تقولُ: وَيهَا أبَا دَسْمَةَ، اشفِ واشتَفِ، تحرضُهُ علَىٰ قَتلِ حمزَةَ بنِ عبدِ المُطلِبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لقَتلِهِ لأبِيهَا.

فخرَجَتْ قريشٌ بحَدِّهَا وحَديدِهَا، وأقبَلُوا حتَّىٰ نزَلُوا علَىٰ شَفيرِ الوَادِي مقابلَ المدينَةِ، جهَةَ أحدٍ.

فلمَّا سمِعَ بهِم رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كانَ رأيُهُ أنْ يُقيمَ بالمَدينَةِ فيُقاتِلُهُم فِيهَا، وقالَ لهُم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنِّي رأيتُ أنِّي فِي درعٍ حصينَةٍ، فأوَّلتُهَا المدينَةَ، وأنِّي مردفٌ كبشًا، فأولتُهُ كبشَ الكَتيبةِ، ورَأيتُ أنَّ سَيفِي ذَا الفقَارِ فُلَّ، فأولتُهُ فَلًّا فِيكُم، ورأيتُ بقرًا تُذبحُ، فبَقْرٌ، واللهِ خيرٌ**».

فلمَّا قصَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رؤيَاهُ علَىٰ أصحابِهِ قالَ لهُم: «**إنْ رأيتُم أنْ تُقيمُوا بالمدينَةِ وتدعُوهُم حيثُ نَزلُوا، فإنْ أقامُوا أقامُوا بشَرِّ مقَامٍ، وإنْ هُم دخَلُوا علينَا قاتَلنَاهُم فِيهَا**».

فقالَ لَهُ ناسٌ لَم يَكُونُوا شهِدُوا بَدرًا: تخرجُ بنَا يَا رسُولَ اللهِ إلَيهِم نُقاتلهُم بأحُدٍ، ورَجَوا أنْ يُصيبَهُم مِنَ الفَضيلَةِ مَا أصابَ أهلَ بَدرٍ، فمَا زالُوا برَسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ لبسَ أداتَهُ، ثُمَّ ندِمُوا وقالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أقِمْ، فالرَّأيُ رَأيُكَ، فقَالَ لَهُم: «**مَا ينبَغِي لنبيٍّ أنْ يضَعَ أداتَهُ بعدَمَا لَبسَهَا، حتَّىٰ يحكُمَ اللهُ بَينَهُ وبَينَ عَدوِّهِ**».

فخرجَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمُسلمونَ، وهُم ألفُ رجُلٍ، والمشركونَ ثلاثَةُ آلافٍ، فمضَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتَّىٰ إذَا كانَ بالشوطِ بينَ المدينَةِ وأحدٍ قامَ عبدُ اللهِ بنُ أبَيٍّ ابنُ سَلُولَ فقَالَ: مَا ندرِي، علامَ نَقتلُ أنفسَنَا هَاهُنَا أيهَا الناسُ؟ فرجَعَ فِي ثَلثمِائَةٍ ممَّنْ اتبعَهُ مِن قَومِهِ مِن أهلِ النفاقِ والريبِ، فبقِيَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي سَبعمِائَةٍ.

واتبعَهُم عبدُ اللهِ بنُ عَمرِو بنِ حَرامٍ، والدِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ فقَالَ: يَا قَومِ، أذكِّركُم

اللهَ ألَّا تخذلُوا قومَكُم ونبيَّكُم عندمَا حضَرَ مِن عدُوِّهِم.

قالُوا: لَو نعلَمُ أنَّكُم تقاتِلُونَ لمَا أسلَمنَاكُم، ولكِنَّا لَا نرَىٰ أنْ يكُونَ قتالٌ، فلمَّا استعصَوْا عَليهِ وأبَوْا إلَّا الانصرافَ قالَ: أبعدَكُمُ اللهُ أعداءَ اللهِ، فسيُغنِي اللهُ عَنكُم نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفِي هؤلاءِ نزلَ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ [آل عمران:١٦٧].

ثمَّ سارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ نزلَ بأحُدٍ، وكانَ علَىٰ خَيلِ المُشركِينَ يومَئذٍ خالدُ بنُ الوَليدِ.

وتعبَّأَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقتَالِ، وأجلَسَ جيشًا منَ الرماةِ، وكانَ عددُهُم خمسينَ رجلًا، وأمَّرَ عليهِم عبدُ اللهِ بنُ جُبيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقالَ: «**لَا تبرَحُوا، إنْ رأيتمُونَا ظهرنَا عَليهِم فَلَا تبرَحُوا حتَّىٰ أرسِلَ إليكُم، وإنْ رأيتُمُوهُم ظهرُوا علينَا فَلَا تُعينُونَا، لَا يأتُونَا مِنْ خلفِنَا، فاثبُتُوا مكانَكُم، لَا نُؤتينَ مِن قِبلِكُم**».

ثُمَّ نشبَتِ الحَربُ، وقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرضُ الناسَ علَىٰ الجهَادِ، فأخذَ سيفًا يومَ أحدٍ وقالَ: «**مَن يأخذُ هذَا السيفَ؟**»، فأخذَهُ قومٌ فجعَلُوا ينظُرونَ إليهِ، فقالَ: «**مَن يأخذُهُ بحقِّهِ؟**»، فأحجَمَ القومُ، فقالَ أبُو دجانَةَ سِماك بنُ خرشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَا آخذُهُ بحقِّهِ، فأخذَهُ ففلَقَ بِهِ هامَ المُشركينَ.

واقتتَلَ الناسُ حتَّىٰ حمِيتِ الحربُ، وقاتَلَ أبُو دُجانَةَ حتَّىٰ أمعنَ فِي الناسِ، فجعلَ لَا يلقَىٰ أحدًا إلَّا قتلَهُ، وكانَ فِي المشركينَ رجلٌ لَا يدعُ جَريحًا إلَّا أجهَزَ عَليهِ، فجمَعَ اللهُ بينَهُ وبينَ أبِي دجانَةَ، فالتقيَا، فاختلفَا ضَربتينِ، فضربَهُ أبُو دجانَةَ فقتلَهُ.

وفِي هذِهِ الغَزوةِ حلفَ أُبيُّ بنُ خلفٍ ليقتُلَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَل أنَا أقتُلُهُ**».

فلمَّا أقبلَ أبيُّ بنُ خلفٍ، حمَلَ علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريدُ إبرارَ قسمِهِ، فطعنَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَيبِ دِرعِهِ، فجُرحَ جُرحًا خفيفًا، فوقع يخُورُ خوارَ الثورِ، فاحتملُوهُ وقالُوا: ليسَ بكَ جراحةٌ، فمَا يجزعُكَ؟ قالَ: أليسَ قالَ: لأقتلنَّكَ؟ ووجدَ مسَّ الألمِ فقالَ: واللهِ لَو كانَت بجميعِ ربيعَةَ ومُضرَ لقَتلَتْهُم، فلَم يَلبثَ إلَّا يومًا أو بعضَ يومٍ حتَّىٰ ماتَ مِن ذلكَ الجُرحِ.

ثمَّ أنزلَ اللهُ نصرَهُ علىٰ المسلمينَ، وصدقَهُم وعدَهُ، فقتَلُوا المشركِينَ قتلًا ذَريعًا حتَّىٰ أجلَوْهُم عَنْ معسكرِهِم، وكانَ أولُ النهارِ للمُسلمينَ عَلىٰ الكفارِ، وكانُوا لَا يشُكُّونَ في هزيمَةِ المُشركينَ، قالَ اللهُ تعَالىٰ فِي ذلِكَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[1]. والحسُّ: هُو القتلُ.

فلمَّا رَأىٰ الرماةُ أنَّ المشركِينَ قَد هرَبُوا، وتيقَّنُوا انتصارَ المسلِمِينَ، تركُوا أماكِنَهُم، ونسُوا مَا أمرَهُمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهِ مِن مُلازمَةِ أماكنِهِم، وقالُوا: أي قَومِ، الغنيمَةَ، ظهَرَ أصحابُكُم فمَا تنظُرونَ؟ فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جُبيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنسيتُم مَا قالَ لكُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالُوا: إنَّا واللهِ لنأتِينَّ الناسَ فلنُصيبَنَّ منَ الغَنيمَةِ.

ولمَّا مالَتِ الرماةُ عَن أماكنِهِم حينَ انكشَفَ القومُ، وخلَّوا ظهُورَ الصحابَةِ للخيلِ، أتَىٰ المشركونَ مِن خلفِهِم، وصرَخَ صارخٌ: ألَا إنَّ محمدًا قَد قُتلَ، فانكفَأَ الصحابَةُ وانكفَأَ القومُ عَليهِم، وانكشَفَ المُسلمونَ، وأصابَ منهُم العدوُّ، وكانَ يومَ بلاءٍ وتَمحيصٍ، أكرَمَ اللهُ فِيهِ مَن أكرَمَ بالشهَادَةِ.

ففِي هذِهِ المعركَةِ قتلَ حمزةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قتلَهُ وَحشيٌّ غلامُ جُبيرِ بنِ مُطعمٍ، حيثُ رمَاهُ بحَربتِهِ مِن بَعيدٍ، قالَ وحشِيٌّ: واللهِ إنِّي لأنظُرَ إلَىٰ

(١) آل عمران:١٥٢.

حمزةَ يهُدُّ الناسَ بسَيفِهِ مَا يترُكُ شيئًا يمُرُّ بِهِ، مِثْلُ الجملِ الأورَقِ، فلمَّا رأيتُ مكانَهُ وتمكَّنتُ مِنهُ، هَززتُ حَربَتِي، حتَّىٰ إذَا رَضيتُ مِنهَا دَفعتُها عَليهِ، فوقَعتْ مِنهُ فِي مقتلٍ، فأقبَلَ نَحوِي، فغلبَ فوَقعَ، وأمهلتُهُ حتَّىٰ إذَا ماتَ جئتُ فأخَذتُ حَربَتِي، ثمَّ تنحَّيتُ إلَىٰ العسكرِ، ولَم يَكُن لِي بشَيءٍ حاجَةٌ غيرُهُ.

وانهزَمَ الناسُ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ أحُدٍ وبقِيَ معهُ أحدَ عشَرَ رجلًا منَ الأنصارِ وطلحَةُ بنُ عُبيدِ اللهِ، ووصلَ العدوُّ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدُفِعَ عَلَىٰ الحجارَةِ حتَّىٰ وقَعَ عَلىٰ جنبِهِ، وأصيبَتْ أسنانُهُ، وشُجَّ فِي وجهِهِ، وجُرِحَتْ شفتُهُ حتَّىٰ جعلَ الدمُ يسِيلُ فِي وجهِهِ، فجعَلَ يَمسحُ الدَّمَ ويَقولُ: «**كيفَ يُفلحُ قومٌ خضبُوا وجهَ نَبيِّهم وهُوَ يدعُوهُم إلَىٰ اللهِ؟**»، فأنزَلَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾(1).

ولَم يَبقَ معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ طلحَةَ، وسَعدُ بنُ أبِي وقاصٍ، وقَدِ استخرجَ لهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عندَهُ مِنَ السهَامِ، وقالَ: «**ارْمِ، فدَاكَ أبِي وأمِّي**»، قالَ عَليُّ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمَعَ أبوَيهِ لأحدٍ إلَّا لسعدٍ، فإنِّي سمعتُهُ يقولُ يومَ أحدٍ: «**يَا سعدُ، ارْمِ فدَاكَ أبِي وأمِّي**»».

ولمَّا فشَا فِي الناسِ أنَّ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد قُتلَ، خارَتْ قُوَىٰ كثيرٍ مِنَ أصحابِهِ، وحصلَ لهُم بسببِ ذلكَ بلاءٌ وفتنةٌ، فقامَ أنسُ بنُ النضرِ -عَمُّ أنسِ بنِ مالِكٍ- مناديًا أصحابَهُ: يَا قوم، إنْ كانَ محمدٌ قَد قُتلَ، فإنَّ ربَّ محمدٍ لَم يُقتَلْ، فقاتِلُوا عَلَىٰ مَا قاتَلَ عليهِ مُحمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ تعَالىٰ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن**

(1) آل عمران: ١٢٨.

﴿يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

وكانَ أنسُ بنُ النضرِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد غابَ عَن قتالِ بَدرٍ فقَالَ: غِبتُ عَن أولِ قتالٍ قاتَلَهُ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للمشركِينَ، لئِن أشهدَنِي اللهُ قتالًا للمشركِينَ ليَرينَّ مَا أصنَعُ.

فلمَّا كانَ يومُ أحدٍ وقَدِ انكشَفَ المسلمُونَ، قالَ: اللهُمَّ إنِّي أعتذِرُ إلَيكَ عمَّا صنعَ هؤلاءِ -يعنِي: أصحابَهُ- وأبرَأُ إلَيكَ ممَّا جاءَ بِهِ هؤُلاءِ -يَعني: المُشركِينَ- ثُمَّ تقدَّمَ فقاتَلَ حتَّىٰ قُتلَ، فوجدَ فيهِ بضعٌ وثمانُونَ مِن بينِ ضربَةٍ بسَيفٍ، وطعنَةٍ برمحٍ، ورميَةٍ بسَهمٍ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فكنَّا نقُولُ: فيهِ وفِي أصحابِهِ نَزلَتْ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾(٢).

وفِي هذهِ الغزوةِ قتلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حرامٍ الأنصاريُّ -والدُ جابرٍ-، فجعَلَ جابرٌ يبكِي ويكشفُ الثوبَ عن وجهِهِ، فأخذَ أصحَابُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهَونَهُ، والنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَم ينهَهُ، لكنَّهُ قالَ لفاطمَةَ بنتِ عمرٍو عمَّةِ جابرٍ: «**لَا تَبكِهِ مَا زالتِ الملائكَةُ تُظلُّهُ بأجنحتِهَا حتَّىٰ رُفِعَ**».

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِه، والشكرُ لهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنَانِه، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لَهُ تعظيمًا لشأنِه، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عَبدُهُ ورَسُولُهُ الدَّاعِي إلَىٰ رِضوانِه، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

ففِي هذهِ الغزوَةِ تجلَّىٰ حبُّ الصحابَةِ لرسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ باتَ ظاهِرًا

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

جليًّا، وضرَبُوا أروعَ الأمثلَةِ فِي البذلِ والتفانِي والقتالِ دونَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ أرخصُوا أنفُسَهُم فِي سبيلِ ذلكَ.

فلما انهزَمَ الناسُ عنِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ أبُو طلحَةَ بينَ يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ رجلًا راميًا شديدَ النزعِ، كسَرَ يومَ أحدٍ قوسَينِ أو ثلاثًا، وكانَ الرجلُ يمُرُّ معَهُ بمجموعَةٍ منَ النبلِ، فيقُولُ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انثُرهَا لأبِي طلحَةَ**».

وقامَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ مكانٍ مُشرفٍ مرتفعٍ لينظُرَ إلَىٰ القومِ، فقالَ أبُو طلحَةَ: بأبِي أنتَ وأمِّي؛ لَا تُشرِفْ يُصِبْكَ سهمٌ مِن سهامِ القومِ، نَحرِي دونَ نَحرِكَ.

وقاتَلَ أبُو طلحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دونَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ شُلَّتْ يَدُهُ، قَد وَقَىٰ بهَا النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ أُحُدٍ.

وردَّ أبُو دجانةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبالَ عَن رسُولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقَاهُ ببدنِهِ، وقَد انحنَىٰ عَلىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ لَا تصلَ إلَيهِ النبَالُ، فلَم تزَلِ النبالُ تقَعُ فِي ظهرِهِ حتَّىٰ كثُرَتْ عَلَيهِ.

وقاتَلَتْ أمُّ عمارَةَ نُسيبَةُ بنتُ كعبٍ المازنيَّةُ عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتالَ أهلِ الإقدامِ والشجاعَةِ، وبذلَتْ فِي سبيلِ ذلِكَ نفسَهَا ومُهجتَهَا، رجاءَ مَا عندَ اللهِ، وحُبًّا لرسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَتْ أمُّ عمَارَةَ: خرجْتُ أولَ النهارِ أنظرُ مَا يصنعُ الناسُ ومعِي سقاءٌ فيهِ ماءٌ، فانتهَيتُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُوَ فِي أصحابِهِ، والدائرَةُ والريحُ للمُسلمينَ، فلمَّا انهزمَ المسلمونَ وولَّىٰ الناسُ عَن رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انحزْتُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُمتُ أباشِرُ القتالَ، وأذبُّ عنهُ بالسَّيفِ، وأرمِي بالقَوسِ، حتَّىٰ رأيتُ ابنَ قمئَةَ قد أقبَلَ وهوَ يقولُ: دلُّونِي علَىٰ محمدٍ، لَا نجوتُ إنْ نجَا، فاعترَضتُ لهُ أنَا ومُصعبُ بنُ عُميرٍ وأناسٌ ممَّن ثبتَ معَ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضربَنِي فِي عاتقِي ضربةً حتَّىٰ خلصَت الجِراحُ إليَّ، ولقَد ضربتُهُ علَىٰ ذلكَ ضرباتٍ،

ولكِنَّ عدُوَّ اللهِ كانَت عَليهِ درعَانِ.

ولمَّا انتهَتِ المعركَةُ أشرفَ أبُو سفيانَ عَلىٰ مكانٍ مرتفِعٍ ونادَىٰ: أفِي القومِ محمدٌ؟ ثلاثَ مراتٍ، فنهَاهُمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُجيبُوهُ، ثمَّ قالَ: أفِي القومِ ابنُ أبِي قحافَةَ؟ ثلاثَ مراتٍ، ثمَّ قالَ: أفِي القومِ ابنُ الخطابِ؟ ثلاثَ مراتٍ، ثمَّ رجعَ إلَىٰ أصحابِهِ فقَالَ: أمَّا هؤلاءِ، فقَد قُتِلُوا، فمَا ملَكَ عُمرُ نَفسَهُ، فقالَ: كذبتَ واللهِ يَا عدوَّ اللهِ، إنَّ الذينَ عددتَ لأحياءٌ كُلُّهُم، وقَد بقيَ لكَ مَا يَسُوؤُكَ، قالَ: يومٌ بيومِ بَدرٍ، والحربُ سِجالٌ، إنكُم ستجدُونَ فِي القومِ مُثلةٌ -أي: تَشويهًا-، لَم آمُرْ بهَا وَلَمْ تَسؤنِي، ثمَّ أخذَ يرتَجزُ: اعلُ هُبَلُ، اعلُ هُبَلُ، فقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا تجِيبُوهُ؟**»، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ما نقُولُ؟ قالَ: «**قولُوا: اللهُ أعلَىٰ وأجَلُّ**»، قالَ: لنَا العُزَّىٰ ولَا عُزَّىٰ لَكُم، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا تُجيبُوهُ؟**»، قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، ما نَقولُ؟ قالَ: «**قولُوا: اللهُ مَولَانَا، وَلَا مَولَىٰ لَكُم**».

ثم انصرفَ أبُو سفيانَ ومَن معَهُ مِنَ المُشركِينَ، فامتطَوا الإبلَ ووجَّهُوا قافِلينَ إلَىٰ مكةَ.

وخرجَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبحثُ عَن حمزَةَ بنِ عَبدِ المُطلبِ فوجَدَهُ ببَطنِ الوادِي، قَد بُقِرَ بَطنُهُ عَن كبدِهِ، ومُثِّلَ بِهِ فجُدعَ أنفُهُ وأذنَاهُ، فحزِنَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلكَ حُزنًا شديدًا، وغاظَهُ مَا فُعِلَ بعَمِّهِ.

وبينَمَا هُم يلتمِسونَ القَتلَىٰ إذْ أقبلَتِ امرأةٌ تسعَىٰ حتَّىٰ كادَتْ أنْ ترَىٰ القَتلَىٰ، فكرِهَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ ترَاهُم، فقَالَ: «**المَرأةَ المَرأةَ**».

قالَ الزبيرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فتوسَّمتُ أنَّها أمِّي صفيَةُ، فخرَجْتُ أسعَىٰ إلَيهَا، فأدركتُهَا قبلَ أنْ تصِلَ إلَىٰ القَتلَىٰ، فضرَبَتْ فِي صدرِي، وكانَتِ امرأةً جَلدةً، وقالَتْ: إلَيكَ، لَا أرضَ لكَ، فقلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزَمَ عَليكِ، فوقفَتْ، وأخرجَتْ ثَوبَينِ

معَهَا، فقالَتْ: هذانِ ثوبانِ جئتُ بهِمَا لأخِي حمزَةَ، فقَدْ بلغَنِي مقتَلُهُ، فكفِّنُوهُ فِيهِمَا، فجئنَا بالثوبَينِ لنكفنَ فيهما حمزَةَ، فإذَا إلَىٰ جنبِهِ رجلٌ منَ الأنصارِ قتيلٌ، قَد فعلَ بِهِ كمَا فُعلَ بحمزَةَ، فوجَدْنَا غضاضَةً وحياءً أنْ نكفنَ حَمزةَ فِي ثَوبَيْنِ والأنصَاريُّ لَا كفَنَ لَهُ، فكَفَّنَّا حمزَةَ فِي ثَوبٍ والأنصَارِيَّ فِي ثَوبٍ.

ثُم قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن رجُلٌ ينظرُ لِي مَا فعلَ سَعدُ بنُ الرَّبيعِ؟ أفِي الأحياءِ هوَ أمْ فِي الأمواتِ؟**»، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ: أنَا، فنظرَ فوجدَهُ جَريحًا فِي القتلَىٰ وبهِ رمقٌ، فقَالَ لَهُ: إنَّ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَني أنْ أنظُرَ، أفِي الأحياءِ أنتَ أمْ فِي الأمواتِ؟ فقَالَ: أنَا فِي الأمواتِ، فأبلغْ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِّي السلامَ، وقُلْ لَهُ: إنَّ سعدَ بنَ الربيعِ يقُولُ لكَ: جزَاكَ اللهُ عنَّا خيرَ مَا جزَىٰ نَبيًّا عَنْ أمتِهِ، وأبلِغْ قَومَكَ عنِّي السلامَ، وقُل لَهُم: إنَّ سعدَ بنَ الرَّبيعِ يَقولُ لَكُم: إنَّهُ لَا عُذرَ لكُمْ عندَ اللهِ إنْ خلصَ إلَىٰ نَبيِّكُم ومِنكُم عَينٌ تَطرُفُ، ثُمَّ لَم يَبرَحْ حتَّىٰ ماتَ، فجاءَ الرجلُ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرَهُ خَبرَهُ.

وقَدْ أصابَ الصحابَةَ حينَ دُفنَ المَوتَىٰ جهدٌ ومشقَّةٌ، فقَدْ خرَجُوا مِن تعبِ المعركَةِ، وكثُرَ القَتلَىٰ حتَّىٰ كانَ عددُ الشهدَاءِ الذينَ قُتِلُوا منَ المسلمِينَ سَبعينَ رجُلًا، فلَم يَستطِيعُوا أنْ يدفنُوا كلَّ واحدٍ عَلىٰ حدةٍ، فجاءُوا إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالُوا: قَد أصابَنَا قرحٌ وجهدٌ، فكيفَ تأمُرُنَا؟ فقالَ: «**احفِرُوا وأوسِعُوا، واجعَلُوا الرجلَيْنِ والثَّلاثةَ فِي القَبرِ الواحِدِ**»، قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، فأيُّهُم يُقدَّمُ؟ قالَ: «**أكثرُهُم قُرآنًا**».

وقدْ أمرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدفنِهِم بدمَائِهِم، ولَم يُصَلِّ عَليهِم، ولَم يُغسَّلُوا، ولمَّا لحِدُوا فِي قبورِهِم قامَ عَليهِم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالَ: «**أنَا شهيدٌ علَىٰ هؤلاءِ يومَ القيامةِ**».

قالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لمَّا حضرَ أُحُدٌ دعانِي أبِي مِنَ الليلِ فقالَ لِي: مَا أرانِي إلَّا مقتولًا فِي أولِ مَن يُقتلُ مِن أصحابِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنِّي لَا أترُكُ بعدِي أعزَّ عليَّ مِنكَ، غيرَ نَفسِ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنَّ عليَّ دينًا فاقضِه، واستَوصِ بأخواتِكَ خيرًا، فأصبحْنَا فكانَ أولَ قتيلٍ، فدَفنْتُ معَهُ آخرَ فِي قبرِه، ثمَّ لَمْ تطِبْ نَفسِي أنْ أترُكَهُ معَ آخرَ، فاستخرجتُهُ بعدَ سِتَّةِ أشهُرٍ، فإذَا هوَ كهَيئتِهِ يومَ وضعتُهُ غيرَ أذنِهِ.

ولمَّا رجعَ الناسُ إلَىٰ المدينَةِ مرُّوا بامرأةٍ مِن بنِي دينارٍ، قَد أصيبَ زوجُهَا وأخُوها وأبُوها معَ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا أخبرُوها بذلكَ قالَتْ: مَا فعلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قالُوا: خيرًا يَا أمَّ فلانٍ، هوَ بحَمدِ اللهِ كمَا تُحبينَ، قالَتْ: أرونيهِ حتَّىٰ أنظُرَ إليهِ، فأشيرَ لهَا إليهِ، حتَّىٰ إذَا رأتْهُ قَالَتْ: كلُّ مُصيبَةٍ بعدَكَ جَلَلٌ.

ولمَّا رجعَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن أحدٍ، جعلَ نساءُ الأنصارِ يبكِينَ علَىٰ مَن قتلَ مِن أزواجِهنَّ، فقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ولكِنَّ حمزَةَ لَا بَواكِيَ لَهُ**»، أَي: لَا بوَاكِيَ لَهُ بالمدينَةِ، ثمَّ نامَ، فجاءَ نساءُ الأنصَارِ يَبكينَ حمزَةَ، فلمَّا استيقَظَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: «**وَيحهُنَّ! مَا انقلَبْنَ بَعدُ؟! مروهُنَّ فلينقَلِبْنَ، ولَا يَبكينَ علَىٰ هالِكٍ بعدَ اليَومِ**».

❊❊❊

(٧٠) صلحُ الحُديبيَةِ

الحمدُ للهِ حَمدًا كثيرًا كمَا أمَر، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لهُ إرغامًا لمَن جحَدَ وكَفَر، وأشهَدُ أنَّ نبيَّنَا محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، سيدُ الخلائِقِ والبَشَر، الشفيعُ المشفَّعُ فِي المَحشَر، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ مَا اتصَلَتْ عينٌ بنظَر، وسمِعَتْ أذنٌ بخَبَر.

أمَّا بعدُ:

ففِي شهرِ ذِي القِعدةِ سنةَ ستٍّ مِنَ الهجرَةِ، خرَجَ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معتمِرًا لا يريدُ حربًا، واستنفَرَ العربَ ومَن حولَهُ مِن أهلِ البوادِي منَ الأعرابِ ليخرُجُوا معَهُ، وكانَ يخشَىٰ مِن قريشٍ أنْ يعرضُوا لهُ بحَربٍ، أو يصُدُّوهُ عَنِ البيتِ، فأبطَأَ عليهِ كثيرٌ منَ الأعرابِ، وخرَجَ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بمَن معَهُ مِنَ المهاجِرينَ والأنصَارِ ومَن لحِقَ بِهِ مِن العربِ، وساقَ معَهُ الهَديَ، وأحرَمَ بالعمرَةِ ليأمَنَ الناسُ مِن حربِهِ، وليعلَمُوا أنَّهُ إنمَا خرجَ زائرًا لهَذَا البيتِ ومُعظمًا لَهُ.

وسارَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ إذَا كانَ بعُسفانَ لقيَهُ بشرُ بنُ سفيانَ الكَعبيُّ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، هذِهِ قريشٌ قَد سمعَتْ بمَسيرِكَ فخرَجُوا كبارُهُم وصغَارُهُم، ونزلُوا بذِي طُوًى، يعاهدُونَ اللهَ لَا تَدخلُهَا عَليهِم أبدًا، وهذَا خالدُ بنُ الوليدِ فِي خيلِهِم، قَد قَدَّمُوهَا إلَىٰ كراعِ الغَميمِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يَا ويحَ قُريشٍ، لقَدْ أكلَتْهُمُ الحَربُ، ماذَا عَليهِم لَو خلَّوا بَينِي وبينَ سائرِ العربِ، فإنْ هُمْ أصابُونِي كانَ ذلِكَ الذِي أرَادُوا، وإنْ أظهرَنِي اللهُ عَلَيهِم دخلُوا فِي الإسلامِ وافرِينَ، وإنْ لَم يفعَلُوا قاتَلُوا وبِهِم قُوَّةٌ، فمَا تظُنُّ قريشٌ؟ فوَاللهِ لَا أزالُ أجاهدُ علَىٰ الذِي بعثَنِي اللهُ**

بِهِ، حتَّىٰ يُظهرَهُ اللهُ أو تنفرِدَ هذِهِ السالفَةُ»، أَي: صفحَةُ العُنقِ.

فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ أن يسلُكُوا ذاتَ اليمينِ، نحوَ طريقِ الحُديبيةِ أسفلَ مكةَ، فلمَّا رَأتْ خيلُ قريشٍ غبارَ الجيشِ وقَد خالَفُوا عَن طرِيقِهِم، ركضُوا راجعِينَ إلَىٰ قريشٍ، وسارَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حتَّىٰ إذَا سلكَ فِي ثنيَّةِ المرَارِ برَكَتْ ناقَتُهُ، فقالَ الناسُ: خَلأتِ، أي: حَرنَت، فقالَ: «**مَا خلأَتْ، ومَا هوَ لهَا بخُلقٍ، ولكنْ حبسَهَا حابسُ الفِيلِ عَنْ مكَّةَ، والذِي نفسِي بيدِهِ، لَا يسألُونِي خطةً يعظمونَ فيهَا حرمَاتِ اللهِ إلَّا أعطيتُهُم إيَّاهَا**»، ثمَّ قالَ للناسِ: انزِلُوا، فقِيلَ لهُ: يَا رسولَ اللهِ، مَا بالوَادِي ماءٌ نَنزِلُ عَليهِ، فأخرَجَ سهمًا ممَّا بحوزَتِهِ، فأعطاهُ رجلًا مِن أصحابِهِ، فنزَلَ بِهِ فِي قليبٍ مِنْ تِلكَ القُلبِ، فغَرَزَهُ فِي جَوفِهِ، فجاشَ بالروَاءِ حتَّىٰ شربَ الناسُ وسقُوا.

فلمَّا استقرَّ رسوُلُ اللهِ ﷺ، أتاهُ بُديلُ بنُ ورقَاءَ فِي رجالٍ مِن خزَاعَةَ، فكلمُوهُ وسألُوهُ مَا الذِي جاءَ بِهِ، فأخبرَهُم أنَّهُ لَم يأتِ يريدُ حربًا، وإنمَا جاءَ زائرًا للبيتِ ومعظمًا لحُرمتِهِ، فرجعُوا إلَىٰ قريشٍ فقالُوا: يَا معشرَ قُريشٍ، إنكُم تعجلُونَ عَلىٰ محمدٍ، إنَّ محمدًا لَم يَأتِ لِقتالٍ، إنمَا جاءَ زائرًا لهَذَا البَيتِ، فاتهَمُوهُم وقَالُوا لهُم قَولًا مُنكرًا، وقالُوا: وإنْ كانَ جاءَ وَلَا يُريدُ قتالًا، فوَاللهِ لَا يدخلُها علينَا عنوَةً أبدًا -أيْ: قهرًا وغلبَةً-، ولَا تَحدَّثُ بذَلكَ عنَّا العربُ.

وقَدْ كانَتْ خُزاعةُ موضعَ سرٍّ ونصحٍ لرسولِ اللهِ ﷺ، مُسلمُهَا ومشركُهَا، لَا يُخفونَ عنهُ شيئًا كانَ بمكَّةَ.

ثمَّ بعثَتْ قريشٌ لرسولِ اللهِ ﷺ مِكرزَ بنَ حَفصٍ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللهِ ﷺ مُقبلًا، قالَ: «**هذَا رجلٌ غادِرٌ**»، فلمَّا انتهَىٰ إلَىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وكلَّمَهُ، قالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ مثلَ مَا قالَ لبُديلٍ وأصحابِهِ، فرجعَ إلَىٰ قريشٍ فأخبرَهُم بمَا قالَ لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ.

ثم بعثُوا إليهِ الحُليسَ بنَ علقمَةَ، فلمَّا رآهُ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إنَّ هَذَا مِن قومٍ يتألهُونَ، فابعثُوا بالهَدي فِي وَجهِهِ حتَّىٰ يرَاهُ**»، فلمَّا رَأىٰ الهَديَ فِي قلائدِهِ يسيلُ عَليهِ مِن عرضِ الوادِي، رجعَ إلَىٰ قريشٍ ولَم يصِلْ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إعظامًا لمَا رَأىٰ، فقالَ لهُم ذلكَ، فقَالُوا لَهُ: اجلِسْ، فإنمَا أنتَ أعرابِيٌّ لَا عِلمَ لَكَ، فغضِبَ الحليسُ عندَ ذلكَ وقالَ: يَا معشَرَ قريشٍ، واللهِ مَا عَلىٰ هَذا عاقَدناكُم، أيُصدُّ عَن بَيتِ اللهِ مَن جاءَهُ معظمًا لَهُ؟! قالُوا: مَهْ، كُفَّ عنَّا يَا حليسُ حتَّىٰ نأخذَ لأنفسِنَا مَا نرضَىٰ بِهِ.

ثم بعثُوا إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عروةَ بنِ مسعودٍ الثقفيَّ، فقالَ: يَا معشرَ قريشٍ، إنِّي قَد رأيتُ مَا يلقَىٰ منكُم مَن بعثتمُوهُ إلَىٰ محمدٍ إذَا جاءَكُم مِنَ التعنيفِ وسوءِ اللفظِ، وقَد عرفتُم أنكُمْ والدٌ وأنِّي ولَدٌ -وكانَ عروةُ ثقفيًّا وأمهُ مِن قُريشٍ- وقَد سمعتُ بالذِي نَابَكُم، فجمعْتُ مَن أطاعَنِي مِن قومِي، ثمَّ جئتُكُم، حتَّىٰ آسيتُكُم بنَفسِي، قالُوا: صدَقتَ، مَا أنتَ عندَنَا بمُتَّهمٍ.

فخرجَ حتَّىٰ أتَىٰ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجلَسَ بَينَ يَديهِ، ثمَّ قالَ: يَا محمدُ، أجمَعْتَ أخلاطَ الناسِ ثمَّ جئتَ بهِم إلَىٰ أهلِكَ وعشيرَتِكَ لتكسِرَهُم بهِم، إنَّ قريشًا قَد خرَجَت، وهُم يُعاهدونُ اللهَ لَا تدخلُهَا عَليهِم عَنوةً أبدًا، وايمُ اللهِ لكأنِّي بهؤلاءِ قَد انكشَفُوا عنكَ غدًا.

وكانَ أبُو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقِفُ خلفَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَبَّهُ سبًّا منكَرًا وقالَ: أنحنُ ننكشِفُ عنهُ؟! فقالَ عروةُ: مَن هذَا يَا محمَّدُ؟ قالَ: «**هذَا ابنُ أبِي قحافَةَ**»، قالَ: أمَا واللهِ لولَا يدٌ كانَتْ لَكَ عندِي لكَافأتُكَ بهَا، ولكِنْ هذِهِ بِهَا.

ثمَّ جعلَ يتناوَلُ لحيَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُو يُكلمُهُ، والمُغيرةُ بنُ شعبَةَ واقفٌ عَلىٰ رأسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَديدِ، فجعلَ يقرعُ يدَهُ إذَا تناولَ لحيةَ

رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولُ: اكفُفْ يدَكَ عَن وجهِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ ألَّا تصلَ إليكَ، فقالَ عروةُ: وَيحَكَ، مَا أفظَّكَ وأغلظَكَ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ لهُ عروةُ: مَن هذَا يَا محمدُ؟ قالَ: هذَا ابنُ أخيكَ المُغيرةُ بنُ شعبَةَ، قالَ: أَي غُدَرُ، وهَل غسَلتَ سوءَتَكَ إلَّا بالأمسِ؟!

وقَدْ أرادَ عروَةُ بقَولِهِ هذَا: أنَّ المغيرَةَ قبلَ إسلامِهِ قتلَ ثلاثَةَ عشَرَ رجُلًا مِن بنِي مالكٍ مِن ثَقيفٍ، فوَدَىٰ عروةُ المقتولِينَ ثلاثَ عشرةَ ديةً، وأصلَحَ ذلكَ الأمرَ.

ثمَّ كلمَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمِثلِ مَا كلَّمَ بِهِ أصحابَهُ، وأخبرَهُ أنَّهُ لَم يأتِ يريدُ حربًا، فقامَ مِن عندِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَد رَأىٰ مَا يصنَعُ بِهِ أصحابُهُ، لَا يتوضأُ إلَّا ابتدرُوا وضوءَهُ، ولا يسقُطُ مِن شعرِهِ شيءٌ إلَّا أخذُوهُ، فرجَعَ إلَىٰ قُريشٍ فقَالَ: يَا معشرَ قريشٍ، إنِّي قدْ جئتُ كسرَىٰ فِي ملكِهِ، وقيصرَ فِي ملكِهِ، والنجاشيَّ فِي ملكِهِ، وإنِّي واللهِ مَا رأيتُ ملِكًا فِي قومِهِ قَط مثلَ مُحمدٍ فِي أصحابِهِ، ولَقَد رأيتُ قومًا لَا يُسلمُونَهُ لشَيءٍ أبدًا، فانظرُوا رَأيكُم.

ثمَّ دعَا رسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليبعثَهُ إلَىٰ مكَّةَ، فيبلغَ عنهُ أشرافَ قريشٍ مَا جاءَ لَهُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي أخافُ قريشًا علَىٰ نفسِي، وليسَ بمكةَ مِن بنِي عديٍّ بنِ كعبٍ أحدٌ يمنَعُنِي، وقَد عرَفَتْ قريشٌ عداوَتِي إيَّاهَا وغِلظَتِي عليهَا، ولكنِّي أدلُّكَ عَلىٰ رجلٍ أعزَّ بهَا منِّي، عثمَانَ بنِ عفانَ، فدعَا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمانَ بنَ عفانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فبعثَهُ إلَىٰ أبِي سفيَانَ وأشرافِ قريشٍ، يُخبرُهُم أنهُ لَمْ يأتِ لحربٍ، وإنمَا جاءَ زائرًا لهذَا البيتِ ومعظمًا لحرمتِهِ، فخرجَ عثمانُ إلَىٰ مكةَ، فلقيَهُ أبانُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ حينَ دخلَ مكةَ، أوْ قبلَ أنْ يدخُلَهَا، فحملَهُ بينَ يدَيهِ، ثمَّ أجارَهُ حتَّىٰ بلَّغَ رسالَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانطلَقَ عثمانُ حتَّىٰ أتَىٰ أبَا سفيَانَ وعظمَاءَ قريشٍ، فبلغَهُم عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أرسلَهُ بِهِ، فقَالُوا لعثمَانَ حينَ بلَّغَ

رسالةَ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم: إنْ شئتَ أنْ تطوفَ بالبيتِ فطُفْ، قالَ: مَا كنتُ لأفعلَ حتَّىٰ يطوفَ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتبسَتْهُ قريشٌ عندَهَا، فبلغَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمِينَ أنَّ عثمانَ قد قُتلَ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ ذلكَ: «**لَا نبرحُ حتَّىٰ نناجزَ القَومَ**»، ودَعَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ البيعةِ، فكانَتْ بيعةُ الرضوانِ تحتَ الشجرَةِ، وقَد بايعَهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الموتِ، وألَّا يفِرُّوا، فبايعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ، ولَم يتخلَّفْ عنْهُ أحدٌ منَ المُسلمينَ حضرَهَا، فبشرَهُم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برضوانِ اللهِ تعَالَىٰ عَنهُم وعظيمِ فضلِهِ عَليهِم، وقالَ لَهُم: «**أنتُم خيرُ أهلِ الأرضِ**»، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يدخُلُ أحدٌ النارَ إنْ شاءَ اللهُ مِن أصحَابِ الشجرَةِ الذِينَ بايَعُوا تحتَهَا**».

وقَد قيلَ لسلمَةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: علَىٰ أيِّ شيءٍ بايعتُم رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الحُديبيَةِ؟ قالَ: عَلىٰ المَوتِ.

وكانَ أولَ مَن بايعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيعَةَ الرضوانِ أبُو سنَانٍ الأسديُّ، وبايعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعثمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فضرَبَ بإحدَىٰ يدَيْهِ عَلىٰ الأُخرَىٰ، ثمَّ أتَىٰ الخبرُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الذِي ذُكرَ مِن أمرِ عثمانَ باطلٌ.

ثمَّ بعثَتْ قريشٌ سُهيلَ بنَ عمرٍو إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالُوا: ائتِ محمدًا وصالِحْهُ، ولَا يكُنْ فِي صلحِهِ إلَّا أنْ يرجِعَ عنَّا عامَهُ هذَا، فواللهِ لَا تتحدَّثُ العربُ أنَّهُ دخلَهَا عَنوةً أبدًا، فأتَاهُ سُهيلُ بنُ عمرٍو، فلمَّا رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقبلًا قالَ: «**قَد أرادَ القومُ الصلحَ حِينَ بعثُوا هذَا الرجُلَ**».

فلمَّا انتهَىٰ سهيلٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تكلَّمَ فأطالَ الكلامَ وترَاجَعَا، ثمَّ جرَىٰ بينهُمَا الصلحُ، فلمَّا التأمَ الأمرُ ولَم يبقَ إلَّا الكتابُ، وثَبَ عمرُ فأتَىٰ أبَا بكرٍ، فقالَ: يَا أبَا بكرٍ، أليسَ برَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالَ: بَلىٰ، قالَ: أوَلسنَا بالمسلمينَ؟

قالَ: بَلَىٰ، قالَ: أوليسُوا بالمشركينَ؟ قالَ: بلَىٰ، قالَ: فعَلامَ نُعطِي الدنيَّةَ فِي دينِنَا؟ فقالَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا عُمرُ، الزَمْ غَرزَهُ، فإنِّي أشهَدُ أنَّهُ رسُولُ اللهِ، قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنَا أشهَدُ أنَّهُ رسُولُ اللهِ.

ثمَّ أتَىٰ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، ألَسْتَ برَسُولِ اللهِ؟ قالَ: «**بَلَىٰ**»، قالَ: أوَلسنَا بالمسلمينَ؟ قالَ: «**بَلَىٰ**»، قالَ: أولَيسُوا بالمشركِينَ؟ قالَ: «**بَلَىٰ**»، قالَ: فعلامَ نُعطِي الدنيةَ فِي دينِنَا؟ قالَ: «**أنَا عبدُ اللهِ ورسولُهُ، لَن أخالِفَ أمرَهُ ولَن يُضيعَنِي**»، فكانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: مَا زلتُ أصومُ وأتصدقُ وأصلِّي وأعتقُ مِن الذِي صنعتُ يومئذٍ، مخافَةَ كَلامِي الذِي تكلَّمتُ يَومئذٍ حتَّىٰ رجوتُ أنْ يكونَ خَيرًا.

ثمَّ دعَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ بنَ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالَ: «**اكتُب: بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ**»، فقالَ سهيلٌ: لَا أعرفُ هذَا، ولكِن اكتُبْ: باسمِكَ اللهُمَّ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اكتُب: باسمِكَ اللهُمَّ**»، فكتبَهَا، ثمَّ قالَ: «**اكتُبْ: هذَا مَا صالَحَ علَيهِ محمدٌ رسولُ اللهِ سُهيلَ بنَ عَمرٍو**»، فقالَ سهيلٌ: لَو شهِدْتُ أنَّكَ رسولُ اللهِ لَم أقَاتِلْكَ، ولَكِنِ اكتُبْ اسمَكَ واسمَ أبيكَ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اكتُب: هذَا مَا صالحَ عَليهِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سُهيلَ بنَ عمرٍو، اصطلَحَا عَلَىٰ وضعِ الحربِ عنِ الناسِ عشرَ سِنينَ، يأمَنُ فيهِنَّ الناسُ، ويكُفُّ بعضُهُم عَن بعضٍ، عَلَىٰ أنهُ مَن أتَىٰ محمدًا مِن قريشٍ بغَيرِ إذنِ وليِّهِ ردَّهُ عَليهِم، ومَن جاءَ قريشًا ممَّنْ معَ محمدٍ لَم يَرُدُّوهُ عَليهِ، وأنَّ بينَنَا عيبَةً مكفوفَةً، وأنَّهُ لَا إسلالَ ولَا إغلَالَ، وأنَّهُ مَنْ أحبَّ أنْ يدخُلَ فِي عقدِ محمدٍ وعهدِهِ دخَلَ فِيهِ، ومَن أحبَّ أنْ يدخلَ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم دخَلَ فيهِ، وأنكَ تَرجِعُ عامَكَ هذَا، فلَا تدخُلْ علينَا مكةَ، وأنَّهُ إذَا كانَ عامَ قابلٍ خرجْنَا عنكَ، فدخلتَهَا بأصحَابِكَ، فأقمْتَ فيهَا ثلاثًا، معَكَ سلاحُ الراكبِ، والسيوفُ فِي القُرُبِ، لَا تدخُلُها بغَيرِهَا**»، والقُرُبُ: جرابُ السلاحِ الذِي يوضعُ فِيهِ السلاحُ مَغمُودًا.

فتواثَبَتْ خزاعَةُ فقَالُوا: نحنُ فِي عقدِ محمدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعهدِهِ، وتواثَبَتْ بنُو بكرٍ فقَالُوا: نحنُ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم.

وبينَا رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكتُبُ الكتابَ هُوَ وسهيلُ بنُ عمرٍو، إِذْ جاءَ أَبُو جندَلِ ابنُ سهيلِ بنِ عمرٍو يرسُفُ فِي الحديدِ، قَد انفلَتَ إِلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقَد كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَد خرجُوا وهُم لا يشكُّونَ فِي الفتحِ، لرؤيَا رآهَا رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا رَأوا مَا رَأوا مِنَ الصلْحِ والرجُوعِ، ومَا تحملَ رسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي نفسِهِ، دخَلَ عَلَىٰ الناسِ مِن ذلِكَ أمرٌ عظيمٌ حتَّىٰ كادُوا يهلكُونَ غمًّا، فلَمَّا رَأَىٰ سهيلٌ أبَا جندَلٍ قامَ إِلَيهِ فضَربَ وجهَهُ، وجعَلَ ينترُهُ ويجُرُّهُ ليَرُدَّهُ إِلَىٰ قُريشٍ، وجعَلَ أَبُو جندلٍ يصرُخُ بأعلَىٰ صوتِهِ: يَا معشرَ المُسلمينَ، أردُّ إِلَىٰ المشركِينَ يفتنُونَنِي فِي دينِي؟! فزادَ ذلِكَ الناسَ همًّا عَلَىٰ مَا بِهِم.

فقَالَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«يَا أَبَا جندَلٍ، اصبِرْ واحتَسِبْ، فإِنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولمَن معَكَ مِن المُستضعفِينَ فرجًا ومخرجًا، إنَّا قَد عقَدْنَا بَيننَا وبَينَ القومِ صُلحًا، وأعطينَاهُم عَلَىٰ ذلِكَ وأعطَوْنَا عهدَ اللهِ، وإنَّا لَا نغدِرُ بِهِم»**.

فوثبَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معَ أَبِي جندلٍ يمشِي إِلَىٰ جنبِهِ ويقُولُ: اصبِرْ يَا أبَا جندلٍ، فإِنَّما هُم المُشركونَ، وإنمَا دمُ أحدِهِم دمُ كلبٍ، ويُدنِي قائمَ السيفِ مِنهُ.

قالَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ورَجوتُ أن يأخُذَ السَّيفَ فيضربَ أبَاهُ، لكِن شَحَّ الرجُلُ بأَبِيهِ، ونَفذَتِ القَضيَّةُ.

وكانَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَد أقامَ أبنيتَهُ فِي الحِلِّ، وكانَ يُصلِّي فِي الحَرَمِ.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ عَلىٰ جزيلِ النعمَاء، والشكرُ لَهُ عَلىٰ ترادُفِ الآلَاء، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، إمامُ المُتقِينَ وَالأولِيَاء، صلَّىٰ اللهُ وسلمَ عليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الأتقِيَاء.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فلمَّا عُقدَ صلحُ الحديبيَةِ كانَ هذَا الصلحُ فتحًا عظيمًا عَلىٰ المسلمينَ، ومَا فُتحَ فِي الإسلامِ فتحٌ قَبلَهُ كانَ أعظَمَ منْهُ، إنمَا كانَ القتالُ قبلَ ذلِكَ حيثُ التقَىٰ الناسُ، فلمَّا كانتِ الهدنَةُ، وضعَتِ الحربُ أوزارَهَا، وأمنَ الناسُ بعضُهُم بعضًا، والتَقَوا فتفَاوَضُوا فِي الحديثِ والمنازعَةِ، واختلطَ المشركونَ بالمُسلمينَ فسمِعُوا كلامَهُم فتمكَّنَ الإسلامُ فِي قلوبِهِم، وأسلمَ منهُم خلقٌ كثيرٌ، وكثُرَ بهِم سوادُ الإسلامِ، ولَم يكلِّمْ أحدٌ فِي الإسلامِ إلَّا دخلَ فيهِ، ولقَدْ دخلَ فِي تلكَ السنتينِ مثلُ مَن كانَ دخلَ فِي الإسلامِ قبلَ ذلِكَ وأكثَرُ، قالَ البراءُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تعدونَ أنتُم الفتحَ فتحَ مكةَ، وقَد كانَ فتحُ مكةَ فتحًا، ونَحنُ نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوَانِ يومَ الحُديبيةِ، وفِي هَذا الصلحِ نزلَ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(١).

وقَد أجرَىٰ اللهُ عَلىٰ يدَي نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خضَمِ هذِهِ الأحداثِ مِنَ الآياتِ المبهرَةِ، مَا كانَ سببًا فِي تثبيتِ قلوبِهِم وزيادَةِ يقينِهِم.

قالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عطشَ الناسُ يومَ الحُديبيَةِ، وكانَ بينَ يدَي رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركوةٌ؛ وهِي إناءٌ صغيرٌ مِن جلدٍ يشربُ فيهِ الماءُ، فتوضَّأَ منهَا، ثمَّ أقبلَ

---

(١) الفتح:١.

الناسُ نحوَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا لَكُم؟**»، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ليسَ عندَنَا مَا نتوَضَّأُ بِهِ ولَا نشرَبُ إلَّا مَا فِي ركوَتِكَ، فوضَعَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدَهُ فِي الركوَةِ، فجعَلَ الماءُ يفورُ مِن بينَ أصابعِهِ كأمثالِ العيونِ، فشربْنَا وتوضَّأْنَا، قيلَ لجابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كَم كنتُم يومئذٍ؟ قالَ: لَو كنَّا مائةَ ألفٍ لكفَانَا، كنَّا خَمس عشرَةَ مِائةً.

فلمَّا فرغَ مِن قضيةِ الكتابِ، قالَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابِهِ: «**قُومُوا فانحَرُوا ثُمَّ احلِقُوا**»، فمَا قامَ منهُم رجلٌ حتَّىٰ قالَ ذلِكَ ثلاثَ مراتٍ، فدخلَ علَىٰ أمِّ سلمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فذكَرَ لهَا مَا لقِيَ مِن الناسِ، فقالَتْ أمُّ سلمَةَ: يَا نبيَّ اللهِ، أتحبُّ ذلِكَ؟ اخرُجْ ثمَّ لَا تُكلمْ أحدًا مِنهُم كلمَةً حتَّىٰ تنحَرَ بدنَكَ، وتدعُوَ حالقَكَ فيَحلِقُكَ.

فخرَجَ فَلَم يكلِّمْ أحدًا مِنهُم حتَّىٰ فعلَ ذلِكَ، فنحرَ بدنَهُ، ودعَا حالقَهُ فحلقَهُ، فلمَّا رأَوْا ذلِكَ قامُوا فنحَرُوا، وجعَلَ بعضُهُم يحلِقُ بَعضًا، حتَّىٰ كادَ بَعضُهم يقتُلُ بَعضًا غمًّا.

❊❊❊

(٧١) غزوة خيبر

الحمدُ للهِ وليِّ مَن اتقاه، مَنِ اعتمَدَ عليْهِ كفَاه، ومَن لاذَ بِهِ وقَاه، أحمدُهُ سبحَانَهُ وأشكُرُه، وأشهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لَه، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عَبدُهُ ورسولُهُ وحبيبُهُ ومُصطفَاهُ، صَلَّىٰ اللهُ علَيْهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن دعَا بدَعوتِهِ واهتدَىٰ بهُدَاه.

أمَّا بعدُ:

فلمَّا رجعَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منَ الحديبيَةِ مكثَ بالمدينَةِ عشرينَ يومًا أَو قريبًا مِن ذلِكَ، ثمَّ خرَجَ إلَىٰ حصنِ يهودِ خَيبرَ ليَفتحَهُ اللهُ عَليهِ، وكانَ ذلِكَ فِي سنةِ سبعٍ منَ الهجرَةِ النبويَّةِ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾[1]، وهذَا هوَ فتحُ خيبرَ.

فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومعَهُ أصحَابُهُ إلَىٰ خَيبرَ، فسارُوا ليلًا، فقالَ رجلٌ منَ القومِ لعَامرِ بنِ الأكوَعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يَا عامِرُ، ألَا تُسمعُنَا من هنيهَاتِكَ؟ وكانَ عامرٌ رجلًا شاعرًا، فنزلَ يَحدُو بالقَومِ، يقُولُ:

اللهُـمَّ لَـولَا أنـتَ مَـا اهتدَيـنَا ... وَلا تَـصدَّقنَا وَلَا صَـلَّينَا
فاغْفِـر فِـداءً لَـكَ مَـا اتَّقيـنَا ... وثَـبِّتِ الأقْـدَامَ إِن لاقَيـنَا
وَألقِـيَنْ سـكينَةً عَليـنَا ... إنَّـا إذَا صِـيحَ بِـنَا أَبَيـنَا
وبِالـصِّيَاحِ عَـوَّلُـوا عَلَيـنَا

فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن هذَا السائِقُ؟**»، قالُوا: عامِرُ بنُ الأكوَعِ، قالَ: «**يرحمُهُ اللهُ**»، فقالَ رجلٌ منَ القومِ: وَجَبَتْ يَا نبيَّ اللهِ، لَولَا أمتعتَنَا بِهِ.

---

(١) الفتح:١٨.

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا غزَا قومًا لَم يُغِرْ عليْهِم حتَّىٰ يُصبحَ، فإنْ سمِعَ أذانًا أمسَكَ، وإنْ لَم يسمَعْ أذانًا أغارَ، فنزَلنَا خيبرَ ليلًا، فباتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتَّىٰ إذَا أصبحَ لَم يسمَعْ أذانًا، فركِبَ وركبْنَا معَهُ، وركبْتُ خلفَ أبِي طلحَةَ، وإنَّ قدَمِي لتمَسُّ قدَمَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستَقبلَنَا عمالُ خَيبرَ غادِينَ، قَد خرَجُوا بمسَاحِيهِم ومكَاتِلِهِم، فلمَّا رَأوْا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والجيشَ، قالُوا: مُحمدٌ والخَميسُ معَهُ -أَي: الجَيشُ-، فأدبَرُوا هرابًا راجعِينَ إلَىٰ حِصنِهِم، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أكبرُ، خَربَتْ خيبرُ، إنَّا إذَا نزَلنَا بساحَةِ قَومٍ فسَاءَ صبَاحُ المُنذَرِينَ**».

وكانَ عليُّ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخلَّفَ عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَيبرَ وكانَ رمدًا، فقالَ: أنَا أتخلفُ عَن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فلحِقَ بِهِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ خيبرَ: «**لأعطينَّ هذِهِ الرايَةَ غدًا رجُلًا يفتَحُ اللهُ عَلىٰ يَدَيهِ، يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ**»، فباتَ الناسُ يدُوكونَ ليلتَهُم، أيهُم يُعطَاها، فلمَّا أصبَحَ الناسُ غدَوا عَلىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلُّهُم يرجُو أنْ يُعطَاها، فقالَ: «**أينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟**»، فقَالُوا: هوَ يَا رسولَ اللهِ يشتَكِي عينَيهِ، قالَ: «**فأرسِلُوا إليهِ**»، فأتِيَ بِهِ، فبصَقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَينيْهِ ودَعَا لَهُ، فبرَأَ حتَّىٰ كأنْ لَم يكُنْ بهِ وجَعٌ، فأعطَاهُ الرايَةَ، فقَالَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رسولَ اللهِ، أقاتِلُهم حتَّىٰ يكُونُوا مِثلَنَا؟

فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انفُذْ عَلىٰ رِسلِكَ حتَّىٰ تنزلَ بسَاحتِهِم، ثمَّ ادعُهُم إلَىٰ الإسلامِ، وأخبِرْهُم بمَا يجِبُ عَليهِم مِن حقِّ اللهِ تعَالىٰ فِيهِ، فوَاللهِ لأنْ يهدِيَ اللهُ بِكَ رجُلًا وَاحدًا خيرٌ لَكَ مِن أَن يكُونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ**».

ثمَّ نشِبَ القتالُ، وخرجَ مرحبٌ صاحبُ الحِصنِ قَد وضعَ مِغفرًا يمانيًّا علىٰ رأسِهِ، وهُو يرتَجزُ ويقُولُ:

قَــد علمَـــت خيبــرُ أنِّـــي مَــرحَبُ ... شَــاكٍ ســلاحِي بطَــلٌ مُجــرَّبُ

أطعَـــنُ أحـــيَانًا وحِيـــنًا أضْـــرِبُ ... إذَا اللـــيُوثُ أقـــبَلَتْ تلَهَّـــبُ

فقالَ عليٌّ رَضِيَالِلَّهُعَنهُ:

أنَــا الــذِي سَــمَّتنِي أمِّــي حَــيدَرَةْ ... كلَــيثِ غَابَــات شَــديدِ القَــسوَرَةْ

أكِــيلُكُم بِالــصَّاعِ كَــيلَ الــسَّندَرَةْ

فاختلَفَا ضربتَيْنِ، فبدَرَهُ عليٌّ رَضِيَالِلَّهُعَنهُ بضربَةٍ، ففلَقَ مِغفرَهُ ورأسَهُ، فقتَلَهُ.

ولمَّا تصَافَّ الناسُ، قاتلَ عامِرُ بنُ الأكوعِ رَضِيَالِلَّهُعَنهُ يهوديًّا، وكانَ سيفُ عامِرٍ قصيرًا، فتناوَلَ بِهِ ساقَ اليهودِيِّ ليَضربَهُ، فرجعَ السيفُ إلَيهِ فأصابَ رُكبتَهُ فماتَ بسببِ ذلِكَ، فتحدَّثَ الناسُ أنَّ عامِرًا قتلَ نَفسَهُ فحبِطَ عملُهُ، فاغتَمَّ سلمةُ بنُ الأكوعِ رَضِيَالِلَّهُعَنهُ لذلِكَ، فلمَّا رجعُوا، رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ علَىٰ تلكَ الحالِ فأخذَ بيدِهِ وقالَ: «**مَا لَكَ؟**»، قالَ سلمَةُ: فدَاكَ أبِي وأمِّي، زعَمُوا أنَّ عامرًا حبطَ عملُهُ، فقَالَ النبيُّ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**كذَبَ مَن قالَهُ، إنَّ لَهُ لأجرَيْنِ** -وجمعَ بينَ إصبعَيْهِ- **إنَّهُ لجاهِدٌ مجَاهِدٌ، قَلَّ عربِيٌّ مشَىٰ بهَا مِثلُهُ**».

وجاءَ رجلٌ منَ الأعرابِ إلَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ فآمَنَ بِهِ واتبَعَهُ، فقَالَ: أهاجِرُ معَكَ، فأوصَىٰ بِهِ النبيُّ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ بعضَ أصحابِهِ، فلمَّا كانَت غزوَةُ خَيبرَ غنمَ رسولُ اللهِ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، فقسَمَ الغنائِمَ وقسمَ لهُ، وأعطَىٰ أصحابَهُ مَا قُسمَ لهُ، وكانَ يرعَىٰ ظهرَهُم، فلمَّا جاءَ دفعُوهُ إلَيهِ، فقَالَ: مَا هذَا؟ قالُوا: قَسمٌ قسمَهُ لكَ رسولُ اللهِ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، فقَالَ: مَا علَىٰ هذَا اتبَعتُكَ، ولكنِّي اتبعتُكَ علَىٰ أنْ أُرمَىٰ هاهُنَا بسهمٍ -وأشارَ إلَىٰ حلقِهِ- فأمُوتَ فأدخُلَ الجنَّةَ، فقالَ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**إنْ تَصدُقِ اللهَ يصدُقكَ**»، ثُمَّ نهضُوا إلَىٰ قتالِ العدُوِّ، فأتِيَ بِهِ يُحملُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ،

وقَد أصابَهُ سهمٌ حيثُ أشَارَ، فقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُوَ هُوَ؟**»، قالُوا: نَعَم، قالَ: «**صدَقَ اللهَ فصدقَهُ**»، وكفنَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُبتِهِ، ثمَّ قدمَهُ فصَلَّىٰ عليْهِ، ودعَا لهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقالَ: «**اللهُمَّ هذَا عبدُكَ خرَجَ مهاجِرًا فِي سبيلِكَ، قتلَ شهيدًا، أنَا عَليهِ شهِيدٌ**».

ثمَّ فتحَ اللهُ خيبرَ علَىٰ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِهِ، فخرَجَ أهلُهَا يسعَونَ فزعينَ فِي السكَكِ، فقتلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقاتِلَةَ، وسبَىٰ الذريَّةَ.

ولمَّا حاصرَ الصحابةُ خيبرَ، كانَ قَد أصابَهُم بسبَبِ طولِ حصارِهَا جوعٌ شديدٌ، فلمَّا فتحَ اللهُ عَليهِم، وأمسَىٰ الناسُ مساءَ اليومِ الذِي فتحَتْ علَيهِم، أوقدُوا نيرانًا كثيرَةً، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا هذِهِ النيرَانُ؟ عَلَىٰ أيِّ شيءٍ تُوقدُونَ؟**»، قالُوا: علَىٰ لَحمٍ، قالَ: «**علَىٰ أيِّ لحمٍ؟**»، قالُوا: لَحمُ الحمُرِ الإنسيَّةِ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أهرِيقُوهَا واكسِرُوهَا**»، فقالَ رجلٌ: يَا رسولَ اللهِ، أوَنُهرِيقُهَا ونغسِلُهَا؟ فقالَ: «**أوْ ذَاكَ**»، ومِن هاهُنا حرمَ أكلُ لحُومِ الحمُرِ الإنسيَّةِ.

ولمَّا جاءَ السبيُّ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانَ فيهِم صفيَّةُ بنتُ حُييِّ بنِ أخطَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بنتُ سيدِ قومِها، وكانَتْ صفيَّةُ قَد تزوَّجَهَا بعض بنِي عمِّهَا، فلمَّا زُفَّتْ إلَيهِ وأدخِلَتْ عَليهِ بنَىٰ بهَا، ومضَىٰ علَىٰ ذلِكَ ليَالٍ، فرَأَتْ فِي منامِهَا كأنَّ قمَرَ السماءِ قَد سقَطَ فِي حجرِهَا، فقصَّتْ رؤيَاهَا عَلىٰ ابنِ عمِّهَا، فلطَمَ وَجههَا، وقالَ: أتتَمنينَ ملِكَ يثربَ أنْ يصِيرَ بعلَكِ، فمَا كانَ إلَّا مجِيءُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحصارُهُ إيَّاهُم، فكانَتْ صفيَّةُ فِي جملَةِ السَّبي، وكانَ زوجُهَا فِي جملَةِ القَتلَىٰ.

ولمَّا جُمعَ السبيُّ بخيبَرَ جاءَ دِحيةُ الكلبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَى رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، أعطِنِي جاريَةً مِنَ السَّبي، قالَ: «**اذهَبْ فخُذْ جاريَةً**»، فأخذَ صفيَّةَ بنتَ حُييٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فجاءَ رجلٌ إلَىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: يَا نبيَّ اللهِ، أعطيتَ

دحيةَ صفيَّةَ بنتَ حُيَيٍّ سيدَةِ قُريظةَ والنَّضيرِ؟ مَا تصلُحُ إلَّا لَكَ، وذكَرَ لَهُ مِن جمَالِهَا، قالَ: «**ادْعُ بِهَا**»، فلمَّا نظَرَ إلَيهَا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قالَ لِدحيَةَ: «**خُذْ جاريةً مِنَ السَّبي غيرَهَا**»، فاصطَفَاهَا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لنفسِهِ، فأعتقَهَا وتزَوَّجَهَا، وجعَلَ عِتقَهَا صداقَهَا، ثُمَّ بنَىٰ بِهَا، وصنَعَ حَيسًا فِي إناءٍ ودعَا مَن حولَهُ، فكانَتْ تِلكَ وليمَتَهُ عَلىٰ صفيَّةَ، ثمَّ خرجَ إلَىٰ المدينةِ فكانَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يستُرُهَا عَلىٰ بعيرِهِ بعباءَةٍ، ثمَّ يجلسُ عندَ بعيرِهِ فيضَعُ ركبتَهُ وتضَعُ صفيَّةُ رِجلَهَا عَلىٰ رُكبتِهِ حتَّىٰ تركَبَ.

ولمَّا فتحَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خيبرَ، بعثَ أهلُهَا إلَيهِ يطلبُونَهُ أنْ يحقِنَ دماءَهُم، وأنْ يُبقيَهُم ليعمَلُوا فِي زرُوعِهِم ونَخِيلِهِم، وقالُوا: يَا محمدُ، دَعنَا نكونُ فِي هذِهِ الأرضِ نُصلحُهَا ونقومُ عَليهَا، فنحنُ أعلَمُ بهَا مِنكُم، وأعمَرُ لَهَا، ولَم يَكُنْ لرسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولَا لأصحابِهِ غِلمانٌ يقومُونَ عليهَا أوْ يفرَغُونَ لهَا، فصالَحَهُم رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عَلىٰ أنْ يعمَلُوا بهَا مِن أموَالِهِم ويكونُ لَهُم نصفُ مَا يخرجُ مِنَ الأرضِ، وقالَ: «**نُقرُّكُم فِيهَا مَا شِئنَا عَلىٰ أَنَّا إِذَا شِئنَا أَنْ نُخرِجَكُم أخرَجنَاكُم**».

وكانَ يبعثُ علَيهِم عبدَ اللهِ بنَ روَاحَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، يَخرصُهَا عَلَيهِم عندَ استِوَاءِ ثمارِهَا، ثمَّ يضمنُهُم إيَّاهُ.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَه، والصَّلاةُ والسلامُ عَلىٰ رسولِهِ وعَبدِه، نَبينَا محمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصَحبِه، ومَن استنَّ بسنَّتِه، واقتَفَىٰ أثَرَه، واهتَدَىٰ بهَديِه.

أمَّا بَعدُ، عبَادَ اللهِ:

فلمَّا رجعَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلَىٰ المَدينةِ مِن فتحِ خيبَرَ، وافَقَ ذلِكَ قُدومَ جعفَرِ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ومَن هاجَرَ معَهُ إلَىٰ الحبشَةِ -رضِي اللهُ عنهُم أجمَعِين-.

وكانَ أناسٌ منَ الناسِ يقُولُونَ للمهَاجرينَ إلَىٰ أرضِ الحبشَةِ: سبقنَاكُم بالهجرَةِ، ولقِيَ أحدُ المهاجرينَ معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ المدينةِ أسماءَ بنتَ عُمَيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهيَ ممَّن هاجَرَتْ إلَىٰ النجاشيِّ فِي أرضِ الحبشَةِ، فقالَ لهَا: سبقنَاكُم بالهجرَةِ، فنحنُ أحقُّ برسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منكُم، فغضبَتْ وقالَتْ: كلَّا واللهِ، كنتُم معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطعِمُ جائعَكُم، ويعظُ جاهِلَكُم، وكنَّا فِي أرضِ البُعداءِ والبُغضاءِ بالحبشَةِ، وذلِكَ فِي اللهِ وفِي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وايمُ اللهِ لَا أطعمُ طعامًا ولَا أشربُ شرابًا حتَّىٰ أذكُرَ مَا قلتَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسألُهُ، ووَاللهِ لَا أكذبُ ولا أزيغُ ولَا أزيدُ عَليهِ.

فلمَّا جاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَت: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ فلانًا قالَ كذَا وكذَا، قالَ: «**فمَا قلتِ لَهُ؟**»، قالَتْ: قلتُ كذَا وكذَا، قالَ: «**ليسَ بأحقَّ بِي منكُمْ، ولَهُ ولأصحابِهِ هِجرةٌ واحدةٌ، ولكُم أنتُم أهلَ السفينَةِ هِجرتَانِ**»، وقَد كانُوا هاجَرُوا إلَىٰ الحبشَةِ علَىٰ ظَهرِ سفينَةٍ.

قالَت أسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلقَد رأيتُ أبَا موسَىٰ الأشعرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحَابَ السفينةِ يأتونِي أرسَالًا يسألونِي عَن هذَا الحديثِ، فمَا مِنَ الدنيَا شيءٌ هُم بهِ أفرحُ ولَا أعظَمُ فِي أنفسِهِم ممَّا قالَ لهُمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولمَّا قدِمَ جعفرُ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ خَيبرَ، قبَّلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ عَينَيهِ والتزمَهُ، وقالَ: «**مَا أدرِي بأيِّهِما أنَا أُسرُّ، بفَتحِ خيبرَ أم بقُدومِ جعفرٍ؟**».

ولمَّا فُتِحَتْ خيبرُ أهدِيَتْ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةٌ فيهَا سُمٌّ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمَعُوا لِي مَن كانَ هاهُنَا مِن اليَهودِ**»، فجمَعُوا لَهُ، فقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي سائلُكُم عَن شيءٍ، فهَل أنتُم صادِقِي عنهُ؟**»، قالُوا: نعَم يَا أبَا القاسِمِ،

فقالَ لهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أبُوكُم؟**»، قالُوا: أبونَا فلانٌ، فقَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذَبتُم، بَل أبُوكُم فلانٌ**»، قالُوا: صدَقتَ وبرَرتَ، فقَالَ: «**هَل أنتُم صادِقِي عَن شيءٍ إنْ سألتُكُم عنهُ؟**» قالُوا: نَعَم يَا أبَا القاسِمِ، وإنْ كذبنَاكَ عرَفتَ كذِبَنَا، كمَا عَرفتَهُ فِي أبِينَا، فقالَ: «**هَل جعَلتُم فِي هذِهِ الشاةِ سمًّا؟**»، فقَالُوا: نعَم، قالَ: «**مَا حملَكُم علَىٰ ذلكَ؟**»، قالُوا: أردْنَا إنْ كنتَ كَاذِبًا أنْ نَستريحَ مِنكَ، وإنْ كنتَ نبيًّا لَم يَضُرَّكْ.

ولمَّا افتتَحَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبرَ، قالَ الحجاجُ بنُ عِلاطٍ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ لِي بمكةَ مَالًا، وإنَّ لِي بهَا أهلًا، وإنِّي أرِيدُ أنْ آتيَهُم، أفأنَا فِي حلٍّ إنْ أنَا نِلتُ مِنكَ أو قُلتُ شيئًا؟ فأذِنَ لهُ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يقُولَ مَا شاءَ، فأتَىٰ امرأتَهُ حِينَ قدِمَ فقالَ: اجمَعِي لِي مَا كانَ عِندَكِ، فإنِّي أريدُ أنْ أشترِيَ مِن غنائِمِ محمدٍ وأصحَابِهِ، فإنَّهُم قَد استُبِيحُوا وأصِيبَتْ أموالُهُم، وفشَا ذلِكَ بمكَّةَ، فانقمَعَ المُسلمونَ وأظهَرَ المشركونَ فرحًا وسرورًا.

وبلغَ الخبَرُ إلَىٰ العباسِ بنِ عبدِ المُطلبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعقَرَ وجعَلَ لَا يستطِيعُ أَنْ يقومَ، ثُمَّ أخذَ ابنًا لهُ يقالُ لَه: قُثَم، واستلقَىٰ ووضعَهُ علَىٰ صدرِهِ وهُوَ يقُولُ:

حَيِّ قُثَم حَيِّ قُثَمْ ... شَبِيه ذِي الأنفِ الأشَمّ

نَبِيِّ ذِي النِّعَمْ ... بِرغمِ مَن زَعَمْ

ثمَّ أرسلَ غلامًا لهُ إلَىٰ الحجاجِ بنِ عِلاطٍ، فقالَ: وَيلَكَ!، مَا جئتَ بِهِ وماذَا تقولُ؟! فمَا وعدَ اللهُ خيرٌ ممَّا جئتَ بِهِ، فقالَ الحجاجُ بنُ علاطٍ لغُلامِهِ: أقرِئ أبَا الفضلِ السلامَ وقُلْ لَهُ: فليخلُ لِي فِي بعضِ بيُوتِهِ لآتيَهُ فإنَّ الخبَرَ علَىٰ مَا يسُرُّهُ.

فجاءَ غلامُ العباسِ إلَيهِ، فلمَّا بلغَ بابَ الدارِ قالَ: أبشِرْ يَا أبَا الفضلِ، فوثَبَ العباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرحًا حتَّىٰ قبَّلَ مَا بينَ عَينَيهِ، فأخبرَهُ مَا قالَ الحجَّاجُ فأعتقَهُ، ثمَّ جاءَهُ

الحجاجُ فأخبرَهُ أنَّ رسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَد افتتَحَ خَيبرَ وغنِمَ أموالَهُم، وجرَتْ سهامُ اللهِ فِي أموَالِهِم، واصطَفَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صفيَّةَ بنتَ حُيَيٍّ واتخذَهَا لنفسِهِ، وخيَّرَهَا أنْ يعتقَهَا وتكونَ لَهُ زوجَةً أو تلحَقَ بأهلِهَا، فاختَارَتْ أنْ يُعتِقَهَا وتكونَ لَهُ زوجةً، ولكنِّي جئتُ لمالٍ كانَ لِي هاهُنَا أردتُ أنْ أجمعَهُ فأذهَبَ بِهِ، فاستأذَنتُ رسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأذِنَ لِي أنْ أقولَ مَا شئتُ، فأخفِ علَيَّ ثلاثًا، ثمَّ اذكُرْ مَا بدَا لَكَ.

فجمَعَتِ امرأتُهُ مَا كانَ عندَهَا مِن حُليٍّ ومتاعٍ ودفعَتْهُ إلَيهِ، ثمَّ ذهَبَ بِهِ، فلمَّا كانَ بعدَ ثلاثٍ أتَىٰ العباسُ امرأةَ الحجَّاجِ، فقالَ: مَا فعلَ زوجُكِ؟ فأخبَرَتْهُ أنهُ ذهبَ يومَ كذَا وكذَا، وقَالَت: لَا يَحزنْكَ اللهُ يَا أبَا الفضلِ، لقَد شقَّ علَينَا الذِي بلغَكَ، قالَ: أجَلْ، لَا يَحزنُنِي اللهُ ولَم يكُن بحَمدِ اللهِ إلَّا مَا أحبَبنَا، فتَحَ اللهُ خَيبَرَ علَىٰ رسولِهِ، وجَرتْ فيهَا سهامُ اللهِ، واصطَفَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صفيَّةَ لنَفسِهِ، فإنْ كانَتْ لكِ حاجَةٌ فِي زوجِكِ فالحَقِي بِهِ، قالَتْ: أظنُّكَ واللهِ صادِقًا، قالَ: فإنِّي صادقٌ، والأمرُ علَىٰ مَا أخبَرتُكِ.

ثمَّ ذهبَ حتَّىٰ أتَىٰ مجالِسَ قريشٍ، وهُم يَقُولونَ إذَا مرَّ بِهِم: لَا يُصيبُكَ إلَّا خيرٌ يَا أبَا الفضلِ، فقالَ: لَمْ يُصبنِي إلَّا خيرٌ بحَمدِ اللهِ، أخبرَنِي الحجاجُ بنُ علاطٍ أنَّ خيبَرَ فتحَهَا اللهُ علَىٰ رسولِهِ، وجَرتْ فيهَا سهامُ اللهِ، واصطَفَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صفيَّةَ لنَفسِهِ، وقَد سألَنِي أنْ أخفِيَ علَيهِ ثلاثًا، وإنمَا جاءَ ليأخُذَ مالَهُ ومَا كانَ لهُ مِن شيءٍ هاهُنَا ثُمَّ يَذهَبُ.

فرَدَّ اللهُ الكآبَةَ التِي كانَتْ بِالمسلمينَ عَلَىٰ المشركينَ، وخرجَ المسلمونَ ومَن كانَ دخلَ بيتَهُ مُكتئبًا حتَّىٰ أتَىٰ إلَىٰ العباسِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فأخبرَهُم الخبَرَ، فسُرَّ المسلمُونَ، وردَّ مَا كانَ مِن كآبةٍ أو غَيظٍ أو حُزنٍ عَلىٰ المُشركينَ.

(٧٢) فتحُ مكَّـةَ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، ودبَّرَ عبادَهُ عَلىٰ مَا تقتضِيهِ حِكمتُهُ وكانَ بِهِم لطيفًا خبيرًا، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لَهُ، لهُ المُلكُ ولَهُ الحمدُ وكانَ عَلىٰ كلِّ شَيءٍ قديرًا، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عَبدُهُ ورسُولُهُ أرسلَهُ بينَ يَدَي الساعَةِ بشيرًا ونذِيرًا، وداعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا مُنيرًا، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تبعَهُم بإحسَانٍ إلَىٰ يومِ الدِّينِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

ففِي رمضانَ سنَةَ ثمانٍ كانَت غزوةُ الفتحِ الأعظَمِ التِي فتحَ فيهَا رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكةَ.

فقَدْ كانَ فِي صلحِ الحديبيَةِ أنهُ مَن شاءَ أنْ يدخلَ فِي عقدِ محمدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهدِهِ دخَلَ، ومَن شاءَ أَن يدخُلَ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم دخَلَ، فتواثَبَتْ خزاعَةُ وقالُوا: نحنُ ندخُلُ فِي عقدِ مُحمدٍ وعهدِهِ، وتواثَبَتْ بنُو بكرٍ وقالُوا: نحنُ ندخلُ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم.

فمكَثُوا فِي تلكَ الهدنةِ نحوَ السبعَةَ أو الثمانيةَ عشَرَ شهرًا، ثمَّ إنَّ بنِي بكرٍ وثبُوا علَىٰ خزاعةَ ليلًا بماءٍ يقَالُ لهُ: الوَتيرُ، وهُوَ قريبٌ مِن مكةَ، وقالَتْ قريشٌ: مَا يعلمُ بنَا محمدٌ، وهذَا الليلُ ومَا يرانَا أحدٌ، فأعانُوهُم عَلَيهِم بالكرَاعِ والسلاحِ، وقاتَلُوهُم معَهُم، لضغينَتِهِم للنبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلَ عمرُو بنُ سالمٍ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلًا:

اللهُـــمَّ إنِّـــي ناشِـــدٌ مُحمـــدَا   حلـــفَ أبِـــيهِ وأبِيـــنَا الأتلَـــدَا

إنَّ قُريشًا أخلفُوكَ المَوعِدَا ... ونَقَضُوا مِيثاقَكَ المُؤكدَا
وزعَمُوا أنْ لستُ أدعُو أحَدَا ... فَهُم أذَلُّ وأقَلُّ عَددَا
هُم بَيَّتُونَا بالوتِيرِ هُجَّدَا ... وقَتلُونَا رُكَّعًا وسُجَّدَا

فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نصِرتَ يَا عمرُو بنَ سَالِمٍ**»، وأمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ بالجهازِ، وكتمَهُم مخرجَهُ، وسألَ اللهَ أنْ يعميَ عَلىٰ قريشٍ خبرَهُ، حتَّىٰ يبغتَهُمْ فِي بلادِهِم، وقالَ: «**كأنَّكُم بأبِي سُفيانَ قَد جاءَكُم يشُدُّ فِي العَقدِ ويَزِيدُ فِي المدَّةِ**».

ثمَّ خرجَ بُديلُ بنُ ورقاءَ فِي نفرٍ مِن خزَاعَةَ، حتَّىٰ قدمُوا عَلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرُوهُ بمَا أصابَهُم، ومناصرَةِ قريشٍ لبَنِي بكرٍ عليهِم، ثمَّ انصرَفُوا راجعِينَ، فلقُوا أبَا سفيانَ بعُسفانَ، قَد بعثَتْهُ قريشٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشدُّ العقدَ، ويزيدُ فِي المدَّةِ، وقَد خافُوا بسَببِ مَا صنَعُوا.

فلمَّا لقِيَ أبُو سفيانَ بُديلًا قالَ: مِن أينَ أقبلتَ يَا بُديلُ؟ وظنَّ أنهُ قَد أتَىٰ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: سِرتُ فِي خزاعةَ فِي هذَا الساحلِ وفِي بطنِ هذَا الوادِي، فعمدَ أبُو سفيانَ إلَىٰ مبركِ راحلتِهِ فأخذَ مِن بعرِهَا ففتَّهُ، فرَأَىٰ فيهِ النَّوىٰ، فقالَ: أحلِفُ باللهِ لقَدْ جاءَ بديلٌ مُحمدًا.

ثمَّ خرجَ أبُو سفيانَ حتَّىٰ قدمَ عَلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المدينَةِ، فدخَلَ علَىٰ ابنتِهِ أمِّ حبيبَةَ، فلمَّا ذهَبَ ليجلسَ عَلىٰ فراشِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوَتْهُ، فقالَ: يا بُنيَّةُ، مَا أدرِي أرغِبتِ بِي عنْ هذَا الفراشِ أوْ رغِبتِ بِهِ عنِّي؟ فقالَت: هوَ فراشُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتَ مُشركٌ، فلَم أحِبَّ أنْ تجلِسَ عَلىٰ فراشِهِ، فقالَ: يا بُنيَّةُ، واللهِ لقَد أصابَكِ بعدِي شرٌّ، ثمَّ خرَجَ فأتَىٰ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلمَهُ، فلَم يردَّ علَيهِ شيئًا، ثمَّ ذهبَ إلَىٰ أبِي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكلمَهُ أنْ يكلمَ لهُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فقالَ: مَا أنا بفاعلٍ، ثمَّ أَتَىٰ عمرَ بنَ الخطابِ فكلمَهُ، فقالَ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أشفعُ لَكُم إِلَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فواللهِ لَو لَم أجِد لكُم إلَّا الذرَّ لجاهَدتُكُم بِهِ.

ثمَّ خرج فدخَلَ عَلَىٰ عليٍّ بنِ أَبِي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعندَهُ فاطمَةُ بنتُ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندَهَا الحسنُ غلامٌ يدُبُّ بينَ يَديهِمَا، فقالَ: يَا عليُّ، إنَّكَ أمسُّ القومِ بِي رحمًا، وأقرَبُهُم منِّي قرابَةً، وقَد جئتُ فِي حاجَةٍ، فلَا أرجعَنَّ كمَا جئتُ خائبًا، فاشفَعْ لِي إلَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقالَ: وَيحَكَ يَا أبَا سفيانَ، واللهِ لقَد عزَمَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أمرٍ مَا نستطِيعُ أن نكلمَهُ فِيهِ.

فركبَ أبُو سفيانَ بعيرَهُ ثمَّ انطلَقَ، فلمَّا قدمَ عَلَىٰ قريشٍ قالُوا: مَا وراءَكَ؟ قالَ: جئتُ محمدًا فكلمتُهُ، فواللهِ مَا ردَّ عليَّ شيئًا، ثمَّ جئتُ ابنَ أَبِي قحافَةَ، فواللهِ مَا رجوتُ خيرًا، ثمَّ جئتُ عمرَ فوجدتُهُ أعدَىٰ العدُوِّ، قالُوا: وَيحَكَ!

ودخلَ أبُو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علَىٰ عائشَةَ، ووجَدَ عندَهَا حنطةً تُنسفُ وتُنقَىٰ، فقالَ لهَا: يَا بنيةُ، لمَاذَا تصنعينَ هذَا الطعامَ؟ فسكتَتْ، فقالَ: أيريدُ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغزُوَ؟ فصمَتَتْ.

ثمَّ دخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ لهُ: يَا رسولَ اللهِ، أتريدُ أنْ تخرجَ مخرجًا؟ قالَ: «**نعَم**»، قالَ: فلعَلَّكَ تريدُ بنِي الأصفرِ؟ قالَ: «**لَا**»، قالَ: أتريدُ أهلَ نجدٍ؟ قالَ: «**لَا**»، قالَ: فلعلَّكَ تريدُ قُريشًا؟ قالَ: «**نعَم**»، قالَ أبُو بكرٍ: يَا رسولَ اللهِ، أليسَ بينَكَ وبينَهُم مدَّةٌ؟ قالَ: «**ألَم يبلُغْكَ مَا صنعُوا ببَنِي كعبٍ؟**»، ثُمَّ أذَّنَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الناسِ بالغزوِ، وأعلَمَ الناسَ أنهُ سائرٌ إِلَىٰ مكةَ، وأمرَ بالجدِّ والتهيؤِ، وقالَ: «**اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبَارَ عَن قُريشٍ حتَّىٰ نبغتَهَا فِي بلادِهَا**».

فتجهزَ الناسُ، ثمَّ مضَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسفرِهِ، وكانَ معَهُ اثنا عشَرَ ألفًا،

وخرجَ معَهُ المهاجِرونَ والأنصارُ لَم يتخَلَّفْ منهُم أحدٌ.

وقَد كانَ خروجُهُ فِي العاشرِ مِن شهرِ رمضَانَ، فصامَ وصامَ الناسُ معَهُ، حتَّىٰ إذَا كانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعُسفانَ؛ وهوَ موضِعٌ بينَ مكةَ والمدينَةِ؛ دعَا بإناءٍ فشرِبَ نهارًا ليرَاهُ الناسُ، فأفطرَ حتَّىٰ قدمَ مكَّةَ، وأمَرَ مَن معَهُ بالفِطرِ، ولَم يزَل يُفطرُ حتَّىٰ انتَهَىٰ الشهرُ.

ونزلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مرِّ الظَّهرانِ وهوَ موقعٌ قريبٌ مِن مكةَ، وقَد عمِيتِ الأخبَارُ عَن قُريشٍ، فلَا يَأتِيهِم خبرٌ عَن رسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلا يدرُونَ مَا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلٌ.

وكانَ العباسُ بنُ عبدِ المُطلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَد أسلَمَ قبلَ فتحِ خيبرَ، وكانَ يكتُمُ إسلامَهُ، ثمَّ أظهرَ إسلامهُ يومَ فتحِ مكةَ، ولمَّا نزلَ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ الظهرَانِ، قالَ العباسُ: واصباحَ قُريشٍ، واللهِ لئِنْ دخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكةَ عنوَةً قبلَ أنْ يأتُوهُ فيستأمِنُوهُ، إنَّهُ لهَلاكُ قريشٍ إلَىٰ آخرِ الدَّهرِ.

قالَ العباسُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فجَلستُ عَلىٰ بغلَةٍ بيضَاءَ، فخَرجتُ عَليهَا حتَّىٰ جئتُ الأراكَ، فقلتُ: لعَلِّي أجدُ بعضَ الحطابَةِ أو صاحبَ لبنٍ، أو ذَا حاجةٍ يأتِي مكةَ فيُخبرُهُم بمكانِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليَخرجُوا إليْهِ فيستأمِنُوهُ قبلَ أنْ يدخُلَ عليهِم عَنوةً.

فجئتُ إلَىٰ أبِي سفيانَ فقلتُ: يَا أبَا حنظلَةَ، فعرَفَ صوتِي، فقالَ: أبُو الفَضلِ؟ قلتُ: نَعَم، قالَ: مَا لَكَ، فِدًىٰ لكَ أبِي وأمِّي؟ قلتُ: ويحَكَ يَا أبَا سفيَانَ، هذَا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الناسِ، واصبَاحَ قُريشٍ واللهِ! قالَ: فما الحيلَةُ، فدَاكَ أبِي وأمِّي؟ قلتُ: واللهِ لئِنْ ظفرَ بكَ ليَضربنَّ عنقَكَ، فاركَبْ معِي عَلىٰ هذِهِ البغلَةِ حتَّىٰ آتِيَ بِكَ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأستَأمِنُهُ لَكَ.

فركِبَ خلفِي فجِئتُ بِهِ، وكلَّمَا مررتُ بنارٍ مِن نيرانِ المسلِمينَ قالُوا: مَن هذَا؟

فإذَا رَأوني، قالُوا: عَمُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حتَّىٰ مرَرْتُ بنارِ عمرَ بنِ الخطابِ فقَالَ: مَن هذَا؟ وقامَ إليَّ، فلمَّا رَأىٰ أبَا سفيانَ رَدِيفي عَلىٰ الدابَّةِ، قالَ: أبُو سفيَانَ عدوُّ اللهِ؟ الحمدُ للهِ الذِي أمكَنَ مِنكَ بغيرِ عَقدٍ وَلَا عَهدٍ.

ثمَّ قامَ عمرُ ووجَأَ فِي رقبةِ أبِي سفيانَ يريدُ قتلَهُ، فمنعَهُ منهُ العباسُ.

قالَ العباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثمَّ خرجَ عمرُ يشتدُّ نحوَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وركَضت البغلةُ فسبقتُهُ، واقتحَمتُ عَلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخَلَ عليهِ عُمرُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، هذَا أبُو سفيانَ قَد أمكنَ اللهُ منهُ بغَيرِ عقدٍ ولَا عهدٍ فدَعنِي لأضربَ عنقَهُ، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي قَد أجرتُهُ، ثمَّ جلسْتُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذْتُ أناجِيهِ فِي شأنِهِ وقلتُ: واللهِ لَا يناجِيهِ الليلةَ دُونِي رجلٌ، فلمَّا أكثَرَ عُمرُ فِي شأنِهِ، قلتُ: مَهلًا يَا عمرُ، فواللهِ لَو كانَ مِن رجالِ بنِي عديِّ بنِ كعبٍ مَا قُلتَ هذَا، ولكنَّكَ قَد عرَفتَ أنهُ مِن رجالِ بنِي عبدِ منافٍ، فقَالَ: مهلًا يَا عباسُ، فواللهِ لإسلامُكَ يومَ أسلمْتَ كانَ أحبَّ إليَّ مِن إسلامِ الخطابِ لَو أسلَمَ، ومَا بِي إلَّا أنِّي قَد عرَفتُ أنَّ إسلامَكَ كانَ أحبَّ إلىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن إسلامِ الخطابِ لَو أسلَمَ.

فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اذهَبْ بِهِ يَا عبَّاسُ إلَىٰ رَحلِكَ فإذَا أصبحتَ فأتِنِي بِهِ**»، فذَهَبتُ بِهِ إلَىٰ رَحلِي، فبَاتَ عِندِي، فلمَّا أصبحَ غدَوْتُ بِهِ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**وَيحَكَ يَا أبَا سُفيانَ! ألَم يَأنِ لكَ أنْ تعلَمَ أنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ؟**»، فقالَ: بِأبِي أنتَ وأمِّي، مَا أحلَمَكَ وأكرَمَكَ وأوصَلَكَ، فقُلتُ لَهُ: وَيحَكَ، أسلِمْ واشْهَدْ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، قبلَ أنْ تُضرَبَ عنُقُكَ، فشَهدَ شهادَةَ الحقِّ وأسلَمَ.

قالَ العباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ أبَا سفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرَ،

فاجعَلْ لهُ شيئًا، قالَ: «**نعَم، مَن دخلَ دارَ أبِي سفيانَ فهُوَ آمنٌ، ومَن دخلَ دارَ حَكيمِ بنِ حزامٍ فهُوَ آمِنٌ**».

لمَّا فتحَ اللهُ مكَّةَ علَىٰ نَبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأَىٰ مَا أكرمَهُ اللهُ بهِ مِنَ الفتحِ، دخَلَ مكةَ مُتخشعًا خافضًا رأسَهُ تواضعًا للهِ، حتَّىٰ إنَّ ذقنَهُ ليمَسُّ واسطةَ رَحلِهِ، وكانَ يقرأُ سورةَ الفَتحِ وهوَ علَىٰ ناقتِهِ.

وهذَا التواضعُ فِي هذَا الموطنِ عندَ دخولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكةَ فِي مثلِ هذَا الجيشِ الكثيفِ العَرمرمِ، لدَليلٌ علَىٰ مَا اختصَّهُ اللهُ بهِ مِن عظيمِ الأخلاقِ والسجَايَا، ومصداقٌ لقولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقد كلَّمَهُ رجلٌ يومَ الفتحِ، فخافَ وأخذَتْهُ الرعدَةُ، فقالَ لهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هوِّنْ عليْكَ، فإنَّما أنَا ابنُ امرَأةٍ مِن قُريشٍ كانَت تأكلُ القديدَ**».

ولمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكةَ، جاءَهُ رجلٌ فقَالَ: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ خطلٍ متعلقٌ بأستَارِ الكعبةِ، فقالَ: «**اقتلُوهُ**».

وابنُ خطلٍ هذَا، كانَ قَدْ أسلَمَ ثُمَّ ارتَدَّ مُشركًا، وكانَ لهُ قينتَانِ تغنيَانِ بهجاءِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمينَ، فلهذَا أهدَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دمَهُ ودمَ قينتَيْهِ، فقتلَ وهوَ متعلقٌ بأستارِ الكعبَةِ.

وممَّا جرَىٰ فِي هذِهِ الواقعَةِ منَ الأحداثِ: أنَّ صفوانَ بنَ أميَّةَ، وعِكرمةَ بنَ أبِي جهلٍ، وسُهيلَ بنَ عمرٍو، كانُوا قَدْ جمعُوا ناسًا بالخندمَةِ -وهوَ جبلٌ بمكةَ- ليقاتِلُوا، وكانَ حماسُ بنُ قيسٍ يعدُّ سلاحًا قبلَ قدُومِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُصلحُهُ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ: لماذَا تعدُّ مَا أرَىٰ؟ قالَ: لمحمدٍ وأصحابِهِ، فقالَتْ: واللهِ مَا أرَىٰ يقومُ

---

(١) القلم: ٤.

لمحمدٍ وأصحابِهِ شيءٌ، قالَ: واللهِ إنِّي لأرجُو أنْ أخدمَكِ بعضَهُم.

ثمَّ شهدَ الخَندمةَ معَ صفوانَ وعِكرمةَ وسُهيلٍ، فلمَّا لقِيَهُم المسلمونَ ناوشُوهُم شيئًا مِن قتالٍ، فقُتِلَ بعضُهُم ثمَّ انهزَمُوا، فخرَجَ حماسٌ مُنهزمًا حتَّىٰ دخلَ بيتَهُ، ثمَّ قالَ لامرأتِهِ: أغلقِي عليَّ بابِي، قالَتْ: فأينَ مَا كنتَ تَقُولُ؟ فقَالَ:

إنكِ لَو شَهدتِ يَومَ الخَندمَةْ ... إذْ فرَّ صفوَانٌ وفرَّ عِكرمَةْ

وأبُو يَزيدَ قائِمٌ كالمُوتمَةْ ... وَاستقبلَتهُم بِالسيُوفِ المُسلِمَةْ

يَقطَعنَ كُلَّ ساعِدٍ وجُمجُمَةْ ... ضَربًا فَلَا يُسمَعُ إلَّا غمغَمَةْ

وقَد كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهِدَ إلَىٰ أمرَائِهِ ألَّا يقاتِلُوا إلَّا مَن قاتلَهُم، غيرَ أنهُ سمَّىٰ نفرًا قَد أهدَرَ دماءَهُم وإنْ وجِدُوا تحتَ أستَارِ الكعبَةِ.

ثمَّ إنَّ عكرمةَ بنَ أبِي جهلٍ هربَ إلَىٰ اليمَنِ، وأسلَمتِ امرأتُهُ أمُّ حكيمٍ بنتُ الحارثِ، واستأمَنتْ لَهُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمنَهُ، فذهبَتْ فِي طلبِهِ، حتَّىٰ أتَتْ بِهِ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلَمَ.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ العليمِ الخَبِير، السميعِ البَصِير، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصَىٰ كلَّ شيءٍ عددًا، لَا إلَهَ إلَّا هُوَ إليهِ المَصِير، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ العليُّ الكَبِير، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ البشيرُ النَّذِير، والسِّراجُ المُنِير، صلَّىٰ الله علَيهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ ذَوِي الفضلِ الكَبِير.

أمَّا بعدُ:

فلمَّا نزلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعلَىٰ مكةَ فرَّ رجلانِ إلَىٰ أمِّ هانئٍ بنتِ أبِي طالبٍ،

وكانَ عليٌّ بنُ أبِي طالبٍ يريدُ قتلَهُمَا، فأجارَتْهُما وأغلقَتْ عليهِمَا بابَ بيتِهَا، ثمَّ جاءَتْ إلَىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا رآهَا رحَّبَ وقالَ: «**مَا جاءَ بِكِ؟**».

قالَتْ: يَا نبِيَّ اللهِ، كنتُ أمَّنتُ رجلَيْنِ فأرادَ عليٌّ قَتلهُمَا، فقالَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَد أجرْنَا مَن أجرْتِ يَا أمَّ هَانِئٍ**»، ثمَّ صلَّىٰ فِي بَيتِهَا ثمانِيَ ركعاتٍ يسلِّمُ مِن كلِّ ركعتَينِ، وكانَ ذلِكَ ضُحًىٰ.

ولمَّا نزلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ واطمأنَّ الناسُ، خرجَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ جاءَ البيتَ فقامَ علَىٰ بابِ الكعبَةِ فقالَ: «**لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، صدَقَ وعدَهُ، ونصَرَ عبدَهُ، وهزَمَ الأحزَابَ وحدَهُ، ألَا إنَّ كلَّ مأثرَةٍ** -أي: خَصلةٍ- **كانَت فِي الجاهليةِ ودمٍ ودَعوَىٰ ومَالٍ تَحتَ قَدمِي هَاتَيْنِ، إلَّا مَا كانَ مِن سقَايَةِ الحَاجِّ وسِدانَةِ البيتِ، فإنِّي أمضيتُهُمَا لأهلِهِمَا علَىٰ مَا كَانَتْ**».

ولمَّا دخلَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّةَ كانَ حَولَ البَيتِ ثلَثمِائةٍ وستُّونَ صنمًا، فجعَلَ يطعنُهَا بعُودٍ فِي يدِهِ، ويقُولُ: «**جاءَ الحقُّ وزهَقَ الباطِلُ، جاءَ الحقُّ ومَا يُبدِئُ الباطلُ وَمَا يُعيدُ**»، فجعلَتْ تتهاوَىٰ بينَ يدَيهِ حتَّىٰ مرَّ علَيْهَا كُلِّها.

ثمَّ طافَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ راحلتِهِ بالبَيتِ سبعًا، فلمَّا قضَىٰ طوافَهُ دعَا عثمانَ بنَ طلحةَ فأخذَ مِنهُ مفتَاحَ الكعبَةِ، ففُتِحَتْ لهُ فدخلَهَا، ثمَّ دعَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثمانَ بنِ طلحةَ فقالَ: «**هاكَ مِفتاحَكَ يَا عثمانُ، اليَومُ يومُ برٍّ ووفَاءٍ**».

وحينَ رَأىٰ الأنصارُ مَا فتحُ اللهُ علَىٰ نبيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خافُوا بقاءَ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكةَ، فجعَلَ يقولُ بعضُهُم لبعضٍ: أمَّا الرجلُ فأدركَتْهُ رغبَةٌ فِي قريتِهِ ورَأفةٌ بعشيرتِهِ، وجاءَ الوحيُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلِكَ فقالَ: «**يَا معشَرَ الأنصَارِ، أقُلتُم: أمَّا الرجلُ فأدركَتْهُ رغبَةٌ فِي قريتِهِ ورأفَةٌ بعشيرَتِهِ؟**» فقالُوا: قُلنَا ذلِكَ يَا رسولَ اللهِ.

فقالَ: «**كلَّا، إنِّي عبدُ اللهِ ورسولُهُ، هاجرْتُ إلَىٰ اللهِ وإلَيكُم، فالمَحيَا مَحيَاكُم**

والمماتُ مماتُكُمْ»، فأقبَلُوا إلَيهِ يبكُونَ ويقولُونَ: واللهِ مَا قُلنَا الذِي قُلنَا إلَّا للبخلِ باللهِ ورسولِهِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ ورسولَهُ يُصدقَانِكُم ويَعذُرَانِكُم**»، ثمَّ أقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ تسعةَ عشَرَ يومًا يصلِّي رَكعتَيْنِ.

وقدِ اجتمعَ الناسُ بمكةَ لبيعةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ الإسلامِ، فجلسَ لهُم علَىٰ الصفَا، وعمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أسفلَ مِنْ مجلسِهِ، فأخذَ علَىٰ الناسِ السمعَ والطاعَةَ للهِ ولرسولِهِ فيمَا استطَاعُوا.

فلمَّا فرغَ مِن بيعةِ الرجالِ بايعَ النساءَ، وكانَ يُبايعهُنَّ بالكلامِ دونَ مَسيسٍ، قالَت عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لَا واللهِ مَا مَسَّت يَدُ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَ امرأةٍ قطُّ، مَا كانَ يُبايعهُنَّ إلَّا كلامًا، ويقُولُ: «**إنمَا قولِي لامرأةٍ واحدَةٍ كقَولِي لمائَةِ امرَأةٍ**».

وعادَتْ مكةُ بعدَ فتحِهَا دارَ إسلامٍ بعدَ أنْ كانَتْ دارَ كُفرٍ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا هجرَةَ بَعدَ الفتحِ ولَكِن جهَادٌ ونيَّةٌ، وإذَا استُنفِرْتُم فانفِرُوا**».

وقالَ مجاشِعٌ: أتيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأخِي بعدَ يومِ الفتحِ فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، جئتُكَ بأخِي لتبايعَهُ علَىٰ الهجرَةِ، فقالَ: «**ذهَبَ أهلُ الهجرَةِ بمَا فِيهَا**»، فقلتُ: علَىٰ أيِّ شيءٍ تبايعُهُ؟ قالَ: «**أبايعُهُ علَىٰ الإسلامِ والإيمَانِ والجهَادِ**».

وسُئلَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ الهجرَةِ فقَالَتْ: لَا هجرَةَ اليَومَ، كانَ المؤمنونَ يفِرُّ أحدُهُم بدِينِهِ إلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وإلىٰ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مخافَةَ أنْ يفتَنَ علَيهِ، فأمَّا اليومَ فقَد أظهَرَ اللهُ الإسلامَ، فالمؤمنُ يعبُدُ ربَّهُ حيثُ يشاءُ، ولَكِن جهادٌ ونيَّةٌ.

فقدِ انقطعَتِ الهجرَةُ بعدَ فتحِ مكةَ؛ لأنَّ الناسَ دخَلُوا فِي دينِ اللهِ أفواجًا، وظهرَ الإسلامُ وثبتَتْ أركانُهُ ودعائِمُهُ، فلَمْ تبقَ هِجرَةٌ.

ولمَّا كانَ اليومُ التَّالي ليوم الفتحِ بيَّنَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظيمَ حُرمةِ مكَّةَ، وذكرَ لهُم سببَ مَا قامَ بِهِ، وأنَّهُ أمرٌ قَد خصَّهُ اللهُ بهِ وأذِنَ لَهُ فِيهِ، وخطَبَ فِي الناسِ

فحمِدَ اللهَ وأثنَىٰ عَليهِ ثمَّ قالَ: «**إنَّ مكةَ حرَمَهَا اللهُ ولَم يُحرِّمْهَا الناسُ، لا يحلُّ لامرئٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يسفِكَ بهَا دمًا، ولَا يعضدُ بهَا شجرًا، فإنْ أحدٌ ترخَّصَ لقتالِ رسُولِ اللهِ ﷺ فقولُوا: إنَّ اللهَ أذِنَ لرسُولِهِ ولَم يأذَنْ لَكُم، وإنمَا أذِنَ لِي فيهَا ساعةً مِن نهَارٍ، وقَد عَادَتْ حُرمتُهَا اليومَ كحُرمتِهَا بالأمسِ، فليُبلغِ الشاهِدُ الغَائبَ**».

ولمَّا فتحَ اللهَ عَلىٰ رسولِهِ ﷺ، نزلَت عليهِ هذِهِ السورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1]، فقرَأَهَا رسولُ اللهِ ﷺ حتَّىٰ ختمَهَا، وقَد فهِمَ عمرُ وابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِن هذِهِ السورةِ أنَّ الفتحَ علامَةٌ عَلىٰ قُربِ أجلِ النبيِّ ﷺ، فقَدْ سألَ عمرُ ابنَ عباسٍ: مَا تقولُ فِي هذِهِ السورَةِ؟ فقالَ: هوَ أَجلُ رسُولِ اللهِ ﷺ أعلَمَهُ اللهُ لَهُ، قالَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا أعلَمُ مِنهَا إلَّا مَا تقولُ.

❀❀❀

(١) النصر: ١-٣.

(٧٣) غَزوَةُ حُنَينٍ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقدِيرًا، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لَهُ وكفَىٰ بِالله وليًّا ونَصيرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ إلَىٰ الناسِ كافةً بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ الذينَ أذهَبَ اللهُ عنهُمُ الرِّجسَ وطهَّرَهُمْ تَطهيرًا.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّهُ لمَّا فتحَ اللهُ مكةَ علَىٰ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ ثمَانيةٍ مِنَ الهِجرةِ، خافَتْ هوازِنُ وثَقيفٌ فاجتمَعَ بعضُهُم إلَىٰ بعضٍ وقالُوا: قَد فرَغَ محمدٌ لِقتالِنَا، فأجمِعُوا أمرَكُم فسِيرُوا إليْهِ قبلَ أنْ يسيرَ إلَيْكُم، فواللهِ مَا لاقَىٰ محمدٌ قومًا يحسنونَ القتالَ.

فأجمعَتْ هوازِنُ أمرَهَا وجمعَهَا مالكُ بنُ عوفٍ وهوَ يومئذٍ ابنُ ثلاثينَ سنةً، وكانَ سيدًا فِيهِم، فاجتمعَتْ هوازِنُ كلُّهَا، وقامَتْ ثقيفٌ كلُّها معَ هوازِنَ، وقَدْ أجمعُوا المسيرَ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالَت ثَقيفٌ: قَد كنَّا نهمُّ بالمَسيرِ إليْهِ، ونكرَهُ أنْ يسيرَ إليْنَا، ومعَ ذلِكَ لَو سارَ إلينَا لوجدَ حِصنًا حصينًا نقاتِلُ دُونَهُ، وطعامًا كثيرًا، حتَّىٰ نُصيبَهُ أو ينصرِفَ، ولكنَّا لَا نُريدُ ذَلكَ، ونسيرُ معَكُم ونكُونُ يدًا واحدَةً، فخرَجُوا معَهُم.

وقامَ كنانةُ بنُ عبدِ يَا لِيلَ فقالَ: يَا معشرَ ثقيفٍ، إنَّكُم تخرجُونَ مِن حصنِكُم وتسيرُونَ إلَىٰ رجلٍ لا تدرونَ أيكُونُ لَكُم أمْ عَليكُم، فمُرُوا بحصِنِكُم أنْ يُرمَّ ما رُثَّ مِنهُ، فإنَّكُم لَا تدرُونَ لعلَّكُم تحتاجُونَ إلَيهِ، فأمَرُوا بِهِ أنْ يُصلَحَ، وخلفُوا علَىٰ حرمتِهِ رجلًا وسارُوا.

ولمَّا خرجُوا لقتالِ النبيِّ ﷺ تخلفَ مِن هوازنَ كِلابٌ فلَم يخرجُوا، علَىٰ أنَّهُم كانُوا قَريبينَ منَ المعركَةِ، ولكِنْ قامَ فِيهِم ابنُ أَبِي براءٍ فنهَاهُم عَنِ الحضورِ، وقالَ: واللهِ لَو ناوَأَ مُحمدًا مَن بينَ المشرِقِ والمغربِ لظهَرَ عَليهِم، فأطاعُوا كلامَهُ ولَم يخرُجُوا لقتالِ النبيِّ ﷺ.

فلمَّا أجمَعتْ هوازنُ عَلىٰ الخروجِ، خرجَ معهُم دُريدُ بنُ الصِّمَّةِ، وكانَ شَيخًا كبيرًا تجاوَزَ عمرُهُ المائةَ سنةٍ وقَد ذهبَ بصرُهُ، إلَّا أنَّهُ كانَ شيخًا مُجربًا عارفًا بالحربِ.

فلمَّا خرجَ مالكٌ بالناسِ لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ أمرَهُم أنْ يخرُجُوا بأموَالِهِم ونسائِهِم وأبنائِهِم، فسارُوا حتَّىٰ نزلُوا بأوطاسَ فأقامُوا بهَا، وجعَلتِ الأمدادُ تأتِيهِم مِنْ كلِّ ناحيَةٍ.

فلمَّا نزَلُوا جيءَ بدُريدِ بنِ الصمَّةِ يقودونَهُ عَلىٰ بعيرٍ، فمكَثَ عَلىٰ بعيرِهِ مَليًّا، فلمَّا نزلَ قالَ: مَا لِي أسمعُ رغاءَ البعيرِ، ونهاقَ الحميرِ، وثُغاءَ الشاءِ، وخوارَ البقَرِ، وبكاءَ الصغيرِ؟

قالُوا: ساقَ مَالكٌ الناسَ وأبناءَهُم ونساءَهُم وأموالَهُم. قالَ: يَا معشرَ هوازنَ، أمعَكُم مِن بنِي كلابِ بنِ ربيعَةَ أحدٌ؟ قالُوا: لَا. قالَ: فمعَكُم مِن بنِي كعبِ بنِ رَبيعَةَ أحدٌ؟ قالُوا: لَا. قالَ: فهَل معكُم مِن بنِي هلالِ بنِ عامرٍ أحَدٌ؟ قالُوا: لَا. قالَ: لَو كانَ خيرًا مَا سبقتُمُوهُم إلَيهِ، ولَو كانَ ذِكْرًا أو شَرفًا ما تخلَّفُوا عَنهُ، فأطيعُونِي يَا معشَرَ هوازنَ وارجِعُوا، وافعَلُوا مَا فعلَ هؤلاءِ! فأَبَوا عَليهِ.

فدعَا بمالكِ بنِ عوفٍ وقالَ لَهُ: يَا مالكُ، إنكَ تقاتِلُ رجلًا كريمًا، وقَد أصبَحتَ رئيسَ قَومِكَ، وإنَّ هذَا اليومَ كائنٌ لمَا بَعدَهُ منَ الأيامِ، يَا مالِكُ، مَا لِي أسمعُ رغاءَ البعيرِ، ونهاقَ الحميرِ، وخوارَ البقرِ، وبكاءَ الصغيرِ، وثُغاء الشاءِ؟

قالَ مالكٌ: سُقتُ معَ الناسِ أموالَهُم وأبناءَهُم ونساءَهُم، أَردتُ أنْ أجعلَ خلفَ

كلِّ رجلٍ أهلَهُ ومالَهُ وولدَهُ ونساءَهُ حتَّىٰ يقاتِلَ عَنهُم.

فنفضَ دريدٌ يدَهُ وقالَ: وهلْ يردُّ المُنهزِمَ شيءٌ؟ إنَّهَا إن كانَت لكَ لَم يَنفَعْكَ إلَّا رجلٌ بسَيفِهِ ورُمحِهِ، وإنْ كانَتْ عَليكَ فُضِحتَ فِي أهلِكَ ومَالِكَ! ثمَّ قالَ: ما فَعلَتْ كعبٌ وكلابٌ؟ قالَ: لَم يشهَدهَا منهُم أحدٌ. قالَ: غابَ الجدُّ والحدُّ، ولَو كانَ يومَ رفعةٍ وعَلاءٍ لَم تَغِبْ عنهُ كعبٌ ولَا كلابٌ.

يَا مالكُ، إنَّك لم تَصنَع بتقدِيم بيضَةِ هوازنَ إلَىٰ نحورِ الخَيلِ شيئًا، فإذَا صَنعتَ مَا صنَعتَ فَلا تعصنِي فِي هذِهِ الخطَّةِ، ارفَعهُم إلَىٰ ممتنعِ بلادِهِم وعلياءِ قَومِهِم وعِزِّهِم، ثُمَّ الْقَ القومَ عَلىٰ متونِ الخَيلِ، فإنْ كانَت لكَ لحِقَ بكَ مَن وراءَكَ وكَانَ أهلُكَ لَا خوفٌ عليَهِم، وإنْ كانَت عَليكَ نفعَكَ ذلِكَ وقَد أحرَزْتَ أهلَك ومَالَكَ.

فغَضِبَ مالكٌ مِن قولِهِ وقالَ: واللهِ لَا أفعلُ، وَلَا أذرُ أمرًا صنعتُهُ، إنَّكَ قَد كبرْتَ وكبرَ عِلمُكَ، وحدثَ بعدَكَ مَن هوَ أبصَرُ بالحربِ مِنكَ؟ فقالَ دُريدٌ: يَا معشرَ هوازِنَ، واللهِ مَا هذَا لَكُم برَأيٍ، هذَا فاضحُكُم فِي عورَتِكُم وممكِّنٌ منكُم عدوَّكُم، ولاحقٌ بحِصنِ ثقيفٍ وتارِكُكُم، فانصرِفُوا واترُكُوهُ.

فسلَّ مالكٌ سيفَهُ ثمَّ نكَّسَهُ وقالَ: يَا معشرَ هوازِنَ، واللهِ لتُطيعُنَّنِي أو لأتكِئَنَّ عَلىٰ السيفِ حتَّىٰ يخرُجَ مِن ظهرِي.

فمشَىٰ بعضُهُم إلَىٰ بعضٍ وقالُوا: واللهِ لئِنْ عصينَا مالِكًا وهوَ شابٌّ، ليقتُلَنَّ نفسَهُ ونبقَىٰ معَ دُريدٍ، شيخٍ كبيرٍ لَا قتالَ فِيهِ، وأجمَعُوا أمرَهُم معَ مالِكٍ، فلمَّا رَأىٰ ذلكَ دريدٌ وأنهُم قَد خالفُوهُ، قالَ: هذَا يومٌ لَم أشهَدْهُ ولَم أغِبْ عنْهُ، ثُم قالَ:

يَـا ليتَنِـي فِـيهَا جَـذَعْ ... أخُـبُّ فِـيهَا وأضَـعْ

أقُـودُ وَطْفَـاءَ الـزَّمَعْ ... كَأنَّهَـا شَـاةُ صَـدَعْ

واستعارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن صفوانَ بنِ أميةَ -وقَد كانَ مشركًا- مائةَ درعٍ بأداتِهَا كاملةً، فقالَ صفوانُ: أغصبًا يَا محمدُ؟ فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَل عاريةٌ مؤدَّاةٌ!**».

فلمَّا خرجَ الصحابةُ معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانَ بعضُهُم حديثَ عهدٍ بكُفرٍ، مرُّوا بشجرَةٍ للمشركِينَ يقالُ لهَا ذاتُ أنواطٍ، يعكفُونَ عندَهَا ويذبحُونَ لهَا ويُعلقونَ عليهَا أسلحَتَهُم.

فقالُوا: يَا رسُولَ اللهِ، اجعَلْ لنَا ذاتَ أنواطٍ كمَا لَهُم ذاتُ أنوَاطٍ.

فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أكبَرُ! إنَّها السنَنُ، قُلتُم والذِي نَفسِي بيدِهِ كمَا قالَتْ بنُو إسرَائيلَ لمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**[1]**، والذِي نفسِي بيدِهِ لتَركبُنَّ سنَنَ مَن كانَ قَبلَكُم**»[2].

ولمَّا انتهَىٰ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ حُنينٍ دعَا عبدَ اللهِ بنَ أبي حَدردٍ الأسلميَّ وقَالَ: «**انطلِقْ فادخُلْ فِي الناسِ حتَّىٰ تأتِيَ بخبرٍ منهُم**».

فخرجَ إلَىٰ عسكرِهم فطافَ بِهِ، حتَّىٰ انتَهَىٰ إلَىٰ ابنِ عوفٍ، فسمِعَهُ يقولُ لأصحابِهِ: إنَّ محمدًا لَم يقاتِلْ قطُّ قبلَ هذِهِ المَرةِ، وإنمَا كانَ يلقَىٰ قومًا أغمارًا لَا عِلمَ لهُم بالحَربِ فينتصِرُ عَليهِم، فإذَا كانَ فِي السَّحَرِ فصفُّوا مواشِيَكُم ونسَاءَكُم وأبناءَكُم مِن ورائِكُم، ثمَّ صفُّوا صفوفَكُم، ثمَّ تكونُ الحملةُ مِنكُم، واكسِرُوا جفُونَ سيوفِكُم فتلقَونَهُ بعشرِينَ ألفَ سيفٍ مكسورِ الجَفنِ، واحمِلُوا حملةَ رجلٍ واحدٍ، واعلمُوا أنَّ الغلبَةَ لِمَن حمَلَ أولًا، فلمَّا سمعَ ابنُ أَبِي حدرَدٍ ذلِكَ، رجعَ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرَهُ بمَا سمِعَ.

---

(١) سورة الأعراف:١٣٨.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٠٨).

ثمَّ جاءَ فارسٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي انطلَقتُ مِن بَينِ أيدِيكُم إِلَىٰ جبلِ كذَا وكذَا، فإذَا بهوازِنَ عَن بكرَةِ أبِيهَا بظَعنِهَا ونسَائِهَا ونعَمِهَا فِي وادِي حُنينٍ، فتبَسَّمَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقالَ: «**تِلكَ غنيمَةُ المُسلمِينَ غدًا إنْ شاءَ اللهُ**».

وخرجَ رجالٌ مِن مُشركِي مكةَ فِي أثرِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ينظرونَ لمَن تكونُ الدائرَةُ فيُصيبونَ مِن الغنائمِ، ويَوَدُّونَ لَو أنَّ الدائرةَ تكونُ عَلىٰ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابِهِ.

ولمَّا كانَ مِن الليلِ عمدَ مَالكُ بنُ عوفٍ إِلَىٰ أصحابِهِ فعبَّأَهُم فِي وادِي حُنينٍ، وفرَّقَ الناسَ فِيهِ، وأوعَزَ إِلَىٰ الناسِ أنْ يحمِلُوا عَلىٰ محمدٍ وأصحابِهِ حملَةً واحدَةً.

وعبأَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أصحابَهُ، وصَفَّهُم صفُوفًا، ووضَعَ الألويَةَ والرايَاتِ فِي أهلِهَا، وانحدَرَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأصحابِهِ، وركبَ بغلتَهُ البيضاءَ، ولبسَ درعَينِ، واستقبَلَ الصفوفَ فحضَّهُم عَلىٰ القتالِ وبشَّرَهُم بالفَتحِ إنْ صدقُوا وصَبَرُوا.

فلمَّا انتَهَىٰ المسلمُونَ إِلَىٰ وادِي حنينٍ استقبلَتْهُم هوازنُ بشيءٍ لَم يُرَ مثلُهُ فِي ذلكَ الزمانِ منَ السوادِ والكثرَةِ، قَد ساقُوا نساءَهُم وأموالَهُم وأبناءَهُم وذَرارِيَهُم، ثمَّ صَفُّوا صفوفًا، فجعَلُوا النساءَ فوقَ الإبلِ وراءَ صفوفِ الرجالِ، ثمَّ جاءُوا بِالإبلِ والبقرِ والغنَمِ فجعلُوهَا وراءَ ذلِكَ لئلَّا يفِرُّوا بزَعمِهِم.

فلمَّا رَأىٰ المسلمونَ ذلكَ السوادَ حسبُوهُ رجَالًا كلَّهم، فلمَّا تحدَّرُوا فِي الوادِي مَا شعَرُوا إلَّا وكتائبُ المشركينَ قَد خرجَتْ عليهِم مِن مَضيقِ الوادِي وشِعْبِهِ، فحمَلُوا عَلىٰ المسلمِينَ حملَةً واحدَةً فانهزَمُوا.

وسببُ ذلكَ أنهُ لمَّا خرجَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي اثنَي عشَرَ ألفًا مِن المسلمِينَ، قالَ بعضُ أصحابِهِ وقَد اغترُّوا بكثرَةِ عددِهِم: لَن نُغْلبَ اليومَ مِن قلَّةٍ، فكانَتِ الدائرةُ

عَليهِم أولَ الأمرِ، وقَد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي ذلِكَ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(١).

وفِي هذَا درسٌ عظيمٌ للمُسلمِ أنْ يفوضَ أمرَهُ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وألَّا يغترَّ بحَولِهِ وقُوَّتِهِ.

ولمَّا كانَتِ الهزيمَةُ والدائرَةُ علَىٰ المسلمينَ، قالَ أبُو سفيانَ -وكانَ حديثَ عَهدٍ بإسلامٍ-: لَا تنتَهِي هزيمَتُهُم دُونَ البَحرِ.

فقالَ لَهُ رجلٌ مِن أسلَمَ: أمَا واللهِ لولَا أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهَىٰ عَن قتلِكَ لقَتلتُكَ.

وصرخَ كلدَةُ أخو صفوانَ بنِ أميةَ لأمهِ: ألَا بَطَلَ السِّحرُ اليومُ.

فقالَ لهُ صفوَانُ: اسكُتْ فضَّ اللهُ فاكَ، لأن يربُّني رجلٌ من قُريشٍ أحبَّ إلَىٰ مِنْ أَنْ يربَّني رجلٌ مِن هوازِنَ.

ولمَّا انهزَمَ الناسُ ثبتَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثباتًا عَظيمًا، فمَا رُئِيَ أَحَدٌ منَ الناسِ يومَئذٍ أشدَّ مِنهُ، وهذَا مِنْ تَثبيتِ اللهِ سُبحانَهُ لَهُ، قَال تعَالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

قالَ العباسُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لمَّا كانَ يومُ حنينٍ التقَىٰ المسلمونَ والمُشركونَ، فوَلَّىٰ المسلمونَ يومئذٍ، فلقَد رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومَا معَهُ إلَّا أبُو سفيَانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ آخِذًا ببغلَةِ رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فانطَلَقَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يركضُ ببغلَتِهِ نَحوَ الكفارِ وهُوَ يقُولُ:

(١) سورة التوبة:٢٥.

(٢) سورة التوبة:٢٦.

أَنَـــا النَّبِـــــيُّ لا كَـــــذِبْ أَنَـــا ابـــنُ عَـــبدِ المُطَّلِـــبْ

فأخذتُ بلجامِهَا أكفُّهَا إرادةَ أَلَّا تُسرعَ، وكنتُ رَجلًا صيِّتًا، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ رَأىٰ منَ الناس مَا رَأىٰ: «**أيْ عباس، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ**» -أي: أصحاب بيعة الشجرة-، فقلتُ بأعلَىٰ صوتي: أينَ أصحَابُ السَّمُرةِ؟

فواللهِ لكأنَّ عطفَتَهُم حينَ سمِعُوا صوتِي عطفةَ البقَرِ عَلىٰ أولادِهَا، فقالُوا: يا لبَّيكَ يَا لبَّيكَ، فيذهَبُ الرجلُ منهُم فيَثني بعيرَهُ فَلا يقدِرُ عَلىٰ ذلِكَ، فيأخذُ دِرعَهُ فيقدِّمُها فِي عنقِهِ، ويأخذُ تُرْسَهُ وسيفَهُ ويؤمُّ الصوتَ حتَّىٰ ينتَهِي إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَد شرَعُوا الرماحَ حتَّىٰ إنِّي لأخافُ رمَاحَهم عَلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ مِن خوفِي رمَاحَ المشركِينَ.

فلمَّا رجعَ الناسُ إلَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمَعُوا فاقتتَلُوا معَ الكفارِ، وكانَت الدعوَةُ أوَّلًا: يَا لَلأنصارِ، ثمَّ قَصُرَتِ الدعوَةُ فنادَوا: يَا للخَزرجِ، وكانُوا صُبُرًا عندَ اللقاءِ، صُدُقًا عندَ الحربِ، فنظَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ عَلىٰ بغلتِهِ كالمتطَاوِلِ عليهَا ينظرُ إلَىٰ قتالِهِم، وقالَ: «**هذَا حينَ حمِيَ الوَطيسُ**»، ثمَّ قبضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضةً مِن ترابٍ منَ الأرضِ فرمَىٰ بهَا وجُوهَ الكفارِ وقالَ: «**شاهَتِ الوجُوهُ، انهزَمُوا وربِّ مُحمدٍ**». فمَا خلقَ اللهُ منهُم إنسَانًا إلَّا ملأَ عينَيْهِ تُرابًا بتِلكَ القبضَةِ، فمَا زِلتُ أرَىٰ حدَّهُمْ كَليلًا وأمرَهم مُدبرًا.

وفِي هذِهِ الغزوَةِ أيَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنينَ بالملائكَةِ تقاتلُ معَهُم، قالَ سبحانَهُ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة:٢٦.

وقَد ظهَرَ فِي هذِهِ المَعركةِ تفَانِي الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فقَد قاتَلُوا قِتالًا شَدِيدًا، وأبلَوا بَلاءً عظيمًا، وأظهَرُوا شجاعَةً لَم يُعهَد لهَا نَظيرٌ، طَمعًا فيمَا عِندَ اللهِ منَ الأجرِ والشهادَةِ فِي سبيلِهِ، وحتَّىٰ يعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَهُ، ويذِلَّ الشركَ وأهلَهُ.

فكانَ عثمانُ بنُ عفَّانَ، وعَليٌّ، وأبُو دُجانَةَ، وأيمنُ بنُ عُبيدٍ يقاتلُونَ بينَ يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانَ رجلٌ مِن هوازِنَ علَىٰ جملٍ أحمَرَ، قَد أكثَرَ فِي المُسلمينَ القتلَ، فصمدَ لهُ أبُو دجانَةَ فعرقَبَ جمَلَهُ، وشَدَّ عليهِ فقطَعَ يدَيهِ وأقبَلَ يضرِبُهُ بسيفِهِ حتَّىٰ تثلَّمَ.

ومضَىٰ عليٌّ وأبو دجانَةَ يضربَانِ أمامَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاعترَضَ لهُمَا فارسٌ مِن هوازِنَ بيدِهِ رايةٌ حمراءُ، فضرَبَ أحدُهُمَا يدَ الفرسِ ووقعَ لوجهِهِ، ثمَّ ضرباهُ بأسيافِهِمَا.

وجاءَتْ أمُّ سُلَيمٍ ابنةُ مِلحانَ إلَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَتْ: يَا رسُولَ اللهِ، أرأيت هؤلاءِ الذينَ أسلمُوكَ وفرُّوا عنكَ وخذلُوكَ! لَا تَعفُ عنهُم إذَا أمكنَكَ اللهُ مِنهُم، فاقتُلهُم كمَا تَقتُلُ هؤلاءِ المشركينَ. فقالَ: «**يَا أمَّ سُليمٍ، إنَّ اللهَ قَد كفَىٰ وأحسَنَ**».

وقَد اتخذَتْ أمُّ سُلَيمٍ يومَ حُنينٍ خِنجرًا، فرآهَا أبو طلحَةَ فقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، هذِهِ أمُّ سُليمٍ معَها خِنجرٌ، فقالَ لهَا رسولُ اللهِ: «**مَا هذَا الخِنجَرُ؟**». قالَت: اتخذتُهُ إنْ دنَا منِّي أحدٌ منَ المشركِينَ بقَرتُ بِهِ بطنَهُ، فجعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحَكُ، وقامَتْ أمُّ الحارثِ الأنصاريَّةُ فأخذَتْ بخطَامِ جملِ أبِي الحارثِ زَوجِها، فقَالَت: يَا أبَا حارثٍ، تترُكُ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فَأخذَتْ بخِطامِ الجمَلِ، والجملُ يُريدُ أَن يهرُبَ، والناسُ يُولونَ مُنهزمِينَ، وهِيَ لَا تُفارقُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالَ أبُو قتادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا التقيْنَا كانَتْ للمُسلمينَ جَولةٌ، فرَأيتُ رجُلَينِ يقتَتِلانِ، وقَد عَلَا المُشركُ المُسلمَ، فاستدَرتُ لهُ حتَّىٰ أتيتُهُ مِن ورائِهِ فضَربتُهُ علَىٰ حبلِ عاتقِهِ،

وأقبَلَ عليَّ فضَمَّنِي ضمَّةً وجدْتُ منهَا ريحَ الموتِ، وكادَ أنْ يقتلَنِي لَولَا أنَّ الدمَ نزَفَهُ، فسقطَ، فأجهَزْتُ عَليهِ ومضَيتُ.

وهمَّ شيبَةُ بنُ عثمانَ بقتلِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لَم يُمكِّنْهُ مِن ذلكَ، وحمَىٰ منهُ نبيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقُولُ شَيبةُ: لمَّا رأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزَا مكَّةَ فظفِرَ بهَا وخرَجَ إلَىٰ هوازِنَ، ذكرْتُ قتلَ أَبِي يومَ أحُدٍ حينَ قتلَهُ حمزَةُ، وعمِّي قتلَهُ عَليٌّ، قُلتُ: أخرجُ لعلِّي أدرِكُ ثأرِي، فلمَّا انهزمَ أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جئتُهُ عَن يمينِهِ، فإذَا العباسُ قائِمٌ عليْهِ درعٌ بيضَاءُ، فقُلتُ: عمُّهُ لَن يخذلَهُ، ثمَّ جئتُهُ عَن يسَارِهِ فإذَا بأبِي سفيانَ بنِ الحارثِ ابنِ عمِّهِ، فقلتُ: ابنُ عمِّهِ لَن يخذلَهُ، فجئتُهُ مِن خلفِهِ، فلمَّا أَردتُ أنْ أعلُوَهُ بالسَّيفِ رُفعَ مَا بينِي وبينَهُ شواظٌ مِن نَارٍ كأنَّهُ برقٌ، فخِفتُ أنْ يُخطَفَ بصَرِي، فوضَعتُ يدَيَّ عَلىٰ عينَيَّ وترَاجعْتُ إلَىٰ الخلفِ، فالتفتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ فقَالَ: «**ادنُ منِّي يَا شيبَةُ**»، فوضَعَ يدَهُ عَلىٰ صدرِي وقالَ: «**اللهُمَّ أذهِبْ عنهُ الشيطَانَ**». فرفَعتُ إلَيهِ رأسِي وهوَ أحبُّ إليَّ مِن سمعِي وبصَرِي وقلبِي، ثمَّ قالَ: «**يَا شيبةُ، قاتِلِ الكفَّارَ**». فتقدَّمتُ بينَ يديْهِ وأنَا وَاللهِ أُحبُّ أنْ أَقِيَهُ بنفسِي.

وهَرَبَتْ ثَقيفٌ، فمَا زالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طلبِهِم وهُم مُولُّونَ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ منهُم ليدخُلُ حصنَ الطائفِ وهوَ يظنُّ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلىٰ أثرِهِ مِن رعبِ الهَزيمةِ.

ووقَفَ مالكُ بنُ عوفٍ عَلىٰ ثَنيةٍ منَ الثنايَا معَهُ فُرسانٌ مِن أصحابِهِ، فلمَّا غشِيتْهُ الخيلُ نزَلَ عَن فرسِهِ مخافَةَ أنْ يُؤسَرَ، وقالَ: مَا ترونَ؟

قالُوا: نرَىٰ رجلًا بينَ رجلَينِ مُعلمًا بعصابةٍ صفرَاءَ، يخبطُ برجليَهِ الأرضَ، واضِعًا رمحَهُ عَلىٰ عاتقِهِ، قالَ: ذلِكَ ابنُ صفيَّةَ، الزُّبيرُ، وايمُ اللهِ ليُزيلنَّكُم عَن مكانِكُم.

فلمَّا بصرَ بِهِم الزُّبَيرُ حَملَ عَلَيهِم حتَّىٰ أهبطَهُمُ منَ الثنيَّةِ، وهرَبَ مالِكُ بنُ عوفٍ فتحصَّنَ فِي حصنِ ثَقيفٍ، ثمَّ طفقَ يلوذُ بالشجرِ حتَّىٰ دخلَ فِي جبلٍ منَ الجبَالِ، فأعجزَهُمْ هَربًا.

وذُكرَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ قاتَلَ قِتالًا شديدًا، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذَا مِن أهلِ النارِ**». فلمَّا حضَرَ القتالُ قاتَلَ الرجُلُ قتَالًا شديدًا، فأصابَتْهُ جراحَةٌ فقِيلَ: يَا رسولَ اللهِ، الرجلُ الذِي قُلتَ لَهُ آنِفًا: «**إنَّهُ مِن أهلِ النارِ**»، إنهُ قاتَلَ اليَومَ قِتالًا شَديدًا وقَد ماتَ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلَىٰ النَّارِ**».

فكادَ بعضُ المسلمينَ أنْ يرتَابَ، فبينَمَا هُم عَلىٰ ذلِكَ إذْ قيلَ: إنهُ لَم يَمُت ولَكِنْ ألمَّتْ بِهِ جِراحٌ شديدَةٌ، فلمَّا كانَ مِنَ الليلِ لَمْ يصبرْ عَلىٰ الجراحِ فقتَلَ نَفسَهُ فأُخبرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلِكَ فقَالَ: «**اللهُ أكبَرُ! أشهدُ أنِّي عبدُ اللهِ ورسولُهُ**»، ثمَّ أمرَ بلالًا فنادَىٰ فِي الناسِ: «**إنَّهُ لَا يدخُلُ الجنَّةَ إلَّا نَفسٌ مسلمَةٌ، وإنَّ اللهَ يُؤيدُ هذَا الدينَ بالرجلِ الفاجِرِ**».

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسلامُ عَلىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا مُحمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ.

أمَّا بَعدُ، أيهَا المسلِمونَ:

فلمَّا انتهَتِ المعركَةُ أمرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغنائِمِ أنْ تُجمَعَ، ونادَىٰ منادِيهُ: مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلَا يغُلَّ، وجمعَ الناسُ غنائمَهُم فِي موضعٍ حتَّىٰ استعمَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيهَا.

ولمَّا دخلَ عَقِيلُ بنُ أَبِي طالبٍ عَلىٰ زوجتِهِ وسيفُهُ متلطخٌ دمًا، قالَت: إنِّي قَد علمْتُ أنَّكَ قَد قاتَلتَ المُشركِينَ، فمَاذا أصبْتَ مِن غنائِمِهِم؟

قالَ: هذِهِ الإبرةُ تَخيطِينَ بهَا ثيابَك، فدفعَهَا إليهَا، فسمِعَ منادِي رسولِ اللهِ يقولُ: مَن أصابَ شَيئًا منَ المَغنَمِ فليَرُدَّهُ، فرجَعَ عَقيلٌ فقالَ: واللهِ مَا أرَىٰ إبرَتَكِ إلَّا قد ذهَبَتْ، فألقَاهَا فِي الغنَائِمِ.

وقسمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغنائِمَ مِن الأموالِ بينَ قريشٍ وقبائلَ منَ العَربِ، تأليفًا لقلُوبِهِم علَىٰ الإسلامِ، ولمْ يُعْطِ الأنصارَ منهَا شيئًا، فوجَدَ الأنصارُ فِي أنفُسِهِم حتَّىٰ كثُرتِ فيهِم القالَةُ، حتَّىٰ قالَ قائِلُهُم: لقِيَ واللهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومَهُ، فدخلَ عَليهِ سعدُ بنُ عبادَةَ الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ هذَا الحيَّ مِنَ الأنصارِ قَد وجَدُوا عَليكَ فِي أنفسِهِم، لمَا صنعتَ فِي هذَا الفيءِ الذِي أصبْتَ، قسمْتَ فِي قومِكَ، وأعطَيتَ عطايَا عِظامًا فِي قبائلِ العربِ، ولَم يكُنْ فِي هذَا الحيِّ منَ الأنصارِ منهَا شيءٌ، فقالَ: «**فَأينَ أنتَ مِن ذلِكَ يَا سعدُ؟**».

قالَ: يا رسولَ اللهِ، مَا أنَا إلَّا مِن قَومِي.

قالَ: «**فاجمَعْ لِي قومَكَ فِي هذِهِ الحَظيرَةِ؟**». فجاءَ رجالٌ منَ المهاجرِينَ فتركَهُم فدخَلُوا، وجاءَ آخرُونَ فردَّهُم، فلمَّا اجتمَعُوا، أتَىٰ سعدٌ فقالَ: لقَدِ اجتمعَ لكَ هذَا الحيُّ منَ الأنصارِ، فأتَاهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحمِدَ اللهَ وأثنَىٰ علَيهِ بمَا هوَ أهلُهُ، ثمَّ قالَ: «**يَا معشرَ الأنصارِ، مَا قالةٌ بلغَتنِي عنكُم، وجِدةٌ قَد وجدتُمُوهَا فِي أنفسِكُم، ألَم آتِكُم ضُلالًا فهَداكُمُ اللهُ بِي، وعالةً فأغناكُمُ اللهُ بِي، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكُم؟**»، فقالُوا: اللهُ ورسُولُهُ أمنُّ وأفضَلُ. ثمَّ قالَ: «**ألَا تُجيبونَنِي يَا معشَرَ الأنصَارِ؟**». قالُوا: بمَاذا نُجيبُكَ يا رسُولَ اللهِ؟ للهِ ولرسولِهِ المَنُّ والفَضلُ. فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَا واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم، فلصدَقْتُم ولَصُدِّقتُم: أتيتَنَا مكذَّبًا فصدَّقنَاكَ، ومخذُولًا فنصرنَاكَ، وطريدًا**

فآوينَاكَ، وعائلًا فآسينَاكَ، أوجَدتُم يَا معشرَ الأنصارِ فِي أنفُسِكُم فِي لُعاعةٍ منَ الدنيَا، تألَّفْتُ بهَا قومًا ليُسلِمُوا، ووكلتُكُم إلَىٰ إسلامِكُم؟، ألَا ترضَونَ يَا معشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبَعيرِ، وترجعونَ برسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ رِحالِكُم؟

فوَالذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لَولَا الهجرَةُ لكُنتُ امرأً منَ الأنصارِ، ولَو سلَكَ الناسُ شِعبًا وسلَكَت الأنصارُ شعبًا وواديًا لسلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، اللهُمَّ ارحَم الأنصَارَ، وأبناءَ الأنصَارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصَارِ»، فبكَىٰ القَومُ حتَّىٰ أخضَلُوا لِحاهُم، وقالُوا: رضِينَا برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسمًا وحظًّا [1].

ثمَّ ركبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتبعَهُ الناسُ يقولُونَ: يَا رسولَ اللهِ، اقسِمْ علَيْنَا فيئَنَا، حتَّىٰ اضطرُّوهُ إلَىٰ شجرةٍ فانتزَعَتْ رداءَهُ فقالَ: «**أيهَا الناسُ، رُدُّوا عليَّ ردائِي، فوالذِي نفسِي بيدِهِ لَو كانَ لَكُم عندِي عددَ شجرِ تهامَةَ نَعمًا لقسمتُهُ عَليكُم ثُمَّ مَا ألفيتُمونِي بَخيلًا ولَا جَبانًا وَلَا كَذابًا**».

وكانَ عليهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيَةِ، فأدركَهُ أعرابيٌّ فجذبَهُ جذبَةً شديدَةً حتَّىٰ أثرَتْ حاشيَةُ الرداءِ فِي صفحَةِ عاتقِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن شدَّةِ الجَذبَةِ، وقالَ: مُر لِي مِن مالِ اللهِ الذِي عندَكَ، فالتفتَ إليهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضحِكَ ثمَّ أمرَ لَهُ بعطَاءٍ.

ولمَّا آثرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسًا فِي الغنيمَةِ، فأعطَىٰ الأقرعَ بنَ حابسٍ مائةً مِنَ الإبلِ، وأعطَىٰ عُيينَةَ مثلَ ذلَكَ، وأعطَىٰ نَاسًا آخرِينَ، قامَ رجلٌ فقَالَ: واللهِ إنَّ هذِهِ لقِسمةٌ مَا عُدِلَ فيهَا ومَا أُرِيدَ فِيهَا وجهُ اللهِ، فسمِعَهُ ابنُ مسعودٍ فقَالَ: واللهِ لأخبرَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتَاهُ فأخبرَهُ فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومَن يَعدلُ إن لَم أعدِلْ؟! رحِمَ اللهُ موسَىٰ قَد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذَا فَصَبَرَ**».

---

(١) رواه البخاري (٣٩٨٥).

ولمَّا جاءَ المسلمونَ بِالأسرَىٰ كانَ مِن بينِهِمُ الشيماءُ بنتُ الحارثِ أختُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منَ الرضَاعةِ، فجعلَتْ تقولُ لَهُم: إنِّي وَاللهِ أختُ صاحِبِكُم، وَلَا يُصدِّقُوها، وأخذَهَا طائفةٌ منَ الأنصَارِ، وكانُوا أشدَّ الناسِ عَلىٰ هوازِنَ، حتَّىٰ أتَوا بِهَا رسولَ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقالَت: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي أختُكَ. فقالَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ومَا عَلامَةُ ذَلِكَ؟**». قالَت: عضَّةٌ عضضتنِيهَا فِي ظهرِي وأنتَ جالسٌ عَلىٰ وركِي، فعرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ العلامَةَ، فوثَبَ قائمًا وبسَطَ لهَا رداءَهُ، ثمَّ قالَ: اجلِسِي علَيهِ، ورَحَّبَ بهَا، ودمعَتْ عيناهُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وسَألَهَا عَن أمِّهِ وأبِيهِ مِن الرضَاعَةِ، فأخبرَتْهُ بموتِهِمَا منذُ زَمنٍ، ثمَّ قالَ: «**إنْ أحبَبتِ فأقيمِي عندَنَا مكرمَةً، وإنْ أحببتِ أنْ ترجِعِي إلَىٰ قومِكِ وصَلْتُكِ ورجَعتِ إلَىٰ قومِكِ**». قالَتْ: أرجِعُ إلَىٰ قومِي. وأَسْلَمت، فأعطَاهَا رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثلاثَةَ أعبُدٍ وجارِيَةً.

ولمَّا رجعَتِ الشيماءُ لمنزِلِهَا، كلَّمَها النسوَةُ فِي رجالٍ لهُنَّ، فرجعَتْ إلَىٰ النبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فكلَّمتْهُ أنْ يهبَهُم لهَا ويعفُوَ عَنهُم، ففعَلَ.

ولمَّا خرجَ رسولُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نزلَ الجِعرانةَ ومعَهُ مِن هوازِنَ سبيٌ كثيرٌ بلغَ ستَّةَ آلافٍ مِنَ الذرارِي والنساءِ، ومِنَ الإبلِ والشاءِ مَا لَا يُدرَىٰ عدتُهُ، فلحقَهُ وفدٌ مِن هوازنَ بالجعرَانَةِ، وقَد أسلَمُوا، فقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّا أصلٌ وعشيرَةٌ، وقَد أصابَنَا مِنَ البلاءِ مَا لَم يَخفَ عَليكَ، فامنُنْ علينَا مَنَّ اللهُ عَليكَ.

وقامَ خَطيبُهُم زُهيرُ بنُ صُرَدٍ فقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ مَا فِي الحظَائرِ مِنَ السبَايَا خالاتُكَ وحواضِنُكَ اللاتِي كُنَّ يَكفُلنَكَ، وأنتَ رسولُ اللهِ خَيرُ المكفولِينَ، ثمَّ أنشَأَ يقُولُ:

امــنُنْ علَيــنَا رسُــولَ اللهِ فِــي كــرَمٍ … فإنَّــكَ المَــرءُ نَــرجُوهُ ونَدَّخــرُ
امــنُنْ عَلــىٰ بَيــضَةٍ قَــد عاقَهَــا قَــدرٌ … مُمــزَّقٍ شَــملُهَا فِــي دهــرِهَا غِيَــرُ
أبْقَـتْ لـنَا الدَّهـرَ هُـتَّافًا عَلـىٰ حَـزنٍ … عَلَــىٰ قُلــوبِهِمُ الغمــاءُ والغمَــرُ

إنْ لَـم تَـدَاركْهمُ نعمَـاءُ تنشُرُهَا ... يَـا أرجحَ الـناسِ حِلمًـا حينَ يُختبـرُ
امنُن عَلىٰ نسوَةٍ قَد كُنتَ تَرضَعُهَا ... إذْ فُـوكَ تَملـؤُهُ مِـن مَحـضِهَا الـدُّررُ
إنَّـــا لنَـــشكرُ آلاءً وإنْ كُفِـــرَت ... وعـــندَنَا بَعـــدَ هـــذَا الـــيَومِ مُدَّخـــرُ

فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نساؤُكُم وأبناؤُكُم أحبُّ إلَيْكُم أَمْ أموالُكُم؟**».

فقالُوا: يَا رسولَ اللهِ، خيرتَنَا بينَ أحسابِنَا وأموالِنَا؟ بلْ أبناؤُنَا ونساؤُنَا أحبُّ إليْنَا، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَّا مَا كانَ لِي ولبنِي عبدِ المُطَّلبِ فهوَ لكُم، وإذَا أنَا صَلَّيتُ بالناسِ فقومُوا فاسألُونِي، فإنِّي سأعطِيكُم عندَ ذلِكَ، وأسألُ لكُم**».

فلمَّا صلَّىٰ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناسِ الظهرَ، قامُوا فقالُوا مَا أمرَهُم بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المسلمينَ، وأثنَىٰ عَلىٰ اللهِ بمَا هوَ أهلُهُ، ثمَّ قالَ: «**أمَّا بعدُ، فإنَّ إخوانكُم هؤلاءِ قَد جاءُوا تائِبينَ، وإنِّي قَد رأيتُ أنْ أردَّ إليهِم سَبيَهُم**»، ثمَّ قالَ: «**أمَّا مَا كانَ لِي ولبَنِي عبدِ المُطَّلبِ فهُوَ لَكُم**».

فقالَ المهاجِرونَ: ومَا كانَ لنَا فهُوَ لرسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالَتِ الأنصَارُ: ومَا كانَ لنَا فهُوَ لرسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمْ يَلبثُوا حتَّىٰ أعتَقُوا جميعَ مَا بأيدِيهِم.

ثمَّ سألَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفدَ هوازِنَ عَن مالِكِ بنِ عوفٍ مَا فعَلَ؟ فقالُوا: هُوَ بالطائفِ معَ ثَقيفٍ، فقَالَ: «**أخبرُوهُ أنَّهُ إنْ أتانِي مُسلمًا، رَددْتُ إليهِ أهلَهُ ومالَهُ، وأعطيتُهُ مائةً مِنَ الإبلِ**»، فلمَّا بلغَ ذلِكَ مالكًا انسَلَّ مِن ثَقيفٍ حتَّىٰ أتَىٰ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلَمَ وحسُنَ إسلامُهُ، فردَّ عَليهِ أهلَهُ ومالَهُ.

❊❊❊

(٧٤) وفاةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحمدُ للهِ بيدِهِ مفاتِيحُ الفرَجِ، وشرعَ الشرائعَ وأحكمَ الأحكامَ ومَا جعَلَ علَينَا فِي الدِّينِ مِن حرَجٍ، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، قامَتْ علَىٰ وحدانيَّتِهِ البراهِينَ والحُجَجِ، وأشهَدُ أنَّ نبيَّنَا محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، المُفدَّىٰ بالقُلُوبِ والمُهَجِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ علَيْهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الذِينَ سَارُوا علَىٰ أقوَمِ طَرِيقٍ وأعدَلِ مَنهَجٍ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كَثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فلمَّا رجَعَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حجَّةِ الوداعِ واستقَرَّ بالمدينَةِ النَّبويَّةِ، استهَلَّتْ سنَةُ إحدَىٰ عشرَةَ مِنَ الهجرَةِ، وقَد وقَعَ فِيهَا أعظَمُ الأمورِ خطبًا وهُوَ وفاةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلِكَ بعدَمَا أكمَلَ أداءَ الرسالَةِ التِي أمرَهُ اللهُ تعَالَىٰ بإبلاغِهَا، ونصَحَ أمتَهُ، ودلَّهُمْ علَىٰ خيرِ مَا يَعلَمُهُ لهُم، وحذَّرهُم ونهاهُم عمَّا فيهِ مضرَّةٌ عليهِم فِي دُنياهُم وأُخرَاهُم، قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[(١)]، وقالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[(٢)].

وقَد نقلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن هذِهِ الدَّارِ الفانيةِ إلَىٰ النَّعيمِ الأبدِيِّ فِي محلَّةٍ رفيعةٍ عاليَةٍ، ودرجَةٍ فِي الجنةِ لَا أعلَىٰ مِنهَا ولَا أسنَىٰ، كمَا قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤

(١) الزمر: ٣٠-٣١.

(٢) الأنبياء: ٣٤-٣٥.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[(١)].

وقَدِ استشعَرَ ذَلِكَ صحابتُهُ الكِرامُ، الذِينَ أوتُوا العِلمَ والزكاةَ، وكانُوا أعلَمَ بالتَّنزيلِ، فلمَّا نزَلَ قولُهُ تعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[(٢)]، ورسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفٌ بعرفَةَ، بكَىٰ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقِيلَ: مَا يُبكيكَ؟ فقالَ: إنَّهُ ليسَ بعدَ الكمالِ إلَّا النقصَانُ، وكأنَّهُ استشعَرَ وفاةَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولمَّا نزلَ قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[(٣)]، قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا تقُولُ يَا ابنَ عباسٍ؟ فقالَ: هُو أجلُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُعِيَ إليهِ، فقَالَ عمرُ: لَا أعلَمُ مِنهَا إلَّا مَا تعلَمُ.

ولمَّا وقفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حجةِ الودَاعِ عندَ جمرَةِ العقبَةِ قالَ لأصحابِهِ: «**خُذُوا عنِّي مناسككُم، فلعَلِّي لَا أحُجُّ بعدَ عامِي هذَا**»، ففهِمُوا أنَّها وصيةُ مودِّعٍ.

وقالَ أبُو سعيدٍ الخدريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلسَ علَىٰ المنبرِ فقالَ: «**إنَّ عبدًا خيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يؤتِيَهُ مِن زهرَةِ الدنيَا مَا شاءَ وبَينَ مَا عِندَهُ فاختَارَ مَا عندَهُ**»، فبكَىٰ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقالَ: فدَيناكَ بآبائِنَا وأمهاتِنَا، فعجِبنَا لهُ، فقَالَ الناسُ: انظرُوا إلَىٰ هذَا الشيخِ، يُخبرُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن عبدٍ خيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يُؤتِيَهُ مِن زهرَةِ الدنيَا وبَينَ مَا عِندَهُ وهُوَ يقولُ: فدَيناكَ بآبائِنَا وأمهاتِنَا، فكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المُخيرَ، وكانَ أبُو بكرٍ هُوَ أعلمَنَا.

---

(١) الضحىٰ: ٤-٥.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) النصر: ١-٣.

وقَدْ ظهَرَ مِن حالِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يدُلُّ عَلىٰ عِلمِهِ بدنُوِّ أجلِهِ وانقطَاعِهِ عَن الدنيَا، فكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتكِفُ فِي كلِّ شهرِ رمضانَ عشرَةَ أيامٍ، فلمَّا كانَ العامُ الذِي توفِّيَ فيهِ اعتكفَ عِشرينَ يومًا، وكانَ يعرضُ عليهِ جِبريلُ القُرآنَ كلَّ رمضَانَ مرَّةً، فلمَّا كانَ العامُ الذِي توفِّيَ فيهِ عرَضَ عليهِ القُرآنَ مرتَينِ.

ولمَّا رجعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حجَّةِ الوداعِ فِي ذِي الحجَّةِ، أقامَ بالمَدينةِ إلَىٰ شَهرِ صفَرٍ، ثمَّ خرَجَ فِي ليالٍ بقينَ مِن صفَرٍ أوْ فِي أولِ شَهرِ رَبيعٍ الأوَّلِ، إلَىٰ بقِيعِ الغَرقَدِ فِي جوفِ الليلِ، فاستغفَرَ لَهُم، ثمَّ رجَعَ إلَىٰ أهلِهِ.

فلمَّا أصبَحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتُدِئَ بوجعِهِ الذِي قبضَهُ اللهُ فِيهِ إلَىٰ مَا أرادَهُ مِن رحمَتِهِ وكرَامتِهِ.

قالَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «رجَعَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البقيعِ فوجدَنِي وأنَا أجدُ صُداعًا فِي رأسِي، وأنَا أقولُ: وا رأسَاهُ، فقالَ: «**بَل أنَا واللهِ يَا عائشَةُ وَا رأسَاهُ، ومَا ضرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبلِي فقُمتُ عليكِ وكفَّنتُكِ وصلَّيتُ عليكِ ودفَنتُكِ**»، قالَتْ: واللهِ لكأنِّي بكَ لَو قَد فَعلتَ ذَلِكَ لقَد رجَعتَ إلَىٰ بَيتِي فأعرَستَ فِيهِ ببَعضِ نسَائِكَ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ فِي مرضِهِ الذِي ماتَ فِيهِ: «**مَا أزالُ أجدُ ألَمَ الطعَامِ الذِي أكلْتُ بخَيبرَ، فهذَا أوَانُ انقطَاعِ أبهَرِي مِن ذلكَ السمِّ**»، أَي: أنَّهُ سَببٌ لمَوتِهِ.

ثمَّ تتامَّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعُهُ وهُوَ يدُورُ علَىٰ نسائِهِ، ويسألُ: «**أينَ أنَا غدًا؟ أَينَ أنَا غدًا؟**»، يريدُ يومَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتَّىٰ اشتدَّ بهِ المرضُ فِي بيتِ مَيمونَةَ، فدعَا نساءَهُ، فاستأذنَهُنَّ أنْ يمرَّضَ فِي بيتِ عائشَةَ، فأذِنَّ لهُ أزواجُهُ أنْ يكونَ حيثُ شاءَ، فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ رجُلَينِ مِن أهلِهِ، الفضلِ بنِ عباسٍ وعليِّ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عاصبًا رأسَهُ، تخُطُّ قدمَاهُ، حتَّىٰ دخلَ بيتَ عائشَةَ.

ولمَّا دخلَ بيتَهَا واشتدَّ بِهِ وجعُهُ، قالَ: «**هرِيقُوا عليَّ مِن سبعِ قِرَبٍ لَم تُحلَل أوكيتُهُنَّ، لعَلِّي أعهَدُ إلَىٰ الناسِ**».

فأجلسْنَهُ فِي مخضَبٍ لحفصةَ زوجِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ صَببنَ عَليهِ مِن تلكَ القربِ، حتَّىٰ أخذَ يُشيرُ إليهِنَّ بيدِهِ أنْ قَد فعلتُنَّ، ثمَّ خرجَ إلَىٰ الناسِ عاصبًا رأسَهُ بعصابَةٍ دسمَاءَ، ملتحفًا بملحفةٍ عَلىٰ منكبيْهِ، فجلَسَ عَلىٰ المِنبرِ، فخطبَهُم وأوصَىٰ بالأنصَارِ، فكانَ آخرَ خُطبَةٍ خطبَهَا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واجتمَعَ نساءُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَهُ لَم يُغادِرْ منهُنَّ امرأةٌ، فجاءَتْ فاطمةُ تمشِي، مَا تخطِئُ مشيتُهَا مِشيَةَ أبِيها، فقالَ: «**مَرحبًا بابنَتِي**»، فأقعدَهَا عَنْ يمينِهِ أو شمالِهِ، ثمَّ سارَّهَا بشَيءٍ فبكَتْ، ثمَّ سارَّهَا فضحِكَت، فقُلتُ لهَا: خصَّكِ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسرَارِ وأنتِ تَبكِينَ؟ فلمَّا أنْ قامَ قلتُ لهَا: أخبرِينِي مَا سَارَّكِ؟ فقَالَت: مَا كنتُ لأُفشِيَ سرَّ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلمَّا توفِّي قلتُ لهَا: أسألُكِ بمَا لِي عليْكِ مِنَ الحقِّ لمَا أخبرتِنِي، قَالَتْ: أمَّا الآنَ فنعَم، قالَتْ: سارَّنِي فِي الأولَىٰ، قالَ لِي: «**إنَّ جبريلَ كانَ يُعارضُنِي بالقرآنِ فِي كلِّ سنةٍ مرةً، وإنَّهُ عارضَنِي فِي هذَا العامِ مرَّتَينِ، ولَا أرَىٰ ذَلكَ إلَّا لاقتِرابِ أجَلِي، فاتَّقِي اللهَ واصبِرِي، فنِعمَ السلفُ أنَا لَكِ**»، فبَكيتُ، ثمَّ سارَّنِي فقالَ: «**أمَا تَرضَينَ أنْ تكونِي سيدةَ نسَاءِ المُؤمنينَ؟ أوْ سيدةَ نساءِ هذِهِ الأمَّةِ؟**»، فضحِكتُ.

ثمَّ اشتدَّ برسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضُهُ حتَّىٰ لَا يستطيعُ الكلامَ، قالَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دخلَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبِي بكرٍ ومعَهُ سواكٌ يستَنُّ بِهِ، فنظَرَ إليْهِ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ لَهُ: أعطِنِي هذَا السواكَ، فأعطانِيهِ، فقضمْتُهُ، ثمَّ مَضغتُهُ فأعطيتُهُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستَنَّ بِهِ وهُوَ مُستندٌ إلَىٰ صَدرِي.

وقالَ أسامةُ بنُ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا ثُقلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلتُ عليهِ وقد

أصمَتَ فَلا يتكلَّمُ، فجعلَ يرفعُ يديْهِ إِلَىٰ السماءِ ثُمَّ يُصوبُهَا عليَّ، أعرِفُ أنَّهُ يَدعُو لِي.

ودخلَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ يُوعَكُ، فمسَّهُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّك لتُوعَكُ وعكًا شديدًا، قالَ: «**أجَلْ، إنِّي أوعكُ كمَا يوعكُ الرجلانِ منكُم**»، قالَ: إنَّ لكَ أجرَيْنِ؟ قالَ: «**نعَم، والذِي نفسِي بيدِهِ، مَا علَىٰ الأرضِ مسلمٌ يُصيبُهُ أذًىٰ مِن مرضٍ فمَا سواهُ، إلَّا حطَّ اللهُ عنهُ بهِ خطايَاهُ، كمَا تحطُّ الشجرَةُ ورقَهَا**».

قالَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا رأيتُ الوجعَ علَىٰ أحدٍ أشدَّ منْهُ علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما اشتدَّ المرضُ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثقلَ بِهِ، استنَابَ مَن يصلِّي مكانَهُ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ زمعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا استعزَّ برسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنَا عندَهُ فِي نفرٍ منَ المُسلمينَ، دعاهُ بِلالٌ إِلَىٰ الصلاةِ فقَالَ: «**مرُوا مَن يُصلِّي للنَّاسِ**»، فخرَجتُ فإذَا عمرُ فِي الناسِ، وكانَ أبُو بكرٍ غائبًا، فقلتُ: يَا عمرُ، قُمْ فصلِّ بالناسِ، فتقدَّمَ فكَبَّرَ، وكانَ عمرُ رجلًا مجهرًا، فلمَّا سمعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صوتَهُ، قالَ: «**فأينَ أبُو بكرٍ؟ يَأبَىٰ اللهُ ذلِكَ والمسلمُونَ، يأبَىٰ اللهُ ذلكَ والمُسلمونَ**»، فبعثَ إِلَىٰ أَبِي بكرٍ فجاءَ بعدَ أنْ صلَّىٰ عمَرُ تِلكَ الصلاةَ فصلَّىٰ بالنَّاسِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ زمعَةَ: فقالَ لِي عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَيحَكَ! ماذَا صنعتَ يَا ابنَ زمعَةَ، واللهِ مَا ظننْتُ حينَ أمرتَنِي إلَّا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَكَ بذَلكَ، ولَولا ذلكَ مَا صَليتُ، قلتُ: واللهِ مَا أمرَنِي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَكِن حينَ لَم أرَ أبَا بكرٍ رأيتُكَ أحقَّ مَن حضَرَ بالصلَاةِ.

ثمَّ أمرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يصليَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناسِ، قَالتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ فِي مرضِهِ: «**مُرُوا أبَا بكرٍ فليصَلِّ بالناسِ**»،

فقالَتْ عائشَةُ: إنَّ أبَا بكرٍ إذَا قامَ فِي مقامِكَ لَم يُسمعِ الناسَ منَ البكَاءِ، فمُرْ عمَرَ فليُصلِّ بالناسِ، قالَ: «**مرُوا أبَا بكرٍ فليُصلِّ بالناسِ**»، قالَتْ عائشَةُ: فقُلتُ لحفصَةَ: قولِي لَهُ: إنَّ أبَا بكرٍ إذَا قامَ فِي مقامِكَ لَم يُسمِعِ الناسَ مِنَ البكَاءِ فمُرْ عمَرَ فَليُصَلِّ بالنَّاسِ، ففعَلَتْ حفصَةُ، فقالَ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنَّكُنَّ لأنتُنَّ صوَاحِبُ يوسُفَ، مرُوا أبَا بكرٍ فليُصلِّ بالناسِ**»، فكانَ أبُو بكرٍ يصلِّي بعدَ ذلِكَ، وهذَا مِن أعظَمِ الأدلةِ علَىٰ منزلَةِ أبِي بكرٍ العاليَةِ، وفِيهِ إشارةٌ إلَىٰ تقديمِهِ فِي أمرِ الخِلافةِ.

ثمَّ إنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وجَدَ فِي نفسِهِ خفَّةً، فخرجَ يهادَىٰ بينَ رجلَينِ، رِجلاهُ تخطانِ الأرضَ مِنَ الوجَعِ، فأرادَ أبُو بكرٍ أنْ يتأخَّرَ، فأومَأَ إليهِ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنْ مكانَكَ، ثمَّ أتِيَ بِهِ حتَّىٰ جلسَ إلَىٰ جنبِهِ.

فكانَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يصلِّي، وأبُو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يصلِّي بصلاتِهِ، والناسُ يصلُّونَ بصلاةِ أبِي بكرٍ.

فلمَّا آنَ احتضارُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كانَ مِن آخرِ مَا تكلَّمَ بِهِ أنْ قالَ: «**قاتلَ اللهُ اليهودَ والنصَارَىٰ، اتخذُوا قبُورَ أنبيائِهِم مساجِدَ**»، وكانَ يُوصِي بالصلاةِ ويقُولُ: «**الصلاةَ الصلاةَ ومَا مَلَكَت أيمَانكُم**»، حتَّىٰ جعلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يغرغِرُ بهَا صدرُهُ، ومَا يكَادُ يفيضُ بهَا لسَانُهُ.

ثمَّ بقيَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثلاثًا لَم يَخرُج إلَىٰ أصحابِهِ، حتَّىٰ إذَا كانَ يومُ الإثنينِ، وبينَمَا كانَ أبُو بكرٍ يصلِّي بِهِم وهُم صفوفٌ فِي الصلاةِ، كشفَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سترَ الحُجرةِ ينظُرُ إليهِم وهوَ قائمٌ، كأنَّ وجهَهُ ورقَةُ مصحَفٍ، فتبسَّمَ يضحَكُ، فهَمُّوا أنْ يفتَتِنُوا منَ الفرَحِ برؤيَةِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ورجعَ أبُو بكرٍ علَىٰ عقِبَيهِ ليَقفَ فِي الصفِّ، وظنَّ أنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خارجٌ إلَىٰ الصلاةِ، فأشارَ إلَيهِم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنْ أتمُّوا صلاتَكُم، ثمَّ أرخَىٰ السترَ وتوفِّي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِن يومِهِ.

قالَت عائشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: إنَّ مِن نعمَةِ اللهِ عليَّ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ توفِّيَ فِي يومِي، وفِي بَيتِي، وبينَ سَحرِي ونَحرِي، وأنَّ اللهَ جمعَ بينَ رِيقِي وريقِهُ عندَ الموتِ، فقَد دخلَ عليَّ أخِي بسِواكٍ معَهُ وأنَا مسندَةٌ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ إلَىٰ صَدرِي، فرأيتُهُ ينظُرُ إلَيهِ، وقَد عرفتُ أنهُ يُحبُّ السواكَ ويَألفُهُ، فقُلتُ: آخذُهُ لكَ؟ فأشارَ برأسِهِ، أيْ نَعَم، فليَّنتُهُ لَهُ، فأمرَّهُ عَلىٰ فِيهِ.

وكانَ بينَ يَديهِ علبةٌ فيهَا ماءٌ، فجعَلَ يُدخلُ يدَهُ فِي الماءِ، فيمسحُ بهَا وجهَهُ، ثمَّ يقولُ: «**لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للمَوتِ لسكرَاتٍ**»، ثمَّ نصبَ أصبعَهُ اليسرَىٰ، وجعلَ يقُولُ: «**فِي الرفيقِ الأعلَىٰ، فِي الرَّفيقِ الأعلَىٰ**»، حتَّىٰ قُبضَ، ومَالَت يدُهُ فِي المَاءِ.

قالَتْ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: وقَد كانَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يقُولُ وهوَ صحيحٌ: «**إنَّهُ لَم يُقبَضْ نبيٌّ حتَّىٰ يرَىٰ مَقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثمَّ يُخيَّرُ**»، فلمَّا نزلَ برسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ورأسُهُ عَلىٰ فخذِي غُشِيَ علَيهِ ساعَةً ثمَّ أفاقَ، فأشخَصَ بصرَهُ إلَىٰ سقفِ البَيتِ، وقالَ: «**اللهُمَّ الرفيقَ الأعلَىٰ**»، فعرَفتُ أنَّهُ الحديثُ الذِي كانَ حدثنَاهُ وهوَ صَحيحٌ: «**إنَّهُ لَم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتَّىٰ يرَىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثُمَّ يُخيَّرُ**»، فسمعتُهُ يقولُ: «**معَ الذِينَ أنعَمَ اللهُ عَليهِم مِنَ النَّبيينَ والصدِّيقِينَ والشهدَاءِ والصَّالحينَ وحسُنَ أولئِكَ رَفيقًا**»، ثمَّ فاضَتْ رُوحُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ.

ولمَّا علِمَ أبُو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ بوفَاةِ رسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ أقبلَ عَلىٰ فرسٍ مِن مسكنِهِ بالسنحِ، حتَّىٰ نزَلَ فدخلَ المسجدَ، فلَم يكلِّمِ الناسَ حتَّىٰ دخلَ عَلىٰ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، فمضَىٰ نحوَ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ وهوَ مُسجًّىٰ ببردٍ حبرَةٍ، فكشَفَ عَن وجهِهِ، ثمَّ أكبَّ علَيهِ فقَبَّلَهُ، ثمَّ بكَىٰ، ثمَّ قالَ: بأبِي أنتَ وأمِّي يَا رسولَ اللهِ، واللهِ لَا يجمَعُ اللهُ عَليكَ موتتَيْنِ أبدًا، أمَّا الموتةُ التِي كتبَتْ علَيكَ فقَد متَّهَا.

ثمَّ خرجَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ ووجدَ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يكلمُ الناسَ، فقالَ: اجلِسْ يَا عمرُ، فأبَىٰ

عمرُ أنْ يجلِسَ، فقالَ: اجلِسْ يَا عمرُ، فأبَىٰ عمرُ أنْ يجلِسَ، فتشهَّدَ أبُو بكرٍ، فأقبلَ الناسُ إلَيهِ، فقالَ: أمَّا بعدُ: فمَن كانَ مِنكُم يعبدُ محمدًا فإنَّ محمدًا قَد ماتَ، ومَن كانَ يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لَا يمُوتُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾(1).

فكأنَّ الناسَ لَم يعلَمُوا أنَّ اللهَ أنزلَ هذِهِ الآيَةَ، حتَّىٰ تلَاهَا أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتلقَّاهَا مِنهُ الناسُ كُلُّهُم، فمَا سمعَ بشَرٌ مِنَ الناسِ إلَّا يَتلُوهَا.

قالَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واللهِ مَا هوَ إلَّا أنْ سمِعتُ أبَا بكرٍ تلَاهَا، فعرَفتُ أنَّهُ الحقُّ، فعقرْتُ حتَّىٰ مَا تُقِلُّنِي رِجلَايَ، وحتَّىٰ هَوَيْتُ إلَىٰ الأرضِ، وعَرفتُ حينَ سمعتُهُ تَلاهَا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد مَاتَ.

وقَد كانَت وفاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الإثنَينِ، الثانِي مِن ربيعِ الأولِ سنَةَ إحدَىٰ عشرَةَ، وقَد تُوفِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُوَ ابنُ ثلاثٍ وستينَ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأربعينَ سنةً، فمكثَ بمكةَ ثلاثَ عشرَةَ، ثمَّ أُمرَ بالهجرَةِ، فهاجَرَ عشرَ سِنينَ، ثمَّ ماتَ وهُوَ ابنُ ثلاثٍ وستينَ».

ولمَّا كانَ الغدُ صبيحَةَ يومِ الثلاثَاءِ اجتمَعَ الناسُ فِي المَسجدِ فتمَّتِ البيعَةُ لأبِي بكرٍ منَ المُهاجرينَ والأنصارِ قاطبَةً، وكانَ ذلكَ قبلَ تَجهيزِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا تمهَّدَتْ وتوطَّدَتْ وتمَّتْ، شرَعُوا بعدَ ذلِكَ فِي تجهيزِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مقتدِينَ فِي كلِّ مَا أشكَلَ عَليهِم بأبِي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لمَّا أرادُوا غسلَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالُوا: مَا نَدرِي أنُجرِّدُ

(1) آل عمران: ١٤٤.

رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ثيابِهِ كمَا نُجردُ موتانَا، أمْ نغسلُهُ وعليهِ ثيابُهُ؟ فلمَّا اختلَفُوا ألقَىٰ اللهُ عَليهِمُ النومَ، حتَّىٰ مَا منهُم رجلٌ إلَّا وذقنُهُ فِي صدرِهِ، ثمَّ كلمَهُمُ مُتكلمٌ مِن ناحيةِ البَيتِ لَا يدرُونَ مَن هُوَ، أنْ غسِّلُوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَليهِ ثيَابُهُ.

فقامُوا إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغسلُوهُ وعَليهِ قميصٌ، يصُبونَ الماءَ فوقَ القميصِ ثمَّ يدلُكُونَهُ بالقَميصِ دونَ أيدِيهِم، قالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَو استقبَلتُ مِن أمرِي مَا استَدبَرْتُ مَا غسلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا نِسَاؤُهُ.

ثمَّ كفِّنَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثلاثَةِ أثوابٍ بيضٍ سَحوليَّةٍ ليسَ فيهَا قميصٌ ولَا عمامَةٌ، ثمَّ اختلَفُوا فِي مكانِ دفنِهِ، فقالَ أبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمِعتُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا مَا نسيتُهُ، قالَ: «**مَا قبَضَ اللهُ نبيًّا إلَّا فِي المَوضعِ الذِي يحِبُّ أنْ يُدفَنَ فِيهِ**»، ادفِنُوهُ فِي موضعِ فرَاشِهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلىٰ رسولِهِ وعَبدِهِ، نَبينَا محمدٍ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن استنَّ بسُنتِهِ، واقتَفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهَديِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنهُ لمَّا توفِّيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابَ المُسلمينَ حَيرةٌ وذهُولٌ، وذلِكَ أنَّ وفاتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَمُ المصائِبِ، وفِي ذلكَ يقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا أُصيبَ أحدُكُم بمُصيبَةٍ فليَذكُرْ مُصيبَتَهُ بِي فَإنَّهَا أعظَمُ المصَائِبِ**»[1].

(١) رواه الدارمي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٦).

قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا ثقلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلَ يتغشَّاهُ الكربُ، فقالَتْ فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَا كربَ أبتاه، فقالَ لهَا: «**لَيسَ عَلىٰ أبيكِ كَربٌ بَعدَ اليَومِ**»، فلمَّا ماتَ قالَت: يَا أبتَاه، أجَابَ ربًّا دَعَاه، يَا أبتَاه، جنَّةُ الفِردَوسِ مَأوَاه، يَا أبتَاه، إلَىٰ جِبريلَ ننعَاه، فلمَّا دفنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَتْ فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أنسُ، أطابَتْ أنفسُكُم أنْ تَحثُوا عَلىٰ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراَبَ؟(١).

ولمَّا رحلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استوحَشَتِ الديَارُ بأهلِهَا، وأنكَرَ الناسُ قلوبَهُم التِي بينَ جوانِحِهم بسببِ ذلِكَ المصَابِ الجلَلِ، قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا كانَ اليومُ الذِي قدمَ فيهِ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدينَةَ أضاءَ مِنهَا كلُّ شيءٍ، فلمَّا كانَ اليَومُ الذِي ماتَ فِيهِ أظلَمَ مِنهَا كلُّ شيءٍ، ومَا نَفضنَا عنْ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيدِي حتَّىٰ أنكَرْنَا قلوبَنَا(٢).

وعَلىٰ أنَّ وفاتَهُ مُصيبةٌ حلَّت بِالمسلمِينَ، إلَّا أنَّ اللهَ تعَالىٰ بفضلِهِ ومَنِّهِ وكرمِهِ، خففَ وقْعَ هذَا المصَابِ عَلىٰ الأمةِ بأنْ جعَلَ وفاتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ أمتِهِ مِن أسبَابِ رحمَتِهَا، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ إذَا أرَادَ رَحمَةَ أمةٍ مِن عبادِهِ قَبضَ نَبيَّهَا قَبلَهَا، فجعَلَهُ لهَا فرطًا وسَلفًا يشهدُ لهَا، وإذَا أرادَ هلكَةَ أمةٍ عذَّبَهَا ونبيُّهَا حَيٌّ، فأهلَكَهَا وهوَ ينظرُ إليهَا، فأقَرَّ عينَهُ بهَلكتِهَا حينَ كذَّبُوهُ وعَصَوا أمرَهُ**»(٣).

وقَد توفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولَم يترُكْ ميراثًا، ونهَىٰ أنْ يقسمَ شيءٌ مِن مالِهِ، فقَالَ: «**لَا يَقتسِمُ ورثَتِي دينارًا ولَا دِرهمًا، مَا تركْتُ بعدَ نفقَةِ نسَائِي ومُؤنَةِ عامِلِي فهُوَ صَدَقَةٌ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٤٦٢).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٩٦٢).

(٣) رواه مسلم (٢٢٨٨).

(٤) رواه البخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠).

وأرادَ أزواجُ النبيِّ ﷺ حينَ توفِّي أنْ يبعَثنَ عثمانَ إلَىٰ أبِي بكرٍ يَسألنَهُ ميراثَهُنَّ، فقَالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أليسَ قَد قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا نُورَثُ، مَا تركْنَا صدقَةٌ**»[1].

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نظرَ النبيُّ ﷺ إلَىٰ أحدٍ فقَالَ: «**والذِي نَفسِي بيدِهِ مَا يسرُّنِي أنَّ أحدًا لآلِ مُحمدٍ ذهبًا أنفقهُ فِي سبيلِ اللهِ، أموتُ يَومَ أمُوتُ وعِندِي منهُ دِينارَانِ إلَّا أنْ أرصُدَهُمَا لدَيْنٍ**»، وقَد ماتَ ﷺ فمَا ترَكَ دينارًا ولا دِرهمًا ولَا عبدًا ولَا وليدَةً، وترَكَ دِرعَهُ رهنًا عندَ يهودِيٍّ بثلاثِينَ صاعًا مِن شَعيرٍ[2].

وقَد كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يعيشُ فِي هذِهِ الدنيَا عَيشَ المُقلِّ؛ لعلمِهِ أنهَا ليسَت بدارِ إقامَةٍ ولَا خلُودٍ، فقَد دخلَ عليهِ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ علَىٰ حصِيرٍ قَد أثَّرَ فِي جنبِهِ، فقَالَ: يَا نبيَّ اللهِ، لَو اتخَذتَ فِراشًا أَوثَرَ مِن هذَا، فقَالَ: «**مَا لِي وللدنيَا، مَا مثَلِي ومثَلُ الدنيَا إلَّا كرَاكبٍ سَارَ فِي يَومٍ صَائِفٍ فاستظَلَّ تحتَ شَجَرةٍ ساعَةً مِن نهارٍ، ثُمَّ راحَ وترَكَهَا**»[3].

فصلَّىٰ اللهُ وسلَّم عَلىٰ الرحمَةِ المهدَاةِ، السِّراجِ المُنِيرِ، والبَشيرِ النذيرِ، الذِي مَا تركَ طريقَ خيرٍ إلَّا دلَّنَا عَليهِ، ولَا طريقَ شرٍّ إلَّا حذَّرَنَا مِنهُ.

ونسألُ اللهَ تعَالىٰ أَنْ يَحشُرَنَا فِي زُمرَتِهِ، وأنْ يسقِيَنَا مِن حوضِهِ شربَةً لَا نظمَأُ بعدَهَا أبدًا، وأنْ يجعلَنَا مِنَ السائِرينَ علَىٰ طريقِهِ، المُتمسكِينَ بسُنتِهِ، المُهتدِينَ بهَديهِ، إلَىٰ أنْ نلقَىٰ اللهَ تَعالَىٰ.

❊❊❊

(١) رواه البخاري (٣٠٩٢)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) رواه أحمد وأبو يعلىٰ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٣٣).

(٣) رواه أحمد وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٨٣).

(٧٥) معركةُ اليمامةِ

الحمدُ للهِ الكريمِ الودودِ، المتفضِّلِ باللطفِ والجُودِ، أحمدُهُ سبحانَهُ وهوَ الربُّ المعبودُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صاحبُ المقامِ المحمودِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ مَا أضاءَتِ البروقُ وسبَّحتِ الرعودُ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّهُ لمَّا تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، آلَتِ الخلافةُ إلَىٰ أَبِي بكرٍ الصديقِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فكانَت خلافتُهُ خلافةَ نماءٍ وبركةٍ، وغِنًىٰ للإسلامِ وأهلِهِ، ثبَّتَ اللهُ بهَا أهلَ الإسلامِ، وأذلَّ بهَا أعداءَهُ.

وقَدْ نزَلَ بهِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مَا لَو نزلَ بالجبالِ الراسياتِ لدكَّهَا، وبالرغمِ مِنْ ذلكَ فإنَّهُ لَمْ تَزِدْهُ شدةُ الأمرِ وصعوبتُهُ إلَّا ثباتًا فِي القلبِ وقوةً فِي اليقينِ.

فلمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ارتدَّتْ أحياءٌ كثيرةٌ منَ الأعرابِ، ونَجَمَ النفاقُ بالمدينةِ، وامتنعَ أقوامٌ عَن دفعِ زكاةِ أموالِهِم إلَىٰ أَبِي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وعَظُمَ الخَطْبُ، واشتدَّتِ الحالُ، وقَدْ طَمِعَ كثيرٌ منَ الأعرابِ فِي المدينةِ وراموُا أَنْ يهجمُوا عليْهَا، فجعلَ الصديقُ علَىٰ أنقابِ المدينةِ حرَّاسًا يبيتُونَ بالجيوشِ حولَهَا، وجعلَتْ وفودُ العربِ تقدمُ المدينةَ، يقِرُّونَ بالصلاةِ ويمتنعونَ مِنْ أداءِ الزكاةِ، وقَدْ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ اللهَ تعالَىٰ يقولُ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾[1]، فلسنَا ندفعُ زكاتَنَا إلَّا إلَىٰ مَنْ صَلاتُهُ سكنٌ لنَا -يعنونَ بذلكَ: النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-.

---

(١) سورة التوبة:١٠٣.

وقالَ بعضُهُمْ:

أَطَعْـنَا رَسُـولَ اللَّـهِ إِذْ كَـانَ بَيْنَـنَا فَـوَا عَجَـبًا مَـا بَـالُ مُلْـكِ أَبِـي بَكْـرِ

وقَدْ تكلَّمَ الصحابةُ معَ الصديقِ فِي أَنْ يتركَهُم ومَا هُمْ علَيْهِ مِن منعِ الزكاةِ ويتألَّفَهُم حتَّىٰ يتمكَّنَ الإيمانُ فِي قلوبِهِم، ثمَّ هُمْ بعدَ ذلكَ يُزَكُّونَ، فامتنعَ الصدِّيقُ مِن ذلكَ وأَبَاهُ، وقامَ عمرُ بنُ الخطابِ، فقالَ لأَبِي بكرٍ: علَامَ تُقَاتِلُ الناسَ؟ وقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَن أُقاتلَ الناسَ حتَّىٰ يشهدُوا أَنْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فإِذَا قالُوهَا عصَمُوا مِنِّي دماءَهُم وأموالَهُم إِلَّا بحقِّهَا**؟ فقالَ أَبُو بكرٍ: واللهِ لَوْ منعُونِي عقالًا كانُوا يؤدُّونَهُ إِلَىٰ رسولِ اللهِ ﷺ لأقاتلنَّهُم عليهِ، إنَّ الزكاةَ حقُّ المالِ، واللهِ لأقاتِلنَّ مَنْ فرَّقَ بينَ الصلاةِ والزكاةِ.

قالَ عمرُ: فمَا هوَ إِلَّا أَنْ رأيتُ أَنَّ اللهَ قَدْ شرحَ صدرَ أَبِي بكرٍ للقِتالِ، فعرفْتُ أَنَّهُ الحقُّ»[1].

وممَّا وفَّقَ اللهُ تعالَىٰ أَبَا بكرٍ لَهُ، أَنْ أَمضَىٰ جيشَ أسامةَ الَّذِي كانَ قَدْ سيَّرَهُ النبيُّ ﷺ إِلَىٰ الشامِ، وقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والجيشُ علَىٰ مسيرةِ ليلةٍ مِنَ المدينةِ، ولتعظيمِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأمرِ النبيِّ ﷺ فتحَ اللهُ عليهِ منَ التوفيقِ مَا كانَ سببًا فِي ثباتِ كثيرٍ منَ العربِ علَىٰ الإسلامِ.

قالَ أَبُو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: واللهِ الَّذِي لَا إلهَ إِلَّا هوَ لولَا أَنَّ أَبَا بكرٍ استُخلِفَ مَا عُبِدَ اللهُ، ثمَّ قالَهَا الثانيةَ، ثمَّ قالَهَا الثالثةَ، فقيلَ لَهُ: مَهْ يَا أَبَا هريرةَ؟ فقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وجَّهَ أسامةَ بنَ زيدٍ فِي سبعمائةٍ إِلَىٰ الشامِ، فلمَّا نزلَ بذِي خُشُبٍ قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ، وارتدَّتِ العربُ حولَ المدينةِ، فاجتمعَ إليهِ أصحابُ رسولِ اللهِ فقالُوا: يَا أَبَا بكرٍ، ردَّ هؤلاءِ، تُوجِّه هؤلاءِ إِلَىٰ الرومِ وقَدِ ارتدَّتِ العربُ حولَ المدينةِ؟ فقالَ:

(١) رواه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠).

والَّذِي لَا إلهَ غيرُهُ لَو جرَّتِ الكلابُ بأرجلِ أزواجِ رسولِ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَا رَدَدْتُ جيشًا وجَّهَهُ رسولُ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولَا حَلَلْتُ لواءً عَقَدَهُ رسولُ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فوجَّهَ أسامةَ، فجعلَ لَا يمرُّ بقبيلةٍ يريدونَ الارتدادَ إلَّا قالُوا: لولَا أنَّ لهؤلاءِ قوَّةً مَا خرجَ مثلُ هؤلاءِ مِن عندِهِم، ولكِنْ ندَعُهُم حتَّىٰ يَلْقَوا الرومَ، فلَقُوا الرومَ فهزمُوهُم وقتلُوهُم، ورجَعُوا سالِمِينَ، فثبتُوا علَىٰ الإسلامِ.

فتأمَّلُوا بركةَ التمسُّكِ بالسنَّةِ يَا عبادَ اللهِ.

وقَدْ ثبتَتْ بعضُ القرىٰ -كقريةِ جُوَاثَا مِن قُرَىٰ البَحرَينِ- علَىٰ الإسلامِ، فحاصَرَهَا المرتدُّونَ وضيَّقُوا علَىٰ أهلِهَا، حتَّىٰ منعُوهُم مِنَ الأقواتِ، وجاعُوا جوعًا شديدًا حتَّىٰ فرَّجَ اللهُ عنهُم، وقَدْ قالَ رجلٌ مِنْهُم يُقالُ لَهُ عبدُ اللهِ بنُ حذفٍ، وقَدِ اشتدَّ عليهِ الجوعُ:

أَلَا أَبلِغ أَبَا بَكرٍ رَسُولًا ... وَفِتيَانَ المَدِينَةِ أَجمَعِينَا

فَهَلْ لَكُمُ إِلَىٰ قَومٍ كِرَامٍ ... قُعُودٍ فِي جوَاثَا مُحَاصِرِينَا

كَأَنَّ دَمَاءَهُم فِي كُلِّ فَجٍّ ... شُعَاعُ الشَّمسِ يَغشَىٰ النَّاظِرِينَا

تَوَكَّلْنَا عَلَىٰ الرَّحمَنِ إِنَّا ... وَجَدْنَا الصَّبرَ لِلمُتَوَكِّلِينَا

وقَد قامَ فيهِم رجلٌ مِن أشرافِهِم، وهوَ الجارودُ بنُ المعلَّىٰ -وكانَ ممَّن هاجَرُوا إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، فجمَعَهُم وقالَ: يَا معشرَ عبدِ القيسِ، إنِّي سائِلُكُم عَن أمرٍ فأخبرونِي إنْ علمتمُوهُ، ولَا تُجيبُونِي إنْ لَمْ تعلمُوهُ، فقالُوا: سَلْ.

قالَ: أتعلمونَ أنَّهُ كانَ للهِ أنبياءُ قبلَ محمَّدٍ؟ قالُوا: نعَمْ. قالَ: تعلمُونَهُ أَمْ ترونَهُ؟ قالُوا: نعلَمُهُ. قالَ: فمَا فعلُوا؟ قالُوا: ماتُوا. قالَ: فإنَّ محمَّدًا صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ماتَ كمَا ماتُوا، وإنِّي أشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فقالُوا: ونحنُ أيضًا نشهدُ

أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وأنْتَ أفضَلُنَا وسيِّدُنَا، وثبَتُوا علَىٰ إسلامِهِمْ، وترَكُوا بقيَّةَ الناسِ فيمَا هُمْ فيهِ.

ثمَّ إنَّهُ فِي هذَا العامِ -الحادِي عشرَ مِنَ الهجرةِ- كانَتْ وقعةُ اليمامةِ، وذلكَ أنَّهُ قَدِ انحازَ قومٌ منَ المرتدِّينَ إلَىٰ مُسيلمةَ الكذَّابِ حينَ ادَّعَىٰ النبوةَ، وقَد حمَلَ كثيرًا مِنهُم عَلىٰ ذلِكَ رقَّةُ الدِّينِ والتَّعصبُ المشينُ، فقَدْ جاءَ بعضُ الأعرابِ إلَىٰ اليمامةِ فقالَ: أينَ مسيلمةُ؟ فقالُوا: مَهْ رسولُ اللهِ، فقالَ: لَا حتَّىٰ أراهُ، فلمَّا جاءَ قالَ: أنتَ مسيلمةُ؟ فقالَ: نَعَمْ. قالَ: مَنْ يأتيكَ؟ قالَ: رحمنٌ، قالَ: أَفِي نورٍ أَمْ فِي ظُلمَةٍ؟ فقالَ: فِي ظلمةٍ، فقالَ: أشهدُ أنَّكَ كذَّابٌ، وأنَّ محمَّدًا صادقٌ، ولكِن كذابُ ربيعةَ أحبُّ إلينَا مِن صادقِ مُضَرٍ.

انظرُوا إلَىٰ التعصُّبِ المشينِ ماذَا يفعلُ؟!

فلمَّا رأَىٰ أبُو بكرٍ الصدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذلكَ، أرسلَ إلَىٰ سيفِ اللهِ المسلولِ خالدِ بنِ الوليدِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فبعثَهُ إلَىٰ قتالِ مسيلمةَ الكذَّابِ وقومِهِ مِن بَنِي حنيفةَ باليمامةِ فِي نجدٍ، فصارَ لَا يمرُّ بأحدٍ منَ المرتدِّينَ إلَّا نكَّلَ بِهِمْ، وقَدْ كانَ أبُو بكرٍ قَد بَعَثَ قبلَهُ إلَىٰ مسيلمةَ عكرمةَ بنَ أَبِي جهلٍ، وشرحبيلَ بنَ حسنَةَ، فلَم يقاوِمَا بنِي حنيفةَ، فقَدْ كانُوا فِي نحوِ أربعينَ ألفًا مِنَ المقاتلةِ، فلمَّا سمعَ مسيلمةُ بقدومِ خالدٍ، عَسْكَرَ بمكانٍ يُقالُ لَهُ: عَقربَا، فِي طرفِ اليمامةِ، وندبَ الناسَ وحثَّهُم، فاجتمعَ لَهُ أهلُ اليمامةِ، وجعلَ علَىٰ الجيشِ الرَّجَّالَ بنَ عنفوةَ، وكانَ الرَّجَّالُ هذَا صديقَهُ الَّذِي شهدَ لَهُ أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ: إنَّهُ قَدْ أشرَكَ معَهُ مسيلمةَ بنَ حبيبٍ فِي الأمرِ، وكانَ هذَا الفاجرُ مِنْ أكبرِ مَا أضلَّ أهلَ اليمامةِ حتَّىٰ اتَّبَعُوا مسيلمةَ.

وقرُبَ خالدٌ، وقَدْ جعلَ علَىٰ المقدمةِ شرحبيلَ بنَ حسنَةَ، وعلَىٰ المجنبتَيْنِ زيدَ ابنَ الخطابِ وأبَا حذيفةَ، وقَدْ مرَّتِ المقدِّمَةُ فِي الليلِ بنحوٍ مِن أربعينَ، عليهِم

مجاعةُ بنُ مرارَةَ، فأخذُوهُم، فلمَّا جيءَ بِهِم إِلَىٰ خالدٍ، قالَ لَهُم: ماذَا تقولونَ يَا بَنِي حنيفةَ؟

قالُوا: نقولُ مِنَّا نبيٌّ ومنكُم نبيٌّ، فأمرَ بضربِ أعناقِهِم كُلِّهم، سوَىٰ مجاعة فإنَّهُ استبْقَاهُ مقيَّدًا عندَهُ -لِعِلمِهِ بالحربِ والمكيدةِ- وكانَ سيِّدًا فِي بنِي حنيفةَ، شريفًا مُطاعًا، وجعلَهُ فِي الخيمةِ معَ امرأتِهِ، وقالَ: استوصِي بهِ خيرًا.

فلمَّا تواجَهَ الجيشانِ قالَ مسيلمةُ لقومِهِ: اليومُ يومُ الغيرةِ، اليومُ إِنْ هُزِمْتُم تُستَنْكَحُ النساءُ سبيَّاتٍ، ويُنكحْنَ غيرَ حظيَّاتٍ، فقاتِلُوا علَىٰ أحسابِكُم، وامنعُوا نساءَكُم، وتقدَّمَ المسلمونَ حتَّىٰ نزلَ بِهِم خالدٌ علَىٰ مُرتفعٍ يُشرِفُ علَىٰ اليمامةِ، فضربَ بِهِ عسْكَرُهُ، ورايةُ المهاجرينَ معَ زيدِ بنِ الخطابِ، ورايةُ الأنصارِ معَ ثابتِ بنِ قيسٍ، والعربُ علَىٰ رايَاتِهَا، ومجاعةُ بنُ مرارة مقيَّدٌ فِي الخيمةِ عندَ أمِّ تميمٍ امرأةِ خالدٍ، فاصطدمَ المسلمونَ والكفَّارُ فكانَتْ جولةٌ وانهزَمَتِ الأعرابُ حتَّىٰ دخلَتْ بنُو حنيفةَ خيمةَ خالدِ بنِ الوليدِ وهمُّوا بقتلِ أمِّ تميمٍ، حتَّىٰ أجارَهَا مجاعةُ، وقالَ: نعمَتِ الحرَّةُ هذِهِ، وقَدْ قُتِلَ الرَّجَّال بنُ عنفوةَ فِي هذهِ الجولةِ، قتلَهُ زيدُ بنُ الخطابِ، ثمَّ تذامَرَ الصحابةُ بينَهُم، فقالَ ثابتُ بنُ قيسٍ: بِئسَ مَا عوَّدتُم أقرانكُم، اللهمَّ إنِّي أبرأُ إليكَ ممَّا جاءَ بِهِ هؤلاءِ وأعتذرُ إليكَ ممَّا صنعَ هؤلاءِ.

ونادَوا مِن كلِّ جانبٍ، فثارَ المهاجرونَ والأنصارُ، وحُميَ البراءُ بنُ معرورٍ وكانَ إِذَا رأَىٰ الحربَ أخذَتْهُ الرِّعدَةُ، ثمَّ يثورُ كمَا يثورُ الأسَدُ.

وقاتَلَتْ بنُو حنيفَةَ قتالًا لَم يُعهَدْ مثلُهُ، وجعلَتِ الصحابةُ يتواصَونَ بينَهُم ويقولونَ: يَا أصحابَ سورةِ البقرةِ، بطلَ السحرُ اليومَ.

وحفرَ ثابتُ بنُ قيسٍ لقدميهِ فِي الأرضِ إِلَىٰ أنصافِ ساقَيهِ، وهوَ حاملُ لواءَ الأنصارِ بعدَمَا تحنَّطَ وتكفَّنَ، فلَمْ يزَلْ ثابتًا حتَّىٰ قُتِلَ، فنالَ مَا بشَّرَهُ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ

مِن أهلِ الجنَّةِ، فإنَّهُ لمَّا نزلَ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾(١)، جلسَ ثابتٌ فِي بيتِهِ واحتبسَ عنِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فسألَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سعدَ بنَ معاذٍ فقالَ: «**مَا شأنُ ثابتٍ أيشتكِي؟** فأتاهُ سعدٌ فذكرَ لَهُ قولَ رسولِ اللهِ، فقالَ ثابتٌ: أُنزلَتْ هذهِ الآيةُ ولَقَدْ علِمْتُم أنِّي مِن أرفعِكُم صوتًا علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأنَا مِنْ أهلِ النارِ، فذكرَ سعدٌ ذلكَ للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **بَلْ هوَ مِن أهلِ الجنَّةِ**»(٢).

وقالَ زيدُ بنُ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أيُّهَا الناسُ، عَضُّوا علَىٰ أضراسِكُم، واضرِبُوا فِي عدوِّكُم وامضُوا قُدمًا، فواللهِ لَا أتكلَّمُ حتَّىٰ يهزمَهُمُ اللهُ، أَو ألقَىٰ اللهَ فأكلِّمَهُ بحُجَّتِي، فقُتِلَ شهيدًا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وقَدْ قالَ عمرُ لمَّا بلغَهُ مقتلُ زيدِ بنِ الخطابِ: سبقَنِي إلَىٰ الحُسنيَيْنِ، أسلَمَ قبلِي، واستُشهِدَ قبْلِي، وقالَ لمتمِّمِ بنِ نُويرَةَ حينَ سمِعَهُ يرثِي أخاهُ مالكًا بقولِهِ:

وَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيلَةً معَا

لَوْ كنتُ أُحسِنُ الشعرَ لَقلتُ كمَا قلتَ، فقالَ لَهُ مُتَمِّمٌ: لَو أَنَّ أخِي ذهبَ علَىٰ مَا ذهبَ عليهِ أخوكَ مَا حزِنْتُ عليهِ، فقالَ لَهُ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: مَا عزَّانِي أحدٌ بمِثْلِ مَا عزَّيتَنِي بهِ، ومعَ ذلكَ فقَدْ كانَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يقولُ: مَا هبَّتْ ريحُ الصبَا مِن ناحيةِ نجدٍ إلَّا ذكَّرَتْنِي زيدَ بنَ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

ولمَّا استُشهِدَ زيدُ بنُ الخطابِ أخذَ الرايةَ سالمٌ مولَىٰ أَبِي حذيفةَ، فقالَ المهاجرونَ لسالمٍ مولَىٰ أَبِي حذيفةَ: أتخشَىٰ أَن نُؤتَىٰ مِن قِبَلِكَ؟ قالَ: بئسَ حاملُ

(١) سورة الحجرات:٢.

(٢) رواه مسلم (١٧٠).

القرآنِ أنَا إذَنْ.

فحملَ الرايةَ، فقُطِعَتْ يدُهُ اليُمنَىٰ فأخذهَا بيسارِهِ، فقُطِعَتْ، فاحتَضَنهَا وهوَ يقولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(١) ثمَّ ماتَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقامَ أبُو حذيفةَ ينادِي فِي المسلمينَ: يَا أهلَ القرآنِ، زيِّنُوا القرآنَ بالفعالِ، وحملَ فيهِم حتَّىٰ أبعدَهُم وأُصِيبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واقتحَمَ أبُو دجانةَ سِمَاكُ بنُ خرشَةَ الحديقةَ علَىٰ بنِي حنيفةَ، وكانَ يعصبُ رأسَهُ بعصابةٍ حمراءَ إظهارًا لشجاعَتِهِ، فلَمْ يزَلْ يُقَاتِلُ المرتدِّينَ حتَّىٰ انكسَرَتْ رجلُهُ، واستمرَّ فِي قتالِهِم حتَّىٰ استُشْهِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نسألُ اللهَ أَنْ يحشرَنَا معَ صحابَةِ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَنْ يرزُقَنَا حبَّهُم.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمُتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فلمَّا رأَىٰ خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرصةً حملَ علَىٰ المرتدِّينَ حتَّىٰ جاوَزَهُم، وسارَ بحيالِ مسيلمةَ، وجعلَ يترقَّبُ أَنْ يصلَ إليهِ فيقتلَهُ، ثمَّ رجعَ، ثمَّ وثبَ بينَ الصفَّينِ ودعَا إلَىٰ البِرازِ، وقالَ: أنَا ابنُ الوليدِ العُود، أنَا ابنُ عامرٍ وزيد، وجعلَ لَا يبرزُ لَهُ أحدٌ إلَّا قتلَهُ.

ودارَتْ رَحَىٰ المُسلمينَ، ثمَّ اقترَبَ مِن مسيلمَةَ فعرَضَ عليْهِ الرجُوعَ إلَىٰ الحقِّ،

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

فجعلَ شيطانُ مُسيلمةَ يُغويهِ فلَا يَقبلُ مِن خالدٍ شَيئًا، فانصرَفَ عنهُ خالدٌ وقَدْ ميَّزَ المهاجِرينَ منَ الأنصارِ مِن الأعرَابِ، وكلُّ بنِي أبٍ علَىٰ رَايتِهِم يقاتِلُونَ تَحتَهَا، حتَّىٰ يعرِفَ الناسُ مِن أينَ يُؤتَونَ.

وصبرَتِ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي هذَا الموطنِ صبرًا لَم يُعهَدْ مثلُهُ، ولَمْ يزالُوا يتقدَّمُونَ إلَىٰ نحورِ عدوِّهِم حتَّىٰ فتحَ اللهُ علَيهِم، وولَّىٰ الكفارُ الأدبارَ، واتَّبَعَهُمُ الصحابةُ يقتلُونَهُم، ويضعُونَ السيُوفَ فِي رقابِهِم حيثُ شاءُوا، حتَّىٰ ألجئُوهُم إلَىٰ حديقةِ الموتِ، فدخلُوهَا وفيهَا عدوُّ اللهِ مسيلمَةُ، وأدركَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبِي بكرٍ محكمَ بنَ الطفيلِ فرماهُ بسهمٍ فِي عنقِهِ وهوَ يخطبُ فقتلَهُ، وأغلَقَتْ بنُو حنيفَةَ الحديقةَ علَيهِم، وأحاطَ بِهِمُ الصحابةُ، فقامَ البراءُ بنُ مالكٍ -وهوَ أخُو أنسِ بنِ مالكٍ الأكبرُ- فقالَ: يَا معشرَ المسلمينَ، ألقونِي علَيهِم فِي الحديقةِ، فاحتملُوهُ فوقَ الترسِ ورفعُوهُ بالرماحِ حتَّىٰ ألقَوْهُ علَيهِم مِن فوقِ سُورِهَا، فلَم يزَلْ يُقَاتِلُهُم وحْدَهُ ويقاتِلُونَهُ دونَ بابِهَا حتَّىٰ وصلَ إلَىٰ البابِ ففتَحَهُ.

ودخلَ المسلمونَ الحديقةَ مِن حِيطانِهَا وأبوابِهَا يقتلونَ مَن فيهَا مِنَ المرتدَّةِ مِن أهلِ اليمامةِ، حتَّىٰ وصلُوا إلَىٰ مسيلمةَ، وإذَا هوَ واقفٌ فِي ثلمةِ جدارٍ كأنَّهُ جملٌ أورقُ، وهوَ يريدُ أَن يتساندَ، لَا يعقلُ منَ الغيظِ، وكانَ إذَا اعتراهُ شيطانُهُ أزبدَ حتَّىٰ يخرجَ الزبدُ مِن شدقيهِ، فتقدَّمَ إلَيهِ وحشيُّ بنُ حربٍ -قاتِلُ حمزةَ- فرماهُ بحَرْبَتِهِ فأصابَهُ وخرَجَتْ منَ الجانبِ الآخرِ، وسارعَ إليهِ أبُو دجانةَ سمَاكُ بنُ خرشَةَ، فضَرَبَهُ بالسيفِ فسقَطَ، فنادَتْ امرأةٌ منَ القصرِ: وَا أميراهُ، قتَلَهُ العبدُ الأسودُ.

وقَدْ قُتِلَ فِي المعركةِ قريبٌ مِن عشرةِ آلافِ مقاتلٍ، وقُتِلَ منَ المسلمينَ ستُّمائَةٍ، وفيهِم مِن ساداتِ الصحابةِ، وأعيانِ الناسِ.

وخرجَ خالدٌ ومعَهُ مجاعةُ بنُ مرارةَ فِي قيودِهِ، فجعلَ يُرِيهِ القتلَىٰ ليعرِّفَهُ بمسيلمةَ،

فمرُّوا برجلٍ أصيفرٍ أخينسٍ، فقالَ: هذَا صاحبُكُم، فقالَ خالدٌ: قبَّحَكُمُ اللهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِكُم هذَا.

ثمَّ بعثَ خالدٌ الخيولَ حولَ اليمامةِ يلتقطونَ مَا حولَ حصونِهَا مِنْ مالٍ وسبيٍ، ودعاهُم خالدٌ إِلَىٰ الإسلامِ فأسلَمُوا عَنْ آخرِهِم ورجَعُوا إِلَىٰ الحقِّ، وردَّ عليهِم خالدٌ بعضَ مَا كانَ أَخَذَ مِنَ السَّبيِ، وساقَ الباقينَ إِلَىٰ الصدِّيقِ.

وقَدْ قالَ ضرارُ بنُ الأزورِ فِي هذهِ المعركةِ:

فَلَو سُئِلَت عنَّا جَنُوبٌ لأَخْبَرَت ... عَشِيَّةَ سَالَتْ عَقْربَاءُ وملْهُمُ
عَشِيَّةَ لَا تُغنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا ... وَلَا النَّبلُ إِلَّا المَشرَفيُّ المصَمِّمُ
فَإِنْ تبتَغِي الكُفَّار غيرَ مليمَةٍ ... جَنُوبُ فَإِنِّي تَابِعُ الدينِ مُسلِمُ
أُجَاهِدُ إِذْ كَانَ الجِهَادُ غَنِيمَةً ... ولَلَّهُ بِالمرءِ المُجَاهِدِ أَعلَمُ

وَفِي هذهِ المعركةِ تجلَّتْ أعظمُ فائدةٍ فِي أنَّ الجهادَ إِنَّمَا شُرِعَ مِنْ أجلِ إقامةِ الدينِ وردِّ الناسِ إِلَىٰ حظيرةِ الحقِّ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

❀❀❀

(١) سورة البقرة:٢١٦.

(٧٦) معركةُ اليرموكِ

الحمدُ للهِ الَّذِي أرسلَ رسلَهُ بالهدَىٰ ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ علَىٰ الدينِ كلِّهِ وكفَىٰ باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، أنجزَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ وكانَ اللهُ قويًّا عزيزًا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

ففِي عامِ ثلاثةَ عشرَ منَ الهجرةِ، وبعدَ أَنْ فرغَ الصدِّيقُ مِنْ قتالِ المرتدِّينَ فِي جزيرةِ العربِ، عزمَ علَىٰ غزوِ بلادِ الشامِ، فشرعَ فِي جمعِ الأمراءِ مِنْ أماكنَ متفرِّقَةٍ مِنْ جزيرةِ العربِ، وكتبَ إلَىٰ عمرِو بنِ العاصِ يستنفِرُهُ إلَىٰ الشامِ فقالَ: قَدْ أحبَبْتُ أبَا عبدِ اللهِ أَنْ أفرِّغَكَ لِمَا هوَ خيرٌ لكَ فِي حياتِكَ ومعادِكَ مِنْهُ.

فكتبَ إليهِ عمرُو بنُ العاصِ: إنِّي سهمٌ مِنْ سهامِ الإسلامِ، وأنتَ عبدُ اللهِ الرَّامِي بِهَا، والجامعُ لَهَا، فانظُرْ أشدَّهَا وأخشَاهَا فارمِ بِي فيهَا.

ثمَّ شرعَ الصدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي جمعِ الجنودِ، ولمَّا اجتمعَ لَهُ منَ الجيوشِ مَا أرادَ قامَ فِي الناسِ خطيبًا فأثنَىٰ علَىٰ اللهِ بمَا هوَ أهلُهُ، ثمَّ حثَّ الناسَ علَىٰ الجهادِ فقالَ: ألَا إنَّ لكلِّ أمرٍ جوامعَ، فمَنْ بلغَهَا فهيَ حسبُهُ، ومَنْ عَمِلَ للهِ كفاهُ اللهُ، عليكُم بالجدِّ والقصدِ فإنَّ القصدَ أبلغُ، ألَا إنَّهُ لَا دينَ لأحدٍ لَا إيمانَ لَهُ، ولَا إيمانَ لِمَنْ لَا خشيةَ لَهُ، ولَا عملَ لِمَنْ لَا نيَّةَ لَهُ، ألَا وإنَّ فِي كتابِ اللهِ منَ الثوابِ علَىٰ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ مَا ينبغِي للمسلمِ أَنْ يحبَّ أَنْ يُخصَّ بِهِ، هيَ النجاةُ الَّتِي دلَّ اللهُ عليهَا، إِذْ نجَّىٰ بِهَا منَ الخزيِ، وألحقَ بِهَا الكرامةَ فِي الدنيَا والآخرةِ.

ولمَّا توجَّهَتْ هذِهِ الجيوشُ نحوَ الشامِ أفزعَ ذلكَ الرومَ وخافُوا خوفًا شديدًا، وكتبُوا إِلَىٰ هرَقلَ يُعلِمُونَهُ بمَا كانَ منَ الأمرِ.

فلمَّا انتهَىٰ إليهِ الخبرُ قالَ لَهُم: وَيحَكُمْ! إنَّ هؤلاءِ أهلُ دينٍ جديدٍ، وإِنَّهُمْ لَا قِبَلَ لأحدٍ بِهِم، فأطيعُونِي وصالِحُوهُم بمَا تصالحُونَهُم علَىٰ نصفِ خراجِ الشامِ وتبقَىٰ لَكُمْ جبالُ الرومِ، وإِنْ أنتُمْ أبَيْتُم ذلكَ أخَذُوا مِنْكُمُ الشامَ وضيَّقُوا عليْكُم جبالَ الرومِ، فنخرُوا مِنْ ذلكَ نخرةَ حمُرِ الوَحشِ كمَا هيَ عادَتُهُم فِي قلَّةِ المعرفةِ والرأيِ بالحربِ والنصرةِ فِي الدينِ والدنيَا.

ولمَّا رأَىٰ هرَقلُ ذلكَ أَمَرَ بخروجِ الجيوشِ الروميَّةِ بصحبةِ الأمراءِ، فِي مقابلةِ كلِّ أميرٍ منَ المسلمينَ جيشٌ كثيفٌ، حتَّىٰ بلغَ عددُ الرومِ مائةً وأربعينَ ألفًا، فقالَتِ الرومُ: واللهِ لنشغلنَّ أبَا بكرٍ عَنْ أَنْ يورِدَ الخيولَ إِلَىٰ أرضِنَا.

ومعَ هذَا العددِ الكثيفِ الذِي بلَغَهُ الجيشُ الروميُّ لَمْ تَكُنْ عِدَّةُ المسلمينَ تتجاوزُ واحدًا وعِشرينَ ألفًا.

فعَظُمَ البلاءُ بالمسلمينَ واشتدَّ بِهِمُ الخطبُ، فكتبَ الأمراءُ إِلَىٰ أَبِي بكرٍ يُعلِمُونَهُ بمَا وقعَ منَ الأمرِ العظيمِ، فكتبَ إِلَيهِم أَنِ اجتمِعُوا وكونُوا جندًا واحدًا والقَوا جنودَ المشركينَ، فأنتُمْ أنصارُ اللهِ، واللهُ ناصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ، وخاذِلٌ مَنْ كفرَهُ، ولَنْ يُؤتَىٰ مِثلُكُم عَنْ قلَّةٍ ولكِنْ مِنْ تلقَاءِ الذنوبِ، فاحترسُوا منْهَا، ولْيُصَلِّ كُلُّ رجُلٍ منْكُم بأصحابِهِ.

ثمَّ قامَ الصدِّيقُ وقالَ: واللهِ لأشغلنَّ النصارَىٰ عَنْ وساوسِ الشيطانِ بخالدِ بنِ الوليدِ، فبعثَ إليهِ وهوَ بالعراقِ ليقدُمَ إِلَىٰ الشامِ فيكونَ الأميرَ علَىٰ مَنْ بِهِ، وكتبَ إليهِ: مِنْ عبدِ اللهِ بنِ عثمانَ خليفةِ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ خالدِ بنِ الوليدِ.

أمَّا بعدُ:

فقَدْ ورَدَ عليَّ مِنْ خبرِ الشامِ مَا قَدْ أقلقَنِي وأرَّقَنِي وضِقْتُ بِهِ ذرعًا، فإذَا وردَ عليك

كتابِي هذَا وأنتَ قائمٌ فلَا تقعُدْ، وإِنْ كُنتَ راكبًا فلَا تنزِلْ، وذرِ العراقَ وخلِّفْ علَيهَا مَنْ تَثِقُ بِهِ، حتَّىٰ تأتِيَ الشامَ فتلقَىٰ أبَا عُبيدةِ بنَ الجرَّاحِ ومَنْ معَهُ منَ المسلمينَ، فإِنَّ العدوَّ قَدْ جمَعَ لَهُمَا جمعًا عظيمًا وقَدِ احتاجُوا إِلَىٰ معونَتِكَ، فإِذَا أنتَ أتيتَ المسلمينَ بالشامِ فأنتَ أميرُ الجماعةِ، والسلامُ.

وهذَا ليسَ عَنْ قصورِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وليسَ مَنْ قادَ المعركةَ بأفضلَ ممَّنْ كانَ تحتَ إمرَتِهِ، ولكنَّهُ فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ.

فاستنابَ خالدٌ المثنَّىٰ بنَ حارثةَ علَىٰ العراقِ وسارَ مسرعًا بمَنْ معَهُ، وسلكَ بِهِمْ أراضِيَ لَمْ يسلُكْهَا قبلَهُ أحدٌ، فاجتابَ البرارِيَ وَالقِفارَ، وقطعَ الأوديةَ، وتصعَّدَ علَىٰ الجبالِ، وسارَ فِي طُرُقٍ وعرةٍ غيرِ منبسطةٍ، حتَّىٰ وصلَ فِي خمسةِ أيَّامٍ.

فلمَّا أقبلَ خالدٌ قالَ لَهُ رجلٌ مِن نصارَىٰ العَربِ: مَا أكثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمينَ!

فقالَ خالدٌ: ويلَكَ، أتخوِّفُنِي بالرومِ؟ إِنَّمَا تكثرُ الجنودُ بالنصرِ وتقلُّ بالخذلانِ لَا بعددِ الرجالِ، واللهِ لوَدِدْتُ أنَّ الأشقرَ براً مِن توجُّعِهِ، وأنَّهُمْ أُضعِفُوا فِي العددِ، وذلكَ أنَّ فرسَهُ كانَ قَدْ حفَا واشتكَىٰ فِي مجيئِهِ منَ العراقِ.

فخرجَ خالدٌ علَىٰ الرومِ مِنْ ناحيةِ تَدْمُرَ فصالَحَهُ أهلُ تدمُرَ وأَرَكه، ولمَّا مرَّ بعذراءَ أباحَهَا وغنمَ مِنْ غسانَ أموالًا عظيمةً، ثمَّ سارَ حتَّىٰ وصلَ إِلَىٰ قناةِ بُصرَىٰ فوجدَ الصحابةَ تُحارِبُهَا فصالَحَهُ صاحبُهَا وسلَّمَهَا إليهِ، فكانَتْ أوَّلَ مدينةٍ فُتِحَتْ مِنَ الشامِ، وبعثَ خالدٌ بأخماسِ مَا غَنِمَ مِن غسانٍ إِلَىٰ أبِي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعندَ ذلكَ اجتمعَ جيشُ الصحابةِ فتكاملَ العددُ حتَّىٰ بلغَ ستَّةً وثلاثينَ ألفًا إِلَىٰ الأربعينَ ألفًا، وبعثَ الرومُ لأصحابِهِمْ بالمَدَدِ، ومعهُمُ الرهبانُ يحثُّونَهُم ويحرِّضُونَهُم علَىٰ القتالِ لنصرِ دينِ النصرانيَّةِ، فتكاملَ جيشُ الرومِ مائتينِ وأربعينَ ألفًا، وعمدَ مِنْهُم ثلاثونَ ألفًا فتسَلْسَلُوا بالسلاسلِ كلُّ عشرةٍ فِي سلسلةٍ لأجلِ أَن يثبَتُوا ولَا يفرُّوا.

وبعثَ أحدُ أمراءِ الرومِ رجلًا مِنْ نصارَىٰ العربِ يجسُّ لَهُ أمرَ الصحابةِ، فلَمَّا رجعَ إليهِ قالَ: وجدتُ قومًا رهبانًا بالليلِ، فرسانًا بالنهارِ، واللهِ لَوْ سَرَقَ فِيهِم ابنُ مَلِكِهِم لقطعوهُ، أَو زنَىٰ لرجمُوهُ.

فقالَ لَهُ الأميرُ الروميُّ: واللهِ لئِنْ كنتَ صادقًا لبطنُ الأرضِ خيرٌ مِنْ ظهرِهَا، ثمَّ إنَّ خالدًا قامَ فِي الناسِ خطيبًا، فحمدَ اللهَ وأثنَىٰ عليهِ، وأمرَهُم بالاجتماعِ ونهاهُم عَنِ التفرُّقِ والاختلافِ، وقالَ: إنَّ هذَا يومٌ مِن أيَّامِ اللهِ، لَا ينبغِي فيهِ الفخرُ ولَا البغيُ، أخلِصُوا جهادَكُم وأرِيدُوا اللهَ بعمَلِكُم، وإنَّ هذَا يومٌ لَهُ مَا بعدَهُ، لَوْ رددنَاهُمُ اليومَ إلَىٰ خَندَقِهِم فلَا نزالُ نردُّهُم، وإنْ هزمُونَا لَا نُفلِحُ بعدَهَا أبدًا.

ولمَّا تقابَلَ الجيشَانِ طلبَ الأميرُ النصرانيُّ خالدًا ليبرزَ إليهِ، فيجتمعَا فِي مصلحةٍ لَهُمْ، فقالَ النصرانيُّ: إنَّا قَدْ علِمْنَا أَنَّ مَا أخرَجَكُم مِنْ بلادِكُمُ الجهدُ والجوعُ، فهلمُّوا إلَىٰ أَنْ أُعطِي كلَّ رجلٍ منكُم عشرةَ دنانِيرَ وكسوةً وطعامًا وترجعونَ إلَىٰ بلادِكُم، فإذَا كانَ منَ العامِ المُقبلِ بعثنَا لَكُمْ بِمِثلِهَا.

فقالَ خالدٌ: إنَّهُ لَمْ يُخرِجْنَا مِن بلادِنَا مَا ذكرتَ، غيرَ أنَّا قومٌ نشربُ الدماءَ، وأنَّهُ بلَغَنَا أنَّهُ لَا دمَ أطيبُ مِنْ دَمِ الرومِ، فجئنَا لذلكَ، فقالَ أصحابُهُ: هذَا واللهِ مَا كنَّا نحدِّثُ بهِ عنِ العربِ.

فاجتمعَ الناسُ وتصافُّوا معَ عدُوِهِم فِي أوَّلِ جُمَادَىٰ الآخرَةِ، فخرجَتِ الرومُ فِي تعبئةٍ لَمْ يُرَ مثلُهَا قبلَهَا قطُّ، وخرجَ خالدٌ فِي تعبئةٍ لَمْ تُعَبِّهَا العربُ قبلَ ذلكَ.

ولمَّا أقبلَتِ الرومُ فِي خُيَلائِهَا وفخرِهَا قَدْ سدَّتْ أقطارَ تلكَ البقعةِ سهلِهَا ووعرِهَا كأنَّهُم غمامةٌ سوداءُ يصيحونَ بأصواتٍ مرتفعةٍ ورهبانُهُم يتلونَ الإنجيلَ ويحثُّونَهُم علَىٰ القتالِ، فساقَ خالدٌ بفرسِهِ إلَىٰ أبِي عبيدةَ فقالَ لَهُ: إنِّي مشيرٌ بأمرٍ، فقالَ: قُلْ مَا أمرَكَ اللهُ أسمَعُ لكَ وأُطيعُ.

فأشارَ علَىٰ أبِي عُبَيدةَ أَن يتأخَّرَ عنِ القلبِ إلَىٰ وراءِ الجيشِ كلِّهِ لكَيْ إذَا رآهُ المنهزمُ استحَىٰ منْهُ ورجعَ إلَىٰ القتالِ، فجعلَ أبُو عبيدةَ مكانَهُ فِي القلبِ سعيدَ بنَ زيدٍ أحدَ العشرةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ورجعَ خالدٌ إلَىٰ النسَاءِ مِنْ وراءِ الجيشِ ومعهنَّ عددٌ منَ السيوفِ وغيرِهَا، فقالَ لهنَّ: مَنْ رأيتمُوهُ مولِّيًا فاقتُلْنَهُ، ثمَّ رجعَ إلَىٰ موقفِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولمَّا تراءَىٰ الجمعانِ وتَبَارزَ الفريقانِ وعظَ أبُو عبيدةَ المسلمينَ فقالَ: عبادَ اللهِ، انصرُوا اللهَ ينصُرْكُم ويثبِّتْ أقدامَكُم، يَا معشرَ المسلمينَ، اصبرُوا فإنَّ الصبرَ منجاةٌ منَ الكفرِ ومرضاةٌ للربِّ ومدحضةٌ للعارِ، فلَا تبرحُوا مصافَّكم، والزَمُوا الصمتَ إلَّا مِنْ ذكرِ اللهِ.

وخرجَ معاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَىٰ الناسِ، فجعلَ يُذَكِّرُهُم ويقولُ: يَا أهلَ القرآنِ ومتحفِّظِي الكتابِ وأنصارَ الهدَىٰ والحقِّ، إنَّ رحمةَ اللهِ لَا تُنَالُ وجنَّتَهُ لَا تُدخَلُ بالأمانِي، ولَا يُؤتِي اللهُ المغفرةَ والرحمَةَ الواسعةَ إلَّا الصَّادقَ المصدِّقَ، أَلَمْ تسمعُوا لقولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ**﴾(١). فاستحيُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- مِنْ ربِّكُم أَنْ يراكُم فِرارًا مِنْ عدوِّكُم وأنتُمْ فِي قبضتِهِ، وليسَ لَكُم ملتحدٌ مِنْ دونِهِ ولَا عزٌّ بغيرِهِ.

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أيُّهَا المسلمونَ، غُضُّوا الأبصارَ، واجثُوا علَىٰ الركبِ، واشرعُوا الرماحَ، فإذَا حملُوا علَيكُم فأمهلُوهُم حتَّىٰ إذَا ركِبُوا أطرافَ الأسنَّةِ فثِبُوا إليهِم وثبةَ الأُسْدِ، فوَالَّذِي يرضَىٰ الصدقَ ويُثِيبُ علَيهِ ويمقتُ الكذبَ ويجزِي بالإحسانِ إحسانًا، لَقَدْ سمعْتُ أنَّ المسلمينَ سيفتحُونَهَا كَفْرًا كَفْرًا وقصرًا قصرًا، فلَا يهولُكُم جمعُهُم ولَا عددُهُم، فإنَّكُم لَوْ صدَّقتمُوهُم الشدَّ تطايَرُوا تطايُرَ أولادِ الحجلِ.

---

(١) سورة النور: ٥٥.

وقالَ أبُو سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا معشرَ المسلمينَ، أنتمُ العربُ، وقَدْ أصبَحتُم فِي دارِ العجمِ، منقطعينَ عنِ الأهلِ، نائِينَ عَنْ أميرِ المؤمنينَ وأمدادِ المسلمينَ، وقَدْ واللهِ أصبحْتُم بإزاءِ عدوٍّ كثيرٍ عددُهُ، شديدٍ عليْكُم حنَقُهُ، وقَدْ وترتُمُوهُم فِي أنفُسِهِم وبلادِهِم ونسائِهِم، واللهِ لَا يُنجيكُم مِنْ هؤلاءِ القومِ، ولَا يبلغُ بِكُم رضوانَ اللهِ غدًا إلَّا صِدْقُ اللقاءِ، والصَّبرُ فِي المَواطنِ المكروهةِ، فامتنِعُوا بسيوفِكُم وتعاوَنُوا، ولْتَكُنْ هيَ الحصُونَ.

يَا معاشرَ أهلِ الإسلامِ، حضرَ مَا ترونَ، فهذَا رسولُ اللهِ والجنةُ أمامَكُم، والشيطانُ والنارُ خلْفَكُم، ثمَّ سارَ إلَىٰ موقِفِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَدْ وعظَ الناسَ أبُو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أيضًا فجعلَ يقولُ:** سارِعُوا إلَىٰ الحورِ العينِ، وجوارِ ربِّكُم عَزَّ وَجَلَّ فِي جنَّاتِ النَّعيمِ، مَا أنتُمْ إلَىٰ ربِّكُم فِي مَوطنٍ بأحبَّ إلَيهِ منْكُم فِي مثلِ هذَا المَوطنِ، ألَا وإنَّ للصابرينَ فضلَهُم.

وقَدْ كانَ فِي ذلكَ الجمعِ ألفُ رجلٍ منَ الصحابةِ، مِنهُم مائةٌ مِن أهلِ بدرٍ.

ثمَّ قامَتِ المعركةُ واشتدَّتِ الحربُ وحمِيَ الوطيسُ وأقبلَتِ الرومُ رافعَةً صُلبانَهَا ولَهُم أصواتٌ مزعجةٌ كالرَّعدِ، والقساقسَةُ والبطارقةُ تُحرِّضُهُم علَىٰ القتالِ وهُمْ فِي عَددٍ وعُددٍ لَمْ يُرَ مثلُهُ.

وبرزَتْ معالمُ شجاعةِ أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمَا يعجزُ عنهُ الوصفُ، فقامَ الزبيرُ بنُ العوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ يصولُ ويجولُ، فاجتمعَ إليهِ جماعةٌ منَ الأبطالِ يومئذٍ فقالُوا: ألَا تحملُ فنحملُ معَكَ؟ فقالَ: إنَّكُم لَا تثبتونَ. فقالُوا: بلَىٰ. فحملَ وحملُوا، فلمَّا واجهُوا صفوفَ الرومِ أحجَمُوا، وأقدمَ هوَ فاخترقَ صفوفَ الرومِ حتَّىٰ خرجَ منَ الجانبِ الآخرِ وعادَ إلَىٰ أصحابِهِ.

ثمَّ جاءُوا إليهِ مرَّةً ثانيةً ففعلَ كمَا فعلَ فِي الأولَىٰ، وجُرِحَ يومئذٍ بجُرحينِ بينَ كتِفَيهِ.

وثبتَ يومَئذٍ يزيدُ بنُ أبِي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقاتلَ قتالًا شديدًا، وذلكَ أنَّ أباهُ مرَّ بِهِ فقالَ لَهُ: يَا بُنيَّ، عليكَ بتقوَىٰ اللهِ والصبرِ، فإنَّهُ ليسَ رجلٌ بهذَا الوادِي منَ المسلمينَ إلَّا محفوفًا بالقتالِ، فكيفَ بكَ وبأشباهِكَ الَّذِينَ وَلُوا أمورَ المسلمينَ؟! أولئكَ أحقُّ الناسِ بالصبرِ والنصيحةِ، فاتَّقِ اللهَ يَا بنيَّ، ولَا يكونَنَّ أحدٌ مِنْ أصحابِكَ بأرغبَ فِي الأجرِ والصبرِ فِي الحربِ ولَا أجرأَ علَىٰ عدوِّ الإسلامِ مِنْكَ. فقالَ: أفعلُ إنْ شاءَ اللهُ، فقاتَلَ يومئذٍ قتالًا شديدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمرَ القائدُ الروميُّ بعضَ أمرائِهِ أَن يحملَ علَىٰ ميمنَةِ المسلمينَ وفيهَا الأزدُ ومذحجُ وحضرموتُ وخولانُ، فثبَتُوا وصدَقُوا اللهَ، حتَّىٰ ركِبَهُمْ منَ الرومِ أمثالُ الجبالِ، فزالَ المسلمونَ مِنَ الميمنةِ إلَىٰ ناحيةِ القلبِ، وانكشفَ طائفةٌ منَ الناسِ ثمَّ تنادَوا فتراجَعُوا وحمَلُوا حتَّىٰ دحَرُوا مَنْ أمامَهُم منَ الرومِ وأشغلُوهُم عنِ اتِّباعِ مَنِ انكشَفَ منَ الناسِ.

وقدْ قاتلَ نساءُ المسلمينَ فِي هذَا اليومِ، وقَتَلْنَ خَلقًا كثيرًا منَ الرومِ، وكُنَّ يضرِبْنَ مَنِ انهزمَ مِن سرعانِ الناسِ يضربنَهُم بالخشبِ والحجارةِ ويقلْنَ: أينَ تذهبونَ وتدعونَنَا للعلوجِ؟ وجعلَتْ خولةُ بنتُ ثعلبةَ تقولُ:

يَا هَارِبًا عَنْ نِسْوَةٍ تَقِيَّاتْ فعَنْ قَلِيلٍ مَا تَرَىٰ سَبِيَّاتْ

وَلَا حَضِيَّاتٍ وَلَا رَضِيَّاتْ

فإذَا زجَرْنَهُم لَا يملكُ أحدٌ نفسَهُ حتَّىٰ يرجعَ إلَىٰ القتالِ، فتراجعَ الناسُ إلَىٰ مواقِفِهِم.

وقالَ عكرمةُ بنُ أبِي جهلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قاتَلْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مواطنَ وأفرُّ منكُمُ اليومَ؟ ثمَّ نادَىٰ: مَنْ يُبَايعُ علَىٰ الموتِ؟ فبايعَهُ عمُّهُ الحارثُ بنُ هشامٍ، وضرارُ بنُ الأزورِ فِي أربَعِمِائةٍ مِنْ وجوهِ المسلمينَ وفُرسانِهِم، فقاتَلُوا أمامَ خيمةِ

خالدٍ حتَّىٰ أثبتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِلَ منْهُم خلقٌ منْهُم ضرارُ بنُ الأزورِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفِي هذَا الموقفِ بدَتْ أجملُ معانِي الإيثارِ، قالَ حذيفةُ العدويُّ: انطلَقْتُ يومَ اليرموكِ أطلبُ ابنَ عمٍّ لِي فِي القتلَىٰ ومعِي شيءٌ منَ الماءِ وأنَا أقولُ: إنْ كانَ بِهِ رمقٌ سقيتُهُ، فإذَا أنَا بهِ بينَ القتلَىٰ، فقُلْتُ لَهُ: أسقيكَ؟ فأشارَ إليَّ أَنْ نعَمْ، فإذَا برجلٍ يقولُ: آه، فأشارَ إلَيَّ ابنُ عمِّي أَنْ انطلِقَ إليهِ واسقِهِ، فإذَا هوَ هشامُ بنُ العاصِ، فقُلْتُ: أسقيكَ؟ فأشارَ إليَّ أَنْ نعَمْ، فسمعَ آخرَ يقولُ: آه، فأشارَ إليَّ أَنْ انطلِقَ إلَيهِ، فجِئْتُهُ فإذَا هوَ قَدْ ماتَ، فرجعتُ إلَىٰ هشامٍ فإذَا هوَ قَد ماتَ، فرجعتُ إلَىٰ ابنِ عمِّي فإذَا هوَ قَدْ ماتَ.

وثبتَ كلُّ قومٍ علَىٰ رايَتِهِم حتَّىٰ صارَتِ الرومُ تدورُ كأنَّهَا الرحَا، فلَمْ تُرَ يومَ اليرموكِ إلَّا مخًّا سَاقطًا، ومعصمًا نادرًا، وكفًّا طائرةً مِن ذلكَ المَوطِنِ.

ثمَّ حملَ خالدٌ بِمَنْ معَهُ منَ الخيَّالَةِ علَىٰ الميسَرَةِ الَّتِي حمَلَتْ علَىٰ ميمنةِ المسلمينَ فأزالُوهُم إلَىٰ القلبِ، فقتَلَ منَ الرومِ فِي حملَتِهِ تلكَ ستَّةَ آلافٍ، ثمَّ قالَ: والَّذِي نفسِي بيدِهِ لَم يبقَ عندَهُم منَ الصبرِ والجَلَدِ غيرَ مَا رأيتُم، وإنِّي لأرجُو أنْ يمنحَكُمُ اللهُ أكتافَهُم، فكانَ ذلكَ بحمدِ اللهِ تعالَىٰ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وبارَكَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فبينمَا كانَ المسلمونَ فِي جولةِ الحَربِ وحَومَةِ الوغَىٰ، والأبطالُ يتصاولُونَ مِن كلِّ جانبٍ، إِذْ قَدمَ البريدُ مِن نحوِ الحجازِ إلَىٰ خالدِ بنِ الوليدِ، فقالَ لَهُ: مَا الخبرُ؟

فقالَ لَهُ فيمَا بينَهُ وبينَهُ: إنَّ الصدِّيقَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَدْ تُوفِّيَ واستخلفَ عمرَ بنَ الخطابِ، واستنابَ علَىٰ الجيوشِ أبَا عبيدةَ عامرَ بنَ الجرَّاحِ.

فأسرَّها خالدٌ ولَمْ يُبْدِ ذلكَ للناسِ لِئَلَّا يحصُلَ ضعفٌ ووهنٌ فِي تلكَ الحالِ، وقالَ لَهُ والناسُ يسمعونَ: أحسَنْتَ، وأخذَ منْهُ الكتابَ، واشتغلَ بمَا كانَ فيهِ مِن تدبيرِ الحربِ والمقاتلةِ.

وخرجَ جَرَجَةُ -أحدُ الأمراءِ الكبارِ- منَ الصفِّ واستدْعَىٰ خالدَ بنَ الوليدِ فجاءَ إليهِ حتَّىٰ اختلَفَتْ أعناقُ فرسَيْهِمَا، فقالَ جَرَجَةُ: يَا خالدُ، أخبرْنِي فاصدُقنِي ولَا تكذبنِي فإنَّ الحُرَّ لَا يكذبُ، ولَا تخادِعْنِي فإنَّ الكريمَ لَا يخادِعُ، هَلْ أنزلَ اللهُ علَىٰ نبيِّكم سيفًا منَ السماءِ فأعطاكَهُ فلَا تسلُّهُ علَىٰ أحدٍ إلَّا هزمْتَهُم؟ قالَ: لَا. قالَ: فبِمَ سُمِّيتَ سيفَ اللهِ؟ قالَ: إنَّ اللهَ بعثَ فينَا نبيَّهُ فدعَانَا، فنفرْنَا منْهُ ونَأَيْنَا عنْهُ جميعًا، ثمَّ إنَّ بعضَنَا صدَّقَهُ وتابَعَهُ، وبعضَنَا كذَّبَهُ وباعَدَهُ، فكنتُ فيمَنْ كذَّبَهُ وباعَدَهُ، ثمَّ إنَّ اللهَ أخذَ بقلوبِنَا ونواصِينَا فهدَانَا بِهِ وبايَعْنَاهُ، فقالَ لِي: «**أنتَ سيفٌ مِن سيوفِ اللهِ سلَّهُ اللهُ علَىٰ المشركينَ**»، ودعَا لِي بالنصرِ، فسُمِّيتُ سيفَ اللهِ بذلكَ، فأنَا مِن أشدِّ المسلمينَ علَىٰ المشركينَ.

فقالَ جَرَجَةُ: يَا خالدُ، إلامَ تدعُونَ؟ قالَ: إلَىٰ شهادةِ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، والإقرارُ بمَا جاءَ بِهِ مِنْ عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ: فمَنْ لَمْ يُجِبْكُم؟ قالَ: فالجزيةُ ونمنَعْهُم، قالَ: فإن لَم يُعْطِهَا؟ قالَ: نؤذِنُهُ بالحربِ ثمَّ نقاتِلُهُ، قالَ: فمَا منزلَةُ مَنْ يجيبُكُم ويدخلُ فِي هذَا الأمرِ اليومَ؟ قالَ: منزلتُنَا واحدةٌ فيمَا افترضَ اللهُ علينَا، شريفُنَا ووضيعُنَا وأوَّلُنَا وآخِرُنَا، قالَ جَرَجَةُ: فلِمَن دخلَ فيكُمُ اليومَ منَ الأجرِ مثلَ مَا لَكُم منَ الأجرِ والذخرِ؟ قالَ: نعَمْ وأفضلُ. قالَ: وكيفَ يساوِيكُم وقَد سبقتمُوهُ؟ فقالَ خالدٌ: إنَّا قَبِلْنَا هذَا الأمرَ عَنوَةً، وبايعْنَا نبيَّنَا وهوَ حيٌّ بينَ أظهُرِنَا تأتيهِ أخبارُ

السماءِ ويخبِرُنَا بالكتابِ ويُرِينَا الآياتِ، وحُقَّ لِمَن رأَىٰ مَا رأَينَا، وسمِعَ مَا سمِعْنَا أَنْ يسلمَ ويبايعَ، وإِنَّكُم أنتُم لَم تَروا مَا رأَينَا، ولَم تسمَعُوا مَا سَمِعْنَا مِنَ العجائبِ والحججِ، فمَنْ دخلَ فِي هذَا الأمرِ منكُم بحقيقةٍ ونيَّةٍ كانَ أفضلَ منَّا؟ فقالَ جَرَجَةُ: باللهِ لَقَدْ صدَقْتَنِي ولَم تُخَادِعْنِي؟ قالَ: تاللهِ لَقَدْ صدَقْتُكَ، وإنَّ اللهَ وليُّ مَا سألتَ عَنْهُ.

فعندَ ذلكَ قلبَ جَرَجَة الترسَ ومالَ معَ خالدٍ وقالَ: علِّمنِي الإسلامَ، فمالَ بِهِ خالدٌ إِلَىٰ خيمتِهِ فشنَّ عليهِ قربةً مِنْ ماءٍ ثمَّ صلَّىٰ بِهِ ركعتينِ.

فركبَ خالدٌ وجَرَجَةُ معَهُ والرومُ خلالَ المسلمينَ، فتنادَىٰ الناسُ وثابُوا وتراجعَتِ الرومُ إِلَىٰ مواقِفِهِم، وزحفَ خالدٌ بالمسلمينَ حتَّىٰ تصافَحُوا بالسيوفِ فضَرَبَ فيهِم خالدٌ وجَرَجَة مِنْ لَدُن ارتفاعِ النهارِ إِلَىٰ جنوحِ الشمسِ للغروبِ.

وصلَّىٰ المسلمُونَ صلاةَ الظهرِ وصلاةَ العصرِ إيماءً، وأُصيبَ جَرَجَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولَمْ يُصَلِّ للهِ إِلَّا تلكَ الركعتينِ معَ خالدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وتضعضَعَتِ الرومُ عندَ ذلكَ.

ثمَّ دخلَ خالدٌ بالقلبِ حتَّىٰ صارَ فِي وسطِ خيولِ الرومِ، فعندَ ذلكَ هَرَبَت خيَّالَتُهُم، وأسندَتْ بِهِم فِي تلكَ الصحراءِ، وأفرجَ المسلمونَ بخيولِهِم حتَّىٰ ذهَبُوا، وعمَدَ خالدٌ إِلَىٰ رحلِ الرومِ ففصلُوهُم عَن آخرِهِم حتَّىٰ صارُوا كأَنَّهُم حائطٌ قَد هُدِمَ، ثمَّ تَبِعُوا مَن فرَّ مِنَ الخيَّالَةِ، واقتحمَ خالدٌ علَيهِم خندقَهُم، وصارَ الرومُ يتخبَّطُونَ فِي ظلامِ الليلِ، فجعلَ الَّذِينَ تسلْسَلُوا وقَيَّدُوا بعضَهُم ببعضٍ إذَا سقطَ واحدٌ منهُم سقطَ الَّذِينَ معَهُ.

وتجلَّلَ القائدُ النصرانيُّ وأشرافٌ مِنْ قومِهِ منَ الرومِ ببرانسِهِم وقالُوا: إذَا لَم نقدِرْ علَىٰ نصرِ دينِ النصرانيَّةِ فَلْنَمُت علَىٰ دينِهِم، فجاءَ المسلمونَ فقتلُوهُم عَنْ آخِرِهِم.

فلمَّا انتهَتِ المعركةُ وأصبحَ الناسُ حازَ المسلمونَ مَا كانَ هنالِكَ منَ الغنائمِ، ومَا فرحُوا بِمَا وجدُوا بقَدْرِ حُزنِهم علَىٰ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ أعلَمَهُم خالدٌ بذلكَ ولكِنْ عوَّضَهُمُ اللهُ بعمرَ الفاروقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَد قُتِل فِي هذَا اليومِ مِنَ المسلمينَ ثلاثةُ آلافٍ.

ولمَّا بلغَ خبرُ هزيمَةِ الرومِ لهرَقلَ وهوَ بحِمصَ، والمسلمونَ فِي آثارِهِم يقتُلونَ ويأسرُونَ ويغنمُونَ، ارتحلَ مِن حمصَ وجعلَهَا بينَهُ وبينَ المسلمينَ وترَّسَ بِهَا وقالَ: أمَّا الشامُ فلَا شامَ، وويلٌ للرومِ مِنَ المولودِ المشئومِ.

وقَدْ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يثبتُ لَهُمُ العدوُّ عندَ اللقاءِ أقلَّ مَا يكونُ، فقالَ هرقلُ وهوَ علَىٰ إنطاكيَّةَ وقَدْ قَدِمَتِ الرومُ منهزمةً: ويْلَكُم! أخبرُونِي عَن هؤلاءِ القومِ الَّذِينَ يقاتلُونكُم أليسُوا بشرًا مِثلَكُم؟ قالُوا: بلَىٰ. قالَ: فأنتُم أكثَرُ أَمْ هُمْ؟ قالُوا: بَلْ نحنُ أكثرُ منْهُم أضعافًا فِي كلِّ موطنٍ. قالَ: فمَا بالُكُم تنهزِمُونَ؟ فقالَ شيخٌ مِنْ عظمَائِهِم: مِنْ أَجْلِ أنَّهُم يقومونَ الليلَ ويصومونَ النهارَ، ويوفونَ بالعهدِ، ويأمرونَ بالمعروفِ، وينهونَ عنِ المنكرِ، ويتناصفُونَ بينَهُم، ومِنْ أجلِ أنَّا نشربُ الخمرَ، ونزنِي، ونركبُ الحَرامَ، وننقضُ العهدَ، ونغصِبُ ونظلمُ، ونأمرُ بالسخطِ، وننهَىٰ عمَّا يُرضِي اللهَ ونُفسِدُ فِي الأرضِ. فقالَ: أنتَ صدَقْتَنِي.

❊❊❊

(٧٧) معركةُ القادسيَّةِ

الحمدُ للهِ فاطرِ الأرضِ والسمواتِ، عالمِ الأسرارِ والخفيَّاتِ، المطلعِ علَىٰ الضمائرِ والنيَّاتِ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، ووسعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وحلمًا، وقهرَ كلَّ مخلوقٍ عزةً وحكمًا، يعلمُ مَا بينَ أيديهِم ومَا خلفَهُم ولَا يُحيطونَ بهِ علمًا، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليْهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

ففِي العامِ الرَّابعَ عشَرَ مِنَ الهجرةِ توارَدَتِ الأخبارُ إلَىٰ الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ انتظامِ شملِ الفرسِ واجتماعِ أمرِهِم، وأنَّ أهلَ الذمَّةِ فِي العراقِ نقضُوا عهودَهُم، ونبذُوا المواثيقَ الَّتِي كانَتْ عليهِم، وآذَوْا المسلمينَ وأخرَجُوا العمالَ مِنْ بينِ أظهُرِهِم، فكتبَ عمرُ إلَىٰ مَنْ هنالِكَ مِنَ الجيشِ أَنْ يتبرَّزُوا مِنْ بينِ أظهُرِهِم إلَىٰ أطرافِ البلادِ، ثمَّ قامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحرِّضُ الناسَ علَىٰ جهادِ أهلِ العراقِ ويحثُّهُم علَىٰ ذلكَ.

وركبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الجيوشِ منَ المدينةِ، فنزلَ علَىٰ ماءٍ وهوَ عازمٌ علَىٰ غزوِ العراقِ بنفسِهِ، واستخلفَ علَىٰ المدينةِ عليَّ بنَ أَبِي طالبٍ، واستصحَبَ معَهُ عثمانَ ابنَ عفانٍ وساداتِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثمَّ عقدَ مجلسًا لاستشارةِ الصحابةِ فيمَا عزمَ عليهِ، فكلُّهُم وافَقُوهُ علَىٰ الذهابِ إلَىٰ العراقِ، إلَّا عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ فإنَّهُ قالَ لَهُ: إنِّي أخشَىٰ إنْ كُسِرْتَ أَن تُضعِفَ المسلمينَ فِي سائرِ الأقطارِ، ولكِن أرَىٰ أَن تبعثَ رجلًا وترجعَ أنتَ إلَىٰ المدينةِ،

فاستصوبَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قولَهُ، ووافقَهُ الناسُ علَىٰ رأيِه.

فقالَ عمرُ: فمَنْ ترَىٰ أَن نبعثَ إِلَىٰ العراقِ؟

فقالَ: الأسدُ فِي براثِنِه سعدُ بنُ أَبِي وقَّاصٍ.

فأعجبَهُ قولُهُ وأرسلَ إِلَىٰ سعدٍ فأمَّرَهُ علَىٰ العراقِ وأوصاهُ قائلًا: يَا سعدُ، إِنَّكَ ستقدمُ علَىٰ أمرٍ شديدٍ، فالصبرَ الصبرَ علَىٰ مَا أصابَكَ، تُجمَعُ لَكَ خشيةُ اللهِ، واعلَمْ أَنَّ خشيةَ اللهِ تجتمِعُ فِي أمرينِ، فِي طاعَتِهِ واجتنابِ معصيَتِهِ، وإِنَّمَا طاعةُ مَن أطاعَهُ ببغضِ الدنيَا وحبِّ الآخرةِ، وإِنَّمَا عصيانُ مَن عصاهُ بحبِّ الدنيَا وبغضِ الآخرةِ.

فسارَ سعدٌ نحوَ العراقِ، ورجعَ عمرُ بِمَنْ معَهُ منَ المسلمينَ إِلَىٰ المدينةِ، ولمَّا وصلَ سعدٌ إِلَىٰ محلَّةِ الجيوشِ انتهَتْ إِليهِ رياسَتُهَا وإِمرَتُهَا، ولَمْ يبقَ بالعراقِ أميرٌ مِن ساداتِ العربِ إِلَّا تحتَ أمرِهِ، وأمدَّهُ عمرُ بأمدادٍ أُخَرَ حتَّىٰ اجتمَعَ معَهُ يومَ القادسيَّةِ ثلاثونَ ألفًا، وكانَ فِي هذَا الجيشِ ثلثُمائةٍ منَ الصحابَةِ، وسبعُمِائةٍ مِنْ أبناءِ الصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

قالَ عمرُ: واللهِ لأرمينَّ ملوكَ العجَمِ بمُلوكِ العَربِ.

ثمَّ أمرَ عمرُ سعدًا بالمبادرةِ إِلَىٰ القادسيةِ، وكتبَ لَهُ أَنْ ابدرُوهُم بالضربِ والشدَّةِ، ولَا يهولَنَّكُم كثرةُ عددِهِم وعدَّتِهِم، فإِنَّهُم قومٌ خَدعَةٌ مَكرَةٌ، وإِنْ أنتُمْ صبَرْتُم وأحسَنْتُم ونوَيْتُمُ الأمانةَ رجوْتُ أَن تُنصَرُوا علَيهِم، ثمَّ لَم يجْتَمِعْ لَهُم شملٌ أبدًا، وأَمَرَهُ بمحاسَبَةِ نَفسِهِ وموعظَةِ جيشِهِ، وأمرَهُم بالنيَّةِ الحسنةِ والصبرِ وسؤالِ اللهِ العافيةَ، والإِكثارِ مِن قولِ: لَا حولَ ولَا قوَّةَ إِلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ، وطَلَبَ منْهُ أَنْ يكتبَ إِليهِ بجميعِ أحوالِهِم وتفاصيلِهَا، وقالَ لَهُ: اجعَلْنِي بكتبِكَ إِليَّ كأَنِّي أنظرُ إِلَيكُم، واجعَلْنِي مِنْ أمرِكُم علَىٰ الجليَّةِ، وجعلَ عمرُ يدعُو لسعدٍ خاصَّةً، ولَهُ وللمسلمينَ عامَّةً.

ثمَّ سارَ سعدٌ فنزلَ القادسيةَ، وبثَّ فيهَا سراياهُ، فشكَا الفُرْسُ إِلَىٰ مَلكِهِم مَا يلقَونَهُ مِن سرايَا المسلمينَ مِنَ النهبِ والسبيِ، وقالُوا: إِنْ لَمْ تنجدُونَا أعطينَا مَا بأيدينَا

وسلَّمنَا إِلَيْهِمُ الحصونَ، فاجتمعَ رأيُ الفرسِ علَىٰ إرسالِ رستمَ إِلَىٰ المسلمينَ.

فكتبَ سعدٌ إِلَىٰ عمرَ بذلكَ، فكتبَ إليهِ عمرُ: لَا يكربنَّكَ مَا يأتيكَ عَنْهُم، ولَا مَا يأتونَكَ بِهِ، واستَعِنْ باللهِ وتوكَّلْ عليهِ، وابْعَثْ إِلَيهِم رجالًا مِن أهلِ النظرِ والرأيِ والجلدِ يدعُونَهُم، فإِنَّ اللهَ جاعلٌ دعاءَهُم توهينًا لَهُم وفلجًا عَلَيهِم، واكتُبْ إِليَّ فِي كلِّ يومٍ.

ولمَّا اقتربَ رستمُ بجيوشِهِ وعسكرَ قريبًا مِن جيشِ المسلمينَ، كتبَ سعدٌ إِلَىٰ عمرَ يقولُ: إنَّ رستمَ قَدْ عسْكَرَ قريبًا مِنَّا، وجرَّ الخيولَ والفيلةَ، وزحفَ علَينَا بِهَا، وليسَ شيءٌ أهمَّ عِندِي، ولَا أكثرَ ذكرًا مِنِّي لِمَا أحبَبْتُ أَنْ أكونَ عليهِ مِنَ الاستعانةِ والتوكُّلِ.

وقَدْ زحفَ رستمُ إِلَىٰ ملاقاةِ المسلمينَ فِي مائةٍ وعشرينَ ألفًا، وفِي صحبَتِهِم ثلاثةٌ وثلاثونَ فيلًا.

ولمَّا تواجَهَ الجيشانِ طَلَبَ رستمُ مِن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن يرسلَ إليهِ رجلًا عاقلًا عالمًا بِمَا يسألُهُ عَنْهُ، فبعثَ إِلَيهِ المغيرةَ بنَ شعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمَّا قَدِمَ عليهِ قالَ لَهُ رستمُ: إِنَّكُم جيرانُنَا وكنَّا نُحسِنُ إِلَيكُم ونكفُّ الأذَىٰ عَنْكُم، فارجِعُوا إِلَىٰ بلادِكُم ولَا نمنعُ تجارَتَكُم مِنَ الدخُولِ إِلَىٰ بلادِنَا.

فقالَ لَهُ المغيرةُ: إنَّا ليسَ طلبُنَا الدنيَا، وإنَّمَا همُّنَا وطلبُنَا الآخرَةُ.

وفِي اليومِ التالِي طلبَ رستمُ مِن سعدٍ أَنْ يبعثَ لَهُ برجلٍ آخرَ، فبعثَ إليهِ سعدٌ بربعيِّ بنِ عامرٍ، وقَد زيَّنَ الفُرسُ مجلسَ رستمَ بالبسُطِ المذهَّبَةِ، ووسائدِ الحريرِ، وأظهرُوا اليواقيتَ واللآلئَ الثمينةَ، والزينةَ العظيمةَ.

فدخلَ رِبعيٌّ بثيابٍ غليظةٍ، وسيفٍ ودرعٍ، وفرسٍ قصيرةٍ، ولَمْ يَزَلْ راكِبُهَا حتَّىٰ داسَ بِهَا علَىٰ طرفِ البساطِ، ثمَّ نزلَ وربطَهَا ببعضِ تلكَ الوسائدِ، وأقبلَ وعليهِ سلاحُهُ ودرعُهُ، فقالُوا لَهُ: ضَعْ سلاحَكَ، فقالَ: إنِّي لَم آتِكُم وإنَّمَا أنتُم دعوتُمُونِي، فإنْ تركتمُونِي هكذَا وإلَّا رجَعْتُ، فقالَ رستمُ: ائذنُوا لَهُ، فأقبَلَ يتوكأُ علَىٰ رمحِهِ فوقَ

البسطِ فخرقَ أكثرَهَا، فقالُوا لَهُ: مَا جاءَ بِكُم؟ فقالَ: إنَّ اللهَ ابتعَثَنَا لنُخرِجَ مَن شاءَ مِن عبادةِ العبادِ إلَىٰ عبادةِ اللهِ، ومِن ضيقِ الدنيَا إلَىٰ سعتِهَا، ومِن جورِ الأديانِ إلَىٰ عدلِ الإسلامِ، فأرسَلَنَا بدينِهِ إلَىٰ خَلقِهِ لندعُوَهُم إليهِ، فمَنْ قَبِلَ ذلكَ قَبِلْنَا منْهُ ورَجَعْنَا عنْهُ، ومَن أبَىٰ قاتلْنَاهُ أبدًا حتَّىٰ نفضِي إلَىٰ موعودِ اللهِ، قالُوا: ومَا موعودُ اللهِ؟ قالَ: الجنَّةُ لِمَنْ ماتَ علَىٰ قتالِ مَن أَبَىٰ، والظفرُ لِمَنْ بَقِيَ، فقالَ رستمُ: قَدْ سَمِعْتُ مقالَتَكُم فهَلْ لَكُمْ أَن تؤخِّرُوا هذَا الأمرَ حتَّىٰ ننظرَ فيهِ وتنظُرُوا؟ قالَ: نَعَمْ! كَمْ أحبُّ إلَيْكُم؟ يومًا أَو يومينِ؟ قالَ: لَا، بَلْ حتَّىٰ نكاتبَ أهلَ رأينَا ورؤساءَ قومِنَا، فقالَ: مَا سنَّ لنَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نؤخِّرَ الأعداءَ عِندَ اللقاءِ أكثرَ مِن ثلاثٍ، فانظُرْ فِي أمرِكَ وأمرِهِم واختَرْ واحدةً مِن ثلاثٍ بعدَ الأجلِ، فقالَ: أسيِّدُهُم أنتَ؟ قالَ: لَا، وَلَكِنِ المُسلمونَ كالجسدِ الواحدِ يجيرُ أدنَاهُم علَىٰ أعلَاهُم.

فاجتمعَ رستمُ برؤسائِهِ وقالَ: هَلْ رأيتُمْ قَطُّ أعزَّ وأرجحَ مِنْ كلامِ هذَا الرجلِ؟ فقالُوا: معاذَ اللهِ أَن تميلَ إلَىٰ شيءٍ مِنْ هذَا وتدَعَ دينَكَ إلَىٰ هذَا الأعرابيِّ، أمَا ترَىٰ إلَىٰ ثيابِهِ؟ فقالَ: وَيْلَكُم لَا تنظُرُوا إلَىٰ الثيابِ، وانظُرُوا إلَىٰ الرأيِ والكلامِ والسيرةِ، إنَّ العربَ يستخفُّونَ بالثيابِ والمأكلِ، ويصونونَ الأحسابَ.

وكانَ رستمُ قَدْ رأَىٰ فِي منامِهِ كأنَّ ملكًا نزلَ مِنَ السماءِ فختمَ علَىٰ سلاحِ الفرسِ كلِّهِ ودفعَهُ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدفعَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولمَّا دنَا جيشُ رستُمَ مِن سعدٍ أحبَّ سعدٌ أَن يطَّلِعَ علَىٰ أخبارِهِم، فبَعَثَ سريَّةً لتأتيهِ برجلٍ مِنَ الفرسِ، وكانَ فِي السريَّةِ طليحةُ الأسديُّ، فاخترقَ طليحةُ الجيوشَ والصفوفَ، وتخطَّىٰ الألوفَ، وقتلَ جماعَةً منَ الأبطالِ حتَّىٰ أَسَرَ أحدَهُم وجاءَ بِهِ، فسألَهُ سعدٌ عَنِ القومِ فجعلَ يصفُ شجاعةَ طليحةَ، فقالَ: دَعْنَا مِنْ هذَا وأخبِرْنَا عَن رستُمَ، فقالَ: هوَ فِي مائةٍ وعشرينَ ألفًا، ويتبعُهَا مثلُهَا.

ولمَّا تواجهَ الصفَّانِ كانَ سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أصابَهُ عرقُ النَّسا، ودماملُ فِي جسدِهِ، فهوَ لَا يستطيعُ الركوبَ علَىٰ الخيلِ، فجعلَ أمرَ الحربِ إِلَىٰ خالدِ بنِ عرفطَةَ، ثمَّ قامَ سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فصلَّىٰ بالناسِ الظهرَ، وخطبَ بِهِم ووعَظَهُم، وقرأَ علَيهِم آياتِ الجهادِ، وتلَا علَيهِم قولَهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1]، ثمَّ كبَّرَ أربعًا، وهجَمُوا علَىٰ الفرسِ بعدَ أَنْ أمرَهُم أَنْ يقولُوا: لَا حولَ ولَا قوَّةَ إِلَّا باللهِ.

فاقتتلَ المسلمونَ معَ الفرسِ قتالًا شديدًا، حتَّىٰ إذَا كانَ الليلُ تحاجَزُوا وقَدْ قُتِلَ منَ الفريقينِ بشَرٌ كثيرٌ، ثمَّ أصبَحُوا إِلَىٰ مواقِفِهِم فاقتَتَلُوا يومَهُم ذلكَ وعامَّةَ ليلَتِهِم، ثمَّ أصبَحُوا كمَا أمسَوْا علَىٰ مواقِفِهِم، فاقتَتَلُوا حتَّىٰ أمسَوا، ثمَّ اقتَتَلُوا فِي اليومِ الثالثِ كذلِكَ، فلمَّا أصبحَ اليومُ الرابعُ اقتَتَلُوا قتالًا شديدًا وقَدْ قَاسَوْا مِنَ الفيلةِ بالنسبةِ إِلَىٰ الخيولِ العربيةِ بسبَبِ نفرَتِها منْهَا أمرًا بليغًا، وقَدْ أبادَ الصحابةُ الفيلةَ ومَنْ علَيهَا، وقلَعُوا عيونَهَا، وأبلَىٰ المسلمونَ بلاءً حسنًا، وتفانَوا تفانيًا لَا يحدُّهُ وصفٌ ولَا يُحيطُ بِهِ ذكرٌ.

وقَدْ بَلَغَ مِن شجاعةِ قائدِ الجيشِ سعدِ بنِ أَبِي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ لمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ القروحِ والألمِ مَا منَعَهُ مِن شهودِ القتالِ، كانَ يجلسُ فِي رأسِ القصرِ ينظرُ فِي مصالحِ الجيشِ، وكانَ معَ ذلكَ لَا يغلقُ عليهِ بابَ القصرِ لشجاعَتِهِ، ولَوْ فرَّ الناسُ لأخَذَتْهُ الفُرسُ قبضًا باليدِ، وإِنَّمَا هوَ فِي قصرٍ متكئٌ علَىٰ صدرهِ فوقَ وسادةٍ وهوَ ينظرُ إِلَىٰ الجيشِ ويدبِّرُ أمرَهُ.

أيُّهَا المسلمونَ:

وفِي هذهِ المعركةِ تجلَّتْ شجاعةُ الشجعانِ، وثباتُ قلوبِ الصحابةِ وأبنائِهِم،

---

(١) سورة الأنبياء:١٠٦.

فيمَا يَعجَزُ عَن ذِكْرِهِ البيانُ، وعَن وَصفِهِ اللسانُ.

فقدْ كانَ عمرُو بنُ معديكربَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوفُ بالناسِ فينادِي بِهِم، ويشحذُ هِمَمَهُم ويقولُ: يَا معشرَ المهاجرينَ، كونُوا أسودًا فإنَّمَا الفارسيُّ تيسٌ.

وقَدْ كانَ بينَ صفوفِ الفرسِ فارسٌ لَا تكادُ تخطئُ لَهُ ضربةٌ، فقيلَ لعمرٍو: يَا أبَا ثورٍ، اتَّقِ ذاكَ الفارسَ، فحمَلَ علَيهِ عمرٌو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذبَحَهُ واستَلَبَهُ سوارَينِ مِن ذهبٍ، ومِنطقَةً مِن ذهبٍ.

وكانَ أبُو مِحجَنٍ الثقفيُّ لَا يزالُ يُجلدُ فِي الخمرِ فلمَّا أكثرَ علَيهِم سجنُوهُ وأوثَقُوهُ، وقَدْ كانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهَىٰ عَنْ إقامةِ الحدِّ فِي مواجهةِ جيشِ الكفارِ لِئَلَّا يُفتنَ المسلمُ فيلحقَ بالكفارِ، فلمَّا كانَ يومُ القادسيَّةِ شربَ الخمرَ فسجنَهُ سعدٌ وأوثَقَهُ، فلمَّا رأَىٰ أنَّ المشركينَ قَدْ أصابُوا فِي المسلمينَ أرسَلَ إِلَىٰ سَلمَىٰ امرأةِ سعدٍ، وقالَ: يَا بنتَ آلِ حفصة! هَلْ لَكِ إِلَىٰ خيرٍ؟ قالَتْ: ومَا ذاكَ؟ قالَ: تُخلِّينَ عنِّي وتُعيرِينَنِي فرسَ سعدٍ البلقاءَ، فللهِ عليَّ عهدٌ إِن سلَّمَنِي اللهُ أَن أرجعَ حتَّىٰ أضعَ رِجلِي فِي قيدِي، وإِنْ أُصِبْتُ فمَا أكثَرَ من أُفلِت، فقالَتْ: مَا أنَا وذاكَ؟ فرجعَ يرسفُ فِي قيودِهِ ويقولُ:

كَفَىٰ حَزَنًا أَن تُردِيَ الخَيلُ بالقَنَا ... وأُترَكَ مَشدُودًا علَيَّ وَثَاقِيَا

إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وغُلِّقَت ... مَصَارِيعُ دُونِي قَد تَصُمُّ المُنَادِيَا

وَقَدْ كُنتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخوَةٍ ... فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا

فَلِلَّهِ عَهدٌ لَا أَخِيسُ بِعَهدِهِ ... لَئِن فُرِّجَتْ أَلَّا أَزُورَ الحَوَانِيَا

فقالَتْ سلْمَىٰ: إنِّي استخَرْتُ اللهَ ورضيتُ بعهدِكَ، فحلَّتْ عنْهُ قيودَهُ وأطلَقَتْهُ، فاقتادَ الفرسَ فأخرَجَهَا مِن بابِ القصرِ فرَكِبَهَا ثمَّ دبَّ علَيهَا حتَّىٰ إذَا كانَ بحيالِ الميمنةِ كبَّرَ ثمَّ حمَلَ علَىٰ ميسرةِ القومِ يلعبُ بِرُمحِهِ وسلاحِهِ بينَ الصفَّينِ ثمَّ رجعَ

مِن خلفِ المسلمينَ إِلَىٰ الميسرةِ فكبَّرَ علَىٰ ميمنةِ القومِ يلعبُ بينَ الصفَّينِ برُمحِهِ وسلاحِهِ، ثمَّ رجعَ خلفَ المسلمينَ إِلَىٰ القلبِ فبدرَ أمامَ الناسِ فحملَ علَىٰ القومِ يلعبُ بينَ الصفَّينِ برمحِهِ وسلاحِهِ، وكانَ يقصفُ الناسَ ليلتئذٍ قصفًا منكرًا وتعجَّبَ الناسُ مِنْهُ وهُم لَا يعرفونَهُ ولَمْ يَرَوهُ مِنَ النهارِ.

فنظرَ إِلَيهِ سعدٌ فجعلَ يتعجَّبُ ويقولُ: مَن ذاكَ الفارسُ؟ واللهِ لولَا محبسُ أَبِي محجَنٍ لقُلتُ إِنَّهَا بعضُ شمائلِ أَبِي محجنٍ، فلمَّا انتصفَ الليلُ تحاجَزَ الناسُ ورجعَ المسلمونَ، وأقبلَ أَبُو محجَنٍ حتَّىٰ دخلَ مِن حيثُ خرجَ، فرجعَ إِلَىٰ محبِسِهِ وأعادَ رجلَيهِ فِي قيدِهِ.

فلمَّا رجعَ سعدٌ إِلَىٰ زوجتِهِ وأخبرَهَا الخبرَ، قالَتْ: إِنَّهُ أَبُو محجَنٍ، وقصَّتْ علَيهِ خبرَهُ، فدَعَا بِهِ فحلَّ قيودَهُ وقالَ: نرجُو أَلَّا نجلدَكَ علَىٰ خمرٍ أبدًا.

قالَ أَبُو محجَنٍ: وأنَا واللهِ لَا أشرَبُهَا أبدًا، كنتُ آنَفُ أَن أدعَهَا مِن أجلِ جَلدِكُم، فلَم يشرَبْهَا بعدَ ذلكَ.

ولمَّا كانَ وقتُ الزوالِ منَ اليومِ الرابعِ هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ فرفَعَتْ خيامَ الفرسِ عَنْ أماكنِهَا وأَلْقَتْ كرسيَّ رستمَ المنصوبَ لَهُ، فبادرَ فرَكَبَ بغلَتَهُ وهربَ فأدرَكَهُ المسلمونَ فقتلُوهُ، وكانَ الَّذِي قتلَهُ رجلٌ يُقَالُ لَهُ هلالُ بنُ علقمةَ التميميُّ، رماهُ رستمُ بنشابةٍ فأصابَ قدَمَهُ وحمَلَ عليهِ هلالٌ فقتَلَهُ واحتزَّ رأسَهُ.

وقَدْ تفانَىٰ المسلمونَ فِي طردِ الفُرسِ، وقتْلِهِم لَهُم، حتَّىٰ قتَلُوا منْهُم ثلاثينَ ألفًا، وانهزَمَتِ الفرسُ -وللهِ الحمدُ والمنَّةُ- عَنْ بكرَةِ أَبِيهِم، ولَحِقَ المسلمونَ مَن فرَّ مِنْهُم وقعَدُوا لَهُم كلَّ مرصدٍ، وحصَرُوا بعضَهُم إِلَىٰ بعضِ الأماكنِ حتَّىٰ أَكلُوا الكلابَ والسنانيرَ.

ومَا ردَّ شارِدُهُم حتَّىٰ وصلَ إِلَىٰ نهاوندَ، وساقَ المسلمونَ خلفَ المنهزمينَ

ولَمْ يزالُوا يتبعُونَهُم حتَّىٰ جازُوا الفراتَ، ودخَلُوا وراءَهُم مدينةَ الملكِ وهيَ المدائنُ الَّتِي فيهَا الإيوانُ الكسرويُّ، وقَد غنِمَ المسلمونَ مِنَ الأموالِ والسلاحِ مَا لَا يُحَدُّ ولَا يُوصَفُ كثرَةً، فحُصِّلَتِ الغنائمُ، وبُعِثَ بالخُمُسِ إلَىٰ أميرِ المؤمنينَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفِي هذهِ المعركةِ تبدَّتْ شجاعةُ المرأةِ المسلمةِ معَ محافظتِهَا علَىٰ سترِهَا وحيائِهَا وإبائِهَا، بمَا يُشعِرُ المسلمَ بالفخرِ والغبطةِ والاعتزازِ.

قالَتْ أمُّ كثيرٍ امرأةُ همَّامِ بنِ الحارثِ النخعيِّ: شهِدْنَا القادسيةَ معَ سعدٍ معَ أزواجِنَا، فلمَّا أتانَا أَن قَدْ فرغَ مِنَ الناسِ، شدَدْنَا علينَا ثيابَنَا وأخَذْنَا الهراويَّ ثمَّ أتينَا القتلَىٰ، فمَن كانَ مِنَ المسلمينَ سقَيناهُ ورفعناهُ، ومَن كانَ مِنَ المشركينَ أجهَزْنَا علَيهِ، ومعَنَا الصبيانُ فنولِّيهم استلابَهُم، لِئَلَّا نكشفَ عَن عوراتِ الرجالِ.

ثمَّ إنَّ سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزلَ إلَىٰ الناسِ فاعتذرَ إليهِم ممَّا فيهِ منَ القروحِ فِي فَخِذَيهِ وَإِلْيَتَيهِ، فعذَرَهُ الناسُ لِمَا يعلمونَ مِن شجاعَتِهِ وحسنِ عهدِهِ ووفائِهِ، كيفَ لَا؟ وهوَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدُ العشرةِ المبشرينَ بالجنَّةِ علَىٰ لسانِ خيرِ الورَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ كمَا ينبغِي لجلالِ وجهِهِ وعظيمِ سلطانِهِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ علَيْهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَدْ كانَتْ وقعةُ القادسيَّةِ وقعةً عظيمةً لَمْ يكُن بالعراقِ أعجبُ منْهَا، ولذلكَ لمَّا نصرَ اللهُ المسلمينَ علَىٰ المجوسِ حزبِ الشيطانِ وعبدةِ النيرانِ، أرسلَ سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بالبشارةِ عاجلًا إِلَىٰ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَدْ كانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستخبرُ عَنْ أمرِ القادسيَّةِ كلَّ مَنْ لَقِيَهُ منَ الرُّكبانِ، ويخرجُ منَ المدينةِ إِلَىٰ ناحيةِ العراقِ يستنشقُ الخبرَ، فبينَمَا هوَ ذاتَ يومٍ خارجٌ يتلمسُ الأخبارَ إِذْ هوَ براكبٍ يلُوحُ مِن بعدٍ، فاستقبَلَهُ عمرُ فاستخبَرَهُ، فقالَ لَهُ: فتحَ اللهُ علَىٰ المسلمينَ بالقادسيَّةِ وغنِمُوا غنائمَ كثيرةً وجعلَ يحدِّثُهُ وهوَ لَا يعرفُ عمرَ، وعمرُ ماشٍ تحتَ راحِلَتِهِ، فلمَّا اقتربَا مِنَ المدينةِ جعلَ الناسَ يحيُّونَ عمرَ بالإمارةِ، فعرفَ الرجلُ عمرَ فقالَ: يرحمُكَ اللهُ يَا أميرَ المؤمنينَ، هَلَّا أعلَمْتَنِي أنَّكَ الخليفةُ؟ فقالَ: لَا حرجَ عليكَ يَا أخِي.

وقَدْ كتَبَ سعدٌ إِلَىٰ عمرَ كتابًا يُخبِرُهُ فيهِ بفتحِ اللهِ علَىٰ المُسلمينَ، فقالَ فيهِ: إنَّ اللهَ نصرَنَا علَىٰ أهلِ فارسَ ومَنَحْنَاهُم سننَ مَن كانَ قبْلَهُم مِن أهلِ دينِهِم، بعدَ قتالٍ طويلٍ، وزلزَالٍ شديدٍ، وقَدْ لَقُوا المُسلمينَ بعدَّةٍ لَمْ يرَ الراءُونَ مثلَ قدْرِهَا، فلَمْ ينفعْهُم ذلكَ، بَل سُلِبُوهُ ونقلَهُ اللهُ عنْهُمْ إِلَىٰ المسلمينَ، واتَّبَعَهُمُ المسلمونَ علَىٰ الأنهارِ، وصفوفِ الآجامِ، وفِي الفجَاجِ، وقَدْ أُصيبَ منَ المسلمينَ فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ منَ المسلمينَ لَا يعلَمُهُم إلَّا اللهُ فإنَّهُ بِهِم عالِمٌ، كانُوا يدوُونَ بالقرآنِ إذَا جنَّ عليهِمُ الليلُ كدويِّ النحلِ، وهُمْ آسادٌ فِي النهارِ لَا تشبهُهُمُ الأسودُ، ولَمْ يفضُلْ مَن مضَىٰ مِنْهُم مَن بَقِيَ إلَّا بفَضلِ الشَّهادةِ إذْا لِم تُكتَبْ لَهُم، فقرَأَ عمرُ هذهِ البشارةَ علَىٰ الناسِ فوقَ المنبرِ -رضيَ اللهُ عَنهُمُ أجمعينَ-.

ولأهميَّةِ وقعَةِ القادسيَّةِ فقَدْ كانَتِ العربُ منَ العراقِ إِلَىٰ عدنٍ يتربصُونَ أخبارَهَا، ويرونَ أنَّ ثباتَ مُلكِهِم وزوالَهُ بِهَا، وقَدْ بعثَ أهلُ كلِّ بلدةٍ أحدَهُم ليكشفَ مَا يكونُ مِنْ خبَرِهِم، حتَّىٰ جاءَ الفتحُ والنصرُ منَ الواحدِ الأحدِ.

وقدْ كانَتْ بلادُ العراقِ بكمالِهَا قَدْ نقضَتِ العهودَ والذممَ والمواثيقَ الَّتِي كانُوا أعطَوْهَا لخالدِ بنِ الوليدِ حينَ فتَحَهَا، ثمَّ عادَ الجميعُ بعدَ هذهِ الوقعةِ وادَّعَوا أنَّ

الفرسَ أجبَرُوهُم علَىٰ نقضِ العهودِ، وأخذُوا منْهُمُ الخراجَ وغيرَ ذلكَ، فصدَّقَهُمُ المؤمنونَ فِي ذلكَ تألفًا لقلُوبِهِم.

إنَّ هذهِ المعركةَ تغييرٌ لمجرَىٰ التاريخِ، ومفخرةٌ لكلِّ مسلمٍ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، وبيانٌ واضحٌ جليٌّ لفضلِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحسنِ سابقَتِهِم فِي الإسلامِ، وصورةٌ كاشفةٌ لمدَىٰ مَا قاسَوهُ منَ الأهوالِ حتَّىٰ يبقَىٰ هذَا الدينُ نقيًّا، فمَنْ مِثلُهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟

نسألُ اللهَ أَنْ يحشرَنَا معَهُم، وأَنْ يرزُقَنَا اقتفاءَ آثارِهِم والأنسَ بذكرِ مآثرِهِم.

(٧٨) وقعةُ شَقْحَب

الحمدُ للهِ الَّذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وهوَ الَّذِي جعلَ الليلَ والنهارَ خلفةً لِمَنْ أرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ أرسلَهُ إلَىٰ جميعِ الخلقِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

ففِي أواسطِ التاريخِ الإسلاميِّ كانَتْ بدايةُ ظهورِ التتارِ وغزوِهِم بلادَ الإسلامِ، حيثُ عاثُوا بِهَا فسادًا، وأحدَثُوا بِهَا مِنَ المصائبِ مَا لَا يَعلمُهُ إلَّا اللهُ، ولَا زالُوا ينتقلونَ مِنْ بلدٍ إلَىٰ بلدٍ، وقَدْ عمَّ بِهِمُ البلاءُ، وانتشَرُوا بجموعِهِم كالوباءِ، وقَدْ كانَ فتكُهُم بالمسلمينَ مِمَّا يعجزُ عنهُ الوصفُ لشناعَتِهِ، ويمتنعُ عَن تصوُّرِهِ الفكرُ لبشاعتِهِ.

ولَا زالُوا مستمرينَ فِي أعمالِهِمُ الشنيعةِ، وقَدْ توارَثَ ذلكَ حكَّامُهُم حاكمًا بعدَ حاكمٍ، ابتداءً مِنْ سقوطِ الدولةِ العباسيَّةِ فِي بغدادَ عامَ ستمائةٍ وستةٍ وخَمسينَ.

ولمَّا أرادَ اللهُ سبحانَهُ رفعَ البلاءِ عَن أمَّةِ الإسلامِ، فقَدْ أذاقَهُمُ الهزيمةَ النكراءَ فِي وقعةِ شَقْحَبَ فِي الشامِ عامَ سبعِمائةٍ واثنينِ مِنَ الهجرةِ، بعدَ أَن ذاقَتْ مِنْهُم أمَّةُ الإسلامِ الهمَّ والويلاتِ، فدفعَ اللهُ شرَّهُم عَنِ المسلمينَ.

ففِي عامِ ستمائةٍ وتسعةٍ وتسعينَ كانَ السلطانُ الناصرُ محمَّدُ بنُ قلاوونَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُلطانًا للبلادِ المصريَّةِ والشاميَّةِ ومَا يتبعُهَا منَ الممالِكِ، وقَدْ نُقِلَتْ إليهِ الأخبارُ بأنَّ التتارَ قَدْ عزمُوا علَىٰ غزوِ بلادِ الشامِ، فسافرَ إلَىٰ جهةِ الشامِ، ونزلَ بقلعةِ دِمشقَ، وشرعَ فِي الإنفاقِ علَىٰ العساكرِ، فبَينمَا هوَ كذلكَ إذْ جاءَهُ الخبرُ بقدومِ التتارِ إلَىٰ

الشامِ، فخرجَ إِلَىٰ لقاءِ العدوِّ وخرجَتْ معَهُ الجيوشُ فلَمْ يتخلَّفْ منهُم أحدٌ، ولَمَّا وصلُوا إِلَىٰ حِمصَ أرسَلُوا إِلَىٰ العربِ يخبرونَهُم بمجيءِ العدوِّ ويستنصرُونَ بِهِم عليهِ.

فوصلَ التتارُ إِلَىٰ حِمصَ، وعلَىٰ رأسِهِم قائدُهُم قَازانُ، ولمَّا صارَ المسلمونَ فِي قبالةِ جيشِ التتارِ، أخذَ أمراءُ السلطانِ ومعَهُمُ الفقهاءُ يدورُونَ علَىٰ العسكرِ ويتلُونَ عليهِم آياتِ الجهادِ، ويحرِّضُونَ علَىٰ الجهادِ وتوطينِ النفسِ علَىٰ الملاقاةِ حتَّىٰ غشِيَ الناسَ البكاءُ والتوجُّعُ.

وقدْ كانَ قَازانُ قائدًا ذَا معرفةٍ بالحروبِ، وقَدْ أمَرَ أصحابَهُ إِنْ رأَوْا جيشَ المسلمينَ أَلَّا يتحرَّكُوا مِنْ أماكِنِهِم حتَّىٰ يدخُلَ عليهِم جيشُ المسلمينَ، وأرادَ بذلكَ أَنْ يكسِرَ همَّةَ الفرسانِ، وأَنْ يمكِّنَ رماتَهُ مِنْ رمي السهامِ؛ لأنَّ ذلكَ أثبتُ لَهُم وأسكَنُ.

فلمَّا تقدَّمَ عسكرُ المسلمينَ إِلَيهِم معَ بُعدِ المسافةِ وثباتِ العدوِّ وعدمِ حركتِهِم، وقَدْ بَرَدَتِ الهمَّةُ، عندَ ذلكَ حملَتِ التتارُ حملةً قويَّةً حتَّىٰ اختلَطُوا بالمسلمينَ، وأصابَتْ سهامُهُم خيلًا كثيرًا مِنهُم، ورمُوا فرسانَهَا، فانكسرَ المسلمونَ كسرًا شنيعًا، وإِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعونَ.

وكانَ السلطانُ الناصرُ قَدِ انعزلَ فِي جمعٍ قليلٍ مِنَ المماليكِ، وكانَ يبكِي وينظرُ إِلَىٰ السماءِ ويقولُ: يَا رَبِّ، لَا تجعَلْنِي كعبَ الشؤمِ علَىٰ المسلمينَ، ويدعُو اللهَ تعالَىٰ ويتضرَّعُ إِليهِ ويريدُ أَن يلقِيَ نفسَهُ بينَ القومِ، إِلَّا أَنَّ بعضَ أمرائِهِ قَد ردَّهُ ومنَعَهُ.

فلمَّا انكسرَ المسلمونَ سارَ السلطانُ الناصرُ بِمَنْ مَعَهُ نحوَ بعلبكَّ، ولَوْ تربَّصَ فِي ذلكَ الوقتِ لكانَ أوقعَ نفسَهُ بيدِهِ إِلَىٰ التهلكةِ، فكانَ سببًا لفسادِ المملكةِ، فكانَ كقولِ القائلِ:

اللَّـــهُ يَعلَـــمُ مَـــا تَـــرَكتُ قِـــتَالَهُم ... حَتَّـىٰ عَلَــوا فَرَسِــي بِأَشــقَرَ مُــزبِدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِن أُقَاتِل وَاحِدًا ... أُقْتَلْ وَلَا يضرُر عَدُوِّي مَشهَدِي

فَصَدَفْتُ عَنهُم وَالأَحِبَّةُ فِيهِمُ ... طعْمًا لَهُم بِعِقَابِ يَومِ مفْنِدِ

وَلَمَّا انهزمَ العَسكرُ، أخذَ الأميرُ بدرُ الدِّينِ الطيَّارُ حريمَهُ مِن دمشْقَ وخرجَ بِهِم، ومَا زالَ يسيرُ حتَّىٰ وصلَ بيسَانَ، فنزلَ بأهلِهِ للراحةِ، وإِذَا بجماعةٍ مِنَ التتارِ قَدْ أدركُوهُ، فلمَّا رآهُم وقَدْ قصَدُوهُ رَكِبَ وأخَذَ رُمحَهُ بيدِهِ، وشدَّ لحريمِهِ خيلًا فأركَبَهُم عليهَا، وسيَّرَ مَعَهُم ستَّةَ أنفسٍ، وقالَ: انجُوا بأنفُسِكُم وهَأَنَا واقفٌ إِلَىٰ أَنْ تَبعدُوا.

فقالُوا: ارجعْ معَنَا لعلَّنَا أَنْ نفوِّتَهُم، قالَ: لَا واللهِ مَا أنهزمُ أمامَهُم ولَكِن أموتُ ولَا أُمَكِّنُهُم يصلُونَ إِلَىٰ حريمِي وعينِي تنظرُ، فلمَّا رآهُمُ التتارُ عطفَتْ طائفةٌ منْهُم إِلَيهِم، فلمَّا رآهُم مالَ إِلَىٰ نحوِهِم، فطعنَ واحدًا فأردَاهُ، وطعنَ آخرَ أيضًا فقتَلَهُ، ثمَّ قتلَ آخرَ، وقَد بُهِتُوا لفعلِهِ، ثمَّ تكاثرُوا عليهِ إِلَىٰ أَن أسقطُوا فرسَهُ، فوقعَ علَىٰ الأرضِ، وجرحَ منهُم آخرَ وهوَ راجلٌ، ثمَّ قُتلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شهيدًا دونَ حريمِهِ ومالِهِ، وقَدْ كانَ صاحبَ مروءةٍ ومكارِمَ، وصاحبَ شجاعةٍ وفروسيَّةٍ.

وأمَّا السلطانُ فقَدْ رجَعَ فِي طائفةٍ مِنَ الجيشِ إِلَىٰ بلدةِ بعلبكَّ، وأمَّا العسكرُ فقَدْ تفرَّقُوا فِي كلِّ ناحيةٍ، ووصَلَ بعضُهُم إِلَىٰ القلاعِ القريبةِ مِن مكانِ الوقعةِ، ونجَا بنفسِهِ مَنْ كانَ فِيهِ قوَّةٌ، وتوجَّه أقوامٌ إِلَىٰ جبالِ بعلبكَّ وغيرِهَا جياعًا عُراةً مشاةً.

فلمَّا وصلَ المسلمونَ إِلَىٰ قلعةِ حمصَ وجَدُوا أهلَهَا فوقَ الأسوارِ يبتهِلُونَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالدعاءِ وكانُوا يُنَادُونَ: يَا مسلمونَ، الرجعةَ الرجعةَ، لَا تسلِّمُونَا إِلَىٰ العدوِّ، يَا مسلمونَ المروءةَ المروءةَ، ولَمْ يلتفِتْ إِلَيهِم أحدٌ، فتباكَوا وبكَتِ الناسُ وبَكَىٰ السلطانُ الناصرُ.

ولمَّا رأَىٰ قازانُ أنَّ جيشَ المسلمينَ قَدِ انهزمَ فرحَ فرحًا عظيمًا، وأرادَ أَنْ يلحقَ

المسلمينَ، فمنَعَهُ بعضُ الأمراءِ وقالَ لَهُ: لَا تعجَلْ فرُبَّمَا يكونُ لَهُم كمينٌ ويكونُ انهزامُهُم هذَا مكيدةً مِنْهُم، فقبلَ كلامَهُ وتوقَّفَ عنِ اللحاقِ بِهِم، وذلكَ مِن لُطفِ اللهِ تعالَىٰ، ولَو مشَىٰ وراءَ المسلمينَ لكانَ أخذَ الجميعَ.

ولمَّا بلغَ أهلَ دمشقَ خبرُ كسرةِ السلطانِ عَظُمَ الضجيجُ والبكاءُ، وخرجَتِ المخدراتُ حاسراتٍ لَا يعرِفْنَ أينَ يذهَبْنَ والأطفالُ بأيديهنَّ، وصارَ كلُّ واحدٍ فِي شغلٍ عَن صاحبِهِ، ثمَّ بقِيَتِ المدينةُ بلَا نائبٍ ولَا حاكمٍ، وأكلَ الناسُ بعضَهُم بعضًا، وقربَ التتارُ مِنْ دمشقَ وأحاطُوا بالغوطةِ، وكَثُرَ العبثُ والفسادُ والنهبُ، وصارَ جميعُ أهلِ دمشقَ فِي الذلِّ والهوانِ، وكَثُرَ النهبُ فِي البلدِ، واستبدَّ القتلُ فِي ضواحِي دمشقَ وضياعِهَا، فيقالُ: إنَّهُ قتلَ مَا يقاربُ مائةَ ألفِ إنسانٍ منَ الجندِ والفلَّاحينَ والعامَّةِ، وكَثُرَ الطلبُ، وعجزَ المطلوبُ، وعسُرَ الأمرُ علَىٰ الناسِ، ونُهِبَت بعضُ جهاتِ البلدِ وسُبِيَ مَن كانَ فيهِ منَ النساءِ والأولادِ، حتَّىٰ بلَغَ مَا أخذُوا منَ النساءِ: مائةً وعشرينَ بنتًا، وأسرُوا بعضَ القضاةِ وعملُوا فِي رقبتِهِ حبلًا يجرُّونَهُ بهِ، ثمَّ تركُوهُ.

وأحاطتِ التتارُ بالقلعةِ مِن جميعِ الجهاتِ، وبقيَتِ الأماكنُ موحشَةً لَا يجسرُ أحدٌ أَنْ يمُرَّ بِهَا، ولَمْ تبقَ حارةٌ ولَا محلةٌ إلَّا وقَدْ دخلَهَا التتارُ ونهبُوهَا، واختفَىٰ الناسُ.

وقَدْ نُهِبَ مِن دمشقَ ومَا حولَهَا مَا لَا يمكنُ حصرُهُ، وذُكِرَ أَنَّهُم أخذُوا مِنَ الأسرَىٰ أحدَ عشرَ ألفَ نفسٍ منَ الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، وكانَ معظمُهُم مِن جبلِ الصالحيةِ.

وقَدْ كانَ معظمُ فسادِ التتارِ فِي جبلِ الصالحيَّةِ لأنَّهُ كانَ يقطُنُهَا نفرٌ كثيرٌ مِن طائفةِ الأرمَنِ، وقَدْ كانَ فِي قلبِ قائدِهِم حزازَاتٌ مِن فعلِ المسلمينَ فِي بلادِهِ الَّتِي أُخِذَتْ منْهُ، وضياعُهُ الَّتِي أُخرِبَت، ورجالُهُ الَّذِينَ قُتِلُوا، والغاراتُ الَّتِي كانَتْ تتواتَرُ علَىٰ بلادِهِ مِن جهةِ المسلمينَ، ولمَّا حصلَ مَا حصلَ مِن نصرِ قازانَ علَىٰ المسلمينَ، حضرَ كبيرُ الأرمنِ أمامَ قازانَ وطلبَ منهُ أَنْ يُمكِّنَهُ منَ الدخولِ إلَىٰ الصالحيَّةِ، فيضعَ

السيفَ فِي أهلِهَا، ويشفِيَ غلَّهُ منَ المسلمينَ ويقيمَ فِي البلادِ مقابلَ ألفِ ألفِ دينارٍ، فوقفَ أميرُ قازانَ علَىٰ دمشقَ فِي طريقِ كبيرِ الأرمَنِ، وتحدَّثَ معَ قازانَ وقالَ لَهُ: قَدْ مَلَكْتَ هذهِ البلادَ وهيَ فِي يَدِكَ والمالُ الَّذِي تحمَّلَهُ هذَا تأخذُهُ مِن أهلِ الشامِ مِن غيرِ سفكِ دمٍ، ومَا زالَ بهِ حتَّىٰ أفلسَ الأرمنيُّ الحاقدُ مِمَّا أرادَهُ.

ولمَّا بلغَ الحالُ مَا بلغَ، اجتمعَ أعيانُ البلدِ وشيخُ الاسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واتَّفقُوا علَىٰ المسيرِ إلَىٰ قازانَ لمُقابلَتِهِ وأخذِ الأمانِ منْهُ لأهلِ دمشقَ، فتوجَّهُوا إلَيهِ واجتَمَعُوا بهِ عندَ النبكِ، وكلَّمَهُ الإمامُ ابنُ تيميةَ كلامًا قويًّا فيهِ مصلحةٌ عظيمةٌ عادَ نفعُهَا علَىٰ المسلمينَ، وأخَذَ منهُ الأمانَ للمسلمينَ، وذلكَ أَنَّ قازانَ والتتارَ كانُوا يُظهِرُونَ الإسلامَ، حتَّىٰ إنَّ الناسَ قَدِ استشكلُوا قتالَهُم، فقالَ لَهُم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: هؤلاءِ مِن جنسِ الخوارجِ الَّذِينَ خرجُوا علَىٰ عليٍّ ومعاويةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وهؤلاءِ يزعمونَ أَنَّهُم أحقُّ بإقامةِ الحقِّ منَ المسلمينَ، ويعيبونَ علَىٰ المسلمينَ مَا هُمْ متلبِّسُونَ بهِ مِنَ المعاصِي والظلمِ، وهُمْ متلبِّسُونَ بمَا هوَ أعظمُ منهُ بأضعافٍ مضاعفةٍ، فتفطَّنَ العلماءُ والناسُ لذلكَ.

ثمَّ قالَ: إذَا رأيتمُونِي مِن ذلكَ الجانبِ وعلَىٰ رأسِي مصحفٌ فاقتلُونِي، فتشجَّعَ الناسُ فِي قتالِ التتارِ وقويَت قلُوبُهُم.

ثمَّ إنَّهُ قَدْ قُرِئَ الأمانُ علَىٰ الناسِ فحمدُوا اللهَ تعالَىٰ، وحَصلَ لَهُم سكونٌ وطمأنينةٌ.

وأمَّا قازانُ فإنَّهُ وصلَ إلَىٰ حلَبَ ووصلَ عساكرُهُ إلَىٰ حماةَ، فنهبُوا منَ الدوابِّ والأغنامِ والأبقارِ مَا جاوَزَ حدَّ الكثرةِ، وسَبَوا عالمًا كثيرًا منَ الرجالِ والنساءِ والصبيانِ.

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالَىٰ لطفَ بالمسلمينَ، فأرسلَ سبحانَهُ علَىٰ قازانَ وعساكرِهِ الأمطارَ والثلوجَ بحيثُ إنَّهُ أمطرَ عليهِم واحدًا وأربعينَ يومًا، وقتٌ مطرٌ ووقتٌ ثلجٌ، فهلكَ منهُم عالمٌ كثيرٌ، ورجعَ قازانُ وعساكرُهُ إلَىٰ بلادِهِم أقبحَ منَ المكسورينَ، وقَدْ تلفَتْ

خيولُهُم وهلَكَ أكثرُهَا، وعجَّزَهُمُ اللهُ تعالَىٰ وخذلَهُم، وردَّهُم خائبينَ عمَّا كانُوا عزمُوا عليهِ، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾(١).

ولمَّا كانَ يومُ الجمعةِ أُعيدَتِ الخطبةُ فِي سائرِ جوامعِ دمشقَ باسمِ السلطانِ الملكِ الناصرِ، وكانَ بالجامعِ الأمويِّ ذلكَ النهارَ بكاءٌ عظيمٌ وتضرُّعٌ إلَىٰ اللهِ تعالَىٰ، وتذاكُرٌ بمَا كانَتِ الناسُ فيهِ منَ الشِّدَّةِ والنهبِ والسبيِ، وكانَتْ مدَّةُ انقطاعِ الخطبةِ عَن ملكِ الإسلامِ نحوَ مائةِ يومٍ، ثمَّ أعادَهَا اللهُ تعالَىٰ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ.

أمَّا بعدُ:

فلمَّا كانَ عامُ سبعِمِائَةٍ واثنينِ منَ الهجرةِ قَوِيَتِ الأخبارُ بعزمِ التتارِ علَىٰ دخولِ بلادِ الشامِ، فانزعجَ الناسُ لذلكَ واشتدَّ خوفُهُم جدًّا، وقنتَ الخطيبُ فِي الصلواتِ، وشرعَ الناسُ فِي الرحيلِ إلَىٰ الديارِ المصريَّةِ والكركِ والحصونِ المنيعةِ، وتأخَّرَ مجيءُ العساكرِ المصريَّةِ فاشتدَّ خوفُ الناسِ لذلكَ.

ثمَّ إنَّهُم لَمْ يلبَثُوا طويلًا حتَّىٰ وصلَ الأميرُ بيبرسُ قادِمًا مِنْ مصرَ بمَنْ معَهُ مِنَ العساكرِ إلَىٰ دمشقَ، وبقيَ يستحثُّ السلطَانَ علَىٰ الخُروجِ، وأقبلَ الناسُ مِنْ حلبَ وحماةَ إلَىٰ دمشقَ جافلينَ منَ التتارِ، فاستعدَّ أهلُ دمشقَ للفرارِ ولَمْ يبقَ إلَّا خروجُهُم،

(١) سورة الأحزاب:٢٥.

فنُوديَ بدمشقَ: مَنْ خرجَ منها حَلَّ مالُهُ ودمُهُ.

ووصلَ التتارُ إلَىٰ حمصَ وبعلبكَّ وعاثُوا فِي تلكَ الأراضِي فسادًا، وقلقَ الناسُ قلقًا عظيمًا، وخافُوا خوفًا شديدًا، واختلطَ البلدُ لتأخُّرِ قدومِ السلطانِ ببقيَّةِ الجيشِ، وقالَ الناسُ: لَا طاقةَ لجيشِ الشامِ معَ هؤلاءِ المِصريينَ بلقاءِ التتارِ لكثرَتِهم، وتحدَّثَ الناسُ بالأراجِيفِ فاجتمعَ الأمراءُ بالمِيدانِ وتحالَفُوا علَىٰ لقاءِ العدوِّ، وشجَّعُوا أنفسَهُم، ونوديَ بالبلدِ ألَّا يرحلَ أحدٌ منْهُ، فسكنَ الناسُ وجلسَ القضاةُ بالجامعِ وحلَّفوا جماعةً منَ الفقهاءِ والعامَّةِ علَىٰ القتالِ، وتوجَّهَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلَىٰ العسكرِ الواصلِ مِنْ حماةَ فاجتمعَ بِهِمْ وأعلَمَهُم بمَا تحالَفَ عليهِ الأمراءُ والناسُ مِن لقاءِ العدوِّ، فأجابُوا إلَىٰ ذلكَ وحلَفُوا معَهُم، وكانَ الإمامُ ابنُ تيميَّةَ يحلفُ للأمراءِ والناسِ إنَّكُم فِي هذهِ الكرَّةِ منصُورُونَ.

فيقولُ لهُ الأمراءُ: قُلْ: إنْ شاءَ اللهُ، فيقولُ: إنْ شاءَ اللهُ تحقيقًا لَا تعليقًا، وكانَ يتأوَّلُ فِي ذلكَ أشياءَ مِنْ كتابِ اللهِ؛ مِنْهَا قولُهُ تعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾(١).

وفِي يومِ العاشرِ مِنْ شعبانَ ضُرِبَتِ البشائرُ بالقلعةِ وعلَىٰ أبوابِ الأمراءِ بخروجِ السلطانِ بالعساكرِ مِنْ مصرَ لمناجزَةِ التتارِ المَخذُولينَ، كمَا حدثَ فِي ذلكَ اليومِ أنَّهُ التقَىٰ جماعةٌ مِنْ أمراءِ الإسلامِ فِي ألفٍ وخمسِمائةِ فارسٍ معَ التتارِ، وكانَ التتارُ فِي سبعةِ آلافٍ فاقتَتَلُوا وصبرَ المسلمونَ صبرًا جيدًا، فنصرَهُمُ اللهُ وخذلَ التتارَ، فقتَلُوا منهُم خلقًا وأسَرُوا آخرينَ، وولَّوا عندَ ذلكَ مُدبِرينَ، وغنمَ المسلمونَ منْهُم غنائمَ، وعادُوا سالمينَ لَمْ يُفقَدْ منْهُم إلَّا القليلُ ممَّنْ أكرَمَهُ اللهُ بالشهادةِ.

وقَدْ وصلَتِ التتارُ إلَىٰ بلدةِ قارةَ، فانزعجَ الناسُ لذلكَ انزعاجًا شديدًا، ولَمْ يبقَ

(١) سورة الحج: ٦٠.

حولَ القرَىٰ والحواضرِ أحدٌ، وامتلأَتِ القلعةُ والبلدُ وازدحمَتِ المنازلُ والطرقاتُ، واضطربَ الناسُ، وخرجَ الإمامُ ابنُ تيمية وفِي صحبَتِهِ جماعةٌ ليشهدَ القتالَ بنفسِهِ ومَنْ معَهُ، وبقيَ البلدُ ليسَ فيهِ حاكِمٌ، وحيلَ بينَ الناسِ وبينَ خبرِ الجيشِ، وانقطعَتِ الطُّرُقُ، وظهرَتِ الوحشةُ علَىٰ البلدِ والحواضرِ، وليسَ للناسِ شغلٌ غيرُ الصعودِ إلَىٰ المآذنِ ينظرونَ يمينًا وشمالًا، وإلَىٰ النواحِي، فتارةً يقولونَ: رأينَا غبرةً فيخافونَ أَنْ تكونَ مِنَ التتارِ، ويتعجبونَ مِنَ الجيشِ مَعَ كثرَتِهِم وجودةِ عدَّتِهِم وعدَدِهِم، أينَ ذهبُوا؟ فلَا يدرونَ مَا فعلَ اللهُ بِهِم.

فانقطعَتِ الآمالُ وألَحَّ الناسُ فِي الدعاءِ والابتهالِ فِي الصلواتِ وفِي كلِّ حالٍ، وكانَ ذلكَ يومَ الخميسِ التاسعِ والعشرينَ مِنْ شعبانَ، وكانَ الناسُ فِي خوفٍ ورعبٍ لَا يعبَّرُ عنْهُ، لكِن كانَ الفرجُ مِنْ ذلكَ قريبًا، ولكِنَّ أكثرَ الناسِ لَا يعقلونَ، فقَدْ جاءَ فِي الحديثِ قولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضحكَ ربُّنَا عَزَّوَجَلَّ مِنْ قنوطِ عبادِهِ وقربِ غيرِهِ**»[1].

فلمَّا كانَ آخرُ هذَا اليومِ وصلَ الأميرُ إياسُ المرقبيُّ أحدُ أمراءِ دمشقَ، فبَشَّرَ الناسَ بقدومِ السلطانِ واجتماعِ العساكرِ المصريَّةِ والشاميَّةِ، فاطمأنَّ الناسُ وسكنَتْ قلوبُهُم.

ولمَّا كانَتْ ليلةُ الجمعةِ دخلَ شهرُ رمضانَ المباركِ، وصُلِّيَتِ التراويحُ، واستبشرَ الناسُ بشهرِ رمضانَ وبركَتِهِ، ولكنَّهُم أصبَحُوا يومَ الجمعةِ فِي همٍّ شديدٍ وخوفٍ أكيدٍ، لأنَّهُم لَا يعلمونَ مَا خبرُ الناسِ.

ولمَّا كانَ يومُ السبتِ نشبَتِ الحربُ بينَ المسلمينَ والتتارِ، وقامَ الناسُ يبتهلونَ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالدعاءِ فِي المساجدِ والبلدِ، وطلعَ النساءُ والصغارُ علَىٰ الأسطحِ

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠).

وكشَفُوا رءوسَهُم وضجَّ البلدُ ضجَّةً عظيمةً، ووقعَ فِي ذلكَ الوقتِ مطرٌ عظيمٌ غزيرٌ، ثمَّ سكنَ الناسُ، فلمَّا كانَ بعدَ الظهرِ قُرِئَتْ بطاقةٌ بالجامعِ تتضمَّنُ أَنَّ فِي الساعةِ الثانيةِ مِنْ نهارِ السبتِ هذَا اجتمعَتِ الجيوشُ الشاميَّةُ والمصريَّةُ معَ السلطانِ فِي مرجِ الصفرِ، ثمَّ عادَ السلطانُ، ووقفَ خلْفَهُ الغلمانُ والأحمالُ والعساكرُ صفًّا واحدًا، وقالَ لَهُمْ: مَن خرجَ منَ الأجنادِ عنِ المصافِّ فاقتلُوهُ ولَكُمْ سلبُهُ.

وطلبَ منَ الناسِ الدعاءَ وأمرَهُم بحفظِ القلعةِ، والتحرُّزِ علَىٰ الأسوارِ فدعَا الناسَ فِي المآذنِ والبلدِ، وانقضَىٰ النهارُ وكانَ يومًا مزعجًا هائلًا.

ولمَّا اصطفَّتِ العساكرُ والْتَحَمَ القتالُ، ثبَتَ السلطانُ ثباتًا عظيمًا، وأمرَ بجَوادِهِ فقُيِّدَ حتَّىٰ لَا يهربَ، وبايعَ اللهَ تعالَىٰ فِي ذلكَ المَوقِفِ، وجرَتْ خطوبٌ عظيمةٌ، وقُتِلَ جماعةٌ مِنْ سادَاتِ الأمراءِ يومَئذٍ.

فلمَّا كانَ يومُ الأحدِ أصبحَ الناسُ يتحدَّثُونَ بكسرِ التتارِ، وخرجَ الناسُ إِلَىٰ ناحيةِ مكانِ الوقعةِ فرجَعُوا ومعَهُم شيءٌ منَ المكاسبِ، ومعَهُم رءوسٌ مِنْ رءوسِ التتارِ، وصارَتْ كسرةُ التتارِ تقوَىٰ وتتزايدُ قليلًا قليلًا حتَّىٰ اتَّضحَت جملةً، ولكنَّ الناسَ لِمَا عندَهُم مِنْ شدَّةِ الخوفِ وكثرةِ التتارِ لَا يُصَدِّقُونَ.

فلمَّا كانَ بعدَ الظهرِ قُرِئَ كتابُ السلطانِ إِلَىٰ متولِّي القلعةِ يُخبرُ فيهِ باجتماعِ الجيشِ ظهرَ يومِ السبتِ بشَقْحَبَ، وأنَّ السيفَ كانَ يعملُ فِي رقابِ التتارِ ليلًا ونهارًا وأَنَّهُمْ هرَبُوا وفرُّوا واعتصمُوا بالجبالِ والتلالِ، وأنَّهُ لَمْ يَسْلَمْ منْهُم إلَّا القليلُ.

وفِي يومِ الإثنينِ رابعِ الشهرِ رجعَ الناسُ مِن مكانِ الوقعةِ إِلَىٰ دمشقَ فبشَّرُوا الناسَ بالنصرِ.

وفِي هذهِ الواقعةِ تجلَّتْ شجاعةُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ وجهادُهُ، وبانَ فضلُهُ للناسِ، فلمَّا انتهَتْ معركةُ شَقْحَبَ، دخلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ البلدَ ومعَهُ أصحابُهُ، ففرحَ الناسُ

بِهِ ودعَوا لَهُ وهنَّئُوهُ بمَا يسَّرَ اللهُ علَىٰ يدَيْهِ منَ الخيرِ، وذلكَ أنَّهُ ندَبَهُ العسكرُ الشاميُّ أَنْ يسيرَ إِلَىٰ السلطانِ يستحثُّهُ علَىٰ السيرِ إِلَىٰ دمشقَ، فسارَ إليهِ فحثَّهُ علَىٰ المجيءِ إِلَىٰ دمشقَ بعدَ أَنْ كادَ يرجعُ إِلَىٰ مصرَ، فجاءَ هوَ وإِيَّاهُ جميعًا، فطلبَ منْهُ السلطانُ أَنْ يقفَ مَعَهُ فِي معركةِ القتالِ، فقالَ لَهُ الشيخُ: السنَّةُ أَنْ يقفَ الرجلُ تحتَ رايةِ قومِهِ، ونحنُ مِنْ جيشِ الشامِ لَا نقفُ إِلَّا معَهُم، وحرَّضَ السلطانَ علَىٰ القتالِ وبشَّرَهُ بالنصرِ وجعلَ يحلِفُ باللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هوَ إِنَّكُم منصورونَ عليهِم هذهِ المرَّةَ، فيقولُ لَهُ الأمراءُ: قُلْ: إِنْ شاءَ اللهُ، فيقولُ: إِنْ شاءَ اللهُ تحقيقًا لَا تعليقًا.

وأفتَىٰ الناسَ بالفطرِ مدَّةَ قتالِهِم وأفطرَ هوَ أيضًا، وكانَ يدورُ علَىٰ الأجنادِ والأمراءِ فيأكلُ مِنْ شيءٍ مَعَهُ فِي يدِهِ ليُعلِمَهُم أنَّ إفطارَهُم ليتَقَوَّوا علَىٰ القتالِ أفضلُ فيأكلُ الناسُ، وكانَ يتأوَّلُ فِي ذلكَ قولَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابةِ عامَ فتحِ مكَّةَ: «**إِنَّكُم مُصَبِّحو عدوِّكُم والفِطرُ أقوَىٰ لَكُم فأفطِرُوا**»[1].

ولَمْ يزَلْ هذَا دأبَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، حتَّىٰ نزلَ النصرُ علَىٰ المسلمينَ، واستظهَرُوا علَىٰ التتارِ، وأمِنُوا فِي ديارِهِم، ورُفِعَ عنْهُمُ البلاءُ، وللهِ الحمدُ والمنَّةُ.

فلمَّا جاءَ الليلُ لجأَ التتارُ إِلَىٰ اقتحامِ التلولِ والجبالِ والآكامِ، فأحاطَ بِهِمُ المسلمونَ يحرسونَهُم مِنَ الهربِ، ويرمُونَهُم عَنْ قوسٍ واحدةٍ إِلَىٰ وقتِ الفجرِ، فقتَلُوا منْهُم مَا لَا يَعلَمُ عددَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وجعلُوا يجيئونَ بِهِم فِي الحبالِ فتُضرَبُ أعناقُهُم، ثمَّ هربَ مِنْهُم جماعةٌ، فنجَا مِنْهُم قليلٌ، وكانُوا يتساقطونَ فِي الأوديةِ والمهالكِ، حتَّىٰ غرقَ مِنْهُم جماعةٌ فِي الفراتِ بسببِ الظلامِ، وكشفَ اللهُ بذلكَ عَنِ المسلمينَ غمَّةً عظيمةً شديدةً.

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٨).

ولمَّا كانَ يومُ الثلاثاءِ الخامسُ مِنْ رمضانَ، دخلَ السلطانُ إلَىٰ دمشقَ فنزلَ فِي القصرِ الأبلقِ، ثمَّ تحوَّلَ إلَىٰ القلعةِ فصلَّىٰ بهَا الجمعةَ، واستقرَّتِ الخواطرُ، وذهبَ اليأسُ وطابَتْ قلوبُ الناسِ، وللهِ تعالَىٰ المنُّ والفضلُ.

ولمَّا رأَىٰ الناسُ حسنَ صنيعِهِ، ومَا يسَّرَ اللهُ علَىٰ يديهِ مِنَ الفتحِ العظيمِ وكفِّ دماءَ المسلمينَ، شكَرُوا لَهُ ذلكَ، وأثنَوا علَيهِ بِمَا يستحقُّهُ مِنَ الثناءِ.

ومَا رأَىٰ الناسُ مثلَ سعادةِ ملكِهِ ومسالمةِ الأيَّامِ لَهُ، وسكونِ الأعادِي مِنْ بعدِ شَقْحَبَ، وإلَىٰ أَن ماتَ لَمْ يتحرَّكْ علَيهِ عدوٌّ فِي البرِّ ولَا فِي البحرِ.

نسألُ اللهَ أَنْ يعيدَ لهذِهِ الأمَّةِ أمجادَهَا، وأَنْ يرحَمَ حالَهَا، وأَنْ يسدِّدَ أقوالَهَا وأفعالَهَا.

❊❊❊

(٧٩) سقوطُ الدولةِ العباسيَّةِ

الحمدُ للهِ الحميدِ فِي وصفِهِ وفعلِهِ، الحكيمِ فِي خلقِهِ وأمرِهِ، الرحيمِ فِي عطائِهِ ومنعِهِ، المحمودِ فِي خفضِهِ ورفعِهِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ فِي كمالِهِ وعظمتِهِ ومجدِهِ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أفضلُ مرسلٍ مِن عندِهِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وجندِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإِنَّ منَ المعلومِ للعقلاءِ أَنَّ الحقَّ والباطلَ لَا زالَا فِي صراعٍ منذُ قيامِ الدنيَا وحتَّىٰ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ علَيهَا، وإِنَّ فِي قصصِ الزمانِ لعبرةً للمعتبرِ وعظةً للمتَّعِظِ، والعاقلُ الفطنُ هوَ الَّذِي يأخذُ مِنْ قصصِ الزمانِ عِبَرًا وعظاتٍ.

ففِي عامِ ستمائةٍ وستةٍ وخمسينَ مِنَ الهجرةِ، كانَ سقوطُ الدولةِ العباسيَّةِ، وانتهاءُ عصرِهَا وأفولُ شمسِهَا، بعدَ أَنِ استمرَّتْ ردحًا مِنَ الزمنِ.

وقَدْ كانَ سقوطُهَا مِنْ أعظمِ المآسِي الَّتِي حلَّتْ بهذِهِ الأمَّةِ، حتَّىٰ صارَتْ غصَّةً فِي حلقِ التاريخِ، وقصَّةً يندَىٰ لهَا جبينُ البشريَّةِ، وتتصدَّعُ لِهَولِهَا الجبالُ الراسياتُ، وعقمَتِ الأيامُ والليالِي أَنْ تلدَ مثلَهَا، وقَدْ حدَثَ بسببِهَا مَا حدثَ مِنَ المحنِ والويلاتِ العظيمةِ الَّتِي جُرَّتْ علَىٰ الأمةِ الإسلاميَّةِ، بسببِ غفلةٍ وحسنِ ظنٍّ وطيبِ نيَّةٍ، استغلَّهَا مَنْ فِي قلبِهِ حقدٌ ودغلٌ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ، وقَدْ باتَ فِي خلدِهِ حلمٌ لَا يغيبُ يتمثَّلُ بتغييرِ الواقعِ المنيرِ إِلَىٰ واقعٍ مظلمٍ بئيسٍ.

وهذهِ هيَ سنَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي خلْقِهِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(١)]، وقالَ نبيُّنا الكريمُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حقٌّ علَىٰ اللهِ ألَّا يرتفعَ شيءٌ منَ الدنيَا إلَّا وضعَهُ»[(٢)].

لِكُلِّ شَيءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنسَانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدتُها دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبقِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... وَلَا يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانُ

فَفِي تلكَ الحِقبةِ الزمنيَّةِ خرجَ التتارُ منَ المشرقِ، وعاثُوا فِي الأرضِ فسادًا، وتسلَّطُوا علَىٰ المسلمينَ فِي كثيرٍ مِنَ الدولِ الإسلاميَّةِ بسببِ تفرُّقِهِم ونزاعِهِم وتخاصُمِهِم، وشرَّدُوهُم كلَّ مُشَرَّدٍ، وفعَلُوا بِهِمْ مَا يعجزُ البيانُ عَنْ وصفِهِ، ومَا هَذَا إلَّا لحكمةٍ يريدُهَا اللهُ سبحانَهُ.

يَذكُرُ أهلُ التاريخِ أنَّ المستنصرَ -والدَ المستعصمِ- كانَ ذَا همَّةٍ عاليةٍ، وشجاعةٍ وافرةٍ، ونفسٍ أبيَّةٍ، وعندَهُ إقدامٌ عظيمٌ، وقَدِ استخدَمَ جيوشًا كثيرةً وعساكرَ عظيمةً فِي الخِلافةِ، كمَا كانَ لَهُ أخٌ يُعرَفُ بالخفاجيِّ، كانَ يزيدُ عليهِ بالشجاعةِ والإقدامِ، وقَدْ ذُكرَ عَنْهُ أنَّهُ كانَ يقولُ: إنْ ملَّكنِي اللهُ الأرضَ لأعبرنَّ بالجيوشِ النهرَ، وأنتزعُ البلادَ منَ التتارِ وأستأصلُهُم.

فلمَّا تُوفِّيَ المستنصرُ تولَّىٰ ابنُهُ المستعصمُ، ومعَ الأسفِ الشديدِ فإنَّ بدايةَ الطامَّةِ والمصيبةِ العظمَىٰ الَّتِي أدَّتْ إلَىٰ سقوطِ دولةِ بنِي العبَّاسِ، أنَّ الخليفةَ المستعصمَ باللهِ -غفرَ اللهُ لَهُ- قَدِ اتَّخذَ وزيرًا خبيثًا رديءَ المذهبِ يُقالُ لَهُ: ابنُ العلقميِّ وذلكَ فِي عامِ ستمائةٍ واثنينِ وأربعينَ مِنَ الهجرةِ.

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) رواه البخاري (٢٨٧٢).

وقَدْ حبَّبَ ابنُ العلقميِّ إِلَىٰ الخليفةِ جمعَ المالِ والتقليلَ منَ العساكرِ، ولَمْ يَعصِمِ المستعصمَ باللهِ فِي وزارَتِهِ، ولَمْ يكُنْ وزيرَ صدقٍ ولَا مرضيَّ الطريقةِ.

وكانَ ابنُ العلقميِّ معاديًا للأميرِ أبِي بكرٍ ابنِ الخليفةِ وأصحابِهِ؛ لأَنَّهُ قَدْ سبَقَ وقامَ أبُو بكرٍ بتأديبِ أهلِ الكرخِ ومحلَّةِ جماعةِ ابنِ العلقميِّ فِي بغدادَ، حينَ سمعَ أَنَّهُم قَدْ تعرَّضُوا لأهلِ السنَّةِ بالأذَىٰ.

وحينذاكَ فقَدْ تملَّكَ الحقدُ مِنَ ابنِ العلقميِّ، وأضمرَ فِي نفسِهِ الغلَّ، واشتدَّ حنقُهُ علَىٰ أهلِ الإسلامِ، وقامَ بتدبيرِ أكبرِ مكيدةٍ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ، ممَّا وقعَ منَ الأمرِ الفظيعِ الَّذِي لَمْ يؤرَّخْ أبشعُ منهُ، منذُ أَنْ بُنِيَتْ بغدادُ وحتَّىٰ وقوعِ هذهِ الحادثةِ.

واجتهَدَ ابنُ العلقميِّ فِي إعدادِ المخططاتِ والمكائدِ، فكانَ يبذلُ كلَّ مَا فِي وسعِهِ لصرفِ جيوشِ الدولةِ العباسيَّةِ، وإسقاطِ أسهمِهِم منَ الديوانِ، فقَدْ بلغَتِ العساكرُ فِي آخرِ أيَّامِ المستنصرِ -والدِ المستعصمِ- قريبًا مِنْ مائةِ ألفِ مقاتلٍ، فمَا زالَ يجتهدُ ابنُ العلقميِّ فِي تقليلِهِم، ويزيِّنُ ذلكَ للخليفةِ بحُجَّةِ تقليلِ النفقاتِ، وحُجَجٍ أخرَىٰ واهيةٍ، حتَّىٰ إِنَّهُ لَمْ يبقَ فِي زمانِ المستعصمِ سوَىٰ عشرةِ آلافٍ.

ثمَّ بعدَ ذلكَ كاتَبَ ابنُ العلقميِّ التتارَ، وأطمعَهُم فِي البلادِ، وسهَّلَ علَيهِم ذلكَ، وحكَىٰ لَهُم حقيقةَ الحالِ، وكشفَ لَهُمْ ضعفَ الرجالِ، وذلكَ طمعًا فِي أَنْ يُزيلَ السنَّةَ بالكليَّةِ، وأَنْ يُظهِرَ البدعةَ، ويقيمَ خليفةً مِنَ الفاطميِّينَ، وأَنْ يبيدَ العلماءَ والمفتينَ، وقَدْ قيلَ:

كُلُّ العَدَاوَاتِ قَدْ تُرجَىٰ مَوَدَّتُهَا ... إِلَّا عداوةَ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

ثمَّ استهلَّتْ سنةُ ستمائةٍ وستةٍ وخمسينَ مِنَ الهجرةِ، وجنودُ التتارِ كانُوا قَدْ نازَلُوا بغدادَ بقيادةِ زعيمِهِم هولاكُو، وسُترَتْ بغدادُ ونُصِبَتْ عليهَا المجانيقُ وغيرُهَا مِن آلاتِ المُمانَعَةِ، ولكِنْ لَا رَادَّ لِمَا قدَّرَ اللهُ، فقَدْ أحاطَتِ التتارُ ببغدادَ، وبدارِ الخلافةِ

بالذاتِ، يرشقونَهَا بالنبالِ مِنْ كلِّ جانبٍ.

وقَدْ قدِمَ هولاكُو بجنودِهِ كلِّهم -وهُمْ نَحوُ مائتَي ألفِ مقاتلٍ- إِلَىٰ بغدادَ، وكانَ شديدَ الحنقِ علَىٰ دولةِ الإسلامِ وأهلِهَا، فجاءَ بتلكَ الجنودِ الكثيرةِ الَّتِي لَا تُحصَىٰ عددًا، فأحاطُوا ببغدادَ مِن ناحيَتِهَا الغربيَّةِ والشرقيَّةِ، وجيوشُ بغدادَ فِي غايةِ القلَّةِ ونهايةِ الذلَّةِ، لَا يبلغونَ عشرةَ آلافِ فارسٍ وهُمْ بقيَّةُ الجيشِ، قَد صُرِفُوا عَنِ استقطاعاتِهِمُ الَّتِي يُعطَونَ إيَّاهَا.

بَلْ ويَذكرُ أهلُ التاريخِ أَنَّ بعضَهُم صارَ يستجدِي فِي الأسواقِ وأبوابِ المساجدِ، وصارَ الجندُ يطلبونَ مَن يستخدِمُهُم فِي حملِ القاذوراتِ، ومنهُمْ مَنْ يكارِي علَىٰ فرسِهِ، ليصِلُوا إِلَىٰ مَا يتقوَّتُونَ بِهِ، حتَّىٰ أنشدَ فيهِمُ الشعراءُ قصائدَ يرثونَ لَهُم، ويحزنونَ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ.

فتأمَّلْ مَا آلَ إليهِ الحالُ مِنْ غايةٍ فِي الضعفِ والذلَّةِ، بسببِ مشورةِ وزيرِ السوءِ ابنِ العلقميِّ؟

وقدْ كانَ أوَّلُ مَن برزَ إِلَىٰ التتارِ عندَمَا قدمُوا بغدادَ هوَ ابنُ العلقميِّ، وقَدْ أشارَ علَىٰ الخليفةِ بالاتفاقِ معَهُم، وقالَ: أَخرُجُ أنَا إلَيهِم فِي تقديرِ الصلحِ وتقريرِهِ، فخرجَ وتوثَّقَ لنفسِهِ منَ التتارِ، ثمَّ رجعَ إِلَىٰ المستعصمِ وقالَ: إنَّ السلطانَ يَا مولانَا أميرَ المؤمنينَ قَد رغبَ فِي أَنْ يزوِّجَ ابنتَهُ بابنِكَ الأميرِ أبِي بكرٍ، ويُبقيكَ فِي منصبِ الخلافةِ كمَا أبقَىٰ صاحبَ الرومِ فِي سلطنَتِهِ، علَىٰ أَن تكونَ الطاعةُ لَهُ، وينصرفَ عنكَ بجيوشِهِ، فلَيتَكَ يَا مولانَا أميرَ المؤمنينَ أَنْ تفعلَ هذَا، فإِنَّ فيهِ حقنَ دماءِ المسلمينَ، وبعدَ ذلكَ يمكنُنَا أَنْ نفعلَ مَا نُريدُ، ثمَّ عادَ وأشارَ علَىٰ الخليفةِ بالخروجِ إِلَىٰ هولاكُو، وأَن يَمثُلَ الخليفةُ العباسيُّ بينَ يدَيهِ، لتقعَ المصالحةُ علَىٰ أَنْ يكونَ نصفُ خَراجِ العراقِ للخليفةِ العباسيِّ المستعصمِ باللهِ، والنصفُ الآخرُ لهولاكُو.

فخَرجَ الخليفةُ المستعصمُ باللهِ فِي سبعمائةِ راكبٍ مِنَ القضاةِ والفقهاءِ ورءوسِ الأمراءِ والأعيانِ، وذلكَ بمشورةِ ابنِ العلقميِّ الَّذِي مَا أرادَ بِهِم خيرًا، فلمَّا اقتربُوا مِن منزلِ السلطانِ هولاكُو، حجَبُوهُم عنِ الخليفةِ وقُتِلُوا عَن آخِرِهِم، ولَمْ يبقَ مَعَ الخليفةِ إلَّا سبعةَ عشرَ نفسًا، وأُحضِرَ الخليفةُ بينَ يدَي هولاكُو فسألَهُ عَنْ أشياءَ كثيرةٍ، فاضطربَ كلامُ الخليفةِ مِن هولِ مَا رأَىٰ مِنَ الإهانةِ والجَبَرُوتِ، ثمَّ عادَ إلَىٰ بغدادَ وفِي صحبتِهِ خوجةُ نصيرُ الطوسيُّ والوزيرُ ابنُ العلقميِّ.

ثمَّ أشارَ أولئكَ الملأُ منَ المنافقينَ علَىٰ هُولاكُو أَنْ يصالِحَ الخليفةَ، فقالَ الوزيرُ ابنُ العلقميِّ -لِكَيدِهِ ومكرِهِ وحقدِهِ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ-: متَىٰ وقعَ الصلحُ علَىٰ المناصفةِ لَا يستمرُّ إلَّا عامًا أَو عامَينِ ثمَّ يعودُ الأمرُ إلَىٰ مَا كانَ عليهِ قبلَ ذلكَ، فحسَّنَ لهولاكُو قتلَ الخليفةِ.

تأمَّلْ!

لمَّا قَدِمَ الخليفةُ إلَىٰ هولاكُو تهيَّبَ -رغمَ جبروتِهِ وطغيانِهِ- مِن قتلِهِ، وذلكَ لقرابَتِهِ مِن رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهوَّن عليهِ الطوسيُّ والوزيرُ ابنُ العلقميِّ ذلكَ، وعندَ ذلكَ أمَرَ بقتلِهِ، قيلَ: إنَّهُ خُنِقَ خنقًا، وقيلَ إنَّهُ أُغرِقَ.

وسبحانَ اللهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(١)، فباءُوا بإثمِهِ وإثمِ مَن كانَ مَعَهُ مِن ساداتِ العلماءِ والقضاةِ والأكابرِ والرؤساءِ والأمراءِ وأولِي الحلِّ والعقدِ فِي بلادِهِ.

ثمَّ بعدَ ذلكَ مَالُوا علَىٰ البلدِ، فقتَلُوا جميعَ مَن قدَرُوا علَيهِ منَ الرجالِ والنساءِ

---

(١) سورة آل عمران:٢٦.

والولدانِ والشيوخِ والكهولِ والشبانِ، ودخلَ كثيرٌ مِنَ الناسِ فِي الآبارِ وأماكنِ الحشُوشِ، وكمنُوا كذلكَ أيَّامًا لَا يظهرونَ.

وكانَ الجماعةُ مِنَ الناسِ يجتمعونَ إِلَىٰ الخاناتِ ويغلقونَ علَيهِمُ الأبوابَ، فيفتَحُهَا التتارُ إمَّا بالكسرِ وإمَّا بالنارِ، ثمَّ يدخلونَ علَيهِمْ فيهربُونَ إِلَىٰ أعلَىٰ الأماكنِ فيقتلونَهُم بالأسطحِ حتَّىٰ تجريَ الميازيبُ منَ الدماءِ فِي الشوارعِ، وكانُوا يدخُلونَ علَيهِم فِي المساجدِ والجوامعِ، ولَم ينجُ مِنهُم أحدٌ سوَىٰ أهلِ الذمَّةِ منَ اليهودِ والنصارَىٰ، ومَنِ التجأَ إِلَيهِم وَإِلَىٰ دارِ الوزيرِ ابنِ العلقميِّ!

وعادَتْ بغدادُ -بعدَ أَنْ كانَت آنسَ المدنِ كلِّهَا- خرابًا، ليسَ فيهَا إلَّا القليلُ مِنَ الناسِ، وهُم فِي خوفٍ وجوعٍ وذلَّةٍ وقلَّةٍ، وقَدِ اختُلِفَ فِي عددِ القتلَىٰ مِمَّنْ ماتَ ببغدادَ مِنَ المسلمينَ فِي هذهِ الواقعةِ، فقيلَ: ثمَانمائةِ ألفٍ، وقيلَ: مليونٌ، وقيلَ: مليونانِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، ولَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

ومازالَ السيفُ يقتلُ أهلَهَا أربعينَ يومًا، وكانَ قتلُ الخليفةِ المستعصمِ باللهِ يومَ الأربعاءِ رابعَ عشرَ مِن شهرِ صفرٍ، وعُفِيَ قبرُهُ ولَم يُعرَفْ، وقُتِلَ مَعَهُ ولداهُ الأكبرُ والأوسطُ، وأُسِرَ ولدُهُ الأصغرُ مباركُ، وأُسِرَتْ أخواتُهُ الثلاثُ فاطمةُ وخديجةُ ومريمُ، وأُسِرَ مِن دارِ الخلافةِ منَ الأبكارِ مَا يُقارِبُ ألفَ بكرٍ فيمَا قيلَ، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ الرجلُ مِن بنِي العبَّاسِ يُستدعَىٰ بهِ مِن دارِ الخلافَةِ، فيخرجُ بأولادِهِ ونسائِهِ، فيُذهَبُ بِهِ إِلَىٰ مقبرةِ الخلالِ، فيُذبَحُ كَمَا تُذبحُ الشاةُ، ويُؤسَرُ مَن يختارونَ مِن بناتِهِ وجوارِيهِ وهوَ فِي غايةِ الذلِّ والمهانةِ الَّتِي تسبَّبَ بِهَا وزيرُ السوءِ ابنُ العلقميِّ.

وكانَ يومًا عظيمًا مِن كثرةِ البكاءِ منَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ، فتفرَّقُوا وتمزَّقُوا كلَّ ممزقٍ، واقتسَمَ التتارُ النساءَ، وارتكبُوا معهُنَّ الفواحشَ، والناسُ ينظرونَ ويبكونَ، ولَا يستطيعونَ أَن يدفعُوا عَنْ أنفسِهِم شيئًا مِمَّا نزلَ بِهِم، وأضحَتِ البلادُ خاويةً علَىٰ

عروشِهَا كأَنْ لَمْ تغنَ بالأمسِ، وقُتلَ الخطباءُ والأئمةُ وحملةُ القرآنِ، وتعطَّلَتِ المساجدُ والجماعاتُ والجمعُ مدَّةَ شهورٍ ببغدادَ.

وأرادَ الوزيرُ ابنُ العلقميِّ -قبَّحَهُ اللهُ ولعنَهُ- أَنْ يعطِّلَ المدارسَ والمساجدَ، ويرفعَ المشاهدَ والقبورَ والأضرحةَ لِمَنْ يزعُمُ أَنَّهُم أولياءُ، ويجعلَ بغدادَ مجالًا للشركِ، وأَنْ يبنيَ لملَّتِهِ مدرسةً هائلةً ينشرونَ بِهَا علمَهُم، والحمدُ للهِ أَنَّ اللهَ لَمْ يُقدِرْهُ علَىٰ ذلكَ، بَلْ أزالَ نعمَتَهُ عنْهُ، وقصفَ عمرَهُ بعدَ شهورٍ يسيرةٍ مِن هذهِ الحادثةِ المؤلمةِ وأتبعَهُ بولدِهِ.

ولمَّا انقضَىٰ الأمرُ المقدَّرُ، وانقضَتِ الأربعونَ يومًا، بقِيَتْ بغدادُ خاويةً علَىٰ عروشِهَا ليسَ بِهَا أحدٌ إلَّا الشاذُّ مِنَ الناسِ، وأصبحَ القتلَىٰ فِي الطرقاتِ كأنَّهُم التلولُ، وقَدْ سقطَ عليهِمُ المطرُ، فتغيَّرَت صورُهُم، وأنتنَتْ جيفُهُم، وتغيَّرَ الهواءُ فحصلَ بسببِهِ الوباءُ الشديدُ، حتَّىٰ تعدَّىٰ وسرَىٰ فِي الهواءِ إِلَىٰ بلادٍ غيرِ بغدادَ فماتَ خلقٌ كثيرٌ مِن تغيُّرِ الجوِّ وفسادِ الريحِ، فاجتمعَ علَىٰ الناسِ الغلاءُ والوباءُ والفناءُ والطعنُ والطاعونُ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ.

ثمَّ بعدَ ذلكَ نوديَ ببغدادَ بالأمانِ فخرجَ مِن تحتِ الأرضِ مَن كانَ بالمطامنِ والمقابرِ كأنَّهُمُ الموتَىٰ إذَا نُبشُوا مِن قبورِهِم، وقَدْ أنكرَ بعضُهُم بعضًا، فَلَا يعرفُ الوالدُ ولدَهُ، ولَا الأخُ أخاهُ!

ثمَّ بعدَ ذلكَ أخذَهُمُ الوباءُ الشديدُ، فتفانَوا وتلاحَقُوا بِمَنْ سبَقَهُم مِن شدَّةِ الأمراضِ والوباءِ، واجتمَعُوا تحتَ الثرَىٰ، بأمرِ الَّذِي يعلمُ السرَّ وأخفَىٰ، اللهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ لَهُ الأسماءُ الحسنَىٰ.

ثمَّ إنَّ هولاكُو -قاتَلَهُ اللهُ- رحلَ عَن بغدادَ إِلَىٰ مقرِّ ملكِهِ، وفوَّضَ أمرَ بغدادَ إِلَىٰ الوزيرِ ابنِ العلقميِّ الَّذِي لَمْ يمهِلْهُ اللهُ ولَا أهمَلَهُ، بَلْ أخذَهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فماتَ

جهدًا وغمًّا وحزنًا وندمًا.

وقَدْ كانَ مُبتَدعًا خبيثًا رديءَ الطويَّةِ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ، وقَدْ حصلَ لَهُ مِنَ التعظيمِ والوجاهةِ فِي أيَّامِ المستعصمِ مَا لَمْ يحصُلْ لغيرِهِ منَ الوزراءِ، إلَّا أنَّهُ مالأَ الكفارَ علَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ، وكانَ نتيجةُ فعلِهِ مَا حَلَّ بالإسلامِ وأهلِهِ منَ البلاءِ، ثمَّ حصلَ لَهُ بعدَ ذلكَ مِنَ الإهانةِ والذلِّ علَىٰ أيدِي التتارِ الَّذِينَ مالأَهُم، وزالَ عنْهُ سترُ اللهِ، وذاقَ الخزيَ فِي الحياةِ الدنيَا، ولعذابُ الآخرةِ -إنْ شاءَ اللهُ- أخزَىٰ وأشدُّ، وقَدْ رأَتْهُ امرأةٌ ذاتَ يومٍ وهوَ فِي الذلِّ والهوانِ، فوقفَتْ إلَىٰ جانبِهِ وقالَتْ: يَا ابنَ العلقميِّ، أهكذَا كانَ بنُو العبَّاسِ يعامِلُونكَ؟!

فوقَعَتْ كلمَتُهَا فِي قلبِهِ، وانقطَعَ فِي دارِهِ إلَىٰ أَنْ ماتَ كمدًا وَغمًّا وضيقًا، وقلةً وذلةً، ودُفِنَ بعدَ ذلكَ فِي قبورِ أهلِ الشركِ وقَدْ سمعَ بأذنَيهِ ورأَىٰ بعينَيْهِ منَ الإهانةِ والذلِّ علَىٰ أيدِي التتارِ والمسلمينَ مَا لَا يُحدُّ ولَا يوصَفُ.

إنَّ هذِهِ القصَّةَ تَذكُرُ لنَا تلكَ المأساةَ العظيمةَ الَّتِي تسبَّبَ بِهَا وزيرُ السوءِ ابنُ العلقميِّ فِي سقوطِ تلكَ الدولةِ الفتيَّةِ دولةِ بنِي العبَّاسِ، الَّتِي كانَت تدينُ لهَا مشارقُ الأرضِ ومغاربُها بالولاءِ والطاعةِ، ثمَّ تمالأَ عليهَا إلَىٰ أَنْ أسقطَهَا حقدًا وضغينةً عَلَىٰ الإسلامِ وأهلِهِ.

إنَّهَا حقًّا قصَّةٌ مؤلمةٌ! فإنَّ هذِهِ الدولةَ لَمْ تنتَهِ نهايةً عاديَّةً، أَو زالَتْ مِن غيرِ ضحايَا، إنَّما زالَتْ وخلَّفَت جراحًا لَا تزولُ مِنَ القلوبِ.

يُؤَرِّقُنِي حَنِينٌ وَادِّكَارُ ... وَقَدْ خَلَتِ المَرَابِعُ وَالدِّيَارُ

تَنَاءَىٰ الظَّاعِنُونَ وَلِي فُؤَادٌ ... يَسِيرُ مَعَ الهَوَادِجِ حَيثُ سَارُوا

حَنِينٌ مِثلَمَا شَاءَ التَّنَائِي ... وَشَوقٌ كُلَّمَا بَعُدَ المَزَارُ

وَلَيلِي بعد بَيْنِهِمُ طَوِيلٌ فَأَينَ مَضَت لَيَالِيَّ القِصَارُ
وَقَدْ حَكَمَ السُّهَادُ عَلَىٰ جُفُونِي تَسَاوَىٰ اللَّيلُ عِندِي وَالنَّهَارُ
سُهَادِي بَعدَ نَأيهمُ كَثِيرٌ وَنَومِي بَعدَ مَا رَحَلُوا غِرَارُ
فَمَن ذَا يَستَعِيرُ لَنَا عُيُونًا تَنَامُ.. وَهَلْ تَرَىٰ عَينًا تُعَارُ؟!
وَكَم مِن قَائِلٍ وَالحَيُّ غَادٍ يُحجِّبُ ظَعنَهُ النَّقعُ المُثَارُ
وُقُوفُكَ فِي الدِّيَارِ وَأَنتَ حَيٌّ وَقَد رَحَلَ الخَلِيطُ عَلَيكَ عَارُ

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ العاقلَ هوَ الَّذِي يستفيدُ مِن دروسِ الزمانِ، حتَّىٰ لَا يقعَ فِي الخطأِ الَّذِي وقعَ فيهِ غيرُهُ، وحتَّىٰ لَا يكونَ ضحيَّةَ مؤامرةٍ قَد وقعَ مثلُهَا فِي سالفِ الأزمانِ، فسنَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَن تتكرَّرَ الوقائعُ والأحداثُ، وصاحبُ البصيرةِ هوَ الَّذِي يقلبُ التاريخَ، ويستفيدُ مِن عِظَاتِهِ.

فكَم هوَ حريٌّ بالمُؤرِّخينَ والعقلاءِ، وولاةِ الأمورِ الَّذِينَ ولَّاهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علَىٰ الناسِ، أَن يطَّلِعُوا علَىٰ قصصِ التاريخِ، ويعرِفُوا مكائدَ العدوِّ، حتَّىٰ لَا يَدخُلَ علَيهِم مِن حيثُ لَا يشعُرُونَ.

ومَن تأمَّلَ فِي هذهِ الواقعةِ المؤلمةِ، رأَىٰ فيهَا العبرَ المهمَّةَ الَّتِي ينبغِي لكلِّ عاقلٍ

أَنْ يحفظَهَا بقلبِهِ، ويجعلَهَا نُصبَ عينَيهِ، ومِن ذلكَ: أنَّهُ يجبُ علَىٰ مَن ولَّاهُ اللهُ أمرَ جماعةٍ منَ المسلمينَ أَن يتَّخِذَ المُعينَ الصالحَ والمستشارَ المؤتمنَ، فإنَّهُ خيرُ عونٍ لَهُ علَىٰ تدبيرِ أمورِ الحُكمِ.

قالَ الإمامُ ابنُ حبَّانٍ البستيُّ: «رؤساءُ القومِ أعظمُهُم هومًا، وأدوَمُهُم غمومًا، وأشغلُهُم قلوبًا، وأشهَرُهُم عيوبًا، وأكثَرُهُم عدوًّا، وأشدُّهُم أحزانًا، وأكثَرُهُم فِي القيامةِ حسابًا، وأشدُّهُم -إن لَم يَعفُ اللهُ عنْهُم- عَذابًا، ومِن أحسنِ مَا يستعينُ بِهِ السلطانُ علَىٰ أسبابِهِ: اتخاذُ وزيرٍ عَفيفٍ ناصحٍ، فإنَّ الوزيرَ إذَا غفلَ الأميرُ ذكَّرَهُ، وإذَا ذكَرَ أعانَهُ، وإنْ سوَّلَت لَهُ نفسُهُ سيِّئَةً صدَّهُ، وإذَا أرادَ طاعةً نشَّطَهُ، فهوَ المحبِّبُ لَهُ إلَىٰ الناسِ، والمستجلِبُ لَهُ دعاءَهُم».

وقالَ بعضُ الأدباءِ: «إنَّ السلطانَ إذَا كانَ صالحًا ووزراؤُهُ وزراءَ سوءٍ منَعُوا خيرَهُ، فلَا يقدرُ أحدٌ أَنْ يدنُو مِنْهُ، ومَثَلُهُ فِي ذلكَ مثلُ الماءِ الطيِّبِ الَّذِي فيهِ التماسيحُ، لَا يقدرُ أحدٌ أَن يتناولَهُ وإن كانَ إلَىٰ الماءِ محتاجًا، وإنَّمَا الملكُ زينَتُهُ أَن يكونَ جندُهُ ووزراؤُهُ ذَوُو صلاحٍ، فيُسَدِّدُونَ أحوالَ الناسِ، وينظُرونَ فِي صلاحِهِم».

وكانَ كسرَىٰ يُعرَفُ بالحكمةِ، ومِن أقوالِهِ: «إنَّمَا المُلْكُ بِالأعوَانِ».

كمَا يجبُ الحذرُ مِن تقريبِ العدوِّ وإبعادِ الصديقِ، فيقالُ: إنَّ سقوطَ دولةِ بنِي أميَّةَ كانَ سببُهُ أنَّهُم أبعَدُوا الصدِيقَ لأنَّهُم قَد أمِنُوا جانِبَهُ، وقرَّبُوا العدوَّ واتخذُوهُ صديقًا حتَّىٰ يأمَنُوا شرَّهُ!

فحدثَ أَن بقيَ العدوُّ علَىٰ عداوَتِهِ بل وازدادَ عداوةً، وأصبحَ الصدِيقُ عدوًّا؛ لأنَّ الصديقَ إذَا حرَمتَهُ، ولَمْ يجِدْ مِنكَ ودًّا ولَا مكانةً، لعلَّهُ لَا يصبرُ فينقلبُ إلَىٰ عدُوٍّ، ولذلكَ إذَا وُجدَ الصديقُ، فإنَّهُ يجبُ أَن يُعطَىٰ المكانةَ الَّتِي تنبغِي لَهُ، وإذَا وُجِدَ الإنسانُ الَّذِي يُرَىٰ مِنْهُ حرصُهُ علَىٰ الأمَّةِ، وعلَىٰ سلامةِ الناسِ وتوجيهِهِم التوجيهَ

السليمَ، فيجبُ أَن يُتَّخَذَ صديقًا، وأَن يُعطَىٰ قدرَهُ الَّذِي ينبغِي لَهُ.

ومنَ الدُّروسِ المُستفادةِ مِن هذَا الحَدَثِ المُؤلِمِ: أَنَّهُ ينبغِي تقويةُ جيشِ المسلمينَ، خصوصًا إذَا كانَت تلكَ البلادُ ممَّا يخافُ عليهَا المسلمُ، ويظنُّهَا بعدَ اللهِ ملجأً إذَا حدثَ أيُّ حادثٍ، فيجبُ تكثيرُ الجيشِ وتقويتُهُم والإغداقُ عليهِم، أَلَا ترَىٰ أنَّ ابنَ العلقميِّ عندمَا أرادَ إضعافَ الدولةِ العباسيَّةِ أضعفَ الجيشَ وقلَّلَهُم وزيَّنَ للحاكِمِ تقليلَ عطائِهِم؟

كمَا يجبُ التبصُّرُ بأحقادِ أعداءِ الإسلامِ للإسلامِ وأهلِهِ، قالَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1]، ولذلكَ يجبُ علَىٰ أهلِ الخيرِ منَ الدعاةِ والمخلصينَ أَن ينتبِهُوا لهذَا غايةَ الانتباهِ، وأَن يقرِّبُوا وجهاتِ النظرِ، وأَن يعلَمُوا أنَّ كثيرًا مِنَ الأمورِ الإفساديَّةِ الموجودةِ يجبُ أَن تُعالَجَ بالحكمةِ وبالدليلِ الشرعيِّ وبالنصيحةِ والهدوءِ وعدمِ الاستفزاز.

نسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَن يقيَ هذهِ الأمَّةَ كلَّ شرٍّ، وأَنْ ينجينَا مِن مكائدِ الكائدينَ وأحقادِ الحاقدينَ.

---

(١) سورة البقرة:١٠٥.

(٨٠) معاويةُ بنُ أبِي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشبهاتُ المغرضينَ

الحمدُ للهِ الحميدِ فِي وصفِهِ وفعلِه، الحكيمِ فِي خلقِهِ وأمرِهِ، الرحيمِ فِي عطائِهِ ومنعِهِ، المحمودِ فِي خَفضِهِ ورفعِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ فِي كمالِهِ وعظمتِهِ ومجدِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أفضلُ مرسَلٍ مِن عندِهِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وجندِهِ.

أمَّا بعدُ:

فمِمَّا لَا جدالَ فيهِ بينَ العقلاءِ أنَّ مِن أعظمِ الناسِ فضلًا، صحابةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِينَ بلغُوا مراتبَ الكمالِ، واهتدَىٰ بِهِمُ الضُّلَّالُ، واختصَّهُمُ اللهُ بأعظمِ الفضائلِ وأطيبِ الخصالِ، ومَا وُجِدَ خُلقٌ إلَّا وقَدْ أخذَ منْهُ الصحابةُ الحَظَّ الأوفرَ، وسبقُوا إليهِ سبقًا عظيمًا.

ومَا كانَ اللهُ تعالَىٰ ليختارَهُم لصحبَةِ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَخُصَّهُم بهذَا الفضلِ العظيمِ، إلَّا لِعلمِهِ سبحانَهُ أنَّهُم أهلٌ لَهُ، قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ اللهَ نظرَ فِي قلوبِ العبادِ، فوجدَ قلبَ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرَ قلوبِ العبادِ فاصطفاهُ لنفسِهِ وابتعثَهُ برسالَتِهِ، ثمَّ نظرَ فِي قلوبِ العبادِ بعدَ قلبِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجدَ قلوبَ أصحابِهِ خيرَ قلوبِ العبادِ فجعلَهُم وزراءَ نبيِّهِ يقاتلونَ علَىٰ دينِهِ».

وهكَذَا كانُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقَدْ صارُوا منارَاتِ هدًىٰ، وشموسًا أضاءَتِ الأرَضِينَ، وأحْيَوا بسيرَتِهِم قلوبًا ميتَةً، ونشطَتْ بعلومِهِم نفوسٌ مريضَةٌ.

وقَدْ جزاهُمُ اللهُ تعالَىٰ بصبرِهِم رفعةً وسُؤددًا، وبوَّأَهُم منزلةً لَا تنبغِي لأحدٍ مِن

بعدِهم، حتَّىٰ جعلَ حبَّهُم ميزانًا للإيمانِ، وبُغضَهُم علامةً علَىٰ النفاقِ.

ومِنْ أولئكَ الصحبِ الكرامِ أميرُ المؤمنينَ معاويةُ بنُ أبِي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي شرَّفَهُ اللهُ بصحبةِ نبيِّهِ، فكانَ مِن أفاضلِ أصحابِهِ، وأصدقِهِم لهجةً وأكثرِهِم حلمًا وعدلًا.

وقَدْ ثبتَ لَهُ منَ الفضائلِ الخاصَّةِ علَىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يدلُّ علَىٰ علوِّ شأنِهِ، ورفيعِ منزلتِهِ، وكريمِ سَجَاياهُ.

ولَوْ لَمْ يكُنْ لَهُ منَ الفضلِ إلَّا شرفَ صحبةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكفَىٰ، فكيفَ وقَدْ خصَّهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفضائلَ وأوصافٍ تدلُّ علَىٰ عظيمِ سابقتِهِ وجليلِ قدرِهِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمَا صحَّ عندَهُم فِي مناقبِ الصحابةِ علَىٰ العمومِ ومناقبَ قريشٍ، فمعاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ داخلٌ فيهِ».

فمِمَّا وردَ فِي فضائلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُ عميرِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تذكُرُوا معاويةَ إلَّا بخيرٍ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**اللهمَّ اجعلْهُ هاديًا مهديًّا واهدِ بهِ**»(١).

وعنِ العرباضِ بنِ ساريةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**اللهمَّ علِّمْ معاويةَ الكتابَ وقِهِ العَذابَ**»(٢).

وعَنْ أمِّ حرامِ بنتِ مِلحَانٍ قالَتْ: «نامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا قريبًا منِّي، ثمَّ استيقظَ يبتسمُ، فقُلْتُ: مَا أضحكَكَ؟ قالَ: **أناسٌ مِن أمَّتِي عُرِضُوا علَيَّ يركبونَ هذَا البحرَ الأخضرَ كالملوكِ علَىٰ الأسرَّةِ**. قالَتْ: فادعُ اللهَ أَنْ يجعلَنِي منْهُم، فدعَا لهَا، ثمَّ

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٦٢٤٤).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٧).

نامَ الثانيةَ ففعلَ مثْلَهَا، فقالَتْ قولَهَا، فأجابَهَا مثلَهَا، فقالَتْ: ادعُ اللهَ أَنْ يجعلَنِي منْهُم. فقالَ: **أنتَ منَ الأوَّلينَ**. فخرجَتْ معَ زوجِهَا عبادةَ بنِ الصامتِ غازيًا أوَّلَ مَا ركبَ المسلمونَ البحرَ معَ معاويةَ، فلمَّا انصرفُوا مِن غزوَتِهِم قافلينَ فنزلُوا الشامَ فقُرِّبَتْ إليهَا دابَّةٌ لتركَبَهَا فصرعَتْهَا فماتَتْ»[1].

وقالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**أولُ جيشٍ مِنْ أمَّتِي يغزونَ البحرَ قَدْ أوجبُوا**، قالَتْ أمُّ حرامٍ: قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أنَا فيهِم؟ قالَ: **أنتَ فيهِم**. ثمَّ قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أوَّلُ جيشٍ مِن أمَّتِي يغزونَ مدينةَ قيصرَ** -أَيْ: القُسطَنطينيَّةَ- **مغفورٌ لَهُم**، فقُلْتُ: أنَا فيهِم يَا رسولَ اللهِ ؟ قالَ: **لَا**»[2].

قالَ أهلُ العلمِ: هذَا الحديثُ فيهِ منقبةٌ لمعاويةَ بنِ أبِي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذلكَ لأنَّهُ أوَّلُ مَن غزَا البحرَ، ومعنَىٰ «أوجبُوا»؛ أَيْ: فَعلُوا فعلًا وجبَتْ لَهُم بهِ الجنَّةُ، أَو: أوجبُوا لأنفسِهِمُ المغفرةَ والرحمةَ.

ومِنْ فضائلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ كانَ أحدَ كُتَّابِ الوحيِ:

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانَ المسلمونَ لَا ينظرونَ إلَىٰ أبِي سفيانَ ولَا يقاعدُونَهُ، فقالَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا نبيَّ اللهِ، ثلاثٌ أعطِنيهنَّ. قالَ: **نعَمْ**. قالَ: عندِي أحسَنُ العربِ وأجملُهُ أمُّ حبيبةَ بنتُ أبِي سفيانَ أزوجكَهَا. قالَ: **نعَمْ**. قالَ: ومعاويةُ تجعلُهُ كاتبًا بينَ يديكَ. قالَ: **نعَمْ**. قالَ: وتُؤَمِّرُنِي حتَّىٰ أقاتلَ الكفارَ كمَا كنتُ أقاتلَ المسلمينَ. قالَ: **نعَمْ**»[3].

قالَ الإمامُ أحمدُ: مُعَاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كاتبُهُ وصاحبُهُ وصهرُهُ وأمينُهُ علَىٰ وحيهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) رواه البخاري (٢٧٩٩)، ومسلم (١٩١٢).
(٢) رواه البخاري (٢٩٢٤)، ومسلم (١٩١٢).
(٣) رواه مسلم (٢٥٠١).

ومِنْ فضائلِهِ: أنَّهُ خالُ المؤمنينَ، قالَ أبُو يعلَىٰ: «ويسمَّىٰ إخوةُ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ أخوالَ المؤمنينَ، ولسنَا نُريدُ بذلكَ أنَّهُم أخوالٌ فِي الحقيقةِ، كأخوالِ الأمهاتِ منَ النسبِ، وإنَّمَا نريدُ أنَّهُم فِي حكمِ الأخوالِ فِي بعضِ الأحكامِ، وهوَ التعظيمُ لَهُم».

وقالَ هارونُ بنُ عبدِ اللهِ لأحمدَ بنِ حنبلٍ: «جاءَنِي كتابٌ منَ الرَّقةِ أنَّ قومًا قالُوا: لَا نقولُ: معاويةُ خالُ المؤمنينَ، فغضبَ وقالَ: مَا اعتراضُهُم فِي هذَا الموضعِ؟ يُجفَوْنَ حتَّىٰ يتوبُوا».

وَقِيلَ للإمام أحمدَ: «أقولُ: معاويةُ خالُ المؤمنينَ، وابنُ عمرَ خالُ المؤمنينَ؟ قالَ: نعَمْ معاويةُ أخُو أمِّ حبيبةَ بنتِ أبِي سفيانَ زوجِ النبيِّ ﷺ، وابنُ عمرَ أخُو حفصةَ زوجِ النبيِّ ﷺ».

ومِنْ مناقبِهِ: أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولَّاهُ علَىٰ الشامِ، وأقرَّهُ عثمانُ أيضًا مدَّةَ خلافتِهِ كلِّهَا، وحسبُكَ بِمَنْ يولِّيهِ عمرُ وعثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا علَىٰ الشامِ نحوًا مِنْ عشرينَ سنةً فيضبطُهُ ولَا يُعرَفُ عنهُ عجزٌ ولَا خيانةٌ.

قالَ أهلُ العلمِ: «واتفاقُ كلٍّ مِن عمرَ بنِ الخطابِ وعثمانَ بنِ عفانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهمَا مَن هُمَا فِي الفضلِ والصُّحبةِ، ولهُمَا المكانُ الأعلَىٰ والمثلُ منَ الورعِ والدينِ والتُّقَىٰ وسدادِ الرأيِ وحسنِ الفكرِ وتمامِ النظرِ علَىٰ تأميرِ معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علَىٰ الشامِ لهُوَ أكبرُ دليلٍ علَىٰ فضلِ معاويةَ واستحقاقِهِ لهذِهِ المنزلةِ».

وقالَ الذهبيُّ: «حسبُكَ بِمَنْ يؤمِّرُهُ عمرُ ثمَّ عثمانُ علَىٰ إقليمٍ -وهوَ ثغرٌ- فيضبطُهُ ويقومُ بِهِ أتمَّ قيامٍ ويرضَىٰ الناسُ بسخائِهِ وحلمِهِ.. فهذَا الرجلُ سادَ وساسَ العالمَ بكمالِ عقلِهِ وفرطِ حلمِهِ، وسعةِ نفسِهِ وقوةِ دهائِهِ.. وكانَ محببًا علَىٰ رعيَّتِهِ، عملَ علَىٰ نيابةِ الشامِ عشرينَ سنةً والخلافةِ عشرينَ سنةً، ولَمْ يهْجُهُ أحدٌ فِي دولتِهِ، بَلْ

دانَتْ لَهُ الأممُ وحكمَ علَىٰ العربِ والعجمِ».

وقَدْ أقامَ فِي إمارتِهِ علَىٰ دمشقِ الشامِ هذهِ المدةَ الطويلةَ، فلَمْ يَشكُ أحدٌ مِنْهُ، ولَا اتَّهَمَهُ بجورٍ ولَا مظلمةٍ، بَلْ ساسَ الناسَ بالعدلِ والحلمِ فسُرَّتْ بهِ البلادُ، واغتبطَ بهِ العبادُ.

قالَ هشامُ بنُ عروةٍ: صلَّىٰ بنَا عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ يومًا منَ الأيامِ فوجمَ بعدَ الصلاةِ ساعةً، فقالَ الناسُ: لَقَدْ حدَّثَ نفسَهُ، فقالَ: لَا يبعُدنَّ ابنُ هندٍ، إنْ كانَتْ فيهِ لمخارجُ لَا نجدُهَا فِي أحدٍ بعدَهُ أبدًا، واللهِ إن كنَّا لنَفرَقُهُ ومَا الليثُ علَىٰ براثنِهِ بأجرأَ منهُ فيتفارقُ لنَا، وإن كنَّا لنخدعُهُ ومَا ابنُ ليلةٍ مِن أهلِ الأرضِ بأدهَىٰ مِنْهُ فيتخادعُ لنَا، واللهِ لوددتُ أنَّا مُتِّعنَا بهِ مَا دامَ فِي هذَا الجبلِ حجرٌ -وأشارَ إلَىٰ أبِي قبيسٍ- لَا يتحوَّلُ لَهُ عقلٌ، ولَا ينقصُ لَهُ قوةٌ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا رأيتُ رجلًا كانَ أخلقَ للمُلْكِ مِن معاويةَ، كانَ الناسُ يردونَ منْهُ علَىٰ أرجاءِ وادٍ رحبٍ، ولَم يكُنْ بالضيقِ الحصرِ المتغضبِ.

وذكرَ قومٌ عندَ الأعمشِ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ وعدلَهُ، فقالَ الأعمشُ: فكيفَ لَو أدركتُم معاويةَ؟ قالُوا: فِي حِلمِهِ؟ قالَ: لَا واللهِ؛ بَلْ فِي عَدلِهِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية: وكانَت سيرةُ معاويةَ معَ رعيَّتِهِ مِن خيارِ سيرةِ الولاةِ، وكانَ رعيَّتُهُ يحبونَهُ، وقَدْ ثبتَ فِي الصحيحينِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**خيارُ أئمتِكُمُ الَّذِينَ تحبُّونَهُم ويحبُّونَكُم، وتصلُّونَ عليهِم ويصلُّونَ علَيكُم، وشرارُ أئمتِكُمُ الَّذِينَ تبغضونَهُم ويبغضونَكُم، وتلعنونَهُم ويلعنونَكُم**»[1].

وقالَ قبيصةُ بنُ جابرٍ: مَا رأيتُ أحدًا أعظمَ حلمًا ولَا أكثرَ سؤددًا ولَا أبعدَ أناةً

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).

ولَا أَلينَ مخرجًا، ولَا أرحبَ باعًا بالمعروفِ مِن معاويةَ.

وقالَ بعضُهُم: أسمعَ رَجُلٌ معاويةَ كلامًا سيئًا شديدًا، فقيلَ لَهُ: لَو سطَوتَ علَيهِ؟ فقالَ: إنِّي لأَستحِي منَ اللهِ أَن يضيقَ حلْمِي عَنْ ذنبِ أحدٍ مِن رعيَّتِي.

وفِي روايةٍ قالَ لَهُ رجلٌ: يَا أميرَ المؤمنينَ، مَا أحلمَكَ؟ فقالَ: إنِّي لأَستحِي أَن يكونَ جرمُ أحدٍ أعظمَ مِن حلمِي.

قالَ الزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عملَ معاويةُ بسيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ سنينَ لَا يخرمُ منهَا شيئًا.

وقالَ ابنُ خلدونَ: إنَّ دولةَ معاويةَ وأخبارَهُ كانَ ينبغِي أَن تلحقَ بدولِ الخلفاءِ الراشدينَ وأخبارِهِم، فهوَ تاليهِم فِي الفضلِ والعدالةِ والصحبةِ.

وكانَ معاويةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُحسنُ سياسةَ المُلكِ، ويَزِنُ الأمورَ علَىٰ وجهِهَا، فلمَّا قدمَ عمرُ الشامَ تلقَّاهُ معاويةُ فِي موكبٍ عظيمٍ، فاستنكرَ عمرُ ذلكَ، واعتذرَ لَهُ معاويةُ بقولِهِ: إنَّا بأرضٍ جواسيسُ العدوِّ فيهَا كثيرةٌ، فيجبُ أَن نُظهِرَ مِن عزِّ السلطانِ مَا يكونُ فيهِ عزٌّ للإسلامِ وأهلِهِ ونُرهِبُهُم بِهِ.

فقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ لعمرَ: مَا أحسنَ مَا صدرَ عمَّا أوردتَهُ فيهِ يَا أميرَ المؤمنينَ، فقالَ عمرُ: مِن أجلِ ذلكَ جشمنَاهُ مَا جشمنَاهُ.

وجاءَ عَنْ معاويةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كانَ إذَا لقيَ الحسنَ بنَ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: مرحبًا بابنِ رسولِ اللهِ وأهلًا، و يأمرُ لَهُ بثلاثمائةِ ألفٍ، وإذَا لقيَ ابنَ الزبيرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: مرحبًا بابنِ عمَّةِ رسولِ اللهِ وابنِ حوارِيِّهِ، ويأمرُ لَهُ بمائةِ أَلفٍ.

ولمَّا قُتِلَ عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجاءَ الحسنُ بنُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلَىٰ معاويةَ، قالَ لَهُ معاويةُ: لَو لَمْ يكُن لكَ فضلٌ علَىٰ يزيدَ إلَّا أَنَّ أَمَّكَ مِن قريشٍ وأَمَّهُ امرأةٌ مِن كلبٍ، لكانَ لكَ عليهِ فضلٌ، فكيفَ وأُمُّكَ فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: واللهِ لَا أُخيَّرُ بينَ أمرينِ، بينَ اللهِ وبينَ غيرِهِ، إلَّا اخترتُ اللهَ علَىٰ مَا سواهُ.

ومعَ مَا أعطاهُ اللهُ وفتحَ عليهِ منَ المُلكِ كانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زاهدًا منصرفًا عنِ الدنيَا.

فعَن أبِي حملةَ قالَ: رأيتُ معاويةَ علَىٰ المنبرِ بدمشقَ يخطبُ الناسَ وعليهِ ثوبٌ مرقوعٌ.

وقالَ يونسُ بنُ ميسرةَ الزاهدُ: رأيتُ معاويةَ فِي سوقِ دمشقَ وهوَ مُردِفٌ وراءَهُ وصيفًا وعلَيهِ قميصٌ مرقوعُ الجيبِ ويسيرُ فِي أسواقِ دمشقَ.

ولأجلِ نقاءِ قلوبِهِم وحُسنِ سريرَتِهِم وصفاءِ عقيدَتِهِم، فقَدْ كانَ سلفُ الأمةِ وأهلُ السنَّةِ يحبُّونَ معاويةَ ويعرفُونَ لَهُ قدرَهُ، ولَا يذكرونَهُ إلَّا بجميلِ مَا يعرفونَهُ عنْهُ.

قيلَ لابنِ عبَّاسٍ: هلْ لكَ فِي أميرِ معاويةَ فإنَّهُ مَا أوترَ إلَّا بواحدةٍ، قالَ: إنَّهُ فقيهٌ.

وقالَ أبُو الدرداءِ: مَا رأيتُ أحدًا أشبهَ صلاةً برسولِ اللهِ مِن أميرِكُم هذَا -يعنِي: معاويةَ-، قيلَ لقيسٍ: أينَ صلاتُهُ مِن صلاةِ عمرَ؟ قالَ: لَا أظنُّهَا إلَّا مثلَهَا.

وقيلَ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ: أيُّهُمَا أفضلُ: معاويةُ بنُ أبِي سفيانٍ أمْ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟ فقالَ: واللهِ إنَّ الغبارَ الَّذِي دخلَ فِي أنفِ معاويةَ معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ مِنْ عمرَ بألفِ مرَّةٍ، صلَّىٰ معاويةُ خلفَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، فقالَ معاويةُ: ربَّنَا ولكَ الحمدُ، فمَا بعدَ هذَا؟

وسألَ رجلٌ المعافَىٰ بنَ عمرانَ فقالَ: يَا أبَا مسعودٍ، أينَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ مِن معاويةَ بنِ أبِي سفيانٍ؟!

فرأيتُهُ غَضِبَ غضبًا شديدًا وقالَ: لَا يُقاسُ بأصحابِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ، معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كاتبُهُ وصاحبُهُ وصهرُهُ وأمينُهُ علَىٰ وحيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقيلَ لحمَّادِ بنِ أسامةَ: أيُّهُمَا أفضلُ معاويةُ أَو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟

فقالَ: لَا يُقاسُ بأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيرُ الناسِ قرنِي**»(١).

وقالَ أبُو بكرٍ المروذيُّ: قلتُ لأبِي عبدِ اللهِ -أحمدَ بنِ حنبلٍ- أيُّهُمَا أفضلُ: معاويةُ أَو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟ فقالَ: معاويةُ أفضلُ، لسنَا نقيسُ بأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيرُ الناسِ قرنِي الَّذِي بُعِثْتُ فيهِم**»(٢).

وعَن مجاهدٍ قالَ: لَو رأيتُم معاويةَ لقُلتُم هذَا المهديُّ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لَهُ علَىٰ إحسانِهِ العامِّ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تفرَّدَ بالكمالِ والتمامِ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصابيحِ الظلامِ.

أمَّا بعدُ:

فلمَّا لَمْ يُرِدِ اللهُ بأقوامٍ خيرًا خاضُوا فِي أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحمَلُوا علَيهِم بالطعنِ والثلبِ.

وهذَا منَ النفاقِ المبينِ، والإثمِ العظيمِ، وقَد قالَ أبُو زرعةَ الرازِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذَا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحدًا مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلَمْ أنَّهُ زنديقٌ؛ لأنَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) التخريج السابق نفسه.

الرسولَ ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآنَ حقٌّ، وإنَّمَا أدَّىٰ إلينَا هذَا القرآنَ والسننَ أصحابُ رسولِ اللهِ، وإنَّمَا يريدونَ أَن يجرحُوا شهودَنَا ليُبطِلُوا الكتابَ والسنَّةَ، والجرحُ بهِم أولَىٰ، وهمُ زنادقةٌ».

وقالَ الإمامُ أحمدُ: «إذَا رأيتَ الرجلَ يَذكرُ أحدًا مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بسوءٍ، فاتَّهِمْهُ علَىٰ الإسلامِ».

وقَدْ خصَّ أولئكَ الضُّلَّالُ أميرَ المؤمنينَ معاويةَ -صاحبَ رسولِ اللهِ ﷺ- يداهنونَ بذلكَ أهلَ البدعِ والأهواءِ، ويريدونَ التوصُّلَ إلَىٰ قلوبِهِم مِن خلالِ هذَا الفعلِ المشينِ، طمعًا فِي الحصولِ علَىٰ جاهٍ أَوِ التَّوَصُّلِ إلَىٰ دنيَا، وقَد قالَ أبُو عبدِ الرحمنِ النسائيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّمَا الإسلامُ كدارٍ لهَا بابٌ، فبابُ الإسلامِ الصحابةُ، فمَن آذَىٰ الصحابةَ إنَّمَا أرادَ الإسلامَ، كمَن نَقرَ البابَ إنَّمَا يريدُ دخولَ الدارِ، قالَ: فمَن أرادَ معاويةَ فإنَّمَا أرادَ الصحابةَ».

وقالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ: مَا لَهُم ولمعاويةَ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وقَدْ عمدَ أولئكَ الضُّلَّالُ إلَىٰ اختلاقِ الأكاذيبِ المرجفةِ للتنفيرِ منْهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وتطرَّقُوا لِمَا شجرَ بينَ الصحابةِ مِن قتالٍ، وملئُوا قلوبَ الناسِ بالأحقادِ حتَّىٰ عادَتْ كقلوبِهِم سوداءَ مظلمةً.

فذكرُوا مَا حدثَ بينَ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومعاويةَ منَ القتالِ الَّذي كانَ عَنِ اجتهادٍ ولَم يكُنْ بحثًا عَن مُلكٍ ولَا دنيَا، وشنَّعُوا علَىٰ معاويةَ أشدَّ التشنيعِ.

ومعاويةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَم يُردِ الحكمَ ولَا اعترضَ علَىٰ إمامةِ عليِّ بنِ أَبِي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بَل طالبَ بتسليمِهِ قتلةَ عثمانَ ثمَّ يدخُلُ فِي طاعَتِهِ بعدَ ذلكَ، وقَدْ جاءَ أَبُو مسلمٍ الخولانيُّ وناسٌ معَهُ إلَىٰ معاويةَ فقالُوا لَهُ: أنتَ تنازعُ عليًّا أَمْ أنتَ مثلُهُ؟

فقالَ معاويةُ: لَا واللهِ، إنِّي لأعلمُ أنَّ عليًّا أفضلُ منِّي، وإنَّهُ لأحقُّ بالأمرِ منِّي، ولكِنْ ألستُمْ تعلمونَ أنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلومًا، وأنَا ابنُ عمِّهِ، وإنَّمَا أطلبُ بدمِ عثمانَ، فأْتُوهُ فقولُوا لَهُ فلْيدفَعْ إليَّ قتلةَ عثمانَ وأسلِّمُ لَهُ فأتَوْا عليًّا فكلَّموهُ بذلكَ فلَمْ يدفَعْهُم إليهِ.

وكانَ عليٌّ مجتهدًا فِي ذلكَ أيضًا، فلَم يستطِعْ أَن يقتصَّ منَ القتلةِ ولَم يستقرَّ لَهُ الأمرُ بعدُ، وطالَمَا كانَ معاويةُ يقولُ: مَا قاتلتُ عليًّا إلَّا فِي أمرِ عثمانَ.

ولكِنْ لأنَّ هؤلاءِ الضلَّالَ أرادُوا مغازلَةَ أهلِ البدعِ جعلُوا مثلَ هذَا الكلامَ وسيلةً لتحقيقِ مقاصدِهِم.

ومثلُهُ مَن يشيعُ أنَّ معاويةَ أمرَ بسبِّ عليٍّ مِن علَىٰ المنابرِ، وهذَا كذبٌ، وليسَ لَهُ دليلٌ ثابتٌ، ودِينُ معاويةَ يمنعُ مِن هذهِ الشبهةِ، ومَا يذكرُهُ بعضُ المؤرخينَ مِن ذلكَ فلَا يُلتَفَتُ إليهِ، فهُم يتخوَّضُونَ بلَا حُجةٍ ولَا دليلٍ، ولَا يفرِّقُونَ بينَ صحيحٍ وسقيمٍ.

وقَد جاءَ عَن أبِي زرعةَ الرازِي أنَّهُ قالَ لَهُ رجلٌ: إنِّي أبغضُ معاويةَ. فقالَ لَهُ: ولِمَ؟ قالَ: لأنَّهُ قاتلَ عليًّا. فقالَ لَهُ أبُو زرعةَ: ويْحَكَ، إنَّ ربَّ معاويةَ ربٌّ رحيمٌ، وخصْمُ معاويةَ خصمٌ كريمٌ، فإيشَ دخولُكَ أنتَ بينَهُمَا؟

هذَا وإنَّ مِن سعادةِ المسلمِ أَن يمتلئَ قلبُهُ محبَّةً وإجلالًا لصحابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَنْ يعرفَ لَهُم فَضْلَهم وسابقتَهُم، ومِن عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهِم لأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُم أهلُ الفضلِ والسبقِ، فلولَاهُم بعدَ اللهِ لَمْ يَصِلْ إلينَا هذَا الدِّينُ نقيًّا واضحًا لَا لبسَ فيهِ ولَا إيهامَ.

وإنَّ مِن تمامِ توفيقِ العبدِ أَن يقتفيَ آثارَهُم، وأَن يوقِّرَهُم ويجلَّهُم لإجلالِ اللهِ تعالَىٰ لَهُم، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

فَلا بدَّ مِن معرفةِ فضلِهِم، ومِن ذلكَ الترضِّي عَنهُم لِما خصَّهَمُ اللهُ بِهِ منَ الفضلِ والكرامةِ والإحسانِ، فإنَّ مِن علاماتِ السنِّيِّ الموفَّقِ الترضِّي عَن أصحَابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن علاماتِ توقيرِهِم: سلامةُ القلبِ لَهُم، واستشعارُ محبَّتِهِم فِي القلوبِ، واليقينُ بأنَّهُم خيرُ هذِهِ الأمَّةِ.

وإنَّ مِن علاماتِ الشقاءِ والبؤسِ والندمِ: الطعنَ بأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسبِّ والشتمِ أَوِ التنقُّصَ لَهُم، أَو أَن يجدَ فِي قلبِهِ علَيهِم شيئًا مِنَ الغيظِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تسبُّوا أصحابِي، فوَالَّذِي نفسِي بيدِهِ لَو أنَّ أحدَكُم أنفقَ مثلَ أحُدٍ ذهَبًا مَا أدركَ مُدَّ أحدِهِم ولَا نصيفَهُ**»[٢]، وهذَا خطابٌ لِمَنْ أسلمَ بعدَ فتحِ مكَّةَ مِنَ الصحابةِ، فكيفَ بِمَنْ بعدَهُم؟

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سبَّ أصحابِي فعلَيهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ**»[٣]، وقالَ: «**لعنَ اللهُ مَن سبَّ أصحابِي**»[٤].

ومِنَ السبِّ: التنقُّصُ لَهُم بذكرِ الرواياتِ الملفَّقَةِ الَّتِي لَا تليقُ بمثْلِهِم، أَو الاستهزاءُ بِهِم بأيِّ صورةٍ كانَت.

كمَا أنَّ الواجبَ الحذرُ منَ الخوضِ فيمَا جرَىٰ بينَ الصحابةِ منَ القتالِ، حتَّىٰ

---

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) رواه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (٤٦١٠).

(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٤٠).

(٤) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٤٢).

يحملَ ذلكَ العَبدَ علَىٰ أَنْ يتنقصَ فريقًا مِنْهُم، أَو يبغضَ أحدًا منهُم، فيكونُ قَد تعرَّضَ لمقتِ اللهِ وغضبِهِ، ومِن عقيدَةِ أهلِ السنَّةِ أنَّهُ لَا يجوزُ الخوضُ فيمَا جرَىٰ بينَ الصحابةِ، والعاقلُ مَنِ اشتغلَ بعيوبِ نفسِهِ، لَا أَن يجلسَ ناقدًا لعيوبِ خيرِ الورَىٰ بعدَ الأنبياءِ، وكأَنَّهُ قَد بلغَ منزلةَ التمَامِ.

❀❀❀

(٨١) علاماتُ الساعةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي أسبغَ نعمَهُ علينَا باطنةً وظاهرةً، ولَم تزَلْ ألطافُهُ علَىٰ عبادِهِ متواليةً متظاهرةً، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صاحبُ الآياتِ الباهِرَةِ، صلَّىٰ اللهُ علَيْهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ النجومِ الزاهرَةِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلَ لانتهاءِ هذهِ الدنيَا وزوالِهَا وقتًا محددًا وأجلًا مقدرًا، لَا تتقدَّمُ عنهُ ولَا تتأخَّرُ.

هذَا وإنَّ مَا بقيَ مِنَ الدنيَا بالنسبةِ لِمَا مضَىٰ مِنهَا قليلٌ، وقَدْ ضربَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثلَ لذلكَ فقالَ: «**إنَّمَا بقاؤُكُم فِيمَا سَلَفَ قبلَكُم منَ الأممِ كمَا بينَ صلاةِ العصرِ إلَىٰ غروبِ الشَّمسِ**»[1].

فِفِي هذَا الحديثِ مثَّلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيَا بيومٍ مِن أيامِهَا، فيكونُ مَا مضَىٰ مِن عمرِ الدنيَا بالنسبةِ لذلكَ اليومِ كمَا بينَ الفجرِ إلَىٰ العصرِ، ويكونُ الباقِي مِن عمرِهَا كمَا بينَ العصرِ والمغربِ، وهذَا فِي زمنِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيفَ بزمَنِنَا هذَا؟!

فإذَا جاءَ الوعدُ الحقُّ أَذِنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بانصِرامِ هذهِ الدنيَا وانتهاءِ وقتِهَا، وحينئذٍ تقومُ الساعةُ لردِّ الناسِ إلَىٰ مولَاهُمُ الحقِّ فينبِّئُهُم بِمَا كانُوا يعمَلُونَ.

وقدِ اختصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمِ الساعةِ، فلَا يعلمُ وقتَهَا أحدٌ لَا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولَا نبيٌّ

(١) رواه البخاري (٦٩١٣).

مرسلٌ، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾[١].

ولحكمَتِهِ البالغةِ فقَدْ جعلَ سبحانَهُ لاقترابِ يوم القيامةِ أمورًا تتقدَّمُهُ، وعلاماتٍ تدلُّ عليهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[٢]، وهذِهِ الأشراطُ هيَ العلاماتُ الدالَّةُ علَىٰ قُربِ قيامِ الساعَةِ.

والإيمانُ بعلاماتِ الساعةِ منَ الإيمانِ بالغيبِ الَّذِي امتدحَ اللهُ سبحانَهُ مَنِ اتَّصفَ بِهِ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

هذَا وإنَّ مِن أعظمِ الحِكَمِ فِي تقدُّمِ هذِهِ العلاماتِ والأشراطِ ودلالةِ الناسِ عليهَا، تنبيهَ الناسِ مِن رقدَتِهم وحثَّهُم علَىٰ الاحتياطِ لأنفُسِهم بالتوبةِ والإنابةِ، كَي لَا يُباغَتُوا بالحَوْلِ بينَهُم وبينَ تدارُكِ العوارضِ منهُم، فينبغِي للناسِ أَن يكونُوا بعدَ ظهورِ أشراطِ الساعةِ قَد نظرُوا لأنفسِهم، وانقطَعُوا عنِ الدنيَا، واستعدُّوا للساعةِ الموعودِ بهَا.

ووقوعُ علاماتِ الساعةِ ومَا فيهَا منَ الأمورِ الغيبيَّةِ دليلٌ علَىٰ صدْقِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعَلَمٌ علَىٰ نبوَّتِهِ، حيثُ أخبرَ عَن أمورٍ غيبيَّةٍ لَا تُدرَكُ بالظنِّ والخرصِ، وقَد حصَلَتْ عَلَىٰ وَفقِ مَا أخبرَ بِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

كمَا أنَّ معرفَةَ علاماتِ الساعةِ والإيمانَ بهَا ومشاهدةَ مَا نطقَ بِهِ النصُّ منْهَا، ممَّا يُثَبِّتُ قلوبَ المؤمنينَ، ويزيدُهُم إيمانًا وتصديقًا، ويعينُهُم علَىٰ الصبرِ علَىٰ الطاعةِ وملازمةِ العملِ الصَّالحِ، لمعرفَتِهم بقربِ أُفُولِ شمسِ هذهِ الدنيَا، فلَا يستطيلُونَ بلاءً

(١) سورة النازعات:٤٢-٤٣.

(٢) سورة محمد:١٨.

(٣) سورة البقرة:٣-٥.

ولَا يغترُّونَ بنعيمٍ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وممَّا لا بُدَّ مِن معرفَتِهِ أَنَّ علاماتِ الساعةِ منهَا علاماتٌ صغرَىٰ، وهيَ الَّتِي تتقدَّمُ الساعةَ بأزمانٍ متفاوتةٍ، وتكونُ مِن نوعِ المعتادِ غالبًا، كظهورِ الجهلِ وشربِ الخمرِ.

ومنهَا العلاماتُ الكبرَىٰ، وهيَ أمورٌ عظامٌ غيرُ معتادةِ الوقوعِ، تقعُ متتابعةً ويعقُبُهَا قيامُ الساعةِ، فإذَا وقعَتِ الأولَىٰ تلَتْهَا الثانيةُ بأسرعِ وقتٍ، كمَا قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الآياتُ خَرَزاتٌ منظوماتٌ فِي سلكٍ، فإِن يُقطَع السلكُ يَتبَع بعضُهَا بَعضًا»**(٢).

وهذِهِ العلاماتُ الكبرَىٰ هيَ الَّتِي صحَّ بهَا حديثُ حُذيفَةَ بنِ أَسِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيثُ قالَ: «اطَّلَعَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينَا ونحنُ نتذَاكَرُ، فقالَ: **مَا تذاكَرُونَ؟** قالُوا: نذكرُ الساعةَ، قالَ: **إنَّهَا لَن تقومَ حتَّىٰ ترَوا قبلَهَا عشرَ آياتٍ: فذكَرَ الدخانَ، والدَّجالَ، والدابَّةَ، وطلوعَ الشمسِ مِن مغرِبِهَا، ونزولَ عيسَىٰ بنِ مريمَ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خسفٌ بالمشرقِ، وخسفٌ بالمغربِ، وخسفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلكَ نارٌ تخرجُ مِنَ اليمنِ تطردُ الناسَ إلَىٰ محشَرِهِم»**(٣).

والعلاماتُ الكبرَىٰ لَم يقَعْ منهَا شيءٌ بعدُ، أمَّا الصغرَىٰ فمنْهَا مَا وقعَ وانقضَىٰ، كانشقاقِ القمرِ علَىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنْهَا مَا لَمْ يقَعْ إلَىٰ الآنَ كانحسارِ الفراتِ عَن جبَلٍ مِن ذَهَبٍ، ومنْهَا مَا وقعَ ولَا يزالُ مستمرًّا فِي الوقوعِ كتطاولِ الحُفَاةِ العراةِ العالةِ رعاءَ الشاءِ فِي البنيانِ.

ولَا يعنِي كونُ الشيءِ مِن علاماتِ الساعةِ أنَّهُ شرٌّ، فعلاماتُ الساعةِ منْهَا مَا هوَ

(١) سورة هود: ٢٠.

(٢) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٦٢).

(٣) رواه مسلم (٥١٦٢).

خيرٌ، ومنْهَا مَا هوَ شرٌّ، فبعثةُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علامةٌ مِن علاماتِ الساعةِ وهيَ أعظمُ الخيرِ علَىٰ الإطلاقِ، ودليلٌ علَىٰ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للخليقةِ، وكثرةُ الزنَا مِن علاماتِ الساعةِ وهوَ شرٌّ.

هذَا وإنَّهُ لَا يجوزُ أَن تُفَسَّرَ حادثةٌ علَىٰ أَنَّهَا مِن علاماتِ الساعةِ حتَّىٰ يدلَّ الدليلُ علَىٰ ذلكَ، وأَنْ يتَّضِحَ ذلكَ وضوحًا جليًّا لَا لَبْسَ فيهِ، فإنَّ الخطأَ عندَ بعضِ الناسِ أنَّهُ إذَا وقعَتْ واقعةٌ أَو حدثَ حادثٌ مَا، ولَازالَ الأمرُ فِي أوَّلِهِ، قالَ: هذهِ هيَ العلامةُ الفلانيَّةُ الَّتِي أخبرَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّهَا مِن علاماتِ الساعةِ، ثمَّ إذَا اتَّضَحَ الأمرُ بعدَ ذلكَ فإذَا هوَ ليسَ كمَا ظنَّ وخمَّنَ، مثالُ ذلكَ: خروجُ بعضِ الناسِ بينَ الفينةِ والأخرَىٰ يدَّعونَ خروجَ المهديِّ ويُلحِقونَ أوصافَهُ بشخصٍ معيَّنٍ، ثمَّ لكَ أَن تتخيَّلَ مَا يحدثُ بسببِ ذلكَ مِنَ الفتنِ، وفِي نهايةِ المطافِ يتبيَّنُ لَهُ ظنُّهُ الخاطئُ، الَّذِي قادَهُ إليهِ جهلُهُ بالنصوصِ الشرعيَّةِ.

فالحادثةُ لَا تفسَّرُ أنَّهَا مِن علاماتِ الساعةِ حتَّىٰ تقعَ وتستقرَّ، وأمَّا ادعاءُ أنَّ هذهِ الواقعةَ مِن علاماتِ الساعةِ دونَ بيِّنَةٍ، فهذَا منَ القولِ علَىٰ اللهِ بغيرِ علمٍ، فالواجبُ الحذرُ مِن ذلكَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

ونحنُ حينَ نتعرَّضُ لذكرِ علاماتِ الساعةِ، ذلكَ لِمَا فيهَا مِن تثبيتِ القلوبِ وتقويةِ اليقينِ، وشحذِ الهممِ للزومِ الاستقامةِ فِي وقتٍ تسارَعَتْ أيَّامُهُ ولياليهِ، وقَرُبَتْ نهايَتُهُ، ولذَا فإنَّ معرفةَ ذلكَ مِمَّا يدفعُ بالمرءِ للصبرِ علَىٰ الطاعاتِ، واحتسابِ مَا يحيقُ بِهِ منَ الابتلاءَاتِ، لعلمِهِ أنَّ مَا بقيَ مِن هذهِ الدنيَا أقلُّ بكثيرٍ مِمَّا ذَهَبَ منهَا، فيستَمسِكُ بالإسلامِ والسنَّةِ حتَّىٰ يأتيَهِ الأجلُ وهوَ علَىٰ ذلِكَ، فإنَّ سرعةَ الأيَّامِ دليلُ

(١) سورة الأعراف:٣٣.

الفَرجِ وتخفيفِ البلاءِ علَىٰ المؤمنِ، والسعيدُ مَن ثبَّتَ اللهُ قلبَهُ حتَّىٰ يلاقِيَ ربَّهُ، فهذَا أعظمُ الامتنانِ وأتمُّ النعمةِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1].

أسألُ أَنْ يثبِّتَ قلوبَنَا وأَنْ يرزقَنَا منَ اليقينِ مَا يُهوِّنُ بِهِ علينَا مصَائبَ الدنيَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ العلاماتِ الدالَّةَ علَىٰ قُربِ قيامِ الساعةِ كثيرٌ، ومِن ذلكَ بَعثةُ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ أنَا والساعةُ كهاتَينِ، كفضلِ إحداهُمَا علَىٰ الأخرَىٰ** -وضمَّ السبَّابَةَ والوسطَىٰ-»[2].

وقالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعثتُ فِي نسَمِ الساعةِ**»[3]، والنسيمُ: أوَّلُ هبوبِ الريحِ الضعيفَةِ، أَي: بُعثتُ فِي أوَّلِ أشراطِ الساعةِ وضعفِ مجيئِهَا.

وبَعثةُ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الخيرِ المَحْضِ الَّذِي امتنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ علَىٰ عبادِهِ،

---

(١) سورة الإسراء: ٧٣-٧٤.

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٥٢٤٥).

(٣) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٠٨).

والرحمةِ الَّتِي أنزلَهَا اللَّهُ علَىٰ البشريَّةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

فقَدْ كانَ الناسُ قبلَ بَعثةِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جاهليَّةٍ جهلاءَ، وعمايةٍ تامَّةٍ، كمَا صحَّ بذلكَ الحديثُ عنِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ قالَ: «**إنَّ اللهَ نظرَ إلَىٰ أهلِ الأرضِ فمَقَتَهُم عربَهُم وعجمَهُم إلَّا بقايَا مِن أهلِ الكِتَابِ**»(٢).

فلمَّا أرادَ اللهُ نجَاةَ البشريَّةِ أرسلَ إلَيهِم محمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرحمةَ المهداةَ، فهداهُم بِهِ مِنَ الضلالةِ، وأخرجَهُم مِنَ الظلماتِ إلَىٰ النورِ، وأخذَ بأيدِيهِم إلَىٰ مكارِمِ الأخلاقِ وأنبلِ الصفَاتِ، فأدَّىٰ الأمانةَ، وبلَّغَ الرسالةَ، ومَا تركَ طريقَ خيرٍ إلَّا دلَّ أمَّتَهُ عليهِ، ولَا طريقَ شرٍّ إلَّا حذَّرَهُم مِنْهُ، وجعلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسولًا إلَىٰ الخلقِ أجمعينَ إنسِهِم وجنِّهِم، مَن أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ، ومَن عصاهُ دخلَ النارَ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾(٣).

فنُسِخَتْ بِبَعثَتِهِ جميعُ الشَّرائعِ السَّابقةِ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٤).

وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والَّذِي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لَا يَسمعُ بِي أحدٌ مِن هذهِ الأمَّةِ يهوديٌّ ولَا نصرانِيٌّ ثمَّ يَمُوتُ ولَم يؤمِنْ بالَّذِي أُرسلْتُ بِهِ إلَّا كانَ مِن أصحابِ النارِ**»(٥).

---

(١) سورة الأنبياء:١٠٧.
(٢) رواه مسلم (٥١٠٩).
(٣) سورة سبأ:٢٨.
(٤) سورة آل عمران:٨٥.
(٥) رواه مسلم (٢١٨).

وبهذَا نعلمُ علمَ اليقينِ أَنَّهُ لَا يجوزُ التديُّنُ بغيرِ دينِ الإسلامِ، والتعبُّدُ بغيرِ شريعةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كمَا نعلَمُ الخطأَ الفادحَ الشنيعَ الَّذِي يعمدُ إِلَيهِ البعضُ مِن إطلاقِ عباراتِ الأخوَّةِ علَىٰ الكفَّارِ منَ اليهودِ والنصارَىٰ، أَو يظنُّ أنَّ دينَهُم صحيحٌ، أَو يدعُو إِلَىٰ التقارُبِ معَهُم.

فلَا نغترُّ بِمَنْ يفعلُ ذلكَ حتَّىٰ لَو لبسَ لباسَ الدعوةِ والإفتاءِ، فإنَّ الحقَّ مَا دلَّتْ عليهِ النصوصُ لَا مَا نطَقَتْ بهِ الألسنُ بالهوَىٰ والتشهِّي، دونَ بيِّنَةٍ واضحةٍ أَو دليلٍ مِنَ الشرعِ.

ومِنَ العلاماتِ الدالَّةِ علَىٰ قربِ قيامِ الساعةِ، أعظمُ مصيبةٌ وقعَتْ فِي تاريخِ البشريَّةِ وهيَ: موتُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعدُدْ ستًّا بينَ يدَي الساعةِ: موتِي، ثمَّ فتحُ بيتِ المقدسِ، ثمَّ مُوْتانٌ يأخذُ فيكُم كقُعَاصِ الغنمِ، ثمَّ استفاضةُ المالِ حتَّىٰ يُعطَىٰ الرجلُ مائةَ دينارٍ فيظلُّ ساخطًا، ثمَّ فتنةٌ لَا يَبقَىٰ بيتٌ مِنَ العربِ إِلَّا دخلَتْهُ، ثمَّ هدنةٌ تكونُ بينكُم وبينَ بنِي الأصفرِ، فيغدرُونَ، فيأتونكُم تحتَ ثمَانِينَ غايةً تحتَ كلِّ غايةٍ اثنَا عشرَ ألفًا**»[1].

فمَا ابتُلِيَتِ الأمَّةُ بمصيبةٍ أعظمَ مِن موتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبموتِهِ انقطعَ الوحيُ مِنَ السماءِ، وذهبَتِ الأمنةُ الَّتِي أسبغَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ علَىٰ الناسِ بسببِ وجودِهِ، وضَعُفَ الخيرُ، وتغيَّرَتِ القلوبُ، وتناكَرَتِ الأرواحُ، قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لمَّا كانَ اليومُ الَّذِي دخلَ فيهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ أضاءَ مِنْهَا كلُّ شيءٍ، فلمَّا كانَ اليومُ الَّذِي ماتَ فيهِ، أظلمَ مِنْهَا كلُّ شيءٍ، ومَا نفَضْنَا عَن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيدِي -وإِنَّا لفِي دفنِهِ- حتَّىٰ أنكرْنَا قلوبَنَا»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٠).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٩٦٢).

يريدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُم وجدُوهَا تغيَّرَتْ عمَّا عهدُوهُ فِي حياتِهِ مِنَ الأُلفَةِ والصفاءِ والرقةِ لفقدانِ مَا كانَ يمدُّهُم بهِ منَ التعليمِ والتأديبِ، فقَد كانَ موتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوَّلَ أمرٍ دَهَمَ الإسلامَ، فبموتِهِ انقطعَ الوحيُ، وكانَ أوَّلَ انقطاعِ الخيرِ وأوَّلَ نقصانِهِ.

ولأنَّ موتَهُ أعظَمُ مصيبةٍ مرَّتْ فِي تاريخِ الأمَّةِ، فقَدْ جعلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكُّرَ ذلكَ وسيلةً لتخفيفِ المُصابِ عمَّنِ ابتُلِيَ بمصيبةٍ، قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فتحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بابًا بينَهُ وبينَ الناسِ، أَو كشفَ سترًا، فإذَا الناسُ يُصَلُّونَ وراءَ أبِي بكرٍ، فحمَدَ اللهَ علَىٰ مَا رأَىٰ مِن حُسنِ حالِهِم ورجاءَ أَن يَخلُفَهُ اللهُ فيهِم بالَّذِي رآهُم، فقالَ: **يَا أيُّهَا الناسُ، أيُّمَا أحدٍ مِنَ الناسِ، أَو مِنَ المؤمنينَ أُصيبَ بمصيبةٍ فليتعزَّ بمصيبَتِهِ بِي عنِ المُصيبةِ الَّتِي تُصيبُهُ بغيرِي، فإنَّ أحدًا مِن أمَّتِي لَن يُصابَ بمصيبةٍ بعدِي أشدَّ علَيْهِ مِن مُصيبَتِي**»[(١)].

نسأَلُ اللهَ تعالَىٰ أَن يأجُرَنَا فِي مصابِنَا فيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَنْ يرزقَنَا اتِّباعَ سنتِهِ.

ومِنَ العلاماتِ الدالَّةِ علَىٰ قربِ قيامِ الساعةِ: انشقاقُ القمرِ، فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا بُعثَ، وقامَ يدعُو المشركينَ إلَىٰ الإسلامِ، نَفرُوا منهُ وأعرَضُوا عمَّا جاءَ بهِ منَ الهُدَىٰ، وكذَّبُوهُ معَ علمِهِم بأنَّهُ الصادقُ الأمينُ، ولَم يزالُوا فِي عتوِّهِم واستكبارِهِم حتَّىٰ سألُوهُ أَنْ يأتيَهُم بالآيةِ تلوَ الآيةِ، ومَا كانَ ذلكَ لتكذِيبِهِم إيَّاهُ ولكِن حملَهُم علَىٰ ذلكَ ظلمُهُم لأنفسِهِم واستكبارُهُم عَن قبولِ الحقِّ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(٢)].

وقَدِ اجتمعَ أهلُ مكَّةَ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألُوهُ أَنْ يُريَهُم آيةً، فأرَاهُمُ القمرَ شقَّينِ حتَّىٰ رَأَوْا حراءَ بينَهُمَا، قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انشقَّ القمرُ علَىٰ عهدِ

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٦).

(٢) سورة الأنعام:٣٣.

رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّينِ حتَّىٰ نظرُوا إِلَيهِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اشهَدُوا**»(١).

وبالرغمِ مِن أنَّهُم رَأَوا ذلكَ إلَّا أنَّهُم استكبرُوا واتَّهمُوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّهُ سحرَهُم، قالَ جُبَيرُ بنُ مطعمٍ: انشقَّ القمرُ علَىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصارَ فرقتينِ: فرقةٌ علَىٰ هذَا الجبلِ، وفرقةٌ علَىٰ هذَا الجبلِ، فقالُوا: سحَرَنَا محمَّدٌ، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ: لَئِن كانَ سَحَرَنَا فمَا يستطيعُ أَنْ يسحرَ الناسَ كلَّهُم(٢)، فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قولَهُ تعالَىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٣).

وهَاهُوَ حالُ المُستكبرينَ معَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّهُم إنْ رأَوا دليلًا وبُرهَانًا أعرَضُوا عنْهُ ولَم ينقادُوا لَهُ، وتركُوهُ وراءَ ظهورِهِم، ويقولُونَ: سِحرٌ سَحَرَنَا بِهِ، وكذَّبُوا بالحقِّ لمَّا جاءَهُم واتَّبَعُوا مَا أمَرَتْهُم بهِ آراؤُهُم وأهواؤُهُم.

وانشقاقُ القمرِ مِنَ العلاماتِ الدالَّةِ علَىٰ قربِ قيامِ الساعةِ، ومِمَّا اتَّفَقَ عليهِ العلماءُ أنَّ انشقاقَهُ وقعَ فِي زمانِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ مِنَ المعجزاتِ الباهراتِ.

وانشقاقُهُ مِنَ العلاماتِ الَّتِي قدَّمَهَا اللهُ لعبادِهِ إعذارًا وإنذارًا، فلمَّا نزلَ الناسُ المدائنَ خطبَهُم حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: «ألَا إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، ألَا وإنَّ الساعةَ قَدِ اقترَبَتْ، ألَا وإنَّ القمرَ قَدِ انشقَّ، ألَا وإنَّ الدنيَا قد أذِنَت بفراقٍ، ألَا وإنَّ اليومَ المضمارُ، وغدًا السباقُ، ألَا وإنَّ الغايةَ النارُ، والسابقُ مَن سبقَ إلَىٰ الجنَّةِ».

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٢٨٩).

(٣) سورة القمر: ١-٢.

(٨٢) ظهورُ الفتنِ

الحمدُ للهِ الملكِ الوهَّابِ، الرحيمِ التوَّابِ، خلقَ الناسَ كلَّهُم مِن ترابٍ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الَّذِي أُنزلَ عليهِ الكتابُ تبصرةً وذكرَىٰ لأولِي الألبابِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إِلَىٰ يومِ المآبِ وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن علاماتِ الساعةِ الَّتِي أخبرَ عنْهَا النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهورَ الفتنِ، وكثرةَ وقوعِهَا وانتشارِهَا.

والفتنةُ: هيَ كلُّ أمرٍ مكروهٍ أَو أوصلَ إِلَىٰ مكروهٍ، كالإثمِ والكفرِ والقتلِ والفضيحةِ، وسائرِ البلاءِ والمحنِ.

وقَدْ حذَّرَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّتَهُ منَ الفتنِ، وأمَرَهُم بالتعوُّذِ منْهَا، فقالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعوَّذُوا باللهِ منَ الفتنِ مَا ظهرَ منْهَا ومَا بطنَ**»[1]، وممَّا يُعظِّمُ شأنَ الفتنةِ أنَّهَا إِذَا وقَعَت أدَّتْ إِلَىٰ اختلافِ العقولِ، واختلالِ الموازينِ، فتطيشُ بسببِهَا العقولُ، وتُسلَبُ الألبابُ، ويحتارُ منْهَا أولُو الألبابِ، قالَ حذيفةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَا الخمرُ صرفًا بأذهبَ بعقولِ الرجالِ منَ الفتنِ»، وقالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ستكونُ فتنةٌ بعدَهَا جماعةٌ، ثمَّ يكونُ بعدَهَا جماعةٌ، ثمَّ تكونُ فتنةٌ لَا تكونُ معَهَا جماعةٌ، تُرفَعُ فيهَا الأصواتُ، وتَشخَصُ الأبصارُ، وتذهلُ العقولُ، فلَا تكادُ تَرَىٰ رجلًا عاقلًا».

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧).

والفتنةُ إِذَا وقَعَتْ لَم يميِّزِ المرءُ بسببِهَا الحقَّ منَ الباطلِ، ولَا الخطأَ مِنَ الصوابِ؛ لاشتباهِ الأمورِ، وكثرةِ تزويقِ الباطلِ حتَّىٰ يُقدَّمَ بصورةِ الحقِّ، وهذَا مِن أعظمِ الفتنِ الَّتِي تحيِّرُ أُولِي العقولِ والنُّهَىٰ، سُئِلَ حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ الفتنِ أشدُّ؟ قالَ: أَن يُعرَضَ عليكَ الخيرُ والشرُّ فلَا تدرِي أيّهُمَا تركبُ».

وقَد لَا يميِّزُ المرءُ الفتنةَ حينَ تُقبِلُ عليهِ فيسارعُ إِلَىٰ الخوضِ فيهَا ويكونُ جزءًا منهَا، فإِذَا انقشَعَتْ تبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ سقطَ فِي الفتنةِ، قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ: «قُلنَا للزبيرِ فِي قصَّةِ الجملِ: يَا أَبَا عبدَ اللهِ، مَا جاءَ بِكُم؟ ضيَّعْتُمُ الخليفةَ -أَي: عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي المدينةِ، ثمَّ جئتُم تطلبونَ بدَمِهِ فِي البَصرَةِ؟

فقالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّا قرَأْنَا علَىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾[1]، فلَمْ نكُنْ نحسبُ أَنَّا أهلُهَا حتَّىٰ وقعَتْ منَّا حيثُ وَقَعَتْ».

والفِتنُ تتفاوتُ فِي درجاتِهَا وقوَّتِهَا، فمِنْهَا فتنٌ شديدةٌ مظلمةٌ، ومِنْهَا فتنٌ صغيرةٌ، وقَدْ تنوَّعَتِ الفتنُ الَّتِي حلَّت فِي هذهِ الأمَّةِ فِي أمرِ دينِهَا ودنيَاهَا، وكلَّمَا تقدَّمَ الزمنُ إِذْ بالفتنِ تنتشرُ وتقوَىٰ، قالَ الزبيرُ بنُ عَدِيٍّ: «أتينَا أنسَ بنَ مالكٍ فشكَونَا إليهِ مَا يلقونَ مِنَ الحجَّاجِ، فقالَ: اصبرُوا، فإِنَّهُ لَا يأتِي عليكُم زمانٌ إِلَّا والَّذِي بعدَهُ أشرُّ منهُ حتَّىٰ تلقُوا ربَّكُم، سمعتُهُ مِن نبيِّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

وقَد جعلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لظهورِ الفتنِ وفتحِ بابِهَا علَىٰ الناسِ علامةً ظاهرةً تتمثَّلُ بموتِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَد كانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هوَ البابُ الفاصلُ بينَ الناسِ وبينَ وقوعِ الفتنِ، فلمَّا قُتِلَ شهيدًا انكسرَ البابُ كسرًا شنيعًا، وانفتحَتْ علَىٰ الناسِ

(١) سورة الأنفال:٢٥.

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٨).

أنواعُ الفتنِ والبلايَا، جاءَ رجلٌ إلَىٰ خالدِ بنِ الوليدِ فقالَ: يَا أبَا سليمانَ، اتَّقِ اللهَ، فإنَّ الفتنَ ظهرَتْ، فقالَ: أمَا وابنَ الخطابِ حيٌّ، فلَا، إنَّمَا تكونُ بعدَهُ، فينظرُ الرجلُ فيفكِّرُ هَلْ يجدُ مكانًا لَمْ ينزِلْ بِهِ مثلُ مَا نزلَ بمكانِهِ مِنَ الفتنةِ والشرِّ فلَا يَجِدُ، فتلكَ الأيَّامُ الَّتِي ذكرَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ يدَيِ الساعةِ أيَّامَ الهرجِ.

وجاءَ عَن حذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «بينمَا نحنُ جلوسٌ عندَ عمرَ إذ قالَ: أيُّكُم يحفظُ قولَ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الفتنةِ؟ قُلتُ: فتنةُ الرجلِ فِي أهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ وجارِهِ يكفِّرُهَا الصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، قالَ: ليسَ عَن هذَا أسألُكَ ولكنِ الَّتِي تموجُ كموجِ البحرِ، قُلتُ: ليسَ عليكَ مِنْهَا بأسٌ يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ بينَكَ وبينَهَا بابًا مغلقًا، قالَ عمرُ: أيُكسَرُ البابُ أَم يُفتَح؟ قُلتُ: لَا، بَل يُكسَرُ، قالَ عمرُ: إذَن لَا يُغلَقُ أبدًا، قلتُ: أَجَلْ.

قالَ شقيقُ بنُ سلمةَ: قُلنَا لحذيفةَ: أكانَ عمرُ يعلمُ البابَ؟ قالَ: نعَمْ، كمَا يعلمُ أنَّ دونَ غدٍ ليلةً، وذلكَ أنِّي حدثْتُهُ حديثًا لَيسَ بالأغاليطِ، فسُئلَ حذيفةُ عنِ البابِ، فقالَ: عُمَرُ»(١).

وقولُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ البابِ: «إذَا كُسِرَ لَم يُغلَقْ»، أخذَهُ مِن جهةِ أنَّ الكسرَ لَا يكونُ إلَّا عَن غلبَةٍ، والغلبةُ لَا تقعُ إلَّا فِي الفتنِ، وعُلِمَ مِنَ الخبرِ النبويِّ أنَّ بأسَ الأمَّةِ بينَهُم واقعٌ، وأنَّ القتلَ لَا يزالُ إلَىٰ يومِ القيامةِ كمَا قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا وُضِعَ السيفُ فِي أمَّتِي لَم يُرفَعْ عنهُم إلَىٰ يومِ القيامةِ**»(٢).

لقَدْ كانَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بابًا مغلقًا دونَ الفتنِ، ودرعًا حائلًا دونَ وقوعِهَا، فلمَّا قُتلَ شهيدًا فُتِحَ البابُ علَىٰ مصراعَيهِ، وظهرَتِ الفتنُ، وكَثُرَ دُعَاتُهَا ممَّنْ

(١) رواه البخاري (٥٢٥)، ومسلم (١٤٤).

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٩٤).

لَمْ يتمكَّنِ الإيمانُ مِن قلبِهِ، وممَّنْ كانَ مِنَ المُنَافقينَ الَّذِينَ يُظهِرُونَ الخيرَ ويُبطِنُونَ الكيدَ والبغضَ لهذَا الدينِ والمتمسِّكِينَ بِهِ، وكانَت أوَّلُ فتنةٍ ظهَرَتْ هيَ مقتلُ الخليفةِ الراشدِ عثمانَ بنِ عفانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَدْ بشَّرَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنَّةِ علَىٰ بلوَىٰ تُصيبُهُ، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الأتقياءِ البررةِ، ولفضلِهِ فقَدْ زوَّجَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بابنتَيهِ، لَم يطلُبْ حكمًا ولَا دعَا إلَىٰ بيعةٍ، بَل جاءَتْهُ الولايةُ مِن غيرِ تشوُّفٍ، فكانَ عندَ الظنِّ بِهِ ممَّن ولَّوهُ، وهمُ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمَا خالفَ عهدًا، ولَا نكثَ عقدًا، ولَا اقتحمَ مكروهًا، ولَا خالفَ سنَّةً.

ولمَّا صحَّتْ إمامَتُهُ قُتِلَ مظلومًا، فمَا نصبَ حربًا لقتالِ أهلِ القبلةِ، ولَا جيَّشَ عسكرًا للدفاعِ عَن نفسِهِ وكبحِ جماحِ البغاةِ عليهِ، ولَا سعَىٰ إلَىٰ فتنةٍ، بَل ضحَّىٰ بنفسِهِ حفاظًا علَىٰ دماءِ المسلمينَ.

تألَّبَ عليهِ أقوامٌ لأحقادٍ اعتقدُوهَا، ومنهُم مَن قاتَلَهُ حسدًا، وحمَلَهُ علَىٰ ذلكَ قلَّةُ دينٍ وضعفُ يقينٍ، ومنهُم مَن طلبَ أمرًا فلَم يَصِلْ إليهِ، ومنهُم مَن آثَرَ العاجلةَ علَىٰ الآجلةِ.

فلمَّا وصلُوا إلَىٰ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حصَرُوهُ فِي دارِ الخلافةِ، فقالَ لَهُم: أيُّهَا الناسُ، لَا تقتلونِي واستبقونِي، فواللهِ لَئِنْ قتلتمونِي لَا تقاتلونَ جميعًا وَلَا تجاهدونَ عدوًّا أبدًا، ولتختَلِفُنَّ حتَّىٰ تصيرُوا هكذَا -وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ-.

وقالَ لَهُم عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تقتلُوهُ، فإنَّهُ لَم يبقَ مِن أجلِهِ إلَّا قليلٌ، واللهِ لَئِن قتلتمُوهُ لَا تُصلُّوا جميعًا أبدًا.

فتقدَّمَ أحدُهُم إلَىٰ دارِهِ وبيَدِهِ شعلةٌ مِن نارٍ تنضحُ بالنفطِ، فأحرقُوا البابَ، ودخلُوا الدارَ، فقامَ أحدُهُم فضربَ عثمانَ بحديدةٍ معَهُ فانتضحَ الدمُ علَىٰ قولِهِ تعالَىٰ:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾[1]، وقَدْ كانَ المصحفُ مفتوحًا بينَ يدَيهِ يقرأُ بِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولمَّا حاوَلَتْ نائلةُ زوجتُهُ توقِّي الضربَةَ بيدِهَا قطعَهَا أحدُهُم، وقامَ الآخرُ فضربَ المصحفَ الَّذِي بينَ يَدَي عثمانَ برجلِهِ فاستدارَ، وقامَ آخرُ فاتَّكَأَ بالسيفِ علَىٰ صدرِ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حتَّىٰ ماتَ.

وقَدْ كانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَد منعَ الصحابةَ مِمَّنْ حولَهُ مِنَ القتالِ حفاظًا علَىٰ دماءِ المسلمينَ، فقَد جاءَهُ زيدُ بنُ ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقالَ: هذهِ الأنصارُ بالبابِ يقولونَ: إنْ شئتَ أَن نكونَ أنصارَ اللهِ مرَّتينِ، فقالَ: أمَا قتالٌ فلَا.

وجاءَهُ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ فقالَ: اخرُجْ فقاتِلْهُم، فإنَّ معَكَ مَن قَد نصرَ اللهُ بأقلَّ مِنْهُ، واللهِ إنَّ قتالَهُم لحلالٌ، فأبَىٰ.

وبمقتَلِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تفرَّقَتِ الأمةُ الإسلاميَّةُ، وجُعِلَ بأسُهَا بينَهَا، وسلَّ بعضُها السيوفَ علَىٰ بعضٍ، وسالَتِ الدماءُ الطاهرةُ النقيَّةُ منَ الفريقينِ المتخاصمينَ مِنَ الصحابةِ، وانتشرَتِ الفتنُ والأهواءُ، وكَثُرَ الاختلافُ، وتشعَّبَتِ الآراءُ، ودارَتِ المعاركُ الطاحنةُ فِي عهدِ الصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهذَا مصداقُ حديثِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيثُ إنَّهُ أشرفَ علَىٰ حصنٍ مِن حصونِ المدينةِ، فقالَ: «**إنِّي لأرَىٰ الفتنَ تقعُ خِلالَ بيوتِكُم كوقعِ القطرِ**»[2]، أَي: المطرِ.

وإنَّمَا اختُصَّتِ المدينةُ بذلكَ، لأنَّ قتلَ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانَ بِهَا ثمَّ انتشرَتِ الفتنُ فِي البلادِ بعدَ ذلكَ، فالقتالُ بالجملِ وصِفِّينَ كانَ بسببِ قتلِ عثمانَ، والقتالُ بالنهروانِ معَ الخوارجِ كانَ بسببِ التحكيمِ بصفِّينَ، وكلُّ قتالٍ وقعَ فِي ذلكَ العصرِ

---

(١) سورة البقرة: ١٣٧.

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٠)، ومسلم (٢٨٨٥).

إنَّمَا تولَّدَ عَن شيءٍ مِن ذلكَ، أَو عَن شيءٍ تولَّدَ عنْهُ، والتشبيهُ بمواقعِ القطرِ فِي الكثرةِ والعمومِ، فإنَّهَا تعمُّ الناسَ ولَا تختصُّ بِهَا طائفةٌ، وهَذِهِ إشارةٌ إِلَىٰ الحروبِ الجاريةِ بينَهُم، وعلمٌ مِن أعلامِ نبوَّتِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقَد أخبرَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالجهةِ الَّتِي تهبُّ مِنْهَا رياحُ الفتنِ، قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: سمعتُ النبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وهوَ مستقبلُ المشرقَ- يقولُ: «**ألَا إنَّ الفتنةَ هاهُنَا، ألَا إنَّ الفتنةَ هاهُنَا، مِن حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطانِ**»، وفِي روايةٍ: «**رأسُ الكفرِ مِن هَاهُنَا، مِن حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطانِ**»(١).

وقالَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: قالَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللهمَّ بارِكْ لنَا فِي شامِنَا، اللهمَّ بارِكْ لنَا فِي يَمَنِنَا**. قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، وَفِي نجدِنَا، فأظنُّهُ قالَ فِي الثالثةِ: **هناكَ الزلازلُ والفتنُ، وبِهَا يطلعُ قرنُ الشيطانِ**»(٢).

والنجدُ: هوَ الأرضُ المرتفعةُ، ومَن كانَ بالمدينةِ كانَ نجدُهُ باديةَ العراقِ ونواحِيهَا، وهيَ مشرقُ أهلِ المدينةِ، ولذَا فإنَّ أوَّلَ الفتنِ كانَ منبعُهَا مِن قِبَلِ المشرقِ، فإنَّ مقتلَ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانَ أشدُّ أسبابِهِ الطعنَ علَىٰ أمرائِهِ، ثمَّ الطعنَ بِهِ لتوليتِهِ لَهُم، وأوَّلُ مَا نشأَ ذلكَ مِنَ العراقِ وهوَ مِن جهةِ المشرقِ، ومنَ المشرقِ خرجَتِ الخوارجُ، وجاءَتِ التتارُ ففتكَت بالمسلمينَ ومزَّقتْهُم شرَّ ممزَّقٍ، وسيبقَىٰ ظهورُ الفتنِ مِن تلكَ الجهةِ إِلَىٰ أَن تأتيَ راياتُ الدَّجالِ مِن خراسانَ كمَا أخبرَ بذلكَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

كمَا أنَّ البدعَ والمحدثاتِ والأهواءَ والأديانَ الباطلةَ نشأَتْ عَن تلكَ الجهةِ، كالخوارجِ والباطنيَّةِ والقرامطةِ والمعتزلةِ، كمَا أنَّ أكثرَ مقالاتِ الكفرِ كانَ منشؤُهَا

---

(١) رواه مسلم (٤٧٥١).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٧).

مِنَ المشرقِ كالهندوسيَّةِ، والبوذيَّةِ، والقاديانيَّةِ، والشيوعيَّةِ، إِلَىٰ أَن يظهرَ الدجَّالُ مِن تلكَ الجهةِ.

وفِي هذَا أعظمُ الأدلَّةِ علَىٰ صدقِ نبوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيثُ حصلَ مَا أخبرَ بِهِ علَىٰ الحقيقةِ.

ولَا تزالُ الفتنُ تموجُ بالناسِ حتَّىٰ تجعلَ الحليمَ حيرانَ، ويضعفُ الدينُ حتَّىٰ يعودَ الدينُ غريبًا، ويبحثُ المسلمُ الصادقُ عَن مكانٍ يعبدُ اللهَ فيهِ فلَا يجدُ ذلكَ إلَّا بشِقِّ الأنفسِ، ولَا يكادُ يظفرُ بمطلوبِهِ، فتضيقُ عليهِ الأرضُ بِمَا رَحُبَت، وتزيغُ الأبصارُ، وتبلغُ القلوبُ الحناجرَ خوفًا علَىٰ دينِهَا مِنَ الضياعِ، وتجدُهُ يقلِّبُ بصرَهُ ليجدَ مكانًا خلَا مِنَ الفسادِ فلَا يكادُ يجدُهُ، وهذَا مِن أعظمِ الفتنِ علَىٰ المسلمِ، وأشدِّ ما يُضعِفُ دينَهُ، وتنهارُ بسببِهِ قواهُ، قالَ خالدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الفتنةُ أَن تكونَ فِي أرضٍ يُعمَلُ فيهَا بالمعاصِي، وتريدُ أَن تخرجَ مِنهَا إِلَىٰ أرضٍ لَم يُعمَلْ فيهَا بالمعاصِي فلَا تَجِدُهَا».

فللَّهِ نشكُو مَا نحنُ فيهِ مِن غربةِ الدينِ، وضعفِهِ فِي قلوبِ أهلِهِ، وكثرةِ المحاربينَ لَهُ مِن أممِ الكفرِ الداعينَ إِلَىٰ الانحلالِ والفجورِ فِي كلِّ زاويةٍ مِن زوايَا المعمورةِ، وتكريسِ جهودِهِم علَىٰ بلدانِ المسلمينَ ليغرقُوهُم فِي الشهواتِ، وكلَّمَا رأَوا بلدًا أكثرَ تمسُّكًا بالأخلاقِ، كلَّمَا كانَ الضربُ عليهِ وتوجيهُ السهامِ أشدَّ وأشدَّ.

ويجدونَ مَن يُعينُهُم علَىٰ تحقيقِ أهدافِهِم مِمَّن يلبسونَ لباسَ أهلِ الإسلامِ، وهُم مِن أهلِ جلدَتِهِم، ويتسمَّونَ بأسمائِهِم، وهُم أشدُّ خبثًا ومكرًا ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1]، بَلْ والأدهَىٰ أَن يُثِيرُوا الشبهاتِ علَىٰ الناسِ، ويحاولُوا أَن

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

يُعطُوا أفكارَهُمُ المنحلَّةَ الصبغةَ الدينيَّةَ، لتنطليَ شُبَهُهُم علَىٰ أمَّةِ الإسلامِ.

وأدهَىٰ مِن ذلكَ أَن يجدُوا ممَّن يتزيَّا بزِيِّ المتدينينَ، ويتكلَّمُ بألسنَتِهِم، مَن يعينُهُم علَىٰ نشرِ الفسادِ والانحلالِ فِي المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، طمعًا فِي العاجلةِ الفانيةِ، وجرأةً علَىٰ اللهِ سبحانَهُ، ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[1].

ومَن تأمَّلَ ذلكَ بعينِ البصيرةِ أيقَنَ أنَّهُ لَن يكونَ الآتِي منَ الزمانِ بأفضلَ ممَّا مضَىٰ، ومَن رأَىٰ أحوالَ الناسِ وتسارعَهُم إلَىٰ الفسادِ، والحرصَ علَىٰ مكاسبِ الدنيَا سواءً كانَ بحلالٍ أَو حرامٍ، وزهدَهُم فِي الآخرةِ، عَلِمَ غُربةَ الدِّينِ بينَ أهلِهِ، وأيقنَ بأنَّهُ إذَا أرادَ أَن يبقَىٰ متمسِّكًا بدينِهِ أَن يعظمَ جهادُهُ فِي سبيلِ ذلكَ، ويوقنَ أنَّهُ إِن وَجَدَ مَن يعينُهُ فِي زمنِهِ هذَا علَىٰ الاستقامةِ فلعلَّهُ أَن يدركَ زمنًا لَا يجدُ لَهُ فيهِ ناصرًا ولَا معينًا إلَّا اللهَ تعالَىٰ، فقَدْ قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يوشكُ أَن يكونَ خيرُ مالِ المسلمِ غنمٌ يتبَعُ بِهَا شعفَ الجبالِ ومواقعَ القطرِ، يفرُّ بدينِهِ مِنَ الفتنِ**»[2].

ولَا يزالُ البلاءُ يشتدُّ علَىٰ المؤمنِ، وتستحكمُ عليهِ الغربةُ، حتَّىٰ يأتيهِ زمنٌ يَغبطُ فيهِ صاحبَ القبرِ علَىٰ موتِهِ ويتمنَّىٰ أَنْ لَوْ كانَ مكانَهُ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تقومُ الساعةُ حتَّىٰ يمرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ فيقولُ: يَا لَيتَنِي مكانَهُ**»[3]، وفِي ذلكَ إشارةٌ إلَىٰ أنَّ الفتنَ والمشقَّةَ البالغةَ ستقعُ، حتَّىٰ يخفَّ أمرُ الدينِ ويقلَّ الاعتناءُ بأمرِهِ، ولَا يبقَىٰ لأحدٍ اعتناءٌ إلَّا بأمرِ دنياهُ ومعاشِهِ ونفسِهِ ومَا يتعلَّقُ بِهِ، وعندَ ذلكَ يغبطُ المؤمنُ أهلَ القبورِ، ويتمنَّىٰ الموتَ لخوفِهِ مِن ذهابِ دينِهِ، لغلبةِ الباطلِ وأهلِهِ وظهورِ المعاصِي

(١) سورة النحل:٢٥.

(٢) رواه البخاري (١٩).

(٣) رواه البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧).

والمنكراتِ، فكانَ تمنِّي الموتِ لشدةٍ نزلَت بالناسِ مِن فسادِ الحالِ فِي الدينِ أَو ضعفِهِ أَو خوفِ ذهابِهِ، لَا لضررٍ ينزلُ بالجسمِ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ الصامت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قالَ أَبُو ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يوشكُ أَنْ تمرَّ الجنازةُ فِي السوقِ علَىٰ الجماعةِ فيرَاهَا الرجلُ فيهزُّ رأسَهُ فيقولُ: يَا لَيتنِي مكانَ هذَا، قلتُ: يَا أَبَا ذرٍّ، إنَّ ذلكَ لَمِن أمرٍ عظيمٍ، قالَ: أَجَلْ».

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أَمَّا بعدُ:

فقَدْ أخبرَ الصادقُ المصدوقُ عَن كثرةِ الفتنِ وانتشارِهَا، حتَّىٰ يحذَرَهَا الناسُ ويعلَمُوا أسبابَ ذلكَ فلَا يخوضونَ فيهِ، ويتَّخِذُوا الوسائلَ الَّتِي تُعينُهُم علَىٰ الثباتِ أمامَ رياحِ الفتنِ العاتيةِ.

ومِن أعظمِ الأسبابِ الَّتِي تدفعُ الفتنَ عَنِ العبدِ: لزومُ الدعاءِ للهِ والاستعانةُ باللهِ ربِّ العالمينَ أَن يثبِّتَ قلبَهُ وأَن يقِيَهِ شرَّ الفتنِ مَا ظهرَ مِنْهَا ومَا بطنَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعوَّذُوا باللهِ مِنَ الفتنِ مَا ظهرَ مِنْهَا ومَا بطنَ**»(١).

ومِنَ الوسائلِ المنجيةِ مِنَ الفتنِ: الابتعادُ عنهَا، فإذَا عَلِمْتَ أنَّ هذَا البابَ إِنْ طرقتَهُ، وهذَا السبيلُ إِن سلكتَهُ، فُتِحَتْ عليكَ بسببِهِ أبوابٌ مِنَ الشرِّ، فلَا تقتربْ منْهُ، فإنَّ بعضَ الناسِ يعرفُ مِن نفسِهِ أنَّهُ ضعيفٌ أمامَ فتنةٍ معيَّنَةٍ، كالنساءِ، أو الجاهِ،

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧).

أو المالِ، ونحوِ ذلكَ، فيقتحِمُ هذَا الخطرَ فإذَا بِهِ وقَد سقطَ ضحيَّةَ مَا يعلمُ مِن نفسِهِ أنَّهُ لَا قِبَل لَهُ بمواجَهَتِهِ، وقَد ذكرَ النبيُّ ﷺ الدجَّالَ -وهوَ أعظمُ فتنةٍ- فأمَرَ بالفرارِ مِنْهُ، فقالَ: «**مَن سمعَ بالدَّجَّالِ، فلينأَ عنهُ، فواللهِ إنَّ الرجلَ ليأتِيهِ وهوَ يحسبُ أنَّهُ مؤمنٌ، فيتَّبِعُهُ مِمَّا يبعثُ بِهِ مِنَ الشبهاتِ**»[1].

فينبغِي للمسلمِ أَن يعالِجَ كلَّ مَا يرَىٰ أنَّهُ فتنةٌ لَهُ بهذَا العلاجِ النبويِّ، ولَا يجعلَ دينَهُ ساحةَ تجارِبَ.

ومِمَّا يدفعُ المسلمُ بِهِ الفتنَ مبادَرَتُهَا بالأعمالِ الصالحةِ، فيُكثِرُ مِن أعمالِ البرِّ الَّتِي تكونُ لَهُ زادًا عندَ حلولِ الفتنِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، قالَتْ أمُّ سلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «استيقَظَ رسولُ اللهِ ﷺ ليلةً يقولُ: **سبحانَ اللهِ، ماذَا أنزلَ اللهُ مِنَ الخزائنِ، وماذَا أنزلَ مِنَ الفتنِ؟ مَن يوقظُ صواحبَ الحجراتِ** -يريدُ أزواجَهُ- **كَي يصلِّينَ؟ رُبَّ كاسيةٍ فِي الدنيَا عاريةٍ فِي الآخرةِ**»[2]، وهذَا فيهِ الندبُ والتضرُّعُ عندَ نزولِ الفتنةِ، ولَاسيَّمَا فِي الليلِ، لرجاءِ وقتِ الإجابةِ لتُكشفَ أَو يسلمَ الداعِي ومَن دعَا لَهُ.

ومِمَّا تُدفَعُ بِهِ الفتنُ الاجتهادُ فِي إصلاحِ الناسِ ودعوتِهِم إلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالعلمِ الشرعيِّ المستَمدِّ مِن كتابِ اللهِ وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ علَىٰ فهمِ سلفِ الأمَّةِ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ؛ لأنَّهُم أعمقُ الناسِ فهمًا، وأصدَقُهُم لهجةً وحكمًا، وأثبتُهُم ديانةً وعلمًا.

فالاجتهادُ فِي إصلاحِ الناسِ فِي عقيدَتِهِم وأخلاقِهِم وسلوكيَّاتِهِم، مِمَّا يحقِّقُ الأمنَ فِي المجتمعاتِ ويدفعُ عَنْهَا فتنَ الدينِ والدنيَا، ومخالفةُ الناسِ لأمرِ اللهِ تعالَىٰ وتعدِّي حدودِهِ كفيلٌ بِأَنْ يُحِلَّ بهمُ الفتنَ الظاهرةَ والباطنةَ فِي الدينِ والدنيَا، قالَ

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٨٨).
(٢) رواه البخاري (١١٥).

تعالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

نسألُ اللهَ تعالَىٰ أَن يعصِمَنَا مِنَ الفتنِ مَا ظهرَ منهَا ومَا بطنَ.

❊❊❊

(١) سورة الأعراف:٩٦-٩٩.

(٨٣) الفتنُ الصمَّاءُ

الحمدُ للهِ الَّذِي هدَىٰ أولياءَهُ لدِينِ الإسلامِ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ جزيلِ الفضلِ والإنعامِ، وأشكرُهُ علَىٰ مَا أولَاهُ مِنَ التوفيقِ والإلهامِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ الملكُ الحقُّ السلامُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ معلِّمٍ وإمامٍ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ البررَةِ الكرامِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فمِن علامَاتِ الساعةِ الَّتِي أخبرَ عنهَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقتتالُ فئتينِ عظيمتَينِ منَ المسلمينَ، فقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تقومُ الساعةُ حتَّىٰ تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكونُ بينَهُمَا مقتلةٌ عظيمةٌ، دعواهُمَا واحدةٌ**»[1].

وقَد حدثَ ذلكَ فِي عهدِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطائفتانِ هُمَا: طائفةُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن مَعَهُ، وطائفةُ معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن معَهُ، وقَد وقعَتِ الحربُ بينَهُمَا فِي معركةِ صفِّين، سنةَ ستٍّ وثلاثينَ مِنَ الهجرةِ، وحصلَ فيهَا منَ البلاءِ مَا يُذهِبُ العقولَ، ويُحيِّرُ ذوِي الألبابِ.

وهذَا حالُ الحروبِ، فإنَّهَا إذَا أقبلَتِ استشرفَ لهَا الناسُ وكأنَّهُم نالُوا المرغوبَ وظفَرُوا بالمطلوبِ، فإذَا وقَعَتْ وذاقَ الناسُ مرارَتَهَا، ومسَّهُم لهيبُ حرارَتِهَا، ودُّوا أَنْ لَم يكونُوا قَد خاضُوا لججَ بحارِهَا، ولَم يقتحِمُوا أسوارَهَا، وقَد كانَتِ العربُ تقولُ: الحربُ غشومٌ لأنَّهَا تنالُ غيرَ الجانِي.

---

(١) رواه البخاري (٧١٢١)، ومسلم (١٥٧).

وقيلَ لعنترةَ الفوارسِ: صِف لنَا الحربَ، فقالَ: أوَّلُهَا شكوَىٰ، وأوسَطُهَا نجوَىٰ، وآخرُهَا بلوَىٰ.

الحَـــربُ أَوَّلُ مَـــا تكُـــونُ فَتِـــيَّةً ... تَـــسعَىٰ بِـــزِينتِهَا لِكُـــلِّ جَهُـــولِ
حَتَّـىٰ إِذَا حَمِـيَت وشَـبَّ ضِـرَامُها ... عَـادَت عَجُـوزًا غَيـرَ ذَاتِ حَلِـيلِ
شَـمطَاءُ جَـزَّتْ رَأسَـهَا وَتَنكَّـرَت ... مَكـــرُوهَةً لِلـــشَّمِّ وَالتَّقبِـــيلِ

والحربُ بينَ الناسِ سجالٌ، والرأيُ فيهَا أبلغُ مِنَ القتالِ، وفِي حكمةِ سليمانَ بنِ داودَ -عليهِمَا الصلاةُ والسلامُ-: الشرُّ حلوٌ أوَّلُهُ، مُرٌّ آخرُهُ.

وإِذَا كانَ هذَا الحالُ فيمَا يجرِي بينَ الناسِ بسببِ الحروبِ، فكيفَ إِذَا كانَت هذِهِ الحربُ قَد دارَت رحَاهَا بينَ خيرِ الناسِ -بعدَ الأنبياءِ- أصحابِ رسولِ اللَّهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! لَا شكَّ أنَّهَا فتنةٌ وأيّمَا فتنةٍ، وبلاءٌ أيّمَا بلاءٍ.

لمَّا قُتِلَ عثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مظلومًا، وحازَ مرتبةَ الشهادةِ الَّتِي بشَّرَهُ بِهَا النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بايعَ الناسُ عليَّ بنَ أبِي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إلَّا معاويةَ بنَ أبِي سفيانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقَد كانَ أميرًا علَىٰ الشامِ، فقَد رفضَ أَن يبايعَ عليًّا حتَّىٰ يسلِّمَ لَهُ قتلَةَ عثمانَ، وقَد كانَ قتَلةُ عثمانَ فِي جيشِ عليٍّ، وسببُ مطالبةِ معاويةَ بدمِ عثمانَ لأنَّ معاويةَ وليُّ دمِ عثمانَ، ولأنَّهُ صارَ رأسَ بنِي أميَّةَ.

وَقَد دَخلَ أَبُو مسلمٍ الخولانِيُّ وناسٌ معَهُ عَلَىٰ معاوِيَةَ فَقالُوا لَهُ: أَنت تُنَازِعُ عَليًّا أَم أَنت مثلُهُ؟ فَقالَ: لَا واللهِ، إنِّي لأَعلَمُ أنَّ عليًّا أفضلُ منِّي، وإنَّهُ لأحقُّ بِالأمرِ منِّي، ولكِنْ ألستُم تعلمُونَ أنَّ عثمانَ قُتِل مظلومًا وَأنَا ابنُ عمِّه، وإنَّمَا أطلبُ بدمِ عثمَانَ، فَأْتوه فقولُوا لَهُ: فليَدفَعْ إِليَّ قَتلَةَ عثمانَ وأُسَلِّم لَهُ، فأَتَوا عليًّا فكلَّمُوه بذلِكَ فَلَم يَدفعْهُم إِليهِ؛ لأنَّه لَم يكُنْ قَادرًا عَلَىٰ تَسليمِ قَتَلةِ عُثمانَ لِمُعَاويَةَ أَو أَن يُقِيمَ الحدَّ

عَلَيهِم، وَذلِكَ لأنَّهُم عندَ البيعَةِ كانُوا هُمُ المستَوْلِينَ عَلَىٰ زِمَامِ الأمرِ، وَلمَّا اجتمَعُوا إِلَىٰ أَهلِ العِرَاقِ كَانُوا فِي مَعقِلِ قوَّتِهِم حيثُ تَحصَّنُوا بِقَبَائلِهِم، فَخافَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنْ قتلَهُم أَن يُفتَحَ عَلَيهِ بابٌ لَا يُغلَقُ، فكَانَ الأَمرُ عَليهِ شَدِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعندَ ذَلِك جَهَّزَ عَلِيٌّ جَيشًا قِوامُهُ مِائَةٌ وعشرُونَ ألفًا لِمُواجَهَةِ أَهلِ الشَّامِ، وحَاول الأشتَرُ النَّخعِيّ وَهُو أَحدُ قَتَلَةِ عُثمانَ -وَكَانَ فِي جيشِ عَليٍّ- أن يُثبِّطَ قومَه عَنِ القِتالِ، وَذلِكَ أنَّه كَان يَطمعُ أَن يجعلَهُ عليٌّ عَلَىٰ إمارةِ البَصرَةِ فَجَعلَ عليهَا ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فغضَبَ لذَلِكَ وضَعُفَ حمَاسُهُ عَنِ القتَالِ، وهذَا شأنُ أَهلِ البَاطِلِ، إنَّما هُم طُلَّابُ دُنيَا وَلَيسُوا منَ الآخرةِ فِي شَيءٍ، فَإِن أُعطُوا منهَا رَضُوا وَإِنْ لَم يُعْطَوا مِنهَا إِذَا هُم يَسخَطُونَ.

وارتحَلَ عليٌّ إِلَىٰ الشَّامِ لِحَرْبِ مُعاويةَ، وَلَا يزالُ يَسيرُ بجيشِهِ حتَّىٰ نَزلَ عَلَىٰ صِفِّينَ، وَهُو موقعٌ قَريبٌ مِن الرَّقَّةِ عَلَىٰ شَاطِئِ الفُرَاتِ، وَكانَ مُعَاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد عَسكرَ فِي صفِّينَ بجيشٍ قوامُهُ تِسعُونَ ألفًا، وَقَد تَقَابلَ الجيشَانِ أَكثَرَ مِن شَهرٍ، وَلَم يَحدُث بينهُمَا التحامٌ أو مُواجهَةٌ طمعًا في الصلحِ، وكانَ عليٌّ ومعاويةُ أطلبَ لكفِّ الدِّماءِ، ولم يكونَا يُريدَانِ القِتالَ، ولكِنْ كَان فِي الجيشِ مِن أَهلِ الأهواءِ المتغلِّبينَ الَّذينَ يُحرِّضونَ عَلَىٰ القِتالِ حتَّىٰ نشبَتِ الحربُ الطَّاحنةُ بين الفريقَيْنِ.

ومرَّ كعبٌ التَّغلبيُّ بالنَّاسِ، وقَد وَثَبُوا إِلَىٰ سيوفِهِم ورماحِهِم ونبالِهِم يصلحونَهَا فقَالَ:

أصبحَتِ الأُمَّةُ فِي أَمرٍ عَجَبْ ... والمُلكُ مَجمُوعٌ غدًا لِمَن غَلَبْ

فَقُلتُ قَولًا صَادِقًا غَيرَ كَذِبْ ... إنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَعلامُ العَرَبْ

قَالَ شَيخُ الاسلامِ ابنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَكثَرُ الَّذينَ كَانُوا يَختَارُونَ القِتالَ مِنَ الطَّائفتينِ لَم يكونُوا يُطيعُونَ لَا عَلِيًّا وَلَا مُعاوِيَةَ، وَكَانَ عليٌّ وَمُعاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَطْلَبَ

لِكَفِّ الدِّمَاءِ مِنْ أَكثرِ المُقتتلِينَ، لَكِنْ غُلِبَا فِيمَا وَقَعَ، والفِتنَةُ إِذَا ثَارَتْ عَجزَ الحُكَمَاءُ عَن إِطفَاءِ نارِهَا».

هَذَا وإنَّ القتالَ إِذَا وَقَعَ، وَالفتنة إِذَا حَصَلَت؛ دَخَلَ فِيهَا النَّاسُ عَلَىٰ اختِلَافِ مَشارِبِهِم ومقاصدِهِم، بل إِنَّ كلَّ مَن كانَ لَهُ هَدفٌ يَدخلُ فِي الفتنةِ مُتسترًا بِرداءِ غَيرِهِ.

قَالَ ابنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقِتَالُ الفِتنةِ مِثلُ قِتالِ الجَاهليَّةِ، لَا تَنضبِطُ مَقاصِدُ أهلِهِ واعتقاداتُهُم، كَمَا قَالَ الزُّهريُّ: وَقعَتِ الفِتنةُ وَأَصحَابُ رَسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتوافِرُونَ، فَأجمَعُوا أَنَّ كلَّ دمٍ أو مالٍ أو فَرْجٍ أُصيبَ بِتأويلِ القرآنِ، فَإِنَّهُ هَدَرٌ، أَنْزَلُوهُم مَنزلَةَ الجاهليَّةِ».

وَلِذلِكَ فَقد اعتزَلَ الصحابَةُ القِتَالَ إِلَّا نفرًا يسيرًا -رَضِي اللهُ عَنهُم أَجْمَعينَ-، ثمَّ وَقَعتِ الحَربُ، وكانَ القِتالُ شديدًا، وقُتِلَ مِنَ الفريقينِ جَمعٌ كَبيرٌ قُدِّرَ بسبعينَ ألفًا، خَمسةٍ وأربعينَ ألفًا مِن أهلِ الشَّامِ، وخمسةٍ وعشرينَ ألفًا مِن جيشِ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقُتِلَ فِي المعركةِ عمارُ بنُ ياسرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ فِي جيشِ عليٍّ- فَعلِمَ جيشُ عليٍّ أنَّهُم عَلَىٰ الحقِّ، لِقولِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقتلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**»[(١)]، فازدَادَ حماسُهُم للقتَالِ.

وَقَد اقتتلَ الفريقانِ قِتالًا شدِيدًا دَامَ ثلاثةَ أيامٍ بلياليِهَا، حتَّىٰ كَلَّ النَّاسُ مِنَ القتَالِ، فاستقرَّ الأمرُ علَىٰ أَنْ رَجَعَ كلُّ فريقٍ إِلَىٰ مكانِهِ وبَقِي الأمرُ عَلَىٰ حالِهِ، عليٌّ خليفةُ المسلمينَ، ومعاويةُ أميرٌ علَىٰ الشَّامِ، ولَم يبايَعْ مُعَاويةُ بِالخلافَةِ إلَّا بعدَ استشهَادِ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علَىٰ يدِ الخَوارجِ سَنةَ أربعينَ مِنَ الهجرَةِ.

وقد كَانَ مَا حَصَلَ مِن أَمرِ القتَالِ فتنةً أَذهَبَتِ العُقولَ، وَإِلَّا فَمَا كَانَ فَرِيقٌ يُكفِّرُ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧).

صَاحبَهُ أو يُعاملُ القتلىٰ معاملةَ الكفَّارِ، قَالَ أبُو أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شَهِدْتُ صِفِّينَ، فكانُوا لا يُجهِزونَ عَلىٰ جريحٍ، وَلَا يطلبونَ موليًا، ولا يسلبونَ قتيلًا»، وقَالَ سَالمُ بنُ عبيدٍ الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيتُ عليًّا بعدَ صِفِّينَ، وهُو آخذٌ بيدِي، وَنحنُ نمشِي فِي القتلىٰ، فَجَعلَ يستغفرُ لَهُم حتَّىٰ بَلَغَ أهلَ الشَّامِ، فقلتُ لَهُ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّا فِي أصحَابِ مُعاويةَ! فقالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّمَا الحِسابُ عَليَّ وَعلىٰ مُعَاويةَ».

وَقد سَمِعَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا يومَ صِفِّينَ وَهُو يقولُ: اللَّهُمَّ العَن أهلَ الشَّامِ، فقَالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَسُبَّ أَهلَ الشَّام جمًّا غَفِيرًا، فإنَّ بِهَا الأبدَالَ، فإنَّ بِهَا الأبدَالَ، فإنَّ بِهَا الأبدَالَ».

والأَبدَالُ: هُمُ الأَولياءُ والعبَّادُ، سُمُّوا بذَلِكَ لأنَّهُ كلَّمَا مَاتَ وَاحِدٌ مِنهُم أُبدِلَ بآخَرَ.

هَذَا ومِمَّا لَا بُدَّ مِنَ العِلمِ بِهِ وَاعتِقَادِهِ أنَّ مَا جَرَىٰ بَينَ الصَّحَابَةِ مِن أَمرِ القتَالِ والفَتنَةِ كَانَ صَادرًا عَنِ اجتِهَادٍ، وَهُم بَينَ مُصيبٍ فَلَهُ أَجرَانِ، أَو مُخطِئٍ فَلَهُ أَجرٌ وَاحِدٌ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فاجتهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فاجتهَدَ ثُمَّ أَخطَأَ فَلَهُ أَجرٌ»**[1].

وَلَا يُظَنُّ بِمَن أَخطَأَ مِنهُم أنَّه كَانَ يَعلَمُ أَنَّهُ عَلَىٰ بَاطِلٍ ثُمَّ يَخُوضُ فِيهِ، فَحَاشَاهُم مِن ذَلِكَ.

كَمَا أنَّ مِن عَقيدَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وُجوبَ الإمساكِ عمَّا شَجَرَ بينَ الصحَابَةِ وعَدَمَ الخوضِ فِيهِ، فَلَا يجوزُ أن يُجعلَ ذلِكَ مجالًا لسبِّهِم وشتمِهِم أو الوقيعةِ بِهِم، أو تَقييمِ مَوَاقِفِهِم وأفعالِهِم، حتَّىٰ يقودَ ذلِكَ فاعلَهُ إِلَىٰ بُغضِهِم واستشعَارِ الضَّغِينَةِ نحوَهُم.

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

فهَذَا أَمرٌ يَقُودُ صَاحبَه إِلَىٰ الهَاوِيَةِ؛ لأَنَّ حبَّ الصحَابَةِ منَ الإيمانِ، وبُغضَهُم منَ النِّفاقِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الرَّءوفُ الرحيمُ، وأشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الملكُ العظيمُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الهَادِي إِلَىٰ صِراطٍ مُستقِيمٍ، صَلَّىٰ الله وسلَّم وبَاركَ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَن تَبعَهُم فِي كلِّ أمرٍ قَويمٍ.

أَمَّا بعدُ:

فإِنَّ مِن عَلاماتِ السَّاعَةِ الَّتِي أَخبَرَ عنهَا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثرَةَ القتلِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ بَينَ يَدَي السَّاعةِ أَيَّامًا يُرفعُ فِيهَا العِلمُ وينزِلُ فِيهَا الجَهلُ ويَكثرُ فِيهَا الهَرْجُ، وَالهَرْجُ القَتْلُ**»[1].

وَهَذَا دَليلٌ مِن دَلائلِ نبوتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمُنذُ أَن وَقَعَ السَّيفُ فِي هذِهِ الأُمَّةِ حينَ قُتلَ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَن يزالَ وَاقعًا حتَّىٰ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَلَيهَا، وَلَا يَزَالُ القتلُ مُتفشِّيًا بَينَ النَّاسِ، يُقدِمُونَ عَلَيه كالسكَارَىٰ لَا يَعِي أحدُهُم بِمَا فَعَلَ حتَّىٰ تَنقَشِعَ عنهُ الفِتنَةُ الَّتِي أَعمَت بَصيرَتَهُ وخَطفَتْ بصرَهُ، وَلَا يَزَالُ الأمرُ فِي انتشارٍ مَا تَعَاقَبَ الليلُ والنَّهارُ، وكلَّمَا غَابَ عَن أَرضٍ ظَهَرَ فِي أُخرَىٰ إِلَىٰ أَن يَشَاءَ اللهُ الحكيمُ العليمُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نفسِي بيدِهِ، ليأتيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زمَانٌ لَا يَدرِي القاتِلُ فِي أَيِّ شَيءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدرِي المَقتُولُ فِي أيِّ شَيءٍ قُتِلَ**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٠٨).

وَأعظَمُ مَا يَكُونُ الأمرُ خطرًا وَأَشدُّهُ ضَررًا، حينَ يَكونُ القِتالُ بين المُسلِمِينَ، فيُفتَنونَ فِي دينِهم وأنفسِهم وَلَا حولَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، قَالَ ﷺ: «**إنَّ بَينَ يَدَي السَّاعَةِ الهَرْجَ. قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: القتلُ، قَالَ: إنَّهُ لَيسَ بقتلِكُمُ المُشرِكِينَ، وَلكِنْ قَتْلُ بَعْضِكُم بَعْضًا، حتَّىٰ يَقتُلَ الرَّجُلُ جارَهُ، وَيَقتُلَ أخَاهُ، ويَقتُلَ عَمَّهُ، ويَقتُلَ ابنَ عَمِّهِ. قَالُوا: وَمَعَنا عُقولُنَا يومَئذٍ؟ قَالَ: لَا، إنَّهُ لَتُنزَعُ عُقُولُ أَهلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ -أَي: أَرَاذِل- يَحْسَبُ أكثرُهُم أنَّهُم عَلَىٰ شَيءٍ، وَلَيسُوا عَلَىٰ شَيءٍ**»(١).

وَفِي هَذَا المَنعُ مِنَ القِتَالِ أيَّامَ الفتنةِ، وهُو كلُّ قتالٍ يقعُ بَينَ المسلمينَ وَلَيس لَهُم حَاكِمٌ يَسُوسُهُم، أمَّا لَو بَغَت طَائفةٌ عَلَىٰ الإمَامِ فامتنعَتْ مِنَ الوَاجبِ عَلَيها ونَصَبَت الحَربَ وَجَبَ قتالُهَا.

وَقَد حَذَّرَ الصَّادقُ المَصدُوقُ وأَنصَحُ الخلْقِ للخَلقِ مُحمَّدٌ ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الخَوضِ فِي الفتنَةِ حِين يَقَعُ السَّيفُ بَينَ المُسلِمِينَ، فَقَالَ: «**تَكُونُ فِتنَةٌ، النَّائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المُضْطَجِعِ، وَالمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَاعِدِ، وَالقَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي خَيرٌ مِنَ الرَّاكِبِ، والرَّاكِبُ خَيرٌ مِنَ المُجْرِي، قَتلاهَا كُلُّهَا فِي النَّارِ**. قَالَ ابنُ مسعودٍ: قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، وَمَتَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: **ذَلِكَ أَيَّامَ الهَرْجِ**. قُلتُ: وَمَتَىٰ أَيَّامُ الهَرْجِ؟ قَالَ: **حِينَ لَا يَأمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ**، قُلتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِن أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: **اكْفُفْ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ**»(٢).

كَمَا أنَّ فِي هَذَا التَّحذِيرَ مِن قَتلِ المُسلِمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا**

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٨).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنّف، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٥٤).

مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1].

وَالوَعِيدُ عَلَىٰ قَتلِ المُسلِمِ سَواءٌ مَا يَكُونُ فِي قِتَالِ الفِتنَةِ أَو مَا يَحصلُ بَينَ الأَفرَادِ مِنَ الهَوشَاتِ وَغَيرِهَا.

فليتَّقِ اللهَ الشبابُ المدجَّجونَ بالأسلحَةِ، والَّذِين كُلَّمَا تَعارَكَ أحدُهُم معَ أَخِيهِ عَمَدَ إِلَىٰ قَتلِهِ، فَإِنَّهُ دَاخِلٌ تَحتَ الوَعِيدِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ترجِعُوا بَعدِي كُفَّارًا يَضرِبُ بَعضُكُم رِقَابَ بَعضٍ**»[2]، أَي: تَكفُرُونَ نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم وَحقَّ الإِسلَامِ، وتَفعَلُونَ فِعلَ الكُفَّارَ.

وَقَد بَيَّنَتِ النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ عِظَمَ حُرمَةِ دَمِ المُسلِمِ وَحَذَّرَتْ مِن إِيذَائِهِ قَولًا وفِعلًا، ومَنَعتِ الأَسبابَ الَّتِي رُبَّمَا تُفضِي إِلَىٰ قَتلِهِ، فَكَيفَ بِقَتلِهِ؟! فَقَد قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُشِيرُ أحدُكُم عَلَىٰ أَخِيهِ بِالسِّلاحِ فَإِنَّهُ لا يَدرِي لَعَلَّ الشَّيطَانَ يَنزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ**»[3]، وَفِي هَذَا النَّهيِ عَنِ الإِشَارَةِ نَحوَ المُسلِمِ بِالسِّلَاحِ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَرُبَّمَا يُزيِّنُ لَهُ الشَّيطانُ ضَربَ أَخِيهِ، فَيَحِقُّ عَلَيهِ الوَعِيدُ بِدُخُولِ النَّارِ.

وَصَحَّ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَولُهُ: «**مَن أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَلعَنُهُ حَتَّىٰ يَدعَهُ، وَإِن كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**»[4].

قَالَ أَهْلُ العِلمِ: إِذَا استحَقَّ الَّذِي يُشيرُ بِالحَدِيدَةِ اللَّعنَ، فَكَيفَ بِالَّذِي يُصِيبُ بِهَا؟ وَإِنَّمَا يَستَحِقُّ اللَّعنَ إِذَا كَانَت إِشَارَتُه تهدِيدًا، سَواءٌ كَانَ جَادًّا أَم لَاعبًا، وَإِنَّمَا أُوخِذَ

---

(١) سورة النساء:٩٣.

(٢) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

(٣) رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٤) رواه مسلم (٢٦١٦).

اللَّاعبُ لِمَا أَدخَلَهُ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنَ الرَّوْعِ.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَرَّ أَحَدُكُم فِي مَسجِدِنَا أَو فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَىٰ نِصَالِهَا أَن يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ المُسلِمِينَ مِنهَا بِشَيءٍ**»(١).

وَقَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَىٰ أَنْ يُتعَاطَىٰ السَّيْفُ مَسْلُولًا»(٢).

وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَىٰ تَعظِيمِ حُرمَةِ المُسلِمِ، وَتَحرِيمِ تَعَاطِي الأَسبَابِ المُفضِيَةِ إِلَىٰ أَذِيَّتِهِ بِكُلِّ وَجهٍ، كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَولُهُ: «**مَن حَمَلَ عَلَينَا السِّلَاحَ فَلَيسَ مِنَّا**»(٣)، وَمَعنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ مَن حَمَلَ السِّلَاحَ عَلَىٰ المُسلِمِينَ لِقتالِهِم بِهِ بِغَيرِ حَقٍّ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِن تخويفِهِم وَإِدخَالِ الرُّعبِ عَلَيهِم، فَهُو لَيسَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا آخذًا بِهَديهِ، لأَنَّ مِن حَقِّ المُسلِمِ عَلَىٰ المُسلِمِ أَن ينصرَهُ وَيُقاتِلَ دُونَهُ، لَا أَن يرعِبَهُ بحمْلِ السِّلَاحِ عَلَيهِ لإِرَادَةِ قِتَالِهِ أَو قَتلِهِ.

هذَا وَإِنَّ السعيدَ مَن عَافَاهُ اللهُ مِنَ الابتِلَاءِ بدمِ مُسلِمٍ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَن يَزَالَ المُؤمِنُ فِي فُسحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»(٤)، أَي: أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي سَعَةٍ، فَإِذَا قتَلَ ضَاقَ عَلَيهِ دِينُهُ، فَفِيهِ إِشعَارٌ بالوَعِيدِ عَلَىٰ قَتلِ المُؤمنِ مُتعَمِّدًا بِمَا يُتوعدُ بِهِ الكَافِرُ، قَالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِن وَرطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لَا مَخرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيرِ حِلِّهِ»، أَي: أَنَّهُ أَهْلَكَ نَفسَهُ فِي شَيءٍ لَا يَنجُو مِنهُ.

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٤٥٢)، ومسلم (٢٥١٦).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٨١٩).

(٣) رواه البخاري (٦٨٧٤)، ومسلم (٩٨).

(٤) رواه البخاري (٦٨٦٢).

(٨٤) تغيرُ الزَّمانِ واختلالُ المَوازينِ

الحمدُ للهِ الَّذِي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تقديرًا، وَأَشهدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَكَفَىٰ بِاللهِ وليًّا ونصيرًا، وأَشهَدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أَرسلَهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافةً بَشيرًا ونَذيرًا، وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بِإِذنِهِ وسِراجًا مُنيرًا، صلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الَّذِينَ أَذهَبَ اللهُ عَنْهُم الرِّجسَ وَطهَّرَهُم تطهِيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ مِن عَلاماتِ السَّاعةِ الَّتِي أَخبَرَ عَنهَا النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تطَاولَ الحفاةِ العراةِ العالةِ رِعاءِ الشَّاءِ فِي البُنيَانِ، فَقَد جَاءَ فِي حديثِ النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حِينَ ذَكَرَ عَلاماتِ السَّاعَةِ قَالَ: «**أَنْ تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يتطاولُونَ فِي البُنيَانِ**»(١)، وَهَذَا دَليلٌ عَلَىٰ انبساطِ الدُّنيَا عَلَىٰ أَهلِ البَادِيَةِ وَأشباهِهِم مِن أَهلِ الفَقرِ وَالحَاجَةِ حَتَّىٰ يَتباهَونَ فِي البنيَانِ، حتَّىٰ إنَّ كلَّ مَن بَنَىٰ بيتًا يريدُ أَنْ يكونَ ارتفاعُهُ أعلَىٰ مِنَ ارتفاعِ الآخرِ، ويُحتملُ أَن يكونَ المرادُ المباهاةَ فِي الزينةِ والزَّخرَفَةِ.

وهذَا واقعٌ مُشَاهدٌ، حيثُ عَمَدَ كَثيرٌ مِنَ العَربِ الَّذِينَ كَانُوا فِي فقرٍ وقِلَّةٍ إِلَىٰ تَعظِيمِ المَبانِي وَالتَّطَاولِ بِهَا، حتَّىٰ لَحِقَ بَعضُهُم بخُطَا أهلِ الغَربِ فابتنَىٰ العمَارَاتِ الشَّاهِقَةِ الَّتِي تُعَانِقُ السَّحَابَ.

ومِن عَلاماتِ السَّاعَةِ مَا يَحدثُ مِن اختِلالِ المَوازِينِ وَتغيُّرِهَا، حيثُ يَكْثُرُ العقوقُ مِن قِبَلِ الأولادِ لآبائِهِم وأمَّهَاتِهِم، فَقَد ذَكَر النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِنَ الأَمَارَاتِ

---

(١) رواه مسلم (٨).

الدَّالَّةِ عَلَىٰ قُربِ قِيامِ السَّاعَةِ: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**»(١)، وَهَذَا مَعناهُ أَنْ يَكثُرَ العُقُوقُ فِي الأولادِ، حتَّىٰ يُعَامِلَ الابنُ أو البنتُ أُمَّهُ مُعامَلَةَ السَّيِّدِ لِمملوكِهِ فِي إِهانَتِهِ وَسَبِّهِ واستخدَامِهِ، وهَذَا مِن أَوْجَهِ مَا فُسِّرَ بِهِ الحَدِيثُ.

قَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **-بَعدَ أَنْ ذَكَرَ أَوجُهًا أُخرَىٰ فِي تَفسيرِهِ-**: «وهَذَا أَوْجَهُ الأَوْجُهِ عِندِي لعمومِهِ، وَلأنَّ المَقَامَ يدُلُّ عَلَىٰ أنَّ المُرَادَ حَالَةٌ تَكُونُ -مَعَ كَونِهَا تَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ الأحوَالِ- مُستغرَبَةً، ومُحَصَّلُهُ الإِشارَةُ إِلَىٰ أنَّ السَّاعَةَ يَقْرُبُ قيامُهَا عِندَ انعِكَاسِ الأُمُورِ بِحيثُ يَصِيرُ المُرَبَّىٰ مُرَبِّيًا، والسَّافِلُ عَالِيًا».

وَمَن تَأَمَّلَ أَحوَالَ النَّاسِ رَأَىٰ جَلِيًّا مَا أَخبرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن كَثرَةِ العُقُوقِ، حَيثُ اتَّسَمَ كَثِيرٌ مِنَ الأبنَاءِ بِالأَنانِيَّةِ، فانحَازُوا إِلَىٰ زَوجَاتِهِم وَأولادِهِم، وابتَعَدُوا عَن آبائِهِم وأمهاتِهِم، حتَّىٰ إنَّ بعضَهم يَستثقِلُ وجُودَ أحدِ وَالِدَيهِ عِندَهُ فِي المَنزِلِ، وَيتمنَّىٰ مَوتَهُ وَيَنتظِرُ ذَلِكَ بفَارغِ الصَّبرِ، ولولَا الحيَاءُ مِنَ النَّاسِ ومُرَاعَاةُ بَعضِ الجَوَانبِ الاجتمَاعِيَّةِ لأَلقَىٰ بِهِ فِي دُورِ العجزَةِ كَمَا يَفعلُ الفُجَّارُ.

فَلمَّا لَم يَستَطِعْ ذَلِكَ، استبدَلَ ذَلِكَ بِالمُعَامَلَةِ القَاسِيَةِ مِن فظاظَةِ أُسلوبٍ، وَعُبوسِ وَجهٍ، وجَلافةٍ فِي التَّعامُلِ، وكَأَنَّهُ يُعَامِلُ سَجِينًا يَقضِي مُدَّةَ عُقُوبَةٍ، فَيَجِبُ عَلَيهِ حِينئذٍ أَنْ يتحمَّلَ أَذَىٰ السَّجَّانِ وشَرَاسَتَهُ لئلَّا يبطشَ بِهِ أَو يُعَاقِبَهُ بِنوعٍ مِنَ التَّنكِيلِ، وكَأَنَّ ذَلِكَ الولَدَ يُرِيدُ أَن يُوصِلَ إِلَىٰ وَالِدِهِ رِسالةً مَضمُونهَا: «إِنَّنَا مَلِلنَا بَقَاءَكَ فَارتَحِلْ عنَّا».

وَقَد قَالَ بَعضُ الآباءِ يُخاطِبُ ابنَهُ:

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُلْتُكَ يَافِعًا ... تُعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ

إِذَا لَيْلَةٌ ضَامَتْكَ بالسقمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسقْمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ

---

(١) رواه مسلم (٨).

كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِيَ تَهْمُلُ
تَخَافُ الرَّدَىٰ نَفسِي عَلَيْكَ وَإِنَّهَا لَتَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ الَّتِي إِلَيهَا مَدَىٰ مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُصَاحِبُ يَفعَلُ
فَأَوْلَيتَنِي حَقَّ الجِوَارِ ولَمْ تَكُنْ عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ

وَالدُّنيَا سَلَفٌ وَدَيْنٌ، ومَن زَرَعَ زَرْعًا فَسَيَجْنِي نِتَاجَ مَا زَرَعَ، إِنْ خَيرًا فَخَيرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1].

وَمِنَ العَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ قُربِ قِيامِ السَّاعَةِ: ضَيَاعُ الأَمَانَةِ وَإِسنَادُ الأَمرِ إِلَىٰ غَيرِ أَهلِهِ، فَقَد قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قِيلَ: وَكَيفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[2].

فَقَد ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَياعَ الأمانَةِ، ثمَّ بيَّنَ كَيفيَّةَ الإِضاعَةِ بِإِسنادِ الأُمورِ الَّتِي تَتعلَّقُ بِالدِّينِ كَالإمامَةِ وَالمُلكِ وَالإِمَارَةِ والقَضَاءِ والإِفتَاءِ وغَيرِ ذَلكَ إِلَىٰ غَيرِ أَهلِهَا.

ومَن رَأىٰ حالَنَا وما نعيشُهُ فِي هذِهِ الأزمَانِ رَأىٰ عجبًا، كمَا هُو الوَاقعُ فِي أَنْ يلِيَ شُئونَ بعضِ المسلمينَ والٍ فاجرٌ أو قاضٍ مُرتشٍ، أو مُفتٍ ينحرفُ بِالناسِ عَن أمرِ دينِهِم، فيتكلَّمُ بغيرِ عِلمٍ، ويُداهِنُ فِي أمرِ الدِّينِ، ويحسِّنُ لأهلِ الباطِلِ باطِلَهُم، وقَد

(١) سورة الأنعام:١٢٩.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٦).

قَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أمَّتِي الأئمَّةُ المُضِلُّونَ**»(١).

وَقَد قَالَ أَهلُ العِلمِ فِي معنَىٰ إِسنَادِ الأمرِ إِلَىٰ غيرِ أهلِهِ: إنَّ الأئمَّةَ قَد ائتمنَهُم اللهُ عَلَىٰ عبادِهِ، وفرضَ عليهِمُ النَّصيحةَ لهُم، فينبغِي لهُم تولِيَةُ أهلِ الدِّينِ، فإِذَا قلَّدُوا غَيرَ أَهلِ الدِّينِ فقَد ضَيعُوا الأمانَةَ الَّتِي قلَّدَهُم اللهُ تَعَالَىٰ إِيَّاهَا.

وَلَا تزَالُ الأمانَةُ فِي نقصٍ حتَّىٰ ترتفعَ مِنَ القلُوبِ، ولا يبقَىٰ منهَا إلَّا كمَا يبقَىٰ مِن أثرِ تقرُّحِ الحرِيقِ علَىٰ الجلدِ، وقد صحَّ عَن حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «حدَّثنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَينِ رَأيتُ أحدَهُمَا وأنَا انتظِرُ الآخَرَ: حدَّثنَا أنَّ الأمانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثنَا عَن رَفعِهَا قَالَ: **يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأمانَةُ مِن قَلبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثلَ أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ ينامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ، فيبقَىٰ أَثرُهَا مِثلَ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فتَرَاهُ مُنتَبِرًا وَلَيسَ مِنهُ شَيءٌ** -أَي: ينتَفِخُ الجِلدُ بِسببِ لَذعَةِ الحَرِيقِ فيتورَّمُ ويمتَلِئُ ماءً- **فَيصبحُ النَّاسُ يتبايعُونَ، فَلَا يكادُ أحدُهُم يُؤدِّي الأمَانَةَ، فيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا أَظْرَفَهُ، وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلبِهِ مِثقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إِيمَانٍ**. وَلَقَد أَتَىٰ عَلَيَّ زَمانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُم بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسلِمًا رَدَّهُ الإِسلَامُ، وَإِن كَانَ نَصرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وفُلَانًا»(٢).

فَإِذَا كَانَتِ الأمانَةُ قَد ضَعُفَتْ فِي زمانِ حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ مَا فِي زمانِهِ مِنَ الخيرِ العَظِيمِ، ولكنَّهُ عنَىٰ أنَّ الأمانَةَ ضَعُفَت بِالنِّسبةِ لِمَا قَبلَهَا مِنَ الزَّمنِ، فَكَيفَ بأزمانِنَا هَذِهِ؟!

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

وضياعُ الأمانَةِ يحدُثُ عندَ غلبَةِ الجهلِ ورفعِ العلمِ، وكُلَّما تقدَّمَ الزَّمنُ نَحو النِّهايةِ ضَعُفَت، وَأعظَمُ علامَاتِ تضييعِهَا إسنادُ الأمرِ إلَىٰ غيرِ أهلِهِ، فيتولَّىٰ مَن ليسَ أهلًا علَىٰ شئُونِ المسلمينَ، وفِي ذَلكَ تضييعٌ للدِّينِ وَإضعَافٌ لَهُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ عَلَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لَهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تعظيمًا لشَانِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الدَّاعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسلِيمًا كَثِيرًا.

أمَّا بعدُ:

فَمِن علامَاتِ السَّاعَةِ ارتفاعُ الأسافِلِ الأراذِلِ علَىٰ الأخيارِ وذَوِي الفضائِلِ، حتَّىٰ يختَصَّ ضعِيفُ العقلِ والعلمِ بالتقدُّمِ في الأمورِ، والاستئثارِ بشئونِ العامَّةِ، والتَّكلُّمِ نِيابَةً عَنِ النَّاسِ، وقَد جَاءَ ذَلكَ مبيَّنًا فِي حدِيثِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيثُ قَالَ: «**مِن أَشرَاطِ السَّاعَةِ أَن تُرفَعَ الأشرَارُ، وتُوضَعَ الأخيَارُ، ويفتَحَ القَولُ، ويخزَنَ العمَلُ**»(١).

وَجاءَ عَنهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**سَيأتِي علَىٰ النَّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، ويُكذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، ويُؤتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، ويُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنطِقُ الرُّوَيْبِضَةُ. قِيلَ: ومَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجلُ التَّافِهُ يتكلَّمُ فِي أمرِ العَامَّةِ**»(٢).

فَصَلَّىٰ الله وسلَّم علَىٰ معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ الَّذي لا يَنطِقُ بالهَوَىٰ، إن هُو إلَّا وَحيٌ يُوحَىٰ.

---

(١) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٢١).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٧٨).

فَمَن تأمَّلَ فِي زمانِنَا هذَا رَأَىٰ بعَينِ البصيرَةِ مَا أخبرَ عَنهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيثُ يُكذَّبُ الصَّادِقُ، ويُصدَّقُ الكَاذِبُ، ويُؤتمَنُ الخَائِنُ عَلَىٰ شُئُونِ الأُمَّةِ، ويُمدَحُ بأَنَّهُ حريصٌ عَلَىٰ النَّاسِ مُحِبٌّ لَهُم، صَادِقٌ أَمينٌ، ويُقَالُ للرَّجلِ: مَا أظرَفَهُ، ما أعدَلَهُ، ولَيسَ فِي قلبِهِ مِثقالُ حبَّةٍ مِن إيمانٍ، ويُقصَىٰ الأمينُ ويُبعَدُ، وربَّمَا يُتَّهَمُ فِي عقلِهِ وعملِهِ ونبوغِهِ ودينِهِ حِينَمَا يُخَالِفُ مَا عليهِ أهلُ الباطلِ أو يتصدَّىٰ لأفعالِهِم المُشِينَةِ وأقوالِهِم الدَّنيئَةِ.

وَفِي هذَا الزَّمانِ نطقَ الرُّوَيْبِضَةُ -الرَّجلُ التَّافِهُ والمَرأةُ التَّافِهَةُ-، فَتَجِدُ المنحرِفَ أخلاقيًّا يُنَصِّبُ نفسَهُ مفتيًا يُحلِّلُ ويحرِّمُ ويدعُو النَّاسَ إِلَىٰ الرَّذيلَةِ، وتجدُ السَّاقطَةَ تتكلَّمُ فِي أمرِ النِّساءِ والرِّجالِ وتُطالبُ بمَا يُغضِبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن إشاعةِ الرَّذيلةِ والمنكراتِ فِي صفوفِ المجتمعِ، وتُناضلُ عَن فكرِهَا، وتُجاهِدُ فِي سبيلِ ذَلِكَ، وتَجدُ مَن يدعمُهَا ويؤيدُهَا علَىٰ مَا تدعُو إِلَيهِ، ولَكِن لَا عَجَبَ، فإِنَّ مَن فتحَ اللهُ عَلَيهِ بمعرفَةِ ما أخبرَ بِهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَالَ عجبُهُ واستغرابُهُ، فإِنَّ كثيرًا مِن هؤلاءِ مِن سفلَةِ المجتمعِ مِنَ النَّاحيةِ الدِّينيةِ وكَذَا النَّاحيَةِ الاجتماعِيَّةِ، وكَثيرٌ منهُم يُعانِي مِنَ النَّبذِ مِن قِبلِ مجتمعِهِ رَفضًا لِفكرِهِ ووضعِهِ الاجتماعِيِّ الدَّنِيءِ فيحَاولُ أَن يَسدَّ ذَلِكَ النَّقصَ بأَنْ تكونَ لَه صولَةٌ وجولَةٌ، وأَنْ يكونَ مُبرَّزًا في قضيةٍ مِنَ القضَايَا ليكُونَ قائِدًا حتَّىٰ يُشارَ إِلَيهِ بالبَنَانِ، وَيَجدُ مَن يدعمُهُ فِي ذَلِكَ ليسَ حبًّا فِيهِ، ولَكِن لالتقاءِ الأفكارِ حيثُ يريدُ بعضُ الوُصُوليينَ أنْ يصلَ إِلَىٰ مَا يريدُ ولَكِن دُونَ الظُّهورِ إِلَىٰ السَّطحِ، فيجعَلُ هذَا الدَّنِيءَ يَبْرُزُ بأفكارِهِ وهو قابعٌ فِي الظَّلامِ، وصَدَقَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾(١).

وقَد أشارَ النَّبيُّ الصَّادقُ المصدُوقُ، وأنصحُ الخَلْقِ للخَلْقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ

---

(١) سورة التوبة:٦٧.

أولئِكَ النَّفرِ السَّقطِ، الَّذِين يتخذُونَ مِن بعضِ المسائلِ -لاسيَّمَا مَا فِيهِ مَطعنٌ فِي الدِّينِ- مطيةً للتقدُّمِ أمامَ النَّاسِ، ووسيلةً للبروزِ، فَقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والَّذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ لَا تقومُ السَّاعةُ حتَّىٰ يَظهَرَ الفُحشُ والبُخلُ، ويُخوَّنَ الأمينُ، ويُؤتمنَ الخَائِنُ، ويَهْلِكَ الوُعُولُ، وتَظْهَرَ التَّحُوتُ**. قالُوا: يَا رسُولَ الله، ومَا الوُعُولُ والتَّحُوتُ؟ قالَ: **الوُعُولُ وُجُوهُ النَّاسِ وأشرافُهُم، والتَّحُوتُ الَّذِين كانُوا تحتَ أقدَامِ النَّاسِ لَا يُعلَمُ بِهِم**»(١).

ومَن تأمَّلَ ذَلِكَ حقَّ التأمُّلِ، رَأَىٰ أنَّ أكثرَ مَن يُقدَّم فِي محافِلِ النَّاسِ، وَيتكلَّمُ بألسنتِهِم بالباطِلِ، هُو مَن كَانَ هَذَا وَصفَهُ، فقد كَانَ تَحتَ أقدَامِ النَّاسِ لَا قَدْرَ لَهُ ولَا مَنزلةَ، فلمَّا أنعمَ اللهُ عَلَىٰ النَّاسِ بهذَا النَّعيمِ المُترَفِ، فَإذَا بالعصفُورِ يُصبِحُ نسرًا، وإذَا بالهِرِّ يتوهَّمُ نفسَهُ نَمِرًا.

والمصيبةُ أنَّ هؤلاءِ الأسافِلَ لَم يقتصرُوا علَىٰ التكلُّمِ فِي أمورِ الدُّنيَا مَعَ أنَّهُم ليسُوا بأهلٍ لِذَلِكَ، بَل زادُوا علَىٰ ذَلِكَ أنْ لَبِسَ كَثيرٌ مِن هؤُلاءِ المُنحلِّينَ لباسَ الإفتاءِ، فتأتِي ممثلةٌ ساقطةٌ لتفتِي بجوَازِ التَّمثيلِ وضرورةِ الرَّقصِ، وتأتِي إحدَىٰ الشَّاذَّاتِ تُفتِي وتُقعِّدُ لجوَازِ إعطاءِ المِثليينَ حقُوقَهُم المدنِيَّةَ، وفِي كلِّ وادٍ مأساةٌ وجرحٌ لا يلتئِمُ.

وَلَـو كَـانَ سَـهمًا وَاحِـدًا لَاتقيْـتُهُ ... وَلَكِـــنَّهُ سَـــهمٌ وَثَـــانٍ وَثَالِـــثُ

ويَأتِي بعضُ مَن يَلبسُ لباسَ الفتيَا، فيُحاولُ مجاراةَ المجتمعاتِ والأهواءِ ليرتفعَ بِذَلِكَ ذِكرُهُ، فيُفتِي بِمَا يَفتحُ علَىٰ الأُمَّةِ أبوابَ المُنكرَاتِ.

وَيَظهرُ اللئيمُ المغمورُ فيطعنُ فِي أشرافِ النَّاسِ، ليسدَّ بِذَلِكَ نقصَهُ، وظانًّا أنَّه إذَا

---

(١) رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢١١).

فعلَ ذَلِكَ فقد عَلَا نجمُهُ، وقَد يَحصلُ لَهُ مَا أرادَ فِي بعضِ المجتمعاتِ السافلةِ الَّتِي قدَّمَتْهُ علَيْهَا ورَضِيَت بحماقَاتِهِ؛ لأنَّهُم عَلَىٰ نفسِ شاكلتِهِ، ويعانُونَ عقدةَ النَّقصِ الَّتِي يعانِي مِنهَا، وقَد قَالَ معلِّمُ النَّاسِ الخيرَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنيَا لُكَعُ بنُ لُكَعٍ**»[1]، واللُّكَعُ: هو الذَّليلُ النَّفسُ، اللئيمُ، صغيرُ العلمِ والعقلِ.

ومعنَىٰ ذَلِكَ أنَّ المالَ والوجاهَةَ فِي آخِرَ الزَّمانِ تتحوَّلُ فِي أيدِي اللئامِ بنِي اللئامِ، وأنَّهُم يكونونَ أسعدَ النَّاسِ بنعيمِ الدُّنيَا وملاذِّهَا والوجاهَةِ فِيهَا.

وأَعـذرُ مَـا يُدمِـي العُـيُونَ مِـنَ الـبُكَا ... كَـرِيمٌ يَـرَىٰ الدُّنـيَا بِكَـفِّ لَئِـيمِ

هذَا وَإنَّهُ لَا يعنِي وُجُودُ مِثلِ ذَلِكَ أنْ يَسخَطَ العَبدُ عَلَىٰ القَضَاءِ والقدَرِ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يُقَدِّرُ شرًّا محضًا، وإنَّمَا سنَّتُهُ سُبحَانَهُ أَن يبتلِيَ أهلَ الخيرِ بأهلِ الشَّرِّ، ليرفعَ درجاتِ المؤمنينَ، ويمحقَ العُصاةَ الكَافرينَ، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

كَمَا أنَّ الاطِّلاعَ علَىٰ مَا أخبرَ بِهِ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن حوادِثِ الزَّمانِ والإيمانَ بِذَلِكَ مِن أعظَمِ مَا يُسلِّي المؤمنَ ويزيدُ يقينَهُ ويثبِّتُ إيمانَهُ، ويعينُهُ علَىٰ الصَّبرِ علَىٰ مَا يَرَىٰ مِن تغيُّرِ أحوالِ الزمانِ وتقلُّباتِهِ حتَّىٰ يلقَىٰ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهُو عَلَىٰ ذَلِكَ.

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٧٤٣١).

(٢) سورة الأنفال:٤٢.

(٨٥) العافيةُ والسَّكينةُ.. نِعمٌ لا يُغفلُ عنهَا

الحمدُ للهِ الَّذِي أوجدَ الكونَ مِن عدمٍ ودبَّرَهُ، وخلقَ الإنسانَ مِن نطفةٍ فقدَرَهُ، ثُمَّ السبيلَ يسَّرَهُ، ثُمَّ أماتَهُ فأقبَرَهُ، ثُمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ، وصلَّىٰ الله وسلَّم وباركَ وأنعمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ مُحمَّدٍ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واهتدىٰ بهدَيِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن نِعمَةِ اللهِ علَىٰ العَبدِ أنْ يرزقَهُ حسنَ النَّظرِ فِي نِعمِ اللهِ علَيهِ والإِقرَارَ بِهَا، ومَا أعطَاهُ اللهُ مِنَ النِّعمِ الَّتي افتقدَهَا كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، فإنَّه إنْ فعلَ ذَلِكَ هَانَت عليهِ كلُّ مصيبةٍ، واستصغرَ كلَّ بلاءٍ، وتيقَّنَ بمَا اختصَّهُ اللهُ بِهِ مِنَ النعمِ حِين حُرِمَ مِنهَا كَثِيرونَ، فَشَكَرَ نعمةَ اللهِ عَلَيهِ.

ومِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ علَىٰ العبدِ الَّتي لَا يكادُ يفطنُ لهَا، أنَّه قَد يُغلِقُ عليهِ بابَهُ فيُرسِلُ اللهُ إلَيهِ مَن يَطرُقُ عَلَيهِ البَابَ يسألُهُ شيئًا مِنَ القُوتِ ليعرِّفَهُ نعمتَهُ عليهِ، قالَ سَلَّامُ بنُ أَبِي مُطِيعٍ: دَخَلْتُ علَىٰ مريضٍ أعودُهُ، فإذَا هُو يَئِنُّ، فَقُلْتُ لَهُ: اذكُرِ المطروحينَ علَىٰ الطَّرِيقِ، اذكُرِ الَّذِين لَا مأوَىٰ لَهُم، وَلَا لَهُم مَن يخدُمُهُم.

قالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ عليهِ بَعدَ ذَلِكَ فسمعتُهُ يقولُ لنفسِهِ: اذكُرِي المَطرُوحينَ فِي الطَّرِيقِ، اذكُرِىٰ مَن لَا مأوَىٰ لَهُ وَلَا لَهُ مَن يخدُمُهُ.

قَالَ وهبٌ: عبَدَ اللهَ عابدٌ خَمسينَ عامًا، فأوحَىٰ اللهُ إليهِ: إنِّي قد غَفَرْتُ لَكَ، قالَ: أَيْ ربِّ ومَا تغفرُ لِي ولَم أُذْنِبْ؟ فَأَذِنَ اللهُ لِعِرْقٍ فِي عُنُقِهِ يضرِبُ عليهِ، فَلَمْ يَنَمْ وَلَمْ يُصَلِّ، ثمَّ سَكَنَ فَنَامَ، فأتَاهُ مَلَكٌ فشكَا إليهِ مَا لَقِيَ مِن ضَرَبانِ العِرْقِ، فقالَ الملَكُ: إنَّ ربَّكَ يقولُ: إنَّ عبادَتَكَ خمسينَ سنةً تَعدِلُ سُكُونَ العِرْقِ.

وقِيلَ: إنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ: يَا ربِّ، أخبرنِي ما أدنَىٰ نِعَمكَ علَيَّ؟ فأوحَىٰ اللهُ إليهِ: يَا داودُ، تنَفَّسْ، فتنَفَّسَ، فقالَ: هذَا أدنَىٰ نِعَمِي علَيكَ.

وقَالَ عبدُ اللهِ بنُ أبِي نُوحٍ: قالَ لِي رجلٌ علَىٰ بعضِ السَّواحِلِ: كَم عامَلْتَهُ سبحانَهُ بِمَا يَكرَهُ فعامَلَكَ بمَا تُحِبُّ؟ قلتُ: مَا أُحصِي ذَلِكَ كثرَةً، قالَ: فَهَلْ قَصَدْتَ إليهِ فِي أمرٍ كَرَبَكَ فخذلَكَ؟ قلتُ: لَا واللهِ، ولكنَّهُ أحسنَ إلَيَّ وأعانَنِي، قالَ: فهَل سألتَهُ شيئًا فلَم يُعْطِكَه؟ قلتُ: وهَل منعنِي شيئًا سألتُهُ؟ ما سألتُهُ شيئًا قَطُّ إلَّا أعطَانِي، ولَا استعنْتُ بِهِ إلَّا أعانَنِي، قالَ: أرأيتَ لَو أنَّ بعضَ بنِي آدمَ فعلَ بِكَ بعضَ هذِهِ الخِلالِ مَا كانَ جزَاؤُهُ عِندَكَ؟ قلتُ: ما كنتُ أَقْدِرُ لهُ علَىٰ مكافَأَةٍ ولَا جزَاءٍ، قالَ: فرَبُّكَ أحقُّ وأحرَىٰ أَنْ تُدئِبَ نفسَكَ فِي أداءِ شكرِهِ وهُو المحسنُ إليكَ، واللهِ لشكرُهُ أيسَرُ مِن مكافأةِ عبادِهِ، إنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَضِيَ مِنَ العبادِ بالحمدِ شُكرًا.

وبهَذَا يتبيَّنُ أنَّ علَىٰ العبدِ دوامَ شُكرِ اللهِ علَىٰ نعمِهِ الظَّاهرَةِ والباطِنَةِ، وعلَىٰ جميعِ أحوالِهِ، قِيلَ: إنَّ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ: يَا ربِّ مَا أفضلُ الشُّكرِ؟ قالَ: أنْ تشكُرَنِي علَىٰ كُلِّ حَالٍ.

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ: قُلْتُ لأخٍ لِي: أوصنِي، فقَالَ: ما أدرِي مَا أقولُ، غيرَ أنَّهُ ينبغِي لهَذَا العبدِ ألَّا يفتُرَ مِنَ الحمدِ والاستغفَارِ، فإنَّ ابنَ آدمَ بينَ نعمةٍ وذنبٍ، ولَا تصلُحُ النعمَةُ إلَّا بالحمدِ والشكرِ، ولَا الذنبُ إلَّا بالتوبَةِ والاستغفَارِ.

وعلَىٰ العبدِ أَنْ يسأَلَ اللهَ العافيةَ فِي دينِهِ ودنيَاهُ، فإنَّ مَن تحقَّقَ لَهُ ذَلِكَ فقَد قَرَّت عينُهُ وسَعِدَ قلبُهُ، وقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ، فإنَّهُ لَم يُؤتَ بَعْدَ اليَقينِ خَيرًا مِنَ المُعَافَاةِ**»(١).

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٨٩).

وَقالَ العبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمنِي شَيئًا أَسأَلُهُ اللهَ، قالَ: سَلِ اللهَ العافيَةَ، فَمَكَثْتُ أيَّامًا ثُمَّ جِئتُ، فقُلتُ: عَلِّمْنِي شَيئًا أَسأَلُهُ اللهَ، فقالَ لِي: يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العافِيَةَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ**»(١).

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ قالَ: «**يَا نَبيَّ اللهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفضَلُ؟ قالَ: سَلْ رَبَّكَ العفوَ والعافِيَةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، فإذَا أُعطِيتَ العافيَةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، فَقَد أَفْلَحْتَ**»(٢).

وهذَا السُّؤَالُ يتضمَنُ العفوَ عمَّا مضَىٰ، والعافيَةَ فِي الحَالِ، والمعافَاةَ فِي المستقبَلِ بدوَامِ العافِيَةِ واستمرَارِهَا.

وكانَ عبدُ الأعلَىٰ التَّيمِيُّ يقولُ: أكثِرُوا مِن سُؤالِ اللهِ العافيَةَ، فإنَّ المبتلَىٰ وإنِ اشتدَّ بلاؤُهُ ليسَ بأحقَّ بالدُّعاءِ مِنَ المُعافَىٰ الَّذِي لَا يأمنُ البلاءَ، ومَا المُبتَلونَ اليومَ إلَّا مِن أهلِ العافيةِ بالأمسِ، وما المبتلَونَ بعدَ اليوم إلَّا مِن أهلِ العافيَةِ اليومَ.

وعَادَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا هزُلَ فَصَارَ مثلَ الفَرخِ، فقالَ: «**هَل كُنتَ تَدعُو اللهَ بِشيءٍ أو تسأَلُهُ إيَّاهُ؟ قالَ: نَعَم، كُنتُ أَقولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنتَ مُعاقِبنِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنيَا، فقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبحانَ اللهِ! لَا تُطِيقُهُ وَلَا تَستَطِيعُهُ، أَفَلَا قُلتَ: اللَّهُمَّ ربَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ**»(٣).

قَالَ وَهبُ بنُ مُنَبِّه: رُءُوسُ النِّعَمِ ثلاثَةٌ، فأَوَّلُهَا نِعمَةُ الإِسلامِ الَّتِي لَا تَتِمُّ نِعمَةٌ إلَّا بِهَا، والثَّانيةُ نِعمَةُ العافيَةِ الَّتِي لَا تَطِيبُ الحياةُ إلَّا بهَا، والثَّالثَةُ نعمَةُ الغِنَىٰ الَّتِي لَا يَتِمُّ العَيشُ إلَّا بهَا.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٢٣).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٦).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٨).

وقَدِم سَعيدُ الجريريُّ مِنَ الحجِّ، فجعَلَ يقولُ: «أَنعَمَ اللهُ علينا فِي سَفرِنا بِكَذا وكَذا، ثُمَّ قالَ: تَعدَادُ النِّعمِ مِنَ الشُّكرِ».

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ الله: يَا ابنَ آدمَ، إنْ أردْتَ أَن تَعرِفَ قَدْرَ مَا أنعَمَ اللهُ علَيكَ فَغَمِّضْ عَيْنَيْكَ.

وَقَالَ مُقاتلٌ فِي قولِهِ تعَالَىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]، قالَ: أمَّا الظَّاهرةُ فالإسلامُ، وأمَّا الباطنَةُ فَستْرُهُ عليكُم بالمَعَاصِي.

وقَالَ مجاهِدٌ فِي قولِ اللهِ تعَالَىٰ عَن دَاودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2]، قالَ: لَم يأكُلْ شَيئًا إلَّا حمِدَ اللهَ علَيهِ، ولَم يَشرَب شَرَابًا قطُّ إلَّا حمدَ اللهَ علَيه، ولَم يبطِش بِشَيءٍ قطُّ إلَّا حمدَ اللهَ علَيهِ، فأثنَىٰ اللهُ علَيهِ أنَّهُ كانَ عبدًا شكورًا.

وقَالَ محمَّدُ بنُ كعبٍ: كانَ نُوحٌ إذَا أَكَلَ قالَ: الحمدُ للهِ، وإذَا شرِبَ قالَ: الحمدُ للهِ، وإذَا لَبِسَ قالَ: الحمدُ للهِ، وإذَا رَكِبَ قالَ: الحمدُ للهِ، فسمَّاهُ اللهُ عبدًا شكورًا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وبَارَكَ وأَنعَمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن تمَامِ نعمَةِ اللهِ علَىٰ عبدِهِ أن يرزقَهُ السَّكينَةَ والطمأنينَةَ، لِمَا يترتَّبُ علَىٰ

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) سورة الإسراء: ٣.

ذَلِكَ مِنَ السعادَةِ القلبيَّةِ وبَردِ اليقينِ.

فالسكِينَةُ هِي الطمأنينَةُ والوقَارُ، والسُّكُونُ الَّذِي ينزلُهُ اللهُ فِي قلبِ عبدِهِ عندَ اضطرابِهِ مِن شدَّةِ المخاوفِ، فلا ينزعجُ بعدَ ذَلِكَ لِمَا يرِدُ عَليهِ، ويُوجبُ لهُ زيادةَ الإيمانِ، وقوةَ اليقينِ والثباتِ.

ولهذَا أخبَرَ سبحانَهُ عَن إنزالِهَا علَىٰ رسولِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعلَىٰ المؤمنِينَ فِي مواضعِ القَلَقِ والاضطرَابِ.

فيومُ الهجرةِ، إذْ هُو وصاحبُهُ فِي الغارِ، والعدوُّ فوقَ رءوسِهِم، فقالَ لَه أبُو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**يَا رسُولَ اللهِ، لَو أنَّ أحدَهُم نظَرَ إلَىٰ قَدَمِهِ أبصرَنَا، فقَالَ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **يَا أبَا بكرٍ، مَا ظنُّكَ باثنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُمَا**»(١)، فثبَّتَ اللهُ قلبَ نبيِّهِ، وأنزلَ علَيهِ السكينَةَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾(٢).

ويَومَ حُنينٍ حِينَ وَلَّوا مُدبرِينَ مِن شِدةِ بأسِ الكُفَّارِ، لا يلتفتُ أحدٌ منهُم علَىٰ أحدٍ، ولَا يعطِفُ علَيهِ، فامتنَّ اللهُ بإنزالِ السكينَةِ علَيهِم، قالَ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣).

ويَومَ الحديبيةِ حِينَ اضطرَبَت قلوبُهُم مِن تحكُّمِ الكفَّارِ علَيهِم، ودخولِهِم تحتَ شروطِهِم الَّتي لَا تحتملُهَا النُّفُوسُ، أَنزلَ اللهُ السكينةَ فِي قلوبِهِم، فقالَ سبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) سورة التوبة: ٢٦.

ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١).

وقالَ سبحانَهُ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٢)، وقال: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذَا اشتَدَّتْ عليهِ الأُمُورُ: قَرَأَ آيَاتِ السَّكينَةِ، وسمعْتُهُ يقولُ فِي واقعةٍ عظيمةٍ جَرَتْ لَهُ فِي مرضِهِ، تَعجزُ العُقُولُ عَن حملِهَا -مِن محارَبَةِ أرواحٍ شيطانيَّةٍ، ظَهَرَتْ لَهُ إِذْ ذَاكَ فِي حالِ ضعفِ القوَّةِ- قالَ: فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقارِبِي ومَن حولِي: اقرءُوا آياتِ السَّكينَةِ، فأقلعَ عنِّي ذَلِكَ الحَالُ».

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: «وقَد جرَّبْتُ أنَا أيضًا قراءَةَ هذِهِ الآيَاتِ عندَ اضطرَابِ القلبِ بِمَا يَرِدُ عليهِ، فَرَأَيْتُ لهَا تأثيرًا عظيمًا في سكونِهِ وطمأنينتِهِ.

ولذَا كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ النَّاسِ ثباتًا فِي أحلَكِ المواقِفِ، لِمَا امتنَّ اللهُ عليهِ بِهِ مِنَ السكينَةِ، قالَ البراءُ بنُ عازبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رأَيتُ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقُلُ مِن تُرَابِ الخَنْدَقِ، حتَّىٰ وَارَىٰ التُّرَابُ جلدَةَ بطنِهِ، وهُو يرتجزُ بكلمَةِ عبدِ الله بنِ رَوَاحةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

اللَّهُمَّ لَولَا أَنتَ مَا اهتَدَينَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَينَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

---

(١) سورة الفتح: ٤.

(٢) سورة الفتح: ١٨.

(٣) سورة الفتح: ٢٦.

إِنَّ الأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِن أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»

فَالسَّكينةُ إِذَا نَزَلَتْ علَىٰ القلبِ اطمأنَّ بهَا، وسَكَنَت إِليهَا الجوَارِحُ وخشَعَتْ، واكتسَبَتِ الوقَارَ، وأنطقَتِ اللِّسانَ بالصَّوابِ والحكمَةِ، وحالَت بينَهُ وبينَ قولِ الخَنَا والفحشِ واللَّغوِ وكلِّ قولٍ باطلٍ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنَّا نتحدَّثُ أنَّ السكينةَ تنطِقُ علَىٰ لِسَانِ عُمرَ وقلبِهِ.

وكَثيرًا ما ينطقُ صاحِبُ السكينةِ بكلامٍ لَم يكُن عَن فكرةٍ منهُ، ولَا رَويَّةٍ، ولَا هِبةٍ، ويستغربُهُ هو مِن نفسِهِ، كمَا يستغربُ السَّامعُ لَهُ، وربَّمَا لَا يعلَمُ بعدَ انقضَائِهِ بمَا صَدَرَ مِنهُ، وأكثرُ مَا يكُونُ هذَا عِندَ حاجةِ الإنسانِ، وصِدقِ رغبتِهِ إِلَىٰ اللهِ، والإسراعِ بقلبِهِ حتَّىٰ يكونَ بينَ يَدَي اللهِ، معَ تجرُّدِهِ مِنَ الأهواءِ، وبذلِ النَّصيحَةِ للهِ ولرسولِهِ ولعبادِهِ المؤمنينَ.

والسَّكينَةُ هِي ذَلِكَ الشُّعُورِ الَّذِي يسكُنُ إِلَيهِ الخَائِفُ، ويَتَسلَّىٰ بِهِ الحزِينُ والضَّجِرُ، ويسكُنُ إِليهِ العَاصِي والجرِيءُ والأبيُّ.

فإِذَا باشرَتَ هذِهِ السَّكينَةُ قلبَ العبدِ سكَّنَت خوفَهُ، وسلَّت حُزنَهُ، فإِنَّهَا لَا حُزنَ معَهَا، وهِي سَلوَةُ المحزُونِ، ومُذهِبَةُ الهُمومِ والغُمومِ، وتُذهِب عَنه الضَّجَرَ، وتَبعثُ نشوةَ العزمِ، وتَحُولُ بينَهُ وبينَ الجرأَةِ علَىٰ مخالفَةِ الأمرِ، وبينَ إِباءِ النَّفسِ والانقيادِ إِلَيهِ.

كَمَا أَنَّ مِنَ الوَاجبِ السَّكينَةَ عندَ المعاملَةِ بمحاسبَةِ النُّفوسِ، وملاطفَةِ الخلقِ، ومراقبَةِ الحقِّ، حتَّىٰ تعرِفَ مَا لَهَا ومَا علَيهَا، ولَا يدعُهَا تَسترَسِلُ فِي الحقوقِ استرسَالًا، فيضيعُهَا ويهملُهَا، قَالَ الحسنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ المؤمِنَ لَا ترَاهُ إِلَّا قائمًا علَىٰ نفسِهِ: ما أَرَدْتُ بِكلمَةِ كذَا؟ ما أردتُ بأكلَةِ كذَا؟ ما أردتُ بمدخَلِ كذَا ومخرَجِ كذَا؟ ما أردتُ بهذَا؟ مَا لِي ولهذَا؟ واللهِ لَا أعودُ إِلَىٰ هذَا، ونحوِ هذَا مِنَ الكلَامِ.

كما أَنَّه بمحاسبتِهَا يَطَّلِعُ علَىٰ عيوبِهَا ونقائصِهَا، فيمكنُهُ السَّعيُ فِي إصلاحِهَا.

(٨٦) مِن مواعظِ أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحمدُ للهِ خلَقَ مِنَ الماءِ بَشرًا فجعلَهُ نسبًا وصِهرًا، أحمدُهُ سبحانَهُ وأستغفِرُهُ إعلانًا وسرًّا، وأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ أعلَىٰ النَّاسِ منزلةً وقدرًا، صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسلِيمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فقَد شرَّفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبَا بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمقَامِ العالِي، والمنزلَةِ الرفيعَةِ الَّتِي لَا تخفَىٰ علَىٰ مسلمٍ، وامتنَّ علَيهِ بأعظَمِ منَّةٍ، حيثُ جعلَهُ أفضلَ هذِهِ الأمَّةِ بعدَ نبيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخيرَ الخليقَةِ بعدَ الأنبياءِ والمرسلينَ -علَيهِم الصَّلَاةِ والسَّلَامِ-، وأنعَمَ علَيهِ بأَنْ وفقَهُ للأخلَاقِ الرفيعَةِ، والخصَالِ النَّادرَةِ، فكانَ أشجعَ النَّاسِ إذَا لَقِيَ النَّاسَ، وأرحمَ النَّاسِ إذَا استحكَمَ البأسُ، وكانَ مُذِلًّا للدُّنيَا بإدبَارِهِ عنهَا، ومُعِزًّا للآخِرَةِ بإقبالِهِ علَيهَا، مُبتغِيًا بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ؛ ومِن أجلِ ذَلِكَ فقَد أثَّرَتْ كلماتُهُ فِي القلُوبِ، وأصبحَت كالمَعِينِ الصَّافِي الَّذِي يطمَحُ إلَيهِ كُلُّ ظمآنٍ ومكروبٍ، والمنارَاتِ الَّتِي يهتَدِي بهَا مَن أرادَ الرشدَ والوصولَ إلَىٰ المطلُوبِ.

وهاهُنَا نذكرُ طرفًا مِن أقوالِهِ الجميلَةِ، ومواعظِهِ الشيقَةِ الجزيلَةِ، الَّتِي مَن وُفِّقَ إلَىٰ الأخذِ بهَا فقَد هُدِيَ إلَىٰ كلِّ خيرٍ.

فقَد قالَ -رَضِيَ اللهُ عنهُ وأرضَاهُ-:

فإنِّي أوصيكُم بتقوَىٰ الله، وأَن تُثْنُوا علَيهِ بمَا هُو أهلٌ لَهُ، وأنْ تخلِطُوا الرَّغبَةَ بالرَّهبَةَ، وتَجمَعُوا الإلحافَ بالمَسألَةِ، فإنَّ اللهَ تعَالَىٰ أثنَىٰ علَىٰ زكرِيَّا وعلَىٰ أهلِ بيتِهِ،

فقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[١]، ثمَّ اعلمُوا أنَّ اللهَ تعَالَىٰ قَد ارتَهَنَ بحقِّهِ أنفسَكُم، وأخذَ علَىٰ ذَلِكَ مواثيقَكُم، واشترَىٰ منكُم القليلَ الفانِي بالكثيرِ الباقِي، وهذَا كتابُ اللهِ فِيكُم لا تَفْنَىٰ عجائبُهُ، ولا يُطفأُ نورُهُ، فصَدِّقُوا قولَهُ، وانتصِحُوا كتابَهُ، واستبصرُوا فِيهِ ليومِ الظلمةِ، فإنَّمَا خَلقَكُم للعِبَادَةِ، ووكَّل بكُمُ الكِرَامَ الكَاتبينَ، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]، ثمَّ اعلَمُوا أنَّكُم تغدُونَ وتروحُونَ فِي أَجَلٍ قَد غُيِّبَ عَنكُم علمُهُ، فَإِنِ استطعتُم أنْ تنقضِيَ الآجَالُ وأنتُم فِي عملٍ للهِ فافعَلُوا، ولَن تستطيعُوا ذَلِكَ إلَّا بِاللهِ، فسَابقُوا فِي مَهَلِ آجالِكِم قَبلَ أنْ تنقَضِي، فيرُدَّكُم إلَىٰ أسوَإِ أعمالِكُم، فإنَّ أقوامًا جعلُوا آجالَهُم لغيرِهِم ونسُوا أنفسَهُم، فأنهَاكُم أنْ تكونُوا أمثالَهُم، فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فإنَّ وراءَكُم طالبًا حثيثًا أمرُهُ سَرِيعٌ.

وأوصيكُم باللهِ لفقرِكُم وفاقتِكُم أنْ تتقُوهُ، وأنْ تستغفرُوهُ إنَّهُ كانَ غفَّارًا، ثمَّ تفكرُوا فيمَن كانَ قبلَكُم، أينَ كانُوا أمسِ؟ وأينَ هُمُ اليومَ؟ أينَ الملوكُ الَّذِين كانُوا أثارُوا الأرضَ وعمرُوهَا؟ قد نُسُوا ونُسيَ ذكرُهُم، فَهُمُ اليومَ كَلَا شَيءٍ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ﴾[٣]، وهُم فِي ظُلمَاتِ القُبورِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾[٤]، وأَينَ مَن تَعرِفونَ مِن أصحابِكُم وإخوانِكُم؟ قد وردُوا علَىٰ ما قدِمُوا، فحَلُّوا الشقوَةَ أو السعادَةَ.

إنَّ اللهَ تعَالَىٰ لَيسَ بينَهُ وبَينَ أحدٍ مِن خلقِهِ نَسَبٌ، يُعطِيهِ بِهِ خيرًا أو يَصرفُ عنهُ

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) الانفطار: ١٢.

(٣) النمل: ٥٢.

(٤) مريم: ٢٩.

سُوءًا، إِلَّا بطاعتِهِ واتِّباعِ أمرِهِ، وإِنَّهُ لَا خَيرَ بِخيرٍ بعدَهُ النَّارُ، ولَا شَرَّ بشرٍّ بعدَهُ الجنَّةُ.

وقَد رأيتُ الدنيَا قَد أقبلَت، وهِي جائيَةٌ، وستتخذُونَ سُتُورَ الحَريرِ ونضائدَ الديباجِ، وواللهِ لأنْ يُقدَّمَ أحدُكُم فيُضربَ عنقُهُ فِي غيرِ حدٍّ خيرٌ لَهُ مِن أنْ يسبَحَ فِي غمرَةِ الدُّنيَا.

إنَّ للهِ عَزَّوَجَلَّ عمَلًا بالنهَارِ لا يقبلُهُ بالليلِ، وعملًا بالليلِ لَا يقبلُهُ بالنهارِ، وإِنَّهُ لَا يقبلُ نافلةً حتَّىٰ تؤدَّىٰ الفريضَةُ، وإنَّمَا ثقلَت موازينُ مَن ثقلَت موازينُهُ يومَ القيامَةِ باتِّباعِهِمُ الحَقَّ فِي الدُّنيَا وثقلِهِ علَيهِم، وحقٌّ لميزانٍ يُوضعُ فيهِ الحقُّ غدًا أنْ يكونَ ثقيلًا، وإنَّمَا خفَّت مَوازينُ مَن خفَّت موازينُهُ يومَ القيامَةِ باتِّباعِهِم البَاطلَ فِي الدنيَا وخفَّتِهِ عليهِم، وحَقٌّ لميزانٍ يُوضعُ فِيهِ الباطلُ غدًا أن يكونَ خفيفًا، وإنَّ اللهَ تعَالَىٰ ذَكرَ أهلَ الجنَّةِ فذكَرَهُم بأحسَنِ أعمالِهِم، وتجاوزَ عَن سيئاتِهِم، فإذَا ذكرتُهُم قلتُ: إنِّي لأخافُ ألَّا ألحقَ بِهِم، وإنَّ اللهَ تعَالَىٰ ذَكرَ أهلَ النَّارِ، فذكرَهُم بأسوإِ أعمالِهِم ، وردَّ عليهِم أحسنَهَا، فإذَا ذكرتُهُم قُلتُ: إنِّي لأرجُو ألَّا أكونَ معَ هؤلَاءِ.

وإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فاتحٌ عليكُمْ الدنيَا، فَلَا تأخذُوا منهَا إلَّا بلاغَكُم، وليكُونَ العبدُ راغبًا راهبًا، فَلا يتمنَّىٰ علَىٰ اللهِ، ولا يقنَط مِن رحمَتِهِ.

ولَا خيرَ فِي قولٍ لَا يُرادَ بِهِ وجهَ اللهِ تعَالَىٰ، ولَا خَيرَ فِي مالٍ لا يُنفقُ فِي سبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَا خيرَ فيمَن يغلِبُ جهلُهُ حلمَهُ، ولَا خيرَ فيمَن يخافُ فِي اللهِ لومةَ لائِمٍ.

وإنَّ اللهَ سبحانَهُ قرَنَ وعدَهُ بوعيدِهِ، ليكُونَ العبدُ راغبًا راهبًا، والموتُ أهونُ ممَّا بعدَهُ، وأشدُّ ممَّا قبلَهُ، وليست معَ العزَاءِ مصيبَةٌ.

وإنَّ المسلِمَ ليُؤجرَ فِي كلِّ شيءٍ حتَّىٰ فِي النكبَةِ، وانقطاعِ شسعِ نعالِهِ، والبضاعَةُ تكُونُ فِي كمِّهِ فيفتقدُهَا فيفزَعُ لهَا، فيجدُهَا.

ودعاءُ الأخِ لأخيهِ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُستجَابُ.

وثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيهِ كنَّ علَيهِ: البغيُ، والنكثُ، والمكرُ، والعداوةُ تتوارثُ، والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطِقِ، ولا طامَّةٌ إلَّا وفوقَهَا طامَّةٌ.

ولَا تحقرَنَّ أحدًا مِنَ المُسلمينَ، فإنَّ صغيرَهُم عندَ اللهِ كبيرٌ، ولِينُ الكلامِ مِن أخلاقِ الكرَامِ، ومَنِ امتطَىٰ زمَامَ التغافُلِ ملَكَ زمَامَ المروءَةِ، وكثيرُ القولِ يُنسي بعضُهُ بعضًا، وإنَّمَا لكَ ما وُعِيَ عنكَ.

وأفضَلُ النَّاسِ عندَ اللهِ مَن عزَّ بِهِ الحقَّ، وانتشرَ عنهُ الصِّدقُ، ورَتقَ برأيِهِ الفتقَ.

وَإِيَّاكُم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكذِبَ مجانبٌ للإيمانِ، وكلُّ الخِلالِ يُطبعُ علَيهَا المؤمِنُ إلَّا الخيانَةَ والكذِبَ، ولسانُ الصدقِ خيرٌ للمرءِ مِنَ المالِ يأكلُهُ ويورثُهُ.

والحسَبُ التَّقوَىٰ، وفِرَّ مِنَ الشرفِ يتبعكَ الشرفُ؛ واحرِصْ علَىٰ المَوتِ تُوهب لكَ الحياةُ.

ولا يُصلِحُ هذَا الأمرَ إلَّا شدةٌ فِي غيرِ عنفٍ، ولِينٌ في غيرِ ضعفٍ، وإذَا كانَ المالُ عندَ مَن لا ينفِقُهُ، والسلاحُ عندَ مَن لا يستعملُهُ، والرأيُ عندَ مَن لا يُقبَلُ منهُ، ضاعتِ الأُمورِ.

وإنِّي لأبغضُ أهلَ البيتِ يُنفقونَ نفقةَ الأيامِ فِي اليومِ الواحدِ.

وإنَّ النَّاسَ يقرأونَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1]، ويَضعونَهَا علَىٰ غيرِ موضعِهَا، ألَا وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ القومَ إذَا رَأَوا الظَّالِمَ فلَمْ يأخُذُوا علَىٰ يَدَيْهِ، أَوِ المنكرَ فلَم يُغيِّرُوهُ، عمَّهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بعِقَابِهِ**»[2].

---

(١) المائدة:١٠٥.

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٣٣٨).

أَلَا وإنَّ أشقَىٰ النَّاسِ فِي الدُّنيَا الملُوكُ، فإنَّ مِنَ المُلوكِ مَن إذَا مَلَكَ، قَصُرَ أجلُهُ، ووُكِّلَت بِهِ الروعةُ والحُزْنُ، وكثُرَ في عينِهِ قليلُ مَا فِي يدِ غيرِهِ، وقلَّ فِي نفسِهِ كثِيرُ مَا عندَهُ، فهُو يحسدُ علَىٰ القلِيلِ، ويتسخطُ الكثيرَ، ويسأَمُ الرخاءَ، وتنقطِعُ عنهُ اللَّذةُ، ولَا يَستعمَلُ العِبْرَةُ، ولَا يَسكنُ إلَىٰ الثقَةِ، فهُو كالسَّرابِ الخادِعِ، فَرِحُ الظاهِرِ، حزينُ الباطنِ، فإذَا وَجَبَت نفسُهُ، ونَضَبَ عمرُهُ، وضَحَا ظلُّهُ، حاسبَهُ الله فأشدَّ حسابَهُ، وأقلَّ عفوَهُ، إلَّا مَن آمنَ باللهِ، وحَكَمَ بكتابِهِ وسنَّةِ نبيِّهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَلَا إِنَّ الفقراءَ همُ المرحُومُونَ، أَلَا وإنَّكُم اليومَ علَىٰ خلافَةِ النُّبوَّةِ، ومَفرَقِ المحجَّةِ، فإنْ كانَتْ للباطِلِ نزوَةٌ، ولأَهلِ الحقِّ جولَةٌ، يعفُو لَهَا الأَثَرُ، ويموتُ لَهَا البشرُ، وتَحيَا بهَا الفِتنُ، وتموتُ لهَا السُّننُ، فالزمُوا المساجِدَ، واستشيرُوا القرآنَ، واعتصمُوا بالطَّاعَةِ، ولا تفارِقُوا الجماعَةَ، وليَكُنِ الإبرَامُ بعدَ المشاورَةِ، والصفقَةُ بعدَ طولِ التناظُرِ.

اللَّهُمَّ أنتَ أعلَمُ بِي مِن نفسِي، وأنَا أعلَمُ بنفسِي مِنهُم، اللَّهُمَّ اجعلنِي خيرًا ممَّا يحسبونَ، واغفِر لِي مَا لَا يعلمُونَ، ولَا تُؤاخِذْنِي بمَا يقُولُونَ، اللَّهُمَّ ابسُطْ لِي الدُّنيَا وزهِّدنِي فيهَا، ولا تزوِهَا عنِّي وترغبنِي فِيهَا، اللَّهُمَّ اجعَل خيرَ زمانِي آخرَهُ، وخيرَ عملِي خواتمَهُ، وخيرَ أيَّامِي يومَ لقائِكَ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبَةُ للمتقينَ، ولا عُدوانَ إلَّا علَىٰ الظَّالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أَمَّا بعدُ:

فإِنَّ للمواعِظَ تأثيرًا فِي القلوبِ، وترويضًا للنفوسِ، وتقويمًا للأخلاقِ والسلوكِ، وإقامةً للحجَّةِ، وردَّ الخلقِ إِلَىٰ جادَّةِ الحقِّ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١)؛ أَي: نعظُهُم وننهَاهُم لنعذرَ فيهِم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: فَيتركونَ مَا هُم فِيهِ مِنَ المعصيةِ ويهتدونَ.

وهذَا مِن أعظَمِ غايَاتِ الوعظِ، أن يُعملَ بِهِ ويُقامَ أمرُ اللهِ، ولَيسَ فقَط أنْ تُقامَ الحُجَّةُ.

وعَلَىٰ المرءِ أنْ يكونَ رفيقًا فِي وعظِهِ، طامعًا فِي تأثيرِ كلماتِهِ، فقَد لَا يَظهرُ أثرُهُ فِي شخصٍ مَا، فَلا ييأسُ منهُ ثُمَّ ينقطِعُ عَنِ الوعظِ والتَّذكيرِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، فأجرُهُ مكتوبٌ، والهدَايَةُ إِلَىٰ الخيرِ هِبةٌ مِنَ اللهِ، وقلوبُ العبادِ بيدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقلِّبُهَا كَيفَ يَشاءُ، قَالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٢).

والمُوَفَّقُ أعظَمُ التَّوفيقِ مَن هداهُ اللهُ وسددَهُ، وثبَّتَ قلبَهُ وأرشدَهُ.

❊❊❊

(١) الأعراف: ١٦٤.

(٢) القصص: ٥٦.

(٨٧) مِن مواعظِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحمدُ للهِ الذِي خلقَ كلَّ شيءٍ فقدرَهُ تقديرًا، ودَبَّرَ عبادَهُ عَلَىٰ مَا تقتضِيهِ حِكمتُهُ وكانَ بهِم لطيفًا خَبيرًا، وأشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شرِيكَ لَهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ؛ أرسلَهُ بينَ يدَي الساعَةِ بشيرًا ونَذِيرًا، ودَاعيًا إلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسِراجًا منيرًا، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَن تبعَهُم بإحسَانٍ إلَىٰ يَومِ الدِّينِ وسلَّمَ تسلِيمًا كَثيرًا.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ ممَّا زخرَتْ بِهِ الكتبُ والمقالاتُ، تلكَ المواعظَ السَّنيةَ، والعباراتِ الجميلةَ النديَّةَ، التي تُسَرُّ بهَا الأسماعُ، وتأنسُ بهَا المجالسُ، وتسعَدُ بهَا القلوبُ، وتنشرِحُ بهَا الصدورُ، ممَّا نُقلَ عَن أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، العابدِ التقيِّ، والزاهِدِ النقيِّ، الذِي كان إذَا قالَ أسمعَ، وإذَا مشَىٰ أسرعَ، وإذَا ضربَ فِي ذاتِ اللهِ أوجعَ، وكانَ هوَ الناسكَ حقًّا، والمتواضعُ صِدقًا، الذِي إذَا قضَىٰ حكمَ بالعَدلِ، وإذَا وهبَ أعطَىٰ الجزلَ، وإذَا نطقَ أصابَ الحكمةَ والفصلَ.

وقد جاءَ عنهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ قالَ:

حاسبُوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تُحاسبُوا، وزِنُوا أنفسَكُم قبلَ أنْ توزَنُوا، وتزيَّنُوا للعرضِ الأكبَرِ، يومئذٍ تُعرضُونَ لَا تخفَىٰ مِنكُم خافيَةٌ، والزهَادةُ في الدنيَا راحةُ القلبِ والجسدِ، وإنَّ اللهَ أعزَّكُم بِالإسلامِ فمَهمَا طلبتُمُ العزَّ فِي غيرِهِ أذَلَّكُم.

ولَا يُلهينَّكَ الناسُ عَن ذاتِ نفسِكَ، فإنَّ الأمرَ يخلُصُ إليْكَ دونَهُم، ولَا تَقطَعِ النهارَ بِكَيتَ وكَيْتَ، فإنَّهُ محفوظٌ عليْكَ مَا قُلتَ، ولَم ترَ شيئًا أحسنَ طلبًا ولَا أسرعَ

إدرَاكًا مِن حسَنةٍ حديثَةٍ لذنبٍ قَديمٍ.

ومَنْ أكثَرَ مِن ذِكرِ الموتِ رضِيَ مِن الدنيَا بِاليَسيرِ، وَوَدِدتُ أنِّي أُفلِتُ كفافًا لَا عَليَّ ولَا لِي، ولَوْ أنَّ لِي طِلاعَ الأرضِ ذَهبًا وفضَّةً لافتدَيْتُ بهَا مِنْ هَولِ المَطلعِ، ولَو أنَّ لِي الدنيَا ومَا فيهَا لافتدَيتُ بهَا مِن هَولِ مَا أمامِي قبلَ أنْ أعلَمَ مَا الخَبرُ.

وإنمَا الدنيَا أملٌ مُختَرَمٌ، وأجَلٌ مُنتقَصٌ، وبلاغٌ إلَىٰ دارٍ غيرِهَا، وسيرٌ إلَىٰ الموتِ ليسَ فيهِ تعرِيجٌ، فرحِمَ اللهُ امرأً فكَّرَ فِي أمرِهِ، ونصحَ لنفسِهِ، وراقبَ ربَّهُ، واستقالَ ذنبَهُ.

ومَنِ اتقَىٰ اللهَ وقَاهُ، ومَنْ توكَّلَ عَليْهِ كفَاهُ، ومَنْ شَكرَهُ زادَهُ، ومَن أقرضَهُ جزَاهُ، فاجعَلِ التقوَىٰ جلَاءَ بصرِكَ، وعمَادَ ظهرِكَ، فإنَّهُ لَا عمَلَ لِمَن لَا نيَّةَ لَهُ، ولَا أجرَ لِمَنْ لَا حسنَةَ لَهُ، ولَا جَديدَ لمَن لَا خَلِقَ لَهُ.

ولَم ينزِلْ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولَا يُكشفُ إلَّا بتوبَةٍ، ومَهمَا ينزِلْ بامرِئٍ شدةٌ يُجعَلْ بعدَهَا فرجٌ، فإنَّهُ لَن يغلبَ عُسرٌ يُسرَينِ.

ومَا وَجَدْتُّ صلاحَ الولايَةِ إلَّا بثلاثٍ: أداءِ الأمانَةِ وَالأخذِ بالقوَّةِ والحكمِ بمَا أنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصلاحُ هذَا المالِ بثلاثٍ: أنْ يؤخذَ بحقٍّ ويُعطَىٰ فِي حقٍّ ويُمنعَ مِن باطِلٍ.

والرجوعُ إلَىٰ الحقِّ أولَىٰ منَ التمَادِي فِي الباطِلِ، والطمَعُ الكاذِبُ فقرٌ حاضِرٌ، ومَا الخمرُ صِرفًا بأذهَبَ لعقُولِ الرجَالِ مِنَ الطَّمعِ.

ولَا تَصْغَرَنَّ هِمَّتُكَ، فإنِّي لَم أرَ أقعَدَ بالرجُلِ مِن سقُوطِ همَّتِهِ، وتَوفيقٌ قليلٌ خيرٌ مِن مالٍ كثيرٍ، ومَا كانَتِ الدنيَا هَمَّ أحدٍ إلَّا لزِمَ قلبَهُ أربعٌ: فقرٌ لَا يدرِكُ غِناهُ، وهمٌّ لَا ينقضِي مداهُ، وشغلٌ لَا ينفَدُ أولَاهُ، وأملٌ لَا يُدرَكُ مُنتهاهُ، فجاهِدُوا أنفسَكُم كمَا تُجاهدُونَ أعداءَكُم، ولَا تستَعِنْ علَىٰ حاجَتِكَ إلَّا بمَن يُحبُّ نجاحَهَا لَكَ.

والرجالُ ثلاثَةٌ: رجلٌ ذُو عقلٍ ورَأي؛ فهُوَ يعمَلُ عَليهِ، ورجلٌ يشاوِرُ فيمَا أشكَلَ عليهِ وينزِلُ حيثُ يأمرُهُ أهلُ الرَّأيِ، ورجلٌ حائِرٌ بأمرِهِ لَا يأتِي رشدًا ولَا يُطيعُ مُرشدًا.

وصاحبُ الحاجَةِ أبلَهُ، لَا يرشُدُ إلَىٰ الصوابِ، فلقِّنُوا أخاكُمْ وسدِّدُوا صاحِبَكُم.

والكرَمُ التَّقوَىٰ، والحسَبُ المالُ، ولستَ بخيرٍ مِن فارسيٍّ ولَا نَبَطيٍّ إلَّا بالتقوَىٰ، وليسَ ينبَغِي لمَن أخذَ بالتُّقَىٰ أنْ يذلَّ نفسَهُ لصاحبِ دنيَا.

ولَو كانَ الصبرُ والشكرُ بَعيرَيْنِ مَا باليتُ أيهُمَا رَكبْتُ.

وعليْكَ بالصدْقِ وإنْ قتلَكَ، ورحِمَ اللهُ عبدًا أصلَحَ مِن لسانِهِ، ولَا تهاوَنُوا بالحلِفِ باللهِ فيُهينكُمُ اللهُ.

ويكفِيكَ مِنَ الحاسدِ أنَّهُ يغتَمُّ وَقتَ سُرورِكَ، ولوَ أنَّ امرأً كانَ أقومَ منَ القِدْحِ (أي: السَّهمِ)، لوجدتَ لهُ منَ الناسِ غامِزًا، ومَا ضرَّتْ كلمةٌ لَم يَكُن لهَا حقيقَةٌ.

والصبيُّ ريحانةٌ تشمُّهَا، وعَنْ قريبٍ ولدٌ بارٌّ أوْ عدوٌّ حاضِرٌ، ومَا يَأتينِي الموتُ علَىٰ حالٍ أحبَّ إليَّ مِن أنْ يأتينِي وأنَا بينَ دفَّتَي رَحْلِي أبغِي علَىٰ عيَالِي، وإنِّي لأُكرِهُ نفسِي عَلىٰ الجماعِ رجاءَ أنْ يخرِجَ اللهُ تعَالىٰ نسمَةً تسبحُهُ وتذكرُهُ، فتكثَّرُوا منَ العيالِ فإنَّكُم لا تَدرُونَ بمَن تُرزَقُونَ.

وآخِ مَن آخيتَ عَلىٰ التَّقوَىٰ، ولَا تجعَلْ حديثَكَ بَذْلَةً لمَنْ لَا يُريدُهُ، وشاوِرِ الذينَ يخافونَ اللهَ، ومَا تشاوَرَ قومٌ قطُّ إلَّا هدُوا إلَىٰ رشادِ أمرِهِم.

وعليْكَ بالعلانيَةِ وإيَّاكَ والسرَّ، وإياكَ وكلَّ شيءٍ يستحيَا منْهُ، ولَا تغرنَّكُمْ طنطنَةُ الرجلِ بالليلِ -يَعنِي: صَلاتَهُ-؛ فإنَّ الرجلَ كلَّ الرجلِ مَن أدَّىٰ الأمانةَ إلَىٰ منِ ائتمنَهَ، وسلِمَ المُسلمونَ مِن لسانِهِ ويدِهِ.

وشرُّ الناسِ ثلاثةٌ: متكبِّرٌ عَلىٰ والدَيْهِ يَحقرُهُما، ورجلٌ سعَىٰ فِي فسادٍ بينَ الناسِ

بِالكذبِ حتَّىٰ يتباغَضُوا ويتبَاعَدُوا، ورجلٌ سعَىٰ بينَ رجلٍ وامرأتِهِ بالكذِبِ حتَّىٰ يُغيِّرَهُ عَليهَا بغَيرِ الحقِّ حتَّىٰ فرَّقَ بينهُمَا ثمَّ يُخلفُ عَليْهَا مِنْ بعدِهِ.

ومَا أخافُ عَليكُم أحدَ رجلَيْنِ: رجلٌ مؤمنٌ قَد تبيَّنَ إيمانُهُ، ورجلٌ كافِرٌ قَدْ تبيَّنَ كُفرُهُ، ولَكِن أخافُ عَليكُم منَافِقًا يتعوَّذُ بِالإيمَانِ ويعمَلُ غَيرَهُ.

ومَن سمَّعَ سمَّعَ اللهُ بِهِ، والخشُوعُ لَا يَزيدُ عَلىٰ مَا فِي القلبِ، فمَن أظهَرَ للناسِ خشوعًا فوقَ مَا فِي قلبِهِ؛ فإنمَا أظهَرَ نفاقًا عَلىٰ نفاقٍ.

وثلاثٌ منَ الشقاءِ: أنْ يجدَ الرجلُ علَىٰ أخِيهِ فيمَا يفعلُهُ هُوَ، أوْ يذكُرَ مِن أخيهِ مَا يعرِفُ مِن نفسِهِ، أو يُؤذِي جليسَهُ بمَا لَا يَعنِيهِ.

والنسَاءُ ثلاثَةٌ: امرأةٌ هينَةٌ لينَةٌ، عفيفَةٌ، مسلمِةٌ، ودودٌ، ولُودٌ، تُعينُ أهلَهَا عَلىٰ الدهرِ، وَلَا تُعينُ الدَّهرَ عَلىٰ أهلِهَا، وقَلَّ مَا يَجدُهَا، وثانيَةٌ: امرأةٌ عفيفَةٌ مسلمةٌ، إنمَا هيَ وعاءٌ للوَلدِ لَيسَ عندَهَا غيرُ ذلِكَ، وثالثَةٌ: غِلٌّ قَمْلٍ يجعلُهَا اللهُ فِي عنُقِ مَن يشَاءُ وَلَا ينزِعُهَا غيرُهُ.

ومَا أعطِيَ عبدٌ بعدَ إيمانٍ باللهِ عَزَّوَجَلَّ خيرًا مِن امرَأةٍ صالحَةٍ حسنَةِ الخُلقِ ودودٌ ولودٌ، ومَا استفادَ الرجلُ بعدَ الكفرِ باللهِ شرًّا مِن امرأةٍ حديدَةِ اللسَانِ سيئةِ الخُلقِ.

والبرُّ شيءٌ هَينٌ: وجهٌ طَليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ.

وعليكَ بإخوانِ الصِّدقِ فعِشْ فِي أكنافِهِم، فإنَّهُم زِينةٌ فِي الرخَاءِ وعدَّةٌ فِي البلَاءِ، وضَعْ أمرَ أخِيكَ عَلىٰ أحسنِهِ حتَّىٰ يَجيئَكَ مَا يَغلبُكَ مِنهُ، واعتزِلْ عدوَّكَ، واحذَرْ صديقَكَ إلَّا الأمينَ مِنَ القومِ، ولَا أمينَ إلَّا مَنْ خشِيَ اللهَ، ولَا تصحَبِ الفاجِرَ فتتعلَّمَ مِن فجورِهِ، ولَا تُطلعْهُ عَلىٰ سرِّكَ.

وإنَّ ممَّا يصفِّي لكَ ودَّ أخِيكَ ثلاثًا: تَبدَؤُهُ بالسلامِ إذَا لقيتَهُ، وتدعُوهُ بأحبِّ

أسمائِهِ إِلَيْهِ، وتوسعُ لهُ فِي المجلِسِ.

ولَا تظُنَّ بكلمَةٍ خرجَتْ مِن أخِيكَ شرًّا وَأنتَ تجدُ لهَا فِي الخيرِ مَحملًا.

وإذَا رأيتُمْ أخاكُمْ ذَا زلَّةٍ فقوِّمُوهُ وسَدِّدُوهُ، وادعُوا اللهَ أنْ يرجِعَ بِهِ إِلَىٰ التوبَةِ فيتُوبَ عَليهِ، وَلَا تكُونُوا أعوانًا للشيطانِ عَلَىٰ أخِيكُم.

وينبغِي للرجلِ أنْ يكونَ فِي أهلِهِ كالصبِيِّ، فإذَا التُمِسَ مَا عندَهُ وجدَ رجُلًا، وإنِّي أكرَهُ الرجلَ أنْ أراهُ يمشِي سبَهللًا، لَا فِي أمرِ الدنيَا، وَلَا فِي أمرِ الآخرَةِ، وكسبٌ فِيهِ بعضُ الدنيَّةِ خيرٌ مِنَ الحاجةِ إِلَىٰ الناسِ.

واحكُم بينَ أهلِ الحقِّ بالحقِّ، ينفَعْكَ يومَ الحقِّ، وللهِ درُّ العلمِ مَا زالَ يرفَعُ أهلَهُ، وإنَّ العلمَ ليسَ عَن حداثَةِ السنِّ وَلا قِدَمِهِ، ولكنَّ اللهَ تعَالَىٰ يضعُهُ حيثُ يشَاءُ.

وتعلَّمُوا العلمَ، وتعلمُوا لهُ السكينَةَ والوقارَ والحِلمَ، وتواضَعُوا لمَن تتعلَّمونَ منهُ، وليتواضَعْ لكُم مَن يتعَلَّمُ مِنكُم، ولا تكُونُوا مِن جبابرَةِ العلمَاءِ فَلَا يقُومُ عِلمُكُم بجَهلِكُم.

ولَا تتعلَّمِ العِلمَ لتُمارِيَ بِهِ، ولَا لتُباهِيَ بهِ، ولَا لتُرائِيَ بِهِ، ولَا تتركُهُ حياءً مِنْ طلبِهِ، ولَا زهادَةً فِيهِ، وَلَا رضًا بالجهلِ مِنهُ.

وموتُ ألفِ عابدٍ قائمِ الليلِ صائمِ النهارِ أهوَنُ مِن موتِ عالمٍ بَصيرٍ بحَلالِ اللهِ وحرامِهِ، ومَن حدَّثَ حديثًا فعمِلَ بهِ فلَهُ مِثلُ أجرِ مَن عمِلَ ذلِكَ العَملَ.

وإنَّ أخوفَ مَا أخافُ عَلَىٰ هذِهِ الأمةِ المنافِقُ العَليمُ، عليمُ اللسانِ جاهِلُ القَلبِ والعمَلِ، وإذَا زلَّ العالِمُ زَلَّ بزلَتِهِ عالَمٌ مِنَ الخَلقِ، وإذَا رأيتُمُ العَالِمَ محبًّا للدنيَا فاتهمُوهُ عَلَىٰ دِينِكُم فإنَّ كلَّ محبٍّ يخُوضُ فيمَا أحبَّ.

وأسعَدُ الناسِ عندَ اللهِ تعَالَىٰ يومَ القيامَةِ مَن سعِدَ بِهِ النَّاسُ، وأشقَاهُم مَن شَقُوا بِهِ.

وتأدَّبُوا، ثمَّ تعلَّمُوا، والناسُ بأزمَانِهِم أشبَهُ منهُم بآبائِهِم، والطمَعُ فَقرٌ، واليأسُ غنًىٰ، ومَن ييأَس عمَّا فِي أيدِي الناسِ استغنَىٰ عَنهُم، والعزلَةُ راحةٌ مِن جليسِ السوءِ، وقرينُ الصِّدقِ خيرٌ منَ الوَحدَةِ.

ومَنِ استحيَا استَخفَىٰ، ومَنِ استخفَىٰ اتَّقَىٰ، ومَنِ اتقَىٰ وُقِيَ، ومَن اتَّقَىٰ اللهَ لَم يَشفِ غَيظَهُ، ومَن خافَ اللهَ لَم يَفعَلْ مَا يشاءُ، وأفلحَ منكُم مَن حُفظَ منَ الطمَعِ والهَوَىٰ والغضَبِ.

ورأسُ التواضعِ أنْ تبدأَ بالسَّلامِ مَن لقِيتَ مِنَ المُسلمِينَ، وأنْ ترضَىٰ بالدونِ مِنَ المَجلسِ، وأنْ تكرَهَ أنْ تُذكرَ بالبرِّ والتقوَىٰ.

ولَو يعلَمُ أحدُكُم مَا لَهُ فِي قولِهِ لأخيهِ: جزَاكَ اللهُ خيرًا، لأكثَرَ منهَا بعضُكُم لبَعضٍ.

وإذَا أعطيتُم فأغنُوا، وإيَّاكُم والدَّيْنَ فَإنَّ أولَهُ همٌّ وآخرَهُ حربٌ.

وإذَا أصابَ أحدُكُم ودًّا مِن أخِيهِ فليتمَسَّكْ بِهِ، فقلَّمَا يُصيبُ ذَلكَ.

والتؤدَةُ فِي كلِّ شيءٍ خيرٌ إلَّا مَا كانَ مِن أمرِ الآخرَةِ.

ومَن كثُرَ ضحكُهُ قَلَّتْ هيبتُهُ، ومَن مزحَ استُخِفَّ بِهِ، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ عُرِفَ بِهِ، ومَن كثُرَ كلامُهُ كثُرَ سقَطُهُ، ومَن كثُرَ سقطُهُ قَلَّ حيَاؤُهُ، ومَن قلَّ حياؤُهُ قَلَّ ورعُهُ، ومَن قَلَّ ورعُهُ ماتَ قَلبُهُ.

وأهلُ الشكرِ معَ مزيدٍ منَ اللهِ، فالتمِسُوا الزيادَةَ، وقَد قالَ تعالَىٰ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]، ولَا زوالَ للنعمَةِ إذَا شُكرَتْ، ولَا بقاءَ لَها إذَا كُفِرَتْ.

وليسَ مِن عبدٍ إلَّا وبينَهُ وبينَ رزقِهِ حجابٌ، فإنِ اقتصَدَ أتاهُ رزقُهُ، وإنِ اقتحَمَ

(١) إبراهيم:٧.

هتَكَ الحجابَ ولَم يَزدْ فِي رزقِهِ.

ولَو كنتُ تاجِرًا مَا اخترتُ غيرَ العِطرِ، إنْ فاتَنِي رِبحُهُ لَم يفُتنِي رِيحُهُ.

ولَا تعلَّمُوا رَطانَةَ الأعاجِمِ ولا تدخلُوا عَلىٰ المشرِكينَ فِي كنائِسِهِم يومَ عِيدِهِم؛ فإنَّ السخطَةَ تنزِلُ عَليهِم.

وتعلمُوا منَ النجومِ مَا تهتَدونَ بِهِ فِي ظلماتِ البرِّ والبَحرِ ثُمَّ أمسِكُوا، وتعلَّمُوا النحوَ كمَا تعَلَّمونَ السُّننَ والفرَائضَ.

وإنَّ الشجاعةَ والجُبنَ غرائزُ فِي الرجالِ، تجدُ الرجلَ يقاتِلُ لَا يبالِي ألَّا يؤوبَ إلَىٰ أهلِهِ، وتجدُ الرجلَ يفِرُّ عَن أبيهِ وأمِّهِ، وتجدُ الرجلَ يقَاتلَ ابتغَاءَ وجهِ اللهِ فذَلكَ هُوَ الشهيدُ.

وزَاورُوا ولا تجاوِرُوا، وإياكُم أنْ تلبَسُوا ألبسَةً مشهُورَةً أوْ مَحقُورةً.

ولَا تؤخِّرْ عملَ اليَومِ لغدٍ فتدَّارَكَ عليكَ الأعمالُ فتَضيعَ، وليسَ العاقلُ الذِي يحتالُ للأمرِ إذَا وقَعَ فِيهِ، ولكنَّهُ الذِي يحتَالُ لئلَّا يقَعَ.

وثَلاثٌ هنَّ فواقِرُ: جارُ سوءٍ فِي دارِ مقامَةٍ، وزوجُ سوءٍ إنْ دَخلْتَ علَيْها لَم تسُرَّكْ، وإنْ غِبتَ عَنها لَم تأمَنهَا، وسلطانٌ إن أحسَنتَ لَم يَقبَلْ مِنكَ، وإنْ أسأتَ لَم يُقِلْكَ.

ولَا يكُن حبُّكَ كلفًا، ولَا يكُن بُغضُكَ تَلفًا، فإذَا أحبَبتَ فلَا تكلَّف كمَا يَكلفُ الصبيُّ بالشيءِ يُحبُّهُ، وإذَا أبغَضتَ فَلَا تُبغض بغضًا تحبُّ أنْ يتلِفَ صاحبَكَ ويَهلكَ.

ولَا يستعمِلُ الفاجرَ إلَّا فاجرٌ، ومنِ استعمَلَ فاجِرًا وهُوَ يعلَمُ أنَّهُ فاجِرٌ فهُوَ فاجِرٌ مثلُهُ، ومَن تعَرَّضَ للتهمَةِ فلَا يلومَنَّ مَن أساءَ بِهِ الظنَّ، ومَن كتَمَ سِرَّهُ كانَ الخيَارُ إلَيهِ، ومَن أفشاهُ كانَ الخيَارُ عَليهِ.

ولَا يغرَّنَّكَ خُلقُ امرِئٍ حتَّىٰ يغضَبَ، ولَا دِينُهُ حتَّىٰ يَطمَعَ.

ولُؤمٌ بالرجُلِ أنْ يرفَعَ يدَهُ مِنَ الطعَامِ قبلَ أصحَابِهِ.

ولا يُكرِهَنَّ أحدٌ ابنتَهُ عَلىٰ الرجُلِ القَبيحِ فإنهُنَّ يُحببْنَ مَا تحبُّونَ.

ولَولَا ثلاثٌ لأحببَتُ أنْ أكونَ قَد لَقِيتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ: لولَا أنْ أضعَ جبهَتِي للهِ عَزَّوَجَلَّ، وأجلسَ فِي مجالِسَ يُنتقَىٰ فيهَا طَيِّبُ الكلَامِ كمَا يُنتقَىٰ فِيهَا طَيِّبُ الثمَرِ، وأنْ أسيرَ فِي سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ومَا أُبالِي أصبَحتُ عَلىٰ عسرٍ أو يُسرٍ؛ لأنِّي لَا أدرِي أيهُمَا خَيرٌ لِي.

وجَالِسُوا التَّوابِينَ فإنَّهُم أرقُّ شَيءٍ أفئدَةً، وتفَقَّدُوا إخوَانكُم فِي الصَّلاةِ فَإذَا فقدتُمُوهُم، فإنْ كانُوا مرضَىٰ فعُودُوهُم، وإن كانُوا أصحَّاءَ فعاتِبُوهُم.

واقرَءُوا القرآنَ تُعرفُوا بِهِ، واعمَلُوا بِهِ تكونُوا مِن أهلِهِ، وإنَّهُ لَن يبلُغَ مِن حقٍّ ذِي حقٍّ أنْ يُطاعَ فِي مَعصيَةِ اللهِ.

وعَليكُم بذِكرِ اللهِ فإنَّهُ شفاءٌ، وإيَّاكُم وذِكرَ الناسِ فإنَّهُ دَاءٌ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ عَلىٰ رسُولِهِ وعَبدِهِ، نبيِّنَا مُحمدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنِ استَنَّ بسُنَّتِهِ، واقتَفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهَديِهِ.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ اللهَ خَصَّ صحابَةَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بمزيدٍ منَ الفَضلِ والإحسانِ، ورزقَهُم قلوبًا واعيَةً، ونفُوسًا زكيةً، وألسنَةً صادقةً، ووفَّقَهُم إلَىٰ القولِ الرشِيدِ،

والعملِ الصالحِ السديدِ، وجعلَهُم للصالحِينَ قُدوةً، ولمَن أرادَ الرشادَ منارَةً وأسوةً.

ويكفِيهِم مِنَ الفضلِ قَولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَا أمنَةٌ لأصحابِي، فإذَا ذَهبْتُ أتَىٰ أصحَابِي مَا يُوعدُونَ، وأصحَابِي أمنَةٌ لأمتِي، فإذَا ذهَبَ أصحابِي أتَىٰ أمَّتِي مَا يُوعدُونَ**»(١).

فَهُم وإنْ فارَقُوا الدنيَا بأبدَانِهِم، فَلَا زَالَت آثارُهُم باقيَةً، وعبارَاتُهُم خالدَةً، ومواقِفُهُم مدونَةً ثابتَةً، والموفَّقُ السَّعيدُ مَن اقتَدَىٰ بِهِم، وأخذَ بركابِهِم، والتمَسَ طريقَهُم، حتَّىٰ وصَلَ إلَىٰ غايَةِ مُنتَهَاهُ، فحصَدَ مِنَ الخَيرِ مَا قرَّتْ بِهِ عينُهُ، واستقَامَ بِهِ أمرُهُ.

❀❀❀

(١) رواه مسلم (٢٥٣٢).

(٨٨) مِن مواعظِ عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحمدُ للهِ الذِي جعلَ فِي كلِّ زمانٍ فترَةٍ مِنَ الرسلِ بقايَا مِن أهلِ العلمِ، يَدعونَ مَن ضلَّ إلَىٰ الهُدَىٰ، ويَصبرونَ مِنهُم علَىٰ الأذَىٰ، يُحيونَ بكتابِ اللهِ المَوتَىٰ، ويُبصِّرونَ بنُورِ اللهِ أهلَ العمَىٰ، فكَم مِن قتيلٍ لإبليسَ قَد أحيَوْهُ، وكَم مِن ضالٍّ تائِهٍ قَدْ هَدَوهُ، وصَلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عَلىٰ نبينَا محمدٍ، خاتَمِ المُرسلِينَ وإمَامِ المُتقينَ وعَلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بَعدُ:

فمِمَّا سطرَتْهُ الأحرفُ وتناقلَتْهُ الألسنُ، تلكَ المواعظُ البهيَّةُ، والعباراتُ الزكيَّةُ، عَن سلفِ هذِهِ الأمةِ، الذينَ أوتُوا العلمَ والزكاةَ، ودلُّوا الناسَ عَلىٰ طريقِ النجاةِ، واجتهَدُوا فِي نصيحَةِ الخلقِ أيمَا اجتهادٍ، مبتغِينَ بذلِكَ وجهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكتَبَ سبحانَهُ لأقوالِهِمُ الخلودَ، وصارَ لهَا أعظمُ الأثرِ فِي القُلوبِ، حتَّىٰ حُفِظَتْ فِي بطونِ الكتبِ علَىٰ مرِّ العصورِ، فسارَ عَلىٰ نَهجِها السائرُونَ، ووفِّقَ للعملِ بمُقتضَاهَا المقتدُونَ، واستلذَّ بذِكرِهَا المستمعُونَ.

ومِن جُملةِ ذلكَ: ما نُقلَ عنِ الخليفةِ الراشدِ عليِّ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ المواعظِ اللطيفةِ، والعباراتِ الجميلةِ، التِي شملَتْ مَا يحتاجُهُ الناسُ مِن أمرِ دِينِهِم ودُنيَاهُم، حتَّىٰ صارَتْ لهُم منَاراتٍ هاديَةً، تدلُّهُم عَلىٰ كلِّ خيرٍ.

وممَّا جاءَ عنهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ قالَ:

إنَّ أخوفَ مَا أخافُ عَليكُم اتبَاعُ الهوَىٰ، وطولُ الأمَلِ، فأمَّا اتبَاعُ الهوَىٰ فيصُدُّ عنِ الحقِّ، وأمَّا طُولُ الأملِ فيُنسِي الآخرَةَ، ألَا وإنَّ الدنيَا قَد ترحَّلتْ مدبرَةً، وإنَّ

الآخرَةَ قَد ترحَّلَتْ مُقبلَةً، ولكُلِّ واحدَةٍ منهُمَا بنُونَ، فكونُوا مِن أبناءِ الآخرَةِ وَلَا تكونُوا مِن أبناءِ الدنيَا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولَا حسَابَ، وغدًا حسابٌ ولَا عَملَ.

لَا يَرجُو عبدٌ إلَّا ربَّهُ، ولَا يخافُ إلَّا ذَنبَهُ، ولَا يَستحِي جاهلٌ أنْ يسألَ عمَّا لَا يعلَمُ، ولَا يستَحِي عالِمٌ إذَا سُئلَ عمَّا لَا يعلَمُ أنْ يقُولَ: اللهُ أعلَمُ.

وتوبةُ العبدِ مِن ذَنبِهِ ندامَتُهُ عَليهِ، ومَن كانَ ظاهِرُهُ أرجَحَ مِن باطِنِهِ خَفَّ ميزانُهُ يومَ القيامَةِ، ومَن كانَ باطنُهُ أرجَحَ مِن ظاهرِهِ ثقُلَ ميزانُهُ يومَ القيامَةِ.

طُوبىٰ للزاهدِينَ فِي الدنيَا، والراغبِينَ فِي الآخرةِ، أولئِكَ قومٌ اتخذُوا أرضَ اللهِ بساطًا، وترابَها فراشًا، وماءَها طيبًا، والكفافَ شعارًا، والدعاءَ دثارًا، ومنِ اشتاقَ إلَىٰ الجنةِ سلَا عنِ الشهوَاتِ، ومَن أشفقَ منَ النارِ رجعَ عنِ المحرَّماتِ، ومَن زهدَ فِي الدنيَا تهاوَنَ بالمُصيبَاتِ، ومَنِ ارتقَبَ الموتَ تسارَعَ إلَىٰ الخيرَاتِ.

والقلوبُ أوعيَةٌ فخَيرُهَا أوعَاهَا، وإنَّ هذِهِ القلوبَ تَمَلُّ كمَا تملُّ الأبدانُ، فالتمِسُوا لهَا مِنَ الحِكمةِ طُرفًا.

وإنَّ اللهَ تعَالىٰ جعلَ مكارِمَ الأخلَاقِ ومحاسِنَهَا وصلًا بَينَهُ وبَينَكُم، فحسبُ الرجلِ أنْ يتصلَ مِنَ اللهِ تعَالىٰ بخُلقٍ منهَا.

والصمتُ داعيَةٌ إلَىٰ المحبَّةِ، واللسَانُ قِوامُ البدَنِ، فإذَا استقامَ اللسانُ استقَامَتِ الجوارِحُ، وإذَا اضطَرَبَ اللسانُ لَم يَقُم لَهُ جارِحَةٌ.

وزَينُ الحديثِ الصدقُ، وأعظَمُ الخطَايَا عندَ اللهِ اللسانُ الكذُوبُ، وشرُّ الندامَةِ ندامَةُ يومِ القيامَةِ.

وسرُّكَ أسيرُكَ فإنْ تكلَّمتَ بِهِ صرتَ أسيرَهُ.

والأدبُ صاحبٌ فِي الغِنَىٰ، كنزٌ عندَ الحاجَةِ، عونٌ عَلىٰ المروءَةِ، صاحبٌ فِي

المجلِسِ، مؤنِسٌ فِي الوحدَةِ.

وقيمَةُ كلِّ امرئٍ مَا يحسِنُ، ومروءَةُ الرجلِ حَيثُ يضعُ نفسَهُ.

وإنَّ مِن موجباتِ المغفرةِ إدخالَ السرُورِ عَلىٰ أخيكَ المُسلمِ.

ولَا تعمَلْ بالخديعَةِ فإنَّها خلقُ اللئَامِ، وامحَضْ أخاكَ النصيحَةَ، حسنةً كانَتْ أو قبيحَةً.

ومَن لَانَتْ كلمَتُهُ وجَبَتْ مَحبَّتُهُ، ومَن كَانَتْ لَهُ عِندَ الناسِ ثلاثٌ وجَبَتْ لهُ عليهِمْ ثلاثٌ: مَن إذَا حدثَهُم صدقَهُم، وإذَا ائتمَنُوه لَم يَخُنهُم، وإذَا وعدَهُم وفَىٰ لَهُم، فوَجبَ لهُ عَليهِم: أنْ تُحبَّهُ قلوبُهُم، وتنطِقَ بالثناءِ علَيْهِ ألسنتُهُم، وتظهَرَ لَهُ معونَتُهُم.

وشَرطُ الصحبَةِ: إقالَةُ العثرَةِ، ومسامحَةُ العشرَةِ، والمُواساةُ فِي العُسرةِ.

ولا تقطَعْ أخاكَ عَلىٰ ارتيَابٍ، ولَا تهجُرْهُ دونَ استِعتَابٍ.

ولَا تؤَاخِي الأحمقَ ولَا الفاجِرَ، أمَّا الأحمقُ فمدخلُهُ ومخرجُهُ شَينٌ عَليكَ، وأمَّا الفاجرُ فيُزينُ لكَ فعلَهُ ويودُّ أنكَ مِثلُهُ.

وَلَا تُكثرِ العتابَ؛ فإنَّ العتابَ يورِثُ الضغينَةَ والبغضَةَ، وكثرَتُهُ مِن سوءِ الأدبِ.

ومَا استَقصَىٰ كريمٌ قطُّ، قال تعالىٰ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾[1].

وأبغضُ الناسِ إلَىٰ اللهِ ثلاثةٌ: الشيخُ الجَهولُ، والغنيُّ الظلُومُ، والفَقيرُ المُختالُ.

وأشدُّ الأعمالِ ثلاثَةٌ: إعطاءُ الحقِّ مِن نَفسِكَ، وذِكرُ اللهِ عَلىٰ كلِّ حالٍ، ومواسَاةُ الأخِ فِي المالِ.

ومَن رضِيَ بقضاءِ اللهِ جرَىٰ عليهِ وكانَ لهُ أجرٌ، ومَن لَم يَرضَ بقضَاءِ اللهِ جرَىٰ علَيْهِ وحَبطَ عَملُهُ.

---

(١) التحريم:٣.

وكونُوا لقَبولِ العملِ أشدَّ همًّا منكُم بالعمَلِ، ألَم تسمَعُوا الله يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١)، والعملُ الصالحُ الذِي لَا تُريدُ أنْ يَحمدَكَ علَيهِ أحدٌ إلَّا للهُ.

ولَا تعمَلْ شيئًا منَ الخيرِ رياءً ولَا تَتركْهُ حياءً، وللمُرائِي أربعُ علامَاتٍ: يكسَلُ إذَا كانَ وحدَهُ، وينشَطُ إذَا كانَ معَ الناسِ، ويزيدُ فِي العمَلِ إذَا أثنِيَ علَيهِ، وينقصُ إذَا ذمَّ بِهِ، وطُوبَىٰ لكُلِّ عبدٍ لَم يَعرفِ الناسَ ولَم تعرِفْهُ الناسُ، وعرَفَهُ اللهُ مِنهُ برضوَانٍ، أولئِكَ مصَابِيحُ الهُدَىٰ، تُجلَىٰ عنهُمُ كلُّ فتنَةٍ مظلمَةٍ.

والصبرُ مطيَّةٌ لَا تكبُو، وهوَ مِنَ الإيمانِ بمنزلَةِ الرَّأسِ منَ الجَسدِ، ولَا إيمَانَ لمَنْ لَا صبرَ لَهُ، فعَليكُم بالصَّبرِ فإنَّ بِهِ يأخُذُ الحازِمُ، وإلَيهِ يرجِعُ الجازِعُ، ولَو كانَ الصبرُ رجلًا كانَ أكمَلَ الرجَالِ.

وإنَّ الجزَعَ والجَهلَ والشرَهَ والحسدَ لَفُروعٌ أصلُهَا واحِدٌ، والقناعَةُ سيفٌ لَا ينبُو، والإعجَابُ ضدُّ الصوابِ وآفَةُ الألبَابِ.

والمشاورةُ حصنٌ منَ الندامَةِ، وأمنٌ عنِ الملامَةِ، ونِعمَ المؤازرةُ المشاورَةُ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ.

والاستشارَةُ عينُ الهدايةِ، وقَد خاطَر مَنِ استغنَىٰ برَأيهِ.

ومَن آتاهُ اللهُ منكُم مَالًا فليَصلْ بِهِ القرابَةَ، وليُحسِنْ فِيهِ الضيافَةَ، وليفُكَّ فِيهِ العانِي والأسيرَ وابنَ السبيلِ والمساكينَ والفقرَاءَ والمجاهدِينَ، وليصبِرْ فيهِ عَلَىٰ النائبَةِ، فإنَّ بهذِهِ الخصالَ ينالُ كرَمَ الدنيَا وشرفَ الآخرَةِ.

ولَا يكونُ الرجلُ قيِّمَ أهلِهِ حتَّىٰ لَا يُبالِي مَا سدَّ بِهِ فورَةَ الجُوعِ، ولَا يُبالِي أيَّ ثوبَيْهِ ابتذَلَ.

(١) المائدة:٢٧.

وحِلمُكَ عَلىٰ السفيهِ يكثِّرُ أنصارَكَ عَليهِ، وأولُ عِوضِ الحَليمِ مِن حِلمِهِ أنَّ الناسَ كلَّهُم أعوانُهُ عَلَىٰ الجاهِلِ، وإنمَا يُعرفُ الحِلمُ ساعةَ الغضَبِ، وأولُ الغضَبِ جنونٌ، وآخِرُهُ ندَمٌ، ورُبَّما كانَ العطَبُ فِي الغضَبِ.

وإياكُم وتحكِيمَ الشهواتِ عَلىٰ أنفُسِكُم فإنَّ عاجلَهَا ذَميمٌ، وآجلَهَا وخِيمٌ، فإن لَم ترَهَا تنقَادُ بالتحذيرِ والإرهَابِ، فسوِّفْهَا بالتأميلِ والإرغَابِ، فإنَّ الرغبَةَ والرهبَةَ إذَا اجتمَعَا عَلىٰ النفسِ ذَلَّت لهُمَا وانقَادَتْ.

ولَا تَكُن ممَّن يقُولُ فِي الدنيَا بقَولِ الزَّاهدينَ، ويعمَلُ فيهَا عملَ الراغبِينَ، فإنْ أعطِيَ منهَا لَم يشبَعْ، وإنْ مُنعَ منهَا لَم يقنَعْ، يعجَزُ عَن شكرِ مَا أوتِيَ، ويبتَغِي الزيادَةَ فيمَا بقِيَ، وينهَىٰ الناسَ ولَا ينتَهِي، ويأمرُ بمَا لَا يأتِي، يحبُّ الصالحِينَ ولَا يعملُ بعمَلِهِم، ويُبغِضُ الطالحِينَ وهُوَ مِنهُم.

وإنَّ مثلَ الدنيَا والآخرَةِ ككفَّتَي الميزَانِ لَا ترجُحُ إحداهُمَا إلَّا بنُقصَانِ الأخرَىٰ، وكالمَشرقِ والمَغربِ كلُّ مَن قرُبَ مِن أحدِهِمَا بعُدَ عَنِ الآخَرِ.

وإنَّ الفقيهَ كلَّ الفقهِ الذِي لَا يُقنِّطُ الناسَ مِن رحمَةِ اللهِ، ولَا يُؤمِّنُهُم مِن عذَابِ اللهِ، ولَا يُرخصُ لَهُم فِي معَاصِي اللهِ، ولَا يدَعُ القرآنَ رغبَةً عنهُ إلَىٰ غَيرِهِ.

وليسَ الخيرُ أنْ يكثُرَ مالُكَ وولدُكَ، ولكِنَّ الخيرَ أنْ يكثُرَ عِلمُكَ ويعظُمَ حِلمُكَ.

ولا خيرَ فِي عبادَةٍ لَا عِلمَ فِيهَا، ولَا خيرَ فِي علمٍ لَا فَهمَ فيهِ، ولَا خيرَ فِي قراءَةٍ لَا تدَبُّرَ فِيهَا.

كونُوا ينابِيعَ العلمِ، مصابيحَ الليلِ، خُلَقَ الثيابِ، جُدَدَ القلوبِ، تعرفُوا بهِ فِي السماءِ، وتُذكرُوا بهِ فِي الأرضِ.

والعِلمُ خَيرٌ مِنَ المالِ، العلمُ يحرُسُكَ، وأنتَ تحرسُ المالَ، العلمُ يزكُو عَلىٰ

العملِ، والمالُ تُنقصُهُ النفقةُ، ومحبَّةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بهَا، والعلمُ يكسبُ العالِمَ الطاعةَ فِي حياتِهِ، وجميلَ الأحدوثَةِ بعدَ مَوتِهِ، وصنيعةُ المالِ تَزولُ بزوالِهِ.

ومِن عِلمِ الرجلِ أنْ يقولَ لمَا لَا يعلمُ: اللهُ أعلَمُ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قالَ لرسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾(١).

والناسُ ثلاثَةٌ: فعالِمٌ ربَّانيٌّ، ومُتعلمٌ علَىٰ سبيلِ نجاةٍ، وهمَجٌ رعاعٌ أتبَاعُ كلِّ ناعِقٍ، يَميلونَ معَ كلِّ رِيحٍ، لَم يَستضيئُوا بنورِ العِلمِ، ولَم يَلجئُوا إلَىٰ ركنٍ وَثيقٍ، فاغدُ عالِمًا أو متعلِّمًا أو مُستمعًا أو محِبًّا ولا تكُنِ الخامسَ فتهلِكَ.

ومَن فَهمَ فسَّرَ جَميلَ العِلمِ ، ومَن فسَّرَ جَميلَ العلمِ عرفَ شَرائعَ الحِكَمِ، ومَن عرفَ شرائعَ الحِكَمِ حَلُمَ ولم يُفرطْ فِي أمرِهِ وعاشَ فِي الناسِ.

ولَا يعرفُ فضلَ أهلِ العلمِ إلَّا أهلُ الفَضلِ، والعالِمُ بمنزلةِ النخلةِ المرطبَةِ التِي لَا يزالُ يسقطُ علَيكَ منهَا شيءٌ، وإنَّما زَهِدَ الناسُ فِي طلبِ العِلمِ لمَا يَرونَ مِن قلَّةِ انتفاعِ مَن عَلِمَ بمَا عَلمَ.

وقلبُ الحدثِ كالأراضِي الخاليَةِ، مَا أُلقِيَ فيهَا مِن شيءٍ قبِلَتْهُ، وإنَّما كانَ كذَلكَ؛ لأنَّ الصغيرَ أفرَغُ قلبًا، وأقلُّ شغلًا، وأيسرُ تبذلًا، وأكثرُ تواضُعًا.

والجارُ قبلَ الدارِ، والرَّفيقُ قبلَ الطَّرِيقِ، وإذَا طرقَكَ إخوانُكَ فَلا تدخِرْ عنهُم مَا فِي المَنزلِ، ولَا تكَلَّفُ مَا وراءَ البابِ، فشَرُّ الإخوانِ مَن تُكُلِّفَ لَهُ، وخَيرُهُم مَن أحدَثَتْ لكَ رُؤيتُهُ ثقَةً بِهِ، وأهدَتْ إلَيكَ غَيبتُهُ طمَأنينَةً إلَيهِ.

ولَا يُزهدَنَّكَ فِي المعروفِ كفرُ مَن كفرَهُ، فقَد يشكُرُ الشاكرُ بأضعافِ جحُودِ الكافرِ، وإنَّما هلَكَ مَن كانَ قَبلكُم لأنَّهُم منعُوا الحقَّ حتَّىٰ اشتُرِي، وبسَطُوا الباطِلَ حتىٰ اقتُنِي.

---

(١) ص:٨٦.

واصبرُوا عَلىٰ عمَلٍ لا غِنىٰ بكُم عَن ثوابِهِ، وارجِعُوا عَن عمَلٍ لَا صبرَ لكُم عَلىٰ عقابِهِ؛ إنَّ الصبرَ عَلىٰ طاعةِ اللهِ تعَالىٰ أهونُ منَ الصبرِ علىٰ عذابِهِ، وإنكُم فِي نفَسٍ معدودٍ، وأملٍ ممدودٍ، وأجلٍ محدودٍ، ولَا بدَّ للأجلِ منْ أن يتناهىٰ، وللنَّفَسِ أنْ يحصَىٰ، وللسَّببِ أنْ يُطوَىٰ، ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾(١).

وإنمَا مثلُ الدنيَا مثلُ الحيَّةِ: ليِّنٌ مَسُّهَا تقتُلُ بسُمِّهَا، فأعرِضْ عمَّا يُعجِبُكَ فيهَا لقلةِ مَا يصحبُكَ منهَا، وضَعْ عنكَ همومَهَا لمَا أيقَنتَ بهِ مِن فِراقِهَا، وكُن أسَرَّ مَا تكونُ فيهَا أحذرَ مَا تكونُ لهَا، فإنَّ صاحبَهَا كلمَا اطمأنَّ منهَا إلَىٰ سُرورٍ أشخصَهُ عَنهُ مكروهٌ، ومَا قالَ الناسُ لقَومٍ: طُوبَىٰ لَكُم، إلَّا وقَد خبَّأ لهُمُ الدهرُ يومَ بُؤسٍ.

وأوصِيكُم بتقوَىٰ اللهِ الذِي ضربَ لكُمُ الأمثالَ، ووقَّتَ لكُمُ الآجالَ، فإنَّ اللهَ لَم يخلقْكُم عبثًا، ولَم يضرِبْ عنكُم الذكرَ صَفحًا، بَلْ أكرَمَكُم بالنِّعَمِ السوَابغِ، وأرفدَكُم بأوفَرِ الروافِدِ، وأرصدَ لَكُم الجزَاءَ فِي السرَّاءِ والضرَّاءِ، فاتقُوا اللهَ وجدُّوا فِي الطلبِ، وبادِرُوا بالعمَلِ مُقطِّعَ النهمَاتِ، وهادمَ اللذاتِ، فإنَّ الدنيَا لَا يدُومُ نَعيمُهَا، ولَا تُؤمنُ فجائِعُهَا.

واتعظُوا بالعِبَرِ، واعتبرُوا بالآياتِ والأثرِ، وازدجرُوا بالنذرِ، وانتفِعُوا بالمواعِظِ، فكأنَّكُم وقَد علقتْكُم مخالِبُ المنيَّةِ، وضمَّكُم بيتُ الترَابِ، ودهمَتْكُم مقطعَاتُ الأمورِ بنفخةِ الصورِ، وبعثرةِ القبورِ، وسياقَةِ المحشَرِ، وموقفِ الحسابِ بإحاطةِ قدرةِ الجبَّارِ، كلُّ نفسٍ معهَا سائقٌ يسُوقُهَا لمَحشرِهَا، وشاهِدٌ يشهَدُ علَيهَا بعمَلِهَا، ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(٢)، فارتجَّتْ لذلِكَ اليومِ البلادُ، ونادَىٰ المُنَاد، وكانَ يومُ التلَاقِ،

---

(١) الانفطار: ١٠-١١.

(٢) الزمر: ٦٩.

وكُشفَ عَن ساقٍ، وكُسِفتِ الشَّمسُ، وحشرَتِ الوحُوشُ، وبدَتِ الأسرارُ، وهَلكَتِ الأشرَارُ، وارتجَّتِ الأفئِدَةُ.

واتَّقُوا اللهَ تقيَّةَ مَن وَجِلَ فرحَلَ، وحذِرَ فأبصَرَ فازدَجرَ، فنجَا هربًا، وقدمَ للمعادِ، واستظهَرَ بالزادِ، وكفَىٰ باللهِ منتقمًا وبَصيرًا، وكفَىٰ بالكتابِ خَصمًا وحجِيجًا، وكفَىٰ بالجنةِ ثوابًا، وكفَىٰ بالنارِ وَبَالًا وعقَابًا.

واعلَمُوا أنكُم مَيتُونَ ومَبعُوثُونَ مِن بعدِ المَوتِ، وموقُوفونَ عَلىٰ أعمالِكُم، ومجزيُّونَ بهَا، فلَا تغرَّنَّكُمُ الحيَاةُ الدنيَا، فإنَّهَا دارٌ بالبلاءِ مَحفوفَةٌ، وبالفناءِ مَعروفَةٌ، وبالغدرِ موصُوفةٌ، فكلُّ مَا فيهَا إلَىٰ زوالٍ، وهِيَ بينَ أهلِهَا دُولٌ وسجَالٌ، لَا تدُومُ أحوَالُها، ولَن يسلَمَ مِن شرِّهَا نُزَّالُهَا، بينَما أهلُها منهَا فِي رخاءٍ وسُرورٍ، إذَا هُم منهَا فِي بلاءٍ وغُرورٍ، أحوَالٌ مختلفةٌ، وتارَاتٌ متصرفَةٌ، والعيشُ فيهَا مذمُومٌ، والرخَاءُ فِيهَا لا يَدُومُ، وإنمَا أهلُهَا فيهَا أغرَاضٌ مستهدفَةٌ، تَرمِيهِم بسهَامِهَا، وتُفْنِيهِم بحِمامِهَا، وكلٌّ حتفُهُ فيهَا مَقدورٌ، وحَظُّهُ فيهَا مَوفورٌ.

وإنكُم ومَا أنتُم فِيهِ مِن زهرَةِ هذِهِ الدنيَا عَلىٰ سَبيلِ مَن قَد مضَىٰ، ممَّن كانَ أطوَلَ منكُم أعمَارًا، وأشدَّ منكُم بطشًا، وأعمرَ ديارًا، وأبعدَ آثارًا، فأصبحَتْ أصواتُهُم هامدَةً خامدَةً منْ بعدِ طولِ تقلبِهَا، وأجسَادُهُم باليَةً، وديارُهُم خاليَةً، وآثارُهُمْ عافيَةً، واستُبدِلُوا بالقصُورِ المشيدَةِ، والسررِ والنمارقِ الممهدةِ، الصخورَ والأحجارَ المسندةَ في القبورِ الملحَّدةِ، التِي قد بُنِيَ بالخرابِ فنَاؤُهَا، وشُيِّدَ بالترابِ بنَاؤُهَا، فمحلُّهَا مقتربٌ، وساكنُها مغتَربٌ بينَ أهلِ عمارةٍ موحِشِينَ، وأهلِ محلةٍ متشاغِلينَ، لَا يستأنسُونَ بالعُمرانِ، ولَا يتواصَلُونَ تواصلَ الجيرانِ والإخوانِ، عَلىٰ مَا بينَهُم مِن قربِ الجوارِ ودُنوِّ الدارِ، وكيفَ يكُونُ بينَهُم تواصُلٌ وقَد أصبَحُوا بعدَ الحيَاةِ أمواتًا، وبعدَ نضارَةِ العَيشِ رفاتًا، فُجعَ بهِمُ الأحبَابُ، وسكَنُوا الترَابَ، وظعنُوا فليسَ لَهُم إيابٌ، هيهَاتَ هيهَاتَ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ

﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾(١)، وكأنْ قَد صِرتُم إلَىٰ مَا صارُوا إلَيهِ منَ البلَىٰ والوحدةِ فِي دارِ الموتَىٰ، وارتُهِنْتُم فِي ذلكَ المَضجعِ، وضمَّكُم ذلِكَ المُستودَعُ، فكَيفَ بِكُم لَو قَد تناهَتْ بِكُمُ الأمُورُ، وبُعثِرَتِ القبُورُ، وحُصِّلَ مَا فِي الصدُورِ، وأوقفتُمْ للتحصِيلِ بينَ يدَيِ الملكِ الجَليلِ، فطارَتِ القلوبُ لإشفاقِهَا مِنْ سالِفِ الذنُوبِ، وهُتِكَتْ عنكُمُ الحُجبُ والأستَارُ، وظهَرتْ مِنكُمُ الغُيوبُ والأسرَارُ؟ هنالِكَ تُجزَىٰ كلُّ نفسٍ مَا كسَبَتْ: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾(٢)، ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾(٣).

فانتهِزُوا هذِهِ الفرصَ فإنَّهَا تمُرُّ مرَّ السحَابِ، ولَا تطلُبُوا أثرًا بعدَ عَينٍ، فالدنيُا وإنْ طالَتْ قصيرَةٌ، والمَاضِي للمُقيمِ عِبرةٌ، والميتُ للحيِّ عظةٌ، وليسَ لأمسٍ مضَىٰ عودَةٌ، ولَا المرءُ مِن غدِهِ عَلَىٰ ثقَةٍ، وكلٌّ بكلٍّ لاحِقٌ، واليومُ الهائلُ لكُلٍّ آزِفٌ، وهُوَ اليومُ الذِي لَا ينفَعُ فيهِ مَالٌ ولَا بنُونَ، ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾(٤).

فللَّهِ امرؤٌ راقبَ ربَّهُ، وخافَ ذنبَهُ، وعمِلَ صالحًا، وقدمَ خالِصًا، واحتسَبَ مذخُورًا، واجتنَبَ محذُورًا، ورمىٰ عرَضًا، وأحرَزَ عِوضًا، وكابَر هوَاهُ، وكذَّبَ مُناهُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

(١) المؤمنون:١٠٠.

(٢) النجم:٣١.

(٣) الكهف:٤٩.

(٤) الشعراء:٨٩.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ والشكرُ لهُ عَلىٰ توفيقِهِ العَامِّ، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ تفرَّدَ بالكمَالِ والتمَامِ، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ هُداةِ الأنَامِ ومصَابيحِ الظَّلامِ.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ مِن أعظمِ مَا يلِّينُ القلوبَ القاسيَةَ، المواعظَ الحسنَةَ الرقيقَةَ، والكلماتِ الطيبةَ النافعةَ، حيثُ إنَّ القلوبَ تصدأُ كمَا يصدأُ الحدِيدُ، وكلمَا طالَ العهدُ عَنِ التذكِيرِ انغمَسَتْ فِي الغفلَةِ، وازدَادتْ قسوَةً وغلظَةً، وأجمَلُ المواعظِ مَا جاءَتْ بِهِ الأخبَارُ، وصحَّتْ بِهِ الآثارُ، عَنِ الصحابَةِ الأخيَارِ، الذِينَ صدقُوا اللهَ فِي الباطنِ والظاهرِ، فرفعَ اللهُ ذِكرَهُم، وأعلَىٰ شأنَهُم، حتَّىٰ صارُوا قدوَةً لمَن جاءَ بعدَهُم، وكُسِيَ كلامُهُم بهاءً وحلاوَةً وجمالًا، لإخلاصِهِم فيهِ للهِ ربِّ العالمِينَ، وإرادَتِهِم نصحَ الخَلقِ، وقَد قالَ عليُّ بنُ الفُضيلِ بنِ عياضٍ لأبيهِ: يَا أبتِ مَا أحلَىٰ كلامَ أصحابِ مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالَ: يَا بنيَّ، وتَدرِي لِمَ حَلَا؟ قالَ: لَا، قالَ: «لأنَّهُم أرادُوا اللهَ بِهِ».

ومنِ استمَعَ لأقوالِ أولئِكَ النفرِ الصالحِينَ وأرادَ اللهُ بهِ خَيرًا، هُدِيَ لأحسَنِ الأخلاقِ والأعمالِ، وأخذَ بكريمِ الخصَالِ، وكانَ منَ العُقلاءِ الموفَّقينَ الذِينَ آثرُوا مَا ينبغِي إيثارُهُ عَلىٰ مَا سواهُ، فبُشِّرُوا بأحسنِ حَالٍ، كمَا قالَ تَعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(1).

***

(1) الزمر: ١٧-١٨.

(٨٩) مِن مواعظِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحمدُ للهِ العليمِ الخبيرِ، السَّميعِ البَصيرِ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصَىٰ كلَّ شيءٍ عددًا، لَا إلهَ إلَّا هوَ إليهِ المصيرُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ العليُّ الكبيرُ، وأشهدُ أنَّ نبيَّنَا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ذَوِي الفَضلِ الكبيرِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَد طهَّرَ أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن كلِّ دنسٍ، وزكَّاهُم مِن كلِّ خلقٍ دنيءٍ، فكانَ لأعمالِهِم أبلغُ الأثرِ، ولأقوالِهِم أعظمُ التأثيرِ، يَستَدِلُّ بِهَا الحائرونَ، ويستنيرُ بِهَا السائرونَ، وهذَا مِن فضلِ اللهِ تعالَىٰ عليهِم، ورضوانِهِ عنهُم، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

وحينَ تتأمَّلُ فِي أقوالِهِم تجدُ أنَّهَا خرجَت مِن مشكاةِ النبوَّةِ، ومَعينِ السنَّةِ المطهَّرَةِ، فجاءَت ناصحةً للخلقِ، دالَّةً علَىٰ محاسنِ الأخلاقِ، مُحذِّرةً مِن مساوئِهَا.

وهَاهُنَا جملةٌ مِنَ الأقوالِ النديَّةِ، والمواعظِ السنيَّةِ، للصحابيِّ الجليلِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اشتمَلَت علَىٰ الوصايَا النافعةِ فِي الدينِ والدنيَا، والسعيدُ مَن عملَ بمَا بلغَهُ مِن خيرٍ، واجتنَبَ مَا حُذِّرَ منهُ منَ الشرِّ..

قالَ -رضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ-:

اطلُب قلبَكَ فِي ثلاثةِ مواطنَ: عندَ سماعِ القرآنِ، وفِي مجالسِ الذِّكرِ، وفِي

---

(١) يونس:٥٨.

أوقاتِ الخلوةِ، فإن لَم تجدْهُ فِي هذهِ المواطنِ، فَسَلِ اللهَ أَن يمنَّ عليكَ بقلبٍ، فإنَّهُ لَا قلبَ لكَ.

إنَّمَا همَا اثنتانِ: الهُدىٰ والكلامُ، فأفضلُ الكلامِ كلامُ اللهِ، وأفضلُ الهديِ هديُ محمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرُّ الأمورِ محدثاتُهَا وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ.

وإنَّ الناسَ قَد أحسنُوا القولَ، فمَن وافقَ قولُهُ فِعلَهُ فذاكَ الَّذِي أصابَ حظَّهُ، ومَن خالفَ قولُهُ فِعلَهُ فذاكَ إنَّمَا يوبِّخُ نفسَهُ، وإنِّي لأُبغضُ الرجلَ أَن أراهُ فارغًا، ليسَ فِي شيءٍ مِن عملِ الدنيَا ولَا عملِ الآخرةِ.

وإنَّكُم فِي ممرِّ الليلِ والنهارِ فِي آجالٍ منقوصةٍ، وأعمالٍ محفوظةٍ، والموتُ يأتِي بغتةً، فمَن زرعَ خيرًا فيوشِكُ أَن يحصدَ رغبةً، ومَن زرعَ شرًّا فيوشِكُ أَن يحصدَ ندامةً، ولكلِّ زارعٍ مثلُ مَا زرعَ، لَا يُسبَقُ بطيءٌ بحظِّهِ، ولَا يُدرِكُ حريصٌ مَا لَم يُقدَّر لَهُ، ومَن أُعطِيَ خيرًا فاللهُ أعطاهُ، ومَن وقِيَ شرًّا فاللهُ وقاهُ.

فلَا يطولنَّ عليكُمُ الأمدُ، ولَا يلهينَّكُمُ الأملُ، فإنَّ كلَّ مَا هوَ آتٍ قريبٌ، ألَا وإنَّ البعيدَ مَا ليسَ آتيًا، ألَا وإنَّ الشقيَّ مَن شقيَ فِي بطنِ أمِّهِ، وإنَّ السعيدَ مَن وُعِظَ بغيرِهِ، ألَا وإنَّ قتالَ المسلمِ كفرٌ، وسبابَهُ فسوقٌ، ولَا يحلُّ لمسلمٍ أَن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ حتَّىٰ يسلِّمَ عليهِ إذَا لَقِيَهُ، ويجيبَهُ إذَا دعاهُ، ويعودَهُ إذَا مَرِضَ، ألَا وإنَّ شرَّ الروايَا روايَا الكذبِ، ألَا وإنَّ الكذبَ لَا يصلحُ منهُ جدٌّ ولَا هزلٌ، وإنَّ الكذبَ يهدِي إلَىٰ الفجورِ، والفجورُ يهدِي إلَىٰ النارِ، والصدقُ يهدِي إلَىٰ البرِّ والبرُّ يهدِي إلَىٰ الجنَّةِ، وإنَّهُ يُقَالُ للصادقِ صَدَقَ وبرَّ، ويقالُ للكاذبِ كَذَبَ وفَجَرَ، وإنَّ محمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدَّثَنَا أنَّ الرجلَ لَيَصدُقُ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقًا، ويَكذبُ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّابًا.

وأعظمُ الخطايَا الكذبُ، ومَن يعفُ يعفُ اللهُ عنهُ، ومَن يكظمِ الغيظَ يأجُرْهُ اللهُ، ومَن

يغفِرْ يَغفرِ اللهُ لهُ، ومَن يصبرْ علَىٰ الرزِيَّةِ يعقبْهُ اللهُ (أَي: يجعلُ العاقبةَ لَهُ)، وشرُّ المكاسبِ كسبُ الرِّبَا، وشرُّ المأكلِ مالُ اليتيمِ، وإنَّمَا يكفِي أحدُكُم مَا قَنعَت بهِ نفسُهُ، وإنَّمَا يصيرُ إِلَىٰ أربعةِ أذرعٍ، والأمرُ إِلَىٰ آخرِهِ، وملاكُ العملِ خواتمُهُ، وأشرفُ الموتِ قتلُ الشهداءِ، ومَن يستكبِر يضعْهُ اللهُ، ومَن يعصِ اللهَ يُطعِ الشيطانَ.

ومَا قلَّ وكفَىٰ خيرٌ مِمَّا كَثُرَ وأَلهَىٰ، ونفسٌ تنجيهَا خيرٌ مِن إمارةٍ لَا تُحصِيهَا، وشرُّ المعذرةِ حينَ يحضرُ الموتُ، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامةِ، وشرُّ الضلالةِ الضلالةُ بعدَ الهُدَىٰ، وخيرُ الغِنَىٰ غنَىٰ النفسِ، وخيرُ الزادِ التَّقوَىٰ، وخيرُ مَا أُلقِيَ فِي القلبِ اليقينُ، والريبُ منَ الكفرِ، وشرُّ العمَىٰ عمَىٰ القلبِ، والخمرُ جماعُ الإثمِ، والنساءُ حبائلُ الشيطانِ، والشبابُ شعبةٌ منَ الجنونِ، والنوحُ مِن عملِ الجاهليَّةِ، ومَن تطاوَلَ تعظُّمًا حطَّهُ اللهُ، ومَن تواضعَ تخشُّعًا رفعَهُ اللهُ.

وَحَبَّذَا المكروهانِ: الموتُ والفقرُ، وايْمُ اللهِ إنْ هوَ إلَّا الغِنَىٰ والفقرُ، ومَا أُبَالِي بِأَيِّهِمَا بُليتُ، أرجُو اللهَ فِي كلِّ واحدٍ منهمَا؛ إن كانَ الغِنَىٰ إنَّ فيهِ لَلعطفَ، وإن كانَ الفقرُ إنَّ فيهِ لَلصبرَ.

ومِنَ اليقينِ أَلَّا تُرضِيَ الناسَ بسخطِ اللهِ، ولَا تحمدَ أحدًا علَىٰ رزقِ اللهِ، ولَا تلومَ أحدًا علَىٰ مَا لَم يؤتِكَ اللهُ، فإنَّ رزقَ اللهِ لَا يسوقُهُ حرصُ حريصٍ، ولَا يردُّهُ كراهةُ كارهٍ.

وإنَّ اللهَ بِقِسطِهِ وحلمِهِ وعدلِهِ جعلَ الرَّوحَ والفرحَ فِي اليقينِ والرضَا، وجعلَ الهمَّ والحزنَ فِي الشكِّ والسخطِ.

وإنَّ للقلوبِ شهوةً وإقبالًا، وإنَّ للقلوبِ فترةً وإدبارًا، فاغتنِمُوهَا عندَ شهوتِهَا وإقبالِهَا، ودعوهَا عندَ فترتِهَا وإدبَارِهَا.

تعلَّمُوا العِلمَ، وإذَا علمتُم فاعمَلُوا، وليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ولكنَّ العلمَ

الخشيةُ، وإنِّي لأحسبُ الرجلَ ينسَىٰ العلمَ كانَ يعلمُهُ بالخطيئةِ يعمَلُهَا، ورُبَّ شهوةٍ أَورثَت حُزنًا طويلًا.

وإذَا سمعتَ اللهَ يقولُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، فأرعِهَا سمعَكَ، فإنَّهُ خيرٌ تُؤمَرُ بِهِ، أَو شرٌّ تُنهَىٰ عنهُ.

ولَا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يحلَّ بذروتِهِ، ولَا يحلُّ بذروتِهِ حتَّىٰ يكونَ الفقرُ أحبَّ إليهِ مِنَ الغِنَىٰ، والتواضعُ أحبَّ إليهِ مِنَ الشَّرَفِ، وحتَّىٰ يكونَ حامدُهُ وذامُّهُ عندَهُ سوَاءً.

وإنَّكُم تَرونَ الكافرَ مِن أصحِّ الناسِ جِسمًا وأمرضِهِ قلبًا، وتلقَونَ المُؤمنَ مِن أصحِّ الناسِ قلبًا وأمرضِهِ جسمًا، وايْمُ اللهِ لَو مَرِضَت قلوبُكُم وصَحَّت أجسامُكُم لكنتُم أهوَنَ علَىٰ اللهِ مِنَ الجُعلَانِ.

والحقُّ ثَقيلٌ مَريءٌ، والباطلُ خفيفٌ وبِيءٌ، وإذَا أحبَّ الرجلُ أَن ينصفَ مِن نفسِهِ فليأتِ إلَىٰ الناسِ الَّذِي يحبُّ أَن يُؤتَىٰ إلَيهِ.

وإنَّ الرجُلَ ليخَرجُ مِن بيتِهِ ومعَهُ دينُهُ فيرجعُ ومَا معَهُ منهُ شيءٌ، يأتِي الرجلَ لَا يملكُ لَهُ ولَا لنفسِهِ ضرًّا ولَا نفعًا، فيُقسمُ لَهُ باللهِ إنَّكَ لذيتَ وذويتَ، فيرجعُ ومَا حُبِيَ (أَي: أُعطِيَ) مِن حاجتِهِ بشيءٍ، ويسخطُ اللهُ عليهِ.

والإثمُ حوَّازُ القلوبِ (أَي: يسوقُ القلوبَ)، وإذَا ظهرَ الزنَا والرِّبَا فِي قريةٍ أُذِنَ بهلاكِهَا، ومَا كانَ مِن نظرٍ فإنَّ للشيطانِ فيهَا مطمعًا.

ولَا يقلدنَّ أحدُكُم دينَهُ رجلًا، فإِن آمنَ آمنَ، وإن كفرَ كفرَ، وإن كنتُم لَا بدَّ مقتدينَ؛ فاقتدُوا بالميِّتِ فإنَّ الحيَّ لَا تؤمنُ عليهِ الفتنةُ، ولَا يكُن أحدُكُم إمَّعةً، يقولُ: أنَا معَ الناسِ؛ إنِ اهتدَوا اهتديتُ وإن ضلُّوا ضللتُ، وليوطِّن أحدكُم نفسَهُ علَىٰ أنَّهُ إن كفرَ الناسُ لَا يكفرُ.

ومَن جاءَكَ بالحقِّ فاقبَل منهُ وإِن كانَ بعيدًا بغيضًا، ومَن جاءَكَ بالباطلِ فاردُدْه عليهِ وإِن كانَ حبيبًا قريبًا.

وواللهِ الَّذِي لَا إلهَ إلَّا هوَ، مَا علَىٰ ظهرِ الأرضِ شيءٌ أحوجُ إِلَىٰ طولِ سجنٍ مِن لسَانٍ.

ومِنَ التواضُعِ الرضَا بالدُّونِ مِن شرفِ المَجلِسِ، وأَن تُسَلِّمَ علَىٰ مَن لقيتَ.

وإنَّمَا هذهِ القلوبُ أوعيةٌ، فاشغلوهَا بالقرآنِ، ولَا تشغلوهَا بغيرِهِ، والقرآنُ مأدبةُ اللهِ، فمَنِ استطاعَ أَن يتعلَّمَ منهُ شيئًا فليفعَل، فإن أصفرَ البيوتِ مِنَ الخيرِ الَّذِي ليسَ فيهِ مِن كتابِ اللهِ شيءٌ، وإنَّ البيتَ الَّذِي ليسَ فيهِ مِن كتابِ اللهِ شيءٌ كخَرابِ البيتِ الَّذِي لَا عامرَ لَهُ، وإنَّ الشيطانَ يخرجُ مِنَ البيتِ الَّذِي تسمعُ فيهِ سورةُ البقرةِ.

وينبغِي لحاملِ القرآنِ أَن يُعرَفَ بليلِهِ إِذَا الناسُ نائمونَ، وبنهارِهِ إِذَا الناسُ مفطِرُونَ، وبحزنِهِ إِذَا الناسُ يفرحونَ، وببكائِهِ إِذَا الناسُ يضحكونَ، وبصمتِهِ إِذَا الناسُ يخوضونَ، وبخشوعِهِ إِذَا الناسُ يختَالونَ، وينبغِي لحَاملِ القرآنِ أَن يكونَ باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولَا ينبغِي لَهُ أَن يكونَ جافيًا ولَا غافلًا ولَا صخَّابًا ولَا صيَّاحًا ولَا حديدًا.

كونُوا ينابيعَ العلمِ، مصَابيحَ الهدَىٰ، أحلاسَ البيوتِ، سرجَ الليلَ، جددَ القلوبِ، خلقانَ الثيابِ، تُعرفونَ فِي السماءِ، وتخفونَ علَىٰ أهلِ الأرضِ.

ومَعَ كلِّ فرحةٍ تَرحةٌ، ومَا مُلِئَ بيتٌ حبرةً (أَي: نعمةً وسعةً فِي العيشِ)، إلَّا مُلِئَ عبرةً.

ومَا منكُم إلَّا ضيفٌ، ومالُهُ عاريةٌ، فالضيفُ مرتحلٌ والعاريةُ مؤدَّاةٌ إِلَىٰ أهلِهَا.

ومَا دُمتَ فِي صلاةٍ، فأنتَ تقرعُ بابَ المَلِكِ، ومَن يقرَعْ بابَ المَلِكِ يُفتَحْ لهُ.

ولَا يجعلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَن لهُ سهمٌ فِي الإسلامِ كَمَن لَا سهمَ لَهُ، ولَا يتولَّىٰ اللهَ عَبدٌ فِي الدنيَا فولَّاهُ غيرَهُ يومَ القيامةِ، ولَا يحِبُّ رجلٌ قومًا إلَّا جاءَ معَهُم، ولَا يسترُ اللهُ علَىٰ عبدٍ فِي الدنيَا إلَّا سترَ عليهِ فِي الآخرَةِ.

ووَاللهِ الَّذِي لَا إلهَ غيرُهُ، مَا يضرُّ عبدًا يصبحُ علَىٰ الإسلامِ ويُمسِي عليهِ مَا أصابَهُ فِي الدنيَا.

ومَن أرادَ الدنيَا أضرَّ بالآخرةِ، ومَن أرادَ الآخرةَ أضرَّ بالدنيَا، فأَضِرُّوا بالفانِي للباقِي، وليسَ للمؤمنِ راحةٌ دونَ لقاءِ اللهِ، فمَن كانَت راحتُهُ فِي لقاءِ اللهِ فكأن قدِ، ولَو وقفتُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فقيلَ لِي: اختَر نُخَيِّرُكَ من أيِّهُمَا تكونُ أحبَّ إليكَ، أَو تكونُ رمادًا؟ لَأحببتَ أَن أكونَ رمادًا.

ويذهبُ الصالحُونَ أسلافًا، ويبقَىٰ أهلُ الريبِ مِمَّن لَا يعرفُ معروفًا ولَا ينكرُ منكرًا.

وذهبَ صفوُ الدنيَا وبَقِيَ كدَرُهَا، فالموتُ اليومَ تحفةٌ لكلِّ مسلمٍ.

ومَا ندمتُ علَىٰ شيءٍ ندمِي علَىٰ يومٍ غربَت شمسُهُ، نقصَ فيهِ أَجَلِي ولَم يَزِد فيهِ عَمَلِي.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولَا عدوانَ إلَّا علَىٰ الظالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ، وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ.

أَمَّا بعدُ:

فإنَّ الوعظَ والتذكيرَ سببٌ لحياةِ القلبِ ونجاتِهِ مِنَ الشُّبَهِ والشهواتِ، وإنَّمَا يتفاوتُ

الناسُ فِي الفضلِ بحَسَبِ امتثالِهم لِمَا أُمِرُوا بهِ، واجتنابِهِم لِمَا نُهُوا عنهُ، ولَا شكَّ ولَا ريبَ أنَّ تسديدَ المرءِ للعملِ الصالحِ والأخذَ بهِ هوَ محضُ امتنانٍ مِنَ اللهِ سبحانَهُ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾(١).

ولذَا فالواجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يتبرَّأَ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ، ويسألَ اللهَ السدادَ والثباتَ، وأَن ينفعَهُ فيمَا يَرِدُ إليهِ مِنَ الهُدَىٰ، ويُجَنِّبَهُ أسبابَ الغوايةِ والرَّدَىٰ، فليسَتِ الغايةُ مِنَ المواعظِ الاستماعَ، ولكنَّهُ العملُ والانتفاعُ، وإنَّمَا مفاتيحُ ذلكَ بيدِ اللهِ الملكِ الوهَّابِ، فمَن هُدِيَ إلَىٰ ذلكَ فقَد عَظُمَ حظُّهُ وتوفيقُهُ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢).

❀❀❀

(١) الأنعام:١٢٥.
(٢) يونس:٥٨.

(٩٠) مِن مواعظِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

الحمدُ للهِ الَّذي كانَ بعبادِهِ خبيرًا بصيرًا، وتباركَ الَّذِي جعلَ فِي السماءِ بروجًا وجعلَ فيهَا سراجًا وقمرًا منيرًا، وهوَ الَّذِي جعلَ الليلَ والنهارَ خِلفةً لِمَن أرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أرادَ شكورًا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ميَّزَ كلامَ السلفِ بأَن كساهُ حلاوةً وبهاءً، وجلَّىٰ ظلمتَهُ بأعظمِ النورِ والضياءِ، فأزاحُوا بعباراتِهِمُ القسوةَ عَنِ القلوبِ، ودلُّوا الناسَ علَىٰ السبيلِ الواضحةِ عندَ اشتدادِ الأزماتِ والخُطوبِ، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1]، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2].

ومِمَّن وفَّقَهُ اللهُ لأجملِ الألفاظِ والعباراتِ، والإشاراتِ الهاديةِ إِلَىٰ محاسنِ الأخلاقِ، الصحابيُّ الجليلُ العلَمُ، صاحبُ المقامِ العالِي الأشمِّ، عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، الَّذِي صدَّقَ قولُهُ عملَهُ، حتَّىٰ صارَ لمواعظِهِ وأقوالِهِ كبيرُ الأثرِ علَىٰ القلوبِ والأسماعِ.

وهذِهِ جملةٌ مِن أقوالِهِ الجميلةِ السائرةِ، ودررِهِ البهيَّةِ المتناثرةِ.

قالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

العلمُ أكثرُ مِن أَن يُحصَىٰ فخُذُوا مِن كلِّ شيءٍ أحسنَهُ.

---

(١) الأنعام: ٨٨.

(٢) الأنعام: ٩٠.

وإنَّ للهِ تعالَىٰ مِن خلقهِ صفوةً، إذَا أحسنُوا استبشرُوا، وإذَا أساءُوا استغفرُوا، وإذَا أُنعِمُوا شكرُوا، وإذَا ابتُلوا صبرُوا.

وبلغنِي أَنَّ العبدَ يومَ القيامةِ ليسَ هوَ علَىٰ شيءٍ أحنقَ منهُ علَىٰ لسانِهِ، فيَا لسانُ: قُلْ خيرًا تَغنَمْ، واسكُتْ عَن شرٍّ تسلَمْ، فإنَّكَ إلَّا تفعَلْ تندَمْ.

وإنَّ للهِ تعالَىٰ عبادًا أصمتَتهُم خشيتُهُ مِن غيرِ بُكمٍ ولَا عِيٍّ، إذَا تذكَّرُوا عظمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ طاشَت لذلكَ عقولُهُم، وانكسَرَت قلوبُهُم، وانقطَعَتْ ألسنتُهُم، حتَّىٰ إذَا استفاقُوا مِن ذلكَ تسارعُوا إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالأعمالِ الزاكيةِ، يعُدُّونَ أنفسَهُم معَ المُفرِّطِينَ، وإنَّهُم لأكياسٌ أقوياءُ، ومعَ الظالمينَ والخطائينَ وإنَّهُم لأبرارٌ بُرآءُ، إلَّا أنَّهُم لَا يستكثِرُونَ لَهُ الكثيرَ، ولَا يرضَونَ لَهُ القليلَ، وهُم حيثُمَا لقيتَهُم مهتمُّونَ مشفقونَ وجلونَ خائفونَ.

فيَا صاحبَ الذنبِ، لَا تأمننَّ مِن سوءِ عاقبتِهِ، وضحكُكَ وأنتَ لَا تدرِي مَا اللهُ صانعٌ بكَ أعظمُ مِنَ الذنبِ، وفرحُكَ بالذنبِ إذَا ظفرتَ بهِ أعظمُ مِنَ الذنبِ، وحزنُكَ علَىٰ الذنبِ إذَا فاتَكَ أعظمُ مِنَ الذنبِ إذَا ظفرتَ بهِ، وخوفُكَ مِنَ الريحِ إذَا حرَّكَتْ سِترَ بابِكَ وأنتَ علَىٰ الذنبِ ولَا يضطربُ فؤادُكَ مِن نظرِ اللهِ إليكَ أعظمُ مِنَ الذنبِ إذَا عَمِلتَهُ، ومَن أذنبَ ذنبًا وهوَ يضحكُ، دخلَ النارَ وهوَ يبكِي.

ومَا مِن مؤمنٍ ولَا فاجرٍ إلَّا وقَد كتبَ اللهُ تعالَىٰ لَهُ رزقَهُ مِنَ الحلالِ، فإن صبرَ حتَّىٰ يأتيهِ آتاهُ اللهُ تعالَىٰ، وإن جَزِعَ فتناولَ شيئًا مِنَ الحرامِ نقصَهُ اللهُ مِن رزقِهِ الحلالِ.

ومنهومانِ لَا تنقضِي نهمتُهمَا: طالبُ علمٍ وطالبُ دنيَا، وكسبُ الحلالِ أشدُّ مِن نَقلِ الجَبَلِ إلَىٰ الجَبَلِ.

وقَد ذهبَ الناسُ وبَقِيَ النَّسنَاسُ، الَّذِينَ يتشبهونَ بالناسِ وليسُوا بالناسِ، ولولَا مخافةُ الوسواسِ، لدخلت إلَىٰ بلادٍ لَا أنيسَ بِهَا، وهَل يُفسدُ الناسَ إلَّا الناسُ؟!

ويَأتِي علَىٰ الناسِ زمانٌ يُصعَدُ فيهِ بعقولِ الناسِ حتَّىٰ لَا تجدَ فيهِ أحدًا ذَا عَقلٍ.

وإنَّ البغيَ ليُدرِكُ صاحبَهُ ولَو بعدَ ثلاثينَ سنةً، ولَو بغَىٰ جبلٌ علَىٰ جبلٍ لجعلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الباغِي منهمَا دكًّا.

وإنَّ القرابةَ تُقطعُ، وإنَّ النِّعَمَ تُكفَرُ، ولَم أرَ مثلَ تقاربِ القلوبِ، والقناعةُ مالٌ لَا نفادَ لَهُ، والدنيَا العافيةُ، والشبابُ الصحةُ، والمروءةُ الصبرُ، والكرمُ التقوَىٰ، والحسبُ المالُ، والخطُّ لسانُ اليدِ، والحلمُ مِنَ الخلالِ الَّتِي تُرضِي اللهَ، وهوَ يجمعُ لصاحبِهِ شرفَ الدنيَا والآخرةِ، أَلَم تسمعُوا اللهَ تعالَىٰ وَصَفَ خليلَهُ بالحلمِ، فقالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[1].

وَكُلْ مَا شئتَ، والبسْ مَا شئتَ، مَا أخطأَتكَ خصلتانِ: سرَفٌ ومَخِيلَةٌ.

ومَا مِن قومٍ قالَ لَهُمُ الناسُ: طوبَىٰ، إِلَّا خبَّأَ لهُمُ الدهرُ يومًا يسوؤُهُم، وجَهدُ البلاءِ أَن تحتاجُوا إِلَىٰ مَا فِي أيدِي الناسِ فيمنعوكُم، ومَا فتحَ رجلٌ علَىٰ نفسِهِ بابَ مسألةٍ إِلَّا فتحَ اللهُ عليهِ بابَ فقرٍ، فاستعِفُّوا، وقلوبُ الجُهَّالِ تستفزُّهَا الأطماعُ، وتُرتَهنُ بالمُنَىٰ.

وأحبُّ إخوانِي إليَّ: الَّذِي إِذَا أتيتُهُ قَبِلَنِي، وإِذَا غِبْتُ عنهُ عذَرَنِي، وإِذَا أردتَ أَن تَذكُرَ عيوبَ صاحبِكَ فاذكُر عيوبَ نفسِكَ.

وثلاثةُ أخلاقٍ كانَت فِي الجاهليةِ مستحبَّةٌ، والمسلمونَ أولَىٰ بِهَا، أوَّلُهَا: لَو نزلَ بِهِم ضيفٌ لاجتهدُوا فِي برِّهِ، والثانِي: لَو كانَت لواحدٍ مِنهُم امرأةٌ كَبُرَت عندَهُ لَم يُطَلِّقهَا، ويُمسِكُهَا مخافةَ أَن تضيعَ، والثالثُ: إِذَا لَحِقَ بجارهِم دَينٌ، أَو أصابَهُ شدَّةٌ أَو جَهْدٌ، اجتهدُوا حتَّىٰ يقضُوا دينَهُ، وأخرجُوهُ مِن تلكَ الشدَّةِ.

---

(١) هود:٧٥.

ومعلِّمُ الناسِ الخيرَ يستغفرُ لَهُ كلُّ شيءٍ حتَّىٰ الحوتُ فِي البحرِ، وإذَا أخطأَ العالمُ أَن يقولَ: لَا أدرِي، فقَد أُصيبَتْ مقاتِلُهُ.

والعلمُ أكثرُ مِن أَن يُحصَىٰ فخذُوا مِن كلِّ شيءٍ أحسنَهُ، وخذُوا العلمَ حيثُ وجدتُمُوهُ، ولَا تقبلُوا قولَ الفقهاءِ بعضُهُم علَىٰ بعضٍ، فإنَّهُم يتغايرونَ كمَا تتغايرُ التيوسُ فِي الزريبةِ.

ولَا تتكَلَّمْ فيمَا لَا يعنِيكَ فإنَّهُ فضلٌ، ولَا آمنُ عليكَ الوِزرَ، ولَا تتكلَّمْ فيمَا يعنيكَ حتَّىٰ تجدَ لَهُ موضعًا، فإنَّهُ رُبَّ متكلِّمٍ فِي أمرٍ يعنيهِ قَد وضعَهُ فِي غيرِ موضعِهِ، فعَنَتَ (أَي: أصابَتْهُ مشقَّةٌ بسببِ ذلكَ)، ولَا تمَارِ حَليمًا ولَا سَفيهًا؛ فإنَّ الحليمَ يبغضُكَ، والسفيهَ يؤذيكَ، واذكُر أخاكَ إذَا غابَ عنكَ بمَا تحبُّ أَن يذكُرَكَ بِهِ، وأعفِهِ ممَّا تحبُّ أَن يُعفِيَكَ منهُ، وعامِلْ أخاكَ بِمَا تحِبَّ أَن يعاملَكَ بِهِ، واعمَلْ عملَ رجلٍ يعلَمُ أنَّهُ مُجازًىٰ بالإحسانِ، مأخوذٌ بالإجرامِ.

وساداتُ الناسِ فِي الدنيَا الأسخياءُ، وفِي الآخرةِ الأتقياءُ، ولَا يزالُ الرجلُ يزدادُ فِي صحةِ رأيِهِ مَا نصحَ لمستشيرِهِ، فإذَا غشَّهُ سلبَهُ اللهُ نُصحَهُ ورأيَهُ.

وإنَّ اللهَ تعالَىٰ جعلَ الدنيَا ثلاثةَ أجزاءٍ: جزءٌ للمؤمنِ، وجزءٌ للمنافقِ، وجزءٌ للكافرِ، فالمؤمنُ يتزوَّدُ، والمنافقُ يتزيَّنُ، والكافرُ يتمتَّعُ.

وأوصيكَ بستَّةِ أشياءَ: **أوَّلُهَا**: يقينُ القلبِ بالأشياءِ الَّتِي تكفَّلَ اللهُ لكَ بِهَا، **والثانِي**: بأداءِ الفرائضِ لوقتِهَا، **والثالثُ**: بلسانٍ رطبٍ فِي ذكرِ اللهِ تعالَىٰ، **والرابعُ**: لَا توافقِ الشيطَانَ، فإنَّهُ حاسِدٌ للخلقِ، **والخامسُ**: لَا تُعَمِّرِ الدنيَا فإنَّهَا تخرِّبُ آخرتَكَ، **والسادسُ**: أَن تكونَ ناصحًا للمسلمينَ دائمًا.

ولكلِّ شيءٍ آفةٌ: وآفةُ العلمِ النسيانُ، وآفةُ العبادةِ الكسلُ، وآفةُ اللُّبِّ العُجبُ، وآفةُ الظُّرفِ الصلفُ، وآفةُ التجارةِ الكذبُ، وآفةُ السخاءِ التبذيرُ، وآفةُ الجمالِ

الخُيَلاءُ، وآفةُ الدِّينِ الريَاءُ، وآفةُ الإسلامِ الهوَىٰ.

وكلُّ ذنبٍ أصرَّ عليهِ العبدُ كبيرٌ، وليسَ بكبيرٍ مَا تابَ منهُ العبدُ.

وأكرمُ الناسِ عليَّ جليسِي الَّذِي يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ حتَّىٰ يجلسَ إليَّ، لَوِ استطعتُ أَلَّا يقعَ الذبابُ علَىٰ وجههِ لفعلتُ.

وثلاثةٌ لَا يكافئهُم عنِّي إلَّا ربُّ العالَمِينَ: رجلٌ فسَّحَ لِي فِي مجلسِهِ، ورجلٌ تخطَّىٰ الحِلَقَ والمجالسَ حتَّىٰ جلسَ إليَّ، ورجلٌ ذكرَ فِي الليلِ حاجتَهُ فرآنِي أهلًا لذلكَ.

وتمامُ المعروفِ تعجيلُهُ وتصغيرُهُ وسترُهُ: أَن تُعَجِّلَ العطيَّةُ للمُعطَىٰ، وأَن تُصَغَّرَ فِي عينِ المُعطِي، وأَن تستُرَهَا عَنِ الناسِ فلَا تُظهِرُهَا، فإنَّ فِي إظهارِهَا فتحَ بابِ الرياءِ، وكسرَ قلبِ المُعطَىٰ، واستحياءَهُ مِنَ الناسِ.

وأفضلُ العُدَّةِ الصبرُ علَىٰ الشدَّةِ، وكفَىٰ بِكَ ظالمًا أَلَّا تزالَ مخاصمًا، وكفَىٰ بكَ آثمًا أَلَّا تزالَ مماريًا.

والنساءُ عورةٌ، خُلِقنَ مِن ضعفٍ، فاسترُوا عوراتِهِنَّ بالبيوتِ، ودارُوا ضعفَهُنَّ بالسكوتِ، ومَن رزقَهُ اللهُ ولدًا فليحُسِن اسمَهُ وتأديبَهُ، فإِذَا بلغَ فليزوِّجْهُ.

وإِنِّي لأُحِبُّ أَن أتزيَّنَ لامرأتِي كمَا أحبُّ أَن تتزيَّنَ لِي.

وإِذَا رأيتُمُ الرجلَ قَد نزَلَ بهِ الموتُ، فبشِّرُوهُ حتَّىٰ يلقَىٰ ربَّهُ وهوَ حَسَنُ الظنِّ باللهِ تعالَىٰ، وإِذَا كانَ حيًّا فخوِّفُوهُ بربِّهِ واذكرُوا لَهُ شدَّةَ عقابِهِ.

ولأَن أعولُ أهلَ بيتٍ منَ المسلمِينَ شهرًا أَو جُمعةً أَو مَا شاءَ اللهُ، أحبُّ إليَّ مِن حَجَّةٍ بعدَ حَجَّةٍ.

وإنِّي لآتِي عَلَىٰ الآيةِ مِن كتَابِ اللهِ فلوددتُ أَنَّ الناسَ عَلِمُوا منهَا مثلَ الَّذِي

أعلمُ، وإنِّي لأسمعُ بالحاكمِ مِن حُكَّامِ المسلمينَ يقضِي بالعدلِ، فأفرحُ بهِ، ولَعَلِّي لَا أقاضِي إليهِ، ولَا أحاكمُ أبدًا، وإنِّي لَأَسمعُ بالغيثِ يصيبُ الأرضَ مِن أرضِ المسلمينَ فأفرحُ بهِ، ومَا لِي بِهَا مِن سائمةٍ أبدًا.

واجتنبُوا أبوابَ الملوكِ، فإنَّكُم لَا تصيبونَ مِن دنياهُم شيئًا إلَّا أصابُوا مِن آخرتِكُم مَا هوَ أفضلُ منهُ.

والمروءةُ أَن تحقِّقَ التوحيدَ، وتركبَ النَّهجَ السديدَ، وتستدعيَ مِنَ اللهِ المزيدَ.

وأَحِبَّ فِي اللهِ، وأبغِضْ فِي اللهِ، ووالِ فِي اللهِ، وعادِ فِي اللهِ، فإنَّمَا تُنالُ ولايةُ اللهِ بذلكَ، ولَا يجدُ عبدٌ طعمَ الإيمانِ وإِن كَثُرَت صلاتُهُ وصيامُهُ حتَّىٰ يكونَ كذلكَ.

وأوصيكَ بتوحيدِ اللهِ، والعملِ لَهُ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، فإنَّ كلَّ خيرٍ أنتَ آتيهِ بعدَ ذلكَ مقبولٌ، وإلَىٰ اللهِ مرفوعٌ، وإنَّكَ لَن تزدادَ مِن يومِكَ إلَّا قُربًا، فصلِّ صلاةَ مُوَدِّعٍ، وأَصبِحْ فِي الدنيَا كأنَّكَ غريبٌ مسافرٌ، فإنَّكَ مِن أهلِ القبورِ، وابكِ علَىٰ ذنبِكَ، وتُب مِن خطيئَتِكَ، ولتكُنِ الدنيَا عليكَ أهونَ مِن شِسْعِ نَعلِكَ، فكأنَّكَ قَد فارقتَهَا، وصرتَ إلَىٰ عدلِ اللهِ، ولَن تنتفعَ بِمَا خلَّفتَ، ولَن ينفعكَ إلَّا عملُكَ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي قضَىٰ علَىٰ كلِّ مخلوقٍ بالفناءِ، وتفرَّدَ بالعزِّ والبقاءِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَهُ الأسماءُ الحسنَىٰ والصفاتُ العُلَا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ هداةِ الأنامِ ومصَابيحِ الدُّجَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ تعالَىٰ إذَا أرادَ بعبدهِ خيرًا، أحيَا قلبَهُ، وأنارَ بصيرتَهُ، وألهمَهُ الرشَادَ، وفتحَ

لَهُ بابَ العمَلِ ورزَقَهُ التوفيقَ والسدادَ.

وإنَّ مِن أعظمِ مَا يُعِينُ العبدَ علَىٰ تحصيلِ أسبابِ النجاةِ، النظرَ فِي سِيَرِ الصالحينَ، وتلمُّسَ أقوالِ الناصحينَ، مِنَ الصحابةِ الأخيارِ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ، فِي كلِّ عصرٍ وزمانٍ، الذِينَ سبقُوا إلَىٰ كلِّ خيرٍ وصلاحٍ، وصدَقُوا اللهَ فِي الظاهرِ والباطنِ، حتَّىٰ كتبَ اللهُ لَهُمُ القبولَ، وكانَ مِن علامةِ توفيقِ المرءِ أَن يقتديَ بِهِم فِي الأقوالِ والأعمالِ، وقَد قيلَ للحسنِ البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سبَقَنَا القومُ عَلَىٰ خيلٍ دُهمٍ ونحنُ علَىٰ حُمُرٍ معقَّرةٍ، فقالَ: إِن كُنتَ علَىٰ طريقهِم فمَا أسرعَ اللحاقَ بِهِم.

❊❊❊

(٩١) وصيةٌ نافعةٌ

الحمدُ للهِ الَّذِي وفَّقَ مَن شاءَ لمكَارِمِ الأخلاقِ، وهَدَاهُم لِمَا فيهِ فلَاحُهُم يومَ التَّلاقِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ الملكُ الخلَّاقُ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ أفضلُ البشرِ علَىٰ الإطلاقِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إِلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مَن أرادَ اللهُ بهِ خيرًا، هداهُ إِلَىٰ الانتفاعِ بمَا يسمعُ منَ الوصايَا النافعةِ، وإنَّ السعيدَ مَن وفَّقَهُ اللهُ تعالَىٰ للعملِ بطاعتِهِ، واتباعِ مرضاتِهِ، وكانَ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(١).

ولَم يزلِ الناسُ يوصِي بعضُهُم بعضًا بالخيرِ والمعروفِ، وهذَا خُلُقٌ دلَّ عليهِ كتابُ ربِّنا وسنَّةُ نبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حيثُ وصَّىٰ اللهُ سبحانَهُ الناسَ بمَا فيهِ صلاحُ أحوالِهِم فِي الدينِ والدنيَا، كمَا فِي قولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾(٢)، وقولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾(٣).

وجاءَ فِي السنَّةِ النبويَّةِ أنَّ رجلًا قالَ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: أوصِنِي، قالَ: «**لَا تغضَب**»، فردَّدَ مرارًا، قالَ: «**لَا تغضَب**»(٤)، وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**أوصِيكُم بتقوَىٰ اللهِ والسَّمعِ**

(١) الزمر: ١٨.

(٢) العنكبوت: ٨.

(٣) النساء: ١٣١.

(٤) رواه البخاري (٦١١٦).

والطاعةِ»[1]، والأمثلةُ علَىٰ ذلكَ كثيرةٌ فِي نصُوصِ الكتابِ والسنَّةِ.

ومِن جميلِ الوصايَا مَا أوصَت بِهِ الآباءُ الأبناءَ بمَا يدلُّهُم علَىٰ مكارمِ الأخلاقِ والصفاتِ، حتَّىٰ يكونُوا فِي حياتِهم ناجحينَ، وعَن أقرانِهم متميِّزينَ، وللخيرِ سابقينَ.

ومِن ألطفِ الوصايَا الجامعةِ، مَا أوصَىٰ بِهِ الخطَّابُ بنُ المعلَّىٰ المخزوميُّ ابنَهُ فقالَ:

يَا بُنيَّ، عليكَ بتقوَىٰ اللهِ وطاعتِهِ، وتجنَّبْ محارِمَهُ باتِّبَاعِ سُنَّتِهِ ومعالِمِهِ، حتَّىٰ تصحَّ عيوبُكَ وتقرَّ عينُكَ، فإنَّهَا لَا تخفَىٰ علَىٰ اللهِ خافيةٌ.

وإنِّي قَد وَسمْتُ لكَ وسمًا، ووضعتُ لكَ رسمًا، إِن أنتَ حفظتَهُ ووعيتَهُ وعملتَ بهِ؛ ملأتَ أعينَ الملوكِ، وانقادَ لكَ بِهِ الصعلُوكُ، ولَم تزَل مُرتجًىٰ مشرَّفًا يُحتاجُ إليكَ، ويُرغَبُ إلَىٰ مَا فِي يديكَ، فأَطِعْ أباكَ، واقتَصِر علَىٰ وصيَّتِهِ، وفَرِّغ لذلكَ ذهنَكَ، واشغَلْ بهِ قلبَكَ ولُبَّكَ.

إيَّاكَ وهَذْرَ الكلامِ، وكثرةَ الضحكِ والمزاحِ، ومهازلةَ الإخوانِ، فإنَّ ذلكَ يُذهِبُ البهاءَ، ويوقعُ الشَّحناءَ.

وعليكَ بالرَّزانةِ والتوقُّرِ، مِن غيرِ كبرٍ يُوصَفُ منكَ؛ ولَا خُيلاءَ تُحكىٰ عنكَ، والقَ صديقَكَ وعدوَّكَ بوجهِ الرِّضَا وكفِّ الأذَىٰ، مِن غيرِ ذِلَّةٍ لَهُم ولَا هَيبةٍ منهُم، وكُن فِي جَميعِ أمورِكَ فِي أوسطِهَا؛ فإنَّ خيرَ الأمورِ أواسطُهَا.

وقَلِّلِ الكلامَ، وأَفْشِ السَّلامَ، وامشِ متمكِّنًا قَصْدًا، ولا تَخُطَّ برِجلِكَ، ولَا تسحَبْ ذيلَكَ، ولَا تَلْوِ عُنقَكَ ولَا رداءَكَ، ولَا تنظُرْ فِي عِطفكَ، ولَا تُكثِرِ الالتفاتَ، ولَا تقِفْ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

علَىٰ الجماعاتِ، ولَا تتَّخِذِ السوقَ مجلسًا، ولَا الأسواقَ مُتحدَّثًا.

ولَا تُكثِرِ المِراءَ، ولَا تُنازِعِ السفهاءَ، فإِنْ تكلَّمْتَ فاختصِرْ، وإِنْ مزحْتَ فاقتصِرْ، وإذَا جلَستَ فتربَّع، وتحفَّظ مِن تشبيكِ أصابعِكَ وتفقيعِهَا، والعَبَثِ بلحيتِكَ وخاتمِكَ وتخليلِ أسنانِكَ، وإدخالِ يديكَ فِي أنفِكَ، وكثرةِ التثاؤبِ والتمطِّي، وأشبَاهِ ذلكَ مِمَّا يستخفُّهُ الناسُ منكَ ويغتَمِزُونَ بهِ فِيكَ.

وليَكُن مجلسُكَ هادئًا، وحديثُك مَقسُومًا، وأصغِ إلَىٰ الكلامِ الحسنِ ممَّن حدَّثَكَ، بغيرِ إظهارِ عَجَبٍ منكَ ولَا مسألةِ إعادةٍ، وأَقلِل مِنَ الفكاهاتِ مِنَ المضاحكِ والحكاياتِ، ولَا تحدِّث عَن إعجابِكَ بولدِكَ ولَا جاريَتِكَ ولَا فرسِكَ، ولَا تصَنَّع تصَنُّعَ المرأةِ، ولَا تَبَذَّل تبَذُّلَ المملوكِ، ولَا تلحَّ فِي الحاجاتِ، ولَا تخشَع فِي الطلباتِ.

ولَا تُعلِمْ أهلَكَ وولدَكَ -فضلًا عَن غيرِهِم- عددَ مالِكَ، فإِنَّهُم إِن رأوهُ قليلًا هِنْتَ عليهِم، وإِنْ كانَ كثيرًا لَم تبلُغْ بِهِ رِضَاهُم، وأَخِفْهُم فِي غيرِ عنفٍ، ولِنْ لَهُم فِي غيرِ ضعفٍ.

وإذَا خاصمتَ فتَوَقَّرْ، وتَحَفَّظْ مِنْ جهلِكَ، وتجنَّبِ العجلةَ، وتفكَّر فِي حُجَّتِكَ، وأرِ الناسَ شيئًا مِن حِلمِكَ، ولَا تُكثِرِ الإشارةَ بيدِكَ، ولَا تَحَفَّزْ علَىٰ ركبتَيْكَ، وإِن سُفِهَ عليكَ فاحلُمْ، وإِذَا هَدأَ غضبُكَ فتكلَّم، وأكرِم عِرضَكَ، وألقِ الفضولَ عنكَ.

وإِنْ قرَّبَكَ سلطانٌ فكُن منهُ علَىٰ حدِّ السِّنانِ، وإِنِ استرسلَ إليكَ فلَا تأمَنْ منَ انقلابِهِ علَيكَ، وارفُقْ بِهِ رفقَكَ بالصبيِّ، وكلِّمْهُ بمَا يشتَهِي، ولَا يحمِلنَّكَ مَا ترَىٰ مِنَ إلطافِهِ إيَّاكَ وخاصَّتِهِ بكَ أَن تدخلَ بينَهُ وبينَ أحدٍ مِن ولدِهِ وأهلِهِ وحشمِهِ وإِنْ كانَ لذلكَ منكَ مُستمعًا، وللقولِ منكَ مُطيعًا، فإِنَّ سقطَةَ الداخِلِ بينَ المَلكِ وأهلِهِ صَرْعةٌ لَا تنهَضُ، وزلَّةٌ لَا تُقالُ.

وإذَا وعَدْتَ فحقِّقْ، وإذَا حدَّثتَ فاصدُقْ، ولَا تجهَرْ بمَنطقِكَ كمُنازِعِ الأصمِّ، ولَا تُخَافِتْ بِهِ كتَخَافُتِ الأخرَسِ، وتخيَّرْ محَاسنَ القولِ بالحديثِ المقبُولِ، وإذَا حُدثتَ بسماعٍ فانسِبْهُ إِلَىٰ أهلِهِ، وإيَّاكَ والأحاديثَ العابرَةَ المشنِّعةَ الَّتِي تنكِرُهَا القلوبُ.

ولَا تَعَضَّ نصفَ اللقمةِ ثمَّ تُعيدُ مَا بَقِيَ منهَا، فإنَّ ذلكَ مكروهٌ، ولَا تعب شيئًا ممَّا يُقرَّبُ إليكَ علَىٰ مائدةٍ بقِلَّةِ خلٍّ أو تابلٍ، فإنَّ السحابةَ قَد صيَّرتْ لنفسِهَا مهابةً.

ولَا تُمسكْ إمساكَ المثبورِ، ولَا تُبذِّرْ تبذيرَ السفِيهِ المغرُورِ، واعرف فِي مالِكَ واجبَ الحقوقِ، وحرمةَ الصديقِ، واستغْنِ عنِ الناسِ يحتاجُوا إليكَ، واعلَم أنَّ الجشَعَ يدعُو إلَىٰ الطمعِ، والرغبةَ تدقُّ الرقبةَ، ورُبَّ أكلةٍ تمنعُ أكلاتٍ، والتعفُّفُ مالٌ جسيمٌ، وخلقٌ كريمٌ، ومعرفةُ الرجلِ قدرَهُ تشرِّف ذكْرَه، ومَن تعدَّىٰ القَدْرَ هوَىٰ فِي بعيدِ القَعرِ.

والصدقُ زينٌ، والكذبُ شَينٌ، ولَصِدقٌ يُسرعُ عطبَ صاحبِهِ، أحسنُ عاقبةً مِن كذبٍ يَسلَمُ عَليهِ قائلُهُ.

ومُعاداةُ الحليمِ خيرٌ مِن مُصَادقةِ الأحمقِ، ولزومُ الكريمِ علَىٰ الهوانِ خيرٌ مِن صحبةِ اللئيمِ علَىٰ الإحسَانِ، ولَقُربُ مَلِكٍ جوادٍ، خيرٌ مِن مجاورةِ بحرٍ طرَّادٍ.

تشبَّه بأهلِ العَقلِ تكُن منهُم، وتصنَّع للشرفِ تدركْهُ، واعلَم أنَّ كلَّ امرئٍ حيثُ وضعَ نفسَهُ، وإنَّمَا يُنسَبُ الصانعُ إلَىٰ صناعتِهِ، والمَرءُ يُعرَفُ بقرينِهِ.

وإيَّاكَ وإخوانَ السوءِ فإنَّهُم يخُونونَ مَن رافقَهُم، ويُحزِنونَ مَن صادَقَهُم، وقربُهم أعدَىٰ مِنَ الجَربِ، ورفضُهُم مِنَ استكمَالِ الأدبِ، والعجلةُ شؤمٌ، وسوءُ التدبيرِ وَهْنٌ.

والإخوانُ اثنانِ: فمحافظٌ عليكَ عندَ البلاءِ، وصديقٌ لكَ فِي الرخاءِ، فاحفَظ صديقَ البلاءِ، وتجنَّب صديقَ العافيةِ؛ فإنَّهُ أعدَىٰ الأعداءِ.

ومَنِ اتَّبعَ الهوَىٰ مالَ بِهِ الرَّدَىٰ، ولَا يُعجِبْكَ الجهمُ منَ الرجالِ، ولَا تحقِرْ ضئيلَ الخِلالِ، فإنَّمَا المرءُ بأصغرَيهِ: قلبِهِ ولسانِهِ، ولَا يُنتفَعُ بِهِ بأكثَرَ مِن أصغرَيْهِ.

وتوقَّ الفسادَ وإن كنتَ فِي بلادِ الأعادِي، ولَا تَفرشْ عرضَكَ لِمَن دونَكَ، ولَا تجعَل مالَكَ أكرمَ عليكَ مِن عرضِكَ، ولَا تُكثرِ الكلامَ فتثقلَ علَىٰ الأقوامِ، وامنَحِ البِشْرَ جليسَكَ، والقبولَ مِمَّن لاقاكَ .

وكُن متقرِّبًا، متعزِّزًا، منتهِزًا فِي فرصتِكَ، رفيقًا فِي حاجتِكَ، متثبتًا فِي حملتِكَ، والبَس لكلِّ دهرٍ ثيابَهُ، ومعَ كلِّ قومٍ شكلَهُم، واحذَر مَا يُلزِمُكَ اللائمةَ فِي آخرتِكَ، ولَا تعجَل فِي أمرٍ حتَّىٰ تنظرَ فِي عاقبتِهِ، ولَا تَرِدْ حتَّىٰ ترَىٰ وجْهَ المصدَرِ.

ومُنازعتُكَ اللئيمَ تطمِعُهُ فيكَ، ومَن أكرَمَ عرضَهُ أكرمَهُ الناسُ، وذمُّ الجاهلِ إيَّاكَ أفضلُ مِن ثنائِهِ عليْكَ، ومعرفَةُ الحقِّ مِن أخلاقِ الصِّدقِ، والرفيقُ الصَّالحُ ابنُ عمٍّ، ومَن أيسَرَ أُكبِرَ، ومَنِ افتقرَ احتُقِرَ .

وطولُ السفَرِ ملالةٌ، وكثرَةُ المُنَىٰ ضلالةٌ، وليسَ للغائبِ صديقٌ، ولَا علَىٰ الميِّتِ شفيقٌ، وأدبُ الشيخِ عناءٌ؛ وتأديبُ الغلامِ شقاءٌ، والحلمُ مطيَّةُ الأحمقِ، والحمقُ داءٌ لَا شفاءَ لَهُ، والحلمُ خيرُ وزيرٌ، والدِّينُ أزينُ الأمورِ، والسماجَةُ سفاهةٌ، والسكرانُ شيطانٌ، وكلامُهُ هذَيانٌ، والشحُّ شقاءٌ، والشجاعةُ بقاءٌ.

والهديَّةُ مِنَ الأخلاقِ السَّريةِ، وهيَ تُورثُ المحبَّةَ، ومَنِ ابتدأَ المَعرُوفَ صارَ دَيْنًا، ومِنَ المَعروفِ ابتداءٌ مِن غيرِ مسألَةٍ.

ومَن حلَّ عَقدًا احتمَلَ حِقدًا، ومراجعَةُ السلطانِ حمقٌ بالإنسانِ، وأعجلُ المنفعةِ إيسارٌ فِي دَعَةٍ، وكثرةُ التعلُّلِ مِنَ البُخْلِ، وشرُّ الرجالِ الكثيرُ الاعتلالِ؛ وحسنُ اللقاءِ يُذهِبُ بالشحناءِ، ولينُ الكلامِ مِن أخلاقِ الكرَامِ.

يَا بنيَّ، إنَّ زوجةَ الرجلِ سَكَنُهُ، ولَا عيشَ لَهُ مَعَ خلافِهَا، فإذَا هَمَمتَ بنكاحِ امرأةٍ فسَلْ عَن أهلِهَا، فإنَّ العرقَ نزَّاعٌ؛ والعروقُ الطيِّبةُ تُنبتُ الثمَارَ الحُلوةَ، فالزوجةُ السوءُ الداءُ العُضالُ، وطاعةُ النساءِ تُزرِي بالعقلاءِ.

واعلَم أنَّ النسَاءَ أشدُّ اختلافًا مِن أصابعِ الكفِّ، فتوقَّ منهنَّ كلَّ ذاتِ بَذَا؛ مجبولَةٍ علَىٰ الأذَىٰ.

فمنهنَّ المعجبَةُ بنفسِهَا، المزريةُ بزوجِهَا، إنْ أكرمَهَا رَأتهُ لفضلِهَا عليهِ، لَا تَشكُرُ علَىٰ جميلٍ، ولَا ترضَىٰ منهُ بقليلٍ، لسانُهَا عليهِ سيفٌ صقيلٌ، قَد كشفَتِ الوقاحةُ سِترَ الحياءِ عَن وجهِهَا، فلَا تستحِي مِن إعوارِهَا، ولَا تستحِي مِن جارِهَا، فوجهُ زوجِهَا مكلومٌ، وعرضُهُ مشتومٌ، لَا ترعَىٰ عليهِ لدينٍ ولَا لدنيَا، ولَا تحفَظُهُ لصحبَةٍ ولَا لكثرةِ بَنينٍ، حجابُهُ مهتوكٌ، وسترهُ منشورٌ، وخيرهُ مدفونٌ، يصبحُ كئيبًا، ويُمسِي عاتبًا، شرابُهُ مرٌّ، وطعامُهُ غيظٌ، وأولادُهُ ضِياعٌ، وبيتُهُ مستهلَكٌ، وثوبُهُ وَسِخٌ، ورأسُهُ شَعِثٌ، إنْ ضحِكَ فَواهِنٌ، وإن تكلَّمَ فمتكارِهٌ، نهارُهُ ليلٌ، وليلُهُ ويلٌ، تلدغُهُ مثلَ الحيةِ العقَّارةِ، وتلْسَعُهُ مثلَ العقرَبِ الجرارَةِ.

ومنهنَّ سلفعٌ، ذاتُ سمٍّ مُنقَعٍ، تهبُّ معَ الرياحِ، وتطيرُ معَ كلِّ ذِي جناحٍ، إن قالَ: لَا، قالَت: نَعَمْ، وإن قالَ: نَعَمْ، قالَت: لَا، مُولِّدةً لمخازِيهِ، محتقرةً لِمَا فِي يدَيهِ، تضربُ لهُ الأمثالَ، وتقصُرُ بِهِ دونَ الرجالِ، وتنقلُهُ مِن حالٍ إلَىٰ حالٍ، حتَّىٰ أبغضَ بيتَهُ، ومَلَّ ولدَهُ، وغثَّ عيشَهُ، وهانَت عليهِ نفسُهُ، وحتَّىٰ أنكرَهُ إخوانُهُ ورَحِمُهُ وجيرانُهُ.

ومنهنَّ الورْهاءُ الحمقاءُ، ذاتُ الدَّلِّ فِي غيرِ موضعِهِ، الماضغَةُ للسانِهَا، الآخذةُ فِي غيرِ شأنِهَا، قَد قَنَعَت بحبِّهِ، ورضيَتْ بكسبِهِ، تأكلُ كالحمَارِ الراتعِ، تنتشرُ الشمسُ فلَا يُسمعُ لهَا صوتٌ، ولَا يُكنَسُ لهَا بيتٌ، طعامُهَا بائتٌ، وإناؤُهَا وَسِخٌ، وعجينُها حامضٌ، وماؤهَا فاترٌ، ومتاعُهَا مزرُوعٌ، وماعونُهَا ممنوعٌ، وخادمُهَا مضروبٌ، وجارُهَا محروبٌ.

ومنهنَّ العطوفُ الودودُ، المباركةُ الولودُ، المأمونةُ علَىٰ غيبِهَا، المحبوبةُ فِي جيرانِهَا، المحمودَةُ فِي سِرِّهَا وإعلانِهَا، الكريمةُ التبعُّلِ، الكثيرةُ التفضُّلِ، الخافضةُ صوتًا، النظيفةُ بيتًا، خادمُها مسمَّنٌ، وابنُها مزيَّنٌ، وخيرُهَا دائمٌ، وزوجُهَا ناعمٌ، مومومقةٌ مألوفةٌ، وبالعفافِ والخيراتِ موصوفةٌ.

جعلَكَ اللهُ يَا بنيَّ مِمَّن يَقتَدِي بالهُدىٰ، ويأتمُّ بالتُّقَي، ويجتنبُ السخطَ، ويحبُّ الرضَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهديهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ نشرَ صفحَاتِ الخيرِ بينَ الناسِ مِن أعظمِ الوسائلِ الَّتِي تُنَقِّي المجتمعاتِ مِنَ الآفاتِ الَّتِي تُفسِدُ علَىٰ الخلقِ أمرَ دينِهِم ودُنيَاهُم، وكلَّمَا تقدَّمَ الزمانُ عظُمَتِ الحاجةُ إلَىٰ التواصِي بالخيرِ، ووعظِ الناسِ، وتذكيرِهِم بحقِّ اللهِ تعالَىٰ، ومَا يجبُ عليهِم مِن حقوقِ عبادِهِ، وترغيبِهِم فِي أداءِ ذلِكَ، فإنَّ فِي الوصيَّةِ بالخيرِ حياةَ القلوبِ، واستقامَتَهَا علَىٰ المطلُوبِ، وبُعدَهَا عنِ الغفلةِ الَّتِي تصدُّهَا عَن سبيلِ الخيرِ، ولذلكَ كانَ المؤمنونَ مِن أعظمِ الناسِ انتفاعًا بِمَا يُرَدُّ إليهِم منَ التذكيرِ بالخيرِ والوصيَّةِ بهِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

(١) الذاريات: ٥٥.

فنسألُ اللهَ أَن يجعلنَا منَ الذاكرِينَ الشاكرِينَ، وأَن يهديَنَا إِلَىٰ صالحِ الأقوالِ والأعمالِ، إِنَّهُ وليٌّ ذلكَ والقادرُ عليهِ.

(٩٢) أسبابُ الْمَغفرةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي وفَّقَ عبادَهُ للطاعاتِ وأعانَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ الكريمُ المنَّانُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ مَن علَّم أحكامَ الدينِ وأبانَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أهلِ الهُدَىٰ والإيمانِ، وعلَىٰ التابعينَ لَهُم بإيمانٍ وإحسانٍ مَا تعاقَبَ الزمانُ، وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعِلمِهِ بضَعفِ عبادِهِ، ومَا يحصُلُ منهُم مِن ظُلمِ أنفسِهِم بارتكَابِ الآثامِ والخوضِ فِي الذنُوبِ، فتَحَ لَهُم أبوابَ الرحماتِ، وحثَّهُم علَىٰ الاستغفارِ ورغَّبَهُم بهِ، لِمَا لهُ مِن عظيمِ الأثرِ فِي استجلابِ رحمةِ اللهِ وغفرانِهِ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(١)، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ، لَو بلَغَت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَنِي غفرتُ لكَ ولَا أبالِي**»(٢).

ومِن عظيمِ لُطفِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعبادهِ أَن يسَّرَ لَهُم أسبَابَ المغفرَةِ، وأعظَمَ لهُمُ الأجورَ علَىٰ أعمالٍ يسيرةٍ لَا تُكلِّفُهُم كبيرَ جُهدٍ، وهذَا مِن دلائلِ رَحمتِهِ سبحانَهُ بعبادهِ، وأنَّهُ غنيٌّ عَن عذابِهِم.

وهذِهِ جملةٌ مِنَ الأعمالِ الَّتِي جعلَهَا اللهُ تعالَىٰ سببًا لمغفرةِ الذنوبِ، وقَد صحَّتْ بذلكَ السُّنَّةُ النبويَّةُ، الثابتةُ عَنِ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرِ البريَّةِ.

---

(١) النساء: ١١٠.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦١٦).

فمِن ذلكَ: إتمامُ الوضوءِ والمشيُ إلَىٰ المساجدِ وكثرةُ الخُطَىٰ إليهَا، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا أدلُّكُم علَىٰ مَا يمحُو اللهُ بِهِ الخَطايَا ويرفعُ بِهِ الدرجَاتِ؟ قالُوا: بلَىٰ يَا رسُولَ اللهِ. قالَ: إسباغُ الوضوءِ علَىٰ المكارِهِ وكثرَةُ الخُطَا إلَىٰ المساجِدِ وانتظَارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلكُمُ الرباطُ، فذَلكمُ الربَاطُ**»(١).

ومنهَا: المحافظَةُ علَىٰ الصلاةِ، وأداؤُهَا علَىٰ الوجهِ المشروعِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرأيتُم لَو أنَّ نَهرًا ببابِ أحدِكُم يغتسلُ منهُ كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ، هَل يَبقَىٰ مِن درنهِ شيءٌ؟ قالُوا: لَا يبقَىٰ مِن درنهِ شيءٌ، قالَ: فذلكَ مثلُ الصلواتِ الخمسِ، يمحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايَا**»(٢).

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلواتُ الخَمسُ، والجُمعةُ إلَىٰ الجمعةِ، كفَّارةٌ لِمَا بينهنَّ مَا لَم تُغشَ الكبائرُ**»(٣).

ومنهَا: أَن يقولَ الذكرَ الواردَ بعدَ الوضوءِ، قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا منكُم مِن أحدٍ يتوضَّأُ فيبلُغُ أَو فيسبِغُ الوضُوءَ ثمَّ يقُولُ: أشهدُ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُ اللهِ ورسولُهُ؛ إلَّا فُتحَتْ لَهُ أبوَابُ الجنَّةِ الثمانِيَةُ يدخُلُ مِن أيِّهَا شَاءَ**»(٤).

ومنهَا: أَن يأتيَ بالذكرِ الواردِ عقبَ الصلواتِ المفروضةِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سبَّحَ اللهَ فِي دبرِ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ، وحمدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، وكبَّرَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، فتِلكَ تسعةٌ وتسعونَ، وقالَ تمَامَ المائةِ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ غُفِرَتْ خطايَاهُ وإِن**

---

(١) رواه مسلم (٢٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

(٤) رواه مسلم (٢٣٤).

كانَت مِثلَ زبَدِ البَحرِ»[١].

ومِن أسبَابِ المغفِرَةِ أَن يقولَ الذكرَ الواردَ عندَ الفراغِ منَ الطعَامِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن أكلَ طعَامًا ثمَّ قالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي أطعمَنِي هذَا ورزقنِيهِ مِن غَيرِ حَوْلٍ منِّي ولَا قوَّةٍ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ»**[٢].

ومِن ذلكَ: قولُ الذكرِ الوارِدِ عندَ لبسِ الثوبِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن لَبسَ ثوبًا فقالَ: الحَمدُ للهِ الَّذِي كسَانِي هذَا الثَّوبَ ورزَقَنِيهِ، مِن غَيرِ حَولٍ مِنِّي ولَا قوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِهِ»**[٣].

ومنهَا: قولُ الذكرِ الوارِدِ بعدَ الأذانِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن قَالَ حينَ يَسمَعُ المؤذِّنَ: أشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، رضيتُ باللهِ ربًّا، وبمحمَّدٍ رسولًا، وبالإسلامِ دينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذنبُهُ»**[٤].

ومنهَا: الدعاءُ فِي ثلثِ الليلِ الآخرِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ينزِلُ ربُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **كلَّ ليلةٍ إلَىٰ السماءِ الدنيَا حينَ يبقَىٰ ثلثُ الليلِ الآخرِ، يقولُ: مَن يدعُونِي فأستجيبَ لَهُ، مَن يسألُنِي فأعطيَهُ، مَن يستغفِرُنِي فأغفرَ لَهُ»**[٥].

ومنهَا: أَن يقولَ: أستغفرُ اللهَ الَّذِي لَا إلهَ إلَّا هوَ الحيُّ القيُّومُ وأتوبُ إليهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن قالَ: أستغفرُ اللهَ الَّذِي لَا إلهَ إلَّا هوَ الحيُّ القيُّومُ وأتوبُ إليهِ؛ غُفِرَ لَهُ وإِن كانَ فَرَّ منَ الزحفِ»**[٦].

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧).

(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٨٦).

(٣) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٨٦).

(٤) رواه مسلم (٣٨٦).

(٥) رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٦) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٢٢).

ومنهَا: الدعاءُ عندَ القيامِ مِنَ الليلِ، ويدلُّ لذلكَ قولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ تعارَّ مِنَ الليلِ** -أَي: استيقظَ-، **فقالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ ولَهُ الحَمدُ، وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ للهِ، وسبحانَ اللهِ، ولَا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قالَ: اللهمَّ اغفِر لِي، أَو دعَا، استُجِيبَ لَهُ، فإِن توضَّأَ وصلَّىٰ قُبلَت صَلاتُه»**(١).

ومِن أسبابِ المَغفرةِ: احتسابُ المسلمِ الأجرَ علَىٰ مَا يصيبهُ مِنَ البلاءِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا يُصِيبُ المسلمَ مِن نصبٍ، ولَا وصبٍ، ولَا همٍّ ولَا حزنٍ ولَا أذًىٰ ولَا غمٍّ، حتَّىٰ الشوكةِ يُشاكُهَا إلَّا كفَّرَ اللهُ بهَا مِن خطايَاهُ»**(٢).

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا يزَالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنَةِ فِي نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ حتَّىٰ يلقَىٰ اللهَ ومَا عَليْهِ خَطيئَةٌ»**(٣).

ومنهَا: قولُ المسلمِ: سبحانَ اللهِ وبحمدهِ مائةَ مرَّةٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قالَ: سبحَانَ اللهِ وبِحمدِهِ، فِي يومٍ مِائةَ مرَّةٍ، حطَّتْ خطَايَاهُ، وإِن كانَت مِثلَ زبَدِ البَحرِ»**(٤).

ومنهَا: صيامُ يومِ عرفَةَ وصيامُ يومِ عاشوراءَ، فقَد سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن صومِ يومِ عرفَة فقالَ: **«يُكَفِّرُ السنةَ الماضيةَ والباقيةَ»**، وسُئِلَ عَن صومِ يومِ عاشوراءَ فقالَ: **«يُكَفِّرُ السنةَ الماضيةَ»**(٥).

ومِن أسبابِ المغفرةِ: لزومُ مجالسِ الصالحينَ، فقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا**

---

(١) رواه البخاري (١١٥٤).
(٢) رواه البخاري (٥٦٤١).
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨١٥).
(٤) رواه مسلم (٢٦٩١).
(٥) رواه مسلم (١١٦٢).

جلسَ قومٌ مجلسًا يذكرُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فيهِ، فيقومونَ حتَّىٰ يُقَالَ لهُم: قومُوا، قَد غَفرَ اللهُ لكُم ذنوبَكُم، وبُدِّلَت سيِّئاتُكُم حسناتٍ»[١].

ومنهَا: أَن يجلسَ فِي المكانِ الَّذِي صلَّىٰ فيهِ بعدَ أَن ينتهيَ مِن صلاتِهِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الملائكةُ تُصلِّي علَىٰ أحدِكُم مَا دامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صلَّىٰ فيهِ، مَا لَم يُحدِثْ**»[٢].

ومنهَا: أَن يلزمَ دعاءَ كفَّارةِ المجلسِ، فقَد قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن جلسَ فِي مجلسٍ فكثُرَ فيهِ لغطُهُ، فقالَ قبلَ أَن يقومَ مِن مجلسهِ ذلكَ: سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ أشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا أنتَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، إلَّا غفر لَهُ مَا كانَ فِي مجلسهِ ذلكَ**»[٣].

ومِن ذلكَ: قيامُ شهرِ رمضانَ، قالَ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لهُ مَا تقدَّم مِن ذنبِهِ**»[٤].

ومنهَا: المصافحةُ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِن مسلِمَينِ يلتقيانِ فيتصافحانِ إلَّا غُفِرَ لهُمَا قبلَ أَن يفترَّقَا**»[٥]، وقالَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ المؤمنَ إذَا لَقِيَ المؤمنَ فسلَّم عليهِ، وأخذَ بيدِهِ، فصافَحَهُ، تناثَرَت خطاياهُمَا، كمَا يتناثرُ ورقُ الشجَرِ**»[٦].

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦١٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥)، ومسلم (٦٤٩).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٩٢).

(٤) رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٥) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٧).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٢٠).

ومنهَا: المتابعةُ بينَ العمرةِ والعمرةِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**العمرةُ إِلَىٰ العمرةِ كفَّارةٌ لِمَا بينهُمَا، والحجُّ المبرورُ ليسَ لَهُ جزاءٌ إِلَّا الجنَّةَ**»(١).

هذَا وإنَّ أسبابَ مغفرةِ الذنوبِ كثيرةٌ، وإنَّمَا هذهِ جملةٌ منهَا، فالحمدُ للهِ الَّذِي فَتَحَ لعبادِهِ أبوابَ الفضائلِ والخيراتِ، وهداهُم إِلَىٰ مَا فيهِ تكفيرُ الذنوبِ ورفعُ الدرجاتِ.

وإنَّمَا الموفَّقُ السعيدُ مَن سَارعَ إِلَىٰ سبلِ الخيرِ فسلَكَهَا، وأنواعِ الفضَائلِ فاغتنمَهَا.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنا محمَّدٍ وعلَىٰ آلهِ وصحبِهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهدْيِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ سبحانَهُ خلقَ الملائكةَ وأعظمَ خلقَهُم، وأعطاهُم منَ القوَّةِ مَا لَا يتصوَّرُهُ عقلٌ ولَا يحيطُ بهِ فكرٌ، وألزمَهُم مِنَ الوظائفِ مَا لَا يطيقهُ أحدٌ، فهُم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾(٢)، وجَبَلَهُم علَىٰ طاعةِ اللهِ تعالَىٰ، فهُم يعملونَ بأمرِهِ ﴿**لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾(٣).

وممَّا يدلُّ علَىٰ عظيمِ خلقِهِم: مَا ثبتَ فِي حديثِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ:

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٧)، ومسلم (١٣٤٩).

(٢) الأنبياء: ٢٠.

(٣) التحريم: ٦.

«**رَأيتُ جِبريلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لَهُ ستمائةُ جناحٍ**»[١]، وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُذِنَ لِي أَن أُحدِّثَ عَن ملكٍ مِن ملائكةِ اللهِ تعالَىٰ مِن حملةِ العرشِ، مَا بينَ شحمةِ أذنهِ إلَىٰ عاتقهِ مسيرةَ سبعمائةِ سنةً**»[٢].

ومعَ عظيمِ خلقِ الملائكةِ الكِرامِ، وشريفِ قدرهِم عندَ ربِّهِم وخالقِهِم، فقَد سخَّرَهُمُ اللهُ سبحانَهُ للاستغفارِ للمؤمنينَ، وجعلَ استغفارَهُم ودعاءَهُم مِن أسبابِ مغفرةِ ذنوب المؤمنينَ، وهذَا مِن منَّةِ اللهِ تعالَىٰ وفضلِهِ علَىٰ عبادِهِ الفقراءِ إليهِ، الَّذِينَ لَا غِنَىٰ لهُم عنهُ سبحانَهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٣].

وقَد ذَكَرَتِ السنَّةُ النبويَّةُ أنَّ الملائكةَ تُصَلِّىٰ علَىٰ المؤمنينَ فِي مواضعَ خاصَّةٍ، وأحوالٍ معيَّنةٍ، وصلاةُ الملائكةِ بمعنَىٰ الدعاءِ والاستغفارِ، ويكفِي بذلكَ شهادةً بمنزلةِ المؤمنِ وقدرهِ عندَ ربِّهِ، وإعانَتِهِ علَىٰ بذلِ أسبابِ المغفرةِ، وتيسيرِهَا لَهُ.

فمِن ذلكَ: أنَّ الملائكةَ تصلِّي علَىٰ مَن صلَّىٰ علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن مسلمٍ يصلِّي عليَّ، إلَّا صلَّت عليهِ الملائكةُ مَا صلَّىٰ عليَّ، فليُقِلَّ العبدُ مِن ذلكَ أو ليُكْثِرْ**»[٤].

ومِن ذلكَ: أنَّهم يستغفرونَ لمعلمِ الناسِ الخيرَ، كمَا قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السمواتِ والأرضِ حتَّىٰ النملةَ فِي جحرِهَا، وحتَّىٰ الحوتَ،**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٥٤).

(٣) غافر: ٧.

(٤) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «تخريج فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٦).

لَيُصَلُّونَ علَىٰ معلِّمِ الناسِ الخيرَ»(١).

ومنهَا: أنَّهُم يدعونَ لِمَنِ انتهَىٰ مِن صلاتِهِ ثمَّ بَقِيَ جالسًا فِي مجلسِهِ الَّذِي صلَّىٰ فيهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ الملائكةَ تصلِّي علَىٰ أحدِكُم مَا دامَ فِي مجلسِهِ، تقولُ: اللهمَّ اغفِرْ لَهُ، اللهمَّ ارحَمْهُ، مَا لَم يُحدِثْ»**(٢).

ومِن ذلكَ: أنَّ الملائكةَ يصلُّونَ علَىٰ الذينَ يصلُّونَ فِي الصفِّ الأوَّلِ، ودليلُ ذلكَ: قولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصلُّونَ علَىٰ الصفِّ الأوَّلِ»**(٣).

ومنهَا: أنَّهُم يَدعُونَ ويستغفِرُونَ للمتسحِّرِينَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ اللهَ تعالَىٰ وملائكتَهُ يصلُّونَ علَىٰ المتسحِّرِينَ»**(٤).

ومِن ذلكَ: أنَّهُم يستغفِرُونَ للذينَ يَعُودونَ المرضَىٰ، كمَا صحَّ عنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: **«إذَا عادَ الرجلُ أخاهُ المسلمَ مشَىٰ فِي خرافةِ الجنَّةِ حتَّىٰ يجلسَ، فإذَا جلسَ غمرَتهُ الرحمةُ، فإن كانَ غدوةً صلَّىٰ عليهِ سبعونَ ألفَ ملكٍ حتَّىٰ يُمسِي، وإن كانَ مساءً صلَّىٰ عليهِ سبعونَ ألفَ ملكٍ حتَّىٰ يُصبحَ»**(٥).

نسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائِهِ الحُسنَىٰ وصفاتِهِ العُلَا أن يرزُقَنَا التوبةَ والإنابةَ، وأَن يغفرَ ذنوبَنَا، ويستُرَ عيوبَنَا، ويجعلَنَا هداةً مهتَدِينَ، غيرَ ضالِّينَ ولَا مُضلِّينَ.

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢١٣).
(٢) رواه البخاري (٤٤٥)، ومسلم (٦٤٩).
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٣٩).
(٤) رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٤٤).
(٥) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٢).

(٩٣) أثرُ الْمَوعظَةِ

الحمدُ للهِ الَّذِي برحمتِهِ اهتدَىٰ المهتدُونَ، وبعدلِهِ وحكمتِهِ ضلَّ الضالُّونَ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ لَا يُسألُ عمَّا يفعَلُ وهُمْ يُسألُونَ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، تركَنَا علَىٰ محجَّةٍ بيضاءَ لَا يزيغُ عنها إلَّا أهلُ الأهواءِ والظنونِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَن تبعَهُم بإحسَانٍ إلَىٰ يومٍ لَا ينفعُ فيهِ مالٌ ولَا بنُونَ.

أمَّا بعدُ:

فمِمَّا ينبغِي للعاقلِ فِعلُهُ أَن يدرِّبَ قلبَهُ علَىٰ تلقِّي الموعظَةِ والتذكيرِ؛ فقَدْ ينفعُهُ اللهُ بكلمةٍ تعودُ عليْهِ بالبركةِ، فإنَّهُ مَا حرَّكَ القلوبَ مثلُ المواعظِ، وهذَا أدبٌ ربَّانِيٌّ دلَّ اللهُ سبحانَهُ عبادَهُ عليْهِ، ووجَّهَهُم إليهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[1]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[2]، قالَ أهلُ التفسيرِ: أَي ذكِّرِ الناسَ وعِظْهُم، وأنذِرْهُم وبشِّرهُم، فإنَّكَ مبعُوثٌ لدعوةِ الخلقِ إلَىٰ اللهِ وتذكيرِهِم.

وليسَ أحدٌ منَ الناسِ إلَّا وهوَ محتاجٌ للموعظَةِ والتذكيرِ حتَّىٰ المؤمنُ، ومَا ذلكَ إلَّا لأنَّ القلوبَ تنسحبُ عليهَا الغفلَةُ والذهولُ، فيحتاجُ أهلُهَا أَن يوعَظُوا ويُذكَّروا حتَّىٰ بمَا هوَ معلومٌ لَهُم، ويُكرَّرَ عليهِم ليرسخَ فِي أذهانِهِم، وينتبهُوا ويعملُوا بمَا تذكَّرُوهُ مِن ذلكَ، ليحدثَ لَهُم نشاطًا وهمَّةً، توجبُ لهمُ الانتفاعَ.

---

(١) النساء:٦٣.

(٢) الغاشية:٢١.

وأكثرُ الناسِ انتفاعًا بالموعظةِ هُم عبادُ اللهِ المؤمنونَ، ولذلكَ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فأخبرَ سبحانَهُ أنَّ الذكرَىٰ تنفعُهُم؛ لأنَّ مَا معَهُم منَ الإيمانِ والخشيةِ والإنابةِ، واتِّبَاعِ رضوانِ اللهِ، يوجِبُ لَهُم أَن تنفعَ فيهِمُ الذكرَىٰ، وتقعَ الموعظَةُ منهُم موقعَهَا، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[2].

والناسُ يتفاوتونَ فِي سمَاعِ المواعظِ والاستفادةِ منهَا، وأعظمُهُم انتفاعًا بِهَا مَن كانَ فِي حالَةِ سماعِهِ لهَا خليًّا منَ الشواغِلِ الَّتِي تصرفُهُ عَنِ التأثُّرِ بِهَا، وقَد تخلَّىٰ بجسمِهِ وفكرِهِ عَن أسبابِ الدنيَا، وأنصَتَ بحضُورِ قلبٍ، فإنَّ الموعظةَ جندٌ مِن جنودِ اللهِ تعالَىٰ، ومَثَلُهَا مثلُ الطينِ يُضربُ بِهِ علَىٰ الحائطِ؛ إنِ استمسَكَ نفعَ، وإِن وقعَ أثَّرَ.

وقَد يستمعُ المَرءُ للموعظةِ فيحيَا بِهَا قلبُهُ، ويكتبُ اللهُ لَهُ بسببِ ذلكَ السعادَةَ الأبديةَ بسلوكِ طريقِ الهدايةِ فِي الدنيَا، والأمنِ والنجاةِ يومَ الفزعِ الأكبرِ، فإنَّ مَن رزقَهُ اللهُ اليقظةَ عزمَ بلَا تردُّدٍ، ومضَي مِن غيرِ التفاتٍ، قبلَ أَن تأخذَهُ الغفلةُ والشواغلُ، فإنَّ مَن عادَ إِلَىٰ الشواغلِ اجتذبَتْهُ بآفاتِهَا.

وهذهِ حالةٌ تعمُّ الخَلقَ؛ منهُم أقوامٌ يميلُ بِهِمُ الطبعُ إِلَىٰ الغفلةِ، ويدعُوهُم مَا يسمعونَ منَ المواعظِ إِلَىٰ العمَلِ أحيانًا، فهُم كالسنبلَةِ تميلُهَا الرياحُ مرةً وتكفؤهَا أخرَىٰ، وأقوامٌ لَا يؤثِّرُ فيهِمُ الوعظُ إِلَّا بمقدارِ سماعِهِ، والسعيدُ مَن فتحَ اللهُ لَهُ بابَ العملِ فسارَعَ إليهِ، وامتلأَ قلبُهُ منَ الإيمانِ وعمَرَ بِهِ، فَعَن حنظلةَ الأُسيدِيِّ -وكانَ مِن كُتَّابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالَ: «لقِيَنِي أَبُو بكرٍ، فقالَ: كيفَ أنتَ يَا حنظلةَ؟ قلتُ: نافقَ حنظلةُ، قالَ: سبحانَ اللهِ مَا تقولُ؟ قالَ: قلتُ: نكونُ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) الذاريات: ٥٥.
(٢) الأعلىٰ: ٩-١١.

يُذَكِّرُنا بالنارِ والجنَّةِ، حتَّىٰ كأنَّا رأيُ عينٍ، فإذَا خرَجنَا مِن عندِ رسولِ اللهِ ﷺ، عافسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضيعاتِ فنسينَا كثيرًا، قالَ أبُو بكرٍ: فواللهِ إنَّا لنلقَىٰ مثل هذَا، فانطلقتُ أنَا وأبُو بكرٍ، حتَّىٰ دخلْنَا علَىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، قلتُ: نافقَ حنظلةُ، يَا رسولَ اللهِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **ومَا ذاكَ؟**، قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، نكونُ عندَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنارِ والجنَّةِ، حتَّىٰ كأنَّا رأيُ عينٍ، فإذَا خرجْنَا مِن عندِكَ، عافسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضيعاتِ فنَسِينَا كثيرًا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **والَّذِي نفسِي بيدِهِ لَو تدومونَ علَىٰ مَا تكونونَ عندِي وفِي الذِّكرِ، لصافحَتْكُمُ الملائكةُ علَىٰ فرشِكُم وفِي طرقِكُم، ولكِن يَا حنظلةُ ساعةً وساعةً**، ثلاثَ مراتٍ»[1].

هذَا وإنَّ مِن أعظمِ الناسِ سعادةً مَن وفَّقَهُ اللهُ للعملِ الصالحِ بأيسرَ موعظةٍ وتذكيرٍ؛ فيراجعَ أمرَهُ ويعودَ إلَىٰ ربِّهِ، ولَم يحتَجْ أَن تنزلَ بِهِ عقوبةٌ فيتَّعِظَ بسببِهَا، قالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تكونَنَّ ممَّن لَا تنفعُهُ الموعظةُ إلَّا إذَا بالَغْتَ فِي إيلامِهِ، فإنَّ العاقلَ يتَّعِظُ بالأدبِ، والبهائمُ لَا تتَّعِظُ إلَّا بالضربِ.

وقَد كانَ النبيُّ ﷺ دائمَ الوعظِ لأصحابِهِ، وكانَ يتحرَّىٰ الأوقاتَ لذلكَ حتَّىٰ لَا يملُّوا، فعنِ ابنِ مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كانَ النبيُّ ﷺ يتخوَّلُنَا بالموعظةِ فِي الأيامِ، كراهةَ السآمةِ علينَا»؛ أَي: يتعهَّدُنَا مراعيًا أوقاتَ نشاطِنَا ولَا يفعلُ ذلكَ دائمًا كراهةَ أَن يُصيبَنَا الملَلُ.

ومَا كانَ النبيُّ ﷺ ليعملَ بهذَا الأدبِ الرفيعِ إلَّا لعلمِهِ بحاجَةِ القلوبِ إلَىٰ الموعظةِ الَّتِي تُزيلُ غفلتَهَا، وتُذيبُ قسوتَهَا، فإنَّ فِي القلبِ خَلَّةً وفاقةً لَا يسدُّهَا شيءٌ البتةَ إلَّا ذكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مسلم (٢٧٥٠).

وقَد كانَ السلفُ الصالحونَ يعملونَ بِهَذَا الأدبِ الرفيعِ، ويتحرَّونَ الأوقاتَ والأحوالَ الَّتِي تحضرُ فيهَا القلوبُ، وترقُّ فيهَا المشاعرُ، فتكونَ موعظتُهُم أبلغَ وأشدَّ أثرًا.

لمَّا ضَرَبَ ابنُ ملجمٍ -قاتلَهُ اللهُ- عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دخلَ منزلَهُ فاعترَتْهُ غشيةٌ ثمَّ أفاقَ، فدعَا الحسنَ والحسينَ وقالَ: أوصيكُمَا بتقوَىٰ اللهِ تعالَىٰ، والرغبةِ فِي الآخرةِ، والزهدِ فِي الدنيَا، ولَا تأسَفَا علَىٰ شيءٍ فاتَكُمَا منهَا، فإنَّكُمَا عنهَا راحلانِ، افعلَا الخيرَ وكونَا للظالمِ خصمًا، وللمظلومِ عونًا، ثمَّ دعَا محمَّدًا ولدَهُ وقالَ لَهُ: أمَا سمعتَ مَا أوصيتُ بِهِ أخوَيكَ؟ قالَ: بلَىٰ. قالَ: فإنِّي أوصيكَ بِهِ، وعليكَ ببرِّ أخوَيكَ وتوقيرِهِمَا، ومعرفَةِ فضلِهِمَا، ولَا تقطَعْ أمرًا دونَهُمَا، ثمَّ أَقْبَلَ عليهِمَا وقالَ: أوصيكُمَا بِهِ خيرًا، فإنَّهُ أخوكُمَا وابنُ أبيكُمَا؛ وأنتمَا تعلمانِ أنَّ أباهُ كانَ يحبُّهُ فأحبَّاهُ.

ثمَّ قالَ: يَا بَنِيَّ، أوصيكُم بتقوَىٰ اللهِ فِي الغيبِ والشهادةِ، وكلمةِ الحقِّ فِي الرضَا والغضبِ، والقصدِ فِي الغِنَىٰ والفقرِ، والعدلِ فِي الصديقِ والعدوِّ، والعملِ فِي النشاطِ والكسلِ، والرضَا عَنِ اللهِ فِي الشدَّةِ والرخاءِ.

يَا بَنِيَّ، مَا شرٌّ بعدَهُ الجنةُ بِشَرٍّ، ولَا خيرٌ بعدَهُ النارُ بخيرٍ، وكلُّ نعيمٍ دونَ الجنةِ حقيرٌ، وكلُّ بلاءٍ دونَ النارِ عافيةٌ؛ ومَن أبصرَ عيبَ نفسِهِ اشتغلَ عَن عيبِ غيرِهِ، ومَن رضيَ بمَا قسمَ اللهُ لَهُ لَم يحزَن علَىٰ مَا فاتَهُ.

ولمَّا حضَرَتْ هشامَ بنَ عبدِ الملكِ الوفاةُ نظَرَ إِلَىٰ أهلِهِ يبكونَ حولَهُ فقالَ: جادَ لَكُم هشامٌ بالدنيَا، وجُدْتُمْ لَهُ بالبكاءِ، وتركَ لَكُم جميعَ مَا جمعَ، وتركتُم عليهِ مَا حُمِّلَ، مَا أعظَمَ منقلبَ هشامٍ إِن لَم يغفرِ اللهُ لَهُ.

ورَوىٰ زيدُ بنُ أسلمَ، عَن أبيهِ قالَ: قلتُ لجعفرِ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكانَ والِي المدينةِ-: احذَرْ أَن يأتيَ رجلٌ غدًا ليسَ لَهُ فِي الإسلامِ نسبٌ ولَا أبٌ ولَا جدٌّ،

فيكونُ أولَىٰ برَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منْكَ، كمَا كانَتِ امرأةُ فرعونَ أولَىٰ بموسَىٰ، وكمَا كانَتِ امرأةُ نوحٍ أولَىٰ بقومِهَا منْهُ؛ فمَنْ أبطأَ بِهِ عملُهُ لَم يُسرِع بِهِ نسبُهُ، ومَن أسرعَ بِهِ عملُهُ لَم يُبطِئْ بِهِ نسبُهُ.

وجاءَ عَن هارُونَ الرشيدِ أنَّهُ قالَ لمَنصُورِ بنِ عمَارَةٍ: عِظنِي وأوجِزْ، فقالَ: يَا أميرَ المُؤمنينَ: هلَ أحدٌ أحبُّ إليكَ مِن نفسِكَ؟ قالَ: لَا. قالَ: إنْ أردْتَ أَن لَا تُسيءَ إلَىٰ مَن تحبُّ فافعَلْ.

ولمَّا وقعتِ القرحةُ فِي يمينِ بشرِ بنِ مروانَ، قيلَ لَهُ: نقطعُهَا مِنَ المفصَلِ، فجزعَ، فمَا أمسَىٰ حتَّىٰ خالطَتِ الكتفَ، ثمَّ أصبحَ وقَد خالطَتِ الجوفَ، ثمَّ ماتَ، ولمَّا احتضرَ جعلَ يبكِي ويقولُ: واللهِ لوددْتُ أنِّي كنتُ عبدًا أرعَىٰ الغَنمَ فِي الباديةِ لبعضِ الأعرابِ ولَم آلِ مَا وليتُ.

فذُكِرَ قولُهُ لأبِي حازمٍ فقالَ: الحمدُ للهِ الَّذِي جعلَهُم عندَ الموتِ يفرُّونَ إلينَا، ولَم يجعَلْنَا نفرُّ إليهِم، إنَّا لنرَىٰ فيهِم عبرًا.

ولمَّا دخلَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ قصرَ الكوفةِ أمرَ بطعامٍ كثيرٍ، فعُملَ لأهلِهَا، فأكلُوا مِن سماطِهِ، ومعهُ يومئذٍ علَىٰ السريرِ عمرُو بنُ حريثٍ، فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ: مَا ألذَّ عيشنَا لَو أنَّ شيئًا يدومُ، ولكِن نحنُ كمَا قالَ الأوَّلُ:

وكـلُّ جديـدٍ يَـا أمـيمُ إلَـىٰ بلَـىٰ ... وكـلُّ امـرئٍ يـومًا يـصيرُ إلَـىٰ كـانَ

فلمَّا فرغَ الناسُ منَ الطعامِ نهضَ فدارَ فِي القصرِ، وجعلَ يسألُ عمرَو بنَ حريثٍ عَن أحوالِ القصرِ ومَن بنَىٰ أماكنَهُ وبيوتَهُ، فيخبرُهُ، ثمَّ جاءَ إلَىٰ مجلسِهِ فاستلقَىٰ وهوَ يقولُ:

اعمَـل علَـىٰ مهَـل فإنَّـكَ مـيِّتٌ ... واكـدَح لنفـسِكَ أيُّهَـا الإنـسانْ

فكأنَّ مَا قَد كانَ لَم يكُ إذ مضَىٰ ... وكأنَّ مَا هوَ كائنٌ قد كانْ

ومِن جمالِ الوعظِ أَن يُلحَقَ بقولٍ لطيفٍ حتَّىٰ يُقبَلَ، قالَ بعضُ العلماءِ: دخلْتُ علَىٰ الأفضلِ بنِ أميرِ الجيوشِ، وهوَ أميرٌ علَىٰ مصرَ، فقلتُ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ، فردَّ السلامَ علَىٰ نحوِ مَا سلَّمْتُ ردًّا جميلًا، وأكرمَنِي إكرامًا جزيلًا، وأمرَنِي بدخولِ مجلسِهِ، وأمرَنِي بالجلوسِ فيهِ، فقلتُ: أيُّهَا الملكُ؛ إنَّ اللهَ تعالَىٰ قَد أحلَّكَ محلًّا عليًّا شامخًا، وأنزلَكَ منزلًا شريفًا باذخًا، وملَّكَكَ طائفةً مِن مُلكِهِ، وأشركَكَ فِي حُكمِهِ، ولَم يرْضَ أَن يكونَ أمرُ أحدٍ فوقَ أمرِكَ، فلَا ترضَ أَن يكونَ أحدٌ أولَىٰ بالشكرِ منْكَ، وليسَ الشكرُ باللسانِ، وإنَّمَا هوَ بالفعالِ والإحسانِ، كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾(١)، واعلَمْ أنَّ هذَا الَّذِي أصبحْتَ فيهِ مِنَ الملكِ إنَّمَا صارَ إليكَ بموتِ مَن كانَ قبلَكَ، وهوَ خارجٌ عنْكَ بمثلِ مَا صارَ إليكَ، فاتَّقِ اللهَ فيمَا خوَّلَكَ مِن هذهِ الأمَّةِ، فإنَّ اللهَ تعالَىٰ سائِلُكَ عَنِ الفتيلِ والنقيرِ والقطميرِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٢)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٣)، واعلَمْ أيُّهَا الملكُ أنَّ اللهَ تعالَىٰ قَد آتَىٰ مُلْكَ الدنيَا بحذافيرِهَا سليمانَ بنَ داودَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فسخَّرَ لَهُ الإنسَ والجنَّ والشياطينَ والطيرَ والوحشَ والبهائمَ، وسخَّرَ لَهُ الريحَ تجرِي بأمرِهِ رُخاءً حيثُ أصابَ، ثمَّ رَفعَ عنْهُ حسابَ ذلكَ أجمعَ، فقالَ لَهُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾(٤)، فواللهِ مَا عدَّهَا نعمةً كمَا عددتمُوهَا، ولَا حسبَهَا كرامةً كمَا حسبتمُوهَا،

(١) سبأ:١٣.

(٢) الحجر:٩٢-٩٣.

(٣) الأنبياء:٤٧.

(٤) ص:٣٩.

بَل خافَ أَن تكونَ استدراجًا مِنَ اللهِ تعالَىٰ، ومكرًا بهِ، فقالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾(١)، فافتَحِ البابَ، وسهِّلِ الحجابَ، وانصُرِ المظلومَ، وأغِثِ الملهوفَ، أعانكَ اللهُ علَىٰ نصرِ المظلومِ، وجعلَكَ كهفًا للملهوفِ وأمانًا للخائفِ.

ثمَّ أتممْتُ المجلسَ بأَن قلتُ: قَد جبتُ البلادَ شرقًا وغربًا، فمَا اخترتُ مملكةً وارتحتُ إليهَا، ولذَّت لِي الإقامةُ فيهَا غيرَ هذهِ المَملكةِ، ثمَّ أنشَدْتُهُ:

والناسُ أكيسُ مِن أَن يَحمدُوا رجلًا ... حتَّىٰ يـرَوا عـندَهُ آثـارَ إحـسانِ

هذَا وتختلفُ طريقةُ الوعظِ باختلافِ أحوالِ الناسِ، فمِنَ الوعظِ مَا يكونُ عامًّا؛ ومنْهُ مَا يكونُ خاصًّا لفردٍ مِن أفرادِهِم؛ وهذَا لَا بدَّ أَن يُراعَىٰ فيهِ أدبُ الوعظِ حتَّىٰ يؤتِيَ ثمارَهُ؛ وأهمُّ ذلكَ أَن يكونَ الوعظُ سرًّا لَا علَىٰ رؤوسِ الأشهادِ؛ فمَن وعظَ أخاهُ فيمَا بينَهُ وبينَهُ فهيَ نصيحةٌ، ومَن وعظَهُ علَىٰ رؤوسِ الأشهادِ فإنَّمَا هوَ تقريعٌ وفضيحةٌ، قالَت أمُّ الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَن وعظَ أخاهُ سرًّا فقَد سرَّه وزانَهُ، ومَن وعظَهُ علانيةً فقَد ساءَهُ وشانَهُ.

وقالَتِ الحكماءُ: مَن وعظَ أخاهُ سرًّا فقَد نصحَهُ وسرَّهُ، ومَن وعظَهُ جهرًا فقَد فضحَهُ وضرَّهُ.

وعَنْ عبدِ العزيزِ بنِ أَبِي رؤادٍ قالَ: كان الرجلُ إذَا رأَىٰ مِن أخيهِ شيئًا أمرَهُ فِي سترٍ، ونهاهُ فِي سترٍ، فيؤجرُ فِي سترِهِ، ويؤجرُ فِي أمرِهِ، ويؤجرُ فِي نهيِهِ .

وعَن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إذَا رأيتُم أخَاكُم ذَا زلةٍ فقوِّمُوهُ وسدِّدُوهُ، وادعُوا اللهَ أَن يرجعَ بِهِ إِلَىٰ التوبةِ فيتوبَ عليهِ، ولَا تكونُوا أعوانًا للشيطانِ علَىٰ أخيكُم.

واعلَمُوا أنَّ مِن غاياتِ الوعظِ أَن يُعملَ بهِ ويُقامَ أمرُ اللهِ، وليسَ فقطْ أَن تُقامَ

(١) النمل: ٤٠.

الحجَّةُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١)؛ أَي: نعِظُهُم وننهَاهُم لنُعذَرَ فيهِم، و﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: فيتركونَ مَا هُم فيهِ منَ المعصيةِ، فلَا نيأسُ مِن هدايتِهِم، فربَمَا نجَعَ فيهِم الوعظُ، وأثَّرَ فيهِمُ اللومُ، وهذَا المقصودُ الأعظمُ مِن إنكارِ المنكرِ ليكونَ معذرةً، وإقامةَ حجةٍ علَىٰ المأمورِ المنهيِّ، ولعلَّ اللهَ أَن يهديَهُ فيعملَ بمقتضَىٰ ذلكَ الأمرِ والنَّهيِ.

وهذَا ممَّا يدفعُ بالإنسانِ أَن يكونَ بالناسِ رحيمًا شفيقًا حتَّىٰ يقبلُوا قولَهُ، وألَّا يرَىٰ لنفسِهِ عليهِم فضلًا؛ فيقتلَهُ الغرورُ والعُجبُ؛ كأنَّهُ هوَ المهتدِي والناسُ فِي ضلالةٍ، وأنَّهُ مِن أهلِ الجنَّةِ والناسُ مِن أهلِ النارِ، فالعاقلُ هوَ مَن يُقيمُ أمرَ اللهِ علَىٰ نفسِهِ ويكونُ لهَا أصدقَ واعظٍ، ويسألُ اللهَ التثبيتَ علَىٰ الهدايةِ، ويحمدُ اللهَ أَن عافاهُ مِن حالِ أهلِ الضلالةِ، معَ اعترافِهِ بذنوبِهِ وتقصيرِهِ وعظيمِ سترِ اللهِ عليهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهديِهِ.

أمَّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فحاسبُوا أنفسَكُم قبلَ أَن تحاسَبُوا، وزنُوهَا قبلَ أَن توزنُوا، وتزيَّنُوا للعرضِ الأكبرِ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ، يَومئذٍ تُعرضُونَ لَا تخفَىٰ منكُم خافيةٌ.

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

واعلمُوا أنَّ أهلَ الدنيَا علَىٰ رحيلٍ، لَم تمضِ بهِمْ نيةٌ، ولَم تطمئنَّ لهُمْ دارٌ، حتَّىٰ يأتيَ وعدُ اللهِ وهُمْ علَىٰ ذلكَ، كذلكَ لَا يدومُ نعيمُهَا، ولَا تُؤمَنُ فجائِعُهَا، ولَا يُتَّقَىٰ مِن شرِّ أهلِهَا، والسعيدُ مَن وفَّقَهُ اللهُ لطاعتِهِ واجتنابِ معاصِيهِ.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[1].

***

(١) الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧.

(٩٤) مِن عِبَرِ الزمانِ

الحمدُ للهِ الَّذِي أحاطَ بكلِّ شيءٍ خُبْرًا، وجعلَ لكلِّ شيءٍ قدرًا، وأسبغَ علَىٰ الخلائقِ مِن حفظِهِ سترًا، أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكرُهُ، وأتوبُ إليهِ وأستغفرُهُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أَنَّ نبيَّنَا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَهُ إِلَىٰ الناسِ كافَّةً عُذرًا ونُذرًا، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

فإِنَّ ممَّا اتفقَ عليهِ العقلاءُ فِي كلِّ عصرٍ وزمانٍ، معرفةَ حدودِ العلاقةِ بينَ الحاكمِ والمحكومِ، وأنَّ المرءَ ذَا الكرامةِ لَا يتعرَّضُ إِلَىٰ جنابِ الحاكمِ بالسلبِ والثلبِ ومنازعتِهِ المقامَ والمُلكَ، فإنَّ ممَّا جُبِلَت عليهِ النفوسُ أنَّ المرءَ يحقدُ علَىٰ مَن نازعَهُ فيمَا يملِكُ وإِن كانَ شيئًا يسيرًا، فكيفَ إِذَا كانَ حكمًا ورئاسةً، فإِنَّ ذلكَ كفيلٌ بأَن يزرعَ البغضةَ فِي قلبِ صاحبِ الملكِ لِمَنْ نازعَهُ وأَن يتخذَهُ عدوًّا، حتَّىٰ وإِنْ كانَ يومًا منَ الأيامِ صاحبًا ونديمًا، قالَ ابنُ الورديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَانِبِ السُّلطانَ واحذَرْ بَطشَهُ ... لَا تُعانِدْ مَنْ إِذَا قالَ فعَلْ

وفِي قصَصِ الزمَانِ عِبرةٌ!

ففِي سنةِ إحدَىٰ وسبعينَ سارَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فِي جنودٍ هائلةٍ منَ الشامِ قاصدًا قتالَ مصعبِ بنِ الزبيرِ بالعراقِ، وبعثَ بينَ يدَيهِ السرايَا، ودخلَ بعضُ مَن أرسلَهُ إِلَىٰ البصرةِ فدعَا أهلَهَا إِلَىٰ عبدِ الملكِ فِي السِّرِّ، فاستجابَ لَهُ بعضُهُم، وقَد كانَ مصعبٌ سارَ إِلَىٰ الحجازِ، فلمَّا رجعَ دخلَ البصرةَ علَىٰ إثرِ ذلكَ، فأنَّبَ الكبراءَ

منَ الناسِ ولامَهُم علَىٰ دخولِ أولئِكَ إلَيهِم، وإقرارِهِم لَهُم علَىٰ ذلكَ، وهدمَ دورَ بعضِهِم، ثمَّ مضَىٰ إلَىٰ الكوفةِ، قاصدًا قتالَ عبدِ الملكِ لمَّا بلغَهُ أنَّهُ قَد جاءَ بجنودِ الشامِ لقتالِهِ.

ووصلَ عبدُ الملكِ إلَىٰ مكانِهِ الَّذِي حلَّ بهِ، وكتبَ إلَىٰ الذينَ استجابُوا لِمَنْ بعثَهُ إلَيهِم فأجابُوهُ، واشترطُوا عليهِ أَن يولِّيَهُم بعضَ الأقاليمِ، ففعلَ، وخرجَ مصعبُ بنُ الزبيرِ، وقَدِ اختلفَ عليهِ أهلُ العراقِ وخذلُوهُ، وجعلَ يتأمَّلُ مَن معَهُ، فلَا يجِدهُم يقاومُونَ أعداءَهُ، فاستقتلَ وطمَّنَ نفسَهُ علَىٰ ذلكَ، وقالَ: لِي بالحسينِ ابنِ عليٍّ أسوةٌ حينَ امتنعَ منَ الذلَّةِ لعبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ، وكيفَ قُتِلَ كريمًا، ولَم يُلقِ مَا بيدِهِ، ولَم يجِدْ مِن أهلِ العراقِ وفاءً، وكذلكَ أبوهُ وأخوهُ، ونحنُ مَا وجدْنَا لَهُم وفاءً، ثمَّ جعلَ يُنشِدُ مسلِّيًا نفسَهُ:

وَإِنَّ الألُـىٰ بالطـفِّ مِـن آلِ هاشـمٍ ... تأسَّـوا فـسَنُّوا للكـرامِ التأسِّـيَا

وكانَ عبدُ الملكِ قَدْ أشارَ عليهِ بعضُ أمرائِهِ أَن يقيمَ بالشامِ، وأَن يبعثَ إلَىٰ مصعبٍ جيشًا، فأبَىٰ وقالَ: لعلِّي أبعثُ رجلًا شجاعًا لَا رأيَ لَهُ، أَو مَن لَهُ رأيٌ ولَا شجاعةَ لَهُ، وإنِّي أجدُ مِن نفسِي بصرًا بالحربِ وشجاعةً، وإنَّ مصعبًا فِي بيتِ شجاعةٍ، أبوهُ أشجعُ قريشٍ، وأخوهُ -أَيْ: عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ- لَا تُجهلُ شجاعتُهُ، وهوَ شجاعٌ، ومعَهُ مَن يخالفُهُ، ومعِيَ مَن ينصحُ لِي.

فسارَ بنفسِهِ، فلمَّا تقاربَ الجيشانِ بعثَ عبدُ الملكِ إلَىٰ أمراءَ مصعبٍ بكُتبٍ يدعُوهُم إلَىٰ نفسِهِ، ويعِدُهُم بالولاياتِ، فجاءَ إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلَىٰ مصعبٍ فألقَىٰ إليهِ كتابًا مختومًا وقالَ: هذَا جاءَنِي مِن عبدِ الملكِ، ففتحَهُ فإذَا هوَ يدعُوهُ إلَىٰ الإتيانِ إليهِ ولَهُ نيابةُ العراقِ، وقالَ لمصعبٍ: أيُّهَا الأميرُ، إنَّهُ لَم يبقَ أحدٌ مِن أمرائِكَ إلَّا وقَدْ جاءَهُ كتابٌ مثلُ هذَا، فإِنْ أطعتَنِي ضربتَ أعناقَهُم، فقالَ لَهُ مصعبٌ: إنِّي لَو فعلتُ

ذلكَ لَم تنصحْنَا عشائِرُهُم بعدَهُم، فقالَ: فأوقِرْهُم فِي الحديدِ واسجِنْهُم، ووكِّلْ بِهِم مَنْ إِن غُلبتَ ضرَبَ أعناقَهُم، وإِنْ غَلَبتَ مَنَنْتَ بِهِم علَىٰ عشائِرِهِم، فقالَ لَهُ: يَا أبَا النعمانِ، إنِّي لفِي شغلٍ عَن هذَا، ثمَّ قالَ مصعبٌ: رحمَ اللهُ أبَا بحرٍ -يعنِي: الأحنفَ بنَ قيسٍ- إِنْ كانَ لَيُحَذِّرَنِي غدرَ أهلِ العراقِ، وكأنَّهُ كانَ ينظرُ إلَىٰ مَا نحنُ فيهِ الآنَ.

ثمَّ تواجهَ الجيشانِ، فحمَلَ إبراهيمُ بنُ الأشترِ علَىٰ محمَّدِ بنِ مروانَ فأزالَهُ عَن موضعِهِ، فأردَفَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بعبدِ اللهِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ، فحملُوا علَىٰ إبراهيمَ بنِ الأشترِ ومَن معَهُ فطحنُوهُم، وقُتِلَ إبراهيمُ بنُ الأشترِ، وقُتِلَ معَهُ جماعةٌ منَ الأمراءِ، وجعلَ مصعبُ بنُ الزبيرِ يحثُّ الشجعانَ والأبطالَ أَن يتقدمُوا إلَىٰ أمامِ القومِ فلَا يتحرَّكُ أحدٌ، وتفاقَمَ الأمرُ، واشتدَّ القتالُ وتخاذَلَتِ الرجالُ، وضاقَ الحالُ، وكَثُرَ النزالُ.

فأرسلَ عبدُ الملكِ أخاهُ محمدَ بنَ مروانَ إلَىٰ مصعبٍ يعطيهِ الأمانَ، وقَدْ كانَ عبدُ الملكِ يحبُّ مصعبًا حبًّا شديدًا، وكانَ خليلًا لَهُ قبلَ الخلافَةِ، فقالَ لأخيهِ محمَّدٍ: اذهَبْ إليهِ فآمِنْهُ، فجاءَهُ، فقالَ لَهُ: يَا مصعبُ، قَدْ آمنَكَ ابنُ عمِّكَ علَىٰ نفسِكَ وولدِكَ ومالِكَ وأهلِكَ، فاذهَبْ حيثُ شئتَ مِنَ البلادِ، ولَوْ أرادَ بِكَ غيرَ ذلكَ لكانَ، فقالَ مصعبٌ: قُضِيَ الأمرُ، إنَّ مثلِي لَا ينصرفُ عَن مثلِ هذَا الموقفِ إلَّا غالبًا أَوْ مغلوبًا.

فنادَىٰ محمَّدُ بنُ مروانَ عيسَىٰ بنَ مصعبٍ: يَا ابنَ أخِي، لَا تقتُلْ نفسَكَ، لكَ الأمانُ، فقالَ لَهُ مصعبٌ: قَدْ آمنَكَ عمُّكَ فامضِ إليهِ، فقالَ: لَا تتحدَّثُ نساءُ قريشٍ أنِّي أسلمْتُكَ للقتلِ، فقالَ لَهُ: يَا بُنيَّ، فاركَبْ خيلَ السبقِ فالْحَقْ بعمِّكَ -أَي: عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فأخبرهُ بمَا صنعَ أهلُ العراقِ؛ فإنِّي مقتولٌ هَاهُنَا، فقالَ: واللهِ إنِّي لَا أخبرُ عنكَ أحدًا أبدًا، ولَا أخبرُ نساءَ قريشٍ بمصرعِكَ أبدًا، ولَا أقتلُ إلَّا معَكَ، ولكِنْ إن شئتَ ركبتَ خيلَكَ، وسِرْنَا إلَىٰ البصرةِ، فإنَّهُم علَىٰ الجماعةِ، فإنَّكَ قَد ضعفْتَ جدًّا.

فقالَ مصعبٌ: لَا واللهِ، مَا الفرارُ لِي بعادةٍ ولكِنْ أقاتلُ، فإِنْ قُتلتُ فمَا السيفُ لِي بعارٍ، واللهِ لَا تتحدَّثُ قريشٌ عنِّي أنِّي فررْتُ منَ القتالِ، ثمَّ قالَ لابنِهِ: تقدَّمْ بينَ يَدَيَّ حتَّىٰ أحتسِبَكَ، فتقدَّمَ ابنُهُ، فقاتَلَ حتَّىٰ قُتِلَ، وأُثخِنَ مصعبُ بالرمْيِ، فنظرَ إليهِ رجلٌ وهوَ كذلِكَ، فحملَ عليهِ فطعنَهُ وهوَ يقولُ: يَا ثاراتِ المختارِ، فصرَعَهُ، ويقصِدُ بثاراتِ المختارِ: المختارِ بنِ أبِي عبيدٍ مُدَّعِي النُّبوةِ، وكانَ قَد قتلَهُ مصعبٌ، ، ثمَّ نزلَ إلَىٰ مصعبٍ رجلٌ يقالُ لَهُ: عبيدُ اللهِ بنُ زيادِ بنِ ظبيانَ التميميُّ فقتلَهُ وحزَّ رأسَهُ، وأتىٰ بِهِ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ، فسجدَ عبدُ الملكِ، وأطلقَ لَهُ ألفَ دينارٍ.

ولمَّا وُضعَ رأسُ مصعبٍ بينَ يدَيْ عبدِ الملكِ قالَ:

لَقَدْ أَردَىٰ الفَوَارِسُ يَومَ عبسٍ ... غُلَامًا غَيرَ مناعِ المَتَاعِ
ولَا فَرِحٍ لِخَيرٍ إِنْ أَتَاهُ ... وَلَا هَلِعٍ مِنَ الحدَثَانِ لَاعِ
وَلَا وَقافَةٍ وَالخَيلُ تَعدُو ... وَلَا خَالٍ كَأنبوبِ اليَرَاعِ

فقالَ الرجلُ الَّذِي جاءَ برأسِهِ: واللهِ يَا أميرَ المؤمنينَ لَو رأيتَهُ والرمحُ فِي يدِهِ تارةً، والسيفُ تارةً، يفرِي بِهَذَا ويطعنُ بهذَا، لرأيتَ رجلًا يملأُ القلبَ والعينَ شجاعةً وإقدامًا، ولكنَّهُ لمَّا تفرَّقَتْ رجالُهُ، وكثُرَ مَن قصدَهُ، وبقيَ وحدَهُ، مَا زالَ ينشدُ:

وَإنِّي عَلَىٰ المَكرُوهِ عِندَ حُضُورِهِ ... أُكَذِّبُ نَفسِي وَالجُفُونُ لَهُ تُغضِي
وَمَا ذَاكَ مِن ذُلٍّ وَلَكِن حَفِيظَةٌ ... أَذُبُّ بِهَا عِندَ المَكَارِمِ عَن عِرضِي
وَإِنِّي لِأَهلِ الشَّرِّ بِالشَّرِّ مُرصَدٌ ... وَإِنِّي لِذِي سِلمٍ أذلُّ مِنَ الأرضِ

فقالَ عبدُ الملكِ: كانَ واللهِ كمَا وصفَ بهِ نفسَهُ وصدقَ، ثمَّ بكَىٰ، وقالَ: لَقَد كانَ بينِي وبينَ مصعبٍ صُحبةٌ قديمةٌ، واللهِ لَقَدْ كانَ مِن أحبِّ الناسِ إليَّ، وأشدِّهِم لِي

إلفًا ومودةً، حتَّىٰ مَا كنتُ أقدرُ أَن أصبرَ عنْهُ ساعةً واحدةً مِن حبِّي لَهُ، ولكِنَّ هذَا الملكَ عقيمٌ، متَىٰ تلدُ النساءُ مثلَ مصعبٍ؟ ثمَّ أمرَ بمواراتِهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ العليمِ الخبيرِ، السميعِ البصيرِ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصَىٰ كلَّ شيءٍ عددًا، لَا إلهَ إلَّا هوَ إليهِ المصيرُ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ العليُّ الكبيرُ، وأشهدُ أنَّ نبيَّنَا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ ذوِي الفضلِ الكبيرِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ العاقلَ مَنِ اتَّعَظَ بالحوادثِ، واعتبرَ مِنَ المصائبِ، فإنَّ حوادثَ الزمانِ أعظمُ واعظٍ، فيهَا عبرةٌ لِمَنِ اعتبرَ، وموعظةٌ لِمَنِ افتكَرْ.

ومَن نظرَ إِلَىٰ الدنيَا ورأَىٰ مَا حصلَ لأهلِهَا، خفَّ علَيْهِ فقدُهَا، ولَمْ يتأسَّ علَىٰ مَا فاتَهُ منْهَا، فبينمَا هيَ فِي إقبالٍ علَىٰ أهلِهَا، سرعانَ مَا أدبرَتْ عنْهُم، فبقُوا عليهَا متحسِّرِينَ، نفوسُهُم بائرةٌ، وعيونُهُم غائرةٌ، وقلوبُهُم ممزقةٌ، وأوصالُهُم مقطَّعةٌ.

فالعاقلُ مَنْ إذَا تيقَّنَ ذلكَ ذكَّرَ نفسَهُ بكلِّ مَا يرجُو نفعَهُ، وحافظَ علَىٰ الآدابِ المنقولةِ، والسننِ المأثورةِ، واتَّعَظَ بمَا حدثَ لأهلِ الدنيَا مِنَ الأذَىٰ والمكروهِ فِي عاجلِ الدنيَا، ممَّا فقدوهُ مِنَ النعيمِ المقيمِ، والعيشِ الهنيءِ، حتَّىٰ صارُوا عبرةً لأولِي الأبصارِ، وعظةً لذَوِي العقولِ والأفكارِ.

قالَ يحيَىٰ بنُ خالدٍ لمَّا نكبَ: الدنيَا دُوَلٌ، والمالُ عاريةٌ، ولنَا بِمَن قبلنَا أسوةٌ، وفينَا لِمَنْ بعدَنَا عبرةٌ.

(٩٥) أحكامُ النظرِ

الحمدُ للهِ الَّذِي خلقَ فسوَّىٰ، وقدَّر فهدَىٰ، وأسعدَ وأشقَىٰ، وأضلَّ بحكمَتِهِ وهدَىٰ، ومنعَ وأعطَىٰ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ العليُّ الأعلَىٰ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ النبيُّ المصطفَىٰ، والرسولُ المجتبَىٰ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَنِ اهتَدَىٰ.

أمَّا بعدُ:

فلمَّا كانَ النظرُ مِن أقربِ الوسائلِ إلَىٰ المحرمِ، اقتضَتِ الشريعةُ تحريمَهُ، والنظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِن سهامِ إبليسَ، ولذلكَ لمَّا سألَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَن نظرِ الفجأةِ، قالَ: «فأمرَني أَن أصرفَ بصرِي»[(١)].

ونظرةُ الفجأةِ هيَ النظرةُ الأولَىٰ الَّتِي تقعُ بغيرِ قصدٍ منَ الناظرِ، فمَا لَمْ يتعَمَّدْهُ القلبُ لَا يعاقبُ عليْهِ، فإذَا نظرَ الثانيةَ تعمُّدًا أَثِمَ، فأمرَهُ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندَ نظرةِ الفجأةِ أَن يصرفَ بصرَهُ ولَا يستديمَ النظرَ، فإِنَّ استدامَتَهُ كتكريرِهِ.

كمَا أرشَدَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَنِ ابتُلِيَ بنظرةِ الفجأةِ أَنْ يداوِيَهِ بإتيانِ امرأتِهِ وقالَ: «**إِنَّ معَهَا مثلُ الَّذِي معَهَا**»[(٢)]، فإنَّ فِي ذلكَ التسلِّي عَنِ المطلوبِ بجنسِهِ؛ ولأنَّ النظرَ يُثيرُ قوَّةَ الشهوةِ، فأمرَهُ بتنقيصِهَا بإتيانِ أهلِهِ.

ففتنةُ النظرِ أصلُ كلِّ فتنةٍ، وقَد جاءَ فِي الحديثِ قولُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا تركتُ**

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٣٩).

بعدِي فتنةً أضرَّ علَىٰ الرجالِ منَ النساءِ»(١).

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا الدنيَا واتقُوا النساءَ**»(٢).

وفِي غضِّ البصرِ عنِ الحرامِ -سواءٌ كانَ منَ الأشخاصِ أَوِ الصورِ أَوِ المقاطعِ- فوائدُ عظيمةٌ، تعودُ علَىٰ المرءِ بالنفعِ الكبيرِ، والوقايةِ مِن أسبابِ الفتنةِ والهلاكِ والعطبِ.

ومِن ذلكَ: تخليصُ القلبِ مِن ألمِ الحسرةِ، فإِنَّ مَن أطلقَ نظرَهُ دامَت حسرَتُهُ، وأضرُّ شيءٍ علَىٰ القلبِ إرسالُ البصرِ، فإنَّهُ يُريهِ مَا يشتدُّ طلبُهُ لَهُ، ولَا صبرَ لَهُ عنْهُ، ولَا وصولَ لَهُ إليهِ، وذلكَ غايةُ ألمِهِ وعذابِهِ، قالَ بعضُ العربِ: رأيتُ جاريةً فِي الطوافِ كأنَّهَا مهاةٌ فجعلتُ أنظرُ إليهَا وأملأُ عينِي مِن محاسنِهَا، فقالَت لِي: يَا هذَا، مَا شأنُكَ؟ قلتُ: ومَا عليكِ مِنَ النظرِ؟! فأنشأَتْ تقولُ:

وَكُنتَ مَتَىٰ أَرسَلتَ طَرفَكَ رَائِدًا ... لِقَلبِكَ يَومًا أَتعبَتكَ المَنَاظِرُ

رَأَيتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنتَ قَادِرٌ ... عَلَيهِ وَلَا عَن بَعضِهِ أَنتَ صَابِرُ

والنظرةُ تفعلُ فِي القلبِ مَا يفعلُ السهمُ فِي الرميَّةِ، فإِنْ لَم تقتلْهُ جرحَتْهُ، وهيَ بمنزلةِ الشرارةِ منَ النارِ ترمَىٰ فِي الحشيشِ اليابسِ فإِنْ لَم تُحرِقْهُ كلَّهُ أحرقَتْ بعضَهُ.

ومِنْ فوائدِ غضِّ البصرِ: أَنَّهُ يورثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهرُ فِي العينِ وفِي الوجهِ وفِي الجوارحِ، كمَا أنَّ إطلاقَ البصرِ يورثُهُ ظلمةً تظهرُ فِي وجهِهِ وجوارِحِهِ.

ومِنْ فوائدِهِ: أَنَّهُ يورثُ صاحبَهُ صحَّةَ الفراسَةِ، فإنَّهَا منَ النُّورِ وثمراتِهِ، وإِذَا استنارَ القلبُ صحَّتِ الفراسةُ، لأَنَّهُ يصيرُ بمنزلةِ المرآةِ المجلوَّةِ تظهرُ فيهَا المعلوماتُ كمَا هيَ، قالَ شجاعٌ الكرمانيُّ: «مَن عمَّرَ ظاهرَهُ باتباعِ السنَّةِ، وباطنَهُ بدوامِ المراقبةِ،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

وغضَّ بصرَهُ عنِ المحارمِ، وكفَّ نفسَهُ عَنِ الشهواتِ، وأكلَ مِنَ الحلالِ؛ لَم تُخطِئْ فِراسَتُهُ»، وكانَ شجاعٌ لَا تُخطِئُ لَهُ فِراسَةٌ.

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجزي العبدَ علَىٰ عملِهِ بمَا هوَ مِن جنسِهِ، فمَنْ غضَّ بصرَهُ عنِ المحارمِ عوَّضَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إطلاقَ نورِ بصيرتِهِ، فلمَّا حبسَ بصرَهُ للهِ، أطلقَ اللهُ نورَ بصيرتِهِ ومَن أطلقَ بصرَهُ فِي المحارمِ حبسَ اللهُ عنْهُ بصيرَتَهُ.

ومِن فوائدِ غضِّ البصرِ: أنَّهُ يفتحُ لصاحبِهِ طرقَ العلمِ وأبوابَهُ، ويسهِّلُ عليهِ أسبابَهُ، وذلكَ بسببِ نورِ القلبِ، فإنَّهُ إذَا استنارَ ظهرَتْ فيهِ الحقائقُ، وانكشفَتْ لَهُ بسرعةٍ، ودخَلَ مِن بعضِهَا إلَىٰ بعضٍ، ومَن أرسلَ بصرَهُ تكدَّرَ عليهِ قلبُهُ وأظلَمَ وانسدَّ عليهِ بابُ العلمِ وطرقُهُ.

ومِن فوائدِهِ: أنَّهُ يورثُ قوَّةَ القلبِ وثباتَهُ وشجاعتَهُ، فيُجعلُ لَهُ سلطانُ البصيرَةِ معَ سلطانِ الحجةِ، ولهذَا يوجدُ فِي المُتَّبِعِ لهواهُ مِن ذلِّ القلبِ وضعفِهِ ومهانةِ النفسِ وحقارتِهَا مَا جعلَهُ اللهُ لِمَنْ آثرَ هواهُ علَىٰ رضاهُ.

ومِن فوائدِهِ: أنَّهُ يُورثُ القلبَ سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظمَ مِنَ اللَّذةِ والسرورِ الحاصلِ بالنظرِ؛ وذلكَ لقهرِهِ عدوَّهُ بمخالفتِهِ ومخالفةِ نفسِهِ وهواهُ، كمَا أنَّهُ لمَّا كفَّ لذَّتَهُ وحبسَ شهوتَهُ للهِ، وفيهَا مسرَّةُ نفسِهِ الأمَّارَةِ بالسوءِ، أعاضَهُ اللهُ سبحانَهُ مسرَّةً ولذَّةً أكملَ منهَا.

ومِن فوائدِهِ: أنَّهُ يُخَلِّصُ القلبَ مِن أسرِ الشهوةِ، فإنَّ الأسيرَ هوَ أسيرُ شهوتِهِ وهواهُ، كمَا قيلَ: طليقٌ برأيِ العينِ وهوَ أسيرٌ، ومتَىٰ أسرَتِ الشهوةُ والهوَىٰ القلبَ تمكَّنَ مِنْهُ عدوُّهُ وسامَهُ سوءَ العذابِ.

ومِنْ فوائدِهِ: أنَّهُ يسدُّ عنْهُ بابًا مِن أبوابِ جهنَّمَ، فإنَّ النظرَ بابُ الشهوةِ الحاملةِ علَىٰ مواقعَةِ الفعلِ، وتحريمُ الربِّ تعالَىٰ وشرعُهُ حجابٌ مانعٌ مِنَ الوصولِ، فمتَىٰ

هَتَكَ الحجابَ تجرَّأَ علَىٰ المحظُورِ، ولَم تقِفْ نفسُهُ منهُ عندَ غايةٍ، فإنَّ النفسَ فِي هذَا المجالِ لَا تقنَعُ بغايةٍ تقِفُ عندَهَا، وذلكَ أنَّ لذَّتَهَا فِي الشيءِ الجديدِ، فصاحبُ الجديدِ لَا يقنعُهُ القديمُ التليدُ، وإن كانَ أحسنَ منْهُ منظرًا، وأطيبَ مخبرًا، فغضُّ البصرِ يسدُّ عنهُ هذَا البابَ الَّذِي عجزَتْ أقوَىٰ الناسِ عنِ استيفاءِ أغراضِهِم فيهِ.

ومِن فوائدِ غضِّ البصرِ: أنَّهُ يُقوِّي عقلَ العبدِ ويزيدُهُ، ويثبتُهُ، فإنَّ إطلاقَ البصرِ وإرسالَهُ لَا يحصلُ إلَّا مِن خِفَّةِ العقلِ وطيشِهِ وعدَمِ ملاحظتِهِ للعواقبِ، فإنَّ ميزانَ العقلِ فِي ملاحظةِ العواقبِ، ومرسلُ النظرِ لَوْ عَلِمَ مَا تجنِي عواقبُ نظرِهِ عليهِ لمَا أطلقَ بصرَهُ.

ومِن فوائدِهِ: أنَّهُ يُخَلِّصُ القلبَ مِن سُكْرِ الشهوةِ ورَقدةِ الغفلةِ، فإنَّ إطلاقَ البصرِ يوجبُ استحكامَ الغفلةِ عنِ اللهِ والدارِ الآخرةِ، ويوقعُ فِي سَكْرَةِ العشقِ، كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ عَن عشَّاقِ الصورِ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1]، فالنظرةُ كأسٌ مِن خمرٍ، والعشقُ هوَ سُكْرُ ذلكَ الشرابِ، وسُكْرُ العشقِ أعظمُ مِن سُكْرِ الخمرِ، فإنَّ سَكْرَانَ الخمرِ يفيقُ، وسكرانَ العشقِ قلَّمَا يفيقُ إلَّا وهوَ فِي عسكرِ الأمواتِ.

ومِن أجلِ خطورةِ إطلاقِ النظرِ فيمَا لَا يحلُّ، فقَدْ عَظُمَ تحذيرُ السلفِ منْهُ، وذلكَ لمعرفتِهِم بِمَا يَئُولُ إليهِ ذلكَ مِن ضياعِ الدينِ، وسوءِ العاقبةِ.

وكَم مِن مرسلٍ لحظاتِهِ رجعَ بجيشِ صبرِهِ مغلولًا، ولَم يرتدِعْ حتَّىٰ تشحَّطَ بينَهمُ قتيلًا.

وإنَّمَا الموفَّقُ مَن حالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بينَهُ وبينَ الفتنةِ، وأعفَّهُ عَنِ النظرِ الحرامِ، وقنَّعَهُ بِمَا آتاهُ.

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) الحجر: ٧٢.

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ علَىٰ رسولِهِ وعبدِهِ، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَنِ استنَّ بسنَّتِهِ، واقتفَىٰ أثرَهُ، واهتدَىٰ بهَديِهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ للمعاصِي منَ الآثارِ القبيحةِ المذمومةِ المضرَّةِ فِي الدينِ والدنيَا والآخرةِ، مَا يجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يعرفَهَا، ليحذرَ منْهَا، ويدعُو اللهَ صادقًا مبتهلًا أَن يجنِّبَهُ إيَّاهَا، وقَد أشارَ إلَىٰ هذهِ الآثارِ المضرَّةِ الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فمِن تلكَ الآثارِ: حرمانُ العلمِ، وذلكَ أَنَّ العلمَ نورٌ يقذفُهُ اللهُ فِي القلبِ، والمعصيةُ تُطفِئُ ذلكَ النورَ.

ومنهَا: وحشةٌ يجدُهَا العاصِي فِي قلبهِ فلَا تقارنُهَا لذَّةٌ أصلًا، ولوِ اجتمَعَتْ لَهُ لذَّاتُ الدنيَا بأسرِهَا لَم تفِ بتلكَ الوحشةِ، وهذَا أمرٌ لَا يَحُسُّ بهِ إلَّا مَن فِي قلبِهِ حياةٌ.

ومنهَا: الوحشةُ الَّتِي تحصلُ بينَ العاصِي وبينَ الناسِ، لَا سيَّمَا أهلُ الخيرِ منْهُم، فتقعُ بينَهُ وبينَ امرأتِهِ وولدِهِ وأقاربِهِ، وبينَهُ وبينَ نفسِهِ، فتراهُ مستوحشًا حتَّىٰ مِن نفسِهِ، وقَدْ قالَ بعضُ السلفِ: إنِّي لأعصِي اللهَ فأرَىٰ ذلكَ فِي خُلُقِ دابَّتِي وامرأتِي.

ومنهَا: حرمانُ الرزقِ، وتعسيرُ الأمورِ، وظلمةٌ يجدُهَا العاصِي فِي قلبِهِ، يحسُّ بهَا حقيقةً كمَا يحسُّ بظلمةِ الليلِ البهيمِ.

والمعاصِي تُوهِنُ القلبَ والبدنَ، وتحرمُ الطاعةَ، وتقصِّرُ العمرَ، وتمحقُ بركَتَهُ.

كمَا أنَّ المعاصِي تزرعُ أمثالَهَا ويولِّدُ بعضُهَا بعضًا، حتَّىٰ يعزَّ علَىٰ العبدِ مفارقَتُهَا والخروجُ منْهَا، قالَ بعضُ السلفِ: إنَّ مِن عقوبةِ السيِّئةِ السيئةَ بعدَهَا، وإنَّ مِن ثوابِ

الحسنةِ الحسنةَ بعدَهَا.

والمعاصِي تُضعِفُ القلبَ عَن إرادَتِهِ، فتَقوَىٰ إرادةُ المعصيةِ وتضعُفُ إرادةُ التوبةِ شيئًا فشيئًا، إلَىٰ أن ينسلخَ مِن قلبِهِ إرادةُ التوبةِ بالكليَّةِ، وينسلخُ مِنَ القلبِ استقباحُهَا فتصيرُ لَهُ عادةً، فلَا يستقبحُ مِن نفسِهِ رؤيةَ الناسِ لَهُ ولَا كلامَهُم فيهِ.

ولَا يزالُ العبدُ يرتكبُ الذنوبَ حتَّىٰ تهونَ عليْهِ وتصغُرَ فِي قلبِهِ، وذلِكَ علامةُ الهلاكِ.

والمعصيةُ سببٌ لهوانِ العبدِ علَىٰ ربِّهِ وسقوطِهِ مِنْ عينِهِ، قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هانُوا عليهِ فعصَوْهُ، ولَو عزُّوا عليهِ لعَصَمَهُم، وإذَا هانَ العبدُ علَىٰ اللهِ لَم يكرِمْهُ أحدٌ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾(١).

والمعصيةُ تورثُ الذلَّ، فإنَّ العزَّ كلَّ العزِّ فِي طاعةِ اللهِ سبحانَهُ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٢)؛ أَي: فليطلُبْهَا بطاعةِ اللهِ، فإنَّهُ لَا يجدُهَا إلَّا فِي طاعتِهِ.

والمعاصِي تفسدُ العقلَ، فإنَّ للعقلِ نورًا، والمعصيةُ تطفِئُ نورَ العقلِ، كمَا أنَّ الذنوبَ إذَا تكاثرَتْ طُبِعَ علَىٰ قلبِ صاحبِهَا فكانَ مِنَ الغافلينَ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٣).

والمعاصِي تستدعِي نسيانَ اللهِ لعبدِهِ وتركِهِ وتخليتِهِ بينَهُ وبينَ نفسِهِ وشيطانِهِ، وهنالِكَ الهلاكُ الَّذِي لَا يُرجَىٰ معَهُ نجاةٌ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟

(١) الحج:١٨.
(٢) فاطر:١٠.
(٣) المطففين:١٤.

ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1].

ومِن آثارِ المعاصِي: أنَّهَا تزيلُ النِّعمَ وتحلُّ النِّقَمَ، فمَا زالَتْ عنِ العبدِ نعمةٌ إلَّا بسببِ ذنبٍ، ولَا حلَّتْ بِهِ نقمةٌ إلَّا بذنبٍ، كمَا قالَ عليُّ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا نزلَ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولَا رُفِعَ بلاءٌ إلَّا بتوبةٍ»، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[2].

ومِن آثارِهَا: أنَّهَا تصرفُ القلبَ عَن صِحَّتِهِ واستقامتِهِ إِلَىٰ مرضِهِ وانحرافِهِ، فلَا يزالُ مريضًا معلولًا، لَا ينتفعُ بالأغذيةِ الَّتِي بِهَا حياتُهُ وصلاحُهُ، فإنَّ تأثيرَ الذنوبِ فِي القلوبِ كتأثيرِ الأمراضِ فِي الأبدانِ.

فأينَ هذَا مِنْ نعيمِ مَنْ يرقصُ قلبُهُ طربًا وفرحًا وأُنسًا بربِّهِ واشتياقًا إليهِ وارتياحًا بحبِّهِ وطمأنينةً بذكرِهِ؟ حتَّىٰ يقولَ بعضُهُم: لَو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ مَا نحنُ فيهِ لجالدُونَا عليهِ بالسيفِ، ويقولُ الآخرُ: إنَّ فِي الدنيَا جنةً مَنْ لَمْ يدخلْهَا لَم يدخُلْ جنَّةَ الآخرةِ.

نسألُ اللهَ أَنْ يجعلَنَا منَ التائبينَ المنيبينَ، المخبتينَ للهِ ربِّ العالمينَ، إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليْهِ.

❊❊❊

(١) الحشر: ١٨-١٩.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٩٦) فضلُ البناتِ

الحمدُ للهِ الملكِ المتعالِ، المحمودِ علَىٰ كلِّ حالٍ، بيدِهِ الأمرُ كلُّهُ، وعندَهُ مفاتِحُ الغيبِ لَا يعلمُهَا إلَّا هوَ وهوَ شديدُ المحالِ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ علَىٰ عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ، صاحبِ المقامِ المحمودِ، والحوضِ المورودِ، الَّذِي أدَّىٰ الأمانةَ، ونصحَ الأمَّةَ، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّىٰ أتاهُ اليقينُ مِنْ ربِّهِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ اعتقادُهُ أنَّ اللهَ تعالَىٰ هوَ الَّذِي يقسِّمُ الأرزاقَ بينَ الخلائقِ، لَا مُعقِّبَ لحكمِهِ، ولَا رادَّ لقضائِهِ، يجعلُ مَن يشاءُ غنيًّا، ويجعلُ مَنْ يشاءُ فقيرًا، ويهبُ لِمَنْ يشاءُ إناثًا، ويهبُ لِمَنْ يشاءُ ذكورًا، لَا مانعَ لِمَا أعطَىٰ، ولَا معطِي لِمَا منعَ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1]، فهوَ المتصرفُ بملكِهِ بمَا يشاءُ.

ولذَا فإنَّ الواجبَ علَىٰ المسلمِ التسليمُ لأقدارِ اللهِ وقضائِهِ علَىٰ أيِّ حالٍ كانَتْ، فإنَّ مِن علاماتِ الإيمانِ الشكرَ فِي السرَّاءِ، والصبرَ فِي الضرَّاءِ.

قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَهُ كلَّهُ لَهُ خيرٌ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلَّا للمؤمنِ، إنْ أصابَتْهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيرًا لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خيرًا لَهُ**»[2].

---

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

ولَا يجوزُ للعبدِ أَنْ يعترضَ علَىٰ قضاءِ اللهِ إِنْ أصابَهُ مَا يكرهُ مِنَ البلاءِ والمصائبِ، ولْيعلَمْ عِلمًا يقينيًّا أَنَّهُ لَوْ كُشفَ لَهُ الغيبُ لَرَأَىٰ أَنَّ مَا قدَّرَهُ اللهُ عليهِ هوَ الخيرُ لَهُ، فإنَّ اللهَ تعالَىٰ لَا يقدِّرُ شرًّا محضًا، بَلْ وإِنْ كانَ ظاهرُ الأمرِ شرًّا إِلَّا أَنَّ فيهِ خيرًا عظيمًا للمبتلَىٰ بِهِ، وإِنَّمَا يعلمُ ذلكَ مَن صدقَ ظنُّهُ بربِّهِ، وقويَ بِهِ يقينُهُ، فاطمأنَّتْ نفسُهُ وعَلِمَ أنَّ مَا عندَ اللهِ خيرٌ لَهُ وأزكَىٰ.

هذَا ومِن جملةِ مَا يَبتلِي اللهُ بِهِ عبادَهُ الابتلاءُ بالبناتِ، وفِي مقابلِ هذَا البلاءِ فقَد أعظمَ اللهُ الأجرَ وأجزلَ المثوبةَ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن ابتُلِيَ مِنْ هذهِ البناتِ بشيءٍ فأحسنَ إليهنَّ؛ كُنَّ لَهُ سترًا منَ النارِ**»(١)، وإنَّمَا سمَّاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتلاءً، لأنَّ الناسَ يكرهونَهُنَّ فِي العادةِ، فمَنِ ابتُلِيَ واختُبِرَ بهؤلاءِ البناتِ فأحسنَ إليهنَّ، كنَّ لَهُ سترًا منَ النارِ، قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: جاءَتْنِي مسكينةٌ تَحمِلُ ابنتينِ لهَا، فأطعمْتُهَا ثلاثَ تمراتٍ، فأعطَتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ تمرةً، ورفعَتْ إلَىٰ فِيهَا تمرةً لتأكُلَهَا، فاستطعمَتْهَا ابنتاهَا، فشقَّتِ التمرةَ الَّتِي كانَتْ تريدُ أَن تأكلَهَا بينَهُمَا، فأعجبَنِي شأنُهَا، فذكرتُ الَّذِي صنعَتْ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: «**إنَّ اللهَ قَدْ أوجبَ لَهَا بِهَا الجنَّةَ، أَو: أعتقَهَا بِهَا منَ النارِ**»(٢).

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانَتْ لَهُ ابنتانِ أَو أختانِ فأحسَنَ إليهِمَا ما صحبتَاهُ؛ كُنتُ أنَا وهوَ فِي الجنَّةِ كهاتَينِ**»(٣)، وأشارَ بأصبعَيْهِ السبابةِ والوسطَىٰ.

فمِن أجلِ ضَعفِ البنَاتِ فقَدْ أوصَىٰ المولَىٰ سبحانَهُ بِهِنَّ، وذكرَ الفضلَ العظيمَ فِي الإحسانِ إليهنَّ، ومَا كانَ ذلكَ إلَّا لضعفِهِنَّ وحاجتِهِنَّ إلَىٰ ركنٍ شَديدٍ يأوِينَ إلَيهِ.

---

(١) رواه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣٠).

(٣) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٧١).

ولَقَدْ كانَ مِنْ سِمَةِ الكفارِ فِي الجاهليةِ تغيُّظُهُم إذَا ابتُلُوا بالبناتِ مِن دونِ الذكورِ، فيتوارَونَ مِنَ الناسِ خجلًا وكأَنَّهُم قَد أُصِيبُوا بعارِ الدهرِ وفضيحةِ العمرِ، كمَا وصفَ اللهُ تعالَىٰ حالَهُم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(١).

فكانَ أحدُهُمْ إذَا أُعلمَ بولادةِ الأنثَىٰ لَهُ، اسودَّ وجهُهُ مِنْ شدَّةِ الغمِّ والحزنِ، وامتلأَ قلبُهُ غيظًا علَىٰ تلكَ المرأةِ الَّتِي ولدَتْ لَهُ هذهِ البنتَ، وقامَ غاضبًا لَا يستطيعُ الكلامَ، ويضيقُ بهِ النفسُ مِنَ شدَّةِ الغيظِ، وحمَلَهُ هذَا الخبرُ علَىٰ التوارِي عَنْ أعيُنِ القومِ، وذلكَ للعارِ والخِزيِ الَّذِي يرَىٰ أَنَّهُ لَحِقَهُ بولادةِ هذهِ البنتِ، وقامَ يدورُ فِي حيرةٍ هَلْ سيتركُهَا حيَّةً وسيلحقُهُ مِنَ الذلِّ والهوانِ الَّذِي يتجرعُهُ طولَ حياتِهَا، أَمْ أَنَّهُ يدفنُهَا فِي الترابِ وهيَ حيَّةٌ فيستريحُ مِن عارِهَا، وكانَ أكثرُ أهلِ الجاهليةِ يدفنُ البنتَ وهيَ حيَّةٌ، وفِي هذَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾(٢).

فلمَّا جاءَ دينُ الإسلامِ العَظيمِ، أبطلَ هذهِ العادةَ الجاهليةَ، وحرَّم وأدَ البناتِ، ورغَّبَ فِي تربيتهنَّ والإحسَانِ إليهنَّ.

والعَجَبُ كلُّ العجبِ، ومعَ الأسفِ الشديدِ، أَنْ ترَىٰ أُناسًا فِي هذَا الزمانِ قَدْ أنعمَ اللهُ علَيْهِم بنعمةِ الإسلامِ، فأَبَوا إلَّا أَنْ يتَّصِفُوا بذلكَ الخُلُقِ الجاهِليِّ، فإذَا بُشِّرَ أحدُهُم بالأنثَىٰ اسوَدَّ وجهُهُ، وضاقَ صدرُهُ، كأَنَّهُ أُصيبَ بفاجعةِ الدهرِ، ومصيبةِ العمرِ، وقاصمةِ الظهرِ، بَلْ ويبلغُ السفَهُ ببعضِهِم أَن يُطلِّقَ امرأتَهُ، ولعلَّهُ يتمنَّىٰ فِي داخلِهِ أَنْ لَوْ كانَ الشرعُ قَد أباحَ قتلَ البناتِ ليُسارعَ إِلَىٰ قتلِهَا، وكأَنَّهُ هوَ الَّذِي يملكُ الرزقَ، ويكفلُ العيشَ، وكأَنَّهُ قَدْ كُشِفَ لَهُ الغيبُ وعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ أُعطِيَ ولدًا لكانَ خيرَ

(١) النحل:٥٨-٥٩.

(٢) التكوير:٨-٩.

الناسِ، وهذَا مِنْ أخلاقِ الجاهليةِ، ودليلٌ علَىٰ سُوءِ الطويَّةِ، ويقودُ صاحبُهُ إلَىٰ المهالِكِ الرديَّةِ.

كلُّ إنسانٍ يتمنَّىٰ أَنْ يُرزقَ بولدٍ، ولكِنْ هذَا لَا يعنِي أنَّهُ إِنِ ابتُلِيَ ببُنيَّةٍ أَنْ يضيقَ بِهَا ذَرعًا، فكَمْ مِنْ فتاةٍ قرَّبَتْ بعيدًا، ووصلَتْ أرحامًا، وجلَبَتْ لأهلِهَا رفعةَ الرأسِ وأصالةَ النسبِ، وكَمْ مِن غلامٍ جلبَ لأهلِهِ الويلَ والثُّبُورَ وعظائمَ الأمورِ، وحقيقٌ بالمؤمنِ أَنْ يرضَىٰ بِماَ قسمَ اللهُ لَهُ، ويعلمَ أنَّ قضاءَ اللهِ خيرٌ مِن قضاءِ المرءِ لنفسِهِ، وَلَرُبَّ بنتٍ خيرٌ لأهلِهَا مِنْ مائةٍ منَ الولدِ.

قالَ قتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُبَّ جاريةٍ خيرٌ مِنْ غلامٍ هلكَ أهلُهُ علَىٰ يديهِ».

وكانَ رجلٌ جالسًا عندَ ابنِ عمرَ -ولَهُ بناتٌ- فتمنَّىٰ موتَهُنَّ، فغضِبَ ابنُ عمرَ، وقالَ: أنتَ ترزقُهُنَّ؟

وقالَ يعقُوبُ بنُ بُختانَ: وُلِدَ لِي سبعُ بناتٍ، فكنتُ كلَّمَا وُلدَ لِي ابنةٌ دخَلْتُ علَىٰ أحمدَ بنِ حنبلٍ، فيقولُ: يَا أبَا يوسفَ، الأنبياءُ آباءُ بناتٍ، فكانَ يُذهِبُ قولُهُ همِّي.

ودخلَ بهلولٌ المجنونُ علَىٰ رجلٍ مغتمٍّ لأنَّ زوجَتَهُ ولدَتْ بنتًا، فقالَ لَهُ: أيَسُرُّكَ أَنْ تُرزقَ بولدٍ مثلِي؟! فسُرِّيَ عنِ الرجلِ.

فليتَّقِ اللهَ امرؤٌ أَنْ يتَّصفَ بخُلُقِ أهلِ الجاهليةِ فيكرَهُ البناتِ لجنسهنَّ، فإنَّ الخيرَ لَايَعلَمُ مواقِعَهُ إلَّا اللهُ.

وتأمَّلُوا كَمْ منَ الذكورِ ممَّنْ لَا قيمةَ لَهُم ولَا شيمةَ، تراهُم يتنقلونَ بينَ مراكزِ الشرطةِ، ومِنْ مصِيبةٍ إلَىٰ مُصِيبةٍ، ومِنْ سجنٍ إلَىٰ سجنٍ، وآباؤُهُم يدعُونَ عليهِم ويُلِحُّونَ فِي الدعَاءِ أَنْ يقصِمَ اللهُ ظهورَهُم، وأَن يعجِّلَ فِي موتِهِمْ.

وَلْيحذرِ الآباءُ منَ السخطِ إذَا رُزِقُوا ببناتٍ، فيعاقَبُوا بعدَ ذلكَ ويبتَلَوا بكثرةِ البناتِ، أَوْ بأولادٍ لَا يجنُونَ مِنْ ورائِهِم إلَّا كلَّ غمٍّ وهمٍّ.

وقولُ اللهِ تعالَىٰ أصدقُ واعظٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾(١).

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والعاقبةُ للمُتقينَ، ولَا عدوَانَ إلَّا علَىٰ الظالمِينَ، وأشهدُ ألَّا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ عليْهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِينَ.

أمَّا بعدُ:

فاعلمُوا أنَّ العبدَ كمَا هوَ مأمورٌ بالرضَا بِمَا كتبَهُ اللهُ لَهُ مِن رِزْقِهِ بهؤلاءِ البناتِ، فهوَ مأمورٌ كذلكَ بالإحسانِ إليهنَّ، وهذَا العملُ سبيلٌ إلَىٰ ملازمةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الجنَّةِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن عالَ جاريتَيْنِ حتَّىٰ تُدرِكَا دخَلْتُ أنَا وهوَ فِي الجنَّةِ كهاتَيْنِ**. وأشارَ بأصبعَيْهِ السبَابَةِ والوسطَىٰ»(٢)، ومعنَىٰ ذلكَ: أنَّهُ يكونُ منَ السابقينَ إلَىٰ الجنةِ، وملازِمًا للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملازمةَ السبابةِ للوسطَىٰ عندَ ضمِّهَا.

فأحسِنُوا صُحبةَ بناتِكُم رحمَكُمُ اللهُ، واعلَمُوا أنَّ مِنْ إحسانِ الصحبةِ الرحمةَ بهنَّ، وقَد قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الراحمُونَ يرحمُهُمُ الرحمنُ، ارحمُوا مَن فِي الأرضِ يرحَمْكُم مَن فِي السمَاءِ**»(٣).

ومنَ الرحمةِ أَنْ تنفقَ عليهَا مَا يَكفِيهَا، خصوصًا إنْ أنعمَ اللهُ عليكَ، فلَا تُقتِّرْ

---

(١) النساء:١٩.

(٢) رواه مسلم (٢٦٣١).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

عليهَا وأنتَ ذُو نعمةٍ، ولَا تجعلْهَا منقَّصةً بالعيشِ، نقصٌ فِي الملبسِ، ونقصٌ فِي الطعامِ، ونقصٌ فِي الكسوةِ، فلِمَنْ تدَّخِرُ؟ ولِمَنْ تجمَعُ؟

لماذَا بعضُ الناسِ يبخلُ علَىٰ بناتِهِ فيكسِرُ نفُوسَهُنَّ بينَ صفوفِ القريباتِ والصديقاتِ؟

كيفَ تطمئنُّ نفسُهُ وهوَ يرَىٰ الناسَ ترفُلُ بالنعمةِ، وهوَ يعيشُ عيشَ الفقراءِ معَ مَا لدَيهِ منَ النعمةِ؟

ومنَ الإحسانِ إليهنَّ العدلُ بينهنَّ فِي المعاملةِ، سواءٌ بينَ الأخواتِ أَو معَ إخوانهنَّ، فلَا تفضِّلِ الذكرَ لكونِهِ ذكرًا، وقَدْ شدَّدَ السلفُ فِي ذلكَ حتَّىٰ قالَ بعضُهُم: «يعدلُ بينَ الأبناءِ حتَّىٰ فِي القُبلَةِ»، فلَا تُعطِ الولدَ وتحرِمْهَا، وتحبَّ الولدَ ولَا تكرِمْهَا، فإنَّ هذَا يُوَلِّدُ عندَهَا شعورًا بالنَّقصِ الَّذِي رُبمَا يعيشُ معهَا إلَىٰ آخرِ العمرِ.

فكَم منَ النساءِ رُغمَ تقدُّمِ عمرِهَا إلَّا أنَّهَا لَازالَتْ تبكِي علَىٰ جفاءِ الوالِدَينِ فِي الصِّغَرِ، ولَا زالَتْ تعانِي مِن عقدةِ فقدانِ المحبةِ الَّتِي أثَّرَتْ علَىٰ سلوكِهَا، فإيَّاكَ أَنْ تقعَ فِي هذَا فإنَّهُ مِن سُبُلِ الشَّرِّ.

اقتَرِبْ منْهَا، واجلِسْ معَهَا، ودَعْ عنْكَ الجفاءَ، واجعلْهَا تصارِحُكَ بأدقِّ الأمورِ حتَّىٰ لَا تحتاجَ إلَىٰ غيرِكَ.

فلماذَا البعضُ يعيشُ جفَاءً معَ بناتِهِ وأولادِهِ علَىٰ العُمومِ، حتَّىٰ إنَّهُم يشكُونَ للبعيدِ، ولَا يلجأونَ إلَىٰ الأبِ القريبِ البعيدِ.

ومنَ الإحسانِ إليهنَّ: تربيتُهُنَّ علَىٰ محاسِنِ الأخلاقِ ودلائلِ الشِّيمِ، فالواجبُ علَىٰ الوالدِ أَنْ يُجَنِّبَ ابنتَهُ مواطِنَ الريَبِ والأماكنَ الَّتِي تُحَطِّمُ الأخلاقَ والقيمَ.

وثِقْ أنَّهَا إذَا تقدَّمَ العُمرُ، ستعرفُ مقدارَ مَا قدَّمتَهُ لهَا منَ المَعرُوفِ وتثمِّنُ خوفَكَ

عليهَا، وستدعُو لكَ بالخيرِ.

ومنَ الإحسانِ للبنتِ: تَزويجُهَا بالكُفءِ الَّذِي يحفَظُهَا مصُونةً، فلَا يكشفُ سِترَهَا الَّذِي طالمَا حفِظتَهُ أنتَ لَهَا وحافظَتْ هِيَ عليهِ، ولَا يعرِّضُهَا لمواطنِ الريبِ، فقَد قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إذَا جاءَكُم مَن ترضَونَ دِينَهُ وخلُقَهُ فزوِّجُوهُ، إلَّا تفعلُوا تكُنْ فتنةٌ فِي الأرضِ وفسَادٌ كبيرٌ**»[1]، فتختارُ لَهَا الرجلَ الَّذِي يتَّقِي اللهَ ويُقيمُ شعائرَهُ، فإنْ أحبَّهَا أكرمَهَا، وإنْ كرِهَهَا لَمْ يُهِنْهَا، ويكونُ متَّصفًا بالأخلاقِ الحسنَةِ والصفاتِ النَّبيلَةِ.

فإنَّ أناسًا -ومعَ الأسفِ الشديدِ- إذَا أرادُوا تزويجَ بناتِهِم يَبدُونَ وكأنَّهُم يحملونَ أثقالًا يريدونَ التخلصَ منْهَا، فيدفعونَ بابنتِهِم لأوَّلِ مَن يطرقُ البابَ دونَ السؤالِ عَنْ دينِهِ وصلاتِهِ وأخلاقِهِ وسلوكِهِ، ثمَّ يتبيَّنُ بعدَ ذلكَ أنَّهُ ليسَ مِنْ أهلِ الصلاحِ، فتحدُثُ الكوارثُ، ولَا تجدُ هيَ إلَىٰ الراحةِ سبيلًا.

أيُّهَا المسلمُ: وإذَا بذَرْتَ البذرةَ الطيبةَ وأحسنْتَ التربيةَ، وقَد بَذَلتَ السببَ وأحسَنتَ الصحبةَ، فكِلْ أمرَكَ بعدَ ذلكَ إلَىٰ اللهِ ربِّ العالمينَ، واعلَمْ أَنَّ تقوَاكَ للهِ سببٌ لحفظِ الأبناءِ والبناتِ فِي حياتِكَ وبعدَ موتِكَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾[2].

وعليكَ بملازمةِ الدعاءِ بأَنْ يحفظَ اللهُ الأبناءَ والزوجَاتِ؛ فإنَّ هذَا أعظمُ سلاحٍ يغفلُ عنْهُ كثيرٌ منَ الناسِ، وقَدْ أثنَىٰ اللهُ تعالَىٰ علَىٰ عبادِهِ المؤمنينَ المتصفينَ بِهِ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الالباني في «إرواء الغليل» (١٨٦٨).

(٢) النساء:٩.

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[١].

نسألُ اللهَ أَنْ يُصلحَ لنَا الذريَّةَ والنيَّةَ وأَنْ يوفِّقَنَا لصالحِ القولِ والعملِ، وأَنْ يجعلنَا هداةً مهتدينَ، غيرَ ضالِّينَ ولَا مُضلِّينَ.

❊❊❊

(١) الفرقان:٧٤.

(٩٧) الطريقُ إلَى محبَّةِ اللهِ

الحمدُ للهِ الَّذِي شرحَ صدورَ المؤمنينَ فانقادُوا لطاعتِهِ، وحبَّبَ إليهِمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ فِي قلوبِهِم؛ فلَمْ يجِدُوا حرجًا فِي الاحتكامِ إِلَىٰ شريعتِهِ، وأشهدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ، وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ والتابعينَ ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَىٰ يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ محبَّةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مطلبٌ أسمَىٰ، وغايةٌ عظمَىٰ، مَن فازَ بِهَا فقَدْ فُتحَتْ لَهُ أبوابُ التوفيقِ، وحصلَتْ لَهُ السعادةُ الأبديةُ، وسبقَ إلَىٰ كلِّ مرغوبٍ، وظفرَ بكلِّ مطلوبٍ.

وقَد جعلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للحصولِ علَىٰ هذهِ المنزلةِ أسبابًا تقودُ إليهَا، وعلاماتٍ تهدِي مَن أرادَ الفوزَ بِهَا، جاءَتْ بِهَا الأدلةُ منَ الوحيينِ، وأرشدَتْ إليهَا جميعَ العالمينَ.

فمِن أهمِّ الأسبابِ الَّتِي تؤدِّي إلَىٰ محبَّةِ اللهِ: اتباعُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتصديقِهِ فيمَا أخبرَ، وطاعتِهِ فيمَا أمرَ، واجتنابِ مَا نهَىٰ عنهُ وزجرَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾[١].

ومنهَا: قوةُ الإيمانِ، فكلَّمَا كانَ الإنسانُ أقوَىٰ إيمانًا كانَ أحبَّ إلَىٰ اللهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُؤمنُ القوِيُّ خيرٌ وأحبُّ إلَىٰ اللهِ منَ المُؤمنِ الضَّعيفِ**»[٢].

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

ومنهَا: أَنْ يُكثرَ المسلمُ منَ النوافِلِ بعدَ أداءِ الفرائضِ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: مَا تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُهُ عليهِ، ومَا يزالُ عبدِي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أُحبَّهُ**»(١).

ومنهَا: أنْ يعبدَ المسلمُ ربَّهُ ويتَّقيه، وأَن يُخلِصَ لهُ العبادةَ، مُؤثِرًا الاختفاءَ وعدمَ الرغبةِ فِي الظهورِ، وفِي ذلكَ يقولُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**»(٢).

ومِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ: أَن يُظهرَ العبدُ نعمةَ اللهِ عليهِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ إذَا أنعمَ علَىٰ عبدٍ نعمةً يُحِبُّ أَن يُرىٰ أثرُ نعمتِهِ علَىٰ عبدِهِ**»(٣).

ومنهَا: أَن يكونَ العبدُ سمحًا فِي البيعِ، والشراءِ، والتقاضِي، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ تعالَىٰ يُحبُّ سمحَ البيعِ، سمحَ الشراءِ، سمحَ القضاءِ**»(٤).

ونفعُ الناسِ بقضاءِ حوائجِهِم والمسابقةُ إلَىٰ ذلكَ مِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحبُّ الناسِ إلَىٰ اللهِ أنفعُهُم**»(٥).

ومنهَا: أَن يكونَ المرءُ عادلًا معَ الخَلقِ فِي قولِهِ وفعلِهِ وحكمِهِ وتصرفاتِهِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٦).

والإحسانُ فِي معاملةِ الخلقِ مِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ**

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).
(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٣٥٠).
(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٨).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦).
(٦) الحجرات: ٩.

محسِنٌ يحِبُّ الإحسَانَ»(١)، قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾(٢).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّ العبدَ العامِلَ الَّذِي يتقِنُ عملَهُ، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُحبُّ اللهُ العاملَ إذَا عَمِلَ أَن يُحسنَ**»(٣).

ومِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ: الزهدُ فِي الدنيَا، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ازهَدْ فِي الدنيَا يحبُّكَ اللهُ**»(٤)، والزهدُ: عدمُ التعلُّقِ بالدنيَا، وإيثارُهَا علَىٰ الآخرةِ، وليسَ معناهُ تركُهَا وعدمُ التسببِ فيهَا، قالَ أهلُ العلمِ: والزهدُ فِي الدنيَا مِن أرفعِ الأعمالِ إذَا كانَ علَىٰ علمٍ وسنَّةٍ.

ومنهَا: أَن يأخذَ العبدُ برخصةِ اللهِ لَهُ، حامدًا للهِ، مثنيًا عليهِ بمَا هوَ أهلُهُ، شاكرًا لأنعمِهِ أَن خفَّفَ عليهِ وأعانَهُ علَىٰ طاعتِهِ، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ تعالَىٰ يحبُّ أَن تُوتَىٰ رخصُهُ كمَا يكرَهُ أَن تؤتَىٰ معصيتُهُ**»(٥).

ومِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ: الحبُّ فِي اللهِ، والتزاورُ والتجالسُ فيهِ سبحانَهُ، قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قالَ اللهُ تعالَىٰ: وجبَتْ محبَّتِي للمتحابِّينَ فيَّ، والمتجالسينَ فِيَّ، والمتزاورِينَ فِيَّ**»(٦)، وقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ رجلًا زارَ أخًا لَهُ فِي قريةٍ أخرَىٰ، فأرصدَ اللهُ لَهُ علَىٰ مدرجتِهِ مَلَكًا، فلمَّا أتَىٰ عليهِ قالَ: أينَ تُريدُ؟ قالَ: أريدُ أخًا لِي فِي هذهِ القريةِ، قالَ: هَلْ لكَ عليهِ مِنْ نعمةٍ تربُّها؟ قالَ: لَا، غيرَ أنِّي أحببتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ: فإنِّي رسولُ اللهِ إليكَ بأنَّ اللهَ قَدْ أحبَّكَ كمَا أحببتَهُ فيهِ**»(٧).

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٢٤).

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٣٧).

(٤) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٢).

(٥) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٦).

(٦) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

(٧) رواه مسلم (٢٥٦٧).

ومحبةُ الأنصارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لِمَا اختصَّهُمُ اللهُ منَ الفضلِ، وسابقتُهُم فِي الإسلامِ مِن أسبابِ محبَّةِ اللهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنصارُ لَا يحبُّهُم إلَّا مؤمنٌ، ولَا يبغضُهُم إلَّا منافقٌ، فمَنْ أحبَّهُم أحبَّهُ اللهُ**»(١).

ومِنَ الأسبابِ الجالبةِ لمحبَّةِ اللهِ: تعاطِي الأعمالِ الَّتِي يُحبُّهَا اللهُ سبحانَهُ، مِن توكُّلِ العبدِ علَىٰ اللهِ سبحانَهُ فِي شؤونِ حياتِهِ، وتقوَىٰ اللهِ بفعلِ الطاعاتِ واجتنابِ المعاصِي ومَا نهَىٰ اللهُ عنْهُ، والتوبةِ إليهِ سبحانَهُ والتطهُّرِ منَ الأقذارِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٢)، وقالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣)، وقالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤).

ومنهَا: أداءُ الصلاةِ فِي وقتِهَا، وبرُّ الوالدَينِ، والجهادُ فِي سبيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي القولِ والفعلِ، فقَد سُئِلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيُّ العملِ أحبُّ إلَىٰ اللهِ؟ قالَ: **الصلاةُ علَىٰ وقتِهَا**، قيلَ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: **برُّ الوالدينِ**، قيلَ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: **الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ**»(٥).

ومنهَا: أَن يكونَ ليِّنًا معَ المؤمنينَ، عزيزًا علَىٰ الكافرينَ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٦).

---

(١) رواه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).
(٢) آل عمران:١٥٩.
(٣) التوبة:٤.
(٤) البقرة:٢٢٢.
(٥) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).
(٦) المائدة:٥٤.

ومنهَا: كثرةُ الذكرِ للهِ ربِّ العالمينَ حتَّىٰ يدركَهُ الأجلُ وهوَ علَىٰ هذَا الحالِ، فقَد سُئِلَ النبيُّ ﷺ: «أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلَىٰ اللهِ؟ قالَ: **أَن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ مِن ذكرِ اللهِ**»(١).

ومنهَا: إدخالُ السُّرورِ علَىٰ المسلمِ، وكشفُ كربتِهِ، وقضاءُ دينِهِ، وإطعامُهُ مِن جوعِهِ، قالَ ﷺ: «**أحبُّ الأعمالِ إلَىٰ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ: **سُرورٌ تُدخلُهُ علَىٰ مسلمٍ، أَو تكشفُ عنْهُ كربةً، أَو تقضِي عنْهُ دينًا، أَوْ تطردُ عنْهُ جوعًا**»(٢).

ومنهَا: المداومةُ علَىٰ العملِ الصالحِ وإِنْ قلَّ، فقَد سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلَىٰ اللهِ؟ قالَ: **أدوَمُهَا وإِنْ قلَّ**»(٣).

ومنهَا: أداءُ الأعمالِ الصالحةِ فِي عشرِ ذِي الحجَّةِ، قالَ ﷺ: «**مَا مِن أيَّامٍ العملُ الصالحُ فيهنَّ أحبُّ إلَىٰ اللهِ مِن هذهِ الأيَّامِ العشرِ**، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ولَا الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ؟ قالَ: **ولَا الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ، إلَّا رجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ فلَمْ يرجعْ مِنْ ذلكَ بشيءٍ**»(٤).

ومِن فضلِ اللهِ تعالَىٰ وكرمِهِ وجُودِهِ أَنَّهُ أكثرَ منَ الأسبابِ الجالبةِ لمحبَّتِهِ سبحانَهُ، وإِنَّمَا هذهِ إشارةٌ إلَىٰ شيءٍ منْهَا، والسعيدُ الموفَّقُ مَن سعَىٰ إلَىٰ معرفةِ الأسبابِ الجالبةِ لمحبَّتِهِ سبحانَهُ، وأَتْبَعَ المعرفةَ بالعمَلِ، فكُتِبَتْ لَهُ السعادَةُ والفلاحُ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

---

(١) رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥).

(٢) رواه أبو الشيخ في «الثواب»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٥٥).

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٥).

(٤) رواه البخاري (٩٦٩).

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ الَّذِي أرسلَ رسولَهُ بالهُدَىٰ ودينِ الحقِّ؛ ليظهرَهُ علَىٰ الدينِ كلِّهِ وكفَىٰ باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ إقرارًا بِهِ وتوحيدًا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ صلَّىٰ اللهُ علَيهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ القلبَ لَا يفلحُ ولَا يصلُحُ، ولَا يتنعَّمُ ولَا يبتهجُ، ولَا يلتذُّ ولَا يطمئنُّ إلَّا بمحبةِ ربِّهِ، فإنَّ فِي القلبِ فقرًا لَا يسدُّهُ إلَّا محبَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والإقبالُ عليهِ والإنابةُ إليهِ، ولَا يجمعُ لَهُ شتاتَهُ إلَّا ذلكَ، فمَنْ لَمْ يظفَرْ بِهِ فحياتُهُ كلُّهَا همومٌ وغمومٌ، وآلامٌ وحسراتٌ، ولَن تقرَّ عينُهُ إلَّا بمحبَّةِ ربِّهِ وخالقِهِ، فإنَّهُ إنْ فعلَ ذلكَ سكَنَتْ نفسُهُ إليهِ، واستأنَسَ بقُربِهِ، وتنعَّمَ بحُبِّهِ، واطمأنَّ قلبُهُ.

فهذِهِ المحبةُ هيَ الَّتِي تدومُ، وتدومُ ثمرتُهَا ونعيمُهَا، فإذَا انقطَعَتْ علائقُ المحبِّينَ ممَّنْ تعلَّقُوا بِهِم، وانقطَعَتْ أسبابُ توادِّهِم وتحابِّهِم لَمْ تنقطِعْ أسبابُهَا، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(١)؛ أَي: المودَّةُ.

ومحبةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أصلُ المحابِّ المحمودةِ، وأصلُ الإيمانِ والتوحيدِ، وكلُّ محبَّةٍ زاحَمَتْ محبَّةَ اللهِ حتَّىٰ تُضعِفَهَا وتُنقِصَهَا فهيَ مذمومةٌ.

ومَنْ أحبَّ اللهَ تعالَىٰ وجَدَ في قلبِهِ لهذهِ المحبَّةِ حلاوةً لَا يمكنُ التعبيرُ عنهَا، ومتَىٰ ذاقَ القلبُ ذلكَ لَمْ يمكنْهُ أَن يقدِّمَ عليهِ حبًّا لغيرِهِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثٌ**

---

(١) البقرة:١٦٦.

مَنْ كُنَّ فيهِ وجدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أَنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لَا يحبُّهُ إلَّا للهِ، وأَن يكرَهَ أَنْ يرجعَ فِي الكفرِ بعدَ إِذْ أنقذَهُ اللهُ منْهُ، كمَا يكرَهُ أَن يُلقَىٰ فِي النارِ»(١).

ومِن أعظَمِ أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ: الإعراضُ عنِ اللهِ تعالَىٰ، وتعلُّقُ القلبِ بغيرِهِ، والغفلةُ عَن ذكرِهِ، ومحبَّةُ سواهُ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا غيرَ اللهِ عُذِّبَ بِهِ، وسُجِنَ قلبُهُ فِي محبَّةِ ذلكَ الغيرِ، فمَا فِي الأرضِ أشقَىٰ منْهُ، ولَا أكسفَ بالًا، ولَا أنكدَ عيشًا، ولَا أتعبَ قلبًا، فمحبَّةُ اللهِ هيَ جنَّةُ الدنيَا، وسرورُ النفسِ، ولذَّةُ القلبِ، ونعيمُ الروحِ وغذاؤُهَا.

هذَا وإنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ حقًّا فسيحبُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: «**مَن أتانِي يمشِي أتيتُهُ هرولةً، ومَن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ منْهُ ذراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ منْهُ باعًا**»(٢)، فإذَا كانَت محبَّةُ العبدِ للهِ صادقةً، فإنَّ محبَّةَ اللهِ لَهُ مضمونةٌ.

وقَدْ جاءَتِ الأدلَّةُ الشرعيَّةُ مبيِّنَةً لجملةٍ مِن آثارِ محبَّةِ اللهِ لعبدِهِ، فمَن وُفِّقَ إلَىٰ ذلكَ، فإنَّهُ مِن فضلِ اللهِ عليهِ، وعظيمِ جودِهِ الواصلِ إليهِ.

فمِن ذلكَ: أَنَّ مَن أحبَّهُ اللهُ كتبَ لَهُ النجاةَ منَ العذابِ، فقَدْ مرَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأناسٍ مِن أصحابِهِ، وصبيٌّ علَىٰ ظهرِ الطريقِ، فلمَّا رَأَتْ أُمُّ الصبيِّ القومَ خشِيَتْ أَن يوطأَ ابنُها، فسَعَتْ وحملَتْهُ، وقالَتْ: ابنِي ابنِي، فقالَ القومُ: يَا رسولَ اللهِ، مَا كانَتْ هذِهِ لتلقِي ابنَهَا فِي النارِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا، ولَا يُلقِي اللهُ حبيبَهُ فِي النارِ**»(٣).

ومنهَا: أنَّ مَن أحبَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أحبَّهُ أهلُ السماءِ، ووُضِعَ لَهُ القبولُ فِي الأرضِ،

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٩٥).

قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذَا أحبَّ عبدًا نادَىٰ جبريلَ: إنَّ اللهَ قَدْ أحبَّ فلانًا فأحِبَّهُ، فيُحبُّهُ جبريلُ، ثمَّ ينادِي جبريلُ فِي السماءِ: إنَّ اللهَ قَدْ أحبَّ فلانًا فأحبُّوهُ، فيُحبُّهُ أهلُ السماءِ، ويوضعُ لَهُ القَبولُ فِي الأرضِ**»(١).

ومنهَا: أَن يكونَ فِي الآخرةِ معَ مَنْ أحبَّ، فقَدْ دخلَ أعرابيٌّ علَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهوَ يخطبُ، فقالَ: «متَىٰ الساعةُ؟ فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **مَا أعددْتَ لَهَا؟** قالَ: حُبُّ اللهِ ورسولِهِ، قالَ: **أنتَ مَعَ مَنْ أحبَبْتَ**»(٢).

ومنهَا: أَنْ يستجيبَ اللهُ تعالَىٰ دعاءَ مَن أحبَّهُ، ويوفِّقَهُ لصالحِ الأقوالِ والأعمالِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ تعالَىٰ يقولُ: مَن عادىٰ لِي وليًّا فقَد آذنتُهُ بالحربِ، ومَا تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليهِ، ومَا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أُحبَّهُ، فإذَا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الَّذِي يسمعُ بِهِ، وبصرَهُ الَّذِي يُبصرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يبطشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يمشِي بِهَا، وإنْ سألَنِي لأُعطينَّهُ، ولَئِن استعاذَنِي لأُعيذنَّهُ**»(٣).

ومنهَا: أَنْ يحفظَهُ اللهُ مِن فتنِ الدنيَا، ويحولَ بينَهُ وبينَهَا، ويحميَهِ منْهَا حتَّىٰ لَا يمرضَ قلبُهُ بِهَا، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذَا أحبَّ اللهُ عبدًا حماهُ الدنيَا، كمَا يظَلُّ أحدُكُمْ يحمِي سقيمَهُ الماءَ**»(٤).

نسألُ اللهَ تعالَىٰ أَنْ يرزُقَنَا حبَّهُ، وحبَّ مَنْ يحبُّهُ، وحبَّ عملٍ يقرِّبُنَا إلَىٰ حبِّهِ.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٤) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٨٠).

(٩٨) الْمَوَاطِنُ الفَاضِلَةُ للدُّعَاءِ

الحمدُ للهِ وليِّ مَنِ اتَّقاهُ، مَنِ اعتمدَ عليهِ كفاهُ، ومَن لاذَ بِهِ وقاهُ، أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكرُهُ، وأشهدُ أَن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ ومصطفاهُ، صلَّىٰ اللهُ وبَارَكَ عليهِ، وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ، ومَن دعَا بدعوتِهِ واهتدَىٰ بهُدَاهُ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لحكمتِهِ البالغَةِ فضَّلَ بَعضَ الأماكنِ والبقاعِ علَىٰ بعضٍ، وخصَّ بعضَ الأزمانِ علَىٰ غيرِهَا بالتفضيلِ، فجعَلَ مكَّةَ أفضلَ بقاعِ الأرضِ، وفضَّلَ شهرَ رمضانَ علَىٰ سائرِ شهورِ السنَّةِ، وأيامَ عشرِ ذِي الحجَّةِ علَىٰ سائرِ الأيامِ، وصلاةَ الفجرِ يومَ الجمعةِ علَىٰ سَائرِ صلواتِ الأسبوعِ، وبهذَا ثبتَتِ الأدِلةُ الشرعيةُ، الواردةُ فِي السنَّةِ النبويَّةِ.

وممَّا خصَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ **بمزيدٍ مِنَ الفضلِ والتميُّزِ:** الدعاءَ فِي أوقاتٍ معيَّنَةٍ، وصفاتٍ محدَّدَةٍ، وأماكنَ معلومةٍ، ينبغِي للمسلمِ أَن يتحرَّاهَا، رجاءَ استجابةِ الدعاءِ، وطلبًا للاتباعِ، ورغبةً فِي الانتفَاعِ.

ومِن ذلكَ: الدعاءُ فِي جوفِ الليلِ وهوَ وقتُ السحرِ، حيثُ ينزلُ اللهُ تعالَىٰ إلَىٰ السماءِ الدنيَا فِي ثلثِ الليلِ الآخرِ فيقولُ: «**مَن يدعوني فأستجيبَ لَهُ؟، مَن يسألُنِي فأعطيَهُ؟، مَن يستغفرُنِي فأغفرَ لَهُ؟**»[١].

وفِي الحَديثِ: «**إنَّ فِي الليلِ ساعةً لَا يوافقُهَا مسلمٌ يسألُ خيرًا مِن أمرِ الدنيَا**

(١) رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

والآخرةِ إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ، وذلكَ كلَّ ليلَةٍ»[١]، والأحرَىٰ أَن تكونَ هذهِ الساعةُ فِي جوفِ الليلِ وآخرِ الليلِ، فينبَغِي الحرصُ علَىٰ الدعوةِ الطيبةِ الجامعةِ فِي وسطِ الليلِ وفِي آخرِ الليلِ، لكنَّ الثلثَ الأخيرَ وجوفَ الليلِ أحرَىٰ بالإجابةِ.

ومِن مواطنِ الدعاءِ: الدعاءُ دبرَ الصلواتِ المكتوباتِ، فقَدْ سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ الدعاءِ أسمعُ؟ قالَ: «**جَوفَ الليلِ الآخرِ، ودُبرَ الصَّلواتِ المَكتُوباتِ**»[٢]، ودبرُ الصلاةِ؛ أَي: آخِرَ الصلاةِ قبلَ السلامِ.

ومنهَا: الدعاءُ عندَ النداءِ للصلواتِ المكتوبةِ، وعندَ نزولِ المطرِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثِنتانِ مَا تردانِ: الدعاءُ عندَ النداءِ وتحتَ المطرِ**»[٣].

والدعاءُ بينَ الأذانِ والإقامةِ مستجابٌ، فقَدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُردُّ الدعاءُ بينَ الأذانِ والإقامةِ**»[٤].

و«**فِي يومِ الجمعةِ ساعةٌ لَا يوافِقُهَا عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يُصَلِّي يسأَلُ اللهَ تعالَىٰ شيئًا إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ**»[٥]، كمَا صحَّ بذلكَ الحديثُ عَن رسولِ الهُدَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنَ الأوقاتِ الفاضِلَةِ للدعاءِ: الدعاءُ فِي السجودِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقربُ مَا يكونُ العبدُ مِن ربِّهِ وهوَ ساجدٌ فأكثرُوا الدعاءَ**»[٦]، وقالَ: «**ألَا إنِّي نُهيتُ أَن أَقرَأَ القرآنَ راكعًا أَو ساجدًا، فأمَّا الركوعُ فعظِّمُوا فيهِ الربَّ، وأمَّا السجودُ فاجتهدُوا فِي**

(١) رواه مسلم (٧٥٧).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٤٨).

(٣) رواه الحاكم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٧٨).

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٤٤).

(٥) رواه البخاري (٦٤٠٠)، ومسلم (٨٥٢).

(٦) رواه مسلم (٤٨٢).

الدعاءِ، فقَمِنٌ أَن يُستجَابَ لكُمْ»(١).

ومنهَا: الدعاءُ عندَ سماعِ صياحِ الديكةِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا سَمِعتُم صياحَ الديكةِ فاسألُوا اللهَ مِن فضلِهِ؛ فإنَّهَا رأَتْ ملَكًا**»(٢).

ومنهَا: الدعاءُ عندَ شربِ ماءِ زمزمَ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماءُ زَمزمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»(٣).

ومِن مواطِنِ الاستجابةِ: دعاءُ الوالدِ لولدِهِ، ودعاءُ الصائمِ فِي يومِ صيامِهِ، ودعوَةُ المسافرِ، فقَدْ جاءَ عَن نبيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «**ثلاثُ دعواتٍ لَا تُرَدُّ: دعوةُ الوالدِ لولدِهِ، ودعوةُ الصائمِ، ودعوةُ المسافرِ**»(٤).

ومنهَا: دعاءُ الولدِ الصَّالحِ لوالديهِ، فقَد صَحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**إذَا ماتَ الإنسَانُ انقَطعَ عملُهُ إلَّا مِن ثلاثٍ: صدقةٌ جاريةٌ، أَو ولدٌ صالحٌ يدعُو لَهُ، أَو عِلمٌ يُنتَفَعُ بِهِ**»(٥).

ومنْهَا: دعوةُ المَظلومِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ فإنَّهُ ليسَ بينَهَا وبينَ اللهِ حجابٌ**»(٦).

ومنهَا: الدعاءُ بعدَ زَوالِ الشمسِ قبلَ الظهرِ، فقَدْ كانَ رسولُ اللهِ يصلِّي أربعًا بعدَ أَن تزولَ الشمسُ قبلَ الظهرِ ويقولُ: «**إنَّهَا ساعةٌ تُفتحُ فيهَا أبوابُ السماءِ، وأُحِبُّ أَن**

---

(١) رواه مسلم (٤٧٩).
(٢) رواه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩).
(٣) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٠٢).
(٤) رواه الضياء في «الأحاديث المختارة»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٣٢).
(٥) رواه مسلم (١٦٣١).
(٦) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

يصعدَ لِي فيهَا عملٌ صالحٌ»(١).

ومِن مواطِنِ الاستجابةِ: الدعاءُ عندَ الاستيقاظِ منَ الليلِ، فقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن تعارَّ منَ الليلِ** -أَي: استيقظَ- **فقَالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ لَهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ للهِ وسبحانَ اللهِ ولَا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ ولَا حولَ ولَا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ، ثمَّ قالَ: اللهمَّ اغفِرْ لِي أَو دعَا استُجِيبَ لَهُ، فإِنْ توضَّأَ وصلَّىٰ قُبِلَتْ صلاتُهُ**»(٢).

ومنهَا: الدعاءُ فِي ليلةِ القدرِ، فقَدْ جاءَ فِي الحديثِ أنَّ عائشةَ سألَتِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أرأيتَ إِن علمتُ ليلةَ القدرِ، مَا أقولُ فيهَا؟ فقالَ: **قولِي: اللهمَّ إنَّكَ عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي**»(٣).

ومِن مواطنِ الدعَاءِ الفاضلةِ: دعاءُ الحاجِّ فِي عرفةَ يومَ عرفةَ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**خيرُ الدعاءِ يومُ عرفةٍ، وخيرُ مَا قلتُ أنَا والنبيُّونَ مِن قبلِي: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ، ولهُ الحمدُ، وهوَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ**»(٤).

ومنهَا: دُعاءُ مَن وقعَتْ عليهِ مصيبةٌ، فقالَ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، اللهمَّ أجرْنِي فِي مصيبتِي واخلُفْ لِي خيرًا منهَا، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِن مسلمٍ تصيبُهُ مصيبةٌ فيقولُ مَا أمرَهُ اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، اللهمَّ أجرْنِي فِي مصيبتِي واخلُفْ لِي خيرًا منهَا؛ إلَّا أخلفَ اللهُ لَهُ خيرًا منْهَا**»(٥).

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١١٦٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٤).

(٣) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٠٩١).

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٥٩٨).

(٥) رواه مسلم (٩١٨).

ومِنْ ذلكَ: أَن يقولَ عندَ الدعاءِ: لَا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظالمينَ، فقَدْ صحَّ عنْهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**دعوةُ ذِي النونِ إِذ دَعَا بِهَا وهوَ فِي بطنِ الحَوتِ: لَا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ منَ الظالمينَ، لَم يَدعُ بِهَا رجلٌ مسلمٌ فِي شيءٍ قطُّ إلَّا استجابَ اللهُ لَهُ**»(١).

قالَ تعالَىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢)، قالَ أهلُ التَّفسيرِ: فِي هذهِ الآيةِ شَرَطَ اللهُ لِمَن دعاهُ أَن يجيبَهُ كمَا أجابَهُ، وينجيهِ كمَا نجَّاهُ.

نسألُ اللهَ تعَالَىٰ أَن يجعلَنَا منَ العَابدِينَ المُخبتِينَ، الذاكرينَ الشاكرينَ، إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ.

باركَ اللهُ لِي ولكُم فِي القرآنِ العظيمِ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للهِ علَىٰ إحسانِهِ، والشكرُ لَهُ علَىٰ توفيقِهِ وامتنانِهِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ تعظيمًا لشأنِهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ الداعِي إلَىٰ رضوانِهِ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وإخوانِهِ.

أمَّا بعدُ:

فينبغِي للمؤمنِ والمؤمنةِ تحرِّي أوقاتِ الدعَاءِ الفاضلةِ، وأَن يحرصَ فيهَا علَىٰ

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٣).

(٢) الأنبياء: ٨٧-٨٨.

الدعاءِ الطيبِ المباركِ، وأن يسألَ اللهَ تعالَىٰ بأسمائِهِ الحُسنَىٰ وصفاتِهِ العلَا أن يُجيبَ دعاءَهُ، معَ الإلحَاحِ وتكرارِ الدعاءِ، وحسنِ الظنِّ باللهِ وعدمِ اليأسِ حينَ لَا يرَىٰ أثرَ دعائِهِ، وعليهِ أن يعلمَ أنَّ اللهَ تعالَىٰ حكيمٌ عليمٌ، قَد يعجِّل الإجابةَ لحكمةٍ وقَد يؤخِّرُهَا لحكمةٍ، وقَد يعطِي السائلَ خيرًا مِمَّا سأَل، كمَا ثبتَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**مَا مِن مسلم يدعُو اللهَ بدعوةٍ ليسَ فيهَا إثمٌ ولَا قطيعةُ رحمٍ إلَّا أعطاهُ اللهُ بهَا إحدَىٰ ثلاثٍ: إمَّا أن تُعجَّلَ لَهُ دعوتُهُ فِي الدنيَا، وإمَّا أن يدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخرةِ، وإمَّا أن يصرفَ عنْهُ منَ السوءِ مثلَهَا**، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، إذًا نُكثرُ؟ قالَ: **اللهُ أكثرُ**»[1]، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُستجابُ لأحدِكُم مَا لَم يدعُ بإثمٍ أَو قطيعةِ رحمٍ، أَو يعْجَلْ؛ يقولُ: دعوتُ فلَمْ يُستَجَبْ لِي، فيدعُ الدعاءَ**»[2].

وعليهِ أَن يرجوَ فضلَ ربِّهِ ورحمتِهِ باستجابةِ دعائِهِ، فقَدْ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ادعُوا اللهَ وأنتُم موقنونَ بالإجابةِ واعلَمُوا أنَّ اللهَ لَا يستجيبُ دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»[3].

كمَا يجبُ علَىٰ المسلمِ أَن يتجنَّبَ موانعَ الإجابةِ، كالدعاءِ بالإثمِ وقطيعةِ الرحمِ، وتعاطِي الكسبِ الحرامِ؛ لأنَّهَا مِن أسبابِ حرمانِ الإجابةِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ طيِّبٌ لَا يقبلُ إلَّا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بمَا أمرَ بِهِ المرسلينَ، فقالَ تعالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[4]، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[5]، **ثمَّ ذكرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجلَ، يطيلُ السفرَ، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يدَيهِ إلَىٰ السماءِ: يَا ربِّ يَا ربِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ**

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٣٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥١٠).

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).

(٤) المؤمنون:٥١.

(٥) البقرة:١٧٢.

حرامٌ، وغُذِّيَ بالحَرَامِ، فأَنَّىٰ يُستجابُ لذلكَ؟»[١].

نسأَلُ اللهَ تعالَىٰ أَن يُوَفِّقَنَا لطاعتِهِ، وأَن يسلُكَ بِنَا سبيلَ مرضاتِهِ، وأَن يجعلَنَا هداةً مهتَدِينَ، غيرَ ضالِّينَ ولَا مُضِلِّينَ.

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٩٩) خطبةٌ جامعةٌ ليومِ العيدِ (١)

الحمدُ للهِ الَّذِي سهَّلَ للعبَادِ طريقَ العبادةِ ويسَّرَ، وأفاضَ عليهِم مِن خزائنِ جُودِهِ الَّتِي لَا تُحصَرُ، وجعلَ لَهُم عيدًا يعودُ فِي كلِّ عامٍ ويتكرَّرُ، ونقَّاهُم بِهِ مِن درنِ الذنوبِ وطهَّرَ، أحمدُهُ سبحانَهُ علَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحصرُ، وأشكرُهُ وهوَ المستحِقُّ لأَنْ يُحمدَ ويُشكرَ.

وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ، خلقَ فقدَّرَ، ودبَّرَ فيسَّرَ، وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ صاحبُ اللِّواءِ والكوثرِ، الَّذِي نُصِرَ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ، وغُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِهِ ومَا تأخَّرَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصحبِهِ مَا لَاحَ هلالٌ وأنورَ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، أيُّهَا المسلمونَ:

فاتَّقُوا اللهَ حقَّ التقوَىٰ، وتمسَّكُوا منَ الإسلامِ بالعروةِ الوثقَىٰ، فهيَ وصيةُ اللهِ تعالَىٰ للأولينَ والآخرينَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾(٢).

وعلَىٰ المسلمِ مَا دامَ فِي دارِ الإمهَالِ أَنْ يتزوَّدَ منَ الأعمالِ الصالحةِ، فهَاهِيَ الأيَّامُ تُطوَىٰ، والمرءُ يقطعُ المرحلَةَ تِلوَ المرحلةِ، ليصلَ إلَىٰ منتهَىٰ أجلِهِ وانقطاعِ أملِهِ.

---

(١) كتبتُها خطبةً واحدة، أخْذًا بما اختاره فريقٌ من أهل العلم بأنَّ خطبة العيد واحدة، وليست خطبتين بالقياس علىٰ خُطبَة صَلاة الجُمعَة.

(٢) سورة النساء: ١٣١.

والعاقلُ الفَطِنُ هوَ الَّذِي لَا يغترُّ بعَيشٍ، ولَا يفرحُ ببقاءٍ، لعلمِهِ أنَّهُ فِي دارِ امتحانٍ واختبارٍ، يوشِكُ أَن يتحوَّلَ عنهَا، فيُلاقِي مَا قدَّمَ مِن عملِهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الدنيَا حُلوةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكُم فيهَا فينظرُ كيفَ تعملونَ، فاتَّقُوا الدنيَا واتَّقُوا النساءَ، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بنِي إسرائيلَ كانَت فِي النساءِ**»(١).

فعلَىٰ المرءِ أَن يلزمَ العملَ الصالحَ مَا استطاعَ، ويستعدَّ بأعظمِ عدَّةٍ، ويتزوَّدَ بأبلغِ حُجَّةٍ.

عبادَ اللهِ:

عليكُم بالتمسُّكِ برأسِ الأمرِ وعمادِهِ، والَّذِي لَا يصحُّ عملُ المرءِ إلَّا بهِ، وهوَ توحيدُ اللهِ وإفرادُهُ بالعبادةِ، فإنَّهُ مَا خُلِقتِ الخليقةُ، وأُرسلَتِ الرسلُ، وسُلَّ السيفُ، وقامَ سوقُ الجنَّةِ والنارِ، إلَّا مِن أجلِ تحقيقِ هذهِ الغايةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٣)، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ لَا يسمعُ بِي يهودِيٌّ ولَا نصرانيٌّ ثمَّ لَا يؤمنُ بالذِي جئتُ بهِ إلَّا كانَ مِن أصحابِ النارِ**»(٤).

وعليكُم بالحذرِ منَ الشركِ وأسبابِهِ، فإنَّهُ بابٌ خطيرٌ، وقائدٌ إلَىٰ غضبِ اللهِ وأليمِ عقابِهِ، وسببٌ إلَىٰ الخلودِ فِي نارِ جهنَّمَ، فلَا يصحُّ معهُ عملٌ، ولَا تنفعُ معهُ طاعةٌ، قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).
(٢) سورة الذاريات:٥٦.
(٣) سورة النحل:٣٦.
(٤) رواه مسلم (١٥٣).

أَنصَارٍ ﴾[١]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[٢].

فالواجبُ علَىٰ العبدِ أَن يوحِّدَ اللهَ فِي عبادَتِهِ، ولَا يصرفُ شيئًا مِن ذلكَ لغيرِ اللهِ، فلَا ينذرُ ولَا يذبحُ ولَا يرغبُ ولَا يرهبُ ولَا يدعُو إلَّا اللهَ تعالَىٰ.

وعليهِ أَن يحذرَ منَ الذهابِ إِلَىٰ الكهنةِ والعرَّافينَ أَو أَنْ يتعاطَىٰ السحرَ، أَو يعلِّقَ الحروزَ والتمائمَ والجوامعَ، فإِنَّهُ إنْ فعلَ ذلكَ فقَد أشركَ باللهِ تعالَىٰ، وعادَ أمرُهُ إِلَىٰ خسرانٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٣].

عبادَ اللهِ:

عليكُم بتعظيمِ سنَّةِ المصطفَىٰ فِي قلوبِكُم، حتَّىٰ وإِنْ قَصَّرتُم بالاتباعِ فِي ظاهِرِكُم، واعلَمُوا أَنَّ كلَّ طريقٍ إِلَىٰ اللهِ مسدودٌ إلَّا طريقَ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا إنِّي أوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ معَهُ**»[٤].

فإِيَّاكُم وردَّ سنَّةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بلَغَتْكُم، وَلَا تُقدِّمُوا عليهَا رأيًا ولَا عقلًا ولَا قولَ أحدٍ كائنًا مَن كانَ، واعلَمُوا أَنَّكُم ستُسألونَ فِي قبورِكُم عَن هذَا النبيِّ المباركِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاحذَرُوا مِن مخالفةِ أمرِهِ، فإِنَّ ذلكَ مِن أسبابِ الرَّدَىٰ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٥].

واعلمُوا أَنَّ هذَا الدينَ العظيمَ إِنَّمَا يقومُ علَىٰ أمرينِ: إفرادِ اللهِ تعالَىٰ بالعبادةِ،

---

(١) سورة المائدة:٧٢.

(٢) سورة النساء:٤٨.

(٣) سورة الزمر:٦٥.

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٣).

(٥) سورة النور:٦٣.

وإفرادِ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالمتابعةِ.

حافظُوا علَىٰ الصلواتِ المكتوباتِ، فإنَّهُ لَا حَظَّ فِي الإسلامِ لِمَنْ تركَ الصلاةَ، ومَنْ تركَهَا فهوَ مُتَوعَّدٌ بالعذابِ الأليمِ والخسرانِ المبينِ، قالَ تعالَىٰ عَن أهلِ النارِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[1]، وقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ بينَ الرجلِ وبينَ الكفرِ والشِّركِ تَركَ الصلاةِ**»[2].

وحافظُوا علَىٰ أوقاتِهَا الَّتِي جاءَتْ مبيَّنةً فِي الأدلَّةِ الشرعيةِ، فإنَّ للصلاةِ وقتًا محددًا، إذَا تقدَّمَتْ عليهِ لَم تُقبَلْ، وإذَا تأخَّرَتْ عنهُ لَم تُقبَلْ.

واعلمُوا أنَّ أوَّلَ مَا يُسأَلُ عنهُ العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُهُ، فإنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سائرُ عملِهِ، وإن فسدَتْ فسدَ سائرُ عملِهِ.

والصلاةُ مِن أسبابِ تكفيرِ الذنوبِ، قالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الصلواتُ الخمسُ مكفراتٌ لمَا بينهنَّ إذَا اجتُنِبَتِ الكبائرُ**»[3].

فنحمدُ اللهَ علَىٰ فضلِهِ إذْ فتحَ لنَا أبوابَ الخيرِ لنتزوَّدَ منَ الأجورِ.

أدُّوا زكاةَ أموالِكُم، فإنَّ الزكاةَ ركنٌ مِن أركانِ الإسلامِ، وقَد قُرِنَتْ بالصلاةِ فِي كتابِ اللهِ فِي سبعينَ موضعًا، وهيَ نماءٌ للمالِ وبركةٌ وتطهيرٌ، قالَ تعالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[4].

فمَن كانَ لدَيهِ مالٌ أَو تجارةٌ أَو ماشيةٌ سائمةٌ فليؤدِّ زكاتَهَا، ولْيَحْذَرْ مِن منعِ الزكاةِ، فقَد قالَ تعالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ

(١) سورة المدثر: ٤٢-٤٣.

(٢) رواه مسلم (٨٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

(٤) سورة التوبة: ١٠٣.

ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(١).

وعلَىٰ المستطيعِ أَن يبادرَ بالحجِّ إلَىٰ بيتِ اللهِ الحرامِ، فإنَّهُ فرضٌ واجبٌ، وركنٌ مِن أركانِ الإسلامِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

فمَن توفَّرَتْ لدَيهِ القُدرةُ الجسديَّةُ والماليَّةُ، فلَا يجوزُ لَهُ أَن يؤخِّرَ الحجَّ، وعليهِ أَن يبادرَ بقضاءِ فرضِهِ، فإنَّهُ لَا يدرِي مَا سيعرضُ لَهُ.

عليكُم بالكَسبِ الطيِّبِ الحلالِ، واحذرُوا منَ المالِ الحرامِ، فإنَّهُ قائدٌ لكلِّ شرٍّ، وسببٌ إلَىٰ زوالِ النعمِ، سواءٌ كانَ عَن طريقِ تجارةٍ محرَّمَةٍ أَو معاملاتٍ ربويَّةٍ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّمَا جسَدٍ نَبتَ مِن سُحتٍ فالنارُ أولَىٰ بِهِ**»(٣)، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعنَ اللهُ آكلَ الربَا وموكِلَهُ وكاتبَهُ وشاهدَيهِ، وقالَ: هُم سواءٌ**»(٤).

فلَا يأخُذِ المرءَ الطمعُ، فإنَّمَا المسألةُ فِي البركةِ، فمَن باركَ اللهُ فيمَا عندَهُ نمَا وتكاثرَ وإِن كانَ قليلًا، ومَن مُحِقَتْ بركةُ مَا عندَهُ قلَّ نفعُهُ، وحلَّت بصاحبِهِ النكباتُ، والمصائبُ والآفاتُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(٥).

وإنَّمَا المفلسُ حقيقةً مَن باعَ آجلًا لَا يفنَىٰ فِي جناتِ الخلدِ، ببخسٍ معجلٍ لعلَّهُ يموتُ قبلَ أَن ينتفعَ بِهِ.

---

(١) سورة التوبة: ٣٤-٣٥.

(٢) سورة آل عمران: ٩٧.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤٥١٩).

(٤) رواه مسلم (١٥٩٧).

(٥) سورة البقرة: ٢٧٦.

عليكُم ببرِّ الوالدَينِ فإنَّهُ بابٌ إلَىٰ جنَّاتِ النعيمِ، ولَا يقدرُ عليهِ إلَّا عظماءُ النفوسِ كبارُ الهِممِ، قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنةِ**»(١)، وقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنِ الوالدةِ: «**الْزَمْ رجلَهَا فثمَّ الجنَّةُ**»(٢).

ولَا يكُنْ مفهومُنَا للبرِّ مقصورًا علَىٰ توفيرِ الطعامِ والشرابِ، إنَّمَا هوَ فِي المؤانسةِ والملاطفةِ، والمصاحبةِ بالمعروفِ، فإنَّ بعضَ الناسِ يتعاملُ معَ والدَيهِ إذَا كانُوا عندَهُ وكأنَّهُم ضيوفٌ ثقلاءُ، لَا يُتكَلَّمُ معهُم ولَا يؤانسُهُم، بَل وتجدُهُ ينتظرُ ساعةَ فراقِهم وكأنَّهُم حمِلٌ ثَقيلٌ، فإذَا جاءَتْهُ زوجتُهُ أَو أبناؤُهُ علَتْهُ ابتسامةٌ، وتفتَّحَتْ أساريرُ وجهِهِ.

إنَّ منتهَىٰ اللؤمِ أَنْ يتنكَّرَ المرءُ لوالدَيْهِ حينَ تضعُفُ قواهُم، ويحتاجونَ إلَىٰ إشباعِ عواطِفِهِم، فلَا يجدونَ ذلكَ، فيعيشونَ فِي بيتِ الابنِ وكأنَّهُم مساجينُ، لَا يُشاوَرُونَ ولَا يُؤتَمرُونَ، أيَّامُهُم متشابهةٌ، وأوقاتُهُم قاتِلَةٌ، يتمنَّونَ الموتَ ولَا يجدُونَهُ.

فالحذرَ الحذرَ منَ العقوقِ، قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بابانِ معجَّلَانِ عقوبتُهُمَا فِي الدنيَا: البَغيُ والعُقوقُ**»(٣).

لقَدْ كنتَ صغيرًا فآوُوكَ، فلمَّا احتاجُوكَ وقَدْ خارَتِ القُوَىٰ فلَا تكُن خائنًا للمعروفِ، فلَا ترفَعْ عليهِم صوتًا، ولَا تتملْمَلْ، ولَا تتأفَّفْ، فقَدْ تحمَّلُوا عنْكَ فِي صغَرِكَ مَا لَا طاقةَ لأحدٍ بِهِ.

وَأُمُّـكَ كَـمْ بَاتَـت بـثُقْلِكَ تَـشتَكِي ... تَواصُـلُ مِمَّـا شَـقَّهَا الـبؤسَ والغمَّـا
وَفِي الوَضعِ كَم عَانَت وَحِينَ فِطَامِهَا ... مُذِيبًا يَشُقُّ الجِلدَ واللَّحمَ والعَظمَـا

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩١٤).
(٢) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤٨٤).
(٣) رواه الحاكم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٢٠).

وَكَمْ سَهِرَتْ وَجدًا عَلَيكَ جُفُونُهَا   وَأَكبَادُهَا لَهفًا بِجَمرِ الأَسَىٰ تَحمَىٰ
وَكَم غَسَّلَت عَنكَ الأذَىٰ بِيَمِينِهَا   حُنُوًّا وَإِشفَاقًا وَأَكثَرَتِ الضَّمَّا
فَضَيَّعتَهَا لَمَّا أَسَنَّتْ جَهَالَةً   وَضِقتَ بِهَا ذَرعًا وَذَوَّقتَهَا سُمَّا
وَنِمتَ قَرِيرَ العَينِ رَيَّانَ نَاعِمًا   مُكِبًّا عَلَىٰ اللَّذَّاتِ لَا تَسمَعُ اللَّومَا
وَأُمُّكَ فِي جُوعٍ شَدِيدٍ وَغُربَةٍ   تَلِينُ لَهَا مِمَّا بِهَا الصَّخرَةُ الصَّمَّا
أَهَذَا جَزَاهَا بَعدَ طُولِ عَنَائِهَا   لَأَنتَ لَذُو جَهلٍ وَأَنتَ إِذَن أَعمَىٰ

احتسبُوا الأجرَ فِي برِّكُم بوالدِيكُم، ولَا يكُنِ الدافعُ لَكُم مخافةَ العيبِ، فإنَّ بعضَ الناسِ لولَا العيبُ لأخرجَ والدَيهِ مِن بيتِهِ، فلمَّا لَمْ يفعَلْ، عامَلَهُم معامَلَةَ السَّجَّانِ الظالمِ، يدخلُ عليهِم صامتًا مغضبًا، ويخرجُ متأفِّفًا، قَد نسيَ مَا فعلُوهُ لَهُ فِي سالفِ أيَّامِهِ.

غَذَوتُكَ مَولُودًا وعِلْتُكَ يَافِعًا   تَعَلُّ بِمَا أَجنِي عَلَيكَ وَتَنهَلُ
إِذَا لَيلَةٌ ضَامَتكَ بِالسَّقَمِ لَمْ أَبِتْ   لِسُقمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتمَلْمَلُ
كَأَنِّي أَنَا المَطرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي   طُرِقتَ بِهِ دُونِي فَعَينِيَ تُهمِلُ
تَخَافُ الرَّدَىٰ نَفسِي عَلَيكَ وَإِنَّهَا   لَتَعلَمُ أَنَّ المَوتَ وَقتٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغتَ السِّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي   إِلَيهَا مَدَىٰ مَا كُنتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلتَ جَزَائِي غِلظَةً وَفَظَاظَةً   كَأَنَّكَ أَنتَ المُنعِمُ المُتَفَضِّلُ
فَلَيتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي   فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُصَاحِبُ يَفعَلُ
فَأَولَيتَنِي حَقَّ الجِوَارِ وَلَمْ تَكُنْ   عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبخَلُ

اتَّقُوا اللهَ فِي أولادِكُم، عاملُوهُم بالحسنَىٰ، برُّوهُم وقتَ حاجَتِهِم إِلَيكُم، حتَّىٰ

يَبرُّوكُم وقتَ حاجَتِكُم إلَيهِم.

تودَّدُوا إلَيهِم بالكلامِ اللَّيِّنِ اللطيفِ، ابتَعِدُوا عنِ الإهاناتِ وإلغاءِ الآدميَّةِ، أعطُوهُم فرصةً لِتحقيقِ ذاتِهِم حتَّىٰ تَستَطِيعُوا أَن تعتمِدُوا علَيهِم، وعلَيكُم بإشباعِهِم عاطفيًّا لَاسيَّمَا البناتُ.

لَا تكُنِ المرأةُ خراجةً ولَّاجةً، والوالدُ غارقًا فِي ملذَّاتِهِ، فيفتقدُهُم أبناؤُهُم، وإذَا بحثُوا عنْهُم لَمْ يجدُوهُم، فيفتحُ لَهُم أصحابُ السوءِ أكفَّ الخديعةِ فيحتضنُونَهُم علَىٰ فُرُشِ الضَّياعِ.

قوِّموهُم علَىٰ الصلاحِ، واعلَمُوا أنَّ عامَّةَ فسادِ الأبناءِ إنَّمَا يكونُ مِن قِبَلِ الآباءِ، ومَن أهملَ تربيةَ ابنِهِ صغيرًا لَمْ ينتَفِعْ بِهِ كَبِيرًا.

كونُوا وسطًا فِي التربيةِ، حزمٌ برحمةٍ، وعطاءٌ باعتدالٍ، فليسَ الإحسانُ بالترفِ حتَّىٰ يتشبَّهَ الولدُ بالأنثَىٰ، وتصيرَ البنتُ مسترجلةً.

واعلَمْ أنَّ هذَا الابنَ إنَّمَا هوَ انعكاسُ شخصِكَ، فكيفَ تريدُ أَن تكونَ أنتَ؟!

إنَّ فِــي عَينَــيكَ تَــبْدُو صُــورَتِي ... يَــا صَــغِيرِي فَــأَرَىٰ فِــيكَ أنَــا

وَأَرَىٰ فِــيكَ حَيَاتِــي كُلَّهَــا ... مِــنْ تَــبَارِيحَ وَ شَــجوٍ ومُنَــىٰ

وَأَرَىٰ دُنْــيايَ فِــيكَ ابْــتَدَأَت ... مِــنْ جَدِيــدٍ بِاخْــضِرَارٍ وَسَــنَا

فَــإِذا وَلَّــىٰ زَمَانِــي وَانطَــوَىٰ ... بِــكَ إِنِّــي قَــدْ مَــدَدْتُ الــزَّمَنَا

درِّب ولدَكَ علَىٰ أَنْ يكونَ رجلَ البيتِ، فإنَّكَ لَا تدرِي متَىٰ تحتاجُ إليهِ، وإيَّاكَ أَن تكسرَ شخصيَّتَهُ أمامَ أخواتِهِ، فإنَّ هذَا مِن أكبرِ فسادِ البيوتِ.

احذَرُوا منَ التفريقِ بينَ الأبناءِ فِي المعاملةِ، فإنَّ هذَا مِن أعظمِ أسبابِ القطيعةِ والشحناءِ الَّتِي يزرَعُهَا الوالدُ الظالمُ، ويجنيهَا الأبناءُ مِن بعدِهِ.

استَوصُوا بأَخَواتِكُم وإخوانِكُم خيرًا، فإِنَّ الأخَ عدةٌ عندَ الحاجةِ والشِّدَّةِ، كمَا قالَ القائلُ:

أَخَـاكَ أَخَـاكَ إِنَّ مَـن لَا أَخَـا لَـهُ كَـسَاعٍ إِلَـىٰ الهـيجَا بِغَيـرِ سِـلَاحِ

قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بِرَّ أَمَّكَ وأبَاكَ، وأختكَ وأخاكَ، ثمَّ أدنَاكَ أدنَاكَ**»(١).

فعلَىٰ الرجلِ الكريمِ أَن يُجلَّ أشقَّاءَهُ وإخوانَهُ، وأَن يكونَ عونًا لَهُمْ علَىٰ حوادثِ الزمانِ وتقلباتِهِ.

فقَدْ يرحلُ والداكَ عنِ الدنيَا فتحتاجُ إليكَ أخواتُكَ ليجتمعْنَ فِي بيتِكَ، لِيَجمعْنَ شتاتَ أفكارِهِنَّ، وحزينَ مشاعرِهِنَّ، فلَا تَضِقْ بهِنَّ ذرعًا وكأنهنَّ سيأخذنَ مِن مالِكَ، ولَا تتركْ لزوجَتِكَ مجالًا أَن تذكرهنَّ بكلمةٍ، والأجملُ أَن تعرفَ امرأتُكَ أَنَّ مفتاحَ قلبِكَ هوَ أخواتُكَ، وسترَىٰ معَ الأيامِ كيفَ تجتمعُ لكَ السعادةُ، وترَىٰ بركةَ ذلكَ فِي أبنائِكَ.

وقَد تأتيكَ أخيَّتُكَ مطلقةً، فلَا تستثقِلْ وجودَهَا فِي بيتِكَ، أَو تذلَّهَا، أَو تجعلْهَا خادمةً لزوجِكَ وأبنائِكَ، فإِنَّ هذَا ليسَ مِن شيمِ الكرامِ، وعليكَ بالوفاءِ، فإِنَّهُ مَا اتَّصَفَ بِهِ إِلَّا شريفٌ، وإِن كانَ وجودُهُ عزيزًا.

اشْـدُدْ يَـدَيكَ بِمَـنْ بَلَـوْتَ وَفَـاءَهُ إِنَّ الـوَفَاءَ مِـنَ الـرِّجَالِ عَزِيـزُ

استَوصُوا بالنساءِ خيرًا فإنهنَّ أسيراتٌ عندَكُم، فمَنْ كانَ لَهُ زوجةٌ فليكرِمْهَا، ولْيعاشِرْهَا بالمعروفِ والحسنَىٰ، وليعامِلْهَا كمَا يحبُّ أَنْ يعامِلَ زوجُ ابنتِهِ ابنتَهُ، فلَا يعتدِي عليهَا بالفُحشِ منَ الأقوالِ والأفعالِ، ولَا يكسِرْ شخصيَّتَهَا أمامَ أولادِهِ، لأَنَّهَا هيَ الَّتِي تربِّي وتقومُ علَىٰ خِدمَتِهِم علَىٰ الحقيقةِ، ولَا يكلِّفْهَا مَا لَا تطيقُ مِن نفقاتِ

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣١٥٤).

البيتِ، فإنَّ النفقةَ واجبةٌ علىٰ الزوجِ، ولَا يعامِلْهَا وكأنَّهَا أجيرٌ مستهلَكٌ، تتنقلُ بأولادِهَا بينَ المدارسِ والأسواقِ والمستشفياتِ، وهوَ لَا شغلَ لَهُ غيرَ التسكُّعِ فِي المجالسِ الملهيةِ، فإنَّ هذَا ليسَ مِن إحسانِ العشرةِ، وسبيلٌ إلَىٰ سقوطِ الهيبةِ، وهوَ الَّذِي جعلَ كثيرًا منَ النساءِ تتعاملُ معَ زوجِهَا بنديَّةٍ وكأنَّهَا رجلٌ لرجلٍ، فضلًا عمَّن يعمَدُ إلَىٰ أخذِ القروضِ باسمِهَا وكأنَّهَا شركةٌ تدرُّ عليهِ أرباحًا، وهذَا ممَّا يجعلُ الحياةَ جافَّةً ماديَّةً.

تجنَّبوا فضولَ الكلامِ، فإنَّ اللسانَ كالسَّبُعِ العقورِ، إنْ لَمْ توثِقْهُ عدَا عليكَ فقتلَكَ.

واحذَرُوا آفاتِ اللسانِ منَ الغيبةِ والنميمةِ والكذبِ، فإنَّهَا مِن كبائرِ الذنوبِ، فقَدْ جاءَ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «**لمَّا عُرِجَ بِي مرَرْتُ بقومٍ لَهُمْ أظفارٌ مِن نُحاسٍ يخمِشُونَ وجوهَهُم وصدورَهُم، فقلتُ: مَن هؤلاءِ يَا جبريلُ؟! قالَ: هؤلاءِ الَّذِينَ يأكلونَ لحومَ الناسِ ويقعونَ فِي أعراضِهِم**»(١).

ومرَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرينِ يعذَّبانِ فقالَ: «**أمَّا الأولُ فكانَ لَا يستترُ مِن بولِهِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ يمشِي بالنميمةِ**»(٢).

ورأَىٰ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا يعذَّبُ فِي قبرِهِ، يُشرشَرُ شدقُهُ إلَىٰ قفاهُ، ومنخرُهُ إلَىٰ قفاهُ، فسألَ عنْهُ، فقيلَ لَهُ: «**هذَا الرجلُ يكذبُ الكذبةَ فتبلغُ الآفاقَ**»(٣).

فاحذَرُوا آفاتِ اللسانِ، وعليكُم بقلَّةِ الكلامِ إلَّا كلامًا بخيرٍ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيرًا أَو لِيَصمُتْ**»(٤).

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٩).

(٢) رواه البخاري (٢٠٩)، ومسلم (٤٣٩).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

وعليكُم برحمةِ الخلقِ منَ الإنسِ والحيوانِ، والإحسانِ إِلَىٰ الضعيفِ، ومعرفةِ حقوقِ الجارِ، ونصرةِ المظلومِ، وفكِّ كربةِ المكروبِ مَن تعرفُ منْهُم ومَن لَا تعرفُ، فإِنَّ هذهِ منَ الأخلاقِ الَّتِي دلَّتْ عليهَا الشريعةُ، وحثَّتْ علَىٰ التحلِّي بِهَا.

وعلَىٰ المرأةِ المسلمةِ أَنْ تتَّقِي اللهَ بفعلِ الطاعاتِ واجتنابِ المعاصِي، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا معشرَ النساءِ، تصدَّقنَ فإنِّي رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ**»(١).

ولْتحذَرْ أَن تقتحمَ أبوابَ الفتنِ والشبهاتِ، فقَدْ كَثُرَتْ أسبابُ الفسادِ، فإِنْ لَمْ تحذَرْهَا فحريٌّ بِهَا أَن تقعَ فيهَا، فقَدْ غزَانَا أهلُ الشرِّ والانحرافِ، ولَمْ يجِدُوا بابًا إِذَا اخترقُوهُ فتحُوا بعدَهُ أبوابَ الشرِّ، وهُدِمَتْ حصونُ الفضيلةِ، كالمرأةِ، فوجَّهُوا سهامَهُم نحوَهَا، وكادُوا لهَا بكلِّ سَبيلٍ.

فقَدْ تسلَّلُوا إِلَىٰ لباسِ المرأةِ بالحيلِ والألاعيبِ، حتَّىٰ جعلوهُ اسمًا علَىٰ غيرِ مسمًّىٰ، ودخلُوا عليهَا باسمِ التجميلِ حتَّىٰ غيَّرَتْ خلقَ اللهِ الحسنَ لغيرِ ضرورةٍ ولَا حاجةٍ، وقَد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعَنَ اللهُ الواشماتِ والمستوشماتِ، المتفلجاتِ للحُسْنِ، المغيِّراتِ لخلقِ اللهِ**»(٢).

وفتحُوا لهَا أبوابَ الاختلاطِ بالرجالِ حتَّىٰ عادَتِ المرأةُ رجلًا فِي ثوبِ امرأةٍ، وفُتِحَتْ عليهَا أبوابُ الفسادِ.

وَأَكثَرُ مَا يَكُونُ الشَّوقُ يَومًا ... إِذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

وعلَىٰ المرأةِ الصالحةِ أَن تحذَرَ كلَّ الحذَرِ أَن تعودَ وضيعةً بعدَ رفعَتِهَا، وذليلةً بعْدَ عِزِّهَا، وذلكَ باقتحامِهَا أسوارَ الفضيلةِ، والرضَا لنفسِهَا أَن تكونَ سلعةً تُقلِّبُهَا الأيدِي العابثةُ بالمعاكساتِ أَوِ الخيانةِ وسلوكِ الفاحشةِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

وعلَىٰ المرأةِ الصالحةِ أَن تتَّقِي اللهَ فِي زوجِهَا، وأَن تعلَمَ أَنَّ طاعتَهُ فِي غيرِ معصيةٍ قربةٌ إِلَىٰ اللهِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أحَدًا أَن يسجدَ لأحدٍ، لأمرتُ المرأةَ أَن تسجدَ لزوجِهَا**»(١)، وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لامرأةٍ يوصيهَا فِي زوجِهَا: «**هوَ جنتُّكِ ونارُكِ**»(٢).

وعليهَا أَن تتَّقِي اللهَ فِي أبنائِهَا، فإِنَّمَا قوامُ أخلاقِ الأبناءِ علَىٰ أيدِي الأمهاتِ.

هذَا وصلُّوا وسلِّمُوا علَىٰ خيرِ الورَىٰ، ومعلِّمِ الناسِ الخيرَ، محمدٍ المجتبَىٰ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (١٩٩٨).

(٢) رواه أحمد، وحسَّنه الألباني في «آداب الزفاف» (ص٢٨٥).

(١٠٠) مكارمُ الأخلاقِ
خطبةٌ جامعةٌ ليومِ العيدِ

الحمدُ للهِ المحمودِ علَىٰ كلِّ حالٍ، ونعوذُ باللهِ مِن حالِ أهلِ الضلالِ، وأشهدُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وحدَهُ لَا شريكَ لَهُ الكبيرُ المتعالُ، وأشهدُ أنَّ نبيَّنَا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، جبلَهُ ربُّهُ علَىٰ جميلِ الفِعالِ وكريمِ الخصالِ، صلَّىٰ اللهُ وسلم عليهِ وعلَىٰ صحبهِ والآلِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ اللهَ تعالَىٰ لعظيمِ جودِهِ وإحسانِهِ تفضَّلَ علَىٰ عبادِهِ -وهوَ غنيٌّ عنْهُم- بأنواعِ المننِ والكراماتِ، ومِن ذلكَ أَنْ أمرَهُم بمكارمِ الأخلاقِ، ورغَّبَهُم بِمَا يُصلِحُ أمرَ دينِهِم ودنيَاهُم، ورتَّبَ علَىٰ ذلكَ الأجرَ العظيمَ، والثوابَ الجسيمَ.

فاستمسِكُوا بِهَا عبادَ اللهِ، وتزوَّدُوا منْهَا فإنَّهَا خيرُ زادٍ، فإنَّ مِن صفاتِ المؤمنينَ أنَّهُم بِمَا ينفعُهُم آخذونَ، وبِمَا يُرضِي اللهَ عاملُونَ، ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ**﴾(١).

كمَا أنَّ الاستكثارَ منَ الأخلاقِ الحسنةِ سببٌ للنجاةِ منَ الفتنِ والشرورِ، ومِن صنائعِ المعروفِ الَّتِي تَقِي صاحبَهَا منَ المهالِكِ، فلمَّا شكَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِن أمرٍ ألَمَّ بِهِ وأخافَهُ؛ حتَّىٰ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ خشيتُ علَىٰ نفسِي**»، قالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كلَّا واللهِ مَا يخزيكَ اللهُ أبدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحمَ، وتصدُقُ

(١) المؤمنون:٦١.

الحديثَ، وتحملُ الكلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتُعينُ علَىٰ نوائبِ الحقِّ»[(١)]، فذكَرَتْ مِنْ خصالِهِ الصالحةِ مَا يكونُ سببًا فِي نجاتِهِ.

وإنَّنَا لَفِي زمنٍ نحنُ أحوجُ مَا نكونُ فيهِ للتمسُّكِ بهذِهِ الأخلاقِ، نظرًا لِمَا بدَا مِن تغيُّرِ الأحوالِ، وانحسارِ كثيرٍ منَ الآمالِ.

وقَدْ جاءَتِ السنَّةُ النبويَّةُ، والأخبارُ الواردةُ عَن رسولِ الهدَىٰ خيرِ البريَّةِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بذكْرِ كثيرٍ مِنْ هذهِ الأخلاقِ الجميلةِ، والصفاتِ النبيلةِ، والسعيدُ حقَّ السعادةِ مَن وفَّقَهُ اللهُ لسلوكِ طريقِهِ واتِّبَاعِ آثارِهِ، واهتدَىٰ بأقوالِهِ وأفعالِهِ.

عبادَ اللهِ:

عليكُمْ بطيبِ الكلامِ وطلاقةِ الوجهِ عندَ اللقاءِ، فمَا ألانَ القلوبَ وأزالَ الأضغانَ مثلُ ذلكَ، وقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ**»[(٢)]، وقالَ: «**تبسُّمُكَ فِي وجهِ أخيكَ صدقةٌ**»[(٣)]، وقالَ: «**لَا تحقِرَنَّ منَ المَعروفِ شَيئًا، ولَوْ أَن تلقَىٰ أخاكَ بوَجهٍ طَلَقٍ**»[(٤)]، وقالَ: «**اتَّقُوا النارَ ولَوْ بشِقِّ تمرةٍ، فمَنْ لَم يجِدْ فبكلمةٍ طيبةٍ**»[(٥)].

وجاءَ رجلٌ إِلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقالَ: «أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ: **إيمانٌ باللهِ، وجهادٌ فِي سبيلِهِ، وحجٌّ مبرورٌ**، فلمَّا ولَّىٰ الرجلُ قالَ: **وأهونُ عليكَ مِن ذلكَ: إطعامُ الطعامِ ولينُ الكلامِ وحسنُ الخُلُقِ**»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٠٨).

(٤) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٥) رواه البخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (١٠١٦).

(٦) رواه أحمد، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٠٧).

واعلَمْ أنَّ أولَىٰ الناسِ بلطفِكَ أهلُ بيتِكَ زوجُكَ وأبناؤُكَ.

ولْيحذَرِ المرءُ أَنْ يكونَ جلفًا غليظًا فاحشًا فِي كلامِهِ بدعوَىٰ أَنَّهُ لَا يهابُ أحدًا، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ شرَّ الناسِ مَن تركَهُ الناسُ اتِّقَاءَ فُحشِهِ**»(١).

تدرَّبُوا علَىٰ الرفقِ فِي مختلفِ شؤونِ حياتِكُم فإنَّهُ مِن أعظمِ أبوابِ الخيرِ، قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أُعطِيَ حظَّهُ منَ الرفقِ فقَدْ أُعطِيَ حظَّهُ منَ الخيرِ، ومَن حُرِمَ حظَّهُ منَ الرفقِ فقَدْ حُرِمَ حظَّهُ منَ الخيرِ**»(٢)، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يُحرَمِ الرفقَ يُحرَمِ الخَيرَ كلَّهُ**»(٣)، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذَا أرادَ اللهُ بأهلِ بيتٍ خيرًا أدخلَ عليهمُ الرفقَ**»(٤).

فالرفقُ خيرٌ للمرءِ فِي أمرِ دِينِهِ ودنياهُ، وحتَّىٰ فِي معاملةِ المرءِ نفسَهُ، ويتأكَّدُ ذلكَ فِي معاشرةِ مَن لَا بدَّ للإنسانِ مِن معاشرتِهِ كزوجَتِهِ وولدِهِ وخادِمِهِ.

تمسَّكُوا ببرِّ الوالدينِ فإنَّهُ مِن أعظمِ الواجباتِ، فعَن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سألتُ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ العملِ أحبُّ إلَىٰ اللهِ تعالَىٰ؟ قالَ: **الصلاةُ علَىٰ وقتِهَا**، قلتُ: ثمَّ أيُّ؟ قالَ: **برُّ الوالدينِ**، قلتُ: ثمَّ أيُّ؟ قالَ: **الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ**»(٥).

وجاءَ رجلٌ إلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «يَا رسولَ اللهِ، مَن أحقُّ الناسِ بحُسنِ صحابَتِي؟ قالَ: **أمُّكَ**، قالَ: ثمَّ مَنْ؟ قالَ: **أمُّكَ**، قالَ: ثمَّ مَنْ؟ قالَ: **أمُّكَ**، قالَ: ثمَّ مَنْ؟ قالَ: **أبُوكَ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٦٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٦٩).

(٥) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٦) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

وقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رَغِمَ أنْفُ، ثمَّ رَغِمَ أنفُ، ثمَّ رَغِمَ أنفُ مَنْ أدركَ أبوَيهِ عندَ الكبرِ، أحدُهُمَا أَو كلاهُمَا، فلَمْ يَدخُلِ الجنَّةَ**»(١).

وجاءَ رجلٌ إلَىٰ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاستأذَنَهُ فِي الجهادِ فقالَ: «**أحيٌّ والداكَ؟** قالَ: نعَمْ، قالَ: **ففِيهِمَا فجاهِدْ**»(٢).

عليكُمْ بصلةِ الأرحامِ، فقَد قالَ رسولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الرحمُ مُعلَّقَةٌ بالعرشِ تقولُ: مَن وَصَلَنِي وصلَهُ اللهُ، ومَن قطعَنِي، قطعَهُ اللهُ**»(٣)، وقالَ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يدخلِ الجنَّةَ قاطعٌ**»(٤).

وليسَ الوصلُ مِن بابِ المكافأةِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليسَ الواصلُ بالمكافِئِ، ولكنَّ الواصلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رحمُهُ وصلَهَا**»(٥).

اجتهِدُوا فِي قضاءِ حوائجِ المسلمينَ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**المسلمُ أخُو المسلمِ لَا يظلمُهُ ولَا يُسلِمُهُ، ومَن كانَ فِي حاجةِ أخيهِ كانَ اللهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فرَّجَ عَنْ مسلمٍ كُربَةً فرَّجَ اللهُ عنْهُ بِهَا كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَنْ سَتَرَ مسلمًا سترَهُ اللهُ يومَ القيامةِ**»(٦).

ويدخلُ فِي ذلكَ الشفاعةُ لِمَنِ احتاجَ إليهَا، وقَدْ كانَ النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يغرسُ فِي أصحابِهِ ذلكَ الخُلُقَ النبيلَ حتَّىٰ يعتادُوهُ، فعَنْ أَبِي موسَىٰ الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥١).

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٥).

(٤) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٥) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٦) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٣٣).

«كانَ النبيُّ ﷺ إِذَا أتاهُ طالبُ حاجةٍ أقبلَ علَىٰ جلسائِهِ فقالَ: **اشفَعُوا تؤجَرُوا ويقضِي اللهُ علَىٰ لسانِ نبيِّهِ مَا أحبَّ**»(١).

وأبخلُ الناسِ مَن بَخِلَ بجاهِهِ عمَّنِ احتاجَ إليهِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾(٢).

علَىٰ أنَّهُ لَا تجوزُ الشفاعةُ إِذَا ترتَّبَ عليهَا أخذُ حقِّ مسلمٍ، أَو تقديمُ غيرِ مستحقٍّ علَىٰ مستحقٍّ.

وعليكُمْ بسترِ عوراتِ المسلمينَ، قالَ ﷺ: «**لَا يسترُ عبدٌ عبدًا فِي الدنيَا إِلَّا سترَهُ اللهُ يومَ القيامةِ**»(٣)، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٤).

استوَصُوا بالنساءِ خيرًا فإنهنَّ وصيَّةُ نبيِّكُمُ الكريمِ، قالَ ﷺ: «**استوصُوا بالنساءِ خيرًا، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِن ضلعٍ، وإنَّ أعوجَ مَا فِي الضلعِ أعلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تقيمُهُ كسَرْتَهُ، وإنْ تركْتَهُ، لَمْ يزَلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنساءِ**»(٥)، وفِي روايةٍ: «**المرأةُ كالضلعِ إنْ أقمتَهَا كسَرْتَهَا، وإنِ استمتَعْتَ بِهَا، استمتَعْتَ وفيهَا عوجٌ**»(٦).

وقالَ ﷺ: «**إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِن ضلعٍ، لَنْ تستقيمَ لكَ علَىٰ طريقةٍ، فإنِ استمتَعْتَ بِهَا، استمتَعْتَ بِهَا وفيهَا عوجٌ، وإنْ ذهبتَ تقيمَهَا كسَرْتَهَا، وكسرُهَا**

(١) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٢) النساء: ٨٥.

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٠).

(٤) النور: ١٩.

(٥) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٦) رواه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨).

طلاقَهَا»(١).

وقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يفرَكُ** -أَي: لَا يبغضُ- **مؤمنٌ مؤمنةً، إِنْ كَرِهَ منْهَا خلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخرَ**»(٢).

وعَنْ مُعَاوِيةَ بنِ حيدةَ رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ قالَ: «قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، مَا حقُّ زوجةِ أحدِنَا عليهِ؟ قالَ: **أَن تطعمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وتكسُوهَا إِذَا اكتسَيتَ ولَا تضْرِبِ الوجهَ، ولَا تُقَبِّحْ، ولَا تهجُرْ إِلَّا فِي البيتِ**»(٣)، لَا تُقَبِّحْ: أَي: لَا تَقُلْ قَبَّحَكِ اللهُ.

وقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهُمْ خُلُقًا، وخيارُكُمْ خيارُكُمْ لنسائِهِمْ**»(٤).

وعلَىٰ المرأةِ الصالحةِ أَن تعرفَ عظيمَ حقِّ زوجِهَا عليهَا: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ كُنتُ آمرًا أحدًا أَنْ يسجدَ لأحدٍ لأمرْتُ المرأةَ أَن تسجدَ لزوجِهَا**»(٥)، وقالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا تؤذِي امرأةٌ زوجَهَا فِي الدنيَا إِلَّا قالَتْ زوجتُهُ منَ الحُورِ العينِ: لَا تُؤذيهِ قاتَلَكِ اللهُ، فإِنَّمَا هوَ عندَكِ دخيلٌ يُوشِكُ أَن يفارِقَكِ إلينَا**»(٦).

كونُوا رحماءَ، فإِنَّ الرحمةَ مِنْ صفاتِ الناجينَ المفلحينَ حينَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ، قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الرَّاحمونَ يرحمُهُمُ الرَّحمنُ، ارحمُوا مَن فِي الأرضِ يرحَمْكُم مَن فِي السَّماءِ**»(٧)، ورُفِعَ إِلَىٰ رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صبيٌّ ونفسُهُ تَخرُجُ،

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٨).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٢٩).

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٩٢٣).

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٢٥٥).

(٦) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٩٢).

(٧) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

ففاضَتْ عيناهُ، فقالَ لَهُ سعدُ بنُ عبادةَ: «يَا رسولَ اللهِ مَا هذَا؟ فقالَ: **هذهِ رحمةٌ جعلَهَا اللهُ فِي قلوبِ عبادِهِ، وإنَّمَا يرحمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرحماءَ**»(١)، وقالَ ﷺ: «**مَنْ لَا يَرحمُ الناسَ لَا يرحمُهُ اللهُ**»(٢).

احذَرُوا الظلمَ فإنَّ عواقبَهُ وخيمَةٌ، قالَ ﷺ: «**اتَّقُوا الظلمَ فإنَّ الظلمَ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ**»(٣)، وقالَ: «**مَن كانَتْ عندَهُ مظلمةٌ لأخيهِ، مِن عرضِهِ أَو مِن شيءٍ، فلْيتحَلَّلْهُ منْهُ اليومَ قبلَ أَلَّا يكونَ دينارٌ ولَا درهمٌ، إِنْ كانَ لَهُ عملٌ صالحٌ أخذَ منْهُ بقدرِ مظلمَتِهِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسناتٌ أُخِذَ مِن سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فحملَ عَلَيهِ**»(٤).

وقالَ ﷺ: «**لتؤدنَّ الحقوقَ إِلَىٰ أهلِهَا يومَ القيامةِ حتَّىٰ يُقادَ للشاةِ الجلحاءِ مِنَ الشاةِ القرناءِ**»(٥)، وقالَ: «**مَنِ اقتطَعَ حقَّ امرئٍ مسلمٍ بيمينِهِ فقَدْ أوجبَ اللهُ لَهُ النارَ، وحرَّمَ عليهِ الجنةَ**، فقالَ رجلٌ: وَإِنْ كانَ شيئًا يسيرًا يَا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: **وَإِنْ قضيبًا مِنْ أراكٍ**»(٦).

وقالَ ﷺ: «**أتدرونَ مَا المفلسُ؟** قالُوا: المفلسُ فينَا مَنْ لَا درهمَ لَهُ ولَا متاعَ. فقالَ: **إِنَّ المفلسَ مِن أمَّتِي مَن يأتِي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتِي وقَدْ شتَمَ هذَا، وقذفَ هذَا وأكلَ مالَ هذَا، وسفَكَ دمَ هذَا، وضربَ هذَا، فيُعطَىٰ هذَا مِنْ حسناتِهِ، وهذَا مِنْ حسناتِهِ، فإِنْ فَنِيَتْ حسناتُهُ قبلَ أَن يُقضَىٰ مَا عليهِ، أُخِذَ مِن**

(١) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٢) رواه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).
(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٩).
(٥) رواه مسلم (٢٥٨٢).
(٦) رواه مسلم (١٣٧).

خطايَاهُم فطُرِحَتْ عليهِ، ثمَّ طُرِحَ فِي النار»(١)

وعلَىٰ المسلمِ أَنْ يعرفَ مَا أوجبَ اللهُ عليهِ منَ الحقِّ لجارِهِ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا زالَ جبريلُ يوصينِي بالجارِ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ سيورثُهُ**»(٢)، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذرٍّ: «**يَا أبَا ذرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مرقةً، فأكْثِرْ ماءَهَا، وتعاهَدْ جيرانَكَ**»(٣).

ويجِبُ كفُّ الأذَىٰ عنِ الجِيرَانِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ لَا يؤمنُ، واللهِ لَا يؤمنُ، واللهِ لَا يؤمنُ**، قيلَ: مَن يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: **الَّذِي: لَا يأمَنُ جَارُهُ بوائقَهُ**»(٤)، وفِي روايةٍ: «**لَا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ لَا يأمنُ جارُهُ بوائِقَهُ**»(٥)، والبَوَائقُ: هيَ الغوائلُ والشرورُ، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فلَا يؤذِ جارَهُ**»(٦).

استَمْسكُوا بالحياءِ فإنَّهُ مِن خصالِ الإيمانِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا كانَ الحياءُ فِي شيءٍ إلَّا زانَهُ، ولَا كانَ الفحشُ فِي شيءٍ إلَّا شانَهُ**»(٧).

ومرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجلٍ يعاتِبُ أخاهُ فِي الحياءِ، فقالَ: «**دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ**»(٨)، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحياءُ لَا يأتِي إلَّا بخيرٍ**»(٩)، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٥) رواه مسلم (٤٦).

(٦) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٧) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٣٥).

(٨) رواه البخاري (٦١١٨)، ومسلم (٣٦).

(٩) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

«**الحياءُ مِنَ الإيمانِ، والإيمانُ فِي الجنَّةِ، والبذاءُ مِنَ الجفاءِ، والجفاءُ فِي النارِ**»(١).

عليكُمْ بالصدقِ فإنَّهُ منجاةٌ فِي الدنيَا والآخرةِ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الصدقَ يهدِي إلَىٰ البرِّ وإنَّ البرَّ، يهدِي إلَىٰ الجنَّةِ، وإنَّ الرجلَ ليصدُقُ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا، وإنَّ الكذبَ يهدِي إلَىٰ الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدِي إلَىٰ النارِ، وإنَّ الرجلَ ليكذِبُ حتَّىٰ يُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّابًا**»(٢).

ولْيَحْذَرِ المرءُ أَنْ يكونَ ذَا وجهينِ، فقَدْ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَ ذَا وجهينِ فِي الدنيَا؛ كانَ لَهُ لسانانِ يومَ القيامةِ مِن نارٍ**»(٣).

واعلَمُوا أنَّ مِنْ أعظمِ الكذبِ شهادةَ الزورِ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألَا أنبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ؟** ثلاثًا، قُلنَا: بلَىٰ يَا رسولَ اللهِ، قالَ: **الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدينِ**»، **وكانَ مُتَّكِئًا فجلسَ، فقالَ**: «**ألَا وقولُ الزورِ وشهادةُ الزورِ**. فمَا زالَ يُكرِّرُهَا حتَّىٰ قُلنَا: ليتَهُ سَكتَ»(٤) -أَي: شفقةً عليهِ-.

وعليكُمْ بالوفاءِ بالعهودِ وإنجازِ الوعودِ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ خيارَ عبادِ اللهِ الموفونَ المطيبونَ**»(٥)، وحذَّرَ مِنْ إخلافِ الوعدِ فقالَ: «**أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ منافقًا خالصًا، ومَن كانَتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانَتْ فيهِ خصلةٌ مِنَ النفاقِ حتَّىٰ يدَعَهَا: إذَا اؤتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا عاهدَ غدرَ، وإذَا خاصَمَ فجَرَ**»(٦).

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٤٩).

(٤) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٥) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٦٢).

(٦) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

وعلَىٰ المرءِ المسلمِ أَنْ يتحلَّىٰ بالأمانةِ فِي جميعِ أحوالِهِ فِي أقوالِهِ وأفعالِهِ ومعاملاتِهِ، فقَدْ قالَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا إيمانَ لِمَنْ لَا أمانةَ لَهُ، ولَا دينَ لِمَنْ لَا عهدَ لَهُ»(١).

عبادَ اللهِ:

وينبغِي لِمَنْ فتحَ اللهُ لَهُ بابَ خيرٍ أَن يعجِّلَ إليهِ، وإذَا وفَّقَهُ لعملٍ صالحٍ أَن يلازمَهُ، وأَن يجاهدَ فِي التمسُّكِ بهِ، ولَا يتراجَعْ عَنْ عملِهِ الصالحِ المحمودِ إلَىٰ ضِدِّهِ فيصدقُ عليهِ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾(٢).

❊❊❊

آخر كتاب: «منبريات»

الحمدُ للهِ الَّذِي منَّ علَيَّ بإتمامِهِ، وأسأَلُهُ سبحانَهُ أَن يجعلَهُ مباركًا، وأَنْ ينفعَ بِهِ عبادَهُ المسلمينَ، وأَن يثيبَني عليهِ يومَ الدينِ، وقَدْ كانَ الفراغُ منْهُ فِي يومِ العشرينَ مِن شهرِ جمادَىٰ الآخرةِ عام (١٤٣٥هـ)، ثمَّ أعدْتُ النظرَ فيهِ، وزِدْتُ عليهِ فِي يومِ الرابعِ مِن شهرِ ذِي الحجَّةِ عام (١٤٤٢هـ).

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علَىٰ نبيِّنا محمَّدٍ وعلَىٰ آلِهِ وصحبهِ أجمعينَ.

❊❊❊

---

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٧٩).

(٢) النحل:٩٢.

الفِهرِسُ

فهرس الموضوعات

مقدمة المؤلف ٥
(١) الوفاءُ ٧
(٢) العتابُ ١٦
(٣) آدابُ المجالسةِ ٢١
(٤) حسنُ الجوارِ ٢٨
(٥) حسنُ الظنِّ ٣٦
(٦) الاختلاط ٤٣
(٧) أنقذُوا بناتكُم ٥٧
(٨) حربٌ علَىٰ الفضيلةِ ٦٧
(٩) السجينةُ ٧٦
(١٠) رسالةٌ إِلَىٰ الشرفاءِ ٩٣
(١١) فتنةُ السائقينَ فِي البيوتِ ١٠٤
(١٢) عيدُ الحبِّ ١١٦
(١٣) البحثُ عَن رجلٍ ١٢٤
(١٤) الأدبُ معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٣٣
(١٥) فضائلُ الصحابةِ ١٤١

(١٦) أهوالُ القيامةِ.. ١٥١
(١٧) أينَ أنتَ غدًا؟ ١٦٥
(١٨) حكمةُ الوقوعِ فِي الذنوبِ ١٨٠
(١٩) كفَىٰ بالموتِ واعظًا ١٨٨
(٢٠) الخوفُ منَ اللهِ.. ١٩٨
(٢١) مراقبةُ اللهِ.. ٢٠٥
(٢٢) أمراضُ القلوبِ ٢١٥
(٢٣) حسنُ الخلقِ ٢٢٦
(٢٤) لزومُ الصدقِ ومجانبةُ الكذبِ ٢٣٥
(٢٥) التحصُّنُ بالأذكارِ ٢٤٢
(٢٦) تواضعُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ٢٥٣
(٢٧) حادثةُ الإفكِ.. ٢٦٠
(٢٨) رحمةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ٢٧٠
(٢٩) رحيلُ أهلِ السُّنَّةِ ٢٧٩
(٣٠) هذِهِ دعوتُنَا.. ٢٨٨
(٣١) فقدُ الأحبَّةِ.. ٣٠٠
(٣٢) فتنةُ الْمَسيحِ الدجالِ.. ٣٠٩
(٣٣) تعظيمُ القرآنِ ٣١٨
(٣٤) التوكلُ علَىٰ اللهِ ٣٢٨

(٣٥) الإخلاصُ ٣٣٦
(٣٦) الرياءُ عدوُّ الإخلاصِ ٣٤٣
(٣٧) النعمةُ الكبرىٰ ٣٥١
(٣٨) فضلُ التوحيدِ ٣٦٨
(٣٩) تحقيقُ التوحيدِ ٣٧٧
(٤٠) الغلوُّ داعيةُ الشركِ ٣٨٦
(٤١) التحذيرُ منَ الكهَّانِ وأعمالِهِم ٣٩٥
(٤٢) شروطُ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وفضائلُهَا ٤٠٤
(٤٣) أصولُ الإيمانِ ٤١٣
(٤٤) دعوةُ التوحيدِ وسهامُ الحاقدينَ ٤٢١
(٤٥) دعاةُ الفتنةِ ٤٣٠
(٤٦) الخوارجُ الوجهُ الآخرُ ٤٤١
(٤٧) محنةُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ ٤٥٧
(٤٨) أحكامُ الْمَسحِ علَىٰ الخفينِ ٤٧٠
(٤٩) طهارةُ الْمَريضِ وصلاتُهُ ٤٧٥
(٥٠) الصلاةُ ٤٨٢
(٥١) مِن أحكامِ العِيدَيْنِ ٤٩١
(٥٢) أحكامُ الجنائزِ والإحدادِ ٤٩٩
(٥٣) مِن أحكامِ الزكاةِ ٥١٣

(٥٤) رمضَانُ شهرُ الخيرِ ٥٢٢
(٥٥) العَشرُ الأواخِرُ من رمضَانَ ٥٣٢
(٥٦) الْمُبادرةُ إلىٰ الحَجِّ ٥٤١
(٥٧) تنبيهاتٌ للحُجاجِ ٥٥٠
(٥٨) فَضلُ عَشرِ ذِي الحجَّةِ وأحكامُ الأضحيَةِ ٥٦٠
(٥٩) الْمُحرماتُ فِي النكاحِ وأحكامُ العِدَّةِ ٥٦٩
(٦٠) حُسنُ معَاشرةِ الزَّوجاتِ ٥٧٩
(٦١) حقُّ الزوجِ علَىٰ زَوجتِهِ ٥٨٩
(٦٢) مِن أحكامِ الطَّلاقِ ٥٩٨
(٦٣) أَثرُ الْمَرأةِ الصَّالحةِ في نهضةِ الأُمَّةِ ٦٠٩
(٦٤) الاهتمامُ بتربيةِ الأَبناءِ ٦١٧
(٦٥) مِن آدابِ الطعامِ ٦٢٥
(٦٦) صفحَاتٌ مِن حياةِ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ٦٣٣
(٦٧) صفحَاتٌ مِن حياةِ هارُونَ الرَّشِيدِ ٦٤٣
(٦٨) غزوةُ بَدرٍ ٦٥٠
(٦٩) غزوةُ أحُدٍ ٦٦٢
(٧٠) صلحُ الحُديبيَةِ ٦٧٢
(٧١) غزوة خيبر ٦٨١
(٧٢) فتحُ مكَّةَ ٦٨٩

(٧٣) غزوَةُ حُنَين ٦٩٩
(٧٤) وفَاةُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ٧١٣
(٧٥) معركةُ اليمامةِ ٧٢٤
(٧٦) معركةُ اليرموكِ ٧٣٣
(٧٧) معركةُ القادسيَّةِ ٧٤٤
(٧٨) وقعةُ شَقْحَب ٧٥٤
(٧٩) سقوطُ الدولةِ العباسيَّةِ ٧٦٥
(٨٠) معاويةُ بنُ أبِي سفيانَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وشبهاتُ المغرضينَ ٧٧٦
(٨١) علاماتُ الساعةِ ٧٨٨
(٨٢) ظهورُ الفتنِ ٧٩٧
(٨٣) الفتنُ الصمَّاءُ ٨٠٨
(٨٤) تغيُّرُ الزَّمانِ واختِلالُ الْمَوازينِ ٨١٧
(٨٥) العافيةُ والسَّكينةُ..نِعمٌ لا يُغفلُ عنهَا ٨٢٥
(٨٦) مِن مواعظِ أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ٨٣٢
(٨٧) مِن مواعظِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ٨٣٨
(٨٨) مِن مواعظِ عليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ٨٤٧
(٨٩) مِن مواعظِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ٨٥٧
(٩٠) مِن مواعظِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا ٨٦٤
(٩١) وصيةٌ نافعةٌ ٨٧١

(٩٢) أسبابُ الْمَغفرةِ ٨٧٩

(٩٣) أثرُ الْمَوعظةِ ٨٨٧

(٩٤) مِن عِبَرِ الزمانِ ٨٩٦

(٩٥) أحكامُ النظرِ ٩٠١

(٩٦) فضلُ البناتِ ٩٠٨

(٩٧) الطريقُ إلَىٰ محبَّةِ اللهِ.. ٩١٦

(٩٨) المَواطِنُ الفاضِلَةُ للدُّعاءِ.. ٩٢٤

(٩٩) خطبةٌ جامعةٌ ليومِ العيدِ ٩٣١

(١٠٠) مكارمُ الأخلاقِ - خطبةٌ جامعةٌ ليومِ العيدِ.. ٩٤٣

فهرس الموضوعات ٩٥٥

❀❀❀

* عنوان المؤلف

www.salemalajmi.com

Email:alajmi250@hotmail.com

@dr_salem_alajmi